المنار

١٣١٥



مجلة علمية أدبية تهذيبية ملية اخبارية شهرية

« تصدر في كل شهر عربي مرة »

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد العاشر

قيمة الاشتراك عن سنة ستون قرشاً صاغاً في مصر والسودان وفي الخارج ١٨ فرنكاً و١٥ شلناً في الهند و٧ روابل في روسيا والدفع سلفا

(طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر)

فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد العاشر

هذا الفهرس يشمل أكثر المسائل المهمة الواقعة في تضاعيف الكلام • والاصفار التي على يسار الأرقام فيه تشير إلى ان المسألة مكررة أولها تمة فيما بعد الصفحة التي يدل عليها الرقم • ويليه فهرس خاص بالمطبوعات التي قرظت في هذا العام

﴿ حرف الحاء ﴾

﴿ خ ﴾

﴿ط ـ ظ﴾

﴿ع﴾

صفحة

صفحة

﴿ غ ﴾

صفحة

﴿ ف ﴾

صفحة

﴿ ق ﴾

فهرس المطبوعات الجديدة

﴿ الكتب والرسائل والقصص ﴾

المجلات والجرائد

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق

مصر المحرم سنة ١٣٢٥ — آخره الخميس ١٤ مارث (آذار) سنة ١٩٠٧

فاتحة السنة العاشرة للمنار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه، وأهل وداده قربه، وعلى كل عبد مصطفى، من جميع الورى، أما بعد فان المنار قد دخل بهذا الجزء في سنته العاشرة، فقطع مرحلة الاعداد المفردة، ووقف بباب الاعداد المركبة، فكان نموّه وثباته وتغذيه بما يحفظ عليه حياته، وقوته على دفع عوارض العلل التي تواثبه، ومقاواته لما يناهضه ويناصبه، آيات بينات على انه كائن حي، يرجى أن يبلغ منتهى العمر الطبيعي، الذي يكون لمثله بالاستعداد الموهوب والمكسوب، وتوفيق

الله المطلوب ، وباسعاد محيي الاصلاح الذي يدعو اليه ؛ والحق الذي يناضل دونه ، وما اسعادهم الا الدعوة به واليه . والنصيحة له والدفاع عنه ، فالدعوة حياة المذاهب في الفلسفة والسياسات والاديان ، وكل ما يرتقي به شأن هذا الانسان ، « ٣٣ : ٣٨ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُوراً * »

المنار يدعو جميع المسلمين بكتاب الله ، الى سعادة الدارين بتقويم فطرة الله ، ومعرفة سنن الله ، وينهاهم به عن التفرق في الدين ، ويأمرهم بالاعتصام بحبله المتين ، فالدين والفطرة صنوان ، والشريعة والطبيعة شقيقتان ، فمنزل القرآن ، هو منزل الفرقان والميزان ، وواضع الشريعة ، هو خالق الطبيعة ، فالقرآن هداية وعرفان ، وعروج بالارواح الى الروح والريحان ، بالعبودية المؤدية الى رضا الرحمن ، والانتهاء باضطراب أمواج النزعات البشرية الى مستقر السكينة والاطمئنان ، « ١٧ : ٨ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * »

والفرقان عقل يفرق بين الحق والاباطيل ، ويدرك اسرار الخليقة وفقه التنزيل ، فهو المخاطب باقامة الشريعة ، وهو المطالب بالتصرف في الطبيعة ، فيأخذ منها بقدر اجتهاده ، على حسب استعداده ، والميزان عدل عام ، في الاخلاق والافكار والاحكام ، به ينفذ حكم القرآن والفرقان ، حتى يلتئم شمل الانسان ، فيعطي كل ذي حق حقه ، ويوفي كل ذي قسط قسطه ، وان لربه عليه حقا ، ولنفسه عليه حقا ، ولزوجه عليه حقا ،

ولاهله عليه حقا ، ولقومه عليه حقا ، ولأمته عليه حقا ، ولمجموع الناس عليه حقا ، — فالقرآن يهدي الى الحقوق ويبين ، والفرقان يفرق بين المتشابهات ويعين ، وانما القسمة بالميزان ، وبالثلاثة تكمل فطرة الديان ، فالقرآن كتاب مسطور ، وضياء ونور ، وبالفرقان نقرأ وندرس ، ونجتلي ونقبس ، وبالميزان نعمل بالعلم ، ونقوم بالقسط ، ومن شذ عن هذه الثلاثة فلم يهتد بالنقل والعقل ، ولم يخضع لسلطان العدل ، فقد أنزل الله لعلاجه الحديد ، الجامع بين المنافع والبأس الشديد ، فيؤدب بقوة السلاح ، حتى يستقيم أمر الاصلاح ، « ١٧ : ٢٣ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً * »

{ ٣ : ٣ آلم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزّل عليك الكتاب بالحق — الى قوله — وأنزل الفرقان } (٥٧ : ٢٥ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) فهذا بيان للناس بأن بناء معاشهم ومعادهم يقوم على أربعة أركان الكتاب والعقل والعدل والقوة وهي هي القرآن والفرقان والميزان والحديد . وقد هدم التقليد الاربعة الاركان ، واستبدل بها قول فلان وفلان ، أسماء سماها المقلدون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان ، فأما ركن الكتاب فبزعمهم أن فهمه والاهتداء به خاص بنفر يسمون المجتهدين ، وأنهم انقرضوا وقد عقم الزمان عن مثلهم الى يوم الدين ، وأما ركن الفرقان فبما أهملوا من الحكمة العقلية والدينية والعلوم النظرية والعملية . وأما ركن الميزان

فبإباحة الاستبداد لذوي السلطان، وتحتيم طاعتهم ولو في الاثم والعدوان، وأما ركن الحديد فبالاعراض عن الاعمال الصناعية، وما تتوقف عليه من الفنون الرياضية والطبيعية، فمتى يثبت لشعوبهم ودولهم بنيان، وقد هدموا جميع هذه الاركان، وفسقوا فيها عن هداية القرآن، « ١٧ : ١٢ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً *

فالمنار يدعو المسلمين الى اقامة الاركان الاربعة باسم الاسلام، من حيث يحتجون على هدمها بالاسلام، ونما اقامتها أن يكون أمر الامة بأيدي أهل القرآن العرفاء، وأصحاب الفرقان الحكماء، ومقيمي الميزان في السياسة والقضاء، وحملة الحديد لمدافعة الاعداء ومنع الاعتداء، وهؤلاء الاصناف هم أولو الامر، الذين لم يجب أن يرد اليهم كل أمر، وهم أهل الاجماع، الجديرون بالاتباع، وهم أهل الحل والعقد الذين ينقضون ويبرمون، ويحلون ويعقدون، وهم أهل الشورى الذين ينصبون الخلفاء والامراء، ويضعون الاحكام في السياسة والادارة والقضاء، وعلى هذا أراد النبي تربية المؤمنين، واتبعه بقدر الاستعداد الخلفاء الراشدون، وبترك هذا حل ماحل من البلاء بالمسلمين، « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً * »

بهذه الاركان الاربعة كان الاسلام دين الفطرة، والهادي بسنن الشريعة الى كمال سنن الطبيعة، (٣٠ : ٣٠ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس

لا يعلمون) فالمسلم من يقيم دين الله، باقامة سنن فطرة الله، ومن يجمع بين العلم بما انزل الله، والعلم بما خلق الله، ويفقه الاتفاق بين قوله { ١٠ : ٦٤ لاتبديل لكلمات الله)، وقوله (لاتبديل لخلق الله)، ومن ذهب الى التفريق بين دين الله وفطرته، وزعم ان العلم بكتاب الله لا يتفق مع العلم بخليقته، فقد جهل الخالق والخليقة، والشريعة والحقيقة، وكان حجابا دون الايمان، يصد عنه اولي العلم والعرفان، فما بال من يزعم ان العلم والدين ضدان، اولئك اعداء القرآن، وأولياء الشيطان، « ٤ : ١١٩ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً * ١٢٠ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً »

أيحسب هؤلاء الهائمون في أودية الأوهام، ان هذا الشئ الذي يسمونه فقها هو الاسلام، أليس اصل هذا الاسلام هو القرآن، أليست السنة من قبيل العمل به والبيان، فما بالهم قد حصروا الدين فيما لم يحفل باكثره الكتاب، ولم يفصل فيه شئ مما وضعوا له من الفصول أو فتحوا من الابواب، أرأيتك كم سورة أو آية نزلت في احكام البيع والايجار، والكفالة والحوالة والجعالة والاقرار، والمساقاة والمزارعة والشفعة والوديعة والرهان، والحجر والصلح والغصب والضمان، بل اين ما اكثرتم من احكام الحيض والاستحاضة والنفاس، وما اطلتم به من الكلام على الطهارة والطاهرات والانجاس، وماجئتم به في جميع العبادات من الرأي والقياس؟ هل انزل الله في ذلك كله عشر معشار ما أنزل من الامر بالنظر في المخلوقات، واجتلاء آياته في الارض والسموات، من

تصريف الرياح والبحار ، وتفجير الينابيع والانهار ، وإنبات الحدائق والجنات متشابهات وغير متشابهات، وتسخير الدواب والانعام، والجواري المنشآت في البحر كالاعلام ، ونصب الجبال كالاوتاد، وبناء السبع الشداد، ورفع السماء ووضع الميزان ، وجعل الشمس والقمر بحسبان ، (٢٥ : ٤٥ أَلَمْ تَرَ الى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جعلنا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ٤١ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ الينا قبضاً يسيراً ٤٦ وَهُوَ الَّذِي جعل لكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجعلَ النَّهارَ نُشُوراً ٢٧ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً ٤٨ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّنْ خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً)

فكيف تحصرون جميع أمور الدين، فيما سكت عنه الكتاب أو أجمله أو فوضه الى المستنبطين ، وتجعلون مافصل الارشاد اليه ،وجعل المعوَّل في معرفته تعالى عليه ، هو الذي يأتي بنيانه من القواعد ،ويقتلع أصول أحكامه والعقائد، أليس هذا منتهى التفريط في الكتاب الذي مافرط الله فيه من شيء (١٦ : ٨٩ وَنَزَّلْنا عليكَ الكتابَ تِبْياناً لكل شيء) ، (٢٥ : ٥٠ وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً)

اذا شغلك الفقه عن آيات الله التي بين يديك ،فهل يصح ان يشغلك عن آياته في نفسك التي بين جنبيك ، ألم يرشدك القرآن الى السير في الأرض لاستطلاع العبر ، ألم ينبئك بسننه في نظام البشر ،ألم يهدك الى انه تعالى لا يهلك المصلحين، وان كانوا في العقيدة مشركين ،وانه لايبقي على الظالمين، وان العاقبة للمتقين ،فما لك لاتعد من هذا الدين معرفة تواريخ الامم

الغابرة ، واختبار أحوال الامم الحاضرة ،ومعرفة الاقطار والبقاع، والعلم بشؤون الاجتماع ، أليس هذا من اقامة القرآن،واستعمال الفرقان والميزان، أليس قد أنزل الثلاثة لترقية شأن الانسان،فكيف تشغلك أحكام حركات الابدان ،ومعاملات الاقران ،عن حكم الديان ، في الاناسي والاكوان، (٢٥ : ٥٣ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً ٥٤ وَهُوَ الَّذِي خلق مِنَ الماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً *)

ألا ليت الذين يجعلون هذا «الفقه» معظم الدين ، عنوا به بعض عناية أهل القوانين ، فطابقوا بينه وبين مصالح الناس ، من جميع الشعوب والاجناس،وقربوه من الافهام ،وأبعدوه عن الاوهام ، اذاً لبقي لهم ذكرا وشرفا،ولم تجد حكامهم عنه منصرفا،وها نحن أولاء نراهم قد نسخوا أحكامه السياسية والمدنية والجنائية،ولم يتركوا للمسلمين الا مايعتقدون من الاحوال الشخصية ، وهل كانت احكام فقهائهم فيها مرضية ، ام تتألم الحكومة منها وتتألم الرعية، ألا انهم قد نفروا الناس من الفقه والدين،ولولا الجرايات والعسكرية لأعرض عن ممارسة كتبهم أكثر هؤلاء الشراذم المقبلين. ولو رجعوا الى هداية القرآن،وأقاموا الفرقان والميزان،وتركوا التقليد،وأحسنوا الحديد ، لولوا عن هذه الكتب نفورا ، وأوتوا الحكمة (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) (٧٦ : ٢٠ وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)

ان بعد رجال الدين عن علوم القرآن والفرقان والميزان والحديد ،

وجمودهم على ما اوجبوه على انفسهم من التقليد ، جعلهم بمعزل من الزعامة ، وحرمهم مقام الاسوة والامامة ، فلم يبق لهم شيء من الأمر والنهي وباتوا لا يقصد اليهم في الاستشارة والرأي ، ولا يستفتون في ادارة المصالح ودرء المفاسد ، ولا يعتمد عليهم في نظام التربية والتعليم في المدارس والمكاتب فقلت بعدم الثقة بهم ثقة الناس بالدين ، وكثر الفسق في الجاهلين والكفر في المتعلمين ، انحلت رابطة جامعته الجنسية ، وكادت تنفصم عروة اخوته الروحية . وأنشأت الشعوب تتعصب لجنسيتها الجاهلية ، في الانساب واللغات ، والاوطان والجهات ، يتسللون منه لواذا ، ويفارقون الجماعة أفذاذا ، فسهل على الاجانب تخطفهم شعبا شعبا وانتقاص بلادهم قطراً قطرا (١٧ : ٤١ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا)

اللهم قد ثقلت علينا الاوزار ، فأحاطت بنا النوائب والاخطار ، ولا نكاد نرى فينا علماء يدعون الى القرآن ، ولا حكماء يرفعون شأننا في علوم الفرقان ، ولا حكام يقيمون القسط بالميزان ، ولم نشكر نعمتك بانزال الحديد ، ففاتنا معظم ما فيه من المنافع والبأس الشديد ، بل لم نشكر لك شيئا مما أنزلت علينا ، فأنزلت بسنتك العادلة ما أنزلت بنا ،

اللهم انك تعلم أن مثار بلائنا ، ومنشأ ضعتنا وشقائنا ، لا يرجع الى الأجراء والزراع ، والى السوقة والصناع ، ولا الى الصعاليك والرعاع ، اللهم إنك تعلم ان مثاره سادتنا المستبدون ، وكبراؤنا المترفون ، « ٣٣ : ٦٧ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ٦٨ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً *)

اللهم انا أطعناهم مضطرين أو جاهلين ، لا مختارين ولا متعمدين ، وقد أيقظنا بلاؤك من رقدتنا ، ونبهتنا سنتك من سنتنا ، فأنشأنا نفكر في إقامة ما انزلت من البينات والهدى ، والشكر لك على ما آتيت من المواهب والقوى ، بارشاد المقلدين ، وإرجاع المستبدين . « ٦٠ : ٤ ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير ٥ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم » (١٧ : ٨٠ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً *)

منشئ المنار ومحرره

السيد محمد رشيد رضا الحسيني

الدعوة الى نقد المنار

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضتان في الدين حافظتان لجميع الفرائض ، ومرغبتان في جميع الفضائل ، وتركهما معصيتان كبيرتان ، مسهلتان للفسوق والعصيان ، فالمنار يدعو كل من ينظر فيه ، الى انتقاد مايرون انه ينتقد عليه ، ويعد المنتقدين بأنه ينشر ما يرسلونه اليه ، اذا كان مقروناً بالدليل والبرهان ، ولا برهان في الدين الا السنة المتبعة والقرآن ، ومن يتبدل الغيبة بالنصيحة ، وينصرف عن الهداية الى الغواية ، فيخوض فيما نكتبه مع الخائضين ، ويزعم انه مخالف لهدي الدين ، فهو الذي خالف كتاب الله فترك ما أمره به وفعل مانهاه عنه ، فانه فرض النصيحة ، وحرم الغيبة والوقيعة ،

قيمة الاشتراك في السنة العاشرة

قد جعلنا قيمة الاشتراك على أهل القطرين مصر والسودان ستين قرشاً صحيحاً وعلى عمال البريد منهم ثلاثين قرشاً وأبقيناها في سائر الأقطار كما كانت

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١٨ : ١٦) شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلٰئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٧:١٩) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلٰمُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ اوتُوا الْكِتٰبَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيٰتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠ : ١٨) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ اوتُوا الْكِتٰبَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلٰغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ *

قرأ نافع والبصري (اتبعني) بالياء في الوصل خاصة والباقون بحذفها وصلا ووقفا

بعد ما بين تعالى جزاء المتقين و بين حالهم في إيمانهم ومدح أصنافهم الكاملين في أوصافهم بين أصل الايمان وأساسه فقال ﴿ شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ صرح كثير من المفسرين بأن شهادة الله هنا من باب الاستعارة لأن ما نصبه من الدلائل فى الآفاق وفى الأنفس على توحيده وما أوحاه الى أنبيائه في ذلك يشبه شهادة الشاهد بالشيء في إظهاره وإثباته . وكذلك شهادة الملائكة عبارة عن اقرارهم بذلك كما قال البيضاوي زاد أبو السعود وايمانهم به وجعلها من باب عموم المجاز وشهادة أولي العلم عبارة عن ايمانهم به واحتجاجهم عليه . وقال بعضهم ان الشهادة من كل بمعنى واحد لأنها اما عبارة عن الاخبار المقرون بالعلم واما عبارة عن الاظهار والبيان وكل ذلك حاصل من الله والملائكة وأولي العلم — فالله تعالى أخبر بتوحيده ملائكته ورسله عن علم و بينه لهم أتم البيان والملائكة أخبروا الرسل و بينوا لهم وأولو العلم أخبروا بذلك و بينوه عالمين به ولا يزالون كذلك . وأقول ان ما قاله الأولون ضعيف وأقرب

التفسيرين فى القول الآخر للشهادة أولهما . يقال شهد الشيء اذا حضره وشاهده كقوله تعالى (٢: ١٨٥ فمن شهد منكم الشهر) وقوله (٢٧: ٤٩ ماشهدنا مهلك أهله) و يقال شهد به اذا أخبر به عن مشاهدة بالبصر وهو الاكثر والاصل أو عن مشاهدة بالبصيرة وهي الاعتقاد والعلم كقوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (١٢: ٨١ وما شهدنا الا بما علمنا) وذلك أنهم أخبروا أباهم يعقوب بأن ابنه – شقيق يوسف – سرق عن اعتقاد لا عن مشاهدة بالبصر وانما سموا اعتقادهم علما لأنه لم يخطر في بالهم ما يعارض ما رأوه من اخراج صواع الملك من رحل شقيق يوسف بعد ما نودي فيهم بأن الصواع قد سرق . والحاصل ان الشهادة بالشيء هي الاخبار به عن علم بالمشاهدة الحسية أو المعنوية وهي الحجة والدليل وهو المختار هنا . ولكن يرد عليه هنا أنه إثبات للتوحيد بالنقل وهو فرع عنه لأنه اذا لم يثبت توحيد الله لا يثبت الوحي . ويجاب عنه بأن شهادة الله في كتابه مؤيدة بالبراهين التي قرنها بها وبالآيات على صدق الرسل، وشهادة الملائكة للأنبياء مقرونة بعلم ضروري هو عند الأنبياء أقوى من جميع اليقينيات البديهية و بتلك الدلائل التى أمروا بأن يحتجوا بها على الناس ، وشهادة أولي العلم تقرن عادة بالدلائل والحجج لأن العالم بالشيء لا تعوزه الحجة عليه . على ان الكلام فى وحدانية الألوهية والمشرك بها لا يكون معطلا حتى يقال لا بد من إقناعه بوجود الله قبل اقناعه بشهادته بل يكون مقرا بوجود الله وإنما شركه اتخاذ الوسطاء يكونون بزعمه وسائل بينه و بين الله يقربونه اليه زلفى والشفعاء يكونون في وهمه سببا لقضاء حاجاته وتكفير سيئاته كما كانت تدين العرب في الجاهلية

وقد اختلفوا في أولي العلم فقيل هم الصحابة وقيل علماء أهل الكتاب وذهب الزمخشري الى أنهم المعتزلة والرازي الى أنهم علماء الأصول . وهذا من عجيب الخلاف فإن أولي العلم لا يحتاجون الى تعريف ولا تفسير فهم أصحاب العلم البرهاني القادرون على الإقناع وهم معروفون في هذه الأمة وفي الامم السابقة

أما قوله تعالى « قائما بالقسط » فمعناه انه تعالى شهد هذه الشهادة قائما بالقسط وهو العدل في الدين والشريعة ، وفي الكون والطبيعة ، فمن الاول تقرير العدل في الاعتقاد كالتوحيد الذي هو وسط بين التعطيل والشرك ومن الثاني جعل سنن

الخليقة في الاكوان والانسان الدالة على حقية الاعتقاد قائمة على أساس العدل فمن نظر في هذه السنن ونظامها الدقيق يتجلى له عدل الله العام ، فالقيام بالقسط على هذا من قبيل التنبيه الى البرهان على صدق شهادته تعالى في الأنفس والآفاق لان وحدة النظام في هذا العدل تدل على وحدة واضعه وهذا مما يفند تفسير بعضهم للشهادة بأنها عبارة عن خلق مايدل على الوحدانية من الآيات الكونية والنفسية . كذلك كانت أحكامه تعالى في العبادات والآداب والأعمال مبنية على أساس العدل بين القوى الروحية والبدنية وبين الناس بعضهم مع بعض فقد أمر بذكره وشكره في الصلاة وغير الصلاة لترقية الروح وتزكيته ، وأباح الطيبات والزينة لحفظ البدن وتربيته ، ونهى عن الغلو في الدين والاسراف في الدنيا وذلك عين العدل ، فهذا هو القسط في العبادات والاعمال الدنيوية . وأما القسط في الآداب والاخلاق فهو صريح في القرآن كصراحة الأمر بالعدل في الاحكام قال تعالى (١٦ : ٩٠ ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقال (٤ : ٥٨ واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل)

واذ قد تجلى لك صدق الشهادة فعليك أن تقرّ بها قائلا ﴿ لا اله الا هو العزيز الحكيم ﴾ تفرد بالألوهية وكمال العزة والحكمة فلا يغلبه أحد على ماقام به من سنن القسط ولايخرج شيء منها عن مقتضى الحكمة البالغة

﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾ قرأ الجمهور « إن » بالكسر على ان الجملة مستأنفة وقرأها الكسائي بالفتح على انها تعليل للشهادة بالتوحيد أي شهد الله انه لا إله الا هو لان الدين عند الله هو الاسلام له وحده ، أو عطف على « انه » أو بدل منه

أقول الدين في اللغة الجزاء، والطاعة والخضوع أي سبب الجزاء ويطلق على مجموع التكاليف التي يدين بها العباد لله فيكون بمعنى الملة والشرع . وقالوا ان ما يكلف الله به العباد يسمى شرعا باعتبار وضعه وبيانه ويسمى دينا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع به ويسمى ملة باعتبار الجمع . والاسلام مصدر أسلم وهو يأتي بمعنى خضع واستسلم وبمعنى أدى يقال أسلمت الشيء الى فلان اذا أديته اليه . وبمعنى دخل في السلم وهو بالفتح والكسر بمعنى الصلح والسلامة وبالتحريك الخالص من الشيء ومنه قوله تعالى (٣٩ : ٢٩ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء

متشاكسون ورجلا سلما لرجل) أي خالصا له لايشاركه فيه من يشاكسه . وتسمية دين الحق إسلاما يناسب كل معنى من معاني الكلمة في اللغة وأظهرها آخرها في الذكر لاسيما في هذا المقام ويؤيده الآية الآتية وقوله تعالى (٤ : ١٢٥ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا) وقد وصف ابراهيم بالاسلام في عدة سور ووصف غيره من النبيين بذلك . فعلم بذلك ان الحصر في قوله « ان الدين عند الله الاسلام » يتناول جميع الملل التي جاء بها الانبياء لأنه هو روحها الكلي الذى اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف وصور الأعمال فيها وبه كانوا يوصون راجع تفسير (٢ : ١٢٨ و ١٣١ — ١٣٣) والاستاذ الامام لم يقل هنا الا بعض ماقاله هناك وبذلك كله تعلم ان المسلم الحقيقي في حكم القرآن من كان خالصا من شوائب الشرك بالرحمن ، مخلصا في أعماله مع الإيمان ، من اي ملة كان، وفي اي زمان وجد ومكان ، وهذا هو المراد بقوله عز وجل (٣ : ٨٥ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) الآية وستأتي . ذلك ان الله تعالى شرع الدين لامرين اصليين (احدهما) تصفية الارواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بالسلطة الغيبية للمخلوقات ، وقدرتها على التصرف في الكائنات ، لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها ، أولما هو دونها في استعدادها وكمالها ، (ثانيهما) إصلاح القلوب بحسن القصد في جميع الأعمال ، وإخلاص النية لله وللناس ، فمتى حصل هذان الامران انطلقت الفطرة من قيودها العائقة لها عن بلوغ كمالها في أفرادها وجمعياتها . وهذان الأمران هما روح المراد من كلمة الاسلام وأما أعمال العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الأمري في الروح الخلقي ولذلك شرط فيها النية والاخلاص ومتى تربى سهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الأدبية والمدنية التى يصل بها الى المدينة الفاضلة وتحقيق أمنية الحكماء .

آه ما أشد غفلة الناس عن حقيقة الاسلام ! أي سعادة للناس تعلو عرفان كل فرد من أفرادهم انه أوتي من الاستعداد ماأوتيه من يوصفون بالولاية والقداسة ، ويدلون بالزعامة والرياسة ، فمنهم من يستعبد بها الناس استعبادا

روحانيا ، ومنهم من يستعبدهم بها استعبادا سياسيا ، واخلاص كل فرد من افرادهم في عمله الديني لله وعمله الدنيوي للناس ، ؟ هذه السعادة هي روح الاسلام وحقيقته حجبتها عن بعضهم الرسوم العملية ، والتقاليد المذهبية ، وعن آخرين النزعات النظرية ، والتقاليد الوضعية ، فالأولون يرمون بالكفر أو البدعة كل من خالف مذاهبهم ، والآخرون ينبزون بالغباوة والتعصب كل من لم يستعذب مشربهم ، فمتى يكثر المسلمون الخالصون المخلصون للأولين والآخرين ، فيكونوا حجة الله عليهم وعلى جميع العالمين ، وآية الوحدة الفاضحة للمختلفين ؟ ؟

﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ قيل ان المراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة وقيل النصارى خاصة ويدعم هذا القول أن الآيات نزلت في نصارى نجران كما تقدم والصواب أنها عامة لاتخص فريقا دون آخر . والجملة بيان لسبب خروج أهل الكتاب عن الاسلام الذي جاء به أنبياؤهم على ماتقدم في الجملة الأولى فصاروا مذاهب وشيعا يقتتلون في الدين والدين واحد لاتفرق فيه ولامثار للاختلاف بله الاقتتال . وهذا السبب هو البغي وتجاوز الحدود من الرؤساء كما فصله الاستاذ الامام تفصيلا في تفسير (٢ : ٢١٢ كان الناس أمة واحدة) فليراجعه من لم يقرأه (*) ومن كان على علم بالتاريخ وخاصة نشأة المذاهب في كل أمة ، وفشو البدع في كل ملة ، فهو الذي يفهم كنه المراد من هذه الآية فلولا بغي رؤساء الدين والدنيا ونصر مذهب على مذهب لما تعصب لكل مذهب يشتق من الدين شيعة تنصره وتؤيده في كل مسألة وتقاوم كل من يقاومه وتضلهم متوكئة على علم الدين ومستندة الى نصوصه بتفسير بعضها بالرأي والهوى وتأويل بعضها وتحريفه أو يوافق المذهب المنتحل .

ويجب على المسلم ان لاينظم الآية في سمط أخبار التاريخ ولافي سلك علم الملل والنحل ، أو علم المناظرة والجدل ، بل يتلوها متذكرا انها ماأنزلت الا هداية وعبرة لمن يؤمن بالقرآن ليتقوا الخلاف في الدين والتفرق فيه الى شيع ومذاهب اتباعا لسنن من قبلهم . نحن المسلمين نعتقد ان دين المسيح عليه السلام هو

(*) راجع الجزء الثاني من المجلد السادس

الاسلام الذي بينا معناه آنفا وان أساسه التوحيد والتنزيه وان الرؤساء الروحيين وغير الروحيين ، لاسيما الملوك والاحبار الرومانيين ، هم الذين بتفرقهم جعلوا ذلك الدين الالهي الواحد مذاهب ينقض بعضها بعضا ، وأهله شيعا يفتك بعضهم ببعض ، وانه لولا بغيهم لما تمزق شمل آريوس واتباعه الذين دعوا الى التوحيد والتنزيه ، بعد فشو الشرك والتشبيه ، اذ حكم المجمع الذي ألفه الملك قسطنطين سنة ٣٢٥ بمقاومة آريوس واحراق كتبه وتحريم اقتنائها ولما انتشر تعليمه من بعده قضى تيودوسيوس الثاني باستئصال مذهبه وابادة الآريوسية بقانون روماني صدر في سنة ٦٢٨ وبقيت مذاهب التثليث يكافح بعضها بعضا، نعيب ذلك عليهم ولكن يجب علينا أن لاننسى أنفسنا ولايغيب عنا ماأصبنا به من الخلاف والتفرق عسى أن يسعى أهل الايمان الصادق والغيرة في نبذ الاختلاف والشقاق ، والعود الى الوحدة والاتفاق ، كما كنا على عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، وخلفائه الراشدين عليهم الرضوان (١)

﴿ ومن يكفر بآيات الله ﴾ الدالة على وحدة الدين ووجوب الاعتصام به وحرمة الاختلاف والتفرق فيه وهي المراد بالعلم في قوله « الا من بعد ماجاءهم البينات بغيا بينهم » ﴿ فان الله سريع الحساب ﴾ يحاسب من كفر فيجازيه بما يستحق . وقد تقدم تفسير سريع الحساب في سورة البقرة (٢ : ٢٠٢) فليراجع

أما هذا الكفر فهو عبارة عن ترك الإذعان لهذه الآيات والامثال لها ومن لوازمه تأويلها بما يصرفها عن معناها لتوافق مذاهب أهل التأويل

كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو اليهود في المدينة الى ترك ماأحدثوه في دينهم وما اعتادوه من التحريف والتأويل والى الرجوع الى حقيقته وهي اسلام الوجه لله والاخلاص له في كل عمل كما نطقت هذه الآيات التي ورد انها نزلت عند مجيء وفد نصارى نجران . فقوله تعالى ﴿ فان حاجوك ﴾ يعني به أهل الكتاب أو عام أي فان جادلوك بعد أن حجتهم بالحق اليقين ، وأقمت عليه البينات والبراهين،

(١) قد فصلنا ذلك في محاورات المصلح والمقلد من المجلدين الثالث والرابع وقد طبعت المحاورات في كتاب ثمنه ٥ قروش وأجرة البريد ٨ مليمات

ودمغت الباطل ، بالآيات والدلائل ، ﴿ فقل أسلمت وجهي (١) لله ومن اتبعن ﴾ أي أقبلت عليه بعبادتي مخلصاً له معرضاً عما سواه أنا ومن اتبعني من المؤمنين. قال الاستاذ الامام كأنه يقول أن من يقصد الى الحجاج بعد تأييد الحق وتفنيد الباطل لا يقصد الا الى المجادلة والمشاغبة لمحض العناد والمشاكسة وذلك شأن المبطلين وأما طالب الحق فانه يبخل بالوقت أن يضيع سدى ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ﴾ أي لليهود والنصارى ومشركي العرب وكانوا ينسبون الى الأم لجهلهم كما تقدم فى تفسير سورة البقرة وخص هؤلاء بالذكر والبعثة عامة لأنهم هم الذين خاطبهم الرسول بالدعوة بلا واسطة ﴿ أأسلمتم ﴾ (٢) كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة أم لا قال البيضاوي ونظيره قوله « فهل أنتم منتهون » وفيه تعيير لهم بالبلادة أو المعاندة اه وقال الاستاذ الامام: الاستفهام للتقريع والمراد بالاسلام روح الدين الذى نزل به الكتاب ومقصده يعني انه ليس لهم الا الرسوم منه ﴿ فان أسلموا ﴾ هذا الاسلام ﴿ فقد اهتدوا ﴾ قال الاستاذ الامام لأن هذا هو روح الدين فمن أصابه فهو على هداية من هذا الوجه فان غشيه مع ذلك شيء من الباطل الصوري فهو لا يلبث أن يزول متى ظهر له الدليل على بطلانه ولذلك كان اسلامهم هذا لابد أن يستتبع اتباعك فيما جئت به لأن من كان كذلك فهو نير القلب متوجه دائماً الى طلب الحق فهو أقرب الناس الى قبوله متى جاءه وظهر له ﴿ وان تولوا ﴾ معرضين عن الاعتراف بما سألت عنه ، لعلمهم أنهم ليسوا على شيء منه ، ﴿ فانما عليك البلاغ ﴾ لحقيقة الاسلام ، وما أمرت به من الاحكام ، ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ فهو أعلم بمن طمس قلبه فارتكس فى شقائه ، ووقع اليأس من اهتدائه ، ومن يرجى له بتوفيق الله من بعد مالا يرجى له اليوم ، أقول ومثل هذه الآية نص

(١) قرأ نافع وشامي وحفص بفتح ياء (وجهي) والباقون بسكونها

(٢) في مثل هاتين الهمزتين لغات: تحقيق الأولى وتسهيل الثانية وقرأ بها الحرميان والبصري وهشام في أحد الطريقين وتحقيقها وقرأ بها الباقون وهو الطريق الثاني لهشام، وابدال الثانية ألفاً وروي عن ورش، وادخال ألف بينهما وقرأ به قالون و بصري وهشام

قاطع في حصر وظيفة الرسول بالبلاغ عن الله وأنه ليس مسيطرا على الناس ولا جبارا ولا مكرها لهم على الاسلام وقد صرحت آيات أخرى بمفهوم الحصر فى التبليغ يعرف مواقعها حفاظ القرآن والمكثرون من تلاوته

(٢١ : ٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٢ : ٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ *

قيل ان المراد بهذه الآية ﴿ ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ اليهود خاصة وقد نسب اليهم قتل النبيين الذي كان من سابقهم لاعتبار الأمة في تكافلها وجري لاحقها على أثر سابقها كالشخص الواحد على مامر بيانه عن الاستاذ الامام غير مرة على أن اليهود همت بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فى زمن نزول الآية والسورة مدنية كما علمت وهم بذلك قومه الأميون من قبل في مكة ثم كان كل من الفريقين حربا له وهم المعتدون ولذلك قال آخرون ان الآية فيمن سبق ذكرهم من أهل الكتاب والأميين فكل قاتله وقاتل الذين يأمرون بالقسط من المؤمنين به والظاهر الأول حتى على قراءة حمزة (ويقاتلون الذين) لأن محاولة قتل نبي لا يعبر عنه يقتلون النبيين والقتال غير القتل ولما فى آيات أخرى من اطلاق مثل هذا التعبير على اليهود خاصة ولا حاجة الى القول بأن المراد مجموع الكافرين الذين يقتل بعضهم النبيين و بعضهم الذين يأمرون بالقسط فالآية وما بعدها انتقال الى خطاب اليهود خاصة فاليهود هم الذين جروا على الكفر بآيات الله من عهد موسى الى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام ، و بذلك تشهد عليهم كتبهم قبل القرآن ، وعلى قتل النبيين كزكريا ويحيى عليهما السلام ولكن الاستاذ الامام وجه القول بالعموم وجعله بالنسبة الى مشركي العرب الذين حاولوا قتل نبي واحد على حد كون قتل النفس الواحدة

كقتل جميع الناس . وقوله تعالى « بغير حق » بيان للواقع بما يقرر بشاعته وانقطاع عرق العذر دونه والا فان قتل النبيين لا يكون بحق مطلقاً كما يقول المفسرون وأقول ان هذا القيد يقرر لنا ان العبرة في ذم الشيء ومدحه تدور مع الحق وجوداً وعدماً لا مع الاشخاص والأصناف . واذا قلنا ان كلمة « حق » المنفية هنا تشمل الحق العرفي بقاعدة ان النكرة في سياق النفي تفيد العموم يدخل في ذلك مثل قتل موسى عليه السلام للمصري وان لم يكن متعمداً لقتله فاذا كانت الشريعة المصرية تقضي بقتل مثله وقتلوه يكون قتله حقاً في عرفهم لا يذمون عليه وانما تذم شريعتهم اذا لم تكن عادلة واليهود لم يكن لهم حق مّا في قتل من قتلوا من النبيين لا حقيقة ولا عرفاً

﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ أي الحكماء الذين يرشدون الناس الى العدالة العامة في كل شيء ويجعلونها روح الفضائل وقوامها ومرتبتهم في الهداية والارشاد تلي مرتبة الانبياء وأثرهم في ذلك يلي أثرهم . ذلك أن جميع طبقات الناس تنتفع بهدي الانبياء كل صنف بقدر استعداده وأما الحكماء فلا ينتفع بهم الا بعض الخواص المستعدين لتلقي الفلسفة . ألم تر كيف اصطلم التوحيد وثنية العرب في مدة قليلة بدعوة النبي صلى الله عليه وكيف عجزت دعوة فلاسفة اليونان الى التوحيد عن مثل ذلك أو ما يقارب به فلم يستجب لهم فيها في الزمن الطويل الا قليل من طلاب الفلسفة . ذلك بأن دعوة النبي على ما تختص به من التأييد الالهي وتأثير روح الوحي لها ثلاثة مظاهر بينها الله تعالى في قوله (١٦ : ١٢٥ أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) فالحكمة ما يدعى به العقلاء وأهل النظر من البراهين والحجج والموعظة ما يدعى به العوام السذج والجدل بالتي هي أحسن للمتوسطين الذين لم يرتقوا الى الاستعداد لطلب الحكمة ولا ينقادون الى الموعظة بسهولة بل يبحثون بحثاً ناقصاً فلا بد من الحسنى في مجادلتهم ومخاطبتهم على قدر عقولهم . واما الحكماء فان لهم طريقة واحدة في الدعوة الى الحق والفضيلة مبنية على طلب العدل في الافكار والأخلاق . وقد يكون الحكيم الذي يدعو الى ذلك متديناً ولكنه انفرد بالاقناع على الطريقة المذكورة آنفاً وقد يكون غير متدين وهو مع ذلك يدعو الى القسط والعدل من طريق العقل بحسب ما وصل

اليه علمه مع الصدق والاخلاص . والاقدام على قتل هؤلاء دليل على غمط العقل ومقت العدل ، وأقبح بذلك جرماً ، وكفى به إثماً ، ولم يفسر الاستاذ الامام الذين يأمرون بالقسط بالحكماء بل قال ان مرتبة هؤلاء تلي مرتبة الانبياء وقال : ان قوله تعالى « من الناس » يشعر بقلتهم . وأقول على ما تقدم من الاختيار انه يشعر بشمول قوله « الذين يأمرون بالقسط » لمن بلغته دعوة نبي على وجهها فآمن بها ومن لم يكن كذلك والاقال « والذين يأمرون بالقسط من المؤمنين » وفي هذا من تعظيم شأن الحكمة والعدالة ما فيه من شرف الاسلام وإرشاد أهله الى أن يكونوا من أهل هذه المرتبة التي تلي مرتبة النبوة (٢ : ٢٦٩ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الألباب)

وقوله ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ يحملون مثله على التهكم وعدوه من المجاز بالاستعارة على ما في مفردات الراغب لأن التبشير من البشارة والبشرى وهي الخبر السارّ تنبسط له بشرة الوجه . وقد يقال إنه ما ظهر أثره في البشرة بانبساط أو انقباض وكآبة ولكنه غلب في الأول . وهذا العذاب يصيب من كان منهم في زمن البعثة في الدنيا ثم يشاركون من سبقهم بمثل ذنوبهم في عذاب الآخرة . وأي الناس أحق بالعذاب الأليم من هؤلاء القساة الطغاة المسرفين في الشر إسرافاً جعلهم على منتهى البعد عن النبيين والآمرين بالقسط حتى كان منهم الذين قتلوهم بالفعل ومنهم الذين نفوسهم كنفوس من قتلوا وما يمنعهم عن الفعل الا العجز (٨ : ٢٠ واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك) فهذه النفوس قد أحاطت بها خطاياها حتى لم يبق فيها منفذ لنور آيات الله التي بها يبصر الحق ويهتدى الى اقامة القسط ولذلك قال فيهم ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ فلا ينتفعون بشيء منها لأن العمل الصالح انما ينفع بحسن أثره في النفس ونفوس هؤلاء قد أوغل فيها الفساد كما تقدم ففقدت الاستعداد والقبول لكل خير . وقد تقدم تفسير مثل هذه الجملة بالتفصيل في سورة البقرة (٢ : ٢١٧) ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من الله وقد أبسلتهم ذنوبهم بما لها من التأثير في افساد نفوسهم فأي ناصر يدفع عنهم العذاب وهو مما اقتضته طبيعتهم

اللائحة الثالثة (*)

﴿ من لوائح اصلاح التعليم والتربية الدينية للاستاذ الامام ﴾

يظهر انه كتبها لاجل اقناع أولي الامر في مصر بالعناية بالتربيــة الدينية بعد عودته من سوريا وعفو الامير عنه وقد وجدت مسودتها بخطه بالعنوان الذي تراها مفتتحة به . وجامع الكتاب وضع سائر العنوانات قال رحمه الله تعالى

﴿ هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات اليه من نظام التربية بمصر ﴾

« ويمكن تفصيله عند ارادة العمل به »

اذا كان الناس في حاجة الى صلاح الحاكم فما حاجة الحاكم الى صلاحهم بأخف من حاجتهم الى صلاحه فان السلطة سلطتان جيدة ورديئة فالجيدة ما كانت على المحكومين للمحكومين والرديئة ما أخذ بها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت

اما الأولى فان منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد لها التدبير وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي وهو مجموع الروح والبدن فكل يستفيد من الآخر مابه بقاؤه ونماؤه . وكما تحتاج الآلات البدنية الى سلامة الروح من العلل النفسية كالجنون والخمود والجهل ونحو ذلك تحتاج الروح الى سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والخدر والتشنج وما شابه ذلك وما ذا يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت اعضاؤه

وأما السلطة الثانية فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آلته فصاحب السلطة صانع والمحكوم آلته في الصنع فهو كاتب مثلا والمحكومون قلمه أو هو حارث والمحكوم محراثه وكما أن الآلة لا تعمل الا بالعامل ولا يظهر أثرها الا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل الا بآلته . وكما يجب أن تكون اليـد العاملة قادرة على ادارة الآلة يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل وان فقد أحد الامرين امتنع العمل أو نقصت ثمرته — فكل من السلطتين في حاجة الى صلاح المحكوم فكما

(*) منقولة من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام

يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه كذلك يطلب صاحب السلطة في أي منزلة كان أن يكون المحكوم بحيث ينقاد الى كل ما يحكم به وعلى الصفات التي تنساق به الى الغاية التي يذهب اليها حاكمه

اما ما رسخ في خيال بعض الشرقيين ومن اغتر بحالهم ممن خالطهم من الاوربيين من ان صاحب السلطة قوته علوية والمحكوم طبيعته سفلية ولا نسبة بينهما الا ان الأول قاهر والثاني مقهور وأن الثاني في حاجة الى صلاح الأول ليكون به رؤوفا رحيما وأن الأول لا حاجة به الى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال فذلك منشؤه الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الانسانية ونظامها الفطري . ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لا تدوم لهم دولة ولا يثبت لهم سلطان لتخبطهم في سيرهم بجهلهم منزلتهم من محكوميهم وتصرفهم فيهم على خلاف ما يجب ان يصرفوهم فيه وتغافلهم عن استصلاح طباعهم بما يؤهلهم للعمل على ما يريدون منهم

يقال ان الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته . فقد يكون ذلك حقا لكنها آلة ذات شعور وارادة وماله شعور وارادة فجميع أعماله انما تكون عن شعوره وارادته فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والارادة وتفسد بفسادهما فلا يمكن ان تكون تلك الآلة صالحة للعمل الا اذا كان الشعور والارادة صالحين له، وصلاحهما بأن يكون الشعور وجدانا للفرق بين النافع والضار وبين النظام والاختلال ليكون، ما يقرره الحاكم من القوانين وأصول الادارة معروفا عند اغلب الرعية وأن تكون الارادة صادرة عن هـذا الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام . فاذا كان الشعور مختلا والارادة فاسدة كانت الاحلام طائشة والاهواء متحكمة ومداخل السوء كثيرة فويل لذي السلطة من تلك الرعية وبعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار وكل ما يتخيله اصلاحا لهم أوله فيودعه في أصول حكومته فهو كالنقش على الماء أو الرسم في الهواء

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فمساحة الصالح منها للسكنى لا تزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة وهي محاطة من اطرافها بالصحاري الجدبة والمياه

المالحة وليس فيها من الغابات ما يعوذ به الوحشي من الحيوان فضلا عن الانسان ولذلك نرى كثيرا من انواع الوحوش التي كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض باصلاح الاراضي الزراعية وانتشار الانسان في اطرافها وتعهدها بالزرع والعمارة وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار الى دار ولا يمكن أن يتصوروا ذلك ما دام في ارضهم نبات ينبت فاذا أمحلت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك . ولذلك كان أهل مصر سكان ارضهم من آلاف من السنين وكل قادم اليهم امتزج بهم وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم وانتسب نسبتهم فصار مصريا وأحرز جميع خواص المصريين ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم ان طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر فلو أن سيف المتغلب كان اعدى من سيف المماليك وجوره أشد من جور اسماعيل باشا لما أمكنه أن ينقص من عددهم مقدارا يذكر ، ولا ان يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون

أهل مصر قوم سريعو التقليد اذكياء الاذهان أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة فما ايسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم الى الاخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه فلا يبيدون من حاجة فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم ان يستبدل بهم رعية اخرى في بلادهم

فحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آلته فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا ترمي اليه أنظار الدول السامية المقام في المدنية

أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الارض وهو ممر أهل المشرق الى المغرب وأهل المغرب الى المشرق وهو في حلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الامم فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الأمم مثل هذه البلاد

الامم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضا على التمكن في أرض مصر والفوز باحراز المنافع السياسية أو المالية فيها فالوساوس والدسائس لا تنقطع نفثاتها من

أولئك الأحزاب يبثونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم . وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) أن يقال ان صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم وانكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت

أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى اليهم كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم فلكل كلمة من هذا القبيل مكان من نفوسهم ولكن ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحيانا ، غير أن طباع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن ثم لا يلبث أن يعود الى حاله فالله يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات التي يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى اليهم

يقال أن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ انه متى وجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم وأثبتهم قدما في المواطن ولا يعلم متى يوجد القائد ومن أي جنس يكون اذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجري حيث تجد سبيلا للاندفاع ثم لا يقدرون النظام قدره مهما كان بالغا من الصلاح ولا يبالون به بل يعتقدون ان كل نظام حبر على ورق فلا يستطيع حاكمهم ان يثبت سلطته عليهم على أمر مكين بل هم دائما في التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة الا اذا أخذوا بتربية صحيحة فهناك تنضبط أحوالهم وينشأ النظام احترامه في قلوبهم ويهتدي صاحب السلطة الى طرق تصريفهم

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس اذا لم يكن مبعثهما الحق ينشآن عند المصريين من أمرين الأول بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح والثاني حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغلبهم الاستقامة والتؤدة والتبصر في العواقب ومرجع الامرين الى سوء العقيدة وظن ما ليس بواجب واجبا وظن الواجب غير واجب فما دامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة فلا يصلحون بدنا للرأس ولا آلة لعامل لاختلال المدارك وفساد الارادات

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر وتنفذ بصيرته الى هذه الحقيقة فلذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمنا يعتد به وكل اصلاح نظامي نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء فالسلطة التي تسعى فى أن تجعلهم رعية صالحة

تكون قد فتحت في نفوسهم فتحا جديدا وظفرت ببغيتها منهم ظفرا مبينا وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم

أهل مصر قوم أذكياء كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية للتأثر ولكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهي أن البذرة لا تنبت في أرض الا اذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ويتنفس بهوائها والا ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ولا على البذرة وصحتها وانما العيب على الباذر

أنفس المصريين أشربت الانقياد الى الدين حتى صار طبعا فيها فكل من طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها فلا ينبت ويضيع تعبه ويخفق سعيه وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي الى اليوم فان المأخوذين بها لم يزدادوا الا فسادا — وان قيل ان لهم شيئا من المعلومات — فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

لا تكلم عن اصلاح لدين غير الاسلام في مصر فان غير المسلمين فيها العدد القليل والجمهور الاغلب من المسلمين

الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الالفة، ولا حرب المحبة، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة، وان اختلف عنهم في الدين، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح، وارشاده الى مظان الفوائد والبصر بالعواقب، وتقويمه بفضائل الاخلاق، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لان تكون بدنا لرأس أو آلة لعامل. وقد أرشدتنا التجربة الى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان أوسع نظرا في الأمور وأطهر قلبا من التعصب الجاهلي وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة وأسبق الناس الى ترقية المعاملة بين البشر وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت

ان القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لا يختلفون عنهم الا في بعض أحكام قليلة ولكن عرض على

الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهاليه ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ولم يروا مربيا يأخذهم بدينهم فحرموا خيره ولم يبق عندهم الا ما فيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين وليس بدين. على أنه ليس فيهم من ينكر ان القرآن كلام الله وانه ينبوع الدين ولكن ليس لهم من معاهد التربية الا جهتان المدارس الأميرية ومدرسة الازهر الدينية وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول ما يصلحهم

من يتوجه من ذوي السلطان الى ذلك لا يجد أقل مقاومة من العامة ولا أغلب الخاصة وفي مصر فرصة لا توجد في غيرها لمن أراد ذلك فان بلادا غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين وسلامة أفكارهم ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد. أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لا غير فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسوها في المدارس ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالاثبات ويندبون لتدريس ذلك ذوي قدرة على صرف الاذهان عما وقر فيها وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ولا يجدون معارضا لهم من أهل الدين لأنهم لا يهتمون بما لا يقع تحت نظرهم مباشرة وما دامت الأصول محفوظة فأنظارهم عن غيرها منصرفة وأكبر دليل على ما نقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس على ما فيه من مباينة الدين والانتهاء الى خلعه بالمرة

﴿ المدارس الاميرية ﴾

المدارس الأميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة. هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا باشارة بعض الفرنسويين لتعليم بعض أولاد الأرنؤط والاتراك والمورلية ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج اليها في نظام الحكومة التي أسسها وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة اما

غيرها من العلوم فما كان الا وسيلة اليها ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما . أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى ادارة هذه المدارس على بال ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطلبه في الوظائف ادخل في تلك المدارس بعض المصريين جبرا وما كان يدخل مجبورا الا الذين لاقوة لهم من الفقراء وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية فى ثقله على المصريين

ثم جاء خلف محمد علي من عباس وسعيد فأهملوا النظر في المدارس بالمرة حتى جاء اسماعيل فوسع نطاقها وزاد فيها من المعارف ماله دخل فى الادارة والقضاء وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الامر . غير ان جميع ماأتاه من ذلك كان صوريا ليقال ان له في حكومته مثل مالأوربا فى حكوماتها ولم يكن القصد منه تربية العقول ولا تهذيب النفوس ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة

وفي زمن اسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس ولكن من الاعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة يحتاج في الوصول اليها الى بعض الفنون ومن الفقراء الذين لايجدون مايقتات به أبناؤهم فيرسلونهم الى المدارس ليستريحوا من نفقتهم ولم يكن القصد من جميع تلك الاحوال الا أن يتعلم التلميذ مايؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيا من كراسي أقلام الدواوين . اما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحا فى نفسه يحسن القيام بالعمل الذي يفوض اليه في الحكومة أوفي غيرها فذلك لم يخالط عقول المعلمين ولا من ولاهم أمر التعليم فسرى ذلك من السابقين الى اللاحقين حتى اليوم

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون مايجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته ان كان ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقي اليهم حتى تتم مدتهم في المدرسة ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح

أوفاسد ، ولا مطامح أنظارهم هل الى نافع أو ضار ، وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لاغير ولهذا لايكون تلامذتها في آخر الأمر الا صناعا أوناطقين ببعض الألسنة ولا ثقة فى الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم الا من كانت له فطرة سليمة وله موهبة طبيعية فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال . فان استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه فلا يؤول ذلك بالمصريين الى أن يكونوا رعية صالحة لان تكون بدنا لرأس أوآلة لصانع

المدارس الأجنبية

وأما المدارس الاجنبية على تنوعها فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين فى الاغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها ومن أرسل ولده اليها داوم نصيحته بعدم الالتفات الى ما يقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده ثم ذلك يحدث من الاضطراب في طبيعة الفكر والتزلزل في الاخلاق ما يكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم ان لتلك المدارس الاجنبية أثرا سياسيا أو أدبيا في مصر بل قد أحدثت بعض النفرة فى قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم ولذلك تاريخ في البلاد معروف فهي ضارة بالألفة ، مبعدة للمحبة ، رغما عما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك فلا يصح الاكتفاء بها فى التربية عن المدارس الاهلية على اختلافها .

الجامع الازهر

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي اليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة واما طمعا فى بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ولا يزال بعضها الى اليوم ولكن مما يؤسف عليه انه لا نظام لها في دروسها ولا يسئل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت ، ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من استاذه تعود عليه بالاصلاح فى دنياه أو دينه وانما

يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ويطبق على الذهن غفلته ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع اذا كان موافقا لمبدأ التعصب الجاهلي فأغلب الاوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لافائدة فيها ولا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها

ثم ان المعروفين بالعلماء وهم الذين يتممون دروسهم فى هذه المدرسة ويؤذن لهم بالتدريس فيها هم قدوة الناس وأئمتهم مع انهم أقرب للتأثر بالأوهام والانقياد الى الوساوس من العامة وأسرع الى مشايعتها منهم وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء والتربية المختلفة التي لاترجع الى أصل صحيح فبقاؤهم فيماهم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها .

إصلاح مدرسة الأزهر لابد ان يكون بالتدريج في تغير نظام الدروس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها بحيث يقرر فيها ان كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس والا حرم الامتياز وكل استاذ يسئل عن طلبته ثم يجعل ماينالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بالفهم لا بالكتب وتغيير بروغرام الدروس ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالكلية ويكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الاساتذة والتلامذة في ذلك ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لاتستلفت الأذهان الى شيء خلاف المصلحة وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة .

ولا بأس ان يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطاً بالمعارف العمومية أو بادارة الأوقاف على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به وقد يظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية ان إصلاح الأزهر لا يمكن لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أثرهم فهذا ظن فاسد لا يؤيده

دليل ولم تقض به تجربة الا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين سنة عند ما أراد ادخال بعض العلوم الصناعية فيه فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء فيئس من الاصلاح وترك الأمر الى اليوم فقد كان ذلك قبل ان تنقلب الحوادث على مصر ولم يكن بالتدريج اللائق اما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الاصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الاصلاح بمجرد التوجه اليه وما يعجز عنه من ذلك فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه اذا فوض ذلك اليه على أن العناء فى ذلك لا يطول اذا صلحت المدارس الأميرية فان الناس لا يختارون الأزهر الا لسوء ظنهم بالمدارس أولاعتقادهم أن الأزهر أحفظ للدين منها فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم ويصبح الناس كلهم في طريق واحدة

الكتاتيب الأهلية

المدارس الأميرية يتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ولا يتم لها احسان النظر من وجه التربية الا بتوجيه العناية أولا الى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في القرى والمدن فانها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف وللمدارس الاميرية وللأزهر فان كان الغذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فسادا . وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ولكن من الوجه التعليمي واصلاح الامكنة بحيث تكون أوفق للصحة لا من الوجه التهذيبي والثاني هو أهم مطلوب دون الأول فانما ينظر اليه من حيث هو وسيلة للثاني . فالمعلمون فى تلك الكتاتيب يسمون الفقهاء وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظاً بغير معنى . واذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو الا الزائد الضارّ دون الاصل النافع وقد عرفوا بأنهم أفسد حالا من العامة . على ان الكتاتيب يرد عليها أبناء الاهالي جميعاً الا القليل ثم يرجع الغالب الى ما كان عليه آباؤهم فهي منابت للعامة ولكنها لا تنبت الآن الا جهلا

ولا يمكن اصلاح تلك الكتاتيب الا باصلاحهم (أي الفقهاء) واصلاحهم مرة واحدة أو إبدالهم بخير منهم متعسر ولكن اذا وجهت العناية اليهم أمكن

اصلاحهم واصلاح طرق تعليمهم بالتدريج في بضع سنين ثم ان ذلك الاصلاح يستدعي عملا يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث ان أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب فلا بد أن ينظر في انتخابهم من المستعدين للفهم وقبول الاصلاح بقدر الامكان وهو يقتضي سعياً حثيثاً وتدقيقاً شديدا وسيرا في أرض مصر أجمعها ونظرا في كل قرية من قراها وهو ليس بعسير على الشخص الواحد فضلا عن أشخاص كثيرين متى وجهت العناية بذلك

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لايستغني عنها مصري مما يزاد على تعليمه القرآن في تلك الكتاتيب حتى اذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعرا بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة فاذا دخل المدرسة أو الأزهر كان نماء معلوماته على ذلك الأساس وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة وتعيين مايدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير بأن تبين لهم فيه نسبتهم الى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم والى المقام الخديوي وغير ذلك · وتحدد الطريقة التي يتعلم بها الفقهاء هذه الأمور القريبة من الاذهان والمكان الذي يتعلمون فيه والوقت الذي يخصص لذلك والمعلم الذي يعلمه ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين ادارة الاوقاف ونظارة المعارف

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلامذة هذه المكاتب لايزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم الى خدمة الحكومة سواء نالوا ماقصدوا أم لا الا أنهم في الغالب لايستطيعون أن يذهبوا بهم الى نهاية التعليم المعدّ لذلك فيرجع الولد الى أبيه أومن يقوم مقامه بعد نهاية المكتب عارفاً ببعض مبادىء العلوم التي لا يجد لها موضعاً تستعمل فيه فلا يلبث أن ينساها فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ثم انه يعود بأخلاق أشد فسادا من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ويجد في نفسه نفرة وعجزا عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله فيقضي عمره في البطالة أوما يقرب منها فتزداد أخلاقه فسادا وأفكاره اختلالا ويقف نفسه على عبادة الأوهام وخدمة الدسائس التي تنبه الى طلب

مايغير الحالة التي عليها الناس طمعا في تغيير حالة نفسه بلا تعقل فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضوا نافعاً لها

فأول ما يجب لاصلاح هذه المكاتب ووضعها على أساس يفيد العامة ان يراعى في البروجرام إدخال مبادىء العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على المعاملات الجارية في البلاد فقواعد الحساب مثلا تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المعروف في المعاملات التجارية وحساب الصيارفة الاميريين وغيرهم فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الاموال في الاوراق والدفاتر وطرق التحصيل لاموال الحكومة ونحو ذلك ويدخل فيها فن الاوزان والمكاييل وان كانت مبادىء هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة في البلاد أو على أفضل منها وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية والمشارطات المتداولة بين الاهالي حتى اذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج اليه شخصه أوعائلته وأقاربه وأهل بلده فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه

ثم يضم الى ذلك تعويده على بعض الاعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة أو يخصص لذلك يوم في الاسبوع ليعلم كفلاء التلامذة ان للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة وأنهم اذا لم ينالوا الخدمة فان لهم شأنا سوى البطالة والتفرغ للاوهام الرديئة ثم يضاف الى البروجرام مبادىء العقائد الدينية على الاصل الصالح وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الالفة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة وشيء من تاريخ البلاد وما كانت تعانيه في سابق زمنها وما صارت اليه من الراحة في هذه الاوقات وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ليعلم التلميذ انه من أي جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مسند فيما يصدر منه ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعلمونه من الآداب وتشديد المراقبة عليهم في ذلك وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها البروغرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوض اليه مراقبة أخلاق التلامذة وملاحظة أعمالهم فاذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي ولم يتيسر له أن ينتهي الى غاية التعليم رجع اليه بشيء نافع ونمت فيه

الاخلاق الصالحة والافكار الحسنة وانطبع قلبه على الخير والسلامة وكانت له بصيرة فى وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ونبت في قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه فلا يكون الى فؤاده سبيل للوساوس ولا منفذ للدسائس

﴿ المدارس التجهيزية والمدارس العالية ﴾

لا أتكلم فى بروغرامات دروس الفنون التي تقرأ فيها لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لاقامة تلك المدارس وانما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر وغرس مبدأ الصلاح فى نفوس التلامذة ليحسنوا فى استعمال ما تعلموا

قلنا فيما سبق ان التربية مفقودة في تلك المدارس لا يخطر ببال أحد ان يعتني بها عناية حقيقية وانما الموجود فيها صور ورسوم تغر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح — تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة — إلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الابتدائية — تعليمهم الاجادة في الكتابة كلٌّ في فنه الذي يريد الوصول الى غاية التعليم فيه — تعليمهم أصول النظام العام ثم زيادة التوسع لكل فيما يتعلق بفنه من النظام فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والادارة وهو شيء غير نفس القانون والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدبير النيل وهو شيء غير الهندسة — وعلى هذا القياس

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم ان القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين وان فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة بل هي من لوازم الحياة الطيبة ويورد الادلة على ذلك وهي كثيرة لا تعد حتى اذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به وائتمن على عمل يفوض اليه وكانت الأنفس مطمئنة من جهته لعلمه ان للنظام علاقة بحياته الروحانية كما له علاقة بحياته الجسدانية فان لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلا آخر للعمل وهو في رضى عن النظام المحيط باعمال وطنه فيكون بذلك عضوا صالحا ويقوم بينه وبين الدسائس حجاب منيع

من الاستقامة الفكرية والخلقية حتى لو أن التلميذ بعد ذلك حمله الشطط في الفكر على خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة

﴿ المعلمون والمربون، ومدرسة دار العلوم ﴾

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر فى حالتها، ولم يدقق البحث في مصلحتها، اما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر ما يتصورونها كما أن كثيراً مثلي لا يرون ذلك

اما أولا فلأن بلادا واسعة مثل مصر لا تعدم افرادا متفرقين فى أنحائها يعرفون من الدين حقيقته، وللزمان ما يلزمه، وانما يجمعهم البحث والتنقيب. وكما ساح ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها كذلك يجب أن يسيح مدير التربية في الاطراف ليعرف الصالحين لتوليها على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء فى العمل فان لم يكن الموجود بالغاً الغاية فى المقصود فلا أقل من أن يكون قريباً منها — واما ثانياً فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج اليهم فى الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي على ان في الرسم نقصاً يجب تتميمه وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بدار العلوم

دار العلوم مدرسة ابتدعها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر وان يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروسا لجميع ما كانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ليتموه على وجه أجلى وأنفع وأضاف الى ذلك أطرافاً من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة وشيئاً من الجغرافية والتاريخ وقدر غاية الدراسة أن يكون التلميذ المتم لدروسه فيها صالحاً لأن يكون أستاذا في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي كانت تنبغي لها ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التي كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام

فيها ولهذا كان يخرج تلامذتها على مايخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والافكار لايمتازون عنهم الا قليلا وان كانت مع ذلك أنشأت أفرادا من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة ولكنهم أقل عددا مما كان ينتظر

ثم من غريب التصرف أن هذه المدرسة مع انه لم يكن الغرض منها الا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة لايقيمون عليها من النظار الا جاهلا بالدين واللغة العربية بل غير معتقد بالدين بالكلية كما فعلوا سابقاً ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية الامن يقصد تعيشهم بمرتباتهم وفيهم من لاتجوز معاشرة التلامذة له فضلا عن أخذهم العلم عنه وفيهم من لايحسن أداء ما كلف به وليس فيهم أهل لوظيفته الاشخصان فقط والكل لاعناية له بأمر التربية ولا يهمه فساد أخلاق التلامذة أوصلاحها ، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أواعوجاجها ، وتعليمهم الدين على ماهو المعروف في الازهر لايغيرون منه فاسدا ، ولايزيدون عليه صالحا ، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها نقلا من الكتب لايبينون للتلامذة الغاية من تعلمها . وليس العيب في ذلك راجعاً اليهم ولكن الى من لم يضع أصلا لسيرهم فى تعليمهم ولم يؤسس قاعدة ترجع اليها جميع الأعمال صادرة من المعلمين أو المتعلمين ولم يقم على تلك القاعدة خبيرا بالبناء عليها ، عارفاً بالغاية التي توجه المدرسة اليها ، حكيما في تصرفه بأذهان التلامذة والاساتذة حتى يقيم للتربية بناء معنويا حقيقيا يأوي اليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري ، والديني والخلقي ، ويمكن أن ينتهي أمرها الى أن تحل محل الأزهر وعند ذلك يتم توحيد التربية فى مصر ولكن يلزم لذلك أمور

(الأول) إصلاح البروجرام وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة فى الأزهر والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها وتقدير ما يلزم من الفنون الباقية وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينية وفن أصول

النظام مع تعلقه بالدين

(الثاني) تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية

(الثالث) اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل الى الغاية المطلوبة للمدرسة

(الرابع) تعيين ناظر للمدرسة قد ملأ قلبه وغمر فكره الميل الى المقصد الذي وضعت له المدرسة عالماً بالدين ولغته موثوقاً به عند العامة

(الخامس) إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر

(السادس) توسيعها الى مايسع مئة تلميذ

(السابع) أن يزاد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة

(الثامن) وهو أهم مايجب — أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون

(التاسع) أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم

(العاشر) أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب

(الحادي عشر) أن يكون الموظف منها فى مدرسة ما سلطة تامة على تهذيب التلامذة وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وطباعهم وأرقاهم وظيفة في تلك المدرسة يكون رئيساً لمن دونه

(الثاني عشر) أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا في الوظائف

ثم انه يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديدا ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها وذلك كله يمكن بعد العزم على الإجراء

﴿ نفقات الاصلاح ﴾

يمكن أن يظن أنه يلزم للاصلاح زيادة نفقات ولكن اذا دبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق فلا أظن أنه يحتاج الى زيادة على انه لو احتيج اليها لايثقل احتمالها بعد اليقين بأن هذا الاصلاح يؤول الى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدناً لرأس وآلة لعامل وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل — وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية — أفضل منه في جميع السبل فان كانوا يصرفون آلافاً

من الجنيهات على بعض المباني الخربة بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار فان التربية هي الحصن الحقيقي للبلاد ، الذي يصونها من جيش الفساد ، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب ان يقفوا عندها بالنسبة الى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الاصلاح في مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد أحمد خان في الهند وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن

﴿ شبهة من يعارض المشروع ومكانته في نفسه ﴾

ربما يوجد أشخاص خصوصاً من الرؤساء يقولون ان هذه الطريق بعيدة النهاية لا توصل الى الغاية — كما قالوا ذلك من قبل — فنقول لهم ان الطريق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي الى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد فليسلكوا الآن هذه الطريق على سبيل التجربة بعض سنوات فليس هناك ضرر ينتظر فان لم تكن فائدة فلا خوف من المضرة

ان من يزعم العجز انما يلجأ اليه لأنه لم يتصور ما يرد من الأمر عليه فان كانت له أداة فليوردها ولا نعدم لها من الحقيقة دافعاً فان أبى الا العجز فربما يوجد من لو وكل اليه الأمر قام به ولم يعجز عنه والتجربة مشرق الحقيقة ان شاء الله تعالى . على انه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع وأكفل ان يكون له من النفع ما هو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير الحاضر

واني لا أزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة وأن فوائده ربما نقلت الى اقطار أخر فعادت بجزيل الخير على من نماه وفي الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطة والمحكومين له ، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا باصلاحه على قاعدة المحبة والالفة ، لا على طائشة الاخافة والرهبة ، ويكون بذلك قد كوّن لنفسه شعباً جديداً يعينه في الشدة ، وينصره في الفتنة ، ويعضده في ساعة المحنة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، وتزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية ، وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية ، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى

سلطته وعرض نفسه لغير الزمان وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه والله ولي الأمر وبيده كل شيء يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اه

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾

نقلت هذه اللائحة عن مسودة للامام غير منقحة ولا معروضة للنشر كما سبقت الاشارة بل كتبت لأجل أن تترجم وهي مع ذلك آية في البلاغة وحسن العبارة . ومن كان حديد الفهم بعيد الغوص في أسرار الكلام يعلم أنها لامست سماء الاعجاز أو كادت على عدم العناية فيها بزينة اللفظ وزخرف القول ، ذلك أنه لا يرى لعقله مذهباً آخر أرجى من مذهب الامام فيها لاقناع السلطة في مثل هذه البلاد بالتربية الاسلامية التي كانت قصده في أمته مع الصدق في القول والاخلاص في النية . واذا قارن هذه اللائحة باللائحتين قبلها تجلى له معنى « لكل مقام مقال » فغرض إمامنا في الاصلاح الديني واحد ولكنه كان يتوسل اليه في كل بلاد بأقرب الوسائل التي يرجى أن ترضى بها السلطة وهو ما يجعله موافقاً لمصلحتها وتلك هي الحكمة البالغة والبلاغة السابغة

ناهيك بما تومئ اليه مقدمة هذه اللائحة من الرسوخ في علوم العمران كطبائع الامم وأخلاقها ونظام التربية والتعليم والسياسة . فياليت الأستاذ الامام فرغ للتأليف لم يشغله عنه الاصلاح العملي ومحاولة تربية الأزهر واصلاح الشورى والمحاكم ، اذاً لكان لنا منه مصنفات تفعل في النفوس بعد وفاته ، أكثر مما كان يريد أن يعمله في حياته ، رحمه الله تعالى على نيته وحسناته

(المنار) هذا ما نبهنا به على مكانة اللائحة في جزء المنشآت من تاريخه الذي نطبعه وقد طال هذا الجزء أكثر مما كنا نظن لاننا وجدنا من آثاره ما لم نكن عثرنا عليه عند الشروع في الطبع . أما جزء التأبين والمراثي فقد تم أو كاد ، وسيشرع في جمعه قبل صدور هذا الجزء ان شاء الله

فتاوى المنار

فتحنا هـذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ تمثيل القصص — أو التياترو ﴾

(س ١) من الشيخ محمد نجيب التونتاري الاستاذ المدرس بالمدرسة الشمسية بروسيا

بسم الله تعالى

حضرة الاستاذ العلاَّمة السيد الرشيد مولانا محمد رشيد رضا سلمه الله وأدام فيضه

أرجوكم حل هذه المسئلة الآتية ببيان حكمها الشرعي بيانا فلسفيا بسبكها في القالب العصري لكي يؤثر في الجميع ولا يرتاب أحد في حكمها لازلتم مرشدين ومأجورين — وهو أن الناشئة العصرية بيننا انشئوا في هذه الأيام تياترو مليا ببلدة قزان مثلوا فيه القصص الغرامية فحضرت الممثلات المسلمات فيما بينهم وقد أنكر ذلك العلماء وعدوه من الملاهي المحرمة ، ونحن وان لم ننكر فائدة التمثيل من حيث كونه عبرة وعظة ودرسا تاريخيا مليا ولكن لايمكننا أن نكابر في مضراته المحسوسة من ابتذال النساء ورقصهن مع الرجال مما ينافي الآداب الاسلامية ، ويهيج الشهوات البهيمية ، وقد قرر العلماء ان المجموع الذي يتضمن المحذور يكون محذورا لامحالة وان درء المفاسد يقدم على جلب المصالح فبناء على ذلك أظن انه يجب النهي والانتهاء عن ذلك نعم ان سائر مجالسنا ربما لاتخلو من ضرر أيضا فان مجالس العلماء بيننا قلما تخلو من فضول الكلام بل من الشتم والغيبة والبهتان — تلك الامور المحرمة قطعا ولكن اذا اعتادوها أصبحوا لايرون فيها بأسا و يجري الامر من غير نكير وعسى انها تصلح بصلاح العلماء ولو بعد أمد بعيد ان شاء الله تعالى وقد أورد الاستاذ الوجدي هذه المسئلة فى دائرة المعارف و بسط القول في حكمها ولكني أحب أن أراها في صفحات المنار باظهر مجاليها والله الموفق

(ج) « الحلال بين والحرام بين و بينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » كما ورد في الحديث وهذه المشتبهات هي التي يسئل عنها ويستفتى فيها . وما جعل هذه المسئلة من قبيل المشتبهات الا مايعبرون عنه بروح العصر وهو انفعال نفوس المتعلمين على الطريقة الجديدة ومن يقلدونهم بجمال مدنية أروبا وتوجهها الى تقليد الأروبيين في كل مايسهل التقليد فيه وأي شيء أسهل من التقليد فى الزينة والزخرف واللهو واللعب ؟

نهى القرآن نهيا صريحا عن إبداء النساء زينتهن لغير بعولتهن أوآبائهن وغيرهم من المحارم فهل يشتبه بعد هـذا فى إبداء الزينة مع ماهو شر منها وهو الرقص مع الأجانب ومطارحتهم الغرام وتمثيل معاملتهم معاملة الأزواج تارة والأخدان تارة أخرى ؟ لامحل للتردد في تحريم هذا العمل وتحريم التعاون عليه والمساعدة لأهله بل وفي اقرارهم عليه والسكوت عن انكاره عليهم . ولاحاجة الى البحث في مفاسده فانها بديهية . ولكن المفتونين بالتقليد يستحبون ترك هذه الآداب الاسلامية والحكم بأن المحافظة عليها ضارّة بالمسلمين لانها تحرمهم من منافع تمثيل القصص التي هي أنفع منها . وينقسم هؤلاء الى قسمين (الاول) المارقون من الدين ، الذين يودّون لو يمرق منه سائر المسلمين ، فهولاء يهزؤن بمن يخالفهم في كل مايسمونه تمدنا وان كان مما يشكو منه عقلاء وفلاسفة أئمتهم الاوربيين ، فهم كما قال الشاعر

عمي القلوب عموا عن كل فائدة   لانهم كفروا بالله تقليدا

وقد كثر عددهم فى الترك وهم يكثرون في مصر ولا يمكن اقناع هؤلاء بشيء من طريق الدين فالحلال والحرام عندهم سيان وانما يمكن اقناع أذكيائهم الذين يقدرون جنسية الدين قدرها بأن كذا ضار بالأمة أو نافع لها في سياستها ومصالحها الاجتماعية

(الثاني) المؤمنون بأصل الدين الراغبون في التوفيق بينه و بين المدنية الحديثة بالتساهل فى بعض أحكامه والتأويل لبعض نصوصه كما فعل أهل الكتب الدينية من كل أمه فى كل زمان يغلب عليه روح خاص يسري في الكبراء

والخواص ، وهؤلاء هم الذين يحاولون الموازنة بين منافع « التياترو » ومضاره التي يعترفون بأن أهمها هتك النساء المسلمات لصيانة الحجاب ، ومخالفتهن للنصوص الصريحة في الكتاب ، وهؤلاء يسهل اقناعهم بالدلائل الدينية والعقلية جميعاً

هؤلاء هم الذين يقولون اننا لانرتاب في عصيان المرأة بابداء خفيّ زينتها في المتمثَّل (ملهى التمثيل) ورقصها مع الرجال ولا في عصيان من يغريها بذلك ولكن التمثيل الذي يوجد فيه العاصيات والعاصون لله عمل نافع في نفسه فالمعصية فيه قاصرة على أهله ولا حرج على المؤمنين في شهوده بنية الاستفادة من الغرض والمقصد منه دون نية الاسعاد على الوسيلة المحرمة كما انه لاحرج على من يشاهد الصور والتماثيل وان كان صانعوها آثمين فى عملهم :

ولعل هذا أقوى ماتبين به شبهتهم في شهود التمثيل وماهو بالذي يقنع الفقيه فيفتي بنفي الحرج لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح عند التعارض فكيف تباح المفسدة اليقينية لأجل مصلحة وهمية ان أمكن اثبات حصرها في التمثيل فلا سبيل الى اثبات معارضتها لمنع المسلمات من هتك حرمة الشرع والخروج عن أدب الدين اذ يمكن أن يكون هذا التمثيل المفيد من الرجال خاصة وان كان لا بد من وجود النساء فيمكن استخدام غير المسلمات فيه كما يفعلون في مصر وهؤلاء النساء غير مكلفات بفروع الشريعة عند الحنفية ومن وافقهم ولا يحرم النظر اليهن بغير سوء أو يمكن للنساء المسلمات فيه أن لا يبدين زينتهن الا ماظهر منها وهو الوجه والكفان وان لا يرقصن مع الرجال ولا يأتين بمنكر آخر معهم ، فالحرص على اتيانهن في المتمثل بكل ما يأتي به غير المسلمات لا يمكن أن يكون لاجل المصلحة المزعومة التي بنينا هذا الإلزام على التسليم بها جدلا فثبت ان الغرض من ذلك تغذية الشهوة واتباع الهوى تقليداً للأوربيين فى شيء فيه أثم لكم ولهم ومنافع لهم لا لكم لأنهم جروا فى هذا التمثيل على جعل لهوهم ولعبهم الذي لاخروج فيه عن عاداتهم وآدابهم المقومة لشعوبهم مشتملا على بعض الفوائد والعبر بعد الارتقاء في العلوم والآداب وسائر مقوّمات الاجتماع ، فان كنتم مقلديهم ولا بد فأعفونا من التحريف والتأويل في الدين ، فما انتم الاعون عليه لأولئك المارقين ،

واما المارقون من الدين من حيث هو دين ، الرضوان به من حيث هو رابطة اجتماعية كالجنس واللغة ، فيقال لهم ان تحويل النساء عن الآداب والعادات الاسلامية اتباعا وتقليدا لغير المسلمين مبدأ لقطع الرابطة الاسلامية وهدم هذه الجنسية فليس ضررها محصورا فى عصيان بعض النساء لأمر الله وجرأتهن على انتهاك محارمه اذ يستحيل ان لا تعصي امرأة من الأمة ربها قط ولا شك ان معصية بعضهن بما ذكر لا تستلزم عصيان سائرهن به اذ جعل كل امرأة ممثلة محال فلا خوف على الأمة من عصيان قليل من افرادها وإنما الخوف عليها محصور في الانتقال من طور الى طور بتأثير روح أجنبي غايته تحويل المسلمين عن دينهم وجنسهم وجذبهم الى غيرهما بالاقناع والاستحسان حتى يكونوا غذاء له ومادة تمده في نمائه وبقائه

مثل المقلد مع المقلد كمثل الطفل مع الرجل ، يحسب الطفل أن كل ما يفعله الرجل مفيد له اذا هو حاكاه فيه ساواه في فائدته منه فاذا رآه يدخن حاول التدخين مثله مالم يمنعه مانع وربما كان في التدخين هلاكه اذ لا يحتمل بدنه من سم الدخان مايحتمله بدن الكبير المعتاد عليه . وما كل ما يفعله الرجل نافعا له وما كل نافع له ينفع الطفل والدارج ، ولا اليافع والشارخ ، وقد تكون وسيلة المنفعة الواحدة للرجل غير وسيلتها هي للطفل فالتغذية منفعة ووسيلتها للطفل اللبن وللدارج الطعام اللطيف وأما الرجل الأيّد فانه يستفيد من الطعام الكثيف من الغذاء مار بما يكون ممرضا لمن دونه

هكذا شأن الأمم الجاهلة الضعيفة مع الأمم العالمة القوية تظن الاولى أن كل ماتفعله الثانية مفيد لها فتحاول تقليدها فيه غير شاعرة بأنها تقلد على غير بصيرة تامة ، ولا اكتناه للمقاصد البعيدة - وإنما الامور بمقاصدها - فتقع في الخسران المبين ، من حيث ترجو الفلاح العظيم ، كما نقلدهم الآن في الأزياء والعادات التي تزيد في ثروتهم وتذهب بثروتنا ، والآداب التي ترسخ بها جنسيتهم من حيث تضعضع جنسيتنا ، واهم هذه العادات ماأدّى الى تركنا للدين وارخاء عنان التفرنج للنساء في التهتك والخلاعة

تدخل المرأة النصرانية المتمثل ولا شعور عندها بأنها قد أحدثت في جنسيتها

حدثا، أوجاءت في دينها أمرا فريا، وأما المسلمة فانها تشعر اذا فعلت ذلك بأنها قد انسلخت من قديم مرغوب عنه، ودخلت في جديد مرغوب فيه، ويسري هذا الشعور منها وممن تربى مثل تربيتها الى سائر نساء قومها ورجالهم الذين يألفون عملها ويقرّونه

أنقلدهم بهذا ولا نقلدهم في تربية النساء الدينية التى نرى أقوى شعوبهم وأعزها وأعلمها كالجرمانيين والسكسونيين هم أشد عناية بها ممن دونهم؟ بلغ من رسوخ الشعور الديني عند نسائهم أن المرأة التي يقذفها الفقر فى مهواة البغاء تعلق صورة المسيح أوامه في بيتها لاحياء ذكرى الدين في قلبها فاذا همت بالمنكر فيه حولت وجه الصورة الى جهة الجدار استحياء وأدبا

اذا صح أن هذا « التياترو » يفيد مسلمي روسيا في آدابهم وأخلاقهم مثل مايزعم الافرنج انهم يستفيدون منه فما هذه الفائدة المدعاة الا من الامور التي تسمى تحسينية أو كمالية أي مما يطلب وراء الضروريات والحاجيات التي لم يستكملوا شيئاً منها . وقد دعاني الى رؤية هذا التمثيل العربي بمصر بعض الفضلاء أول مقدمي اليها وبعد رؤيته سئلت عن فائدته فقلت إنني لم أرله فائدة وراء التسلية الا تمرين اسماع من يحضره من العوام على كلام عربي هو وسط بين كلامهم وبين العربية الفصحى . ثم رأيت أن بعض القصص لاتخلو من فائدة وعبرة

أقول هذا وأنا أعلم ان المقلدين يضيع عندهم البرهان ان خوطبوا به فكيف ولاسبيل الى مخاطبتهم بما يفهمون . وقد كان يكون هذا مفيداً لوكان للمسلمين زعماء عقلاء يدبرون أمرهم ويديرون بالرأي والروية مصالحهم ولكنهم أضحوا فوضى لاسراة لهم الا اننا نرجو الخير من بعض العلماء وأصحاب الصحف فنسأل الله أن يوفقهم لخير الارشاد وينفع بهم العباد

أسئلة من جاوه

إسلام من دون البلوغ

(س ٢) السيد عقيل بن عثمان بن يحيي في (تيمور كوڤغ — جاوه)

ماقولكم فى إسلام من دون البلوغ من اللقطاء وأولاد الكفار وأهل الكتاب

هل تجري عليه أحكام الشرع كالمكلف فى حياته وموته أم ينفرد باحكام تخصه؟

(ج) قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » — وفي لفظ : مامن مولود الا ويولد على الفطرة — وفي رواية على فطرة الاسلام — وفي رواية زيادة : حتى يعرب عنه لسانه : — فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » الحديث رواه أحمد والشيخان واستدل به على أن الصغير لا يحكم عليه قبل التمييز الا بالاسلام الذى هو دين الفطرة حتى يميز ويعبر عن فكره فانه يحكم له بالملة التى يختارها وهو المراد برواية جابر عند أحمد « حتى يعرب عنه لسانه فاذا أعرب عنه لسانه فإما شاكرا وإما كفورا » وينقل أهل الأثر صحة اسلام المميز عن ابي حنيفة وأحمد واسحق وابن أبي شيبة وعدمها عن الشافعي وزفر واستدل على هذا بحديث « رفع القلم عن ثلاثة » وذكر منهم الصبي حتى يبلغ والحديث حسنه الترمذي وفيه بحث وأجيب عنه بأن الاسلام يكتب له لا عليه وانما يدل الحديث على أنه لا يؤاخذ لا على انه لا يقبل اسلامه كيف وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل اسلام الصغار لا يرد أحدا ومن المشهور الذي لا يرده أحد من المختلفين في المسألة إسلام علي كرم الله وجهه وهو دون البلوغ . قال عروة : أسلم عليّ والزبير وهما ابنا ثمان سنين وبايع النبي صلى الله عليه وسلم ابن الزبير لسبع أوثمان سنين . وقد يصح الاستدلال بالحديث على أن من دون البلوغ لاتصح ردته عن الاسلام وهي رواية عن أحمد والمذهب الاول أي أن المميز يصح اسلامه وردته . وفي رواية ثالثة لا يصح شيء منهما

على أن المميز الذي في حجر والديه يكون تابعا لهما في الاحكام الدنيوية وان قلنا بصحة اسلامه على المختار حتى يبلغ سن الرشد أو يخير كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتخيير أولاد أصحابه الذين كانوا متهودين مع بني النضير وكانوا أرادوا اكراههم على الاسلام وفيهم نزل «٢ : ٢٥٦ لا اكراه في الدين» — راجع تفسير الآية في المجلد التاسع ص ١٦١

حمل الميت على عربة

(س ٣) ومنه : هل يجوز حمل الميت على عربة تجرها الخيل أو الرجال اذا

قيل أن هناك مصلحة كبعد القبر أو خفة المؤنة وهل فيه إزراء بالميت أو تشبه غير محمود ؟ المسألة ذات بال فمن القوم من يشدد النكير، ومنهم من يقول بالتيسير،

(ج) انما حمل المسألة ذات بال التقاليد والعادات ولا يهتم الناس من جميع الامم بشيء من العادات كالعادات في تجهيز الموتى ودفنهم وزيارتهم حتى ان الذين ينسلخون من الاديان و يتركون العبادات وسائر التقاليد يظلون محافظين على ما درج عليه أهل ملتهم من التقاليد والعادات المتبعة في هذا الامر

لادليل في الكتاب ولا فى السنة على تحريم حمل الميت على عربة من غير تشبه بغير المسلمين فى دينهم لاسيما اذا كان هناك مصلحة لان المراد بحمله نقله وايصاله الى القبر ليدفن وقد كانوا يحملون النعش في صدر الاسلام بالكيفية المعروفة في زمنهم ولم يقل الشارع ان هذه الكيفية تعبدية لاترفعها المشقة التي تجلب التيسير ولوكانت الوسائل العادية التي كانوا يفعلونها واجبة على سبيل التعبد بمجرد جريهم عليها لوجب علينا ان لا نقاتل الا بمثل سلاحهم وان سحقتنا المدافع سحقا ،وان لانلبس الا مثل ملابسهم وان سبقتنا الامم في النشاط سبقا ، أما التشبه المحظور في مثل هذا العمل فهو ما يشتبه فيه المتشبه بالمتشبه به في أمر من أمور دينه و يكون ذلك عن قصد وما أغنى المسلمون عن هذا اذ يحتاجون الى نقل ميتهم على عربة فالعربات التي ينقل عليها أهل الكتاب امواتهم لها شكل مخصوص مزين بالتماثيل لايحتاج المسلم الى مثله قط ولانفتيه باتخاذه وان لم يقصد التشبه بهم على ان هذا الشكل من عاداتهم لامن عباداتهم والمسلمون لم يسلموا في اكثر البلاد من التشبه بهم فيما هوعندهم من قبيل العبادة المحضة والتقاليد الدينية الخالصة كحمل المباخر والقماقم امام الجنازة والترنم بالاناشيد الدينية يفعل المسلمون هذه البدع التي سرت اليهم ممن جاورهم من أهل الكتاب في مصر وغيرها لغير حاجة اليها و يزعمون — ان اعترض عليهم بالتشبه — أنها لاتشبه فيها لأن أناشيد أهل الكتاب هي غير أناشيدنا وهم يضعون في مباخرهم البخور، ونحن نضع فيها الزهور، وأنت ترى انه يمكن ان تكون مسافة البعد عن التشبه في العربة أوسع بأن تكون العربة التى تحمل عليها اموات المسلمين من قبيل عربات النقل ولكنها انظف وأكثر ارتفاعا ويوضع

التابوت عليها بالهيئة التي يحمل بها على الا كتاف عادة وبهذا ينتفي التشابه بالمرة لكنه لاينتفي في البدع المعتادة بما ذكر آنفا لان الفرق بين أناشيدنا وأناشيدهم المتحدة في الظاهر ليس بذي شأن لاسيما اذا كانوا يمدحون المسيح والحواريين و يستعينون بهم و يطلبون الرحمة من الله للميت فأكثر أناشيدنا المتبعة من هذا القبيل لأنهم ينشدون قصيدة البردة ونحوها ومدح النبي وأصحابه من قبيل مدح المسيح وحواريه عليهم السلام أجمعين . وبهذا تعلم أن المسألة مسألة عادات وتقاليد لامسألة حرص على السنة فان ماخالفوا فيه السنة واخذوا فيه بالبدعة لاحاجة اليه وما حرصوا فيه على العادة قد يحتاج الى تركه لمصلحة ونحن نتبع المصلحة في العادات ومتبع المصلحة لا يسمى متشبها بمن سبقه اليها ولا مقلدا له على ان تشبهنا بغيرنا فى عادة له لم يحرم علينا مالم يكن فيه مفسدة وضرر فله حينئذ حكمه

﴿ رهن العقار والديار ، على مديري الكنائس والاديار ﴾

(س ٤) ومنه : ماقولكم فيمن يرهن عقاره أودياره على مديري أموال الكنائس والأديار و يوفيهم مااصطلح معهم عليه من ربح المال شهريا و يدعي أن ذلك ليس من المعاملات الربوية ، ماهو حكمه هل يفسق بهذا الفعل أوهذا الاعتقاد أم له فيه فسحة أو مسامحة ؟ ومايقال في مساهمة أومعاملة من هذا ديدنه؟ ان أشبعتم الفصل والنقل في هذا الباب فهو من المهم في الدين لتساهل أهل هذه الجهة في الاحتياط والورع بل تقاعدهم في الحرام السحت والطغيان ،وتعاقدهم على الإثم والعدوان ، وتقاعدهم عن المبرات والاحسان ، فصارت معاملتهم كلها فاسدة بمايدعونه صحيحا وقدعم الربا هذا القطر (جاوى) من غير مبالاة فعسى أن يحصل لهم بما تضمونه ارتداع ولكم ثواب الدلالة على الهدى وإيضاح الحق

(ج) مديرو الكنائس والأديار كغيرهم من الناس فى المعاملات المالية ماخصهم الدين بأحكام في العقود والمعاوضات فالرهن عندهم كالرهن عند غيرهم ان جائزا في نفسه فجائز معهم وان ممنوعا فممنوع . والدين قد حرم الربا لما فيه من قساوة القلب وترك التعاطف والمواساة للمحتاج كما بينا ذلك بالتفصيل في

تفسير آيات الربا وبينا ماهو الربا المحرم بالنص فيراجع في المجلد التاسع

واعلم أنك اذا عددت كل مايقوله المصنفون في كتب الاحكام التي يسمونها فقهاً من أمور الدين وحكمت بفسق التارك لبعض شروطهم في هذه المعاملات الدنيوية فانك تقذف بالمسلمين في مأزق من الحرج لاقبل لهم به ولا طاقة لهم باحتماله . ان الدين حرم الربا والغش والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل والضرر والضرار وكل مافيه افساد للاخلاق وتدنيس للأرواح وأوجب عليهم الوفاء بالعقود وأقرهم على عقودهم مالم تحل حراماً أو تحرم حلالا وأباح لهم بعد ذلك أن يتعاملوا كيف أرادوا بالتراضي بينهم كما بينا ذلك مرارا وهم غير مكلفين بالعمل بآراء الفقهاء واجتهادهم التي لادليل عليها في النص الا اذا أمر الحكام بالقضاء فيها فحينئذ تتبع لاجل أن تكون المعاملات نافذة لاتدينا وتعبدا . مثال ذلك اشتراط الايجاب والقبول في البيع مثلا لم يتعبدنا الله به وقد قال به من قال اجتهادا لما رآه من المصلحة فيه فاذا تعارف الناس على نوع من المعاطاة وتراضوا به جاز لهم ذلك ديناً ولكنهم يضطرون الى التزام الايجاب والقبول اذا أرادوا أن يكون البيع نافذا عند حاكم يشترطه

﴿ حكم شرب البيرا وعصير الزبيب ﴾

(س ٥ و ٦) ومنه : ماهذا الشراب المسمى (بير) وماحكمه ومامادة أخذه وهل يقال انه من الأجزاء الدوائية أوغير المسكرات أويحل تناوله وهل هو أنواع ؟ وهل في عصير الزبيب مايجوز شربه ؟

(ج) البير هي (الجعة) أي الشراب المأخوذ من ماء الشعير ويقال انها تخمر بحشيشة الدينار وهي أنواع ولا شك في كونها من المسكرات ولكن يقال أن القليل منها لايسكر لاسيما بعد الاعتياد والصحيح المختار عند جماهير المسلمين ومنهم الشافعية الذين يقلدهم أهل بلادكم ان ما أسكر كثيره فقليله حرام وهي ليست من الأدوية ولكنها تفيد في تحليل البول وفي الحلال مايغني عنها في ذلك كالبقدونس ومن مرض بحصر البول ولم يجد محللا غيرها حل له التداوي بها بقدر الحاجة .

وعلمت انه يوجد نوع منها يستعمل للتحليل لايسكر قليله ولا كثيره ولكنه قليل المكث يشرب عقب صنعه فاذا طال عليه الامد أياما فسد وذهبت فائدته .

وأما عصير الزبيب فلا يحرم الا اذا اختمر وصار مسكرا وقد عجبت من هذا السؤال في غير شبهة وما زال المسلمون مذ كانوا يشربون ماء الزبيب وغيره منبوذا ومعصورا مالم يمكث زمناً يتخمر فيه ويصير مسكرا . وله في مصر وغيرها مواضع يباع فيها هو وماء الخروب وعرق السوس وغير ذلك

﴿ يانصيب ﴾

(س ٧) ومنه : « يانصيب » لم نعرف ماهيته ولم نر استئناسا لتعاطيه أودليلا على حله فماهو وما حكمه هو واشباهه ؟

(ج) هو نوع من أنواع القمار كيفيته أن يضع امرؤ اوشركة قراطيس صغيرة فيها أرقام تسمى نمرا أي أعدادا يذكر في كل قرطاس منها مايدل على ان كذا من هذه النمر يسحب في يوم كذا من شهر كذا وان طائفة منها (أي النمر) يربح كذا قرشاً أوجنيهاً أوفرنكا وكذا منها يربح كذا أي أقل من ذلك ويبيعون هذه القراطيس بثمن قليل بالنسبة الى ما يرجى من بعضها ويشتريها من يشتريها آملا أن تكون النمرة فيما يشتريه من النمر الرابحة واذاً يكون أعطى قليلا وأخذ كثيرا . وكيفية السحب أن توضع بطائق عليها أرقام تلك النمر في وعاء مستدير فيه ثقب يفتح بعد أن تخضخض البطائق في الوعاء فينزل منه بطاقة بعد أخرى امام شهود يصيح صائحهم ببيان نمرة كل بطاقة تنزل اذ تكون رابحة حتى اذا تم عدد ما كتب على القراطيس انه يربح يكون السحب قد تم وعرف الرابح من غيره مثال ذلك ان تكون النمر التي قدر لها الربح عشرة من مئة فالمعنى ان البطائق العشر التي تسقط أولا هي التي تكون رابحة ومن العادة ان تكون الأولى أوفر سهما . وهذا العمل من القمار أي الميسر المحرم في الدين كما هو معلوم

باب التربية والتعليم

نصر من الله وفتح قريب

﴿ الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ﴾

قال الاستاذ الامام عليه رضوان الله تعالى « يستحيل بقاء الأزهر على حاله فإما أن يصلح وإما أن يسقط » وكان أكرم الله مثواه باذلا جل عنايته في إصلاحه حذرا من سقوطه وحرمان المسلمين مما يرجى بإصلاحه وكان أقدر من عرفنا من الناس على هذا الاصلاح وسائله ومقاصده وأحكمهم في تنفيذه إلا أنه أخطأ في أمر واحد لولاه لتم له ما أراد من الاصلاح وهو فوق ما طلب منه. ذلك الأمر هو محاولة إصلاحه برضي كبراء شيوخه واستعمالهم فيه بالاقناع دون السلطة الا ما بدأ به من وضع قانون لادارته والسعي في إصدار ارادة من الأمير به بناء على قرار من مجلس النظار لعلمه أن العمل بدون ذلك متعذر ولا محل لشرح ذلك هنا بل موضعه الجزء الأول من تاريخه الذي نعني بطبعه الآن وانما نريد أن نبين أنه كان يحاول تنفيذ هذا القانون بدون استعانة بسلطة التنفيذ في البلد بل بمجرد رضى شيخ الأزهر واعضاء الإدارة

كان الشيخ حسونه النواوي أول من ولي المشيخة واختير للعمل بهذا القانون مع المرحوم وسائر من اختيروا للادارة وكان المرحوم هو الذي اختاره وسعى لدى الأمير بتعيينه وكيلا للشيخ الانبابي المرحوم ثم أصيلا وقد استعان على هذا ببعض أصدقائه كالمرحوم أمين باشا فكري . ذلك انه كان يعتقد أن الشيخ حسونه أمثل الشيوخ وأرجاهم لقبول الاصلاح . علمت ذلك منه أول مقدمي لمصر سنة ١٣١٥ اذ قلت له: سمعت من بعض مجاوري الأزهر الطرابلسيين ان شيوخ الأزهر قد امتعضوا من جعل الشيخ حسونه شيخاً للأزهر لأنهم لا يعدونه من كبار العلماء فقال ان كانوا يعنون بذلك انه لا يقدر على ايراد الاحتمالات الكثيرة في مثل عبارة جمع الجوامع فهذا صحيح ولكن هذه الاحتمالات التي

يوردونها ليست من العلم في شيء والشيخ حسونه أمثلهم : وقد دلت التجارب على صدق هذا القول — ولا ننسى فضل المرحوم السيد علي البيلاوي الذي ظهر من فضله فوق ما كان يظن فيه — فان ما جرى على يد الشيخ حسونه أولا وآخرا لم يجر على يد غيره مثله

نعم كان الشيخ حسونه يرجئ بعض ما يقترح المرحوم عملا بالتدريج عن رأي واعتقاد ولكنه لم يكن يقرر الشيء ولا ينفذه كما فعل من جاؤا بعده ما عدا البيلاوي وقد تقلب على الأزهر في هذه المدة عدة شيوخ كان أشهرهم في علوم الأزهر أبعدهم عن الإصلاح. فالشيخ سليم البشري من أشهرهم لم يجر على يده شيء بل كان معارضا لكل شيء فأرضى أمثاله من المحافظين على القديم وأغضب طلاب الجديد والشيخ عبد الرحمن الشربيني أشهرهم على الإطلاق وهو لم يفعل شيئا ولم يرض طائفة من الطائفتين

قلت للاستاذ الامام مرة : ان قرار مجلس إدارة الازهر هو كقرار كل مجلس رسمي وكل محكمة يطالب القانون بتنفيذه ويعاقب على تركه فلماذا لا نطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التي يمتنع شيخ الأزهر من تنفيذها بصفة رسمية فلو فعلت هذا مرة واحدة لنفذ كل قرار، فقال: ان هذا لا يكون الا بسلطة الحكومة واني أرجو أن لا أدع الحكومة تتداخل في الأزهر ما دمت فيه فكيف أكون أنا الذي يدعوها الى ذلك فنحن ندعو الشيوخ بالاقناع معتصمين بالصبر

وكان يكره ان يكون « للمعية » اصبع في الأزهر كما يكره ان يكون للحكومة يد فيه لاعتقاده ان خير الاصلاح في العلم والدين ما كان بعيدا عن السياسة قائما عن اقتناع العلماء به واستقلالهم فيه؛ ولكن « المعية » ولعت بالأزهر ولوعا كاد يكون عشقا وغراما ولما رأت ان تمتعها بهذا المعشوق لا يتم مع وجود هذا العذول الرقيب طفقت تناهضه حتى كان ما كان من أمر استقالته من ادارة الازهر وكان ما كان بعده من الخلل في هذا المكان حتى أدى ذلك الى اقامة نائب عن شيخه الشربيني يدير الأمر من دونه عدة أشهر ثم الى استقالته واعادة الشيخ حسونه الى المشيخة وعلى يد الشيخ حسونه تم مشروع مدرسة القضاء الشرعي وصدر به

الأمر العالي فصدق قول المرحوم فيه انه امثلهم في حياته وبعد مماته

مما كان ينويه من اصلاح الأزهر انشاء قسم قضائي فيه يرشح فيه الطلاب لمنصب القضاء زاده حرصاً عليه اقتراح المستر سكوت المستشار القضائي الأول اصلاح المحاكم الشرعية وجواز جعل المتخرجين في مدرسة الحقوق الخديوية قضاة شرعيين . لم أر الاستاذ مهتما في مقاومة شيء كاهتمامه فى حمل الحكومة على الإغضاء عن جعل متخرجي الحقوق قضاة للشرع ، سعى في ذلك وحاول إقناع كبراء الشيوخ بأن يسعوا معه فلم ير منهم مبالاة فكان يتململ و يقول إذا نفذ هذا المشروع قضي على الازهر وقد نجح سعيه فلم ينفذ

وعندما حاولت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية للمحكمة الشرعية العليا بمصر ولم يتم ذلك قوي عزمه وظن أن الفرصة سنحت لإنشاء القسم القضائي وقد فتحنا كوة للبحث في ذلك اذ انشأنا مقالة في المنار الذي صدر في ذي الحجة سنة ١٣١٦ نقترح فيه إنشاء هذا القسم القضائي ولكن حال دون إنشائه عزل الشيخ حسونه من المشيخة وتولية الشيخ عبد الرحمن القطب فى ٢٤ المحرم سنة ١٣١٧ ولم يلبث هذا أن توفي بعد شهر من توليته وولي الشيخ سليم البشري الذي وقف في عهده سير الإصلاح وكان من أمر «المعية» من أول عهده الى الآن ماأشرنا آنفا الى أنه انتهى باستقالة المصلح العظيم من ادارة الازهر وبهذا انقطع رجاء الحكومة من إصلاح حال القضاة الشرعيين الذين ضجت منهم الأمة طالبة بلسان الجمعية العمومية ولسان مجلس الشورى إصلاح المحاكم الشرعية فعهدت اليه بوضع مشروع انشاء مدرسة قضائية يتولى هو بنفسه أمرها وكان هذا المشروع آخر عمل اصلاحي عمله اذ تم فى أوائل مرض الموت وما كان يؤمله من هذا المشروع الا انفصاله عن الأزهر وقصارى ماأمكنه من وصله به جعله تحت نظر مفتي الديار المصرية دائمًا وكان للحكومة معه وقفة في هذه المسألة

تبارك ناصر المخلصين ، أحياء وميتين ، فقد قضت حكمته عز وجل أن يقوم بتنفيذ المشروع ويجعله أشد صلة بالأزهر سعد باشا زغلول ناظر المعارف لهذا العهد ولا يجهل أحد من المصريين من هو سعد باشا من الاستاذ الامام ، وان يكون

ذلك في عهد مشيخة الشيخ حسونه وبعد موافقته عليه وجعله تحت نظره وقد علم القراء اعتقاد المرحوم في الشيخ حسونه وما كان من نيته فى أيام مشيخته الأولى وهاك نص القانون في ذلك

(مشروع أمر عال)

﴿ بانشاء مدرسة القضاء الشرعي ﴾

نحن خديوي مصر

بعد الاطلاع على قانون الجامع الازهر الصادر به الامر العالي بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٣١٤ (أول يوليه سنة ١٨٩٦) نمرة ٣

وبناء على ماعرضه علينا ناظر المعارف العمومية وموافقة رأي مجلس النظار أمرنا بما هو آت

المادة الاولى — يخصص قسم من الازهر لتخريج قضاة ومفتين واعضاء ووكلاء دعاوي وكتبة للمحاكم الشرعية ويسمى (مدرسة القضاء الشرعي)

المادة الثانية — تكون هذه المدرسة باعتبار كونها قسما من الازهر تحت اشراف شيخه ويكون لطلبتها من الامتيازات مالغيرهم من الازهريين ويتولى ادارتها ناظر يعينه ناظر المعارف ويكون لها محل مخصوص

المادة الثالثة — تنقسم هذه المدرسة الى قسمين القسم الاول لتخريج كتبة للمحاكم الشرعية والقسم الثاني لتخريج قضاة ومفتين وأعضاء ووكلاء دعاوي للمحاكم الشرعية أيضا

﴿ القسم الاول ﴾

المادة الرابعة — يشترط فيمن يدخل القسم الاول من مدرسة القضاء الشرعي ما يأتي :

اولا — ان يكون طالب علم في الازهر أو احد ملحقاته مدة ثلاث سنين وان يكون حميد السيرة

ثانيا — ان يكون صحيح الجسم سليما من العاهات

ثالثا ان ينجح في امتحان الدخول في المواد الآتية :

(ا) حفظ نصف القرآن الكريم على الاقل

(ب) المطالعة في الكتب السهلة مع الصحة وفهم المعنى

(ج) الاملاء

(د) النحو

(ه) الفقه

(و) مبادىء علم الحساب

المادة الخامسة — يكون امتحان الدخول في هذا القسم تحت رياسة شيخ الجامع الازهر أو من ينيبه عنه بواسطة لجنة أو اكثر على حسب الاحوال مؤلفة من عضوين ينتخبهما ناظر المعارف العمومية بعد أخذ رأي لجنة الادارة المبينة فى المادة ١٨

المادة السادسة — تكون مدة الدراسة في هذا القسم خمس سنوات

المادة السابعة — تدرس في هذا القسم العلوم الآتية :

التفسير ـ الحديث ـ الفقه على مذهب أبي حنيفة ـ التوثيقات الشرعية ـ التوحيد ـ المنطق ـ آداب واخلاق دينية ـ نظام المحاكم الشرعية والاوقاف والمجالس الحسبية ونظام القضاء والادارة ـ اللغة العربية ـ الحساب والهندسة ـ التاريخ والجغرافيا ـ الخط

المادة الثامنة — الامتحان النهائي للقسم الاول يكون تحت رياسة شيخ الجامع الازهر أو من ينيبه بواسطة لجنة أو اكثر على حسب الاحوال مؤلفة من عضوين ينتخبهما ناظر المعارف بعد أخذ رأي لجنة الادارة المبينة فى المادة ١٨

المادة التاسعة يكون الامتحان في مواد الدراسة بالقسم الأول تحريريا وشفهيا على حسب التفصيل الذي تشتمل عليه اللائحة الداخلية

المادة العاشرة — تعطى لمن نجح في الامتحان النهائي لهذا القسم شهادة الاهلية الأزهرية ويكون أهلا بموجبها لان يعين كاتبا بالمحاكم الشرعية فضلا عن المزايا المقررة لها بحسب قانون الأزهر

﴿ القسم الثاني ﴾

المادة الحادية عشرة — يشترط فيمن يدخل القسم الثاني من مدرسة القضاء الشرعي ما يأتي :

أولا — أن يكون حاملا لشهادة القسم الأول

ثانيا — أن يكون صحيح الجسم سليما من العاهات

ثالثا — أن يكون حميد السيرة لم يسبق الحكم عليه بسبب أمر مخل بالشرف وأن يكون عاملا بأمور دينه

المادة الثانية عشرة — تكون مدة الدراسة في هذا القسم أربع سنين

المادة الثالثة عشرة — تدرس في هذا القسم العلوم الآتية :

تفسير وحديث — الفقه على مذهب أبي حنيفة — حكمة التشريع — الأصول على مذهب أبي حنيفة — آداب البحث — توحيد — منطق — آداب وأخلاق دينية — أصول القوانين — نظام المحاكم الشرعية والاوقاف والمجالس الحسبية ونظام القضاء والادارة — محاضرات عامة ودراسة بعض القضايا ذات المبادىء الشرعية — اللغة العربية — العلوم الرياضية — التاريخ — تقويم البلدان — الخواص التي أودعها الله تعالى في الأجسام

المادة الرابعة عشرة — الامتحان النهائي للقسم الثاني يكون تحت رياسة شيخ الجامع الازهر أو من ينيبه عنه بواسطة لجنة أو أكثر على حسب الاحوال وتتألف كل لجنة من خمسة أعضاء ينتخبون من علماء الأزهر وأرباب المعارف الفنية بمعرفة ناظر المعارف بعد أخذ رأي لجنة الادارة المبينة فى المادة ١٨

المادة الخامسة عشرة — يكون الامتحان في مواد الدراسة بالقسم الثاني تحريريا وشفهيا على حسب التفصيل الذي تشتمل عليه اللائحة الداخلية

المادة السادسة عشرة — يصدر لمن نجح في الامتحان النهائي للقسم الثاني البيورلدي العالي المنوه عنه في المادة ٥٣ من قانون الازهر وزيادة عما لحامله من المزايا يصير أهلا بموجبه لأن يكون وكيل دعاوى أو قاضيا أو مفتيا أو عضوا أو نائبا بالمحاكم الشرعية

﴿ أحكام عمومية ﴾

المادة السابعة عشرة — يكون للمدرسة لجنة ادارية تسمى لجنة الادارة وتتألف من شيخ الجامع الازهر أو من ينوب عنه رئيساً ومن مفتي الديار المصرية ومن ناظر المدرسة ومن عضوين آخرين ينتخبهما ناظر المعارف بالاتفاق مع ناظر الحقانية

المادة الثامنة عشرة — تختص لجنة الادارة بما يأتي :

أولا — تحرير اللائحة الداخلية

ثانياً — وضع پروجرامات الدراسة وتوزيعها على السنين والاوقات المختلفة وبيان درجات كل علم

ثالثاً — انتخاب المدرسين بالمدرسة

رابعاً — انتخاب أعضاء لجان الامتحانات المختلفة

خامساً — تقرير ما ينبغي صرفه من الاعانات الشهرية لطلبة القسم الأول والثاني

سادساً — تقرير الاجازات التي تعطل فيها الدراسة

سابعاً — ما يطلب منها ناظر المعارف النظر فيه

قرارات هذه اللجنة تكون نافذة بعد تصديق ناظر المعارف عليها

المادة التاسعة عشرة — مرتبات الموظفين والمدرسين بهذه المدرسة تقدر على حسب أهمية وظائفهم وأهمية الدروس التي يكلفون بالقائها ويعطى لطلبتها اعانة شهرية

المادة العشرون — لا يصح أن ينتخب مدرس في هذه المدرسة من غير علماء الازهر الا اذا كان مسلماً حميد السيرة ومشهوداً له بالبراعة في الفن المعين لتدريسه

المادة الحادية والعشرون — ناظر المدرسة هو المكلف بضبطها ونظامها وتنفيذ قرارات لجنة الادارة فيها

﴿ أحكام وقتية ﴾

المادة الثانية والعشرون — اذا ظهر من نتيجة امتحان الدخول في القسم الأول في أثناء السنوات الاربع الأولى التالية لافتتاح المدرسة وجود طلبة مستعدين

لتلقي دروس أي سنة أعلى من السنة الاولى وعددهم كاف لتشكيل هذه السنة جاز تشكيلها وذلك بطريق الاستثناء من أحكام المادة ٦

المادة الثالثة والعشرون — يجوز في أثناء السنوات الخمس الاولى التالية لافتتاح المدرسة أن يقبل بالقسم الثاني طلبة الأزهر ممن قضوا ثمان سنوات بدون شهادة الاهلية أو العالمية اذا توفرت فيهم الشروط الاخرى المنصوصة في تلك المادة وذلك استثناء من أحكام المادة (١١)

المادة الرابعة والعشرون — على ناظر المعارف تنفيذ هذا القانون

(المنار) عرض هذا المشروع على كبيري العلماء ورئيسهم الشيخ حسونه شيخ الأزهر والشيخ بكر الصدفي مفتي الديار المصرية قبل عرضه على الحكومة رسمياً وبعد مذاكرة بينهما وبين ناظر المعارف وبعد تحوير اقترحاه فأجابهما الناظر اليه أقرا المشروع ثم أرسل ناظر المعارف نسخه الى «المعية» والنظار ووصل بعضها الى جريدة اللواء فنشرته وبعد أيام من نشره لم يسمع له فيها صوت انبرى بعض المدرسين في الأزهر الى انتقاد بعض مواده في الجرائد وكتبوا الى ناظر المعارف عريضة ذهب وفد منهم فقدمها اليه في النظارة فطلب منهم أن يختاروا أربعة منهم للكلام معه فوعد الأربعة باجابتهم الى ما طلبوا وأهمه عدم امتحان من يطلب الدخول في المدرسة من حاملي شهادة العالمية وكان ذلك حتما مقضياً في المشروع. ثم ذهبت طائفة أخرى من المجاورين النبهاء فشكوا الى الناظر من اشتراط كون طالب الدخول حنفي المذهب وكونه حاملا لشهادة العالمية فوعدهم باجابة طلبهم فانقلبوا كسابقيهم مسرورين شاكرين وقد وفى الناظر بوعده للفريقين

ثم اننا سمعنا بعد ذلك من جانب الأزهر دندنة وجمجمة وقيل ان بعض المشايخ جاء من خارج القاهرة فطاف على كبار الشيوخ واجتهد في اقناعهم بمعارضة المشروع حتى انه ظاهر بين المتدابرين لاجل الاتفاق وتحدث الناس بأن صدور الامر العالي بالمشروع سيرجأ وذكرت الجرائد ما يدل على ذلك قبل اجتماع مجلس النظار برياسة الامير بيوم أو يومين ولكن المشروع عرض على المجلس وصدر الامر العالي به « وقضى الله أمرا كان مفعولا » وافتتح لطلاب

العلوم الدينية باب النظام في التعليم و باب علوم الكون وذلك فتح مبين ، ومبدأ تاريخ في المسلمين جديد

ولا نزال نسمع عن الشيوخ أنباء الائتمار والدعوة الى الاتفاق على طلب نسخ بعض مواد هـذا القانون بناء على المقرر في الاصول من جواز نسخ الحكم المشروع قبل العمل به واذا جاز في الدين فلأن يجوز في القوانين أولى . والمشتغل منهم بالسياسة والمتحرك فيهم بالسياسة يقول ان الامر العالي الذي صدر بتعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية في المحكمة الشرعية العليا قد اوقف تنفيذه لما كان من معارضتهم . وانني اخشى ان استرسلوا في هذا الغرور ، وغرهم بما يغريهم به الغرور ، أن يلجئوا الحكومة الى السيطرة عليهم ، وتعيين مدير للازهر يدير أمر التعليم و ينفذ القانون ، والله يعلم وانتم لا تعلمون ، ولكن الرجاء في الشيخ حسونه وقد حنكه الزمان ، وهو أعلم منهم بما كان ، ان يتلافى ذلك بالحكمة ، ويرضي بحسن ادارته الحكومة والأمة ،

آثار علمية ادبية

﴿ وقائع الحرب ﴾

نظم فارس أفندي الخوري أحد كتاب الشام وشعرائها المشهورين أربع قصائد في تاريخ الحرب بين الروس واليابان التي كان مبدأها أوائل فبراير (شباط) سنة ١٩٠٤م ونهايتها . في أوائل سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٥ وأهداها الى صديقه الدكتور حسين أفندي حيدر فطبعها هـذا طبعا متقنا بمطبعة الأخبار بمصر . وهي تباع بمكتبة المنار بشارع درب الجماميز بقرشين صحيحين . وانا نورد بعض الفصول من هذه القصائد لما فيها من الفائدة والعبرة في ثوب الفكاهة والتسلية ومنها يعلم القارىء درجة الناظم في القدرة على نظم الوقائع وضبطها مع الانصاف والامانة في النقل ، وتحري تنبيه الذهن وإنارة العقل ، قال في القصيدة الأولى وهو

الفصل ٥ و٦ و٧ (وما في الهوامش من تفسير بعض الكلم منقول من الاصل اذ وضع في آخره جدول لذلك)

٥

﴿ نكبة الروس بغرق الاميرال مكروف على الدارعة بتروبالسك ﴾

في ١٣ نيسان سنة ١٩٠٤

سعى طوغو على مكروف يوم الـ ... لقا وأعد تدبيراً مريرا
أقام له الفخاخ بكل وجه ... يؤججه بها ناراً حرورا
وناصبه بعرض البحر حرباً ... فكر عليه لا يخشى نكيرا
أثارته الشهامة عن عرين ... ويأبى الليث الا أن يثورا
فقاتله وناضله بقلب ... يريه كل معتاص يسيرا
ولكن لما عدد قليل ... يفوز ويغلب العدد الكثيرا
تدفقت الكرات عليه حتى ... رأى في الكر موقفه مبيرا (١٠)
فدار الى الخليج يريد أمناً ... وكان بواره في أن يدورا
مضى يجتاز فوق فخاخ طوغو ... كملاح يحاذر ان يجورا
الى ان شقت الغمرات فاها ... وأصعدت البلايا والسعيرا
فشاهد تحت اخمصه جحيما ... وقد فتحت قذائفه حفيرا (١١)
كأن جهنما وجدت سبيلا ... ومطوياتها لقيت نشورا
كأن هناك بركاناً تلظى ... وأطلق في الفضا ناراً ونورا
كأن البحر غضبان عليهم ... لما جروا على الدنيا شرورا
طوى بضميره حنقاً فلما ... دنا مكروف كاشفه الضميرا

(١٠) المبير المهلك (١١) الحفير القبر

هوت فيه السفينة في خليج ... وكانت قبل تحترق البحورا
على مكروف قد بكت البواكي ... وأطلقت المدامع والشعورا
ففاض له بأرض الروس دمع ... يؤلف لو يضم معاً غديرا
بمصرعه عزوم الروس خارت ... وحق لها بذلك ان تخورا
رجاء القوم معقود عليه ... ليدفع عنهم الخطب العسيرا
أميرهم وعند أشد ضيق ... يراد لكشفه فقدوا الاميرا
فكان بهديه قمراً مضيئاً ... وكان بكره أسداً مزيرا (١٢)
وان الروس لايسلون عنه ... ولو وجدوا له فيهم نظيرا

٦

﴿ الوقعة البرية الاولى على نهر يالو ﴾

في ١ ايار سنة ١٩٠٤

أقام الروس في يالو قلاعاً ... على تحصينها صرفوا شهورا
مسيل النهر دونهم فظنوا الـ ... عدى لايستطيعون العبورا
ومن خاض البحور الى الاعادي ... أيأبى ان يخوض لهم نهورا
مشى اليابان لايخشون بؤساً ... وماء النهر يكتنف الصدورا
بجيش كل من فيه جريء ... تمنى للاعادي ان يطيرا
وصبوا من مدافعهم كرات ... يفلق عزم صدمتها الصخورا
لئن صبرت جيوش الروس شيئاً ... فبعد هنيهة ولت ظهورا
وأبقت من ذخائرها نهاباً ... ومن أعتادها شيئاً كثيرا (١٣)
ولليابان في الآثار شد ... فكم قتلوا وكم أخذوا أسيرا

(١٢) المزير الشديد القلب والقوي النافذ «١٣» أعتاد الحرب أدواتها وعدتها

اتوا أنطنغ بالرايات حتى ... على أسوارها خطرت خطيرا
لعمرك ليس يحمي السور مدناً ... اذا عدمت من التدبير سورا
فهل حدثت في أخبار دلني ... وما شادوا بساحتها قصورا
وما قد أنفقوا عملا ومالا ... على المرسى وكيف جرى أخيرا
أباحوها الى اليابان غنماً ... وما نالوا على نصب أجورا
ولا عجب لمختال مدل ... اذا أخلى الحواضر والثغورا
اذا غفل الرعاة عن المواشي ... فمن ذا يدرأ الاسد الهصورا
وان الخاشع اليقظان يكوي ... بحد حسامه البطل الفخورا
كذلك من توخى البغي متناً ... تراه بدون معثرة عثورا



(٧)

﴿ وقعة كنشو ﴾

وكنشو بالمدافع منعوها ... وولوا حفظها جيشاً كبيرا
وظنوا أنها تبقى طويلا ... وتثبت في خفارتهم دهورا
أغار الخصم منقضاً عليها ... ونار الروس تكتسح المغيرا
الى ان كوروا القتلى تلالا ... وأوشكت المعاقل ان تمورا (١٤)
رأوا ان العدو يموت طوعاً ... ولا يأبى التقحم والكرورا
ومن رغب المنية وانتحاها ... يبيت عدوه عنها نفورا
بدا للروس ان الفتح دان ... يغذ فلا معين ولا مجيرا (١٥)
فولوا تاركين على الروابي ... ذخائرهم لأعداهم نصيرا

«١٤» المعاقل الحصون وتمور تهتز وتميل الى السقوط «١٥» يغذ يسرع في السير

لقد شمخوا على اليابان لما … رأوا جنديهم قزماً زميرا (١٦)
وقالوا سوف نطحنهم فتغدو … قبورهم الضواري والنسورا
ولكنا على يالو وكنشو … وجدنا القول بهتاناً وزورا
فعرض الجسم لايغني فتيلا … وطول القد لايجدي نقيرا
ألست ترى الوليد وفيه حزم … يسوم الفيل خسفاً والبعيرا
رهام الطير تنخلع ارتياعاً … اذا رأت البواشق والصقورا

وقال في أول القصيد الثانية

(الوقعة الكبرى فى جوار مكدن في ١٥ شباط سنة ١٩٠٥)

(١)

بمكدن كور بتكن لم جيشاً … وشاد له المعاقل والحصونا
رأى الأعتاد وافرة لديه … فظن مقامه حرزاً حصينا
ولكن رأي أوياما أراه … أموراً خيبت تلك الظنونا
أقام له المراصد في الصياصي … وبين جفونه بث العيونا (٣٩)
تخبره بما اصطنعوا دفاعاً … لحوزتهم وكيف يدبرونا
أعد الخطة المثلى ليوم … يروع حر أزمته السنينا
ورتب للهجوم عليه رأياً … يكون لمجد رايته ضمينا
وهز جناحي الجيش التفافاً … على أعدائه المتحصنينا
رمى اليسرى بكوركي فنذزو … فأكو ثم في نوجي اليمينا

(٢)

ودارت للمنون رحى طحون … لها الاجساد قدصارت طحينا

«١٦» القزم الزمير القميء الصغير الجثة الذي لاغناء عنده
«٣٩» الصياصي جمع صيصية وهي مرتفعات الارض والمشارق التي يمتنع بها

وطبق كل ناحية دخان … كثيف أسود يعمي العيونا
وصوت القذف أوقر كل أذن … فان سمعته تحسبه طنينا
فليس بمبصر أحد أخاه … وما هو سامع منه الانينا
فصار الحزن من دك سهولا … وصار السهل من جثث حزونا
لو انقشع الدخان بدت أمور … ترد المرد شيباً منحنينا
جيوش كيفما العين استدارت … تراهم يظهرون ويختفونا
كان الأرض بالابطال حبلى … تدفعهم حيارى صارخينا
فلا حجر تراه العين الا … يحجب خلفه منهم جنينا
كان حجارها الصم استحالت … رجالا بالحديد مسربلينا
فلا واد بتلك الارض الا … ويخرج من معاطفه كمينا
كان عقولهم ذهبت شعاعاً … فليس لهم بها مايرهبونا
فكل فتى غدا أسداً هصوراً … وموطيء رجله أضحى عرينا

﴿ حديث عيسى بن هشام ﴾

(أوفترة من الزمن)

لمحمد بك المويلحي مقالات أدبية كان ينشرها في جريدة مصباح الشرق بأسلوب مقامات البديع والحريري وراويتها عيسى بن هشام . وكان يتمنى كثير ممن قرأها من محبي الأدب لوتجمع فى كتاب فكان لهم ماتمنوا . جمع الكاتب نفسه هذه المقالات ونقحها وزاد فيها ونقص منها وطبعها فكانت كتابا صفحاته ٣٣٦ وقد قال فى (إهداء الكتاب) مايأتي

« الف المؤلفون والكتاب أن يبدوا كتبهم عند نشرها بإهدائها الى بعض ذوي الشأن والفضل والضعيف العاجز يهدي هذا الكتاب الى كل من يقرأه من أديب يجد فيه طرفا من الأدب ، وحكيم يرى فيه لمحة من الحكمة ، وعالم يبصر فيه

شذرة من العلم ، ولغوي يصادف فيه أثرا من الفصاحة ، وشاعر يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال . واهديه الى أرواح المرحومين — الأديب الوالد ، والحكيم جمال الدين ،والعالم محمد عبده ، واللغوي الشنقيطي ، والشاعر البارودي ، أولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدبت بأدبهم وأخذت عنهم » اه ونقول ان هذا العبارة ابلغ مافي الكتاب من خيال الشعر الفصيح، ولمحات الحكمة في التلويح، ثم ذكر صورة كتاب كانت عنده من السيد جمال الدين بخطه وهي

حبيبي الفاضل

تقلبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسراتها،وخوضك في فنون الآداب يريح قلوبا علقت بك آمالها،وليس بعد هذا الارهاص الا الاعجاز ولك يومئذ التحدي ، ولقد تمثلت الطيفة الموسوية في مصر كرة أخرى،وهذا توفيق من الله تعالى ، فاشدد أزرها، وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها، حتى تكون كلمة الحق هي العليا، ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها،وساقتهم الظنون الى مهواة شقائها ،وحسبوا أنهم يحسنون صنعاً ، و يصلحون أمراً ،وكن عونا للحق ولو على نفسك، ولا تقف في سيرك الى الفضائل عند عجبك،لانهاية للفضيلة ولا حد للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك والسلام

جمال الدين الحسيني الافغاني

﴿ الدقائق فى الحقائق ﴾

ألف يعقوب أفندي جبرائيل مراد مترجم وسكرتير ادارة دائرة بوالينو درانيت باشا بكفر الدوار كتابا سماه بهذا الاسم أودع فيه أفكاره في النفس والروح والقدرة الآلهية والأديان وقد أهدى الينا نسخة مطبوعة منه فنظرنا في بعض صفحاتها من أوائلها وأواخرها فرأينا فيها فكرة حسنة سبق المؤلف فيها أناس ولكنه لم يأت بها تقليدا بل هداه اليها النظر والفكر فتقبلها بقبول حسن بل أدهشه حسنه وجمالها، وراعته عظمتها وجلالها ،فملكت قلبه ، وفتنت لبه ،حتى ظن أنها الهام، افاضه عليه ذو الجلال والاكرام،لان مثلها لا يأتي من الفطنة ولا يستفاد بالتعليم ،كما قال عاشقات يوسف «ما هذا بشرا ، ان هذا الا ملك كريم» ثم سرت منها عدوى الافتتان بها،

الى الهيام بالعبارة المؤدية لها،فتخيل ان الاعجاز ينطوي في كلامه ،الماشر لالهامه أو المعبر لاحلامه ،

اما الفكرة الحسنة فهي الجمع بين الكتب المنزلة — التوراة والزبور والانجيل والقرآن — وازالة التفرق بين متبعيها . هذا مادعا اليه الاسلام ونادى به القرآن ،وهو وحي الرحمن، فكل من دعا اليه فقد دعا الى المقصد الحق وان أخطأ في الوسيلة ولا بد لكل قول من تأثير فى نفوس مستعدة له فاذا كان في الناس من يعد هذا الكتاب كما قال الاستاذ الامام فى بعض الجرائد « نوبات عصبية » فلا بد ان يوجد فيهم من يعده حكمة مرضية

﴿ القول المتين . في الرد على المخالفين ﴾

رسالة للشيخ قاسم بن سعيد الشماخي صاحب مجلة نبراس المشارقة والمغاربة طبعت في العام الماضي واهدانا نسخة منها في هذه الايام فرأينا فى فاتحتها أنه يرد فيها على مجلة اسمها الاسلام يصدرها فى بعض الاحيان رجل اسمه الشيخ احمد علي الشاذلي وكأن الشيخ قاسما ظن أن لهذه المجلة شأنا ،أولما تكتبه وقعا، فعني بالرد عليها وماهي ممايرد عليه ،ولوعرف حقيقتها ، لما بذل شيئا من الزمن في قراءتها بله الرد عليها،وقد القيت الينا مرة نسخة منها قيل لنا ان فيهاردا علينا فلم يحركنا ذلك الى تناولها حرصا على الوقت ان يضيع فى قراءة شيء منها . وقد وقع نظري في هذه الفاتحة على اسم المنار فقرأت اسطراً من الكلام الذي ذكر فيه فاذا هو حكاية عن رجل هندي انكر على المنار انكار التقليد والدعوة الى معرفة الدين بالدليل . عرفت ذلك الهندي وماهو بهندي ان هو الارجل مصري كان يبيع الكتب فى اسواق مصر وشوارعها وملاهيها — كما قيل لي — ثم طوحت به الطوائح الى كلكته وهناك عين اماما فى مسجد وما هو ممن يحفل بقوله ولا باعتراضه فعسى أن يسامحني الشماخي اذا لم اجبه الى قراءة ما كتبه في هذه الرسالة وقدعلمت انه دافع عني فانا اشكر له ذلك وأسأل الله لي وله التوفيق

﴿ فتاة مصر ﴾

قصة وضعها الدكتور يعقوب أفندي صروف وجعلها ذيلا للمقتطف فى مجلد

سـنة ١٩٠٥ وهي قصة لا كالقصص فإن أكثر القصص لغو وما عساه يوجد فيها من الفائدة فهو كما قيل في الخروب « درهم عسل في قنطار خشب » واما هذه القصة فكثيرة الفوائد وترجع فوائدها الى شيئين عظيمين أحدهما مالي والآخر أدبي اجتماعي . أما الأول ففيه بيان مكانة المال فى هذا العصر وقوة رجاله وما لهم من السلطان في عالم السياسة حتى صور الكاتب ان الحرب اليابانية الروسية ما أشعل نارها الا رجال المال في أوربا . وفيه بيان تلاعب رجال بيوت المال المعروفة (بالبورص) بالأغنياء وابتزازا أموالهم بالمكايد وفي ذلك عبرة لاغنياء مصر المفتونين بالبورصة والقمار ان كانوا يعتبرون . وأما الثاني ففيه تصوير لمعاشرة الوجهاء من المسلمين والنصارى واليهود بعضهم لبعض ورغبة بعضهم فى مصاهرة بعض . وجعل من رجال القصة شيخا عبر عنه بالشيخ أحمد والامام أحمد كان يرجع اليه في المسائل التي لها علاقة بالاسلام فيتكلم بالحكمة وما يليق بالاسلام من حب الألفة والسلام — وقد انتقد الناس من القصة بعض ماجاء فى موضوع ألفة الطوائف ورغبة بعضها في مصاهرة بعض زاعما أن فيه تمثيلا لاينطبق على الحقيقة فان صح هذا صح ان يجاب عنه بأن القصص النافعة قسمان قسم يصور الواقع لمعرفة التاريخ وقسم يصور مع الواقع ماينبغي أن يكون كأنه كائن واقع ترغيبا فيه أو إيلافا له وتقريبا منه

وجملة القول ان القصة مفيدة وقد طبعها على حدتها اسحاق أفندي صروف أحد محرري المقطم وهي تطلب منه وثمنها عشرة قروش

﴿ مرآت علوم ﴾

مجلة تركية تبحث في العلوم والفنون وشؤون الاجتماع أنشأها فئة من الكتاب الفضلاء وعهدوا بإدارتها الى أحدهم رفيق بك العظم الشهير والغرض الأول منها إسعاد مسلمي روسيا في نهضتهم العلمية الجديدة فنحث قراء اللغة التركية العذبة في كل مكان على الاشتراك في هذه المجلة وقيمته أربعون قرشا في السنة وهي قليلة جدا لاتفي بنفقات المجلة الا اذا كثر المشتركون كثرة عظيمة وأحسنوا الأداء

﴿ سلام الاسلام ﴾

رسالة للشيخ محمد نسيم العازار كتبها لبيان ما تنوي به دول أوربا وتحاوله من ابتلاع بلاد المسلمين وطريق تلافيه . اما الكاتب فهو من بيت العازار من (اميون) بلدة أو قرية في الكورة من أعمال جبل لبنان وهو بيت معروف بالوجاهة يدين بمذهب الارثوذكس من مذاهب النصرانية وقد دخل الكاتب في الاسلام من عهد قريب دخولا رسمياً في محاكم مصر الشرعية وهو شاعر ناثر فرأى أن يكون أول ما يخطه بعد الدخول في الاسلام إنهاض همة المسلمين بالنثر والنظم وبيان رأيه السياسي في أمرهم . وأما هذا الرأي فهو ماقاله في رسالة (سلام الاسلام) بعد التمهيد له وهو (كما في ص ٩ و١٠ و١١ منها)

« ان ما يجب عمله بسيط جداً ولكنه فى بساطته يضمن للاسلام عموماً القاطنين في انحاء الارض جميعها والمستظلين تحت ظلال اعلام دولهم وألوية الدول الاجنبية راحتهم وسعادتهم وذلك العمل هو :

« أن يتشكل الاسلام مجلساً نيابياً يؤلف من كافة المقاطعات الاسلامية وغير الاسلامية فينتخب له رجال سياسيون قد خبروا الدهر فحنكهم وعلماء عاملون لاتوجلهم شدة ولا تقعدهم معضلة ولا تبيعهم غاية ونجعل اقامة هذا المجلس في مدينة تطلق يديه لاعماله الجليلة وتقرب المواصلات بينه وبين أهل تلك المقاطعات النائب عنها والمشكل من رجالها للذود عن مصالحهم وحقوقهم ابان الضرورة وفي كل حين ومكان .

أما فضائل هذا المجلس وأعماله فكثيرة وعظيمة الفائدة وبما أن المقام لا يسمح باستيعابها كلها فاقتصر على ذكر الاخص منها الذي يبين الغاية المقصودة من تشكيله والنتيجة المطلوبة التي يؤتيها وبذلك كفاية لأولي البصائر الذين لا اخالهم يتقاعدون عن الاهتمام بتأليفه فى أقرب وقت ممكن لكيلا تفوت الغاية منه والفرصة السانحة له .

أولاً : ان تشكيل هذا المجلس من تلك الاجناس المختلفة يجعل جامعة حقيقية للأمم الاسلامية المرتبطة بالدين ارتباط الاجسام بالاعصاب والشرايين

ثانياً : يجعل لتلك الأمم المتباعدة بالوطنية رابطة سياسية تجمع أوطانهم الى وطن واحد ومصالحهم المتباينة الى مصلحة واحدة هي : الدفاع بالاشتراك والتعاون عن راحة الاسلام وسلامة كيانهم بين الامم الحية الراقية .

ثالثاً : يحسن أخلاق الافراد ومشاربهم فيقوي الصالح فيهم وينفي الفاسد منهم ويجلب النافع لهم وبالجملة فانه يجعلهم أمة عصر النشاط والقوة والكمال

رابعاً : يسهل سبل الرقي الأدبي والمادي بأنواعهما ويمهد طرق الاصلاح في الممالك الاسلامية المفتقرة للاصلاح الذي يرفع شأنها بين العالم ويؤيد كيانها أبداً.

خامساً : يدافع عن حقوق الأمم الخاضعة للدول الاجنبية أمام مجالسها العالية في عواصم ممالكها اذا ما اهتضمت تلك الحقوق في مستعمرة من المستعمرات أو لحق بتلك الأمم شيء من الاستبداد فيها الذي لا تخلو منه مملكة من الممالك المختلفة الاجناس والمذاهب

سادساً : يمهد سبيل انضمام الممالك الاسلامية المستقلة الى بعضها واستظلالها في ظل أكبر مملكة بينها « ولا شك في أن أكبرها الدولة العثمانية المشيدة الاركان » كما انضمت الى بعضها الممالك الجرمانية والولايات الاميركية وكثير غيرها واذا كان ثم مانع لانضمامها فلا أقل من أن يؤلف بينها ويجمع كلمتها المتفرقة فتتضامن وتتكاتف على العمل معاً وواحدة من هاتين الحالتين كافية لجعل هذه الدول الضعيفة بازاء الدول الاوربية دولة واحدة عظيمة السلطان منيعة الجانب تقتسم السراء وتشترك مع بعضها في الضراء »

(المنار) هذا الرأي ليس بدعاً من الآراء كما يحسب الكاتب بل هو مسبوق بتصوير أقرب الى الحصول ، ودعوة أجذب للقلوب وأخلب للعقول ، واحتراس يحول دون مناهضة الاعداء ، وتؤمن معه مغاضبة الأوداء ، وما صادف شيء من ذلك استعدادا ، وما كان الا هداية لبعض العقلاء ورشادا ، وان أبعد المسلمين عن قبول دعوة الاتحاد ، ملوكهم وأمراؤهم المفتونون بالاستبداد ، فما قال انه « بسيط جدا » هو مركب تركيبا لا سبيل الى تحليله ، ولا استعداد فيمن دعوا اليه لقبوله ، وان الأمل في إصلاح أكبر هؤلاء المستبدين لدولته ، وترقيته

لشعبه ورعيته ، قد أصبح من الأحلام والاماني ، أو من قبيل العنقاء والخل الوفي ، فكيف نرجو من هؤلاء المحربين ، عناية باقامة بناء المسلمين ،

الا انه لاسلامة للمسلمين من البلاء المؤصد ، والعدوّ الواقف لهم في كل مرصد ، الا في تربية الأمة الملية ، وجمعها بين العلوم الكونية والروحية ، واماتة التقليد واحياء اللغة العربية ، ثم اتفاق شعوبهم في كل قطر مع سائر الشعوب ، على حفظ الموجود واسترجاع المسلوب ، والزام حكوماتهم بقوة الاتحاد ، على استبدال العدل بالاستبداد ، مع القاء الطاعة اليها ، وتأمينها من تفضيل غيرها عليها ، فان هذا شرط لامكان العمل الواجب ، لا سيما في الشعوب التي تحت سلطة الاجانب ،

﴿ كتاب السجل المصري ﴾

يؤلف علي أفندي يوسف الكريدلي كتابا بهذا الاسم قال في وصفه « كتاب دوري يصدر في منتصف كل شهر أفرنجي مشتملا على كل ما حدث في الشهر السابق من الحوادث والوقائع وأعمال الحكومة من أوامر عاليه ومنشورات ولوائح وتنقلات ورتب ونياشين ووفيات ومواليد وأفراح الخ » وقد صدر الجزء الأول من السنة الأولى وهو لشهر يناير فكان هذا الكتاب ملخص لأخبار الجرائد اليومية رسمية وغير رسمية يغني عن حفظها لأجل ما فيها من أخبار التاريخ وقد بلغت صفحات هذا الجزء ١٨٤ صفحة صغيرة فاذا ضربناها في ١٢ كان الحاصل ٢٤٠٨ وذلك تاريخ لأخبار السنة « جامع للذرة ، وأذن الجرة » وقيمة الاشتراك فيه الى سنة كاملة ٦٠ قرشا وثمن كل جزء منه خمسة قروش على نسبة الاشتراك

﴿ الاحياء ﴾

مجلة ذات ثمان صفحات انشئت بالجزائر في غرة هذا العام (١٣٢٥) وهي تصدر في الشهر العربي مرتين ، قيمة الاشتراك فيها أربعة فرنكات في قطري الجزائر وتونس وفي جميع بلاد فرنسا وخمسة فرنكات في سائر الممالك وقد كتب عليها « مجلة اسلامية أدبية اخبارية » ولكن لم يكتب عليها اسم منشئها ولا مديرها ولا محررها والعبرة عند المحققين بالقول لا بالقائل وانا قد سررنا بهذه المجلة ونسأل الله تعالى ان يجعلها نافعة للمسلمين ، وحجة على الذين يعتقدون في هذه البلاد وغيرها ان حكومة

الجزائر تضرب بين مسلمي الجزائر و بين العلم والدين حجبا لاتخرق اذ لاحجة أقوى من العمل المشهود ، والامر الموجود ، كما نبهنا على ذلك فيما مضى . واننا نعتقد انه لاسبيل الى التآلف بين فرنسا و بين المسلمين الا هذه السبيل فعسى الله ان يوفق بين الحكام والمحكومين لهم بما فيه الخير والمصلحة للانسانية

﴿ شوراي عثماني ﴾

جريدة سياسية أصدرتها في القاهرة جمعية الشورى العثمانية التى تكلمنا عنها في آخر المجلد التاسع لتكون لسانها الناطق بدعوتها ولذلك جعلتها بأشهر اللغات التي يعرفها قراء العثمانيين وهي التركية والعربية فى الاكثر والفرنسية والارمنية والرومية أحيانا أي أن كل عدد منها يكتب بعدة لغات وقيمة الاشتراك فيها عشرة فرنكات أو أربعون قرشا مصريا وقد رأيناها أقرب الى الاعتدال من سائر مارأينا من جرائد أحرار الترك وطلاب الاصلاح ونرجو أن تلتزم الاعتدال دائما لأنه أقوى تأثيرا ، وأكثر نصيرا ، هذا وان الاشتراك في هذه الجريدة والسعي في نشرها يعد خدمة للدولة العلية وللأمة العثمانية لالشخص معين لأن مايأتي من الجريدة ينفق على الجمعية وجميع أعضاء الجمعية ومحرري الجريدة يبذلون المال مع الوقت في هذه السبيل

﴿ جريدة الاخبار ﴾

كان الشيخ يوسف الخازن انشأ منذ بضع سنين جريدة سياسية سماها (الاخبار) نشرت زمنا وطويت زمنا وقد عاد صاحبها الى نشرها في هذه الأيام فسر بذلك العارفون بمكانة الخازن في هذا العمل واستعداده الغريزي الذي ارتقت به التجارب وحرية قلمه في التعبير عن رأيه . وقد اختار ان ينشرها فى الصباح ، فنتمنى له أحسن الفوز والنجاح ،

الجريدة

كنا ذكرنا في الجزء السادس من المجلد التاسع (ص ٤٧٧) خبر تأسيس شركة من وجهاء القطر لإنشاء جريدة يومية وأنهم اختاروا ان يسموها (الجريدة)

وان بعض أصحاب الصحف ارجفوا بهذه الجريدة وأساؤا الظن بها من حيث نحسنه ويسرنا أن ننوه بصدورها في أول جزء من هذه السنة مصدقة لظننا مكذبة لظنون المرجفين ، يسرنا ان نذكر في جزء واحد خبر ظهور مشروعين عظيمين كان شيخنا الاستاذ الامام روّح الله روحه متوجهاً الى القيام بهما فى آخر حياته ، وقد علم القارىء انهما مدرسة القضاة الشرعيين وهذه (الجريدة)

صدر العدد الأول منها في ٢٤ المحرم (١٩ مارث) والشمس مقبلة على برج الحمل والارض تستقبل الربيع الذي هو خير الفصول وأبهجها فكان ذلك فألا بأن (الجريدة) ستكون عنوان حياة أدبية بهيجة كما تتجدد نشأة الحياة لكل حي في هذا الفصل البهيج . وقد اتفق اجتماع شهر المحرم بشهر مارث لأول مرة من تاريخ الهجرة الشريفة في عام ١٣ وفيه أمر أبو بكر بعد استشارة الصحابة (عليهم الرضوان) بجمع القرآن في مصحف واحد . وفي ذلك ما فيه من الحياة الدينية والدنيوية فهذا فال آخر روحاني أحسن من ذلك الفال الطبيعي . وإن شئت ان أزيدك فكاهة تاريخية أخرى أذكرك بأن عمرو بن العاص بنى مسجده — وهو أول مسجد أسس في مصر — في ٢٣ المحرم وهو اليوم الذي وضعت فيه الجريدة في المطبعة وان صدرت في اليوم الثاني

افتتح العدد الأول من الجريدة بفاتحة بليغة لمديرها أحمد لطفي بك السيد قال فيها :

« ولقد اختلف القوم في أمر الجريدة منذ وضع مشروعها وقدر بعضهم لها مذهباً مالهم به من علم الا اتباع الظن ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم وأجدر بحفظ الكرامة لكبراء رجال وطنهم وأدنى الى عدم الفت في أعضاد الجامعة الوطنية ولكنهم لا يصبرون

« ولو وقف الأمر عند غير العالمين لهان ولكن بعض الكتاب أبي الا أن ينتقص الجريدة قبل ظهورها فخلق لها نسباً لاتعرفه اذ يقول أنها أنشئت بوحي من جناب اللورد كرومر أوانها متحيزة الى طرف دون آخر على أنها من كل ذلك براء ومهما يكن من الأمر فانا نمر بتلك المغامز مرا اذ لانقصد درء شبهة ولا أن

نقف بأحد موقفاً أظهرنا فيه على صاحبه أخسرنا لوقته . وكل في حل مما قال —

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر »

ثم ذكر اختلاف الناس فى الرأي بطبعهم ومكان الصحف من التذكير بما يكوّن الرأي العام في البلاد الحديثة العهد بالرقي ثم حاجة الصحف الى الرقابة عليها من الجماعة وكون أولى الجماعة بذلك الشرفاء بالفضل أو علو النسب كمؤسسي الجريدة ثم قال في هؤلاء المؤسسين :

« ولما انهم كثيرو العلاقات بالحكومة بسبب مراكزهم واشتراكهم معها في كثير من الأعمال العامة ، وأن أمثالهم لا يجتمعون لعمل ذي أثر سياسي الا احاطت به الشكوك رأوا ان يكاشفوا الحكومة في أمر المشروع دفعاً لتلك الشكوك المحتملة وأخذا بأقوم الطرق الى نيل ما عساهم يطلبونه من تقويم معوج أو اصلاح خطأ لان الحكومة قد تجيب الطلب مما يهون عليها اذا أقنعت بانه لمصلحة الامة .

« وان أسهل سبل الاقناع وآكدها في الوصول الى الغرض هو سبيل المحاسنة التي لا تجرّ الى ترك حق أو تزيين باطل وهي أجلى مظاهر الاعتدال الذي يجب ان يكون دعامة العلاقات بين أمة وحكومة كلتاهما في طور التكون . لئلا يقع بينهما من الجفاء ما يحجب الحكومة عن الوقوف على مواطن المصلحة وآمال الامة ويحجب الامة عن الاطلاع على مقاصد الحكومة فتعطل بذلك أسباب الرقي التي يتوقف جلها على اشتراك الطرفين »

والجريدة أحسن الجرائد اليومية ورقا وطبعا وألطفها شكلا لأنها وسط بين كبراها وصغراها وان عبر بعضهم عنها بلفظ الصغر أو الأصغر وليست الكبرى باكثر منها مادة لان الجريدة ليس فيها الآن إعلانات ثم ان اشتراكها أقل من اشتراك صغراها وهو ١٢٠ قرشاً في السنة لاهل القطر المصرى و ١٥٠ قرشاً لسائر الأقطار

﴿ جريدة العجائب ﴾ أتمت هذه الجريدة سنتها الخامسة ودخلت في السادسة ويدل انتظامها على انها من الجرائد الحية الثابتة فنتمنى لها طول البقاء ، مع التوفيق لما يفيد القراء

باب الأخبار والآراء

﴿ علماء تونس ومصر ، وجامع الزيتونة والازهر ﴾

كان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يقول ان مسلمي تونس سبقونا (يعني أهل الازهر) الى اصلاح التعليم حتى كان ما يجرون عليه في جامع الزيتونة خيرا مما عليه أهل الازهر . ولما عاد من سفره الاخير الى تونس كتب مذكرات عن حال التعليم فيها وجاء ببعض الاوراق الرسمية في ذلك وقال لي غير مرة انني سأعطيك ما عندي في ذلك لأجل أن تضم اليه رأيي وماتراه وتنشره بالمنار في مقال يكتب في المقابلة بين جامع الزيتونة والجامع الازهر . وكنا نرى أن هذا مما يجب في شرعة الاصلاح على التراخي ولكن أجل المصلح لم يكن على التراخي بل عاجله الاجل قبل أن يفرغ من الأهم الى هذا المهم

وزراء تونس من العلماء

ذكرنا بهذا ما رأيناه في الجرائد التونسية الأخيرة من خبر وفاة الوزير الاكبر وجعل وزير القلم والاستشارة خلفا له وجعل رئيس محكمتي الاستئناف من قبل خلفا لهذا . فالوزير المتوفى كان نابغا فى العلوم العربية والدينية اذ تلقاها في جامع الزيتونة حتى قيل انه يعد من طبقة أهل الترجيح في الفقه وكذلك وزير القلم الجديد وهو الشيخ يوسف جعيط فهو من أشهر المتخرجين في ذلك الجامع وقد درس فيه ثم اشتغل بالسياسة وتقلب فى المناصب حتى صار اليوم وزير القلم والاستشارة فهذان الوزيران قد دخلا باب السياسة وهما شيخان زيتونيان بكل معنى الكلمة — كما يقول الفرنسيون — حتى ارتقيا الى منصة الوزارة فهل يخطر في بال أحد من مدرسي الازهر أن يستعد لمثل ذلك حتى يكون أهلا للوزارة أو لما دونها من أعمال الحكومة ؟ كلا ان احدا منهم لا يفكر في مثل هذا الاستعداد ولو فعله أحد منهم لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا في العلم والدين فان لم يولوا من

تلك الاعمال شيئا لان نظام الحكومة المصرية لايسمح بذلك فربما كانوا انفع لأمتهم مع البعد عن الحكومة منهم وهم لها عاملون

ههنا يخطر في البال ان سعد باشا زغلول ناظر المعارف العمومية بمصر كان ازهريا وقد ارتقى في الحكومة الى أعلى مرتبة في القضاء ومنها الى الوزارة ونرى الازهريين يفاخرون به لاسيما بعد أن رأوا الامة مبتهجة والجرائد متفقة على الثناء عليه عند ما ولي الوزارة والحكومة نفسها تكاد تمن على الامة باختياره ولكن سعد باشا وزير المعارف بمصر ليس عريقا في الازهرية كعراقة الشيخ يوسف جعيط وزير القلم والاستشارة بتونس بالزيتونية فان الشيخ يوسف تعلم في الزيتونة على الطريقة المألوفة راضيا بها حتى صار مدرسا وقرأ المطول فيه درسا وهو أعلى كتب البلاغة والازهريون يقرءون مختصره لأهل النهاية و يمتحنونهم به . وسعد زغلول صحب الاستاذ الامام في أول المجاورة وأدرك السيد جمال الدين فأخذ عنهما واعتقد في أول نشأته العلمية ان طريقة الازهر في التعليم رديئة فتبع الحكيمين المصلحين قبل أن تطبع الطريقة الازهرية ملكتها في نفسه ولم يرض ان يجري عليها الى منتهى شوطها و يأخذ شهادة العالمية و يصير من المدرسين بل اخرجه الاستاذ الامام من الازهر عند ما ولي هو رياسة تحرير الجريدة الرسمية وجعله محررا معه ثم كان من أمره ما هو معروف . ومنه أنه تعلم اللغة الفرنسية وهو قاض ودرس علم الحقوق بها حتى أدى الامتحان في فرنسا وأخذ منها شهادة (الليسانس) وهو يعد مثل المطول والمختصر من الكتب التي تبعد عن البلاغة وتحول دون ملكتها . على اننا لانقصد الآن الى بيان طريقة التعليم في الجامعين والمفاضلة بينهما وانما غرضنا من المقابلة والتنظير امران (احدهما) بيان ان العالم الديني اذا اختبر الاحوال العامة ونظر في طرق نظام الحكومة التي تتولى أمره وتناول شيئا من العلوم الدنيوية يكون أقدر على خدمة بلاده وأمته سواء تقلد الاحكام الدنيوية أم لم يتقلدها وقد كان كثير من الناس يعتقدون أن الاستاذ لو ترك خدمة الحكومة ومنصب الافتاء لأمكنه ان يعمل للأمة الاسلامية عامة وللشعب المصري خاصة اضعاف ما كان يعمل وهو في الحكومة (وثانيهما) التنبيه الى شيء من الفرق بين تونس ومصر

في حال علماء الدين ونسبتهم الى الحكومة . وإليك ما هو أبلغ من ذلك

جمعية طلاب جامع الزيتونة

ألف بعض النبهاء من جامع الزيتونة جمعية يعلم غرضهم منها من الخطبة الآتية وقد ساعدهم على ذلك بعض شيوخهم الفضلاء . وقد اجتمعوا في اليوم الرابع من هذا الشهر (المحرم) في المدرسة الخلدونية للمذاكرة في قانون الجمعية وحضر اجتماعهم هذا كثير من كبار المدرسين وكانوا قد اختاروا أحد العلماء رئيسا لعملهم في التأسيس ووضع القانون وهو الشيخ الطاهر النيفر فافتتح الجلسة بخطاب بليغ في الموضوع . فقام الشيخ الخضري بن الحسين من العلماء الحاضرين فشكر له وللتلاميذ الذين نهضوا بهذا العمل النافع . ثم وزعت الرقاع لانتخاب رئيس وأعضاء للجمعية فأجمعت الآراء على اختيار الشيخ محمد رضوان للرياسة وهو من العلماء الفضلاء أصحاب الرأي والروية كما يؤخذ من بعض الجرائد التونسية وفيها أنه متقن للغة الفرنسية . ولم يرتق طلاب الأزهر الى مثل هذا العمل

ورأينا في جريدة « لسان الأمة » التي صدرت حديثا في تونس صورة خطبة للشيخ محمد النخلي من كبار العلماء المشهورين كان أعدها ليلقيها في هذا الاجتماع فحال دون ذلك مانع من الحضور فأحببنا أن ننشر هذه الخطبة برمتها لما نأمن الحرص على معرفة آراء علماء الدين في الأمور الاجتماعية ولما فيها من بيان حقيقة الجمعية وهي:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا »

أيها السادة العلماء والأفاضل الأعيان

يحسن في هذا المقام ان أصدر هذا الخطاب الوجيز بكلمات حكمية سارت سير الامثال : ليس احد باقل من أن يعين ولا باكبر من أن يعان . لاتكال الرجال بالقفزان ، المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، لا بقميصه وطيلسانه .

ليس الحداثة في سن بمانعة ... قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وهي أمثال اذا تاملنا معانيها، وتدبرنا مغازيها، اكسبتنا حسن الظن وكامل الثقة

بالمشروع الذي هيأه لنا أبناؤكم بجامع الزيتونة وقضت علينا أن نمد لهم يد المشاركة والمساعدة لإحداث مشروع افتكره هؤلاء التلامذة ولزمنا بمقتضى قاعدة الانصاف التي هي أخص حلاكم التي تحليتم بها أن نظهر ضمائرنا من احتقار الافكار وان نلاحظ المصالح بقطع النظر عن مصدرها بعين ملؤها التوقير والاعتبار هذا وان نخبة من ناشئة تلامذة الجامع الاعظم دار العلوم الشرعية ادام الله عمرانه وشيد بحسن عنايتكم أركانه انبعث فيهم شعور شريف نهض بعزائمهم الى الشروع في تأسيس جمعية تحت اسم (جمعية تلامذة جامع الزيتونه) واقترحوا على العبد العاجز ان ألقي خطابا في الموضوع ونتائجه والحوا وقالوا ان المؤمن أخو المؤمن وحقا ما قالوا .

أيها السادة: لا أقصد بهذا الخطاب أن أعلمكم ماتجهلون، أو أفيدكم ما أنتم عنه غافلون ،وانما هو ذكرى لكم ببعض ماتعلمون ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وتؤكد يقين المستيقنين

ليست ألسنة التقليد للغير هي التي تأمرنا بلم شعثنا ومد يد الاعانة لبعضنا واقامة التعارف مقام التناكر، والتواصل مكان التفاصل، حتى نحيي رابطة العلم أو نهني هذا الشعور بل لسان الدين الحنيف الذي نزاول علومه آناء الليل وأطراف النهار في هذه المدرسة الزاهرة هو الذي يأمرنا بذلك في عمومه وخصوصه، وتصريحه وتلويحه، لمن سبر أغواره، واستقرأ آثاره، كيف ولا يعزب عنكم ذلك وأنتم علماء الدين وحملة الشريعة المطهرة .

الم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم مجالس يحضرها أصحابه الكرام وكانت تلك المجالس مجالس هدي وارشاد، وتعميم نفع للعباد، وكانت أحيانا مهبط الوحي فيها يتلقون تعاليم الدين ،وعنها يصدرون فائزين، وكذلك خلفاؤه الرشدون من بعده واذكركم بنادي عمر بن الخطاب فانه كان غاصا بالشيوخ والكهول والشبان وكان يقول لايمنع أحدكم حداثة السن ان يبدي رأيه في هذه النوادي يتعارفون ويتواصون بالحق، ويتواصون بالصبر ،ويتعاونون على البر والتقوى .

أما اذا أردنا ان نثبت ماللجمعيات من الفوائد العامة والخاصة بلسان التاريخ

فان البحث في هذا الموضوع يستدعي حشد مجلدات عما تأسس في العالم المتمدن من الجمعيات وما كان لها من النتائج على اختلاف الاحزاب والمقاصد حتى بالحاضرة التونسية . نحن وان كنا يجمعنا الجامع متفرقون، وان وجدبيننا رحم علم فنحن والحق يقال متقاطعون،ولا أكلكم إلا للمشاهدة ور بما كانت المشاهدة تفصح لكم عن الحالة الحاضرة أ كثر مما أفصح لكم عنه هذا اليراع الكليل .

هل عملنا بالآية التي توجنا بها هذا الخطاب ؟ هل عملنا بقوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » ؟ هل عملنا بقوله صلى الله عليه وسلم « لاتباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » ؟ هل عملنا بقوله صلى الله عليه وسلم « الا أخبركم باحبكم الي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ؟ أحاسنكم اخلاقا الموطئون اكنافا الذين يألفون ويؤلفون » ؟ ونحن أبناء العلم الديني أحق بالعمل، هل نحن أبناء العلم نألف ونؤلف ؟ وهو من صفات الاحبين الاقربين ؟ أظن ان المجافاة بلغت بيننا النهاية والمنافرة من غير سبب شرعي رمتنا الى أبعد غاية

فهلم بنا الى العمل بديننا القويم . وأن يصافح أحدنا الآخر مصافحة الودود المخلص الكريم كما جاء ذلك في حديث صاحب الخلق العظيم

عزم اخواننا في الدين وأبناؤكم في تلقي علومه على احداث هذه الجمعية المباركة ودعوكم للانتخاب والمشاركة في العمل . الغرض من هذه الجمعية :

أولا — ايجاد روابط الالفة والوداد بين كل من أنبتته هذه المدرسة الاسلامية

ثانيا — تمكينهم من وسائل التعاون بينهم على مافيه مصلحتهم العامة والخاصة

ثالثا - اسعاف فقراء التلامذة وصونهم من معيشة الابتذال التي يعيشونها اليوم بفضل الاهمال والغفلة

وأنتم تعلمون أن قسما عظيما من تلامذة جامع الزيتونة كادوا يتكففون وانهم لايجدون القوت الضروري الا بطرق ممتهنة لاترضاها معزة العلم بل والكرامة الانسانية وان قسما مهما منهم يسكن حيث مرابط الحيوانات المعدة لذلك لان عدد المدارس التونسية لتكاثر التلامذة صار غير كاف لايوائهم أجمعين وسيكون هذا الموضوع أهم المواضيع التي تداول الجمعية البحث فيها ونطرق أبواب المساعدة

من همم الرجال لنوالها

هذا أنموذج من مقاصد هذه الجمعية وهي وأيم الله مقاصد سامية محتاجة الى همم الرجال وبذل المال لانه قوام الاعمال فمن ساعد فقد امتثل لأوامر انفاق المال في سبيل الله واستحق رضاء الله وثناء الناس

الناس خصوصا الجمعيات الاخر يزنون هممنا ويقدرون عزائمنا بما يكون من نتيجة هذا المشروع وما يحبطه من الفشل والخيبة – لا قدر الله – وهم ينتظرون مايكون فى مشروع هيأه أمثالكم فهل يقارنه النشاط فالعمل فالنجاح أو يقذفه اليأس فى مهواة السقوط فان كانت الاخرى – لا قدر الله – خققتم ماخامر بعض الافكار من ان حملة العلم الديني جهال بالحياة الاجتماعية بعداء بمراحل عن تأسيس المشروعات الخيرية – لا قدر الله واستغفر الله –

أنتم أكثر من كل جمعية بتونس وأوفر عددا فهل أنتم أقوى عددا وأعلى همة وأقوى استعدادا واسمي مدارك ونظرا للمصالح

منكم أهل المجلس العلي الشرعي ايده الله ومنكم مدرسو جامع الزيتونة الاعلام ومنكم قضاة الايالة ومفاتيها ومنكم مدرسوها وكثير من عدولها ومنكم كثير من متوظفي الوزارة وجمعية الاوقاف وادارة المال فلن تفشلوا من قلة متى كان هؤلاء الجماهير مساعدين على تحسين حال اخوانهم التلامذة متظارفين والامل وطيد في بقية اخوانكم التونسيين ولا ينقصنا الا الاجتماع والتعاضد والسعي والعمل وهي نتائج الهمم السامية والغيرة المتوقدة والانسانية الكاملة وأنتم أحق بها وأهلها ونعوذ بالله أن يصدق علينا قول الشاعر:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم   والله يعلم اني لم أقل فندا
اني لا فتح عيني حين افتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدا

ونرجو الله الذي لا يخيب الآمال، ولا يمنع من قرع بيد السعي أبواب الاستكمال، ان تكون جمعيتكم مصداقا لقول الشاعر

ولله قوم كلما جئت زائرا   وجدت قلوبا كلها ملئت حلما
اذا اجتمعوا جاؤا بكل فضيلة   ويزداد بعض القوم من بعضهم علما

(المنار) نحيي الجمعية الزيتونية المباركة ونحمد الله ان وجد في علمائنا مثل هذا الخطيب وعسى أن يكون لطلاب الأزهر جمعية مثلها

﴿ مشيخة الأزهر ﴾

قد علم مما كتبناه في باب التربية والتعليم عن الأزهر وهذه المدرسة ان الشيخ حسونه النواوي الشهير عين شيخاً للأزهر بعد اقالة الشيخ عبد الرحمن الشربيني من المشيخة واننا نعتقد انه أمثل كبراء الشيوخ الذين يرشحون لادارة الأزهر ولعله لم يتول هذه المشيخة أحد في هذا العصر وكان مرضياً عند الأزهريين وغيرهم الا الشيخ حسونه في هذه الكرة فنسأل الله تعالى أن يجعل التوفيق رائده وقائده في ادارة هذا المكان، الذى صار أمره شغلا شاغلا للمسلمين فى هذا الزمان، وهنا نصرّح بأننا لا نريد بمدح الشيخ حسونه تعريضاً بغيره ولا نعني بما سبق عن الاستاذين الكبيرين البشري والشربيني الا انهما شديدا المحافظة على القديم وهذا يوجد في كل أمة وزمن فكلا منا بيان للواقع مع احترام الشيخين

﴿ مدرسة القضاة بين الازهر والمعارف ﴾

قد علم القراء مما كتبنا عن الأزهر وهذه المدرسة ان أهل الأزهر في أمر مريج من هذه المدرسة وقد رأينا بعد ذلك في جريدة الحكومة الرسمية صورة كتاب أرسله ناظر المعارف الى شيخ الأزهر وصورة كتاب من شيخ الأزهر الى الناظر جوابا عنه فرأينا أن ننقلها في المنار حاذفين كلمات الخطاب الرسمية وهما:

﴿ الكتاب الأول من ناظر المعارف ﴾

تبين لى من المكالمة الاخيرة مع فضيلتكم ان هناك أوهاما بشأن لائحة مدرسة القضاء الشرعي ولذلك أردت أن أكتب لفضيلتكم هذا الخطاب ازالة لتلك الاوهام

ان الغرض من هذه المدرسة هو تخريج قضاة متصفين بالاوصاف الحميدة جامعين بين المعارف الدينية الصحيحة والمعارف الدنيوية والقصد من ربطها بالازهر ليس هو التداخل في شؤونه بأي وجه من الوجوه وانما الغرض منه ان تستظل هذه المدرسة بظل الأزهر الشريف وان يكون للمتخرجين منها بواسطة انتسابهم اليه منزلة في قلوب العامة والخاصة حتى لا يجد المتقاضون امامهم حرجا فى صدورهم من قضائهم

ان القصد من الامتيازات التي نصت المادة الثانيـة على انها تكون لطلبة هذه المدرسة انما هي الامتيازات المعنوية لا الحقوق في الجرايات والمرتبات فان طلبة هذه المدرسة لا يكون لهم شيء منها بمقتضى هذه اللائحة بعد التحاقهم بالمدرسة وعلى فرض أن يكون لواحد منهم أو أكثر حق في شيء منها بسبب شرط واقف أو غيره فان نظارة المعارف لا دخل لها فيه وانما الشأن يرجع فيه الى مشيخة الازهر دون سواها

انه لا صحة مطلقاً لما قيل من ان المراد بأصول القوانين الواردة في المادة الثالثة عشرة هو القانون الروماني وانما المراد بها مقدمة القوانين التي تشتمل على تعريف القوانين وكيفية صدورها ووقت وجوب العمل بها والحوادث التي تنطبق هي عليها وما أشبه ذلك من المبادىء الاوليـة للقوانين الوضعية التي لا يستغني واحد من القضاة الشرعيين وغيرهم عن معرفتها

ان لسيادتكم السلطة التامـة في ابطال تدريس كل علم لم يكن وارداً في اللائحة المذكورة وكل درس يكون موضوعه القانون الروماني ولسيادتكم الرأي الأعلى في نشر خطابي هذا على الازهريين اذا وجدتم في نشره فائدة للحقيقة

ناظر المعارف

﴿ الكتاب الثاني من شيخ الازهر ﴾

وصلني مكتوب سعادتكم بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٣٢٥ مسفراً عن حسن نواياكم فيما جاء بمشروع مدرسة القضاء ما أنف منه بعض الناظرين وأزلتم بما أبنتموه ولله الحمد الشبه التي كان يظن أنها تحتك بالازهر احتكاك العادين فشكر الله صنيعكم وأحسن بيانكم وجزاكم عن الامة خيراً . وعهدي وآمال الناس — ولاسيما الازهريين — بناظر المعارف ان يكون أول قائم بما يجب عليه أمام أمته وأمام أئمة الدين وأن يسود في وقته كل معهد من معاهد العلم ولاسيما معهد الازهر الذي له اليد البيضاء على الافاضل من أكابر المسلمين . وفي الختام أسأل الله سبحانه ان يوفقنا وإياكم لصالح العمل ٢٤ محرم سنة ١٣٢٥ خادم العلم والفقراء بالازهر

حسونه النواوي

﴿ الجريدة واللواء ﴾

زعمت جريدة اللواء ان (الجريدة) ترى المحاسنة المطلقة في مطالبة الحكومة بمصلحة الأمة وقامت تعنفها على هـذا الإطلاق وتنكره عليها محتجة بأن حكومة مصر الآن حكومة أجنبية تظلم الامة وتحقرها ... والجريدة ما قالت بمحاسنة مطلقة كما زعم صاحب جريدة اللواء وانما قالت بمحاسنة مقيدة بكونها « لا تجرّ الى ترك حق أو تزيين باطل » فهل نقول أن صاحب جريدة اللواء لا يفرق بين المطلق والمقيـد أم نقول انه لا يتحامى أن يسمي المقيد مطلقاً عامداً متعمداً ؟ واذا كان الثاني هو الصواب فهل يظن ان قراء جريدته لا يفهمون هذا الخطأ الصريح لأنهم من العوام الجاهلين ، أم يعتقد انه يرضيهم كل ما يقول لانهم من المبطلين ، أم هو لا يبالي باعتقادهم بخطأه وان كانوا مصيبين ، ؟

﴿ تقريظ واقتراح ، من عالم شابّ يحب الاصلاح ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

هنيئاً لك أيها المنار الأغر فلقد قضيت تسع سنين أخرجت فيها الأمة من الظلمات وهديتها الى سبيل الرشاد الذي لا عوج فيه ولا أمتا، وخدمت الملة الحنيفية بما يخلده لك التاريخ ويسطره قلم الثناء «ولسوف يعطيك ربك فترضى»

والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، لقد وضح بك السبيل ، واهتدت بك أفكار بعد ان هامت في أودية الاضاليل ،

جعلت أكبر همتك البحث عما يحيي عظام امتك وهي رميم ، واعتمدت على مبدع الكائنات حتى أنتج سعيك «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» ولقد جاهدت في سبيل الله حتى هزمت أعداءه ، ونصرت أولياءه ، و«هل يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله»

أفلم تدفع من الشبه عن الاسلام ما قد يدع اللبيب في حيرة ماله منها من محيص فشكراً لك بعد شكر، وثناء بعد ثناء على مديرك الرجل الوحيد، الذي نصبك لتهدي الساري في الليل البهيم، ويرشده الى الصراط المستقيم ، ورضي عن والده

الذي استنار به فكره ، وانشرح لتلقي المبادي الشريفة صدره ،

ولك الهناء بالعام الجديد الذي سرنا فيه ان شاء الله مايذهلنا عن الماضي ، ونودلو يحليك حضرة مديرك بشيء من التاريخ مما فيه عظة وعبرة ، ويضمنك بنبذ مما وعد به من تخطيط فصل لمقاومة تيار البدع والخرافات ، والتقاليد والعادات ، فان آخر ما رأيناه فى هذا الموضوع مانشر في الجزء الثاني من المجلد (التاسع)

ولسنا نرجو لك من الله الا أن يطيل عمرك ويتم نعمته عليك (وهذا دعاء للبرية شامل)

(المنار) نشرناهذا لاعتقادنا بأن كاتبه عبرعن شعوره وفكره في حب الاصلاح وان نشره مما يزيد في هذا الشعورقوة والفكر رسوخا ، ولما فيه من الاقتراح . فأما اقتراح التاريخ فقد اقترحه آخرون بالقول ولعلنا بعد إتمام تاريخ الاستاذ الامام نكتب في تاريخ الاسلام . وأما باب البدع والخرافات فسنعود اليه كرة بعد أخرى

﴿ تاريخ الاستاذ الامام ﴾

قد تم طبع جزء التأبين والرثاء من تاريخ الاستاذ الامام وهو الذي كتبنا في المجلد الثامن من المنار (ص ٦٤٠) اننا شرعنا في طبعه قبل جزئي الترجمة والمنشآت وقلنا فيه انه متى تم طبعه « نجعل لكل مشترك في المنار الحق في أخذ نسخة منه مجانا اذا كان قد أدى قيمة الاشتراك تامة » ومعنى قولنا « له الحق » أنه اذا طلبه يعطاه لا أنه يرسل اليه ومعنى تأدية القيمة تامة أن لا يكون أداها ناقصة كمال البريد . اذاً كل من أدى قيمة الاشتراك في المنار في هذه السنة تامة أي (٦٠ قرشاً) فله الحق بأن يحضر أو يرسل من شاء ليأخذ نسخة من الجزء الذي تم

وهذا الجزء كتاب مؤلف من ٢٤٠ صفحة من كلام أشهر الكتاب والشعراء في مصر والشام وتونس وغيرها من الاقطار الغربية والشرقية مع تراجم أقوال الجرائد الفارسية والتركية والافرنجية — وكل ذلك في موضوع واحد وسنعين ثمنه في جزء آخر ونعلن ذلك في الجرائد

أما جزء منشآت الامام فقد طبع منه نحو الجزء الذي تم وظهر لنا آثار غير التي كنا نعرفها وما بقي دون ماطبع ونحن الآن شارعون فى إتمامه وفى طبع جزء الترجمة

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر صفر سنة ١٣٢٥ — آخره السبت ١٣ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٧ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٢٢ : ٢١) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ اُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٢:٢٣) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤ : ٣٢) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

كان سابق الكلام فى تقرير التوحيد وإقامة الدلائل عليه وعلى الحشر وبيان ثواب العاملين ، وقيام الحجة على المعاندين ، لأن البلاغ قد أوضح المحجة للناس فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فحسابهم على الله تعالى . ثم تلاه ذكر أشد ما كان من أهل الكتاب الذين تولوا عن الدعوة من قبل اذ كانوا يقتلون الانبياء والآمرين بالقسط وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وكان يحزنه إعراضهم .

ولذلك التفت الى خطابه بأعجب شأنهم في الدين لذلك العهد فقال ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم الى الله فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أيّ دين أنت يا محمد ؟ قال « على ملة ابراهيم ودينه » قالا فان ابراهيم كان يهودياً فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم « فهلما الى التوراة فهي بيننا و بينكم » فأنزل الله ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ الى قوله — يفترون — . ذكر هذا التخريج السيوطي في لباب النقول وأخرجه أيضاً ابن جرير في تفسيره . فكتاب الله الذي يدعون اليه هو التوراة على هذا الوجه . قال ابن جرير وقيل بل ذلك كتاب الله الذي أنزله على محمد وانما دعيت طائفة منهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم بالحق فأبت . روى ذلك عن قتادة وابن جريج ورجح الأول ومعناه ألم تر يا محمد الى هؤلاء الذين تعجب لعدم إيمانهم بك على وضوح ما جئت به كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذي يؤمنون به اذا لم يوافق أهواءهم .

ووقائع الاحوال في عصر التنزيل تتفق مع كل من القولين فقد كانوا يتولون عن حكم التوراة اذا خالف أهواءهم كما يفعل أهل كل دين في طور انحلال الدين وضعفه وكانوا ربما تحاكموا الى النبي صلى الله عليه وسلم عازمين على قبول حكمه حتى اذا كان على غير ما أحبوا خالفوه كما فعلوا يوم زنا بعض أشرافهم وحكموه فحكم بينهم بمثل حكم كتابهم فتولوا وأعرضوا عن قبول حكمه لأنهم انما فزعوا اليه ليخفف عنهم

أما قوله « أوتوا نصيباً » فقد علم ما هو تفسيره المختار عندنا فيما تقدم أول السورة من تفسير التوراة والانجيل وقال الاستاذ الامام في تفسير هذه الآية انه مبين لقوله تعالى (أوتوا الكتاب) وهو بمعنى (لا يعلمون الكتاب الا أمانيّ) فالنصيب عبارة عن تمسكهم بالالفاظ بتعظيمها وتعظيم ما تكتب فيه مع عدم العناية بالمعاني بفقهها والعمل بها .

قال: وذلك أن نقول أن ما يحفظونه من الكتاب هو جزء من الكتاب الذي أوحاه الله اليهم (أو قال الكتب) وقد فقدوا سائره وهم مع ذلك لا يقيمونه بحسن الفهم له والتزام العمل به . ولا غرابة في فقد بعض الكتاب فالكتب الخمسة المنسوبة الى موسى عليه السلام التي يسمونها التوراة لا دليل على انه هو الذي كتبها ولا هي محفوظة عنه بل قام الدليل عند الباحثين من الاوربيين على انها كتبت بعده بمئات من السنين (أراه قال خمس مئة سنة) وكذلك يقال في سائر الكتب المنسوبة الى الأنبياء في المجموع الذي يسمونه (الكتاب المقدس) أقول ولا تعرف اللغة التي كتبت بها التوراة أول مرة ولا دليل على أن موسى عليه السلام كان يعرف اللغة العبرانية وانما كانت لغته مصرية فأين هي التوراة التي كتبها بتلك اللغة ومن ترجمها عنها

أما قوله تعالى ﴿ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ فللتراخي فيه وجهان (أحدهما) استبعاد توليهم لأنه خلاف الاصل الذي يكون عليه المؤمن (ثانيها) أنهم اذا دعوا الى حكم الكتاب يتولى ذلك الفريق بعد تردد وتروّ في القبول وعدمه وكان من مقتضى الايمان أن لا يتردد المؤمن في إجابة الدعوة الى حكم كتابه الذي هو أصل دينه أورده الاستاذ الامام وقال: على أنهم لم يكتفوا بالتردد حتى تولوا بالفعل ولم يكن التولي عرضاً حدث لهم بعد أن كانوا مقبلين على الكتاب خاضعين لحكمه في كل حال وآن بل هو وصف لهم لازم بل اللازم لهم ما هو شر منه وهو الاعراض عن كتاب الله في عامة أحوالهم . فجملة وهم معرضون: ليست مؤكدة للتولي كما قيل بل هي مؤسسة لوصف الاعراض الذي هو أبلغ منه . وانما قال « فريق منهم » لان هذا الوصف ليس عاما لكل فرد منهم بل كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ومنهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

أقول وهذا مما عهدنا في أسلوب القرآن من تحديد الحقائق والاحتراس في الحكم على الأمم فتارة يحكم على فريق منهم في مقام بيان شؤونهم وتارة يحكم على أكثرهم واذا أطلق الحكم في بعض الآيات يتبعه بالاستثناء — استثناء الأقل كقوله (تولوا الا قليلا منهم) ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات ﴾ روى ابن جرير وغيره من المفسرين ان بعض اليهود قالوا ذلك وان هذه الأيام المعدودات

هي أربعون يوما مدة عبادتهم العجل وقال الاستاذ الامام: انه لم يثبت في عدد هذه الايام شيء وليس في كتب اليهود التي في أيديهم وعد بالآخرة ولا وعيد فكل ماوعدت به على العمل بالكتاب هو الخير والخصب والسلطة في الارض وماأوعدت به هو سلب هذه النعم وتسليط الأمم عليهم ولكن الاسلام بين لنا أن كل نبي أمر بالايمان باليوم الآخر ووعد وأوعد فهذا هو الحق سواء أوجد في كتبهم أم لم يوجد يعني أننا نعد هذا مما أضاعوه ونسوه على مابينا فى تفسير التوراة والانجيل قال والجملة عبارة عن استسهال العقوبة والاستخفاف بها اتكالا على اتصال نسبهم بالأنبياء واعتمادا على مجرد الانتساب الى الدين وكانوا يعتقدون ان ذلك كاف فى نجاتهم، ومن استخف بوعيد الدين زاعماً انه خفيف فى نفسه أو أنه غير واقع بمن يستحقه حتما تزول حرمة الأوامر والنواهي من نفسه فيقدم على ارتكاب المحارم بلا مبالاة ويتهاون في الطاعات المحتمة وهكذا شأن الامم عند ما تفسق من دينها وتنتهك حرماته ظهر في اليهود ثم في النصارى ثم في المسلمين.

وأقول لعل المراد بعبارة الآية أنهم كانوا يعتقدون أن الاسرائيلي اذا عوقب فإن عقوبته لاتكون إلا قليلة كما هو اعتقاد أكثر المسلمين اليوم اذ يقولون ان المسلم المرتكب لكبائر الاثم والفواحش إما أن تدركه الشفاعات، وإما تنجيه الكفارات، واما ان يمنح العفو والمغفرة بمحض الفضل والاحسان، فان فاته كل ذلك عذب على قدر خطيئته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة. واما المنتسبون الى سائر الأديان فهم خالدون في النار كيفما كانت حالهم ومهما كانت أعمالهم. والقرآن لا يقيم للانتساب الى دين ما وزنا وإنما ينوط أمر النجاة من النار، والفوز بالنعيم الدائم في دار القرار، بالايمان الذي وصفه وذكر علامات أهله وصفاتهم وبالاعمال الصالحة والاخلاق الفاضلة مع التقوى وترك الفواحش ماظهر منها وما بطن. وأما المغفرة فهي خاصة في حكم القرآن بمن لم تحط به خطيئته وأما من أحاطت به حتى استغرقت شعوره ورانت على قلبه فصار همه محصورا في إرضاء شهوته ولم يبق للدين سلطان على نفسه فاؤلئك أصحاب النار هم فيها خالدون. لهذا يحكم هذا الكتاب الحكيم بأن من يجعل الدين جنسية ويَنيط النجاة من النار بالانتساب اليه أو الاتكال

على من أقامه من السلف فهو مغترٌّ بالوهم، مفتر يقول على الله بغير علم، كما قال هنا ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي بما زعموا من تحديد مدة العقوبة للأمة في مجموعها وهذا من الافتراء الذي كان منشأ غرورهم في دينهم ومثله لا يعرف بالرأي ولا بالفكر لأنه من أمر عالم الغيب فلا يعرف الا بوحي من الله وليس في الوحي مايؤيده، ولا يوثق به الا بعهد منه عز وجل ولا عهد بهذا وانما عهد الله هو ماسبق في سورة البقرة (٢: ٨٠ وقالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودة، قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، أم تقولون على الله مالا تعلمون ٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ٨٢ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)

ثم توعدهم تعالى على هذا الافتراء بقوله «فكيف اذا جمعناهم ليوم لاريب فيه﴾ أي فكيف يكون حالهم اذا جمعناهم لجزاء يوم لاريب فى مجيئه وهو يوم الدين ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ بأن رأت ماعملته محضرا موفى لانقص فيه فكان منشأ الجزاء، ومناط السعادة أو الشقاء، دون الانتماء الى دين كذا ومذهب كذا، أو الانتساب الى فلان وفلان من النبيين والصالحين؟ ألا إنهم يرون يومئذ أن الجزاء يكون بشيء من داخل نفوسهم لا من شيء خارج عنها، يكون ما أحدثته أعمالهم فيها من الصفات الحسنة أو القبيحة ومقدرة بقدر ذلك، ويرون أن الناس سواء في هذا الجزاء لا امتياز فيه بين الشعوب وان سمي بعضها بشعب الله، ولا بين الأفراد وان لقبوا أنفسهم بأبناء الله، بل يرون هنالك العدل الأكمل ولذلك قال ﴿وهم لايظلمون﴾ أي الناس المشار اليهم بلفظ «كل نفس» أي لاينقص من جزاء أحد بما كسب شيء وان كان مثقال ذرة

وقد قال المفسرون في هذه الجملة كلمة أحب التنبيه على مافيها. قالوا فيها دليل على أن العبادة لاتحبط وان المؤمن لايخلد في النار لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لاتكون في النار ولا قبل دخولها فاذن هي بعد الخلاص منها. والعبارة للبيضاوي ونقلها أبو السعود كعادته. وأقول ان الكسب هنا ليس خاصاً بالعبادة والايمان بل هو عام شامل لكل ماعمله العبد من خير وشر فاذا أرادوا أن الآية

تدل على انه لابد من الجزاء على كسب كما هو ظاهر الآية لزمهم أن الكافر اذا أحسن في بعض الأعمال ولا يوجد أحد من البشر لايحسن عملا قط – وجب أن يجازى عليه وهم لايقولون بذلك ولذلك خصصوا وأخرجوا الآية عن ظاهرها.

واذا نحن جمعنا بين هذه الآية التي وردت ردا لقول الذين زعموا أنهم لا تمسهم النار الا أياما معدودة وآية البقرة التي وردت في ذلك أيضاً علمنا مراد الله في الجزاء على كسب الانسان بحسبه وهو أن العبرة بتأثير العمل في النفس فاذا كان أثره السيء قد أحاط بعلمها وشعورها واستغرق وجدانها كانت خالدة في النار لأن العمل السيء لم يدع للعمل أثرا صالحاً فيها يعدها لدار الكرامة بل جعلها من أهل دار الهوان بطبعها . واذا لم يصل الى هذه الدرجة بأن غلب عليها تأثير العمل الصالح أواستوى الأمران فكانت هكذا وهكذا جوزيت على كل بحسب درجته كما قررناه آنفاً وليس عندنا شيء عن الاستاذ الامام في هذه الآية ولكن ما قلناه موافق لما قرره في سورة البقرة

(٢٦ : ٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (٢٧ : ٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

روي عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته فنزل قوله تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ وقال الاستاذ الامام ما معناه: ان الكلام متصل بما قبله صح ما قيل في سبب النزول أم لم يصح والكلام في حال النبي صلى الله عليه وسلم مع من خوطبوا بالدعوة من المشركين وأهل الكتاب فالمشركون كانوا ينكرون النبوة لرجل يأكل الطعام ويمشي في الاسواق كما أنكر أمثالهم على الانبياء قبله . وأهل الكتاب

كانوا ينكرون أن يكون نبي من غير آل اسرائيل وقد عهد في غير موضع من القرآن تسلية النبي صلى الله عليه وسلم في مقام بيان عناد المنكرين ومكابرة الجاحدين وتذكيره بقدرته تعالى على نصره وإعلاء كلمة دينه فهذه الآية من هذا القبيل . كأنه يقول له : اذا تولى هؤلاء الجاحدون عن بيانك ، ولم ينظروا في برهانك ، وظل المشركون منهم على جهلهم ، وأهل الكتاب فى غرورهم ، فعليك أن تلجأ الى الله تعالى وترجع اليه بالدعاء والثناء ، وتتذكر أنه بيده الأمر يفعل مايشاء ، وهذا يناسب ماتقدم في الرد على نصارى نجران من أمره بالالتجاء اليه سبحانه بقوله « فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله »

قال: وعلى هذا التفسير يصح أن يكون الملك بمعنى النبوة أو لازمها . ولاشك أن النبوة ملك كبير لأن سلطانها على الاجساد والأرواح ،على الظاهر والباطن قال تعالى (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) فان لم يكن هذا الملك عين النبوة فهو لازمها ونزع الملك على هذا القول عبارة عن نزعه من الأمة التي كان يبعث فيها الانبياء كأمة اسرائيل فقد نزعت منها النبوة ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ويمكن أن يفسر النزع هنا بالحرمان فانه تعالى يعطي النبوة من يشاء ويحرم منها من يشاء . فان قيل إن النزع إنما يكون لشيء قد وجد صح أن يجاب عنه بأن هذا على حد قوله تعالى حكاية عن لسان الرسل (٧ : ٨٩ قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) فانهم لم يكونوا في ملتهم اذ يستحيل الكفر على الانبياء : هذا سياقه وقد تبع فيه الامام الرازي الا انه زاد عليه كلمة « أو لازمها » والتمثيل غير ظاهر على المعنى الثاني والآية حكاية عن شعيب عليه السلام وهي جواب عن قول قومه (٨٨ لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) فهم قد طلبوا منه وممن آمن معه أن يعودوا في ملتهم وكان أولئك المؤمنون في ملتهم ففي جوابه عليه السلام تغليب للأكثر وهو متعين . ومثل الرازي أيضاً بقوله تعالى (٢ : ٢٥٧ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) وفيه ما فيه .

أقول والظاهر المتبادر ان المراد بالملك السلطة والتصرف في الأمور والله

سبحانه وتعالى صاحب السلطان الأعلى والتصرف المطلق في تدبير الامر وإقامة ميزان النظام العام في الكائنات فهو يؤتي الملك في بعض البلاد من يشاء من عباده إما بالتبع لما يختصهم به من النبوة كما وقع لآل إبراهيم وإما بسيرهم على سننه الحكيمة الموصلة الى ذلك بأسبابه الاجتماعية كتكوين العصبيات كما وقع لكثير من الناس وينزعه ممن يشاء من الأفراد ومن الأسر والعشائر والفصائل والشعوب بتنكبهم سننه الحافظة للملك كالعدل وحسن السياسة وإعداد المستطاع من القوة كما نزعه من بني اسرائيل ومن غيرهم بالظلم والفساد . ذلك اننا لا نعرف ما قضت به مشيئته عز وجل إلا من الواقع لأنه لا يقع في الوجود الا ما يشاء وقد نظرنا فيما وقع للغابرين والحاضرين ومحصنا أسبابه فألفيناها ترجع الى سنن مطردة كما قال في هذه السورة (٣ : ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا) الآية وبين بعض هذه السنن في نزع الملك ممن يشاء وإتيانه من يشاء بمثل قوله تعالى من سورة ابراهيم (١٤ : ١٣ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا : فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ١٤ ولنسكننكم الأرض من بعدهم) وقد فصلنا هذا المعنى في سورة البقرة أفضل تفصيل فليراجع الآية ٢٤٧ من شاء وبهذا يظهر وجه اتصال الآية بما قبلها وكونها بمثابة الدليل لقوله السابق (قل للذين كفروا ستغلبون) فهي تتضمن تأكيد الوعد بنصر النبي صلى الله عليه وسلم وغلب أعدائه من أهل الكتاب والمشركين وقد قال أبو سفيان للعباس يوم رأى جيش المسلمين زاحفاً الى مكة : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما : فقال العباس رضي الله عنه كلا انها النبوة وكان أبو سفيان يعني ان الأمر كله تأسيس ملك وما كان الملك مقصوداً ولكنه جاء معناه والمراد منه تابعاً لا أصلا والفرق عظيم والغرض من النبوة غير الغرض من الملك ولذلك لم يسمّ الصحابة من جعلوه رئيس ملكهم ومرجع سياستهم ملكا بل سموه خليفة

﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ العز والذل معروفان ومن آثار الأول حماية الحقيقة ونفاذ الكلمة ومن أسبابه كثرة الأعوان وملك القلوب بالجاه والعلم النافع للناس وسعة الرزق مع التوفيق للاحسان ، ومن آثار الثاني الضعف عن الحماية ،

والرضى بالضيم والمهانة ، كذا قال الاستاذ الامام . وقد يكون الضعف سبباً وعلة للذل لا أثرا معلولا وهو الغالب ، ولا تلازم بين العز والملك فقد يكون الملك ذليلا اذا ضعف استقلاله بسوء السياسة وفساد التدبير حتى صارت الدول الأخرى تفتات عليه كما هو مشاهد . وكم من ذليل في مظهر عزيز وكم من أمير أو ملك يغرّ الأغرار ما يرونه فيه من الأبهة والفخفخة فيحسبون انه عزيز كريم وهو في نفسه ذليل مهين فمثله كمثل ملوك ملاهي التمثيل (التياترات) كما قال الاستاذ الامام

هذا ولا عز أعلى من عز الاجتماع والتعاون على نشر دعوة الحق ومقاومة الباطل اذا اتبع المجتمعون سنة الله تعالى فأعدوا لكل أمر عدته . وقد كان المشركون في مكة واليهود ومنافقو العرب في المدينة يعتزون بكثرتهم على النبي والمؤمنين (٦٣ : ٨ يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذلّ : ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) فعسى أن يعتبر المسلمون في هذا الزمان بهذا ويفقهوا معنى كون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ويحاسبوا أنفسهم وينصفوا منها ليعلموا مكانهم من الايمان الذي حكم الله لصاحبه بالعزة (٤٧ : ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

﴿ بيدك الخير ﴾ قال الاستاذ الامام قدر المفسر (الجلال) هنا كلمة «والشر» هربا من المعتزلة على أنه ليس في العبارة نفي لكون الشر بيده كما انه ليس فيها إثبات له فلا معنى لتصادم المذاهب فيها وحسبنا قوله ﴿ انك على كل شيء قدير ﴾ أي في اثبات أن كل شيء بيده لا يعجزه شيء والبلاغة قاضية بذكر الخير فقط سواء كان السبب في نزول الآية خاصاً وهو ما كان في واقعة الخندق من بشارته (ص) أن ملك امته سيبلغ كذا وكذا أو عاماً وهو حال النبي صلى الله عليه وسلم مع المنكرين فانه ما أغرى أولئك الجاحدين بانكار النبوة والاستهانة بدعوة الحق الا فقر الداعي وضعف من اتبعه من المسلمين وقلتهم فأمره الله تعالى ان يلجأ هو ومن اتبعه الى مالك الملك والمتصرف المطلق التصرف في الاعزاز والاذلال وذكرهم في هذا المقام بأن الخير كله بيده فلا يعجزه أن يؤتي نبيه والمؤمنين من السيادة والسلطان ما وعدهم وان يعزهم ويعطيهم من الخير ما لا يخطر ببال الذين يستضعفونهم

(٥.٢٨ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) على هذا الاصل أمر الله نبيه بأن يدعوه – والمؤمنون تبع له – بهذه الكلمات ويلجؤا اليه بهذه الرغبة فكان المناسب ذكر الخير الذي وعدوا به فقط وانه بيده وحده

وأقول انه لا يسند الى يده تعالى أو يديه الا النعم الجليلة والمخلوقات الشريفة فلا يقال ان الشر بيد الله تعالى على أن جميع ماخلقه الله تعالى ودبره هو خير في نفسه والشر أمر عارض من الأمور الإضافية فلا توجد حقيقة هي شر فى ذاتها وإنما يطلق لفظ الشر على ما يأتي غير ملائم للاحياء ذات الادراك ولا منطبق على مصالحهم ومنافعهم وسبب ذلك فى الغالب سوء عملهم الاختياري ومن غير الغالب أن تقوض الريح لهم بناء أو يجرف السيل لهم رزقا وكل من الريح والسيل من أعظم الخيرات فى ذاتهما . ومن الخير والنعم ماقدرته السنن الالهية وأخبر به الوحي من ترتيب العقاب على العمل السيء فان ذلك أعظم مرب للناس وعون لهم على الارتقاء في الدنيا والسعادة في الآخرة ومن تدبر سورة الرحمن فقه مانقول . وللامام ابن القيم كلام فى هذه المسألة لا بأس بايراده هنا قال فى كتاب (شرح منازل السائرين) : ونقله السفاريني في شرح عقيدته مانصه

« ان الشر كله يرجع الى العدم أعني عدم الخير وأسبابه المفضية اليه وهو من هذه الجهة شر وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه مثاله ان النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة وانما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها فانها خلقت في الأصل متحركة لا تسكن فان أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت بطبعها الى خلافه وحركتها من حيث هي حركة خير وانما تكون شرا بالاضافة لا من حيث هي حركة والشر كله ظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه فلو وضع في موضعه لم يكن شرا فعلم ان جهة الشر فيه نسبة اضافية ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالها خيرا في نفسها وان كانت شرا بالنسبة الى المحل الذي حلت به لما أحدثت فيه من الالم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له فصار ذلك الألم شرا بالنسبة اليها وهو خير بالنسبة الى الفاعل حيث وضعه موضعه فانه سبحانه لا يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات فان حكمته تأبى ذلك بل قد يكون

ذلك المخلوق شرا ومفسدة ببعض الاعتبارات وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفاسده بل الواقع منحصر في ذلك فلا يمكن في جناب الحق جل جلاله أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه وبكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما . هذا من أبين المحال فانه سبحانه بيده الخير والشر ليس اليه بل كل ما اليه فخير والشر انما حصل لعدم هذه الاضافة والنسبة اليه فلو كان اليه لم يكن شرا فتأمله فانقطاع نسبته اليه هو الذي صيره شرا

« فان قلت لم تنقطع نسبته اليه خلقا ومشيئة قلت هو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذي فيه من عدم امداده بالخير وأسبابه والعدم ليس بشيء حتى ينسب الى من بيده الخير فان أردت مزيد ايضاح فى ذلك فاعلم ان أسباب الخير ثلاثة الايجاد والاعداد والامداد فهذه هي الخيرات وأسبابها فايجاد هذا السبب خير وهو الى الله واعداده خير وهو اليه أيضاً فاذا لم يحدث فيه اعدادا ولا امدادا حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس الى الفاعل وانما اليه ضده فان قلت فهلا أمده اذ أوجده قلت مااقتضت الحكمة ايجاده وامداده فانه سبحانه يوجده ويمده وما اقتضت الحكمة ايجاده وترك امداده أوجده بحكمته ولم يمده بحكمته فايجاده خير والشر وقع من عدم امداده

« فان قلت فهلا أمد الموجودات كلها فالجواب هذا سؤال فاسد يظن مورده ان تساوي الموجودات أبلغ في الحكمة وهذا عين الجهل بل الحكمة كل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها وليس في خلق كل نوع منها تفاوت فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت والتفاوت انما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق والا فليس في الخلق من تفاوت (قال رحمه الله تعالى) فان اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار فى الليل ﴾ أي تدخل طائفة من الليل في النهار فيقصر الليل من حيث يطول النهار ، وتدخل طائفة من النهار في الليل فيطول هذا من حيث يقصر ذاك . أي انك بحكمتك في تدبير الارض وتكويرها وجعل

الشمس بحسبان تزيد في أحد الجديدين مايكون سبباً لنقص الآخر فلا ينكر على قدرتك وحكمتك أن تؤتي النبوة والملك من تشاء كمحمد وأمته وتنزعهما ممن تشاء كبني إسرائيل فانك تتصرف في شؤون الناس كما تتصرف في الليل والنهار ﴿ وتخرج الحي من الميت ﴾ كالعالم من الجاهل والصالح من الطالح والمؤمن من الكافر ﴿ وتخرج الميت من الحي ﴾ كالكافر من المؤمن والجاهل من العالم والشرير من الخير وقد مثل المفسرون للحياة الحسية بخروج النخلة من النواة والعكس وخروج الانسان من النطفة والطائر ونحوه من البيضة و بالعكس والتمثيل صحيح وان أثبت علماء هذا الشأن ان في النطفة حياة وكذا في البيضة والنواة لأن هذه الحياة اصطلاحية لأهل الفن في عرفهم دون العرف العام الذي جاء التنزيل به . ومن الأمثلة الصحيحة خروج النبات من التراب . وقد جاء القرآن بتسمية مايقابل الحي ميتاً سواء كانت الحياة حسية أومعنوية وسواء كان ماأطلق عليه لفظ الميت مما يعيش و يحيا مثله أم لا وهو استعمال عربي صحيح فصيح . والجملة كسابقتها مثال ظاهر لكونه تعالى مالك الملك يؤتي الملك من يشاء الخ مافى الآية السابقة وكل شيء عنده بمقدار فقد أخرج من العرب الأميين ، خاتم النبيين والمرسلين ، كما أخرج من سلائل الانبياء والصديقين ، أولئك الاشرار المفسدين ، ذلك ان سنته تعالى في الاجتماع قد أعدت الامة العربية لأن يظهر خاتم النبيين منها — أعدتها لذلك بارتقاء الفكر واستقلاله و بقوة الارادة واستقلالها حتى صارت هذه الأمة أقوى أمم الارض استعداداً لقبول الدين الذي هدم بناء التقليد والاستعباد ، واستبدل به بناء الاستدلال والاستقلال ، من حيث كان بنو إسرائيل كغيرهم من الأمم يرسفون في قيود التقليد للأحبار والرهبان ، مرتكسين في أغلال الاستبداد من الملوك والحكام ، فما أعطى سبحانه ما أعطى ونزع مانزع الا باقامة لسنن التي هي قوام النظام ومناط الابداع والاحكام ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ يطلب منه ، لأن الامر كله بيده ، وليس فوقه أحد يحاسبه ، أو بغير تضييق ولا تقتير ، أو بغير حساب من هذا المرزوق ولا تقدير ، ولكنه بقدر وحساب ، ممن وضع السنن والأسباب ،

(٢٨ : ٢٧) لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٢٩ : ٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٠ : ٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ

قال الاستاذ الامام مامثاله : جاء قوله تعالى ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المومنين ﴾ بعد تلك الآية التي نبه الله فيها النبي والمؤمنين الى الالتجاء اليه معترفين ان بيده الملك والعز ومجامع الخير والسلطان المطلق في تصريف الكون يعطي من يشاء ويمنع من يشاء فاذا كانت العزة والقوة له عز شأنه فمن الجهل والغرور أن يعتز بغيره من دونه ، وأن يلتجأ الى غير جنابه ، أو يذل المؤمن في غير بابه ، وقد نطقت السير بأن بعض الذين كانوا يدخلون في الاسلام كان يقع منهم قبل الاطمئنان بالايمان اغترار بعزة الكافرين وقوتهم وشوكتهم فيوالونهم و يركنون اليهم وهذا أمر طبيعي في البشر

قال وذكروا فى سبب نزول الآية انها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وقصته معروفة وقيل انها نزلت في ابن أبي سلول (زعيم المنافقين) وقيل في جماعة من الصحابة كانوا يوالون بعض اليهود ومهما كان السبب في نزولها فانا نعلم ان من طبيعة الاجتماع في كل دعوة أن يوجد في المستجيبين لها القوي والضعيف على أن مظاهر القوة والعزة تغر بعض الصادقين وتؤثر في نفوس بعض المخلصين فما بالك بغيرهم ولذلك نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الأولياء من الكافرين . وقد ورد بمعنى هذه الآية آيات أخرى فلا بد من تفسيرها تفسيرا تتفق به معانيها

أقول قصة حاطب التي أشار اليها في الصحيحين وغيرهما وملخصها أن حاطبا

كتب كتابا لقريش يخبرهم فيه باستعداد النبي صلى الله عليه وسلم للزحف على مكة اذ كان يتجهز لفتحها وكان يكتم ذلك ليبغت قريشاً على غير استعداد منها فتضطر الى قبول الصلح وما كان يريد حرباً. وأرسل حاطب كتابه مع جارية وضعته في عقاص شعرها فأعلم الله نبيه بذلك فأرسل فى أثرها علياً والزبير والمقداد وقال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » فلما أتي به قال « ياحاطب ماهذا » فقال يارسول الله لاتعجل علي اني كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولارضى بالكفر بعد الاسلام : فقال عليه الصلاة والسلام « أما انه قد صدقكم » واستأذن عمر النبي (ص) في قتله فلم يأذن له قالوا وفي ذلك نزل قوله تعالى (٦٠ : ١ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » الخ ولم أر أحداً قال ان الآية التي نفسرها نزلت في قصة حاطب فلعل ماقاله الاستاذ الامام سهو سببه أن هذه الآية وما نزل في قصة حاطب يشتركان فى النهي عن موالاة الكافرين (* وما نزل في قصة حاطب وهو معظم سورة الممتحنة يفسر لنا أو يفصل جميع الآيات التي وردت في النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء لأن مافي سورة الممتحنة مفصل وهو من آخرها أو آخرها نزولا وماعداه مجمل يبينه المفصل

يزعم الذين يقولون في الدين بغير علم ، و يفسرون القرآن بالهوى في الرأي ، أن آية آل عمران ومافي معناها من النهي العامّ أو الخاص كقوله تعالى (٥ : ٥٠ ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) يدل على أنه لايجوز للمسلمين أن يحالفوا أو يتفقوا مع غيرهم ، وان كان الحلاف أو الاتفاق لمصلحتهم ، وفاتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان محالفا لخزاعة وهم على شركهم ، بل يزعم بعض

*) كنا نراجع الامام في حياته عند مانكتب فيعرض لنا فى المذكرات التي أخذناها من دروسه مثل هذا السهو وتثبت مايقول من غير تنبيه في الغالب

المتحمسين في الدين على جهل انه لا يجوز للمسلم ان يحسن معاملة غير المسلم أو معاشرته أو يثق به في أمر من الأمور وقد جاءتنا ونحن نكتب في هذه المسألة احدى الصحف فرأينا في أخبارها البرقية ان الافغانيين المتعصبين ساخطون على أميرهم أن عاشر الانكليز في الهند وواكلهم ولبس زي الافرنج وأنهم عقدوا اجتماعا حكموا فيه بكفره ووجوب خلعه من الامارة فارسلت الجنود لتفريق شملهم. فأمثال هؤلاء المتحمسين الجاهلين، اضر الخلق بالاسلام والمسلمين، بل أبعد عن حقيقته من سائر العالمين، وماذا فهم أمثال أولئك الافغانيون من القرآن على عجمتهم وجهلهم بأساليبه و بعمل الصدر الاول به

قال الاستاذ الامام في تفسير الآية مامثاله مبسوطا الاولياء الانصار والاتخاذ يفيد معنى الاصطناع وهو عبارة عن مكاشفتهم بالاسرار الخاصة بمصلحة الدين وقوله « من دون المؤمنين » قيد في الاتخاذ. أي لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وانصارا فى شيء تقدم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين أي كما فعل حاطب بن بلتعة (رضي الله عنه) لأن في هذا اختيارا لهم وتفضيلا على المؤمنين بل فيه إعانة للكفر على الايمان ولو بطريق اللزوم ومن شأن هذا أن لا يصدر من مؤمن ولو كان فيه مصلحة خاصة له ولذلك همّ عمر رضي الله عنه بقتل حاطب وسماه منافقا لولا أن نهاه صلى الله عليه وسلم عن ذلك وذكره بأنه من أهل بدر. اقول واذا كان الشارع لم يحكم بكفر حاطب في موالاة المشركين التي هي موضع النهي فكيف نكفر باسم الاسلام مثل امير الافغان الذي لم يفعل الاما أباحه الله له من أكل ولباس ومجاملة لحكومة من أهل الكتاب وهم أقرب الينا من المشركين ومجاملته لها ليست موالاة لها من دون المومنين (أي ضدهم كما يقول أهل العصر) وإنما هي موالاة لمصلحتهم التي تتفق مع مصلحتها وهم أحوج اليها منها اليهم

عود الى كلام الاستاذ الامام : وقال تعالى في آية أخرى (٢٢:٥٨ لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم) الآية فالموادة مشاركة في الأعمال فان كانت في شأن من شؤون المؤمنين من حيث هم مؤمنون والكافرين من حيث هم كافرون فالممنوع منها مايكون فيه خذلان لدينك وإيذاء لأهله أو إضاعة لمصالحهم وأما ماعدا ذلك كالتجارة وغيرها من ضروب

المعاملات الدنيوية فلا تدخل في ذلك النفي لأنها ليست معاملة في محادّة الله ورسوله أي في معاداتهما ومقاومة دينهما

أقول وإذا رجع المؤمن الى سورة الممتحنة (٦٠) التي فصلت فيها هذه المسألة مالم تفصل في غيرها يجد الآية الاولى - وقد تقدم صدرها في قصة حاطب — تقيد النهي عن موالاة أعداء الله ورسوله وإلقاء المودة اليهم بكونهم كفروا كفرا حملهم على إخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم لأنهم مؤمنون بالله فكل كافر حربي يعامل المؤمنين هذه المعاملة تحرم موالاته قطعاً ثم وصف هؤلاء الذين نهى عن موالاتهم بأنهم ان يثقفوا المؤمنين يعادوهم ويؤذوهم بأيديهم وألسنتهم ثم قال (٧عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، والله قدير والله غفور رحيم ٨ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ٩ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) فالبصير يرى ان القرآن يجعل المودة بين المؤمنين وأولئك المشركين الذين آذوا الرسول ومن آمن به أشد الايذاء وأخرجوهم من بلدهم وبين هؤلاء المؤمنين مرجوّة وقال انه لاينهاهم عن البر والقسط الى من ليسوا كذلك من المشركين وهم أشد الناس عداوة للمؤمنين وابعد عنهم من أهل الكتاب ثم أكد ذلك بحصر النهي فى الذين قاتلوهم فى الدين أي لأنهم مسلمون وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم منها ولكنه حصر هذا النهي في توليهم ونصرهم لافي مجاملتهم وحسن معاملتهم . بالبر والاحسان والعدل وهذا منتهى الحلم والسماح بل الفضل والكمال .

ولا تنس ان هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة وكان المشركون في عنفوان طغيانهم واعتدائهم وقد عمل عليه الصلاة والسلام يوم الفتح بهذه الوصايا فعفا عن قدرة وحلم عن عزة وسلطة وقال: أنتم الطلقاء : وأحسن الى المؤمن والكافر والبر والفاجر ومثله أهل للفضل والاحسان ولقد كان للمؤمنين فيه أسوة حسنة ولكن بعد متحسمو المسلمين اليوم عن سنته ومن كتاب الله الذي أدب هو به . اللهم اهد هؤلاء المسلمين بهداية كتابك ليكونوا بحسن عملهم حجة له، بعد ماصار اكثرهم بسوء العمل

حجة عليه ، ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ فيتخذ الكافرين أولياء وأنصارا من دون المؤمنين فيما يخالف مصلحتهم من حيث هم مؤمنون ﴿ فليس من الله في شيء ﴾ أي فليس من ولاية الله في شيء قاله البيضاوي وغيره وولاية الله من العبد طاعته ونصر دينه ومن الله مثوبته ورضوانه . وقال الاستاذ الامام: معنى العبارة انه يكون بينه وبين الله غاية البعد أي تنقطع صلة الايمان بينه وبين الله تعالى أي فيكون من الكافرين كما قال فى آية أخرى (ومن يتولهم منكم فانه منهم) أومعناه فيكون عدو الله وقد صرح بذلك ﴿ الا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ (١) استثناء من أعم الاحوال أي ان ترك موالاة الكافرين على المؤمنين حتم فى كل حال الا فى حال الخوف من شيء تتقونه منهم فلكم حينئذ أن توالوهم بقدر مايتقى به ذلك الشيء لان درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وهذه الموالاة تكون صورية لأنها للمؤمنين لا عليهم والظاهر أن الاستثناء منقطع والمعنى ليس لكم ان توالوهم على المؤمنين ولكن لكم ان تتقوا ضررهم بموالاتهم . واذا جاز موالاتهم لاتقاء الضرر فجوازه لاجل منفعة للمسلمين يكون أولى وعلى هذا يجوز لحكام المسلمين ان يحالفوا الدول غير المسلمة لاجل فائدة المؤمنين بدفع الضرر أو جلب المنفعة وليس لهم ان يوالوهم فى شيء يضر بالمسلمين وان لم يكونوا من رعيتهم . وهذه الموالاة لاتختص بوقت الضعف بل هي جائزة في كل وقت

أقول وقد استدل بعضهم بالآية على جواز التقية وهي مايقال أو يفعل مخالفاً للحق لأجل توقي الضرر ولهم فيها تعريفات وشروط وأحكام فقيل أنها مشروعة للمحافظة على النفس والعرض والمال وقيل لاتجوز التقية لأجل المحافظة على المال. وقيل انها خاصة بحال الضعف وقيل بل عامة وينقل عن الخوارج انهم منعوا التقية في الدين مطلقاً وان أكره المؤمن وخاف القتل لأن الدين لا يقدم عليه شيء ويرد عليهم قوله تعالى (١٦: ١٠٦ من كفر بالله من بعد إيمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم

(١) قرأ الكسائي تقاة بالإمالة ونافع وحمزة بين التفخيم والإمالة والباقون بالتفخيم وقرأ يعقوب تقية . والتقاة مصدر كالتقوى أو اسم مصدر والتقية بتشديد الياء مايتقى

١٠٧ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) فمن نطق بكلمة الكفر مكرها وقاية لنفسه من الهلاك لاشارحا بالكفر صدرا ولا مستحباً للحياة الدنيا على الآخرة لايكون كافرا بل يعذر كما عذر عمار بن ياسر قالوا فيه نزلت هذه الآية (١٦: ١٠٦) وكما عذر الصحابي الذي قال له مسيلمة الكذاب أتشهد أني رسول الله قال نعم فتركه وقتل رفيقه الذي سأله هذا السؤال فقال اني أصم ثلاثا ويتقل عن الشيعة أن التقية عندهم اصل من أصول الدين جرى عليه الأنبياء والأئمة . وينقل عنهم في ذلك أمور متناقضة مضطرب بة وخرافات مستغرب بة وقلما يسلم نقل المخالف من الظنة لاسيما اذا كان نقله بالمعنى . وليس في تفسيرنا هذا موضع المناقشات والجدل في مسائل الخلاف . وقصارى ماتدل عليه هذه الآية ان المسلم ان يتقي مايتقي من مضرة الكافرين وقصارى ماتدل عليه آية سورة النحل (١٦: ١٠٦) ماتقدم آنفا ولا شيء . وكل ذلك من باب الرخص لأجل الضرورات العارضة لامن أصول الدين المتبعة دائما ولذلك كان مسائل الاجماع وجوب الهجرة على المسلم من المكان الذي يخاف فيه من اظهار دينه ويضطر فيه الى التقية ومن علامة المؤمن الكامل أن لايخاف في الله لومة لائم قال تعالى (٥: ٢٤ فلا تخشوا الناس واخشوني) وقال (٣: ١٧٥ فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) وكان النبي وأصحابه يتحملون الاذى في ذات الله ويصبرون

وأما المداراة فيما لايهدم حقا ولا يبني باطلا فهي كياسة مستحبة يقتضيها أدب المجالسة مالم تنته الى حد النفاق، ويستجاز فيها الدهان والاختلاق، وتكون مؤكدة في خطاب السفهاء تصونا من سفههم، واتقاء لفحشهم، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا عنده فقال « بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة » ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت يارسول الله قلت ماقلت ثم ألنت له القول فقال « ياعائشة ان من أشر الناس من يتركه الناس – أو يدعه الناس – اتقاء فحشه » رواه البخاري في صحيحه وفيه من حديث أبي الدرداء « انا لنكشر في وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم » وفي رواية الكشميهني : وان قلوبنا لتقليهم : أي تبغضهم . ولا يجهل أحد أن الانة القول

أو الكشر في الوجوه أي التبسم هما من أدب المجلس ينبغي بذلهما لكل جليس ولا يعدان من النفاق ولا من الدهان . ولا ينافيان أمر الله لنبيه بالاغلاظ على الكافرين لأنه ورد في مقام الأمر بالجهاد لدفع إيذائهم وحماية الدعوة وبيان حقيقتها وقد كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس أدبا في مجلسه وحديثه .

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ روي عن ابن عباس ان معناه عقاب نفسه . وذكر النفس ليعلم ان الوعيد صادر منه وهو القادر على إنفاذه اذ لا يعجزه شيء وسيأتي في تفسير الجملة كلام آخر في الآية التي تلي مابعد هذه ﴿ والى الله المصير ﴾ فلا مهرب منه . قالوا وفيه تهديد عظيم يشعر بتناهي المنهي عنه من الموالاة في القبح ثم قال ﴿ قل ان تخفوا مافي صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم مافي السموات والارض ﴾ المراد بما في الصدور مافي القلوب من الانشراح والميل للكفر أو الكره له والنفور منه فهو كقوله تعالى في الآية التي ذكرت آنفا (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا) الخ أي انه سبحانه يعلم ماتنطوي عليه نفوسكم وما تختلج به قلوبكم اذ توالون الكافرين أو توادونهم أو تتقون منهم ماتتقون فان كان ذلك يميل الى الكفر جازاكم عليه وان كانت قلوبكم مطمئنة بالايمان غفر لكم ولم يؤاخذكم على عمل لاجناية فيه على دينكم ولا إيذاء لأهله فهو يجازيكم على حسب علمه المحيط بما في السموات والأرض لأنه الخالق لما في السموات والارض « ألا يعلم من خلق » وهذا كالدليل على علمه بما في صدورهم لانه عام ودليل ظاهر في النظام العام ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ فلا يمكن ان ينفلت من قدرته أحد ولا أن يعجزه شيء وهذا كالشرح لقوله « ويحذركم الله نفسه »

﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾ قال الاستاذ الامام مامعناه : الكلام تتمة لوعيد من يوالي الكافرين ناصرا إياهم على المؤمنين . والمعنى اتقوا واحذروا أو ليحذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير مهما قل محضرا ولا يجوز تقدير « اذكر » متعلقا لقوله يوم تجد كما فعل الجلال . ومعنى كونه محضراً أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لديه . وأما عمل السوء فتود كل نفس اقترفته لو بعد عنها ولم تره وتؤخذ

بجزائه . وهذا يدل على أن عمل الشر يكون محضرا أيضاً ولكنه عبر عنه بما ذكر ليدل على ان احضاره موءذ لصاحبه يود لولم يكن أي ومنه يعلم أن إحضار عمل الخير يكون غبطة لصاحبه وسرورا . وقال الاستاذ ان هذا التعبير ضرب من التمثيل كالآيات التي فيها ذكر كتب الأعمال وأخذها بالايمان والشمائل فان الغرض من التعبير بأخذها باليمين أخذها بالقبول الحسن ومن أخذها بالشمال أومن وراء الظهر أخذها مع الكراهة والامتعاض .

أقول وكيف لاتجد كل نفس ماعملت محضرا فتسر المحسنة وتنعم بما أحسنت، وتبتئس المسيئة وتغتم بما أساءت ، وتودلو كان بينها و بينه بعد المشرقين وهذه الأعمال مرسومة في صحائف هذه الأنفس وهي صفات لها وعن هذه الصفات صدرت تلك الحركات فزادت الصفات رسوخاً والنقوش في النفس تمكنا حتى ارتقت بالمحسن الى عليين ، حيث كتاب الابرار ، وهبطت بالمسيء الى سجين، حيث كتاب الفجار ، ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ فانه من ورائكم محيط وسنته في تأثير الأعمال في النفوس وجعل آثار أعمالها مصدرا لجزائها حاكمة عليكم ، أفلا يجب عليكم — والأمر كذلك — أن تحذروه بما أوتيتم من القدرة على الخير والميل اليه بترجيحه على مايعرض على الفطرة من تزيين عمل السوء والتوبة اليه سبحانه مماغلبتم عليه في الماضي ﴿ والله روءف بالعباد ﴾ ومن رأفته أن جعل الفطرة سليمة ميالة بطبعها الى الخير وتتألم مما يعرض لها من الشر — وأن جعل للانسان أنواعاً من الهدايات يرجح بها الخير على الشر كالعقل والدين — وأن جعل جزاء الخير مضاعفاً — وان جعل أثر الشر في النفس قابلا للمحو بالتوبة والعمل الصالح — وان أكثر التحذير من عاقبة السوء ليذكر الانسان ولا ينسى ، لعله يتذكر أو يخشى ،

ومن مباحث اللفظ في الآية دخول الحرف المصدري على مثله في قوله «لو أن» قال الاستاذ الامام وهو معروف في الكلام العربي الفصيح فلا حاجة الى جعل الاصل فيه المنع وتأويل ماسمع منه . وقد اختلف فى تفسير الأمد فقيل الغاية وقيل الأجل وقيل المكان . وقال الراغب: الأمد والابد يتقاربان لكن الابد عبارة عن مدة من الزمان ليس لها حد محدود ولا يتقيد لا يقال أبد

كذا والامد مدة لها حد مجهول اذا أطلق وقد ينحصر نحو أن يقال أمد كذا كما يقال زمان كذا والفرق بين الزمان والامد أن الامد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدإ والغاية ولذلك قال بعضهم المدى والامد يتقاربان

(٣١ : ٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٢ : ٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *

﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فان ماجئت به من عنده مبين لصفاته وأوامره ونواهيه والمحب حريص على معرفة المحبوب ومعرفة مايأمر به وينهى عنه ليتقرب اليه بمعرفة قدره وامتثال أمره مع اجتناب نهيه ويكون بذلك أهلا لمحبته سبحانه ومستحقاً لان يغفر له ذنوبه . قيل ان الآية نزلت كالجواب لقوم ادعوا أمام الرسول عليه السلام انهم يحبون ربهم وما من أحد يوءمن بالله ولو بطريق التقليد والاتباع لغيره الا وهو يدعي حبه . وقيل انها نزلت ليخاطب بها نصارى نجران الذين ادعوا كما يدعي أهل ملتهم انهم أبناء الله وأحباوءه . نعم ان أوائل هذه السورة نزلت اذكان وفد نجران في المدينة ويصح ان تكون مما يحتج به عليهم ولكن الخطاب فيها عام . ، وحجة على أهل الدعوى في كل زمان ومكان ،وما قيمة الدعوى يكذبها العمل ،وكيف يجتمع الحب مع الجهل بالمحبوب وعدم العناية بأمره ونهيه،

تعصي الاله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري فى القياس بديع
لوكان حبك صادقا لأطعته   ان المحب لمن يحب مطيع

﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ السابقة من الاعتقاد الباطل والاعمال السيئة لان هذا الاتباع هو الاعتقاد الحق والعمل والصالح وهما يمحوان من النفس ظلمة الباطل، ويزيلان منها آثار المعاصي والرذائل ، وهذا هو عين المغفرة فالمغفرة أثر فطري للايمان والعمل الصالح بعد ترك الذنوب كما أن العقاب أثر طبيعي للكفر والمعاصي ﴿ والله غفور رحيم ﴾ جعل للمغفرة سنة عادلة و بينها برحمته واحسانه لعباده . وهي تزكية

النفس بالاتباع الذي أكد الأمر به وبين أن عاقبة الاعراض عنه الحرمان من حب الله تعالى فقال :

﴿ قل أطيعوا الله ﴾ باتباع كتابه ﴿ والرسول ﴾ باتباع سنته والاهتداء بهديه ﴿ فان تولوا ﴾ وأعرضوا ولم يجيبوا دعوتك غرورا منهم بدعواهم انهم محبون لله وأنهم أبناؤه وأحباؤه ﴿ فان الله لا يحب الكافرين ﴾ الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر الصحيح في آيات الله وما أنزله على رسوله وترك الشرك والضلال الذي نهيت عنه واتباع الحق في الاعتقاد الذي بينته والعمل الصالح الذي أرشدت اليه . هؤلاء هم الكافرون وان ادعوا انهم مؤمنون وأنهم يحبون الله والله يحبهم

هذا مانراه كافيا في فهم الآيات وليس عندنا فيها عن الاستاذ الامام شيء . وان من الباحثين من يخفى عليه معنى حب الله للناس وحبهم اياه فنوضح ذلك بعض الايضاح .

حب الناس لله يجهله من يعيش كما تعيش الديدان والبهائم لا يشغله الا هم قبقبه وذبذبه ويعرفه الحكماء الربانيون والمؤمنون الصالحون ويمكن تقريبه من فهم الجاهل المستعد للعلم وتشويقه اليه بارشاده الى مراجعة فطرته والبحث في أسباب حب الناس لكثير من الأشياء التي لا يحبها حيوان آخر

يجد كل حي من الأحياء ميلا من نفسه الى ما به كمال فطرته على حسب استعدادها فالأنعام التي ينحصر استعدادها فيما به حفظ وجودها الشخصي والنوعي لا تميل الا الى الغذاء لحفظ الأول والنزوان لحفظ الثاني وأما الانسان فله استعداد لا يعرف له حد ولا نهاية وميله وحبه أيضاً ليس له حد ولا نهاية وانما تقف الامراض الروحية ببعض أفراده أو جمعياته عند حدود معينة لفساد في التربية ومرض في مزاج الاجتماع وهذا الاستعداد وما يتبعه أنصع الدلائل عند العالمين بنظام الاكوان على ان الانسان خلق للبقاء لا للفناء وان له حياة أخرى ينال بها كل ما خلق مستعدا له من العرفان واعلاء الكمال في معرفة الله

يحب الانسان جمال الطبيعة فيبذل المال الكثير لانشاء الحدائق والجنات، واجتلاب مالم يوجد في بلاده من انواع النبات ، ويطربه خرير المياه ، وحفيف

الرياح ، وتغريد الاطيار ، على افنان الاشجار ، — يعشق جمال الصنعة فينفق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في اقتناء الصور البديعة ، والنقوش الدقيقة ، — يهوى الوقوف على مجاهل الأرض والاطلاع على أحوال العالمين فيركب الأخطار ، ويقتحم البحار ، ويسمح بالوقت والدينار ، — يهيم بالرياسة فيستهين لاجلها باللذات ، — ويزدري الشهوات ، وينافح في سبيلها الاقران ، ويكافح في طلبها السلطان ، — يفتتن بحب أهل النجدة والشجاعة وقواد الجيوش فيبذل حياته لحفظ حياتهم ، ويتحمس في التحزب لهم بعد مماتهم ، — يولع بكبار العلماء فيتخذهم أئمة متبعين ، وان حرم في اتباعهم من حقيقة العلم والدين ، ويتعصب لهم على من خالفهم ، وان كان الحق يؤيده من دونهم ، — يهيم بالمعقولات السامية ، والحكمة العالية ، فيحتقر دونها المال والحياة والرياسة والامارة وينزوي في كسر بيته يعمل الفكر ، ويروض النفس ، ويصقل الروح ، معتقدا ان من سار سيرته فهو المغبوط وان الغافل عن ذلك هو المغبون ، « كل حزب بما لديهم فرحون »

إن استعداد الانسان أعلى من كل ذلك فهو لا يقف عنه حد اكتشاف المجهولات ، ومعرفة ما في الارض السموات ، ومجالدة جليد القطب الشمالي ، ومواثبة أسود أفريقية وأفاعي الهند ، ومناصبة أمواج القاموس الاعظم ، ومراقبة نجوم السماء ، في الليالي الليلاء ، بل هو يبحث عن الماضي ليتعرف مبدأ الخلق والتكوين ، ويبحث عن المستقبل ليعلم الغاية والمصير ، بل هو يبحث عن حقيقة الخالق البارىء قبل أن يعرف شيئاً من حقائق المخلوقات ، وقبل ان يعرف نفسه واستعدادها ، وغرضها من بحثها واستقصائها ، ترى هذا الانسان الذي يحب هذه الاشياء التي لا تتناهى . لأنه خلق مستعدا لمعرفة لا تتناهى ، قد يهيم حبا في بعضها ، حتى يشغله عن سائرها ، وكلما كان موضوع حبه أعلى ، كان هو في نفسه ارقى وأسمى ، ومنتهى الرقي والسمو ان يحب في كل شيء ، معنى الجمال المودع في كل شيء ، وهو الابداع الالهي ، والنظام الرباني ، فلا تحجبه المباني عن المعاني ، ولا تشغله الاشباح عن الارواح ، فيلاحظ في كل جميل أحبه منشأ جماله ، وفي كل كامل أجله مصدر كماله ، وفي كل بديع مال اليه علة ابداعه ، وفي كل مخترع أعجب به الحكمة العامة في الاقدار على اختراعه ،

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها   وأعضائها فالحسن عنك مغيب

فهذا هو حب الله عز وجل — حبه في كل محبوب لمشاهدة جماله في كل جميل، ورؤية ابداعه في كل بديع، ومعرفة كماله في كل كامل، لأنه مصدر كل شيء «الذي أحسن كل شيء خلقه» هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم

وأما حبه تبارك اسمه وتعالى جده لعباده الذين يحبونه و يتبعون رسوله الذي هداهم الى معرفته، ودلهم على سبيل حبه وعبادته، فهو شأن من شؤونه الإلهية في عباده لا يعرفه الا من ذاقه، وعرف وصل الحبيب وفراقه، وصار مظهرا من مظاهر حكمته، ومجلى من مجالي ابداعه، ومصدرا من مصادر الخير في عباده، وروحا من أرواح النظام في خلقه، وانما يكون كذلك اذا تخلق بأخلاق الله، وتحقق بأسمائه وصفاته جل علاه، حتى صار في نفسه من خلفاء الله، كما ارشده كتاب الله، ولا يمكن الافصاح عن هذا المقام، لانه يعرف بالذوق لا بالكلام، وانما يذوقه من أحب الله، وعرف كيف يعامل من أحبه واصطفاه، فاعمل لذلك لتعرف ماهنالك،

تحبب فان الحب داعية الحب   وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

باب المقالات

الهوى والهدى أو اللذة والمنفعة (*)

يولد الحيوان ذا وجدانين متضادين — وجدان اللذة بما يلائمه ووجدان الألم مما لا يلائمه، واحساس الطبيعة الحيوانية بالحاجة الى اللذيذ يسمى شهوة وهو يطلبه قبل وجوده و يلتذ به بعد ان يصيبه. فالشهوة هي الشعور الاول للحيوان واللذة هي الشعور الثاني والمطلب الاول. لا فصل في هذا بين الحيوان الاعجم والناطق. على ان الانسان لا يولد ناطقا بل يولد أشد عجمة وأضعف شعورا من سائر الحيوانات

يتعلم وليد الانسان النطق بعد ولادته باشهر فيعبر عن شعوره وادراكه و يفهم من غيره بعض مايعبر به عما في نفسه ثم يتولد فيه الميل الى البحث ومعرفة المجهولات

(* كتبنا هذه المقالة ومابعدها «للجريدة» ونشرت فيها

ثم الفكر فيما تدركه مشاعره والتذكر والتخيل والقياس والاستنتاج وهي اللذة المعنوية تسوقه اليها شهوة عقلية ينفرد بالترقي فيها دون الحيوان الاعجم و بذلك يميز بين النافع والضار و يحكم بوجوب طلب الاول وان كان مؤلما كالدواء، واتقاء الثاني وان كان مشتهى ومستلذا كالخمر والحشيش، وكالاسراف في اللذات النافعة. كما يميز بين الحق والباطل في الاعتقاد و يرجح الحق على الباطل

يرتقي الانسان في التمييز بين النافع والضار والحق والباطل بالتدريج وربما بلغ أشده واستوى وهو يرى بعض النافع ضارا و بعض الباطل حقا ولا يحيط أحد من الناس خبرا بالمنافع والحقائق ولواشخصه فما قولكم دام فضلكم في الباحث عن المنافع والمضار لامة عظيمة أو دولة كبيرة

ترتقي معرفة الناس بالمنافع والمضار بارتقاء التربية الصالحة والتعليم النافع وانك لتجد اكثر المرتقين في تربيتهم وتعليمهم يؤثرون اللذة على المنفعة في كثير من شؤونهم وأحوالهم فما بالكم بمن دونهم في ارتقائهم

إيثار اللذة على المنفعة والباطل على الحق هو اتباع الهوى وعكسه هو اتباع الهدى ولو كان كل لذيذ ضارا أو كل نافع مؤلما لهلك الناس باستحباب الهوى على الهدى، ولكن أكثر اللذائذ نافعة وأكثر المؤلمات ضارة والحق والخير محببان الى النفوس البشرية طبعاً وانما يكرههما الجاهل بهما أو من تربي على ضدهما حتى ملك الباطل أو الشر وجدانه، واستحوذ على نفسه استحواذا. فليس في فطرة الانسان غريزة تصده عن الكمال في اتباع الهدى باختيار الحق على الباطل. وترجيح النافع على الضار، فتبارك الفاطر الحكيم.

يحب الطفل اللعب وهو نافع له وقد يؤثره في سن التمييز على التعليم فيظن الجاهل ان هذا إيثار للذة على المنفعة لفساد في الفطرة وما هو بفساد في الفطرة وانما هو مظهر الحكمة فيها

لاينفر الولد من التعلم الا اذا كان فيه ارغام للفطرة بتكليفه فهم ماهو غير مستعد لفهمه وذلك ضار به. أو بمنعه من اللعب النافع له، أو بمعاملته بالشدة العائقة له عن كماله، وهذا التحكم في عقله ونفسه كالتحكم في جسمه بسومه حمل الاثقال،

ومصارعة الرجال ، وأكثر الناس يعرفون درجات قوى الاجسام ، دون درجات قوى النفوس والاحلام ،

جرب بعض الناس طريقة الحكمة في التعليم والتربية وهي الطريقة التي لا تخرج الناشيء عن طوره فتجعل الدارج يافعاً أو الطفل كهلا — الطريقة التي لا تحمل الطبيعة مالا تحمل ، فجذبوا الناشئين بسلاسل اللذة التي عرفوها ، الى جنة المنفعة التي جهلوها ، فانجذبوا طائعين مسرورين

هكذا يمكن للمربي الحكيم ان يجمع بين الهوى والهدى ولولا هذا الامكان لما قال النبي عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ولكن المربي الجاهل يمد الناشيء في الهوى و يغذيه باللذة و يصور له الألم أو الحرمان في المنفعة حتى يكون من الخاسرين

سنة الله في الأمم تشبه سنته في الافراد فللأمة طفولة وتمييز وشباب واستواء . وهي تؤثر قبل بلوغها سن الكمال الاجتماعي اللذة على الفائدة ، وتستحب العمى على الهدى للجهل بوجوه المصالح العامة ، وما يرفع الاقوام وما يضعها ، وحينئذ تكون أحوج الى المربي الحكيم ، من الطفل اليتيم

ما ارتقاء الامة الا كثرة الحكماء والفضلاء فيها ومهما كثر هؤلاء فلا يكونون في سواد الامة الاعدادا قليلا فأكثر افراد الأمم الراقية الآن يؤثرون اللذة و يسعون لها سعيها في عامة أحوالهم . ألم يأتك نبأ خسارة من طبع كتب الفيلسوف هربرت سبنسر في علم الاجتماع وفلسفة التربية والتعليم وهي انفع ما كتب حكماء الغرب في أرقى اممه ؟ قارن بين هذا و بين الربح العظيم الذى يناله من يطبعون القصص الغرامية وغير الغرامية تعلم ان الدهماء من كل امة يتبعون مواقع اللذة و ينفرون من النافع اذا لم يكن مستلذا ولكن الامة المرتقية لا يروج عندها الضار بها وان كان لذيذا

تربية الامم وارشادها أشرف الاعمال وأفضلها وأشقها وأعسرها و يعوزه من العلم والحكمة والاخلاص والنزاهة مالا يعوز غيره فان فتنة الهوى فيه لا يقاس بها فتنة حتى ان الملك العاطل من حلية هذه الصفات يتبع هواه في سياسة رعيته ، حتى يودي بشعبه ورعيته ، ولو كان خساره في ذلك موازيا لخسار الامة فى مجموعها

آية من يتبع الهدى في ارشاد الامة أن لا يتبع فيه هواها ولا يتحرى ما يرضيها ، وان كان يرديها ، وان يكون كالطبيب يجرعها المر ، ايقيها الضر ، اذا تعذر أن تجذب باللذات الى المنافع ، كما يجذب الدارج واليافع ،

لا يؤمن الفرد من اتباع الهوى في سياسة الامة وارشادها عن علم أو جهل لذلك جاء الوحي بوجوب جعل أمر المسلمين شورى بينهم و بذلك ارتقت الامم العزيزة . و ينبغي لمرشديها ان يسلكوا سبيل الشورى كحاكميها ، فلا يستبد أحد الافراد ، برأيه في الارشاد ، لهذا نرجو من هذه (الجريدة) من تحرير الفوائد ، فوق ما نرجو من غيرها من الجرائد ، والسلام على من اتبع الهدى ، ورجح العقل على الهوى ،

سنن الاجتماع

﴿ في الحاكمين والمحكومين لهم وجزاؤهم ﴾

طبيعة الاجتماع تقضي بوجود الحكام ، ما قضت بوجود النزاع والخصام ، فاذا لم يتغلب على الناس من يحكم فيهم كما يشاء اختاروا هم لانفسهم من يحكم بينهم كما يشاؤن ، لأن ما قضت به سنن الوجود واقع ماله من دافع

الحكم حاجة من حاجات الناس يقوم به بعضهم بالنيابة عن الباقين فهو كسائر الحاجات من العلوم والمهن والحرف كالزراعة والصناعة والتجارة التي يقوم بكل فرع من فروعها من يكفي المجتمع همها كما يقوم هو بسائر حاجاتهم و يكفيهم ما أهمهم . فالحاكمون كغيرهم من العاملين كل صنف يخدم مجموع الاصناف التي يعبر عنها بالشعب أو الامة من حيث يخدمونه و « كل ميسر لما خلق له » ومسير الى حيث يسوقه استعداده ، فمن سابق ومتخلف ، ومن محسن ومسيء ، ولكل جزاء ، والجزاء اما مال يكفي أو يغني ، وأما مال وجاه يعلي

جزاء الاعمال التي تطلبها طبيعة الاجتماع طبيعي مثلها ولولا ذلك لما اندفع كل فريق الى العمل الذي يزين له استعداده جزاءه والغبطة به فمن يطلب من

الجزاء الطبيعي على العمل اكثر مما تفرضه سنة الاجتماع من الجزاء عليه فهو باغ متنكب صراط الحق غير مقيم لميزان العدل اذ يطفف لنفسه ويخسر للأمة

البغي في اقتضاء الجزاء يكون من الافراد ومن الجمعيات والأصناف فالاول لاتأثير له في افساد الأمة وتلافيه سهل وأما الثاني فهو البلاء المبين لأن قوة الاجتماع هي أعظم القوى . وانما يتحقق البغي بتحديد قيم الاعمال والاشياء تحديدا طبيعيا (ان امكن) أو قانونيا ليكون متجاوز الحد هو الباغي الذي يجب ارجاعه عن بغيه

ينجح زيد فى بغيه على عمرو اذا كان أقوى منه علماً أو جسماً والحاكم يفصل بينهما اذا رفع الامر اليه والا كان الراضى بالهضيمة مستحقاً لها جزاء على جهله ومن ذلك مايقع كثيرا من الحوذية يطلبون فوق ماحدد لهم في (التعريفة) فالعارف يهددهم ، والجاهل قد ينقدهم ، والخطب في الامرين سهل . وانما الخطب الجلل أن يتفق صنف من القائمين بأعمال المجتمع فيبغون في طلب الجزاء . ومنه مايعرف في هذا العصر باعتصاب العمال ولكن هذا الاعتصاب يجري في أعمال لم تحدد أجورها تحديداً طبيعياً ولا شرعياً ومسلك العدل في تحديد القانون له دقيق ولا أرى له وجهاً ترضى به طبيعة الاجتماع الا أن يكون النسبة بين كسب المالكين واجور العاملين ، ويأبى علينا هذا المقال ان نخوض فيه ويرضي لنا ان نرده الى الحاكمين ،

لا نقول ان اعتصاب العمال من البغي ، ولا نقول ان فيه خطراً على الشعب ، وانما الخطر العظيم في بغي الحاكمين ، الذين يوكل اليهم تلافي بغي الافراد والجمعيات من المحكومين لهم ،

ماهو نوع عمل الحكام في الامة وما هو نوع جزائهم عليه ؟ جاء في فاتحة الكلام أن الحاكم اما متغلب بالقوة يحكم كما يشاء واما مختار من المحكومين له فيحكم بينهم بما يشاؤن من الشرائع والقوانين ، فالحاكم الأول يرى أن عمله من قبيل ادارة صاحب المزرعة والماشية والعبيد لما يملك وان مايأخذه هو من قبيل الغلة والريع وانه يجب على المحكومين له أن يقوموا له في مزرعته الكبيرة (المملكة) بما يطلب وان يرضوا بما يفرضه لهم وعليهم والمحكومون له يرونه سلطاناً باغياً يتربصون به الدوائر على حسب حالهم في العلم والقوة أو الجهل والضعف . والحاكم الثاني يعلم كما يعلم

المحكومون له أن عمله من قبيل عمل الفعلة والاجراء وان مايأخذه من الجزاء المالي عليه أجرة مفروضة وأن الجزاء المعنوي وهو الجاه أثر طبيعي لاحسانه في عمله كما يكون لغيره من المحسنين الى الامة في ترقية العلوم والفنون والاعمال

على حسب حال الامة يكون حكامها في نفس الامر الذي تقضي به طبيعة الاجتماع « كما تكونون يولى عليكم » واما حكم الشرع والعقل فهو يقضي بوجوب جعل الحكام أجراء للامة ، قال أبو العلاء ، فيلسوف الشعراء

ملّ المقام فكم أعاشر أمة ... حكمت بغير كتابها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

كذلك شأن أكثر الاجراء والوكلاء مع المالكين الجاهلين بما يجب أن يكون عليه ملكهم ، العاجزين عن تحديد الاعمال وتحديد اجور العمال والزام كل عامل أن يلزم حده ، لذلك أنحى الفيلسوف في شعره باللائمة على الامة التي مكنت أجراءها من الاستبداد في السيادة عليها حتى تجاوزوا مصالحها ، ينبهها بذلك الى اقامة الشريعة فيهم وارجاعهم الى الكتاب العزيز الذي جعل أمر المؤمنين شورى بينهم

ذلك حكم الشريعة والعقل ولن تقدر الامة على القيام به الا بتغيير الافكار والاخلاق التي كان من اثرها الطبيعي ان صار الاجراء سادة مالكين وتحصيل الافكار والعلوم والاخلاق التي تمكنها بالاتحاد من جعل المتغلب بقوته ، مختاراً لعدله وفضيلته ،

اذا احسن الحاكم المتغلب في عمله واقتصد فيما يتناول من مال الامة جزاء عليه كان جديراً بالجاه الصحيح وهو ملك القلوب وقيادتها بالمحبة والتعظيم وبما يتبعه من الحمد والثناء واذا اساء عملاً واسرف فيما يأخذ يفوته الجاه الصحيح ويستبدل به الجاه الباطل وهو قهر الرعية على ان تعامله معاملة الحاكم العادل من الثناء والتعظيم الصوري مكابرة للنفس وعصياناً للقلب في سبيل طاعته الالزامية .

اما الحاكم المختار للامة فهي التي تفرض له برضاها اجره وتملكه قلوبها طائفة مختارة

روى ابن سعد في الطبقات عن حميد بن هلال قال لما ولي أبو بكر قال اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افرضوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مايغنيه ،

قالوا نعم: برداه (ثوباه) ان اخلقهما وضعهما واخذ مثلهما، وظهره (أي مايركبه) اذا سافر، ونفقته على أهله كما كان ينفق على أهله قبل ان يستخلف: قال أبو بكر رضيت . وفي رواية أو روايات انه أراد أن يعمل في التجارة طرفا من النهار لاجل عياله و ينظر في امور الناس في سائر الاوقات فمنعوه وقال عمر نفرض لك فاراد ان يتمنع فاقنعوه وفرضوا له كواحد من المهاجرين لا ارقاهم ولا ادناهم . وكذلك كان ينفق قبل الخلافة

هكذا كانت حكومة المسلمين في أول عهدها كانت من القسم الثاني من التقسيم المتقدم فعرض عليها من عوارض الاجتماع ما حولها عن وضعها وجعلها من القسم الآخر . وكم من حكومة كانت ظالمة بالتغلب فزحزحتها طبيعة الاجتماع عن مكانها ووضعتها تحت سيطرة الامة كحكومات الفرنجة في بلادها

لم تكن حكومة الشورى في المسلمين اثرا لارتقاء اجتماعي فيهم ولذلك لم يطل عليها العهد وانما كانت ائتمارا بامر الدين وعملا بهدايته وقد تغلبت العصبيات في الامة قبل ان يستقر هذا النوع من الحكومة و يلقي بوانيه (أي يثبت و يقيم) بهدي الدين و يصير طبيعيا في الامة

للحكومات آجال مقدرة بقدر أحوال المحكومين لها الاجتماعية ولمدبر الكون فيها سنن لا تتبدل ولا تتحول، فما قصر اجل حكومة الشورى في المسلمين الا لان ذلك المجموع المؤلف من جميع الشعوب والاجناس لم يكن مستعدا لان يكون مسيطرا على حاكميه لقلة معارفه الاجتماعية ولانتفاء الوحدة التي تجعل الامة كرجل واحد . وانما يستفيد الناس من الدين والدنيا في كل زمان بقدر استعدادهم ولو كانوا شعبا واحد في قطر واحد لرجي لهم طول هذا الاجل كما طال اجل حكومة الرومان ثم قضي عليها بالتوسع فى العمران ودخول الشعوب الكثيرة تحت سلطانها

اذا اراد الله بامة ان تنهض الى جعل حكومتها تحت سيطرتها كما يجب ان تكون سهل لها من اسباب العلم الصحيح والتربية القويمة ماينير أذهانها و يجمع كلمتها حتى تكون امة عاقلة حكيمة «والعاقل لا يظلم لاسيما اذا كان امة» كما قال الحكيم السيد جمال الدين الافغاني

يسرنا ان نرى بوادر العلم والتربية في افراد من امتنا الاسلامية فى كل شعب وكل قطر وأن نرى بعض مرشديها يحثونها على الاستزادة منهما ويسوءنا ان بعض الجاهلين المرائين يفتاتون على المرشدين المخلصين فيملقون آمال الامة بغير هذا الطريق المعبّد، والصراط السويّ فى تقويم الحكومة وما يجب ان تعاملها به الامة . ولكن قضت سنة الله بأن يغلب الحق الباطل و يرجح النافع على الضار ولو بعد حين

يسهل على من أوتي الخلابة في القول، والعرفان باهواء الجماهير، أن يغش امة هي في طور الطفولة في الحياة الاجتماعية وليس لها زعماء وحكماء ترجع في الامور العامة اليهم : و يسهل على من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ان ينصح لها ويهديها سبل الرشاد ، فاذا هي رزئت بالمختلبين وحدهم شقيت ، واذا هي رزقت الناصحين سعدت ، واذا تنازعها الصنفان وجد صاحب الحق من نصر العقلاء وإن قلوا ، مايفلّ جموع أنصار الباطل وان كثروا ، و بذلك ترتقي الامة ارتقاء يجعلها أهلا لان تختار حكامها وتحدد لهم الجزاء المالي على اعمالهم وتمنحهم الجاه والشرف باختيارها لانهم يحكمونها بمشيئتها المبنية على الحكمة والعرفان ، وهي تجزيهم بمشيئتها الناشئة عن الرضى والاذعان

الى اي شيء انت يامصر احوج

للقطر المصري في هذا العصر حال لا يشاركه فيها قطر آخر من اقطار الارض وهذه الحال مفيدة له من وجه وخطر على أهله من وجه آخر فيجب ان يعرفوا كيف يجتنون الفوائد من الوجه الاول و يجتنبون الغوائل من الوجه الثاني

الحال التي انفرد بها هي ان جميع الامم الراقية تنازع أهله الحياة في المعاش أو الاقتصاد كما يقال وفي الاجتماع والآداب وما من أمة منها الا وهي ارقى من أهله في العلوم والاعمال ولها من الحقوق فيه أكثر مما لهم فالقوانين المصرية تبيح للاجانب ان يملكوا من البلاد كل مايملكه الوطني وان ينشروا فيها لغاتهم واديانهم ومذاهبهم و يأتوا بعاداتهم وتقاليدهم كما يفعل الوطني ولكن الحكومة المصرية ليس لها من المراقبة والسلطان على الاجنبي مثل مالها على الوطني فالاجنبي أوسع

حرية واكثر استقلالاً في اعماله كلها

اما وجه الفائدة من هذه الحال فهو ان الاوربيين فى مجموعهم مدرسة جامعة فى البلاد تعلم أهلها من الاعمال المالية بأنواعها والاجتماعية والادبية مالم يكونوا يعلمون وتعليم العمل اقرب الى النفع من تعليم العلم اذ العمل مقصد والعلم وسيلة اليه فى الغالب فكل عامل ينفع البلاد ويرقيها وما كل عالم ينفع وماعلينا — والمدرسة العملية مفتحة الابواب ودروسها مبذولة فى كل مدينة وقرية لكل من له عين تبصر واذن تسمع وعقل يدرك وقلب يتأثر — الا أن نتعلم كيف نكتسب وكيف نقتصد وكيف نؤسس الشركات ، وكيف نؤلف الجمعيات ، وكيف نحافظ على الآداب والعادات ، وكيف نقيم بناء وحدتنا الجنسية ، وكيف ندعو الى عقائدنا وآدابنا الدينية ، وكيف نوزع هذه الاعمال على اصناف العاملين ، وكيف نكون مع هذا التوزيع متعاونين متكافلين

وأما وجه الخطر ، فهو اجلى واظهر ، فان ضعيفاً ينازع الاقوياء الحياة يوشك ان ينزعوه ، وواهناً يصارع الاشداء يقرب ان يصرعوه ، واذا كان فى الامثال المسلمة « ضعيفان يغلبان قويا » فما بالك بعدة اقوياء يغالبون ضعيفاً واحداً ألا يكون الخطر عليه شديدا ؟ بلى انه يخشى ان تنزع هذه الشركات الأجنبية والمصارف (البنوك) اكثر مافي ايدي المصريين من أرض مصر حتى يكون اكثرهم فيها اجراء لارزق لهم الاما يفيضه المالك الجديد عليهم من اجور أعمالهم من الحرث والخدمة ويكون الكثيرون منهم عالة لايجدون من جود الاغنياء مايسدّ رمقهم ويفنى الباقون في الغالبين بالتقليد والمحاكاة . يومئذ (لاكان يومئذ) لايستطيع ان يقول المصري هذه بلادي فأنا أولى واحق بأن اتولى أحكامها بنفسي وأدير نظامها بيدي .

انما يخشى ان يسرع هذا الخطر المادي اذا شايعه الخطر المعنوي وامدّه في سيره وهو التهاون في امر مقومات الامة ومشخصاتها من الدين واللغة والآداب والعادات الحسنة بل اقول لايمكن لأمة ان تحفظ كونها الا بالمحافظة على عاداتها وان كانت غير حسنة ولا قبيحة وان تتروى في القبيح منها فتدعو الى تركه ان تحقق قبحه بالتدريج واستبدال النافع بالضارّ ولاحسن في عادات الامم الا النافع

ولا قبيح الا الضار . الم تروا ان أعز الامم واوسعها سلطاناً هي اشد الامم محافظة على العادات والتقاليد المشخصة لها وان كان غيرها خيراً منها ؟ ألم تعلموا أن اكثر الامم الاوربية قد استنفدت حيلتها بعد ما استنفرت بلاغتها وفصاحتها في محاولة اقناع الانكليز باستبدال المقياس العشري (المتر) بمقياسهم (اليرد) بل بتوحيد المقاييس — وناهيكم بفوائده — فلم يزد ذلك الانكليز الامحافظة وثباتاً على مادرجوا عليه . ألم يأتكم نبأ ما كان لاستبدال اسماعيل باشا الخديو التاريخ المسيحي بالتاريخ الهجري من الفرح والسرور في أوربا ! ! قيل ان ذلك اليوم كان عند الاوربيين عيداً من الاعياد بل فتحاً مبيناً من أجلّ الفتوحات فى تحويل الشعوب من حال الى حال . وهم ينظرون عيدا ثانياً أو فتحاً آخر باقناع المسلمين عامة في مصر بترك العمل يوم الاحد كما فعل بعض تجارهم

تنتزع اراضي مصر من أهلها قطعة بعد قطعة فلا تشعر الامة بانتزاعها لان البلاد تبقى على حالها لا يتغير من معالمها ولا من شؤون عوالمها شيء ، وتترك مقومات الامة ومشخصاتها عقيدة بعد عقيدة وعادة بعد عادة ولا تشعر الامة بتركها وماله من الأثر فى حياتها لان تحوّل الامم كتحول الظل لا يشعر احد بحركته ويشعر كل احد بعاقبته ، وانتقال الثروة من الشعب الكبير كانتقالها من الرجل الواحد الذي يغتر بكثرة ماله فيسرف ويبذر لا يلاحظ عند كل نفقة مابقي من ماله ولا نسبتها الى دخله وانما تنحصر ملاحظته في شيء واحد وهو انه يملك مليوناً فهو اليوم ينفق عشرة آلاف على انها عشرة من مليون وفى غد ينفق عشرة أخرى على انها عشرة من مليون ولا يزال يرى المليون مليوناً وان لم يضم اليه شيئاً والعشرة عشرة وان صارت بانضمامها الى ماقبلها عشرات فمئات حتى تستغرق المليون فلا يبقى منه شيء أو يبقى منه مايكون مثله في يد الفقير والمسكين

لا يهولنك ماقرأت فتكون من اليائسين ، ولا تستهينن به فتكون من المغرورين ، فان الخطر الذي ذكرناه — وان كان صحيحا — مما يمكن اتقاؤه وان لمصر على ضعفها قوة المالك المدافع عن ملكه أو المحافظ عليه في زمن لاغصب فيه ولا مصادرة في المال ولا استبداد يحول دون التربية والتعليم والمحافظة على مقومات الامة من

اللغة والشعائر والاخلاق والعادات فالخطر المخشي ليس خطرا اضطراريا لاقبل لنا به ولاحول لنا ولاقوة على دفعه وانما هو خطر نتقحم فيه بمشيئتنا واختيارنا واذا نحن اتقيناه كان مصدره وهو التنازع بيننا وبين الاجانب مصدر علم وعرفان ، وترق فى الاجتماع والعمران ، نعم انه لايخلو من اثم ولكن منافعه تكون اكبر من اثمه

كيف يتقى هذا الخطر ؟ قد علم مما مر ان الخطر محصور فى امرين اضاعة الثروة واهمال مقومات الامة . فاما الثروة فلها ثلاث آفات أوثلاث بلاليع — القمار ومنه مضاربات البورصة وقد فشا وباؤه في القطر المصري حتى لم يدع قرية ولا مزرعة (عزبة) سالمة من فتكه ، واعطاء الربا للاجانب ، وبيع الاطيان والاملاك منهم . ولا سبيل الى اقناع جميع الناس باتقاء هذه الآفات الثلاث ولكن الجرائد اذا فصلت مضارها وكررت النذر فيها وتتبعت الوقائع والحوادث في تخريبها للبيوت وافقارها للاغنياء واذلالها للاعزاء رجونا ان يقل فتكها حتى لايصل الى درجة الخطر على الامة

وأما مقومات الامة فأمرها أعظم ومجال القول فيها أوسع وانما نخاطب في شأنها الزعماء المصلحون والعلماء العاملون والاغنياء العاقلون وأصحاب الصحف الغيورون والخطباء المؤثرون إذ المدار فيها على ايجاد معاهد للتربية والتعليم ينشأ فيها الرجال المستقلون ، والنساء القادرات على تربية الولدان واقامة النظام في البيوت ، وهذا مايطلب من الزعماء والاغنياء ولا ينكر ما للجرائد الناصحة من التأثير فى الحث عليه ، ثم على النصح المتتابع للأمة في المحافظة على تلك المقومات واعلاء شأنها والتقريع الشديد للذين يهملون شيئاً منها وهذا مايطلب من الخطباء والكتاب .

واني لأعجب كيف تقصر الجرائد الوطنية في هذين الركنين العظيمين — حفظ ثروة الامة وحفظ مقوماتها الجنسية وترقيتها — وتطيل الكلام في المسائل الخارجية والحوادث الجزئية فيكون اكثر ماتقوله لغواً لافائدة فيه للجمهور . أليست مصر احوج الى حفظ ثروتها ومقوماتها منها الى سائر الاشياء ؟ أليست هذه الثروة والمقومات على خطر من التنازع مع سائر الامم يجب تداركه ؟ أليست الجرائد هي المطالبة ببيان ذلك والحث على تلافيه؟ بلى وعسى ان يكون عناية الجريدة به اكبر من عنايتها بسواه والله الموفق

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذلا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا. ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

الكرامة والمعجزة

(س ٨) السيد محمد بن هاشم علوي (بجاوه) أسألك عن كلمة : كل معجزة لنبي فهي كرامة لولي : هذه الكلمة تلهج بها الناس عندنا لا سيما عبدة الخوارق ولا أدري هل هي حديث أو أثر وما معناها

(ج) العبارة ليست حديثاً ولا أثراً عن الصحابة وهذه الاصطلاحات من المعجزة والكرامة والولاية قد حدثت بعدهم وانما هي كلمة لبعض المشايخ وافقت هوى الناس فتلقوها بالقبول وصارت عندهم من قبيل القواعد الدينية وسارت بها الامثال فيما بينهم ونحمد الله أننا لم نعدم في شيوخ التصوف والعلم من أنكرها

ينقل عن الاستاذ أبي اسحق الاسفرايني والحليمي من أئمة الأشعرية انهما وافقا المعتزلة على انكار الكرامات . وذكر التاج السبكي في طبقات الشافعية الكبرى أنه يزداد تعجبه من نسبة إنكارها الى الاستاذ « وهو من اساطين أهل السنة والجماعة » وكذب ذلك ثم قال ما نصه

« والذي ذكره الرجل في مصنفاته ان الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة. قال وكل ماجاز تقديره معجزة لنبي لا يجوز ظهور مثله كرامة لولي . قال وانما مبلغ الكرامات إجابة دعوة أو موافاة ماء في بادية فى غير موقع المياه أومضاهي ذلك مما ينحط عن خرق العادة . ثم مع هذا قال إمام الحرمين من أئمتنا هذا المذهب متروك . قلت وليس بالغا في البشاعة مبلغ مذهب المنكرين للكرامات مطلقا بل هو مذهب مفصل بين كرامة وكرامة ورأى ان ذلك التفصيل هو المميز

لها من المعجزات . وقد قال الاستاذ الكبير أبو القاسم القشيري فى الرسالة : ان كثيراً من المقدورات يعلم اليوم قطعاً انه لا يجوز ان تظهر كرامة للاولياء لضرورة أو شبهة ضرورة يعلم ذلك (فمنها حصول انسان لا من أبوين وقلب جماد بهيمة أو حيواناً وامثال هذا كثير : انتهى وهو حق لا ريب فيه وبه يتضح ان قول من قال : ماجاز ان يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي : ليس على عمومه وأن قول من قال لا فارق بين المعجزة والكرامة الا التحدي : ليس على وجهه» اه كلام السبكي هنا

وقال بنفي العموم أيضاً في جوابه عن شبهة القائلين بانه لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة . وقال في الكلام على إحياء الموتى نحوه ومنه قوله « ولا أعتقد الآن ان ولياً يحيي لنا الشافعي وأبا حنيفة حياة يبقيان معها زماناً طويلاً كما عمرا قبل الوفاة بل ولا زمناً قصيراً يخالطان فيه الأحياء كما خالطاهم قبل الوفاة »

﴿ محو الناس للاسماء من اللوح المحفوظ ﴾

(س ٩) ومنه معطوفاً على السؤال السابق : وأسألك سيدي عن قول من سمعته يقول « فلان محينا اسمه من اللوح المحفوظ » وهذا القائل ممن يدعون الكرامات والتصوف وهو غبي عن أول ما يجب عليه واذا فرضنا حسن استقامته ومعرفته فهل يسوغ له هذا القول وما معناه وهل هو مدح للمحوّ اسمه أم ذم ؟ وقد أنكرت عليه قوله فلامني الناس المتهافتون على الخزعبلات لصغر سني وعدم كبر عمامتي ، وعدم قولي لمن يطلب من الدعاء أنت في رقبتي ، تفضل ياسيدي بين لي ما أشكل علي فقد اختلجَ بخاطري أنهم مصيبون في تصديقهم قوله وأنه ما قال منكرا من القول واني مخطئ في انكاري وما يدريني ان الحق معهم أجبني يا والدي

(ج) انك مصيب في انكارك وهم المخطئون وليس الحق بكبر السن أو العمامة فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن احدى وعشرين سنة فاثبت على فطرتك السليمة ولا تقبل من أحد قولا بغير دليل بين . أما كلم الدجالين فلا تفهم الا بالقرينة فانهم قد يريدون بمحو

الاسم الحكم بالموت وقد يريدون به إخراج المسمى من أهل المرتبة التي هو فيها حقيقة كالولايات الدنيوية أي عزله منها أو ادعاء كالذين يعترفون لهم بالولاية ومهما كان المراد فهذا القول من الجرأة على الله لا يصدر الا من جهول غره افتتان العامة بدعاويه وتقبيلهم ليديه فصدقهم وافتتن بنفسه أو نسي بهذا الجاه ربه فأنساه نفسه . وينبغي لك أن تتلطف في الانكار على هؤلاء لئلا تأخذهم العزة بالإثم فيؤذوك فانهم لخضوع العامة لهم يطغون ويستحلون الإيذاء لاسيما اذا أمكنهم إخفاء سببه ليدعوا ان المعترض قد عاقبه الله كرامة لهم فان أكثر كراماتهم المزعومة هي الإيذاء للناس ولم نسمع ان أحدا منهم قد نال من الكرامة أن أنقذ بعض بلاد المسلمين من الظلم أو أخرجهم من ظلمات البدع والخرافات

(قتلى مسلمي الروس في الحرب اليابانية)

(س ١٠) يوسف افندي هندي بالبريد المصري (تأخر) : ماحكم الشرع الشريف فيمن قتل من مسلمي الجند الروسي في حرب اليابان هل ماتوا طائعين أم عاصين ولا أظنهم يعدون شهداء أرجو التكرم بالافادة لازلتم ملجأ لكل مستفيد

(ج) انني أعتقد ان محاربة مسلمي روسيا لليابان ليست معصية لله تعالى ولا ممنوعة شرعا وانها قد تكون مما يثابون عليها عند الله اذا كانت لهم فيها نية صالحة « إنما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » وللنية الصالحة فى حرب المسلم مع دولته غير المسلمة وجوه (منها) ان طاعته اياها تدفع عن إخوانه من رعيتها شيئا من ظلمها وشرها اذا كانت استبدادية ظالمة وتساويهم بسائر أهلها في الحقوق والمزايا اذا كانت نيابية عادلة أو تفيدهم مادون ذلك اذا كانت بين بين (ومنها) أن العلوم والاعمال الحربية لا تزال من أهم عناصر الحياة الاجتماعية فى البشر فاذا حرم منها شعب من الشعوب ضعفت حياته والضعيف لا يكون الا ذليلا مهينا . والخير للمسلمين من رعايا تلك الدول ان يكونوا مشاركين لسائر أهل الملل فيها في جميع مقومات الحياة الاجتماعية أقوياء بقوتهم أعزاء بعزتهم لا ان يكونوا فيهم ضعفاء أذلاء بدينهم فان دين الاسلام لا يبيح لأهله ان يختاروا الضعف والذلة على القوة والعزة واذاهم اختاروا ذلك عجزوا عن حفظ دينهم فكان ذلك إضاعة للدين نفسه فلا

تلتفت الى متعصب جهول يقول لك ان المنار يبيح للمسلمين ان يمتزوا بالكافرين الا اذا رأيته يعقل الكلام فقل له إنه ينصح للمسلمين بأن يختاروا العز على الذل مهما كان مصدر العز والقوة على الضعف ويرى ان حفظ الاسلام في غير داره لا يكون الا بذلك . ويتمنى نصارى العثمانيين لو تدخلهم الدولة في الجندية لذلك

﴿ الدخان هل هو نجس وضار ﴾

(س ١١) من محمد أفندي زيدان بسنورس الفيوم (تأخر)

ما قولكم جعلكم الله منار الإسلام وينبوع العلم ومنهل الوراد في مسئلة الدخان التي أخذ اختلاف الناس فيها كل مأخذ ضار با اطنابه على أفكارهم وعقولهم فأصبح معظمنا والحمد لله ان لم أقل الكل مغمورا في غياهب الجهل بكنهها مضطرب الضمير تلعب به أيدي الخلاف على موائد الجهالات تختلج الصدر بالسؤال عما يكشف لثامها .. ويرفع نقابها وعن بيان أحكامها وهل الدخان نجس أو منع منه الامام وهل يضر وهل يكون حجابا بين العبد وربه من الأنوار واني لأرى هذه المسئلة أهم مسئلة توجه اليها انظار النظار بالبحث في خبايا اسرارها ليستخرجوا معادنها الجوهرية ولا أرى مقداما على خوض بحارها وسلوك سباسبها الا منار الاسلام فوليت وجهي شطره بلسان حال الأمة مريدا بيان حقيقتها بما يسر الضمير ويرتاح اليه الخاطر مشدودا نطاقه بساطع براهين ناركم كما عهدنا من قبل ولازلنا نعهد نشر لواء المنار على عويص المسائل فأدحض سحاب الجهل بقوى الحجة و بياض المحجة فلعله يتفضل علي بل على الشعب بأسره بنقطة من بحار علومه الفياضة أو بشعاع من شمس معارفه فنهتدي بها سواء السبيل والسلام

(ج) قد نشرنا هذا السؤال بنصه لما فيه من الفكاهة و بيان استعداد الناس للاحفاء والاستقصاء في كل شيء وان مايراه بعضهم من الامور التي لايؤبه لها يراه آخرون ذا بال بل من أهم المهمات

اما كون الدخان نجسا أوغير نجس فالجواب عنه أن هذا النبات الذي يسمى دخانا لأنه يستعمل إحراقا ليتمتع بدخانه هو كسائر النبات طاهر ولا يوجد في الدنيا نبات نجس واما كونه ضارا أم لا فهذا مما يرجع فيه الى الاطباء لا الى الفقهاء

والمعروف في الفقه ان كل ضار محرم على من يضره وما كان من شأنه ان يضر قطعا الا في أحوال نادرة يمكن إطلاق القول بحرمته أو ظنا يحكم بكراهته . والمشهور عن الاطباء أن في هذا النبات المعروف بالدخان و بالتبغ والتتن و بالتنباك مادة سامة تسمى (نيكوتين) فهو لذلك يضر المصدرين قطعا وان صحيح الجسم اذا تعوده بالتدريج فانه لايضره ضررا بينا ولاشك ان تركه خير للصحة من استعماله فينبغي لمن يبتل لم به ان لا يقلد الناس فيه فانه اذا لم يخل من ضرر ما يكون مكروها شرعا وعلى من ابتلي به ان يراجع الطبيب الحاذق فاذا جزم بضرره وجب عليه تركه واذا قال يحتمل ان يضره استحب له تركه واذا قال إنه لايضره مطلقا أبيح له استعماله واذا اتفق ان كان نافعا له لمقاومة مرض ما كما ينفع كثير من السموم في مقاومة بعض الامراض صار مطالبا باستعماله شرعا وقد يكون حينئذ واجبا اذا جزم الطبيب بتوقف منع الضرر على استعماله والا كان مخيرا بينه وبين مايقوم مقامه . فعلم من ذلك كله أنه قد تعتريه الاحكام الخمسة كما يقولون

﴿ النهي عن الجمع بين الاختين والتزوج بامرأة الاب الا ماقد سلف ﴾

(س١٢) عكاشه افندي خليل بالأبيض من السودان : ارشدني أرشدك الله الى الصراط المستقيم الى تفسير قوله تعالى « وان تجمعوا بين الاختين الا ماقد سلف » وقوله « ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الا ماقد سلف » ورجائي نشره في ناركم ولكم الثواب

(ج) معنى قوله عز وجل « الا ماقد سلف » لكن ماسلف أي سبق لكم من ذلك في زمن الجاهلية لامؤاخذة عليه وكانوا في الجاهلية يجمعون بين الاختين في الزواج ويتزوجون بنساء آبائهم اذا ماتوا عنهن فنهى الله عن ذلك وبين ان ماسبق في الجاهلية لايؤاخذ عليه . وهذا الاستثناء يسميه النحاة الاستثناء المنقطع . ويقول بعض المفسرين ان الاستثناء متصل ولا حاجة الى بيان قوله لمن يريد فهم المعنى ولا حاجة له في الاصطلاحات النحوية

« الحب وهل هو اختياري أم اضطراري »

(س ١٣) . . . التلميذ بمدرسة الناصرية بمصر : ماهو الحب؟ وهل هو اختياري أم اضطراري ؟ أفيدونا بأجلى بيان وأعظم برهان ، وان شئتم فأرسلوا لنا الرد على غير صفحات المنار ويكون لكم الفضل والله لايحرمنا من أمثالكم

(ج) ورد لنا هذا السؤال منذ سنة وشهر ولم يأمر السائل بكتمان اسمه ولا بالرمز اليه وكنا ترددنا في الجواب عنه ثم نسيناه ولما راجعنا في هذه الايام ماتأخر من الاسئلة التي جاءتنا في السنة الماضية ولم نجب عنها رأيناه فيها واستحسنا ان نجيب عنه جوابا مفيدا لامثال السائل من الناشئين الذين أنشأت بوادر الحب تعبث بنفوسهم وتنشيء له في مخيلاتهم جنات باسقة الاشجار ، بهيجة الازهار ، تجري من تحتها الانهار ، وتغرد من فوقها الاطيار ، تتهادى في أفيائها كواعب الأبكار ، فيتراءى لهم من سعادة الحياة في مناغاة أولئك الغادات ، في حدائق هاتيك الجنات ، ماقد يشغلهم عن تحصيل العلم ، ويعوقهم عن تربية النفس ، ويجذبهم الى مطالعة قصص الغرام ، التي تغذي تلك التخيلات والأوهام ، حتى يزين لهم التعرض للحب اختيارا ، أو يقعوا في حبالته اضطرارا ، فيجني عليهم مايجني مما لا محل لذكره هنا

معنى الحب بديهي لايمكن تعريفه بما هو أجلى عند النفس منه فاذا قلت لك : ان حبك للشيء عبارة عن ميلك اليه اوهو انفعال ارتياح وأنس بالشيء المحبوب أو شعور ملائم للطبع مثاره أومنشؤه ذلك الشيء : أو غير ذلك لايزيدك ذلك معرفة بالحب وانما يزيدك معرفة بالالفاظ المرادفة أوالمتقاربة في المعنى فمن أحب شيئا ما عرف معنى الحب المطلق في الجملة وحب ذلك الشيء بالتحديد واذا فرضنا انه يوجد في البشر من لايحب شيئا قط فاننا نجزم بان إفهامه معنى الحب محال ومن أحب شيئا دون شيء فاننا نعرفه معنى الحب المجهول عنده بتشبيهه بالمعروف له ولكن هذا التعريف يكون بالتقريب لا بالتحديد لأن حب الاحترام غير حب الشفقة وحب القرابة والصداقة غير حب الزوجية . وصفوة القول ان الحب من الوجدانات التي لايعرفها إلا من ذاقها كالسرور والفرح والخوف والحزن

وأما كونه اختياريا أو اضطراريا فهو مما اختلف فيه الباحثون فقال بعضهم

بالأول وبعضهم بالثاني وذهب آخرون الى ان أوله اختياري وآخره اضطراري وقد نظموا هذه الآراء واشتهرت فيها أشعارهم واذا رجع الانسان الى نفسه والى مايعرف عن أبناء جنسه ودقق النظر في ذلك يتجلى له ان لكل قول وجها ولكنه قاصر عن تمحيص الحقيقة وذلك أن الانسان قد يحدث له الحب فجأة وقد يختار معاشرة بعض من يستحسن والتودد إليه لأجل ان يحبه فيحبه وقد يحب امرأ او امرأة فجأة أو بعد تحبب ثم يفطن الى ان هذا الحب لاخير فيه وأن تركه خير من البقاء عليه فيتكلف السلو بالبعد وترك المعاشرة حتى يسلو ، وقد يكون ضعيف الارادة فاقد العزيمة لايقوى على مغالبة الحب وان هو اعتقد عبثه بشرفه ودينه وذهابه بماله وافساده لمصالحه فيظل مغلوبا له خاضعا لسلطانه

كل أولئك كان واقعا معروفا للمختبرين وماقال من قال ان الحب اختياري دائما ، أواضطراري مطلقا ، أوأوله اختياري وآخره اضطراري الا حكاية عما يجد في نفسه مع الغفلة عما عليه غيره من الناس والا فهو جاهل بنفسه وبغيره

وان شئت تفصيلا ما لهذا الاجمال فلا تنس ان موضع الخلاف هو حب الشهوة الذي يسمى عشقا كحب الرجل للمرأة التي يشتهي ان يقترن بها حبا يملك شعوره ووجدانه لامطلق حب الانسان الجميل أو القريب أوالمحسن أو الفاضل فان الحب المطلق للجميل المستحسن من الانسان وغير الانسان مما غرز في طبائع البشر واصطبغت به فطرتهم لايملكون دفعه ، ولا اختيار لهم فيه . وقلما يكون العشق اضطرارا بل الغالب فيه ان يستحسن المستعد للعشق من تحسن صورته أو صورتها في عينه وتحل محلا من قلبه فيطيل في ذلك الفكر والتخيل ، ويعود الى النظر والتأمل ، ويتدرج من ذلك الى المكالمة والمعاشرة حتى يصير عاشقا ، واسترساله في هذه الامور يكون باختياره في الاكثر ، وما كان من الخواطر والتخيلات الاولى بغير اختيار تسهل مدافعته بتكلف التفكر في غيره قبل ان يتمكن ، ولذلك عبرنا بلفظ الاسترسال ومن سبر هذا وفقهه حق الفقه يجزم بأن أكثر الذين عشقوا مابلغوا في ميلهم واستحسانهم الى درجة العشق الا بأعمال نفسية وبدنية استرسلوا فيها باختيارهم ولو شاؤا لما استرسلوا ولولم يسترسلوا لما عشقوا ولكنهم اختاروا ان يعشقوا لانهم توهموا

ان فى العشق غبطة وهناء، ونعمة وسعادة

ومن النادر الذي يبعد تصوره، ويعسر تعليله، أن ينظر الانسان إلي صورة جميلة فيفجأه عشقها مستغرقا شعوره ووجدانه، مالكا عليه أمره، سالبا منه إرادته واختياره، ولو قال قائل ان هذا غير ممكن أو غير واقع لما صلحت حكايات «ألف ليلة وليلة» وأشباهها من القصص «الروايات» ناقضا لقوله، ذلك بان الانفعالات التي تعرض للنفوس لا تكون بالغة منتهى القوة والشدة الا اذا اصطدمت بوجدان يقابلها كالحزن الشديد لفقد المحبوب العزيز والفرح الشديد بلقائه بعد اليأس منه وكالخوف على الحياة من خطر مفاجئ

وقد يقال أيضا ان داعية النسل قد تقوى في بعض الناس الذين ليس لهم شواغل عقلية فتحدث استعدادا يستغرق الوجدان ويعم تأثيره المجموع العصبي فيتفق ان يرى صاحب هذا الوجدان في هذه الحال من الصور ذوات الجمال ما يشاكله فينفعل لرؤيته انفعالا شديدا ويتمكن تأثيره فى نفسه لأول وهلة فلا يكون له اختيار فيه، ولا مطمع فى تلافيه، ولكن هذا نادر كما قلنا آنفا والنادر لا حكم له كما يقولون

والغرض من هذا البيان أن الحب الذي تثيره داعية النسل كسائر أنواع الحب يخضع للتربية والتهذيب وليس من شأنه سلب الاختيار بطبيعته وانما ينمو كغيره بالاعمال الاختيارية حتى يخرج عن طوق الاختيار أحيانا لا سيما مع ضعفاء الارادة وأهل البطالة، فقد يولع المرء بلعب الشطرنج أو اللهو باطارة الحمام حتى يرى تركهما فوق ارادته واختياره. فعلى السائل وأمثاله من الناشئين ان لا يسترسلوا مع اهوائهم فى الحب لئلا يحكم عليهم سلطانه الجائر حكما يتجرعون غصصه طول حياتهم.



باب التربية والتعليم

التعليم الديني

لا نعرف بلاداً إسلامية أثر فيها التفرنج كما أثر في مصر وأغرب مظاهر هذا التأثير ماجرى منذ أشهر من الخلاف بين المسلمين في تعليم الدين بالمدارس بل وفي فائدة تعليم الدين وعدم فائدته وامكان الاستغناء عن الدين في تهذيب الاخلاق وتربية النفوس

فتحت باب البحث في ذلك الجرائد وتبعها الناس كعادتهم فمن قائل ان موضع تعليم الدين البيوت لا المداس وانه ينبغي للحكومة ان تبطل تعليم الدين من مدارسها ومن قائل ان مايعلم في هذه المدارس كاف لا حاجة الى الزيادة عليه، ويقابل هذا القول طلب اعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية زيادة التوسع في تعليم الدين بهذه المدارس. ووراء هذه الاقوال والآراء ما كتبه بعض الناظرين في آراء فلاسفة أوربا ونشر في جريدة المؤيد من بيان وجه الحاجة الى تعليم الدين وبيان الاستغناء عنه ومن قال بذلك من علماء الغرب

ومما يتشدق به المقلدون لأصحاب الآراء الفلسفية الناقصة قولهم إنه يمكن الاستغناء عن الدين بالتربية الادبية العقلية المبنية على الاقناع بضرر الرذائل ونفع الفضائل كأن يقول المعلم للتلميذ ان الكذب قبيح ومقترفه محتقر بين الناس لا يوثق بقوله ولا يعتد بشهادته ولا بخبره وأن الخمر ضارة تذهب بالصحة والمال. ومن هؤلاء من يرى ان هذه الطريقة أفضل من طريقة الدين المبنية على التخويف من عذاب الآخرة لان في هذا التخويف من اضعاف النفس وإيقاعها في الاوهام مافيه على زعمهم

ومن أهل الدين الراسخ من سرى له شيء من اوهام المتفلسفة فصار يرى ان تعليم الدين والتربية عليه في الصغر ضار ولكنه يجب بعد بلوغ العقل أشده لان الدين عبارة عن فلسفة روحية والمبتدئ ليس أهلا لتلقي الفلسفة ...

قد استعجل متفرنجو المسلمين جداً في جعل مسألة التعليم الديني محل بحث ونظر واستعجل المتفلسفة منهم فى الحكم بأن الاقناع العقلي كاف في تهذيب الناشئين ومغن عن الأخذ بالدين أو خير منه فان أئمتهم من غلاة الملاحدة في أوربا لم يظفروا باقناع شعب من شعوبهم برأيهم هذا ولايزال جميع الأوربيين يقيمون بناء التربية والتعليم على أساس الدين على أن حاجتهم اليه دون حاجتنا لوجوه منها انتشار التعليم الأدبي والاقناعي في جميع طبقاتهم حتى ان بعض بلادهم لا يوجد فيها أمي ولا أمية ونحن عاجزون عن تعميم التعليم بدين أو بغير دين فهل من الصواب ان نجعل المتعلمين منا على قلتهم غير متدينين وهم القدوة لسائر الأمة ؟ أم الصواب ان يسعى هؤلاء النفر من المتفلسفة الى محو الدين من الأمة برمتها متعلمها وأميها ؟ وهل يظنون ان جميع أفراد الأمة يكونون حينئذ فلاسفة أو متفلسفين مثلهم يتركون الشرور لقيام الدليل العقلي على ضررها أو منافاتها للشرف ؟؟

قلما تجد أحداً من أصحاب هذا الرأي العقيم تاركاً للمعاصي والشرور لانها ضارة بالمجتمع أو مخلة بالشرف ومن ترك ذلك ظاهراً لا يتركه باطناً الا من تربى منهم تربية دينية حقيقية طبعت في نفسه ملكات الفضائل طبعاً عجزت عن محوه نزغات الفلسفة الناقصة

يمكن ان يجمع للناشئ بين الاقناع والدين بأن يبين له ضرر الرذائل والمعاصي فى سياق حكمة تحريمها و بيان محاسن الفضائل ومنافعها فى سياق حكمة إيجابها أو استحبابها والا تعسر الاقناع أو تعذر لاختلاف الافهام فى حقيقة الشرف والخير والشر والنفع والضر . فاذا قلت للناشىء ان الزنا قبيح أو مخل بالشرف لا يمنعه ذلك ان اقنعه بأن يأتيه سرا لأن أمر الشرف منوط بنظر الناظرين وعرفهم واذا قلت له انه خطر على الصحة لأنه مدعاة للإسراف أو مجلبة لبعض الأدواء لم يكن لقولك من التأثير ان أخذ بالتسليم الا العزم على الاقتصاد فيه والحذر من غشيان المصابات بالأدواء و يظن ان ذلك مما يسهل عليه وربما وجد من الناصحين من يقول له ان ترك ذلك العمل ضار بالصحة فكانت نصيحته أقرب الى القبول من نصيحتك . واذا قلت له ان لهذه الفاحشة غوائل اجتماعية كاختلاط الانساب

وقلة النسل وإثارة الشرور بين المتنازعين فيها عند المشاركة : فلا تطمع منه ان عقل قولك بأن يترك لذته الثائرة حبا بالمصلحة العامة . ولكن أكثر الذين يتربون تربية دينية صحيحة لا يستحلون الفاحشة و يستهينون بها كما يفعل من فقدوا ذلك، وانك لتجد فى كل بلد يدين أهله بحرمة هذه الفاحشة كثيرين يتقونها خوفاً من الله عز وجل على ضعف العلم بالدين وعدم التربية عليه، ولولا الخرافات التي زلزلت العقائد، وشوهت وجه الاحكام كالاعتماد على الكفارات والشفاعات والغفران لكان وقوع هذه الفاحشة من المتدينين من النوادر

وقل مثل ذلك فى الخمر فان المتعلمين على الطريقة التي يطلبها المتفرنجون والمتفلسفون اعرف من غيرهم بما فيها من الضرر وهم مع ذلك أكثر شرباً لها من سواهم . وأضف الى ذلك جريمة القمار، وما فيها من المضار، على ان المتفرنجين والمتفلسفين منا لا يحرمون بعقولهم هذه الموبقات الثلاث التي يجاهدها فلاسفة أوربا بعقولهم وعلومهم أشد الجهاد ويعدونها شر غوائل المدنية الأوربية وهي لا تزداد بالرغم منهم الا انتشاراً

ان الجميع متفقون على قبح الكذب وضرره وإنهم لأعجز عن اقناع الناشئين بتركه مهما قويت حجتهم من اضعف مرشد ديني وان لم يأت بحجة أو حكمة وراء النص وقصارى ما يبلغه قولهم من نفس من يقبله ان يحترس من الفضيحة بالكذب الجلي لا أن يتركه مطلقا

أما زعم المتفلسفين أن تربية الدين قد تضر بالعقل أو النفس بما فيها من من الارهاب والتخويف فهو زعم باطل لا يقوله الا من يجهل الدين والناس، وسنبين ذلك في فرصة أخرى

وأما القول بان الدين فلسفة لا ينبغي أن يتلقاه الا المتعلم المستعد لتلقي العلوم العالية فله وجه وفيه قصور فان الدين له طرفان طرف أدنى وهو الهداية العامة لكل مكلف وان أميا جاهلا ،وطرف أعلى وهو كما قيل حكمة وفلسفة . والصواب أن يعلم التلميذ في المدرسة الابتدائية ما يليق به من الطرف الاول ويترقى به تدريجا – يعلم في السنين الأولى مع القراءة بالحكايات عن الاشياء ان الله تعالى هو الذي اعطى

كل شيء خلقه ثم هدى فاذا كان موضوع درسه في النحل مثلا يذكر له بعد شرح ما يليق بفهمه من حالها وأعمالها ان الله تعالى هو الذي خلقها وألهمها أن تعمل لحفظ حياتها هذه الأعمال ويترقى به في ذلك . ويعلم مع الآلهيات على هذا النحو شيئاً وجيزا من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وآدابه ويذكر له أن الله تعالى ميزه هو وأمثاله من الانبياء بعلم خاص بهم دون سائر الناس يهدون به الناس الى الحق والخير كما ميز النحل بعلم خاص بها لا يشاركها فيه غيرها واما العبادات فيجب أن يتعلمها الناشئون بالعمل لا بالقول وكذلك العامة اتباعاً للسنة السنية « صلوا كما رأيتموني أصلي » رواه البخاري وأما تعليم المبتدئين فلسفة السنوسي وأمثاله في الآلهيات كالصفات العشرين ، فهو من العبث الذي يعد جناية على الدين ، من ينتقده فاني معه أول المنتقدين ، والله على ذلك من الشاهدين ،

سألت أحد الفضلاء المستمسكين بالدين عن ولد له لعله في الثانية عشرة أيصلي فقال لا أدعه يصلي الآن لانه لا يعقل معنى الصلاة فاذا بلغ السن التي يفهم فيها معنى الصلاة فانه يصلي .

هذا الوالد الذي يرى هذا الرأي من ابناء كبار الباشوات وقد تعلم في أوربا وتقلد بعض الاعمال العالية في الحكومة وهو يفهم من معنى الصلاة مالا يفهم اكثر أهل الازهر لأنه قرأ الاحياء قراءة استهداء و يقل فيهم من قرأه ، وكثير من مدرسيهم لا يعرف عدد اجزائه ولا رأى منها شيئا وهو على ما نعتقد غير مصيب .
ولعمري انه ينبغي لمن يرى رأيا يخالف ما درجت عليه أمته أن لا يتعجل العمل به بل يبحث و يستشير ويناظر من يعلم أو يظن أنهم أهل للبحث فى ذلك لعله يرجع عن رأيه أو يمضي فيه على بينة تامة ولا يعتمد في هذا المقام بتجربة الواحد والآحاد

نقول فى الصلاة ما قلنا في الدين بجملته ان لها طرفا أدنى وطرفا أعلى ومن فوائد حمل الناشيء المميز على الصلاة تعويده الطهارة والوضوء ومنها توليد الشعور الاجمالي بالعبادة في قلبه وهذا شيء عرفناه بنفسنا ورأينا أثره في غيرنا ممن تربوا

تربية دينية فلا يصح لمن لم يذقه ان ينكره ، ومنها تعويده المحافظة على المكتوبات في أوقاتها فان كل عمل يؤدى بنظام في أوقات معينة يحتاج فيه الى التعويد في الصغر فقلما يحافظ الانسان على عمل منتظم لم يتعوده وان هو اعتقد نفعه في الكبر فأنا اعتقد أن الرياضة البدنية من الضروريات لذي الاعمال العقلية مثلي واستحث عزيمتي للارتياض كل يوم فلا تواتيني الا في بعض الايام وانني اعاتب نفسي منذ سنين على هذا الاهمال والتقصير ولو لم أكن مواظبا على الصلاة من الصغر لما بعد ان أترك بعض أوقاتها تكاسلا أو تأولا

ومن فوائد المواظبة على الصلاة قبل البلوغ أن المواظب عليها لا يقع بعد البلوغ في مهلكة الشبان التي يعبر عنها كتاب العصر بالعادة المضرة وناهيك بشرورها ومضارها واذا هو اجترحها لا يفرط فيها فان لم يتركها لأنها محرمة امتنع من الاسراف فيها استثقالا لتكرار الغسل وهذا ضرب من ضروب نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر والناس عنه غافلون

﴿ تعليم الدين في المدارس المصرية ﴾

بحث قوم في تعلم الدين بمدارس الحكومة ، فمنهم من قال بوجوب الزيادة فيه ، ومنهم من قال ان مافيها كاف ، ومنهم من قال انه لا ينبغي ان يعلم الدين في المدارس وانما موضع تعليمه البيوت وهم يعلمون ان تعليم البيوت منوط بالنساء وان النساء المصريات لسن على شيء من علم الدين ولا من علم الدنيا الذي يؤخذ بالتلقين . وقد رددت الجرائد هذه الاقوال ولم أر فيما قرأته فيها بيانا صحيحا لما يجب أن يكون عليه هذا التعليم فى هذه المدارس ولا فى غيرها . وقد طلبت الجمعية العمومية من الحكومة التوسع في تعليم الدين بمدارسها فقررت نظارة المعارف زيادة دروسه في المدارس الابتدائية فانتقدت ذلك الجرائد التي لا يرضيها من الحكومة شيء ولم تبين ماهو الصواب . وعندنا أنه يجب ان يكون معظم هذه الدروس في سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم في سيرة الخلفاء الراشدين ان اتسع لها الوقت والا كانت عبثا

وقد وجد القبط فرصة في هذه الايام لطلب كان قد سبق لهم فلم يجب فطلبوه فأجيب الآن ، وهو ان تعلم الديانة النصرانية في هذه المدارس أيضا . وقد عدت

إجابتهم الى هذا الطلب غريبة اذ لا يعهد تعليم دينين في مدارس حكومة من حكومات الأرض بل لا تسمح حكومة أروبية ان يعلم في مدارسها مذهب من مذاهب الديانة المشتركة بين أهل المملكة غير مذهب الحكومة أعني ان حكومة انكلترا التي تدين بمذهب البروتستانت لا تسمح لرعيتها من الكاثوليك ان يعلموا مذهبهم في مدارسها

وجم المسلمون لهذا العمل وكثر كلامهم فيه ولو خاضت الجرائد فيه لكان هو الشغل الشاغل للقطر كله ولكنها سكتت لما نعلم و يعلم سائر العقلاء العارفين بالمآزق التي وضعت فيه نفسها . وقد سألني كثير من المتفكرين عن رأيي في ذلك وكان منهم بعض المدرسين في المدارس والازهر فقلت ما حاصله : إن للمسألة وجها دينيا ووجها سياسيا فهي من الوجه الديني نافعة للمسلمين لأن التعليم الديني في المدارس كان نائما فهي توقظه أو كان ميتا فهي تنفخ فيه شيئاً من روح الحياة . وأما من الجهة السياسية فهي ضارة بهم لأنها من أمارات كون الحكومة ليست إسلامية والذنب في هذا على أهل الشغب من المسلمين الذين أخذوا على أنفسهم مناصبة القوة المحتلة وإظهار العدوان لها ومحاولة اقناع الجمهور بذلك و بأن كل من يعمل معهم أو يعرفهم فهو عدو للوطن خائن للأمة . ومن العجائب ان هؤلاء المشاغبين قد ظلموا اسم الاسلام والمسلمين إذ مزجوه بكلامهم وأدخلوه في سياستهم الأفينة حتى ظلموا المسمى لا بتعليم دين آخر في مدارس الحكومة فان هذا نافع له غير ضار به كما قلنا آنفا ولكن بما أحدثوا في نفوس الأروبيين من ان المسلمين يريدون الاجتماع باسم الاسلام لمقاومة سلطتهم في الشرق وهذا غير صحيح وإن تبجح بما يدل عليه طلاب المال والجاه باسم الاسلام ومصر وقد رأينا بوادر شرور سياستهم ونعوذ بالله من أواخرها

و يظن بعض الناس ان تعليم النصرانية في المدارس ربما يكون مثاراً للتعصب الديني الجاهلي ونظن انه لا خوف من ذلك . و يظن بعضهم أن هذا يكون سببا لترك التلاميذ من القبط لحضور دروس القرآن وحفظ ما يحفظ عادة منه وان ذلك يكون نقصا في اكتسابهم ملكة اللغة العربية وهذا معقول ولكن أكثرهم لا يتركون القرآن فيما أظن

باب المناظرة والمراسلة

﴿ تاريخ المصاحف ﴾

بقلم الدكتور محمد توفيق افندي صدقي الطبيب بسجن طره

لما لهذا الموضوع من العلاقة الكبرى بجميع مباحثي في الاسلام التي سبق نشرها في المنار الاغر رأيت أن افيض القول فيه بما يزيل ماران على قلوب كثير من الناس من الشبهات والاشكالات التي يقذف بها المسلمين دعاة من المسيحيين لا يميزون بين الغث والسمين . ولايضاح المسألة إيضاحا تاما رأيت أن أضع مقدمة هامة ، تمهيداً للبحث ، ودعامة للفحص ، فنقول : — غير خاف على أحد أن الأمة العربية قبل الاسلام كانت أمة أمية يقل فيها وجود من يعرف القراءة والكتابة معرفة جيدة ، وكان جل اعتمادهم في جميع ما يروونه من أنسابهم وأشعارهم وغيرها على حفظهم لها في صدورهم ، ولم يعرف أنه كان عندهم كتاب ما من الكتب في أي موضوع كان ، وغاية ما كانوا يفهمونه من لفظ (كتاب) أنه أي صحيفة مكتوب عليها من نحو الجلود أو العظام أو الحجارة أو الجريد ، بل إن الصالح للكتابة من كل من هذه الاشياء كان لديهم قليلا ولذلك لم يستغنوا بنوع واحد منها عن باقيها ، ولم يكن عندهم الورق الذي نعرفه الآن ، وهذا اللفظ ما كان يطلق عندهم إلا على ورق الشجر وعلى رقاع من الجلود رقيقة ، والاطلاق الاخير مستعار من الاول .

ولا نجد في اللغة العربية اسما خاصاً بما يشبه ورقنا المعروف سوى لفظ واحد وهو (الكاغد) وهو فارسي معرب وقد ادخله العرب في لغتها بعد النبي صلى الله عليه وسلم فلذا لم يرد في كلامهم قبله عليه السلام ولا في عصره ولم يرد في أحاديثه ولم نسمع أنه كان مما يكتب عليه القرآن في حياته عليه السلام . والغالب أن هذا اللفظ دخل في اللغة العربية بعد فتح المسلمين لبلاد فارس . وأما لفظ القرطاس فهو أقدم في اللغة وورد في القرآن الشريف وكان معناه عندهم الصحيفة من الاشياء التي كانوا يستعملونها للكتابة ثم اطلقوه فيما بعد على الكاغد أيضا

حينما عرفوه وصاروا يسمون به كل ما يكتبون عليه من الصحف. هذا وان ما ورد في كلامهم من لفظ (كتاب) كانوا يريدون به ما يطلق عليه في عرفنا اليوم لفظ (خطاب) أو جواب ومنه قوله تعالى في قصة سليمان (٢٧ : ٢٨ إذهب بكتابي هذا فألقه اليهم) ومنه كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ومثل الكتاب السفر والزبور والسجل والدفتر فان معانيها كلها متقاربة وما كانوا يفهمونها كما نفهمها الآن. ولذلك لما جمع القرآن بعد النبي اختلفت الصحابة فى ماذا يسمونه به وتوقفوا لانهم لم يعهدوا مثله من قبل ثم استقر رأيهم أخيرا على تسميته بالمصحف تبعا لاهل الحبشه فى تسمية مجموعاتهم بذلك والمصحف الكتاب بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن عند الاطلاق لانه مأخوذ من أصحف أي جمع الصحف. وكل صحيفة كتاب عند العرب كما ذكرنا وكانت أيضا كتب بعض الامم غير العربية عبارة عن قطع من الجلود أو القماش يختلف عرض الواحدة منها من ١٢ الى ١٤ قيراطا وكانوا يلفونها على قضيب من الخشب ملصق بأحد أطرافها كما تلف الخرائط الجغرافية الآن. وهذا هو الطي المذكور فى قوله تعالى (٢١ : ١٠٤ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب). ولا تزال التوراة مطوية كذلك عند السامريين الى اليوم

هذا الذي تقدم ليس خاصا بمشركي العرب بل يشمل أيضا أهل الكتاب منهم. ولذلك لا نسمع بوجود نسخة كاملة من التوراة أو الانجيل بينهم كالنسخ الموجودة الآن. ولم يكن عندهم سوى أجزاء قليلة منهما مكتوبة على قطع متفرقة من الجلود أو العظام أو الخشب أو نحوه. فلذا وصفهم القرآن الشريف بقوله (٣ : ٢٣ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) وخاطبهم بقوله (٥ ١٥ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) وقال فيهم (٥ : ١٣ ونسوا حظا مما ذكروا به) وقال لهم (٦ : ٩١ قل من أنزل الكتاب (١) الذي

(١) حاشيه للكاتب — المراد بالكتاب في جميع هذه الآيات الوحي المكتوب بقطع النظر عن كيفية كتابته ووضعه كقوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقوله (كتاب أنزل اليك) والقرآن حينئذ لم يكن تاما ولا مجموعا وانما المراد ما كان يوحى في ذلك الوقت فيكتب

جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس) أي صحفا متفرقة (تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) وقال أيضا (٢ : ٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم). وهذا كله يدل على أن كتبهم المقدسة ما كانت تامة ولا محصورة بين دفتين بحيث لا تقبل الزيادة ولا النقصان وانما كانت مبعثرة في رقاع منثورة وأن بعض صحفهم كان حقا والبعض الآخر كان باطلا. أما ما ورد في القرآن من نحو قوله تعالى (٥ : ٢٣ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) فمعناه أن عندهم أجزاء من التوارة فيها حكم الله في المسألة التي تحاكموا فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكما يطلق لفظ القرآن ويراد به اجزاء منه كذلك يطلق لفظ التوراة أو الانجيل ويراد به بعضها أو اجزاء منهما. وهذه مسألة شائعة في القرآن الشريف وفى اللغة. ومن ذلك قوله تعالى (٢ : ١٨٥ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) أي بعضه أو جزء منه

قدمنا لك هذه المقدمة لتعلم أن العرب ما كانت تعرف الكتاب ولا الورق بمعنييهما عندنا. وأوضحنا لك فيها درجة معرفتهم القراءة والكتابة. وذكرنا لك ما كانوا عليه يكتبون

بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيهم وحالتهم كما علمت وأوحى اليه هذا القرآن ليبلغهم إياه فانظر ماذا فعله هذا الرسول الأمين، حتى نشر بينهم الكتاب المبين،

علم قوة ذاكرتهم واعتمادهم عليها فى نقل أخبارهم وأشعارهم حتى أن كثيرا منهم كان يسمع الابيات من الشعر أو القصيدة الطويله تتلى عليه فيحفظها من أول مرة فداوم صلى الله عليه وسلم على حضهم على تلاوة القرآن وبالغ في حثهم على حفظه وضبطه. وفرض عليهم قراءته في الصلوات وبقي على هذه الحالة بضعا وعشرين سنة حتى كثر فيهم القراء وكانت السورة الواحدة يحفظها الالوف من الناس والقرآن كله يحفظه الكثيرون منهم. لم يكتف صلى الله عليه وسلم بذلك بل أمر بكتابته واختار طائفة منهم لتكتبه له على ما تيسر لهم اذ ذاك من الجلود والعظام والجريد والحجارة وغيرها مما كانوا يعرفونه. وأكثر من ترغيبهم فى

التعلم ومدح القراءة والكتابة بنحو قوله « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ومثل ذلك فى الأحاديث كثير . ورد فى القرآن الشريف أيضا قوله تعالى(٦٨:١ ن والقلم ومايسطرون) وقوله (٨٦ : ٣ إقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ٤ علم الانسان ما لم يعلم) وذم الله تعالى أهل الكتاب بقوله (٢ : ٧٨ ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون) وألزم تعالى المؤمنين بكتابة الدين في الآية المشهورة فى آخر سورة البقرة . وبذلك وجدت فيهم الرغبة فى تعلم القراءة والكتابة وأخذ عدد الكاتبين بينهم يزداد شيئا فشيئا . وكتب كل مانزل من القرآن كثير من المسلمين في عهده عليه الصلاة والسلام . ولم يمت إلا بعد أن كانت جميع السور مرتبة الآيات مكتوبة في السطور عند الكثير منهم محفوظة في صدور الجماهير و بعد أن سمعوها منه مرات عديدة في الصلوات والخطب وغيرها وسمعها هو أيضا منهم . والخلاصة أن النبي عليه السلام تبع أقرب الطرق لتعميم نشر القرآن المجيد بين جميع أفراد الامة العربية وعمل أحسن مايمكن عمله بالنسبة لمعلوماتهم وحالتهم

سمت نفوسهم بعد ذلك للعلى بما بثه فيهم واستعدت للرقي . فلما كثر اختلاطهم بمن جاورهم من الامم أخذوا ينقبون و يفتشون في أحوالهم بعيون مبصرة وعقول مفكرة كي يعثروا على جديد يقتبسونه أو إصلاح الى بلادهم يسوقونه فبصروا بمالم يبصروا به من قبل . ووجدوا أن لتلك الامم طريقة أخرى في تدوين معلوماتهم لم تكن تخطر على بالهم . وهي أن يكتبوها على صفحات صحف من نوع واحد يضمون بعضها الى بعض مرتبة على حسب ترتيب عباراتها وربما رأوا أنواعا اخرى من القرطاس أحسن من التي كانوا يعرفونها كأوراق البردي بمصر مثلا

دعاهم داعي الفزع عند قتل سبعين من القراء يوم اليمامة إلى المبادرة والاسراع فى جمع القرآن على طريقة تلك الامم خوفا عليه من الضياع من تلك الرقاع المختلفة الانواع فعقدوا في الحال اجتماعا واستقر رأيهم اجماعا على العمل على تلك الطريقة وهكذا جمع القرآن ووجد بين العرب أول كتاب بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن وتحقق وعد الرحمن (١٥ : ٩ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له

لحافظون) اختلف المسلمون فى ترتيب سور القرآن وطرق قراءته . وتبع ذلك اختلاف مصاحفهم لأن الرسول لم يلزمهم باتباع ترتيب مخصوص فى السور . ولم يجمعهم على قراءة واحدة . سور القرآن كل منها ككتاب قائم بذاته كما قال تعالى (٩٨: ٢ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) فليس ثم فائدة كبيرة فى التزام ترتيب مخصوص ولفظ (سورة) مأخوذ من سور المدينة سميت به القطعة المخصوصة من القرآن لأنها طائفة مستقلة بذاتها . فكأنه صلى الله عليه وسلم ترك بين المسلمين ١١٤ كتابا كل منها محفوظ مكتوب مرتبة آياته . وجمعها بالطريقة الحاضرة لم يكن معروفا فى عهده وإنما حدث بعده بقليل وإن كانت في زمنه مجموعة عند بعضهم في الصحف المتنوعة التي ذكرناها

أما اختلاف القراآت فهو نوعان : اختلاف بسبب اللهجات كالامالة وعدمها واختلاف آخر فى الكلمات كتغيير شكلها أو اعرابها أو بعض حروفها أو نحو ذلك . ولكل من النوعين فوائد ففوائد الاختلاف بسبب اللهجات هي (١) تسهيل نطقه وفهمه وحفظه لقبائل العرب المختلفة (٢) إظهار أنهم يعجزون جميعا عن الاتيان بمثل سورة منه كما تحداهم بذلك ولو بلغاتهم المختلفة وأن عجزهم عن المعارضة ليس ناشئا عن نزوله بلهجة واحدة لايعرفها كثير منهم . وفوائد اختلاف الكلمات هي (١) تسهيل حفظه على كل أحد . و بيان ذلك أن من أراد حفظ القرآن كثيرا مايسبق لسانه بنطق مخصوص . فاذا علم أن هذا خطأ جاهد نفسه لتقويم لسانه ولكن اذا علم أن قراءته جائزة لم يحتج الى هذا العناء مثلا اذا أراد أن يحفظ قوله تعالى (٨٩: ١٧ كلا بل لا تكرمون اليتيم ١٨ ولا تحاضون على طعام المسكين) قد يسبق لسانه ويقول (كلا بل لا يكرمون اليتيم ولا يحضون على طعام المسكين) فيجهد نفسه في العدول عن ذلك ولكنه إذا علم أن هذه قراءة جائزة لا يحتاج إلى التعب . وهذا الأمر يدركه جيدا من عانى حفظ القرآن الشريف . ومن ألزم باصابة غرض واحد لاغير ليس كمن أبيح له إصابة أي غرض من بين بضعة أغراض . ولا تنس ما لتسهيل حفظ القرآن على الأمة من الفوائد فانه أعظم طريقي القرآن في نقله وروايته وخصوصا في الأزمنة القديمة و بين الأمم الساذجة (٢) تكثير

المعاني . فبتعدد القراآت تكثر المعلومات وتزداد الفوائد . وقد يكون بعض المعاني مبينا للبعض الآخر (٣) تخفيف بعض الأحكام فمثلا قوله تعالى في آية الوضوء (٥:٦ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) بالكسر يفهمنا أن الغسل المفهوم من قراءة الفتح غير واجب على التعيين وأن المسح يكفي

فلهذه الاسباب ولغيرها كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرىء المسلمين القرآن بأوجه مختلفة ولذلك قال كما تواتر عنه (أنزل القرآن على سبعة أحرف) الحديث ولفظ السبعة تستعمله العرب أحيانا للمبالغة في الكثرة فيحتمل أن يكون هذا هو المراد هنا أو أن المراد سبع لهجات العرب الشهيرة وهو لا ينافي أن هناك قراآت أخرى غير الهجات إذ لفظ الحديث لا يفيد القصر

وقع الخلاف بين المسلمين في هذه القراآت الى أن اشتد في زمن عثمان رضي الله عنه اذ كان بعضهم اذا تلقى قراءة وسمع من غيره ما يخالفها نازعه في ذلك واتهمه بالتحريف فخشي أن يحصل بينهم من الاختلاف في القرآن ما حصل بين أهل الكتاب . ورأى أن يجمع المسلين على مصحف واحد ينسخون عنه ويرجعون اليه في ضبط مصاحفهم حتى لا يكون فيها اختلاف ولا تكثر فيها هذه القراآت وأخبر جمهورا عظيما من أصحاب رسول الله بذلك فوافقوه على رأيه فأمر بكتابة المصحف على طريقة قريش في الرسم وكان الكتاب فريقا من الصحابة أيضا. فكتب عدة مصاحف بهذه الطريقة بعد التحري والتدقيق ومراجعة ما كتب قبل ذلك وبعد السماع من الحفاظ وإن كان الكاتبون هم أيضاً من الحفظة ثم أرسلت هذه المصاحف إلى الآفاق التي انتشر فيها الاسلام وفيها الجماهير من الصحابة ومن أخذ القرآن عنهم حفظا وكتابة . فوافقوا جميعا على استعمالها والتعويل عليها وأعدموا غيرها مما عندهم . وكان ذلك بعد وفاة النبي بخمس عشرة سنة (أي سنة ٢٥ هجريه)

هذا ومن علم طباع العرب وغلظها وشدة إيمانهم وتمسكهم بدينهم . وعرف ما كان عليه الخلفاء الراشدون من الاخلاق وأنهم ما كانوا ليستبدوا بالامر في شيء حتى لو ارادوه لما قدروا عليه — وعرف حال عثمان وسبب قتله ، من عرف ذلك

كله أيقن أنهم لو كانوا وجدوا في مصاحف عثمان عيبا لرفضوها ولاثيرت حروب وأريقت دماء وكان دم عثمان في أولها ولارتد كثير من الناس عن الاسلام لهذا السبب ولعاب المسلمين بتحريف القرآن من خالطهم أو دخل فيهم من أهل الكتاب وغيرهم ولما اتفقوا جميعا على قبول هذه المصاحف ولوجدت مصاحف مختلفة بينهم الى اليوم . فعدم حصول شيء من ذلك يدل على أن هذه المصاحف هي عين ماتلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصوصا لأن الذين تلقوها بالقبول ما كانوا جاهلين حرفا واحدا من القرآن بل كانوا حافظين له حفظا جيدا في الصدور من قبل وجود هذه المصاحف وكثير منهم كانوا ممن تلقوه كله أو بعضه مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

هذه المصاحف العثمانية لم تكن منقوطة ولا مشكولة ورسمها في كثير من المواضع يخالف ما اصطلح عليه الناس فيما بعد من قواعد رسم الكلمات العربية . ولكن جرى المسلمون على تقليد هذا الرسم في جميع بقاع الأرض على مخالفة بعضه لما وضعوه من القواعد بعد محافظة منهم على عمل الصحابة رضوان الله عليهم وتحاشياً لعمل أي تصحيح أو تحرير في الكتاب ولم يخرجوا عنه إلا في الازمنة الأخيرة في كلمات قليلة كتبوها على مقتضى طريقتهم . على أن أكثر مصاحفهم لا يزال إلى اليوم كالكتبة الأولى لكنها في الغالب منقوطة مشكولة

أما القراآت فاستمرت مختلفة بين المسلمين إلى زمننا هذا فهم وإن كانوا أجمعوا على المصاحف العثمانية إلا أن القراآت التي كانوا يقرؤن بها من قبل — هي وكانت غير مخالفة للرسم العثماني مخالفة يعتد بها — استمروا على القراءة بها فيما بعد. أما التي تخالفه فأخذت تتلاشى من بينهم شيئاً فشيئاً . وعليه فوجود المصاحف العثمانية أفاد المسلمين ثلاث فوائد (الأولى) إجماعهم على مصحف واحد في الكتابة (الثانية) تقليل الاختلاف بينهم في القراءة (الثالثة) اتفاقهم على ترتيب مخصوص للسور ولعل هذا الترتيب كان يستحسنه الرسول وإن لم يوجبه كما سبق

تواتر من هذه القراآت المختلفة سبع روى كلا منها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الجم الغفير من أصحابه وأخذ عنهم في البقاع المختلفة الجماهير من التابعين

فأخذ عنهم من بعدهم وهكذا الى اليوم . وهذه القراآت المتواترة يحتملها رسم المصاحف ولا تخالفه كما قلنا مخالفة يعتد بها أو صريحة اذا جردت من النقط والشكل كما كانت

اشتهر بين التابعين ومن تبعهم أناس باتقان هذه القراآت وتعليمها لغيرهم فنسبت اليهم وسموا أئمتها وان كانت متواترة بين المسلمين في جميع البلاد وهؤلاء هم عبد الله بن كثير بمكة وعبد الله بن عامر بالشام وعاصم بالكوفة وكذلك حمزة والكسائي ونافع بالمدينة وأبو عمرو بن العلاء بالبصرة وفيهم الثلاثة الاول تابعيون

بقي المصحف غير منقوط ولا مشكول الى أن كثرت الأعاجم واختلطت بالعرب ففشا فيهم اللحن حتى اضطروا الى ضبطه وكان أول من وضع عليه الضبط أبو الاسود الدؤلي فى أوائل حكم بني أمية وكان ضبطه أن يضع نقطة فوق الحرف ان كان مفتوحا وتحته ان كان مكسورا وبجانبه ان كان مضموما واستمرت الحال على ذلك الى زمن الخليل بن أحمد النحوي المشهور فوضع للمصحف شكلا آخر كان أساسا للشكل الحالي الذي جرى عليه المتأخرون . وكانت وفاة الخليل هذا سنة ١٧٠ للهجرة

أخذت طرق كتابة المصاحف تتحسن شيئا فشيئا الى أن اخترعت المطابع فطبع أول مصحف في مدينة همبورغ بألمانيا سنة ١٦٩٤ للميلاد أي فى أوائل القرن الثاني عشر الهجري وبعد ذلك انتشرت المصاحف المطبوعة في العالم وحلت محل المنسوخة باليد وقد أخذوا الآن يرسمونها بواسطة المصورات الشمسية (الآلات الفتوغرافية) وهكذا حفظ الله تعالى كتابه حتى وصل الينا بدون تحريف ولا تبديل . وكان المصحف في جميع هذه الأطوار المختلفة التي وصفناها لك مهيمنا عليه بآلاف الالوف من الحفظة في جميع البقاع الاسلامية ولا تزال الحال كذلك الى عصرنا هذا مع ضعف المسلمين وتأخرهم . ومن عجيب عناية الله بهذا الكتاب المجيد أن قيض لنا اليوم فى مصر من يحثنا من غير أهل ديننا ومن غير جنسنا على تعميم الكتاتيب في جميع الاقاليم من بعد أن ظننا أن زمن الحفظة انقضى أو كاد ينقضي من بيننا فأجيب دعاء الداعي الى ذلك وانتشرت الكتاتيب في البلاد وكثرت الحفاظ مرة اخرى وتجدد عندنا الوف من الاطفال يحفظونه

كله فى صدورهم فضلا عن الرجال والشيوخ

نظرنا فى هذا الكتاب المتواتر عن صاحبه نظرة فأيقنا بسببه بدون نظر الى أي شيء سواه من صدقه عليه السلام فى دعواه وانه مبلغ عن الله (راجع مقالنا الدين فى نظر العقل الصحيح) . ثم وجدنا فيه ان الله يقول (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فعلمنا أن كل رواية يفهم منها أن القرآن ضاع منه شيء لا بد أن تكون موضوعة مدسوسة وان لم يتضح هذا الامر من سندها لانها تنافي ذلك القول المتواتر عن النبي الصادق . على أن جميع هذه الروايات منقولة عن الآحاد وقد اتضح كذب كثير من رواتها وهي أيضا معارضة بأمثالها كالذي روي عن ابن عباس رضي الله عنه فى صحيح البخاري أنه قال « ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما بين الدفتين » وناهيك بابن عباس ثقة فى هذا الموضوع . وقد أجمع المحققون من المسلمين أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر فما زعم الآحاد أنه كان قرآنا وضاع أو نسخ لا يقبل منهم (راجع مقالتنا فى الناسخ والمنسوخ) فقد وجد بين الرواة من هو ضعيف الفهم أو سخيف الرأي أو كذوب يريد تشكيك المسلمين فى دينهم أو يريد أن يؤيد دعوى أو مذهبا له بأمثال هذه الروايات ولكن العقلاء لا يقبلونها لئلا يؤديهم ذلك الى رفض المتواتر فيكونوا ممن يرجح الدلالة الظنية على الدلالة المقطوع بها ومن كان كذلك كان من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

بقي علي نقطة واحدة فى هذا الموضوع لا بد لي من الكلام عليها قبل الانتهاء منه وهي دعوى بعض الجهلة الغافلين أن في القرآن لحنا ويذكرون من ذلك قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى الآية) وقوله (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) لان مقتضي الظاهر نصب الصابئين ورفع المقيمين الصلاة طبقا لقواعد النحو المعروفة . وما مثلهم في هذه الدعوى الا كمثل تلميذ في مكتب سمع من استاذه بعض نظريات يفسر بها ظواهر وجودية طبيعية فظن أنه عرف كل شيء وأن استاذه لا تخفى عليه خافية وبعد ذلك رأى في

الوجود شيئاً يخالف ما وضعه له المعلم من القواعد نصاح قائلا : الطبيعة أخطأت ، النظام اختل ، الكون فسد لانه خالف قواعد استاذي : وما درى أن عقله في الحقيقة هو الذي اختل وفسد فكذلك شأن هؤلاء القوم . القرآن ينبوع الفصاحة والبلاغة وحجة اللغة الناهضة وهو أساس ما وضع من القواعد النحوية بعده فلا يليق أن نلزمه بالجري عليها وأن نجعلها أصلا له ونحكم بخطأه إذا هو خالفها بل الواجب إذا لم ينطبق شيء منه على بعضها ان نعلم أنها معيبة أو أنها غير وافية بالغرض في بعض المسائل لعدم احكام وضعها هذا اذا لم يمكنا التطبيق . وما من لغة الا وفى أشهر كتبها القديمة وأبلغها ما يخالف ما وضع من القواعد فيها بعد حتى يضطر الواضعون الى استثنائه أو تطبيقه عليها بوجه ما وكذلك فعل علماء اللغة العربية في أمثال هذه الآيات حتى أجروها على قواعدهم كما هو مبين في التفاسير ولا حاجة بنا لنقل ذلك هنا لعدم أهميته .

فان قيل نحن لانقول ان هذا الخطأ كان في أصل القرآن وانما هو من نساخ المصاحف في زمن عثمان قلنا ان هؤلاء النساخ كانوا من الفصحاء اللد فكيف يقعون في هذا الخطأ ويتفقون عليه في جميع المصاحف التي كتبوها وأرسلوها الى الأقطار الاسلامية بحيث لا يوجد مصحف واحد خاليا من الغلط في هذه الآيات بعينها ؟ وكيف تتفق الحفظة في جميع الأزمنة على قراءة هذه الألفاظ المتنازع فيها كما كتبت في المصاحف مع العلم بأن القراء انما يتلقون قراءتهم عمن قبلهم بقطع النظر عن مرسوم الخط وعما وضع من القواعد النحوية وقد توارثوا هذه القرآت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل وجود مصاحف عثمان كما بينا ذلك فيما سبق ؟ ومن علم عناية المسلمين بالتجويد وضبط القرآت واحكام نطق اللهجات المختلفة وأنهم لا يأخذون ذلك من الكتب بل بسماع من أتقنها ممن تقدمهم ، علم فساد أمثال تلك الانتقادات الباردة وسقوطها

وصفوة المقال أن القرآن وصل الينا بدون تحريف حرف واحد منه أو تبديله فهو مكتوب اليوم كما كتبه الصحابة أنفسهم مقروء كما قرأه النبي صلى الله عليه وسلم . ولا نعرف كتابا آخر في الدنيا بلغت العناية به من أهله مبلغها

بالقرآن فان الكتب الأخرى التي نعرفها لا يخلو كتاب منها من الوصمات الآتية كلها أو بعضها (١) أنها لم تكتب في زمن الآتي بها أولم يعرف باليقين من هو (٢) لم تحفظ في الصدور لا من العامة ولا من الخاصة (٣) لم تكن نسخها كثيرة. وفي أغلب الأزمنة القديمة لم تمكن في أيدي العامة (٤) رواها الآحاد واختلفت روايتهم (٥) فقدت وانقطع سندها اما بسبب الارتداد العام من أصحابها أو بسبب الاضطهادات الشديدة وقصد الاعداء ابادتها واحراقها (٦) وجد أمثالها معارضا لها وكثير منها لا يرجح عليها بزيادة في قوة اسناده (٧) وجود بعض فقرات فيها تدل على بطلان النسبة الى من نسب اليه الكتاب (٨) مملوءة بخط النساخ (٩) مملوءة بالتناقض والزيادة والنقصان والتبديل (١٠) وجود اختلافات بين نسخها قديما وحديثا (١١) اختلاف الطوائف في قبول بعضها أو رفضه بل اختلاف الطائفة الواحدة في قبول بعض الكتب أو ترجمتها في بعض الأزمنة ورفضها في الأخرى (١٢) وجود ما يقطع بعدم صحته فيها والغلطات التاريخية والعلمية وغيرها واشتمالها على ما ينافي الآداب ويفسد الأخلاق (١٣) وجود كثير من اللغو فيها ومالا فائدة فيه وما يناقض البراهين العقلية القطعية (١٤) وجودها منذ أزمنة بعيدة وخلو أهلها اذ ذاك من العلم والتحقيق والتمحيص (١٥) مناداة مخالفيهم في الأعصر الأولى بأنهم يحرفون كتبهم ويبدلونها ويغيرونها كما جاهر بذلك سكسوس الفيلسوف الشهير فهذه خمسة عشر وجها مما تنتقد به تلك الكتب وجميعها يتنزه عنها القرآن الشريف . وقد ذكرت عدة من شواهدها بالايجاز في رسائلي التي نشرت سابقا في المنار . ومن أراد الايضاح فعليه بالكتب المؤلفة في هذا الشأن اسلامية كانت أو غيرها عربية أو أفرنجية . والسلام على من اتبع الهدى

(المنار) ذكرنا هذه المقالة بكتاب تاريخ القرآن والمصاحف الذي يؤلفه صاحبنا موسى افندي جار الله الروسي واننا وعدنا عند ذكره في آخر جزء من السنة الثامنة بالعودة الى تقريظه وكنا نسينا الكتاب والوعد وقد أوضح مسألة جمع القرآن وأطال في بيان حفظه وعدم ضياع شيء منه وسننقل منه ذلك في الجزء الآتي

﴿ أصول الاسلام ﴾

(كلمة انصاف واعتراف)

يرى الناقد البصير أن ما كتبته فى هذه المسألة ينحصر في بحثين — بحث في السنة القولية وبحث في السنة العملية ثم يرى أن الرادين عليّ لم يأتوا بشيء في المبحث الأول يشفي عليلا أو يروي غليلا . وأن أستاذنا الكبير ومصلح الاسلام العظيم السيد محمد رشيد يوافقني في هذا البحث بل هو مرشدي الأول . وأما البحث الثاني (السنة العملية) فالشطط الوحيد الذي ارتكبته فيه على ما أرى هو إنكاري وجوب ما فهم الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم أنه دين واجب ولم يكن مذكورا في القرآن ولكن أجمع عليه المسلمون سلفهم وخلفهم عملا واعتقادا بدون أدنى اختلاف بينهم . وأهم ذلك في الحقيقة مسألة ركعات الصلاة وأرى أن ما كتبه صاحب المنار الفاضل في هذه المسألة كاف في الرد عليّ فأنا أعترف بخطأي هذا على رؤوس الاشهاد واستغفر الله تعالى مما قلته أو كتبته في ذلك وأسأله الصيانة عن الوقوع فى مثل هذا الخطأ مرة أخرى . وأصرح بأن اعتقادي الذي ظهر لي من هذا البحث بعد طول التفكر والتدبر هو : أن الاسلام هو القرآن وما أجمع عليه السلف والخلف من المسلمين عملا واعتقادا ، أنه دين واجب وبعبارة أخرى أن أصلي الاسلام اللذين عليهما بني هما الكتاب والسنة النبوية بمعناها عند السلف أي طريقته صلى الله عليه وسلم التي جرى عليها العمل في الدين : ولا يدخل في ذلك عندي السنن القولية غير المجمع على اتباعها ولا ما كان ذا علاقة شديدة بالاحوال الدنيوية كبعض الحدود ومقادير زكاة المال والفطر والأصناف التي تؤخذ منها وغير ذلك مما لم يذكر في الكتاب العزيز . فأبيح بعض التصرف في أمثال هذه المسائل إذا وجد عندنا مقتض وبهذا التقرير تزول جميع الاشكالات التي أوردتها في مقالتي السابقتين . نسأل الله تعالى الهداية في القول والعمل ، والصيان من الشطط والزلل ،

الدكتور محمد توفيق صدقي

الطبيب باسبتاليات سجن طره

(المنار) نحمد الله أن ظهر صدق قولنا في الرجل وانه معتقد ويذعن لما يظهر له انه الحق

آثار علمية ادبية

﴿ اللص والقاضي ﴾

عن محمد بن مقاتل الماسقوري قاضي الري قال كان محمد بن الحسين يكثر الادلاج الى بساتينه فيصلي الصبح ثم يعود الى منزله اذا ارتفعت الشمس وعلا النهار قال محمد بن مقاتل فسألته عن ذلك قال بلغني في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « حبب اليّ الصلاة في الحيطان » وذلك ان أهل اليمن يسمون البستان الحائط قال محمد بن الحسين فخرجت الى حائط لأصلي فيه الفجر رغبة في الثواب ولاجر فعارضني لص جريء القلب خفيف الوثب في يده خنجر كلسان الكلب ماء المنايا تجول على فرنده والآجال تحول في حده فضرب بيده الى صدري ومكن الخنجر من نحري وقال لي بفصاحة لسان وجراءة جنان انزع ثيابك واحفظ اهابك ولا تكثر كلامك تلاق حمامك ودع عنك اللوم وكثرة الخطاب فلا بد من نزع الثياب . فقلت له ياسبحان الله انا شيخ من شيوخ البلد وقاض من قضاة المسلمين يسمع كلامي ولا ترد احكامي ومع ذلك فاني من نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أربعين سنة اما تستحي من الله ان يراك حيث نهاك . فقال ياسبحان الله انت ايضا اما تراني شابا ملء بدني اروق الناظر واملأ الخاطر وآوي الكهوف والغيران واشرب القيعان والغدران واسلك مخوف المسالك والقي بيدي في المهالك ومع ذلك فاني وجل من السلطان مشرد عن الاهل والاوطان واخشى أن أعثر بواحد مثلك واتركه يمشي الى منزل رحب وعيش رطب وابقى انا هنا اكابد التعب واناصب النصب وانشأ اللص يقول

ترى عينيك مالم ترأياه ... كلانا عالم بالترهات

قال القاضي اراك شابا فاضلا ولصا عاقلا ذا وجه صبيح ولسان فصيح ومنظر وشارة و براعة وعبارة . قال اللص هو كما تذكر وفوق ما تنشر . قال القاضي فهل لك الى خصلة تعقبك اجرا ، وتكسبك شكرا ، ولا تهتك مني سترا ، ومع ذلك فاني مسلم

الثياب اليك ومتوفد بعدها عليك قال اللص وماهذه الخصلة قال القاضي تمضي معي الى البستان فاتوارى بالجدران واسلم اليك الثياب وتمضي على المسار والمحاب قال اللص سبحان الله تشهدلي بالعقل وتخاطبني بالجهل : ويحك من يؤمنني منك ان يكون لك في البستان غلامان جلدان علجان ذوا سواعد شديده وقلوب غير رعديده يشداني وثاقاً ويسلماني الي السلطان فيحكم فيّ آراءه ويقضي عليّ بما شاءه قال له القاضي لعمري انه من لم يفكر في العواقب فليس له الدهر بصاحب وخليق بالرجل من كان السلطان له مراصدا وحقيق باعمال الحيل من كان لهذا الشأن قاصدا وسبيل العاقل ان لا يغتر بعدوه بل يكون منه على حذر ولكن لا حذر من قدر. ولكن احلف لك ألية مسلم وجهد مقسم اني لا أوقع بك مكرا ولا اضمر لك غدرا قال له اللص لعمري لقد حسنت عبارتك ونمقتها وخشنت اشارتك وطبقتها ونثرت خيرك على فخ ضيرك وقد قيل في المثل السائر على السنة العرب انجز حر ما وعد ادرك الاسد قبل ان يلتقي على الفريسة لحياه ولا يعجبك من عدو حسن محياه وانشد

لا تخدش وجه الحبيب فانا قد كشفناه قبل كشفك عنه
واطلعنا عليه والمتولي قطع اذن العيار اعير منه

ألم يزعم القاضي انه كتب الحديث زمانا ولقي فيه كهولا وشبانا حتى فاز بكره وعونه وحاز منه معنى متونه وعيونه قال القاضي أجل قال اللص فاي شيء كتبت في هذا المثل الذي ضربت لك فيه المثل واعملت الحيل قال القاضي ما يحضرني في هذا المقام الحرج حديث أسنده ولا خبر اورده فقد قطعت هيبتك كلامي وصدعت قبضتك عظامي فلساني كليل وجناني عليل وخاطري نافر ولبي طائر قال اللص فليسكن لبك وليطمئن قلبك اسمع ما اقول وتكون بثيابك حتى لا تذهب ثيابك الا بالفوائد قال القاضي هات قال اللص حدثني ابي عن جدي عن ثابت البناني عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يمين المكره لا تلزمه فان حلف وحنث فلا شيء عليه » وانت ان حلفت حلفت مكرها وان حنثت فلا شيء عليك انزع ثيابك قال القاضي يا هذا قد اعيتني مضاءة

جنانك وذرابة لسانك واخذك علي الحجج من كل وجه وجانب واتيت بالفاظ كأنها لسع العقارب اقم ههنا حتى امضي الى البستان وأتوارى بالجدران وانزع ثيابي هذه وادفعها الى صبي غير بالغ تنتفع بها انت، ولا أهتك انا، ولا تجري على الصبي حكومة لصغر سنه، وضعف متنه، قال اللص: يا انسان قد اطلت المناظرة، وا كثرت المحاورة، ونحن على طريق ذي غرر، ومكان صعب وعر، وهذه المراوغة لا تنتج لك نفعا، وأنت لا تستطيع لما اورمه منك دفعا، ومع هذا فتزعم انك من أهل العلم والرواية، والفهم والدراية، ثم تبتدع وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « الشريعة شريعتي والسنة سنتي فمن ابتدع في شريعتي وسنتي فعليه لعنة الله » قال القاضي يارجل وهذا من البدع! قال اللص: اللصوصية بنية بدعة، انزع ثيابك فقد أوسعت من ساحة مجالك، ولم اشدد عقالك، حياء من حسن عبارتك، وفقه بلاغتك، وتقلبك في المناظرة، وصبرك تحت المخاطرة، فنزع القاضي ثيابه ودفعها اليه وابقى السراويل: فقال اللص، انزع السراويل كي تتم الخلعة، قال القاضي : ياهذا دع عنك هذا الاغتنام، وامض بسلام، ففيهما اخذت كفاية، وخل السراويل فانها لي ستر ووقاية، لاسيما وهذه صلاة الفجر قد أزف حضورها واخاف تفوتني فاصليها في غير وقتها وقد قصدت ان أفوز بها في مكان يحبط وزري ويضاعف اجري ومتى منعتني من ذلك كنت كما قال الشاعر

ان الغراب وكان يمشي مشية فيما مضى من سالف الاحوال
فأضل مشيته وأخطأ مشيها فلذاك كنوه ابا المرقال

قال اللص: القاضي ايده الله تعالى يرجع الى خلعة غير هذه احسن منها منظرا واجود خطرا، وانا لا املك سواها ومتى لم تكن السراويل في جملتها ذهب حسنها وقل ثمنها لاسيما التكة مليحة وسيمة، ولها مقدار وقيمة، فدع ضرب الامثال واقنع عن ترداد المقال، فلست ممن يرد بالمحال، مادامت الحاجة ماسة الى السروال ثم انشد

دع عنك ضربك سائر الامثال واسمع اذا ماشئت فصل مقالي
لا تطلبن مني الخلاص فانني أقفي متى ما جئتني بسؤال

ولأنت ان ابصرتني ابصرت ذا ‏ — ‏ قول وعلم كامل وفعال
جارت عليه يد الليالي فانثني ‏ — ‏ يبغي المعاش بصارم ونصال
فالموت في ضنك المواقف دونان ‏ — ‏ ألقى الرجال بذلة التسآل
والعلم ليس برافع اربابه ‏ — ‏ اولا فقد مسه على البقال

ثم قال الم يقل القاضي انه يتفقه في الدين، و يتصرف في فتاوي المسلمين ؟ قال القاضي اجل ،قال اللص: فمن صاحبك من ائمة الفقهاء ؟ قال القاضي: صاحبي محمد بن ادريس الشافعي ، قال اللص: اسمع هذا وتكون بالسراويل حتى لا نذهب عنك السراويل الا بالفوائد قال القاضي اجل يالها من نادرة ما أغربها وحكاية ما أعجبها قال حدثني أبي عن جدي عن محمد بن ادريس برفعه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة العريان جائزة ولا اعادة عليه » تأول في ذلك غرقى البحر اذا سلموا الى الساحل فنزع القاضي السراويل وقال خذها وانت اشبه بالقضاء مني، وانا اشبه باللصوصية منك، يامن درس على اخذ ثيابي موطأ مالك وكتاب المزني ومد يده ليدفعه اليه فرأى الخاتم في اصبعه اليمنى فقال انزع الخاتم فقال القاضي ان هذا اليوم ما رأيت انحس منه صباحا، ولا اقل نجاحا ،ويحك ما اشرهك وارغبك ، واشد طلبك وكلبك ، دع هذا الخاتم فانه عارية معي وأنا خرجت ونسيته في أصبعي فلا تلزمني غرامته . قال اللص: العارية غير مضمونة مالم يقع فيها شرط عندي ومع ذلك افلم يزعم القاضي انه شافعي قال نعم قال اللص فلم تختمت في اليمين قال القاضي هذا مذهبنا قال اللص صدقت الا انه صار من شعار المضادين قال القاضي فانا أعتقد ولاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وتفضيله على كل المسلمين من غير طعن على السلف الراشدين وهذا في الأصول اعتقادي وعلى مذهب الشافعي في الفروع اعتمادي فاخذ اللص في رد مذهب الرفض وجرت بينهما في ذلك مناظرة طويلة رويناها بهذا الاسناد انقطع فيها القاضي وقال بعد ان نزع الخاتم ليسلمه اليه خذ يافقيه يامتكلم ياأصولي ياشاعر يالص اه (من طبقات الشافعية الكبرى)

« شرح عقيدة السفاريني »

للشيخ محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي (رحمه الله تعالى) عقيدة منظومة اسمها « الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية » بلغني أن الشيخ حسنا الطويل (عليه الرحمة) قال لما اطلع عليها ما معناه ان هذه أول عقيدة اسلامية اطلعت عليها . ولناظمها شرح مطول عليها سماه « لوائح الانوار البهية وسواطع الاسرار الأثرية » جمع فيه المؤلف أقوال السلف والخلف ومذاهب الفرق في مسائل الاعتقاد و بين رجحان مذهب السلف على غيره مؤيدا ذلك بالدلائل النقلية وكذا العقلية فيما يستدل على مثله بالعقل واقتبس جل تحقيقاته فيه من كلام الامامين الجليلين شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم عليهما الرحمة والرضوان . فجاء كتابا حافل الري ،جامعا لما لم يجمعه غيره من المأثور والمروي ، كثير الفوائد، جم الأوابد والشوارد ، لايكاد يستغني عنه طالب السعة والتحقيق في العقائد الاسلامية ، أو يحيط بما في كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية . نعم انه ينكر عليه كثرة الروايات والأقوال المأثورة في أشراط الساعة ونحوها من المسائل التي ليست من العقائد الدينية ومنها مالا يصح له سند ولكن من يعلم انه لا يجب عليه ان يعتقد مالا يقوم عليه البرهان لا يضره ايراد ذلك وقد ينفعه الاطلاع على تلك الاقوال فيستخرج من مجموعها ما يحق الحق و يبطل الباطل .

وجملة القول ان هذا الكتاب لا يستغنى عنه بشيء من كتب العقائد التي يتداولها طلاب العلم وكلها من وضع المتكلمين الذين جروا على طريقة فلاسفة اليونان ، ليس فيها بيان لمذهب السلف يجلي حقيقته، و يوضح طريقته، بل فيها ما يشعر بأن مذهب السلف هو التمسك بالظواهر من غير فهم ثاقب ، ولا علم راسخ، وان الخلف أعلم منهم وهيهات هيهات لذلك بل السلف افهم وأعلم وأحكم وما خالف المتكلمون فيه السلف فهو جهل مبين أو نزغات شياطين و بمثل هذا الكتاب تعرف ذلك

رغب في نشر هذا الكتاب بعض محبي العلم والدين من العرب الكرام المخلصين فأرسل الينا نسخة خطية منه فطبعنا له عنها عددا معينا جعله وقفا لله تعالى يوزع

على طلاب العلم السلفيين في بلاد مختلفة وطبعنا منه على نفقتنا طائفة من النسخ زيادة عن النسخ الموقوفة باذن الطابع الواقف وهي تباع بمكتبة المنار بشارع درب الجماميز بثمن قليل بالنسبة لحجم الكتاب وحسن ورقه وطبعه

جعل الكتاب جزأين صفحات الأول ٣٨٨ والثاني ٤٤٨ ووضعنا له فهرسا مرتبا على حروف المعجم لتسهيل مراجعة فوائده الكثيرة المطوية في مباحثه المختلفة وجدولا للخطأ والصواب فدخل ذلك مع ترجمة المؤلف في ٢٨ صفحة فمجموع صفحات الكتاب ٨٦٤ وورقه كورق المنار وثمن النسخة منه غير مجلدة عشرون قرشا صحيحا ماعدا أجرة البريد

الوجيز في القانون الجنائي

عمر بك لطفي من اشهر علماء القوانين في هذه الديار أتقنها علما وتعليما وعملا فقد كان مدرسا بمدرسة الحقوق ووكيلا لها زمنا طويلا والآن تحسبه مدرس شرف فيها وهو الآن يشتغل بالمحاماة وبتدريس القانون الجنائي بمدرسة البوليس . وقد ألف في هذه الايام كتابا في القانون الجنائي سماه الوجيز فحسبنا في تقريظه ان نقول انه من تأليفه وفي الدلالة على وجه الحاجة اليه الحاح طلاب المدرستين — الحقوق والبوليس — عليه بطلبه وإيداعه ما القاه من الدروس عليهم

طبع الجزء الاول من الكتاب على ورق جيد فكان ٣٧٨ صفحة وثمن النسخة منه ثلاثون قرشا وهو يباع في ادارة مجلة المجلات العربية وفي المكاتب الشهيرة

لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر

ألف ميخائيل افندي بن أنطون الطقال الحلبي كتابا سماه «لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر أو الغاية في البداءة والنهاية» وهو كتاب خيالي الوضع ادبي المغزى من احسن ما كتب أهل هذا العصر عبارة وموضوعا، تقرأ الصفحات منه ولا تكاد تعثر بشيء من الأغلاط التي اعتادها كتابنا عامة وأهل الصحف منهم خاصة، ولا تقف عند معنى ينكره الادب الصحيح، أو يمجه الذوق السليم وفي بعض فصوله كثير من مفردات اللغة التي يحتاج اليها الكتاب وهم في غفلة عنها لقلة بحثهم واطلاعهم في الغالب. وقد طبعه وجعل ثمنه ريالا وانا نورد لك فصلا منه في تربية الطفل قال:

الفصل الاول من الباب الرابع

« فى الطلق والولادة وتربية الطفولة »

قال والدي : كل امرأة عندنا (أي في الزهرة) خصوف (١) لا تجر (٢) ولدها ، وهي تأكل وتشرب وتضحك لا تشكو ولا تئن ولا تتوجع شكوى وانين وتوجع بني آدم بل تضع كأنها تمغص مغصا ليس بشديد ، لا تحتاج الى قابلة لانها لا يهددها خطر ، اننا لا نظائر (٣) لاننا نقول من رضع غير أمه فقد تخلق باخلاقها ، ان المرأة بعد ان تحجم للمولود أي بعد أن ترضعه أول رضعة ترضعه في كل ساعة حترتين (والحترة الرضعة الواحدة) حتى اذا بلغ الشهر السادس من عمره ارضعته في كل ثلاث ساعات مرة فاذا زادت منعت وعدت جاهلة بين نسائنا وهذا يحدث قليلا أو لا يحدث ، لا تعجوه (٤) ولا تجدعه (٥) ان المرضع عندنا لا تأفل (٦) والرضيع لا يحصأ (٧)

لا تضع الام ولدها فى سرير يهز ، فقد عرفنا انه تنجم عن اخطار عظيمة وربما كان سبب هلاك الطفل منها ان الاهتزاز الشديد يؤثر فى مجموع عصبه ويحدث له القيء وغير ذلك من الامراض ، هذا اذا كان معافى فاذا كان عليلا متألما من حالة عصبية دماغية أو معدية أو غيرها ازداد تألما بالهز وتمكنت منه العلل وقد علم ان كثيرين اصيبوا منه بالشوص والحول هذا اذا لم يسقط الطفل من سريره لان في سقوطه الوبال عليه ، ومن المعلوم أن الطفل اذا هزز سريره لا ينام فى أول الامر الا بعد ان يأخذه دوار وربما كان التهزيز يمدد منه الرقبة ويلوي الرأس وفى كلا الامرين خطر عظيم عليه

(١) الخصوف من النساء التي تلد ولا تدخل في العاشر (٢) جرت المرأة ولدها وجرت به وهو ان يجوز ولادها عن تسعة أشهر فيجاوزها باربعة ايام أو ثلاثة فينضج ويتم في الرحم (٣) ظاءرت مظاءرة اذا اتخذت ظئرا . الظئر المرضعة غير ولدها (٤) الام تعجو ولدها أي تؤخر رضاعه عن مواقيته ويورث ذلك ولدها وهنا (٥) جدع الغلام يجدع جدعا ساء غذاؤه والجثل أيضا سوء الرضاع وقد احثلته أمه أي اساءت غذاءه (٦) افلت المرضع ذهب لبنها (٧) حصأ الصبي من اللبن

تلفه والدته بلفائف من المرن، لا تقمطه قمطا شديدا لئلا يلوى الساقين والقدمين والساعدين واليدين ولئلا يضغط ، تضعه في سرير ثابت وتضع عليه لحافا من المرن يمنعه من التحرك القوي

لا تتركه وحده ولا تقدم اليه مايمتصه ليلتهي به عن الرضاع، يخرج من غرفته في كل يوم ثلاث مرات الى محل طيب الهواء نقيه، و بعد خروجه تفتح النوافذ ليبدل هواءها غير انه يحترز عليه من البرد والحر ، لا تسلمه أمه الى أحد ولا تتخذ له مربية فان الوالدة أحن على الولد من غيرها وأشد انتباها اليه واحرص عليه

لا تقبله ولا يقبله أحد لئلا تنتقل اليه حييوانات فم المقبل الضارة . لا يضحك تضحيكا شديدا لئلا تغثى نفسه (١) أو يغمى عليه بل يترك ليضحك حينما يشتهي ويريد ضحكا طبيعيا

لا تلاعبه أمه بخفضه ورفعه ولا تقبض يده بيدها وترفعه أو تجره . لا تضغطه بضمه الى صدرها ولا تجعل ملاعبته الا بقدر جسمه لا بقدر جسمها . اذا لاعبته وانزعج أو كاد تركته حالا ليستريح ويرتاح (٢)

لا تطعمه الا بعد ان يسن (٣) وتقوى أضراسه وانيابه معا فان الاسنان وحدها لا تستطيع طحن الطعام وتنعيمه فان أطعمته أصيب بعلة الاسنان المعروفة عندكم تقريبا . وبعد الاسنان ونبات الاضراس وخروج الانياب تؤكله والدته أكلا خفيفا لطيفا لا يقاسي في مضغه تعبا لئلا يبلعه . لا تطعمه الا قليلا حينما ترى منه اشتهاء واقبالا على المطعم فاذا آنست منه قلة في الاشتهاء رفعت الطعام وأخفته

اذا أبصر شيئا ضارا ولو قليلا ورغب فيه منعته واجتهدت في تحويل فكره عنه ونقله الى غيره فينتقل . لا يسمع أصواتا عالية مرتفعة على غرة مزعجة كانت أو غير مزعجة ولا تعرض عليه المتحركات السريعة الانتقال والتغير لئلا تزيد في وحصي. بحصاً رضع حتى امتلأ بطنه

(١) غثت نفسه تغثي غثيا وغثيانا وغثيت غثى جاشت وخبثت قال بعضهم هو تحلب الفم فربما كان من القيء وهو الغثيان (٢) ارتاح سر ونشط (٣) أي تنبت اسنانه

تحريك عينيه ولا يحد أحد نظره اليه ولا ينظره وهو قطوب عبوس ليسكته ويسكنه بالارهاب بل يسكن بالكلام الرقيق ويلهى بالمناغاة (١) اذا كان الصوت رخيما لا نبرة فيه فانه يأنس بهما ويطيب خاطره . فاذا ربي هذه التربية فلا خوف عليه ان يقصع (٢) بل ينمو قويا صحيح الجسم والعقل . اذا أخذ في الكلام قومت أمه لسانه. اننا لا نعرف الرتة (٣) واللثغة (٤) واللكنة (٥) والفأفأة (٦) والتمتمة (٧) والرأرأة (٨) واللجلجة (٩) والخنخنة (١٠) والمقمقة (١١) والهتهتة والهثهثة (١٢) والتعتعة والثعثعة (١٣) واللفف (١٤) والليغ (١٥) ولا نعرف التبع (١٦)

(١) المناغاة تكليمك الصبي بما يهوى وناغت الأم صبيها لاطفته وشاغلته بالمحادثة والملاعبة (٢) قصع الغلام ابطأ شبابه وغلام قصع أي بطيء الشباب (يعني حان وقت شبابه ولم يشب) وقصيع ومقصوع مثل قصع ، وقصع الغلام ضربه ببسط كفه على رأسه وقصع هامته كذلك قالوا والذي يفعل به ذلك لا يشب ولا يزداد وغلام مقصوع وقصيع كادي الشباب اذا كان قميئا لا يشب ولا يزداد وقد قصع قصاعة (٣) الرتة حبسة في اللسان. والرتة حبسة في لسان الرجل وعجلة في كلامه (٤) اللثغة عقدة وعجز في الكلام. واللثغة ان يصير الراء لاما في كلامه (٥) واللكنة والحكلة عقدة في اللسان وعجز في الكلام والحكلة أيضا العجمة في الكلام (٦) الفأفأة ان يتردد في الفاء (٧) التمتمة ان يتردد في التاء (٨) الرأرأة ان يتردد في الراء تكلم أو قرأ (٩) اللجلجة ان يكون فيه عي وادخال بعض الكلام في بعض (١٠) الخنخنة ان يتكلم من لدن انفه . ويقال هي ان لا يبين الرجل كلامه فيخنخن في خياشيمه (١١) المقمقة ان يتكلم من أقصى حلقه (١٢) الهتهتة والهثهثة حكاية التواء اللسان عند الكلام (١٣) التعتعة والثعثعة أيضا حكاية صوت العيي والالكن (١٤) اللفف ان يكون في اللسان ثقل وانعقاد (١٥) الليغ ان لا يبين الكلام . أو يرجع الكلام الى الياء . تأتأ تردد في التاء اذا تكلم والاسم التأتأة . العقلة اعتقال اللسان عن الكلام (١٦) التبع من يتبع بعض كلامه بعضا والسريع الكلام رجل طمطم في لسانه عجمة

ان الوالدة مؤاخذة بعي ولدها وحصره وفهاهته فتنبه على كل كلمة غير فصيحة . كلامنا فصيح بليغ فكلنا لسن (١) في بيان وتبيان (٢) اه

﴿ القواعد المنطقية ﴾

كتاب مطول في علم المنطق ألفه بالفرنسية (الأب تونجورجي اليسوعي) ونقله الى العربية (الخوري جرجس فرج صفير الماروني) متصرفا بعض التصرف في الترجمة كما قال في مقدمته . وقد تفضل باهتداء الكتاب الينا مع رقيم يرغب الينا فيه بمطالعته وانتقاده فمرت علينا شهور نرقب فيها فرص الفراغ لذلك فلم يسنح منها شيء يكفي لمطالعته كله أو بعضه مطالعة نقد فرأينا والشواغل عن مطالعة مثله تزداد ان نجيل النظر فيه جولة عجلى ونقرأ من بعض فصوله جملا تسمح لنا بأن نحكم عليه حكما اجماليا فرأينا ان الكتاب من أحسن ما ألف وأفيده وفيه من المباحث والفوائد مالا يوجد في الكتب العربية المتداولة بين المشتغلين بهذا العلم وهو يخالفها في كثير من الاصطلاحات والتعريفات والتقسيم والترتيب وفي هذه المخالفة من الفائدة زلزال الجمود على الكتب المألوفة وتحريك الذهن في مسائل العلم وتعويده الجولان في المعاني وإطماعه في الاتيان بغير ما تلقاه من الكتب أوالاستاذين . ورأيت في الترجمة ضعفا يحول دون الفهم في بعض المواضع وغلطا واضحا في العبارة كقوله في ص ١٤٤ « لايصح قولك إما انت جالس أوماشي لعدم المساواة في التقسيم اذ قد يكون لاجالس ولاماشي » وقوله في ص ٣١ « في الشق الأول فامانه يعم الماهية » ومع هذا نقول ان الكتاب يفيد كل من يطالعه من أبناء العربية في هذا العلم ولعل المترجم الفاضل يعنى عند طبعه ثانية بتصحيح عبارته لتكون الفائدة منه تامة . هذا وان ثمن النسخة من الكتاب ٣ فرنكات وهو يطلب من المطبعة المصرية بالاسكندرية

لا يفصح (١) اللسن جمع لسن ورجل لسن اي فصيح بليغ (٢) قيل الفرق بين البيان والتبيان هوان البيان عمل اللسان والتبيان عمل الجنان وقيل ان التبيان أبلغ من البيان لأن الزيادة في الحروف اعطته زيادة في المعنى

﴿ التقرير السنوي لمشيخة علماء الاسكندرية ﴾

أرسلت الينا هذه المشيخة تقريرها عن سنة ١٣٢٣ الدراسية ولما نتمكن من مطالعته ولكننا أجلنا الطرف في بعض صفحاته فاذا به قد وقف عند قوله « واني لأرجو أن أقدم للعالم الاسلامي بعد أعوام قليلة من خيرة الشبان رجالا تفتخر بهم الأمة المصرية وتقوم بهم الحجة على الذين يزعمون أن التعليم الديني لاينهض بالأمم ولا يصلح أن يشاد على دعائمه عرش المدنية ولا أن يضم تحت راياته مفاخر التقدم والارتقاء » اه فذكرني هذا القول بأمر كنت عنه ذاهلا . ذكرني بان من علماء مكة وأشرافها لمايقيم الآن في بعض جزائر جاوه أرسل ولدا له ليطلب العلم في الاسكندرية لما قرأه في الصحف المصرية — ومنها المنار — من تفضيل الطلب فيها على الطلب في الازهر بالمراقبة والنظام والتدريج فلم يقبله الشيخ محمد شاكر واعتذر عن ذلك بعدم حفظه القرآن وهو عذر لاينطبق على قانون الازهر الذي تتبعه مشيخة الاسكندرية كسائر معاهد التعليم الديني في القطر وكل ماتفضل به مشيخة الاسكندرية الأزهر هو أنها تنفذ من هذا القانون مالا ينفذ فيه فهذا الشرط الذي زاده الشيخ محمد شاكر على القانون يقفل باب مشيخته في وجوه « العالم الاسلامي » لأن الذين يحفظون جميع القرآن في أكثر اقطار هذا العالم هم من العميان أومن العلماء الذين يحفظونه في الكبر ولا يرجى ان يرحل أحد منهم الى الاسكندرية لطلب العلم . ولما كان الازهر معهدا للعالم الاسلامي وعلم واضع قانونه أن أكثر أقطار هذا العالم لايحفظون القرآن في الصغر لم يشترط في قبولهم بالازهر ان يكونوا من الحافظين بل لم يشترط في المبصر من أهل القطر المصري ان يكون حافظا للقرآن كله

فان كان الشيخ شاكر يحب ان يمتاز طلاب العلم عنده بحفظ القرآن كله فله ان يكلفهم ذلك في مدة الطلب وليس له ان يمنعهم من طلب علم الدين المفروض عليهم لانهم قصروا من قبل في حفظ جميع القرآن الذي لم يفرض على الاعيان . فهذا المنع من العلم لايجيزه الشرع ولاالقانون فيما نعلم ولا ينطبق على ارادة خدمة العالم الاسلامي بهذا التعليم الديني الااذا أريد بالعالم الاسلامي مصر وكان

هذا الاصطلاح الخاص للذين أحدثوا في الاسلام نفسه وطنية لم ينزل الله بها من سلطان مستحسنا عند مثل الشيخ شاكر وقد يرجح هذا قوله فى الرجال الذين يريد ان يخرجهم (للعالم الاسلامي) ينهضون به ويشيدون عرش المدنية على دعائمه «تفتخر بهم الامة المصرية» : ولكن هذه الوطنية المموهة بكلمات الدين والاسلام يتبرأ منها دين الاسلام، وتنكرها قوانين المدنية عند جميع الانام، فاما الوطنية المعروفة عند الامم التي قامت بالوطنية فهي عبارة عن اتحاد المقيمين في وطن واحد، المختلفين فى الملل والنحل على مايرقي شأنه ويزيد في عمرانه، وهذه الوطنية لاتعارض الاسلام الذي جعل المؤمنين أخوة يتعاونون على البر والتقوى ويتعاطفون ويتراحمون كأنهم أعضاء جسد واحد وإن اختلفت أوطانهم وتناءت بلدانهم

لاأطيل الكلام الآن في هذه المسألة ولكنني أتمنى لو يقبل الشيخ شاكر هذا الطالب المكي وغيره ممن عساه يقصد الى الطلب في الاسكندرية، وأن لايمزج دعوته الدينية، بتلك النزعة المنكرة في الوطنية، والا فليجعل الدعوى على قدر الدعوة ان كانت ممالا بد منه. وانني لاشد تمنيا لو اعرف عذراً معقولا لعدم قبول غير المصريين أو الحافظين طلابا للعلم الديني في مشيخة الاسكندرية. وسنعود الى قراءة التقرير وكتابة مايبدولنا في أمره انه نافع ان شاء الله تعالى

﴿ البغاء — أو — خطر العهارة في القطر المصري ﴾

ألف الدكتور بورتقاليس بك كتابا باللغة الفرنسية الى سماه بهذا الاسم ونقله الى اللغة العربية داود أفندى بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام. المؤلف طبيب أخصى فى معالجة الامراض الجلدية والزهري ومايتعلق بذلك والكتاب صحي أدبي يفهمه كل قارئ وانا نرى خير تقريظ له ان ننشر نبذا منه لعل الذين تركوا الدين فوقعوا في الأدواء التي تنشأ من الزنا يعرفون الاخطار التي تساورهم فى آحادهم وفي ذريتهم فيقل تهافتهم على هذه الفواحش المحرمة في كل دين، على انني أعتقد بأنه لاعلاج لهذه المصائب العمرانية والاجتماعية الا التربية الدينية وان من يزعم ان الاقتناع بضرر المعاصي وحده يعمل مايعمل الدين في الردع عنها فهو من الجاهلين كما بينا ذلك بعض البيان فى مقالة (التعليم الديني) من هذا الجزء. قال المؤلف

١٦

﴿ سبب المواصلة مع الغير المراقبات ﴾

ان العدوي تنتقل الى الرجال الذين يخالطون النساء غير المراقبات انتقالاً رائعاً لايماثله انتقالها اليهم من النساء الموضوعات تحت المراقبة

فالرجال على وجه عام والمتزوجون منهم على نوع خاص يخالطون العاهرات غير الموضوعات تحت المراقبة أكثر من مخالطتهم العاهرات اللائي يفحصهن الاطباء وسبب ذلك ان الفريق الاول من العاهرات يظهر بغير مظهره أي بمظهر النساء النزيهات اذ يقلن ان لهن أزواجاً وأولاداً وانهن انما يسلمن أنفسهن بعامل الحب والغرام والوجد والهيام وانهن لم يرتكبن هذا الخطاء الا في هذه المرة ثم يتممن خدع الرجال بانهن يتوسلن اليهم بان لايبوحوا بسرهن الى آخر ماهنالك من ضروب الخداع والنفاق

فيصدق الرجال المخدوعون هذا الكلام ويعتقدون صحة ماتقوله تلك العاهرات بل هم يفتخرون بالاختلاط بهن كأن الواحد منهم قد اكتشف كنزاً وملك أمراً عزيزاً

وبما ان تلك النساء الخادعات لايعتنين بأنفسهن كسواهن ممن يحترفن حرفة البغاء علناً فهن بحكم الطبيعة أقرب الى العدوى وأقدر على نقلها الى كل من يقترب منهن وهم يظنون انهم عشاق وانهم محبوبون معشوقون. واذا أصيب المخدوع وجاء يؤنب المرأة التي نقلت اليه العدوى جاءته بألف حيلة وخدعة وقلبت دماغه وكذبت حسه واظهرت طهارتها ونقاوتها فيصدق فما أضعف الرجل امام المرأة وما اصغر نفسه وأقل ادراكه وأخف عقله !!

٢٨

﴿ مراقبة العاهرات ﴾

لاتوجد في القاهرة مراقبة البوليس ولا مراقبة الصحة فالعاهر حرة تلطخ بالامراض من أصابته وتنقض على الناس انقضاض الوحش المفترس ومن لم يصدق فليمر عند منتصف الليل بشارع كامل ولا سيما تحت القناطر

مع أن هذه العاهرات لو انهن ارتكبن في بلادهن ربع مايرتكبنه هنا من مخالفة

البوليس ومخالفة قانون الصحة لقبض عليهن سريعاً فلا تسمع بهن شفاعة ولا يقبل رجاء ولا تنفع رشوة وبفضل ذلك كله لا تجسر واحدة على مخالفة القانون ومن هربت من الكشف الطبي وضعت تحت المراقبة الشديدة على نوع أخص فمع كل عاهر ورقة حمراء تقضي عليها بأن تأتي الى محل الكشف في كل أسبوع مرة وهي فوق ذلك موضوعة تحت المراقبة الشديدة فهذه التحوطات التي اسفرت عن نتائج حسنة جداً في أوروبا لا وجود لها في القاهرة

أما عاصية القانون فهي العاهر التي ترتكب الفجور خلسة واستراقاً ويعد من هذا النوع النساء المتزوجات اللاتي لهن أزواج وأولاد والفتيات اللاتي يعشن في احضان عائلاتهن والخياطات الفاسقات والفاعلات والمغنيات والراقصات والخادمات وكل من كان على شاكلتهن وارتضى الفجور والاستسلام للزنا والفسق وبيع العرض بالمال

فالحكومة لا تعرف هؤلاء ولا تراقبهن ولا تحمل منهن ورقة الكشف الطبي مع انهن لا يفرقون عن العاهرات والبغيات فارق غير ان العاهرات لا يسكن منزل العائلة ولا يكتمن أمرهن عن الجمهور وعن الحكومة ومصالح الصحة ويحملن الورقة الطبية التي تدل على احترافهن حرفة البغاء . أما تلك العاصيات فان لهن منازل عائلية يبتن فيها ولا يحملن ورقة الصحة . أما من حيث احتراف البغاء والسعي وراء الرجال واستثارة أميالهم والتحكك بهم فهن والعاهرات سواء واذا قبض البوليس على واحدة منهن وهي متلبسة بالجناية أرسلها الى الطبيب ليكشف عليها

ولقد قلت واردد واعيد الآن تكراراً ان النسوة غير الخاضعات لاحكام القانون هن أشد خطراً على الانسانية من سواهن ولا أخطىء اذا قلت ان جميعهن مصابات بالادواء الزهرية على اختلاف أنواعها وثلاثة أرباعهن في حالة من الاصابة شديدة الخطر على الرجال وشديدة العدوى لمن يختلط بهن

وهذه المرتبة من النساء هي أيضاً على نوعين نوع عال ونوع واطىء

وقد لقبت مدام هنري تورو المرتبة الواطئة بمرتبة الفعلة في هيأة الحب وهي محتقرة مهانة مرذولة كثيرة الخطر لأنها تسلم نفسها لمن عثر عليها دون تردد ولا إنعام نظر

أما المرتبة العالية فهي مع أنها محتقرة مرذولة كالمرتبة الأولى الا انها أقل خطراً لأنها لا تسلم نفسها الى من عثر عليها أو حاول التوصل اليها ولا تطوف الشوارع للبحث عن صيد يقع في شراكها ولكنها تركب العربات وتعيش عيشة الاغنياء وتشهد التمثيل

في التياترات ولا يزيد عشاقها على اثنين أو ثلاثة فلهذا لا تستطيع الواحدة منهن ان تبذر العدوى بين الجمهور اذا كانت مصابة بالامراض بل ان عدواها تقتصر أو تنحصر في محبيها ، ومحبو مثل هذه العاهرات هم الاغنياء وأصحاب الثروة ولقد درج في القاهرة ان يكون لكل شاب غني حظية أو حبيبة حتى يكون ذلك الشاب معدوداً في مصاف المتمدنين وزمرة اللطفاء والظرفاء من الراقين والسامين

والواحدة منهن تقول معجبة بنفسها أنها لا تسمح لاحد بأن يدنو منها ويجامعها اذا لم يدفع لها ٤٠ أو ٥٠ جنيهاً فهن يحسبن لانفسهن فضيلة غلو السعر وارتفاع الاجرة لا حفظ العرض والعفة فمثل هذا الطلب لا يجيبه الا العدد القليل من الجمهور خلافاً لتلك البغيات بنات السوق والشارع فان الواحدة منهن تسلم لاي كان عرضها بما يكفي لدفع ثمن الخبز في يومها أو ثمن الشرب في ليلها

فاذا هن تمكن من الخلاص من يد البوليس دهراً طويلا فان أكثرهن يقع في قبضته لان الفقر يقضي عليهن بأن يطفن الشوارع ويتحرشن بهذا وذاك ويحرضن على الفسق والفجور كل مار وكل سائر فاذا نجون من يد البوليس مرة فانهن لا ينجون من يده كل مرة

٢٩

﴿ عدد المصابين في سنة واحدة ﴾

من أنعم النظر قليلا في حال تلك العاهرات وكثرة عددهن وكثرة المصابات منهن بالامراض وعرف ان الواحدة منهن تسلم نفسها في كل ليلة لعدة رجال قد يكونون سليمين من الامراض والادواء عرف ان عدد الرجال الذين يصابون بامراض اعضاء التناسل عظيم هائل فاذا لم يصابوا يكون الفضل في ذلك للمراقبة الطبية وللتحوطات الصحية التي تنتشل الانسانية من هوة بعيدة القرار وشر مستطير لا يعرف أحد لولا وقاية الطب ماذا يكون من ورائه على الانسانية كلها

فلهذا أرى انه لابد من مراقبة العاهرات في القاهرة ولا أسلم قط بأن هذه المراقبة غير ضرورية بل لا يمكني أن اقتنع وأسلم بأن الخطر مع الحالة الحاضرة ليس شديداً على الانسانية وليس مهدداً البلاد كلها

واذا ما خطر لي التأمل باهمال المراقبة هنا جزعت لعلمي ما وراء ذلك من الخطر والمصاب الجليل والضربة الشديدة

يؤخذ من احصاء مدينة باريز على ان متوسط عدد النساء اللاتي قبض عليهن وهن مصابات بالادواء هو ١١ امرأة في اليوم من غير الخاضعات للمراقبة الطبية فاذا حسبت هذا على دورة العام كان عدد المصابات ٣٦٠٠ مصابة أو ٤٠٠٠ مصابة قد أخرجتهن حكومة باريز من وسط الجمهور وحجرت عليهن وعزلتهن الى أن يتم شفاؤهن فاذا مكثن على معاطاة حرفتهن ونقلن العدوى الى شخص واحد في كل يوم كان عدد الذين يصابون منهن في كل عام مليوناً و ٦٤٠ ألف رجل

فلماذا لاتكنس شوارع مصر كما تكنس شوارع باريس من هذه العاهرات ولماذا لاتعزل النساء الوطنيات ولاتطرد من البلاد النساء الاجنبيات المريضات

بل لماذا لاتطهر شوارع المدن والحواضر من هذه المستودعات المخزونة فيها الامراض والاوصاب وفساد العائلات والاجساد والسلالة

سؤال أردده في نفسي ولا أجد عليه جواباً ولكني أعرف أن آلافاً من النفوس تضيع الآن ضحية الاهمال وليس من يزع الشر أو يرد المصيبة

﴿ جناية أوربا على نفسها وعلى العالم ﴾

اهدي الينا هذا الكتاب أو القصة منذ أشهر فاستكبرنا الاسم ومابعده من الوصف وهو « كتاب صحي عصري أدبي اجتماعي عمومي نسائي روائي » وفهمنا من كلمة « روائي » انه يبين فيه مافي هذه القصص التي تسمى روايات من الجناية على الآداب كما فهمنا من كل كلمة قبلها نحو ذلك وعزمنا على مطالعة الكتاب قبل الكتابة عنه فاذا هو قصة وضعية في بيان ضرر استعمال « المشد » الحديدي الذي يضغط به النساء أحشاء هن . وقد أحسن واضع القصة أحمد أفندى فهمي فيما كتب لجاه بالنزاهة والادب في الغراميات وأحسن في التنفير عن المشد وكان كلامه مؤثرا يستعبر القاريء ولكن الاسم أكبر من المسمى . والقصة مطبوعة طبعا حسنا وهي تطلب من مكتبة المعارف بالفجالة فنحث القارئات قبل القارئين على مطالعتها

﴿ قاطع الحبل ﴾

قصة من قصص « مسامرات الشعب » صدر منها جزءان وهي مما اختاره المترجمة نقولا أفندى رزق الله المعروف بأدبه وحسن ذوقه في الاختيار

﴿ الريحانة ﴾

« مجلة تاريخية أدبية قصصية تصدر في منتصف كل شهر عربي لصاحبتها جميلة حافظ » صدر الجزء الأول منها في ١٥ المحرم وقد جاء في فاتحته مايأتي

« أفتتح مجلتي الريحانة باسم الله الذي خلق الرجل والمرأة من أصل واحد ووهبهما عقلا جوهره واحد وسوّى بينهما في الحقوق فقال (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) وأسأله تعالى أن يوفقني الى القيام بما عهدته الي نفسي خير قيام

« أمنيتي الوحيدة أن تكون لحياتي ثمرة وغاية شريفتان في الوجود لاأن تكون حياة خمول وكسل تنقضي بلا ثمرة ، وجودها عدم وعدمها خير » الخ

هذه الكلمة من الكلم الطيب لايتدبرها عاقل ويأخذ على نفسه الميثاق ليعلمن بها الا كانت حياته مباركة طيبة وكان هو بها أسعد منه بكل مايملك من عرض الدنيا . هذه الكلمة ترفع من تربى تربية حسنة الى مراتب الكمال وتكون خير مرب لمن قصر في تربيته الوالدون والمعلمون ، وما كثر الذين يقدرونها قدرها في أمة من الامم الاوارتقى شأنها وصلحت حالها وكانت من أسعد الامم لايفضلها الا الامة التي تسبقها في العمل بالكلمة . واني لأرجو أن تكون هذه المجلة من أنفع المجلات برعاية منشئتها لكلمتها وعنايتها بالعمل بها . ولنا أن نعد من آيات هذه العناية قولها في الجزء الثاني « رأيت أن أساعد مشروع الجامعة بكل مافي وسعي فأنا من الآن أتبرع لها سنويا بكل مايزيد عن مصروف المجلة من جنيه الى مئة وما زاد عن المئة فيصرف في ترقية المجلة بزيادة عدد صفحاتها واصدارها مرتين في الشهر بدون زيادة في قيمة الاشتراك . وهذا التبرع يبقى ان شاء الله مابقيت المجلة و بقي لها مشتركون »

إننا لنشم من هذا القول عبير الاخلاص والصدق ولكن رجاءنا في تحقق امنية الكاتبة المخلصة ضعيف لانها جعلت قيمة الاشتراك ثلاثين قرشا وهي تكاد لاتكفي لنفقات المجلة على مانعهد من قلة القارئات والقارئين، وكثرة مطل المشتركين ، الا أن تصادف المجلة من يقدر نية منشئتها حق قدرها ، وينتدبون لمساعدتها على أمرها ، واننا ننصح لها بأن تزيد في قيمة الاشتراك الآن فان أهل الوفاء لايثقل

على الواحد منهم دفع عشرة قروش أو عشرين قرشا في السنة، وأهل المطل يثقل عليهم اداء القرش الواحد فان لم تقبل نصيحتنا الآن فستقبلها في يوم من الزمان

﴿ الجامعة الاسبوعية ﴾

ارتحل فرح أفندي انطون صاحب مجلة الجامعة الشهيرة الى نيويورك وجعلها مقرا له ومصدرا للجامعة ثم اشترك مع رشيد أفندي سمعان وهو من التجار الميالين الى السياسة فى اصدار جريدة يومية باسم الجامعة واختارا ان يجمعا من الجامعة اليومية أفضل مقالاتها وأخبارها كل اسبوع في نسخة اسبوعية ذات ثمان صفحات وقد وافانا عدة نسخ من الجامعة الاسبوعية فاذا هي من أحسن الجرائد العربية تحريرا وأغزرها فائدة وقيمة الاشتراك فيها عشرون فرنكا

باب الاخبار والآراء

﴿ استقالة اللورد كرومر وتقريره ﴾

ما كاد اللورد كرومر يتم تقريره السنوي عن مصر والسودان حتى عرض له في معدته مرض شديد، حتى صار يغذى بالحقن وحتى لم يسطع الحفاوة بأخي ملك الانكليز الذي زار مصر في هذه الايام كما يجب وحتم عليه الاطباء الاستقالة من منصبه وترك الاعمال العقلية بتة فكتب الى حكومته بذلك فراجعته عسى أن يثني عزمه فلم يفد ذلك فقبلت استقالته مع إظهار الاسف العظيم على اضطراره الى ترك الخدمة والثناء العاطر عليه الذي شارك الحكومة فيه جميع أحزاب الامة .

وقد صرحت الحكومة تصريحا رسميا بأن ستسير فى مصر على طريقته وتعمل بما أرشد اليه في تقريره الاخير. وهذا التقرير هو أشد التقارير وطأة على الوطنيين لاسيما الذين يعرفون بالحزب الوطني من حيث ما يراد فيه من تغيير نظام الجنسية المصرية ومحاولة اقناع دول أوربا بترك الامتيازات والاستغناء عنها بمجلس تشريع وطني معظم اعضائه من رعايا هذه الدول و باقيهم من الوطنيين

ومما نقل عن التقرير فكان شديد الوقع على نفوس المسلمين كلام في الشريعة الاسلامية فحواه أنها لا تصلح لهذا الزمان وكلام فيما يسمونه الجامعة الاسلامية

وكلام عن المستر دنلوب في اللغة العربية وإننا ننتظر صدور نسخة التقرير العربية لنقرأها ونبين ما هو الحق في الشريعة ومعنى كونها خاتمة الشرائع الآلهية

أما اللورد نفسه فهو بما عمل في مصر، يعد من أعظم السياسيين في هذا العصر، وقد اعترف له الوطنيون مع الاجانب بالنزاهة التامة وترقية مالية البلاد وتكثير مواردها واحترام استقلال القضاء والحرية الشخصية فيها وناهيك بحرية المطبوعات، و يشكو منه الوطنيون أنه لم يرق المعارف ولم يزد مصر الا بعدا عن الاستقلال . و يقولون ان نجاحه الذي ظهرت به عظمته يقوم على ثلاثة أركان — مزاياه الشخصية وثقة حكومته به ومساعدتها اياه في كل مايطلب — وطول الزمن الذي صرفه في مصر . ونسوا ركنا رابعا وهو طبيعة مصر وأهلها فمصر تواتي كل حاكم قوي وتخضع لارادته في كل مايريد منها ولولا استعداد القابل لما ظهر استعداد الفاعل والحكيم من يراعي في عمله الاستعداد الطبيعي فيما يعمل فيه . ولو وجد في أمرائها رجل كاللورد كرومر لعمل فيها خيرا مما عمل اللورد لأن أميرها كان يراعي مصلحتها من كل وجه خالصة لها واللورد كان ينظر الى مصلحة دولته اولا ، والى مصلحة مصر ومصالح دول أوربا ثانيا . وقد اهتزت مصر وأوربا لاستقالته وخاف الماليون على أموالهم والأحرار على حريتهم من بعده واستحسن بعض النزلاء والوطنيين أن يعمل له تذكار في مصر . وكانت جريدة المؤيد و« الجريدة » أكثر الجرائد المصرية اعتدالا في الكتابة عنه

وأفضل ما استفادت مصر في هذه المدة — مدة اللورد كرومر أو الاحتلال استيقاظ الشعور بوجوب الاستقلال الذاتي أو الاعتماد على النفس في الرقي . استيقظ هذا الشعور في بعض النفوس ولولا ان أكثر الجرائد شغلت الامة عنه بالاماني والاوهام لانتشر انتشارا عظيما ، ولجاء بالاصلاح المبين

شغلت الأمة عن نفسها بمقاومة الاحتلال ولكن بالأماني والغرور، و بالطعن في الحكومة لأنها تواتي الاحتلال، و بمطالبة الحكومة مع ذلك بكل مايرقيها ويرفع شأنها ، بذلك نسيت نفسها فلم تتعاون على الاعمال الاستقلالية ولم يوجد فيها معاهد للتربية الملية والتعليم الذي يقصد به الرفعة والكمال من غير طريق الحكومة . بل لم يوجد فيها عون ولا نصير لذلك الأب البر الرحيم (الاستاذ الامام رحمه الله)

الذي أراد أن ينتهز هذه الفرصة لاصلاح الازهر على عله هذا ولكنه وجد بعض الاعوان على النهوض بجمعية خيرية اسلامية فنهض بها.

هذا وقد ابتدأت الامة تشتغل نفسها عن نفسها بما يوهمها الموهمون من سياسة خلف اللورد كرومر وهو انها ستكون مرقية للشؤون المعنوية كارقى اللورد كرومر الشؤون المادية. واننا ننصح لها بأن لا يشغلها عن استعدادها الذاتي شاغل وان تعلم ان من لا يرقي نفسه لا يرقيه غيره وأن أفضل ما يمكن ان تستفيده من الانكليز هو تمكينها من ترقية نفسها بالتربية والتعليم الذي تقوم به وهي بثروتها قادرة عليه وما بينها وبينه الا أن تتوجه بتوفيق الله تعالى اليه

ويظن أن الامير سيكون أشد مواتاة للسير ألدون غورست خلف اللورد كرومر على عمله بمصر منه لسلفه وان السير يكون أكثر تساهلا من اللورد مع الماليين فيما ينشؤن من الشركات ويعمرون من أرض الحكومة ولا يظن انه يكون أوسع منه صدراً لمشاغبات الصحف وأقرب مودة للحرية وجملة ما يقال إن السياسة الانكليزية لا تتغير في مصر بذهاب انكليزي ومجيء انكليزي

﴿ باب الانتقاد على المنار ﴾

كتب الينا أحمد أفندي الالفي ينتقد علينا امورا اجابة لدعوة المنار الى الانتقاد عليه ولكن ما انتقده آراء في تحرير المجلة وادارتها وكتابة التفسير وهو على ما فيه من الفائدة لنا ليس مما ندعو اليه انما ندعو الى انتقاد ما يراه أهل العلم في المنار باطلا وبيان ذلك بالدليل واهل منه قوله: مقالاتك في الجريدة حتى أخذت « بالفال » ووضعت المجلة موضع المتشيع للجريدة: وظنه انني اشتغلت عن المنار بالتحرير فيها

وهكذا رأيت كثيرا من الناس ينسبون الي أكثر ما يكتب في (الجريدة) ويظنون انني من محرريها والحق أنني ساعدتها بعدة مقالات في أوائل ظهورها وانني أحسن الظن بها واذا كتبت فيها فانما اكتب في موضوع ادبي أو اجتماعي لا في سياسة مصر ولا اكتب عن لسانها. واما العناية بتقريظها فسببه هضم الناس لها بغير حق وكونها تنفيذا لرأي الاستاذ الامام وان لم تكن كما كان يريد من كل وجه. «والفأل» ذكر فكاهة على أن النبي (ص) كان يعجبه الفأل الحسن

المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الالباب
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب
قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق
﴿ مصر ربيع الأول سنة ١٣٢٥ — آخره الاحد ١٢ مايو (ايار) سنة ١٩٠٧ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٣٣ : ٣٠) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرٰهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ
عَلَى الْعٰلَمِينَ (٣٤) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٥ : ٣١)
إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا، فَتَقَبَّلْ
مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا
أُنْثَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى - وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا
مَرْيَمَ، وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيمِ (٣٧ : ٣٢)
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ
عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هٰذَا؟
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

أقول سيأتي وجه الاتصال بين هذه الآيات و بين ماسبقهن من أول السورة في آخر تفسيرهن وأما وجه اتصالهن بما قبلهن فهو أنه لما بين سبحانه وتعالى ان محبته منوطة باتباع الرسول فمن اتبعه كان صادقا في دعوى حبه لله ، وجديرا بأن يكون محبوبا منه جل علاه ، اتبع ذلك ذكر من أحبهم واصطفاهم وجعل منهم الرسل الذين يبينون طريق محبته ، وهي الايمان به مع طاعته ، فقال ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ أي اختارهم وجعلهم صفوة العالمين وخيارهم بجعل النبوة والرسالة فيهم فآدم أول البشر ارتقاء الى هذه المرتبة فانه بعد ماتنقل في الاطوار وانتهى الى مرتبة التوبة والانابة اصطفاه تعالى واجتباه كما قال في سورة طه (٢٠ : ١٢٢ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) فكان هاديا مهديا وكان في ذريته من النبيين والمرسلين من شاء الله تعالى . وأما نوح عليه السلام فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلائل البشرية من انقرض ونجا هو وأهله في الفلك فكان بذلك أبا ثانيا للجم الغفير من البشر وكان هو نبيا مرسلا وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ثم تفرقت ذريته وانتشرت وفشت فيهم الوثنية حتى ظهر فيهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام نبيا مرسلا وخليلا مصطفى وتتابع النبيون والمرسلون من آله وذريته وكان ارفعهم قدرا وانبههم ذكرا آل عمران قبل ان تختم النبوة بولد اسماعيل عليهم الصلاة والسلام

﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ قيل ان الذرية من مادة ذرأ المهموزة أي خلق كما ان البرية من مادة برأ وقيل من مادة ذرو فأصلها ذروية وقيل هي من الذرّ وأصلها فعلية كقمرية قال الراغب والذرية أصلها الصغار من الاولاد وان كان قد يقع على الصغار والكبار معا في التعارف و يستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع : وقال الاستاذ الامام: يقال ان لفظ الذرية قد يطلق على الوالدين والاولاد خلافا لعرف الفقهاء وهو قليل والمشهور ماجرى عليه الفقهاء وهو أن الذرية الاولاد فقط فقوله « بعضها من بعض » ظاهر على الأول ويخص على الثاني بآل ابراهيم وآل عمران . ويصح ان يكون بمعنى انهم أشباه وأمثال في الخيرية والفضيلة التي هي أصل اصطفائهم على حد قوله تعالى (٩ : ٦٧ والمنافقون والمنافقات بعضهم من

بعض) وهو استعمال معروف . أقول وهؤلاء الذين يشبه بعضهم بعضا من هذه الذرية هم الانبياء والرسل قال تعالى في سياق الكلام على ابراهيم (٦ : ٨٤ ووهبنا له اسحاق و يعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب و يوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين ٨٥ وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ٨٦ واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ٨٧ ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم)

﴿ والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني ، انك أنت السميع العليم ﴾ أي انه كان سبحانه وتعالى سميعا لقول امرأة عمران عليما بنيتها في وقت مناجاتها إياه وهي حامل بنذر مافي بطنها له حال كونه محررا أي معتقا من رق الاغيار لعبادته سبحانه وخدمة بيته أو مخلصا لهذه العبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر ، وثناؤها عليه تعالى عند هذه المناجاة بأنه السميع للدعاء ، العليم بما في أنفس الداعين والداعيات

قال الاستاذ الامام: ورد ذكر عمران في هذه الآيات مرتين فبعضهم يقول انهما واحد وهو أبو مريم و يستدل على ذلك بورودها في سياق واحد وأكثرهم يقول ان الأول أبو موسى (عليه السلام) والثاني أبو مريم (عليها الرضوان) وبينهما نحو ألف وثمان مئة سنة تقريبا وذكر تفصيل ذلك على ماهو معروف عند اليهود قال والمسيحيون لايعترفون بأن أبا مريم يدعى عمران ولا ضير في ذلك فانه لايلزم ان تكون كل حقيقة معروفة عندهم وليس لهم سند لنسب المسيح يحتج به فهو كسلسلة الطريق عند المتصوفة يزعمون انها متصلة بعلي أو بالصديق وليس لهم في ذلك سند متصل يحتج بمثله . وأقول ان نسب المسيح في انجيلي متى ولوقا مختلف ولو كتب عن علم لما وقع فيه الخلاف

﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى ﴾ قالوا ان هذا خبر لايقصد به الاخبار بل التحسر والتحزن والاعتذار فهو بمعنى الانشاء وذلك انها نذرت تحرير مافي بطنها لخدمة بيت الله والانقطاع لعبادته فيه والأنثى لا تصلح لذلك عادة لاسيما في أيام الحيض قال تعالى ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ أي بمكانة الانثى التي

وضعتها وانها خير من كثير من الذكور ففيه دفع لما يوهمه قولها من خسة المولودة وانحطاطها عن مرتبة الذكور وقد بين ذلك بقوله ﴿ وليس الذكر ﴾ الذي طلبت أوتمنت ﴿ كالأنثى ﴾ التي وضعت بل هذه الانثى خير مما كانت ترجو من الذكر وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب (وضعت) على انه من كلامها وعليه يكون المعنى وليس الذكر كالأنثى فيما يصلح له كل منهما

﴿ واني سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ العوذ الالتجاء الى الغير والتعلق به فمعنى أعوذ بالله من الشيطان ألجأ اليه واعتصم به منه، وأعاذه به منه جعله معاذاً له يمنعه ويعصمه منه والاعاذة بالله تكون بالدعاء والرجاء والرجيم المطرود عن الخير. وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين وغيرهما واللفظ هنا لمسلم « كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه الا مريم وابنها » وفسر البيضاوي المس هنا بالطمع في الاغواء. وقال الاستاذ الامام: اذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة: ولعل البيضاوي يرمي الى ذلك والحديث صحيح الاسناد بغير خلاف ويشهد له من وجه حديث شق الصدر وغسل القلب بعد استخراج حظ الشيطان منه وهو أظهر في التمثيل ولعل معناه انه لم يبق للشيطان نصيب من قلبه صلى الله عليه وسلم ولا بالوسوسة كما يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في شيطانه « الا أن الله أعانني عليه فأسلم » رواه مسلم وفي رواية زيادة « فلا يأمر الا بخير »

فان قيل ان حديث استخراج حظ الشيطان منه ونحوه يدل على انه كان له حظ منه قبل ذلك وهذا ينافي قوله تعالى (١٥ : ٤٢ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وهو صلى الله عليه وسلم صفوة عباده وخاتم رسله المصطفين الأخيار فان الآية تنفي سلطة الشيطان عن عباد الرحمن في كل آن. فالجواب ان الآية تنفي السلطان عليهم لا أصل الوسوسة فاذا وسوس الشيطان ولم تطع وسوسته لم يكن له سلطان، ومعنى الحديث انه لم يعد له طريق الى الوسوسة ولا الى الأمر بالشر قط وهذه مرتبة عليا لا يرتقي اليها كل عباد الله وقد ذكر أهل الحديث من خصائصه صلى الله عليه وسلم إسلام شيطانه. وجملة القول ان الشيطان لم يكن له عليه سلطان ما ولكن كان له حظ وطمع فزال وغلبه نور النبوة حتى يئس وزال

حظه فلم يعد يأمر الا بخير أو أسلم كما ورد

فان قيل ان ما فسر به البيضاوي حديث مريم وعيسى يقتضي ان يكونا أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممتازين عليه اذ كان يطمع فيه ولم يطمع فيهما وهذا ما يشاغب به دعاة النصرانية عوام المسلمين مستدلين بالحديث على تفضيل عيسى على محمد عليهما الصلاة والسلام أو على أنه فوق البشر. فالجواب أن كتاب هؤلاء الدعاة حجة عليهم ففي الفصل الرابع من انجيل مرقس ما نصه:

« أما يسوع فرجع من الاردن ممتلئا من الروح القدس وكان يقتاد بالروح في البرية ٢ أربعين يوما يجرب من ابليس ولم يأكل شيئا في تلك الايام ولما تمت جاع أخيرا ٣ وقال له إبليس إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا ٤ فأجابه يسوع قائلا: مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة من الله ٥ ثم أصعده ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان ٦ وقال له ابليس لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إليّ قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد ٧ فان سجدت أمامي يكون لك الجميع ٨ فأجابه يسوع وقال « اذهب ياشيطان » انه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد ٩ ثم جاء به الى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا الى أسفل ١٠ لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك ١١ وانهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك ١٢ فأجاب يسوع وقال له انه قيل لا تجرب الرب إلهك ١٣ ولما أكمل ابليس كل تجربة فارقه الى حين » اه

فهذا صريح في أن ابليس كان يوسوس للمسيح عليه السلام حتى يحمله ويأخذه من مكان الى مكان، وقصارى الأمر أنه لم يكن يطيعه فيما أمر به من السجود له ومن امتحان الرب إلهه (أي إله المسيح) وقوله لا تجرب الرب إلهك يراد به ما ورد في سفر التثنية آخر أسفار التوراة (٦ : ١٦) ومثله قوله ليس بالخبز وحده يحيا الانسان. وقوله للرب إلهك تسجد الخ وذلك مما يدل على أنه كان متبعا للتوراة.

هذا وقد تقدم تحقيق القول فى الشيطان ووسوسته في سورة البقرة (١) والمحقق عندنا انه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين، وخيرهم الانبياء والمرسلون، وأما ماورد في حديث مريم وعيسى من أن الشيطان لم يمسهما وحديث إسلام شيطان النبي صلى الله عليه وسلم وحديث ازالة حظ الشيطان من قلبه فهو من الأخبار الظنية لانه من رواية الآحاد ولما كان موضوعها عالم الغيب والايمان بالغيب من قسم العقائد وهي لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى (ان الظن لا يغني من الحق شيئا) كنا غير مكلفين الايمان بمضمون تلك الاحاديث في عقائدنا وقال بعضهم يؤخذ فيها باحاديث الآحاد لمن صحت عنده، ومذهب السلف فى هذه الاحاديث تفويض العلم بكيفيتها الى الله تعالى فلا نتكلم فى كيفية مس الشيطان ولا في كيفية إخراج حظه من القلب وانما نقول ان ما قاله الرسول حق وانه يدل على مزية لمريم وابنها والنبي صلى الله عليهم وسلم لا يشاركهم فيها سواهم من عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، وهذه المزية لا تقتضي وحدها أن يكون كل واحد منهم أفضل من سائر عباد الله المخلصين اذ قد يوجد في المفضول من المزايا مالا يوجد في الفاضل، فليست مريم أفضل من ابراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام لان اختصاص الله إياهما بالنبوة والرسالة والخلة والتكليم يعلو كون الشيطان لم يمسها عند الولادة. على أن الحديث ورد فى تفسير كونه تعالى تقبل من أمها إعاذتها وذريتها من الشيطان وهذه الاعاذة قد كانت بعد ولادتها والعلم بأنها أنثى وظاهر الحديث أن المس يكون عند الوضع والله ورسوله أعلم بمرادهما

﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ﴾ أي تقبل مريم من أمها ورضي ان تكون محررة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته وهو أبلغ من قبلها وزاده مبالغة وتأكيدا وصفه بالحسن كأنه قال فتقبلها ربها أبلغ قبول حسن ﴿ وأنبتها نباتا حسنا ﴾ أي رباها ونماها في خيره ورزقه وعنايته وتوفيقه تربية حسنة شاملة للروح والجسد كما تربى الشجرة في الارض الصالحة حتى تنمو وتثمر الثمرة الصالحة لا يفسد طبيعتها شيء ولعله عبر عن التربية بالانبات لبيان ان التربية فطرية لا شائبة فيها. ومن مباحث اللفظ ان القول

(١) راجع تفسير قصة آدم

مصدر «قبل» لا «تقبل» والنبات مصدر لنبت لا لأنبت ولكن العرب تخرج المصدر أحيانا على غير صيغة الفعل والشواهد على هذا كثيرة ﴿ وكفلها زكريا ﴾ شدد الكوفيون من القراء الفاء وخففها الباقون والمعنى على الأولى وجعل زكريا كافلا لها وعلى الثانية ظاهر وقرؤا زكريا بالقصر وبالمد ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ وهو مقدم المصلى ويطلق على مقدم المجلس كما قال ابن جرير وقيل لا يسمى محرابا الا اذا كان يصعد اليه بالسلالم واقول المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح وهو مقصورة في مقدم المعبد لها باب يصعد اليه بسلم ذي درجات قليلة و يكون من فيه محجوبا عمن في المعبد ﴿ وجد عندها رزقا ﴾ قالوا كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف والله لم يقل ذلك ولا قاله رسوله صلى الله عليه وسلم ولا هو مما يعرف بالرأي ولم يثبته تاريخ يعتد به والروايات عن مفسري السلف متعارضة وفي أسانيدها ما فيها ومما قال ابن جرير في ذلك ان بني اسرائيل اصابتهم أزمة حتى ضعف زكريا عن حملها وانهم اقترعوا على حملها فخرج السهم على نجار منهم فكان يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فينميه الله و يكثره فيدخل عليها زكريا فيجد عندها فضلا من الرزق فاذا وجد ذلك ﴿ قال يامريم أنى لك هذا ﴾ أي من أين لك هذا والأيام أيام قحط ﴿ قالت هو من عند الله ﴾ رازق الناس بتسخير بعضهم لبعض ﴿ ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ولا توقع من المرزوق أو رزقا واسعا (راجع آية ٢٧) وأنت ترى انه لا دليل في الآية على أن الرزق كان من خوارق العادات واسناد المؤمنين الأمر الى الله في مثل هذا المقام معهود في القديم والحديث. قال الاستاذ الامام ما مثاله مبسوطا: ان القرآن نزل سائغا يسهل على كل أحد فهمه من غير حاجة الى عناء ولا ذهاب في الدفاع عن شيء خلاف الظاهر فعلينا ان لا نخرج عن سنته ولا نضيف اليه حكايات اسرائيلية أو غير اسرائيلية لجعل هذه القصة من خوارق العادات (١) والبحث عن ذلك الرزق ماهو ومن أين جاء فضول لا يحتاج اليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة ولو علم الله ان في بيانه خيرا لنا لبينه

(١) راجع مقالات (الكرامات المأثورة) في المجلد الثاني من المنار

اما ماسيقت القصة لأجله وهو الذي يجب أن نبحث فيه ، ونستخرج العبر من قوادمه وخوافيه ، فهو تقرير نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب اسرائيل وشبهة المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر   وبيان ذلك أن المقصد الأول من مقاصد الوحي تقرير عقيدة الألوهية وأهم مسائلها مسألة الوحدانية وتقرير عقيدة البعث والجزاء وعقيدة الوحي والانبياء وقدافتتحت السورة بذكرالتوحيد وأنزال الكتاب ثم كانت الآيات من أولها الى هـذه القصة أو قبيل هذه القصة في الألوهية والجزاء بعدالبعث بالتفصيل وازالة الشبهات والاوهام في ذلك ثم بين ان الايمان بالله وادعاء حبه ورجاء النجاة في الآخرة والفوز بالسعادة فيها انما تكون باتباع رسوله وقفى على ذلك بهذه القصة التي تزيل شبه المشركين وأهل الكتاب في رسالته وتردها على وجوههم

رد عليهم بما يعرفونه من أن آدم أبو البشر وان الله اصطفاه بجعله أفضل من كل أنواع الحيوان وتمكينه هو وذريته من تسخيرها وهـذا متفق عليه بين المشركين وأهل الكتاب ومن اصطفاء نوح وجعله أبا البشر الثاني وجعل ذريته هم الباقين ومن اصطفاء ابراهيم وآله على البشر فان العرب وأهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك فالاولون يفخرون بأنهم من ولد اسماعيل وعلى ملة ابراهيم كما يفخر الآخرون بأصطفاء آل عمران من بني اسرائيل حفيد ابراهيم . فالله سبحانه وتعالى يرشد هؤلاء وأولئك وجميع البشر الى أنه هو الذي اصطفى هؤلاء بغير مزية سبقت منهم تقتضي ذلك وتوجبه عليه فاذا كان الامر له في اصطفاء من يشاء من عباده وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم فما المانع له من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم بعدذلك على العالمين كما اصطفى أولئك ؟ لامانع يمنع ذلك عند من يعقل فان قيل انه لم يعهد أن بعث نبيا من غير بني اسرائيل بعد وجودهم قلنا ولم اصطفى بني اسرائيل عندوجودهم أليس ذلك بمحض مشيئته ؟ بلى و بمحض مشيئته اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم . فهذه المثل مسوقة لبيان انه تعالى يصطفي من خلقه من يشاء اما الدليل على كونه شاء اصطفاءه فاصطفاه بالفعل فهو أنه اصطفاه

بالفعل اذجعله هاديا للناس مخرجا لهم من ظلمات الشرك والجهل والفساد ، الى نور الحق الجامع للتوحيد والعلم والصلاح ، ولم يكن أثر غيره من آل ابراهيم وآل عمران في الهداية بأظهر من أثره بل اثره أظهر ، ونوره أسطع ، صلى الله عليه وعلى كل عبد مصطفى

ومن هذه المثل قصة مريم فان أمها اذا كانت قد ولدتها وهي عاقر على خلاف المعهود كما نقل أواذا كان قبول الانثى محررة لخدمة بيت الله على خلاف المعهود عندهم وقد تقبله الله فلماذا لايجوزان يرسل الله محمدا من غير بني اسرائيل على خلاف المعهود عندهم ؟ ومثل هذا يقال في قصة زكريا عليه السلام الآتية ومن ذلك كله يعلم أن أعماله تعالى لاتأتي دائما على مايعهد الناس ويألفون

(٣٨ : ٣٣) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩ : ٣٤) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ
يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا
وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٤٠ : ٣٥) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ
وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ !! قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤١:٣٦)
قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا
رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ *

قوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء) معناه أنه عندمارأى زكريا حسن حال مريم ومعرفتها بالله واضافتها الاشياء اليه دعاربه متمنيا لو يكون له ولد صالح مثلها هبة من لدنه تعالى ومن محض فضله (وقد تقدم الكلام في تفسيرلدن ولدى) . وقد فسر بعضهم «هنالك» بالزمان قال الاستاذ الامام: وهو ضعيف والاستعمال الفصيح فيها انها للمكان أي في ذلك المكان الذي خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه ، ورؤية الاولاد النجباء تشوق نفس القاري وتهيج تمنيه لو يكون له مثلهم   وذهب المفسر (الجلال) كغيره الى أن الذي

بعث زكريا الى الدعاء هو رؤيته فاكهة الصيف في الشتاء وعكسه فان ذلك من قبيل مجيء الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقر وليس في الآية مايدل عليه ، وقد يعترض عليه بأن فيه اشعارا بأن زكريا لم يكن قبل ذلك عالما بامكان الخوارق ولا يقول بهذا مؤمن بنبوته . فان قيل ان تعجبه بعد بقوله « رب أنى يكون لي غلام » قد يشعر بشيء من ذلك فالجواب إن هذا يؤيد امتناع ان تكون رواية الخوارق هي التي أثارت في نفسه هذا الدعاء ، وقد قال الاستاذ الامام في معنى هذا الدعاء وهذا التعجب من استجابته أحسن قول وهاكه بالمعنى مع شيء من التصرف : ان زكريا لما رأى مارآه من نعمة الله على مريم في كمال ايمانها وحسن حالها ولاسيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الاسباب، ورؤيتها ان المسخر لها هو الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، أخذ عن نفسه ، وغاب عن حسه ، وانصرف عن العالم وما فيه ، واستغرق قلبه في ملاحظة فضل الله ورحمته ، فنطق بهذا الدعاء في حال غيبته ، وانما يكون الدعاء جديرا بأن يستجاب اذاجرى به اللسان بتلقين القلب، في حال استغراقه في الشعور بكمال الرب ، ولما عاد من سفره في عالم الوحدة ، الى عالم الاسباب ومقام التفرقة ، وقد أوذن بسماع ندائه ، واستجابة دعائه ، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة ، وهي على غير السنة الكونية فأجابه بما أجابه، وذلك قوله عز وجل

« فنادته الملائكة » قرأ حمزة والكسائي فناداه الملائكة بالتذكير والامالة والباقون فنادته بتاء التأنيث أي جماعة الملائكة والعرب تؤنث وتذكر المسند الى جمع الذكور الظاهر لاسيما اذا كان في لفظه تا كالطلحات . ورسم المصحف يتفق مع القراءتين لأنه رسم فيه بالياء غير منقوطة هكذا « فنادته » ومن سنته رسم الألف الممالة ياء لأنها منقلبة عنها . وجمهور المفسرين يقولون ان المراد بالملائكة جبريل ملك الوحي وقالوا ان العرب تخبر عن الواحد بلفظ الجمع تريد به الجنس . قال ابن جرير يقال خرج فلان على بغال البريد وانما ركب بغلا واحدا وركب السفن وانما ركب سفينة واحدة وكما يقال ممن سمعت هذا الخبر فيقال من الناس وانما سمعه من رجل واحد وقد قيل ان منه « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم »

والقائل كان فيما ذكروا واحدا . ثم قال بعد ذلك وأما الصواب من القول في تأويله فان يقال ان الله جل ثناؤه أخبر ان الملائكة نادته والظاهر من ذلك أنها جماعة الملائكة دون الواحد وجبريل واحد فلن يجوز ان يحمل تأويل القرآن الا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل في ألسن العرب دون الأقل، ما وجد الى ذلك سبيل، ولم تضطرنا حاجة الى صرف ذلك الى انه بمعنى واحد فيحتاج له الى طلب المخرج بالخفي من الكلام والمعاني وبما قلنا في ذلك من التأويل قال جماعة من أهل العلم منهم قتادة والربيع بن أنس وعكرمة ومجاهد وجماعة غيرهم : اه

اما قوله « وهو قائم يصلي في المحراب » فالظاهر من معناه المتبادر عندي انه نودي وهو قائم يدعو بذلك الدعاء الذي ذكر هنا مختصرا وذكر في سورة مريم بأطول مما هنا فالصلاة دعاء والدعاء صلاة وقد عطف « فنادته الملائكة » على ماقبله بالفاء وحكاية ماقبله صريحة في كون الدعاء وقع في المحراب الذي كانت مريم فيه . فقول الرازي ان الآية تدل على أن الصلاة مشروعة عندهم غريب جداً وأي دين لاصلاة فيه ولا دعاء « ان الله يبشرك بيحيى » أي بولد اسمه يحيى كما في سورة مريم « أنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » قرأ ابن عامر وحمزة إن بكسر الهمزة لان النداء قول، والباقون بفتحها على تقدير الباء أي نادته بأن الله يبشره وفيه اشعار بأن البشارة محكية بالمعنى لا باللفظ فما هنا لا ينافي مافي سورة مريم من التفصيل . قرأ حمزة والكسائي يبشرك كينصرك والباقون بالتشديد . ويحيى تعريب لكلمة « يوحنا » في لغة بني اسرائيل وهي من مادة الحياة فالاسم يشعر بأنه يحيا حياة طيبة بأن يكون وارثا لوالده ومن آل يعقوب ما كان فيهم من النبوة والفضل . وقد وصف تعالى هذا المبشر به بعدة صفات وردت حالا منه وهي قوله « مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » اما تصديقه بكلمة من الله فهو تصديقه بعيسى الذي يبشر الله به بكلمة منه او الذي يولد بكلمة الله « كن » فيكون أي بغير السنة العامة في توالد البشر وهي ان يولد الولد بين أب وأم . وقال أبو عبيدة أي المراد بالكلمة هنا الكتاب أو الوحي لأن الكلمة تطلق على الكلام وان كان كثيرا ، وقيل غير ذلك . وأما السيد فهو من يسود في قومه بالعلم أوالكرم

أو الصلاح وعمل الخير . والحصور وصف مبالغة من مادة الحصر ومعناها الحبس فهو من يحبس نفسه ويمنعها مما ينافي الفضل والكمال اللائق بها . ويطلق على الكتوم للاسرار وعلى من يمتنع من النساء للعنة أو للعفة وأكثر المفسرين على ان هذا الأخير هو المراد هنا ولذلك بحثوا في كون ترك التزوج أفضل من فعله أم لا وقال الرازي : احتج أصحابنا بهذه الآية على أن ترك النكاح أفضل : ونقول ان الآية ليست نصا ولا ظاهرة في ذلك، واذا سلمنا انها تدل عليه فلا نسلم انها تدل على أن ترك التزوج أفضل مطلقا وليس يحيى بأفضل من أبيه ولا من ابراهيم الخليل ومحمد خاتم النبيين والمرسلين وسنة النكاح أفضل سنن الفطرة لأنها قوام هذه الحياة الدنيا وسبب بقاء الانسان الذي كرمه الله وخلقه في أحسن تقويم وجعله خليفة في الارض الى الاجل المسمى في علم الله . ومعنى كونه نبيا معروف وأما كونه من الصالحين فمعناه انه من الانبياء الصالحين او من القوم الصالحين وهم أهل بيته

﴿ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ﴾ قالوا ان السؤال للتعجب وأكثروا في ذلك السؤال والجواب وتقدم قول الاستاذ الامام في ذلك وهو أفضل ما قيل فيه ولبعضهم كلام في المسألة لا يليق بمقام الأنبياء عليهم السلام . ولا يمنع مانع ما أن يكون الاستفهام على ظاهره وان يكون قد قاله تشوفا إلى معرفة الكيفية التى يكون بها الانتاج مع عدم توفر الأسباب العادية له بكبر سنه وعقر زوجه ﴿ قال ﴾ تعالى والظاهر انه بواسطة الملائكة ﴿ كذلك الله يفعل مايشاء ﴾ فانه متى شاء أمرا أوجد له سببه أو خلقه بغير الأسباب المعروفة لايحول دون مشيئته شيء فعليك أن تفوض الأمر اليه في هذه الكيفية

﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة تتقدم هذه العناية وتؤذن بها . ومن سخافات بعض المفسرين التي أو مأنا اليها آنفا زعمهم ان زكريا عليه السلام اشتبه عليه وحي الملائكة ونداؤهم بوحي الشياطين ولذلك سأل سؤال التعجب ، ثم طلب آية للتثبت، وروى ابن جرير عن السدي وعكرمة ان الشيطان هو الذي شككه في نداء الملائكة وقال له انه من الشيطان . ولولا الجنون بالروايات مهما هزلت

وسمجت لما كان لمؤمن ان يكتب مثل هذا الهزء والسخف الذي ينبذه العقل وليس في الكتاب ما يشير اليه ولو لم يكن لمن يروي مثل هذا الا هذا لكفى في جرحه وأن يضرب بروايته على وجهه، فعفا الله عن ابن جرير اذجعل هذه الرواية مما ينشر ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ﴾ قيل معناه أن تعجز عن خطاب الناس بحصر يعتري لسانك اذا أردته ويرجحه ان الآية تكون بغير المعتاد وقيل معناه ان تترك ذلك مختارا لتفرغ لعبادة الله ويؤيده قوله ﴿ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار ﴾ والمشهور الاول وللمفسرين روايات سقيمة فيه، منها ان هذه الآية عقوبة عاقبه الله تعالى بها أن طلب الآية بعد تبشير الملائكة ومنها أن لسانه ربا فيه حتى ملأه ومثل هذا السخف لا يجوز ذكره الا لأجل رده على قائله وضرب وجهه به . وفي انجيل لوقا ان جبريل قال لزكريا « ١ : ٢٠ وها أنت تكون صامتا ولا تقدر ان تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته » وقال الاستاذ الامام: الصواب ان زكريا أحب بمقتضى الطبيعة البشرية ان يتعين لديه الزمن الذي ينال به تلك المنحة الآلهية ليطمئن قلبه، ويبشر أهله، فسأل عن الكيفية ولما أجيب بما أجيب به سأل ربه أن يخصه بعبادة يتعجل بها شكره، ويكون إتمامه إياها آية وعلامة على حصول المقصود، فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام بل ينقطع للذكر والتسبيح مساء صباح مدة ثلاثة ايام فاذا احتيج الى خطاب الناس أومأ اليهم إيماء، وعلى هذا تكون بشارته لأهله بعد مضي الثلاث الليال . واختلفوا في الرمز هل كان بالقول الخفي وتحريك الشفتين أم بغيرهما من الاعضاء كالعينين والحاجبين والرأس واليدين لان الرمز والايماء يكون بكل ذلك . والعشي من الزوال الى الغروب وقيل من الغروب الى ذهاب صدر من الليل وقال الراغب من زوال الشمس الى الصباح . والابكار من الصباح الى الضحى

(٤٢ : ٣٧) وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَٰلَمِينَ (٤٣ : ٣٨) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ *

قوله تعالى ﴿ واذ قالت الملائكة ﴾ معطوف على قوله « اذ قالت امرأة عمران » متعلق بقوله قبله « والله سميع عليم » وهذا الخطاب ليس بشرع خصت به وإنما هو إلهام بمكانتها عند الله وبما يجب عليها من الشكر له بدوام القنوت والصلاة ومن اعتقد انه مكرم اجتهد في المحافظة على كرامته وتباعد أشد التباعد عن كل ماينقص منها فقول الملائكة لها ﴿ ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ قد زادها بمقتضى سنة الفطرة تعلقاً بالكمال كما زادها روحانية بتأثير تلك الأرواح الطيبة التي أمدت روحها الطاهرة . والاصطفاء الأول هو قبولها محررة لخدمة الله في بيته وكان ذلك خاصاً بالرجال والتطهير قد فسر بعدم الحيض وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان في المعبد . وروي ان السيدة فاطمة الزهراء ما كانت تحيض وانها لذلك لقبت بالزهراء . وقال الجلال انه التطهير من مسيس الرجال واختار الاستاذ الامام حمله على ماهو أعم من هذا وذاك أي طهرك مما يستقبح كسفساف الأخلاق وذميم الصفات وغير ذلك . والاصطفاء الثاني ما اختصت به من خطاب الملائكة وكمال الهداية . وقال الاستاذ الامام هو جعلها تلد نبياً من غير أن يمسها رجل فهو على هذا اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل بل بالاعداد والتهيئة . وبحثوا هنا في قوله « على نساء العالمين » هل المراد به عالمو زمانها كما يقال أرسطو أعظم الفلاسفة ويفهم منه فلاسفة زمانه أو أمته أم جميع العالمين . وفي الأحاديث ان أفضل النساء مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ورضي عنهن

﴿ يامريم اقنتي لربك ﴾ أي الزمي طاعته مع الخضوع له ﴿ واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ السجود التطامن والتذلل، والركوع الانحناء ويستعمل في لازمه وسببه وهو التواضع والخشوع في العبادة أوغيرها . وركوعها مع الراكعين عبارة عن صلاتها مع المصلين في المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابه كما تقدم . وقد أطلق الركوع والسجود في صلاتنا على العمل المعلوم وهو استعمال للفظ في حقيقته ومجازه اذ الدين يطالبنا بالخشوع واستشعار التواضع في هذا الانحناء والتطامن ولم تكن صلاة اليهود كصلاتنا في أعمالها وصورتها ولكنهم طولبوا فيها بمثل ما طولبنا من

الخشوع والتذلل لله تعالى

﴿ ذلك ﴾ الذي قصصناه عليك يامحمد من اخبار مريم وزكريا ﴿ من أنباء الغيب ﴾ لم تشهده انت ولا أحد من قومك ولم تطلع على شيء منه في الكتاب وانما نحن ﴿ نوحيه اليك ﴾ بانزال الروح الامين الذي خاطب مريم وزكريا بما خاطبهما به على قلبك وإلقائه في روعك خبر ماقع بين بني اسرائيل في ذلك وغير ذلك . فضمير نوحيه راجع الى الغيب ﴿ وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ﴾ أي قداحهم المبرية فالسهام الازلام التي يضربون بها القرعة ويقامرون تسمى أقلاما ﴿ ايهم يكفل مريم ﴾ أي يستهمون بهذه الاقلام ويقترعون على كفالة مريم حتى قرعهم زكريا فكان كافلها ﴿ وما كنت لديهم اذ يختصمون ﴾ في ذلك ولم يتفقوا على كفالتها الا بعد القرعة

قال الاستاذ الامام: أعقب هذه القصة بهذه الآية الناطقة بأنها من أنباء الغيب وأخر خبر القاء الاقلام لكفالة مريم وذكره في سياق نفي حضور النبي صلى الله عليه وسلم مجلس القوم وشهود ما جرى منهم . ولا بد لهذه العناية من نكتة وقد قالوا في بيانها إن كونه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ أخبار القوم ولم يروها سماعا عن احد معلوم عند منكري نبوته فلم يبق له طريق العلم بها الا المشاهدة فنفاها تهكما بهم وبذلك تعين انه لم يبق له طريق لمعرفتها الا وحي الله تعالى اليه بها . وهذا الجواب منقوض وان اتفق عليه من نعرف من المفسرين وذلك ان القرآن نطق بأنهم قالوا (١٦: ١٠٣ انما يعلمه بشر) و (٢٥: ٥ قالوا اساطير الاولين اكتتبها) قال والصواب أن النكتة في النص على نفي حضور النبي القوم اذ يلقون أقلامهم أي بعد النص على كون القصة من أنباء الغيب هي أن هذه المسألة لم تكن معلومة عند أهل الكتاب فيكون للمنكرين شبهة على انه أخذها عنهم . أقول ويرد على هذا قوله تعالى في آخر قصة يوسف (١٢ : ١٠٢ ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) واذا كان بعض المجاحدين قد ادعوا انه يعلمه بشر فهذه الدعوى قد ردها القرآن بقوله (لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وورد انهم قالوا هذا اذ رأوه يقف على قين (حداد) رومي

بمكة وذلك القين لم يكن يحسن العربية وأن القين بمثل هذا العلم عرف العربية أم لم يعرفها . فالقرآن لا يعتد بتلك الشبهة إذ الأمي الناشىء بين الأميين لا يمكن ان يتلقى أخبار الأولين من حداد ولا من عالم كحبر أو راهب بمجرد وقوفه عليه أو اجتماعه به ولو أمكن ذلك عادة أو عقلا لما كان لعاقل ان يثق بحفظ ذلك القين أو غير القين و بأمانته في النقل ولا يختلف أحد من المنكرين لنبوته صلى الله عليه وسلم في كمال عقله وسمو ادراكه وفطنته . ولا شك في ان اتيانه في هذه القصص بما لا يعرفه أهل الكتاب مما يؤكد دفع تلك الشبهة الواهية ويدعم ذلك الاصل الراسخ وهو كونه صلى الله عليه وسلم أميا نشأ بين أميين لا علم لهم بأخبار الأنبياء مع أممهم كما قال في سورة هود بعد ذكر قصة نوح عليه السلام (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم بل كنا نعلمها . ومثل هذا قوله بعد ذكر قصة موسى وشعيب في سورة القصص (٢٨ : ٤٤ وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الأمر) الى آخر الآيات الثلاث

أما الجاحدون من أهل الكتاب لاسيما دعاة النصرانية في هذا الزمان فهم يقولون فيما وافق القرآن به كتبهم انه مأخوذ منها بدليل موافقته لها وفيما خالفها انه غير صحيح بدليل انه خالفها وفيما لم يوافقها ولم يخالفها به انه غير صحيح لانه لم يوجد عندنا وهذا منتهى ما يكابر به مناظر مناظرا وأبطل مايرد به خصم على خصم . ويقول المسلمون اننا نحتج على ان ماجاء به القرآن هو الحق بما قام من الادلة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم مع حفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ومن تلك الدلائل التي يشتمل عليها القرآن معرفة قصص الانبياء مع كونه أميا لم يتعلم شيئا كما تقدم فهي دليل على صحة نفسها وما جاء فيها مخالفا لما في الكتب السابقة نعده مصححا لما وقع فيها من الغلط والنسيان بانقطاع أسانيدها حتى أن أعظمها وأشهرها كالاسفار المنسوبة الى موسى عليه السلام لا يعرف كاتبها ولا زمن كتابتها ولا اللغة التي كتبت بها أولا . وقد تقدم الإلماع الى ذلك من قبل

(٤٥ : ٤٠) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٦ : ٤١) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٧ : ٤٢) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٨ : ٤٣) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩ : ٤٤) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠ : ٤٥) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *

قوله تعالى ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ شروع في خبر عيسى نفسه بعد قصة أمه وقصة زكريا عليهم السلام وهو بدل من قوله « واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك » وما بينهما اعتراض ناطق بحكمة نزول الآيات مبين وجه دلالتها على صدق من أنزلت عليه . والمعنى أن الملائكة بشرت مريم بالولد الصالح حين بشرتها باصطفاء الله إياها وتطهيره لها وأمرتها بمزيد عبادته والاستغراق في شكره ، والمراد بالملائكة هنا الروح جبريل لقوله تعالى في سورة مريم ١٩: ١٧ (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) الخ الآيات وذكر بلفظ الجمع لما تقدم في قصة زكريا أولا نه كان

معه غيره . وفي لفظ (كلمة) أربعة وجوه (أحدها) ان المراد بالكلمة كلمة التكوين لا كلمة الوحي . ذلك انه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن الباري عز وجل مما يعلو عقول البشر عبر عنه سبحانه بقوله (٣٦ : ٨٢ إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فكلمة «كن» هي كلمة التكوين وسيأتي تفسيرها . وههنا يقال ان كل شيء قد خلق بكلمة التكوين فلماذا خص المسيح باطلاق الكلمة عليه واجيب عن ذلك بأن الاشياء تنسب في العادة والعرف العام في البشر الى أسبابها ولما فقد في تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سببا للعلوق وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البيوض التي يتكون منها الجنين أضيف هذا التكوين الى كلمة الله وأطلقت الكلمة على المكون ايذانا بذلك . أو جعل كأنه نفس الكلمة مبالغة . وهذا هو الوجه المشهور

(الوجه الثاني) انه أطلق على المسيح للاشارة الى بشارة الأنبياء به فهو قد عرف بكلمة الله أي بوحيه لانبيائه . قاله الاستاذ الامام والكلمة تطلق على الكلام كقوله (٣٧ : ١٧١ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) الخ

(الوجه الثالث) انه اطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد ايضاحه لكلام الله الذي حرفه قومه اليهود حتى اخرجوه عن وجهه وجعلوا الدين ماديا محضا . قاله الرازي وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بظل الله ونور الله لما انه سبب لظهور ظل العدل ونور الاحسان قال فكذلك كان عيسى سببا لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته له وازالة الشبهات والتحريفات عنه

(الوجه الرابع) ان المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمه فقوله بكلمة منه معناه بخبر من عنده او بشارة وهو كقول القائل ألقى الي فلان كلمة سرني بها بمعنى أخبرني خبرا فرحت به قاله ابن جرير واستشهد له بقوله (وكلمته ألقاها الى مريم) يعني بشرى الله مريم بعيسى ألقاها اليها قال فتأويل القول وما كنت يا محمد عند القوم اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك ببشرى من عنده هي ولد لك اسمه المسيح عيسى بن مريم ثم قال مستدلا على هذا ما نصه : ولذلك قال عز وجل اسمه المسيح فذكر ولم يقل اسمها فيؤنث والكلمة مؤنثة لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم

الذي هو بمعنى فلان . وإنما هي بمعنى البشارة فذكرت كنايتها كما تذكر كناية الذرية والدابة والألقاب الخ ما أطال به في المسألة من جهة العربية

أما لفظ المسيح فمعرب وأصله العبراني مشيحا بالمعجمة ومعناه الممسوح وهو لقب الملك عندهم لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى الملك بالدهن المقدس وهم يعبرون عن تولية الملك بالمسح وعن الملك بالمسيح وقد اشتهر ان أنبياءهم بشروهم بمسيح يظهر فيهم وأنهم كانوا يعتقدون أنه ملك يعيد اليهم ما فقدوا من السلطان في الأرض فلما ظهر عيسى عليه السلام وسمي بالمسيح آمن به قوم وقالوا انه هو الذي بشر به الأنبياء ولا يزال سائر اليهود يعتقدون ان البشارة لما يأت تأويلها وأنه لا بد ان يظهر فيهم ملك . وقد بين الاستاذ الامام معنى صدق لفظ المسيح على عيسى عليه السلام بحسب عرفهم فقال : ان الناس إنما يولون الملك عليهم لأجل تقرير العدل فيهم ورفع أثقال الظلم عنهم وقد فعل المسيح ذلك فان اليهود كانوا عند بعثه فيهم متمسكين بظواهر ألفاظ الكتاب وخاضعين لأفهام الكتبة والفريسيين واوهامهم حتى أرهقهم ذلك عسرا وتركهم يئنون من الظلم وأثقال التكاليف فرفع المسيح ذلك عنهم بارجاعهم الى مقاصد الدين وحملهم على الاخوة الرافعة للظلم . أقول وقد نقلوا عنه ما يفيد هذا المعنى وهو أن مملكته روحانية لا جسدية . وقد لاح لي عند الكتابة أن قوله تعالى «اسمه المسيح عيسى» يراد به ان لفظ المسيح هنا أجري مجرى العلم لا مجرى الوصف والعلم المشتق لا يشترط فيه ان يكون مسماه متصفا بالمعنى الذي يدل عليه اذا استعمل وصفا فاذا وضعت لفظ «علي» علما على رجل يصير مدلوله شخص ذلك الرجل سواء كان ذا علو ام لا واذا سميت ابنتك «ملكة» لم يكن لأحد أن يفسر اللفظ بالمعنى الذي وضع له اللفظ قبل العلمية . وقد يجوز ان يلمح المعنى الذي ينقل لفظه الى العلمية أحيانا . وقد ذكر المفسرون بضعة وجوه لتفسير لفظ المسيح بناء على انه مشتق من المسح ولا حاجة الى ذكر شيء منها

واما لفظ عيسى فهو معرب يشوع بقلب الحروف بعد جعل المعجمة مهملة وهذا يكثر في المنقول من العبرانية الى العربية فبين المسيح وموسى شين في

العبرانية وكذلك سين شمس فهي عندهم بمعجمتين وانما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها إعلاما لها بأنه ينسب اليها لانه ليس له أب ولذلك قالت بعد البشارة « رب انى يكون لي ولد » الخ

وقوله تعالى في وصفه ﴿ وجيها فى الدنيا والآخرة ﴾ معناه أنه يكون ذا وجاهة وكرامة في الدارين فالوجيه ذو الجاه والوجاهة والمادة مأخوذة من الوجه حتى قالوا ان لفظ الجاه اصله وجه فنقلت الواو الى موضع العين فقلبت ألفا ثم اشتقوا منه فقالوا جاه فلان يجوه كما قالوا وجه يوجه وذو الجاه يسمى وجها كما يسمى وجيها ويقال ان لفلان وجها عند السلطان كما يقال ان له جاها ووجاهة وكأن الأصل فى الوجيه من يعظم ويحترم عند المواجهة لما له من المكانة فى النفوس وقال الامام الغزالي: الجاه ملك القلوب . قال الاستاذ الامام: إن كون المسيح ذا جاه ومكانة في الآخرة ظاهر واما وجاهته فى الدنيا فهي قد تكون موضع اشكال لما عرف من امتهان اليهود له ومطاردتهم اياه على فقره وضعف عصبيته والجواب عن ذلك سهل وهو ان الوجيه فى الحقيقة من كانت له مكانة فى القلوب، واحترام ثابت في النفوس، ولا يكون أحد كذلك حتى يكون له أثر حقيقي ثابت من شأنه أن يدوم بعده زمنا طويلا أو غير طويل ولا ينكر أحد ان منزلة المسيح في نفوس المؤمنين به كانت عظيمة جدا وان ماجاء به من الاصلاح هو من الحق الثابت وقد بقي أثره بعده فهذه الوجاهة اعلى وأرفع من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون فى الظاهر لظلمهم واتقاء شرهم او لدهانهم والتزلف اليهم رجاء الانتفاع بشيء مما في أيديهم من عرض الحياة الدنيا لأن هذه وجاهة صورية لا أثر لها فى النفوس إلا الكراهة والبغض والانتقاص وتلك وجاهة حقيقية مستحوذة على القلوب. وحقيقة الوجاهة فى الآخرة هي ان يكون الوجيه في مكان عليّ ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها فيجلونه ويعلمون انه مقرب من الله تعالى ولا يمكننا ان نحددها ونعرف بماذا تكون . قال قائل فى الدرس: ان هذه الوجاهة تكون بالشفاعة: فقال الاستاذ الامام: ان الآية لم تبين ذلك على انكم تقولون ان هذه الشفاعة عامة لكل نبي وعالم وصالح فما هي مزية المسيح إذن ؟ ولما كانت الوجاهة

متعلقة بالناس وما يعود من مطارح انظارهم على شعور قلوبهم وخطرات أفكارهم قال تعالى فيه ﴿ ومن المقربين ﴾ أي هو مع ذلك من عباد الله المقربين اليه عز وجل فما ينعكس عن انظار الناظرين اليه هناك الى مرايا قلوبهم حقيقي في نفسه

﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلا ﴾ قال الاستاذ الامام: الجملة معطوفة على ماقبلها ولا يضر عطف الفعل على الاسم، والكهل الرجل التامّ السوي من غير تقييد بسن معينة والكلام فى المهد يصدق بما يكون في سن الكلام وهي سنة فأكثر وما يكون قبل ذلك وهو آية على كل تقدير لأن تعديته الى الناس تفيد انه يكلمهم كلام التفاهم وكلام الاطفال فى المهد لا يكون كذلك عادة . وفي قوله « وكهلا » بشارة بأنه يعيش الى ان يكون رجلا سويا كاملا ﴿ ومن الصالحين ﴾ الذين أنعم الله عليهم وأصلح حالهم وهم الانبياء الذين تعرف مريم سيرتهم

﴿ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾ أي كيف يكون لي ولد والحال انني لم أتزوج فالمس كناية ظاهرة والاستفهام على حقيقته في وجه، ومعناه هل يكون ذلك بزواج يطرأ أم بمحض القدرة ؟ وفى وجه آخر للتعجب من قدرة الله والاستعظام لشأنه ﴿ قال كذلك الله يخلق مايشاء ﴾ أي كمثل هذا الخلق البديع يخلق الله مايشاء ، فان من شأنه الاختراع والابداع ، أقول وعبر هنا بالخلق وفي بشارة زكريا بيحيى بالفعل وكل منهما خلق وفعل لكن لفظ الفعل يستعمل كثيرا فيما يجري على قانون الاسباب المعروفة ولفظ الخلق يستعمل فى الابداع والايجاد ولو بغير مايعرف من الاسباب فيقال خلق السموات والأرض ولا يقال فعل السموات والأرض ولما كان إيجاد يحيى بين زوجين كإيجاد سائر الناس عبر عنه بالفعل وان كان فيه آية لزكريا لأن هذين الزوجين لا يولد لمثلهما عادة واما ايجاد عيسى فهو على غير المعهود فى التوالد لأنه من أم غير زوج فى الظاهر فكان بالامور المبتدأة بمحض القدرة اشبه ، والتعبير عنه بالخلق أليق ، وان كان له سبب روحاني جعل أمه بمعنى الزوج كما سيأتي ولكن هذا السبب غير معهود للناس ولا معروف لهم فمريم لا تعرفه ولكنها كانت مؤمنة بالله موقنة بقدرته على كل شيء ولذلك أحالها فى البشارة على مشيئته لتكون موقنة فقال ﴿ اذا قضى أمرا ﴾

أي اذا أراد شيئاً كما عبر في آية أخرى فالقضاء بمعنى الارادة ﴿ فانما يقول له كن فيكون ﴾ قالوا ان هذا ورد مورد التمثيل لكمال قدرته ونفوذ مشيئته والتصوير لسرعة حصول ما يريد بغير ريث ولا تأخر بتشبيه حدوث ما يريده عند تعلق ارادته به حالا بطاعة المأمور القادر على العمل للآمر المطاع . ويسمون لأمر بكن أمر التكوين ومنه قوله تعالى (٤١ : ١١ ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) أي أراد ان يكونا فكانتا ويقابله أمر التكليف الذي يعرف بوحي الله لأنبيائه وقد مر الالماع لهذا من قبل

وأقول: اعلم ان الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جموداً على العادات ، وذهولا عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات ، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين ولكن لا دليل لهم الا أن هذا غير معتاد وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتادا من قبل فمنه ما يعرفون له سببا ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع ومنه مالا يعرفون له سببا ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة ونحن معاشر المؤمنين نقول إن تلك الاشياء المعبر عنها بالفلتات اما ان يكون لها سبب خفي وحينئذ يجب أن تهدي هؤلاء الجامدين الى أن بعض الاشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الاسباب المعروفة فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال ان يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه ولا ينزل أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك . واما ان تكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الاسباب وحينئذ يجب بأن يعرفوا بأن الاسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوباً عقلياً مطردا واذا كان الأمر كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ويعده مستحيلا لانه لا يعرف له سبباً . ولعل أبناء العصور السابقة كانوا أقرب الى ان يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر الذي ظهر فيه من أعمال الناس مالو حدث به عقلاء الغابرين لعدوه من خرافات الدجالين ، ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على امكان التولد الذاتي أي تولد الحيوان من غير حيوان أو من الجماد وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا الى ذلك بتجاربهم . واذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزا فتولد الحيوان

من حيوان واحد اولى بالجواز وأقرب الى الحصول . نعم انه خلاف الاصل وان كونه جائزا لا يقتضي وقوعه بالفعل ونحن نستدل على وقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه

ويمكن تقريب هذه الآية الآلهية من السنن المعروفة في نظام الكائنات بوجهين (أحدهما) أن الاعتقاد القوي الذي يستولي على القلب ويستحوذ على المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من الآثار مايكون على خلاف المعتاد فكم من سليم اعتقد انه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضاً ، وكم من امرىء سقي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقداً انه سم ناقع فمات مسموماً به ، والحوادث في هذا الباب كثيرة اثبتتها التجارب واذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول إن مريم لما بشرت بأن الله تعالى سيهب لها ولدا بمحض قدرته وهي على ماهي عليه من صحة الايمان وقوة اليقين انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالا فعل في الرحم فعل التلقيح كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت وفي مزاج المريض فيبرأ وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة أخرى متمماً لهذا التأثير

(الوجه الثاني) وهو أقرب الى الحق ، وان كان أخفى وأدق ، وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الاشباح . وهي ان المخلوقات قسمان أجسام كثيفة ، وأرواح لطيفة ، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة والتوالد الذي يكون من النمو أو يكون النمو منه فلولا الهواء لما عاشت هذه الاحياء والهواء روح ولذلك كان من أسمائه اذا تحرك الريح وأصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه والماء الذي منه كل شيء حي مركب من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطاً بين الكثيف واللطيف ولكنه أقرب الى الثاني . والكهربائية من الارواح وناهيك بفعلها في الاشباح . فهذه الموجودات اللطيفة التي سميناها أرواحا هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون حتى اننا قد رأينا في هذا العصر من اسرارها ما لم يكن يخطر على بال أحد من قدماء فلاسفتنا ، ويعتقد علماؤنا اليوم ان ما سيظهر منها

في المستقبل أجل وأعظم فاذا كان الامر كذلك في الارواح التي لادليل عندنا على أنها تدرك وتريد فلم لا يجوز ان يكون تأثير الارواح العاقلة المريدة أعظم!!

اذا تمهد هذا فنقول: ان الله المسخر للأرواح المبثة في الكائنات قد أرسل روحا من عنده الى مريم فتمثل لها بشرا ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت اليها تلك النفخة مادة أم لا؟ الله أعلم. أما البحث في تمثل هذه الأرواح التي تسمى بلسان الشرع الملائكة فسيأتي الكلام عليه في تفسير قوله تعالى (١٩: ١٧ فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) اذا أنسأ الله لنا في الاجل ووفقنا للمضي في هذا العمل (التفسير) والاستاذ الامام لم يتعرض لهذا البحث

﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ﴾ قرأ نافع وعاصم (ويعلمه) بالياء والباقون (ونعلمه) بالنون. والكتاب هنا الكتابة بالخط والحكمة العلم الصحيح الذي يبعث الارادة الى العمل النافع ويقف بالعامل على الصراط المستقيم لما فيه من البصيرة وفقه الاحكام وأسرار المسائل والتوراة كتاب موسى فقد كان المسيح عالما به يبين اسراره لقومه ويقيم عليهم الحجج بنصوصه والانجيل هو ما أوحي اليه نفسه وقد تقدم في تفسير — أول السورة الكلام فيهما . والكلام معطوف على قوله « ويكلم الناس » وآية « قالت رب » معترضة بينهما ﴿ ورسولا الى بني إسرائيل ﴾ أي ويرسله أو يجعله (بالياء أو النون) رسولا الى بني إسرائيل . فحذف لفظ يرسله أو يجعله لدلالة الكلام عليه كما قال الشاعر

ورأيت زوجك في الوغا متقلدا سيفا ورمحا

وقال الاستاذ الامام: ان الرسول هنا بمعنى الرسالة والتقدير ويعلمه الرسالة الى بني اسرائيل واستعمال لفظ الرسول بمعنى الرسالة شائع قال كثير

لقد كذب الواشون مابحت عندهم بسرّ ولا أرسلتهم برسول

وفي رواية « برسيل » قال وبعض المفسرين يجعل الرسول بمعنى الناطق أي ناطقا الى بني إسرائيل ﴿ أني قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ أقول والمعنى على التقدير الاول انه يرسله محتجا على صدق رسالته بأني قد جئتكم بآية من ربكم وفسر الآية

بقوله ﴿ أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ﴾ قال الاستاذ الامام: الخلق التقدير والترتيب لا الانشاء والاختراع ويقرب ان يكون هذا إجماعاً من المفسرين وفسره الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير

أقول وذكر الجلال كغيره انه كان يتخذ من الطين صورة خفاش فينفخ فيها فتحلها الحياة وتتحرك في يده، وقال بعضهم بل تطير قليلا ثم تسقط. قال الاستاذ الامام: ولا حاجة الى هذه التفصيلات بل نقف عند لفظ الآية وغاية مايفهم منها ان الله تعالى جعل فيه هذا السرّ ولكن لم يقل انه خلق بالفعل ولم يرد عن المعصوم ان شيئاً من ذلك وقع، وقد جرت سنة الله تعالى ان تجري الآيات على أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها وجعل الايمان موقوفا عليها فان كانوا سألوه شيئا من ذلك فقد جاء به وكذلك يقال في قوله ﴿ وأبرىء الاكمه والابرص واحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ﴾ فان قصارى ماتدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر بأن يحتج به والحكمة في إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك إقامة الحجة على منكري نبوته كما تقدم وأما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل فهو يتوقف على نقل يحتج به في مثل ذلك.

هذا ماقاله الاستاذ الامام ومن الغريب ان ابن جرير يروي عن ابن اسحق « ان عيسى صلوات الله عليه جلس يوما مع غلمان من الكتاب فأخذ طينا ثم قال اجعل لكم من هذا الطين طائرا، قالوا وتستطيع ذلك؟ قال نعم باذن ربي ثم هيأه حتى اذا جعله في هيئة الطائر فنفخ فيه ثم قال كن طائرا باذن الله فخرج يطير بين كفيه » فكأنه اتخذ آية الله على رسالته ألعوبة للصبيان والحاصل انه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصارى الذين يتناقلون وقوع سائر الآيات المذكورة في الآية الا في انجيل الصبا من نحو ما قال ابن اسحق وهو من الاناجيل غير القانونية عندهم . ولعل آية سورة المائدة أدنى الى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهي (واذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني، واذ تبرىء الاكمه

والابرص باذني ، واذ تخرج الموتى باذني ، واذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات) فان جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه الا ان يقال ان جعل هذه الآيات مما يجري على يديه عند طلبه منه والحاجة الى تحديه به من أجل النعم وأعظمها ولكن هذا خلاف الظاهر

ومذهب الصوفية ان روحانية عيسى كانت غالبة على جثمانيته أكثر من سائر الروحانيين لأن أمه حملت به من الروح الذي تمثل لها بشرا سويا فكان تجرده من المادة الكثيفة لتصرف بسلطان الروح من قبيل الملكة الراسخة فيه وبذلك كان اذا نفخ من روحه في صورة رطبة من الطين تحلها الحياة حتى تهتز وتتحرك واذا توجه بروحانيته الى روح فارقت جسدها أمكنه ان يستحضرها ويعيد اتصالها ببدنها زمنا ما ، ولكن روحانية البشر لا تصل الى درجة احياء من مات فصار رميما . ويؤيد ذلك ما ينقله النصارى من إحياء المسيح للموتى فانهم قالوا إنه أحيا بنتا قبل أن تدفن وأحيا اليعازر قبل ان يبلى ولم ينقل انه احيا ميتا كان رميما . وأما ابراء الاكمه والأبرص بالقوة الروحانية فهو أقرب الى مايعهد الناس لاسيما مع اعتقاد المريض ويقول مجاهد ان الاكمه من لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار والمشهور انه من ولد أعمى . وأما الاخبار ببعض المغيبات فقد أوتيه كثيرون من الانبياء وممن دون الانبياء (ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) أي ان فيما ذكر لحجة لكم على صدق رسالتي ان كنتم مؤمنين بالله مصدقين بقدرته الكاملة ، ومن مباحث اللفظ ان قوله فانفخ فيه يعود الى الطير أو الى ما ذكر

(ومصدقا لما بين يدي من التوراة) أي انه لم يأت ناسخا للتوراة بل مصدقا لها عاملا بها ولكنه نسخ بعض أحكامها كما قال (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) فقد كان حرم على بني اسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكثرة سؤالهم فأحلها عيسى (وجئتكم بآية من ربكم) قال الاستاذ الامام : اعاد ذكر الآية المتفرقة بين ما قبلها وما بعدها فاتقوا (الله وأطيعون ، إن الله ربي وربكم فاعبدوه) أمرهم بتقوى الله وطاعته فيما جاء به عنه وختم ذلك بالتوحيد والاعتراف بالعبودية وقال في ذلك (هذا صراط مستقيم) أقرب موصل الى الله

تاريخ المصاحف

هذا ما وعدنا بنشره مما كتبه صاحبنا موسى افندي جار الله الروسي قال

قال العلماء أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك الذي خلق — خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » ولم ينزل بعده شيء الى ثلاث سنوات (وتسمى هذه السنوات زمن فترة الوحي) ثم أخذ القرآن ينزل في تضاعيف عشرين سنة (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا — الاسراء — كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا — الفرقان) فمنه ما نزل مفرقا وهو غالب القرآن ومنه ما نزل جملة كالفاتحة والاخلاص والكوثر وأغلب الانعام . وكلما نزل عليه صلى الله عليه وسلم آية أو سورة وسري عنه كان يقرئ الصحابة ما نزل ويستحفظهم فيحفظونه على الفور عن ظهر قلب ويعتنون بذلك تمام الاعتناء لان الحفظ الحرفي في عصر الرسالة وزمن النزول كان من اعظم العبادات وأقرب القرب وكانوا اذا حفظوا آية من النبي عليه السلام يترددون عليه غير مرة ويتلونها امامه حتى يزداد تثبتهم من حفظها واداءها ويسألونه هل حفظت كما أنزلت حتى يقرهم عليها وبعد إتقان الحفظ والتثبت في تمام الضبط أخذ كل واحد منهم ينشر ما حفظ : كانوا يعلمونه للاولاد والصبيان وللذين لم يشهدوا النزول ساعة الوحي من أهل مكة والمدينة ومن حولهم من الناس فلا يمضي يوم أو يومان الا وما نزل محفوظ في صدور جماعة غير محصورين وقد عين جماعة عظيمة من الصحابة على حفظ القرآن واقرائه وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة قبل الهجرة جماعة من حفظة الصحابة يعلمون القرآن لاهل المدينة واولادها وكان الرجل اذا هاجر الى المدينة دفعه النبي عليه السلام الى رجل من أولئك الحفظة يعلمه القرآن ، ولما فتح مكة ترك فيها معاذ بن جبل لذلك وكان من أكابر الصحابة — وهم ألوف — من يعتني بتعرف فقه القرآن ومعانيه واتقانه حفظا وكتابة . كانوا لا يأكلون نهارهم ولا ينامون ليلهم باهتمامهم واشتغالهم بضبط الآيات وحروفها ووجوهها وكان بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم صيحة وزجل بتلاوة القرآن وكان النبي يسمع الى الملأ منهم ويحمد الله على ان جعل في أمته أمثالهم

ويمثل هذا الاهتمام التام لاتقان القرآن في صدر الاسلام حفظه ألوف من

الصحابة في تضاعيف عشرين سنة

وحيث ان القرآن كان ينزل مفرقا منجما ويحفظه الذين يعتنون به على مهل ومكث في تضاعيف سنوات كثيرة وذلك أعون في الحفظ وايسر للذكر ، وأكثر من حفظه كان شرع في حفظه من صباه ، وزد عليه ما كان للنبي عليه السلام المعصوم من نسيان القرآن من كال الاعتناء والاهتمام بالترغيب في حفظه والامر بتعاهده — فكل من تأمل أدنى تأمل يتبين ويقطع ان القرآن قد حفظ في الصدور بتمام الاتقان. وارسخ الحفظ واتم الضبط وكامل البيان ، وقد نطقت الاحاديث ودلت الآثار على ان النبي عليه السلام كان يوقف أصحابه على ترتيب آيات السور ويعلمهم مواضعها من السورة نصا ، وكان يقرأ السورة في الصلوات وغيرها ويسمعونه فيعرفون من ذلك ترتيب الآيات فالصحابة ضبطت عنه عليه السلام ترتيب آي كل سورة ومواضعها كما ضبطت عنه نفس الآيات وتلاوتها. وكان السور مرتبة لحديث أحمد وأبي داود في تحزيب القرآن وحديث واثلة في اعطاء السبع الطوال والمئين والمثاني بدل الكتب الثلاثة السماوية التفضيل بالحواميم والمفصل ، والاحاديث تدل على ان النبي عليه السلام كان يختم القرآن وان الصحابة كانوا يختمون عنده عدة ختمات وكل ذلك يدل دلالة واضحة على ان القرآن كان محفوظا في صدور ألوف من الصحابة مجموعا مرتبا على ترتيب معلوم عند كل واحد منهم . قال معاذ عرضنا القرآن على النبي عليه السلام فلم يعب منا أحدا

وكان للنبي عليه السلام كتبة يكتبون فورا كل ما نزل اليه على الصحائف والقراطيس من الرقوق والاوراق غالبا ، وعلى الالواح وعسب النخل احيانا . كان النبي عليه السلام يملي عليهم مباشرة يقول ان هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في سورة كذا . وكان كتابة ما نزل من القرآن ملتزمة منهم حتى زمن الاختفاء في أوائل الاسلام اذ كان المسلمون يتدارسون القرآن من الصحائف في البيوت ، وكان المشركون يدعون الدراسة اذ ذاك الهينمة (١) من شواهده حديث عمر قبل اسلامه مع أخته وختنه

وكانت العرب تكتب كل شيء نفيس أو مهم عندهم كالاشعار الفصيحة والخطب البليغة . من شواهد ذلك القصائد المعلقة والصحيفة التي أكلتها الارضة . وكان كثير من الصحابة لهم علم بالقلم وكان أنس بن مالك يقول هذه أحاديث سمعتها من

(١) المنار: ما كانوا يسمون كل قراءة هينمة بل القراءة الخفية والهينمة الصوت الخفي

رسول الله وكتبتها وعرضتها ، وكثير من هؤلاء كانوا يكتبون في الصحائف كل آية حفظوها ويعرضونها على النبي عليه السلام ، وعين من هؤلاء جماعة على كتابة الوحي كانوا متمكنين من الكتابة باللسان العربي كل التمكن كعلي وعثمان وعمرو وزيد بن ثابت وابن مسعود وأنس بن مالك وعبدالله بن سلام وغيرهم

فكان النبي يملي عليهم مباشرة فيكتبون ما نزل بحضرته ويعرضونه عليه مرة بعد أخرى حتى يقرهم . بهذه الكيفية كتب القرآن من أوله الى آخره في حياة الرسول على صحائف وقراطيس متفرقة . وكانت هذه الصحائف والقراطيس أغلى عندهم من أنفسهم ، وأنفس من كل نفيس وأحب اليهم من كل حبيب جليس . يدل عليه احاديث رويناها في تنافسهم في حفظ هذه الصحائف والقراطيس وفي حبهم التبرك بها احيانا في المجالس

وكل ما ذكرته عن شأن حفظ القرآن في الصدور وما أجلته بعد ذلك في كيفية جمعه في الصحائف واثبته في السطور يدل دلالة قطعية باهرة على أن القرآن زمن النبي عليه السلام كان مجموعا مرتبا على ترتيب معلوم ، محفوظا في الصدور ، مكتوبا على ترتيب الحفظ في السطور ، والاحاديث متضافرة متساعدة في ذلك

ولان اهمال الحفظ والكتابة والترتيب من النبي ومن ألوف مؤلفة من الصحابة الذين يتيقنون ان السبب في عزهم وسعادتهم هو القرآن ، وانه هو أساس دينهم وشريعتهم ، وانه هو الذي يقربهم الى الله عز وجل والذين كانوا يبذلون جميع ما يستطيعون وما يتصوره العقل في سبيل حفظه كما انزل مصونا عن ادنى شائبة الاهمال من مثل هؤلاء — شيء محال لاريب فيه .

ثم توفي رسول الله يوم أكمل الله لنا ديننا ورضي لنا الاسلام دينا والاسلام قد ظهر في جميع جزيرة العرب وفيها مدن وقرى كثيرة كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلي طي وبلاد مضر وربيعة وقضاعة والطائف ومكة كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة اعراب الا وقد قرىء فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والنساء وكتب . ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون كذلك ليس بينهم اختلاف في شيء أصلا كلهم أمة واحدة ودين واحد ومقالة واحدة ثم تولى الامر أبو بكر سنتين وستة أشهر فغزا فارس والروم وفتح اليمامة وزادت قراءة الناس القرآن وجمع الناس المصاحف جماً مبتدأ كأبي وعمر وعثمان وعلي وزيد وابن

زيد وابن مسعود وسالم. ولم يكن بين المسلمين اختلاف في شيء زمن خلافته ' وما كان من ظهور الاسود العنسي في صنعاء ومسيلمة باليمامة وانقسام العرب أربعة أقسام: طائفة ثابتة على الطاعة ' وطائفة مانعة للزكاة ' وطائفة معلنة بالردة ، وطائفة متوقفة متربصة لمن تكون الغلبة · فقد اخرج اليهم أبو بكر البعوث ' وجهز اليهم عصابة من المسلمين فقتل الاسود ومسيلمة ولم يمض عام واحد حتى راجع الجميع الاسلام ' فلم تكن هذه الفتن الا كنار اشتعلت فانطفأت للساعة · فبعد أن سكنت هذه الفتن احس عمر الفاروق بضرورة جمع القرآن في كتاب واحد على مشهد من جميع الصحابة وملأ من الحفظة والكتبة. ولما استقر رأي أبي بكر وعمر على ذلك احضرا زيد بن ثابت وابديا له ما عزماه · واستعظم زيد ذلك أولا واستسهل نقل الجبل شأن كل مقتدر على عظائم الامور 'يقدر الامر حق قدره 'محتاط عاقل لا يغفل عما يلزم عليه في القيام باعظم المصالح عن كمال الاقتدار وواجب الاحتياط وعظيم التثبت وبالغ الجد والاجتهاد ووفور السعي ، غير مغتر بما له من الخصال وان كان فردا مفردا فائقا على أقرانه وأهل عصره · ووافق أخيرا فعزم على ما عزما عليه · والانسان مهما بلغ في الاقتدار وعلو الهمة قد يكون اذا وقع عليه أمر عظيم وعزمه وتصوره من جميع وجوهه غير غافل عن وسائل تحصيله وأسباب الوصول اليه · يعتريه طبعاً نوع من التردد وشيء يشبه التوقف · لكنه لا يلبث فيزول ويمضي العازم على عزمه وجمع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بالضبط والاتقان · وكان أهمهم زيد وأبي بن كعب وعثمان وعلي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن السائب وخالد بن الوليد وطلحة وسعد وحذيفة وسالم وأبو هريرة والصامت وأبو زيد وأبو الدرداء وأبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص واجتمعوا برياسة زيد بن ثابت في منزل عمر ليتشاوروا في كيفية جمعه وتخصيص أعمال كل واحد منهم · ثم أخذوا يوالون اجتماعاتهم في مسجد المدينة لكتابة القرآن ·
وكلهم كانوا يحفظونه عن ظهر قلب وكانوا قد اعتنوا قبل بكتابته جملة مرار من ذاكرتهم ليتحققوا من ضبطهم له وحفظهم اياه وجاء من كان كتب مصحفا بمصحفه واحضروا كل الصحائف والقراطيس التي كتبوا فيها القرآن بحضرة النبي عليه السلام واملائه وعهدوا الى بلال ان ينادي بانحاء المدينة ان من كانت عنده قطعة عليها شيء من القرآن فليأت بها الى الجامع وليسلمها الى الكتبة المجتمعين لجمع القرآن على مشهد الصحابة · وجيء بعدد كثير من القطع ، وما كانوا يقبلون قطعة حتى يتحققوا انها

كتبت بين يدي النبي وحضره اذ كان غرضهم ان لا يكتب الامن عين ما كتب بين يديه وما كانوا يفعلون ذلك الا مبالغة في الاحتياط ومغالاة في التحفظ وإيغالا في الضبط. وكانوا يقابلون القطع بعضها ببعض لئلا يبقى مجال شك في تمام الضبط ·
وكتب القرآن زيد بن ثابت جميعه · قال زيد حتى وصلنا الى آية « لقد جاءكم » من سورة التوبة ففقدناها وفتشناها لنجدها مكتوبة ثم وجدناها مكتوبة عند أبي خزيمة ابن أوس بن زيد الانصاري · وقال زيد حتى وصلنا الى سورة الاحزاب ففقدت آية من سورة الاحزاب حين نسخت الصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها فالتمسناها لنجدها مكتوبة فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصاري «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» فالحقناها في سورتها في المصحف وتم جمعه · وجمع عمر جميع الحفظة والصحابة وقرأه عليهم · ولم يقم من أحد منهم اعتراض حين العرض · ولم يسمع ولم يظهر بعد أيضاً · وبعد اجماع أكابر الصحابة على هذا الترتيب في هذا المصحف لا يمكن ان يقال انهم رتبوا ترتيباً سمعوا النبي عليه السلام يقرأه على خلافه · واجماعهم على هذا الترتيب واقرارهم عليه بلا خلاف من أحد منهم أقوى برهان على أنهم وجدوا ما أفادهم علما لا يدع عندهم ريبا · فتقرر أمر القرآن تقريرا قطعيا في هذا المصحف · وكان ذلك أعظم فرض قام به سلفنا الصحابة واهم شيء حدث في الاسلام وأفضل منّ لهم علينا الى يوم القيام · وتوفى أبو بكر وهو أعظم الناس اجراً في المصاحف وتولى الامر بعده عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضاً وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبقيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الائمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقا وغربا · بقي كذلك عشرة أعوام وأشهرا والمسلمون لا اختلاف بينهم في شيء ملة واحدة ومقالة واحدة · والمسلمون اذ مات عمر وان لم يكن عندهم زيادة على مائة الف مصحف من مصر الى العراق الى الشام الى اليمن فما بين ذلك فلم يكن أقل من ذلك · لان الخليفة عمر الذي كان كاد يموت هما بامر المسلمين والذي حفر الخليج بعد عام الرمادة فساقه من النيل الى القلزم فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما اراد من الطعام لاهل المدينة ومكة وما بينهما ' خليفة هذا شأنه لم يكن ليترك بلدا فتحها ومدينة وقرية تولى أمرها بلا مصحف يقرأ فيه أهلها

« الكلام بقية »

باب المقالات

منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق (*)

١

سأل سائل بترعة السويس هل كانت نافعة للمسلمين أو الشرقيين أم ضارة بهم فاجاب غير واحد بأنها كانت مثار المضار، ومركان الاخطار، لولاها لما جاس الاوربيون خلال هذه الديار، ولما تمكنت سلطتهم في كثير من الاقطار، وأجاب واحد ممن حضر بانها كانت نافعة اكثر مما كانت ضارة اذ لولاها لكان أهل الهند والافغان كأهل مراكش في جهلهم وغفلتهم وجفوتهم للمدنية وفنونها التي وصلت اليها في هذا العصر بل ولكانت مصر التي تزهو بعمرانها الآن خراباً يؤدي ذكران البوم العشرات من قراها مهوراً لاناثها على الطريقة التي كانت متبعة عند البوم في الزواج على عهد اسماعيل باشا . ناهيك باليابان وما صارت اليه، وبالصين وما تشرف عليه،

يسهل على غير الخبير المحقق في طبيعة الاجتماع، العارف حقيقة حال الهند والافغان ومراكش ومصر، ان يماري في القول مراء ظاهراً أو غير ظاهر، وان يستفتي امثاله : أليس الفرق عظيما بين الهند التي كانت زاهية على عهد السلطنة التيمورية، بالمعارف والصنائع الوطنية، مستغنية بنفسها عن أوربا وسائر العالم وبين مراكش التي كانت ولا تزال تغلب عليها البداوة بجهالتها وغباوتها وعصيانها لكل نظام ؟ أليس كل ماينسب الى الافغانيين من الفضل هو تجافيهم عن المدنية الاوربية ومنع الاوربيين ان يساكنوهم

*) كتبنا هذه المقالة « الجريدة » ونشرت فيها

في بلادهم أو يتجروا فيها آمنين ولولا ذلك لضاع استقلالها وكانت ولاية من ولايات الهند ؟ ألم تأخذ مصر بأسباب المدنية الاوربية من عهد محمد علي باشا وهي على استقلالها ؟ ألم تدخل في أول ولاية محمد توفيق باشا في طور جديد من اصلاح خابت به آمال طلاب الزواج من البوم بالقرى والمزارع التي آلت الى الخراب ؟ كل هذا يقال في الاستفتاء ويقال اكثر منه ويكون نص الفتوى عن كل سؤال: بلى! وهي كلمة يكتفي بمثلها مشايخ الاسلام في الاستانة اذ يجيبون بكلمة « اولور » في مقام الايجاب وبكلمة « اولماز » في مقام السلب، وبعد ذلك يأتي الحكم على الاوربيين كافة بانهم ما جاؤا الشرق بخير ما ولا منفعة بل جاؤه بشرور ومضار اعظمها ازالة استقلاله وأي خير أو نفع يوزن بسلب الاستقلال حتى تصح المقابلة بين منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق ؟

هذا هو الحكم الذي يرمي قاضيه عن قوس عقيدة الجماهير والجماهير في الشرق جاهلون بالسياسة راغبون عنها ويقل في المشتغلين منهم بها والباحثين عنها من يحيط بأطراف مسائلها، ويعرف المطالب ببراهينها ودلائلها، ولولا ان هؤلاء العارفين قليلون فينا لما كنا نشكو مرض الامة الذي يعبرون عنه بلفظ التأخر والانحطاط . وهؤلاء العارفون القليلون لا يرضون بهذا الحكم وانهم لأعلم من غيرهم بقيمة الاستقلال الذي عبث به الاوربيون وبانه لا يوزن به شيء ولكنهم يعطون كل شيء حقه ثم يوازنون بين الاشياء لا يمنعهم من ذلك ان يكون في احدى كفتي الميزان ما يرجح بكل ما يوضع في الاخرى . على هذه الطريقة القويمة نسير في بيان منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق بعد تمهيد مقدمات

تعين على فهم مرادنا من المقابلة وهي

انا نريد بالمنافع كل ما يزيل شيئاً من شقاء الامة أو يزيد في سعادتها فيدخل فيها أمور الصحة ولا سيما مطاردة الاوبئة ، وأمور المعاش والكسب ولاسيما ترقية الزراعة وتأسيس الشركات المالية ، ويدخل فيها العلم والتربية والآداب وأمور الاجتماع وتدبير المنزل والعلم بالادارة والسياسة وأصول النظام وغير ذلك مما ينقل الامة من طور أدنى الى طور أرقى

(٢) اننا نريد بالمضارّ ما يقابل المنافع بجميع وجوهها التي أومأنا اليها آنفا وهو كل ما تصير به الامة الى حال شر مما كانت عليه في أفرادها وبيوتها وهيئتها العامة سواء كان ذلك من جهة البدن كالمعاش والصحة أو من جهة النفس كالعلوم و لاخلاق والآداب وان شئت فقل كما يقول كتاب العصر من الجهة المادية والجهة الادبية ويدخل في الجهة الادبية الدين

(٣) انا نريد بالاوربيين كل ما يتناوله اللفظ لا الحاكمون منهم خاصة

(٤) ان المقابلة التي نوازن بها بين المنافع والمضار إضافية أي اننا ننسب حال الامة بعد اختلاطها بالقوم الى حالها قبله لا الى ما ينبغي ان تكون عليه من الكمال ولا الى ما عليه الامم الاوربية في أنفسها ولا الى ما تهوى عامتنا أو خاصتنا أن نكون عليه

(٥) ان الكلام في المقابلة لا يتناول نيات القوم ومقاصدهم فينا وانما هو خاص بالاثر الطبيعي لدخولهم في البلاد سواء جاء على وفق ما يقصدون أو على ضده

(٦) ان الغرض من بيان المنافع التنويه بها والتنبيه الى الاستزادة

منها ، ومن بيان المضار تقبيحها والتنفير عنها ، ووراء ذلك تلبية نداء التاريخ بتخليد هذه الحقيقة في ألواح الصحف سالمة من نزعات تعصب الجاهلية، محفوظة من نزغات الاهواء السياسية ، لان مدونها يحبها لذاتها ولا يخاف في تقريرها لومة لائم ويحب ان يكون المسلمون وسائر أهل الشرق على هدى وبصيرة فيما يأخذون وفيما يتركون

(٧) انه لا يفقه هذا الموضوع حق الفقه الا من كان عارفاً تاريخ الشرق حق المعرفة خبيراً باخلاق الناس فيه وعاداتهم وطبائع الامم واحوال الاجتماع وشؤون السياسة ونحن لا نكتب هذه المقارنة والموازنة لمثل هذا العالم الاجتماعي النحرير وانما نكتبها للجمهور الذي لا يعرف من حال نفسه وحال من يعيش معهم الا ظواهر غرارة لا تنفذ بصيرته الى شيء مما وراءها وان كان يوجد في افراده من يظن انه أحاط بما هنالك علما ، وقتله فقهاً وفهما .

من مسائل علم الاجتماع ان الافراد والامم المؤلفة منها تقتبس ممن يخالطها ويجاورها ما يناسب استعدادها. فالافغانيون لما كانوا أهل حرب وأولي قوة وبأس اقتبسوا من الاوربيين النظام العسكري وما يتبعه من الاستعداد للحرب والكفاح ، والسوريون لما عرف من استعدادهم القديم للتجارة كان أول شيء استفادوه من الاوربيين فنون التجارة وطرقها الجديدة حتى بذوهم في ذلك فقد كان معظم تجارة سوريا الكلية ببيروت في ايدي الاجانب فغلبهم عليها من كانوا يخدمونهم من الاهالي حتى لم يبق لهم منها الا اقلها ، والمصريون وهم أهل حرث وزرع قد استفادوا منهم في ترقية زراعتهم ما سبقوا به جميع الزراع في المشرق . وكذلك يكون اقتباس

المضار على حسب الاستعداد فلابد من تدبير هذه القاعدة الاجتماعية فيما نذكر من المقابلة والموازنة في الفصول الآتية

٢

نبتدئ بذكر المنافع والفوائد التي استفدناها بمخالطة الاوربيين والاتصال بهم وفي اقتباس علومهم ومعرفة أحوالهم وشؤونهم فنعد منها مايسبق الى الذهن انه الاهم ونختار فى سردها معدودة لفظ الفوائد فنقول

(الفائدة الاولى استقلال الفكر)

رأيت في يد أحد طلاب العلم جريدة جديدة وكنت تلميذاً في فرقته ورأيته يغمطها ويدعي انه يقدر على انشاء جريدة خير منها فقلت له انني لاأدعي مثل هذه الدعوى فان كنت واثقاً مما تقول فا كتب لي مقالة في موضوع اجتماعي أو سياسي مما تبحث في مثله الجرائد . قال اقترح قلت اكتب لي مقالة في الاستقلال فسكت ولم يرجع الي قولا ولا كتب شيئاً

عزمت على ان أكتب شيئاً في استقلال الفكر ولم افرغ له الا بعد ثماني ساعات لم تخطر في بالي فيها تلك الواقعة ولكن كانت أول ماسبق من الذهن الى القلم عند الكتابة وما أثبتها عبثاً ولا فكاهة بل أردت أن أنبه القارىء الى جلال الموضوع الذي لاازال أجله من ذلك اليوم عسى ان يهبه من انتباهه مايليق به لاسيما اذا كان يحب الاستقلال لنفسه ولامته

يكثر في الجرائد ذكر استقلال الامم والشعوب وقلما تذكر شيئاً في استقلال الافراد الذي هو اصل استقلال الجماعات الكبيرة التي تسمى امماً وشعوبا

استقلال الآحاد نوعان استقلال الفكر واستقلال الارادة وهذان

النوعان هما الجناحان للانسان يطير بهما الى الكمال في العلم والعمل ويكون حظه من النجاح على قدر حظه من قوتهما وحسن استعمالهما

استقلال الفكر يكون ببلوغ العقل اشده وارتقائه الى مستوى رشده فان العقل القاصر هو الذي يتبع مذهب التقليد في كل مايلقى اليه كما نرى من الاطفال ومن هم في حكم الاطفال من الرجال . فالمستقل في فكره هو الذي يستعمل عقله في البحث عن الحق والصواب في معارفه والتمييز بين النافع والضار من مصالحه أو مصالح امته عند مايبحث فيها فلا يقبل من هذا ولا ذاك قول من هو مثله الا اذا ظهر له انه الحق والصواب

ان الذي لا يعرف الحق والصواب بالنظر والاستدلال لا يعد عالماً ولا سياسياً بل لا يعد عاقلا لان مايحفظه من اقوال الناس في الكتب والجرائد أو في البيوت والمحافل لا يرفعه الى مرتبة العقلاء الذين يميزون بين الاقوال بالدليل العقلي فان الاولاد المميزين يحفظون الاقوال مثله ولا يعدون من العقلاء الا اذا أريد بالعاقل من ليس مجنوناً يجب ان يساق الى البيمارستان أو مستشفى المجاذيب فان هذا الاصطلاح يسمح لنا ان نطلق لقب العاقل على الإمّعة الذي لا رأي له وانما يتابع كل واحد على رأيه لاسيما اذا لم يكن متهما عنده بعداوته له لسبب من اسباب التهم

استقلال الفكر طبيعي في البشر كما ان ضده وهو التقليد طبيعي فيهم فأما التقليد فهو طبيعي في الراشدين ولولا ذلك لما ارتقوا في علم ولا عمل ولسار جميعهم على ما كان عليه أول واحد منهم فكانوا كالبهائم متساوين في علمهم وعملهم « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

لو ترك الناس وفطرتهم لأعطوا طور القصور حقه وطور الرشد حقه

ولكان معظم الأفراد الذين بلغوا أشدهم مستقلين في أفكارهم مستدلين على آرائهم ولكانت أعمالهم على حسب افكارهم لاستقلال ارادتهم المعبر عنه بالحرية الشخصية في عرف هذا العصر ولكن الرؤساء المسيطرين قد تصرفوا في الفطرة تصرفاً ذهب بالاستقلال الذي لايتفق مع الاستبداد . ولذلك ترى أهل البداوة أقرب الى الاستقلال من أهل الحضارة المحكومين بسلطة استبدادية

الحضارة كمال بشري وآفته الاستبداد، الذي يحول دون ماتقتضيه الحضارة من كمال الافراد ، لعبثه باستقلالهم وسيطرته عليهم في علومهم وأعمالهم ،

التعليم في البلاد التي تساس بالاستبداد يكون مبنياً على التقليد بطبع الحكومة لان الذين يعرفون الحقائق لايرضون أن يتحكم في مجموعهم واحد منهم ارادته حكم وهواه شريعة وقانون ، فاستقلال الافكار حرب لحكم الاستبداد وكثيراً ما كانت هذه الحرب سجالاً والعاقبة للمستقلين.

الشرق اعرق في التقليد من الغرب فهو اعرق في الاستبداد ايضاً وقد ظهر الاسلام في الشرق وهو يرسف كالغرب في قيود التقليد ويئط من وزر الاستبداد الثقيل فكسر القيود ووضع الاوزار ولكن عاد الاستبداد الى المسلمين بعد اقل من نصف قرن فكان كلما قوي يقوى التقليد ويضعف الاستقلال حتى زال من مجموع الامة وصار الافراد المستقلون فيها كالغرباء لاولي لهم ولا نصير

قاست أوربا من بلاء الاستبداد أكثر مما قاست ممالك الشرق وحلكت ظلمات التقليد فيها أكثر مما حلكت في غيرها ولكن ماعتمت ان ضاء لها قبس من علوم عرب الاندلس وغيرهم فوجد فيها من عرف

قيمته، وانضى في استعماله عزيمته ، حتى صار ضياء ساطعا ، ونوراً في تلك الآفاق لامعاً ، وجاءت ساعة المشرق ، بطلوع الشمس من المغرب ،

جاهدت أوربا أفضل الجهاد في سبيل استقلال الفكر والارادة حتى ظفرت باعدائها من رجال الدين، والملوك المستبدين ، وجعلت كلمة الدليل هي العليا ، وكلمة التقليد هي السفلى ، فجمعت بين عزة البداوة ، ومحاسن الحضارة ، فارتقت فيها العلوم والاعمال ، الى درجة لم تعهد في جيل من الاجيال ، من حيث رجع الشرق القهقرى « وغداً يقدمه الزمان الى ورا »

ما كان العلم ليدع الجهل على ماهو عليه حتى يحكم فيه حكمه ، ويوقع على أهله عدله أو ظلمه ، اندفعت أوربا الى الشرق مستعمرة للارض، أوداعية الى الدين ، اوطالبة للكسب، فامتزج أهلها بأهله ، ووصلوا حبلها بحبله، بما أنشأوا من المدارس، وماتقلدوا من الاعمال والوظائف ، فطفق أهل الشرق يتعلمون على الطريقة الاوربية طريقة البحث والاستدلال والاستنباط والاستنتاج، وانشأوا يستنشقون نسيم الاستقلال، ويتوجهون الى طلب الكمال ،

فهذه فائدة كبرى قد استفدناها من الاوربيين ينبغي أن نشكرها لهم ونحمد لاجلها معرفتهم . وليس للمسلم ان ينكر ذلك محتجاً بأن القرآن الحكيم قد أرشد الى هدم التقليد وقام على اساس الاستقلال في الاستدلال فان هذا وان كان حقاً يعترف به المنصف من علماء أوربا لم يكن هو المنبه في هذا العصر للشرق عامة وللمسلمين خاصة ودليلنا على هذا ان رجال الدين منا لا يزالون فى الاكثر اسرى التقليد واعداء الاستقلال ، فيجب ان ننصف من انفسنا ، ونشكر لمن نبهنا الى مصلحتنا ،

الجامعة الاسلامية

تكلم اللورد كرومر في تقريره الاخير عن الجامعة الاسلامية كلاما يؤيد الذين أظهروا يقظة المسلمين في غير شكلها فرأينا ان ننشر ما كتبه الاستاذ الامام عن ذلك في رده الثاني على موسيو هانوتو وهو لم ينشر في الرسائل المتداولة ناقلين ذلك عن الجزء الثاني من تاريخه قال رحمه الله

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية

أؤكد لمسيو هانوتو ان هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله ان يشير الى هذه الدعوة فضلا عن أن يبني عليها حكما وان ما علق بالاوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ثم انعكاس ذلك في اذهان سياسيي المغرب وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها

واني أعرض الحقيقة كما هي لا يغشاها ستار من تمويه، ولا غطاء من تلبيس، وأرجو ان يكون في هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين وما يرد أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه (١) الى رشدهم حتى يتقوا الله في أنفسهم وأهل بلادهم ولا يتخذ بعضهم من السلم حرباً ولا من السكون شغباً

لا أنكر أن طائفا من الدين طاف في هذه السنين الاخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الارض وان نسمة من نفس الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم، وأثارت هممهم، الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين، وفيما صاروا اليه، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل

(١) يعني بالجريدة الاهرام وكان صاحبها نشر فيها حديثا دار بينه وبين هانوتو بعد الرد الأول عليه وما ننشره هنا هو من الرد على هذا الحديث

لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون، ولا كلام لنا في هذر المقلدين، وانما كلامنا فيما يرمي اليه غرض أولئك الناظرين

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل انسانيا وسطا بين ذلك أخذ من كل من القبيلين بنصيب فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ولذلك سمى نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الاولى التي يرقى فيها البرابرة الى سلم المدنية . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله و يأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ونبه خاملا، وأثار الى العمل كسلا، وأقدر عليه وكلا، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا، ورأب منصدعا، وأصلح مختلا، ومحا ظلما، وأقام عدلا ، وجدد شرعا، ومكن للامم التي دخلت فيه نظاما، امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص وألفة في البيت ونظاما للملك . وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم ولم يفت العلم حظ من عنايته بل كان قائده في جميع وجوه سيره . فان شاء قائل ان يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت لم يسعه أن ينكر انه أوجب عليهم السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية وأوجب عليهم ان يحسنوا فيه وأباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملكة وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لو ان سخلة بوادي الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » و يقول خليفته الرابع « أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ؟ » أي خشونته يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الاغنياء في الاحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهمازا للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال، وتقويم الافكار وعاطفا يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم الارض سادة لها

وقادة لسكانها وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى ما رضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته؟ أيدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقده سائغا في دينه وان كان فيه ملك الارض أو ملكوت السموات بعد ما شهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ماشهد؟ لاعجب في ذلك فانه نتيجة ضرورية ينساق اليها الامر بنفسه بحكم سنة الله في خلقه

وأسفا !! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه اما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه، وتغير في مداركه طبعه، وتبدلت في فهمه حقيقته، وانطمست في نظره طريقته، وحق فيه قول علي كرم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا »

لا أبحث اليوم في الاسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ماذكرت ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ماليس منه، وتسرب في عقائده من حيث لايشعر مالا يتصل بأصلها بل مايهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع في العقائد والاعمال، وحلت محل الاعتقاد الصحيح، وأخذت مكان الشرع القويم، وظهرت آثارها في أعماله، وعم شؤمها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أولم يصح فالقرآن يؤيد معناه، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي، وكانا سواء في علم مايجب عليهما من فرائض الاسلام، وخصال الايمان، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده حتى لم يبق باب من أبواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة ومايسمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم فظن الرجل ان غاية مايفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها اما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له

ببال الا القليل النادر اما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمال الصالحات فهو مع انه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمة، ولا تنصرف نحوه ارادة، اللهم الا من أشخاص قلائل منثورين في أطراف الارض لا ترقى بهم أمة، ولا تسمو بهم كلمة اما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين

الاول من يظن انه وارث علوم الدين والقائم بحفظها وقد قل افراده في معظم البلاد الاسلامية ولم يبق منه الا رسوم لا يكاد يدركها نظر الناظر والمشتغلون منهم في بعض البلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكي منهم وقليل ماهو ان ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينه منه ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث ويزعمون ان الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ومن رأي هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم أن يأمروا بمعروف ولا ان ينهوا عن منكر وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ وللكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين مالا حاجة الى عده ولا يخفى ان ما يحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له ادنى أثر في صلاح الامة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيؤه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال اوسافل وافراد هذا الفريق ان كثيروا أو قلوا يحصلون مبادي العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ثم يحصل كل واحد مابه ينال المنصب الذي يعده له والده على أن مايحصل اما لفظ يحفظ أو خيال يخزن والمدار على الوصول إلى ورقة الشهادة ومن هؤلاء من يذهبون الى أوروبا لاستكمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها وحصر همه على العمل فيها ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها فاذا مل الانتظار أو نقضي زمن العمل وجدته

في قهوة أوملهى يسرف في أوقاته ويفسد في أدوائه والصالحون منهم وقليل ماهم لايهمهم شأن العامة شقيت أوسعدت هلكت أوقامت فاي أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الامة وأستثني منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم يرجى ان ينمو عددهم وتجنى الامم ثمار أعمالهم . هذا شأن الرجال مع العلم

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أودنياهن بستار لايدرى متى يرفع ولا يخطر بالبال ان يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم وما يحافظن عليه من الفقه فانما هو بحكم العادة وحارس الحياء وقليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام وحشو اذهانهن الخرافات وملاك احاديثهن الترهات اللهم الا قليلا منهن لايستغرق الدقيقة عدهن وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعدها الجنة ويمنيها السعادة

اخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل وقعد عن العمل ووكل الامر الى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن انه بذلك يرضي ربه ويوافي رغائب دينه

اخطأ المسلم في فهم ما ورد في دينه من ان المسلمين خير الامم وان العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم وان رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه فان أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتي به الغيب بدون ان يتخذ وسيلة لدفع الطاريء أو ينهض الى عمل لتلافي ما عرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل، مخالفا في ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لاوامرهم فالقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف في شؤونه ثم أدبر عنه حتى ظن ان الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون ان يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه ومن رأى حزن الآباء اذا طلب ابناؤهم لاداء الخدمة العسكرية وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها حكم بان مايعقله أكثر المسلمين من معني الحكومة لا يمكن انطباقه علي شيء من أوليات العقل وعرف ان ثقتهم

بالحاكم قد بلغت الى حد التأليه من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من أحد وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلي عنه من حيث انهم تركوه وشأنه لايساعدونه في حادث ، ولا يعينونه في أمر مهم، اللهم الااذا ارغموا على ذلك ومن ذا الذى يحسن عملا اذا ألجيء اليه بالرغم عنه ومن هنا انصرف المسلم عن النظر فى الأمور العامة جملة وضعف شعوره بحسنها وقبيحها اللهم الا مايمس شخصه منها

اما الحكام وقد كانوا اقدر الناس على انتياش الامة مما سقطت فيه فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الاعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الابدان لاهوائهم واذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الاموال لانفاقها في ارضاء شهواتهم لايرعون في ذلك عدلا، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة،حتي افسدوا اخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي مافشت في أمة الاحل بها العذاب

هذا كله الى ماحدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد، وطرق متخالفة في السلوك، واراء متناقضة في الشرائع، وتقليد أعمى في جميع ذلك، فتفرقت المشارب، وتوزعت المنازع، وعظم سلطان الهوى على ارباب النزعات المختلفة، كل يجذب الى نفسه، لاينظر الى حق، ولا يفزع من باطل، وانما همه ان يظفر بخصمه وذلك الخصم هو ما يدعوه أخاله في الاسلام في معرض التشدق بالكلام

وزد على ذلك وهذا اكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم وهي بدعة اليأس من انفسهم ودينهم وظنهم ان فساد العامة لادواء له وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له وانه لايمر عليهم يوم الا والثاني شر منه : مرض سرى في نفوسهم، وعلة تمكنت من قلوبهم، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار أوخطائهم في فهم ماصح منها وتلك علة من أشد العلل فتكا بالارواح والعقول وكفى في شناعتها قوله جل شأنه « انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون »

تبع هذه البدع جميعها واخري يطول ذكرها هزال في الهمم، وضعضعة في

العزائم، وفساد في الاعمال، يبتدئ من البيت وينتهي الى الامة ويمر في كل طبقة ويجول في كل دائرة خصوصا من دوائر الحكومات وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الاعمى "فانما عرض على اقوام في بعض البلاد الاسلامية تبعا لهذه البدع الضالة على انني لا اسلم أنهم بلغوا فيه ادنى درجاته في الامم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب

هـذا ما أصاب المسلمين فى عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم فى فهم أصوله، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله، لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها وينزل بهم من عقوبة الكفران مالا قبل لهم بدفعه الا اذا تداركهم الله بلطفه وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في اواسط القرن الماضي من سني الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم في مصر وكل منهم بحث فى الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ولعلهم يلتقون يوما من الأيام عند الغاية ان شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ويمكن ان يقال ان الغرض الذي يرمي اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد وازالة ماطرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البـدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الافراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم الى الامة فاذا سمعت داعيا يدعو الى العلم بالدين فهـذا مقصده، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا غرضه، أو صائحا ينكر ماعليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته، وهـذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لامندوحة عنها، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه ان يجد

من عماله أحدا، واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ولاهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا إلمام لهم به فلم العدول عنه الى غيره !!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين سواء في مصر أو غيرها ان يثير فتنة على الاوربيين أو غيرهم من الامم المجاورة للمسلمين غير ان بعض المسيحيين اذا سمع قولا في الدين أعرض عن فهمه، وأنشأ لنفسه غولا من خياله، يخاف منه ويخشى غائلته، يسميه باسم الدين. وبعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون الى شؤونهم، ورجعوا الى الأخذ بالصحيح من دينهم، لاعتصموا بجامعتهم، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه فانه بظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر، وسالب متلصص، وسوء ظن بالمسلمين أيضا فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال وغاية الامر أن ماكان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لا ينال الا بحق والاجنبي الذي كان ينفق الواحـد ويربح المئة يرجع الى الاعتدال في الكسب، ويحتاج الى شيء من التعب في استدرار الربح، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها، والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها وهي في أرفع مقام من عزتها

نعم يعرض في طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر بسوريا أو بالهند أو بالعجم أو بافغانستان أو بغير هذه الأقطار لان مرض الجميع واحد وهو البدعة في الدين، فاذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر أما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم فلم يمر بعقل أحـد منهم ولو دعا اليه داع لـكان أجدر به ان يرسل الى مستشفى المجانين

يكتب بعض أرباب الاقلام من المسلمين في حكمة الحج ويقول انه صلة بين المسلمين في جميع اقطار الارض ومن أفضـل الوسائل للتعاون بينهم فعليهم

ان يستفيدوا منه وهو كلام حق لكن لا ينبغي أن يفهم على غير وجهه فان الغرض منه ان يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء وهو أمر معهود عند جميع الامم التي تدين بدين واحد خصوصا عند الاوربيين

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له وهذا أمر لا ينبغي ان يدهش أحدا فان هذه الدولة هي أكبر دول الاسلام اليوم وسلطانها أفخم سلاطينهم ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم وهو أقدر الناس على اصلاح شؤونهم وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد وتهذيب الاخلاق بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية فأي شيء في هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول موسيو هانوتو

**

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه موسيو هانوتو ان أوربا لم تتقدم الا بعد ان فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية وهو كلام صحيح ولكنه لم يدر ما معنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا على الأمم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ويضع لها القوانين الالهية وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقاً للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم ان أمكن وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاماً لطريقة الحكم وعدد الحاكمين وملهم وسمحت بأن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي

تحت رعايتها وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك في الدين فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب مسيو هانوتو ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين بل كان الأمر معكوساً فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم والمغالاة فى وضع المغارم والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال

ان فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك فى الشرق وملكة انكلترا تلقب بملكة البروتستانت وأمبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معا فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد ان يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين

لا أظن ان مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها في البلاد الاسلامية الفرنساوية اذا وجد فيها من يقوم بها وانا أضمن له بعد ذلك ان تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين فان المسلمين اذا تهذبت اخلاقهم بالدين سابقوا الاوربيين في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله

٣

« سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها وعدم ثقة سياسيهم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية وعدم اطمئنانهم الى سياسية الدول المسيحية حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى ان لا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم » سمع بذلك كله موسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة ومن بعض العثمانيين في الاستانه وباريس ثم أخذ يبرهن على أن سياسة اوربا اقتصادية ملكية لا دينية لاهوتية

لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيو هانوتو ومن أبلغه اخبارهم أم الهنود وهم فى حكم دولة أجنبية ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماسهم الحق من طرقه

هل هم مسلمو الروسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد حتى ان الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الارثوذكسي

هل هم الافغانيون واخلاص اميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من أن يذكر ولا ينفي اخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها

هل هم الفرس واستنامتهم الى السياسة الروسية لا يجهلها أحد ؟

هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعا شغل بعضهم ببعض فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه

هل هم التونسيون وقد أثنى عليهم موسيو هانوتو بما هم أهله وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنساوية لمجرد ما اطلقت لهم الحرية في دينهم

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله انا لا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الاقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ولكل من الفريقين اصدقاء وأحبة في الفريق الآخر ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم في دينهم أوفي منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الاعمى ولا نطلب على ذلك شاهدا اقرب من صاحب الجريدة الذي يحادثه موسيو هانوتو إنه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية وبعد ان أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعي في خيرهم كما افتخر بذلك مرارا في جريدته وان كانت له اليهم هنات لا تزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحي عثماني ؟؟ هل حرم أحد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لانه مسيحي عثماني ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد

أما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه، أووصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه، بل ازيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها ان يتولى تحقيق مظلمته انكليزي كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهم وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمي فأي دليل على الثقة أكبر من هذا

ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ومن له بينهم اصدقاء يركن اليهم ويعتد بولائهم وموسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان ذلك

كثيرا ما أغرى الاوربيون من فرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية وفروا ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الاجنبية وأحرقوا كبدوالديه ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون في مدارس الجزويت وكثير من أبناء الاعيان في مدارس الفرير فأي ائتمان يفوق هذا الائتمان

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين خصوصا في المعاملات حتى أساء أولئك الاوربيون استعمالها وانتهزوا فرصتها وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ما كان بأيديهم ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ويغالون في الاستنامة اليهم ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم فماذا يطلب من الثقة فوق هذا !!

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالاجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص أوغش من صدق أو كذب من أمانة أوخيانة من قناعة أوطمع حتى آل الامر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال فهل هذا هو فقد الثقة بالاوربيين والعثمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها أيده الله وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في ادارتها ومحاكمها في كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون

على نسبة عددهم أوفوق ذلك وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع فى الدولة ما لم ينله مسلم وسفارات الدولة ومناصبها العالية لاتخلو من المسيحيين .

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته والاحسان اليه برقيق المخاطبة لاينقطع ذكره من الجرائد ، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بمالا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أدناه منه وقبله في مجلسه وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين أثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها فماهي الثقة ان كان هذا فقدها ؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهي دولة مسيحية ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية وكانت للدولة ثقة لاتتزعزع بالسياسة الانكليزية ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ثم انا نراها اليوم تتراجع وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوربية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم وانما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الاوربية

امبراطور المانيا جاء الى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان في الاحتفال به الى الحد الذي اشتهر وبهر . يجيء الامراء المسيحيون من الاوربيين الى الاستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان ان يكتفي بالرسميات ولا يزيد

عليها ولكن عهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا ان سياسة أوربا ليست بدينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها

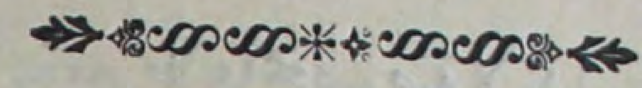
فان قال قائل : ان حوادث الارمن لم تزل في ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها الى التعصب الديني بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب : أمكن ان يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لاتدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ومع ذلك فان كثيرا من الارمن في خدمة الدولة الى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من ان منشأ تلك الوقائع التعصب الديني فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية انعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بانفسنا ولو أنصف الاوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمنا بعد زمن في تلك الاقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربا لافي آسيا

لايغش علي أن أقول ان المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون ان يساووهم فيه فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لايليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل مارواه فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعاً واني اعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسيهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع مايقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لاحقيقة له الا في ذهن القائل أو الكاتب فلا ينبغي ان يعول على مثله في أحكامه وعليه ان يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه ان يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم وقوله فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ماسبق الى فهمه : لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ماهو صحيح أوغير صحيح ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد وبين رداءة أثرها في المسلمين واستل سلاحه على عقيدة القدر وبين سوء ماجرت اليه فيهم وهو بذلك

يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين ماداموا مسلمين وهو مالا يرضاه أحد منهم لومال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشوءونهم وغفلتهم عن مصلحتهم كما جاء في حديثه الذي نحن بصدده لما وجد من المسلمين إلا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام



﴿ قول اللورد كرومر في الجامعة الاسلامية والشريعة ﴾

(مأخوذ من ترجمة ادارة المقطم لتقريره الاخير عن سنة ١٩٠٦)

اذا قلنا ان الحركة الوطنية المصرية الحالية ليست الاحركة الى الجامعة الاسلامية لم يطابق قولنا الواقع من كل وجه ولكن لا ريب في كون هذه الحركة مصبوغة صبغا شديدا بصبغة الجامعة الاسلامية . وهذا الامر كان معلوما عندي منذ زمان طويل وقد علمه كثيرون من الاوربيين الآن كما يظهر مما يرد في الجرائد المحلية ولكن علمهم به ابطأ كثيرا . ويسهل علي ايراد كثير من الشواهد والادلة على صحة هذا القول اذا اقتضى الامر ايرادها (١) ولكن أقول الآن ان الحوادث التي حدثت في الصيف الماضي انما كشفت عنصرا جديدا من عناصر الحالة المصرية . لانه ولو سلم الانسان بما لا ريب في صحته وهو ان الدين أعظم قوة محركة في الشرق (٢) وان الشرقيين لا تحلو لهم حكومة كالحكومة الثيوقراطية (٣)

(١) اشير هنا الى كتاب ورد عليّ في الربيع خاليا من الامضاء ونشر في ورقة من الاوراق التي عرضت على البرلمان فقد ارتاب بعضهم في صحته ولكن لا ريب عندي في ذلك على الاطلاق وقد استغربت شدة اهتمام الناس بامره وخصوصا في بلاد الانكليز فإني ما ارسلته الى لندن الا على سبيل المثال لافكار ومعان ألفتها منذ زمان طويل ولم يبق عندي ريب فى وجودها ولكنه مفرغ في عبارات ابلغ من المعتادة (٢) أقصد بالشرق البلاد الشرقية التي لي معرفة بها لا الصين واليابان (٣) ابراد بالحكومة الثيوقراطية الحكومة التي يعتقد اتباعها ان الله هو الحاكم الأصلي فيها وان سننها وشرائعها هي اوامره ومناهيه لا سنن البشر وشرائعهم وان العلماء ورجال الدين هم خدمة الله ومأموروه فيها (المترجم)

فقد كان يجوز له مع ذلك ان ينتظر ان تذكر المصريين لما أصابهم في الماضي واعتبارهم لتقدم بلادهم في الثروة واليسر في الحال تقدما عظيما جدا بالنسبة الى ما جاورها من الولايات العثمانية يحولان دون نمو الجامعة الاسلامية في بلادهم اكثر مما حالا في الظاهر وانما قلت « في الظاهر » لاني رغما عن كل الظواهر لا ازال غير مقتنع بأن الميل الى الجامعة الاسلامية متأصل كثيرا في الهيئة الاجتماعية المصرية بل اني واثق انه لو كان المصريون يعتقدون امكان اخراج الآراء المتعلقة بتلك الجامعة من القوة الى الفعل لانقلب الرأي العام عليها انقلابا عظيما سريعا

ومهما يكن من ذلك فقد اتضح ان الجامعة الاسلامية عنصر من عناصر الحالة المصرية التي يجب حفظها في البال فلذلك يحسن بنا فهم المقصود منها

المقصود من الجامعة الاسلامية بوجه الاجمال اجتماع المسلمين في العالم كله على تحدي قوات الدول المسيحية ومقاومتها فاذا نظر اليها من هذا الوجه وجب على كل الامم الاوربية التي لها مصالح سياسية في الشرق ان تراقب هذه الحركة مراقبة دقيقة لانها يمكن ان تؤدي إلى حوادث متفرقة فتضرم فيها نيران التعصب الديني في جهات مختلفة من العالم . وقد أوشكت هذه النيران ان تضطرم بمصر في الربيع الماضي . على اني ارى قوما يقولون ان القلق الذي جرت الاشارة إليه في مجلس النواب في الصيف الماضي كان وهميا فانا لا اوافقهم على هذا القول مطلقا لان طبع الطبقات الدنيا من اهل مصر ولا سيما سكان المدن متقلب كثيرا . فهاجوا من قراءة المقالات التي كانت تصدر في الجرائد الاسلامية طافحة بالاغراء والكذب هيجانا شديدا دفعة واحدة وسكنوا دفعة واحدة كذلك عند ما زيدت عساكر جيش الاحتلال ولطفت الجرائد الاسلامية لهجتها بتشديد العقلاء من أهل بلادها النكير عليها . ولكن لا ريب عندي ان البلاد كانت عرضة لخطر حقيقي برهة من الزمن فقد جاءتني اخبار وتقارير عديدة عن تهديد المسيحيين والاوربيين . ثم ان الاخبار الغامضة المبهمة التي تشيع قبل حدوث الفتن والقلاقل في الشرق عادة شاعت شيوعا يستحق الاعتبار حتى تولى الرعب الاوربيين الساكنين في القطر فجعلوا يتقاطرون من القرى الى المدن ولم يعترهم هذا الرعب لغير سبب معقول فقد شرحت في تقريري عن

سنة ١٩٠٥ (وجه ١٧ ــ ١٩) ما جرى في الاسكندرية اواخر سنة ١٩٠٥ حين افضى وقوع الخصام اتفاقا بين رجلين يونانيين الى شغب عظيم لم يلبث ان انقلب هيجانا على المسيحيين . فلو اتفق حدوث حادثة من هذا القبيل في ابان الهيجان الذي حصل بسبب حادثة الحدود بين تركيا ومصر — وحدوثها لم يكن امرا بعيدا — لامكن بل لترجح انها كانت تفضي الى عواقب وخيمة

اما ما يقوله قوم آخرون من ان ذلك القلق أتى عن سياسة الحكومتين البريطانية والمصرية في أمور مصر الداخلية فخال من كل أثر للصحة لان القلق كله وليس بعضه فقط نتج عن تصديق خلق كثير من الاهالي الذين كانوا تحت تأثير الجامعة الاسلامية لما كان يقال لهم من ان ما كان يجري حينئذ انما كان يقصد به التعدي على رأس الديانة الاسلامية

ولنعد الى ما كنا عليه فاقول : اني ان كنت لا أصدق أن الجامعة الاسلامية تنتج غير اضطرام نيران التعصب في امكنة متفرقة كما سبقت اليه الاشارة فذلك اولا لاني لا اصدق ان المسلمين يتحدون معا و يتعاونون متى خرجت المسألة عن القول الى الفعل ، وثانياً لاني واثق بقوة اوربا واقتدارها عند الاقتضاء على تلافي هذه الحركة من الجهة المادية وإن تكن غير قادرة على ذلك من الجهة الروحية

والجامعة الاسلامية أيضاً عبارة عن معان أخرى غير معناها الاصلي ولكنها لاتخلو من علاقة به . وهذه المعاني اهم بالنظر الى ما نحن فيه من المعنى الاعم الذي سبقت الاشارة اليه

فمنها أولاً في مصر الخضوع للسلطان وترويج مقاصده وهذا المعنى يدل على دخول عنصر جديد في حالة مصر السياسية . فقد كانت الحركة الوطنية المصرية دائرة على مضادة الترك الى عهد قريب اذ الثورة العرابية كانت في الاصل على تركيا والترك . اما الآن فيبلغني ان زعماء الحركة الوطنية يقولون انهم لا يقصدون توثيق عرى الاتحاد بين تركيا ومصر وانما يقصدون حفظ سيادة السلطان على مصر . ولكن قولهم هذا يختلف عما كانوا يقولونه منذ عهد قريب جدا اختلافا جليا بحيث لا يتمالك الانسان عن الظن بان قولهم الآخر انما خطر على بالهم بعد ما علموا

انهم اذا وسعوا نطاق العلائق التركية ابعدوا عنهم اميالا يتمنون قربها منهم ودوامها معهم . ولكن ليس من الانصاف تقييد الحزب الوطني جملة باقوال يلقيها افراد قليلون غير مسؤولين على عواهنها . فاذا سلمنا بأن القول الاخير هو رأي الحزب الوطني الصحيح فعندي عليه ان سيادة السلطان على مصر لم ينازع فيها قط على ما اعلم ولا يحتمل ان يصيبها شيء ما دام كل ذوي الشأن في الفرمان — الذي هو اتفاق بين فريقين كما لا يخفى — لا يفعلون شيئاً خارجاً عن دائرة حقوقهم . فحادثة سينا انما بلغت ما بلغت من الاهمية وعظم الشأن لما خيف من خرق حرمة الفرمان وما يتصل به من المستندات الرسمية المحسوبة جزأ منه على وجه يعود بالضرر على القطر المصري

وثانياً ان الجامعة الاسلامية تستلزم بالضرورة تهييج الاحقاد الجنسية والدينية الا في ما ندر . فلا شك في ان كثيرين من أنصارها ينصرونها عن حرارة دينية حقيقية وآخرين يودون لو امكنهم ان يفرقوا بين القضايا السياسية والدينية وبينها وبين الجنسية أيضاً اما لأن مبالاتهم بالدين قد قلت حتى أوشكوا ان يحكوا اللاادرين أو لكون اغراضهم سياسية أو لكونهم يقصدون تحين الفرص للانتفاع بها أو لكونهم اتبعوا الآراء الحديثة عن وجوب التسامح في الدين كما هو مأمول . ولكن متى كانت هذه رغبتهم ومقاصدهم فلا شك عندي انهم يعجزون عن تنفيذها لانهم ان لم يقنعوا عامة المسلمين بافعالهم انهم من المسلمين المجاهدين لم يستطيعوا ان يحولوا انتباههم اليهم ولا ان يكتسبوا ميلهم أيضاً . فالضرورة تقضي عليهم بتهييج الاحقاد الجنسية أو الدينية اما ظاهراً أو خفية ليرقوا بيانهم السياسي

وثالثاً ان الجامعة الاسلامية تستلزم تقريباً السعي في اصلاح أمر الاسلام على النهج الاسلامي وبعبارة أخرى السعي في القرن العشرين في اعادة مبادئ وضعت منذ ألف سنة (١) هدى لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة . وهذه المبادئ منها ما يجيز الرق ومنها ما يتضمن سنناً وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لآراء أهل هذا العصر ومنها ما يتضمن أمراً أهم من ذلك كله وهو افراغ القوانين

(١) المنار : اشتهر أن العبارة بالانكليزية « منذ أكثر من ألف سنة »

المدنية والجنائية والملية في قالب واحد لا يقبل تغييرا ولا تحويرا وهذا ما وقف تقدم البلدان التي دان أهلها بدين الاسلام

فلهذه الاسباب و بقطع النظر عن كل الاعتبارات السياسية لا يجد المهتمون باصلاح مصر بدا من استنكار الدعوة الى الجامعة الاسلامية . ويجب أيضاً بذل أقصى العناية في السهر على كل ميل طبيعي جائز الى الجامعة الوطنية لكيلا تجتذبه على غير انتباه من صاحبه هذه الحركة — حركة الجامعة الاسلامية — التي هي من أعظم الحركات المتقهقرة فلا تستحق ان يميل أحد اليها . لانه قد يعسر على الانسان ان يميز شبح الجامعة الاسلامية اذا تجلبب بجلباب الجامعة الوطنية اه كلام اللورد

(المنار) ان البحث في هذا الفصل الذي أقام المسلمين هنا وأقعدهم بحق ينحصر في ثلاث مسائل (١) الجامعة الاسلامية نفسها وما عده من أسباب استنكارها وهو (٢) اجازة الرق و(٣) مناقضة علاقات الرجال بالنساء لآراء أهل العصر و(٤) الجمود على قوانين وضعت لأهل السذاجة

١

الجامعة الاسلامية

يعرف اللورد كما يعرف جماهير القراء ان السيد جمال الدين الافغاني كان أشهر دعاة ما يسمونه الجامعة الاسلامية ذكراً، وأقواهم صوتاً، وأكثرهم سعياً، وأشدهم اضطلاعاً، وقد اشتهر عنه انه كان يحاول جمع كلمة المسلمين على خليفة واحد أو سلطان منهم والصحيح انه لم يكن يدعو الى ذلك ولم يخطر له على بال ان هذا مما تتناوله يد الامكان بل قال في معرض تنبيه المسلمين وحثهم على الوحدة « ولست أعني ان يكون لهم امام واحد فان هذا ربما كان متعذرا وانما أعني أن يكون امامهم القرآن »

وكان الاستاذ الامام أعظم أنصاره في عمله بمصر وأوربا وقد استقر رأيه بعد السعي معه والعمل من طريق السياسة والدين معاً على قاعدة « ما دخلت السياسة في عمل الا وأفسدته » وكثيرا ما قال لنا ان السيد جمال الدين كان أقدر من عرفنا على الاصلاح، وانه لولا افتتانه بالسياسة لعمل عملا عظيما، وان الاساس الذي

يجب ان يبنى عليه اصلاح حال المسلمين هو تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والبدع، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله تعالى لترد من شططه وتقلل من خبطه، وأنه بهذا الاعتبار يعد صديق العلم و باعثاً على البحث في اسرار الكون . ويتوقف هذا على اصلاح أساليب اللغة العربية واحيائها في الألسنة والاقلام

وقد عرف اللورد الاستاذ المرحوم وحمد طريقته هذه وشبهها في بعض تقاريره بطريقة السيد أحمد خان في الهند وقال ان حزبه جدير بالمساعدة والتنشيط من الأوربيين . والذي نعرفه نحن بعد السير على هذه الطريقة تسع سنين وأشهرا ان طلاب الاصلاح الاسلامي في مصر وسوريا وتونس كلهم على طريقة الشيخ محمد عبده كما ان معظم المصلحين في الهند على طريقة السيد أحمد خان ولا يوجد في غير هذه الأقطار حركة اسلامية الى الاصلاح الا في روسيا وايران فاما مسلمو روسيا فقد ثبت لدولتهم في الحرب الاخيرة وما اعقبته من الثورة أنهم خير رعاياها وأسلمهم قلوبا وهم الآن لا يطلبون من حكومتهم الا العدل والمساواة، ومن أنفسهم الا العلم والثروة . واما الفرس فحركتهم محصورة فى اصلاح حال حكومتهم وليس بين هؤلاء ولا وأولئك و بين سائر المسلمين صلات سياسية ولا أحد منهم يقاوم الاوربيين وهم يسكنون الاحقاد لا يهيجونها . فالجامعة الاسلامية بالمعنى الذي يفهم من كلامه لا وجود لها فى الأرض وانما يوجد فى المسلمين دعوتان — دعوة اسلامية وتنحصر فيما بيناه آنفا وهو ترك البدع والجمع بين الدين و بين العلم والمدنية ، ودعوة وطنية أو سياسية وهي تنحصر في مطالبة أصحاب السلطة فيهم بما يرقي بلادهم و يحفظ حقوقهم فيها ولا علاقة لهذه الدعوة بالدين بل كثيرا ما تخالفه

نعم انه يوجد فى كل بلاد من القوالين افراد يتخذون اسم الاسلام والجامعة الاسلامية والخلافة الدينية والخليفة الأعظم والعالم الاسلامي وغير ذلك من الكلمات أناشيد تستمال بها النفوس لتعظيم القائل أو لبذل المال له وقد يوهم كلامهم شيئا مما أشار اليه اللورد واننا جازمون بأن هؤلاء لا عمل لهم في الاسلام يخشى أو يرجى، ولا دعوة لهم تطاع أو تعصى، وانما مثلهم كمثل أصحاب تلك الاناشيد

في مدح الأولياء وفي الزهد في الدنيا التي يستعطفون بها الناس و يستندون بها أكفهم ومن خشي منهم لغطه . وقد أغنانا عن التطويل في هذه المسألة ما نقلناه عن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى وهو القول الفصل فيها

٢

﴿ مسألة الرق ﴾

يقول الورد ان الشريعة الاسلامية تجيز الرق، ونقول نعم إنها أجازته ولكنها ما فرضته فرضا ، ولا أوجبته إيجابا، ولا ندبت اليه ندبا، ولا استحبته استحبابا، بل نقول بعبارة أوجز: انها لم تجعله كما يخشى الورد دينا يتقرب به الى الله فيقال ان المسلمين لا يتركونه بل أقرت البشر — وكلهم كانوا يسترقون — على ما في أيديهم من الارقاء وشرعت لهم العتق وتحرير الرقيق وجعلت ذلك دينا يتقرب به الى الله عز وجل فتارة على سبيل الوجوب والحتم الذي لا بد منه وتارة على سبيل الندب

ما أجازت الشريعة الاسلامية الرق الا لأنه قد يكون موافقا لمصلحة من يُسترقون كأن يقتل الرجال في حرب شرعية و يبقى النساء والأطفال بدون عائل ولا كافل فقد يكون من الخير والمصلحة في مثل هذه الحالة ان يسترقوا للعجز عن الاستقلال في الحياة فاذا تسرى الرجال بالنساء وولدن لهم كما هو الغالب زال رقهن اذ يمتنع انتقالهن الى ملك آخر و يعتقن بموتهم ولا يكون حالهن معهم في الحياة دون حال الزوجات بالعقد واما الاطفال فانهم يكونون بمثابة الأولاد اذ المشروع في هذا الدين ان يكون الرقيق مساو يا لمولاه وأهل مولاه في أكله ولبسه وعمله وورد في الحديث النهي عن تسميتهم بالعبيد والإماء ثم حثت الشريعة على العتق حثا شديدا وجعلته كفارة لكثير من الخطايا ومن أفضل النذور ومحللا للحنث باليمين وهي مع تضييقها في الاسترقاق جعلت الرق خلاف الاصل حتى ان أي رقيق ادعى انه حر عدته حرا بمجرد دعواه الا ان يثبت مدعي ملكه أصل رقيته (ومن أراد زيادة البيان في هذا فليرجع الى المجلد الثامن من المنار)

وجملة القول ان الاسلام لم يأمر بالاسترقاق ولكنه أمر بتحرير الارقاء وعتقهم ولم يوجب ذلك على الناس دفعة واحدة لما فيه من الحرج الشديد على المالكين

والارقاء جميعا فان السادة الذين تعودوا ان يقوم عبيدهم بجميع شؤونهم لا يمكنهم ان يتركوا هؤلاء العبيد دفعة واحدة لأن نظام معيشتهم يختل ، وشمل مصالحهم يتفرق ، كما ان العبيد الذين تعودوا على كفالة غيرهم لهم وكفايتهم أمر المعاش يصعب عليهم ان يعيشوا بالاستقلال اذا هم اعتقوا مرة واحدة كما حصل في أمريكا فان الحكومة لما أبطلت الرق تحير كثير من الارقاء في أمر معيشتهم ورضي كثير منهم بأن يظلوا عند مواليهم كما كانوا ، وما كانوا يعاملون بما يأمر به الاسلام في مثل حديث الصحيحين وغيرهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال اني ساببت رجلا (يعني بلالا) فعيرته بأمه وفي رواية فقلت له يا ابن السوداء فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد ان شكا اليه بلال ذلك « يا أباذر أعيرته بأمه ؟ انك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم » وقد أورد البخاري هذا الحديث في كتاب الايمان للاشارة الى ان معاملة الرقيق بهذه المعاملة من شعب الايمان وأورده أيضاً في العتق والأدب

أما والله لو وجد الرق الذي يجيزه الاسلام وعومل الرقيق بما يأمر به الاسلام لتمنى ألوف من الناس الذين يموتون جوعاً في مثل شوارع لوندره فما دونها من المدن والقرى في كل مملكة أن يكونوا أرقاء يشاركون أهل النعمة والثراء في أكلهم ولبسهم وعملهم كما أمر الاسلام في مثل هذا الحديث

أين هذا من أمر التوراة بالرق ومن سكوت السيد المسيح عليه السلام عن الوصية به بمثل ما أوصى بعده أخوه محمد عليه السلام بل بعشر معشاره على ما كان عليه الارقاء في عصر المسيح من الظلم والاضطهاد . يقول بطرس في رسالته الاولى « ٢ : ١٨ أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء أيضا ١٩ لأن هذا فضل ان كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل احزانا متألما بالظلم ٢٠ لأنه أي مجد ان كنتم تلطمون مخطئين فتصبرون بل ان كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون فهذا فضل عند الله لأنكم لهذا دعيتم » وقال بولس في رسالته الى أهل أفسس « ٦ : ٥ أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة

قلوبكم كما للمسيح » الخ وفي رسالته الى أهل كولوسي «٣: ٢٢ أيها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم حسب الجسد لا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب » وغاية ما أمر به السادة ان يقدموا للعبيد العدل والمساواة فلا يفضلوا بعضهم على بعض فأين هذا من أمر الاسلام بالمساواة بينهم و بين السادة أنفسهم و بجعل الطاعة في المعروف لا في كل شيء . وقد نص الاسلام على كون الطاعة لا تكون الا بالمعروف حتى للنبي صلى الله عليه وسلم في آية المبايعة (٦٠: ١٣ ولا يعصينك في معروف) وهو صلى الله عليه وسلم لا يأمر الا بالمعروف كما وصفه تعالى في قوله (٧: ١٥٧ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر)

وجملة القول ان الاسلام أجاز الرق ولم يأمر به ولكنه أمر بالعتق والتحرير وان الديانتين اليهودية والنصرانية أجازتا الرق أيضا ولم يرد فيهما من الأمر بالعتق وتحرير الرقيق ولا بحسن معاملته مادام موجودا بمثل ما أمر به الاسلام . فاذا سهل على الدول النصرانية إبطال الرق ولم يمنعها الدين فهو على المسلمين أسهل لأن الدين لا يكتفي بعدم منعهم منه بل يحثهم عليه فدينهم أقرب الى هذه الفضيلة المدنية من جميع الاديان فلا خوف عليها منه وانما الخوف على كل فضيلة من الحكام الظالمين الذين يسيئون التصرف بالشرائع والقوانين

٣

﴿ علاقة النساء بالرجال ﴾

جاء الاسلام وجميع الامم تهضم حقوق النساء على تفاوت بينها في ذلك فكان أكثر الرجال يعدون المرأة كالأمة أو المتاع ومذهب علماء الاجتماع ان الناس كانوا في أمر الزواج كالبهائم في أطوارها المختلفة فكانوا أولا يبيحون كل انثى لكل رجل وكان أول الاختصاص بزوجة أوزوجات بالسبي واحتكار القوي من تعجبه من النساء واستئثاره بها وعدم السماح لغيره بملامستها الا ان يكون ذلك باذنه ولا يزال في البشر من لا يرى بمثل هذا الاذن بأسا . ولما صار للزواج روابط وأحكام دينية أوعرفية قيدت المرأة فيها بقيود لا ترفعها عن مرتبة الأمة عند الاكثرين وبقي في تقاليد كثير من الشعوب والقبائل ما يدل على أصل السبي

وخطف المرأة . وكان كثير من الرجال يتزوجون بنساء كثيرات لا يتقيدون بعدد و يطلقون من شاءوا متى شاءوا بلا تأثم ولا حرج وما جاء في اليهودية والنصرانية من الاحكام والوصايا لم يرفع قدر المرأة ولم يقربها من مساواة الرجل في الحقوق والاستقلال بشؤونها وقصارى ما نفاخرنا فيه النصرانية منع تعدد الزوجات وتحريم الطلاق الا بعلة الزنا

أما الاسلام فقد جاء باصلاح لم يسبق اليه ولم تبلغ كنهه أوربا في مدنيتها حتى اليوم . اذ لا تزال تحجر على المرأة ان تتصرف حتى بمالها بدون اذن الزوج و يرجع هذا الاصلاح الى آيات من الكتاب العزيز

(إحداها) قوله تعالى « ٣٠: ٢٠ ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وعلى هذه الآيات بنينا مقالات « الحياة الزوجية » التي نشرناها في المجلد الثامن وتكلمنا فيها عن الطلاق وتعدد الزوجات

(الآية الثانية) قوله تعالى « ٤: ١٩ وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا و يجعل الله فيه خيرا كثيرا »

(الآية الثالثة) قوله عز وجل « ٢: ٢٢٨ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » وليراجع تفسيرها في (ص٣٦٨م٨)

(الآية الرابعة) قوله جل شأنه « ٤: ٣٥ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما »

(الآية الخامسة) قوله وسعت رحمته « ٢: ٢٢٩ فامساك بمعروف أو تسريح باحسان »

(الآيه السادسة) قوله تبارك اسمه « ٤: ٣ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » الآية ويلاحظ مع هذه الآية « ٤: ١٢٩ ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم »

(الآية السابعة) قوله جل ثناؤه « ٤: ٧ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا

مفروضا » فجعل المرأة تملك وتتصرف كالرجل وفي الحديث ان المرأة تملك ولا يحل للرجل أكل شيء مما تملك الا باذنها وطيب نفسها

فهذه الآيات يشبه أن تكون هي أصول الاصلاح وفي معناها آيات مفصلة وان أوربا المدنية على مبالغتها في تكريم النساء لم تقم هذه القواعد ولم تأت بكل ما أمر به الاسلام في ذلك بل لم تصل الى درجة جماهير فقهائنا الذين يفرضون على الرجل للمرأة كل شيء تحتاجه بحسب الاستطاعة ولا يفرضون عليها له الا مواتاته بالاستمتاع بها وعدم خروجها من داره بدون رضاه وهما واجبان سلبيان فكأنهم لا يوجبون على المرأة عملا ما لزوجها بل يعدون كل عمل تعمله في ادارة بيته فضلا منها واحسانا فهل وصل الاوربيون الى هذه المبالغة في تكريم المرأة ؟

كلا انه ليس في شريعة المسلمين من أحكام الزوجية وآدابها الا ما لا بد منه لسعادة البيت وان بيان هذه الاحكام التي وضعت اساسها تلك الآيات منذ ثلاثة عشر قرنا وربع قرن آية على كون الاسلام شرعا إلهيا لا وضعا بشريا

بيان ذلك انها قد خوطب بها الناس في عصر كانوا أقرب فيه الى البداوة فأفادهم رقيا وتهذيبا بحسب استعدادهم ثم أننا نرى أن أعلى ما وصل اليه البشر من الرقي في الحضارة هو دون ما تهدي اليه تلك القواعد والاحكام من الكمال الاجتماعي ولعلهم يصلون اليه في يوم من الايام . وما منع الافرنج الذين استعدوا لهذا الكمال من رؤيته في القرآن الا ذانك الحجابان الكثيفان دونه وهما المسلمون الذين صاروا باعمالهم وأفكارهم حجة عليه، وغلبة الافكار المادية على اكثر الباحثين

يظهر ان الشعور الذي كان مستوليا على الورد عندما أفلتت تلك العبارة من قلمه كان مزيجا متولدا من الفكر في اعتقاد جمهور العالم الأوربي في الاسلام والمسلمين والفكر في كثرة الشكاوى التي ترد عليه في خلل المحاكم الشرعية وما يقاسيه فيها النساء المطلقات ، والضرائر المهجورات ، وطوالب النفقات ، وما يلاقين في باب القاضي من الاهانات ، وما يقاسين من جمود القضاة على التقاليد والعادات ، وإنها لحالة تحرك عصب الرحمة في الفؤاد ، وعضل اللسان بالانتقاد ، ولكن تسعة اعشار الذنب في ذلك على المسلمين وعشره على بعض آرائهم الفقهية . والاسلام

نفسه بريء من كل لائمة يشكو منهم بلسان كتابه المنزل أضعاف ما يشكو جميع المنتقدين ، وأنى يسمعون شكواه وقد ضربوا دونه سورا من التقليد له باب يسمى باب الاجتهاد ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ؟ قد اقفلوه بأيديهم ، فمنعوا بذلك رحمة الله ان تصل اليهم ،

طالما انتقد الأوربيون على الاسلام نفسه مشروعية الطلاق وتعدد الزوجات وهما لم يطلبا ولم يحمدا فيه وإنما اجيزا لأنهما من ضرورات الاجتماع كما بينا ذلك غير مرة وقد ظهر لهم تأويل ذلك في الطلاق فشرعوه وان لم يشرعه لهم كتابهم الا لعلة الزنا . واما تعدد الزوجات فقد تعرض الضرورة له فيكون من مصلحة النساء أنفسهن كأن تغتال الحرب كثيرا من الرجال فيكثر من لا كافل له من النساء فيكون الخير لهن ان يكن ضرائر ولا يكن فواجر يأكلن بأعراضهن ويعرضن أنفسهن بذلك لمصائب ترزحهن أثقالها وقد انشأ القوم يعرفون وجه الحاجة بل الضرورة الى هذا كما عرفوا وجه ذلك في مسألة الطلاق وقام من نساء الانكليز الكاتبات الفاضلات ، يطالبن في الجرائد باباحة تعدد الزوجات، رحمة بالعاملات الفقيرات ، و بالبغايا المضطرات ، وقد سبق لنا في المنار ترجمة بعض ما كتبت احداهن في جريدة (لندن ثروت) مستحسنة رأي العالم (تومس) في انه لا علاج لتقليل البنات الشاردات الا تعدد الزوجات ، وما كتبت الفاضلة « مس اني رود » في جريدة (الاسترن ميل) والكاتبة « اللادى كوك » في جريدة (الايكو) في ذلك (راجع ص ٤٨١ م ٤)

ان قاعدة اليسر في الامور ورفع الحرج من القواعد الاساسية لبناء الاسلام (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ـ و ـ ٥ : ٦ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج) ولا يصح أن يبنى على هذه القاعدة تحريم أمر تلجىء اليه الضرورة أو تدعو اليه المصلحة العامة أو الخاصة (كما بينا ذلك في مقالات الحياة الزوجية وغيرها) وهو مما يشق امتثاله دفعة واحدة لاسيما على من اعتادوا المبالغة فيه كتعدد الزوجات كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس وشأنهم فيه على ما فيه من المفاسد فلم يبق الا ان يقلل العدد ويقيد بقيد ثقيل وهو اشتراط

انتفاء الخوف من عدم العدل بين الزوجات وهو شرط يعز تحققه ومن فقهه واختبر حال الذين يتزوجون باكثر من واحدة يتجلى له ان أكثرهم لم يلتزم الشرط ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي

وجملة القول في هذه المسألة أن القرآن أتى فيها بالكمال الذي لابد ان يعترف به جماهير الاوربيين ولو بعد حين كما يعترف به بعض فضلائهم وفضلياتهم الآن . وأما المسلمون فلم يلتزموا هدايته فصاروا حجة على دينهم ونحن احوج الى الرد عليهم والعناية بارجاعهم الى الحق منا الى اقناع غير المسلمين بفضل الاسلام ، مع بقاء اهله على هذه المخازي والآثام ، اذ لو رجعوا اليه ، لما كان لأحد ان يعترض عليه ،

٤

الاحكام المدنية والجنائية ، في الشريعة الاسلامية

يفرق كتاب العصر بين الدين والشريعة فيعنون بالدين الاعتقاد والعبادات والفضائل أي ما يراد به إصلاح الأرواح وإعدادها لسعادة الآخرة أولا وبالذات وان كان يفيد في سعادة الدنيا أيضاً ، ويعنون بالشريعة ما يسوس به الحكام الناس ويفصلون به بينهم في الخصومات أي ما يراد به إصلاح أحوال الاجتماع السياسية والمدنية والجنائية . ومن المعروف ان موسى جاء بدين وشريعة ومعظم ما جاء به أحكام دنيوية وان عيسى جاء بدين فقط وأقر اليهود على شريعة موسى وان ما جاء به محمد (عليه وعليهما الصلاة والسلام) جمع بين الأمرين . و يعتقد الافرنج ان المسلمين لا يفرقون بين الدين والشريعة لان كلامنهما آلهي عندهم

ولما كانت الأمور الدنيوية تختلف باختلاف الزمان والمكان حتما كان من المحال ان توضع لها شريعة تامة توافق مصلحة الناس في كل زمان ومكان وهذه مسألة لا يختلف فيها عاقلان ومن ثم يعتقد الافرنج انه يستحيل على المسلمين أن يجاروهم في مدنيتهم ماداموا يعدون شريعتهم التي عليها مدار أمور دنياهم إلهية لا يجوز فيها التغيير والتبديل ولا يفرق فيها بين حال البدو فى الصحراء ، وحال من بلغوا من الحضارة ذروة الارتقاء ، ويعدون حكامهم رؤساء يتقرب الى الله

بطاعتهم فلا يعارضونهم في استبدادهم بهم ولا يأنفون من استعبادهم إياهم لو اعتقد القوم فينا اننا لا نرتقي مادمنا على شريعتنا وتركونا وشأننا لما بالينا ولكنهم يعرضون لنا في شؤوننا ويفتاتون علينا في خاصة أنفسنا زاعمين ان المدنية التي سفكوا في وسائلها دماءهم ، ووقفوا على مقاصدها حياتهم ، وبذروا بذورها في الشرق ، بعد ان جنوا ثمراتها فى الغرب ، لا يرجى ان تنمو لها نبتة ، ولا ان تحفظ لها بذرة ، في مكان للشريعة الاسلامية فيه سلطة ، ينشرون هذه الآراء بالكتابة ، ويبثونها في النفوس بالتعليم والخطابة ، وقد يضيفون اليها الطعن في قسم العقائد حتى التوحيد والقدر كما فعل موسيو هانوتو وغيره . منهم من ينطقه الاعتقاد ومنهم من تملي عليه السياسة والسياسة تبيح المحرم وتحل الكذب وتقلب الأوضاع وتأتي المنكرات

ويقول العارفون بحقيقة ماعليه الشعوب الأوربية من التربية العالية ان السواد الأعظم منهم لا يكابر الحق ، ولا يرضى بالظلم والهضم ، وان رجال السياسة في كل شعب منهم قد يحتالون في اقناعه بما تقضي به السياسة من مخالفة الحق والعدل احيانا ليجيز عملهم . وان من أمكنه ان يقنع هذه الشعوب بحق من الحقوق العامة فانه يجد له منهم خير نصير ، وأقوى ظهير ،

على هذه الطريقة جرى شيخنا الاستاذ الامام (رحمه الله تعالى) في مناظراته القولية والكتابية لعلماء الافرنج وساستهم كرنان وهانوتو وغيرهما فقد حج واقنع منهم جيلاً كثيراً بان الاسلام جاء باصلاح يوافق مصلحة البشر في كل زمان وكذلك فعل في ردوده على الشاذين من أهل الشرق الذين يقولون في الاسلام بغير علم . ويعلم قراء المنار أننا لا نألوا جهدا في بيان التوفيق بين عقائد الاسلام وآدابه وأحكامه وبين العقل والفطرة والمصلحة واننا نبني هذا التوفيق على ماجاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي مضت بالدوران مع المصلحة في كل حال بحسبها لا على ما جاء في كتب الفقهاء من الآراء التى أداهم اليها اجتهادهم ومنهم المخطئ فيها والمصيب . ونحن عاجزون عن الانتصار لكل ما في كتب الفقه كما ننتصر لكل ماجاء في الكتاب وما مضت به السنة المدنية . على

ان ماينتقد على الآراء الاجتهادية فى فقهنا ينتقد مثله على القوانين الوضعية . ولكن المنتقدين يقولون لنا ان ما يظهر خطأه في القوانين يسهل الرجوع عنه وما يظهر خطأه في الفقه يتعذر الرجوع عنه لأنه في عرفكم من الدين . وهو قول لا يمكن دفعه مع الجمود على التقليد فهدم التقليد شرط يتوقف عليه كل إصلاح يطلبه عقلاء المسلمين مع المحافظة على الاسلام ونشره في عالم المدنية العصرية ، والجمع بينه و بين العلوم والمعارف التي عليها مدار العمران والعزة . وان طريقتنا هذه يؤيدها خيار المسلمين من أهل الدين والدنيا كالسلفيين والقائلين بوجوب الاجتهاد في الدين . وأكثر المتعلمين على الطريقة العصرية سواء منهم المتدين حقيقة والمتدين جنسية . وقد صار الذين يصرحون بذلك كثيرين . وأذكر من الشواهد عن العصر بين قول أحمد شوقي بك شاعر الأمير عباس حلمي باشا في منظومته التي رفعها اليه يهنئه فيها بميلاد ولي عهد الامارة (الأمير محمد عبد المنعم)

و ياجيل الامير اذا نشأتا ... وشاء الجد ان تعطى وشئتا
فخذ سبلا الى العلياء شتى ... وخل دليلك الدين القويما
وضن به فان الخير فيه ... وخذه من الكتاب وما يليه
ولا تأخذه من شفتي فقيه ... ولا تهجر مع الدين العلوما

فهذه وصية من شاعر الامير الى ولي عهده يأمره فيها باتباع الكتاب والسنة وعدم اتباع الفقهاء وقد رضيها الامير أعزه الله ولم ينكرها

ليست طريقتنا هذه بخفية على الافرنج فقد كتبت الجرائد الفرنسية عن رحلة الاستاذ الامام الى تونس والجزائر ما يدل على انها عارفة بخطته راضية بها وذكرت ان آراءه في الاصلاح الديني تنشر في بعض المجلات المصرية تعني بها المنار وقد كتب في الجرائد الفرنسية فى تونس وأوربا وفي غيرها من الجرائد الأوربية شيء عن مذهب المنار ومنه ما كتب في المجلة الفرنسية في أوائل سنة ١٩٠٥ وهذا مانصه :

(المنار) أسس في القاهرة سنة ١٨٩٧ أسسه الشيخ محمد رشيد رضا أحد كتاب المسلمين المشهورين تلميذ الفيلسوف المصري الكبير الشيخ محمد عبده مفتي الديار

المصرية وهو لا يبحث في الجملة الا في المسائل الدينية والفلسفية وغايته التي يرمي اليها هي تعليم المسلمين دينهم على أنقى صورة له نافيا عنه الأوهام والخزعبلات والبدع القديمة وقد قال الشيخ محمد عبده ان دين الاسلام في شكله الحقيقي هو غاية ما يطلبه الانسان من الكمال — هذه هي خطة المنار وهو مجلة تصدر في الشهر مرتين

وجاء في عدد آخر منها

(المنار) الصادر بالقاهرة في شهر فبراير (أي من سنة ١٩٠٥)

أهم مقالة في هذا العدد تبحث عن مثال للحكومة الاسلامية وكاتب هذه المقالة صالح بن على اليافعي وهو كاتب هندي (١) قد بين فظائع الحكومة المطلقة التي مقتها القرآن والنبي وقد بين هذا الكاتب ان الحكومة الاسلامية كانت في زمن الخلفاء الاولين ديمقراطية محضة وان الخليفة نفسه كان ينتقده نواب الامة الذين كانت مهمتهم مراقبة سيره مراقبة شديدة

الاسلام لا يقبل من شكل الحكومة الا الملكية المقيدة والجمهورية والجملة أن كل ضرب من ضروب الحكومة المطلقة يديره أي حاكم مسلم كائنا من كان ليس من الاسلام في شيء . جاءت هذه المقالة عقب جزء من تفسير القرآن للشيخ محمد عبده » اه

والمراد مما تقدم ان الباحثين في أمور الشرق من الاوربيين عارفون بمرامي طلاب الاصلاح من المسلمين وأنهم يريدون الرجوع بالدين الى ما كان عليه في أول نشأته غير متقيدين بما وضعه العلماء من التقاليد التي قد تحول دون مجاراة أهل هذا العصر بل مسابقتهم في علومهم ومدنيتهم لأنهم يرون ان الكتاب والسنة يحثان على ذلك لا يحولان دونه والمقلدون للفقهاء يرون غير ذلك . ولا يعقل ان يكون اللورد كرومر غير عارف ماعرفه كثير من الأوربيين الذين لم يقيموا في الشرق كما أقام ولم يكتنهوا أمر المسلمين كما اكتنهه فان كان بعد هذا الاختبار كله يقول للأوربيين ان رجوع المسلمين الى أصول شريعتهم المدنية وعملهم بها يرجع

(١) هو هندي الموطن عربي الاصل يقيم في حيدر اباد

بهم الى طور السذاجة المضاد للحضارة فان قوله هذا أعظم صدمة للإصلاح الذي ندعو اليه لأن كلامه في ذلك يؤخذ بالقبول عند الامم الأوربية كلها ويخشى ان يناهضوا الدعوة الى الاصلاح في بلادهم ولا شيء يدفع ذلك الا الكلام من اللورد نفسه

لهذا وقعت علينا عبارة التقرير في القوانين الاسلامية كالصاخة وأخذنا نجيل قداح الفكر فيها فرأينا بعد طول التأمل أن العبارة وان كان المتبادر منها انها في الاسلام نفسه — كتابه وسنته وفقهه وكل شيء فيه يتعلق بالمعاملات — يجوز أن يحمل على الفقه وحده لأن حكام المسلمين لايحكمون الا به اذاهم ارادوا الرجوع الى الاسلام وإنما قلنا يجوز ان يكون هذا هو مراد اللورد وان كانت عبارته مطلقة تفيد ماهو أعم من هذا وتشمل الاحوال الشخصية لأن التمسك بالفقه هو الذي رآه المانع من اصلاح المحاكم الشرعية كما بينا ذلك بالتفصيل في مقالة نشرت في المجلد السابع من المنار (ص ٢١٢) استشهدنا فيها بما قاله في تقريره عن سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٣ وبشيء من محاضر مجلس شورى القوانين

من ذلك ان أحمد بك يحيى (أحمد باشا الآن) اقترح تأليف لجنة لوضع تقرير في إصلاح المحاكم الشرعية فقال الشيخ حسونه النواوي « اني لا أعلم ان المحاكم الشرعية تحتاج الى الاصلاح في أمر من أمورها » قال في محضر الجلسة « تقرر بالاغلبية التصديق على رأي الشيخ حسونه النواوي » وقد ذكر اللورد هذا في كلامه عن المحاكم الشرعية في تقرير سنة ١٩٠٣ وهو مع ذلك أعلم الناس بكثرة شكوى المسلمين من هذه المحاكم

ومن ذلك ان قاضي مصر قال لما طرحت مسألة إصلاح المحاكم الشرعية في الجمعية العمومية سنة ١٩٠٤ مانصه « قد سمعنا المقترحات المتعلقة بالمحاكم الشرعية ونقول ان أعمال تلك المحاكم ترجع أولا الى الشرع الشريف وهذا لايمكن لمسلم ان يقول انه يحتاج الى اصلاح » الخ

فأمثال هذه الاقوال من كبار الفقهاء هي التي جعلت اللورد كرومر يعتقدان هذا الفقه الذي يحكمون به قد صبغ كله بصبغة الدين فلا يمكن تنقيحه وهو يعتقد قطعا انه لا يوافق مدنية هذا العصر ولا ينطبق على مصالح أهله . اما أصل

الدين وهو الكتاب العزيز والسنة النبوية فقد يعتقد فيه ذلك وقد يكون مصدقا لطلاب الإصلاح في قولهم لاينافي المدنية ويدل على الاخير حثه الاوربيين على مساعدة حزب الشيخ محمد عبده الذين يطلبون الاصلاح من غير مس لأصول الدين . وقد حدثني الاستاذ الامام رحمه الله تعالى انه كان يكلمه مرة في هذا الموضوع بمناسبة مقاومة الجامدين لاصلاح المحاكم الشرعية فأقام المرحوم له الدلائل على أن الاسلام يدعو الى كل صلاح ويناسب كل زمان فقال له اللورد أتصدق يا أستاذ أنني أعتقد ان دينا أوجد مدنية جديدة وقامت به دول عظيمة لايكون أساسه العدل؟ هذا محال ولكنني أعلم ان هذه المقاومات أمور « اكليركية » أي تقاليد كتقاليد الكنيسة

تذكرنا هذا فقلنا في نفسنا لعل اللورد لايقصد بعبارة التقرير ما يتبادر منها لئلا يتناقض ذلك مع ما ذكرنا آنفا ولكن هذا لايمكن ان يعرف الامن قبله فكتبنا اليه كتابا نسأله أي الامرين يعني بعبارته : هذا نصه

القاهرة في ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٥

جناب اللورد العظيم

أحييك بما يليق بمكانتك وان لم يسبق لي شرف المعرفة لحضرتك وأرجو ان تمن علي ببضع دقائق من وقتك الثمين تجيبني فيها عن السؤال الآتي الذي يهمني من حيث أنا صاحب مجلة إسلامية تدافع عن الدين وتبحث في فلسفته وهو

هل عنيت بما قلت في تقريرك الاخير عن الحكم بالشريعة الاسلامية التي وضعت منذ اكثر من الف سنة الدين الاسلامي نفسه الذي هو عبارة عن القرآن الحكيم والسنة النبوية أم عنيت بذلك الفقه الاسلامي الذي وضعه الفقهاء ؟ فان كنت تعني الثاني فهو من وضع البشر وقد مزجت فيه آراؤهم بما يأخذونه عن الاول وخطأ فيه بعضهم بعضا وقد ترك حكام المسلمين أنفسهم العمل بكثير منه ولطلاب الاصلاح من المسلمين انتقاد على كثير من تلك الآراء في كل مذهب . وإن كنت تعني الاول فهذا العاجز مستعد لان يبين لجنابكم ان معظم ما جاء في الدين نفسه من الاحكام القضائية والسياسية هو من القواعد العامة — وهي

توافق مصلحة البشر في كل زمان ومكان لان أساسها درء المفاسد وجلب المصالح بحكم الشورى — وما فيه من الاحكام الجزئية (وهو مقابل المعظم) راجع الى ذلك . وأختم رقيمي مودعا لجنابكم بالتحية والاحترام

منشيء المنار بمصر
محمد رشيد رضا

كتبنا اليه هذا ونحن نتمنى لو يجيبنا بأنه يبرىء أصل الدين من معارضة المدنية ونخشى أن لا يفعل — ذلك باننا نعتقد ان كلامه في الاسلام يؤثر في جميع الشعوب الأوربية مالا يؤثر كلام غيره فاذاهم اعتقدوا بشهادته ان الاسلام نفسه يتفق مع المدنية ويسير مع العدل وأن السبب فيما يرى من سوء حال أهله هو ما ألصقوا به من التقاليد والآراء وجعلوه بهذا الالصاق دينا فان هذا الاعتقاد يكون أكبر عون لنا على خدمة الاسلام والدفاع عن أهله الذين أصبح معظمهم تحت سلطة الأوربيين واذاهم اعتقدوا العكس كان ذلك اشد منفر لهم عن الاسلام وحامل لهم على إلزام حكوماتهم بالضغط على رعاياهم . وكنا عازمين على ان نكتب اليه رسالة في بيان ان ماجاء في الاسلام من الاصول الاساسية للاحكام الدنيوية يوافق مصالح البشر في كل زمان ونقدمها اليه مترجمة بالانكليزية ونسأله باسم العدل والانصاف ان يبدي رأيه فيها — كنا عازمين على هذا لو أجابنا بأنه يعني بما كتب الاسلام نفسه أو مجموع ماعليه المسلمون من كتاب وسنة وفقه لأنه يعتقد ذلك ولا يخاف فى اظهار اعتقاده أحدا ولكنه تفضل بالجواب الآتي بنصه العربي موقعا ومؤرخا بخطه الافرنجي وهو

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ رشيد رضا صاحب جريدة المنار

جوابا على خطابكم أقول اني عنيت بما كتبت مجموع القوانين الاسلامية التي تسمونها الفقه لأنها هي التي تجري عليها الاحكام ولم أعن الدين الاسلامي نفسه ولذلك قلت في هذا التقرير الأخير وفي غيره بوجوب مساعدة الحزب الاسلامي الذي يطلب الاصلاح ويسير مع المدنية من غير ان يمس أصول الدين . ولعل العبارة التى كتبتها بتقريري كانت موجزة فلم تؤد المراد تماما واقبلوا ياحضرة الاستاذ احترامي الفائق

في ٤ مايو سنة ١٩٠٧ كرومر

والقارىء المنصف يرى ان ما استدل به على كونه لا يريد بما كتب الدين الاسلامي نفسه معقول لا يمكن دفعه بعد تصريحه بأن عبارة التقرير لم تؤد مراده تمام الأداء والانسان أعلم بمراد نفسه . غاية ما كان يقال ان مراد القائل يعرف من قوله وقول اللورد فى التقرير يشمل الفقه وينابيعه من الكتاب والسنة . و يقال الآن انه استثنى تلك الينابيع بقول آخر مبين لمراده من القول الأول فليعتبر هذا القول تصحيحا أو تخصيصا لسابقه أو استدراكا عليه . ولعل أهل الغيرة الصحيحة على الاسلام ينشرونه فى الجرائد الأوربية ليطلع عليه الأوربيون الذين قرأوا التقرير فانه خير لنا من شهادة بعض المستشرقين بفضل الاسلام لأن المستشرقين يتهمون فى أوربا بالتعصب للشرق وأهله . ولا يعذر من يعدون اللورد كرومر عدوا اذا هم قصروا في نشره اذ يقال لهم ان شهادة العدو لك أقوى من شهادة الصديق ، على انه بلغنا من مصدر يوثق به ان شيخ الأزهر قال للورد عند ما زاره مودعا له : اننا قرأنا العبارة التي ترجمت عن تقرير جنابكم فى الاسلام فلم نجد فيها طعنا فيه ولا مسا لكرامته : أو ما هذا معناه ولعل مراد الشيخ ان ماذكر من اجازة الرق ومناقضة أحكام الزوجية لآراء أهل العصر وكون الاحكام المدنية الجنائية لا تتغير كل ذلك صحيح وحسن عند المسلمين فان لم يستحسنه المخالفون فذلك لا يعيبه فاذا كان مناقضا لآرائهم فهو موافق لآراء أهله . ونحن معاشر طلاب الاصلاح لا نقول بهذا ونعده طعنا نبرىء منه الاسلام دون الفقه ووافقنا اللورد على ذلك

أما ما يجب أن يعتبر به المسلم العاقل في هذا المقام فهو اننا نعلم علم اليقين انه لو تيسر للمسلمين انشاء حكومة اسلامية لما رضي جمهور علمائهم ومن ورائهم العامة ان يحكم فيها بغير هذه الكتب الفقهية بما فيها من أحكام الرق والزوجية وغير ذلك على علاته . ومن أكبر علاته الخلاف الكثير في المسألة الواحدة واختلاف التصحيح والترجيح فيها حتى ورد في بعضها بعد ذكر تصحيح قولين متناقضين في مسألة من مسائل الطلاق «نحن مع الدراهم قلة وكثرة» أي ان المرجح لاحد القولين المصححين في المذهب هو الدراهم التي يأخذها المفتي من أحد المستفتين

بلغ من جمود فقهائنا على هذه الكتب التي يوجد فيها مثل هذه الفضيحة

أنهم يعدون العدول عنها الى كتاب يوضع خاليا من مسائل الخلاف موافقا لحال الزمان جناية على الدين نفسه . ومن عجائب هذا الجمود أن شيخ الاسلام العثماني لا يفتي بمجلة الاحكام العدلية ولا يأذن لاحد من المفتين الذين يعينهم بالفتوى منها واذا ذكر شيء منها في فتوى فانما يذكر بعد النص الفقهي من الكتب المعتمدة عندهم . على ان الدولة لم تعمل عملا شرعيا أفضل من وضع هذه المجلة فمن لنا بجمعية من العلماء العقلاء تدرس بعد التمكن من علم الكتاب والسنة والفقه قوانين الامم ثم تستخرج من هذه الشريعة كتابا يفوقها عدلا وسهولة وموافقة لمصالح البشر في هذا العصر يكون حجة ناطقة على كل من ينسب القصور الى الشريعة أو الدين . وينبغي أن تعزل فيه الأمور الدينية عن القضائية أو يذكر في أول كل باب من أبواب المعاملات أو كتبها ماهو ديني منها كأن يقال في كتاب المعاملات المالية ان الله حرم أكل أموال الناس بالباطل والغش والخيانة وأكل الربا اضعافا مضاعفة وأوجب الوفاء بالعقود وأداء الامانات الى أربابها . ويذكر في أول باب القضاء تحريم الظلم والرشوة وكون حكم القاضي بالشيء لا يحله للمحكوم له اذا كان يعلم أنه ليس له . اما هذا الفقه فهو على ما فيه من محاسن حجة علينا لا لنا بما فيه من المساوي والى الله المشتكى

انا نحن المسلمين قد أمسينا ولا مثل أصدق علينا من قول ابن دريد

نحن ولا كفران لله كما ... قد قيل في السارب أخلى فارتعى
اذا أحس نبأة ريع وان ... تطامنت عنه تمادى ولها

فنحن نرتع في غفلات الزمان ما وجدنا مرعى فاذا صاح بنا نذير تقلبات الزمان نراع ونجفل وقد نصرخ من الذعر ، أو ننتفج انتفاج الهر ، فاذا سكنت نبأة النذير ، عدنا إلى سابق التقصير ، نرتع ونلعب ، ونلهو ونطرب ، بل نتمارى بالنذر ، ولا نستفيد من العبر ، بل نقول ولا نعمل ، واذا وجد العامل لإحياء الدين ، واقامة حجته على المخالفين ، فاننا نخذله مع المخذولين ، أفنرضى ان نكون في حكم القرآن من الممقوتين الذين يقولون مالا يفعلون ، أو المنافقين الذين يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون !! »

باب المناظرة والمراسلة

تشبيه كتاب الاحياء بالقرآن

حضرة السيد منشىء المنار محمد رشيد افندي سلمه الله وعافاه

يزعمون ان الامام النووي قال في حق الاحياء : كاد الاحياء أن يكون قرآنا : ونقله الشيخ عبد القادر العيدروس باعلوي في كتابه « الاحياء في فضائل الاحياء » المطبوع في هامش الاحياء . ولا شك أن الاحياء كتاب عزيز قلما يكون له مثيل ولكن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكيف يقاس كلام المخلوق على كلام الخالق . ونحن نستغرب جدا صدور القول من النووي وان كان غير معصوم من الخطأ . وقد كنت طالعت في زمان مضى شرح مسلم لهذا الامام الجليل ولكن لا (اتخطر) أني رأيت فيه مايقرب من هذا القول وليس عندنا من سائر تأليفاته شيء ولذلك جئنا نستفسر رأيكم في هذا الامر وهل القول المذكور منقول من النووي بالسند الصحيح أو رأيتموه في آثاره المتداولة في تلك الاصقاع بأنفسكم وياحبذا لو كتبتم في هذا في المنار فلعلنا نستفيد منه ويستفيد غيرنا ولكم في ذلك جميل الثناء وكثير الاكرام .

عضو الجمعية الشرعية ببلدة اوفا سابقا ومحرر جريدة «وقت» ببلدة أورنبورغ حالا
رضاء الدين بن فخر الدين

(المنار) ليست عبارة النووي رحمه الله تعالى بالمكان الذي وضعتموها فيه وإن صحت نسبتها اليه فانها لا تدل على مساواة كتاب الاحياء لكتاب الله ولا على كونه يقاس به وإنما هي عبارة يقصد بمثلها المبالغة واعتبر بحديث أنس عند أبي نعيم في الحلية « كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر » فأنت ترى ان الحديث لا يمكن حمله الا على المبالغة المعهودة في الاسلوب العربي بمثل هذا التعبير وضعف سنده لا ينافي مجيئه على أساليب العرب وقوانين البلاغة فمعنى العبارة المعزوة الى النووي ان كلام الإحياء يؤثر في القلوب ويرغبها في الهداية بحيث يصح ان يقال فيه بلسان المبالغة انه قريب من القرآن في ذلك

الانتقاد على المنار

كلكته ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٥

فضيلتلو أفندم صاحب مجلة المنار المحترم

من بعد اهداء التحية أقول حيث أفدناكم في خط خصوصي قبل هذا بأن غرض الفقير من مكاتبتكم والاشتراك في مجلتكم هو الوقوف على حقيقة قصدكم من انكار تقليد أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في فهم معنى الكتاب والسنة وأقوال الصحابة ليس الا فترجوكم الافادة عن ماذا كان قصدكم اظهار المخالفة لتعرفوا فنعذركم اذ لستم أول من خالف لهذا الغرض وان كانت الآخرة خيراً وأبقى وقد يضطر الانسان في التماس قوته الى مالا يجوز «الا ما اضطررتم اليه» فان كان هذا قصدكم فنحن نكتفي منكم بالاشارة ولو من طرف خفي لعلمنا ان ساحة عفو الله واسعة ورحمته وسعت كل شيء وعليه فنكف اليراع عن الاسترسال في موضوع ولجتموه مضطرين وان كان قصد حضرتكم هو رد الأمة الى الصواب لما تحقق عندكم وثبت لديكم من خطأ الأئمة الأربعة او أحدهم في فهم كلام الله وسنة رسوله واقوال الصحابة فالمأمول من غيرتكم على الشرع الشريف ان تبينوا لنا في أي موضوع أخطأ الائمة أو بعضهم في فهم ماذكر فان بينتم لنا ذلك فالأصل ان تفيدونا عما اذا كان أصحاب المخطئ منهم أجمعوا على موافقته على الخطأ أو على مخالفته بحيث تركوا العمل بقوله بالمرة وصار العمل على خلاف ماذهب اليه أم اختلفوا فمنهم من خالف ومنهم من وافق فان كان الأول فإنا نلتمس من فضيلتكم مع الاحترام لشخصكم ان تعرفونا أولا وجه خطأ الامام في فهم معنى الكتاب أوالسنة أواقوال الصحابة المجمع عليها وثانيا محل اتفاق أصحابه معه على الخطاء من ذلك العهد الى عهدنا هذا فإن عرفتمونا عن ذلك ولا أخالكم فاعلين تبين لي صحة قصدكم وسلامة نيتكم وشدة غيرتكم على الأمة المحمدية وحرصكم على انتشالها من مهاوي الضلالة وحينئذ أضم صوتي مع صوتكم قياما بالواجب وعلى الله اتمام المقاصد «كنتم خير أمة» الآية «من رأى منكم منكرا» الحديث وان لم تفعلوا كما هو الراجح علمنا ان القصد غير صحيح والنية غير سليمة وانما القصد اظهار المخالفة

تحيلا لالتماس القوت وهنا يحسن بي ان أقول لحضرتكم ان انتظامكم في سلك محرري الجريدة يغنيكم عن ارتكاب هذا الشطط الذي يأباه مقام من يدعى بفيلسوف الاسلام مرة و بالمصلح أخرى وان كان الثاني وهو اتفاقهم على مخالفة امامهم فيما اخطأ فيه أوالثالث وهو اختلافهم في ذلك فقد تحقق لدينا ان القوم لم يحابوا امامهم ولم يأخذوا اقواله قضايا مسلمة ولم يتبعوه الا فيما تحقق لديهم بالأدلة الصحيحة لأنهم لا يعتقدون عصمته بل الامام نفسه لا يعتقد لنفسه العصمة من الخطأ ولذا لانجد اماماً الا وقد خالفه أصحابه في كثير من المسائل وضعف له اتباعه كثيراً من الاقوال فعلام يلام المتبوع وهو مقر بجواز وقوع الخطاء منه و بأي دليل يؤاخذ التابع وهو لم يراع لامامه في مقابل الحق حرمة وان قلت أيها المصلح نحن لا نعتقد ان الائمة أو أحدهم لم يفهموا معنى الكتاب والسنة بل فهموا ذلك غير أنهم أو أحدهم قد يسلك سبيل القياس في مقابل نص القرآن أوصحيح السنة أواجماع الصحابة بلا ضرورة ملجئة فنقول ان كان لديكم شيء من ذلك فتفضلوا بتحريره لنكون لكم من الشاكرين ولخطتكم ان كان حقاً من السالكين وايا كم واتباع الهوى وسلوك خطة المكابرة أوالمغالطة فإنا عند ذلك معرضون وللحق راضخون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون هذا وان تفضلتم على الفقير المذنب بالجواب عن اعتقاده في أن وقوع الخطأ من أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد الذين قد قلدهم في فهم معنى الكتاب والسنة جمهور الأمة الا قليلا ممن اغواهم الشيطان من زمن غير بعيد أقل منه ممن أصيبوا في عقولهم وزين لهم الشيطان أنهم ادركوا من أسرار الشريعة مالم يدركه هؤلاء الائمة حملة الشرع الشريف وان تقليد أحد الائمة المذكورين أولى من تقليد من ذكرنا من الغواة على فرض أنهم على شيء من العلم والتقوى هل أنا الفقير مصيب في هذا الاعتقاد أم لا بينوا توجروا ودمتم أفندم

محسوبكم المطيع

أحمد موسى المنوفي بكلكته

(المنار) تمحلنا بنشر هذه الرسالة برمتها على مجيئها قبيل اتمام المنار وعلى قيام القرائن السابقة واللاحقة عندنا بل الدلائل الناطقة على سوء اعتقاد صاحبها بنا

وظنه أنه قادر على دحض حجتنا والتنفير عن خطتنا بل على كونها ليست على شرطنا في انتقاد المنار وهو أن يذكر لنا المنتقد لنا شيئا مما نشرناه ويبين بطلانه بالدليل أو يطالبنا بالدليل عليه اذا نحن أوردناه غفلا . وليس منه ان يحاسبنا على نيتنا وكسبنا أو يعرض بسبنا وثلبنا أو يخترع لنا رأيا ويسألنا عنه. نشرنا الرسالة على هذا كله لنبين لمرسلها ان ما فيها ليس بالشيء الذي يسمى انتقادا واننا فيما نحن عليه من البصيرة والبينة في الدين لا نحفل بقول من يقول أو يكتب اننا نخطيء الائمة الاربعة وان كان ذلك مما ينفر عن المنار جماهير العوام وكثيرين ممن يعدون من الخواص الذين يجلون هؤلاء الائمة إجلالا خياليا تقليديا لا يوازي معشار اجلالنا الحقيقي لهم رحمهم الله وجزاهم خيرا

وأول ما نقوله في الجواب ان طريقتنا التي جرينا عليها في المنار ليست من الوسائل التي يلتمس بها «القوت» — لو كنا معوزين — لانها مخالفة لأهواء الاكثرين وآرائهم مظنة لان تكسد سوقها فيهم وانما يلتمس القوت من يلتمسه من أصحاب النفوس الصغيرة من حملة الاقلام بما يرضي الجمهور. وقد صرحنا في مقدمة المنار بأننا انشأناه ونحن نتوقع عدم رواجه وان أهل الخبرة والرأي أنذرونا ذلك ثم ظهر لنا صدق ذلك وظل المنار أربع سنين لا يأتي من اشتراكه الاجزء قليل مما ينفق عليه وهو الآن على سعة انتشاره لا يعد ربحه مقصودا لمن يقدر ان يربح بغيره اذا تركه اضعاف ما يربح منه وقد تمر السنين ولا نطالب أكثر المشتركين بقيمة الاشتراك بل نترك ذلك لامانتهم وما هذا شأن من يعمل لأجل القوت. ولسنا من محرري الجريدة كما قال في فضوله الذي يشبه سائر أقواله في كونه رجما بالغيب . ثم اننا لقينا من الايذاء في سبيل المنار ما يعرفه الكثيرون اجمالا أو تفصيلا ولا نطيل في هذا فان الاخلاص صلة بين العبد وربه ومن لم ير في دعوتنا الى انتقاد ما نكتب ونشر ما ينتقد علينا آية على أننا لا نريد الا بيان الحق فله أن يسيء الاعتقاد بنا كيف شاء وعلينا ان نسأل له العفو والمغفرة والهداية من الله تعالى . ثم إننا نتكلم في المقصد فنقول

ملخص الجوهر في كلامه اننا ننكر على من نظروا فيما فهم الائمة الاربعة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة فاتبعوا منه ما رأوه صوابا وردوا ما رأوه خطأ وسمي

هذا الاتباع تقليدا وهو لو وجد لا يعد تقليدا ونحن لم ننكر ذلك قط فإن أصر على زعمه فليبين لنا مكانه من المنار وانما ننكر التقليد في الدين وهو الاخذ بقول القائل من غير دليل لما قام عندنا من الحجج والدلائل على بطلانه وبذلك قال الائمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم، وما أجاز التقليد الاضعفاء المقلدين الذين خالفوا أئمتهم في استباحة التقليد . أما كون الائمة أصابوا في فهم الكتاب والسنة وأقوال الصحابة فهو لا يمنع بطلان التقليد في نفسه اذ لا ينقض دلائله بل ربما يؤكده لأن ما جاز لهم جاز لغيرهم لأنه ليس وحيا اختصهم الله به وجعله فوق كسب سائر البشر بل هو أمر ممكن يتناوله كسب كل كاسب وان تفاوت الناس فيه و « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » والحق أن المجتهد منهم ومن غيرهم يخطىء ويصيب بل قال أهل الاصول ان اجتهاد الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد يقع فيه الخطأ ولكن الله لا يقرهم عليه بل يبين لهم الحق فيه وأنى للائمة الاربعة وغيرهم بذلك . والمقلدون يأخذون بما صح في مذاهبهم وان بحث العلماء فيه وبينوا مخالفته للدليل وليراجع أصول الكرخي

أما الدلائل على بطلان التقليد فقد بيناها بالتفصيل في مقالات خاصة وفي تفسير القرآن وفي كثير من الفتاوى وغيرها فلا سبيل الى إعادتها هنا بل عليه ان يراجعها في مجلدات المنار السابقة وله بعد ذلك ان يذعن لها وأن يرد عليها ان استطاع ونحن نعده بنشر رده في المنار بشرط ان لا يتعدى البحث في الموضوع الى ما ليس منه كما فعل في هذه الرسالة . ومن اقدم ما كتبناه تفصيلا في ذلك « محاورات المصلح والمقلد » وفيها نصوص الأئمة في بطلان التقليد لهم ولغيرهم وهي مطبوعة على حدتها في كتاب فله ان يطلبه من مصر وثمنه مع اجرة البريد روبية واحدة

وقد طبع في هذه الايام اجزاء من كتاب « الأم » للامام الشافعي وعلى هامشه مختصر صاحبه الامام المزني وهو مفتتح بهذه العبارة بعد البسملة « قال أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني رحمه الله : اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله ومن معنى قوله لأقربه على من اراده مع اعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه وبالله التوفيق »

ثم ماذا يريد المنتقد من حصره الانكار في تقليد الائمة الأربعة فيما فهموه

من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة ؟ هل يريد انه يجب تقليدهم فيما فسروا به القرآن وشرحوا به الحديث وأقوال الصحابة وعدم تقليدهم فيما اجتهدوا فيه الأحكام التي لم يصرحوا بأخذها من هذه المصادر الثلاثة ؟ إن كان يريد هذا وهو ظاهر عبارته الأولى فقد هدم معظم الفقه الذي يدين الجمهور بتقليده خصوصاً فقه الحنفية والا فليدلنا على تفسير الامام أبي حنيفة للقرآن وشرحه للأحاديث وأقوال الصحابة ليقلدها من يتبع رأيه الجديد ويترك ماعداها من مسائل الفقه المأخوذة بالقياس والاستحسان وان كان يقول بقول عامة المقلدين انه يجب تقليد ما في هذه الكتب من غير التقيد بالالتفات الى مأخذها فما هو معنى العبارة الأولى ! !

الموضوع طويل الأذيال واسع الأردان صنف العلماء فيه مصنفات كثيرة وأحسن مارأيناه فيه هو ما كتبه الامام ابن القيم في كتابه (اعلام الموقعين) المطبوع في الهند ونقلنا كثيراً منه في المجلد السادس فعلى المنتقد ان يقرأ ما كتبناه وما كتب هذا الامام وغيره في المسألة ثم يكتب بعد ذلك ما يظهر له أنه الحق ان كان طالباً له . وليعلم ان جماهير المسلمين قد أهملوا الاهتداء بالكتاب والسنة اكتفاء بهذا الفقه ثم أهملوا هذا الفقه فقل فيهم من يتعلمه وقل في متعلميه من يعمل به حتى صار الاسلام عند الاكثرين جنسية لاهداية وقد أخذهم الله بذنوبهم واننا نعتقد اعتقاداً جازماً انه لا ترجى لهم هداية الا بدعوة الكتاب والسنة والرجوع بالدين الى ما كان عليه في عهد السلف ولا نرى حائلا دون هذا الا التقليد الذي صار على بطلانه في نفسه اسماً بلا مسمى وهو مع ذلك لا يزيد المسلمين الا تفرقاً واختلافاً وضعفاً وهلاكاً فنحن نحاول هدمه وندعو المسلمين كافة — لا المنتمين الى المذاهب الاربعة فقط — الى الاهتداء بما لاخلاف فيه بين أحد منهم لعلهم يرجعون . واننا لانجيز لأحد أن يقلدنا كما يتوهم المنتقد وغيره من الذين يتبعون فينا الظن وانما نحيل الجميع على الكتاب والسنة ومن قرأ كلامنا بانصاف عرف ذلك والله الموفق

كتب الينا عن بلاد العرب ان الدولة العلية ظهر لها بعد رجوع العسكر ثم المفتشين من نجد إخلاص ابن سعود لها وما كان من كذب ابن الرشيد وغشه وارسل ابن سعود يطلب الاستانة وفداً الى السلطان مؤلفاً من صالح بن عذل وابراهيم بن عبد العزيز بن رافع وخدمهما وهم أربعة ولما وصلوا البصرة أكرمتهم الحكومة جداً وسافروا على نفقتها . وأخيراً كتبت الدولة لابن سعود والظاهر انها تطلب منه فيه تأديب قاتلي أولاد ابن الرشيد ظلماً وعدواناً

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق

مصر ربيع الآخر سنة ١٣٢٥ — آخره الثلاثاء ١١ يونيه (حزيران) سنة ١٩٠٧

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٥٢ : ٤٥) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى
اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٣ : ٤٦)
رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٤ : ٤٧)
وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٥ : ٤٨) إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى
إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَجَاعِلُ الَّذِينَ
اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٦ : ٤٩) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ
عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٧ : ٥٠) وَأَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *
(٥٨ : ٥١) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ *

قال الاستاذ الامام: انتقل من البشارة بعيسى الى ذكر خبره مع قومه وطوى ما بينهما من خبر ولادته ونشأته و بعثته مؤيدا بتلك الآيات وهذا من إيجاز القرآن الذي انفرد به فقد انطوى تحت قوله ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ جميع مادلت عليه البشارة وعلم انه ولد و بعث ودعا وأيد دعوته كما سبقت البشارة فأحس وشعر من قومه وهم بنو اسرائيل الكفر والعناد والمقاومة والقصد بالايذاء وفي هذا من العبرة والتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ما فيه وان أكبر ما فيه الاعلام بأن الآيات الكونية وان كثرت وعظمت ليست ملزمة بالايمان ولا مفضية اليه حتما وانما يكون الايمان باستعداد المدعو اليه وحسن بيان الداعي ولذلك كان من أمر عيسى عليه السلام انه لما أحس من قومه الكفر ﴿ قال من أنصاري الى الله ﴾ أي توجه الى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه في دعوته تاركين لاجلها كل ما يشغل عنها منخلعين عما كانوا فيه متحيزين ومنزوين الى الله منصرفين الى تأييد رسوله ونصره على خاذليه والكافرين بما جاء به ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ أي أنصار دينه وهذا القول يفيد الانخلاع والانفصال من التقاليد السابقة والاخذ بالتعليم الجديد و بذل منتهى الاستطاعة فى تأييده فان نصر الله لايكون الا بذلك

والحواريون أنصار المسيح والنصر لايستلزم القتال فالعمل بالدين والدعوة اليه نصر له، قال الاستاذ الامام ولا نتكلم في عددهم لأن القرآن لم يعينه أقول ولعل لفظ الحواري مأخوذ من الحُوّارى وهو لباب الدقيق وخالصه ولابه من خيار القوم وصفوتهم أو من الحور وهو البياض وفي حديث الصحيحين « لكل نبي حواري وحواري الزبير » ومن هنا قيل خاص بأنصار الانبياء ﴿ آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ مخلصون له منقادون لامره وفي هذا دليل على ان الاسلام دين الله على لسان كل نبي وان اختلفوا في بعض صوره واشكاله واحكامه وأعماله .

ومن مباحث اللفظ في الآية أن «أحس» يستعمل في ادراك الحسي والمعنوي ففي حقيقة الاساس : أحسست منه مكرا وأحسست منه بمكر وما أحسسنا منه خبرا وهل تحس من فلان بخبر : والمكر من الامور المعنوية وان كان يستنبط من

الاعمال الحسية و يستدل عليه بها . وقال البيضاوي في الآية « تحقق كفرهم عنده تحقق مايدرك بالحواس » وهو مبني على ان معنى أحس الشيء ادركه باحدى حواسه وان اطلاقه على ادراك الامور المعنوية مجاز شبه فيه المعقول بالمحسوس في الجلاء والوصول الى درجة اليقين . على أن الكفر يعرف بالاقوال والأعمال المحسوسة . وقال الاستاذ الامام ان الجار في « الى الله » متعلق بلفظ «أنصاري» وإن لم يعرف ان مادة نصر تعدى بإلى ذلك بأن مجموع الكلام هنا قد أشرب الكلمة معنى اللجأ والانضمام لأن النصر يحصل بذلك : ويصح ان يتعلق بوصف يفيد هذا المعنى الذي يدل عليه الأسلوب كما قدرنا في بيان العبارة وهو الذي جرى عليه المفسرون محافظة على القواعد الموضوعة

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ معطوف على قولهم نحن أنصار الله الخ أي صدقنا بما أنزلت من الانجيل ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ عيسى بن مريم قال الاستاذ الامام ذكر الاتباع بعد الايمان لأن العلم الصحيح يستلزم العمل والعلم الذي لا أثر له في العمل يشبه ان يكون مجملا وناقصا لا يقينا وايمانا وكثيرا مايظن الانسان أنه عالم بشيء حتى اذا حاول العمل به لم يحسنه فتبين له انه كان مخطئا في دعوى العلم ثم قال ان العلم بالشي يظل مجملا مبهما في النفس حتى يعمل به صاحبه فيكون بالعمل تفصيليا فذكر الحوار بين الاتباع بعد الايمان يفيد ان ايمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصرف لها في العمل ﴿ واكتبنا مع الشاهدين ﴾ للرسول بتبليغ الدعوة وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود ، فحذف معمول الشاهدين ليعم المشهود له والمشهود عليهم . أو يقال الشاهدين على هذه الحالة أي حالة الرسول مع قومه وهو الذي اختاره الاستاذ الامام قال ومن المعروف في الفقه ان الشاهدين بمنزلة الحاكم لأن الفصل بين الخصمين يكون بشهادتهما ولا تصح الشهادة الا من العارف بالمشهود به معرفة صحيحة وقد كان الحواريون كذلك كما علم من اقرارهم بالايمان والاتباع

﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ أي ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به فحاولوا قتله وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا به وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة كذا قال الجمهور وأقرهم الاستاذ الامام ولكن ورد في سورة الاعراف اضافة المكر

الى الله تعالى من غير مقابلة بمكر الناس قال (٩٩:٧ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) والمكر فى الاصل التدبير الخفي المفضي بالممكور به الى مالا يحتسب ولما كان الغالب ان يكون ذلك في السوء لأن من يدبر للانسان ما يسره وينفعه يكاد لا يحتاج الى اخفاء تدبيره غلب استعمال المكر في التدبير السيء وإن كان في المكر الحسن والسيء جميعاً قال تعالى (٣٥ : ٤٣ استكبارا في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله) ووجه الحاجة الى المكر الحسن ان من الناس من اذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره لجهله فيحتاج مربيه أو متولي شؤونه الى أن يحتال عليه ويمكر به ليوصله الى ما لا يصح ان يعرفه قبل الوصول . اذاً يوجد في الماكرين الاشرار والاخيار ﴿ والله خير الماكرين ﴾ فان تدبيره الذي يخفى على عباده انما يكون لاقامة سننه واتمام حكمه وكلها خير في نفسها وان قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم . وقال الاستاذ في تفسير « خير الماكرين » بناء على ان المكر في نفسه شر: اي ان كان في الخير مكر فمكره سبحانه وتعالى موجه الى الخير ومكرهم هو الموجه الى الشر

﴿اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أي مكر الله بهم اذ قال لنبيه اني متوفيك الخ فان هذه بشارة بانجائه من مكرهم وجعل كيدهم في نحرهم قد تحققت ولم ينالوا منه ما كانوا يريدون بالمكر والحيلة . والتوفي في اللغة أخذ الشيء وافيا تاما ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة قال تعالى (٣٩ : ٤٢ الله يتوفى الانفس حين موتها) وقال (٣٢ : ١١ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) فالمتبادر في الآية إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي كما قال في ادريس عليه السلام (١٩ : ٥٣ ورفعناه مكانا عليا) والله تعالى يضيف اليه ما يكون فيه الابرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده كما قال في الشهداء (٣ : ١٦٩ أحياء عند ربهم) وقال (٥٤ : ٥٤ ان المتقين في جنات ونهر ٥٥ في مقعد صدق عند مليك مقتدر) وأما تطهيره من الذين كفروا فهو إنجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرومونه منه أو يريدونه به من الشر . هذا ما يفهمه القارىء الخالي الذهن من الروايات والاقوال لانه هو

المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من الآيات ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع الى السماء بجسده وهاك ما قاله الاستاذ الامام في ذلك

يقول بعض المفسرين « اني متوفيك » أي منومك وبعضهم اني قابضك من الارض بروحك وجسدك « ورافعك الي » بيان لهذا التوفي ، وبعضهم اني أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك واميتك حتف انفك ثم أرفعك اليّ ونسب هذا القول الى الجمهور وقال للعلماء ههنا طريقتان احداهما وهي المشهورة انه رفع حيا بجسمه وروحه وانه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى ولهم في حياته الثانية على الارض كلام طويل معروف وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن في تقديم الرفع على التوفي بأن الواو لا تفيد ترتيبا — أقول وفاتهم ان مخالفة الترتيب فى الذكر للترتيب فى الوجود لا يأتي فى الكلام البليغ الا لنكتة ولا نكتة هنا لتقديم التوفي على الرفع اذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة —

(قال) والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وان التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية وان الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ولا بدع في إطلاق الخطاب على شخص وارادة روحه فان الروح هي حقيقة الانسان والجسد كالثوب المستعار فانه يزيد وينقص ويتغير والانسان انسان لان روحه هي هي (قال) ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها الا بالقطعي لان المطلوب فيها هو اليقين وليس فى الباب حديث متواتر . وثانيهما تأويل نزوله وحكمه فى الارض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظاهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها

ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم الى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبرا عن رأيه وفهمه وكان ذلك مزهقا لروحها ذاهبا بحكمتها كان لا بد لهم من اصلاح عيسوي يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقي وكل ذلك مطوي فى القرآن الذي حجبوا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق وعدو الدين في كل زمان . فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الاسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر

هذا ماقاله الاستاذ الامام في الدرس مع بسط وإيضاح ولكن ظواهر الاحاديث الواردة في ذلك تأباه ولأهل هذا التأويل ان يقول ان هذه الاحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الاحاديث والناقل للمعنى ينقل مافهمه . وسئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال ان الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها وان القرآن أعظم هاد الى هذه الحكم والاسرار وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم مبينة لذلك فلا حاجة للبشر الى إصلاح وراء الرجوع الى ذلك وسنعود الى مبحث ماجرى للمسيح عليه السلام مع الماكرين الذين أرادوا قتله وصلبه في تفسير سورة النساء ان شاء الله تعالى

﴿ وجاعل الذين اتبعوك ﴾ بالأخذ بما جئت به من الهدى ﴿ فوق الذين كفروا ﴾ بك ولم يهتدوا بهديك فوقية روحانية دينية وهي كونهم أحسن أخلاقا وأكمل آدابا وأقرب الى الحق والفضل وأبعد عن الباطل والاعتداء أو فوقية دنيوية وهو كونهم يكونون أصحاب السيادة عليهم . ولكن هذا الوجه لم يتحقق في زمن المسيح لاشد الناس اتباعا له بل كانوا مغلوبين لليهود فتعين ان يكون الوجه الأول هو المراد ووجهه ظاهر فان اتباع المسيح هو عين الأخذ بتلك الفضائل والمواعظ التي جاء بها وليس عندنا شيء عن الاستاذ الامام في هذا . ولا يشكل عليه قوله ﴿ الى يوم القيامة ﴾ فان فوقية الفضائل والآداب هي التي كانت — وستبقى كذلك مادامت السموات والأرض ﴿ ثم اليَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ أقول فيه التفات عن الغيبة الى الخطاب وبذلك يشمل المسيح والمختلفين معه

ويشمل الاختلاف بين اتباعه والكافرين به والله هو الذي يبين لهم جميعا يوم الحساب الحق في كل ما اختلفوا فيه بما يزيل شبه المشتبهين ورياء الجاحدين ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ وكذلك عذب الله اليهود الذين كفروا به بتسليط الأمم عليهم وتحكمها فيهم ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون هناك كما انهم لم ينصروا هنا ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾ إما في الدارين وهو الغالب في الأمم واما في الآخرة فقط ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ لأنفسهم بالخروج عن سنن الفطرة والكفر بالانبياء الذين يطالبون النفوس بتقويمها

﴿ ذلك ﴾ الذي تقدم من خبر عيسى ﴿ نتلوه عليك من الآيات ﴾ الدالة على نبوتك ﴿ والذكر الحكيم ﴾ الذي يبين وجوه العبر في الأخبار والحكم في الاحكام فيهدي المؤمنين الى لباب الدين وفقه الشريعة وأسرار الاجتماع البشري ليتعظ المتعظون ويصل الى مقام الحكمة العارفون . وليس لدينا عن الاستاذ الامام شيء في هذه الآيات الثلاث

(٥٩ : ٥٢) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٠ : ٥٣) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ
الْمُمْتَرِينَ (٦١ : ٥٤) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ
فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦٢ : ٥٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
(٦٣ : ٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ *

أقول بعد أن بين سبحانه خلق عيسى ومجيئه بالآيات وما كان من أمر قومه فى الايمان والكفر به كشف شبهة المفتونين بخلقه على غير السنة المعتادة والمحاجين فيه بغير علم ورد على المنكرين لذلك فقال ﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ أي ان شأن

عيسى وصفته في خلق الله اياه على غير مثال سبق كشأن ادم في ذلك ثم فسر هذا المثل بقوله ﴿ خلقه من تراب ﴾ أي قدر اوضاعه وكون جسمه من تراب ميت أصابه الماء فكان طينا لازبا ذا لزوجة ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ أي ثم كونه تكوينا آخر بنفخ الروح فيه وقد تقدم تفسير العبارة الا انه كان الظاهر ان يقول هنا : ثم قال له كن فكان: ولكنه قال « فيكون» لتصوير الحال الماضية كما يقول أهل المعاني في وضع المضارع موضع الماضي أحيانا . وخطر لي الآن انه يجوز ان تكون كلمة التكوين مجموع « كن فيكون » والمعنى ثم قال له كلمة التكوين التي هي عبارة عن توجه الارادة الى الشيء ووجوده بها حالا . و يظهر هذا في مثل قوله تعالى (٦ : ٧٣ وهو الذي خلق السموات والارض بالحق و يوم يقول كن فيكون قوله الحق) ولو كان القول للتكليف لم يظهر هذا لان قول التكليف من صفة الكلام وقول التكوين من صفة المشيئة . ولعل من تأمله حق التأمل لايجد عنه منصرفا . والعطف بثم لبيان التكوين الآخر يفيد تراخيه وتأخره عن الخلق الأول . وهل كان في هذه المدة على صفة واحدة أم تقلب في أطوار مختلفة كما تتقلب ذريته ؟ اقرأ قوله تعالى (٧١ : ١٤ وقد خلقكم اطوارا) وقوله عزوجل (٢٣ : ١٢ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ١٣ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ١٤ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ١٥ ثم انكم بعد ذلك لميتون ١٦ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) فالسلالة المستخرجة من الطين هي المكون الأول الذي يعبرون عنه بلسان العلم الآن بالبرتو بلاسما ومنها تكون أصلنا في ذلك الطور لانه تعالى يقول انه خلقه من تلك السلالة ، ثم انتقل الى طور التولد بواسطة النطفة في القرار المكين وهو الرحم ثم انتقل الى طور تحول النطفة الى علقه والعلقة الى مضغة والمضغة الى هيكل من العظام يكسى لحما وقد عد هذا طورا واحدا ، ثم أنشأه خلقا آخر وهو الطور الاخير . ثم ذكر ان له طورا آخر في الموت وطورا آخر في البعث وهو آخر أطواره فكل طور من الاطوار التي قبل الموت حادث وحدوثه لأول مرة لم يكن مسبوقا بنظير ولم يكن معتادا وانما

وجد بمشيئة الله وتكوينه المعبر عنه بقوله « كن فيكون » فهل يعز على صاحب هذه المشيئة ان يخلق عيسى من غير أب ؟ كلا ولا يعجزه أن يبعث الناس بعد موتهم في نشأة أخرى كالنشأة الأولى

وقال الاستاذ الامام مامثاله : قلنا ان هذه الآيات سيقت في معرض إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ببيان أن الله تعالى ان يصطفي من عباده من يشاء لرسالته وأنه مستقل في أفعاله فلا وجه لانكار اصطفائه محمدا وقد اصطفى قبله آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران . ثم جاء في السياق ذكر قصة عيسى وأمه وما جاء به وما كان من كفر بعض قومه به ورمي أمه بالزنا وإيمان بعض وهناك قسم ثالث لم يكفر بعيسى ولم يؤمن به ايمانا صحيحا بل افتتن به افتتانا لكونه ولد من غير أب وزعموا ان معنى كونه ولد بكلمة من الله وكونه من روح الله ان الله تعالى حل في أمه وان كلمة الله تجسدت فيه فصار إلها وانسانا فضرب للكافرين والمفتونين مثل خلق آدم من تراب وهو حجة على الفريقين من اليهود والنصارى ولاشك ان خلق آدم أعجب من خلق عيسى لأن هذا خلق من حيوان من نوعه وذاك قد خلق من التراب . وفي الكلام ارشاد الى أن أمر الخلقة يشبه بعضه بعضا فكله غريب بالنسبة الينا اذا تفكرنا في حقيقتها وعللها ولا شيء منه بغريب عند الموجد المبدع . أما القوانين المعروفة في علم الخليقة فهي قد استخرجت مما نعهده ونشاهده وليست قوانين عقلية قامت البراهين على استحالة ماعداها كيف وانا نرى في كل يوم مايخالفها كالحيوانات التي لها أعضاء زائدة والتي تولد من غير جنسها وترون ذكر ذلك في الجرائد ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة وهو انما خالف مانعرف لامايعلم الله تعالى وما يدرينا ان لكل هذه الشواذ والفلتات سننا مطردة محكمة لم تظهر لنا وكذلك شأن خلق عيسى فكونه على غير المعهود ليس مزية تقتضي تفضيله عليهم فكيف تقتضي ان يكون الها . واذا كان عيسى قد خلق من بعض جنسه فآدم قد خلق من غير جنسه فهو أولى بالمزية لو كانت و بالانكار ان صح على ان مانعرف من أمر الخلقة ليس لنا منه الا الظاهر نصفه ونقول به وان لم نعقله وماذا نعقل من الرابطة بين الحس والنطق في الانسان مثلا

بل ماذا نعقل من أمر حبة الحنطة في نبتها واستوائها على سوقها وتناسب أوراقها وغير ذلك

ذلك ﴿ الحق من ربك ﴾ الذي خلق عيسى وغيره وبيده ملكوت كل شيء ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ في أمره القائلين فيه بغير علم فقد جاءك علم اليقين ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل ﴾ لهم قولا يظهر علمك الحق وارتيابهم الباطل ﴿ تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل ﴾ يقال ابتهل الرجل دعا وتضرع والقوم تلاعنوا وفسر الابتهال هنا بقوله ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ وتسمى هذه الآية آية المباهلة وقد ورد من عدة طرق ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا نصارى نجران للمباهلة فأبوا . أخرج البخاري ومسلم ان العاقب والسيد أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد ان يلاعنهما فقال أحدهما لصاحبه :لا نلاعنه فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح أبدا ولا عقبنا من بعدنا: فقال له نعطيك ماسألت فابعث معنا رجلا أمينا فقال قم يا أبا عبيدة فلما قام قال « هذا أمين هذه الامة » وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس ان ثمانية من نصارى نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم العاقب والسيد فأنزل الله تعالى « قل تعالوا » الآية فقالوا أخرنا ثلاثة أيام فذهبوا الى قريظة والنضير وبني قينقاع فاستشاروهم فأشاروا عليهم ان يصالحوه ولا يلاعنوه وقالوا هو النبي الذي نجده في التوراة فصالحوا النبي (ص) على ألف حلة في صفر وألف في رجب ودراهم . وروي في الصلح غير ذلك ومنها انهم صالحوه على الجزية . وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم اختار للمباهلة عليا وفاطمة وولديهما عليهم السلام والرضوان ، وخرج بهم وقال « ان أنا دعوت فأمنوا أنتم » وفي رواية لمسلم والترمذي وغيرهما عن سعد قال لما نزلت هذه الآية « قل تعالوا » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا « وقال اللهم هؤلاء أهلي » وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه « تعالوا ندع أبناءنا » الآية قال فجاء بأبي بكر وولده وبعمر وولده وبعثمان وولده وبعلي وولده . والظاهر ان الكلام في جماعة المؤمنين

قال الاستاذ الامام الروايات متفقة على أن النبي (ص) اختار للمباهلة عليا وفاطمة وولديهما ويحملون كلمة نساءنا على فاطمة وكلمة أنفسنا على علي فقط ومصادر هذه الروايات الشيعة ومقصدهم منها معروف وقد اجتهدوا في ترويجها مااستطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية فان كلمة « نساءنا » لا يقولها العربي ويريد بها بنته لاسيما اذا كان له أزواج ولا يفهم هذا من لغتهم وأبعد من ذلك ان يراد بأنفسنا علي عليه الرضوان. ثم ان وفد نجران الذين قالوا ان الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم وأولادهم. وكل مايفهم من الآية أمر النبي (ص) ان يدعو المحاجين والمجادلين في عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالا ونساء وأطفالا ويجمع هو المؤمنين رجالا ونساء وأطفالا ويبتهلون الى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول . كما يدل امتناع من دعوا الى ذلك من أهل الكتاب سواء كانوا نصارى نجران أو غيرهم على امترائهم في حجاجهم ومماراتهم فيما يقولون وزلزالهم فيما يعتقدون وكونهم على غير بينة ولا يقين . وأنى لمن يؤمن بالله أن يرضى بأن يجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقين والمبطلين في صعيد واحد متوجهين الى الله تعالى في لعنه وإبعاده من رحمته ؟ وأي جراءة على الله واستهزاء بقدرته وعظمته أقوى من هذا

قال اما كون النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون في عيسى عليه السلام فحسبنا في بيانه قوله تعالى « من بعد ماجاءك من العلم » فالعلم في هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به الا اليقين وفي قوله « ندع أبناءنا وأبناءكم » الخ وجهان أحدهما ان كل فريق يدعو الآخر فأنتم تدعون أبناءنا ونحن ندعو أبناءكم وهكذا الباقي وثانيهما ان كل فريق يدعو أهله فنحن المسلمين ندعو أبناءنا ونساءنا وأنفسنا وأنتم كذلك ولا اشكال في وجه من وجهي التوزيع في دعوة الأنفس وانما الاشكال فيه على قول الشيعة ومن شايعهم على القول بالتخصيص

أقول وفي الآية ماترى من الحكم بمشاركة النساء للرجال في الاجتماع للمباراة القومية والمناضلة الدينية وهو مبني على اعتبار المرأة كالرجل حتى في الامور

العامة الا ما استثنى ككونها لا تباشر الحرب بنفسها بل يكون حظها من الجهاد خدمة المحاربين كمداواة الجرحى . وقد علمنا مما تقدم ان الحكمة فى الدعوة الى المباهلة هي اظهار الثقة بالاعتقاد واليقين فيه فلولم يعلم الله ان المؤمنات على يقين في اعتقادهن كالمؤمنين لما أشركهن معهم في هذا الحكم. فأين هذا من حال نسائنا اليوم ومن اعتقاد جمهورنا فيما ينبغي ان يكن عليه لا علم لهن بحقائق بالدين ولا بما بيننا و بين غيرنا من الخلاف والوفاق ولا مشاركة للرجال في عمل من الاعمال الدينية ولا الاجتماعية فهل فرض الاسلام على نساء الاغنياء لاسيما فى المدن ان لا يعرفن غير التطرس والتطرز والتورن (١) وعلى نساء الفقراء لاسيما القرى والبوادي ان يكن كالأتن الحاملة والبقر العاملة ؟ وهل حرم على هؤلاء وأولئك علم الدنيا والدين ، والاشتراك في شيء من شؤون العالمين ؟ كلا بل فسق الرجال عن أمر ربهم ، فوضعوا النساء في هذا الموضع بحكم قوتهم ، فصغرت نفوسهن ، وهزلت آدابهن ، وضعفت ديانتهن ، ونحفت انسانيتهن ، وصرن كالدواجن فى البيوت ، أوالسوائم في الصحراء ، أوالسواني على السواقي والآبار ، أوذوات الحرث في الحقول والغيطان ، فساءت تربية البنين والبنات ، وسرى الفساد الاجتماعي من الافراد الى الجماعات ، فعم الاسر والعشائر ، والشعوب والقبائل ، لبث المسلمون على هذا الجهل الفاضح أحقابا حتى قام فيهم اليوم من يعيرهم باحتقار النساء واستعبادهن ويطالبونهم بتحريرهن ومشاركتهن في العلم والادب وشؤون الحياة · منهم من يطالب بهذا اتباعا لهدي الاسلام وما جاء به من الاصلاح ومنهم من يطالب به تقليدا لمدنية أوربا وقد استحسنت الدعوة الأولى بالقول دون العمل وأجيبت الدعوة الأخرى بالعمل على ذم الاكثرين لها بالقول فأنشأ المسلمون يعلمون بناتهم القراءة والكتابة وبعض اللغات الأوروبية والعزف بآلات اللهو وبعض أعمال اليد كالخياطة والتطريز ولكن هذا التعليم لا يصحبه شيء من التربية الدينية ولا من إصلاح الاخلاق والعادات بل هو من عوامل الانقلاب الاجتماعي الذي

(١) التطرس التنوق في الطعام والشراب أي تحري الاطيب منهما . والتطرز في اللباس توخي الفاخر النفيس منه والتورن المبالغة في التطيب والتنعم

تجهل عاقبته

﴿ ان هذا لهو القصص الحق ﴾ في شأن المسيح وماعداه من قول القالين له انه ولد زنا وقول الغالين فيه انه الله أو ابن الله فباطل ﴿ وما من إله الا الله ﴾ الذي خلق كل شيء وليس كمثله شيء ، فأي معنى تتصورون من معاني الألوهية فهوله وحده ﴿ وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾ لا يساويه أحد في عزته في ملكه ولا يساميه مسام في حكمته في خلقه فيكون شريكا له في ألوهيته ، أو ندا في ربوبيته ، وما الولد الا نسخة من الوالد يساويه في جنسه ونوعه وهو تعالى فوق الاجناس والانواع ، وفوق التصورات والاوضاع ،

﴿ فان تولوا ﴾ ولم يجيبوا الدعوة الى المباهلة ولم يقبلوا عقيدة التوحيد الخالص ﴿ فان الله عليم بالمفسدين ﴾ لعقائد الناس باصرارهم على الباطل تقليدا محضا لا برهان يؤيده ، ولا بصيرة تعضده ، وافساد العقائد افساد للعقل وهو رأس كل افساد

(٦٤ : ٥٧) قُلْ يا أَهلَ الكِتٰبِ تعالَوْا الى كَلِمَةٍ سواء بيننا وبينكُمْ أَلاَّ نعبُدَ الاَّ اللهَ ولاَ نُشْرِكَ بِهِ شيئًا ولا يتَّخذ بعضُنا بعضاً أرْباباً من دُونِ اللهِ ، فانْ تولَّوْا فقُولُوا آشهدُوا بأنَّا مُسْلمُونَ (٦٥ : ٥٨) يا أَهلَ الكِتٰبِ لِمَ تُحاجُّونَ في إِبرٰهيمَ وما أُنْزِلَتِ التَّوْرٰيةُ والانجِيلُ إِلاَّ من بعدِهِ أفلا تعقِلُونَ (٦٦ : ٥٩) هاأَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فيما لكُمْ بِهِ علْمٌ فلِمَ تُحاجُّونَ فيما ليْسَ لكُمْ بِهِ علْمٌ ، واللهُ يعلَمُ وأَنْتُمْ لا تعلمُونَ (٦٧ : ٦٠) ما كانَ ابرٰهيمُ يهُوديًّا ولا نصرانيًّا ولٰكنْ كانَ حنيفاً مُسْلماً وما كانَ من المُشْرِكِينَ (٦٨ : ٦١) انَّ أَوْلى النَّاسِ بإبْرٰهيمَ لَلَّذينَ اتَّبعُوهُ وهذا النَّبيُّ والَّذينَ آمنُوا واللهُ وليُّ المُؤْمنينَ *

لما بين جل شأنه القصص الحق في شأن عيسى والمختلفين فيه وأقام الحجة على الغالين فيه بجعله ربا وإلها بالعقلية ثم ألزمهم من طريق الوجدان أو الضمير — كما

يقال بما دعاهم الى المباهلة لم يبق الا أن يأمر نبيه بأن يدعوهم إلى الحق الواجب اتباعه في الايمان وذلك قوله ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ الآية . قال الاستاذ الامام: الكلام من أول السورة في اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم والرد على المنكرين وقد ظهر بالدعوة الى المباهلة انقطاع حجاج المكابرين ودل نكولهم عنها على أنهم ليسوا على يقين من اعتقادهم ألوهية المسيح وفاقد اليقين يتزلزل عند ما يدعى الى شيء يخاف عاقبته فلما نكلوا دعاهم الى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الانبياء وهو سواء بين الفريقين أي عدل ووسط لا يرجح فيه طرف على آخر وقد فسره بقوله ﴿ ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ﴾ أقول المراد بهذا تقرير وحدانية الالوهية ووحدانية الربوبية وكلاهما متفق عليه بين الانبياء فقد كان ابراهيم موحدا صرفا وقد كان الاساس الاول لشريعة موسى قول الله «ان الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى امامي لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق ومما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض لا تسجد لهن ولا تعبدهن» وعلى هذا درج جميع أنبياء بني اسرائيل حتى المسيح عليه وعليهم الصلاة والسلام وهم لا يزالون ينقلون عنه في انجيل يوحنا قوله: وهذه هي الحياة الحقيقية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته: وغير ذلك من عبارات التوحيد وكان يحتج على اليهود بعدم إقامة ناموس موسى (شريعته) وهو لم ينسخ من هذا الناموس الا بعض الرسوم الظاهرة والتشديدات في المعاملة أما الوصايا العشر — ورأسها التوحيد والنهي عن الشرك — فلم ينسخ منها شيئا قال الاستاذ الامام: المعنى اننا نحن وإياكم على اعتقاد ان العالم من صنع إله واحد والتصرف فيه لإله واحد هو خالقه ومدبره وهو الذي يعرفنا على ألسنة انبيائه ما يرضيه من العمل وما لا يرضيه فتعالوا بنا نتفق على إقامة هذه الاصول المتفق عليها ورفض الشبهات التي تعرض لها حتى اذا سلمنا ان فيما جاءكم من نبأ المسيح شيئا فيه لفظ ابن الله خرجناه جميعا على وجه لا ينقض الاصل الثابت العام الذي اتفق عليه الانبياء فان سلمنا ان المسيح قال انه ابن الله قلنا هل فسر هذا القول بأنه

إله يعبد وهل دعا الى عبادته وعبادة أمه أم كان يدعو الى عبادة الله وحده ؟ لا شك انكم متفقون معنا على انه كان يدعو الى عبادة الله وحده والاخلاص له بالتصريح الذي لا يقبل التأويل . وأقول ان كلامه عن نفسه كان أكثره من باب الكناية أو المجاز ، بل كان بعضه من قبيل المعميات والألغاز ، حتى ان تلاميذه لم يكونوا يفهموه الا بعد تفسيره ولقد كان هذا التفسير يتأخر أحيانا الى أمد بعيد ولفظ ابن الله أطلق فى كتب العهد العتيق على إسرائيل وغيره فهو مجاز قطعا . أما هذه النزغات الوثنية التي دخلت على الدين فقد دخلت بعده وليس لواضعيها سند من كلامه وانما يروجونها بأقيسة باطلة جري عليها كثير من الوثنيين من قبل ومن بعد كقولهم « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » وقولهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله »

قلنا ان الآية قررت وحدانية الالوهية ووحدانية الربوبية فأما وحدانية الألوهية فهي قوله « ان لا نعبد الا الله » وأكده بقوله « ولا نشرك به شيئا » والاله هو المعبود الذي توله العقول في معرفته وتدعوه وتصمد اليه لاعتقادها ان السلطة الغيبية له وحده وأما وحدانية الربوبية فهي قوله « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » فالرب هو السيد المربي الذي يطاع فيما يأمر وينهى والمراد هنا من له حق التشريع والتحليل والتحريم كما ورد في حديث عدي بن حاتم قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) فقلت له يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال « أليس يحرمون ما أحل الله فيحرمونه ويحلون ما حرم الله فيستحلون » فقلت بلى وسئل حذيفة رضي الله عنه عن الآية فأجاب بمثل ذلك . قال الاستاذ الامام: كان اليهود موحدين ولكن كان عندهم شيء هو منبع شقائهم في كل حين وهو أن اتباع رؤساء الدين فيما يقررونه وجعله بمنزلة الاحكام المنزلة من الله تعالى وجرى النصارى على ذلك وزادوا مسألة غفران الخطايا وهي مسألة تفاقم أمرها في بعض الازمان حتى ابتلعت بها الكنائس أكثر أملاك الناس ومن الغلو فيها ولدت مسألة البروتستانت اذ قاموا فقالوا هلم بنا نترك هؤلاء الارباب من دون الله ونأخذ الدين من كتابه لا نشرك

معه في ذلك أحدا

قال تعالى ﴿فان تولوا﴾ وأعرضوا عن هذه الدعوة وابوا الاان يعبدوا غير الله باتخاذ الشركاء الذين يسمونهم وسطاء وشفعاء واتخاذ الارباب الذين يحلون لهم ويحرمون ﴿ فقولوا اشهدوا بانا مسلمون ﴾ نعبد الله وحده مخلصين له الدين لاندعو سواه ولا نتوجه الى غيره في طلب نفع ولا دفع ضر ولانحل الا ما أحله ولا نحرم الا ماحرمه . قال الاستاذ الامام: الآية حجة على انه لايجوز لاحد أن يأخذ بقول أحد ما لم يسنده الى المعصوم: أقول يعني في مسائل الدين البحتة العبادات والحلال والحرام . اما المسائل الدنيوية كالقضاء والسياسة فهي مفوضة بامر الله الى أولي الامر وهم رجال الشورى من أهل الحل والعقد فما يقررونه يجب على حكام المسلمين ان ينفذوه وعلى الرعية ان يقبلوه . فما جرى عليه المقلدون من المسلمين من الاخذ بكلام بعض الفقهاء في العبادات والحلال والحرام هو عين ما انكره كتاب الله تعالى على أهل الكتاب وجعله منافيا للاسلام بل جعل مخالفتهم فيه هي عين الاسلام فليعتبر المعتبرون . فان هذه الآية أساس الدين المتين وأصله الاصيل ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بها أهل الكتاب الى الاسلام كما ثبت في كتبه الى هرقل والمقوقس وغيرهما وهذا نص كتابه (ص) الى هرقل عاهل الروم كما في رواية البخاري

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم اليريسيين و « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لانعبد الاالله ولا نشرك به شيئاً » الآية الى آخرها . فلولا ان هذه الآية الكريمة أساس الدين وعموده لما جعلها آية الدعوة الى الاسلام فهل يعذر من يؤمن بها اذا هو ادخل فيها باجتهاده ماليس منها فاتخذ له اندادا يدعوهم لكشف الضر وجلب النفع زاعما انهم وسائط يقربونه الى الله زلفى ، و يشفعون له عنده في مصالح الدنيا ، وهذا عين الاشراك في الالوهية بالاجتهاد الباطل ،

والقياس الفاسد ، الذي يشبه به الخبير العليم ، الرحمن الرحيم ، بالملوك الجاهلين ، والامراء المستبدين ، ولا اجتهاد في العقائد ، ولا قياس في أصل الايمان ، أم هل يعذر من يؤمن بها اذا هو اتخذ لنفسه أربابا سماهم العلماء الراسخين ، أو الأئمة المجتهدين ، فجعل كلامهم حجة في الدين ، وشرعا متبعا في التحليل والتحريم ، وذلك عين الاشراك في الربوبية ، والخروج عن هداية الآية القرآنية ، المؤيدة بمثل قوله تعالى (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وقوله (١٦:١١٦ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) فالله تعالى قد حد الحدود و بين الحلال والحرام وسكت عن اشياء رحمة بنا غير نسيان منه عز وجل ونهانا نبيه أن نبحث عما سكت عنه وأن نزيد في الدين برأينا واجتهادنا وانما أباح لنا الاجتهاد لاستنباط ما تقوم به مصالحنا في الدنيا . فهذا هو هدي الآية وما يعقلها الا العالمون

روى ابن اسحق بسنده المتكرر الى ابن عباس قال اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الاحبار ماكان ابراهيم الا يهوديا وقالت النصارى ماكان ابراهيم الا نصرانيا فأنزل الله ﴿ ياأهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم ﴾ الآية . كذا في لباب النقول . وأقول جاءت هذه الآية والآيتان بعدها في سياق دعوة أهل الكتاب الى الاسلام و بيان انه دين جميع أنبيائهم الذين يدينون بإجلالهم وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى آله موضع اجلال الفريقين منهم لما في كتبهم من الثناء عليه في العهد العتيق والعهد الجديد كما كانت قريش تجله وتدعي انها على دينه فأراد تعالى ان يبين لهم جميعا ان هذا النبي الكريم الذي كانوا يجلونه لم يكن على شيء من تقاليدهم وانما كان على الاسلام الذي يدعوهم اليه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فبدأ بالاحتجاج على أهل الكتاب بقوله ﴿ وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده ﴾ أي فاذا كان الدين الحق لايعدو التوراة كما تقولون أيها اليهود أولا يتجاوز الانجيل كما تقولون أيها النصارى فكيف كان ابراهيم على الحق واستوجب ثناءكم وثناء من قبلكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ان المتقدم على الشيء لا يمكن ان يكون تابعا

له . فان خطر في بالك أيها القارئ ان هذا يرد على القرآن فاصبر نفسك معي الى تفسير الآية الثالثة

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ﴾ مما هو خبر عيسى فقامت عليكم الحجة بأن منكم من غلا في الافراط اذ قال انه إله ومنكم من غلا في التفريط اذ قال انه دعيٌّ كذاب ولم يكن علمكم القليل به عاصما لكم من الخطأ في الحكم عليه ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ وهو كون ابراهيم يهوديا أو نصرانيا؛ أليس الواجب عليكم ان تتبعوا فيه مايوحيه الله الى عبده محمد (ص) ﴿ والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ ثم بين تعالى ما يعلم من أمره فقال ﴿ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا ﴾ أي مائلا عن كل ماكان عليه أهل عصره من الشرك والضلال ﴿ مسلما ﴾ وجهه الى الله تعالى وحده مخلصا له الدين والطاعة ﴿ وما كان من المشركين ﴾ الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون انهم على ملة ابراهيم وهم قريش ومن وافقهم من العرب وهذا من الاحتراس فقد كان أهل الكتاب يدعون العرب بالحنفاء حتى صار الحنيف عندهم بمعنى الوثني المشرك فلما وافقهم القرآن على إطلاق لفظ الحنيف على ابراهيم مستعملا له بالمعنى اللغوي احترس عما يوهمه الاطلاق من ارادة المعنى الاصطلاحي عندهم فصار معنى الآية أن ابراهيم المتفق على إجلاله وادعاء دينه عند أهل الملل الثلاث لم يكن على ملة أحد منهم بل كان مائلا عن مثل ماهم عليه من الوثنية والتقاليد مسلما خالصا لله تعالى . وليس المراد بكونه مسلما انه كان على مثل ماجاء به محمد صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم من الشريعة بالتفصيل فانه يرد على هذا ان هذه الشريعة جاءت من بعده كما كانت التوراة والانجيل من بعده وانما المراد انه كان متحققا بمعنى الاسلام الذي يدل عليه لفظه وهو التوحيد والاخلاص لله في عمل الخير كما بينا ذلك بالتفصيل في تفسير (١٩ ان الدين عند الله الاسلام) وهذا المعنى لايستطيع أهل الكتاب إنكاره فان مافي كتبهم عن ابراهيم لايعدوه وما كان النبي يدعوهم الا اليه . وقد نسي أكثر المسلمين اليوم معنى الاسلام الذي يقرره القرآن وجدوا على المعنى الاصطلاحي له فجعلوه جنسية غافلين عن كونه هداية روحية وما كان سلفهم الصالح كذلك

﴿ ان أولى الناس بابراهيم ﴾ أي أجدرهم بولايته وأحراهم بموافقته ﴿ للذين اتبعوه ﴾ في عصره وأجابوا دعوته فاهتدوا بهديه ﴿ وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ معه فانهم أهل التوحيد المحض الذي لايشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالوسطاء والشفعاء وأهل الاخلاص في الأعمال الذي لا يبطله شرك ولا رياء وهذا هو روح الاسلام والمقصود من الايمان فمن فاته فقد فاته الدين كله لاتغني عنه التقاليد والرسوم ولاتنفعه الوسطاء والاولياء (٢٦ : ٨٨ يوم لاينفع مال ولا بنون ٨٩ الا من أتى الله بقلب سليم) بأخذه بحقيقة الاسلام الذي شرع لتنقية القلوب وتزكية النفوس واعداد الارواح في الدنيا الى الدرجات العلى في الأخرى ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ الذين لايتوجهون الى غيره في كشف ضر ولا طلب نفع فهو يتولى أمورهم ويصلح شؤونهم ويتولى اثابتهم على حسب تأثير الاسلام في قلوبهم ويزيدهم من فضله . فنسأله تعالى أن يجعلنا معهم في الدنيا والآخرة ولايجعلنا من أهل الجمود على التقاليد الظاهرة الغافلين عن روح الاسلام المفتونين باتخاذ الاولياء والامراء . هذا وليس عندنا في هذه الآيات شيء عن الاستاذ الامام وما قلناه موافق لطريقته



تاريخ المصاحف

بقية ما كتبه موسى افندي جار الله الروسي

ثم أصيب الاسلام بموت عمر وولي عثمان فزادت الفتوح واتسع الامر وسعى الساعون في ايقاع الخلاف بنشر الاختلاف فدعت الحال الى نشر المصاحف المكتوبة على مشهد من الصحابة عظيم لجمع الصحابة وكانت عدتهم يومئذ بالمدينة تزيد على اثني عشر الفا فطلب المصحف من حفصة أم المؤمنين واحضر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فكتبوا خمسة مصاحف من غير تغيير ولا تبديل عما كان عليه المصحف الذي كتبه زيد بأمر أبي بكر . وما ورد عن عثمان في الانفال وبراءة فابداء عما كان يراه قبل من انهما سورة واحدة اذلم يقف على بيان من النبي صلى الله عليه وسلم ' وقد شهد عثمان النسخ الاول وقد وقع الاجماع فيه على هذا الترتيب ولم يبد عثمان خلافا فيه ولو كان له رأي يراه لوجب عليه ان يظهره وما جرى بين عبد الله بن عباس وبين عثمان من سؤال وجواب لحكاية لما كان يراه عثمان قبل . وعين زيدا ان يقرئ بالمدني وبعث عبد الله بن السائب مع المكي والمغيرة بن شهاب مع الشامي وابا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي وعامر بن قيس مع البصري . وقرأ كل مصر بما في مصحفه على هؤلاء الصحابة ' ونسخوا من هذه المصاحف الخمسة مصاحف لايحصى عددها فلم يبق في الامكان كيد الكائدين ولا وهم الواهمين بقي عثمان كذلك اثني عشر عاما حتى مات وبموته حصل الاختلاف وابتدأ أمر الروافض . ثم تولى الامر علي وملك وبقي خمسة اعوام وتسعة أشهر خليفة مطاعا غالب الامر ساكنا بالكوفة والقران يقرأ في المساجد في كل مكان وهو يؤم به الناس والمصاحف معه وبين يديه ' ثم بعده ابنه الحسن . وكان علي يثني ثناء على أبي بكر وعثمان فيما فعلا في المصاحف . ولو كان وقع من أبي بكر وعثمان تغيير في شيء بنقص أوزيادة (ولا يمكن ذلك لامتناع تواطىء الكثير المتفرق على التغيير في شيء فلو وقع من أحد لظهر ولافتضح المرتكب من ساعته) لما قدر على مذلة التحمل والصبر عليه بعد ما تولى الامر وهو الذي قاتل أهل الشام في رأي يسير رآه ورأوا خلافه . وعلي شهد النسخين ورأس في كلا الوقتين

غالب القول فيصلا في القضايا   نافذ الرأي حائز الجلايا

فلا يمكن ان أبا بكر وعثمان قد اسقطا بعض ما نزل في أهل البيت . ولم يكن أبو بكر وعثمان الا كغيرهما من الصحابة في شأن جمع القرآن . ولو كان نزل شيء في أهل البيت لتواتر كسائر الآيات وكتم ماشاع وذاع أمر محال لا يستطاع (١)

وعلماء الامامية رحمهم الله تعالى اجل من ان يقولوا قد وقع نقص في القرآن بمكر أبي بكر أو أمر عثمان . والشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه ' والسيد المرتضى علم الهدى ذوالمجد ابو القاسم علي بن الحسين الموسوى ' والقاضي نور الله في مصائب النواصب ' والامام الطبرسي في مجمع البيان ' هؤلاء اعلم علماء الامامية واعلام أمتنا الاسلامية ' قد قالوا بامتناع وقوع التغيير في القرآن وقالوا ان العلم بتفاصيل القرآن وابعاضه كالعلم بكله وجملته . فمن رام في اسقاط بعض آيات نزلت ' فليسع أولا في رفع كل القرآن وكتم أخبار انتشرت . وما نقل عن بعض علماء الشيعة من سقوط بعض آيات نزلت فلا أرى ان ذلك كان رأيا لهم يرونه انما ذلك من جملة بقايا اخبار كانت تنشر من عند الذين يحبون ان تشيع الفاحشة والفتنة في المسلمين ' ومن عند الذين يبغون خبالا ويسعون فسادا في الدين

وقد كانت مثل هذه الاخبار أنفع وسيلة في الحصول على اغراضهم السياسية ففازوا فوزا عظيما في دعوتهم ' ونالوا فوق ما أملوا في كسر شوكة الامة الاسلامية وتفريق وحدتهم . وقد دس هؤلاء من أباطيل الاخبار شيئا كثيرا في الدين قد تلقاه واغتر به قوم من أهل الخير فادخلوه في دواوين الاحاديث والاخبار واسفار السنن والآثار .

وقد من الله علينا اذ جعل فينا رجالا عدولا ميزوا سنن نبينا عن موضوعات الاخبار وأكاذيب الآثار ' فسقونا من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . هذا وكل ما ذكرته من تاريخ القرآن والمصاحف فهو حق لان الامر كان ووقع كذلك ' ومن ادعى انتصاف الشمس في النهار فأنما عليه ان يشير الى ما هنالك ' ومن خالف فلا يعتد به فان الخلاف في ذلك مضاف الى قوم نقلوا اخبارا ظنوا صحتها لا ترجع مثلها عن المعلوم المقطوع بصحته والى قوم اتوا بأقوال لا يقوم لها من علم الشهود شاهد ولو انا سلكنا مسلكهم واستجزنا التدليس على انفسنا وارتكبنا مالم يرتكبه سلفنا

(١) يريد المؤلف بهذا الرد على ماينقل عن بعض غلاة الشيعة من زعم كتمان الصحابة لآيات ادعوا أنها نزلت في آل البيت عليهم السلام كما سيصرح به

لاتينا بما يلبس به خصومنا اسفاً . لكن يكفينا في بيان الحق ان تأتي بما كان ، وليس من شأن العاقل ان يتمسك بما بعد عن الحق وبان . وحيث وفينا الموضوع بعون الله تعالى بما استطعنا من البيان . وكان ذلك خير ماجنينا وخيار ما اقتطفنا من حدائق الاعيان ، رأينا من واجب الاحسان علينا ان نأتي بما يدل على امتناع وقوع التحريف في القرآن . ونحن الآن نأخذ بحول الله وقوته في اجمال مافصله العلماء في ذلك ، وان نجمع ونلتقط ما انتشر في صحائف الدواوين من هنا وهنا وهنالك .

البرهان الاول : ان النبي صلى الله عليه وسلم انتقل والصحابة ألوف مزلفة ما منهم احد الا وهو يحفظ قسطا وافرا من القرآن وفيهم مئات يحفظونه كله بتمام الضبط والاتقان عن ظهر قلب . ثم ان الكثير منهم تشتتوا أثر ذلك في الاقاليم ، وانتشروا في الاقطار استيطانا بمواطنهم الاصلية ، أو تعينا لعمل من الاعمال الملكية والدينية ، ثم نسخت المصاحف ووصلت الى هذه الاعداد الكثيرة في المدن والبلاد ، فلو كان وقع تغيير في كلمة أو تحريف في حرف لظهر ولثارت الامة وهاجت الخواطر على جامعي المصاحف وقاتلوهم قتالا ، ولارتد كثير من الناس لان اندساس اقل تغيير فيه بجهل العباد . أو وقوع تصرف فيه بالافكار وكيد أهل الفساد . يقضي بانه غير منزل من عند الله سبحانه وتعالى . لكنا لم نسمع ان أحدا من مسلم وغيره عارض في شيء من القرآن وادعى ذلك فيه . ولو وقع حبة تغيير فيه في العصر الاول لوقع تغييرات في العصور الاخيرة على سنن قانون الطبيعة في النمو . لكن القرآن قضى من أجله ثلاثة عشر قرنا وزيادة ، وملأت المصاحف وجه الارض وطباقها ولم يوجد مصحف يختلف عن الآخر بحرف واحد .

البرهان الثاني : ان القرآن أكبر دلائل النبوة ، به ظهر الدين وعز شوكة المسلمين . هو آية ظلت اعناق الجبابرة لها خاضعين ، فاذعنوا له بخفض الجناح طائعين لاوامره ، عاملين باحكامه . فلا يمكن ان يرضى الامة تحريف شيء منه ولو كان دونه بذل المهج والنفوس .

البرهان الثالث : من ألم بتاريخ الصحابة ونظر نظرة في صحاح الاحاديث يعلم أتم العلم ماكانت عليه الصحابة من غاية الاعتناء ونهاية الاهتمام في حفظ القرآن وضبطه حتى مقادير المدات . وتفاوت الامالات ، ويعرف ماهم من مزيد العناية ، في ضبط الاحاديث والرواية . حفظا وكتابة ومن وفور الاحتياط وعظيم التثبت عند ادائها وتبليغها للامة .

والعقل يحكم طوعا بالقطع ، وضرورة باليقين ان الجم الغفير والجمع الكثير الذين أخذوا القرآن تلقياً عنه عليه السلام في تضاعيف عشرين سنة ، وضبطوه حفظا في الصدور وثبتا في الصحائف والسطور لايجوز عليهم التخليط فيه ولا التغيير . وشعر الاقدمين مع انه لايمكن ان يظهر ظهور القرآن ولا ان يحفظ كحفظه ولا ان يضبط مثل ضبطه ولا ان تمس الحاجة اليه مساسها للقرآن لو زيد فيه بيت أو لفظ أو غير فيه حرف أو حركة لتبرأ منه أصحابه وأنكره أربابه . وطعن فيه عارفوه ، وجحده راووه . وقد شوهد ذلك في كثير من الاشعار والخطب والاراجيز يعرفه من يعتني بلغة العرب ورواياتها .

فاذا كان ذلك مما لايمكن في شعر الاقدمين فكيف يجوز وقوعه في القرآن مع العناية الصادقة والضبط المتقن والعلم بانه دليل النبوة ونور الشريعة وملجأ الامة

البرهان الرابع : ان العلم بالقرآن كله وجملته فاق في الوضوح والاشتهار أشهر المتواترات من كبار الحوادث وعظائم الوقائع ومهمات الامور وحواضر الاحوال . والعلم بآيات القرآن وسوره وتفاصيله وابعاضه عند حفاظه ورواته في العصر الاول كالعلم به كله وجملته : فان العناية اذ ذاك توفرت . والدواعي اشتدت . والقرائح انبعثت الى حفظه الراسخ وضبطه المتقن . والغايات تباينت والاغراض اختلفت : فمنهم من يضبطه لاتقان قراءته ومعرفة وجوهها وصحة ادائها . ومنهم من يحفظه لاستنباط الاحكام وبيان تعاليم الاسلام ومنهم من يقصد بحفظه معرفة تفسيره ومعانيه والوقوف على غامضه وغرائبه . ومنهم من يعجبه بالغ فصاحته وفائق بلاغته ورائق اسلوبه وشائق نظمه وعجيب تأليفه . ومنهم من يحفظه استلذاذا بتلاوته واستحبابا في كرامته وتقربا بقراءته وتعبدا بدراسته . ومنهم من يحفظه لمجرد التشرف بشرف حمله والقيام بواجب ادائه وتعليمه وهو الاغلب .

فبالضرورة لايمكن على أهل هذه الهمم العالية والاغراض المتفاوتة والغايات المتباينة مع كثرة اعدادهم وتباعد بلادهم ان يجتمعوا على التحريف والتغيير ويتواضعوا على التبديل

البرهان الخامس : لايخفى على الخبير بعلوم القرآن وطرقه الثابتة انه لم ينقض عصر الرسالة الا وتابع التابعون وأخذوا عن الصحابة مباشرة وقل فيهم من لايحفظ كل القرآن . وكان الرجل لايكون عظيما في الاعين ولا يعد صاحب حديث مالم يحفظ عشرات آلاف من الحديث . فتتبعوا حفظة الصحابة في كل زمان ومكان

فإذا بلغهم ان صحابيا كذا يحفظ آية كذا بلغة كذا من اللغات التي نزل بها القرآن (وسأبين معنى اللغات والاحرف في القرآن بما لا أظن ان الحق يتعداه ان شاء الله) الا ارتحلوا اليه وتلقوا عنه حتى جمعوا القراآت التي قرأ بها القرآن بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ثم جاء قرن كان حفظ القرآن عندهم كأنه أمر لازم . وكان اقطار حوافظهم قد امتدت ودوائر احاطتهم قد اتسعت . فكثر فيهم من يحفظ مئات ألوف من الحديث ومن يحفظ من أشعار الجاهلية وأيام العرب وخطبها وأمثالها وأراجيزها مالا تسعها ضخام الاسفار كانوا يحفظون كل ذلك لاجل القرآن وعلومه فوضعوا علوم الرسوم والتجويد والقراآت وعلوم الدين وكل مبادئها

وكان من أساس دينهم في الله تشديد النكير على البدع وشدة الاعتصام بالسنة الثابتة والمحافظة على ماورد والوقوف عند حد أمر ثبت . وما مضى قرن الا وجاء الذي بعده محققا باحثا في علوم القرآن . جاريا على ماجرى عليه سلفه . كل انسان أحاط بعلوم القرآن خبرا يعلم ان طرقه ورسمه واختلاف رواياته كلها توقيف لم يتصرف فيها أحد بشيء . فوقوع التحريف في القرآن من مثل هذه الامة غير ممكن .

البرهان السادس : الصدر الاول كان محاطا بالاعداء من اليهود وغيرهم . وكانوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا عموما وللنبي عليه السلام خصوصا . واقفين له ولقومه بالمرصاد ناصبين لهم حبائل الفتن موغرين عليهم صدور الناس . فلو عثروا على أدنى تحريف أو تغيير لشنوا على جامعي المصاحف غارة الفتنة . وشنعوا عليهم في جميع القبائل . ولكان ذلك من أعظم الفرص المساعدة على اتهامهم في نظر الامة . وأكبر الوسائل المؤدية الى تفريق الجامعة الاسلامية وتشتيت كلمتها

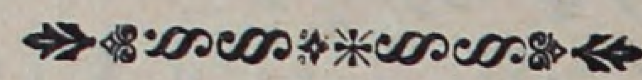
كانت مدينة النبي عليه السلام غاصة بالمنافقين كان عرفهم بسيماهم ويعرفهم في لحن اقوالهم كانوا يحضرون في مجالسه يسمعون منه ويقرأون في من قرأ ويصلون مع من صلى

وهم في كل لحظة يتوقعون هفوة تصدر منه ليتخذوها ذريعة الى رد الناس عن الايمان به . وقد صاحبوا أصحابه بعده ولم يسمع ان واحدا منهم قال بتغيير حرف من القرآن وهم أولى الناس بذلك واقدرهم على فرض وقوعه لسماعهم الاصل من النبي . وتتابع الفتن المساعدة لهم في طعن الدين بأكبر المطاعن .

أمة غربلت اقوال نبيها ونخلتها . وبحثت فيها بحث تدقيق ونقدتها . وروت -

من اخبار العصر الاول ماعليها قبل نقل مالها . أمة عنايتها بكلام ربها اضعاف عنايتها بأحاديث نبيه يستحيل عليها أنها عكفت على هذا الدين وفي القرآن أقل تغيير قاض انه ليس من عند الله .

أمة اذا سمع عالمها بيتا من الشعر واستطلع معناه قال هذا مأخوذ من قول فلان الجاهلي أيغيب عنها البحث في القرآن هل وقع فيه تغيير وشيء جديد . أوهو باق على ماكان عليه تنزيل من حكيم حميد اه



﴿ خلاف الامة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة ﴾

﴿ لشيخ الاسلام وعلم الاعلام الامام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه ﴾

﴿ مقدمة لصاحب المنار ﴾

شرع الله تعالى لعباده على ألسنة جميع رسله ان يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ولكنهم كانوا يتفرقون في كل أمة فيزول ما أريد بالدين من معنى الاجتماع والائتلاف حتى اذا ما شرع الله لهم الدين العام الذي هو خاتمة الأديان شدد فيه التنفير من التنازع والتفرق والاختلاف وأكد الامر بالاعتصام والاتحاد والائتلاف وقال لخاتم النبيين (٦: ١٥٩ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) ومع ذلك لم تسلم هذه الامة من اتباع سنن من قبلها والاختلاف كما اختلفوا أو أشد . ولما وقع الخلاف وكثرت المذاهب وصار لكل فريق أنصار يخالفون الآخرين ويطعنون عليهم امتاز أهل الحق المعتصمون بحبل الله بالدعوة الى الاجتماع والالفة والتباعد عن التنازع والفرقة وجعلوا المرجع في ذلك الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عملا بقوله عز وجل (٤: ٥٩ فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فكتاب الله ثابت لانزاع فيه وسنة رسوله معلومة لاخلاف فيها فما جرى عليه وتبعه فيه أصحابه على طريقة واحدة بلا خلاف بينهم يمتنع فيه الخلاف من المؤمنين وما اختلف فيه العمل كان المؤمنون مخيرين فيه لاينازع أحد منهم أخاه إن أخذ بغير ما أخذ هو به وكل جائز

وقد سمي هؤلاء بأهل السنة والجماعة لأنهم يحكمون السنة العملية المتبعة فيما هو حتم وفيما هو مخير فيه ويختارون الاجماع والاتفاق على الخلاف والافتراق ولذلك كان من مزاياهم التباعد عن تكفير أهل القبلة وتضليلهم لاجل الخلاف والعمدة عندهم في صحة الايمان وولاء أخوة الاسلام هو الاخذ المجمع عليه في العصر الاول المعلوم من الدين بالضرورة ويعذرون من أخطأ فيما عدا ذلك

ثم إن علماء أهل السنة قد كانوا ينظرون في وجوه الترجيح بين ما اختلف فيه عمل أهل العصر الاول أو الرواية عنهم فيأخذ كل واحد ما يراه أرجح مع كونه يعذر من يأخذ بغير ما اختاره هو لا سيما اذا كان رأيا لا رواية ثم حدث في الامة التقليد وصار كل فريق يتعصب لعالم من أئمة علماء الامصار من بعدهم فعاد بذلك التفرق والاختلاف الممقوتان عند الله الى المنتسبين الى أهل السنة والجماعة ووجد بذلك اهل البدع ما وجدوا من المطاعن عليهم وعلى مذهبهم بل كان ذلك مما طعن به في أصل الدين

سبق لنا قول في هذا الخلاف ومضاره ورأي في تلافيه واتقاء أخطاره أودعناها مقالات محاورات المصلح والمقلد (التي جمعت من المنار وطبعت في كتاب مستقل) وأيدناه بما كتبه حجة الاسلام أبو حامد الغزالي في كتابه القسطاس المستقيم من الدعوة الى إزالة الخلاف بالاخذ بالمجمع عليه والتخيير في المختلف فيه وقليل من الناس من يترك كل ما أجمع على تحريمه ويؤدي كل ما أجمع على وجوبه ويفعل ما سهل عليه مما أجمع على ندبه واستحبابه ولكن المرزوئين بالتعصب للمذاهب يسهل عليهم قطع أخوة الايمان بسبب خلاف في رواية أو رأي مما لم يجمع عليه المسلمون وهم مع ذلك يتركون بعض الفرائض ويرتكبون بعض المحرمات ويحسبون ذلك أهون من الخلاف في الدين

وقد قرأنا في هذه الايام رسالة لشيخ الاسلام أحمد بن تيمية في مسألة الخلاف في العبادات وحقيقة السنة والجماعة فآثرنا نشرها رجاء ان ينفع الله بها المسلمين (٥١ : ٥٥ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) قال رحمه الله تعالى وأثابه

(قاعدة) في صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين الامة في الرواية والرأي مثل الاذان والجهر بالبسملة والقنوت في الفجر والتسليم في الصلاة ورفع الايدي فيها ووضع الاكف فوق الاكف ومثل التمتع والافراد والقران في الحج ونحو ذلك فان التنازع في هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعا من الفساد الذي يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون

(أحدها) جهل كثير من الناس أو أكثرهم بالامر المشروع المسنون الذي يحبه الله ورسوله والذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته والذي أمرهم باتباعه

(الثاني) ظلم كثير من الامة أو أكثرهم بعضهم لبعض وبغيهم عليهم تارة بنهيهم عما لم ينه الله عنه وبغضهم على مالم يبغضهم الله عليه وتارة بترك ما أوجب الله من حقوقهم وصلتهم لعدم موافقتهم له على الوجه الذي يؤثرونه حتى يقدمون في الموالاة والمحبة واعطاء الاموال والولايات من يكون مؤخرا عند الله ورسوله ويتركون من يكون مقدما عند الله ورسوله لذلك

(الثالث) اتباع الظن وما تهوى الانفس حتى يصير كثير منهم مدينا باتباع الاهواء في هذه الامور المشروعة وحتى يصير في كثير من المتفقهة والمتعبدة من الاهواء من جنس ما في أهل الاهواء الخارجين عن السنة والجماعة كالخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم وقد قال تعالى في كتابه (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) وقال في كتابه (لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)

(الرابع) التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه ويحب بعضا ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضي الأمر ببعضهم الى الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم الى الاقتتال بالايدي والسلاح وببعضهم الى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الامور التي حرمها الله ورسوله والاجتماع والائتلاف من أعظم الامور التي أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن

الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا — الى قوله — ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السنة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته ومن أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) وقال تعالى (وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات) وقال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وقال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) وقال تعالى (وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) وقال تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة) وقال تعالى (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم) وقال (انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم) وقال (الا من أمر بصدقة أومعروف أواصلاح بين الناس) وهذا الاصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعا وان لا نتفرق هو من أعظم أصول الاسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه

ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة مثل قوله « عليكم بالجماعة فان يد الله على الجماعة » وقوله « فان الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » وقوله « من رأى من أميره شيأ يكرهه فليصبر عليه (١) فان من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » وقوله « ألا أنبئكم بافضل من درجة

(١) لعل المراد بالشيء الذي يكره مالا يخالف الشريعة لا ... في أحاديث كثيرة ان الطاعة في المعروف وعلى ذلك بايعوه وهو المعصوم وانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

الصلاة والصيام والصدقة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ » قالوا بلى يارسول الله قال « صلاح ذات البين فان فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » وقوله « من جاءكم وأمركم على رجل واحد منكم يريد ان يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان » وقوله « يصلون لكم فان أصابوا فلكم وان اخطؤا فلكم وعليهم » وقوله « ستفترق هذه الامة على اثنتين وسبعين فرقة منها واحدة ناجية واثنتان وسبعون في النار — قيل ومن الفرقة الناجية قال — هي الجماعة يد الله على الجماعة » وباب الفساد الذي وقع في هذه الامة بل وفي غيرها هو التفرق والاختلاف فانه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وان كان بعض ذلك مغفوراً لصاحبه لاجتهاده الذي يغفر فيه خطأه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم ان رعايته من أعظم اصول الاسلام ولهذا كان امتياز اهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الامة بالسنة والجماعة ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك مايطول ذكره وكان الاصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقديم العمل به هو الاجماع فان الله لا يجمع هذه الامة على ضلالة

(النوع الخامس) هو شك كثير من الناس وطعنهم في كثير مما أهل السنة والجماعة عليه متفقون بل وفي بعض ماعليه أهل الاسلام بل وبعض ما عليه سائر أهل الملل متفقون وذلك من جهة نقلهم وروايتهم تارة ومن جهة تنازعهم ورأيهم أخرى أما الاول فقد علم الله الذكر الذي أنزله على رسوله وأمر أزواج نبيه بذكره حيث يقول (واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) حفظه من ان يقع فيه من التحريف ما وقع فيما أنزل قبله كما عصم هذه الامة ان تجتمع على ضلالة فعصم حروف التنزيل ان يغير وحفظ تأويله أن يضل فيه أهل الهدى المتمسكون بالسنة والجماعة وحفظ أيضا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ماليس فيها من الكذب عمدا اوخطأ بما أقامه من علماء أهل الحديث وحفاظه الذين فحصوا عنها وعن نقلتها ورواتها وعلموا من ذلك ما لا يعلم غيرهم حتى صاروا مجتمعين على ماتلقوه بالقبول منها اجماعا معصوما من الخطأ لاسباب

يطول وصفها في هذا الموضع وعلموا هم خصوصا وسائر علماء الامة بل وعامتها عموما ما صانوا به الدين عن ان يزاد فيه أو ينقص منه مثلما علموا انه لم يفرض عليهم في اليوم والليلة الا الصلوات الخمس وان مقادير ركعاتها ما بين الثنائي والثلاثي والرباعي وانه لم يفرض عليهم من الصوم الا شهر رمضان ومن الحج الا حج البيت العتيق ومن الزكاة الا فرائضها المعروفة الى نحو ذلك وعلموا كذب أهل الجهل والضلالة فيما قد يأثرونه عن النبي صلى الله عليه وسلم لعلمهم بكذب من يزعم من الرافضة ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على علي بالخلافة نصا قاطعا جليا وزعم آخرين انه نص على العباس وعلموا أكاذيب الرافضة والناصبة التي يأثرونها في مثل الغزوات التي يروونها عن علي وليس لها حقيقة كما يرويها المكدون الطرقية مثل أكاذيبهم الزائدة في سيرة عنتر والبطال حيث علموا مجموع مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وان القتال فيها كان في تسعة مغاز فقط ولم يكن عدة المسلمين ولا العدو في شيء من مغازي القتال عشرين الفا ومثل الفضائل المروية ليزيد بن معاوية ونحوه والاحاديث التي يرويها كثير من الكرامية في الارجاء ونحوه والاحاديث التي يرويها كثير من النساك في صلوات ايام الاسبوع وفي صلوات أيام الاشهر الثلاثة والاحاديث التي يروونها في استماع النبي صلى الله عليه وسلم هو واصحابه وتواجده وسقوط البردة عن ردائه وتمزيقه الثوب واخذ جبريل لبعضه وصعوده به الى السماء وقتال اهل الصفة مع الكفار واستماعهم لمناجاته ليلة الإسراء والاحاديث المأثورة في نزول الرب الى الارض يوم عرفة وصبيحة مزدلفة ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم له في الارض بعين رأسه وأمثال هذه الاحاديث المكذوبة التي يطول وصفها فان المكذوب من ذلك لا يحصيه احد الا الله تعالى لأن الكذب يحدث شيئا فشيئا ليس بمنزلة الصدق الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يحدث بعده وانما يكون موجودا في زمنه صلى الله عليه وسلم وهو محفوظ محروس بنقل خلفاء الرسول وورثة الانبياء وكان من الدلائل على انتفاء هذه الامور المكذوبة وغيرها وجوه

(احدها) ان ما توفرت همم الخلق ودواعيهم على نقله واشاعته يمتنع في العادة

كتمانه فانفراد العدد القليل به يدل على كذبهم كما يعلم كذب من خرج يوم الجمعة واخبر بحادثة كبيرة في الجامع مثل سقوط الخطيب وقتله وإمساك أقوام في المسجد اذا لم يخبر بذلك الا الواحد والاثنان و يعلم كذب من أخبر ان في الطرقات بلادا عظيمة وأمما كثيرين ولم يخبر بذلك السيارة وانما انفرد به الواحد والاثنان و يعلم كذب من أخبر بمعادن ذهب وفضة متيسرة لمن أرادها بمكان يعلمه الناس ولم يخبر بذلك الا الواحد والاثنان وأمثال ذلك كثيرة فباعتبار العقل وقياسه وضربه الامثال يعلم كذب ما ينقل من الامور التي مضت سنة الله بظهورها وانتشارها لو كانت موجودة كما يعلم أيضا صدق ما مضت سنة الله في عباده انهم لا يتواطؤن فيه على الكذب من الأمور المتواترة والمنقولات المستفيضة فان الله جبل جماهير الامم على الصدق والبيان في مثل هذه الامور دون الكذب والكتمان كما جبلهم على الاكل والشرب واللباس فالنفس بطبعها تختار الصدق اذا لم يكن لها في الكذب غرض راجح وتختار الاخبار بهذه الامور العظيمة دون كتمانها والناس يستخبر بعضهم بعضا و يميلون الى الاستخبار والاستفهام عما يقع وكل شخص له من يؤثر ان يصدقه و يبين له دون ان يكذبه و يكتمه والكذب والكتمان يقع كثيرا في بني آدم في قضايا كثيرة لا تنضبط كما يقع منهم الزنا وقتل النفوس والموت جوعا وعريا ونحو ذلك لكن ليس الغالب على انسابهم الا الصحة وعلى أنفسهم الا البقاء فالغرض هنا ان الامور المتواترة يعلم انهم لم يتواطؤا فيها على الكذب والاخبار الشاذة يعلم انهم لم يتواطؤا فيها على الكتمان

(الوجه الثاني) ان دين الامة يوجب عليهم تبليغ الدين واظهاره و بيانه و يحرم عليهم كتمانه و يوجب عليهم الصدق و يحرم عليهم الكذب فتواطؤهم على كتمان ما يجب بيانه كتواطئهم على الكذب وكلاهما من أقبح الامور التي تحرم في دين الامة وذلك باعث موجب الصدق والبيان .

(الثالث) انه قد علم من عدل سلف الامة ودينها وعظيم رغبتها في تبليغ الدين واظهاره وعظيم مجانبتها للكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ما يوجب أعظم العلوم الضرورية بأنهم لم يكذبوا فيما نقلوه عنه ولا كتموا ما أمرهم بتبليغه وهذه

العادة الحاجية الخاصة الدينية لهم غير العادة العامة المشتركة بين جنس البشر

(الرابع) ان العلماء الخاصة يعلمون من نصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم الموجبة عليهم التبليغ ومن تعظيمهم لامر الله ورسوله ومن دين آحادهم مثل الخلفاء ومثل ابن مسعود وأبي ومعاذ وأبي الدرداء الى ابن عمر وابن عباس وابن عمرو وغيرهم يعلمون علما يقينا لايتخالجه ريب امتناع هؤلاء من كتمان قواعد الدين التي يجب تبليغها الى العامة كما يعلمون امتناعهم من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم أيضا أهل الحديث مثل أحوال المشاهير بمعرفة ذلك مثل الزهري وقتادة ويحيى بن أبي كثير ومثل مالك والثوري وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وغيرهم أمورا يعلمون معها امتناعهم من الكذب وامتناعهم عن كتمان تبليغ هذه الامور العظيمة التي تأبى أحوالهم كتمانها لو كانت موجودة ولهم في ذلك أسباب يطول شرحها وليس الغرض هنا تقرير ذلك وانما الغرض التنبيه على ماوقع من الشبهة لبعض الناس من أهل الاهواء

قالوا هذا الذي ذكرتموه معارض بامر الاذان والاقامة فانه كان يعمل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كل يوم خمس مرات ومع هذا فقد وقع الاختلاف في صفته وكذلك الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر وحجة الوداع من أعظم وقائعه وقد وقع الاختلاف في نقلها وذكروا نحو هذه الامور التي وقعت فيها الشبهة والنزاع عند بعض الناس وجعلوا هذا معارضا لما تقدم ليسوغوا ان يكون من أمور الدين مالم ينقل بل كتم لأهواء واغراض وأماجهة الرأي والتنازع فان تنازع العلماء واختلافهم في صفات العبادات بل وفي غير ذلك من أمور الدين صار شبهة لكثير من أهل الاهواء من الرافضة وغيرهم وقالوا ان دين الله واحد والحق لايكون في جهتين (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فهذا التفرق والاختلاف دليل على انتفاء الحق فيما عليه أهل السنة والجماعة ويعبرون عنهم بعبارات تارة يسمونهم الجمهور وتارة يسمونهم الحشوية وتارة يسمونهم العامة ثم صار أهل الاهواء لما جعلوا هذا مانعا من كون الحق فيما عليه أهل السنة والجماعة كل ينتحل سبيلا من سبل الشيطان فالرافضة تنتحل النقل عن أهل البيت لما لاوجود له وأصل

من وضع ذلك لهم زنادقة مثل رئيسهم الاول عبد الله بن سبأ الذي ابتدع لهم الرفض ووضع لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على علي بالخلافة وانه ظلم ومنع حقه وقال انه كان معصوما وغرض الزنادقة بذلك التوسل الى هدم الاسلام ولهذا كان الرفض باب الزندقة والالحاد فالصابئة المتفلسفة ومن أخذ ببعض أمورهم أوزاد عليهم من القرامطة والنصيرية والاسماعيلية والحاكمية وغيرهم انما يدخلون الى الزندقة والكفر بالكتاب والرسول وشرائع الاسلام من باب التشيع والرفض والمعتزلة ونحوهم تنتحل القياس والعقل وتطعن في كثير مماينقله أهل السنة والجماعة ويعللون ذلك بما ذكر من الاختلاف ونحوه وربما جعل ذلك بعض أرباب الملة من اسباب الطعن فيها وفي أهلها فيكون بعض هؤلاء المتعصبين ببعض هذه الامور الصغار ساعيا في هدم قواعد الاسلام الكبار

﴿ فصل ﴾

اذا تبين بعض ما حصل في هذا الاختلاف والتفرق من الفساد فنحن نذكر طريق زوال ذلك ونذكر ما هو الواجب في الدين في هذه المنازعات وذلك ببيان الاصلين الذين هما السنة والجماعة المدلول عليهما بكتاب الله فانه اذا اتبع كتاب الله وما تضمنه من اتباع رسوله والاعتصام بحبله جميعا حصل الهدى والفلاح وزال الضلال والشقاء

اما الاصل الاول وهو الجماعة وبدأنا به لانه اعرف عند عموم الخلق ولهذا يجب عليهم تقديم الاجماع على مايظنونه من معاني الكتاب والسنة فنقول عامة هذه التنازعات انما هي في أمور مستحبات ومكروهات لا في واجبات ومحرمات فان الرجل اذا حج متمتعا أو مفردا أوقارنا كان حجه مجزئا عند عامة علماء المسلمين وان تنازعوا في الافضل من ذلك ولكن بعض الخارجين عن الجماعة يوجب أو يمنع ذلك فمن الشيعة من يوجب المتعة ويحرم ماعداها ومن الناصبة من يحرم المتعة ولا يبيحها بحال

وكذلك الاذان سواء رجع فيه أولم يرجع فانه اذان صحيح عند جميع سلف الامة وعامة خلفها وسواء ربع التكبير في أوله أوثناه وانما يخالف في ذلك بعض

شواذ المتفقهة كما خالف فيه بعض الشيعة فاوجب له الحيعلة بحي على خير العمل وكذلك الاقامة يصح فيها الافراد والتثنية بأيهما قام صحت اقامته عند عامة علماء الاسلام الاما تنازع شذوذ الناس

وكذلك الجهر بالبسملة والمخافتة كلاهما جائز لا يبطل الصلاة وان كان من العلماء من يستحب احدهما أو يكره الآخر أو يختار ان لا يقرأ بها فالمنازعة بينهم في المستحب والا فالصلاة باحدهما جائزة عند عوام العلماء فانهم وان تنازعوا بالجهر والمخافتة في موضعهما هل هما واجبان أم لا وفيه نزاع معروف في مذهب مالك وأحمد وغيرهما فهذا في الجهر الطويل بالقدر الكثير مثل المخافتة بقرآن الفجر والجهر بقراءة صلاة الظهر فاما الجهر بالشيء اليسير أو المخافتة به فما لا ينبغي لاحد أن يبطل الصلاة بذلك وما اعلم احدا قال به فقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان في صلاة المخافتة يسمعهم الآية احيانا وفي صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي قال كنا نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فلما انصرف قال «من المتكلم؟» قال أنا قال «رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها ايهم يكتبها اول» ومعلوم انه لولا جهره بها لما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم ولا الراوي ومعلوم ان المستحب للمأموم المخافتة بمثل ذلك وكذلك ثبت في الصحيح عن عمر انه كان يجهر بدعاء الاستفتاح سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك وهذا فعله بين المهاجرين والانصار والسنة الراتبة فيه المخافتة وكذلك كان من الصحابة من يجهر بالاستعاذة وفي الصحيح عن ابن عباس انه جهر بقراءة الفاتحة على الجنازة وقال لتعلموا انها السنة ولهذا نظائر وايضا فلا نزاع انه كان من الصحابة من يجهر بالبسملة كابن الزبير ونحوه ومنهم من لم يكن يجهر بها كابن مسعود وغيره وتكلم الصحابة في ذلك ولم يبطل احد منهم صلاة احد في ذلك وهذا مما لم أعلم فيه نزاعا وان تنازعوا في وجوب قراءتها فتلك مسئلة أخرى

وكذلك القنوت في الفجر انما النزاع بينهم في استحبابه أو كراهيته وسجود

السهو لتركه أو فعله والا فعامتهم متفقون على صحة صلاة من ترك القنوت وانه ليس بواجب وكذلك من فعله اذ هو تطويل يسير للاعتدال ودعاء الله في هذا الموضع ولو فعل ذلك في غير الفجر لم تبطل صلاته باتفاق العلماء فيما اعلم

وكذلك القنوت في الوتر هل هو في جميع الحول أو النصف الآخر من رمضان انما هو في الاستحباب اذ لا نزاع انه لا يجب القنوت ولا تبطل الصلاة به وكذلك كونه قبل الركوع أو بعده

وكذلك التسليمة الثانية هل هي مشروعة في الصلاة الكاملة والناقصة أو في الكاملة فقط أم ليست مشروعة هو نزاع في الاستحباب لكن عن أحمد رواية ان التسليمة الثانية واجبة في الصلاة الكاملة، اما وجوب الاركان أو وجوب ما يسقط بالسهو على نزاع في ذلك والرواية الاخرى الموافقة للجمهور انها مستحبة في الصلاة الكاملة أما وجوب الاركان أو وجوب ما يسقط بالسهو على نزاع في ذلك والرواية الأخرى الموافقة للجمهور انها مستحبة في الصلاة الكاملة

وكذلك تكبيرات العيد الزوائد انما النزاع في المستحب منها والا فلا نزاع في انه يجزىء ذلك كله وكذلك أنواع التشهدات كلها جائز ما أعلم في ذلك خلافا لا خلافا شاذا وإنما النزاع في المستحب

وكذلك أنواع الاستفتاح في الصلاة وأصل الاستفتاح انما النزاع في استحبابه وفي أي الانواع أفضل والخلاف في وجوبه خلاف قليل نذكر قولا في مذهب الامام أحمد

واذا كان النزاع انما هو في الاستحباب علم الاجماع على جواز ذلك وأجزائه ويكون ذلك بمنزلة القراآت في القرآن فان جميعها جائز وإن كان من الناس من يختار بعض القراآت على بعض وبهذا يزول الفساد المتقدم فانه اذا علم ان ذلك جميعه جائز مجزيء في العبادة لم يكن النزاع في الاختيار ضارا بل قد يكون النوعان سواء وان رجح بعض الناس بعضها ولو كان احدهما أفضل لم يجز ان يظلم من يختار المفضول ولا يذم ولا يعاب باجماع المسلمين بل المجتهد المخطىء لا يجوز ذمه باجماع المسلمين ولا يجوز التفرق بذلك بين الامة ولا أن يعطى المستحب فوق

حقه فانه قد يكون من أتى بغير ذلك المستحب من أمور أخرى واجبة ومستحبة أفضـل بكثير ولايجوز ان تجعل المستحبات بمنزلة الواجبات بحيث يمتنع الرجل من تركها ويرى انه قد خرج من دينه أو عصى الله ورسوله بل قد يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضـل من فعلها بل الواجبات كذلك ومعلوم ان ائتلاف قلوب الامة أعظم في الدين من بعض هذه المستحبات فلو تركها المرء لائتلاف القلوب كان ذلك حسنا وذلك أفضل اذا كان مصلحة ائتلاف القلوب دون مصلحة ذلك المستحب وقد اخرجا في الصحيحين عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لها « لولا ان قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة ولألصقتها بالارض ولجعلت لها بابا يدخل الناس منه وبابا يخرجون منه» وقد بين احتج بهذا الحديث البخاري وغيره على ان الامام قد يترك بعض الامور المختارة لأجل تأليف القلوب ودفعا لنفرتها ولهذا نص الامام أحمد على انه يجهر بالبسملة عند المعارض الراجح فقال يجهر بها اذا كان بالمدينة قال القاضي لأن أهلها اذ ذاك كانوا يجهرون فيجهر بها للتأليف وليعلمهم انه يقرأ بها وقال غيره بـل لأنهم كانوا لا يقرؤنها بحال فيجهر بها ليعلمهم انه يقرأ بها وان قراءتها سنة كما جهر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته وبهذا يزول الشك والطعن فان الاتفاق اذا حصل على جواز الجميع واجزائه علم انه داخل في المشروع فالتنازع في الرجحان لايضر كالتنازع في رجحان بعض القراآت وبعض العبادات وبعض العلماء ونحو ذلك بل قد امر النبي صلى الله عليه وسلم كلا من القراء ان يقرأ كما يعلم ونهاهم عن الاختلاف في ذلك فمن خالف في ذلك كان ممن ذمه الله ورسوله فاما أهل الجماعة فلا يختلفون في ذلك

وأما الاصل الثاني فنقول السنة المحفوظة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها من السعة والخير ما يزول به الحرج وانما وقعت الشبهة لاشكال بعض ذلك على بعض الناس أما الاذان فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة ان النبي صلى الله عليه وسلم سن في الاقامة الايثار والشفع ففي الصحيحين انه أمر بلالا أن يشفع الأذان ويوتر الاقامة وفي صحيح مسـلم انه علم أبا محذورة الاقامة مثنى مثـل

الاذان فاذا كان كل واحد من مؤذني رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمره النبي صلى الله عليه وسلم بأحد النوعين صار ذلك مثل تعليمه القرآن لعمر بحرف ولهشام بن حكيم بحرف آخر وكلاهما قرآن أذن الله ان يقرأ به

وكذلك الترجيع في الاذان هو ثابت في أذان أبي محذورة وهو محذوف من أذان بلال الذي رووه في السنن وكذلك الجهر بالبسملة والمخافتة بها صح الجهر بها عن طائفة من الصحابة وصحت المخافتة بها عن أكثرهم وعن بعضهم الامران جميعاً واما المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم فالذي في الصحاح والسنن يقتضي انه لم يكن يجهر بها كما عليه عمل أكثر الصحابة وأمته ففي الصحيح حديث أنس وعائشة وأبي هريرة يدل على ذلك دلالة بينة لا شبهة فيها وفي السنن أحاديث أخر مثل حديث ابن مغفل وغيره وليس في الصحاح والسنن حديث فيه ذكر جهره بها والاحاديث المصرحة بالجهر عنه كلها ضعيفة عند أهل العلم بالحديث ولهذا لم يخرجوا في أمهات الدواوين منها شيئاً ولكن في الصحاح والسنن أحاديث محتملة وقد روى الطبراني باسناد حسن عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهر بها اذ كان بمكة وانه لما هاجر الى المدينة ترك الجهر بها حتى مات ورواه أبو داود في الناسخ والمنسوخ وهذا يناسب الواقع فان الغالب على أهل مكة كان الجهر بها وأما أهل المدينة والشام والكوفة فلم يكونوا يجهرون بها وكذلك أكثر البصريين وبعضهم كان يجهر بها ولهذا سألوا أنسا عن ذلك ولعل النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهر بها بعض الاحيان أو جهرا خفيفاً اذا كان ذلك محفوظا واذا كان في نفس كتب الحديث انه فعل هذا مرة وهذا مرة زالت الشبهة

واما القنوت فأمره بين لاشبهة فيه عند التأمل التام فانه قد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قنت في الفجر مرة يدعو على رعل وذكوان وعصية ثم تركه ولم يكن تركه نسخاً له لانه ثبت عنه في الصحاح انه قنت بعد ذلك يدعو للمسلمين مثل الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام والمستضعفين من المؤمنين ويدعو على مضر وثبت عنه انه قنت أيضاً في المغرب والعشاء وسائر الصلوات قنوت استنصار فهذا في الجملة منقول ثابت عنه لكن اعتقد بعض العلماء من الكوفيين انه تركه ترك

نسخ فاعتقد ان القنوت منسوخ واعتقد بعضهم من المكيين انه مازال يقنت في الفجر القنوت المتنازع فيه حتى فارق الدنيا والذي عليه أهل المعرفة بالحديث انه قنت لسبب تركه لزوال السبب فالقنوت من السنن العوارض لا الرواتب لأنه ثبت انه تركه لما زال العارض ثم عاد اليه مرة أخرى ثم تركه لما زال العارض وثبت في الصحاح انه لم يقنت بعد الركوع الا شهرا هكذا ثبت عن أنس وغيره ولم ينقل أحد قط عنه انه قنت القنوت المتنازع فيه لا قبل الركوع ولا بعده ولا في كتب الصحاح والسنن شيء من ذلك بل قد أنكر ذلك الصحابة كابن عمر وأبي مالك الأشجعي وغيرهما ومن المعلوم قطعا ان الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان كل يوم يقنت قنوتا يجهر به لكان له فيه دعاء ينقله بعض الصحابة فانهم نقلوا ما كان يقوله في القنوت العارض وقنوت الوتر فالقنوت الراتب أولى ان ينقل دعاؤه فيه فاذا كان الذي نستحبه انما يدعو فيه لقنوت الوتر علم انه ليس فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا مما يعلم باليقين القطعي كما يعلم عدم النص على هذا وامثاله فانه من الممتنع ان يكون الصحابة كلهم أهملوا نقل ذلك فانه مما يعلم بطلانه قطعا وكذلك المأثور عن الصحابة مثل عمر وعلي وغيرهما هو القنوت العارض قنوت النوازل ودعاء عمر فيه وهو قوله اللهم عذب كفرة أهل الكتاب الخ يقتضي انه دعا به عند قتله النصارى وكذلك دعاء علي عند قتاله لبعض أهل القبلة والحديث الذي فيه عن أنس انه لم يزل يقنت حتى فارق الدنيا مع ضعف في اسناده وانه ليس في السنن انما فيه القنوت قبل الركوع وفي الصحاح عن أنس انه قال لم يقنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الركوع الا شهرا والقنوت قبل الركوع هو القيام الطويل اذ لفظ القنوت معناه دوام الطاعة فتارة يكون في السجود وتارة يكون في القيام كما قد بيناه في غير هذا الموضع

وأما حجة الوداع وان اشتبهت على كثير من الناس فانما أتوا من جهة الالفاظ المشتركة حيث سمعوا بعض الصحابة يقول انه تمتع بالعمرة الى الحج وهؤلاء أيضا يقولون انه أفرد الحج ويقول بعضهم انه قرن العمرة الى الحج ولا خلاف في ذلك فانهم لم يختلفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحل من احرامه وانه

كان قد ساق الهدي ونحره يوم النحر وانه لم يعتمر بعد الحجة في ذلك العام لا هو ولا احد من اصحابه الا عائشة أمر أخاها ان يعمرها من التنعيم أدنى الحل وكذلك الاحاديث الصحيحة عنه فيها أنه لم يطف بالصفا والمروة الا مرة واحدة مع طوافه الاول فالذين نقلوا انه أفرد الحج صدقوا لأنه أفرد أعمال الحج لم يقرن بها عمل العمرة كما يتوهم من يقول ان القارن يطوف طوافين ويسعى سعيين ولم يتمتع تمتعا حل به من احرامه كما يفعله المتمتع الذي لم يسبق الهدي بل قد أمر جميع أصحابه الذين لم يسوقوا الهدي ان يحلوا من احرامهم ويجعلوها عمرة ويهلوا بالحج بعد قضاء عمرتهم

باب المقالات

منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق . الاستبداد

(٣)

الفائدة الثانية الخروج من الاستبداد

أتى على الشرق حين من الدهر كان يعبد فيه الملوك عبادة حقيقية ويسميهم آلهة ويدعوهم أربابا وهو لم يسلم من هذا الاعتقاد سلامة تامة عامة الى اليوم ثم ارتقى بعض شعوبه الى الاعتقاد بأن الملوك ليسوا آلهة خالقين ولكنهم أصحاب سلطة إلهية وسيادة ربانية تجب طاعتهم عدلوا أو ظلموا، وتقديسهم اساؤا أو أحسنوا، ثم جاء الاسلام باصلاح جديد، فجعل أمر المؤمنين شورى بينهم وأمر أصحاب الرأي السديد، والمعرفة بالمصالح العامة وأجب الامتثال في سياسة الامة وادارتها حتى لا يطمع فرد من الافراد بالاستئثار بالسلطة والاستبداد بالأمر . وجرى النبي صلى الله عليه وسلم في سياستهم على هذه القاعدة فكان يقدم رأي أصحاب الرأي المعبر عنهم بأولي الأمر على رأيه كما فعل يوم أحد اذ كان صرح بأنه لا يرى الخروج الى حرب قريش حتى تصل الى المدينة ورأى أصحابه الخروج فعمل برأيهم وكما فعل يوم بدر والاحاديث في ذلك كثيرة

شهيرة . ولكن الشرق لم يكن تم استعداده لهذا الاصلاح الاعلى لما بيناه في مقال (طبيعة الاجتماع في الحاكين والمحكومين) لذلك تسنى لبني أمية أن يعبثوا به ويزيلوه في زمن قريب

ولي أبو بكر رضي الله عنه أمر المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس وقال : وليت عليكم ولست بخيركم فاذا استقمت فأعينوني واذا زغت فقوّموني : وولي عمر رضي الله عنه فقال نحو ذلك في خطبته . ومن المشهور المستفيض على الألسنة انه لما قال على المنبر : من رأى منكم فيّ عوجا فليقومه : قام رجل فقال لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا فقال : الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوّم عوج عمر بسيفه : ومما روي عن عثمان رضي الله عنه انه قال على المنبر « أمري لأمركم تبع » وقال في أول خطبة خطبها بعد أن ولي الخلافة الاوان لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ثلاثا — اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم — وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ ، والكف عنكم الا فيما استوجبتم »

فانظر كيف قيد اتباع من كان قبله بكونه فيما اجتمعوا عليه وسنوه فهو دليل وراء الادلة العملية على ان أبا بكر وعمر كانا يأخذان برأي الأمة ، فيما لم يرد به الكتاب ولم تمض به السنة ، وتأمل قوله « فيما لم تسنوا عن ملأ » والملأ الجماعة من أهل الرأي والمكانة في الأمة وهم بمعنى النواب

أما سيرة علي كرم الله وجهه ورضي عنه فهي على تلك السنة ماغير ولا بدل ولا رغب في الدنيا ولا جنح الى زخرفها ولكن نزا عليه بنو أمية أعداء بني هاشم في الجاهلية والاسلام وكان من أمرهم ما كان ولا محل لشرحه في هذا التمهيد . وانما غرضنا أن نقول إنهم استبدوا عملا وما عتموا أن جهروا بالخروج عن سنن الاسلام في حكمه قولا اذ قال خطيبهم عبد الملك بن مروان على المنبر « من قال لي اتق الله ضربت عنقه » فتحولت الحكومة الى استبدادية كانت على حسب سيرة الحاكم الاعلى الملقب بالخليفة أو الملك فتارة يكون عادلا كعمر ابن عبد العزيز وتارة يكون جائرا وتارة متوسطاً وكان معظم ظلمهم وظلم من

بعدهم لمن يأنسون منه سخطا من سلطتهم أو مقاومة لها وسائر الناس في راحة وأمان ، يتقدم به العلم ويزهو العمران ، حتى استدار الزمان ، ورجع الشرق الى نحو ما عليه كان ،

أخبار المماليك يقلّ في القارئين من لا يعرفها ، وسيرة اسماعيل باشا لم يمت جميع من ذاقوا مرارتها ، ومفاسد بايات تونس مأثوره ، ومنكرات دايات الجزائر غير منكورة ، كان من هؤلاء من يعاقب الناس الذين يحل عليهم غضبه ولو لحفظ عرضهم من فسقه بأحدى ثلاث — الخازوق أو ترديته من أعلى جبل قسنطينة أو إغراء كلاب عاقرة به تنهشه وتمزق لحمه حتى يموت شر ميتة . كان هذا قبيل إغارة فرنسا على الجزائر . ولا يجهل أحد من قراء الصحف حال بقية الممالك التي لما تؤثر فيها حالة الأوربيين ولم تحملها على تغيير سلطتها الاستبدادية إما لجهلها بها لعدم الاختلاط بهم واقتباس علومهم والوقوف على حال حكوماتهم كمراكش واما لأن السلطة الاستبدادية فيها لاتزال أقوى وأقدر على منع العلم عن الجاهلين ، مع مطاردة طلاب الاصلاح من العارفين ، كما هو شأن الحكومة العثمانية

ان محاربة الاستانة للعلم والدين ، ومطاردتها للعقلاء والعارفين ، لفوق مايتخيل المتخيلون ، لأنها اضعاف مايروي الراوون ، ان أكثر المطبوعات العربية الجديدة التي تعد في مصر من آيات الارتقاء التي استعدت أو تستعد بها الامة لأن تحكم نفسها بنفسها هي في الولايات العثمانية من اشد الجنايات وأعظم الجرائم تضطرب لذكرها القلوب وترتعد الفرائص حتى من أولئك الذين يسفكون الدماء بالاسواق في وقت الضحى لأن سافك الدم كثيرا مايسلم بالرشوة أو المحاباة ، واذا حوكم لاتتبرأ منه المحاماة ، واذا حكم عليه يدركه العفو في أحد الأعياد بعد عشر سنين أو اقل ، أما من يتهم باقتناء كتاب مما يعد منبها للافكار أو بطلبه من مصر فلا يتجرأ أحد على الدفاع عنه ، ولا على الارتشاء منه ، ولا يؤخذ منه عدل ولا تنفعه شفاعة ،

كم من عالم عامل ، ومن غيور فاضل ، يئن في ظلمات السجن لا يتجرأ أحد على ذكره ولا السؤال عنه ، وكم من عالم وغيور أخرج من داره ، ونفي الى حيث لا يسمع أهله وولده بذكره ، وما كنت عازما على الاشارة الى مثل هذا لولا أن

ألقي اليَّ قبل هذه الكتابة رقيم من الحجاز فيه ان أمير مكة جلد بعض أهل العلم مئة جلدة على مشهد من الناس ثم كبله في السلاسل والاغلال لأنه كتب كتابا في التوحيد قال فيه ان الأمر كله لله لاينبغي ان يطلب الخير ودفع الضر من غيره عز وجل بعد العجز عن الاسباب التي سنها واستعمال القوى التى وهبها فصار إظهار التوحيد الخالص ممنوعا بهذه الحكومة في حرم الله ، وقد كان أعظم مظهر له في أرض الله ،

هذا واليابان تفاخر أوربا بالحرية والعدل وحكم الشورى وايران تحاول مجاراتها في ذلك ومصر لاحديث لها الا المجلس النيابي فمن أبنائها من يلح بطلبه الآن ومنهم من يقول يجب أن نعد له أولا عدته ونكتفي الآن بتوسيع اختصاص مجلس الشورى ومجالس المديريات . وقد سبقهم العثمانيون الى المطالبة باعادة القانون الاساسي ومجلس المبعوثان (أي النواب) ونرى أهم حديث للجرائد التونسية في هذه الأيام حديث مجلس الشورى عندهم والمطالبة بانصاف التونسيين من الأوربيين

لكن الفرق بين المصري وأخيه العثماني أن الأول يجهر بطلبه في بلده ويناقش حكومته جهرا في المجالس الرسمية وفي الجرائد وفي المحافل العامة والخاصة وقد يطمن عليها وعلى القوة المشرفة عليها وهي تبيح له ذلك والعثماني لايتجرأ على الحديث بذلك في بلاده وان كان في كسر بيته ، قد أغلقت ، دونه الأبواب ، وأرخيت عليها السجوف والاستار ، لأنه أعلم الناس بالمثل القائل « للحيطان آذان » وهو لا يأمن على نفسه الاهل والجيران ، لأن الاستبداد ، قد أفسد الناس أي افساد ، حتى صار الرجل الحر يفر من أخيه ، وأمه وأبيه ، وفصيلته التي تؤويه ، وانما يجهر بذلك في أوربا ومصر ، وكل بلاد ليس فيها لأبناء جنسه سلطان ولا حكم ،

فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الاوربيين معرفة مايجب ان تكون عليه الحكومة واصطباغ نفوسهم بها حتى اندفعوا الى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة بالحكم المطلق الموكول الى ادارة الافراد فمنهم من نال أمله على وجه الكمال كاليابان ، ومنهم من بدأ بذلك كايران ، ومنهم من يجاهد في سبيل ذلك بالقلم واللسان ، كمصر وتركيا

ليست هذه الفائدة بالشيء التافه ولا بالامر اليسير ولاهي بالمنفعة التي تقرن بالنظائر بل هذه مرتبة البشرية العليا ، في هذه الحياة الدنيا ، فان القوم الذين يرضون ان يستبد بهم حاكم يفعل فيهم مايشاء ويحكم بما يريد ينبغي ان يعدوا من الدواب الراعية ، والانعام السائمة ، إذن هذه الفائدة هي عبارة عن الارتقاء من حضيض البهيمية ، الى أفق الانسانية ، فحسب الشرق أن استفاد هذه الفائدة وعرف قيمتها

لاتقل أيها المسلم ان هذا الحكم أصل من أصول ديننا فنحن قد استفدناه من الكتاب المبين ، ومن سيرة الخلفاء الراشدين ، لامن معاشرة الأوربيين ، والوقوف على حال الغربيين ، فانه لولا الاعتبار بحال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك بأن هذا من الاسلام ولكان أسبق الناس الى الدعوة الى إقامة هذا الركن علماء الدين في الآستانة وفي مصر ومراكش وهم هم الذين لا يزال أكثرهم يؤيد حكومة الأفراد الاستبدادية ويعد من أكبر أعوانها ، ولما كان أكثر طلاب حكم الشورى المقيد هم الذين عرفوا أوربا والأوربيين ، وقد سبقهم الوثنيون إلى ذلك . ألم تر الى بلاد مراكش الجاهلة بحال الأوربيين كيف تتخبط في ظلمات استبدادها ولا تسمع من أحد كلمة « شورى » مع أن أهلها من أكثر الناس تلاوة لسورة الشورى ولغيرها من السور التي شرع فيها الأمر بالمشاورة وفوض حكم السياسة الى جماعة أولي الأمر والرأي

فان قلت ان أول من نبه المصريين الى حقوق الأمة على الحاكم والى فضل حكومة الجمهورية والملكية المقيدة على الحكومة الاستبدادية شيخان من شيوخ الدين واماما ن من أئمة الاسلام وهما السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده وانك أنت قد نشرت في « المنار » مقالات للسيد مقالات في « الحكومة الاستبدادية » كانت مما نشره هو في بعض الجرائد على عهد اسماعيل باشا وهي تحرك الجماد وصرحت في ترجمة الشيخ بأنه كان يدعو الى ذلك وانه قال بل كتب عن نفسه هذه الكلمة الجليلة « دعونا الى هذا والاستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أي عبيد » وقد كان مضى على المصريين أكثر من

نصف قرن وهم يتدارسون علوم أوربا ويشتركون مع الأوربيين في كثير من الأعمال ويتزاحمون معهم بالمناكب ويتبادلون بالأموال، ولم يخطر في بالهم ان يقلدوهم باصلاح الحكومة والسيطرة عليها

ان قلت هذا محتجا على اننا نحن المسلمين، قد اقتبسنا فائدة مقاومة الاستبداد من الدين، فان لي أن أجيبك عن ذلك بأني لا أنكر ان ديننا يفيدنا ذلك كما رأيت في مقدمة هذا المقال. كيف وانني لم أطلع على كتابة لأحد في ذلك أوسع مما كتبته في «المنار» وانني مطلع على سيرة هذين الامامين الحكيمين وعالم بأنهما كانا قد عاهدا توفيق باشا قبل ان يصير الأمر اليه على نصره وعاهدهما هو على انشاء مجلس نيابي وعلى تعميم التعليم في القطر المصري، ومع هذا كله أقول اننا لولا اختلاطنا بالأوربيين لما تنبهنا من حيث نحن أمة أو أمم الى هذا الأمر العظيم، وان كان صريحا جليا في القرآن الحكيم، نعم ان استاذينا الحكيمين رحمهما الله تعالى أهل لأن يفهما ذلك من القرآن لأنهما أول من دعا في هذا العصر الى جعله أساسا للإصلاح وبينا من حكمه وفضله، ما عجزت الأوائل عن الاتيان بمثله، ولكن كلامنا في تنبه الشعوب الشرقية على اختلاف مللها ونحلها، لا تنبه فيلسوفين من أهل ملة منها، على أن هذين الحكيمين قد استفادا من الاعتبار بحال أوربا وعرفا حال أهلها قبل دعوتهما الى هذا الاصلاح

لا ينبه الامة الى مثل هذا التغيير العظيم الا الاحساس بالخطر والخوف من سوء العاقبة ورؤية العبر بأعينها، وسماع أخبار الذين صرعوا الاستبداد من قبلها، ولذلك نقول اننا ما عرفنا قيمة هذه الفائدة الا بعد أن أحسسنا بالغائلة التي تقابلها وهي مواثبة استقلالنا والاعتداء عليه وهي ما سنبينه في قسم المضار ان شاء الله تعالى



فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

أسئلة من بعض أهل العلم بتونس

التوحيد وتوفي ملك الموت الناس

(س ١٤) أعظم أساس أقيم عليه هيكل الاسلام توحيد الله تبارك وتعالى واعتقاد انه وحده المتصرف في الكون وكيف نجامع هذه العقيدة الاعتقاد بملك الموت الذي جاء به قوله تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) فما الحكمة في تفويض أمر توفي الانفس لهذا الملك

(ج) ان تفويض التوفي الى بعض الملائكة كتفويض تبليغ الوحي للأنبياء الى بعضهم وكتفويض تبليغ الرسالة للناس الى المرسلين وكتفويض غير ذلك من الأعمال الى المخلوقين كل ذلك لا ينافي التوحيد وكون الله سبحانه وتعالى هو المتصرف في الكون لأنه عز وجل هو الذي أقدرهم وهو الذي سخرهم ولو سلبهم ما أعطاهم لما قدروا على شيء ولكن قضت حكمته ان يربط أمور الكون بعضها ببعض فيجعل هذا سببا لذاك وهو واضع الاسباب والمسببات ومدبر العلل والمعلولات وقد بين لنا في كتابه كلتا الحقيقتين — حقيقة ربط الاسباب بالمسببات وحقيقة انفراده بالخلق والتدبير. ومنه ذلك الربط والتسخير. فكما قال (٣٢ : ١١ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) وقال (٣٩ : ٤٢ الله يتوفى الانفس حين موتها) وقال (٣٩ : ٦٢ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) والكل مقام مقال ولا تنافي بين الحقيقتين عند العقلاء حتى من أهل الوثنية الراقية كمشركي العرب وقت البعثة وانما كان شرك هؤلاء خاصا بالعبادة وهو التوجه بالقلب الى غير الله في قضاء الحاجات عند العجز عن

الوصول اليها من طريق الاسباب أوفي التقرب الى الله وما يتبع ذلك من دعاء المتوجه اليه وجعله وسيلة الى الله كما بين لنا ذلك الكتاب العزيز في آيات تنطق بأنهم كانوا يعتقدون أن الله خالق كل شيء وان مايدعون من دونه انما يدعى ليشفع لهم عنده ويقربهم اليه زلفى وهذا هو الشرك في الالوهية وقد شرحناه مرارا كثيرة في بابي التفسير والفتاوى وغيرهما من أبواب المنار وترى منه شيئا في التفسير من هذا الجزء . وهذا النوع من الشرك هو الذي ابتلي به أكثر الخلق بما يقيسون في هذا الاصل الذي يجب ان يكون مبنيا على البرهان القطعي لا على القياس الظني أوالوهمي وناهيك بقياس الرب الرحيم العليم الحكيم على الملوك القساة الجهلاء السفهاء اذ يقولون : ان الملك يقضي حاجات الناس بواسطة المقربين اليه من حاشيته أو وزرائه أو يكل اليهم ذلك ولا يسمح لكل أحد ان يطلب حاجته منه مباشرة فكذلك يفعل الله: سبحانه وتعالى عما يصفون فقد أبطل هذا القياس على ألسنة جميع رسله وهدى الناس الى أن يلتمسوا منه حاجاتهم بالسير على سننه في الاسباب والمسببات حتى اذا أعوزهم السبب وضاقت بهم السبل ونفدت منهم الحيل وجب عليهم أن يلجؤا اليه ويعولوا في أمرهم عليه ويخصوه بالدعاء ويقصروا عليه الرجاء عسى أن يهديهم الى ماجهلوا من الاسباب أو يخفف عليهم ثقل ماحملوا من الاوصاب ولم يأذن لهم أن يدعوا من دونه أحدا ولا أن يطلبوا منه عونا أو مددا أما تقرأ ما أمر به خاتم أنبيائه وصفوة اصفيائه (٧٢ : ٢٠ قل انما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا ٢١ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ٢٢ قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ٢٣ الا بلاغا من الله ورسالاته) فاذا كان خاتم النبيين والمرسلين لا يملك للناس ضرا يدفعه أو نفعا يرفعه أو رشدا يهدي به القلوب بل يملك التبليغ للرسالة فقط وهو فيما عدا ذلك بشر مثلكم فماذا تقول بغيره ممن يطلب منهم ذلك ؟

اما الحكمة في جعل قبض الارواح موكولا الى ملك الموت فهي داخلة في الحكمة العامة في ربط الاسباب بالمسببات وجعل الأرواح اللطيفة عاملة في الاجسام الكثيفة وعلى طالب الحكمة ان يعرف ذلك فمتى عرفه أو عرف منه لم

يقل لم كان كذلك لانه يشاهد أنه منتهى الكمال في الإبداع كما أن منتهى الجهل في الناس أن يظنوا أن خلق كل شيء أنفا هو أدل على كمال قدرة الخالق كما تخيلت القدرية كأن هؤلاء الجاهلين يرون أن الحكمة والنظام ينافيان كمال القدرة تعالى الله عن جهلهم

﴿ قيام الدين بالدعوة . وحديث أمرت ان اقاتل الناس ﴾

(س ١٥) الاسلام كما لا يخفى عليكم قام بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالسيف والقوة كما يعتقد الكثير من أصدقاء الدين الجهلاء وكيف يجامع هذا قوله صلى الله عليه وسلم « أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها » فانه صريح في ان القتال كان للحمل على الدخول تحت لواء الاسلام

(ج) أما كون الاسلام قام بالدعوة لا بالسيف فهذا قطعي لا ريب فيه واما الحديث فقد ورد في مشركي العرب الذين لم تقبل منهم الجزية بعد الإذن بقتالهم وما أذن للمسلمين بقتالهم الا بعد أن آذوا النبي ومن معه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وقعدوا لهم كل مرصد ووقفوا في سبيل الدعوة فلم يكن الاذن الا للدفاع عن الحق وحماية الدعوة كما بيناه مرارا وليس الغرض من الحديث بيان أصل مشروعية القتال فان هذا مبين في الكتاب العزيز بمثل قوله تعالى (٢٢ : ٣٩ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآيات وقوله (٢ : ١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) الآيات وانما الغرض منه بيان أن قول لا اله إلا الله كاف في حقن الدم وان لم يكن القائل لها من المشركين معتقدا لأن الأمر في ذلك يبنى على الظاهر . وهذا بالنسبة الى وقت القتال ولكنه بعد ذلك يؤمر بالصلاة والزكاة فان امتنع عن قبولهما لا يعتد بإسلامه كما يؤخذ من رواية « حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » وهو في الصحيحين على غرابته لان شعبة تفرد بروايته عن واقد وقد عد من الاشكال فيه ان يكون راويه ابن عمر مع ما علم من محاجة عمر لابي بكر في قتال مانعي الزكاة ولم يحتج به عمر ولا ابنه قاله له وأجاب ابن حجر عن هذا

باحتمال نسيان عبد الله له في ذلك الوقت . ومما يؤيد قولنا ان الحديث خاص بالمشركين وان كان لفظه عاما رواية النسائي له بلفظ « أمرت ان أقاتل المشركين » وقد علمت ان المراد بيان غاية القتال لامشروعيته وان سبب مشروعيته الدفاع وتأمين الدعوة ومنع الفتنة لا للاكراه على الدين المنفي بنص القرآن الحكيم

﴿ الاضطهاد فى الدين وقتل المرتد ﴾

(س١٦) اذا كان الاسلام لايضطهد أحداً لعقيدته فكيف يشرع قتل المرتد الثابت بقوله صلى الله عليه وسلم « من بدل دينه فاقتلوه »

(ج) كان المرتد من مشركي العرب يعود الى محاربة المسلمين وايذائهم فمشروعية قتله أظهر من مشروعية قتال جميع المشركين المحادين للاسلام . وكان بعض اليهود ينفر الناس من الاسلام باظهار الدخول فيه ثم باظهار الارتداد عنه ليقبل قوله بالطعن فيه . قال تعالي (٣ : ٧١ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) فاذا هدد أمثال هؤلاء بقتل من يؤمن ثم يرتد فانهم يرجعون عن كيدهم هذا فالظاهر ان الأمر بقتل المرتد كان لمنع شر المشركين وكيد الماكرين من اليهود فهو لأسباب قضت بها سياسة ذلك العصر التي تسمى في عرف أهل عصرنا سياسة عرفية عسكرية لا لاضطهاد الناس في دينهم . ألم تر ان بعض المسلمين أرادوا ان يكرهوا أولادهم المتهودين على الاسلام فمنعهم النبي (ص) بوحي من الله عن ذلك حتى عند جلاء بني النضير والاسلام في أوج قوته وفي ذلك نزلت آية (٢ : ٢٥٦ لا إكراه في الدين)

﴿ حكاية القرآن المسخ في بني اسرائيل ﴾

(س١٧) جاء في القران الحديث عن مسخ بعض الامم من بني اسرائيل فهل هو محمول على حقيقته من انقلاب الاعيان كما هو مذهب الجمهور (وهو مخالف لسنة الله في الكون) أو هو محمول على التشنيع بحالهم كما هو مذهب مجاهد ؟ واذا كان كذلك فبماذا نجيب عن قوله صلى الله عليه وسلم « مسخت امرأة من بني اسرائيل » هذه الآية وما ماثلها تعد من أصول الدين وقواعده العامة التي تقضي على غيرها ولا يقضي عليها شيء ولا يمكن رد الحديث اليها فما وصل اليه علمنا الا بحمله على ذلك السبب الخاص فكأن الضرورة قضت بذلك في تلك الحال

(ج) لفظ المسخ لم يرد في القرآن الا في آية واحدة هي قوله تعالى (٢٦ : ٦٧ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) وهي بيان لقدرة الله تعالى على الانتقام منهم لو شاء ولكنه لرحمته لم يفعل كل ما يقدر عليه من التنكيل بالكافرين والظالمين والمروي عن السلف تفسير المسخ هنا بالاقعاد أو الاهلاك روى ابن جرير عن الحسن « ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم قال لو نشاء لاقعدناكم » ورواه عن قتادة بلفظ « لأقعدناهم على أرجلهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون فلم يستطيعوا ان يتقدموا ولا أن يتأخروا » وروي عن ابن عباس انه قال فى تفسيرها « ولو نشاء أهلكناهم في مساكنهم » ولم يرو عن أحد أنه قال ان المسخ تحويل الخلقة من شكل الى شكل . ويقول الراغب فى المفردات ان المسخ تشويه الخلق والخلق وتحويلهما من صورة الى صورة : وهو مأخوذ من مسخت الناقة أي أنضيتها حتى تغير خلقها ولا يفهم منه أنك جعلتها بقرة . والحديث الذي ذكرته لا أتذكر اين يوجد ولكنني أعلم انه ليس في الصحيحين والخطب في مثله سهل بعد الذي علمت وبعد العلم بأن هذه الروايات في الأمور التي يطلب فيها العلم الصحيح ليست مما يحتج به

﴿ الدابة التي تتكلم في آخر الزمان ﴾

(س ١٨) مامعنى قوله تعالى (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم) فهل الآية محمولة على ظاهرها أوهي كناية عن ظهور العجائب

(ج) هذه الآية مما أخبر الله به عن المستقبل البعيد فهي من أنباء الغيب التي تؤخذ بالتسليم مالم يكن ظاهرها محالا فتحمل على خلاف الظاهر بالتأويل كما هي القاعدة وكلام الدواب ليس محالا في نظر العقل ولذلك يطمع علماء الافرنج الآن في معرفة لغة بعض الحيوانات كالقرود والببغاء تتكلم بالقدر المعروف

وبحتمل أن تترقى في هذا الكلام كما يحتمل ان توجد حيوانات أخرى تكلم الناس ولا نقبل أقاصيص المفسرين في ذلك

﴿ طائفة محمد بن عيسى أكلة الثعابين والنار ﴾

(س١٩) من الناس طائفة تنتسب الى الشيخ محمد بن عيسى وتأتي من المنكرات ما يتقطب له وجه السنة ولكن تظهر من الخوارق ما يقف الناظر متحيرا دون الوصول الى حقيقته وادراك كنهه كأكل ذوات السموم وابتلاع المدى وإدخال السيف في البطن والعين وإلصاق النار بالبشرة وأكلها وليس شيء من ذلك بضارّ لهم فما الحقيقة فيما يأتونه

(ج) لو قرأتم ما كتبناه في الكرامات وخوارق العادات في المجلد السادس وغيره لاكتفيتم به عن السؤال بهذا . إن الذين يتخذون عمل الغرائب صناعة كثيرون في كل أمة وأنواع هذه الغرائب كثيرة وكل عاقل يجزم بأن ما يراه منهم يمكن أن يكون من غيرهم اذا هو تمرن عليه وهو على نوعين شعوذة يخيل صاحبها الى الرائي غير الحقيقة وأمور طبيعية جاءت على غير ما يعرف الرائي فظن انها غير طبيعية . ومتى ظهر للانسان شيء من أعمالهم على حقيقته وعرف سببه بطل تعجبه والعاقل يقيس ما لم يعلم من ذلك على ما علم فاما أكل ذوات السموم وهي الثعابين فهو لا يضر الآكل بطبعه له وقد استخرج بعض الاطباء سم الثعبان وأكله وانما يضر اذا أصاب الدم ابتداء ولكن قد يضره الوهم اذا هو أكله معتقدا أنه ضار . واما ابتلاع المدى فما اراه الا من الشعوذة فهو يخيل اليك انه ابتلع المدية من حيث يكون قد ألقاها بخفة لم تشعر بها واما ادخال السيف في البطن والحربة في جفن العين فقد شاهدت عمل الرفاعية له ورأيت انه ايهام وتخييل . واما مس البشرة بالنار فهو مما قد يكون بالتعود ومما قد يكون بالتخييل وكلاهما مما شاهدته وقد أحرجت واحدا منهم واردته على ان يمكنني من وضع النار حيث أريد من بدنه فلم يقبل ثم استتبته فأظهر التوبة عن مخادعة الناس بذلك . ولك ان تراجع ما كتبناه من قبل في ذلك

آثار علمية أدبية

﴿ فرائد اللغة العربية ﴾

في لغتنا الغنية فرائد كفرائد اللآلئ ، قد أهملت على جدارتها بالاستعمال ، ومنها المفردات التي يؤدي الواحد منها معنى جملة . وكنت شرعت في جمعها قبل الهجرة الى مصر فكتبت منها أوراقا من حرفي الهمزة والباء ثم حال السفر دون المضي في العمل . وقد عنّ لي الآن أن أذكر بعض هذه الفرائد أذكّر بها الكتاب لعلهم يستعملون منها ما يروق لهم . ولم أراع في الكلمات الآتية ترتيبا ولا نظاما الا ترتيب ما يخطر ببالي أولا فأولا . وهاك ما خطر الآن

(التجذيذ) ان تستتبع القوم فلا يتبعك أحد وهو مصدر جذّذ الرجل

(العدال) ككتاب : أن يقول واحد فيها بقية وآخر ليس فيها بقية — وأن يعرض أمران فلا تدري الى أيهما تصير فانت تتروّى في ذلك وهو مصدر عادل

(الاوبة) بالضم كالكوفة : القوم يكونون مع القوم ولا يستشارون في شيء

(العرازيل) قوم عرازيل : مجتمعون في لصوصية

(الاوشاب) اخلاط الناس المتفرقون ومثله (الاوزاع)

(الاوقاس) بالمهملة والمعجمة السقاط والعبيد وأشباههم

(الغوغاء) السفلة واستعماله بمعنى الضوضاء والجلبة خطأ . وقيل الغوغاء الكثير المختلطون

(الطرّاء) القوم يجيئونك من بعيد من غيران تشعر بهم وهو من الطراء والطروء

(النفيج) الاجنبي يدخل بين القوم ويصلح أمرهم أو الذي يعترض لا يصلح ولا يفسد

(المتنفج) الذي يفتخر بأكثر مما عنده

(النفاج) المتكبر يفتخر بما ليس عنده

(العرّيض) بكسر العين وتشديد الراء الذي يتعرض للناس بالشر

(الغيدار) الذي يسيء الظن فيصيب

(المعنّ) بالكسر من يدخل فيما لا يعنيه ويعرض في كل شيء وهي معنة

(المفنّ) بالكسر ذو الفنون والغرائب وهي مفنة

(الفجفاج) الكثير الكلام المتشبع بما ليس عنده

(الضمضاع) الرجل بلا حزم ورأي ومثله الضعضع

(الوهين) الرجل يكون مع الاجير يحثه على العمل (عزاه التهذيب الى أهل مصر)

(التوليج) ولج ماله: اذا جعله في حياته لبعض ولده فسامع الناس فانقدعوا وسفوا عن سؤاله. يقال ولّج ماله

(الاغراب) أغرب الرجل بالغ في الضحك — وتزوج من غير أهله. وأجرى فرسه الى ان مات

(التنصي) تنصى القوم: تزوج من خيارهم وشرفائهم الذين هم ناصيتهم. ومثله تذراهم أي تزوج من ذروتهم

(الفراطة) كثمامة: الماء يكون شرعاً بين عدة أحياء من سبق اليه فهو له

(التناوة) بالكسر: ترك المذاكرة والمدارسة

(الافناق) يقال أفنق فلان اذا سمنت دوابه

(الافناق) « أفنق الرجل: تنعم بعد بؤس

(الافتجار) « افتجر الكلام: اخترقه من غير ان يسمعه أو يتعلمه من أحد

(الافتحار) « افتحر الكلام والرأي أتى به من قصد نفسه ولم يتابعه عليه أحد

(التجرم) تجرم عليه وتجنى عليه وتذقح له: نسب له الذنب مالم يفعله. و(الذقاحة) بالضم وتشديد القاف من تعوّد التذقح والتجرم

تاريخ الاستاذ الامام

قد تم طبع الجزء الثاني والثالث من هذا التاريخ فأما الثاني فهو في منشآته وآثاره القلمية التي لم تدون في الكتب كمقالاته القديمة والحديثة في الجرائد ولوائحه فى الاصلاح والتربية والتعليم وكتبه ورسائله للعلماء والفضلاء. وناهيك بمقالات العروة الوثقى. وصفحاته ٥٦٠ وأما الثالث فهو في التأبين والتعازي والمراثي وصفحاته ٤٢٨ ولعلهما أطرف كتب الأدب العصرية وأنفسها. واننا نقرظ كلا منهما بنشر مقدمته فانهما أحسن مبين لحقيقتهما

﴿ مقدمة الجزء الثاني ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّا نحنُ نُحيي الموتَى ونكتبُ ما قدَّمُوا وآثارهُمْ، وكُلَّ شيءٍ أحْصيناهُ في إمامٍ مُبِيْنٍ * (سورة يس)

مات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) ولم يمت بل هو حيّ بآثاره، التي هي مقبس أنواره، مات الموتة الطبيعية، وحيي الحياة العقلية الروحية، فهو لا يزال كما كان، قبل ان يغيب عن العيان، تنقل أقواله، وتذكر أعماله، وتكتب معارفه، وتشكر عوارفه، ولا غرو فان للعلماء والحكماء في هذه الدنيا حياتين — حياة جسدية محدودة تبتدىء بيوم الولادة وتنتهي بيوم الوفاة، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركهم فيها سائر الناس بل سائر الحيوان — وحياة عقلية روحانية غير محدودة وهي تبتدىء بظهور ثمرات عقولهم النافعة لأمتهم أو لكل من يجنيها من الناس

وتدوم ما دام الزمان ، وبقي من الناظرين في آثارهم انسان ، وقد كان الاستاذ الامام من خيرة هؤلاء العلماء ، وأفضل أصحاب هذه الحياة من الحكماء ، تشهد له بذلك آثاره المرقومة في وجوه الصحائف ، ومآثره المرسومة في ألواح القلوب ،

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن الرجل وهو فيما دون العاشرة منها (وفى نحو الرابعة والعشرين من حياته الطبيعية) تارة يحرر الواردات الالهية في حقائق علم الكلام الاعلى ، ويسير في المزج بين عرفان الصوفية وبرهان الفلاسفة على الطريقة المثلى ، متمكناً من مقام التوحيد ، متنكباً عن مقعد التقليد ، على حين لا توحيد ولا كلام عند المشتغلين بالعلوم الدينية ، الاحكاية بعض ما قاله متأخرو الاشعرية ، وتارة يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين ، ويفيض منها على عقول المستعدين ، بما يكتب من المقالات ، في فلسفة التربية والصناعات ، وآونة يحبر الفصول الانشائية ، ويحلي المعاني العصرية ، في أثواب الاسجاع الحريرية ، ويزفها كالخرائد ، على منصات الجرائد ، داعياً الى استقلال الفكر ، وتناول علوم العصر ، حاثاً على ترقية الامة ، حاضاً على تجديد مجد الملة ، آمراً بالاتحاد على ترقية الاوطان ، ناهياً عن التعصب الذميم بين المختلفين في الاديان ، فهذا مثال طور الطلب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يبتدئ في الكتاب برسالة الواردات وينتهي بالتحفة الادبية ،

ثم يمثله لك فى طور آخر ، وهو تارة بين أرباب الرياسة ، يرشدهم الى طرق الادارة والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد ، لترقية الرعية وعمران

البلاد ، وتارة يشرف على الامة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ، ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد ، وتقويم النفوس بعقائل الفضائل وأحاسن الآداب ، بعد تطهيرها من لوث الخرافات ، ومساوي التقاليد والعادات ، يهبط على الفلاح في حرثه فيخاطبه بما يفهم ، ويعرج بطالب الحكمة الى أفقه فيعلمه ما لم يكن يعلم ، – وهذا هو المثال الاول لطور العمل ، من الحياة المعنوية للرجل ، يجليه لك مقالاته في جريدة الحكومة الرسمية ، وجلّ عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية ،

ثم يجليه لك مع أستاذه في الديار الأوربية ، متحدين على ارشاد جميع الشعوب الاسلامية ، السيد الحكيم يقترح ويدبر ، والاستاذ الإمام يكتب ويحرر ، يدعوان الى العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ويجمعان القلوب على الوحدة وكانا أحق بها وأهلها ، هنالك تجلى لك روح القرآن ، هابطة من سماء الحكمة والعرفان ، مؤيدة بالعزة والسلطان ، تطوف بتلك العروة البلاد ، وتصافح قلوب أهل الاستعداد ، فتحيها حياة جديدة ، وتجذبها الى عيشة سعيدة ، هنا لك ترى الالهام الالهي ، يمد بتأثيره العلم الكسبي ، فيصيبان مواقع الاقناع من العقل ، ويبلغان مواضع التأثير من النفس ، فلا يقرأ القارىء مافي العروة من بيان حال المسلمين ، وأسباب ما أصيبوا به من البلاء المبين ، وما تطب لدائهم ، وتصف من دوائهم ، الا وينثني أسير البرهان ، مملوك الوجدان بالاذعان ، مندفعاً الى العمل بذلك البيان ، بالجنان واللسان والأركان ، وذلك طور مستوى القوة ، وكمال الفتوّة ، ومنتهى علو الهمة ، وبيع النفس والوقت للملة والامة ،

ثم يظهره لك رابضاً في الديار السورية ، يعمل لاصلاح الاسلام

باصلاح الدولة العثمانية ، أو مقيما في الديار المصرية ، يبين لأولي الامر طريق الإصلاح بالتربية الدينية ، وهو في القطرين يتكلم عن فهم ثاقب ، ويرمي عن فكر صائب ، يبين طبائع البلاد والساكنين ، ويجمع بين مصلحة الحاكمين والمحكومين ، ويهديهم الى الطريق القويم ، في نظام التربية والتعليم ، معرّضاً باستعداده لتنفيذ العلم بالعمل ، مصرحاً بضمان تحقيق الامل ، وفي ذلك مافيه من اعتماده على الله ، وثقته بالقوى والمواهب التي آتاه ، يلوح لك ذلك في لوائح الاصلاح ، وما فيها من اشراع مناهج الفلاح

ثم يبرزه لك في طور المبارزين ، للطاعنين على الدين المبين ، فيتراءى لك أن قلمه أمضى من الحسام ، وكلمه أنفذ من السهام ، فهو بهما يكرّ ويصول ، ويجندل من المجادلين الفحول ، ولا ينثني الا والحق غالب على أمره ، والباطل مغلوب يأرز الى جحره ، وحسبك من ذلك ردّه على موسيو هانوتو في قوله في طبيعة الديانتين الاسلامية والمسيحية ، ثم رده عليه في مسألة الجامعة الاسلامية ،

ثم يريكه يجوب الاقطار ، ويقطع أجواز البحار ، للنظر في آثار الاولين ، واستخراج العبر منها للآخرين ، فتراه في صقلية مرة يتصفح الصحف والاسفار ، ويستنطق العاديات والآثار ، ويقرأ ما نقش على الجدران بالعربية ، لتحقيق المسائل التاريخية ، ومرة يبحث عن الاخلاق والعادات ، وينقب عن المنشآت والمستحدثات ، يتردد بين الاديار والكنائس ، والمقابر والمدارس ، ثم يزف ما استفاد الى أمته ، فيما كتب عن رحلته

ثم يكشف لك عنه الحجاب ، وهو يراسل العلماء والكبراء والكتاب ، فتارة يتلو عليك من كتبه الى حزب المصلحين ، وأهل البصيرة من علماء المسلمين ، ما تخشع له القلوب ، وتحدر من وقعه الشؤون ، فكأنك منه

وقد عاد بك الاسلام ، الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، فرأيت نفسك تتدفق غيرة على الدين ، وتفيض حزناً على ماحل بالمؤمنين ، فلم يبق لها هم الا ان تكون كلمة الحق هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى ، أو كأنك معه فى عصر الراشدين ، وكأنه معك أمير المؤمنين ، يصول على الارواح بمواعظه الصادعة ، ويختلب الالباب ببلاغته الرائعة ،

ومرة يشنف مسامعك باللؤلؤ والمرجان ، من رسائل الوداد الى الاصدقاء والخلان ، فيمثل لك الادب الباهر ، واللطف الساحر ، ويصور لك الوفاء في أجمل صوره ، والاخلاص في أجل مظاهره ، والصدق في الحب ، على البعد والقرب ، ويريك من ذلك الرجل الحزين على أمته ، المستغرق في عمل الاصلاح لملته ، أديبا ظريفا ، ونديما لطيفا ، حسن الاماليح ، مليح الافاكيه ، حلو الفكاهة مرّ الجدّ قد مزجت   بشدة البأس منه رقة الغزل

وآونة يقرئك مما كتب الى المؤلفين بالعربية ، أو المترجمين للكتب الاجنبية ، ما يرفع من أقدارهم ، ويشب من نارهم ، وما يشحذ غرار همتك ويزجي ركاب عزيمتك ، الى أن تكون من زمرتهم ، وتساهمهم في مثل خدمتهم ،

وأحيانا يسمعك من تعازيه للمحزونين ، ومواعظه للمرزوئين بالاقربين ، ما يحلو به مرير الصبر ، ويرغب فيما عند الله من المثوبة والاجر ، ويترك القلوب مفثوءة الثائرة ، قد سكنت قدرها الفائرة ، وأنشأت تشيع الاحزان ، وتستقبل السلوان ،

ثم يختم لك ذكرى هذه الحياة الروحية ، والآثار العقلية ، بشذرات من الحكم المنثورة ، والآيات المأثورة ، فترى اجمالا ينبيء عن تفصيل ، وقليلا

لايقال له قليل، كأنه صورة مصغرة لتلك الروح الكبيرة، أوعناوين لتلك الكتب المسطورة، على أن الكتاب كله نتف من أقواله، ونموذج من أعماله، وان آثاره في النفوس، لاعظم من آثاره في الطروس، فهو حي في الآخرة بما قدم من عمل، حي في الدنيا بما ترك من أثر، يمثل حياته هذا الكتاب الناطق، وينشر خبرها الصحيح مريده الصادق،

محمد رشيد رضا

منشئ المنار

﴿ مقدمة الجزء الثالث ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
{ الانعام ٦ – ١٦٢ }

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الجاثية ٤٥ – ٢١)

كانت حياة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في جميع اطوارها وأدوارها خالصة لله تعالى من شوائب الرياء، وزعزعة الاهواء، ومات كذلك خالصاً مخلصاً لله، لايرجو غيره ولايخشى سواه، لذلك كان في محياه ومماته آية في العلم والعمل لله وللناس، وحجة على أهل الجهل والجمود والجحود من جميع الاجناس،

رأينا في عصرنا كثيراً من أهل الشهرة والظهور في أمتنا، من

المرشدين والعلماء، والملوك والامراء، والشرفاء والاغنياء، قد حيوا مكرمين. وماتوا مبكيين، وما كانت حياة أحد منهم كحياته، ولا مماته كمماته، — ما رأينا أحداً منهم في حداثته فطرياً زكياً، وفي شبابه متعلما صوفياً، وفي كهولته فيلسوفاً اجتماعياً، وفي شيخوخته حكيما ربانياً،

ما رأينا أحداً منهم يعمل لترقية الناس في الدين والدنيا، من حيث لا يطلب لنفسه الا الحياة الاخرى،

ما رأينا أحداً منهم كان يرجوه الفقير لنيل نواله، ويسترشد به الغني ليفيد ويستفيد بماله، ويرجوه المتعلم ليقتبس من حكمته وفهمه، ويستهديه العالم الذي يريد ان ينفع بعلمه، ويرجوه المحكومون لما يريدون عند الحاكمين، ويستفيد منه الحكام كيف يعدلون في المحكومين،

ما رأينا أحداً منهم كان قبلة آمال المصلحين، في السياسة والعلم والدين، قد أتلعت الاعناق وامتدت الابصار من جميع الامصار والاقطار، ترقب آثار اصلاحه، وتنوط فلاحها بفوزه ونجاحه، فالمصري في وطنه يرجوه لمصر، والمسلم في كل وطن يرجوه للاسلام، والشرقي غير المسلم يرجوه للشرق،

هكذا كان مرجوا في حياته للعالمين، اذ كان محياه خالصا لله رب العالمين، وهكذا كان مرثياً من الناس أجمعين، اذ كان حتى مماته محباً لخير الناس أجمعين،

ثم ما رأينا منهم أحداً مات فبكاه السني السلفي وغير السلفي، وحزن عليه الشيعي والاباضي، ورثاه اليهودي والنصراني، وأبنه الشرقي والغربي، واستوى في التعزية عنه القريب بالأجنبي،

ما رأينا أحداً منهم مات فنعته الجرائد كنعيه، وأبنته بمثل ما أبنته به، على اختلافها في العقائد والمذاهب، وتباينها في المنازع والمشارب، وعلى ما كان له في عالم الاجتماع من الزعامة، وفي عالم الدين من مرتبة الامامة، وهما المزيتان اللتان يتحاسد عليهما الكبراء، وينبري لمباراة صاحبيهما العظماء، بل يسلطون الالسنة والاقلام على من يخطب واحدة منهما، فما بالك بمن يتمكن من الجمع بينهما، وما كانوا عن الاستاذ الامام بغافلين، ولا عن النيل منه بساكتين،

ما رأينا أحداً منهم مات فعدّ موته موتاً للفقراء، موتاً للعلم والعلماء، موتاً للبلاغة والبلغاء، موتاً للصدق والوفاء، موتاً للاخلاص والصفاء، ورزؤه رزءاً للمصريين، بل رزءاً للمسلمين، بل رزءاً للانسانية ومصابا على أهلها أجمعين،

ما رأينا أحداً منهم مات فتجاوبت الاقطار بالتعزية عنه، وتناوحت الامصار بالرثاء فيه، وشهد له القريب والبعيد، والغوي والرشيد، والذكي والبليد، بأنه امام الزمان، وسدرة منتهى العرفان،

هكذا كان وقع موته في العالمين، لانه مات كما عاش خالصاً مخلصاً لله رب العالمين،

ليس هذا الذي أقول من خيالات الشعر، ولا من باب الاطراء في المدح، ولا هو من قبيل شهادة القريب للقريب، ولا من اعجاب الصديق والوديد، ولا من اجلال التلميذ أو المريد، وانما هو الحق اليقين، الذي دونته أقلام الكاتبين، املاء عن ألسنة الناطقين، وهذا السفر بعض مادونوا، ومادونوا الا بعض ما علموا،

ترى في هذا السفر اثباتاً لاعتقاد قوم من المؤبنين والمعزين والراثين، وتصويراً لشعور طوائف من العلماء والفضلاء والشعراء والكاتبين، قد تقاربوا بل اتحدوا على تباعد الاقطار، واتفقوا على اختلاف اللغات والمذاهب والديار، في اثبات المعاني التي أثبتنا، مع تفصيل لما أجملنا، وذلك هو التواتر الحقيقي، المفيد للعلم اليقيني،

تواتر لم يعهد له عندنا مثال، دونته الطبقة الاولى في الكتاب، عن تواتر سار مسير الامثال، به عرفه البعيدون من الشعراء والكتاب، لا بتوارد الخواطر؛ كما يقع الحافر على الحافر، ولا بوحي من آحاد متواطئين، الى جماعات غير متعارفين، اذ لا سبيل الى التواطؤ، ولا ذلك الاعتقاد والشعور مما يكون بالتوارد،

يدور الكلام في تلك التآبين والتعازي والمراثي على أربعة أقطاب — (١) بيان الاعتقاد الذي تتبعه الآمال، و (٢) تمثيل الشعور و (٣) ذكر الاعمال، و (٤) تخيلات الشعر، وإن هي تخللت النثر، وإنما يأتي توارد الخواطر، في هذا القسم الآخر، كقولهم لو كان يفدى لفديناه بكذا، وان الحياة بعده أسى وأذى، وانه كان بحرا في الجود والعلم، وطوداً في الثبات والحلم، فأما ماهو من قبيل الاعمال، أو من اثبات الاخلاق والخصال، فهو مما لا يكاد يتفق فيه خاطران، فكيف تتفق فيه خواطر الزرافات والوحدان،

ترى في هذا السفر أقوالا للافريقي والاسيوي، والامريكي (المقيم في أمريكا) والاوربي، ولك أن تقول للعربي والتركي، والفارسي والملاوي، والافرنجي والبربري، وان شئت قلت للمسلم السني والشيعي، وللنصراني

واليهودي ، تتفق هذه الاقوال في معان يجزم كل من رآها أنها ناشئة عن اعتقاد ، سببه انتشار فضل الرجل في جميع الاقطار والبلاد ، حتى كان جديرا بقول الشاعر

وسار مسير الشمس في كل بلدة   وهب هبوب الريح في البر والبحر

هذا مايؤخذ مما نشر في هذا الكتاب ، واليك كلمات مما قاله بعض المشهورين فى هذا الباب منها ماقيل في حياته ، ومنها ما قيل بعد مماته ،

(ثم قلنا بعد ان أوردنا كلمات كبيرة فيه ، لبعض المشهورين كمختار باشا ورياض باشا كانت نشرت في المنار)

هذا بعض ما سمعنا وما روينا ، على أن الامة لما تعرف كنه من فقدنا ، كما يقول العقلاء المنصفون ، وسيثبت الزمان حقيقة ما يقولون ، فاتنا بعالم نحرير ، أوملك أو أمير ، اعترفت له الامم بهذا الفضل الكبير ،

ينقسم هذا الجزء الى أقسام ﴿ الأول ﴾ أقوال الجرائد العربية وفيه فصول (١) للجرائد اليومية المصرية و (٢) للجرائد الاسبوعية و (٣) للمجلات و (٤) للجرائد التونسية و (٥) للجرائد السورية في أمريكا الشمالية والجنوبية . أما جرائد سورية في سورية فقد منعت من تأبين الامام بل من ذكر خبر موته بأمر من السلطان (وهو من ص ٩ الى ١٥٠)

﴿ القسم الثاني ﴾ أقوال الجرائد الافرنجية وفيه فصلان (١) للجرائد التي تصدر في القطر المصري وقد ترجمنا أكثرها و (٢) للجرائد التي تصدر في أوربا ولم يصل الينا الا قليل منها (وهو من ص ١٥١ — ١٨٤)

﴿ القسم الثالث ﴾ أقوال الجرائد التركية والفارسية ولا تركية الا مايصدر في مصر لانها هي الحرية بمالها من الحرية باظهار شعور فضلاء الترك

واعتقادهم بفضل هذا الامام العظيم دون التي في بلادها (من ص ١٨٥ — ١٩٨)

وقد فاتنا ما كتبت الجرائد الهندية اذ لم يتيسر لنا جمعها وترجمتها في مصر وكنا رغبنا الى عظيم من عظماء مسلمي الهند وأعلمهم بقيمة الامام وأشدهم له حبا بأن يترجم لنا أهم ما كتبته جرائدهم فحالت الموانع — من مرض وسفر — دون اتحافنا بما كان يحب من ذلك

﴿ القسم الرابع ﴾ نموذج من تأبين بعض العلماء والفضلاء كان نشر بعضه في الجرائد (من ص ١٩٩ — ٢٣٥) بعد الوعد به

﴿ القسم الخامس ﴾ ماقيل في حفلة التأبين والرثاء عند القبر (٢٣٦ - ٢٧٤)

﴿ القسم السادس ﴾ التعازي وهي نموذج مما كتب بعض المصريين الذين كانوا خارج مصر ونموذج مما كتب المسلمون من سائر الاقطار (من ص ٢٧٥ — ٣٠٠)

﴿ القسم السابع ﴾ مراثي الشعراء مرتبة على حروف المعجم وقد اختصرنا أكثرها (من ص ٣٠١ — ٤٢٢)

﴿ القسم الثامن ﴾ ملحقان في الاول منهما استدراك شيء تابع لقسم التعازي وهو تعزية مجلس شورى القوانين لاسرة الامام وما كتبه حموده بك في جوابه وجواب تعزيتي محكمة الاستئناف والمستر براون وفي الثاني استدراك آخر تابع لتأبين العلماء والفضلاء وهو تأبين اللورد كرومر في تقريره الرسمي عن حال مصر الادارية والمالية وتأبين المستشار القضائي في تقريره الرسمي عن القضاء في مصر (ص ٤٢٣ — ٤٢٨)

رتبنا تأبين الجرائد في كل فصل على ترتيب أسمائها بحروف المعجم

وكذلك رتبنا تأبين المؤبنين على حسب أسمائهم الا ماشذ . وأما المراثي فرتبناها على حسب حروف قوافيها وقصائد كل قافية على حروف ناظميها، وماشذ عن الترتيب فالسبب فيه تأخر وروده ما حقه التقديم، أو الخطأ من المرتبين، وقد وردت الينا تآبين ومراث أخرى بعد الفراغ من الفصول الذي قضى الترتيب بوضعها فيها فأهملناها، ورأينا بعضها غفلا من التوقيع المعرف لصاحبها فأغفلناها، وقد حذفنا كثيرا من الاطراء والزهديات في القصائد التي اختصرناها،

وانا نقدم الى الامة هذا السفر بالنيابة عن مؤلفيه، من ساسة العصر ومؤرخيه، وعلمائه وفضلائه، وكتابه وشعرائه، احياء لذكرى نابغتها الاستاذ الامام، عليه من الله الرحمة والرضوان ﴿ محمد رشيد رضا ﴾

منشىء المنار

هذا وان أجدر الناس بالاستفادة من هذين السفرين طلاب العلوم من مجاوري الازهر وتلاميذ المدارس لا سيا الراغبون منهم في تحصيل ملكة الكتابة وبلاغة الانشاء على انهما مما يستفيد منهما كل قارىء . وقد جعلنا ثمنهما رخيصاً بالنسبة الى المطبوعات العصرية والى حجمهما فان مجموعهما يبلغ زهاء ألف صفحة أو مجلداً من مجلدات المنار ولكن ثمنهما معاً خمسة وعشرون قرشاً أو اقل من نصف ثمن مجلد من المنار. وثمن جزء المنشآت وحده خمسة عشر قرشاً وجزء التأبين والمراثي وحده عشرة قروش على انه مزين بأحسن صورة للاستاذ الامام. وهناك نسخ مطبوعة على ورق أجود يزيد ثمن النسخة منها خمسة قروش . ومن يطلب نسخة مجلدة فعليه ان يزيد خمسة قروش أجرة التجليد . أما أجرة البريد عن كل جزء فهي ثلاثة قروش

﴿ كتاب الاخلاق والسير ﴾

كتب الامام الجليل أبو محمد علي بن حزم كتابا وجيزا سماه « الاخلاق والسير في مداواة النفوس » يكاد يصدق على كلة فيه قول بعض الحكماء : العلم الصحيح هو ما اذا سمعته حسبت انك كنت تعرفه : تقرأ ما تقرأ منه فتشرب به نفسك وتعرفه فطرتك ويحكم عقلك بأنه حكاية عن حقيقة ما عليه الناس في أنفسهم ونتائج أعمالهم وآثار صفاتهم وأخلاقهم ويلوح لخيالك أنه مرآة القلوب والافكار . ذلك أن مؤلفه لم يكن حظه منه كحظ أكثر المؤلفين : جمع وترتيب، ونسخ وتبويب؛ بل كان هو عقله وفكره وأدبه فاضت عن نفسه فوقعت على الصحف فكانت كتابا سواء منها ما هو محفوظ ومأثور وما هو مستنبط ومعقول فهو اذا نقل شيئاً ينقله بعد ان يعقله و يعقله بل بعد ان تتغذى به نفسه و يصير جزءا منها حيا بحياتها كما يصير الطعام الذي يتغذى به البدن الحي جزءا منه لا كما ينقل المتطفلون المقلدون في التأليف كلام غيرهم من غير ان يخالط عقولهم أو يمس قلوبهم قال المؤلف في مقدمة الكتاب

« أما بعد فاني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى بمرور الايام وتعاقب الاحوال بما منحني عزوجل من التهمم بتصاريف الزمان والاشراف على أحواله حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل اليها أكثر النفوس وعلى الازدياد من فضول المال وزممت كل ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب لينفع الله به من يشاء من عباده ممن يصل اليه بما أتعبت فيه نفسي واجهدتها فيه وأطلت فيه فكري فيأخذه عفوا وأهديته اليه هنيئا فيكون ذلك أفضل له من كنوز الأموال وعقد الأملاك اذا تدبره و يسره الله تعالى لاستعماله . وأنا راج في ذلك عظيم الاجر لنيتي في نفع عباده وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم و بالله استعين »

طبع الكتاب الشيخ أحمد عمر المحمصاني الأزهري وضبط من كلمه ما رآه محتاجا الى الضبط وفسر في هوامشه ما رآه منه غريبا وصدره بترجمة وجيزة للمؤلف وجعل ثمنه قرشين فننصح لكل قارىء بأن يطالعه المرة بعد المرة وهو يطلب من مكتبة المنار

(الاسرار القدسية والفيوضات الهدائية)

«تأليف الذي كان كاهنا من كهنة الروم الكاثوليك ومنّ الله عليه بالعناية المحمدية وتشرف بدين الاسلام عبدالحفيظ المهتدي» — أهدي الينا هذا الكتاب الجديد وعرفنا مؤلفه فانه كان قسيسا في عكار وأسلم في طرابلس أيام كنا فيها وصار من أهل الطريق وقدجاء مصرفي العام الماضي بولد له يريد أن يتلقى القرآن بالروايات في الازهر و يطلب العلم . أما الكتاب فهو في التصوف والرقائق جمع فيه كثيرا من المواعظ والآداب ممزوجة بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وذكر في آخره شيئاً من خبره جعله مقدمة للدعوة الى الاسلام واثباته وذكر في هذا المقام بعض النصوص عن المسيح عليه الصلاة والسلام وعن كتب أخرى من كتب القوم . وثمن النسخة من الكتاب خمسة قروش صحيحة . ويعلم الفطن ان في شرائه إعانة للرجل على تعليم ولده وتربيته في هذه البلاد التي لا مورد لهما فيها

(هدية الرئيس للامير)

رسالة في علم النفس للرئيس أبي علي بن سينا اهداها الى الامير نوح بن منصور الساماني والظاهر انها أول تصنيفه . وقد كانت فقدت هذه الرسالة فلم يعرف الباحثون من الافرنج المستشرقين الا نسختين منها احداهما في مكتبة (ليدن) من مملكة هولاندا وهي كثيرة الغلط والثانية في المكتبة الامبروازية بمدينة ميلانو من ايطاليا وهي أمثل . فعني بعضهم بنسخهما وتصحيح احداهما بالمقابلة على الاخرى ثم بالمقابلة على نسخة منها مترجمة باللغة اللاتينية في القرن السادس عشر والاستعانة ببعض كتب المصنف في الفلسفة خصوصا ما كان منقولا عنه فعل ذلك الدكتور صموئيل لانداور الالماني صحح الرسالة وجمع اليها ما اختلف من النسخ وعلق عليها ما علق من الشرح والتفسير ونشر ذلك كله في مجلة المستشرقين الالمانيين مع ترجمة المانية وجيزة بسبع لغات — العربية والعبرية والسريانية والفارسية واللاتينية واليونانية والالمانية . فلينظر أهل العربية الى عناية الافرنج بكتبهم وآثار سلفهم وليخجلوا من جهلهم واهمالهم

ثم أن أدوار دفنديك المدرس بمدرسة الحقوق (ابن الدكتور كرنيليوس فنديك الشهير) قد استخرج النسخة من تلك المجلة وقابلها بنفسه على الاصل في مكتبة ليدن ومكتبة ميلانو بعد أن وعدته شركة طبع الكتب العربية هنا بطبعها اذا هو جاء بها مصححة بالعربية وقد وفت بالوعد فطبعتها طبعا متقنا على ورق جيد كعادتها . وطبعت معها تلك الشروح . وقد انتقدنا تسمية اختلاف النسخ بالقراآت وما هي بقراآت وانما هي تحريفات وتصحيفات وقد وضعت بين أقواس في أثناء الكلام فكانت مما يشغل القارئ لاجل الفهم ولو وضعت في الهوامش لكان أولى . واننا نشكر لكل من اشتغل باحياء هذه الرسالة فضله

(قصة البعث)

هي قصة شهيرة من أحسن ما كتب الفيلسوف تولستوي الروسي الشهير بل هي كتاب كبير مؤلف من جزئين في علم الاخلاق والسياسة وفلسفة الاجتماع ليس فيها من معنى القصص الاسرد المسائل والآراء في الغراميات والسياسة والآداب في سياق الوقائع المتصلة بأسلوب يلذ القارئ ويبعث شوقه للقراءة . وهو يصف فيها معيشة مترفي أمته وأمرائها وحال الفلاحين والمسجونين فيها ويرغب في توزيع الاراضي علي الفلاحين فهي من القصص التي جمعت بين اللذة والفائدة فياليت شباننا يطالعونها وقد طبعها ابراهيم افندي فارس صاحب المكتبة الشرقية وهي تطلب منه

ديوان حافظ

قد طبع الجزء الثاني من ديوان حافظ أفندي ابراهيم وهو أرقى من الأول نظما وموضوعا فان معظم قصائده فى الأمور العامة من اجتماعية وسياسية وما في معناها كمدح الاستاذ الامام (تغمده الله برحمته) وبهذا صار شعر حافظ عزيزا شريفا واشتهر في كل قطر يتبوءه أهل العربية ، ولو كان كسائر الشعراء، لايكاد ينظم الا فى مديح الأمراء والوجهاء ، لما طار صيته فى البلاد ، ورددت شعره ألسنة الناطقين بالضاد ، فانه وقد بذّ المعاصرين تنقيحا وتحريرا ، لم يبذهم تخييلا وتأثيرا ، فإن شعره أقرب الى عالم الحقيقة منه الى عالم الخيال ، فلولا شرف معناه

لما سلم من الابتذال ، حتى ليعجز عن إعلائه الأمير والسلطان ، على استغنائه عن تهذيب صبري وصقل سلمان ، (*) وهاك هذا النموذج منه الآن ،

لسان حال اللغة العربية

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي (١)
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالا واكفاءا وأدت بناتي (٢)
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق اسماء لمخترعاتَ
انا البحر في احشائه الدر كامن ... فهل سألو الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي (٣)
فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا اهلهم بالمعجزات تفننا ... فياليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوماً علمتم ... بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله في بطن الجزيرة أعظما ... يعز عليها ان تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الاعظم النخرات
أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة
واسمع للكتاب في مصر ضجة ... فاعلم أن الصائحين نعاتي
أيهجرني قومي عفى الله عنهم ... الى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات

*) الكلام إشارة الى شيء يعرفه حافظ وكثير من أدباء مصر (١) الحصاة العقل والرأي (٢) وأد بنته دفنها حية (٣) الاساة جمع الآسي وهو الطبيب

بسطت رجائي بعد بسط شكاتي ... الى معشر الكتاب والجمع حافل
وتنبت في تلك الرموس رفاتي ... فإما حياة تبعث الميت في البلى
ممات لعمري لم يقس بممات ... وإما ممات لا قيامة بعده

(مسامرات الشعب)

(قصة قاطع الحبل) أتمت ادارة المسامرات طبع هذه القصة وهي من القصص الغربية في تناسق حوادثها وينتهي الجزء الاخير منها (وهو السادس) ببيان سوء عاقبة الجناة والآثمين وحسن عاقبة أهل الوفاء والاخلاص فعسى أن يعتبر القارئون لها بذلك

﴿ مجلة الانسانية ﴾

قد عاد الشيخ ابراهيم الدباغ الى اصدار هذه المجلة مستقلا بها فعسى أن يلاقي من الاقبال عليها ما يستحقه أدبه ويكون عونا له ومنشطا على الارتقاء بها إلى منتهي ما يصل اليه استعداده

﴿ كوكب أفريقية ﴾

« جريدة أسبوعية سياسية أدبية علمية فلاحية تجارية صناعية تصدر كل يوم جمعة — مدير تحريرها السيد محمود كحول » من فضلاء الجزائر وهو يصدر الجريدة فيها . وقد وافانا العدد الثاني منها الذي صدر في ١١ ربيع الاول فسررنا به سرورا عظيما لأن اخواننا مسلمي الجزائر كانوا محرومين من هذا العمل العظيم — الصحافة — فنحن نرحب بهذه الجريدة ونرجو لها من صميم أفئدتنا التوفيق للإرشاد النافع ونحث القراء على الاقبال عليها وشد أزرها

﴿ المنير ﴾

جريدة أسبوعية جديدة أصدرها في تونس محمد الشاذلي المورالي من فضلاء الكتاب المشهورين فيها . وقد بين من سياستها في العدد الاول ما هو خير سياسة يرجى نفعها كالحض على نشر العلم بطريقه الاسلامية والتأليف بين المتعلمين في جامع الزيتونة والمتعلمين في المدارس النظامية وتحوي المباحث التي تتعلق بشؤون المسلمين وتحامي ثلب الاعراض فنسأل الله تعالى أن يوفق صاحب هذه الجريدة الى خير ما قال وينفع بجريدته القارئين

باب المناظرة والمراسلة

جاءنا من الدكتور نصر افندي فريد طبيب العيون بالمنصورة ما يأتي

١٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٥

حضرة الاستاذ الفاضل

قرأت لكم في العدد الاسبق بجريدة المنار الغراء كلاما في الخمر ملخصه أنه لا فائدة منها الا ان الجعة مدرة للبول وحيث ان جريدتكم الغراء لها تأثير فعال في نفوس المسلمين وجدت من الواجب علي ان لاتفوت الجريدة هذه الملحوظة

المشروبات الروحية وتأثيرها

هذه المشروبات ليس لها أدنى فائدة للصحة بالمرة الافي ظروف يعرفها الاطباء دون غيرهم في بعض الامراض والانزفه بمقادير معينة وضررها على الصحة فيما عدا ذلك وبيل للغاية وقد تألفت جمعيات كثيرة في أوروبا لمنع المسكرات فأثرت تأثيراً حسنا وفي سنة ١٩٠٣ افرنكية وزعت بلدية باريس عند ما كنت فيها منشورات في المدينة وفي جميع الجرائد معززة بآراء نطس الاطباء بضرر هذه المشروبات

فأمراض الجنون والشلل العام وامراض الكبد والكليتين والمعدة والقلب والسل أغلبها مسبب من المشروبات الروحية

اما ادرار البول المشاهد بعد شرب هذه المشروبات ومن ضمنها الجعة فهو متسبب من تهييج الكليتين واحتقانهما من الكئول الموجود في هذه المشروبات

واني أتأسف لانتشار هذه الفكرة بين العوام وهي تعاطيهم الجعة عند اصابتهم بمرض في الجهاز البولي فيغترون بهذا الادرار البولي الكاذب فتزداد الحالة خطارة وينتهي الاحتقان الكلوي بالتهاب كلوي عاقبته الموت ان لم يبادر المصاب بالانقطاع عن تعاطي أم الخبائث والسلام

(المنار) نشكر للدكتور الفاضل مبادرته الي هذا التنبيه المفيد وما زلنا ننصح للناس بأن لا يغتروا بكلام الاطباء المقلدين أو المفتونين بزخرف المدنية اذ يأمرون من يشكو معدته أوغير معدته بشرب نبيذ كذا فان اكثرهم يأخذ على هذا الغش أجرا من باعة الخمور . وقد قرأنا في الجزء الاخير من مجلة المقتطف مقالة مفيدة في هذا الموضوع سننشرها في الجزء الخامس

وكتب الينا أحد أساتذة المدارس بمصر ما يأتي

اسناذي المفضال السيد محمد رشيد رضا .

سلام الله عليه . وبعد فهل لي ان اطاب اليكم نشر هذه الكلمة على صفحات المنار اعلانا للحقيقه وشكرا للصادقين . سيدي أرى ان آمرك مقسم والناس فيه فريقان فمن عائب يهجن منك مخاطبة اللورد كروم ويتمنى لو نقمت عليه مع الناقمين وصرمته مع الصارمين فلم تكتب اليه شيئاً ومما يرمونك به انك في استفهامك منه عما يريد — من لباب الاسلام أم قشوره قد بينت له أي الامرين يختار وذكرت له وجوه الاختيار من عمل الحكام بالفقه ورجوع بعض المسلمين عن العمل به ومن تخطئة بعضهم البعض فيه . يقولون لو غيرت هذه اللهجة . أما انا فمهما يكن من الامر فانا أرى ان مولاي الرشيد حفظه الله قد استدرج جناب اللورد الى العدول عما في تقريره وخاتله وبالواجب عمل — من كان يظن أن اللورد كروم لا يرجع عما في تقريره في حفلة الاوبرا الخديوية بعد مجاملة سمو الامير له وزيارته في الوكالة البريطانية واشتداد الصحافة المصرية في الطعن على تقريره. ولكن اللورد كروم دل على تمسكه بما في تقريره واصراره عليه وهزؤا بالمطاعن فيه في الصحافة وغيرها اذ قام في الاوبرا خطيبا ولم ينبس ببنت شفة دحضا ونقضا لتلك المطاعن في الاسلام كما كان القوم يظنون ولقد كاد اليأس من رجوع اللورد كروم عن تلك التهم الشنيعة يستحكم في نفوسنا ويزحزح كبير آمالنا لولا ما سحر به السيد الرشيد (سدد الله سهمه) جناب اللورد كروم بكتابه اليه واستدرجه الى ما يريد وقد كان وعرف العالم الاوروبي بشهادة خبير منهم ان كل تهمة توجه الى الاسلام نفسه لا نصيب لها من الصحة ولا باعث لها من مرقدها الا حزازات النفوس وسخائم الصدور . الا فليرفع المسلمون في جميع الاقطار عقيرتهم بالدعاء للمنار وصاحبه وها أنا فاعل . . سدد الله المنار وأطال في بقاء صاحبه آمين

(المنار) قال بما قلتم وبما سمعتم كثيرون ولولا أن الجهالة عذر طبيعي للجاهل فيما ينشأ عنها وان لم تكن عذرا شرعياً في نفسها لكان لنا أن نعجب أشد العجب لضعيف يتخذ لنفسه عدوا قويا يلح عليه بان يلج في عداوته ، ولا يرضيه منه أن يجنح الى صداقته ، هذا واني وان بينت في سؤالي للورد ما أتمنى أن يجيب به تبرئة للاسلام لم أخاتله ولكنني وفقت الى تنبيهه الى شيء يعتقده وحمله على التصريح به فاحمد الله على هذا التوفيق وأشكر للرجل هذا الانصاف ، وسأبين العبرة في خلاف الناس بباب الاخبار والآراء

باب الأخبار والآراء

(آراء الناس في مكاتبتنا مع لورد كرومر)

من الناس من يكتب ليرضي الناس فهو يتحرى رضاهم بالحق و بالباطل فلا الحق مقصود له في ذاته ولا الباطل مطلوب له لذاته وانما يكتب لهوى خاص هو كل ما يقصد . ومنهم من يتحري الحق رضي الناس أم لم يرضوا وافق أهواءهم أم لم يوافقها . ولا يتبع الناس الهوى في شيء كما يتبعونه في الكلام عن الحكام والرؤساء ورجال السياسة . واننا نرى أهل الأهواء قد يعدون الشيء الواحد اذا صدر عن زيد نافعا واذا صدر عن عمرو ضارا ويقول فلان قوله فيعدونه إيمانا وإصلاحا ويقوله آخر فيعدونه كفرا وافسادا

منذ سنتين وأشهر نشرت عدة مقالات في بعض جرائد القاهرة في ذم الفلسفة والتعريض بمن زعموا انه يريد ادخالها في علوم الأزهر (يعنون الاستاذ الامام رحمه الله) وقالوا ان الأزهر مدرسة دينية محضة لا يجوز تعليم شيء فيها غير الدين وفي هذا العام أمر شيخ الجامع الأزهر بعض المشايخ بقراءة فلسفة اليونان فيه فطفق بعضهم يقرأ الاشارات لابن سينا وبعضهم يقرأ كتبا أخرى في ذلك ولم يكتب أحد بل لم يقل أحد شيئا!! فلماذا كان توهم ادخال الفلسفة في الأزهر منكرا دافعا الى ذلك الانتقاد الشديد وصار تعليم الفلسفة بالفعل الآن معروفا لا ينتقده أحد ؟؟

وقد نشرت احدى جرائد المسلمين منذ سنتين مقالا لأحد الامراء عبث فيه ببعض أصول الدين وعقائده . وكتبت جريدة أخرى لهم ان الحكم بقتل القاتل من بقايا الهمجية ، بل استبدل الحكام القوانين بالشريعة ولم يقل المسلمون شيئا ولا حركوا ساكنا بل ظلوا يعدون هؤلاء الحكام من رؤساء الدول . وقد قال اللورد كرومر في تقريره الأخير عن حال مصر والسودان كلمة في الشريعة قام لها الناس وقعدوا لا لذاتها بل لأنها من اللورد كرومر . وقد أطال الرد والطعن كثير

من الكتاب على كلمة الرد من حيث هي كلمة وتكلم بعضهم فيها لذاتها . ومما كتب في الرد على اللورد مقالة في الرق نشرت في اللواء معزوة الى حكيم من حكماء الاسلام ولكنه لا يعرف البديهي من قواعد الاسلام اذ زعم أن الزكاة المفروضة فيه تصرف بحكم القرآن الى الحكام والى سفراء الدول وقناصلهم وفي بناء الفنادق للسياح . ولو كتب مثل هذا الكلام في المقطم لقامت عليه وعلى كاتبها قيامة اللواء وغير اللواء وعدوا ذلك أعظم جناية على الاسلام

هكذا ينظر أكثر الناس الى من قال لا الى ما قال ، ولا يعرفون الرجال بالحق بل يعرفون الحق بالرجال ، كلا ان اتباعهم الهوى في الرجال يصرفهم عن معرفة الحق وعن طلبه فلا يقبلونه ممن لم يوافق أهواءهم ولكنهم يقبلون الباطل ممن فتنوا بهم ، وصاروا موضع ثقتهم ، وهذا من أكبر البلاء على الناس اذ لا ترتقي أمة منهم الا اذا كثر المستقلون فيها بالحكم على الناس وعلى الاقوال ، الذين يطلبون الحق لذاته ويجعلونه هو الميزان لمعرفة الناس ومعرفة الاشياء

قال لورد كرومر قوله في الشريعة الاسلامية فقامت له جرائد المسلمين وقعدت ، وأعولت وولولت ، وذمت وقدحت ، وارتأت واقترحت ، ثم صدر المنار فكان خيرا منها دفاعا ، وأشد للمخالف اقناعا ، وزاد على ذلك أن وفق الى أخذ كتاب من اللورد نفسه يبرئ فيه الدين الاسلامي نفسه من النقد والطعن ويستدل على ذلك ويصرح بأن عبارة التقرير — التي فهم منها الطعن في الدين نفسه — لم تؤد مراده الذي بينه ووضحه بما كتبه الينا . فماذا قال الناس في ذلك ؟

اختلفوا فيه كما هي عادتهم فاستحسنه فريق كل الاستحسان وشكر لناسعينا وللورد فضله وانصافه وبالغ بعض افراد هذا الفريق في الاعجاب بذلك حتى قال لنا أحد المحامين وهو ممن لا يختلف اثنان في كمال استقلاله وجودة رأيه وسعة علمه : أخبرني هل سحرت اللورد بكتابك اليه وهو لا يعرفك ام استعنت عليه بوسائط أخرى حتى نجحت في أخذ هذا الجواب الذي لا يتصور أن يخدم الاسلام بمثله في هذا الباب ؟ الخ ما قال

وذهب فريق آخر الى انه لا فضل للورد في جوابه وانما الفضل كله فيه

لصاحب المنار . وقد جرت بين أحد الباشوات من هذا الفريق وأحد المشايخ الوجهاء من الفريق الاول مراجعة ومحاورة بذلك في حفلة عرس في العاصمة وكان بعض الوجهاء فيها موافقا للباشا و بعضهم موافقا للشيخ

وذهب فريق ثالث الى أن صاحب المنار قد أخطأ فيما كتبه الى اللورد لأنه لقنه الجواب في السؤال ، ورد عليهم بعض الناس بأن صاحب المنار قد أحسن في ذلك لأنه ورّط به اللورد حتى أجابه الى ما يريد من تبرئة الدين الذي هو الكتاب والسنة وهذا هو غرضه من الكتاب . ورد عليهم آخرون بأن ما استدل به اللورد في جوابه مؤيد بتقاريره فهو لم يستفد الجواب من السؤال وانما جاء به من عند نفسه كما هو مفهوم من استدلاله

وقال فريق آخر إن صاحب المنار قد أخطأ لأنه كان سبباً لهذا الكتاب الذي يميل القلوب الى اللورد حتى تراه أهلا للشكر والثناء ونحن لانحب أن نرى منه مايحببه الينا بل نحب ان نرى منه ونسمع عنه مايزيد بغضنا فيه وحنقنا عليه !!!

وصاح فريق آخر إن صاحب المنار لايستحق على هذا العمل الا القدح والذم ، والسب والشتم ، والقدح والتشهير ، والتمثيل والتصوير ، لأنه دافع عن اللورد الذي هو عدوّ الوطن والوطنيين ، وخصم الاسلام والمسلمين ، ولوكان هؤلاء يقولون مايعتقدون ، واذا ظهر لهم الحق يذعنون ، لوجدوا كثيرين يقولون لهم انكم لمخطئون ، فان المنار مادافع عن اللورد بل رد مايفهم من كلامه بثلاث مقالات لم يسبقه أحد الى مثلها ثم توسل إلى استكتابه ما هو عين المصلحة للاسلام والمسلمين ، وان لم يوافق أهواء بعض المتحمسين من الوطنيين ، الذين يكرهون الحق اذا ظهر على لسان زيد ، و ينفرون من المصلحة اذا جاءت على يد عمرو ، وهم لا يتبعون الا شعور الكراهة والنفور ، ولا يصيخون الا لداعي الافراط والغرور ، وأكثرهم مقلدون ، لما يقوله أصحاب الصحف الغالون ،

أما أصحاب الصحف المصرية فأكثرها لم يقدر هذه المسألة قدرها على عنايتها دائما بأقل مايؤثر عن الرجال العظام كلورد كروس من قول وعمل حتى مالا شأن له في المصالح العامة كالرياضة والدعوات الى الطعام أو الشاي . أما السبب

الذي لأجله لم تحفل الجرائد بأمر يعد من أهم موضوعاتها وهو استدراك اللورد على عبارة في تقريره الرسمي في مسألة مهمة فهو أن جرائد الافرنج وما على شاكلتها من الجرائد العربية لا ترى من مصلحتها التنويه به ولا مقتضى ملتها بالشهادة للدين الاسلامي أو تبرئته من مناهضة المدنية أو مخالفتها مهما ارتقت

وأما جرائد المسلمين التي كان ينتظر منها أن تنوه بذلك وتهتم به فقد اتفق انه ظهر في وقت تحالف فيه بعض أصحابها المشهورين على اسقاط «حزب الشيخ محمد عبده» بالذم والتشهير ، والقدح والتصوير ، وقد افترصوا ما يظنون من نجاحهم في إيهام الجمهور بأنهم هم الذين كانوا سبب استقالة اللورد وتغيير انكلترا سياستها في مصر تغييراً مرضيا (كما يزعمون) ولهذا ترى همهم محصورا في جعل حسنات ناظر المعارف (سعد باشا زغلول) سيئات وفي الطعن بعلومه ومعارفه وإتقانه للغة الفرنسية — هذا وهو انبغ رجال وطنهم المحبوب بألسنتهم وأقلامهم فكيف يعترفون مع هذا لصاحب المنار بأنه أحسن صنعاً وهو من حزب الشيخ محمد عبده المحكوم عليه بالاسقاط عندهم ؟ أليس المعقول من أصحاب هذا الحكم أن يحولوا الأمر عن وجهه ويجعلوا الحسنة سيئة ؟ بلى

على أن جريدة اللواء أظهرت الارتياب في هذه المكاتبة كأنها كرمت نفسها ان تعترف بصحتها ثم لاتقدرها قدرها وصعب عليها أن تعترف للورد أو لصاحب المنار بمزية فلم تر مخرجا من ذلك الا باظهار الارتياب والشك فيما قبل ولكنها جزمت بتكذيب مانقل عن الشيخ حسونه افتياتا عليه — وجريدة المؤيد نقلت السوال والجواب وتنزلت من سمائها فقبلت الجواب على أنه تنازل من اللورد ورجوع عن قوله الأول . وهي على كونها لم تترك اللسع أو اللدغ الخفي في هذا كعادتها قد كرمت نفسها ان تعد الدفاع عن الاسلام دفاعا عن اللورد فتركته الى من لا كرامة لهم في أنفسهم ولا في أنفس أحد من العقلاء الذين يعلمون ان ذلك لم يدفع عن اللورد ضرا ولم يجلب له نفعا

وقد كتب الينا من القاهرة وغيرها في استحسان السؤال والجواب واستهجان خطة المشاغب فيه وقد اكتفينا بنشر كتاب لأحد اساتذة المدارس لانه لم يسم فيه أحد وقد صرح بطلب نشره فليراجع في باب المراسلة

البدع والخرافات والتقاليد والعادات

﴿ حادثة دمياط . في طي الارض . تقبيل اعتاب القبور . صناديق النذور ﴾

يقال ان مسلمي مصر يتحركون الى الترقي المدني الذي تعتز به الأمم ويتهمهم الأفرنج بأنهم يحاولون ان يجعلوا ترقيهم إسلاميا يمتزج فيه الدين بالمدنية والسياسة ولو كانت هذه التهمة الشريفة صحيحة لكنا نرى مبدأ هذه الحركة من الأزهر وما على شاكلته من المدارس الدينية ولكنا نرى بين طلاب المدنية من طريق علوم الدنيا وبين رجال الدين صلة واتفاقا على الغاية التي يلتقي فيها الفريقان في آخر السير متحدين على انهاض الأمة واعزاز الملة . ونحن لا نرى بينهما الا التباين التام وفقد الثقة والتدابر على خط مستقيم . ونرى أن أهل الدنيا أقوى في ذلك من أهل الآخرة فهم يجذبونهم ولا ينجذبون اليهم فلا نرى أحدا ممن ارتقى بالعلوم الدنيوية يربي ولده تربية أزهرية ولكن أكابر علماء الأزهر قد يربون أولادهم في المدارس الدنيوية حتى مدارس الحقوق التي يكون المتعلمون فيها قضاة يحكمون بالقوانين من دون الشريعة وقد سمعت بأذني بعض هؤلاء العلماء يقول بكفر قضاة المحاكم الاهلية لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله ثم هو يحاول جعل ولده واحدا منهم أو محاميا حكمه في نظره حكمهم . ولو سألت السواد الاعظم من المتخرجين في المدارس الدنيوية العالية هل يرضون ان يكون شيوخ الأزهر وامثالهم قضاة للمحاكم المدنية والجنائية وحكاما للسياسة والادارة لقالوا لك ان البلاد تستغيث من أحكامهم في الامور الشخصية فكيف تستقيم الأمة حال اذا هم حكموا في غيرها لاسيما في الامور المالية على اختلاف فروعها الآن والسياسية على وعوة مسالكها والتواء طرقها

وكان يرجى تلافي هذا التقاطع من رجال الدين لكنهم واقفون في المضيق الذي كان فيه اشياخهم واشياخ اشياخهم والأمة متحركة بطبيعة العصر فلاهم يسيرون معها ولاهم يستطيعون ايقافها معهم ولاهم يساعدون طلاب الاصلاح على الجمع بين الدين

وما لا بد منه لسلامة الملة والأمة كاستقلال الفكر ، وتحصيل علوم العصر ، انك لتحدث أهل الرأي والفكر من الطبقات المختلفة في شأن الاسلام والمسلمين فلا تكاد ترى أحدا يرجو ان يجيء يوم يحكم المسلمون فيه بشريعتهم وهم في حال راقية عزيزة فيفكر في ذلك ويسعى له سعيه . أليس هذا هو البلاء المبين ؟ بلى وان وراءه لبلاء أكبر منه وهو نفور بعض الذين يتلقون العلوم العصرية من عقائد الدين واعتقادهم انها لا تتفق مع العقل ولا يلتئم مع استقلال الفكر ولا نجاح لامة لا تعطي العقل حقه من الحرية وتبلغ الفكر مداه من الاستقلال . وكان يرجى تلافي هذا من العلماء أيضاً بأن يجاهروا بمقاومة البدع والخرافات

كنا ننتظر من الاستاذ الاكبر الشيخ حسونه النواوي حركة اصلاح جديدة في مقاومة البدع أقوى من الحركة التى كانت في مشيخته الأولى فما زادته الايام الا حنكة واختبارا ولكن حادثه دمياط جاءت بنقيض ما كان ينتظر أو يرجى فقد كانت هذه المسألة فرصة لاحياء سنة أو سنن وامانة بدعة بل بدع كثيرة لامتداد الاعناق وإصاخة الإسماع وتشوف النفوس الى ما يقوله شيخ الأزهر فيما عليه العامة من الافتتان بالدجالين وقبور الصالحين

دعي الشيخ حسن علي أحد علماء دمياط الى قراءة قصة المولد في أحد المساجد فسمع الناس منه ما لم يعتادوا . سمعوا منه قصة ليس فيها شيء من الروايات الموضوعة ، والا كاذيب المصنوعة ، مفتتحة بقوله تعالى (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) فسروا بما سمعوا وانشرحت صدورهم . وكان مما ذكر في القصة خبر الهجرة الشريفة وفيه انه صلى الله عليه وسلم قطع المسافة بين مكة والمدينة في مثل المسافة التى يقطعها بها الناس فسأله بعد ذلك سائل لماذا لم يقطعها في لحظة كما يفعل أهل الخطوة من الاولياء ؟ فأجاب بأن مسألة الخطوة غير ثابتة ولو ثبتت لكان النبي صلى الله عليه وسلم أحق بها وأجدر لاسيما في ذلك الوقت الذي خرج فيه مع صاحبه عليه الرضوان مستخفيين من قريش خوف اذا هم ولكانت آية يهتدي بها خلق كثير . ويقال انه سئل عن البقعة التي فيها قبر النبي

صلى الله عليه وسلم هل هي من أرض الدنيا أم من الجنة فأجاب بأنها من أرض الدنيا ولا أدري هل فسر لهم حديث الشيخين في ذلك أم لا . وسئل عن النقود التي تلقى في الصناديق التي توضع عند أضرحة المشايخ والاولياء في المساجد فأجاب بأن هذا العمل غير مشروع وان الصدقة على البائسين والمنكوبين كأهالي المطرية الذين احترقت بلدهم في هذا العام والبذل في الأعمال العامة كإنشاء المدارس أولى وأفضل وسئل عن تقبيل أعتاب حجرات قبور الصالحين فقال انه غير مشروع بل هو بدعة

ساءت هذه المسألة الأخيرة شيخ الصندوق في ذلك المسجد من دمياط فأوعز الى خطيب من خطباء الفتنة بأن يعرض بتضليل الشيخ حسن علي ووسوس الى كثير من العوام بأن الرجل أنكر الكرامات وأهان الأولياء فقامت قيامة الغوغاء عليه فنمي الأمر الى شيخ الأزهر فأمر شيخ علماء دمياط بالتحقيق فأظهر هذا الشيخ واعوانه من التحامل على الشيخ حسن ما أظهروا حتى انه كان يقبل شهادة الطاعنين فيه ولا يسمع شهادة المدافعين عنه (كما قيل) . ولما علمت العامة بتحامل العلماء عليه هاجت هيجانًا شديدا حتى حاولت الفتك به غير مرة وصارت ترجمه بالحجارة أو الطوب اذا خرج وترجم البيت الذي هو فيه اذا لم يخرج . ثم رفع الأمر الى مشيخة الأزهر فعقد الشيخ حسونه مجلس الادارة للنظر في ذلك وبعد النظر حكم بمنع الشيخ حسن علي من التدريس مدة سنة كاملة وبقطع مرتبه من التدريس في هذه المدة . هذا ما سمع وشاع

قيل ان الحكم اداري سببه اساءة الشيخ حسن علي الى شيخ العلماء في بلده عند التحقيق وهو قول معقول إذ لو كان أخطأ في بعض المسائل الدينية لحكم عليه بعد بيان غلطه له واقناعه بالصواب ان يعترف بالخطأ السابق ويقرر الصواب في دروسه على رءوس الأشهاد. ولكن العامة فهمت انه عوقب على انكار مايسمونه الخطوة أو طي الأرض للصالحين وتقبيل أعتاب الحجرات التي تبنى فيها قبورهم ونحو ذلك من البدع وربما قالوا ان الأولياء تصرفوا فيه وهذا ما كنا نرجو ان يتلافاه الشيخ حسونه لأن هذه الحادثة أحسن فرصة لنصر السنة ومحو البدع

بأن يظهر الحق للملأ على ألسنة الجرائد

الحق في هذه المسائل من البديهيات التي لا ينتطح فيها عنزان — اما مسألة طي الأرض وقطع المسافات الطويلة في دقيقة أو دقائق قليلة فلم يأت بوجوب الايمان بها كتاب ولا سنة ولم يقل بها أحد من الأئمة المجتهدين بل لم يكن يخطر هذا ببال السلف ولما حدث القول بذلك في الخلف استنكره بعض الفقهاء حتى قال بعضهم بأن من يعتقد جواز ذلك يكفر ويخرج من الاسلام أو يحكم بجهالته وغباوته كما صرح بذلك صاحب الوهبانية من فقهاء الحنفية بقوله فيها

ومن لولي قال طي مسافة　　يجوز جهول ثم بعض يكفر

ولا شك ان الناظم كان يعتقد أحد الوجهين اللذين حكاهما عن العلماء فليكن الشيخ حسن مثله ومثل من نقل عنهم . وهذا قولهم فيمن قال بالجواز فما بالك بمن يقول ان ذلك واقع بالفعل . وهب ان هذا وقع كرامة فهل يكلف من لم يثبت ذلك عنده ولم يشاهده ان يجعله عقيدة دينية له ؟ أي دين يتسع لهذا . أيتسع له دين الاسلام الذي قرر كتابه ان لله في الخليقة سننًا لا تتبدل ولا تتحول وان لا حكم في الدين الا لله وما أنزل الله بهذا من سلطان

وأما مسأله تقبيل الأعتاب فهي بدعة لا سند لها من كتاب ولا سنة ولا قول إمام مجتهد وكيف وقد قال الفقهاء في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ليس من السنة ان يمس الجدار ولا أن يقبله بل يقف من بعد ويسلم

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تشييد القبور وتشريفها وعن الكتابة عليها وعن ايقاد السرج عليها وعن اتخاذ المساجد عليها ولعن من يفعل هذا . ومضى الصحابة والتابعون على هذه السنة فلم يبنوا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصلوا اليه ولا بنوا قبرا لأحد من المهاجرين والانصار . ولما حدثت بدعة بناء القبور كان بعض الامراء المتمسكين بالسنة يهدمها كما حكاه الامام الشافعي في الأم قال: ولم أر أحدا من الفقهاء أنكر عليهم ذلك أي هدمها : فهل صارت البدعة سنة وصار بناء القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها والصلاة اليها دينا متبعا بعد ان لعن الشارع فاعل ذلك وصار لهذه المساجد التي تبنى عليها أحكام شرعية منها ان تقبيل أعتابها مطلوب

شرعا ومنكره يعاقب ويهان ؟

وأما مسألة الروضة فالرواية فيها ضعيفة عن الشيخ حسن علي سمعتها من واحد مجملة وانني مع ذلك أقول فيها قولا وجيزا . أقول ان العلماء قالوا في حديث الشيخين «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» ان معناه ان العمل هناك بطاعة الله يكون سبباً لدخول الجنة . وقيل انها تنقل يوم القيامة الى الجنة وقال بعضهم : انه لما كان جلوسه (صلى الله عليه وسلم) وجلوس الناس اليه يتعلمون القرآن والدين والايمان هناك شبه ذلك الموضع بالروضة لكرم مايجتنى فيه وأضافه الى الجنة لانها تؤول الى الجنة : وهذا هو الصواب في تفسيره ويشهد له ما ورد في تسمية مجالس الذكر برياض الجنة كما في حديث جابر وأبي هريرة ومعاذ ولم يقل أحد ان المراد بها أن مجالس الذكر من أرض الجنة لا من أرض الدنيا

وأما مسألة الصناديق التي توضع عند الأضرحة لاستدرار أيدي الذين يظنون أن إلقاء المال في الصندوق منها سبب لقضاء صاحب الضريح لحاجة الملقي فما قاله الشيخ حسن فيها لا يستطيع أحد ان ينكره الا أولئك الاغنياء الذين يأكلون تلك الأموال بالباطل ولم يبلغنا ان الرجل نوقش في هذه المسألة فلا نبحث فيها

فعلم مما تقدم ان كل ماقاله الرجل حق لا وجه لمؤاخذته على شيء منه وهذا مما يقوي القول بأنه أوخذ على شيء آخر يتعلق بمعاملته لشيخ علماء دمياط ولكن الناس لم يعرفوا ذلك الشيء . فظنوا ان شيخ الازهر وأعضاء مجلس ادارته ينكرون تلك الحقائق ويقولون بوجوب الإيمان بطي الأرض للصالحين بالفعل وتقبيل اعتاب المساجد التي بنيت على قبورهم ابتداعا في الدين ، وبان إلقاء المال في الصناديق عند قبورهم أفضل من الصدقة على الفقراء والمساكين ، وإغاثة المنكوبين والبائسين . والناس في هذا الظن فريقان — فريق يعلم الحق في هذه المسائل فهو يعتقد ان الشيوخ مبطلون ، وللبدع والخرافات مؤيدون ، وفريق لاعلم عنده فهو يقلدهم بما يظن انهم عليه . ولا ينبغي اقرار أحد من الفريقين على ظنه ظن السوء بالعلماء لذلك نقترح على الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر أن يبين للناس الحق في هذه المسائل وأنه لم يؤاخذ الشيخ حسنا لخطائه فيها بل لأمر آخر وله ان يكتمه فهذا وقت يجب فيه البيان ولا يصح فيه السكوت والاستاذ في فضله وترويه أهل لذلك

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الالباب

المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كنار الطريق

مصر جمادى الأولى سنة ١٣٢٥ — آخره الخميس ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٧

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٦٩ : ٦٢) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٧٠:٦٣) يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧١ : ٦٤) يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧٢:٦٥) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٣ : ٦٦) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٤:٦٧) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

جاءت هذه الآيات بعد دعوة أهل الكتاب الى الاسلام الذي كان عليه ابراهيم والانبياء لبيان حالهم في ذلك وقد قال المفسرون ان اليهود دعوا معاذا وحذيفة وعمارا الى دينهم فأنزل الله ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ الآية ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصا على إضلال المؤمنين سواء دعوا بعض الصحابة الى دينهم أم لا وليس الإضلال خاصا بالدعوة بل كانوا يلقون ضروبا من الشك في النفوس ليصدوها عن الاسلام من اغربها مافي الآية الآتية (٧٢). وكان النزاع بين الفريقين مستمرا وهو مالا بد منه في وقت الدعوة وقد قال تعالى في بيان حال هذه الطائفة المضلة ﴿ ومايضلون الا أنفسهم ﴾ قال الاستاذ الامام معناه انهم بتوجههم الى الإضلال واشتغالهم به ينصرفون عن النظر في طرق الهداية وما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات على كونه نبيا هاديا فهم يعبثون بعقولهم ويفسدون فطرتهم باختيارهم ولا وجه لمن قال: ان معنى إضلال أنفسهم هو كون عاقبته شرا عليهم ووبالا في الآخرة لأنهم يعذبون عليه؛ فإن الكلام في المحاجة وبيان اعوجاج طريقة المضلين وأما العقاب في الآخرة على الإضلال فهو مبين في مواضع من الكتاب وليس هذا محله وهو لا يفيد هنا في الاحتجاج لأنه إنذار لغير مؤمن بالنذير ولكل مقام مقال. أقول وقد أورد الرازي نحو ماقاله الاستاذ الامام ووجها ثالثا هو انهم لما اجتهدوا في إضلال المؤمنين ثم ان المؤمنين لم يلتفتوا اليهم صاروا خائبين خاسرين حيث اعتقدوا شيئا ولاح لهم أن الامر بخلاف ماتصوروه. ولكن ينافي هذا قوله « وما يشعرون » وهم قد شعروا بخيبتهم في الإضلال ولكنهم لانهماكهم فيه لم يشعروا بأنه كان صارفا لهم عن معرفة الحق والهدى لأن المنهمك في الشيء لايكاد يفطن لعواقبه وآثاره

ثم انه تعالى ناداهم مبينا لهم حقيقة ما هم فيه من الضلال لعلهم يلتفتون الى أنفسهم التي شغلوا عنها بمحاولة اضلال غيرهم فقال ﴿ ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ ذهب الرازي الى أن هذه الآية موجهة الى الطائفة العارفة بما في التوراة من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وما قبلها موجه الى غير العارفين بذلك فآيات الله على هذا هي البشارات التي في التوراة ومثلها

بشارات الانجيل واللفظ عام يشمل ما في الكتابين والكفر بها عبارة عن عدم العمل بها . والمختار عندي أن الخطاب هنا موجه الى جميع أهل الكتاب والآيات عامة في كل مايدل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وحقية ماجاء به من القرآن وغيره وقد كانوا يشهدون هذه الآيات معنى وحسا وفي الاستفهام من التوبيخ لهم والنعي عليهم مايليق بمن يكابر الوجود ويجحد المشهود

﴿ ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ أي تخلطون الحق الذي جاء به الأنبياء ونزلت به الكتب وهو عبادة الله وحده وعمل البر والخير والبشارة بنبي من بني اسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة — لم تخلطون هذا بالباطل الذي ألحقه به أحباركم ورهبانكم من التأويلات والآراء وتجعلون كل ذلك دينا يجب اتباعه و يحسب أنه من عند الله كما قال تعالى في آية أخرى تأتي (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) فلبس الحق بالباطل عام يشمل كل ما ذكر وقيل هو خاص بالعقائد والاحكام وقوله ﴿ وتكتمون الحق وانتم تعلمون ﴾ خاص بالبشارة به صلى الله عليه وسلم والصواب أن هذا عام ايضا فانهم كانوا يكتمون بعض الاحكام اتباعا للهوى فيجعلون الكتاب قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا ويأكلون بذلك السحت وقد بين الله لهم على لسان رسوله كثيرا مما كانوا يخفون من الكتاب كما سيأتي في سورة المائدة وغيرها ان شاء الله تعالى

والآية حجة على الحشوية المقلدين من هذه الامة الذين يخلطون الحق المنزل بآراء الناس ويجعلون كل ذلك دينا سماويا وشرعا آلهيا

ثم قال تعالى ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ قال السيوطي في أسباب النزول روى ابن اسحق عن ابن عباس قال قال عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم فأنزل الله فيهم «ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل» الى قوله «واسع عليم» أقول وأخرج ابن جرير عن قتادة انه قال قال بعض أهل الكتاب لبعض

أعطوهم الرضى بدينهم أول النهار واكفروا آخره فانه أجدر أن يصدقوكم ويعلموا أنكم قد رأيتم فيها ما تكرهون وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم . وأخرج أيضا عن السدي أنه قال فيها كان احبار قرى عربية اثنى عشر حبرا فقالوا لبعضهم ادخلوا في دين محمد أول النهار وقولوا نشهد أن محمدا حق صادق فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا انا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم فحدثونا ان محمدا كاذب وأنتم لستم على شيء وقد رجعنا الى ديننا فهو أعجب الينا من دينكم لعلهم يشكون فيقولون هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم : فأخبر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك . وروي انهم فعلوا ذلك ولم يقفوا عند حد القول فقد اخرج ابن جرير عن مجاهد قال « يهود صلت مع محمد صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرا منهم ليروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه »

وقال الاستاذ الامام : هذا النوع الذي تحكيه الآية من صد اليهود عن الاسلام مبني على قاعدة طبيعية في البشر وهي أن من علامة الحق ان لا يرجع عنه من يعرفه . وقد فقه هذا هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤون النبي صلى الله عليه وسلم عند ما دعاه الى الاسلام هل يرجع عنه من دخل في دينه ؟ فقال أبو سفيان لا . وقد ارادت هذه الطائفة ان تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا لولا ان ظهر لهؤلاء بطلان الاسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على باطنه وخوافيه ، اذ لا يعقل أن يترك الانسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب : فان قيل ان بعض الناس قد ارتدوا عن الاسلام بعد الدخول فيه رغبة لا حيلة ومكيدة كما كاد هؤلاء فماذا تقول في هؤلاء ؟ والجواب عن هذا يرجع الى قاعدة أخرى وهي أن بعض الناس قد يدخل في الشيء رغبة فيه لاعتقاده أن فيه منفعة له لا لاعتقاده انه حق في نفسه فاذا بدا له في ذلك ما لم يكن يحتسب وخاب ظنه في المنفعة فانه يترك ذلك الشيء . ويظهر لي ان النبي صلى الله عليه وسلم ما أمر بقتل المرتد الا لتخويف أولئك الذين كانوا يدبرون المكايد لارجاع الناس عن الاسلام بالتشكيك فيه لان مثل هذه المكايد اذا لم يكن لها أثر في نفوس الاقوياء من الصحابة الذين عرفوا الحق ووصلوا فيه الى عين

اليقين فانها قد تخدع الضعفاء الذين يدخلون في الاسلام لتفضيله على الوثنية في الجملة قبل أن تطمئن قلوبهم بالايمان كالذين كانوا يعرفون بالمؤلفة قلوبهم . وبهذا يتفق الحديث الآمر بذلك مع الآيات النافية للاكراه في الدين والمنكرة له فيما أرى وقد أفتيت بذلك كما ظهر لي والله أعلم

﴿ ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ﴾ هذا من قول الكائدين من أهل الكتاب . وآمن له صدقه وسلم له ما يقول قال تعالى (٢٦:٢٩ فآمن له لوط) وقال حكاية عن اخوة يوسف (١٧:١٢ وما أنت بمؤمن لنا) وقال الاستاذ الامام ان الايمان يتعدى باللام اذا أريد بالتصديق الثقة والركون كقوله (ويؤمن للمؤمنين) أي فيكون تصديقا خاصا تضمن معنى زائدا . وذلك أن اليهود حصروا الثقة بأنفسهم لزعمهم ان النبوة لا تكون الا فيهم بل غلوا في التعصب والغرور حتى حقروا جميع الناس فجعلوا كل ما يكون من انفسهم حسنا وما يكون من غيرهم قبيحا وهذا من الانتكاس الذي يحول بين أهله وبين كل خير واننا نرى من الناس اليوم من يحاول تغرير قومه بحملهم على أن يكونوا كذلك يحقرون كل ما لم يأت منهم وان كان حسنا فنعوذ بالله من الخذلان وعسى أن يعتبر هؤلاء بما رد الله به على أهل الكتاب إذ قال لنبيه ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ لا هدى شعب معين هو لازم من لوازم ذاته فهو سبحانه يبين هداه على لسان من شاء من عباده لا تتقيد مشيئته بأحد ولا بشعب . أما قوله ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ وقد قرأه ابن كثير «أأن» بهمزتين مع تليين الثانية والباقون بهمزة واحدة ففيه وجهان أحدهما انه متصل بما حكاه تعالى من قول اليهود وجملة « قل ان الهدى هدى الله » اعتراضية بينه وبين ماسبقه . والمعنى ولا تصدقوا غير من تبع دينكم بأن أحدا يؤتى مثل ما أوتيتم أو يقيموا عليكم الحجة عند ربكم أي لا تعترفوا امام العرب مثلا بأنكم تعتقدون أنه يجوز أن يبعث نبي من غير بني اسرائيل الخ وهذا مبني على أنهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبي من العرب بألسنتهم مكابرة وعنادا للنبي صلى الله عليه وسلم لا اعتقادا وانهم كانوا لا يصرحون باعتقادهم المتمكن في أنفسهم الا لمن آمنوا له من قومهم لما هم عليه من المكر والمخادعة . وهذا الوجه ظاهر على قراءة الجمهور . هذا ما تظهر

لي وهو نحو ما جرى عليه الزمخشري في الكشاف كما رأيته بعد قال: أي ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم الا لأهل دينكم دون غيرهم أرادوا أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولا تفشوه الا الى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتا ودون المشركين لئلا يدعوهم الى الاسلام. (قال) «أو يحاجوكم عند ربكم» عطف على «أن يؤتى» والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع بمعنى ولا تؤمنوا لغير أتباعكم ان المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة. فان قلت فما معنى الاعتراض قلت معناه ان الهدى هدى الله من شاء أن يلطف به حتى يسلم أو يزيد ثباته على الاسلام كان كذلك ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين. وكذلك قوله تعالى ﴿ قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ يريد الهداية والتوفيق اه كلام الزمخشري اي فهو مؤكد للاعتراض الاول أو هو اعتراض آخر يجيء بعد تمام الكلام كقوله (وكذلك يفعلون) بعد قوله (٢٧: ٣٤ ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها)

قال النيسابوري فان قيل ان جدّ القوم في حفظ أتباعهم عن قبول دين محمد صلى الله عليه وسلم كان أعظم من جدهم في حفظ غير اتباعهم عنه فكيف يليق ان يوصي بعضهم بعضا بالإقرار بما يدل على صحة دين محمد (ص) عند أتباعهم وأن يمتنعوا من ذلك عند الاجانب؟ فالجواب ليس المراد من هذا النهي الامر بافشاء هذا التصديق فيما بين أتباعهم بل المراد انه إن اتفق منكم تكلم بهذا فلا يكن الا عند خويصتكم وأصحاب أسراركم. على انه يحتمل ان يكون شائعا ولكن البغي والحسد كان يحملهم على الكتمان عن غيرهم: هذا ما قاله وهو مبني على ان المراد من الايمان إظهاره والظاهر أن المراد به النهي عن تصديق من يقول ذلك من غيرهم أي الاعتراف له بأنه صادق كأنهم قالوا اذا قال لكم قائل انه يجوز ان يؤتى غيركم من النبوة مثل ما أوتيتم فكذبوه ولا تؤمنوا له. والمفهوم مسكوت عنه وهو مفهوم مخالفة فيه من الخلاف في الاصول ما هو مشهور. واذا قلنا به فانه يصدق بأن يؤمنوا لبعض أهل دينهم اذا قالوا بهذا الجواز كالمتفقين معهم على المكابرة والمكايدة

للتنفير عن الاسلام. وأهل الجحود والكيد لا يكابر بعضهم بعضا فيما هو حجة للمخالف عليهم جميعا وانما يكابرون المخالفين

ثم قال النيسابوري فان قيل كيف وقع قوله «قل ان الهدى هدى الله» بين جزئي كلام واحد وهذا لا يليق بكلام الفصحاء؟ قلت قال القفال يحتمل ان يكون هذا كلاما أمر الله نبيه ان يقوله عند ما وصل الكلام الى هذا الحد كأنه لما حكى عنهم في هذا الموضع قولا باطلا لا جرم أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقابله بقول حق ثم يعود الى حكاية تمام كلامهم كما اذ حكى المسلم عن بعض الكفار قولا فيه كفر فيقول عند بلوغه الى تلك الكلمة: آمنت بالله، أو لا إله الا الله، أو تعالى الله، ثم يعود الى تلك الحكاية اه

أقول ويجوز على هذا الوجه أن تكون الباء المحذوفة من «أن يؤتى» للسببية ويكون المعنى آمنوا وجه النهار مخادعة واكفروا آخره مكايدة ولا تؤمنوا ايمانا حقيقيا ثابتا الا لمن تبع دينكم وأقركم على ما أنتم عليه من التوراة بسبب اتيان أحد كمحمد (ص) مثل ما أوتيتم من النبوة والوحي أو سبب ما يخشى من محاجته لكم عند ربكم في الآخرة. والسببية معلقة بالنهي أي لا يكن اتيان محمد بدين حق وشرع إلهي كالذي أوتيتموه على لسان موسى سببا في الايمان له

وأما قراءة ابن كثير بالاستفهام فأقرب ما تفسر به على هذا الوجه — أي وجه كون الكلام حكاية عن اليهود — ان يقال إن المصدر الذي يؤخذ من «أن يؤتى» مبتدأ خبره محذوف للعلم به من قرينة الحال والخطاب والمعنى أإتيان أحد بمثل ما أوتيتم يحملكم على الايمان له وان لم يتبع دينكم؟ أي ان هذا منكر لا ينبغي ان يكون. ولم أر هذا ولا ما قبله لاحد

الوجه الثاني ان يكون قوله «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم» من كلام الله تعالى بناء على ان حكاية كلام اليهود قد انتهت بقوله «دينكم» وعلى هذا تكون قراءة ابن كثير أظهر وتقرير المعنى عليها: أتكيدون هذا الكيد كراهة ان يؤتى أحد ما أوتيتم. أو أإيتاء أحد مثل ما أوتيتم يحملكم على ذلك الباطل؟ ويحتمل على هذا ان يكون قوله «أو يحاجوكم» بمعنى حتى يحاجوكم اذ وردت

«أو» بمعنى «حتى» أو بمعنى الواو كما قيل أو التقدير ألأجل ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل بذلك محاجتكم عند ربكم كدتم ذلك الكيد ؟ ينكر عليهم ذلك . وأما قراءة الجمهور فيجوز ان تحمل على هذه القراءة لأن أداة الاستفهام يجوز حذفها استغناء عنها بلحن القول وكيفية الاداء . ويجوز فيها وجوه أخرى اظهرها ان يكون المعنى قل ان الهدى الذي هو هدى الله هو أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ويحاجوكم به عند ربكم في الآخرة أي وذلك جائز داخل في مشيئة الله فلا وجه لإنكاره ولذلك أعقبه بقوله « قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » فالكلام كله ردّ عليهم من الله تعالى . وأقوى هذه الوجوه ما يوافق القراءتين وهو ان قوله تعالى « قل ان الهدى » الى آخر الآية رد عليهم وان قوله « أن يؤتى » استفهام انكاري على القراءتين . والمعنى أتفعلون ما تفعلون من الكيد للمؤمنين ومن كتمان الحق عن غير أبناء دينكم كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم الخ وعندي ان في الكلام لفا ونشرا مرتبا وهو أن كراهتهم أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا هو سبب كيدهم للمؤمنين ليرجعوا ، وكراهتهم ان يحاجهم بعض المؤمنين عند ربهم هو سبب كتمانهم ذلك عمن لم يتبع دينهم أو عدم الايمان لهم اذا هم ادعوه . ويشهد لهذا الأخير قوله تعالى حكاية عنهم (٢ : ٧٦ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) هذا ما فتح الله علي به وله الحمد وما عدا هذا مما ذكروا فيه فانتزاع بعيد من البلاغة لا يقبله الذوق الا باستكراه وتكلف . وختم الآية بقوله ﴿ والله واسع عليم ﴾ لبيان سعة فضله واحاطة علمه بالمستحق له وللاشعار بأن اليهود قد ضيقوا بزعمهم حصر النبوة فيهم هذا الفضل الواسع وجهلوا كنه هذا العلم المحيط

ثم بين تعالى ان فضله الواسع ورحمته العامة تابعة لمشيئته لا لوساوس المغرورين من أهل الكتاب الذين حجروهما بجهلهم فقال ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ فهو يجعل من يشاء نبيا ويبعثه رسولا ومن اختصه بذلك فانما يختصه بمحض فضله العظيم لا بعمل قدمه، ولا لنسب شرفه، وان جهل ذلك الذين يظنون انه تعالى يحابي الافراد أو الشعوب بذلك وبغيره تعالى عن ذلك

(٧٥ : ٦٨) وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٦ : ٦٩) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٠:٧٧) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

هذا بيان حال طائفة أخرى من أحوال أهل الكتاب تمثلها طائفة أخرى تخون الأمانة وتستحل أكل أموال من ليس من الاسرائيليين بالباطل غرورا في الدين وتأويلا للكتاب وهي قد جاءت في مقابل الطائفة التي تكيد للمسلمين ليرجعوا عن دينهم . وقال الاستاذ الامام في قوله ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك ﴾ الخ هذه الآية جاءت ببعض التفصيل لما أجمل في الآيات السابقة من غرور أهل الكتاب وزعمهم أنهم شعب الله الخاص وان الدين والحق من خصوصياتهم وابتداؤها بالعطف يشعر بمعطوف محذوف حذف إيجازا لأن السياق لا يقتضي ذكره وهو مبين في آيات أخرى كقوله تعالى (٣ : ١١٣ من أهل الكتاب أمة قائمة) الخ فكأنه هنا يعطف على ما هناك أي منهم كذا ومنهم كذا : وإنما قال كأنه لأن آية « من أهل الكتاب » الخ في هذه السورة وهي متأخرة عن هذه الآيات ولعل جعله معطوفا على ما قبله باعتبار المفهوم أقرب فكأنه قال منهم طائفة تكيد للمسلمين ومنهم من يستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم وقد أشرنا الى ذلك آنفا وإنما أعاد ذكر « أهل الكتاب » ولم يبتدئ الآية بقوله « ومنهم » — والكلام فيهم — للاشعار بأنهم فعلوا ذلك باسم الكتاب الذي حرفوا نهيه عن أكل أموال الناس بالباطل فزعموا انه لم ينههم الا عن خيانة أخوتهم الاسرائيليين . وقد

تقدم تفسير القنطار (آية ١٤) وقوله ﴿ إلا ما دمت عليه قائما ﴾ معناه الا مدة دوامك أيها المؤتمن له قائما على رأسه تلح بالمطالبة، أو تلجأ الى التقاضي والمحاكمة، ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ أي ذلك الترك للأداء بسبب قولهم ليس علينا في أكل أموال الأميين أي العرب تبعة ولا ذنب. فكأنه يقول ان استحلال هذه الخيانة جاءهم من الغرور بشعبهم والغلو في دينهم فان ذلك يستتبع احتقار المخالف احتقارا يهضم به حقه الثابت في المعاملة — قال الاستاذ الامام كأنهم يقولون ان كل من ليس من شعب الله الخاص وليس من أهل دينه فهو ساقط من نظر الله ومبغوض عنده فلا حقوق له ولا حرمة لماله فيحل أكله متى أمكن. وقد رد الله عليهم هذه المزاعم بقوله ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ ان ذلك كذب عليه لان ما كان منه فهو ما جاء في كتابه وليس في التوراة التي عندهم إباحة خيانة الاميين وأكل أموالهم بالباطل وهم يعلمون ان ذلك ليس فيها ولكنهم لا يأخذون الدين من الكتاب وانما لجأوا الى التقليد فعدوا كلام أحبارهم دينا ينسبونه الى الله وهؤلاء يقولون في الدين بآرائهم ويحرفون الكلم عن مواضعه ليؤيدوا بذلك أقوالهم فكل هذه الدواهي جاءتهم من هذه الناحية ناحية التقليد والأخذ بكلام العلماء في الحلال والحرام وهو مما لا يؤخذ فيه الا بكتاب الله ووحيه. وانظر كيف أنصفهم الكتاب فبين ان منهم الوفي والخائن ولا يكون أفراد جميع الامة خائنين وناهيك بأمة منها السموءل

أقول وفي خبر هؤلاء المحرفين من العبرة لنا معشر المسلمين ما فيه فان فينا من يقول الآن انه يجوز أكل أموال غير المسلمين بل والمسلمين في دار الحرب مطلقا ثم ان هؤلاء يفسرون دار الحرب كما يشاءون حتى رأيت بعض الناس يحلون لعمال مركبات الترام بمصر ان يخونوا أصحابها ببيع تذكرة الركوب فيها مرتين أو أكثر ويساعدونهم على ذلك وان استلزمت مساعدتهم الكذب فهم بهذا يحلون الخيانة والسرقة والكذب وهي من كبائر المعاصي التي لا تحل في دين و يتناولهم وعيد اليهود في الآية ووعيد قوله تعالى (١٦ : ١١٦ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب، ان الذين يفترون على الله الكذب

لا يفلحون ١١٧ متاع قليل ولهم عذاب أليم) وما جرأهم على ذلك الا سوء التقليد للفقهاء الذين قالوا بجواز أكل مال الحربي في داره بالعقود الفاسدة التي لا تحل في دار الاسلام كالربا والبيع الفاسد. ولكن هؤلاء الفقهاء لا يحلون الغش ولا الخيانة ولا السرقة ولا الكذب والاحتيال لذلك وانما يقولون يجوز أكل ماله برضاه في مثل تلك العقود على أن المسألة خلافية لم يتفق الفقهاء عليها. فلينظر المسلم الصادق المستنير بالدليل الى سوء مغبة التقليد وكيف انه استلزم الاجتهاد الباطل اذ صار الجاهلون من المقلدين يقيسون أكل المال بالغش والخيانة والسرقة على أكله بالعقود الفاسدة مع التراضي

ثم قال تعالى في بيان الحق في المعاملة ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين ﴾ العهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك فاذا اتفق اثنان على أن يقوم كل منهما للآخر بشيء مقابلة ومجازاة يقال انهما تعاهدا ويقال عاهد فلانا فلان عهدا فيدخل فيه العقود المؤجلة والامانات فمن ائتمنك على شيء أو أقرضك مالا الى أجل أو باعك بثمن مؤجل وجب عليك الوفاء بالعهد وأداء حقه اليه في وقته من غير أن تلجئه الى التقاضي والالحاح في الطلب بذلك تقضي الفطرة وتحتم الشريعة وهذا مثال العهد مع الناس وهو المراد هنا أولا وبالذات للرد على أولئك اليهود الذين لم يجعلوا العهد مما يجب الوفاء به لذاته وانما العبرة عندهم بالمعاهد فان كان اسرائيليا وجب الوفاء له لانه اسرائيلي ومن كان غير اسرائيلي فلا عهد له ولا حق يجب الوفاء به. ويدخل في الاطلاق عهد الله تعالى وهو ما يلتزم المؤمن الوفاء له به من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله وعهد للناس العمل به وهو حجة على اليهود أيضا فانهم ما كانوا يوفون بهذا العهد مع انهم يقولون بوجوب الوفاء ولو أوفوا به لآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا النور الذي أنزل معه كما أوصاهم الله وعهد اليهم على لسان موسى صلى الله عليه وسلم

ولفظ «بلى» جاء لاثبات ما نفوه في قولهم «ليس علينا في الاميين سبيل» فهو يقول بلى عليكم سبيل وأي سبيل اذ فرض عليكم الوفاء بالعهد وبالتقوى ثم ذكر جزاء أهل الوفاء والتقوى فقال من أوفى بعهده الذي عاهد به الله أو الناس

واتقى الإخلاف والغدر والاعتداء فان الله يحبه فيعامله معاملة المحبوب بأن يجعله محل عنايته ورحمته في الدنيا والآخرة . قال الاستاذ الإمام ما معناه ان ورود الجواب بهذه العبارة أفادنا قاعدة عامة من قواعد الدين وهي ان الوفاء بالعهود واتقاء الاخلاف وسائر المعاصي والخطايا هو الذي يقرب العبد من ربه ويجعله أهلا لمحبته لا كونه من شعب كذا ومن هذه القاعدة يعلم خطأ اليهود في زعمهم انه ليس عليهم في الاميين سبيل وفيه التعريض بأن أصحاب هذا الرأي ليسوا من أهل التقوى التي هي الركن الركين لكل دين قويم

ثم بين تعالى جزاء أهل الغدر والاخلاف مع بيان السبب الذي يحملهم على ذلك فقال ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ روى الشيخان وغيرهما أن الاشعث قال كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « ألك بينة ؟ » قلت لا فقال لليهودي « احلف » فقلت يارسول الله اذن يحلف فيذهب مالي فأنزل الله « ان الذين يشترون بعهد الله » الآية . وأخرج البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلا أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت هذه الآية « ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري لامنافاة بين الحديثين بل يحمل على أن النزول كان بالسببين معا . واخرج ابن جرير عن عكرمة أن الآية نزلت في حيي ابن اخطب وكعب بن الاشرف وغيرهما من اليهود الذين كتموا ما أنزل الله في التوراة وبدلوه وحلفوا أنه من عند الله . قال الحافظ ابن حجر والآية محتملة ولكن العمدة في ذلك ماثبت في الصحيح اه من لباب النقول . ويحتمل ان الآية كانت تذكر عند ذكر تلك الوقائع فيظن من لم يكن سمعها أنها نزلت فيها وهي على كل حال متصلة بما قبلها متممة له والأيمان فيها جمع يمين وهو في الاصل اسم لليد التي تقابل الشمال ثم سمي الحلف والقسم يمينا لأن الحالف في العهد يضع يمينه في يمين من يعاهده عند الحلف لتأكيد العهد وتوثيقه حتى ان اللفظ يطلق على العهد نفسه . وقد أضاف العهد هنا الى الله لأنه تعالى

عهد الى الناس في كتبه المنزلة ان يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه وأن يؤدوا الامانات الى أهلها كما عهد اليهم ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ويتقوه في جميع الأمور فعهد الله يشمل كل ذلك ولما كان الناكث للعهد لا ينكث الا لمنفعة يجعلها بدلا منه عبر عن ذلك بالشراء الذي هو معاوضة ومبادلة وسمى العوض ثمنا قليلا مع العلم بأن بعض الناس لا ينكثون العهد في الأمور الكبيرة الا اذا أوتوا عليه أجراً كبيرا وثمنا كثيرا لأجل ان يبين للناس أن كل ما يؤخذ بدلا من عهد الله فهو قليل لاسيما اذا أكد باليمين لأن العهود اذا خزيت اختل أمر الدين إذ الوفاء آيته البينة بل محوره الذي عليه مداره، وفسدت مصالح الدنيا اذ تبطل ثقة الناس بعضهم ببعض والثقة روح المعاملات وسلك النظام وأساس العمران ، لأجل هذا كان الوعيد على نكث العهد ولو لأجل المنفعة أشد مانطق به الكتاب وأغلظه وأي عقاب أشد من عقاب من لاخلاق له في الآخرة أي لا نصيب له من النعيم فيها ولا يكلمه الله كلام إعتاب ولا ينظر اليه نظر عطف ورحمة ولا يزكيه بالثناء على عمل له صالح أو لا يطهره من ذنوبه بالعفو والمغفرة وله عذاب أليم ؟ لم يكتف تعالى بحرمان بائعي العهد بالثمن من النعيم وبما أعد لهم من العذاب الاليم حتى بين مع ذلك انهم يكونون في دركة من الغضب الالهي لا ترجى لهم فيها رحمة ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة فعدم النظر والكلام كناية عن عدم الاعتداد ومنتهى الغضب الذي لارجاء معه ولا أمل

ان الزنا وشرب الخمر والميسر والربا وعقوق الوالدين مع الكبائر ولكن الله تعالى لم يتوعد مرتكبي هذه الموبقات بمثل ماتوعد به ناكثي العهود وخائني الأمانات لأن مفاسد النكث والخيانة أعظم من جميع المفاسد التي حرمت لأجلها تلك الجرائم فما بال كثير من الناس يدعون التدين ويتسمون بسمة الاسلام وهم لا يبالون بالعهود ولا يحفظون الأيمان ويرون ذلك صغيرا من حيث يكبرون أمر المعاصي التي لم يتعودوها لأنهم لم يتعودوها . الايمان بالله لا يجتمع مع الخيانة والنكث في نفس وقد عد تعالى أخص وصف لزعماء الكفر يبيح قتالهم كونهم لا وفاء لهم بالعهود اذ قال (٩ : ١٢ فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) وقال

الرسول صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث – وفي رواية لمسلم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم – اذا حدث كذب واذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » رواه الشيخان وغيرهما وفي رواية لهما « وإذا عاهد غدر » وروى أحمد والبزار والطبراني في الاوسط عن أنس رضي الله عنه انه قال : ماخطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وقال « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لاعهد له »

(٧٨ : ٧٢) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

قوله تعالى ﴿ وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ بيان لحال طائفة أخرى من أهل الكتاب والجمهور على ان المراد بهذا الفريق بعض علماء اليهود الذين كانوا حوالي المدينة وان كان التشنيع عليهم يتناول كل من كان على شاكلتهم منهم ومن غيرهم . ويروون عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ان هذا الفريق هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الاشرف أحد زعمائهم الملحين في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والايذاء والاغراء به غيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته يوهمون الناس أنه من التوراة وهذا العمل ينبيء بفساد اعتقادهم وعدم استمساكهم بكتابهم وذلك أنهم جعلوا الدين جنسية وصار الانتصار له عندهم عبارة عن مقاومة من لم يكن من جنسهم وان كان أقرب منهم الى ماجاء في كتابهم بل إنهم يخرجون عن كتابهم ويحرفونه لمقاومة الغريب و يعدون ذلك انتصارا له وهكذا يفعل أشباههم من المسلمين اليوم فقد يعدون من أنصار الدين والمتعصبين له من لامعرفة له بعقائده وأصوله ولا بفروعه الا ما هو مشهور عند العامة . ولاهو يعمل بما يعلم من ذلك – وانما يعدونه كذلك اذا هو عادى من لا يعدون من المسلمين ولو بسبب سياسي أو دنيوي لاعلاقة له بالاسلام . بل يعدون من أنصار الدين من يطعن في بعض المصلحين من المسلمين

لمخالفتهم ما عليه العامة والمقلدون فيما يعدونه من الاسلام لانهم اعتادوه لا لأن كتاب الله جاء به . وقد يحرفون القرآن بالتأويل لتأييد تقاليدهم و بدعهم أو يعرضون عنه اعتذارا بأنهم غير مطالبين بأخذ دينهم منه بل من كلام العلماء

أما ليّ اللسان بالكتاب فهو فتله بالكلام وتحريفه له بصرفه عن معناه الى معنى آخر وقد وصف تعالى به اليهود في سورة النساء بقوله (٤ : ٤٦ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم) فهذا مثال من ليّ اللسان بالكلام وإن لم يكن من الكتاب ذلك أنهم وضعوا كلمة « غير مسمع » مكان جملة « لا أسمعت مكروها » الدعائية التي تقال عادة عند ذكر السماع . وكلمة «راعنا» مكان كلمة « انظرنا » التي يقولها الناس لمن يطلبون معونته ومساعدته وانما قالوا «غير مسمع » لأنها تستعمل في الدعاء على المخاطب بمعنى «لا سمعت» وقالوا «راعنا» لأن هذه الكلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها كما قال المفسرون وسيأتي تفصيل ذلك في محله ومثل هذا ما ورد في كتب الحديث والسير من أنهم كانوا اذا سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم يعضون كلمة السلام فيخفون اللام قائلين « السام عليكم » غير مفصحين بالكلمة والسام الموت فاللي والتحريف قد كان يكون منهم أحيانا بتغيير في اللفظ وأحيانا بصرفه الى غير المعنى المراد منه ، ومنه أن يقرأ القارىء شيئاً بالكيفية التي يقرأ بها الكتاب من جرس الصوت وطريقة النغم وإظهار الخشوع ليحسبه السامع من الكتاب فيقبله ولا أذكر أن أحدا نبه عليه واللفظ الذي يتناوله وهو مما يتبادر الى أذهان الموهمين وقد رأينا من المتساهلين في المسلمين من يأتيه مازحا بأن يقرأ من كتاب ماجلا بالتجويد الذي يقرأ به القرآن ليوهم الجاهل أو يختبره ويروى أن عبد الله بن رواحة أوهم امرأته بمثل ذلك وهو مما لا يصدق على صحابي جليل مثله

قال الاستاذ الامام هذا اللي هو ان يعطي الناطق للفظ معنى آخر غير المعنى الذي يظهر منه . مثال ذلك الألفاظ التي جاءت على لسان سيدنا عيسى عليه السلام ككلمة ابن الله وتسمية الله أبا له وأبا للناس فقد كان ذلك استعمالا

مجازيا ولواه بعضهم فنقله الى الحقيقة بالنسبة الى المسيح وحده أي فهم يفسرون لفظا بغير معناه المراد في الكتاب يوهمون الناس ان الكتاب جاء بذلك كما قال ﴿ لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب و يقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ انهم كاذبون أكد الخبر بتعمدهم التحريف وسجل الكذب الصريح عليهم كأنه يقول انهم لا يعرّضون ولا يورون وانما يصرحون بالكذب تصريحا لفرط جراءتهم وعدم خوفهم من الله تعالى لان الدين عندهم رسم ظاهر وجنسية هي مصدر الغرور إذ يعتقدون أنهم يغفر لهم جميع ما يجترمون لانهم من أهل هذا الدين ، ومن سلالة أولئك النبيين ، وهكذا حال الذين اتبعوا سننهم من المسلمين ، يقولون ان المسلم من أهل الجنة حتما مهما كانت سيرته سيئة وعمله قبيحا فان لم تدركه الشفاعات أدركته المغفرة ، و يعنون بالمسلم من اتخذ الاسلام جنسا له وان لم يصدق عليه ما جاء في الكتاب والاحاديث من صفات المؤمنين الصادقين بل صدق عليه ما جاء في وصف الكافرين والمنافقين ،

(٧٣:٧٩) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٨٠ : ٧٤) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

أخرج ابن اسحاق والبيهقي عن ابن عباس قال قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام : أتريد يا محمد ان نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟ قال « معاذ الله » فأنزل الله في ذلك « ما كان لبشر » الى قوله « مسلمون » وأخرج عبد الرزاق في تفسيره عن الحسن قال بلغني ان رجلا قال يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال « لا ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله » فأنزل الله « ما كان لبشر » الآيتين ذكر ذلك السيوطي في لباب النقول وقال

الاستاذ الامام ان ما روي من ان بعض الصحابة طلب ان يسجدوا للرسول هو من الروايات التي لم يبق الله المسلمين شرها ولا حاجة اليها في القرآن فان الآية متصلة بما قبلها فهي في سياق الرد على أهل الكتاب إبطال لما ادعاه بعضهم من أن لله تعالى ابنا أو أبناء حقيقة وان بعض الانبياء أثبت ذلك لنفسه . وصرح بأن هذه الدعوى مما يدخل في ليّ اللسان بالكتاب وتحريفه بالتأويل . و يصح ان تكون ردا على أصحاب هذه الدعوى ابتداء مستأنفا استئنافا بيانيا كأن النفس تتشوف بعد بيان حال فرق اليهود الى بيان حال النصارى وما يدعون في المسيح فجاءت الآيتان في ذلك . فقوله ﴿ ما كان لبشر ﴾ نفي للشأن وهو أبلغ من نفي الوقوع لأنه نفي للوقوع مع بيان السبب والدليل وهو أن هذا غير ممكن ﴿ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم ﴾ به والعمل بارشاده قال في الكشاف الحكم الحكمة التي هي السنة ووافقه الاستاذ الامام قائلا : ان عبارات الكتاب ربما تذهب النفس فيها مذاهب التأويل فالعمل هو الذي يقرر الحق فيها : وقد تقدم عنه تفسير الحكمة بفقه الكتاب ومعرفة أسراره وأن ذلك يستلزم العمل به . وانما قال ﴿ والنبوة ﴾ بعد قوله يؤتيه الله الكتاب لأن المرسل اليهم يقال انهم أوتوا الكتاب ﴿ ثم يقول للناس كونوا عبادا لي ﴾ العباد جمع عبد بمعنى عابد والعبيد جمع له بمعنى مملوك أي بأن تتخذوني إلها أو ربا لكم ﴿ من دون الله ﴾ أي كائنين لي من دون الله أو كونوا عابدين لي من دونه وقيل معناه حال كونكم متجاوزين الله تعالى أي متجاوزين ما يجب من افراده بالعبادة وتخصيصه بالعبودية . وقطع أبو السعود بأن ذلك يصدق بعبادة غيره استقلالا أو اشتراكا وله وجهان أحدهما أن العبادة الصحيحة لله تعالى لا تتحقق الا اذا خلصت له وحده فلم تشبها شائبة ما من التوجه الى غيره كما قال (٣٩ : ١٤ قل أعبد الله مخلصا له ديني) وقال (٩٨ :٥ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) والآيات في هذا كثيرة

فمن دعا الى عبادة نفسه فقد دعا الناس ان يكونوا عابدين له من دون الله وان لم ينههم عن عبادة الله بل وان أمرهم بعبادة الله . ومن جعل بينه و بين الله واسطة في العبادة كالدعاء فقد عبد هذه الواسطة من دون الله لأن هذه الوساطة تنافي

الاخلاص له وحده ومتى انتفى الإخلاص انتفت العبادة ولذلك قال (٣٩ : ٢ فاعبـد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم) الآية فلم يمنع توسلهم بالأولياء اليه تعالى ان يقول انهم اتخذوهم من دونه و يدل عليه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى أنا اغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيـه معي غيري تركته وشركه -- وفي رواية -- فانا منه برىء هو للذي عمله » رواه مسلم وغيره وقوله (ص) « اذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد من أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك » رواه أحمد . والوجه الثاني أن من يتوجه بعبادته الى غير الله تعالى على انه وسيلة اليه ومقرب منه وشفيع عنده أو على أنه متصرف بالنفع ودفع الضر لقربه منه فتوجهه هذا اليه عبادة له مقدرة بقدرها فهو عبد له في هذا القدر من التوجه اليه من دون الله . وهذا الوجه معقول في نفسه والأول أقوى لأن النصوص مؤيدة له وقد غفل عنه من أجازوا للعامة اتخاذ أولياء يتوجهون اليهم بالدعاء وطلب الحاجات و يسمون ذلك توسلا بهم الى الله وانمـا هو عبادة لهم من دون الله ففي الحديث الصحيح « الدعاء هو العبادة » وتلا (ص) قوله تعالى (٤٠ : ٦٠ وقال ربكم ادعوني) الآية رواه أحمد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم

{ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون } أي ولكن يأمرهم النبي الذي أوتي الكتاب والحكم بأن يكونوا منسوبين الى الرب مباشرة من غير توسطه هو ولا التوسل بشخصه وانما يهديهم الى الوسيلة الحقيقية الموصلة الى ذلك وهي تعليم الكتاب ودراسته فبعلم الكتاب وتعليمه والعمل به يكون الانسان ربانيا مرضيا عنـد الله تعالى فالكتاب هو واسطة القرب من الله تعالى والرسول هو الواسطة المبلغة للكتاب كما قال تعالى (٤٢ : ٤٨ ان عليك الا البـلاغ) فلا يمكن لأحـد أن يتقرب الى الله بشخص الرسول بل بما جاء به الرسول (راجع تفسير ٣١ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) والآيات المقررة لهذه الحقيقة كثيرة جدا

قال الاستاذ الامام ما مثاله مفصلا: أفادت الآية أن الانسان يكون ربانيا بعلم الكتاب ودرسه و بتعليمه للناس ونشره ومن المقرر ان التقرب الى الله تعالى لا يكون الا بالعمل بالعلم والعلم الذي لا يبعث الى العمل لا يعد علما صحيحا لأن العلم الصحيح ما كان صفة للعالم وملكة راسخة في نفسه وانما الأعمال آثار الصفات والملكات والمعلم يعبر عما رسخ في نفسه ومن لم يحصل من علم الكتاب إلا صورا وتخيلات تلوح في الذهن ولا تستقر في النفس لا يمكنه ان يكون معلما له يفيض العلم على غيره كما انه لا يكون عاملا به على وجهه كما ثبت بالمشاهدة والاختبار أي في نحو العلوم الفنية فان من لا يعرف من الهندسة الا بعض الاصطلاحات والمسائل الناقصة لا يمكنه ان يكون مهندسا بالفعل ولا ان يكون معلما للهندسة . ومراد الاستاذ ان العلم لما كان يستلزم العمل استغنى بذكره عن التصريح بالعمل كما يستغنى عن ذكر العلم عندما يعلق الجزاء على العمل لان العمل الصحيح لا يكون الا عن العلم الصحيح فتارة يذكر الملزوم وتارة يذكر اللازم ولكل مقام مقال

{ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا } قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب « يأمركم » بالنصب عطفا على « ثم يقول » « ولا » هذه هي التي يجاء بها لتأكيد النفي السابق . وهو هنا قوله « ما كان لبشر » وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف . وقرأ أبو عمرو باختلاس الهمزة على الاصل عنده . تنقل عبادة الملائكة عن مشركي العرب وعن بعض أهل الكتاب واتخذ بعض اليهود عزيرا والنصارى المسيح ابنا لله فجاء الاسلام يبين ان كل ذلك مخالف لما جاء به الأنبياء من الامر بعبادة الله وحده واخلاص الدين له والنهي عن عبادة غيره ولذلك قال { أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون } بمقتضى الفطرة وقال الاستاذ الامام: معناه أنه ما كان للمسيح ان يأمر أهل الكتاب الذين بعث فيهم بعبادته بعد إذ كانوا موحدين بمقتضى ما جاءهم به موسى . وحمله أكثر من عرفنا من المفسرين على جواب من طلب السجود للنبي صلى الله عليه وسلم بناء على انهم هم المسلمين دون غيرهم وقد نسوا هنا ان الاسلام في عرف القرآن وهو دين جميع الانبياء كما انه دين الفطرة (راجع تفسير ان الدين عند الله الاسلام)

باب المقالات

منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق

٤

الجمعيات

يرى كثير من العقلاء ان العلة الأولى لارتقاء الأمم هي القوة وبها سعد الافرنج في بلادهم، وبها سادوا على معظم أمم المشرق، فالقوة أساس مدنيتهم، والسلاح مصدر عزتهم وعظمتهم، والا فهم لا يمتازون على غيرهم بالقوى العقلية، ولا بشيء من المواهب الغريزية، وهذه اليابان قد اقتفت آثارهم في العناية بالجندية، وتشييد الاساطيل الحربية، فقهرت أكبر دولة من دولهم حتى صارت الدول العزيزة منهم تعتز بمحالفتها، وتخطب مودتها لمكان قوتها، بعد أن كانوا يرونها انقص منهم في الخلقة، وأقل في استعداد الفطرة، فعلى سائر الممالك الشرقية ان تتلو في ذلك تلوها، وتقفو في أمر القوة أثرها. ويعارض أصحاب هذا الرأي العالم الاجتماعي مبيناً أن القوة في هذا الزمان تتوقف على أسباب كثيرة مرتب بعضها على بعض فلا بد من الأخذ بمبادئها لأجل الوصول الى غاياتها فما هو السبب الأول الذي يجب الابتداء به لترقية الامة ورفعة شأنها؟

يقول المشتغلون بالسياسة إن سبب ارتقاء أوربا وعزتها وسيادتها هو انتظام حكوماتها وتقيدها بالشورى التي هي ناموس العدل وينبوع السعادة فكل أمة تحب الارتقاء يجب ان توجه عنايتها قبل كل شيء إلى إصلاح حال حكومتها بجعلها مقيدة بالشورى والقوانين العادلة، ويقول لهم العالم الاجتماعي وما هو السبب المؤدي الى اصلاح الامة لحكومتها وهل يتسنى لامة غير مرتقية ان تفعل ذلك؟ فكيف يجعل اصلاح الحكومة علة لكل ارتقاء وهو معلول لنوع من ارتقاء الامة لابد ان يتقدمه فما هو هذا النوع الذي هو السبب الأول للارتقاء اوعلة العلل له؟

يقول علماء التربية إن العلة الاولى لارتقاء الامم هي التربية والتعليم فكلما انتشرت المدارس ينتشر فيها وبها ومنها شعاع الارتقاء وكلما كان التعليم أعم وأكمل، كان الارتقاء أتم وأشمل، ألم يهد اليك أن بسمرك قال عن قومه الالمانيين انهم انتصروا على فرنسا بالمدرسة؟ والاقوال في اثبات هذا الرأي لاتحصى وكم كتبنا وكتب الكاتبون في بيانه، واظهار برهانه، ولنا في ذلك مقال مطول بأسلوب المحاورة نشرناه في العدد الثاني من سنة المنار الاولى بينا فيه ان سبب جميع أنواع الترقي الصورية والمعنوية انما هو التربية والتعليم وفي هذا المقال قال أحد أصحاب الصحف: ماذا أبقى صاحب المنار لسائر الاعداد التي تصدر في المستقبل بعد ما جمع في هذا العدد كل شيء: بل قد أعجب الاستاذ الامام بذلك المقال وأجاز كل ما ورد فيه ولكن العالم الاجتماعي يقول لنا مع ذلك ان الامة لاتتوجه الى العناية بالتربية النافعة والتعليم الرافع لها من أفق الى أفق أعلى منه الا بعد نوع من الارتقاء يتقدم ذلك فيهدي الامة اليه، ويقدرها عليه، فما هو هذا النوع الذي نسميه السبب الاول وعلة العلل؟

ويقول علماء الاقتصاد وأرباب الاموال إن الثروة مبدأ كل ارتقاء، ومصدر كل اصلاح، فلا مدارس ولا تعليم، ولا تربية ولا تنظيم، الا والمال أساسه الذي عليه يبنى، وقواعده التي عليها يرفع، فعلى الامة الشرقية التي تطلب رفعة الشان، والعزة والسلطان، ان تبدأ بجمع الثروة التي تمكنها من نشر التربية والتعليم في الامة، ومن تنظيم الحكومة وتعزيز الدولة، ويرد عليهم العالم الاجتماعي انا لا ننكر ان المال، هو الوسيلة لجميع الاعمال، ولكن جمع المال يتوقف على العدل والعلم لاسيما في البلاد التي دخلها الافرنج العالمون من طرق الكسب، الا يعلم الشرقيون. وقد أخذ بهذا السبب اليهود فكانوا فيه أبرع البشر، وهم يحاولون منذ قرون أن يؤسسوا به ملكا ولما يساعدهم القدر، فعلينا أن نبحث عن السبب الأول للارتقاء فنطلب الامر في إبانه، ونأخذه بربانه، فانه

من طلب الغاية في المبدإ لا ... يؤوب الا بالقنوط والشقا

ومن يسر سيرا طبيعيا لها ... يدرك بالتوفيق منها المنتهى

يرى العالم الاجتماعي ان العلة الاولى لارتقاء الامم هي الجمعيات فلا ترتقي أمة الا بعد ان تنبه حوادث الزمان أفرادا من أولي الالباب فيها الى وجوب السعي لترقيتها ورفعة شأنها وأول ما يجب عليهم هو تأليف (الجمعيات) للتعاون على ما يجب القيام به من الاعمال فالجمعيات هي السبب الاول والعلة الاولى لكل ارتقاء بها صلحت العقائد والاخلاق في أوربا وبها صلحت الحكومات ، وبها ارتقت علومها وفنونها ، وبها عزت وعظمت قوتها ، وبها فاضت ينابيع ثروتها ، وبها انتشر دينها في الخافقين ، وبها سادت على المشرقين والمغربين ،

أليست الجمعيات السياسية السرية هي التي طهرت أوربا من استبداد الملوك والباباوات وأزالت منها حكومات الاشراف واستبدلت بها الحكومات الجمهورية والملكية المقيدة بالقوانين وسيطرة أهل الشورى من الامة ؟

أليست الجمعيات الدينية والخيرية هي التي أنشأت المدارس لتعميم التربية والتعليم ، وأنشأت الملاجىء والمستشفيات للمرضى والبائسين ، ؟

أليست الجمعيات العلمية والفنية هي التي هذبت اللغات ووسعت دائرة العلوم والفنون بما خصصت لكل فرع من فروعها رجالا يصبرون نفوسهم على التحرير والتمحيص لمسائله وتأييدها بالتجارب وترقيتها بالاكتشافات والاختراعات ؟

أليست الجمعيات المالية المعبر عنها بالشركات هي التي أنشأت المعامل لجميع الصناعات ، ومدت سكك الحديد في جميع الجهات ، وسيرت في البحار تلك الجواري المنشآت ، وابتدعت البيوت المالية (البنوك) لتيسير المعاملات ؟

بلى انه ما من عمل ارتقى الا وكانت الجمعيات هي رقته ، إن لم تكن هي التي أوجدته واخترعته ، فالجمعيات هي تظهر منتهى استعداد الانسان للارتقاء بل هي التي تحقق معنى الانسانية في هذا النوع اذ لا معنى للانسانية الا حياة الاجتماع والتعاون فمهما قل الاجتماع في أمة ضعف معنى الانسانية فيها ومهما كثر الاجتماع واعتز كانت الانسانية أقوى وأكمل

سبق الشرق الغرب الى كل نوع من أنواع الارتقاء المدني ولكن المدنية لم تكمل في الشرق ولم تبن على قواعد يؤمن سقوطها ولذلك سقطت وما ذاك الا أن

قيامها كان بعمل الافراد لا الجمعيات فلولا هذه الجمعيات لما كانت مدنية الغرب الحديثة أرقى وأكمل ، وأجدر بأن تكون أثبت وأدوم ،

وجدت الجمعيات السرية والجهرية في الشرق ولكن انفصمت عراها ، قبل أن بلغت مداها ، وجاء الاسلام بالتعاليم الاجتماعية فجعل أمر المؤمنين شورى بينهم أي تقوم به الجماعة لا يستقل به الأفراد وأمر بتأليف الجمعيات للأعمال النافعة بمثل قول الله عز وجل (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وبمثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم « يد الله على الجماعة » ومع هذا لم يكن حظ المسلمين من الجمعيات أحسن من حظ سائر أهل المشرق بل كان من سوء حظهم ان استحالت الجمعيات السياسية كجمعية الشيعة التي ألفت لجعل الحكم في أهل البيت عليهم السلام وجمعية الخوارج المعروفة — الى مذاهب دينية زادت المسلمين تفريقا وخذلانا . وفسدت جمعية الصوفية الاصلاحية بعد أن ربت كثيرا من المصلحين وصارت جمعية الباطنية التي أسست لافساد الدين الاسلامي جمعيات ومذاهب متعددة لم يأت منها الا الشر والوبال على الشرق فترى ان جمعيات المسلمين السياسية ما أفسدها الا اصطباغها بصبغة الدين بجعل تعاليمها مذهبا يدعى اليه باسم التقرب الى الله وستر موضوعها واخفاء مقصدها في ذلك . وقد قصروا في تأليف الجمعيات الخيرية والعلمية الفنية والشركات المالية ولولا ذلك لما ماتت مدنيتهم قبل بلوغها سن الرشد

والآن نرى الشرق قد أنشأ يتعلم من الغرب كيفية تأليف الجمعيات والشركات فنجح اهل يابان في ذلك ورشدوا ولا يزال العثمانيون والمصريون في سن الطفولية من هذه الحياة الاشتراكية الاجتماعية التي لا وسيلة لبلوغ هذا النوع رشده بدونها أسسنا غير مرة جمعيات علمية وأدبية وخيرية وسياسية فكانت تسقط الجمعية منها بعد الخطوة والخطوتين أو الخطوات القليلة وقد نجحت في مصر الجمعية الخيرية الاسلامية نجاحا يوثق بدوامه واستمراره وهي أفضل ما عمل المسلمون بمصر في هذا الطور الجديد من الحياة وتليها جمعية العروة الوثقى وجمعية المساعي المشكورة الخاصتين بالتعليم . وأسسنا شركات مالية كثيرة للعمل في الزراعة

والتجارة حبط عملنا في بعضها وثبت بعضها والرجاء في المستقبل عظيم

ارجع البصر الى البلاد التي لم تأخذ عن الاوربيين شيئاً من العلم ولم تشترك معهم في شيء من الاعمال كبلاد مراكش هل نرى فيها جمعية خيرية أو دينية أو علمية أو سياسية أو تشاهد فيها شركة تجارية أو زراعية أو صناعية ؟؟ تأمل واعرف الخير وينابيعه وكيف تستزيد منه واعلم ان الجمعيات والشركات هي المعيار الذي يعرف به تقدم الامم وتأخرها وحياتها وموتها فلا يغرنك القيل والقال ، ولا نبوغ بعض الأفراد في بعض العلوم أو الأعمال ، فان هؤلاء النابغين اذا لم يجدوا في أمتهم جمعيات تعرف قيمتهم ، وتسعدهم على ابراز ثمرات نبوغهم ، يذهب استعدادهم سدى ، ويجزر مده قبل ان يبلغ المدى ، واذا وجدوا ذلك زكا استعدادهم ، وامتد إمدادهم ، وكانوا كجنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، كما أنهم يؤتون أجرهم مرتين ،

الاشربه الروحيه

﴿ مقالة المقتطف التي وعدنا بنشرها ﴾

قلما تجد مائدة من موائد الافرنج خالية من الشراب من الخمر أو البيرا أو الشمبانيا ولم تولم وليمة من غير أن تشرب عليها أقداح الراح ولا تحسبن ذلك خاصاً بالافرنج بل هو شائع عند كل الأمم حديثهم وقديمهم . فآثار مصر وخرائب بابل وأشعار اليونان وتواريخ الرومان وأخبار الامم الحاضرة والغابرة وكتب الرحلات كل ذلك ناطق بأن الناس لم ينفكوا عن تعاطي كؤوس الراح من أول عهدهم بين مقل ومكثر ومقلل ومدمن ولم ينفك فضلاؤهم عن التحذير منها والنهي عنها وحجتهم انها تسكر وتذهب العقل وتتلف المال والصحة . لكن النهي والتحذير لم يأتنا بطائل فلا يزال الناس ينفقون على الخمور اضعاف ما ينفقونه على تعليم أولادهم وينفق بعضهم عليها أكثر مما ينفق على طعامه ولا يزال

الاطباء يصفونها لضعاف الاجسام كأنها من المقويات فيقوون اعتقاد الناس فيها ويزيدون ميلهم اليها فهل الاطباء مصيبون في ذلك وهل نفع الخمور كاف للتكفير عن مضارها؛ هذه مسألة جديرة بالنظر ولا سيما بنظر الأطباء

ولا نريد بالمضار هنا مضارّ السكر لأنها تفوق كل ما يمكن ان ينسب إلى الخمر من النفع اضعافاً كثيرة فلا وجه للموازنة بينهما وانما نريد مضارّ الشرب المعتدل أو شرب الخمور على الطعام الذي اعتاده الاوربيون ومن جرى مجراهم واتفق أكثر الاطباء على وصفه لنحاف الاجسام أو الذين ساء هضمهم الطعام

يقصد بالطعام تغذية الجسم وبالشراب تسهيل هضم الطعام حتى يغذي الجسم . وليس وراء ذلك فائدة عملية من الطعام أو من الشراب لمن يأكل ويشرب . نعم ان من يبيع الاطعمة والاشربة يستفيد كثيرا من بيع بضاعته نفعت المشترين أو اضرتهم ولذلك نرى صانعي الخمور وبائعيها من أغنى أهل الأرض ولكن هذه الفائدة خارجة عن موضوع بحثنا ولو كانت الدافع الاكبر لترويج الخمور في الدنيا . ولا ينكر ان في الطعام والشراب لذة للآكل والشارب ولكنها تختلف كثيرا باختلاف الناس وأعمالهم وأحوالهم من الصحة والمرض والراحة والتعب والانس والوحشة وباختلاف الرهط والصحب الى غير ذلك مما لا ضابط له لكن هذه اللذة وان افادت في بعض الاحيان لا تعدّ من النفع المقصود بالطعام والشراب وهو تغذية الاجسام فان جسم الانسان كجسم الحيوان وكجسم النبات من هذا القبيل ينمو ويقوى وتصلح حاله بالغذاء الكافي ويؤذى ويضعف وتفسد حاله بقلة الغذاء

ازرع بزرة في التراب واتركها من دون ماء فلا تنبت أو ازرع البزرة في الماء واتركها من دون تراب فلا تنبت وان نبتت ذوت ويبست حالاً لأن نمو البزرة حتى تصير شجرة يقتضي أن تغتذى والغذاء يأتيها من التراب ولكن لا بد من ان يذوب أولا في الماء حتى يتمكن من دخول جسمها وتغذيتها فاذا زرعت في التراب ورويت بالخمر لم تعش ولم تنبت وهذا أمر يستطيع كل أحد امتحانه فيرى ان الخمور لا تذيب الاطعمة على أسلوب يجعلها صالحة لتغذية النبات . وجسم الحيوان يختلف

عن جسم النبات من وجوه كثيرة ولكنهما يتغذيان على أسلوب واحد تقريباً

ولقد أبنا في مقالة سابقة موضوعها الحق والباطل أن مقياس الحقائق استعمالها والانتفاع بها . وهذه الحقيقة أي ضرر شرب المسكرات مهما كان مقدارها قليلا وجدت لها شركات التأمين على الحياة نفعاً كبيراً فهي تتساهل مع الذين لا يتعاطون المسكرات أبدا أكثر مما تتساهل مع الذين يتعاطونها ولو قليلا أي صار للامتناع عن شرب المسكرات قيمة مالية تقدرها شركات التأمين بالدرهم والدينار . ولقد وصلت الى ذلك بعد اختبار طويل واستقراء دقيق وهذا أدل دليل فعلي على ضرر المسكرات ولو وصفها الاطباء واطنبوا بمدحها ونفعها . فاذا عرض اثنان ان «يسوكرا» حياتيهما على مبلغين متساويين من المال وكان سنهما واحدا وأعمالهما واحدة وتساوت فيهما كل الشروط التي تشترطها شركات «سوكرتا» الحياة ماعدا شرب المسكرات أي كان أحدهما يشرب الخمور والآخر لا يشربها فان الشركة تفرض على الاول أكثر مما تفرض على الثاني لكي تسوكر حياتيهما على مبلغين متساويين وان دفعا مبلغين متساويين كل سنة ضمنت للثاني أكثر مما تضمن للأول كانها تقول بعبارة تجارية حسابية لا تقبل الشك ولا الريب انه قد ثبت لي بالاستقراء ان عمر الذي يشرب مسكرا اقصر من عمر الذي لا يشرب مسكرا فلا استطيع ان أعاملهما معاملة واحدة وأكون بمأمن من الخسارة ولا بد للذي يشرب المسكر من ان يدفع لي سنوياً أكثر مما يدفع من لا يشرب مسكرا لكي اضمن حياتيهما على مبلغين متساويين من المال وهذا وجه يكفي لان يكون فصل الخطاب بين الذين يقولون بضرر المسكرات ولو كان مقدارها قليلا وشربها معتدلا وبين الذين يقولون ان لا ضرر منها حينئذ بل منها نفع

وهذا الحكم العملي التجاري المبني على الاستقراء يؤيده العلم أيضاً قال الكولونل د في أحد أطباء الجيش الانكليزي في مقالة نشرت حديثاً في مجلة القرن التاسع عشر ان المسكرات تفعل بالطعام فلا يعود ينهضم بالسرعة التي كان ينهضم بها لولاها وتفعل أيضاً باعضاء الهضم فتقسيها كما تقسي القطع اللحمية التي توضع فيها فلا يعود فعل الهضم سهلا عليها واذا اختلّ فعل الهضم اختلّ فعل التغذية وتضر

أيضاً بالرئتين والكليتين والكبد والدماغ

غير ان كثيرين يشربون المسكرات بالاعتدال ولا ينالهم من شربها ضرر ظاهر فيتخذون ذلك دليلا على عدم الضرر من الشرب المعتدل . ولكن هل قاس أحد قوة هؤلاء الناس الجسدية والعقلية وهم غير شاربين المسكرات بقوتهم الجسدية والعقلية وهم شاربوها . نعم انهم اذا اعتادوا الشرب فقد تضعف قواهم وتخمل عقولهم في الساعة التي اعتادوا الشرب فيها اذا امتنعوا عن الشرب حينئذ ولكن يحدث مثل ذلك بكل من يعتاد شيئاً ثم يفطم نفسه عنه حتى الافيون والحشيش لان اعصابه تصير تنتظر المنبّه أو المسكن في الساعة التي اعتادته فيها فتضطرب اذا قطع عنها ولكن اذا تكرر هذا الانقطاع مدة الفته الاعصاب ولم تعد تضطرب منه

وبديهي ان المسكر جسم غريب يدخل الجسم بل هو سم يتعب الجسم فيجاهد الجسم للتخلص منه كما يجاهد للتخلص من سائر السموم التي تدخله وهذا الجهاد عمل شاق يذهب فيه جانب من قوة الجسم واذا تكرر دخول هذا السم يوما بعد يوم فلا بدَّ من حصول الضرر اخيراً

ورب قائل يقول اننا نرى الاطباء يصفون المسكرات في بعض الاحيان ويقولون ان لا بد منها ولا يكتفون بوصف الضعيف الفعل كالخمر والبيرا بل يصفون القوي الفعل كالعرق والكنياك فكيف تقولون بضررها قولا مطلقا من غير قيد والجواب ان الالكحول الذي هو العنصر الفعال في المسكرات على أنواعها نافع في بعض الاحوال المرضية ولازم فيها دواء لا غذاء وخير للطبيب ان يصف حينئذ الالكحول النقي نفسه لا امزجته المعروفة بالمسكرات وهو اذا وصف كذلك شربه المريض مكرها ولم يجد في شربه لذة ولا رأى في نفسه ميلا اليه بعد الشفاء من المرض . بل انه لو شرب اطيب المسكرات دواء لما وجد في نفسه ميلاً اليها كما لو شربها للتلذذ بطعمها . اما ما يزعمه بعض الاطباء من ان المسكرات غذاء نافع فزعم قديم قوّضت اركانه الآن . وليس الالكحول غذاء بل هو سم زعاف مثل سائر السموم ويجب ان يعامل مثلها يجتنب دواما ولا يستعمل الا اذا دعت الحاجة اليه دواء لأن العلم والاستقراء قد أثبتا ذلك

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، وا ننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

الكشف وتصحيح الحديث في الرؤيا والجرح للرواة ورؤية السيوطي للنبي (ص) في اليقظة واجتماع روح الغزالي وموسى (ص)

أسئلة من الحجاز

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

هذه اسئلة نرفعها لحضرة السيد محمد رشيد رضا منشيء المنار الاسلامي بمصر لازال بعافية آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نرجوكم ياسيدي ان تجاوبوني عنها على صفحات ناركم المنير

(ص ٢٠–٢٦) ما قولكم شكر الله سعيكم (١) في قول بعض من ألف في الاحاديث الموضوعة هذا الحديث صح من جهة الكشف وهل يعتمد ذلك (٢) وهل الكشف له أصل في ديننا أو هو قول باطل (٣) ولفظ كشف هل كان معروفا عند الصحابة رضوان الله عليهم (٤) وهل يعتمد على قول من يقول ان الحديث قد يكون صحيحا عند المحدثين وهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل الله تعالى يعرفون انه موضوع (٥) وهل يعتمد على قول من يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم ما شرط العصمة في أحد فكيف نرد بعض الاحاديث ونقول راويها كذاب والكذب ما أحد معصوم منه الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام (٦) وعلى قول بعض الناس ان الشيخ السيوطي كان يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة ويصحح عليه الاحاديث فالموضوع يخبره عنه انه موضوع والصحيح انه صحيح (٧) ويقول الناس من أهل العلم ببلدنا ان الشيخ الغزالي اجتمعت روحه بروح سيدنا موسى سأل الباري سبحانه وتعالى عن علماء هذه الامة وانهم كانبياء بني اسرائيل فجمع بين روح سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وبين روح الغزالي رحمه الله فسأل سيدنا موسى (ص) الغزالي عن اسمه فقال له محمد بن محمد بن محمد الغزالي فقال له انا سألتك عن اسمك فلماذا اخبرتني عن اسمك واسم ابيك وجدك فقال له الغزالي وكيف قلت انت للباري لما قال لك « وما تلك بيمينك ياموسى » هي عصاي الخ هل هذه المسئلة صحيحة ومروية بسند مرضي عن نبينا ام هي من اختراعات الشيوخ نرجوكم سيدي ان تبينوا لنا الحق في هذه المسائل لازلتم هادين مهديين مستفيد من الحجاز

م ح ن

الجواب عن مسائل الكشف

لم يقل أحد من أئمة المسلمين ان الكشف من الدلائل الشرعية أو من مآخذ الاحكام الدينية ولا يقبل احد من المتكلمين ولا من المحدثين ولا من الفقهاء الاحتجاج بحديث لم تصح روايته بالطرق المعروفة في علم الحديث ممن يدعي انه صح من طريق الكشف فهذا الكشف الذي يتحدث به الصوفية شيء لا يثبت به حكم شرعي ولا دليل حكم شرعي كالحديث ولو جعلنا الكشف حجة شرعية لما كانت دلائل الشرع محصورة فيما جاء به الرسول (ص) عن ربه وتلقاه عنه أصحابه الذين هم خير هذه الامة وهم لم يقولوا بهذا الكشف ولم يحتجوا به . نعم انه نقل عن بعضهم شيء من النطق بالالهام الصادق كاخبار الصديق عما في بطن امرأته من الولد ومعرفة عثمان ما كان من ذلك الرجل الذي نظر الى المرأة بشهوة ولكنهم لم يسموا هذه الالهامات النادرة كشفا ولا عدوها طريقا لمعرفة الاحكام الشرعية وقد سمى عثمان ما اتفق له مع الرجل فراسة . ولكن بعض العلماء اطلق على ما كان منهم لفظ الكشف وكانت تعرض لهم المشكلات الشرعية في الاحكام فيتذاكرون ويتشاورون فيها ولا يعتمدون في تقريرها على شيء بعد الكتاب والسنة الا على الرأي في استبانة المصلحة وتحري العدل . ولم يدع أحد منهم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم أنه رآه بالكشف أو في النوم فأخبره بأن الحق كذا أو الحكم كذا

واذا قلنا بأن من خواص نفوس البشر أن تدرك بعض الامور من غير طريق الحس والعقل نادرا وان بعض الناس قد يكون استعداده لذلك قويا وان من كان استعداده له ضعيفا تيسر له تقويته بضروب من الرياضة كما ينقل نقلا مستفيضا عن البراهمة والصوفية — فان هذا كله لا علاقة له بالدين وانما هو من قبيل سائر خواص المخلوقات التي منها ماهو طريق للعلم كالخواص التي بني عليها صنع الآلات التي يعرف بها ما سيحدث من الانواء والزلازل قبل حدوثه . ولا شيء من ذلك يعد من الدين ولم يصل الكشف الى ان يكون طريقا منضبطا للعلم بحيث يعرف كل من كان من أهله مايعرفه الآخرون اذا هو طلب معرفته بأن تتفق معارفهم من غير ان يأخذ بعضهم عن بعض

ثم ان الصوفية الذين يعدون الكشف من ثمرات طريقتهم لا يقول أهل الصدق والعرفان منهم ان الكشف دليل شرعي بل يعدون من شروط الاعتداد بصحته موافقته للشرع . قال محيي الدين في فتوحاته

كل كشف شهد الشرع له فهو علم فبه فلتعتصم

وقالوا ان الكشف اذا جاء بخلاف ماعلم من الشرع فهو باطل ويعدونه من وحي الشياطين ولهم في ذلك حكايات غريبة ولم أر من علماء الاصول من بالغ في التسليم بما نقل من الإلهام والكشف حتى ماعلم عند المحدثين انه لم يصح مثل أبي إسحق الشاطبي الغرناطي صاحب الموافقات فانه عد من الاصول كون المزايا والمناقب عامة كعموم الاحكام والتكاليف بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته الا ماثبت انه خاصة به وذلك مما افتجره لم يسبقه الى القول به أحد من أئمة المسلمين وان قال جمهور المتكلمين ماجاز ان يكون معجزة جاز ان يكون كرامة : وهو خلاف التحقيق . وقد ذكر من فروعه « الخوارق من الفراسة الصادقة والإلهام الصحيح والكشف الواضح والرؤيا الصالحة » واشترط للعمل بذلك مابينه في المسألة الحادية عشرة من النوع الرابع من المقاصد قال :

« ان هذه الأمور لا يصح ان تراعى وتعتبر الا بشرط أن لا تخرم حكما شرعيا ولا قاعدة دينية فان مايخرم قاعدة شرعية أو حكما شرعيا ليس بحق في

نفسه بل هو إما خيال أو وهم وإما إلقاء من الشيطان وقد يخالطه ماهو حق وقد لا يخالطه وجميع ذلك لا يصح اعتباره من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع وذلك ان التشريع الذي أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم عام لا خاص كما تقدم في المسألة قبل هذا وأصله لا ينخرم ولا ينكسر له اطراد ولا يحاشى من الدخول تحت حكمه مكلف . واذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضادا لما تمهد في الشريعة فهو فاسد باطل . ومن أمثلة ذلك مسألة سئل عنها ابن رشد في حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في أمر فرأى الحاكم في منامه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له لا تحكم بهذه الشهادة فانها باطل فمثل هذا من الرؤيا لا يعتبر بها في أمر ولا نهي ولا بشارة ولا نذارة لانها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع وماروي ان أبا بكر رضي الله عنه انفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت فهي قضية عين لا تقدح في القواعد الكلية لاحتمالها فلعل الورثة رضوا بذلك فلا يلزم منها خرم أصل وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأن هذا المعين مغصوب أو نجس أو ان هذا الشاهد كاذب أو ان المال لزيد وقد تحصل بالحجة لعمرو وما اشبه ذلك فلا يصح له العمل على وفق ذلك مالم يتعين سبب ظاهر فلا يجوز له الانتقال الى التيمم ولا ترك قبول الشاهد ولا الشهادة بالمال لزيد على حال فان الظواهر قد تعين فيها بحكم الشريعة امر آخر فلا يتركها اعتمادا على مجرد المكاشفة أو الفراسة كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية ولو جاز ذلك لجاز نقض الاحكام بها وان ترتبت في الظاهر موجباتها وهذا غير صحيح بحال فكذا ما نحن فيه وقد جاء في الصحيح « انكم تختصمون الي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحكم له على نحو ما اسمع منه » الحديث فقيد الحكم بمقتضى ما يسمع وترك ما وراء ذلك وقد كان كثير من الاحكام التي تجري على يديه يطلع على أصلها وما فيها من حق و باطل ولكنه عليه السلام لم يحكم الا على وفق ما سمع لا على وفق ماعلم وهو أصل في منع الحاكم ان يحكم بعلمه وقد ذهب مالك في القول المشهور عنه ان الحاكم اذا شهدت عنده العدول بأمر يعلم خلافه وجب عليه الحكم بشهادتهم اذا لم يعلم منهم تعمد الكذب لانه اذا لم يحكم

بشهادتهم كان حاكما بعلمه هذا مع كون علم الحاكم مستفادا من العادات التي لا ريبة فيها لا من الخوارق التي تداخلها أمور والقائل بصحة حكم الحاكم بعلمه فذلك بالنسبة الى العلم المستفاد من العادات لا من الخوارق ولذلك لم يعتبره رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحجة العظمى وحكى ابن العربي عن قاضي القضاة الشاشي المالكي ببغداد انه كان يحكم بالفراسة في الاحكام جريا على طريقة إياس بن معاوية ايام كان قاضيا قال ولشيخنا فخر الاسلام أبي بكر الشاشي جزؤ في الرد عليه هذا ما قال وهو حقيق بالرد ان كان يحكم بالفراسة مطلقا من غير حجة سواها

« فان قيل هذا مشكل من وجهين احدهما انه خلاف ما نقل عن أرباب المكاشفات والكرامات فقد امتنع أقوام عن تناول اشياء كان جائزا لهم في الظاهر تناولها اعتمادا على كشف أو اخبار غير معهود الا ترى الى ما جاء عن الشبلي حين اعتقد أن لا يأكل الا من الحلال فرأى بالبادية شجرة تين فهم أن يأكل منها فنادته الشجرة لا تأكل مني فاني ليهودي وعن عباس بن المهتدي انه تزوج امرأة ليلة الدخول وقع عليه ندامة فلما اراد الدنو منها زجر عنها فامتنع وخرج فبعد ثلاثة ايام ظهر لها زوج وكذلك من كان له علامة عادية أو غير عادية يعلم بها هل هذا المتناول حلال أم لا كالحارث المحاسبي حيث كان له عرق في بعض أصابعه اذا مد يده الى ما فيه شبهة تحرك فيمتنع منه وأصل ذلك حديث ابي هريرة رضي الله عنه وغيره في قصة الشاة المسمومة وفيه فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل القوم وقال ارفعوا ايديكم فانها اخبرتني انها مسمومة ومات بشر بن البراء الحديث فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك القول وانتهى هو ونهى أصحابه عن الأكل بعد الاخبار وهذا ايضا موافق لشرع من قبلنا وهو شرع لنا الا ان يرد ناسخ وذلك في قصة بني اسرائيل اذ امروا بذبحها وضرب القتيل ببعضها فاحياه الله وأخبر بقاتله فرتب عليه الحكم بالقصاص وفي قصة الخضر في خرق السفينة وقتل الغلام وهو ظاهر في هذا المعنى الى غير ذلك مما يؤثر في معجزات الانبياء عليهم السلام وكرامات الاولياء رضي الله عنهم

والثاني انه إذا ثبت ان خوارق العادات بالنسبة الى الانبياء والاولياء

كالعادات بالنسبة الينا فكما لو دلنا أمر عادي على نجاسة الماء أو غصبه لوجب علينا الاجتناب فكذلك هاهنا اذ لا فرق بين اخبار من عالم الغيب أو من عالم الشهادة كما انه لا فرق بين رؤية البصر لوقوع النجاسة في الماء ورؤيتها بعين الكشف الغيبي فلا بد أن يبنى الحكم على هذا كما يبنى على ذلك ومن فرق بينهما فقد ابعد

« فالجواب ان لا نزاع بيننا في انه قد يكون العمل على وفق ما ذكروا وعملا بما هو مشروع على الجملة وذلك من وجهين

(احدهما) الاعتبار بما كان من النبي صلى الله عليه وسلم فيه فيلحق به في القياس ما كان في معناه اذ لم يثبت ان مثل هذا من الخوارق مختص بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث كان من الامور الخارقة بدليل الواقع وانما يختص به من حيث كان معجزا وتكون قصة الخضر على هذا مما نسخ في شريعتنا على ان خرق السفينة قد عمل بمقتضاه بعض العلماء بناء على ماثبت عنده من العادات اما قتل الغلام فلا يمكن القول به وكذلك قصة البقرة منسوخة على أحد التأويلين ومحكمة على التأويل الآخر على وفق القول المذهبي في قول المقتول: دمي عند فلان

(والثاني) على فرض انه لا يقاس وهو خلاف مقتضى القاعدة الأولى اذ الجاري عليها العمل في القياس ولكن إن قدرنا عدمه فنقول ان هذه الحكايات عن الأولياء مستندة الى نص شرعي وهو طلب اجتناب حزاز القلوب الذي هو الاثم وحزاز القلوب يكون بأمور لا تنحصر فيدخل فيها هذا النمط وقد قال عليه السلام «البر ما اطمأنت اليه النفس والاثم ما حاك في صدرك» فاذا لم يخرج هذا عن كونه مستندا الى نصوص شرعية عند من فسر حزاز القلوب بالمعنى الأعم الذي لا ينضبط الى أمر معلوم ولكن ليس في اعتبار مثل هذه الامور ما يخل بقاعدة شرعية وكلامنا انما هو في مثل مسألة ابن رشد واشباهها وقتل الخضر الغلام على هذا لا يمكن القول بمثله في شريعتنا البتة فهو حكم منسوخ ووجه ما تقرر انه ان كان ثم من الحكايات ما يشعر بمقتضى السؤال فعمدة الشريعة تدل على خلافه فان أصل الحكم بالظاهر مقطوع به في الاحكام خصوصا وبالنسبة الى الاعتقاد في الغير عموما أيضا فان سيد البشر صلى الله عليه وسلم مع إعلامه بالوحي يجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم وان

علم بواطن أحوالهم ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ماجرت عليه «ولا يقال انما كان ذلك من قبيل ما قال خوفاً ان يقول الناس إن محمداً يقتل أصحابه فالعلة أمر آخر لا ما زعمت فاذا عدم ماعلل به فلا حرج لأنا نقول هذا من أدل الدليل على ماتقرر لان فتح هذا الباب يؤدي إلى أن لا يحفظ ترتيب الظواهر فان من وجب عليه القتل بسبب ظاهر فالعذر فيه ظاهر واضح ومن طلب قتله بغير سبب ظاهر بل بمجرد أمر غيبي ربما شوش الخواطر وران على الظواهر وقد فهم من الشرع سد هذا الباب جملة الا ترى الى باب الدعاوى المستند الى ان البينة على المدعي واليمين على من أنكر ولم يستثن من ذلك أحد حتى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم احتاج الى البينة في بعض ما أنكر فيه مما كان اشتراه فقال «من يشهد لي» حتى شهد له خزيمة بن ثابت فجعلها الله شهادتين فما ظنك بآحاد الأمة فلو ادعى أكبر الناس على أصلح الناس لكانت البينة على المدعي واليمين على من أنكر وهذا من ذلك والنمط واحد فالاعتبارات الغيبية مهملة بحسب الأوامر والنواهي الشرعية ومن هنا لم يعبأ الناس من الاولياء وغيرهم بكل كشف أو خطاب خالف المشروع بل عدوا انه من الشيطان واذا ثبت هذا فقضايا الاحوال المنقولة عن الاولياء محتملة وما ذكر من تكليم الشجرة فليس بمانع شرعي بحيث يكون تناول التين منها حراما على المكلم كما لو وجد في الفلاة صيدا فقال له اني مملوك وما أشبه ذلك لكنه تركه لغناه عنه لغيره من يقين بالله أو ظن طعام بموضع آخر أو غير ذلك وكذلك سائر مافي هذا الباب. أو نقول كان المتناول مباحا له فتركه لهذه العلامة كما يترك الانسان احد الجائزين لمشورة أو رؤيا وغير ذلك حسبما يذكر بعد بحول الله تعالى فكذلك نقول في الماء الذي كوشف انه نجس أو مغصوب واذا كان له مندوحة عنه بحيث لا ينخرم له أصل شرعي في الظاهر بل يصير منتقلا من جائز الى مثله فلا حرج عليه مع انه لو فرضنا مخالفته لمقتضى ذلك الكشف اعمالا للظاهر واعتمادا على الشرع في معاملته به فلا حرج عليه ولا لوم اذ ليس القصد بالكرامات والخوارق أن تخرق أمرا شرعيا ولا أن تعود على شيء منه بالنقض كيف وهي نتائج عن اتباعه فمحال

ان ينتج المشروع ماليس بمشروع أو يعود الفرع على أصله بالنقض هذا لا يكون البتة وتأمل ما جاء في شأن المتلاعنين اذ قال عليه السلام ان جاءت به على صفة كذا فهو لفلان وإن جاءت به على صفة كذا فهو لفلان فجاءت به على احدى الصفتين وهي المقتضية للمكروه ومع ذلك فلم يقم الحد عليها وقد جاء في الحديث نفسه «لولا الايمان لكان لي ولها شأن» فدل على أن الايمان هي المانعة وامتناعه مما هم به يدل على أن ما تفرس به لا حكم له حين شرعية الايمان ولو ثبت بالبينة أو بالاقرار بعد الايمان ما قال الزوج لم تكن الايمان دارئة الحد عنها

والجواب عن السؤال الثاني ان الخوارق وان صارت لهم كغيرها فليس ذلك بموجب لاعمالها على الاطلاق إذ لم يثبت ذلك شرعا معمولا به وايضا فان الخوارق وان جاءت تقتضي المخالفة فهي مدخولة قد شابها ماليس بحق كالرؤيا غير الموافقة كمن يقال له لا تفعل كذا وهو مأمور شرعا بفعله أو افعل كذا وهو منهي عنه وكثيرا ما يقع هذا لمن لم يبن أصل سلوكه على الصواب أو من سلك وحده بدون شيخ ومن طالع سير الاولياء وجدهم محافظين على ظواهر الشريعة غير ملتفتين فيها الى هذه الاشياء

«فان قيل هذا يقتضي أن لا يعمل عليها وقد بنيت المسألة على أنها يعمل عليها: قيل ان المنفي هنا ان يعمل عليها بخرم قاعدة شرعية فأما العمل عليها مع الموافقة فليس بمنفي»

أقول فهي لا تنزل عن الهوى الموافق للشرع. ثم ذكر في المسألة الثانية عشرة ما نصه:

«ان الشريعة كما أنها عامة في جميع المكلفين وجارية على مختلفات أحوالهم فهي عامة أيضاً بالنسبة الى عالم الغيب وعالم الشهادة من جهة كل مكلف فاليها نرد كل ما جاءنا من جهة الباطن كما نرد اليها كل مافي الظاهر والدليل على ذلك أشياء منها ما تقدم في المسألة قبلها من ترك اعتبار الخوارق الا مع موافقة ظاهر الشريعة (والثاني) ان الشريعة حاكمة لا محكوم عليها فلو كان ما يقع من الخوارق والأمور الغيبية حاكما عليها بتخصيص عموم أو تقييد اطلاق أو تأويل ظاهر أو

ما أشبه ذلك لكان غيرها حاكما عليها وصارت هي محكوماً عليها بغيرها وذلك باطل باتفاق فكذلك ما يلزم عنه (والثالث) ان مخالفة الخوارق للشريعة دليل على بطلانها في نفسها وذلك انها قد تكون في ظواهرها كالكرامات وليست كذلك بل أعمالا من أعمال الشيطان » —

ثم قال بعد ذكر شاهدين من الخوارق في فصل من هذه المسألة ما نصه :

« ومن هنا يعلم أن كل خارقة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة فلا يصح ردها ولا قبولها الا بعد عرضها على أحكام الشريعة فان ساغت هناك فهي صحيحة مقبولة في موضعها والا لم تقبل إلا الخوارق الصادرة على أيدي الانبياء عليهم السلام فانه لا نظر فيها لأحد لأنها واقعة على الصحة قطعاً » اه

أقول والغرض من هذا كله بيان أن الشريعة كاملة لا تحتاج الى تكميلها بالكشف ولا بالرؤيا والاحلام وانها هي الحاكمة لا يحكم عليها سواها . وقد قرأت كلام هذا الأصولي الذي يصدق بالخوارق وأنت تعلم ان من علماء الأصول من لا يقول بجوازها لغير الانبياء كالمعتزلة والاستاذ أبي اسحق الاسفرايني والحليمي من أئمة الاشعرية والاكثرون القائلون بجوازها لا يقولون بان أحدا يكلف تصديق من يدعيها بشيء مما يدعيه منها وان وافق الشرع فكيف يكلفونه ان يصدقه بالعبث بأحد أصوله كالسنة النبوية بأن يصحح ما لم يصح عن الرسول (ص) و يكذب ما صح عنه وهم يعترفون معه بأن بعض هذه الخوارق والمكاشفات أحوال شيطانية . فاذا كان فيها الحق والباطل والخطأ والصواب فهل عندنا شيء نرجع اليه في بيان الحق والصواب الا الشريعة المطهرة ؟ فما تقدم كله تعرفون انه لا وجه للاعتماد على قول من يصحح الأحاديث بالكشف ولا قول من يجعل الكشف أصلا شرعياً ولا عمل المكاشف بكشفه المخالف للشرع فضلا عن عمل غيره به وما وافقه كان كالرأي والميل النفسي وقد تقدم ان الصحابة لم يقولوا بشيء من ذلك و بذلك تم أجوبة الاسئلة الثلاثة

وأما السؤال الرابع فهو على العلم بجوابه مما سبق أيضاً — وهو انه لا يعتمد على قول أهل الكشف اذا قالوا بوضع ما صححه المحدثون من الأحاديث يحتاج

فيه الى التنبيه على أمر مهم وهو أن بعض ما صح سنده من الحديث قد يكون غير صحيح المتن فان بعض الذين كانوا يتعمدون وضع الحديث كانوا لحذرهم من نقد صيارفة المحدثين يظهرون الورع و يتحرون الصدق وقد تاب بعضهم فاعترفوا بذلك ولذلك جعل المحدثون للحديث الموضوع علامات منها ما يتعلق بمتنه كركاكة الألفاظ أو المعاني ومخالفة نصوص الكتاب أو السنة المتواترة ومخالفة العقل كما قالوا في حديث طواف سفينة نوح بالبيت على ان سنده غير مرضي كمتنه . فمن كان ذا بصيرة نيرة في الدين وعلم بمقاصده يمكنه ان يعرف الحديث الموضوع وان قالوا بصحة سنده ولكن لا يقبل قوله الا بدليل معقول

وأما السؤال الخامس فجوابه أن من تقبل روايته هو من يوثق بحديثه وان لم يكن معصوماً فان ذلك القائل يعلم بالضرورة أن من الناس العدل الثقة الصدوق وان لم يكن معصوماً ومنهم الفاسق الكذوب وانه يثق بخبر الأول دون الثاني فكيف يجعل مع هذا رواية هذا كرواية ذاك ؟ هل يستوي الصادقون والكاذبون لأن كلا منهما غير معصوم ؟ . وغاية ما يترتب على عدم العصمة أن يكون خبر الصدوق غير المعصوم مفيداً للظن لا لليقين وهذا ما اتفق عليه العلماء في أحاديث الآحاد ولذلك قال المحققون انه لا يحتج بها في المسائل التي يطلب فيها اليقين كمسائل الاعتقاد

وأما السؤال السادس فجوابه ان ما ذكر عن السيوطي مذكور في بعض الكتب ولكن لم يروه بأسانيد صحيحة متصلة أنه ادعى ذلك ولو روي كذلك لم يكلف أحد تصديقه ومن صدقه لا يجوز له أن يأخذ بتصحيحه لتلك الاحاديث لأن هذا من قبيل الكشف وقد علمت أنه لا يعتمد عليه . وقد ادعى كثيرون رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة فانكر عليهم بعض العلماء وسلم لهم آخرون ولا يقول أحد من هؤلاء ولا من أولئك بانه يجب على أحد ان يؤمن لهم و يأخذ بدعواهم . ولهم في هذه المسألة كلام كثير في الرؤية الخيالية وغير الخيالية وقد عرفنا نحن غير واحد من الصوفية الذين يدعون رؤية الأرواح ومخاطبتها ومنهم من قال انه سأل النبي (ص) عن أحاديث كثيرة من الجامع الصغير للسيوطي

فأنكرها (ص) وهكذا نسمع عنهم التناقض في الكشف وفي رواية النبي (ص) فهل يصح ان نحكمهم في الحديث حتى مع التسليم لهم ؟؟ لا لا

وأما السؤال السابع فهو من الحكايات التي يتناقلها الناس وليس لها رواية يوثق بها ومعناها كما ترى صريح في ان حجة الغزالي اقوى من حجة كليم الله وهو في جوار الله فحسبنا الله

﴿ استفتاء عن الكشف الطبي على الميت ﴾

(س ٢٧) من السيد عبد الجليل الزاووش أحد نابغي النابتة المصرية (بتونس)

الحمد لله وحده

حضرة الاستاذ المحقق العالم المدقق حكيم الاسلام ومرشد الانام سيدي رشيد رضا منشىء مجلة المنار الباهرة الغراء دام اسعاده وكماله

اما بعد السلام الاتم عليكم ورحمة الله وبركاته فاني أرجوكم ولكم مزيد المنة والشكر ووافر الثواب والاجر ان تتفضلوا بالجواب الشرعي عن السؤال الآتي ونشره في أقرب وقت على صفحات مناركم أطال الله بقاكم واليك السؤال

ماهو الحكم في إحضار الحكيم المعمول به في بعض الممالك الاسلامية الشرقية لاجل الاطلاع على من يخبر بموته وشهادته بصحة الخبر واكتشافه سبب الموت حتى لا يدفن الانسان حيا ولا يخفى المرض المعدي وفي ذلك مما يفيد الأمة في حالتها الصحية مالا يخفى فهل ذلك ـ رعاكم الله ـ مما لا يجوز مطلقا ولو كان الحكيم مسلما ولم يستتبع الكشف على الميت أدنى عملية جراحية أو ما يوجب أقل إهانة لكرامة الميت ولو مع تخصيص حكيم لمباشرة الرجل وحكيمة لمباشرة المرأة أو يسوغ مطلقا أم المقام فيه تفصيل أفيدونا تؤجروا وترحموا

(ج) ليس في هذه المسألة نص عن الشارع وهي من المسائل الدنيوية التي تتبع فيها قاعدة درء المفاسد وجلب المصالح وحينئذ يختلف الحكم باختلاف الأموات فاذا وقع الشك في موت من ظهرت عليه علامات الموتى وعلم ان الطبيب يمكنه ان يعرف الحقيقة بالكشف عليه فان الكشف عليه يكون متعينا ويحرم دفنه مع بقاء الشك في موته وابقاؤه عرضة للخطر. ويختار الطبيب الذي يوثق به للعلم ببراعته وامانته على غيره لأن

العبرة في ذلك بالثقة فاذا لم يوجد طبيب مسلم يوثق به ووجد غيره اعتمد عليه بل اذا وجد طبيب مسلم غير موثوق به وطبيب غير مسلم موثوق به بتكرار التجربة يرجح الاعتماد على الثاني لأن المسألة ليست عبادة فيكون الترجيح فيها بالدين بل أقول ان من اشترط من الفقهاء اسلام الطبيب الذي يؤخذ بقوله في المرض الذي يبيح ترك الغسل والوضوء الى التيمم الا لاعتبار ذلك من أركان العدالة التي هي سبب الثقة وقد صرحوا حتى في هذه المسألة الدينية بأن المريض اذا صدق الطبيب الكافر بأن الماء يؤذيه في مرضه كان له أن يعمل بقوله . واذا كان من اشتبه في موته امرأة ووجدت طبيبة يوثق بها قدمت على الطبيب حتما فان لم توجد كشف عليها الطبيب كما هو الشأن في جميع الأمراض

ومن درء المفاسد والقيام بالمصالح العامة ماتفعله «مصلحة الصحة» بمصر وحيث توجد من مقاومة أسباب الوباء والأمراض المعدية ومن أعمالهم ماهو مفيد قطعا ومنه ماتظن فائدته فاذا علم أن في الكشف على الميت لمعرفة سبب مرضه مصلحة عامة لم يكن مايعبرون عنه بتكريم الميت مانعا من ذلك نعم ان اهانة الميت محظورة ولكن الاهانة تكون بالقصد وهو منتف هنا على ان درء المفاسد وحفظ المصالح العامة من الاصول التي لا تهدم بهذه الجزئيات والمدار على العلم بأن هنا مفسدة يجب درؤها أو مصلحة يجب حفظها فاذا علم أولو الأمر ذلك عملوا به والشرع عون لهم عليه

﴿ أسئلة من الهند ، من ٢٨ ـ ٣١ ﴾

حضرة المصلح الكبير والفيلسوف الشهير صاحب مجلة المنار الاكرم

السلام عليكم

وبعد فنرجوكم الافادة المطابقة لمذاهب الائمة الاربعة أو أحدهم عما هو آت ثم ابداء رأيكم الخاص في ذلك: رجل من تجار المسلمين القاطنين بكلكته تأتي له حوالات نقدية من الجهات على البنك وأصحاب البنك المذكور قوم من النصارى الاروباويين فيبقيها في البنك ويأخذ منها بقدر الحاجة فقط بلا شرط بينه وبين أصحاب البنك فاذا مضى على النقدية أو بعضها ستة أشهر يحسبون له زيادة عن الأصل روبيتين في المئة في السنة فيكون في الستة الاشهر روبية في المئة وذلك لأنهم

أي أصحاب البنك ينتفعون ببقاء الدراهم عندهم بحوالتنا عشرة روبية أو أكثر في المئة سنويا والعملة في البنك عادة على الرجل المذكور في السنة يأخذونها منه بقشيشا فهل والحالة هذه يباح للرجل المذكور ما يأخذه من أرباب البنك باختيارهم من غير شرط معهم كما تقدم أم لا أفيدونا سيدي فان المسئلة واقعة حال لا زلتم . .

سؤال آخر

حضرة المحقق من العزم القيام بوظيفتي الافتاء ودعوة الامة الى العمل بالكتاب والسنة فضيلة الشيخ محمد رشيد الافضل

قد اطلعت على قولكم خلال جوابكم على مسئلة الاعطار الافرنجية: وأكثر أئمتنا وعلمائنا على أن الصلاة لا تصح من متنجس البدن أو الثوب أو المصلى وقد اختلفوا الخ ولا يخفى كان مقابل الأكثر الكثير وعليه فالفقير يلتمس من سيادتكم أن تبينوا له بعضا من القائلين بصحة الصلاة مع النجاسة غير المعفو عنها مع الاختلاف في القدر المعفو عنه منها كما هو مقرر ان لم يمكنكم بيان الكل ولكم الفضل

سؤال آخر

وكذا ألتمس من تحقيقاتكم أن تفيدونا عن بعض القائلين بطهارة الخمر المفهومة من قولكم في الجواب المذكور وان كانت نجاستها حسية كما هو المعروف عن الفقهاء القائلين بذلك الخ لنكون على بصيرة بواسطتكم من حكم الكتاب والسنة اذ لم نفهم منها الى الآن طهارة الخمر المتخذة من عصير العنب وثمرات النخيل وحينئذ نعتقد أن وجودكم سيدي بين ظهرانينا منة من الله علينا ورحمة وكم لله علينا من النعم تفضلوا مولاي بالجواب ولكم ان شاء الله الاجر والثواب

سؤال آخر

ما الحكم سيدي في قوم من أهل الهند المسلمين لا يورثون البنات والزوجات جريا على عادة الهندوس الكفرة وهي عادة قديمة للمسلمين أيضا قبل اسلامهم وقد خيرهم حاكم البلاد حين ترافعوا اليه في مسئلة الميراث المذكورة بين أن يفصل بينهم بموجب الشريعة الإسلامية وبين أن يكون الفصل فيها بموجب عادة الكفار مواطنيهم فقالوا نختار البقاء على العادة القديمة ورضوا بعدم توريث البنات والزوجات

معا و بعضهم البنات فقط وآخرون لا يورثون الاولاد ذكورا كانوا أو اناثا بل ما يتركه الميت لولد اخته الذكر دون الانثى مع وجود ولد الصلب وذلك بحسب عادة بلادهم القديمة وهم يختلفون في ذلك فأهل بنجاب لا يورثون البنت والزوجة وأهل كجرات يحرمون البنت فقط وأهل مليبار يحرمون الاولاد مطلقا وما ترك لابن الأخت فهل يكفرون بهذا الفعل أم لا بينوا تؤجروا ودمتم

أحمد موسى بكلكته

﴿ الجواب عن مسألة أمانات البنك ﴾

من أعطى إنسانا باختياره مالا أو عرضا لا يستحقه عليه فأخذه كان حلالا بالاجماع مالم يكن هناك غش أو نحوه من الامور التي تنافي أن يكون المعطي قد أعطى برضاه واختياره ومن هذه الأمور ما قد يكون معروفا للآخذ ومنها ما يكون شبهة ومن ذلك موضوع السؤال فانه لم يسئل عنه الا وهو عند أصحاب الواقعة محل شبهة هل هو من الربا أم لا ولو جزموا بأحد الوجهين لم يسألوا

أما الربا فقد عرفه الحنفية الذين يقلدهم أكثر أهل الهند بأنه الفضل الخالي عن العوض المشروط في البيع : كما في حواشي فتح القدير وغيرها فقولهم المشروط في البيع يخرج منه واقعة الحال المسؤول عنها اذ لا شرط فيها . وفي شرح المنهاج للشمس الرملي الشافعي ان الربا شرعا عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما : وقوله « أو مع تأخير » معناه أو عقد مع تأخير كما في حاشية الشبراملسي عليه . ولا عقد في الواقعة المسؤول عنها

و يشبه مسألة الحوالة مسألة الوديعة التي تقع كثيرا فان بعض البنوك قد تزيد للمودع شيئا على ماله المودع فيها وما قد يقع منه بلا شرط فهو يشبه الواقعة الا أن يقال إن الوديعة أشبه بالقرض أو الدين منها بالأمانة لأن أهل البنك يتصرفون بالمال و يردون غيره والعرف يقوم مقام العقد في ذلك وقد صرح غير واحد من الفقهاء بأن كل قرض جر نفعا للمقرض فهو ربا ورووا ذلك حديثا وأقول ان ما جرى عليه العرف في معاملة البنوك على ما نعلم أن ما يوضع فيها أمانة يجوز لصاحبه ان يسترده كله أو بعضه متى شاء وما يؤخذ على أنه دين ليس لصاحبه

ان يسترده الا بعد انتهاء الاجل أو يأخذ مايطلب من المال بربا أكثر من الربا الذي يأخذه هو من البنك وان كان ما طلبه جزءاً من ماله . مثال ذلك ان من أعطى البنك ألفا على ان له في المئة ثلاثا في السنة ثم طلب قبل انقضاء السنة خمس مئة فان البنك يعطيه إياها على ان له ستا في المئة أو أكثر أو أقل قليلا وكل ذلك يجري بعقود مكتوبة . أما الودائع فيعطي البنك بها وصلا للمودع ومنها مالا يزيده على ما أودع شيئاً فيبقى وجه الشبهة في الواقعة المسؤل عنها وفيما يشبهها انها من قبيل القرض الذي جر نفعا وهي ضعيفة في الحوالة قوية في الوديعة . على أن الفقهاء لاسيما الحنفية قد شددوا في مثل ذلك ويعدون كل مايؤخذ بلا مقابل ربا فمن اعتقد ذلك حرم عليه الأخذ

وإذا رجعنا الى الدليل رأينا أن حديث «كل دين جر نفعا» الخ ضعيف كما سيأتي عن نيل الاوطار بل قال الفيروز بادي انه موضوع ولكن في الباب أحاديث أخرى وآثارا تفيد في انارة المسألة قال في منتقى الاخبار

«عن أبي هريرة قال كان لرجل على النبي صلى الله عليه وسلم سن من الابل فجاء يتقاضاه فقال اعطوه فطلبوا سنه فلم يجدوا الا سنا فوقها فقال اعطوه فقال أوفيتني أوفاك الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ان خيركم أحسنكم قضاء » وعن جابر قال اتيت النبي صلى الله عليه وسلم وكان لي عليه دين فقضاني وزادني . متفق عليهما . وعن أنس وسئل : الرجل منا يقرض أخاه المال فيهدي اليه فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا أقرض أحدكم قرضا فأهدى اليه أو حمله على الدابة فلا يركبها ولا يقبله الا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك » رواه ابن ماجه وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا أقرض فلا يأخذ هدية » رواه البخاري في تاريخه . وعن أبي بردة بن أبي موسى قال قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لي انك بأرض فيها الربا فاش فاذا كان لك على رجل حق فأهدي اليك حمل تبن أو حمل شعير أو حمل قتّ (١) فلا تأخذه فانه ربا :

(١) القتّ بالفتح هو الجاف من النبات المعروف وهو رطب بالفصفصة بكسر الفائين وهي القضب

رواه البخاري في صحيحه

أقول أثر عبد الله بن سلام لايحتج بمثله الجمهور الذين يحصرون أدلة الشرع في الكتاب والسنة والاجماع والقياس ومن الغريب قوله بفشوّ الربا في المدينة والظاهر انه قاله بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واخراج اليهود منها وقال الشوكاني في شرح هذه الاحاديث ما نصه : حديث أنس في اسناده يحيى بن ابي اسحق الهنائي وهو مجهول وفي اسناده ايضاً عتبة بن حميد الضبي وقد ضعفه احمد والراوي عنه اسماعيل بن عياش وهو ضعيف . قوله سن أي جمل له سن معين وفي حديث أبي هريرة دليل على جواز المطالبة بالدين اذا حل اجله وفيه أيضا دليل على حسن خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتواضعه وانصافه وقد وقع في بعض ألفاظ الصحيح ان الرجل اغلظ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهم به أصحابه فقال « دعوه فان لصاحب الحق مقالا » كما تقدم وفيه دليل على جواز قرض الحيوان وقد تقدم الخلاف في ذلك وفيه جواز رد ما هو أفضل من المثل المقترض اذا لم تقع شرطية ذلك في العقد وبه قال الجمهور وعن المالكية ان كانت الزيادة بالعدد لم يجز وان كانت بالوصف جازت ويرد عليهم حديث جابر المذكور في الباب فانه صرح بان النبي صلى الله عليه وآله وسلم زاده والظاهر ان الزيادة كانت في العدد وقد ثبت في رواية البخاري ان الزيادة كانت قيراطا وأما اذا كانت الزيادة مشروطة في العقد فتحرم اتفاقا ولا يلزم من جواز الزيادة في القضاء على مقدار الدين جواز الهدية ونحوها قبل القضاء لأنها بمنزلة الرشوة فلا تحل كما يدل على ذلك حديثا أنس المذكوران في الباب واثر عبد الله بن سلام (١) والحاصل ان الهدية والعارية ونحوهما اذا كانت لاجل التنفيس في أجل الدين أولاجل رشوة صاحب الدين أولاجل أن يكون لصاحب الدين منفعة في مقابل دينه فذلك محرم لانه اما نوع من الربا أو رشوة وان كان ذلك لاجل عادة جارية بين المقرض والمستقرض قبل التداين فلا بأس وان لم يكن ذلك لغرض أصلا فالظاهر المنع لاطلاق النهي عن ذلك واما الزيادة

(١) قد علمت ان حديث أنس ضعيف وأثر ابن سلام لايحتج به الجمهور الا أن يقال ان له حكم المرفوع وفيه نظر على أن النهي فيه قد يكون للورع

على مقدار الدين عند القضاء بغير شرط ولا اضمار فالظاهر الجواز من غير فرق بين الزيادة في الصفة والمقدار والقليل والكثير لحديث ابي هريرة وأبي رافع والعرباض وجابر بل هو مستحب قال المحاملي وغيره من الشافعية يستحب للمستقرض ان يرد اجود مما أخذ للحديث الصحيح في ذلك يعني قوله ان خيركم احسنكم قضاء ومما يدل على عدم حل القرض الذي يجر الى المقرض نفعا ما أخرجه البيهقي في المعرفة عن فضالة بن عبيد موقوفا بلفظ كل قرض جرّ منفعة فهو وجه من وجوه الربا ورواه في السنن الكبرى عن ابن مسعود وأبي بن كعب وعبد الله بن سلام وابن عباس موقوفا عليهم ورواه الحرث بن ابي أسامة من حديث علي عليه السلام بلفظ ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن قرض جر منفعة وفي رواية كل قرض جر منفعة فهو ربا وفي اسناده سوار بن مصعب وهو متروك قال عمر بن زيد في المغني لم يصح فيه شيء ووهم امام الحرمين والغزالي فقالا انه صح ولا خبرة لهما بهذا الفن » اه المراد منه ومعظمه منقول من فتح الباري

وأما الربا الذي نهى عنه الكتاب العزيز بالنص الصريح فهو ربا النسيئة المضاعف وقد ذكرنا كيفيته وبينا حكمته بالتفصيل في تفسير آياته من أواخر سورة البقرة . وتحريمه ليس تعبديا كما يقول من يرى ذلك من الفقهاء بل هو معلل بقوله عزَّ وجلّ « لا تظلمون ولا تظلمون » وبقوله « واتقوا الله » بعد قوله (٣ : ١٣٠ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) فان هذا من القسوة ومنع المعروف عند الحاجة المنافي للتقوى والمراد بهذا الربا المعروف ما كان عليه الناس في الجاهلية وهو كما قال الامامان مالك وأحمد وغيره ان يكون للرجل على الرجل دين مؤجل — من قرض أو ثمن — فيقول له عند الأجل إما ان تقضي وإما أن تربي فيزيد ويربي له لحاجته كلما طلب . وليس منه في شيء ما تقدم في السؤال وهو أن يستعمل انسان مال آخر مودعاً عنده برضاه ثم يعطيه برضاه عند القضاء أو في آخر السنة جزءاً مما ربح برضاه واختياره من غير شرط ولا عقد

هذا ما عن لنا في هذا المسألة مع صرف النظر عن حكم دار الحرب وما أحلوه فيها

من العقود الفاسدة ونحوها وأطالت الخوض فيه الجرائد الهندية من زمن ليس ببعيد . ولا ننس في هذا المقام ما قرره شيخ الاسلام ابن تيمية في العقود الفاسدة في المعاملات وان ما اشترط في صحتها انما اشترط لأجل ان يكون العقد لازما ونافذا عند الحاكم لا لأجل التقرب الى الله تعالى فالعقد الذي لا يجيزه الشرع كعقد الربا لا ينفذه الحاكم الشرعي ولا يلزم الوفاء به بل ولا يحلّ اشتراطه وجعله حقاً يطالب به . وهذا لا يمنع الناس منه دينيا أن يتصرفوا في أموالهم برضاهم في غير الفواحش والمنكرات المحرمة لذاتها . وعندي ان ما زاده النبي صلى الله عليه وسلم صاحب الدين على دينه من هذا القبيل وقد سبق لنا في المنار كلام في هذا المبحث

﴿ الجواب عن صلاة متنجس الثوب أو البدن أو المصلى ﴾

نقل الخلاف في ذلك الشوكاني في أول الجزء الثاني من نيل الأوطار قال « وهل طهارة ثوب المصلي شرط لصحة الصلاة أم لا فذهب الاكثر الى انها شرط وروي عن ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وهو مروي عن مالك انها ليست بواجبة ونقل صاحب النهاية عن مالك قولين أحدهما ازالة النجاسة سنة وليست بفرض وثانيهما انها فرض مع الذكر ساقطة مع النسيان وقديم قولي الشافعي ان ازالة النجاسة غير شرط » ثم أورد حجج الجمهور على الشرطية وما يرد عليهم به الآخرون وقال بعد ذلك كله « اذا تقرر لك ما سقناه من الادلة وما فيها فاعلم انها لا تقصر عن افادة وجوب تطهير الثياب فمن صلى وعلى ثوبه نجاسة كان تاركا لواجب واما ان صلاته باطلة كما هو شأن فقد ان شرط الصحة فلا لما عرفت » اه

والكلام في النجاسة مطلقا ولا يأتي هنا التفصيل في المعفو عنها منها وغيره لان هذا التقسيم مبني على القول بالشرطية

﴿ الجواب عن مسألة طهارة الخمر ﴾

لما أفتينا بطهارة الأعطار الافرنجية — وهو ما اطلعتم عليه في ص ٥٠٠ من مجلد المنار الرابع ردّ علينا بعض المتطفلين على موائد العلم برسالة رددنا عليها في ذلك المجلد ردا لو اطلعتم عليه لما سألتم هذا السؤال فلكم أن تراجعوه في ص ٨٢١

وما بعدها وص٨٦٦ وما تعدها ترون فيه النقل عن الامام ربيعة فقيه المدينة وشيخ الامام مالك وعن الامام داود القول بطهارة الخمر معزوا الى بعض من نقله كالامام النووي . وأنتم تعلمون ان الأصل في الاشياء الطهارة مالم يرد نص عن الشارع بالنجاسة ولا نص في نجاسة الخمر كما بينا ذلك هناك فقولكم إنكم لم تفهموا من الكتاب والسنة طهارتها في غير محله لأن هذا هو الاصل والا فاين النص من الكتاب والسنة على طهارة الاشجار والاحجار والدبس والزيت وغير ذلك

﴿ الجواب عن مسألة مخالفي القرآن في الميراث ﴾

المدار في التكفير على جحود المجمع عليه المعلوم من الدين بالضرورة فاذا كان من ذكرتم يجحدون احكام الكتاب العزيز ولا يذعنون لها مع العلم بها فهم لا يعدون من المسلمين والجهل بها جملة وتفصيلا لا يعد عذرا لمن نشأ بين المسلمين ومن كان حديث عهد بالاسلام أو نشأ في شاهق جبل فلم يعرف أحكام المسلمين الضرورية يكون معذورا كما قالوا حتى يعلم فان أذعن والا لم يكن مسلما وذلك مشهور . وأما اذا كان هؤلاء يؤمنون بالقرآن و يذعنون له الا ان الوارثين شرعا رضوا باختيارهم ان يأخذ غيرهم ما يستحقونه وكان الآخذ بغير حق لا يستحل الاخذ الا بناء على رضا صاحب الحق لم يظهر وجه للقول بكفرهم كما يفعل بعض مسلمي القطر المصري وغيرهم من رضاء البنات بترك ميراثهم لأخوتهم ومن استحل أكل ميراث أخته بدون رضاها لا يعتد أحد بإسلامه بل يحكم جميع الفقهاء بردته ان كان مسلما قبل ذلك . ومن الامور البعيدة التي لا تكاد تعقل ان يتفق قوم من المسلمين على ترك العمل بالنصوص القطعية المنصوصة في كتاب الله وهم مسلمون حقيقة فالظاهر ان من ذكرتم ليسوا مسلمين الا بالجنسية وما سبب ذلك الا الجهل فعسى ان يوجد في الهند من الدعاة والمرشدين من يهديهم الى حقيقة الدين

باب المناظرة والمراسلة

(مطالب مسلمي روسيا من دولتهم)

ألّف الشيخ رضاء الدين بن فخر الدين أحد أكابر علماء المسلمين في روسيا والعضو في المحكمة الشرعية هناك سابقا — رسالة أبان فيها رأيه في مطالب مسلمي روسيا من حكومتهم

قال : يظهر من قراءة بعض الأوراق المطبوعة وغير المطبوعة ومما يسمع من أفواه الكثيرين — ان مطالب قومنا المهمة عبارة عما يأتي :

(١) استرداد الحقوق الواسعة التي منحتها الامبراطورة « كاترينا » الثانية للجمعية الشرعية (أو المحكمة الشرعية) في سنة (١٧٨٧) م

(٢) اخراج المدارس الاسلامية من تحت ادارة نظارة المعارف العمومية الروسية وجعلها تحت نظارة الجمعية الشرعية التابعة الآن لنظارة الداخلية

(٣) مساواة المسلمين القاطنين في روسيا للروس الارثوذكس في الحقوق المدنية والعسكرية كافة بلا استثناء

(٤) مساواة علماء الاسلام الرسميين في الامتيازات للروحانيين المسيحيين

(٥) إلغاء جعل معرفة اللغة الروسية شرطا في تعيين أئمة المساجد وأعضاء الجمعية الشرعية

(٦) الحرية في الدين والمناظرة مع المتحككين بالمسلمين وحرية الصحافة

(٧) ابقاء فصل الخصومات المتعلقة بالامور الشخصية كالنكاح والطلاق وتقسيم التركات والوصايا وما اليها من الخصومات العائلية كما كان في الزمن السابق بايدي علماء المسلمين أنفسهم دون تحويلها الى المحاكم المدنية

ثم أفاض الكاتب في بيان رأيه في هذه المواد (ماعدا المادتين الثالثة والسابعة) فآثرنا ان نترجم كلامه على المواد الخامسة والسادسة والثامنة لما فيها من الفوائد وأما كلامه في بقية المواد فهو في الغالب مختص بالشؤون الداخلية البحتة ولهذا اغفلنا ترجمته . قال حفظه الله :

﴿ الكلام على المادة الخامسة ﴾

لا يحسن بنا ان نحكم بضرر اشتراط تعلم اللغة الروسية لأئمة المساجد وأعضاء الجمعية الشرعية أو بنفعه الا بعد انعام النظر في حالتنا الحاضرة . اذا ظلت مدارسنا الدينية على ما هي عليه من الخلل ودامت حال المتعلمين فيها على ما هي عليه من الفوضى والفاقة فهو ضار ألبتة . لأن الحالة الراهنة تقضي عليهم بان يرتادوا من يتعلمون منه اللغة الروسية مبتدئين من «ألفبائها» بعد ان قضوا أعواما كثيرة في زوايا المدارس الاسلامية وناهزوا سن الكهولة . ومعظم أولئك المتعلمين لا يتسنى لهم لضيق ذات يدهم ان يظفروا بمعلم متحل بالفضائل والآداب . فيضطرون الى اختيار المعلمين المتسفلين في أخلاقهم وآدابهم باجور زهيدة . فيتلقفون منهم فنونا من الجهل مع يسير من العلم

ثم ترى فئة من أولئك المتعلمين الذين قضوا سن الشباب بالعفة والاستقامة هادئين متنكبين عما يخل بآدابهم يقصدون لتعلم اللغة المذكورة القرى الروسية أو المدن . فيتفق لهم ان يروا هناك مجالس الفسق ومحلات الفجور لأول مرة من حياتهم فهم وان قدعوا نفوسهم مرة أو مرتين عن الدخول في غمار تلك المجالس يقعون في مهاويها في المرة الثالثة لا محالة . فينتشر بهذه الواسطة داء فساد الاخلاق بين المتعلمين و ينهدم بنيان تعففهم . وما ذلك الضعف في الارادة والخور في العزيمة الا من نقصان تربيتنا المدرسية ووهنها لاننا لا نربي التلاميذ تربية تجعلهم يمتنعون عن الرذائل لكونها مضادة للكمال الانساني ولمرضاة الله واهب الكمالات وانما نربيهم تربية تجعلهم لا يأتون المنكرات مخافة من الناس لا غير

نجد بين المتعلمين في مدارس الحكومة الرسمية كثيرين يجتنبون شرب المسكرات وتناول الدخان . وأما المتعلمون منا في المدارس الدينية فيقال ان الأعفاء فيهم قليلون جداً في هذه الايام فهذه جهة الضرر وأما اذا نظرنا الى حاجة من يسكن هذه البلاد في قضاء حاجاتهم المعاشية وحفظ حقوقهم الخصوصية والقومية الى اللغة الروسية – لغة الأمة الحاكمة – فاننا نقول : بنفع اشتراط تعلمها للأئمة أيضا نفعا عظيماً . هذا رأيي في أئمة المساجد واما رأيي في اعضاء الجمعية الشرعية فكما يأتي :

لا يؤمل خير ما للجمعية الشرعية والمسلمين من عضوية من ليست لهم قدم راسخة في العلوم الاسلامية مع قصر باعهم في اللغة الروسية وقوانين الحكومة . بل يتحتم ان يكون الاعضاء فيها لهم براعة في العلوم الاسلامية وفي لغة الحكومة وقوانينها .

وما اشترطت لهم الحكومة من درجة التعلم في المدارس الرسمية ليس بشيء في جنب ما أحب ان يكونوا عليه .

يجب ان تكون مقاماتهم في العلوم الاسلامية مقامات المجتهدين بالاجتهاد الاصطلاحي لا بالاجتهاد اللغوي فقط . درجة الاجتهاد يجب علينا ان نشترطها من عند أنفسنا ولو لم تشترطها الحكومة لأن ذلك يعود على أمتنا بمنافع جمة ما بين دينية واجتماعية . أما منافعه الدينية فظاهرة . وأما النفع الاجتماعي العظيم فهو ان كون قضاتنا بهذه المثابة من الاقتدار يجعل لهم مكانة سامية في نظر الحكومة و يكون سبباً لبقاء فصل الخصومات العائلية التي أتي ذكرها في المادة الثامنة من مطالب الامة – بأيدي علمائنا و بقاء جمعيتنا الشرعية الى ماشاء الله

كأني بقائل يقول : هل يمكن ظهور المجتهدين من بيننا ؟

فأقول في جواب هذا السؤال : نعم لا يوجد اليوم فينا مجتهدون و يستبعد الناظر في حالتنا الحاضرة ظهورهم في المستقبل القريب أيضاً . بيد انه اذا انتظمت مدارسنا ودرست فيها العلوم النافعة من كتب أصحاب العلوم الحقيقية بدل هذه الكتب السخيفة فلا مانع – في رأيي – من ظهور المجتهدين بيننا

لا يشترط الاجتهاد الاسلامي ثلث الشروط التي تشترط في ترشيح المرء لأن يكون رئيسا أو مدعيا عموميا أو عضواً أو محاميا في المحاكم الكبيرة في أوروبا وفي روسيا

نرى اليوم بين الروس الذين لا يفوقون المسلمين الساكنين في هذه البلاد بشيء من الذكاء الفطري والاستعداد الطبيعي الوفاً يساوون المجتهدين في المذهب بل المجتهدين المطلقين في علومهم و براعتهم في الفقه (علم الحقوق) والقوانين الوضعية فكيف يمتنع اذاً ظهور مئة أو خمسين مجتهداً من بين مسلمي روسيا الذين ينيف عددهم على ١٥ مليوناً اذا سعوا له سعيه وأتوا البيوت من أبوابها !

اذا نحن أخلدنا الى الارض ورضينا بالجمود على هذه الحالة الوضيعة فحرام

علينا ان نعد أنفسنا من نوع الانسان الذي فطر على ان يترقى دائماً مع الزمان .

أنا أعلم ان كلامي هذا يحفظ قلوب كثير من الجامدين فينبذونني بالجهل والمروق عن دائرة الادب مع الائمة السالفين و يقولون البتة : « ما لهذا الجاهل الضال قد حط من قدر الاجتهاد وتجرأ على القول بامكان ظهور المجتهدين في هذا الزمان . أما سمع هذا المشهور خبر انقضاء عصر الاجتهاد وانغلاق بابه منذ قرون كثيرة » غيراني أقول لهؤلاء : اني لم أكتب ما كتبت لغفلتي عن مباحث الاجتهاد وخبر انغلاق بابه عند بعضهم . بل كتبته بعد ان بحثت وأدمنت الفكر في هذه المباحث زمناً طويلا حتى هداني البحث والتنقيب الى معرفة مفتجري فكرة « انغلاق باب الاجتهاد » والاسباب التي حملتهم على افتجارها والعصور التي ظهرت فيها تلك الفكرة السيئة

زحفت التتار الى بغداد فدمروها تدميراً وقتلوا العلماء تقتيلاً وأبادوا الآثار العظيمة الشاهدة بعظمة المسلمين السابقين . وفعل الاسبانيون الافاعيل بالمسلمين وساموهم سوء العذاب في جزيرة الاندلس . اضر هؤلاء المتوحشون بالبلاد الاسلامية والمسلمين أضراراً مادية جسيمة . لكن اضرارهم المعنوية لا يقام لها وزن امام الاضرار التي انتجها شيوع فكرة « انغلاق باب الاجتهاد وامتناع بلوغ الاخلاف شأو الاسلاف في الكمال والعلم » بين المسلمين

لم تتمكن فكرة « انغلاق باب الاجتهاد والارتقاء في نفوس المسلمين حتى فترت الرغبات في العلم وتقاعدت الهمم عن الارتقاء والتقدم فانشأوا يتدارسون السفاسف بدل الفضائل ويشتغلون بالاوهام اليونانية بدل العلوم الحقيقية . وبالجملة ان الخسائر التي جرتها الى المسلمين « فكرة انغلاق باب الاجتهاد » أكثر وافظع من الخسائر التي أنتجها على أيدي « جنكيز » و « هولاكو » و « ايزابلا » واضرابهم من المتوحشين المفسدين .

ولهذا أعتقد اننا اذا قضينا على الفوضى السائدة في مدارسنا وأدخلنا فيها العلوم الحقيقية وأفرغنا كنانة جهدنا في نشر التربية الاسلامية الصحيحة ظهر فينا المجتهدون بكثرة ان شاء الله اذ الاجتهاد أمر كسبي مرتبط بالاسباب الظاهرة التي

تنالها الايدي . ثم ان سنة الارتقاء التي تجري عليها شؤون العوالم كلها بتقدير العزيز العليم تقضي ان يكون كل شيء أكمل وأرقى مما قبله . نرى اليوم الأمم الراقية الحية يبنون كل شؤونهم على تلك السنة الثابتة فيسيرون سيرا حثيثاً في مدارج الرقي ومراقي الكمال . أما المسلمون ففشا بينهم منذ زمن بعيد انكار سنة الارتقاء واعتقاد سير العالم الى التدلي والانحطاط فرئموا الضعة والجرد حتى حقت عليهم كلمة الذل والهوان

لعل اختتام النبوة أيضاً مبني على تلك السنة (سنة الارتقاء) .

كانت الأمم السالفة لنقصان مداركهم وعدم اكتمالهم في المزايا الانسانية يضلون عن الشرائع التي كانت الانبياء تبلغها اليهم ويحيدون عن صراط الله السوي بعد مضي أزمنة يسيرة من عهد الانبياء

فكان الله عز وجل يبعث اليهم من يقوم لهم أود الدين ويهديهم الى الحق المبين من الانبياء الآخرين . واما الأمم الذين يأتون بعد نبينا (ص) فيكونون قد ارتقوا في المدارك واكتملوا في الخواص الانسانية حتى يستطيعوا بذلك حفظ الشريعة المطهرة و يبلغوها الى من بعدهم بلا تحريف ولا تبديل . فلا تبقى حاجة الى ارسال من يجدّد الدين بعد خاتم النبيين . فبناء على ما ذكرنا ينبغي أن يكون المجتهدون واساطين الاسلام أكثر وأبرع من المجتهدين السالفين كلما خطا المجتمع الانساني خطوة الى الامام

وأما تعلم اعضاء المحكمة الشرعية اللغة الروسية فما اشترطته لهم الحكومة قليل جدا في رأيي . بل يتحتم على من يترشحون للعضوية في تلك المحكمة ان يحضروا دروس علم الحقوق ولو بصفة المستمعين في « جامعات » الحكومة بعد ان يمتحنوا في دروس المدارس البلدية أومدارس المعلمين . لا يخفى على أهل البصر ان قوة المحكمة الشرعية وسمو مكانتها لدى المحاكم التي فوقها وارتفاع شأنها في أعين المسلمين التابعين لها ليست هي كل بنائها الشامخ وتنوع الاشجار في الحديقة الحافة بها . بل لا تتحقق تلك الاماني السامية الا اذا كان اعضاؤها والقضاة فيها من أهل المقدرة على القيام بواجباتهم حق القيام . ثم اذا تسنى لهم

التعارف برجال الحكومة العظام يؤمل منهم ان يخدموا المسلمين خدماً جليلة . أشغال المحكمة الشرعية مرتبطة اليوم بسائر المحاكم المدنية أشد الارتباط . ويزيد هذا الارتباط عاماً بعد عام . قد تحدث في المحكمة مشاكل لا يمكن حلها الا بمقابلة أولي الأمر ومحادثتهم . واحياناً تستفتي المحاكم الكبيرة من قضاة المحكمة الشرعية فى بعض المسائل الفقهية . وكذلك قد يقصد المحكمة أبرع المحامين ليرجعوا الى القضاة في بعض المهمات

وتكون كتابات هؤلاء على غاية من الايجاز والنظام قلما يفهمها حق الفهم الا أهل البصر في الامور القضائية والشؤون القانونية فيبقى العضو الجاهل باللغة الروسية في حيرة واضطراب في مثل هذه الظروف

ثم أن العضو الذي لا يعرف اللغة الروسية لا يكون على بصيرة في توقيعه على الاوراق الرسمية التي ترد الى المحكمة من المحاكم الاخرى الكبيرة . اذ هو جاهل بما في تلك الاوراق من أقسام القوانين وبنودها التي بنيت عليها أحكام النصب والعزل وغيرهما . فيكون مثل هذا العضو كمثل « آلة صماء » بيد من بعثوا بتلك الأوراق من الموظفين الروسيين

لو كان الائمة أبو يوسف ومحمد وزفر أصحاب الامام أبي حنيفة في وظيفة القضاء في محكمتنا الشرعية لنابهم أيضا ما ينوب كل يوم قضاتنا الجاهلين باللغة الروسية وقوانين الحكومة من المشاكل والمصاعب

ايرضيكم أن يكون القضاة في محكمة هي محط آمال أربعة ملايين من المسلمين — آلات صماء تديرها أيدي الآخرين كيفما شاءوا أم تتمنون أن يكونوا من أهل البصر بأمورهم يذبون عن مصالح قومهم بقوة جنان وثبات جأش ؟

ايروقكم ان يوقعوا على كل ورقة مهما كانت محتوياتها أم تحبون أن يكونوا من أهل المقدرة على المناقشة في كل الاوراق التى يرتابون في أمرها ؟ بأن يقولوا مثلا : هذا الحكم مبني على كذا من المادة القانونية وهي قد نسخت في كذا من الزمن . فبناء الحكم على تلك المادة لا يجوز بل ينبغي أن يبنى على مادة كذا وما شابه ذلك من المناقشات التي لا يستطيعها الا من برز في اللغة الروسية وقتل القوانين

الوضعية علما وفهما

ولسائل أن يسألني هنا : هل يمكننا ان نربي اناسا يكونون مجتهدين في العلوم الاسلامية وبارعين في علم الحقوق الوضعية جميعا ؟

فأجيب عن هذا السوال بجوابين متناقضين : اذا اجلت طرفي في ما عليه علماؤنا الذين ألقي اليهم زمام تربية الامة وترقية شؤونها من الجمود والغفلة وسعيهم لعرقلة المصلحين ودوامهم على بث الافكار المناقضة لمصالح الامة الحاضرة والمستقبلة وجهلهم بالمرة لاسرار الحياة وتنازع البقاء وعلم الاجتماع البشري — اجبت عن السوال السابق قائلا ان هذا محال أي محال وأما اذا فكرت في استعداد قومنا القوي وتفاني بعض شباننا في طلب العلم باحتمال المشاق الجمة وجود أغنيائنا بانفس أموالهم في سبيل الخيرات والمشروعات النافعة اجبت عن ذلك السؤال قائلا : إن هذا ممكن أي ممكن ولنا رأي في كيفية الوصول الى هذا المقصد الاقصى ربما شرحناه في المستقبل ان شاء الله

﴿ الكلام على المادة السادسة ﴾

يقال ان ما جاء في هذه المادة من المطالب مطمح نظر كثير من الاقوام الآخرين القاطنين في البلاد الروسية . لعل أولئك الاقوام الذين هم يفوقوننا في كل الشؤون الحيوية ينالون هذه المقاصد قبلنا

وأما نحن فلسنا الآن على استعداد لطلب تلك المطالب السياسية العظيمة بالانفراد وما علينا الآن الا أن نتهيأ « للاصطياد في الماء العكر » (هذه الرسالة كتبت منذ سنتين إذ كان مسلمو روسيا هادئين وادعين غائبين في سباتهم العميق انتقاداً على ما أتى في اللائحتين اللتين وضعهما علماء مدينتي أورنبورغ وسمئيد وبعثوا بهما الى مؤلف الرسالة يسألونه إبداء رأيه فيهما)

وأما حرية المناظرة بخصوصها فأقول فيها : ان حرية المناظرة تنفع المسلمين نفعاً عظيماً وهذا لا ريب فيه . غير ان المناظرة لها أصول وشروط لا تأتى المناظرة بالفائدة المطلوبة الا بها . ومن شروطها الا كون المتصدي للمناظرة يكون على أهبة تامة ومطلعاً على ما بيد خصمه من الحجج وقوتها . ليست مقاومة الخصوم المتسلحين

بالعلوم الحديثة بالنظريات المسطورة في المواقف والمقاصد والطوالع والمطالع والتمهيد والتجريد الا ضرباً من التهور والتهوس

ولا يخفى على الباحث المنصف ان الكتب المذكورة تحتوي على كثير من الغلطات الفلسفية والتاريخية الناشئة من خطأ المترجمين اللاتينيين واليهود الذين ترجموا فلسفة اليونان . وتلك الغلطات تكون عوناً لخصومنا علينا لا محالة . لا يجوز البتة ان نتحمس بظن ان خصومنا عبارة عن بعض القسس الروسيين المعروفين بتحككهم بالمسلمين . إن هؤلاء الاطلائع جيش العدو . وأما الجيش الاصلي فهو يتألف من أناس آخرين متضلعين من فنون العلم وحاذقين في اساليب المناظرة وطرق الالزام . قام الامام الشيخ محمد عبده في وجوه المعارضين للاسلام في السنين السابقة بنفسه فاضطر الى جدال طويل قاومه فيه خصومه اشد المقاومة مع ان براعة هذا الامام في العلوم الاسلامية ومكانته في الفلسفة وعلم الكلام أعلى بكثير من مكانة التفتازاني والدواني واضرابهما وهو مع ذلك مطلع على آراء الفلاسفة الغربيين مباشرة لمعرفته باللغة الفرنسية . يقال أن ظهوره على خصومه انما كان بسبب معرفته هذه اللغة

(هذه الرسالة كتبت قبل وفاة الاستاذ الامام)

لا تظن أيها القاريء لما قلت لك أن خصومنا يستظهرون علينا بالعلوم الحديثة — اني اذهب الى مضادة هذه العلوم للدين الاسلامي . انا لا أقول بهذا . كون الاسلام مجامعاً للعلوم وملائماً المدنية الصحيحة ثابت بشهادة جم غفير من الفلاسفة والعلماء الراسخين أيضا بعد ثبوته في نفسه . غير أني أقول : لا يبعد أن يستفيد خصومنا من جهلنا في المناظرة الدينية ايضاً كما انهم يستفيدون منه كثيراً في الشؤون المختلفة الاخرى . اذهم لبراعتهم في أساليب المناظرة واطلاعهم على ما نحن غافلون عنه بعد يقدرون على ابراز ما يكون حجة عليهم في صورة الحجة لهم . وجملة القول: اننا لا يمكننا أن ننتفع بحرية المناظرة انتفاعاً يذكر ما دمنا غافلين عن اسرار الكون وسنن الطبيعة ومعرضين عن تحصيل الطبيعيات والعلوم الحديثة بأسرها

(للرسالة بقية) مترجمها

موسى عبد الله القرزاني

كلام فريد أفندي وجدي في الدين

﴿ وفلسفة التشريع ﴾

كتب محمد فريد أفندي وجدي صاحب مجلة الحياة منذ أشهر مقالة في بعض الجرائد اليومية قال فيها انه سينشيء مدرسة يدرس فيها العلوم العليا من كونية واجتماعية وعمرانية ومن ذلك جميع العلوم الطبيعية والفلسفية بأنواعها الخ أي انه سيقوم وحده بما تريد لجنة (الجامعة المصرية) ان تبدأ به وتري مالديها من مال الا كتتاب وهو عشرات الألوف من الجنيهات وما وقف على الجامعة من الاطيان لا يزال غير كاف للشروع في هذا القسم العالي ، ولكن فريد أفندي وجدي سخي بالوعود وقد تبرع له سيد أفندي محمد صاحب المدرسة التحضيرية بحجرة من مدرسته وفى بها وعده فهذه الحجرة هي مدرسة العلوم العليا . وقد شرع فريد أفندي في إلقاء الدروس فيها ونشر الدرس الاول من علم فلسفة التشريع في جريدة المؤيد ثم في مجلته فتذكرنا بقراءته تلك المقالات التي كان ينشرها في المؤيد عن الاسلام اذ جاء فيه بمثل ما جاء فيها من أمور تعزى الى الاسلام وهو لا يعرفها وفلسفة فيه لا يرضاها . وكان خطر لنا أن ننتقد تلك المقالات قياما بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن عرض لنا أمور ثنت عزمنا عن ذلك منها الرغبة عن انتقاد فريد أفندي لذاته ولانه صاحب مجلة ولا نحب أن يكون بين أصحاب المجلات مثل ما بين أصحاب الجرائد من المناقشات التي لا يؤمن أن تصير من قبيل المراء والمشاغبة . تركنا الرد على ما جاء في تلك المقالات من مخالفة أصول الدين والنفس تحاسبنا على ما فرطنا وتعتذر عن تفريطها بان تتبع خطأ الناس والرد عليه غاية لا تدرك ولا يستطيع القيام بها واحد وهو من فروض الكفايات ولكنها ليست مطمئنة بأن هذا العذر يرضي الله تعالى مع ما ترى من سكوت العلماء في هذا العصر عن انكار المنكر ثم عرض لنا مثل هذا عند ما قرأنا درس فلسفة التشريع وإن كان الخطأ فيه دون الخطأ في تلك ثم جزمنا بأن الانتقاد واجب علينا فبادرنا الى كتابة هذا النقد فعسى أن ينظر فيه رصيفنا فريد افندي بعين الانصاف

في هذا الدرس أو المقالة كثير من الامور المنتقدة وأهمها عندنا ما قاله في «التشريع» وكون الوحي هو أصل الشريعة عند المسلمين . وقبل البحث فيها نقول كلمة لا بد منها في انتقاد عبارة فريد أفندي وهي أن القاريء لها لا يكاد يفهم منها معنى محررا يجزم بأنه هو مذهب الكاتب ومراده بل يجد فيها من التعارض والابهام والعسلطة ما لا يجزم معه بالمعنى المراد . ومثل هذا مما يتعسر نقده و يسهل الجدل والمراء فيه ولم أذكر هذا الا لأن الضرورة قضت بذكره كما ستعلم

بدأ المدرس المقال بقوله «لم يعتن المسلمون في الصدر الاول بشيء بعد تقرير الاصول الدينية بقدر ما اعتنوا بالامور التشريعية» وفيه ان المسلمين لم يكن عندهم شيء يعبر عنه بالامور التشريعية غير ما شرعه الله لهم من الدين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى (٤٥: ١٨ ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) وفريد افندي جعل المسلمين شارعين ولذلك قال بعد ما تقدم «ثم لما اتسع نطاق العمران واستدعت الاحوال تدوين شريعة شاملة لجميع الاصول والفروع اقتضت الحاجة ان ينبغ المشرعون الاولون من المسلمين كالأوزاعي والشعبي وسعيد بن المسيب وابي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد» الخ ثم قال «فاختلف المشرعون الاولون» وقال «فظلوا يشتغلون بأمر التشريع والتقنين» وقال «فاستحال امر المتشرعين» والصواب أن هؤلاء لم يكونوا الا رواة للحديث ومستنبطين منه ومن الكتاب أي مبينين ما يفهمونه منهما للناس وناقل الشريعة ومفسرها لا يسمى شارعا (ولا مشرعا كما تقول الجرائد الآن) وانما الشارع والمشترع (أو المشرع) هو واضع الشريعة و يطلق الشارع في كتب المسلمين على الله تعالى لأنه واضع الشرع وعلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه مبينه عن الله تعالى ولم يعرف الا منه . نعم يصح استعمال هذه الالفاظ في غير هذه المعاني لغة لا سيما لفظ التشريع فانه يستعمل عند علماء الفنون العربية اسما لنوع من محسنات البديع ولكن الموضوع ليس لغويا وانما الكلام في الشرع الاسلامي فينبغي فيه اتباع اصطلاح أهله المأخوذ من القرآن الا أن يخرج المتكلم عن صراطهم و يجعل الشرع من وضع البشر

قال فريد افندي في الأئمة الذين تقدم ذكرهم «فظلوا يشتغلون بأمر التشريع والتقنين و يعقدون لذلك الدروس الحافلة حتى جاء القرن الثالث وكان قد طرأ ضعف في أمر الحكومة انتقلت به الى شكل حكومة مطلقة مستبدة بعد أن كانت شورية دستورية . . . فاستحال أمر المتشرعين الاسلاميين الى حفظة أقوال المتقدمين و بطل الاجتهاد لعدم نبوغ العلماء الضليعين وأصبح رجال العلم تبعا لرجال السياسة في الاهواء والميول فتوالى الضعف على هيئتهم شيئا فشيئا حتى تولاهم العجز بأخص معانيه فاصطلحوا على عدد من الكتب يقرؤنها و يتفهمون عباراتها بدون نقد ولا محاكمة وصار هذا معنى الدين والتمسك بالسنة في نظرهم»

أقول يفهم من قوله السابق «ثم لما اتسع نطاق العمران» الخ وقوله هذا ان تدوين الشريعة أو التشريع على رأيه قد كمل في وقت اتساع العمران قبل تحول الحكومة من الشورى الى الاستبداد . ونحن نعلم أنه لم يدرك حكومة الشورى من أولئك الفقهاء أو المشرعين على رأيه الا سعيد بن المسيب لانه تابعي ولد في خلافة عمر وهو لم يدون شيئا والباقون كانوا في زمن بني أمية و بني العباس وحكوماتها استبدادية بلا نزاع على ان العمران كان في زمنهما أكثر نموا . ثم ان علماء القرن الثالث لم يكونوا كما ذكر بل ولا القرن الرابع ولا القرن الخامس فالفقه ما اتسع نطاقه الا في هذه القرون وان كان الفضل للمتقدم ولعلنا نبين ذلك ان مارانا فيه ممار

ثم قال فريد افندي «نحن في هذا الدرس سنعمل على فهم ما هي الشريعة في الاصطلاح الاجتماعي وكيف تكونت الشرائع في مدى التاريخ وكيف ترقت أصولها حتى وصلت الى أرقى ما وصلت اليه اليوم وكيف تكونت الشريعة الاسلامية القرآنية وما مكانها من بين سائر الشرائع وما معنى كونها خاتمة الشرائع وما ذا هو الاجتهاد وكيف حصل الاستنباط الخ ولنا في كل مبحث من هذه المباحث كلام في فلسفة الموضوع الذي نتكلم عليه وآخر ما انتهى الرأي اليه وتطبيق ذلك على روح القرآن واظهار اعجاز الشريعة الاسلامية من هذه الوجهات بأصرح بيان» اه

ونقول هذه بضعة وعود منصوصة وأشار برمز «أخ» الى وعود أخرى وبنى على الوعود وعودا ولم يف بما وعد اذ لم يكن باقي الدرس الا كلاما في العدل يتلوه كلام في معنى كون أصل الشرائع من الوحي وايراد اعتراضين على ذلك غير واردين والجواب عنهما بما لا يدفعهما ، وكلام في بناء القوانين على الاخلاق وقد ذكرنا هذه الوعود بقول الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في كتابة فريد افندي انها «مقدمات ووعود»

عرّف العدل بأنه ما أدى اليه العقل من الاحكام وهذا غير صحيح لان الاحكام التي وصل اليها الناس بعقولهم منها ما هو عادل ومنها ما هو جائر والحاكمون بها منهم العادل ومنهم الظالم فالعدل أمر آخر لا محل للكلام فيه هنا ولم نذكره لأنه مقصود بالذات وانما ذكرنا لأنه جاء عقبه بما يأتي

«هنا يلزمنا أن ننبه الى موضوع خطير وهو أن متشرعي أوربا عامة يعيبون علماءنا في اعتقادهم بأن اصل الشرائع الوحي ولهم في ذلك علينا مطاعن في غاية الصرامة ونحن هنا لا مناص لنا من حل هذه الشبهة فنقول: القرآن الكريم توسع في معنى الوحي فلم يقصره على النبيين بل أطلقه على أدنى درجات الانسياق الطبيعي الحيواني فقال تعالى (واذ أوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) واذا صح اطلاق الوحي على هذا الانسياق الفطري الحيواني صح من باب أولى اطلاقه على نتائج العقل الانساني لان الله خالق كل شيء، والباعث على كل شيء. فيكون لا تنافي بين قول متشرعي أوروبا بأن الشرائع أصلها العقل وبين قول علماء الاسلام أن أصلها الوحي. اذا لم يقبل العلماء هذا الحل الموافق للكتاب والعلم فقد تعرضوا الشبه لا تخلص لهم منها وهي:

(أولا) لو كان أصل الشرائع الوحي بمعناه السامي لنزلت الشرائع الاولى حاصلة على العدالة بمعناها الخاص والمشاهد بين حوادث التاريخ أن الشرائع بدأت مناسبة لعقل الانسان وسذاجته ونقص أخلاقه والله يتنزه عن ذلك

(ثانيا) في الارض أمم كثيرة في أدنى درجات التوحش ولديها شرائع على حسب مداركها مطابقة في أصولها الاولية لشرائع الجمعيات البشرية الاولى فلماذا نحكم

بأن شرائع المتوحشين العصريين هي من تلقاء أنفسهم وتلك الشرائع هي من الوحي مع تشابهها في النقص والسذاجة» اه

افتجر فريد افندي لعلمائنا قولا لم يقولوه ولا قاله أهل مذهب منهم وأورد عليه مطاعن عزاها الى الاوربيين، ليدافع بكشف شبهتها عن الاسلام والمسلمين، فكان دفاعه ـ لوصح ما يسبق الى الاذهان منه ـ من قبيل تلك المطاعن أو أشدها

الظاهر من عبارة فريد افندي الذي يفهمه منها القارئ هو أن الوحي أصل كل شريعة وجدت في البشر فكانت قانونا يحكم بها الناس فيما يختلفون فيه فعلى هذا يكون مما يعتقد المسلمون أن الاحكام التي كانت عليها العرب في الجاهلية وكذا غير العرب من الوثنيين ـ كلها مبنية على أصل الوحي الالهي وانه لقول ينقضه الاسلام بكتابه وسنته ومذاهب أئمته نقضاً وانما يقول المسلمون كافة ان الشرائع التي جاء بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام هي من وحي الله تعالى لا من مخترعات عقولهم كما قال تعالى (٢: كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)

فاذا كان فريد افندي يريد من عبارته ما يدل عليه ظاهرها وهو ان المسلمين يقولون ان أصول جميع الشرائع كان بوحي من الله حتى شرائع الوثنيين المنحطين في الوثنية أو الذين ارتقوا فيها كقدماء المصريين والكلدانيين والرومانيين ثم يقول ان علماء أوربا يوجهون الينا تلك المطاعن لاجل ذلك فقد أعلمناه أن هذا باطل ونزيد على ذلك ان الاوربيين لا ينسبون الينا هذا الاعتقاد ولا يطعنون علينا به. ولو طعنوا لما دفع قوله طعنهم لان الوحي لا يصح اطلاقه على نتائج العقول وما تولده الافكار وان صح اطلاقه على الالهام الفطري

وان أراد بأصل الشرائع ما يعتقد المسلمون أن النبيين المرسلين جاؤا به عن الله تعالى ودعوا الناس اليه على انه وحي من الله لا من عند أنفسهم فقد صدق في حكاية اعتقادنا وان علماء أوربا يطعنون علينا بهذا الاعتقاد بل لا يطعنون علينا الا باعتقادنا أن أصل شريعتنا نفسها وحي من الله دون شريعة اليهود مثلا وحينئذ يكون دفعه لهذه المطاعن بما فسر به الوحي هو عين الهدم لاصل الاسلام

والتكذيب للرسول عليه الصلاة والسلام لان ما نطق به القرآن وانعقد عليه الاجماع هو ان الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء بهذه الشريعة من عنده وليست من نتائج عقله وفكره وانما يقول بهذا من ينكرون الاديان ويدعون أن الانبياء فلاسفة أخلاق وآداب واجتماع أسندوا فلسفتهم الى الوحي الالهي ليقبلها الناس ولهذا رجحنا أن الاحتمال الاول هو مراد فريد افندي وعليه يكون مخطئا في عزوه الى المسلمين مالا يعتقدون والي الافرنج مالا يقولون ، (لان ما بني على الفاسد فاسد) وقصر في سكوته عن بيان شبهتهم على شريعتنا وعن دفع هذه الشبهة ومما يؤيد الترجيح تصريحه بأن الوحي معنى خاصا غير ما فسر به أصل الشرائع وقد عبر عن هذه الشرائع بالناقصة وانما ذكرنا الاحتمال الثاني لما علمت ولكن انظر ما يأتي

قال فريد أفندي « فان قال قائل قد ثبت شرعا أن أول البشر آدم عليه السلام وهو نبي بالاجماع وقد ذكر الله أنه أوحى اليه وعلمه فيكون أصل الشرائع الوحي بالمعنى الخاص : نقول ان صح ان ايحاء الله لآدم كان بالمعنى الخاص ولم يكن بمعنى الالهام والنفث في الروع من طريق مقتضيات الفطرة الانسانية فان الله لم يذكر انه أوحى اليه شريعة بل لم يكن الحال يقتضي ذلك في ذلك العهد لقلة الناس وقربهم من حالة الفطرة » الخ

ونقول انه بعد أن ذكر ان آدم كان نبيا بالاجماع ما كان له أن يرتاب في كون وحي الله له - وقد اعترف بأنه ثابت — من الوحي الخاص لا من قبيل الوحي الى النحل فهذه سقطة كبيرة . وقوله ان الحال في عهده لم تكن تقتضي شرعا لما ذكره ظاهر البطلان فان القليلين يتنازعون ويتخاصمون كالكثيرين فيحتاجون الى من يحكم بينهم بالحق والعدل وقد ثبت أن أحد أبناء آدم قتل أخاه ولم يمنعه القرب من الفطرة عن ذلك فماذا نقول فيما دون القتل من أنواع الخصام ؟ ثم ما يدرينا أن آدم عاش عمرا طويلا كثر الناس فيه فإن طبيعة الأرض كانت في عهده غير طبيعتها الآن فيما يظهر بل ثبت بالوحي أن نوحا عاش نحو ألف سنة لأن طبيعة الأرض قبل الطوفان كانت غيرها بعده وأمزجة الناس كانت قابلة لذلك على ما هو المرجح عندنا والله أعلم بالصواب

ثم ختم فريد أفندي درسه بأربع مسائل قال انه يمكن جعلها نتائج له وهي (١) ان العدالة في الأمة تكون مناسبة لعاداتها واخلاقها و(٢) أن الأمم تتكون على النظام الذي تدرك به نفسها . و(٣) أن كل ترق أخلاقي يتبعه ترق تشريعي و(٤) ان «الشريعة لا تصل الى أوج كمالها في أمة الا اذا كانت المساواة بين الافراد بالغة حدها الاقصى أي اذا ترقت فيها الاخلاق لدرجة ان الرجل منها يعتبر غيره نظيره وهذه هي الحالة الوحيدة التي يتخلص فيها العقل من أوهامه الاجتماعية فيواجه الطبيعة الحقة للحوادث ويترك لها زمامه لتقوده الى العدالة المحضة »

(قال) « من هنا يرى الرائي كيف ان كل انقلاب حدث في اخلاق أمة يتأدى بطبعه الى انقلاب في شريعتها . ويدرك تبعا لهذا فساد الاحكام وبعدها عن العدالة في بعض الامم المتدينة التي تقرر مبدأ التمايز في أفراد الجمعية فتهب لبعضهم حقوقا تسلبها عن الآخرين باعتبارات دينية

« هنا نستلفت نظر القارئ الى أمر خطير يدل في اجماله على أن الشريعة الاسلامية هي أعدل الشرائع وأرقاها بحكم أكبر أصل من أصول فلسفة التشريع . وذلك أن هذه الفلسفة تقرر بأن الشريعة لا تصل الى أوج الكمال الا اذا كانت المساواة تامة بين الأفراد . وهذه الشريعة الاسلامية مبناها (انما المؤمنون إخوة) فلم تقرر في أصولها أدنى امتياز لأي طائفة فتكون بهذا الدليل الاجمالي اعدل الشرائع وسترى في التفصيل العجب العجاب » اه كلام فريد أفندي

أقول لو أحفى المنتقد لهذه الجملة لامكنه ان يكتب في انتقادها عدة أوراق ونكتفي بذكر المهم عندنا من ذلك وهو ما يتعلق بالشريعة الاسلامية

انه جعل كمال الشريعة تابعا لكمال الناس في أنفسهم ولما نزلت الشريعة الاسلامية لم يكن الناس الذين أنزلت لأجل الحكم بها بينهم أولا في ذلك الأوج من الارتقاء فكيف بنى تفضيلها على هذا الاصل

ثم من هي الأمة المتدينة التي وصفها بفساد الاحكام وبعدها عن العدالة لتقريرها مبدأ التمايز بين الافراد بالدين ؟ اليهود ليس لهم حكومة والنصارى جعلوا أحكامهم مبنية على العقل وشهد هو للأوربيين منهم بالارتقاء العظيم . فهل يعني

بعض الوثنيين ولم لم يشر الى ذلك . وما ذا يقول في مثل جعل الخلافة في قريش وفي أحكام شهادة غير المسلم على المسلم في الشريعة الاسلامية

وهل الشريعة الاسلامية خاصة عنده بالمؤمنين بها أم يحكم بها بين غير المؤمنين بها ؟ واذا قال بالثاني فهل أخوة المؤمنين لبعضهم البعض تقتضي مساواتهم لغيرهم ممن يحكم بها أم لا ؟ فان اعترف بأنها لا تقتضي ذلك فكيف يتم قوله

ان رأيه في ارتقاء الشريعة ووصولها الى أوج الكمال إنما يصح في القوانين الوضعية التي ترتقي بارتقاء الواضعين لها في أممهم وفي أنفسهم . وأما الشريعة الاسلامية فانها قواعد وأحكام أنزلها الله كاملة لأجل ان يكون ارتقاء الناس تابعا لها فكان كمال المؤمنين باتباعهم لها ولم يكن كمالها هي تابعا لكمالهم

هذا ما رأينا ان ننبه عليه ونختم الكلام ببيان ان سبب هذا الخطأ وأمثاله فيما يكتبه محمد فريد أفندي وجدي من المباحث الاسلامية هو عدم تلقيه علوم الدين عن أحد من العارفين به فعسى ان يحمله ما يرى من انتقاد كلامه في الدين على مدارسة المهم من علومه والله الموفق

آثار علمية أدبية

صدى مقال المنار في دعوة العلماء الى نصيحة السلاطين

﴿ وشهادة موسيو وامبري للاسلام ﴾

ترجم بعض فضلاء الترك مقالنا (حال المسلمين في العالمين ودعوة العلماء الى نصيحة الامراء والسلاطين) الذي كتبناه في الجزء الخامس من مجلد المنار التاسع (ص ٣٥٧ م ٩) باللغة التركية وطبعه باللغتين ووزعه في بلاد كثيرة فكان له صدى استحسان واعجاب من أصحاب الافكار المستقلة من الترك وغيرهم كما أكبره كثير من كتاب العربية وأظهروا استحسانه في الصحف المنتشرة كالمقتطف بمصر ومرآة الغرب في امريكا الشمالية والمناظر في امريكا الجنوبية . وكتب

الينا غير واحد من كبراء الترك كتب الاستحسان والشكر

وقد أرسل مترجم المقال نسخة منه الى العالم المجري الرحالة الشهير موسيو (وامبرى) العالم بالتركية وكثير من اللغات الشرقية فكتب اليه وامبري رقعة نقلنا صورتها بالزنكغراف وهذه هي ويليها ترجمتها



The Learned

Mr. Diyeli Riza bin Emin Efendi

Professor in the English School of Cyprus.

Cyprus (Cyprus)

فضيلتلو افندم حضرتلری

ذات عاليه‌كزك همتی و غيرتی ايله ترجمه اولنمش رساله‌يی كمال دقت ايله اوقودم واقعه تفكر واردر ملل اسلاميه و بالخاصه عثمانلی ملت نجيبه‌سنی ظلم واستبداد الندن يعنی ورطه هلاكدن قورتارمق جمله‌دن اول علما ايشيدر جمعيت اسلام شيرازه انتظامی دين‌در انی احيا ايدن دين‌در و انك استقبالنی تأمين ايده‌جك اينجق دين اوله بيلور ايشته انك ايچون ملتكزه ايو خدمت بيورمش سكز و فرصتی دوشدكجه اثركزی فرنك غزته‌لرنده اعلان و اشعار ايده‌جكم افندم

ملتكزك قديم بنده‌سی

وامبری

بغاية التدقيق قرأت الرسالة التي ترجمتموها لقد أصبتم في أن انقاذ الأمم الاسلامية وسيما العثمانية من الظلم والاستبداد هو من عمل العلماء قبل كل أحد . إن روح نظام المسلمين هو الدين . والذي أحياهم هو الدين . والذي يكفل

سلامتهم في المستقبل هو الدين ليس الا . ولهذا أنتم خدمتم ملتكم جيداً (بهذه الرسالة) ومتى سنحت فرصة سأنشر رسالتكم في الجرائد الافرنجية

عبد ملتكم القديم

وامبري

﴿ فرائد اللغة العربية ﴾

الكلم الذي يؤدى معاني الجمل

(أبد) الشاعر — كضرب — أتى في شعره بالعويص ومالا يعرف معناه

(أبر) الرجل الكلب — كنصر وضرب — اطعمه الابرة في الخبز. وهكذا كانوا يشتقون من الاسماء الجامدة ماتعرض له الحاجة ويجب ان يكون هذا مقيسا كما هو مقتضى الطبع في كل لغة حية ومنها لغة العامة فانهم يشتقون بالسليقة من غير تكلف ولا مواضعة. يبدأ باشتقاق الكلمة من تعرض له الحاجة اليها أولا من غير أن يفكر انه زاد في اللغة كلمة أو كلمات ويسري مايشتقه بين الناس كانه قديم لا يلتفتون الى حدوثه ولا يسندونه الى أول من تكلم به

(أبز) الانسان — كضرب — استراح في عدوه ثم مضى

(أتنت) المرأة — كضرب — وآتنت وأيتنت: ولدت الولد منكوسا وهو ان تخرج رجلاه قبل يديه

(أبدأ) الصبي خرجت أسنانه بعد سقوطها

(البدء) السيد الاول في السيادة و (الثنيان) الذي يليه في السودد فلا يقال البدء الا فيمن انتهت اليه الرياسة في قومه . قال أوس بن معري السعدي يفتخر

ثنياننا ان أتاهم كان بدأهم   وبدؤهم ان أتانا كان ثنيانا

والبدء أيضاً الشاب العاقل المستجاد الرأي، والعظم بما عليه من اللحم . والمفصل

(البديء) والبدي البئر الاسلامية أي التي حفرت في الاسلام فهي حديثة غير عادية كذا قالوا والصواب انها البئر الحديثة التي يعرف حافرها أو مالكها في أي زمن وأية أمة

(الخفية) البئر القديمة التي يعرف حافرها كزمزم

(القليب) البئر القديمة التي لا يعرف لها رب ولا حافر

(الركي البدي) هي البئر ماؤها ظاهر بارز . وهو على حد عيشة راضية

(الركي الغامد) هي البئر المغطى ماؤها بالتراب

(الركي البكي) ويقال ركية بكية اذا نضب ماؤها وهو تشبيه بالناقة القليلة اللبن وأصله بكيئة . يقال بكوت الناقة اذا قل لبنها ويقال بكوت عيني اذا قل دمعها وهو مجاز

(البراء) بالفتح كسماء أول ليلة من الشهر وابن البراء أول يوم منه

الانجيل الصحيح

﴿ أو انجيل برنابا ﴾

لعل قراء المنار يذكرون أننا نشرنا في المجلد السادس ترجمة مقدمة كتاب الفيلسوف تولستوي الرومي المسيحي لكتابه الذي سماه (الاناجيل) تحت عنوان (الانجيل الصحيح) ونعيد لهم الآن من تلك المقدمة الطويلة المنشورة في عدة أجزاء هذه الجملة الوجيزة :

« ولا ينبغي للقارئ أن ينسى أن هذه الاناجيل بشكلها الحاضر لا تتضمن ألبتة شهادة الحواريين وتلاميذ عيسى مباشرة وان القول بذلك من الخرافات التي لا تصبر على محك النقد فضلا عن عدم بنائها على أدنى أساس سوى رغبة نفوس أرباب التقوى والورع في أن تكون كذلك . فقد توالت القرون والناس يدونون الأناجيل ويهذبون موضوعاتها ، ويتوسعون في عباراتها ، ويشرحون أقوالها فان أقدم النسخ التي وصلت الينا قد تمت كتابتها في القرن الرابع للميلاد وهي مكتوبة على نسق واحد من أولها الى آخرها أي بلا فواصل ولا غير ذلك من الاشارات التي تستعمل لايضاح الكلمات وبيان الجمل . ولذلك دعت الضرورة حتى بعد القرنين الرابع والخامس الى تفسيرها بطرائق متخالفة من كل الوجوه وصارت نسخ هذه الاناجيل تقارب الخمسين ألفا »

هذا ماقاله الفيلسوف ونقول ان رجال الدين قد اختاروا من بين الاناجيل

الكثيرة تلك الاربعة المشهورة ورفضوا ما سواها بالتدريج ويقال أن بعض مذاهب النصرانية القديمة كانت تتمسك ببعض الأناجيل المرفوضة عند أهل المذاهب المعروفة الآن

ومن الأناجيل التي رفضتها الكنيسة انجيل برنابا أحد حواري المسيح عليه السلام وقد فقد كثير من الاناجيل المرفوضة بتتبع الكنيسة لها وقضائها عليها أو اخفائها لها ولكن انجيل برنابا مما بقي تحت حجاب الخفاء ،حتى لم يطلع عليه الا بعض الباحثين من العلماء ، ومازال هؤلاء الباحثون الذين لا يصدهم شيء عن إحياء الآثار القديمة يتوقعون الظفر بنسخة من هذا الانجيل لينشروها بين الناس حتى صدق عليهم قول الشاعر

وقلّ من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر الا فاز بالظفر

ظفروا بنسخة باللغة الطليانية كانت قد سرقت من مكتبة (الفاتيكان) التي يوجد في خزائنها السرية من الكتب مالا يوجد في غيرها لما كان للباباوات الذين جمعوها من النفوذ والسلطان في الممالك النصرانية

ترجمت هذه النسخة بالانكليزية وطبعت في هذا العام بمدينة (أوكسفورد) باللغتين معا وتفضل الطابع لها باهدائنا نسخة منها فشكرًا له

رأينا هذه النسخة توافق الاناجيل الاربعة المشهورة في كثير من مسائل التاريخ والارشاد وتخالفها في أهم القواعد والمسائل كالتعبير عن المسيح عليه السلام بعبد الله ورسوله وبيان انه لم يصلب والبشارة الصريحة عنه بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصريح بكون الذبيح اسماعيل لا اسحق (عليهما السلام)

أردنا أن نحيي هذا الأثر بلغتنا كما أحياه الافرنج ببعض لغاتهم (ولا بد أن يحيوه بمآثرها) فكلفنا صاحبنا الدكتور خليل بك سعاده أن يترجمه لنا بالعربية لما نعهد فيه من البراعة في اللغة الانكليزية فطفق يترجم وأنشأنا نطبع شركة بيننا واخترنا أن تكون الترجمة عن الانكليزية حرفية لا تصرف فيها ولكننا زدنا على الاصل عدد الجمل بالارقام لكل فصل لاجل سهولة المراجعة عند النقل منه ولا يلبث الافرنج أن يفعلوا ذلك . وهاك ما قاله برنابا في مقدمة انجيله كما جاء في الأصل :

﴿ الانجيل الصحيح ليسوع المسمى المسيح ﴾

﴿ نبي جديد مرسل من الله الى العالم كما رواه ﴾

« برنابا رسوله »

برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح يتمنى لجميع أهل الارض سلاماً وتعزية

أيها الاعزاء ان الله العظيم العجيب قد بعث الينا في هذه الايام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعةً لتضليل كثيرين تحت ستار التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله رافضين الختان الذي أمر به الله دائما مجوّزين كلّ لحم نجس الذين ضلّ من عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه الا مع الاسى وهو السبب الذي لاجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته اثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضادّ لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً

وليكن الله العظيم معكم وليحرسكم من الشيطان ومن كلّ شرّ آمين اه

أقول ومن المأثور عن القوم ان بولس أدرك برنابا وسافر به الى بعض البلاد التي نشر فيها تعليمه وفلسفته الدينية فالظاهر من هذه المقدمة ان برنابا لما رآه خالف ما يعرف هو عن المسيح بالمشاهدة والتلقي فارقه وكتب هذا الانجيل لاجل بيان حقيقة ما دعا اليه المسيح وما بشر به

حياة الزوجين

كتاب « اجتماعي أدبي اشتمل على آداب حياة الزوجين ومايجب على كل منهما نحو صاحبه وعلى ماتضمنته أسفار الحكماء واسطورات العلماء ماتتضح به مناهج السعادة وقواعد الهناء لهما تأليف مصطفى (أفندي) عبد اللطيف أحد موظفي مصلحة البوستة المصرية بالقاهرة »

اذا نظرت في فهرس هذا الكتاب رأيت من أسماء المباحث فيه ماتقول إنه ينبغي لعامة القراء أن يطلعوا عليه كالكلام في الزواج وفوائده ومبادى الزواج المشروع وماذا يجب على المرأة لزوجها من الطاعة والنشاط وحسن الخلق والبشاشة والنظافة والاقتصاد وغيرذلك ، ومايجب على الرجل لزوجه أيضا . ويلي ذلك باب الوصايا وفيه احدى عشرة وصية ويليه بحث تأثير المرأة في الهيئة الاجتماعية وبحث تربية البنات ووجوب تعليم المرأة وهو فصل في نصائح فيلسوف لبنته ويالها من نصائح حكيمة

لم يستبد مؤلف هذا الكتاب برأيه فيما كتب بل اقتبس من الكتب والمجلات فوائد كثيرة عزاها اليها ولعله نسي ان يعزو الى المنار منها تلك العبارة التي ترجمها الاستاذ الامام عن مذكرات البرنس بسمارك فمن اطلع على هذا الكتاب الوجيز قرأ مالا يتيسر له الاطلاع عليه غالبًا إلا اذا كان مقتنيا لاشهر المجلات العربية . وانا بروية فهرسه وتصفح بعض صفحاته نحكم بأن مافيه من الفوائد النافعة مما ينبغي أن يذاع ويقرأ في البيوت على النساء والبنات

ويباع في مكتبة المنار وغيرها من المكتبات الشهيرة وثمن النسخة منه خمسة قروش صحيحة

أقوال الجرائد في تاريخ الاستاذ الامام

أصدرنا جزء المنشآت وجزء التأبين والرثاء من هذا التاريخ معا وان كان قد تم طبع أحدهما قبل الآخر بعدة أشهر وأهديناهما الى الجرائد اليومية بالقاهرة في يوم واحد واننا نذكر بعض ما كتب عنه في جرائد المسلمين والقبط والسوريين

ثم نذكر ما كتبته جريدة روسية عن الجزء الثالث ليعتبر القارىء العاقل بمايرى من الاختلاف فيها

قالت الجريدة في ع ٨٨ الصادر في ١١ ج ١ سنة ١٣٢٥ و٢٢ يونيو سنة ١٩٠٧

تاريخ الاستاذ الامام

تمَّ الآن طبع جزئين من هذا التاريخ الذي كان يترقب ظهوره كل مصري يعترف بفضل المرحوم الشيخ محمد عبده وليس المعترفون به قليلين

هذان الجزءان هما الثاني والثالث اما الأول فسيتم طبعه في هذا الصيف . والثاني يحتوي على بعض رسائله ومقالاته التي نشرت في الجرائد ولوائحه في اصلاح التربية والتعليم الديني ومدافعته عن الدين ورحلته الى صقلية وعلى كتبه ورسائله الى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنثورة والثالث يحتوي على تأبين الجرائد والفضلاء ومراثي المحبين من الادباء جمعهما الفاضل الشهير الاستاذ السيد محمد رشيد رضا أحد كبار تلاميذ المرحوم الاستاذ الامام . وهو يكتب الآن الجزء الاول الذي يحتوي على سيرة المرحوم وترجمة حياته

ان الامام رحمه الله شغلته الشواغل الكثيرة المتعلقة بالخدمة العمومية عن التأليف ولكن هذا الجزء الثاني المحتوي على مكتوباته المتنوعة يهدينا مؤلفا كبيرا من ذلك القلم الذي بعث روح حياة جديدة في الافكار في هذا القطر ولذا يقابل جمع السيد رشيد لأشتات هذه المكتوبات بالثناء العاطر من قبل الذين شغف فؤادهم حب المرحوم

أما الجزء الثالث فلنا منه سفر جامع لنخب الشعر والنثر جدير أن ينتفع بمطالعته المتأدبون وهذا الجزء الثالث مصدر برسم المرحوم أما الثاني فغير مصدر به وهذا ما نأخذه على جامع الكتاب فعسى ان لا يحرم قراء الاول من مشاهدة مثل تلك الطلعة الكريمة

وقد وضع له الجامع الطابع قيمة رخيصة كأنه رأى ان كل قيمة مادية لاتعادل قيمته المعنوية فأحب ان يعم فائدته بترخيص قيمته المادية فيباع الجزءان بخمسة

وعشرين قرشاً وفيهما نحو من ألف صحيفة ويباع الثالث وحده بعشرة قروش والثاني وحده بخمسة عشر قرشاً ومحل بيعهما مكتبة المنار بشارع درب الجماميز

وقالت جريدة الجوائب في ع ١٣٢٢ الصادر في ١١ ج ١

تاريخ الاستاذ الامام

رحم الله الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده كم نفع الناس في حياته وبعد مماته مات الاستاذ فشعر العالم كله بفداحة الخطب، وحزن عليه الشرق والغرب، وكيف لا يعرف الاستاذ الامام أحد وهو ذلك الرجل الذي وطد دعائم العلم وفك الافكار من قيودها الثقيلة؟ وأحيا الفلسفة الشرعية بعد موتها؟ وملأ مصر نورا؟

وقد اعتنى حضرة الاستاذ العلامة الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء بجمع ما وصلت اليه يده من فلسفة الاستاذ الامام وكتاباته التي في الفنون الاخرى ومراثي الأدباء والشعراء والصحف العربية والتركية والفارسية والاجنبية على اختلاف لغاتها ومنازعها

وقد جاءنا الجزآن الثاني والثالث من هذا التاريخ المجيد

وفي الجزء الثاني بعض رسائل الاستاذ الامام ومقالاته التي نشرت في الصحف ولوائحه في اصلاح التربية والتعليم الديني ومدافعته عن الدين ورحلته الى صقلية وكتبه ورسائله الى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنثورة . وثمنه ١٥ قرشاً صاغاً وأجرة البريد ٣ قروش

وفي الجزء الثالث تأبين الصحف والكبراء والفضلاء ونموذج من تعازي أهل الاقطار والامصار ومراثي الشعراء وثمنه ١٠ قروش وأجرة البريد ٣ قروش

أما الجزء الاول فلم يتم طبعه الى الآن وسيتم ان شاء الله في القريب من الوقت وفيه تاريخ حياة الاستاذ الامام وفلسفته وحكمه العالية وهو أهم الاجزاء الثلاثة على ما نظن

والجزآن الثاني والثالث يباعان في مكتبة المنار بشارع درب الجماميز

وقالت جريدة المقطم في ع ٥٥٤٥ الصادر في ١٤ ج ١ و ١٢ يونيو

أهدى الينا حضرة العالم الفاضل السيد محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار الغراء الجزءين الثاني والثالث من تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أما الثاني فيحتوي على شيء من رسائل الامام ومقالاته التي نشرت في الجرائد ولوائحه في اصلاح التربية والتعليم الديني وعلى كتبه ورسائله الى العلماء ورحلته الى صقلية وبعض حكمه المنثورة . وهو يقع في ٥٦٠ صفحة ذات حرف جلي وورق صقيل وكله غرر ودرر قد خلعت الفصاحة عليه زخرفها وجللته البلاغة بمطرفها ولا غرو فإن الامام رحمه الله كان امام عصره غير مدافع

وأما الثالث فمصدر برسم الامام ويشتمل على تآبين الجرائد وبعض الكبراء والفضلاء ونموذج من تعازي أهل الاقطار والامصار ومراثي الشعراء وما قيل في حفلة الاربعين على القبر وهو يقع في ٤٢٨ صفحة وكلا الجزءين يباع بمكتبة المنار بشارع درب الجماميز . فنثني على حضرة الفاضل منشىء المنار لاهتمامه بنشر أنفس الآثار

وقالت جريدة مصر في ع ٣٤١١ الصادر في ١٠ ج ١ سنة ١٣٢٥ و٢١ يونيه سنة ٩٠٧

اهدانا حضرة الكاتب العالم والاستاذ الفاضل الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء الجزء الثاني والثالث من تاريخ الاستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده وهما يتضمنان تأبين الجرائد وبعض الكبراء والفضلاء له رحمة الله عليه وانموذجا من تعازي أهل الاقطار والامصار ومراثي الشعراء وشيئاً كثيراً من رسائل صاحب الترجمة في اصلاح التربية والتعليم الديني ورحلته الى صقلية ورسائله الى العلماء في مواضيع شتى فنثني على همة وغيرة حضرة الاستاذ رشيد على وضع هذا الكتاب المفيد في تخليد ذكر ذلك الامام ونحث جمهور الادباء والفضلاء على اقتنائه

وقال المؤيد في العدد ٥٢٠٠ الصادر في ١٥ ج ١ سنة ١٣٢٥ و٢٦ يونيو سنة ٩٠٧

تقريظ المفتى

« الجزء الثاني والثالث من تاريخ حياة المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده »

الثاني في المنشآت والثالث في التأبين والمراثي أصدر هذين الجزئين جامعهما الاستاذ الفاضل الشهير الشيخ محمد رشيد رضا منشئ المنار وهو مباشر في إعداد الجزء الاول الذي يتضمن ترجمة المرحوم المشار اليه . وربما أصدره عن قريب

أما موضوع الجزء الثالث المصدر بوسم المرحوم فمعلوم كنهه لدى القراء . وأحسن مايقال فيه انه معرض لقرائح الشعراء والكتاب : منه تتجلى مقدرتهم ويوازن بينهم في موضوع فذ تواردوا عليه . ومعنى واحد كتبوا ونظموا فيه

وأما موضوع الجزء الثاني فربما كانت مضامينه خفية على معظم القراء فنحن نشير الى نموذجات منها عن كثب : الواردات في علم الكلام وهي على نمط بديع غير مألوف . ومقالات ملخصة من دروس الشيخ جمال الدين الافغاني في التربية والصناعة ومنها مقالات كان ينشرها المرحوم المفتي في جريدة الاهرام منذ ثلاثين سنة في مطالب ومواضيع مختلفة . ثم مقالات له في الوقائع الرسمية تتضمن كثيرا من الابحاث الاجتماعية والسياسية والاخلاقية والدينية ثم مقالات العروة الوثقى وهي أشهر من نار على علم . ثم لوائح في اصلاح بلاد الدولة العلية . ورده على هانوتو ورأيه في محمد علي باشا هل أصلح مصر أو أفسدها . ثم كتبه ورسائله الى العلماء والفضلاء في سائر الاقطار

وفي نسبة هذه المنشآت الى الاستاذ المفتي رحمه الله مايغني عن الاسهاب في رفعة منزلتها وبيان فائدتها . وأنا لنلفت عشاق البلاغة ومحبي البحث في الاجتماع الاسلامي الى هذا الكنز الثمين الآن . وربما نقلنا فصولا منه في الاعداد التالية من المويد فيما بعد الآن

وقالت جريدة اللواء في

﴿ تاريخ الشيخ عبده ﴾

أهدانا الشيخ رشيد رضا تاريخ المرحوم الشيخ محمد عبده وهو في ثلاثة أجزاء جمع فيها كل ماقيل عن المرحوم من نثر وشعر تأبينا له بعد مماته ومفصل تاريخه وأعماله في حياته والاجزاء مبوبة تبويبا يسهل على القارئ تلاوتها

وثمن كل جزء عشرة قروش ويباع بمكتبة المنار بشارع درب الجماميز

(المنار) فليتأمل القارئ البصير في أقوال هذه الجرائد في الكتاب وفيمن وضع الكتاب لإحياء آثاره وذكره وليقابل بينها مستدلا بها على أذواق أصحابها ومحرريها وشعورهم بمجد أجدر هذه الجرائد بالثناء والاطراء على إمام المسلمين ومفخر المصريين هي (وحاشا الجريدة) أشدها تقصيرا وأبعدها عن الذوق وأوغلها في غمط الحق

فاذا كانت جريدة المؤيد استكبرت عن تسمية التاريخ باسمه (تاريخ الاستاذ الامام) وجعلت عنوان الكلام عنه (تقريظ المفتي) وهو عنوان لاوجه له فإن التقريظ هو مدح الحي بالحق أو الباطل — وإذا كانت لم تعبر عن الفقيد عند ذكره بلقبه المعروف عند أهل الخافقين (الاستاذ الامام) كما يعلم من الجزء الثالث من تاريخه — على ان المؤيد كان قد سبق الجرائد الى التعبير عنه في حال حياته بالامام يوم رده على هانوتو — واذا لم تذكر شيئا من مكانته وفضله واستحسان إحياء ذكره — فانها تعد مشمرة بالنسبة الى تقصير جريدة اللواء التي جاءت بسخف لايمكن أن يوجد مثله في غيرها حتى الجرائد التي توصف بالساقطة . وقد يعذر محررو المويد اذا اكتفوا من تقريظ التاريخ بمجمل مافيه ولم يلقبوا صاحبه بلقبه لعلمهم بأن سياسة صاحب الجريدة قد تقتضي ذلك والكتاب قد أهدي الى الجريدة يوم سفره (وإن لم يعذروا بذلك العنوان الذي نعتقد انه ما كان ليرضاه لو كان هنا لأنه يوصف بحسن الذوق في وضع العناوين) ولكن الكتاب أهدي الى جريدة اللواء وصاحبها موجود ومرت أيام كثيرة وهو بين يديه ولم يكتب عنه شيئا و بعد سفره كتب خلفاؤه ما رأيت وهم أعلم الناس بما يوافق سياسة ذلك الذي ينحني خاضعا امام غاريبالدي لأنه نبغ في وطنه (إيطاليا) وينكر فضل أعظم النابغين في وطن نفسه كالاستاذ الامام . أليس هذا مما يعد مصداقا لقول الاستاذ الامام في اللواء « انه مجموع نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها ضعيف » (أو خفيف)

فان قيل ان جريدة اللواء لم تقصر في تأبين الاستاذ الامام عند موته بل اعترفت بأنه نال أعلى مقام بين علماء الاسلام (راجع ص ٣٣ من ج ٣ من التاريخ) و بأن الاجنبي كان يخرج من حضرته وهو يحسد الاسلام عليه (ص٣٤) وانه مات بموته العلم المصري وانه فقيد البلاد فقيد العلم فقيد اليتامي فقيد البؤساء

فقيد الاسلام والمسلمين الخ (ص ٣٥) فما باله اليوم لا يزيد في التعبير عنه على كلمة (الشيخ عبده) والجواب عن هذا ان اللواء الآن في نوبة شديدة هاجها ترقي أشهر مريدي الاستاذ الامام في الحكومة – ترقي سعد باشا زغلول الى منصب الوزارة وأحمد فتحي باشا زغلول الى وكالة الوزارة وهنالك ميثاق مأخوذ على اللواء وعلى جرائد أخرى باسقاط حزب الشيخ محمد عبده ومقاومته رفعة ذكره (والله متم نوره) وهو هو السبب في جعل حسنات ناظر المعارف الجديد سيئات في تلك الجرائد والطعن فيه بعد ذلك الاطراء

وانظر بعد هذا الى قول عالم كبير روسي في جريدة روسية لتكمل لك العبرة وهو ما جاء في جريدة «وقت» التي تصدر في مدينة «اورنبورغ» بروسيا وهذه ترجمته

﴿ الشيخ محمد عبده ﴾

كان الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية مات سنة ١٣٢٣ في ٨ جمادى الاولى في الاسكندرية .

كان الشيخ محمد عبده من أشهر مشاهير الرجال في هذا العصر ولا شك ان شهرته تزيد ومكانته في النفوس تسمو على ممر الايام بما ترك من الآثار الحسنة واتم من الاعمال الجليلة .

لم يكتسب الشيخ محمد عبده هذه الشهرة الفائقة بكونه كان مفتي الديار المصرية . وانما نالها بكمالاته العلمية . والا فقد سبق قبله بمصر مفتون كثيرون وتنقلت وظيفة الافتاء بعده أيضاً الى عدة اشخاص ولم ينل أحد من هؤلاء واولئك من الشهرة عشر معشار ما ناله الشيخ محمد عبده .

والسبب الرئيسي في تبريز الشيخ محمد عبده على أقرانه هو استفادته من علم حكيم الشرق السيد جمال الدين الافغاني وكان بعد وفاته خليفته في العلم والاصلاح غير انه خالف استاذه في خطته السياسية ولا يخفى على البصير ان الرجل الحر المستقل في آرائه وأفكاره لا يعمل الا بما يعتقده صوابا وان كان فيه مخالفة اساتذته ومشايخه

قضى السيد جمال الدين الافغاني حياته بالتفكير في إصلاح الدين الاسلامي . والكلام بهذا الشأن أينما كان . غير انه لم يتيسر له الشروع فيه عملاً لقضاء

جل أوقاته بالسياسة والسياحة . الا ان ما لم يتيسر للافغاني تيسر للشيخ محمد عبده تيسراً كاملاً . وذلك انه بعد ما رجع الى مصر من منفاه في سورية بذل قصارى جهده في هذا المسلك (مسلك الاصلاح الديني) بالكتابة والتدريس في الأزهر .

كانت مجلة « المنار » التي يصدرها حضرة محمد رشيد أفندي رضا أنشئت بقصد نشر آراء الشيخ محمد عبده وترويج مقصده الديني (*) ولا تبرح بعد موته أيضا على هذه الخطة المستحسنة – وينشر التفسير المقتبس من دروسه – في « المنار » . لم يكن الشيخ المرحوم يلتزم في تفسيره القرآن – اتباع أحد من المفسرين ولا غيرهم وانما كان يعول فيه على بصيرته النيرة وفهمه الثاقب

ثبت الشيخ محمد عبده في خطته ثبات الاطواد ولم يأل جهدا في نشر مقصده في أرجاء البلاد الاسلامية حتى انه كان مشغولا بالتفكير في مقصده في مرضه الذي مات فيه وجادت قريحته قبيل موته بأبيات يتحسر فيها لحلول الأجل قبل تمام العمل .

كان الشيخ محمد عبده معاصرا لنا أيضا وقد استفدنا كثيرا من علمه وكنت عاشق علمه وفضله ولا أزال غير اني لسوء الحظ لم يتح لي التعرف به ومراسلته بسؤاله عما كنت استشكله من المسائل من بين علمية ودينية . وكان هذا الامر يجول في خاطري من زمن بعيد بيد اننا أضعنا الفرص بالاسف بالتمني والتسويف

كان أصدقائي في مصر يكتبون الي من حين الى آخر خبر عزم الاستاذ المرحوم على السياحة في البلاد الروسية . ولهذا كنت أمني نفسي برؤيته حين يجيء هذه البلاد ولكن :

(*) إننا عند ما عزمنا على الهجرة من سوريا الى مصر لاجل انشاء المنار لم نكن نعلم ان الاستاذ الامام يشتغل بالاصلاح الديني وهو لم يكن يقرأ في ذلك العهد دروسا في الأزهر على أنه كان يعمل في اصلاح ادارته ومع ذلك كنا نعتقد انه أكبر زعيم وأعظم مصلح بعد السيد جمال الدين وكنا نرجو أن يكون أعظم من يقدر خدمتنا للدين قدرها ويسعدنا عليها بعلمه وارشاده وكذلك كان

ما كل مايتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لاتشتهي السفن

وقد وافانا نعيه حينما كنا ننتظر قدومه

وقد ألف مريده وتلميذه وخليفته في مذهبه ومسلكه الشيخ محمد رشيد افندي رضا تاريخا في ثلاثة أجزاء للاستاذ المشار اليه . وقد ازدانت مكتبتنا بورود الجزء الثالث المحتوي على ٤٢٨ صفحة من ذلك التاريخ

وفي هذا الجزء كثير من التعازي والمراثي التي بعثت من مسلمي الاقطار المختلفة . وليس فيه شيء بعث بقصد التعزية من مسلمي روسيا سوى ما كان كتب كاتب هذه السطور الى حضرة صاحب المنار من كتاب وجيز بقصد تعريف حامل ذلك الرقيم لحضرته

ولما لم أظفر في الكتاب بغير تلك السطور القليلة من تعازي مسلمي روسيا وقفت خجلا في أول الامر ثم لم ألبث ان سررت لوجود تعزية منا أيضاً بين التعازي الكثيرة الواردة من مسلمي تونس والجزائر والهند وايران

لو تنبهت لهذا الامر في حينه لكتبت أبنة بعناية واهتمام مايطلق عليه اسم التعزية . والآن أقرع سن الندم ولات حين مندم

اذا كنت أناقصرت في كتابة هذه التعزية لاشتغالي بالنظر في «الخصومات العائلية» (كان الكاتب حينئذ قاضيا في المحكمة الشرعية) فما بال الشيخ نجيب التونتاري الذي حصر كل حياته على المطالعة والعلم - لم يكتب شيئا بهذا الصدد بل وما عذر الشيخ عالمجان البارودي الذي لديه جم غفير من تلاميذه المجيدين الكتابة بالعربية في تفريطه في هذا الواجب الانساني!

رضاء الدين فخر الدين

﴿ مطبوعات البكري ﴾

طبع الشيخ محمد توفيق البكري شيخ مشايخ الطرق ونقيب الاشراف هذه الكتب

(كتاب التعليم والارشاد) كتاب جديد «جمعه وصنفه بعض رجال الصوفية» ولم يذكر اسمه عليه بأمر البكري ودلالته ومعظمه مأخوذ من كتاب الاحياء وفيه

عدة فصول مأخوذة من «المنار» بدون عزو اليه كما ظهر لنا ذلك من تقليب كثير من أوراقه في بضع دقائق فمن ذلك فصل لنا في اسرار الزكاة وفوائدها وهذا قد عزاه الى أحد الفضلاء وفصل في اسرار الصوم وفوائده لم يعزه الى أحد وفصل في مضار تربية الأولاد والتلاميذ بالقسوة لم يعزه الى أحد . وكل ذلك من المجلد الثاني من المنار وفصل في الحكومات الاستبدادية وهو مقالتان للسيد جمال الدين نشرناهما في المجلد الثالث ومقالة فلسفة الصناعة التي اقتبسناها في المجلد التاسع من منشآت الاستاذ الامام . فكيف جاز لرجال الصوفية ان يستحلوا السرقة والتدليس في كتاب الارشاد الذي وضع لهداية أهل الطرق التابعين لهم

أما الكتاب فيرجى أن يفيد من يوزع عليهم من مشايخ الطريق الذين يقل فيهم من يقرأ في غير كتب الخرافات كما يفيد غيرهم من القارئين وهو أفضل عمل سعى اليه البكري وكان قد سبق لي معه الحديث فيه منذ سنين واتفقنا على أن أختصر الاحياء وأزيد عليه من الفوائد مايحتاج اليه في هذا العصر وهو يطبع المختصر ويوزعه على أهل الطرق ليكون عمدتهم في الارشاد . ثم بداله فعهد بذلك الى جامع كتاب التعليم والارشاد لينتحل كلامنا وكلام غيرنا انتحالا . وقد سبقه الى هذه التسمية الشيخ محمد بدر النعساني فانه ألف كتابا سماه بهذا الاسم وطبعه في السنة الماضية وهذا مما ينتقد بما يقع فيه من الاشتباه

(صهاريج اللؤلؤ) للشيخ توفيق البكري نحو عشر نبذ أدبية منثورة ومنظومة معظمها مأخوذ من نثر المتقدمين ونظمهم عهد الى الشيخ أحمد بن أمين الشنقيطي والشيخ أبي بكر محمد لطفي المصري بشرحها فشرحاها شرحا مطولا تزيد صفحاته على عدد أيام السنة وسنعود الى الكلام عليه في فرصة أخرى

(كتاب بيت الصديق) وضع الشيخ محمد توفيق هذا الكتاب لترجمة نفسه وترجمة آبائه وأجداده الذين ينتسب اليهم وصفحاته تزيد على أربع مائة

(كتاب بيت السادات الوفائية) وهو زهاء مئة صفحة يذكر فيه نسب الوفائية وتراجمهم

(المستقبل للاسلام) هي الرسالة التي نشرناها في المجلد الخامس وطبعناها على حدة

البدع والخرافات
والتقاليد والعادات

بدعة غريبة في مصر

يقولون ان مصر بلاد العجائب وأي العجائب أغرب مما يحدث في مصر

يقوم شيخ عالم كالشيخ حسن علي الدمياطي ينكر بعض البدع والخرافات التي فشت في المسلمين فيقيم عليه النكير العلماء وأنصارهم من العوام ويعاقب بمنع رزقه الذي يستحقه شرعاً من الأوقاف ومنعه من تعليم المسلمين وارشادهم سنة كاملة

ويقوم شيخ آخر كالشيخ عبد الرحمن عليش فيبتدع بدعة جديدة في الاسلام هي من أغرب البدع وأنكرها فلا يلقى من العلماء انكارا ولا من الأمة نفارا وما أظن أن أحدا سبق هذا الشيخ الى وقف المساجد على الاموات من غير المسلمين لاجل الصلاة على أرواحهم وكيف وان وقفها على أموات المسلمين أنفسهم من البدع التي لا يعرفها كتاب الاسلام ولا تقبلها سنة نبيه عليه الصلاة والسلام

اسم الشيخ عليش الكبير رحمه الله مشهور في مصر وفيما جاورها من البلاد بما كان عليه من التحمس والتشدد في الدين ، على كونه من أشهر علماء الأزهر المعمرين ، وقد بلغ من تحمسه أنه لما بلغه ان السيد محمدا السنوسي (رحمه الله تعالى) يقول بالاجتهاد أخذ حربة وقصد اليه ليطعنه بها لما كان بمصر . وانه لما وشى اليه أحد أولاده بالشيخ محمد عبده (رحمه الله) عند ما كان يقرأ العقائد النسفية (وهو مجاور بالازهر) قائلا انه رجح مذهب المعتزلة على مذهب الاشعري ثار عليه وعلى أستاذه الأفغاني وكان طول حياته حربا لحكيم الاسلام والاستاذ الامام والسيد السنوسي وان هؤلاء الثلاثة لأعظم مسلمي هذا العصر أثرا في الاسلام

ما أبعد الفرق بين الشيخ عليش في تحمسه الديني وغيرته على الاسلام في مذاهبه وتقاليده وبين أولاده وأحفاده الذين لم يرثوا منه علما ولا خلقا فهم أول من مثل الاسلام أمام الافرنج في معرض الهزء والسخرية اذ جمعوا لهم بعض الزعانف المنتسبين

الى الطريق وجعلوا يرقصون ويذكرون ليصورهم الافرنج في تلك الحالة ويثبتون صورهم في الكتب مبينين ان رقصهم على تلك الصفة الشنيعة من عبادات الاسلام

ثم بلغنا في العام الماضي ان الشيخ عبد الرحمن عليش قد وقف قطعة أرض بحارة الجوار القريبة من الازهر وبنى فيها مسجدا باسم همبرتو الأول ملك ايطاليا لتقام الصلوات فيه عن روح الملك المتوفى ويكون تذكارا له وسلمه لحكومة ايطاليا . وهي بدعة غريبة لا يعرف لها نظير في الاسلام

وفي تلك السنة رفع الشيخ محمد عبد ربه قضية على الشيخ عبد الرحمن عليش بأن له حقا في الارض التي بني فيها المسجد فهي أرض مغصوبة فكان مما قدمه المحامي عن الشيخ عبد الرحمن عليش الى المحكمة من الاوراق التي يسمونها المستندات ما يأتي بنص الحافظة التي حفظها له المحامي وغلطها اللغوي :

عدد

١ ترجمة موقع عليها بامضاء مترجم أول الوكالة السياسية الايتالية بمصر محمد بيك علي علوى مؤرخه في ١٦ مارس سنة ٩٠٦ تفيد ان الشيخ عبدالرحمن عليش المدعى عليه بناء مسجد وأعطاه للحكومة الايتالية

١ ورقه باللغة الاجنبية ترجمة المشروح أعلاه

١ خطاب باسم الشيخ عبد الرحمن عليش مؤرخ في ٢١ فبراير سنة ٩٠٦ يفيد تشكر قنصل ايتالية بالنيابة عن الوزارة الخارجية الايتالية لحضرة الشيخ عبد الرحمن عليش نظير تبرعه بقطعة أرض من أملاكه للحكومة الايتالية ليقام عليها مسجد تقام فيه الصلوات الخمس على روح الملك

٣

فقط ثلاثة أوراق لاغير تقدموا لمحكمة السيده زينب بحافظه بامضا محمد زكي عبد الحميد المحامي بمصر ٢٢ — ٣ سنة ٩٠٦

ترجمه نمره ١ حافظه

الوكاله السياسيه الايتاليه تعترف ان الشيخ عبد الرحمن عليش الكبير بنافي

حارة الجوار بخط الأزهر جامع باسم جلالة الملك همبرتو الاول وتذكارا له والجامع المذكور أعطاه للحكومة الايطاليه هذه الترجمه طبق الأصل ؟

١٦ — ٢ سنة ٨٩٩ قنصل جنرال دوله مترجم السياسة بمصر
ايطاليه والوكيل السياسي محمد على علوى
بمصر المستر سلفاخس
راحى
ختم القنصليه

(المنار) ويلي هذا صورة كتاب شكر من عميد دولة ايطاليا بمصر للشيخ عبد الرحمن عليش . وكتبت جريدة الاخبار في هذا الشهر شيئاً في هذه المسألة علم منه أن حكومة إيطاليا مغبوطة بموالاة الشيخ عبد الرحمن عليش لها وموادته اياها وانهم أخذوا عنه صورة شمسية عرضوها في بعض جرائدهم . وعظمت شأنه جريدة الاخبار تبعاً لهم فجعلته من العلماء الذين لهم الشأن والنفوذ وما هو منهم في شيء ولا نفوذ له بل لا يكاد يعرف

وقد نمي الينا ان ايطاليا تستعين بموالاة هذا الشيخ لها و بما تعظم من شأنه بالباطل على تأييد نفوذها فيمن استولت عليهم من المسلمين وفيمن تطمع بالاستيلاء عليهم كاهل طرابلس الغرب وأهل اليمن فان لها يدا خفية في فتنة اليمن ولها طمع في تلك الولاية تغذيه وتنميه في نفسها انكلترا فيما يقال . ولكن أجهل المسلمين لا يعتد بشيخ يقف مسجدا لتصلى فيه الصلوات الخمس على روح ميت غير مسلم بل ولا ميت مسلم بل ولا نبي من الانبياء فان الصلوات الخمس عند المسلمين لا تكون الا خالصة لله وحده وأما الصلاة على الأنبياء التي يخصون بها الانبياء فهي الدعاء بمثل: اللهم صل على محمد : أو : صلى الله عليه وسلم : عند ذكره . فهل يعتد به أهل اليمن أو طرابلس وفيهم العلماء والعارفون ؟؟

ليس ما فعله عبد الرحمن عليش من التساهل الديني الذي يجعلونه التعصب الذميم بل هو من تساهل الجهل والتهاون والعبث بالدين . وقد يفهم جهلة العوام ولو بعد حين ان نسبة المسجد الى (همبرتو) كنسبة غيره الى بعض الاولياء كالدسوقي والبدوي والحنفي ولا يبعد أن يبنى له فيه قبر للملك يزار و يضمه اليه عباد القبور

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر جمادى الثانية سنة ١٣٢٥ — آخره السبت ١٠ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٧

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٨١ : ٧٥) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨٢ : ٧٦) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٣ : ٧٧) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ *

قال الامام الرازي عند تفسير ﴿ واذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ الآية : اعلم ان المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب

مما يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قطعا لعذرهم واظهارا لعنادهم ومن جملتها ماذكره الله تعالى في هذه الآية وهو انه تعالى أخذ الميثاق من الانبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه وأخبر انهم قبلوا ذلك وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين فهذا هو المقصود من الآية . وقال الاستاذ الامام هذا رجوع الى أصل الموضوع الذي افتتحت السورة بتقريره وهو التنزيل وكون الدين عند الله واحدا وهو ما كان عليه ابراهيم وسائر النبيين وكون الله تعالى مختارا فيما يختص به بعض خلقه من مزية أو نبوة . وقد سيقت تلك المسائل لاثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وازالة شبهات من أنكر من أهل الكتاب بعثة نبي من العرب واستتبع ذلك محاجتهم وبيان خطأهم في ذلك وفي غيره من أمر دينهم . وهذه المسألة التي تقررها هذه الآية من الحجج الموجهة اليهم لدحض مزاعمهم وهي أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع النبيين وعلى أتباعهم بالتبع لهم بأن مايعطونه من كتاب وحكمة وان عظم أمره فالواجب عليهم أن يؤمنوا بمن يرسل من بعدهم مصدقا لما معهم منه وان ينصروه . أي فالآية متصلة بماقبلها بالنظر الى أصل الموضوع

أما أخذ الميثاق من المرء وهو العهد الموثق المؤكد فهو عبارة عن كون المأخوذ منه وهو المعاهد (بكسر الهاء) يلتزم للآخذ وهو المعاهد (بفتح الهاء) أن يفعل كذا مؤكدا ذلك باليمين أو بلفظ من المعاهدة أو المواثقة . وفي قوله «ميثاق النبيين» وجهان أحدهما ان معناه الميثاق من النبيين فالنبيون هم المأخوذ عليهم . وعلى هذا يكون حكمه ساريا على أتباعهم بالاولى كما قال الاستاذ الامام . وثانيهما أن إضافة ميثاق الى النبيين على انهم أصحابه فهو مضاف الى الموثق لا الى الموثق عليه كما تقول عهد الله وميثاق الله . وحينئذ يكون المأخوذ عليه مسكوتا عنه للعلم به وتقديره : واذ أخذ الله ميثاق النبيين على أممهم : أو الخطاب لأهل الكتاب والمعنى واذ أخذ الله عليكم ميثاق النبيين الذين أرسلوا الى قومكم ، أو التقدير ميثاق أمم النبيين . وكل من القولين مروي عن السلف وممن قال بالثاني من آل البيت جعفر الصادق قال هو على حد (٦٥ : ١ يا أيها النبي اذا طلقتم النساء) فالخطاب فيه للنبي والمراد أمته عامة

والمقصود من الوجهين أو الطريقين في تفسير العبارة واحد وهو أن الواجب على الأمم التي أوتيت الكتاب اذا جاءهم رسول مصدق لما معهم ان يؤمنوا به وينصروه وجب ذلك عليهم بميثاق الله على أنبيائهم أو ميثاقه عليهم أنفسهم على لسان أنبيائهم

واللام في قوله ﴿ لما آتيتكم ﴾ لام التوطئة لأخذ الميثاق قال الزمخشري لأن في معنى الاستحلاف أي ان الميثاق بمعنى القسم فأخذه بمعنى الاستحلاف . و«ما» التي دخلت عليها اللام هي المتضمنة لمعنى الشرط والمعنى مهما آتيتكم ﴿ من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ واللام في «لتؤمنن» لام جواب القسم وجعلوا «لتؤمنن» سادًا مسد جواب القسم وجواب الشرط جميعا . و يجوز ان تكون ما موصولة والعائد حينئذ محذوف أي: لما آتيتكموه . وقرأ حمزة «لما» بكسر اللام وهي لام التعليل وما على هذه موصولة حتما والمعنى انه أخذ ميثاقهم لاجل ما ذكر . وقرأ نافع «آتيناكم» بالاسناد الى ضمير الجمع تفخيما

وقوله ﴿ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصره ﴾ قال فيه بعض المفسرين ان لفظ رسول فيه على اطلاقه وقال بعضهم ان المراد به هنا محمد صلى الله عليه وسلم . ويرد على هذا القول اشكال بناء على أن الميثاق قد أخذ على النبيين أنفسهم وهو أن هذا الرسول ماجاء في عصر أحد منهم وكان الله تعالى يعلم ذلك عند أخذ الميثاق عليهم لأن علمه ازلي أبدي وأجيب عنه بأنه ميثاق مبني على الفرض أي اذا فرض ان جاءكم وجب عليكم الايمان به ونصره

أقول و يكون المراد منه بيان مرتبته صلى الله عليه وسلم مع النبيين اذا فرض أن وجد في عصرهم وهو انه يكون الرئيس المتبوع لهم فما قولك اذاً في أتباعهم لاسيما بعد زمنهم، وإنما كان له صلى الله عليه وسلم هذا الاختصاص لأن الله تعالى قضى في سابق علمه بأن يكون هو خاتم النبيين الذي يجيء بالهدي الاخير العام الذي لايحتاج البشر بعده الى شيء معه سوى استعمال عقولهم واستقلال أفكارهم وان يكون ماقبله من الشرائع التي يجيئون بها هداية موقوتة خاصة بقوم دون قوم . واحتج القائلون بأن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم بحجج منها حديث «والله لو كان

موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعني » رواه أبو يعلى من حديث جابر

وأما المعنى على الوجه الأول مع القول بأن الميثاق أخذ على الانبياء فهو أنهم لما كان القصد من ارسالهم واحدا وجب ان يكونوا متكافلين متناصرين اذا جاء واحد منهم في زمن آخر آمن به ونصره بما استطاع ولا يلزم من ذلك أن يكون متبعا لشريعته كما آمن لوط لابراهيم وأيد دعوته اذ كان في زمنه

وكل من القولين حجة على الذين يجعلون الدين سبباً للخلاف والنزاع والعداوة والبغضاء كما فعل أهل الكتاب في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والكيد له فكان يدعوهم الى كلمة سواء فلا يلاقي منهم الا الخلاف والشحناء

وسئل الاستاذ الامام في الدرس عن ايمان نبي بنبي آخر يبعث في عصره هل يستلزم ذلك نسخ الثاني لشريعة الأول فقال لا يستلزم ذلك ولا ينافيه وانما المقصود تصديق دعوته ونصره على من يؤذيه ويناوئه فان تضمنت شريعة الثاني نسخ شيء مما جاء به الاول وجب التسليم له والا صدقه بالاصول التي هي واحدة في كل دين ويؤدي كل واحد مع أمته أعمال عبادتها التفصيلية ولا يعد ذلك اختلافا وتفرقا في الدين فان مثله يأتي في الشريعة الواحدة كأن يؤدي شخصان كفارة اليمين أو غيرها بغير ما يكفر به الآخر هذا بالصيام وذاك باطعام المساكين وسبب ذلك اختلاف حال الشخصين فأدى كل واحد ماسهل عليه :

أقول ولنا أن نضرب للمسألة مثل عاملين يرسلها الملك في عصر واحد الى ولايتين مستقلتين متجاورتين فلاشك أنه يجب على كل منهما تصديق الآخر ونصره عند الحاجة وأنه يجب أن يكونا متفقين في الاصول العامة للسلطنة أو ما يعبر عنه أهل هذا العصر بالقانون الاساسي وما يناسب ذلك وقد يكون بين الولايتين اختلاف في طباع الاهالي واستعدادهم وحال البلاد يقتضي اختلاف الاحكام الجزئية كأن تكون الضرائب قليلة في احداهما كثيرة في الأخرى وكل من العاملين يؤمن للآخر بذلك وان لم يعمل بعمله . وكذلك يؤمن كل من النبيين المرسلين بكل ماجاء به الآخر وان وافقه في الاصول دون جميع الفروع ولا يعقل ان ينسخ ماجاء به رسول على لسان رسول آخر لقوم آخرين . واما اذا بعث الرسولان في أمة

واحدة فانهما يكونان متفقين في كل شيء ولا تنس موسى وهارون عليهما السلام وأما مجيء النبي بعد النبي فيجوز أن ينسخ معظم فروع شرعه . وبهذا يتضح لك معنى تصديق نبينا بالكتب السابقة ولمن جاؤا بها من الرسل وانه لا يقتضي أن يكون شرعه التفصيلي موافقا لشرائعهم ولا أن يقر أقوامهم على ما درجوا عليه

﴿ قال ﴾ تعالى لمن أخذ عليهم هذا الميثاق ﴿ أأقررتم وأخذتم ﴾ أي قبلتم ﴿ على ذلكم ﴾ الذي ذكر من الايمان بالرسول المصدق لما معكم ونصره ﴿ إصري ﴾ أي عهدي ﴿ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض وأنا معكم شاهد عليكم جميعاً لا يغيب عن علمي شيء . وقيل معناه فليشهد كل واحد على نفسه كما قال (٧ : ١٧٢ وأشهدهم على أنفسهم) وقيل معناه فبينوا هذا الميثاق للناس وقيل معناه فاعلموا ذلك علما يقينا كالعلم بالمشاهد بالبصر . وقال الاستاذ ان هذا الامر بالشهادة دليل على ترجيح قول جعفر الصادق ان العهد مأخوذ من الأنبياء على أممهم والمعنى ان الله تعالى أمر الأنبياء بأن يشهدوا على أممهم بذلك وهو سبحانه معهم شهيد . وقال أيضا ان العبارة ليست نصا في أن هذه المحاورة وقعت وهذه الأقوال قيلت والمختار عنده ان المراد بها تقرير المعنى وتوكيده على طريق التمثيل

أقول ومن مباحث اللفظ في الآية ان الاقرار من قر الشيء اذا ثبت ولزم قرارة مكانه زيدت عليه همزة التعدية فقيل أقر الشيء اذا أثبته وأقر به اذا نطق بما يدل على ثبوته . والأخذ التناول وفسرناه هنا بالقبول وهو غايته لأن آخذ الشيء يقبله وهو مستعمل كذلك في التنزيل قال تعالى (٢ : ٤٦ واتقوا يوما لاتجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) ثم قال (٢ : ١٢٣ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل) فقال مرة انه لا يؤخذ منها عدل ومرة لا يقبل منها عدل والمعنى واحد والاصر في الاصل عقد الشيء وحبسه بقهره والمأصر محبس السفينة وفسر الاصر في (٧ : ١٥٧ ويضع عنهم إصرهم) بما يحبسهم عن الخير ويقعدهم عن عمل البر . وعلى هذا قال الراغب في الآية التي نفسرها ان الاصر هو العهد المؤكد الذي يثبط ناقضه عن الثواب

والجبرات : والأظهر عندي أن يقول هو العهد الذي يحبس صاحبه ويمنعه من التهاون فيما التزمه وعاهد عليه . وتقدم تفسير الشهادة في آية ١٦ شهد الله الخ

﴿ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي ان من مقتضى ذلك الميثاق ان دين الله واحد وأن دعاته متفقون متحدون فمن تولى بعد الميثاق على ذلك عن هذه الوحدة واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ولم يؤمن بالنبي المتأخر المصدق لمن تقدمه ولم ينصره كأولئك الذين كانوا يجحدون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤذونه فأولئك هم الفاسقون أي الخارجون من ميثاق الله الناقضون لعهده وليسوا من دينه الحق فى شيء . أقول وهذا يؤكد ان الميثاق مأخوذ على الامم

ولما بين سبحانه انه دينه واحد وان رسله متفقون فيه قال في منكري نبوة محمد ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ قرأ حفص عن عاصم « يبغون » بالياء على الغيبة وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب . وهمزة الاستفهام الانكاري داخلة على فعل محذوف والفاء الداخلة على « غير » عاطفة للجملة بعده على ذلك المحذوف الذى دل عليه العطف وعينه الكلام السابق والمعنى : أيتولون عن الايمان بعد هذا البيان فيبغون غير دين الله الذى هو الاسلام ﴿ وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها ﴾ أي والحال ان جميع من في السموات والأرض من العقلاء قد خضعوا له تعالى وانقادوا لأمره طائعين وكارهين . وقد اختلفوا في بيان اسلام الطوع والكره فذهب بعضهم الى أن الاسلام هنا متعلق بالتكوين والايجاد والاعدام لا بالتكليف أي أنه تعالى هو المتصرف فيهم وهم الخاضعون المنقادون لتصرفه . وقال الرازي ان هذا هو الأصح عنده ولم يذكر فيه معني الطوع والكره وكانه يعني ان مايحل بالعقلاء من تصاريف الأقدار منه مايصحبه اختيارهم عن رضى واغتباط فيكونون خاضعين له طوعا ومنه ماليس كذلك فيحل بهم وهم له كارهون (١٧:٤٤ وان من شيء الا يسبح بحمده)

ويقابل هذا أن الاسلام متعلق بالتكليف والدين فقط وصاحب هذا القول يفسر اسلام الكره بما يكون عند الشدائد الملجئة اليه كما قال تعالى (٣١ : ٣٢ واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم

مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) وقال (٢٩ : ٦٥ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون) . ومنهم من قال ان إسلام الكره مايكون عند رؤية الآيات كما وقع لقوم موسى وقيل ما يكون عند الخوف من السيف وقيل ما يكون عند الموت اذ يشرف الكافر على الآخرة ولكنه إسلام لا ينفعه

وهناك مذهب ثالث وهو أن هذا الاسلام أعم من اسلام التكليف واسلام التكوين فهو يشمل مايكون بالفطرة ومايكون بالاختيار وفي هذا المذهب وجوه . قال الحسن الطوع لأهل السموات خاصة واما أهل الأرض فبعضهم بالطوع وبعضهم بالكره . وقيل ان كل الخلق منقادون لالهيته طوعا بدليل قوله (٣١:٢٥ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ومنقادون لتكاليفه وإيجاده للآلام كرها . وقيل المسلمون الصالحون ينقادون لله طوعا فيما يتعلق بالدين وينقادون له كرها فيما يخالف طباعهم من المرض والفقر والموت وأشباه ذلك واما الكافرون فهم ينقادون لله كرها على كل حال في التكليف والتكوين . وهذه وجوه ضعيفة كما ترى

وقال الاستاذ الامام ان الذين أسلموا طوعاً هم الذين لهم اختيار في الاسلام وأما الذين أسلموا كرهاً فهم الذين فطروا على معرفة الله تعالى كالأنبياء والملائكة وان كان لفظ الكره يطلق في الغالب على ما يخالف الاختيار ويقهره فان الله تعالى قد استعمله في غير ذلك كقوله بعد ذكر خلق السماء في الكلام على التكوين (٤١ : ١١ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) فأطلق الكره وأراد به لازمه وهو عدم الاختيار أقول وهذا سهو فيما يظهر لي وكنت في أيام حياته أراجعه في مثله قبل الكتابة اوالطبع وبيانه ان تتمة الآية (قالتا أتينا طائعين) فالظاهر ان ما يكون منهم من الانقياد لله تعالى بمقتضى الفطرة من قسم اسلام الطوع واما ما يقع منهم من التكليف بالاختيار فمنه ما يفعل طوعاً وما يفعل كرهاً وكذا ما يقع بهم منه مايكونون كارهين له ومنه ما يكونون راضين به فاذا كان مراداً في الآية فالطوع فيه بمعنى الرضي . وصفوة الكلام ان الدين الحق هو اسلام الوجه لله

تعالى والاخلاص في الخضوع له وان الانبياء كلهم كانوا على ذلك وقد أخذ ميثاقهم بذلك على أممهم ولكنهم نقضوه ، فجاءهم النبي الموعود به بدعوهم اليه فكذبوه، فهم بذلك قد ابتغوا غير دينه الذي زعموه، ﴿واليه يرجعون﴾ فيجزيهم بما كانوا يعملون، قرأ حفص «يرجعون» بالياء كما قرأ «يبغون» وكذلك أبو عمرو على انه قرأ « تبغون » بالتاء كالجمهور فهو قد جعل الخطاب أولا لليهود وجعل الكلام في المرجع عاما وقرأ الباقون « ترجعون » وفاقا لقراءتهم « تبغون »

(٨٤ : ٧٨) قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٥ : ٧٩) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

كما ختم تعالى آية دعوة أهل الكتاب الى الاسلام بقوله (٦٤ فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) جاء هنا بعد ذكر توليهم عن الاسلام يأمرنا بالاقرار به فقال مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل آمنا بالله ﴾ أي آمنت أنا ومن معي بوجود الله ووحدانيته وكماله ﴿ وما أنزل علينا ﴾ من كتابه بالتفصيل وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة البقرة (٢ : ١٣٦ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا) الخ وقد عدي الانزال هناك بالى الدالة على الغاية والانتهاء وهنا بعلى التي للاستعلاء وكلا المعنيين صحيح كما قال في الكشاف راميا بالتعسف من فرق بين التعديتين باختلاف المأمور بالقول في الآيتين اذ هو هناك المؤمنون وههنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن التعدية بالى وردت في خطاب النبي والتعدية بعلى وردت في خطاب غيره في آيات أخرى وقدم الايمان بالله على الايمان بانزال الوحي لأنه الاصل الأول المقصود بالذات والوحي فرع له اذ هو وحيه تعالى الى رسله

﴿ وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ﴾ أي وآمنا بما أنزل على هؤلاء بالاجمال أي صدقنا بأن الله تعالى أنزل عليهم وحيا لهداية أقوامهم وانه موافق لما أنزل علينا في أصله وجوهره والقصد منه كما أخبرنا

الله تعالى في مثل قوله (١٤:٨٧ قد أفلح من تزكى) الخ السورة وقوله (٥٣:٣٦ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم) الخ وقوله (٤ : ١٦٣ انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) الخ واما عين ماأوحي اليهم فلم يبق منه في أيدي الامم شيء يعتمد على نقله . ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ من التوراة للأول والانجيل للثاني ﴿و﴾ ما أوتي ﴿ النبيون من ربهم ﴾ كداود وسليمان وايوب وغيرهم ممن لم يقص الله علينا خبرهم فان منهم من قصه علينا ومنهم من لم يقصصه فاذا ثبت عندنا أن نبيا ظهر في الهند أو الصين قبل ختم النبوة نؤمن به . وارجع الى آية البقرة في استبانة الفرق بين التعبير بالانزال والتعبير بالانبياء قال الاستاذ الامام وقد قدم الايمان بما أنزل علينا على الايمان بما أنزل على من قبلنا مع كونه أنزل قبله في الزمن لان ما أنزل علينا هو الاصل في معرفة ماأنزل عليهم والمثبت له ولا طريق لاثباته سواه لانقطاع سند تلك وفقد بعضها ووقوع الشك فيما بقي منها فما أثبته كتابنا من نبوة كثير من الانبياء نؤمن به اجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل وما أثبته لهم من الكتب كذلك ونؤمن بأن أصول ماجاؤا به واحدة وهي الايمان بالله واسلام القلوب له والايمان بالآخرة والعمل الصالح مع الاخلاص . فكما ان الايمان بالله أصل للايمان بما أنزل علينا كذلك ماأنزل علينا أصل للايمان بما أنزل عليهم فقدم عليه . ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كما يفرق أهل الكتاب فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا نفرق بينهم في الدين فنقول بعضهم على حق وبعضهم على باطل بل نقول انهم كانوا جميعا على الحق لاخلاف بينهم في الاصول والمقاصد فمثلهم كمثل الولاة الصادقين يرسلهم الملك العادل متعاقبين لعمارة الولاية واصلاح أهلها ومايكون من التغيير في بعض قوانينهم انما يكون بحسب حال الولاية وأهلها والمقصد واحد وهو العمران والاصلاح ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ منقادون بالرضى والاخلاص منصرفين عن أهوائنا وشهواتنا في الدين لانتخذه جنسية لأجل حظوظ الدنيا وانما نبتغي به التقرب اليه تعالى باصلاح النفوس واخلاص القلوب والعروج بالارواح، الى سماء

الكرامة والفلاح ، افتتح الآية بذكر الايمان وختمها بالاسلام الذي هو في كاله ثمرته وغايته وهذا هو الاسلام الديني الذي كان عليه جميع الانبياء ولذلك قفى عليه بقوله

﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ لأن الدين اذا لم يكن هو الاسلام الذي بينا معناه آنفًا فما هو الا رسوم وتقاليد يتخذها القوم رابطة للجنسية وآلة للعصبية، ووسيلة للمنافع الدنيوية، وذلك مما يزيد القلوب فسادا ،والارواح اظلاما ، فلا يزيد الناس في الدنيا الا عدوانا ، وفي الآخرة الا خسرانا ، ولذلك قال ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ أي انه يكون هنالك خاسرا للنعيم المقيم، في جوار الرب الرحيم ، لأنه خسر نفسه اذ لم يزكها بالاسلام لله ، وإخلاص السريرة له جل علاه ، (٧ : ٥٣ هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالبينات فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) في الدين ويزعمون انه مناط النجاة ووسيلة الفوز والسعادة اذ يهوون أن يسعدوا بغيرهم من الانبياء والأولياء ، وان خسروا أنفسهم بسلوك سبل الشقاء، (٣٩ : ١٤ قل الله أعبد مخلصا له ديني ١٥ فاعبدوا ما شئتم من دونه قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين) ولم أر أحدا من المفسرين نبه في هذا المقام على ان الاصل في خسران الآخرة هو خسران النفس ولا نبه اليه الاستاذ الامام بل لم يقل في هذه الآية شيئًا لظهور معناها

وقد أورد الامام الرازي ههنا اشكالا واجاب عنه قال : واعلم ان ظاهر هذه الآية يدل على ان الايمان هو الاسلام اذ لو كان الايمان غير الاسلام لوجب ان لا يكون الايمان مقبولا لقوله تعالى « ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » الا ان ظاهر قوله تعالى (٤٩ : ١٤ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) يقتضي كون الاسلام مغايرا للايمان ووجه التوفيق بينهما ان تحمل الآية الأولى على العرف الشرعي والآية الثانية على الوضع اللغوي : اه كلامه وهذا الجواب

مبهم . وقد أراد بالآية الأولى التي نفسرها وبالثانية (قالت الأعراب) والمعنى أن أولئك الاعراب الذين نزلت فيهم الآية لم يسلموا الاسلام الشرعي وانما انقادوا لأهله في الظاهر وهو يقتضي اتحاد الايمان والاسلام وقال في تفسير هذه الثانية من سورة الحجرات ما نصه :

(المسألة الرابعة) المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة فكيف يفهم ذلك مع هذا ؟ نقول بين العام والخاص فرق فالايمان لا يحصل الا بالقلب وقد يحصل باللسان والاسلام أعم لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ، ولا يكون أمرا آخر غيره . مثاله الحيوان أعم من الانسان لكن الحيوان في صورة الانسان ليس أمرا ينفك عن الاسلام ولا يجوز ان يكون ذلك الحيوان حيوانا ولا يكون انسانا فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود فكذلك المؤمن والمسلم وسنبين ذلك في تفسير قوله تعالى (٥١ : ٣٥ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ٣٦ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)

وقال في تفسير الآية الثانية من هاتين ما نصه : « والدلالة على ان المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة والحق ان المسلم أعم من المؤمن واطلاق العام على الخاص لا مانع منه فاذا سمي المؤمن مسلما لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم الا بيتا من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين وهذا كما لو قال قائل لغيره من في البيت من الناس ؟ فيقول له ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد : فيكون مخبرا له بخلو البيت عن كل انسان غير زيد » اه

أقول وأنت ترى ان في كلامه اضطرابا وسببه تزاحم الاصطلاحات الكلامية والاطلاقات اللغوية في ذهنه . والصواب أن مفهومي الاسلام والايمان في اللغة متباينان فالاسلام الدخول في السلم وهو يطلق على ضد الحرب وعلى السلامة والخلوص وعلى الانقياد كما تقدم في أوائل السورة والايمان التصديق ويكون بالقلب كأن يقول امرؤ قولا فتعتقد صدقه ويكون باللسان كأن تقول له صدقت . وقد أطلق كل من الايمان والاسلام في القرآن على إيمان خاص جعل هو المنجي

عند الله تعالى وإسلام خاص هو دينه المقبول عنده اما الأول فهو التصديق اليقيني بوحدانية الله وكماله وبالوحي والرسل وباليوم الآخر بحيث يكون له السلطان على الارادة والوجدان فيترتب عليه العمل الصالح ولذلك قال بعد نفي دخول الايمان في قلوب أولئك الأعراب (٤٩ : ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) واما الثاني فهو الاخلاص له تعالى في التوحيد والعبادة والانقياد لما هدى اليه على ألسنة رسله . وهو بهذا المعنى دين جميع النبيين الذين أرسلهم لهداية عباده . فالايمان والاسلام على هذا يتواردان على حقيقة واحدة يتناولها كل واحد منهما باعتبار ولذلك عدا شيئا واحدا في الآيات التي ذكرت آنفا وفي قوله بعد ماذكر عن ايمان الاعراب واسلامهم في (٤٩ : ١٥) ثم بيان حقيقة الايمان الصادق (١٦ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ١٧ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) فهذا هو الايمان الصادق والاسلام الصحيح وهما المطلوبان لاجل السعادة

وقد يطلق كل من الايمان والاسلام على مايكون منهما ظاهرا سواء كان ذلك عن يقين أوعن جهل أونفاق فمن الأول الشق الأول من قوله تعالى ٢ : ٦٢ ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم) الآية فالمراد بالذين آمنوا في أول الآية الذين صدقوا بهذا الدين في الظاهر . وقوله « من آمن منهم بالله » الخ هو الايمان الحقيقي الذي عليه مدار النجاة وقد تقدم شرحه آنفا . ومن الثاني قوله « ولكن قولوا أسلمنا » أي دخلنا في السلم الذي هو مسالمة المؤمنين بعد ان كنا حربا لهم وليس معناه الاخلاص والانقياد مع الإذعان وإلا لما نفى عنهم ايمان القلب . هذا هو التحقيق في المسألة ولله الحمد

أما إطلاق الاسلام بمعنى ماعليه هؤلاء الأقوام المعروفون بالمسلمين من عقائد وتقاليد وأعمال فهو اصطلاح حادث مبني على قاعدة « الدين ماعليه

المتدينون » فالبوذية ما عليه الناس المعروفون بالبوذية واليهودية ماعليه الشعب الذي يطلق عليه اسم اليهود والنصرانية ما عليه الاقوام الذين يقولون انا نصارى وهكذا وهذا هو الدين بمعنى الجنسية وقد يكون له أصل سماوي أو وضعي فيطرأ عليه التغيير والتبديل حتى يكون بعيدا عن أصله في قواعده ومقاصده وتكون العبرة بما عليه أهله لا بذلك الأصل المجهول أو المعلوم . وتحول دين أهل الكتاب الى جنسية بهذا المعنى هو الذي صد أهل الكتاب عن اتباع النبي عليه الصلاة والسلام على ما جاء به من بيان روح دين الله الذي كان عليه جميع الانبياء على اختلاف شرائعهم في الفروع وهو الاسلام . فالاسلام معنى بينه القرآن من اتبعه كان على دين الله المرضي ومن خالفه كان باغيا لغير دين الله وليس هو من معنى الجنسية المعروفة الآن التي تختلف باختلاف مايحدث لاهلها من التقاليد فالاسلام الحقيقي مباين للاسلام العرفي لذلك جرينا في هذا التفسير على انكار جعل الاسلام جنسية عرفية مع الغفلة عن كونه هداية إلهية . نعم انه لو أقيم على أصله واستتبع مع ذلك رابطة الجنسية لم تكن هذه الرابطة الا رابطة خير لأهلها غير ضارة بغيرهم لبنائها على قواعد العدل والفضل والرحمة والاحسان ولكن جعل الجنسية هو الاصل مفسد الدين الذي هو مناط سعادة الدارين

(٨٦ : ٨٠) كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٧ : ٨١)
أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٨ : ٨٢)
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٩ : ٨٣) إِلَّا
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

روى النسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال كان رجل من الانصار أسلم ثم ارتد ثم ندم فأرسل الى قومه أرسلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة ؟ فنزلت (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم) الى قوله « فان

الله غفور رحيم » فأرسل اليه قومه فأسلم . وأخرج مسدد في مسنده عبد الرزاق عن مجاهد قال جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم كفر فرجع الى قومه فأنزل الله « كيف يهدي الله قوما » الى قوله «غفور رحيم» فحملها اليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث: انك والله ماعلمت لصدوق وإن رسول الله لأصدق منك وان الله لأصدق الثلاثة : فرجع فأسلم وحسن إسلامه . اه من لباب النقول . وفي روح المعاني : أخرج عبد بن حميد وغيره عن الحسن أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد في كتابهم وأقروا وشهدوا انه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد اقرارهم حسدا للعرب حين بعث من غيرهم . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس مثله . وقال عكرمة هم أبو عامر الراهب والحارث بن سويد في اثنى عشر رجلا رجعوا عن الاسلام ولحقوا بقريش ثم كتبوا الى أهلهم هل لنا من توبة فنزلت الآية فيهم . قال الألوسي وأكثر الروايات على هذا . وفي التفسير الكبير ثلاثة أقوال في سبب نزول الآية (١) عن ابن عباس انها نزلت في رهط كانوا آمنوا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم أخذوا يتربصون به ريب المنون فأنزل الله فيهم هذه الآية وكان فيهم من تاب فاستثنى التائب منهم بقوله « الا الذين تابوا » (٢) عنه أيضاً انها نزلت في يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد ان كانوا مؤمنين به قبل مبعثه وكانوا يشهدون له بالنبوة فلما بعث وجاءهم بالبينات كفروا بغيا وحسدا (٣) نزلت في الحارث بن سويد وتقدم خبره

أقول ان الآيات متصلة بما قبلها وذلك انه لما بين حقيقة الاسلام وانه دين الله الذي بعث به جميع الانبياء والذي لايقبل غيره من أحد ذكر حال الكافرين به وجزاءهم وأحكامهم وقد رآها أصحاب أولئك الروايات في سبب نزولها صادقة على من قالوا انها نزلت فيهم فذهبوا الى ذلك وأظهر تلك الروايات وأشدها التئاما مع السياق رواية من يقول انها نزلت في أهل الكتاب وهو الذي اختاره ابن جرير والاستاذ الامام وقال ان الكلام من أول السورة معهم

أما قوله تعالى « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم » فهو استبعاد

لهداية هؤلاء كما قال البيضاوي وإياس النبي (ص) منهم وفسرت المعتزلة الهداية بالالطاف الذي يكون من الله للمؤمنين أو بالهداية الى الجنة وأهل السنة بخلق المعرفة قالهما الرازي وكلاهما ضعيف وفسرها ابن جرير بالتوفيق والارشاد فاما الارشاد فقد أوتوه ولولا ذلك لكانوا معذورين ولولاه لما كان لايمانهم بعد مجيء البينات معنى والصواب ماأشرنا اليه من أن المعنى استبعاد هدايتهم بحسب سنن الله تعالى في البشر وإياس النبي (ص) من ايمانهم . ووجه الاستبعاد ان سنة الله تعالى في هداية البشر الى الحق هي أن يقيم لهم الدلائل والبينات مع عدم الموانع من النظر فيها على الوجه الذي يؤدي الى المطلوب وكل ذلك قد كان لهؤلاء ولذلك آمنوا من قبل « وشهدوا أن الرسول حق » ثم كفروا مكابرة لأنفسهم ومعاندة للرسول حسدا له و بغيا عليه . أو المعنى: بأي كيفية تكون هداية من كفروا بعد ايمانهم والحال انهم قد شهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات التي تبين بها الحق من الباطل والرشد من الغي ولم يغن عنهم ذلك شيئا لغلبة العناد والاستكبار علي نفوسهم والحسد والبغي على قلوبهم فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم باستحباب العمى على الهدى « والله لا يهدي القوم الظالمين » أي مضت سنته بأن الظالم لا يكون مهتديا

وقال الاستاذ الامام في تفسير الآية طريقتان احداهما شهادتهم بأن الرسول حق هي انهم كانوا يعرفون بشارات الانبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم وكانوا عازمين على اتباعه اذا جاء في زمنهم وانطبقت عليه العلامات وظهرت فيه البشارات ثم انهم كفروا به وعاندوه بعد مجيئهم بالبينات لهم وظهور الآيات على يديه والله لا يهدي أمثال هؤلاء الظالمين لانفسهم والجانين عليها . ووضع الوصف «الظالمين» مكان الضمير لبيان سبب الحرمان من الهداية فان الظلم هو العدول عن الطريق الذى يجب سلوكه لاجل الوصول الى الحق في كل شيء بحسبه فذكره من قبيل ذكر الدليل على الشيء بعد ادعائه وما كان من تنكب هؤلاء باختيارهم لطريق الحق وهو العقل وهدي النبوة بعد ماعرفوه بالبينات هو نهاية الظلم . (قال) والهداية هنا هي التي أمرنا بطلبها في سورة الفاتحة وهي الايصال الى الحق

لان سائر معاني الهداية عام لهم ولغيرهم

والطريقة الثانية هي أنهم كفروا بعد ماسبق لهم من الايمان بالرسل — فالرسول على هذا القول للجنس — وجاءهم البينات على ألسنتهم وذلك بتركهم ما اتفق عليه أولئك الرسل من التوحيد الخالص واسلام الوجه لله واخلاصه له بالبراءة من حظوظ النفس وأهوائها في الدين واستبدالهم بهذه الهداية ماوضعوا لأنفسهم من التقاليد والبدع . وحاصل المعنى على هذه الطريقة : كيف ترجو يامحمد هداية هؤلاء المعاندين لك ظنا أن معرفتهم بالكتاب والايمان جعلتهم أقرب الناس الى معرفة حقيقة ما جئت به بعد ماعلمت من كفرهم بحقيقة ماكانوا عليه من الاسلام بنقضهم الميثاق وتحريفهم الكلم . أقول والكلام على هذه الطريقة مبني على اعتبار الأمة كالشخص لتكافلها كما قرره مرارا فالمراد بكفرهم بعد ايمانهم كفر مجموع الحاضرين وأمثالهم بعد ايمان مجموع سلفهم لا ان كل واحد من الكافرين كان مؤمنا ثم كفر

﴿ أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ قال الاستاذ الامام : لعنة الله عبارة عن سخطه ولعنة الملائكة والناس إما سخطهم وهو الظاهر هنا واما الدعاء عليهم باللعنة أي انهم متى عرفوا حالهم فانهم يلعنونهم: والمشهور أن معنى اللعنة الطرد والابعاد في حقيقة الاساس « لعنه أهله طردوه وأبعدوه وهو لعين طريد » وبذلك فسرنا الكلمة في قوله تعالى (٢: ٨٨ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم) وهي أول آية ذكر فيها اللعن في سورة البقرة والظاهر من العبارة هناك أنها ليست عن الاستاذ الامام وما قاله هنا هو من التفسير بطريق اللزوم فان الطريد لا يطرد الا وهو مسخوط عليه وقد قال الراغب في المفردات « اللعن الطرد والابعاد على سبيل السخط وذلك من الله في الآخرة عقوبة وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الانسان دعاء على غيره قال (١١: ١٨ ألا لعنة الله على الظالمين) (٢٤: ٧ والخامسة أن لعنة الله عليها) اه وقوله دعاء على غيره أي بالطرد لأنه هو معنى اللعن في الأصل . والجمهور يفسرون لعن الله لمن يلعنه بطرده من جنته أو من رحمته أي الخاصة - اذ الرحمة العامة مبذولة لكل مخلوق-

ويفسرون السخط والغضب منه بنحو ذلك لأن ما أطلق عليه تعالى من الأوصاف التي تدل في البشر على الانفعالات تفسر بآثارها التي هي أفعال . ولكن السلفيين يعدون هذا تأويلا ويقولون ان تلك الأوصاف كغيرها شؤون لله تعالى لا يدرك البشر كنهها وتلك الافعال التي فسرت بها هي آثارها كما هو المفهوم من اللغة والاستاذ الامام كان سلفي العقيدة في سنيه الاخيرة التي عرفناه فيها فلا يبالي بامضاء جميع الصفات على ظاهرها مع التنزيه وكأنه رأى أن تفسير مثل « عليه اللعنة » بعليه السخط أقرب من تفسيره بعليه الطرد . فما قاله أقرب الى الذوق الصحيح في أسلوب الكلام . ومثله قوله (١٦: ١٠٦ فعليهم غضب ولهم عذاب عظيم) فعبر عن وقوع الغضب الذي هو صفة بعلى وعن العذاب الذي هو فعل باللام

وقد استشكلوا قوله تعالى « والناس أجمعين » مع العلم بأن من على عقيدتهم لا يلعنونهم وقد أشار الاستاذ الامام الى الجواب عن ذلك بأن كل الناس يلعنونهم متى عرفوا حقيقة حالهم فالمعنى ان هذه الحالة التي هم عليها مجلبة للعنة بطبعها من كل من عرفها . وصحح الرازي أن المراد به ما يجري على ألسنة جميع الناس من لعن الكافر والمبطل وقال أبو مسلم له أن يلعنه وان كان لا يلعنه: كأنه يفسر اللعن باستحقاقه . وهناك وجه ثالث وهو أن ذلك يكون في الآخرة ويؤيده قوله تعالى (٢٩: ٢٥ وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) وقيل ان المراد بالناس المؤمنون

﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة أي يكونون مطرودين أو مسخوطا عليهم الى الأبد ، أو في أثرها وهو عذاب جهنم ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ الذي هو من لوازمها لأن علته ما تكيفت به نفوسهم الظالمة وهو لازم معهم لا تفارقهم والشيء يدوم بدوام علته ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ من الإنظار وهو التأخير والامهال

﴿ الا الذين تابوا ﴾ من ذنبهم وثابوا الى ربهم ﴿ من بعد ذلك ﴾ الظلم الذي

دنسوا أنفسهم فتركوه مستقبحين له نادمين على ما أصابوا منه ﴿وأصلحوا﴾ أعمالهم بما صار للإيمان الراسخ من السلطان على نفوسهم، والتصريف لإراداتهم، أو أصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة التي تمد الايمان وتغذيه وتمحو من لوح القلب تلك الصفات الذميمة وتثبت فيه اضدادها ﴿فان الله غفور رحيم﴾ فينالهم من مغفرته، ما يزكي نفوسهم بمقتضى سنته، ويصيبهم من رحمته، ما يؤهلهم لدخول جنته، وقال الاستاذ الامام في هذه الآية ما مثاله: عطف الاصلاح على التوبة لان التوبة التي لا أثر لها في العمل لاشأن لها ولا قيمة في نظر الدين ولذلك جرى القرآن على عطف العمل الصالح عليها عند ذكرها أو وصفها بالنصوح وترى كثيرا من الناس يظهرون التوبة بالندم والاستغفار والرجوع عن الذنب ثم لا يلبثون ان يعودوا الى ما كانوا تابوا عنه، ذلك بأنه لم يكن للتوبة أثر في نفوسهم ينبههم اذا غفلوا، كي لا يعودوا الى ما اقترفوا، ويهديهم الى اتخاذ الوسائل لإصلاح شأنهم، وتقويم أمرهم، ثم ذكر تعالى ما هو بمعنى الاستثناء من هذا الاستثناء للتائبين ممن لا تقبل توبتهم أو ما هو أعم من ذلك فقال

(٩٠: ٨٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩١: ٨٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ *

﴿ان الذين كفروا بعد ايمانهم﴾ وشهادتهم ان الرسول حق ﴿ثم ازدادوا كفرا﴾ بمقاومة الحق وإيذاء الرسول والصد عن سبيل الله بالكيد والتشكيك وبالحرب والكفاح، أو الكلام على عمومه لا يختص بأولئك الذين سبق ذكرهم. فازدياد الكفر عبارة عما ينميه ويقويه من الاعمال التي يقاوم بها الايمان فالكفر يزداد قوة واستقرارا وتمكنا بالعمل بمقتضاه كما ان الايمان كذلك وقوله ﴿لن تقبل توبتهم﴾ يعدونه من المشكلات اذ هو مخالف في الظاهر للآية السابقة ولمثل قوله (٤٢: ٢٥ وهو الذي يقبل التوبة من عباده) فقال القاضي

والقفال وابن الانباري انه تعالى لما قدم ذكر من كفرا وبين انه أهل اللعنة الا ان يتوب ذكر في هذه الآية انه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فان التوبة الأولى تصير غير مقبولة حتى كأنها لم تكن ويكون التقدير في الآية وما قبلها: الا الذين تابوا وأصلحوا فان الله غفور رحيم فان كانوا كذلك ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم اه من التفسير الكبير بتصرف وفيه أن هذا الوجه أليق بالآية من كل الوجوه وانه مطرد في الآية سواء حملت على المعهود السابق أو على الاستغراق. وفي الكشاف ان عدم قبول توبتهم كناية عن موتهم على الكفر. وقال البيضاوي: «لن تقبل توبتهم» لأنهم لا يتوبون أو لا يتوبون الا اذا اشفوا على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظا في شأنهم وابراز حالهم في صورة الآيسين من الرحمة او لان توبتهم لا تكون الا نفاقا لارتدادهم وزيادة كفرهم ولذلك لم يدخل الفاء فيه: اه واختار ابن جرير ان الكلام في أهل الكتاب الذين تقدم ذكرهم وأن المراد بالتوبة التوبة عن الذنوب فهي لا تنفعهم مع بقائهم على الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم. روى في الآية عدة روايات وقال عن هذا الذي قلنا انه اختاره انه أولاها بالصواب (قال): وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في هذه الآية بالصواب لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت فأولى ان تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها اذا كانت في سياق واحد، واذ كان ذلك كذلك وكان من حكم الله في عباده انه قابل توبة كل تائب من كل ذنب وكان الكفر بعد الايمان أحد تلك الذنوب التي وعد قبول التوبة منها بقوله «الا الذين تابوا وأصلحوا فان الله غفور رحيم» علم ان المعنى الذي لا تقبل التوبة منه غير المعنى الذي تقبل التوبة منه واذ كان ذلك كذلك فالذي لا تقبل التوبة منه هو الازدياد على الكفر بعد الكفر لا يقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفره لان الله لا يقبل من مشرك عملا ما أقام على شركه وضلاله فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح فان الله كما وصف نفسه غفور رحيم: اه ثم بين ضعف سائر الروايات حتى رواية من قال ان المراد بذلك التوبة عند الموت وجزم (أي ابن جرير) بأن الكافر اذا أسلم قبل موته بطرفة عين فان ايمانه يكون مقبولا وليس هذا محل الخوض في ذلك

فأنت ترى ان هـذه الاقوال وهي أظهر ماقيل في الآية منها مايرجع الى وقت التوبة ومنها مايتعلق بالذنب الذي تيب عنه . وللاستاذ الامام وجه يتعلق بصفة التوبة وكيفيتها فقد ذكر في الدرس ان أولئك الكافرين الذين ازدادوا كفرا قد يحدث لهم في أنفسهم ألم من مقاومة الحق وقد يحملهم ذلك الالم على ترك بعض الذنوب والشرور قال فهـذا النوع من التوبة لايقبـل منهم مالم يصلحوا أمرهم ويخلصوا لله في اتباع الحق ونصرته فالتوبة التي يزعمونها على ماهم عليه من مقاومة المحقين لايقبلها الله تعالى : يعني انه قديقع من هؤلاء نوع من التوبة لايكون مطهرا لأنفسهم من جميع مالصـق بها من الكفر والأوزار وليس هذا عين قول من قال ان توبتهم هذه التي لاتقبـل هي توبة في الظاهر دون الباطن و باللسان دون القلب فان ذلك نفي للتوبة وهـذا إثبات لها بل هو قريب من قول ابن جرير الذي هو أظهر الأقوال السابقة

وقد يكون مراد الاستاذ الامام أن النفوس قد توغل في الشر وتتمكن في الكفر حتى تحيط بها خطيئتها وتصل الى ماعبر عنه القرآن بالرين والطبع والختم على القلوب فاذا كان صاحب هذه النفس قد جحد الحق عناداً واستكبارا وضل على علم فلا يبعد أن تحدثه نفسه بالتوبة وان يحاولها ولكن يكون له في نفسه من الموانع والحوائل دون قبولها للخير والحق مايكون هو السبب لعـدم قبولها فان قبول التوبة المستلزم لمغفرة ذنب التائب ليس من قبيل العطاء الجزاف والامر الانف وإنما يكون بموافقـة سنن الله في الفطرة الانسانية ذلك ان من مقتضي الفطرة السليمة أن يحدث لها العلم بقبيح الذنب وسوء عاقبته ألما يحملها على تركه ومحو أثره المدنس لها بعمل صالح يحـدث فيها أثرا مضاداً لذلك الاثر و بهـذا تكون التوبة معـدة صاحبها ومؤهلة له للمغفرة التي هي ترك العقوبة على الذنب المترتب على محوسيئه وهو تدنيس النفس وتدسيتها (٩١ : ٩ قد أفلح من زكاها ١٠ وقد خاب من دساها) فاذا بلغت التدسية من بعضها مبلغاً يتعذر معه التزكية على مريدها أومحاولها صح أن يعبر عن ذلك بعدم قبول توبة صاحب هـذه النفس . مثال ذلك الثوب الابيض الناصع يصيبه لوث فيستقبح ذلك

صاحبه فيغسله فينظف فاذا كان اللوث قليلا و بادر الى غسله بعيد طروئه يرجي أن يزول حتى لايبقى له أثر . ولكن هذا الثوب اذا ادس في الاقذار سنين كثيرة حتى تخللت جميع خيوطه وتمكنت منها فاصطبغ بها صبغة جديدة ثابتة تعذر تنظيفه وإعادته الى نصاعته الأولى . و بين هذه الدرجة وما قبلها درجات كثيرة . وقد أشير الى الطرفين بقوله تعالى (٤ : ١٧ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولـئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ١٨ وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما)

تلك حالة هذا الصنف من الهازئين بالدين المتقلبين في الكفر العريقين في الشر ولذلك سجل عليهم الرسوخ في الضـلال بصيغة القصر أو الحصر فقال ﴿ وأولئك هم الضالون ﴾ المتمكنون من الضلال حتى كانه محصور فيهم وحسبك بضال لاترجي هدايته ، ولا تقبل توبته ،ونعوذ بالله من الخذلان

﴿ ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴾ وهؤلاء هم القسم الثالث من أقسام الكافرين في الآيات والأول من يتوبون توبة مقبـولة من الكفر و يعملون الصالحات فيستحقون المغفرة والرحمـة والثاني من يتوبون توبة غـير مقبولة إما لفسادها في نفسها واما لأنها توبة عن بعض أعمال الكفر مع البقاء عليـه وقد تقدم حكمها . أماهؤلاء الذين يقيمون على الكفر وأعماله حتى يدركهم الموت على ذلك ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا اذا كان قد تصدق به في الدنيا لأن الكفر يحبط كل عمل (٢٥ : ٢٣ وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) فهو لايفيد في نجاتهم من العـذاب الآتي ذكره في الآية لأن من لم ترتق روحه في الدنيا الى درجة الايمان الصحيح بالله واليوم الآخر فانها لاترتقي في الآخرة من الهاوية التي تسمى النار جهنم الى درجـة من الدرجات العلى التي تكون في الجنة ﴿ ولو افتدى به ﴾ في الآخرة على فرض انه يملكه بأن أراد أن يجعـله جزاء نجاته والعفو عنـه كما يفعل الناس مع الحكام الظالمين فانه لايقبل منه أيضا . قال تعالى في وعيد المنافقين (٥٧ : ١٥ فاليوم لايؤخذ منكم

فدية ولا من الذين كفروا مأوا كم النار هي مولا كم وبئس المصير) بل لا تقبل الفدية من غيرهم أيضاً كما في آيات أخرى عامة وليست علة ذلك ما قالوه من كون الله تعالى غنياً عن الذهب وغيره مما يفتدى به فانه تعالى غني أيضاً عن ايمان الناس وأعمالهم وانما علته أنه تعالي لم يجعل أمر نجاة الناس من عذاب الآخرة وأمر فوزهم بنعيمها مما يكون بالأمور الخارجية كمال يبذل وعظيم ينفع بل جعل ذلك أمرا متعلقا بأمر داخلي متعلقا بجوهر النفس فمن زكاها بالايمان مع العمل الصالح أفلح ومن دساها بالكفر والاعمال السيئة خاب وخسر — راجع تفسير (٢: ٤٧ و١٢٣ وكذا واتقوا يوما الخ» وتفسير ٢: ٢٥٤ يأيها الذين أمنوا انفقوا مما رزقناكم الخ

وقال الاستاذ الامام في الآية الكلام في هذا الجزء من التمثيل لأنه ليس هناك حاجة الى الذهب ولا الى انفاقه لأن الاشقياء لا نصير لهم فينفق عليه والأولياء في غنى بفضل الله ورحمته عمن ينفق عليهم والمراد أنه لا طريق للافتداء لو أريد: ليس عندنا عنه غير هذا

﴿ اولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم بدفع العذاب عنهم أو إيصال الخير اليهم أي لا يجدون لهم نصيرا ما كما تفيده «من» الدالة على استغراق النفي ويسمونها زائدة لأنها لا متعلق لها في اصطلاح النحاة لا لأنها لا معنى لها في الكلام

ومن مباحث اللفظ مع المعنى في الآية انه قال في هذه الآية «فلن يقبل» وفي الآية التي قبلها «لن تقبل» بغير فاء وقد بين صاحب الكشاف النكتة في ذلك وتبعه غيره فيها قال «قد أوذن بالفاء أن الكلام بني على الشرط والجزاء وان سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء ان الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب كما تقول: الذي جاءني له درهم: لم تجعل المجيء سببا في استحقاق الدرهم بخلاف قولك: فله درهم:» أي فانه يفيدان الدرهم جزاء لمجيئه. والنكتة في غاية الجلاء والظهور فان عدم قبول توبة اولئك ليس مسببا عن كونهم كفروا ولا عن كونهم ازدادوا كفرا لان الكافر ومن ازداد كفرا تقبل توبتهما اذا صحت وقد علم سببه مما تقدم

ومنها انهم اختلفوا فى موقع الواو من قوله « ولو افتدى به » على ظهوره فيما جرينا عليه من تفسير الآية ويقرب منه قول الزجاج النحوي إنها للعطف والتقدير لو تقرب الى الله بملء الارض ذهباً لم ينفعه ذلك ولو افتدى بملء الارض ذهباً لم يقبل منه: قال الرازي: وهذا اختيار ابن الانباري قال وهذا أوكد في التغليظ لأنه تصريح بنفي القبول من جميع الوجوه: أقول وما قدرناه أظهر وبالنظم أليق. قال الرازي بعد ايراد رأي الزجاج (الثاني) الواو دخلت لبيان التفصيل بعد الاجمال وذلك لأن قوله « فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهباً » يحتمل الوجوه الكثيرة فنص على نفي القبول بجهة الفدية: أقول ولو قال التخصيص بعد التعميم لكان أظهر لأن ذكر واحد مما يتناوله أو يحتمله المجمل ليس تفصيلا له. ثم قال (الثالث) وهو وجه خطر ببالي وهو ان من غضب على بعض عبيده فاذا أتحفه ذلك العبد بتحفة وهدية لم يقبلها البتة الا انه قد يقبل الفدية فأما اذا لم يقبل منه الفدية أيضاً كان ذلك غاية الغضب والمبالغة إنما تحصل بتلك المرتبة التي هي الغاية فحكم تعالى بأنه لا يقبل منهم ملء الأرض ذهباً ولو كان واقعاً على سبيل الفداء تنبيهاً على أنه لما لم يكن مقبولا بهذا الطريق فبأن لا يكون مقبولا منه بسائر الطرق أولى: اه وفي الكشاف: هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ويجوز ان يراد ولو افتدى بمثله — واورد لذلك شواهد وأمثلة ثم قال — وأن يراد فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كأن قد تصدق به ولو افتدى به أيضاً لم يقبل: اه

(٩٢: ٨٦) لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *

ذكر جمهور المفسرين ان قوله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ خطاب للمؤمنين وانه كلام مستأنف سيق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكافرين ولا يقبل منهم. وذهب الاستاذ الامام الى ان

الخطاب لايزال لأهل الكتاب . ذلك ان من سنة القرآن ان يقرن الكلام في الايمان بذكر آثاره من الاعمال الصالحة، وأدلها عليه بذل المال في سبيل الله فلما حاجّ أهل الكتاب في دعاويهم في الايمان والنبوة وكونهم شعب الله الخاص وكون النبوة محصورة فيهم وكونهم لاتمسهم النار الا أياماً معدودات خاطبهم في هذه الآية بآية الايمان وميزانه الصحيح ، الذي يعرف به المرجوح والرجيح ، وهو الانفاق في سبيل الله من المحبوبات مع الاخلاص وحسن النية كانه يقول انكم أيها المدعون لتلك الدعاوي والمفتخرون بالكتاب الالهي واتصال حبل النسب بالنبيين قد أحضرت أنفسكم الشح وآثرتم شهوة المال على مرضاة الله واذا انفق أحدكم شيئاً ما فانما ينفق من أردإ ما يملك وأبغضه اليه وأكرهه عنده لأن محبة كرائم المال في قلبه تعلو محبة الله تعالى ، والرغبة في ادخاره تفوق لديه الرغبة فيما عند ربه من الرضى والمثوبة ، ولن تنالوا البر فتعدوا من الأبرار الذى هم المؤمنون الصادقون ، حتى تنفقوا مما تحبون ، فحذف ذكر الايمان استغناء بذكر أكبر آياته ، وأوضح دلالاته ، وهي انفاق المحبوبات ، وبذل المشتهيات » وقال الاستاذ الامام ان المتبادر من الانفاق هنا هو انفاق المال لان شأنه عند النفوس عظيم حتى ان الانسان كثيرا ما يخاطر بنفسه ويستسهل بذل روحه لأجل الدفاع عن ماله أو المحافظة عليه . أقول وتؤيده آية ٢ : ١٧٧ الآتية على أن المال يعم النقدين وغيرهما مما يتموله الناس وشرط البر بذل بعض ما يحبه الانسان من كل شيء حتى الطعام وهو أحد الوجهين في تفسير قوله تعالى (٧٦ : ٨ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا) أي على حبهم إياه والوجه الثاني ان الضمير عائد الى الله تعالى أي لأجل حبه تعالى . والمال يجمع جميع المحبوبات ويوصل اليها

واختلفوا في البر المراد هنا الذي لاينا له المرء أي يصيبه ويدركه الا اذا أنفق مما يحب فقيل هو بر الله تعالى واحسانه مطلقاً وقيل الجنة وقيل هو ما يكون به الانسان باراً وهو ما تقدم تفصيله في قوله تعالى (٢ : ١٧٧ ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الآية وفيها (وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى) الخ وأنت ترى انه في هذه الآية

جعل ايتاء المال على حبه شعبة من شعب البر كما جعل في سورة الانسان اطعام الطعام على حبه صفة من صفات الابرار ولكنه في الآية التي نفسرها جعل الانفاق مما يحب غاية لاينال البر الا بالانتهاء اليها . وقد فهم منه بعضهم أن من أنفق مما يحب كان برا وإن لم يأت بسائر شعب البر من الايمان بجميع أركانه واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس » وليس ما فهم بصواب انما الصواب أن الانسان لا يكون بارا بالقيام بهذه الخصال حتى ينتهي الى هذه الخصلة — الانفاق مما يحب — وما جعلها غاية الا وهي أشق على النفوس وأبعد عن الحصول الا من وفقه الله تعالى ووهبه الكمال

وهذا الانفاق غير الزكاة خلافاً لما نقل في بعض الروايات فان الزكاة قد عدت في آية البقرة من شعب البر وأركانه بعد ذكر إيتاء المال على حبه فدل ذلك على انهما متغايران ولا يشترط في الزكاة أن تكون مما يحب المؤدي بل ورد أمر العاملين عليها باتقاء كرائم أموال الناس . ومن فضل الله تعالى علينا ان اكتفى منا في نيل البر بأن ننفق مما نحب ولم يوجب علينا ان ننفق جميع ما نحب

ثم قال تعالى ﴿ وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم ﴾ لا يخفى عليه هل هو محبوب لديكم أو مزهود فيه وهل أنتم مخلصون في انفاقه أم أنتم مراؤن طالبون الشهرة والجاه فهو عز وجل يجازيكم على ما تنفقون بحسب ما يعلم من نيتكم ومن موقع ذلك من قلوبكم وقدر ما ترتقي بذلك أرواحكم فرب منفق مما يحب لا يسلم من الرياء ورب فقير لا يجد ما يحب فينفق منه ولكن قلبه يفيض بالبر حتى لو وجد ما أحب لأوشك أن ينفقه كله

ويذكر المفسرون في تفسير الآية ما كان عليه السلف الصالح من جعل ما يحبون لله تعالى ذكر ابن جرير الشواهد على ذلك من روايته ونقل غيره من كتب الحديث بعض الوقائع فمن ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أنس قال كان أبو طلحة أكثر الانصار نخلا بالمدينة وكان أحب أمواله اليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب

من ٠١٠ فيها طيب فلما نزلت « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة يارسول الله ان أحب أموالي اليّ بيرحاء وانها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يارسول الله حيث أراك الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بخ بخ ذلك مال رابح وقد سمعت ماقلت واني أرى أن تجعلها في الاقربين » فقال أفعل يارسول الله فقسمها أبو طلحة بين أقاربه وبني عمه . وفي رواية لمسلم وأبي داود فجعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب .

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن محمد بن المنكدر قال لما نزلت هذه الآية جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها سبل لم يكن له مال أحب اليه منها فقال هي صدقة فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل عليها ابنه أسامة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في وجه زيد فقال « ان الله قبلها منك » وفي رواية ابن جرير : فكأن زيدا وجد في نفسه فلما رأى ذلك منه رسول الله (ص) قال « اما أن الله قد قبلها » وهذا وماقبله من آيات سياسته صلى الله عليه وسلم للقلوب. رأى أن زيدا وأبا طلحة قد خرجا بعاطفة الايمان عن أحب أموالهما اليهما على تعلق القلوب بكرائم الاموال فجعل ذلك في الأقربين منهما ليثبت قلوبهما فلا يكون للشيطان سبيل الى الوسوسة لهما بالندم أوالامتعاض اذا رأيا ذلك في أيدي الغرباء . وقد يمتعض المرء بعد فقد المحبوب وان فارقه مختارا مرتاحا لعاطفة طارئة ثم لايلبث أن يعاوده الحنين اليه مالا يعاوده الى ماهو أغلى منه ثمنا اذا لم يكن من الكرائم المحبوبة . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر عمال الصدقة باتقاء كرائم أموال الناس . ويدل على ما قررته في ذلك أثر ابن عمر الآتي : أخرج عبد بن حميد عن ابن عمر قال حضرتني هذه الآية « لن تنالوا البر » الخ فذكرت ماأعطاني الله تعالى فلم أجد أحب الي من مرجانة — جارية لي رومية — فقلت هي حرة لوجه الله تعالى، فلو أني أعود في شيء جعلته لله تعالى لنكحتها فأنكحتها نافعا : فانظر كيف راودته نفسه بعد عتقها أن يستبقيها لنفسه ولا يفارقها لولا أن كان مما توبت عليه نفسه العالية أن لايعود في شيء جعله لله وانظر كيف خص بها بعد ذلك مولاه نافعا الذي كان يحبه كولده .

ومما رواه ابن جرير في ذلك عن مجاهد قال كتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الاشعري أن يبتاع له جارية من جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى في قتال سعد بن أبي وقاص . فدعا بها عمر فقال ان الله يقول « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فأعتقها

وآثار السلف في الايثار وبذل المحبوبات في سبيل الله كثيرة . نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الانصار — هو أبو طلحة زيد بن سهل — فذهب به الى أهله فوضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج فقامت كأنها تصلحه فأطفأته وجعل يمد يده الى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام وبقي هو وعياله مجهودين فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد عجب الله عز وجل من صنيعكم الليلة الى ضيفكم » ونزلت (٥٩ : ٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة

واشتهى عبد الله ابن عمر سمكة وكان قد نقه من مرض فالتمست بالمدينة فلم توجد حتى وجدت بعد مدة واشتريت بدرهم ونصف فأشويت وجيء بها على رغيف فقام سائل بالباب فقال ابن عمر للغلام لفها برغيفها وادفعها اليه فأبى الغلام فرده وأمره بدفعها اليه ثم جاء بها فوضعها بين يديه وقال كل هنيئا يا أبا عبد الرحمن فقد أعطيته درهما وأخذتها فقال لفها وادفعها اليه ولا تأخذ منه الدرهم فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفرله » أوغفر الله له رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو الشيخ من حديث نافع عن ابن عمر والدارقطني في الافراد

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه أهدى الى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخي فلانا كان أحوج مني اليه فبعث به اليه فلما وصل اليه قال ان فلانا كان أحوج مني اليه فبعث به اليه فلم يزل يبعث به كل واحد الى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع الى الأول . نقله أبو طالب في القوت والغزالي في الاحياء . ويشبه هذا ماحكي

عن أبي الحسن الانطاكي الصوفي انه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا وكانوا في قرية بقرب الري ولهم أرغفة معدودة لاتشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام وأوهم كل واحد صاحبه انه يأكل فلما رفع اذا الطعام بحاله لم يأكل أحد منه شيئاً

وفي الاحياء أن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه خرج الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيهم غلام أسود يعمل فيه ، إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى اليه بالثاني والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر اليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت هذا الكلب فقال ماهي بأرض كلاب انه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت رده ، قال فما أنت صانع اليوم قال أطوي يومي هذا . فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء ؟ إن هذا لأسخى مني . فاشترى الحائط (أي بستان النخل الذي يعمل فيه الغلام الاسود) والغلام ومافيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه

وفي هذه الآثار وأمثالها ما يجب ان يكون فيه أسوة حسنة لمن يؤمن بالله واليوم الآخر وينتمي الى أولئك السلف الصالحين ، والله ولي المؤمنين ،

(المنار) ونزيد على تلك الآثار ما سيأتي في تفسير سورة الانسان ، اذا أمهل الزمان وهو :

روي عن ابن عباس ان قوله تعالى (٧٦ : ٨ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) الآيات نزلت في فاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام . قال ان الحسن والحسين مرضا فعادهما جدهما محمد صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعادهما من عادهما من الصحابة فقالوا لعلي كرم الله وجهه لو نذرت على ولديك فنذر علي وفاطمة وفضة - جارية لهما - ان برآ مما بهما ان يصوموا ثلاثة أيام شكرا فألبس الله تعالى الغلامين ثوب العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير فانطلق علي كرم الله تعالى وجهه الى شمعون اليهودي الخيبري فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير فجاء بها فقامت فاطمة رضي الله تعالى عنها الى صاع فطحنته

وخبزت منه خمسة أقراص على عددهم وصلى علي كرم الله تعالى وجهه مع النبي صلى الله عليه وسلم المغرب ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف بالباب سائل فقير فقال السلام عليكم ياأهل بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنا مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا شيأ الا الماء وأصبحوا صياما ثم قامت فاطمة رضي الله تعالى عنها الى صاع آخر فطحنته وخبزته وصلى علي كرم الله تعالى وجهه مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المغرب ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف يتيم بالباب وقال السلام عليكم ياأهل بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يتيم من أولاد المهاجرين أطعموني أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيأ الا الماء القراح وأصبحوا صياما فلما كان يوم الثالث قامت فاطمة رضي الله تعالى عنها الى الصاع الثالث وطحنته وخبزته وصلى علي كرم الله تعالى وجهه مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المغرب فأتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف أسير بالباب فقال السلام عليكم ياأهل بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنا أسير محمد عليه الصلاة والسلام أطعموني أطعمكم الله فآثروه وباتوا لم يذوقوا الا الماء القراح فلما أصبحوا أخذ علي كرم الله تعالى وجهه الحسن والحسين وأقبلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورآهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال ياأبا الحسن «ماأشدمايسوءني ماأرى بكم» وقام فانطلق معهم الى فاطمة رضي الله تعالى عنها فرآها في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها من شدة الجوع فرق لذلك صلى الله تعالى عليه وسلم وساءه ذلك فهبط جبريل عليه السلام فقال خذها يامحمد هنأك الله تعالى في أهل بيتك فقال وما آخذ ياجبريل فاقرأه (٧٦ : ١ هل أتى على الانسان) السورة وفي رواية ابن مهران فوثب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى دخل على فاطمة فأكب عليها يبكي فهبط جبريل عليه السلام بهذه الآية (٧٦ : ٥ أن الأبرار يشربون) الى أخره ؟

باب المقالات

العسر المالي والربا والبنوك

أصيبت بلاد مصر في هذه السنة بنقص في المال وعسر في التجارة بالعقار والعروض وغلت دونها أيدي أصحاب البيوت المالية في أوربا فأفلس كثير من الاغنياء فيها ولم يبق صنف من أهلها الا وقد ذاق مرارة العسر، ومسه ألم الضر، وينتظر الناس الآن موسم القطن — الذي تقدر قيمته في السنة بثلاثين ألف ألف جنيه أو تزيد الى خمسة وثلاثين - وهم بين الخوف والرجاء - وإنما يخافون أن يعبث بالموسم الماليون الاوربيون فيعظم الخطب ويعم الكرب

لقد صرنا الى زمن لم يعرف له نظير في التاريخ -- زمن يقبض على أعنة جميع مصالحه ومرافقه وسياسته أصحاب النقود فيصرفونها كيف شاؤا، زمن صار فيه العلم بتصريف الاموال من أوسع العلوم وأدقها، زمن صارت فيه الأمم الفقيرة أذل الامم، ودولها أضعف الدول، فالمال في هذا الزمان هو أساس القوة والعزة، وآلة السيادة والسلطة،

يعسر على أمة تبغي النجاح في تحصيل الثروة ومباراة الأمم العزيزة بالغنى أن تصل الى ماتريد من ذلك مالم تسلك سبل تلك الأمم وإنها لسبل معبدة منها القصد ومنها الجائر وما الجائر الاسبيل القمار والربا لاسيما المضاعف أوالمركب والقمار والربا محرمان في الاسلام تحريما غليظًا فمن ثم كانت الشعوب الاسلامية اليوم في حيرة لاتدري كيف تعيش مع هذه الأمم الافرنجية التي تنازعها الوجود مع عدم مجاراتها في سبل الثروة ولا كيف تجاريها مع الاحتراس من الربا بأنواعه

لو أن للاسلام دولا قوية وشعوبا غنية يمكنها أن تستغني عن أوربا أوأن تجعلها تابعة لقوانينها أو تلجئها الى اتباع مدنيتها لسهل عليها أن تسلك في جمع الثروة والتصرف فيها مسلكا يقرن المصلحة بالفضيلة فضيلة الرأفة بالبائس الفقير، وإسعاده في الامر العسير، وما الحيلة وليس لنا دولة عزيزة قوية، في أمة عاملة غنية، وأوربا تمتص دماءنا، حتى كادت تذهب بذمائنا،

لم يجد حكامنا حيلة لمنع الربا فأباحوه لرعيتهم في قوانينهم وتعاملت به

دولهم حتى ان السلطان عبد الحميد الذي حرص على لقب الخلافة حرصًا لم يسبقه به سابق يأكل الربا ويوكله ومثله في ذلك أمير مصر. وأكثر المسلمين لا يأكلون الربا ولكنهم يوكلونه فيدلون بأموالهم الى الاجانب وذلك شر من أكل الربا منهم بل شر الاقسام التي تتصور في معاملة الربا وأشدها ضررا، وأعظمها خطرا،

ذلك أن لهذه المعاملة صورا نذكر أهمها ومنه يعلم باقيها — أحدها أن لاتأكل من أحد ولاتوكل أحدا — ثانيها أن تأكل من الأجنبي خاصة ولاتوكل أحدا — ثالثها أن تأكل من الأجنبي وغيره ولا توكلهما — رابعها أن تأكل منهما جميعا وتوكل الثاني دون الأول — خامسها أن تأكل منهما جميعا وتوكلهما كذلك — سادسها أن تأكل منهما وتوكل الأجنبي فقط — سابعها أن توكل غير الأجنبي ولاتأكل من أحد — ثامنها أن توكل الاجنبي خاصة ولاتأكل منه . فأفضل هذه الاقسام وأشرفها أولها وأخسها وأشدها ضررا ثامنها وما بينهما من الاقسام مرتبة على حسب درجاتها من الضرر في الامة الثالث شر من الثاني وهكذا وأكثر المسلمين الذين يتعاملون بالربا قد اختاروا شرها على الاطلاق ثم ما يقرب منه

اذا كان كل ما اشترطه الفقهاء في جواز المعاملات المالية كالبيع والصرف والقرض والحوالة والشركة دينا يجب اتباعه في كل زمان ومكان، ويكون التارك لشيء منه عرضة لغضب الرحمن، فما أشد الحرج على المسلمين في هذا الزمان، بل ما أكثر الفسوق فيهم والعصيان، فانه لايكاد يوجد في الالف أوالألوف من التجار وغير التجار واحد يراعي تلك الشروط والاحكام في معاملاته وما ذاك الا أن في مراعاتها حرجا شديدا وعسرا عظيما واذا قلت أيضًا إن في معرفتها لحرجا لم تكن بعيدا من الصواب ولولا الحرج لما قل العالمون بها وقل العاملون في هؤلاء العالمين أو فقدوا

السواد الأعظم من المسلمين يسلمون بأن تلك الاحكام الفقهية كلها دين إلهي ولكن هذا التسليم مبني على أساس التقليد الواهن لاسلطان له على النفس ولذلك لم تعمل به ولما كان الاعتقاد بحرمة الربا اعتقادا صحيحًا مؤيدا بنص الكتاب العزيز ترى أنه يقل في المسلمين من يقدم على أكل الربا، ولاتقل

وكيف يؤكلونه بما يقترضون ولا يأكلونه بما يقرضون فأنك تعلم أن الاقراض بالربا لم يرد به نص الكتاب وانما جاء تحريمه في الحديث وقد يستنبط من الكتاب استنباطا ومكان ذلك من النفوس دون مكان النص قوة وتأثيرا ، ثم ان الضرورة قد تلجئ المحتاج الى الاقتراض ولا ضرورة تلجئ الغني الى الاقراض ، فان كان الفقيه لا يرى تلك الضرورة صحيحة شرعاً فان المقترض يراها صحيحة وهو مسوق للعمل بما يرى و يعتقد دون مايرى غيره و يعتقد ، ولا ينفك خاصة الناس وعامتهم يجتهدون فيما يعرض لهم و يعملون باجتهادهم مهما ضيقت مقلدة الفقهاء في منع الاجتهاد ولا يمنع ذلك ان يكون التقليد هو الغالب عليهم

لولا التقليد لوجد المسلمون المخرج فى شريعتهم من كل حرج وعسر فان من قواعدها الاساسية في نص الكتاب نفي الحرج والعسر في الاحكام وارادة اليسر فيها . قال تعالى (٥ : ٦ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج) وقال (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وفي الحديث «لاضرر ولا ضرار» رواه مالك في الموطأ مرسلا وأحمد وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ومن ثم كان من قواعد الفقه ان المشقة تجلب التيسير ، وان الضرورات تبيح المحظورات ، وانه اذا ضاق الأمر اتسع

يقول كثير من أهل الرأي ان العسر المالي الذي مدت في البلاد أطنابه ، وضربت في أرضها أوتاده ، ونخشى ان يصير شره المستطيل مستطيراً ، فيجعل ثروة الأمة هباء منثورا ، يمكن مقاومته بانشاء بنك وطني ينتزع بأيدي أغنياء البلاد ، بعض ما عليه ماليو الأجانب من الأثرة والاستبداد ، والتحكم في معايش العباد ، فقام في وجوههم آخرون يقولون ان دين الاسلام لا يسمح لأهله بأن ينشئوا لهم بنكا لأن البنوك هي بيوت الربا كل معاملاتها أو جلها بالربا فرد ذلك بعض المقترحين قائلا ان البنك الذي نقترحه ليس من نوع بنوك الصيارف التي تنشأ لأجل الاقراض بالربا الفاحش أو غير الفاحش وانما هو من نوع البنوك الكبرى التي هي واسطة بين أرباب الأموال في مداولتها بينهم بقبول حوالة هذا وتحصيلها من ذلك بأجرة معينة وايصال ما يريد ارساله أهل بلد الى آخر بأجرة أيضا وليس

هذا من الربا المحرم علينا بالنص : ولا نريد بينكما أكثر من هذا . قال بعض المعترضين اننا نشك في كون هذا ليس من الربا المحرم واننا نطلب من العلماء بيان ذلك

لجأوا الى العلماء المعروفين بالفقهاء ، وباب الربا عندهم أوسع من الأرض والسماء ، فانه يطلق عندهم على جميع البيوع الفاسدة ، والمعاملات المالية التي لا تنطبق على الشروط المدونة ، وباب الاجتهاد عندهم مقفل بل مسدود ، والفتوى بالقواعد العامة كمراعاة المصالح وتقدير الضرورات من عمل المجتهد المفقود ، على ان الحلال بين والحرام بين ، والرجوع الى النص وآراء المجتهدين أمرهين ، وان كانوا يريدون من العلماء إقناع العوام ، لا معرفة الحلال والحرام ، فما هم بمدركي فتوى رسمية ، ولا حيلة فقهية ،

هذه مسألة من أكبر المصالح العامة التي ينبغي أن تنظر فيها الجماعة المعبر عنها في الكتاب بأولي الامر أي أصحاب الشأن في الامة ليستنبطوا حكمها بمقتضى قوله تعالى (٤ : ٨٣ ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وليس أصحاب الامر هم الملوك والامراء ولا طائفة الفقهاء اذ لم يكن مع الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزول الآية ملوك يحكمون ، ولا فقهاء يفتون ، وانما كان هناك جماعة من أصحاب الشأن في الامة العارفين بمصالحها المعروفين بحسن الرأي فيها وهم يوجدون في كل أمة بحسب حالها فأولو الشأن والرأي في المصريين الآن يتألفون من عدة أصناف رجال مجلس الشورى وقضاة المحاكم العليا من شرعية وأهلية والمحامون وأصحاب الجرائد وكبار المدرسين والمزارعين والتجار

فأقترح ان تتألف لجنة من هؤلاء الأصناف وتنظر في هذا الامر هل هو ضروري للامة فان كان ضروريا وضعوا له قانونا أول مواده منع الربا المضاعف المحرم بالنص القطعي لشدة ضرره وهو لاضرورة اليه ونظروا فيما عدا ذلك من أعماله التي لا بد منها هل فيها شيء من ربا الفضل الذي حرم لسد الذريعة لا لذاته كما في (اعلام الموقعين) فان كان فيها شيء من ذلك فهل وصلت الضرورة فيه الى حد يجوز العمل بقاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» أم لا .

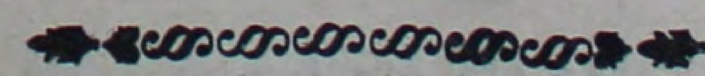
قال الامام ابن القيم « الربا نوعان جلي وخفي فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم والخفي حرم لأنه ذريعة الى الجلي . فتحريم الاول قصد وتحريم الثاني وسيلة . فأما الجلي فربا النسيئة وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المئة آلافا مؤلفة وفي الغالب لا يفعل ذلك الا معدم محتاج فاذا رأى المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ليفتدي من أسر المطالبة والحبس ويدافع من وقت الى وقت فيشتد ضرره وتعظم مصيبته ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه فيأكل مال أخيه بالباطل ويحصل أخوه على غاية الضرر »

ثم أطال وأورد آية (٣ : ١٣٠ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) .

وأورد بعد هذا فصلا في ربا الفضل الذي حرم لسد الذريعة وهو أن يبيع الدرهم بدرهمين مثلا وذكر الخلاف فيه وان بعض الصحابة جوزه وبين انه ككل ماحرم لسد الذريعة قد يباح للمصلحة (راجع ص ٢٠٣ من أعلام الموقعين)

وأنت تعلم أن باب المصلحة أوسع من باب الضرورة . وأساس المعاملات في الشريعة ان كل محرم ضارّ وكل نافع حلال ولذلك علل الكتاب حرمة الربا بقوله (٢: ٢٧٩ لا تظلمون ولا تظلمون) ولكن أكثر معاملات البنوك لا ظلم فيها بل منها ما فيه الرحمة للمتعاملين فان العاجز عن الكسب اذا ورث مالا وأودعه فيه بربا الفضل يستفيد هو والبنك معا

وتبحث اللجنة في سائر فروع المسألة وتمضي الامة ما تقرره اتباعا لهداية القرآن ، وتثبت للعالمين ان شرع الاسلام موافق لمصالح البشر في كل زمان ومكان ،



فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ أسئلة من القاهرة عن الربا ، من ٣٢ — ٣٥ ﴾

فضيلة الاستاذ العلامة صاحب مجلة المنار الغراء

السلام عليكم وبعد فأرجو من فضيلتكم أن تكشفوا النقاب عن هذه الاسئلة الآتية ولكم مني مزيد الشكر سلفا

(١) هل ربا الفضل جائز مطلقا فان كان بعضه جائزا وبعضه غير جائز فتفضلوا بشرح مستوف بفرق الجائز من غير الجائز

(٢) ماقولكم في حديث أبي أسامة من ان النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا ربا الا في النسيئة) أيعتبر منسوخا بحديث أبي سعيد الخدري الذي روى أن رسول الله (ص) قال (لا تبيعوا الذهب بالذهب الا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا الورق بالورق الا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها غائبا بناجز) — أم كيف يمكن الجمع بين الحديثين ؟

(٣) في صحيح البخاري انه قال صلى الله عليه وسلم (الذهب بالذهب ربا الا هاء وهاء والبر بالبر ربا الا هاء وهاء والشعير بالورق ربا الا هاء وهاء والتمر بالتمر ربا الا هاء وهاء) — من هذا الحديث يتبين لدينا أربع صور ونشاهد في ثلاث منها التجانس في البدلين وفي الرابع اختلاف فيهما لان الشعير غير الورق فما حكم بيع الشعير بالورق المقصود من هذا الحديث ؟ وما العلة في اختلاف هذه الصورة عن الصور الأخرى ؟

(٤) جاء في حاشية بن عابدين (ج ٤ ص ٢٤٣ هامش مطبعة بولاق) تحت مطلب كل قرض جر نفعا حرام هذه العبارة بحروفها « وفي معروضات

المفتي أبي السعود لو ادّان زيد العشرة باثني عشر بطريق المعاملة في زماننا بعد أن ورد الامر السلطاني وفتوى شيخ الاسلام بان لا تعطى العشرة بأزيد من عشرة ونصف ونبه على ذلك الخ)

من هو هذا السلطان الذى أصدر الامر المذكور وفي أي زمن كان وما دواعي أصداره له وانى نجد صورة الامر؟

ثم من هو شيخ الاسلام المشار اليه وهل يمكنكم أن تفيدونا أثابكم الله بنص فتواه عسانا نقف على الاسباب التي بني عليها الفتوى؟

وتفضلوا في الختام بقبول فائق احترامي أفندم

طالب بمدرسة الحقوق الخديوية

(المنار) أما الجواب عن الأول فقد نقل المحدثون ان السلف رضي الله عنهم قد اختلفوا في ربا الفضل فأجازه ابن عمر وابن عباس وأسامة بن زيد وابن الزبير وزيد بن أرقم وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير مطلقاً ونقلوا عن ابن عمر انه رجع عن ذلك واختلفوا في رجوع ابن عباس. وحجتهم حديث أسامة المذكور في السؤال وهو في الصحيحين والجمهور على خلافهم وحجتهم حديث ابي سعيد الذي تقدم في السؤال أيضا وهو في الصحيحين. وانما جعل مدار الخلاف في ربا الفضل على الأحاديث لأن الربا المحرم في القرآن هو ربا النسيئة الذي كان في الجاهلية وهو ان يزيدوا في المال كل شهر كما قال ابن حجر في الزواجر لأجل الانساء أي التأخير في الاجل حتى يتضاعف أضعافا كثيرة

وفي حديث جابر عند أحمد ومسلم وأصحاب السنن الاربعة ان النبي صلى الله عليه وسلم اشترى عبدا بعبدين. وفي حديث عبد الله بن عمر عند أحمد وأبي داود ان النبي (ص) قال له «ابتع علينا إبلا بقلائص من إبل الصدقة الى محلها» قال فكنت أبتاع البعير بقلوصين وثلاث قلائص من إبل الصدقة الى محلها. ثم ذكر أن النبي (ص) أداها من إبل الصدقة عند ماجاءت وهناك روايات أخرى في موطأ مالك ومسند الشافعي وعند البخاري تعليقا في شراء الحيوان بالحيوان مع التفاضل بل والنسيئة. وهذا مما يقول الجمهور بجوازه على انهم رووا

النهي عنه من حديث سمرة وحديث جابر بن سمرة. فهذا نوع من ربا الفضل قد أجازه الجمهور

وأما الجواب عن الثاني وهو تعارض حديث أسامة (لا أبي أسامة كما ورد في السؤال) وهو «لا ربا الا في النسيئة» واللفظ للبخاري ولفظ مسلم «إنما الربا في النسيئة»، وحديث أبي سعيد «لا تبيعوا الذهب» الخ كما ذكر في السؤال فقد قال الحافظ في فتح الباري: واتفق العلماء على صحة حديث أسامة واختلفوا في الجمع بينه وبين حديث أبي سعيد فقيل ان حديث أسامة منسوخ لكن النسخ لا يثبت بالاحتمال وقيل المعنى في قوله «لا ربا» الربا الاغلظ الشديد التحريم المتوعد عليه بالعقاب الشديد كما تقول العرب لاعالم في البلد الا زيد مع أن فيها علماء غيره وانما القصد نفي الأكمل لا نفي الأصل وأيضا نفي تحريم ربا الفضل من حديث أسامة انما هو بالمفهوم فيقدم عليه حديث أبي سعيد لأن دلالته بالمنطوق ويحمل حديث أسامة على الربا الأكبر: اه والقول بالنسخ أضعف الأقوال والقول بترجيح المنطوق على المفهوم كما ترى غريب في هذا المقام واذا قلت أن المنفي في صيغ الحصر منفي بالمنطوق كنت أقرب الى الصواب والا لما كان نفي الألوهية عن غير الله في كلمة التوحيد الا من قبيل المفهوم الذي تعرف ما قال فيه أهل الاصول فبقي القول بان حصر الربا في النسيئة هو الربا الحقيقي الذي ورد فيه الوعيد الشديد في القرآن وهذا هو الجمع الذي جرى عليه المحققون كابن القيم وقال ان ربا الفضل لم يحرم لذاته وانما حرم لسد الذريعة.

وعلى هذا يكون الربا الذي ورد عليه الوعيد في القرآن خاصا بربا النسيئة المعهود في الجاهلية ولا يدخل فيه ربا الفضل خلافا لبعض الفقهاء ولو تناوله القرآن بالنص لما اختلف فيه أكابر علماء الصحابة لاسيما ابن عباس وابن عمر (رضي الله عنهم) فعلى هذا لا يكون ربا الفضل منافيا للاسلام

وأما الجواب عن السؤال الثالث فهو ان ما نقله السائل غلط وقع في بعض نسخ البخاري المطبوعة ومنها النسخة التي على هامش فتح الباري والصواب «والشعير بالشعير» وحديث «هاء وهاء» هذا هو حديث عمر وليس

فيه ذكر الورق الا في رواية أبي ذر وأبي الوقت من رواة البخاري فانهما قالا «الذهب بالورق» بدل «الذهب بالذهب» واتفق جميع رواة الصحيحين على «والشعير بالشعير» وبه احتج الشافعي وأبو حنيفة وفقهاء المحدثين على ان الشعير صنف غير البر خلافا لمالك والليث وغيرهما ممن قال أنهما صنف واحد

وأما الجواب عن الرابع فهو ان السلطان الذي أصدر ذلك الأمر إما السلطان سليمان القانوني ولعله الارجح وإما ولده السلطان سليم فان أبا السعود كان في عصرهما وقد توفي في جمادي الاولى سنة ٩٨٢ والسلطان سليم توفي في رمضان من تلك السنة . وقد ولاه سليمان الافتاء سنة ٩٤٥ وهو هو شيخ الاسلام . أما صورة الفتوى فلم نقف عليها والظاهر ان سببها وسبب الأمر السلطاني الذي بني عليها منع الربا المضاعف والاطلاع عليها لا يفيدنا فائدة فقهية وانما فائدته تاريخية محضة فاننا نعلم أنها مبنية على استباحة «المعاملة» ولذلك علل ابن عابدين عبارة الدر التي ذكرتموها بأن السلطان اذا أمر بمباح وجبت طاعته «والمعاملة» ولا إخالكم تجهلونها هي بيع القليل بالكثير احتيالا على الربا كان يقرضه تسع مئة ويبيعه منديلا ثمنه عشرة قروش بمئة قرش مثلا . وقد أجاز الحيلة الحنفية والشافعية واستدلوا عليها بإذن النبي (ص) ببيع الصاعين من التمر الرديء بصاع من التمر الجيد بالحيلة وهي ان يباع كل من الصاع والصاعين بالثمن وذلك خروج من نص «والتمر بالتمر ربا الا هاء وهاء» في الحقيقة دون الصورة والمانعون للحيلة كالمالكية والحنابلة لايجدون للحديث مخرجا الا القاعدة التي ذكرها ابن القيم وهي ان ماحرم لسد الذريعة كربا الفضل جاز للمصلحة وأنت تعلم انه لا معنى لاشتراط كون بيع النقد أو القوت بجنسه يدا بيد مثلا بمثل لذاته لأن عاقلا لا يفعل ذلك اذ ليس فيه فائدة وانما يقصد الناس بالبيع الزيادة بالقدر او الوصف ولا شيء من ذلك بمحرم لذاته لأنه هو أصل المنافع والمقصد من التجارة فلم يبق لذلك الشرط معنى الا سد ذريعة التوسل الى ربا النسيئة الذي كانوا يأكلونه أضعافا فلما أخبر عامل خيبر النبي صلى الله عليه وسلم انهم يأخذون الصاع من التمر الجنيب — وهو الطيب أو الصلب وقيل ما أخرج حشفه — بصاعين من الجمع — وهو ماخلط بغيره

أو الدقل وهو نوع رديء — قال «لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة . فأباح ذلك عند العلم بالحاجة اليه وأمر بأن يكون البيع بالدراهم لأنه هو الاصل في التجارة وليبقى بعيدا عن ذريعة الربا

ومن الحنفية من صرح بأن الحيلة في الربا لا تجوز الا لحاجة كتثمير مال اليتيم أو الارملة أو طالب العالم المنقطع عن الكسب وعنده مال اذا أنفقه نفد واضطر هو الى ترك العلم فلم يجزه هؤلاء الا للحاجة أو الضرورة . ولا يجيزون ان يكون مضاعفا فقد راعى هؤلاء النص القطعي في تحريم الربا المضاعف الذي لا هوادة فيه وراعوا المصلحة أو الضرورة وقدروها بقدرها في ربا الفضل وأخرجوها بما يسمونه المعاملة أو المرابحة عن صورة المنهي عنه في الاحاديث حتى لا تخرج عن حكمة الشارع في معناها ولا في صورتها فان كل حيلة أبطلت حكمة الشارع ومقصده فهي باطلة لا تزيد صاحبها الا مقتا وضلالا

واعلم ان الزيادة الاولى في الدين المؤجل من ربا الفضل وان كانت لأجل التأخير وانما ربا النسيئة المعهود هو ما يكون بعد حلول الأجل لأجل الانساء أي التأخير واذا تكرر ذلك كان الربا المضاعف كما كانوا يفعلون في الجاهلية . والذين يقولون بالمعاملة أو المرابحة يجددون العقد عند نهاية الاجل اذا لم يدفع لكيلا يزيدوا المال لمحض الانساء صورة ومعنى ولكن هذا اذا أدى الى مضاعفة المال على المدين كان مخالفا لحكمة الشارع ولا يستحله ذو دين

أسئلة من سنغافوره عن القرآن بالفونغراف

(س ٣٦ و ٣٧) عون الله الحضرمي بتصرف في لفظه : ظهرت آلة تنطق بالأحرف بالغنا والاشعار المختلفة وتغنى وتنوح ثم ظهرت فيها قراءة القرآن والأذان، وصارت تتداوله أيدي الكفرة وأهل الطغيان، في كل قهوة و «مخدرة وزق وزقاق» كأنه للتفرج والفرح ويباع في كل دكان، من أهل الاسلام وأي دين كان، لأن الأمة زاغت بهذه الفنون، كأنهم أصيبوا بالجنون، ولا ندري ماذا يكون، والله يقول ﴿ فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ فأجيبنا

سؤال مجلة المنار عن حكم الشريعة في المسألة فان منهم من قال ذلك جائز ومنهم من قال ذلك لايجوز . فنرجو أن تجتهدوا فيها ، وتملأوا صحيفتكم بفتواها . وهذا عندي من أكبر الكبائر ، والله أعلم بما في الضمائر ،

(س) من السيد حسن بن علوي بن شهاب :

الى المنار المنير : ماحكم الاسطوانات المودع فيها صوت القارىء للقرآن فهل هي كالمصحف في الحكم حملا ومسا وحرمة أم لا . وقد اختلفت الافهام هنا وأنا أعتقد أن لاحكم لها بل هي كغيرها من الجمادات

(ج) قدجاءتنا أسئلة أخرى في معنى هذين السؤالين من مصر وغيرها فاكتفينا بهما عنها فأما استعمال هذه الآلة في تأدية القرآن فهي فيما نرى تابعة لقصد المستعمل فاذا قصد بذلك الاتعاظ والاعتبار بسماعه فلا وجه لحظره واذا قصد به التلهي وهو ماعليه الجماهير في كل مايسمعونه من الفونغراف فلا وجه لاستباحته وأخشى أن يدخل فاعله في عداد من اتخذوا دينهم هزوًا ولعبا فيتناوله وعيد قوله عز وجل (٦ : ٦٩ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله وليّ ولاشفيع) الآية وقوله تعالى في وصف الكافرين أهل النار (٧ : ٥١ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا) وأن يدخل مشتري الاسطوانات أوالألواح التي تؤدي القرآن بهذا القصد في عداد من نزل فيهم (٣١ : ٦ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا أولئك لهم عذاب مهين) كلا بل ربما كان شرا من هؤلاء الناس فانه جعل الآيات نفسها مع ذلك اللهوفي قرن فصرف النفس عن الاعتبار حتى اذا تليت عليه كان كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا . وقدكان الاستاذالامام يتأثم من استعمال الفونغراف في تأدية القرآن مطلقاً فيما ظهر لي منه ولكن وجد في أصحاب العمائم هنا من يجرأ على القول بإباحته مطلقاً ولعل ماذكرناه من اختلاف الحكم فيه باختلاف القصد اقرب والله أعلم بالسرائر

وقد يكون لبعض الناس من المقاصد الصحيحة غيرقصد الاعتبار والاتعاظ

بسماع القرآن مايبيح لهم ذلك أو يجعله مطلوبا كان يستعين به من لايضبط القراءة أو لايحسنها على ضبطها وتجويدها أو تحفظ فيه أثرا تاريخيا

وأما حكم حمل ومس الاسطوانات أو الألواح التي بها تتأدى القراءة الذي بني السؤال عنه على الاعتقاد بحرمة حمل المصحف أومسه على المحدث وهو من يحتاج في صحة صلاته الى الوضوء أو الغسل ففيه وجهان (أحدهما) أن يقال ان اسطوانة الفونغراف أو لوحه الذي ينشأ عن قرع الإبرة له الصوت المشتمل على الكلام ليس قرآنا مكتوبا اذ لايرى الناظر فيه شيئا من كلمات القرآن ولاحروفه فلا يتناوله الضمير في قوله تعالى (٥٦ : ٧٩ لايمسه الا المطهرون) الراجع الى قوله (كتاب مكنون) بناء على ان المراد بالكتاب القرآن وهو وجه ضعيف في التفسير لأنه ليس بكتاب . وهذا الوجه ظاهر على طريقة الفقهاء الذين ينظرون في استنباط الأحكام الى مدلولات الالفاظ في الغالب وهو الذي لاح للسائل فيما يظهر

(والوجه الثاني) أن ينظر في المسألة الى حكمتها وسرها فيبني الحكم على ذلك ، وبيان ذلك أن تلك النقوش التي تسمى كتابا ما كان لها حكم الكلام الا لأنها وسيلة للعارف بها الى أدائه ونقله وكذلك اسطوانات الفونغراف أو ألواحه وسيلة الى ذلك . فاذا كانت الألواح والصحف المكتوب فيها القرآن كله أو بعضه محترمة لأنها وسيلة الى أدائه فلماذا لا تكون ألواح الفونغراف واسطواناته محترمة كذلك ،

ولصاحب هذا الوجه ان ينقض الوجه الأول بأن العرف يسمي ما في هذه الاسطوانات والألواح قرآنا اذ يقال ان هذا اللوح فيه سورة كذا أو قوله تعالى كذا واذا نظرنا في الكتابة نظر الفيلسوف نرى ان النقوش الدقيقة التي في ألواح الفونغراف أجدر من النقوش الكتابية بأن تسمى كلاما ذلك بأنها كتابة طبيعية حدثت من تموج الهواء بالقراءة اللفظية بواسطة الابرة المعروفة وهي تعيد الكلام كما بدأه القارىء لاتخطىء . وأما الكتابة الخطية المعروفة فهي كتابة اصطلاحية لاتؤدي الكلام بطبعها بل بالمواضعة والاصطلاح وقد يقع الخطأ فيها من الكاتب فلا يؤدي ما أملي عليه كما هو ، ومن القارىء فلا يؤدي ما كتب على وجهه وان كان

عارفا بالكتابة بل المتلقي القراءة لا يضبطها كما هي لذلك قال بعض علماء الاصول ان تواتر القرآن خاص فيما ليس من قبيل الأداء فاننا لا نقطع بأن أداءنا لهذا القران المتواتر كأداء النبي صلى الله عليه وسلم ولو كان في عهده فونغراف حفظت به قراءته لقطعنا بذلك ولعد الأداء أيضا متواترا . ومن ثم قلنا إن من المقاصد الصحيحة ان يستعمل الفونغراف في أداء القرآن لأجل ضبطه إن احتيج الى ذلك

هذا وان تحريم مس المصحف على المحدث لا ينهض عليه دليل من الكتاب ولا من السنة ولكن بعضهم ادعى الاجماع على حرمة مسه للجنب ولا تسلم له هذه الدعوى والخلاف في غير المتوضيء أقوى . نعم ان احترام القرآن واجب قطعا واهانته من كبائر المحظورات بل من الكفر الصريح اذا كانت عن عمد ولكن حمل المحدث له لا ينافي الاحترام ولا يستلزم الاهانة فرب محدث يحمل القرآن وهو له أشد احتراما ورب متوضيء يحمله وهو مقصر في احترامه

الجنة والنار

(س ٣٨) من محمد أمين أفندى فوزي صاحب جريدة العجائب بمصر

حضرة الاستاذ الفاضل صاحب مجلة المنار الغراء

تحيات وتسليمات وأرجو الجواب على السؤال الآتي تحت امضائي

هل الجنة والنار حقيقيتان وان كانتا كذلك فاين مقرهما ؟ افيدونا ولحضرتكم الثواب ؟

(ج) اذا أردتم بالسؤال كونهما ثابتتين أم لا فالجواب أنهما ثابتتان قطعا وما أراكم تريدون هذا وقد قرأتم الآيات الصريحة في ذلك . وان أردتم هل مدلولهما على معناهما حقيقي كما يفهم من اللفظ أم لا — وهو ما يغلب على الظن — فالجواب انه ليس المراد منهما ما يفهمه العربي من اللفظ بل لكل منهما حقيقة شرعية أخرى يؤخذ وصفها من مجموع ما ورد فيها من النصوص ويقال بالاجمال ان الجنة دار الجزاء الحسن على الايمان الصحيح والاعمال الصالحة لا بستان كبساتين الدنيا والنار دار الجزاء على الكفر والأعمال السيئة لا مجرد ما نسميه نارا . أما مقرهما

فهو في غير هذا العالم أي في عالم الغيب فلا فائدة في البحث عنه فنحن نؤمن بهما ايمانا غيبيا اتباعا لما جاء به الرسول عن الله تعالى . لا نزيد على ذلك ولا ننقص منه ولا نشبه عالم الغيب بعالم الشهادة بل نفوض ذلك الى الله تعالى

القسم برب موسى وعيسى وابراهيم . وأبجد وهوز الخ

(س ٣٩ و ٤٠) من عبد الحافظ أفندى على (بشربين)

سيدى العلامة المفضال منشئ مجلة المنار الغراء

بعد الاحترام سئلت مرة وسألت علماءنا مرارا عن اليمين المتداول بين الناس وهو (والله العظيم رب عيسى وموسى وابراهيم) ظنا مني انه لا بد من حكمة يعرف العالم العامل ولكني من الاسف لم أهتد على الجواب الشافي الكافي وسألت أيضا العلماء والادباء عن معنى (أبجد . هوز . حطى . الخ فلم أقف على الحقيقة » فنرجوكم اجابتنا في العدد الاتي ولكم الشكر وأمضيه باحترام ؟

(ج) أما القسم المذكور فلا أعرف له حكمة ولا أرى البحث عنه أمرا ذا بال ويسبق الى الذهن انه جرى على لسان بعض محبي السجع فاستحسنه الناس وسمعت بعض العامة يحذف منه اسم عيسى فخطرلي انه ربما كان من أقسام اليهود وسرى منهم الى المسلمين

وأما أبجد هوز الخ فهي كلمات ضبطوا بها حروف المعجم ولهم فيها روايات جمع المشهور منها الشيخ حسين والي في كتاب الاملاء قال

« هذا وكان تعليم الحروف في أول الامر على ترتيب — أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ قال في القاموس : وأبجد الى قرشت وكلمن رئيسهم ملوك مدين — ووضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم — هلكوا يوم الظلة فقالت ابنة كلمن

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ حتف نارا وسط ظله
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحله

«ثم وجدوا بعدهم ثخذ ضظغ فسموها الروادف اه فهم قوم شعيب صلى الله عليه وسلم و يوافقه ما في الخطط المقريزية

«وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعروة بن الزبير انهما قالا — أول من وضع الكتاب العربي قوم من الاوائل نزلوا في عدنان ابن ادين أول أسماؤهم — أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت — فوضع الكتاب العربي على أسمائهم ووجدوا حروفا ستة ليست من أسمائهم وهي ثخذ ضظغ فسموها الروادف اه

أما الفقهاء فقد قال منهم محمد سمعت بعض أهل العلم يقول انها اسماء ولد سابور ملك فارس — أمر من كان في طاعته من العرب ان يكتبوها — قال فلا أرى لأحد ان يكتبها فانها حرام اه وقال سحنون سمعت حفص بن غياث يحدث ان أبا جاد اسماء شياطين اه وبنى على ذلك كراهة تعليمها الصبيان» انتهى المراد من كتاب الاملاء

باب المناظرة والمراسله

مطالب مسلمي روسيا من دولتهم

« تتمة رسالة الشيخ رضاء الدين »

الكلام على المادة الثامنة

نحن نعبر هنا عما أتى في هذه المادة « بالخصومات العائلية » توخياً للسهولة وفي الواقع ان هذه الخصومات لا تعدو البيوت (العائلات) في الغالب . وهي تفارق الخصومات الأخرى بوجوه عديدة . لاجتهاد المجتهد دخل كبير في سائر الخصومات وكثيراً ما يعول القاضي في فصلها عليه . وأما الخصومات العائلية فمعظمها — ان لم نقل كلها — يرجع في فصلها الى الكتاب والسنة فقط . وتقسيم التركة مثلاً لا حاجة فيه الى الاجتهاد بالمرة وانما العمدة فيه الكتاب والسنة . أو نقول: ان الحاجة فيه الى الاجتهاد شاذة نادرة

ليست محاولة الحكومة الروسية أخذ فصل الخصومات العائلية من أيدي قضاة المسلمين وتسليمها الى المحاكم المدنية أمراً حديثا . بل يظهر من مطالعة كتاب (رحلة تركستان) لرجل يقال له « شيلر » ان الحكومة همت بهذا الامر قبل اليوم بثلاثين سنة

غير انه قد عرض حينئذ في سبيل اتمامه عوائق اضطرتها الى إرجائه الى يوم بوانيها لا ارى وسيلة معقولة تتوسل بها الحكومة الى سلب قضاة المسلمين حق فصل « الخصومات العائلية » سوى زيادة هضم حقوق المسلمات ، وعدم اقتدار علماء المسلمين على تلافي هذا الخلل في الحكم والقضاء

اذا فاجأتنا الحكومة قائلة : أيها المسلمون قد عم وطم بينكم ظلم النساء والاجحاف بحقوقهن . وقضاتكم لا يفكرون في اصلاح هذا الخلل . والخطب يتفاقم يوماً فيوماً ؛ أفيجدينا نفعاً ان نجاوبها قائلين : نحن برآء مما تتهمينا به؟ أو ان نقول : ليبق الامر بأيدينا ولو كانت الحال كما تقولين : كلا

ان رجال الحكومة لا تخفى عليهم خافية من شؤوننا لأنهم يراقبوننا بقلوب متيقظة وعيون ساهرة وان كنا نخالهم غافلين عنها . نعم ان العرائض التي ترفع الى المقامات العالية من قبل المسلمات قليلة بالنسبة الى عدد النفوس . غير ان قلتها لا تصلح ان تكون دليلاً على قلة وقوع الظلم عليهن . لان المسلمات في هذه البلاد متحجبات لا يمكنهن التظلم والتشكي من حالهن بأنفسهن . وفريق منهن يزجين الايام في العذاب الاليم والشقاء الدائم متسليات باحالة الامور الى القضاء والقدر

فابقاؤهن على هذه الحالة التعيسة جدير بان يعد ضرباً من الظلم وعدم الاكتراث بشأن هؤلاء المسكينات . مطالبتنا الحكومة بما في هذه المادة كما هو تشبه قولنا لها : لا يهمنا أمر المسلمات وانصافهن وانما يهمنا بقاء الامر بأيدينا : ولا أظن الحكومة تقنع لنا بمثل هذه المطالبة العارية من كل حجة وبرهان

لا يقل الظلم والحيف ولا يكون الناس آمنين من قبل حكامهم الا اذا كان القضاة الشرعيون يراعون مقاصد الشريعة العادلة وكانت القوانين التي يعول عليها في الحكم وطيدة الاركان ، ثابتة البنيان وفصلت الدعاوي بالعدل وتحري منهج الانصاف

اذا كانت القوانين ملائمة لمعاملات الناس وحالاتهم الاجتماعية فلا جرم أنهم يعيشون سعداء من هذه الجهة . وأما اذا كانت على العكس فلا تزيد أمورهم الا ارتباكاً واختلالاً

لا بد في وضع علم الحقوق من ملاحظة عادات الناس وطرق معاملاتهم سواء كان مبنيًا على أساس الوضع الالهي أو على أساس العقول السليمة والآراء الصائبة.

وغني عن البيان ان عادات الناس وأساليب معاملاتهم تتغير على اختلاف الاعصار وتحول الدول

وهذا التغير الدائم يقضي بتبدل بعض قوانين الازمنة الغابرة في الازمنة الحاضرة وبتبدل بعض قوانين الازمنة الحاضرة في الايام الآتية . ومن هنا نرى الدول الاوروبية تجدد وتحور قوانينها في كل ربع عصر على الاقل هذا أمر لا مندوحة عنه في سير المجتمع البشري

لا يخفى على المشتغلين بالعلم ان المتون المعول عليها في علم الحقوق الاسلامية أو في الفقه الاسلامي وضعت قبل اليوم بسبعة أو ثمانية قرون في بغداد والري والشاش (المسمى اليوم طاشكند) وسمرقند ومرغينان ومرو وما اليها من المدن المعمورة في سالف الازمان . ولا شك ان مؤلفي تلك الكتب راعوا في وضعها عادات تلك العصور ومناهج معايش أهل تلك البلاد . وبما اننا اليوم نعيش في عصور غير عصورهم وفي بلاد غير بلادهم نجد طائفة من القواعد الفقهية المذكورة في تلك الكتب يستحيل العمل بها في هذه الايام في بلادنا . ولذلك نرى القضاة الشرعيين فينا يلجؤن حينًا بعد حين الى الحكم الجزافي . والحكم الجزافي وان كان عظيما عند الله لا تبدو مضاره الدنيوية في مرة أو مرتين ولكنه اذا تكرر عدة مرات صار قاعدة مطردة في الحكم حتى ان الحكم بخلافه يوقع الحكومة في ريبة ويضعف ثقتها بقضائنا وقضاتنا . وما ينشأ عن هذا من المفاسد لا يعلمه الا أهل البصر من القضاة والحكام

وبالجملة ان كثيراً من القواعد المذكورة في الكتب الفقهية لا يمكن الاخذ بها في الازمنة الحاضرة وان كثيراً من الاشياء التي ظهرت في هذه الايام لا ذكر لها ولا اشارة اليها في تلك الكتب . فلهذه الاسباب نرى القضاء الشرعي فينا يتقلص ظله يومًا فيومًا . ولا يرتاب أحد في شيوع الظلم وضياع الحقوق اذا لم يكن القضاء مبنيًا على أصول تكفل العدل وايتاء كل ذي حق حقه

ولذلك يصعب جدا ان نرد على الحكومة توجيهها الينا ظلم النساء والاجحاف بحقوقهن بتطبيق الامر على الواقع وان كان الرد عليها بالدلائل النظرية والقواعد المنطقية سهلاً ميسوراً

ومن هنا أقول: لا ينبغي لنا ان نطالب الحكومة بما أتى في هذه المادة بصورة مبهمة مجملة بل يجب علينا ان نقرن بها بعض الدلائل قائلين مثلا « نحن لا نرغب في بقاء فصل الخصومات العائلية بأيدي قضاتنا لكون هذا الامر عادة معروفة فينا منذ عهد قديم فقط بل نطلبه لكونه أمرا دينيا بحتا أيضا لأن حكم القضاة غير المسلمين في مثل هذه الخصومات لا أثر له في نظر الشريعة الاسلامية . بل تحوير الفقه الاسلامي وجعله صالحاً للحكم به في هذا الزمان راجعان الى علماء المسلمين أنفسهم.

وفي وسع الحكومة أن تؤلف لجنة من علماء المسلمين الكبار وتنوط بها وضع كتاب فقهي في الدعاوى العائلية وأبواب القضاء والشهادات والدعوى والبينات وما شاكلها من المباحث حتى يتخذه القضاة الشرعيون « دستوراً » للعمل في القضاء وفصل الخصومات

ويمكن تلخيص كلامنا على هذه المادة في المباحث الآتية :

١) كتبنا الفقهية لا تكفي اليوم لفصل الخصومات العائلية

٢) بعض القواعد الفقهية لا يمكننا الجري عليها في هذه الايام

٣) القواعد الفقهية يجوز تغييرها بحسب اقتضاء الأزمنة والمصالح العامة

٤) فصل الدعاوي العائلية من الامور الدينية

٥) يجب وضع كتاب فقهي يكون عمدة للقضاة الشرعيين في قضائهم

فنتكلم هنا على هذه المباحث الخمسة مبحثًا مبحثًا ولو باختصار فنقول :

(المبحث الاول) : لو شئنا لسردنا هنا لاثبات هذا المدعي دلائل كثيرة بيد أننا لا نحب أن نطيل المقال بايراد الأمثلة الجزئية المختلفة . غني عن البيان أن كتبنا الفقهية ألفت في زمان لم تكن فيه البوسطة (البريد المنتظم الحاضر) والتلغراف والتليفون وما اليها من المخترعات الحديثة . وكذلك لم يكن فيه دفاتر المواليد

والوفيات المنتظمة كاليوم ولا محكمة الاشهاد التي نعرف في روسيا (بالناتاريوس) ولاشهادة الحاكم والاطباء ولا النفي الى سيبيريا مؤبدا أو موقتا عدة مديدة ولا الحكم بالانخراط في سلك المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة وماشاكلها من النظامات المستحدثة في الدول المتمدنة اليوم . مع ان لهذه المذكورات دخلا كبيرا اليوم في معاملاتنا ودعاوينا وفصل الخصومات واعلان الاحكام

ولا يتسنى تطبيق أحكام تلك النظامات الحديثة على مافي الكتب الفقهية الا لافراد قلائل من نوابغ العلماء . والكتب التي لا تصلح أن تكون « عمدة » لكل قاض جديرة بأن يقال فيها : أنها لا تكفي لحاجة العصر الحاضر .

يكلف رجل مقيم في احدى مدن سيبيريا امرأته الساكنة في أحد بلدان روسيا المتوسطة بواسطة التلغراف بعد اشهاد محكمة « الناتاريوس » على هذا الكلاف . أو يبعث رجل في مدينة « موسكو » بكتاب الى زوجه في سيبيريا يخبرها فيه بطلاقها بعد أن حول النقود التي تصرفها المرأة لنفقة العدة على احدى البنوك . ففي مثل هذه النوازل يحار قضاتنا الشرعيون المتوسطون فلا يكادون يستخرجون فيها حكما مامن كتب فقهية تنوء ببعير . واما كبار القضاة — وان لم تملكهم الحيرة بالمرة — فلا يعدو فكرهم مباحث « كتاب القاضي » ومبحث « جواز العمل بالخط وعدم جوازه » . ولا يخفى على البصير ان فصل تلك القضايا بأمثال هذه المباحث أصعب من خرط القتاد . فتضطر أولئك النساء الى تزجية الايام كالمعلقات شاكيات القضاء والقدر الى آخر حياتهن

« المبحث الثاني » يقع أحيانا أن جزأ من دعوى واحدة ينظر في مقاطعة « ياكوتسكي » (في أقاصي سيبيريا) وجزأ آخر في بلدة « بلاباي » (في أواسط روسيا) تلجأ قضاتنا اليوم عند النظر في أمثال هذه الدعاوي الى مافي فصول « كتاب القاضي الى القاضي » من الاحكام . مع ان أوجه الاقوال في هذه الفصول (وهو قول أبي يوسف) لا يمكن تطبيقه على مايجري في هذه البلاد . هذه المرأة الساكنة في « بلاباي » مثلا تقضي ثلاثين أو أربعين عاما من حياتها وهي تندب حظها . مع ان زوجها لا يزال في قيد الحياة وليس من المفقودين أيضا

ولا يتسنى لها الاجتماع معه ولو مرة في عمرها . ياليت مثل هذه المرأة كانت واحدة أوعشرا فقط . بيد أنهن لسوء الحظ يعددن بمئات في جميع أنحاء البلاد (الروسية) التي يسكنها المسلمون

لا يذهبن أحد الى أني أطعن بكلامي السابق على الكتب الفقهية وأحط من قدر مسائل « كتاب القاضي الى القاضي » فان العمل بما في تلك الفصول كان موافقاً غاية الموافقة للعصور الاولى المحدجة في كل أسباب العمران وشؤون التمدن . وأما اليوم فقد انقلبت الأمور ظهرا لبطن حتى لو رجع الامام أبو حنيفة لنحّى الكتب الفقهية التي ألفها تلميذه الامام محمد عن مستقرها الذي أقرتها فيه متفقهة الأزمنة المتأخرة ووضع فقهاً جديداً يلائم روح هذا الزمان لامحالة .

لا يحسن بنا البتة أن نحاول تطبيق الحوادث وجميع شؤون الناس المتجددة على القواعد المحصورة بين جلود الكتب الفقهية بل يجب على كل بصير أن يبذل غاية جهده في تطبيق تلك القواعد على الحوادث والعادات . رأينا كثيراً من الجامدين على الكتب الفقهية كانوا يأبون كل الإباء تصديق خبر رؤية الهلال الذي يرد اليهم ممن يعرفونه في البريد إذ يجدونه غير مستوف للقيود المذكورة في باب « كتاب القاضي الى القاضي » المذكور في كتب الفقه المتداولة

مع ان هؤلاء لم يكونوا يرتابون أدنى ارتياب في كونهم هم أئمة المساجد أصحاب المنشورات حين يتلقون منشوراتهم التي كانت ترسل اليهم من مراكز الولايات بمئات من الوسائط — من يد مستخدم روسي في المركز (بمعناه المعروف بمصر) .

يقضي قضاتنا اليوم في المرأة التي يعجز زوجها عن الانفاق عليها باستدانتها على زوجها ولا يجوّزون الفرقة بهذا السبب أبداً

كان هذا الحكم موافقاً في العصور الأولى(وربما يكون موافقاً في هذا العصر أيضا) لمعيشة من يسكنون الكوفة وبغداد وأمثالهما من البلاد الحارة . وأما بلادنا التي يحكم فيها البرد الشتوى الزمهريري عدة شهور فمن المحال العمل فيها بهذا الحكم . لان المبلغ الذي يكفي في تلك البلاد الحارة لتعيش عشر

نساء لا يكفي في بلادنا لتعيش نصف امرأة .

ليت شعري ماذا تجني المرأة من وراء هذا الحكم الذي لا أثر له في الواقع . لماذا لا يحكم باستدانة زوجها ؟ اذا لم يجد الرجل من يقرضه فمن أين تجده المرأة المستضعفة ؟ أتظنون المرأة تنصرف من عند القاضي مبتهجة بتحسن حالها عند ما يقول لها : حكمنا لك بأن تستديني على زوجك : ؟ أي فرق بين حكم يمكن تنفيذه وبين حكم لا يترتب عليه أثر ما في الواقع ؟

يشير علماؤنا في مسألة العنة المعضلة الى العمل بأقوال النساء . هذه المسألة قد طالما اعترف نطس الاطباء بعجزهم عن إدراك حقيقتها في هذا العصر الذي ارتقى فيه علم الطب والتشريح ارتقاء رائعا (راجع كتاب حياتنا التناسلية) فكيف يجوز لنا في مثل هذه المسألة الطبية المعضلة ان نعول على أقوال نسائنا الجاهلات اللواتي لا يعرفن شيئاً سوى الثرثرة بالسفاسف والتباهي بالثياب والرياش؟

طلبت ذات مرة امرأة الفرقة من زوجها في المحكمة الشرعية (باوفا – روسيا) مدعية عنته فحكمت المحكمة بالتأجيل المعروف في كتب الفقه . ثم ظهرت مسألة أخرى وهي : هل الزوجان يقضيان الاجل المضروب معاً أو يقضيانه كيفما يشاآن ؟ المرأة رضيت مساكنة زوجها الى انتهاء الاجل غير أنها اشترطت الاقامة في غير منزل حميها . وأتت بعدة موانع تمنعها من الاقامة فيه . وأما الرجل فهو رد على المرأة دعواها قائلا : انه لا يمكنه مفارقة منزل أبيه لأنه يقوم بحاجاته وهما مشتركان في مهنة واحدة . ولما أبطأت المحكمة في فصل هذه الدعوى فصلاً نهائيا رفعت المرأة الى نظارة الداخلية عريضة شديدة اللهجة تشكو فيها إبطاء المحكمة الشرعية في حل القضية . فأخذت المحكمة تشتغل من جهة بالجواب عن استعلام تلك النظارة . ومن جهة أخرى كتبت الى « القسم الطبي » (باصطلاح الحكومة هنالك) كي يعمل الكشف الطبي للرجل والمرأة جميعا . فعمل لهما الكشف الطبي عند شاهد من قبل المحكمة الشرعية الى أن كتب القسم المذكور في شهادته – سلامة الرجل من العنة وعدم تيقنه بشيء في أمر المرأة . أمثال هذه القضية تقع في كل زمان . ومن لنا بدلائل فقهية من مختصر القدوري والهداية بل الجامع الصغير

يفصل أمثال هذه الدعاوي فصلا مرضياً ؟ ولا أظن أن هذا يتيسر لكل قاض من قضاتنا الشرعيين . فتبين لنا مما سبق بالاجمال أن كثيرا من القواعد الفقهية لا يمكن الجري عليها في هذا الزمان .

﴿ المبحث الثالث ﴾ : لا يستلزم تغيير بعض ما في الكتب الفقهية بحسب اقتضاء الزمان والمكان وتبديل قواعدها البالية بقواعد كافلة لمصالح الناس في عصورهم التي يعيشون فيها تغيير أصول الشريعة الاسلامية العامة وتحريفها

الفقه الاسلامي عبارة عن ركنين . ركن يتألف من أصول الشريعة المعروفة عند أهل كل المذاهب المتبعة . وركن آخر عبارة عن القوانين الاسلامية المؤلفة من آراء رجال معروفين وغير معروفين في أزمنة مختلفة . القوانين الاسلامية لا فرق بينها وبين قوانين الروم القديمة أو قوانين فرنسا وأمريكا مثلا في كون كل منها موضوعة بآراء الرجال . كل الآراء التي ارتآها الفقهاء المتقدمون لما اقتضت معاملات الناس وعاداتهم في زمانهم واتبعوها بقولهم « هذا هو الاوفق لهذا الزمان » أو « هذا هو الأرفق بالناس » أو « العقل السليم يقضي بهذا » أو « عموم البلوى تجيز العمل بهذه القاعدة » وما اليها من أقوالهم . كل هذه عبارة عن القانون الاسلامي الوضعي والسلام

ولا بأس ان نشفع كلامنا هذا بمثال: كون نصيب البنت الواحدة من التركة نصفاً حكم شرعي لا هوادة فيه لأنه ثابت بالكتاب . أما قاعدة مراجعة النساء في مسألة العنين فهو قانون اسلامي لكونه رأيا بحتا من آراء الفقهاء . (لا أظن أن مسألة العنين وقعت على عهد النبي (ص) بجميع فروعها . لان العلامة ابن القيم مع التزامه جمع كل الوقائع التي وقعت والاحكام التي صدرت مما يتعلق بالاسلام في ذلك الزمان لا يذكر شيئاً من ذلك القبيل كتابه « زاد المعاد » المعروف بل مسألة التأجيل نفسها يروى الكمال في فتح القدير كونها منقولة عن الخليفة الثاني والرابع فقط . واما قاعدة العمل في هذه المسألة بفتاوى النساء فلم نعثر الى الآن على مبتكرها مع طول بحثنا وتنقيبنا عنه في الكتب الفقهية . هذا في العنين وأما الوسائل التي يذكرها الفقهاء للتوسل بها الى معرفة البكارة

فحدث عن غرابتها ولا حرج)

الحكم الشرعي الثابت بالكتاب مثلا لا يجوز تغييره بوجه من الوجوه – الا في الضرورة الملجئة – وأما القانون الاسلامي فلا أرى باسا في تغييره وتطبيقه على مصالح كل زمان ومكان لانه مهما تغير شكله وتبدلت صورته لا يخرج عن كونه قانونا اسلاميا

(المبحث الرابع) كما انه يجب ان تكون أصول الاحكام التي يبنى عليها فصل الدعاوي العائلية أحد الاصول الشرعية المعروفة (لا يضر حكمنا هذا ما في تلك الاحكام من القوانين الاسلامية لأن أحكام الآراء انما هي في فروع الاحكام دون جوهرها على ان القوانين الاسلامية نفسها لا مندوحة عن كون واضعيها مسلمين) فكذلك يجب ان يكون القضاة الذين يقضون بها قضاة شرعيين والقاضي الشرعي لكونه نائبا في القضاء عن الرسول (ص) لابد من كونه مسلمًا ومن أجل هذا نجد الخلفاء العباسيين لم يوسدوا القضاء الى غير المسلمين حين وسدوا الى علماء اليهود والنصارى والصابئين والمجوس أكبر الوظائف غير القضاء.

كما ان نكاح المسيحيين لا يعد شرعيا الا اذا باشر عقده أحد الروحانيين منهم فكذلك فصل الدعاوى العائلية في المسلمين لا يعد شرعيا اذا جرى على يد قاض غير مسلم مهما كان بارعًا في الفقه الاسلامي. لأن القضاء في الدعاوى العائلية وظيفة دينية بحتة كالإمامة في الصلاة سواء بسواء. فنعلم من هذا ان قضاء القاضي المسلم بالقوانين الوضعية في الدعاوى العائلية ليس بشيء في نظر الشرع. فكيف بقضاء القاضي غير المسلم بتلك القوانين؟

ثم ان المذاهب المشهورة تشترط كون القاضي مجتهداً. قضاء القاضي غير المجتهد وان كان ينفذ في مذهب الحنفية غير ان لنا شبهة قوية في كون هذا القول قول أبي حنيفة نفسه. على أنهم لا يجيزون قضاء القاضي المقلد الا اذا كان مستنداً الى فتوى المفتي المجتهد. فلا يبقى كبير فرق بين المذهبين. لأن الأول يقضي بكون القاضي مجتهدا مباشرة. والثاني يقتضي كونه مجتهداً بالواسطة. وعلى كل حال لا بد في فصل الدعاوى العائلية من قاض مجتهد أو مفت مجتهد. ولا يجوز إفتاء غير المجتهد

في المذهب الراجح. واشتراط الاسلام للاجتهاد أمر لا خلاف فيه بين المسلمين

أوجزنا الكلام بهذا الشأن ايجازا ولم نكتب ما كتبنا الا بظن أنه قد يكون عونا على ابقاء فصل الدعاوى المذكورة بأيدي علمائنا. اذا نحن أنكرنا كون أئمة مساجدنا قضاة شرعيين وذهبنا مع ذلك الى انقضاء عصر الاجتهاد وانسداد بابه كنا كمن نفض يده من النظر في تلك الدعاوى باختياره وسلمها الى المحاكم المدنية برضاه

فمن العبث اذاً أن نتفاوض فيما بيننا في ابقائها على حالتها الأولى

قال العلماء المحققون بجواز تخصيص القضاء ببعض الاحكام وكذلك قالوا بوجوب اتخاذ ثلاثة نفر من المسلمين القاطنين في موطن واحدا منهم قاضيا لهم. صرحت الحكومة في قوانينها المتعلقة بأئمة المساجد بأن في وسع الأئمة ان يفصلوا القضايا العائلية الحادثة في احيائهم بمقتضي شرعهم وان يعلنوا الحكم للمتخاصمين. وليس اليهم فصل الدعاوي المالية» فما الذي يمنع ان يكون هؤلاء قضاة شرعيين؟ لا يمنعهم من ذلك كونهم منصوبين من قبل حكومة غير اسلامية. لأن القضاء يجوز تقلده من أية حكومة كانت

ولا يعقل أن يكون المانع هو عدم تلقبهم بالقضاة. لان القضاء لا يشترط فيه هذا اللقب (القاضي). ولا إخال ان أحدا ينازعنا في ذلك، فما المانع اذاً؟ ان الحكومة مكنت أئمة المساجد عندنا من النظر في دعاوى النكاح والطلاق وامثالها تمكينا تاما حتى انها تؤاخذهم مؤاخذة عنيفة اذا هم قصروا في ذلك كما انها تؤاخذهم اذا تخلفوا عن الامامة في صلاة الجمعة بلا عذر شرعي (ارجع الى القوانين المتعلقة بذلك)

ليست المنشورات التي تعطيها المحكمة الشرعية لأئمة المساجد هي التي تثبت لهم وظيفة القضاء. لان نصب الأئمة والقضاء ليس الى المحكمة الشرعية في هذه البلاد. واذا نظرتم الى مواد القانون التي تذكر في منشورات الائمة ظهر لكم هذا ظهورا بينا. فبما قلنا يتبين سقوط قول القائل: لا تكون أئمة المساجد قضاة شرعيين الا اذا نصبتهم المحكمة الشرعية

لا يجوز لنا أن نتدخل في الأمور التي تناط بها حياة الامة وبقاؤها بل

يتحتم علينا أن نجيل قداح التشاور بعد أن نزعنا من قلوبنا كل غرض شخصي وسخيمة كامنة .

اذا كان في ادعاء كون أئمة المساجد عندنا قضاة شرعيين شيء يصادم الشريعة أو يضر بمستقبل الامة فانا لا يصعب علي العدول عن هذا الرأي في كل حين

وما أنا الا من غزية ان غوت   غويت وان ترشد غزية أرشد

﴿ المبحث الخامس ﴾ مسلمو روسيا في حاجة شديدة الى كتاب في علم الحقوق الاسلامية (أو الفقه الاسلامي) ملائم لمقتضيات هذا الزمان يكون «دستوراً» لقضاتنا الشرعيين في فصل الدعاوي العائلية .

اذا بقيت وظيفة فصل هذه الدعاوي بايدي علمائنا كما كان في السابق تحتم علينا قبل كل شيء سواء أمرت الحكومة أو سكتت أن نبادر الى وضع مثل هذا الكتاب .

وغني عن البيان ان وضع كتاب على هذا النحو انما يكون بواسطة «لجنة» مؤلفة من أكابر العلماء وأفاضل المدرسين . ثم يحور وينقح ما فيه من الأحكام بحيث لا يناقض الاصول الشرعية على ممر الأيام . يروى حديث معناه «يأتي على كل رأس مئة سنة مجددون يجددون الدين» واذا صح هذا الحديث فلا مندوحة من أن يكون فى حاجات الامة ومهماتها . وأهم المهمات للمسلمين بل للمجتمع الانسانى بأسره هو علم الحقوق والفقه دون الشعر والتاريخ والتصوف . لان الفقه المعزو الى الدين اذا لم يكن كافلا بحفظ حقوق الناس وصيانة مصالحهم فقد يكون سببا لرغبة الناس عن الدين نفسه . واذا كانت الاحكام غير ملائمة لمصالح الناس فلاجرم تضعف ثقتهم أيضا بالقضاة الذين يحكمون بها . متى سمعنا الناس يعزون العدل الى قضاة يحكمون باحكام مشوشة مختلة ؟ ومتى سمعنا أمة تراخت روابط المحبة بينها وبين قضاتها وحكامها ثم حييت حياة طيبة وبقيت وطيدة الأركان ثابتة البنيان ؟ اذا كان هذا شأن الفقه مع الأمة الاسلامية فما الذى اضطر بعضهم الى حمل حديث التجديد على التصوف ؟ هل التصوف ركن من أركان الاسلام حتى يعتنى به هذا الاعتناء ؟

كيف يوضع هذا الكتاب ؟ هذا سؤال سابق لاوانه . لأنه لم يحن بعد وقت المفاوضة في كيفية الوضع وما علينا الآن الا أن ننظر في أمور تهمنا في الحالة الراهنة . ومع هذا وذاك فلا بأس علينا اذا ألمعنا هنا إلماعا الى كيفية الوضع أيضا . اذا جاء وقت وضع كتاب على نحو ما ذكرنا وجب علينا أن نضعه معتمدين على أصول الشريعة مهما أمكن من غير تقيد بمذهب خاص . بل نرجع الى كتب المذاهب المعروفة قاطبة فيؤخذ الصالح مما فيها ويترك غير الصالح .

ولا تضرنا تسمية هذا العمل (تلفيقا) . لأنه لم يقم الى الآن دليل ناهض على حرمة (التلفيق) و بطلانه

من ينكر علينا كون المذهب المدعو بمذهب الحنفية ملفقاً من المذاهب الثلاثة المتخالفة أصولا وفروعاً . اذا أنكر علينا هذا منكر فليتفضل بدليله . يقول المحققون : ان الخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه أكثر وأشد مما بين الامام مالك و بين الامام أحمد

لم يوقع الامة في هذا الافتراق الشنيع وفي مهاوي الذل والفاقة والفوضى والتعصب الجاهلي الا فشو التقليد وتكثر المقلدين . يكون اجتماع الكلمة واشتداد الاواخي بين أفراد الامة بحسب كثرة المجتهدين والباحثين وتقلص ظل المقلدين والجاحدين هذه المذاهب المتبعة نفسها لم تكن متبعة على عهد المجتهدين أنفسهم وانما صارت متبعة بعدهم بعدة قرون

وحين كان المجتهدون كثيرين لم تكن الامة مصابة بداء الافتراق العضال الذي فت في عضدها وذهب بمنتها ولم تنفق اذذاك سوق التضليلات والتجهيلات كما نفقت بعد إغلاق المسلمين في وجوههم أبواب الاجتهاد بأيديهم . العلم نقطة كثرها الجاهلون . وأستغفر الله إن طغى القلم، أو زلت القدم، والعصمة لله المتعال، وما بعد الحق الا الضلال .

الانتقاد على محمد فريد أفندي وجدي

٢

وصف بعض المحررين في احدى الجرائد اليومية فريد أفندي وجدى بأنه من عشاق الانتقاد عليه وكنا نحن على علم يقيني بأنه يمقت الانتقاد أشد المقت لأنه من أصحاب الدعوى العريضة والغرور ولانه لما طبع كتاب (تطبيق الديانة الاسلامية على نواميس المدنية) وأهداه الينا تصفحنا بعض صفحاته فألفينا فيه من الخطأ في المسائل الدينية والدعوى مالا يجوز السكوت عليه وكنا قد عرفنا الرجل معرفة شخصية وأحسنا الظن به لما حدثنا به عنه بعض محبيه من انقطاعه للمطالعة والكتابة فكرهنا أن ننتقد الكتاب بدون استشارته واستئذانه فكتبنا اليه — وكان في دمياط — نتلطف في الاستئذان ونلبسه من حلل الثناء ما يكون به حسناً جميلا فكتب الينا راجياً أن لا ننتقد الكتاب وقال ان الانتقاد يصرف الناس عن المنتقد لأن الأمة لم تتعود ذلك أو ما هذا معناه . فاكتفينا يومئذ باطرائه وإطراء كتابه تنشيطاً له الا أننا انتقدنا عليه شيئاً واحدا وهو دعوى ان أحدا لم يقم بالبحث عن أسباب ماحل بالمسلمين لما فيه من هضم المنار (١)

لما كتب ذلك الكاتب في تلك الجريدة ما كتب قلنا لعل الزمان غير منه فحبب اليه الانتقاد أو لعله صار يحسن الظن بالامة فلا يخاف أن تصرفها كلمة نقد عن الشيء الذي تنتقده اذا كان حسنا في نفسه فكتبنا في جزء الشهر الماضي ما كتبنا ولم يكد ينتشر الجزء حتى بادر فريد أفندي وجدى الى كتابة أربع مقالات في جريدة اللواء تمثل كل كلمة منها للقارىء اضطراب مجموعه العصبي — وهو عصبي المزاج — وبلوغ الغيظ والغضب والامتعاض منه منتهى ماتبلغ من أمثاله العصبيين . على انه يقرر ويكرر في كتاباته ما اقتبسه من المنار أوغيره من قول الامام مالك: كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه الاصاحب هذا القبر : (يشير الى قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم) بل يصرح بأن هذا أصل من أصول الاسلام « العمرانية » التي يفضل بها غيره . فلماذا عظم عليه الانتقاد عليه وأخذته العزة بالاثم حتى استفرغ كل هاتيك الغميزة والإزراء بالمنتقد والتعظيم والتبجيل لنفسه وكلاهما منكر عظيم ؟

ذكرنا في نبذة الجزء الماضي ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى قال في وصف ما يكتب فريد أفندى وجدي انه مقدمات ووعود . وكان يرجى أن تفيده هذه الموعظة الدرية من امام العصر وحكيم الشرق ومفخر مصر فيترك تلك المقدمات والوعود التي كلها دعاوى وتبجح ويتكلم في المقاصد من غير أن يدخل نفسه فيها ولكنه كان بعد العلم بها أوغل في ذلك منه قبله وزاد على الوعود الوعيد فتوعدنا اذا عدنا الى الانتقاد عليه بما يأتي

قال في آخر المقالة الاولى بعد دعوى أن الناس يعهدون منه الى اليوم دفع

---

(١) كتبنا في (ص ١١١ م ٢) تقريظاً لهذا الكتاب قلنا فيه مانصه :
ومما انتقدناه (تأمل كلمة مما) على صديقنا الفاضل مؤلفه انه هضم حقنا في خدمتنا في المنار حيث قال في فاتحة الكتاب ما نصه : نسمع كل جمعة على المنابر قائلا يقول لم يبق من الاسلام الا اسمه ولا من القرآن الا رسمه ولكنالم نسمع قط بأن عاقلا قام يبحث بدقة وثبات عن أسباب هذا الاضمحلال الشديد الذي وقعت فيه الامة الاسلامية من منذ (كذا) قرون كثيرة . اما والعلم لو بحث باحث عن علل هذا الهبوط الهائل بعد ذلك الصعود السريع ما وجدها الا في ترك السنن واتباع البدع : اه نحن قد سبقناه الى هذا في المنار إجمالا وتفصيلا حتى ان عبارة الخطباء التي قالها قد ذكرناها في مقالة افتتحنا بها العدد ١٩ من السنة الأولى وتكلمنا فيها على البدع . وقد كتب المؤلف لهذا العاجز كتبا كثيرة يثني فيها على خدمتنا للاسلام وكأنه ذهل عن ذلك عند كتابة ماذكر وسبحان المنزه عن الذهول والنسيان » اه ما كتبناه في المجلد الثاني . ولما قرأه المؤلف يومئذ كتب الينا يعتذر ويعد بأن سيفي المنار حقه في طبعه ثانية (راجع ص ١٢٧ م ٢) ولكنه لم يفعل على انه كان كتب الينا كتابا قال فيه انه بكتابه هذا يعضد مشروعنا ويقوي صوتنا

السيئة بالحسنة مانصه « فان لم يعد الشيخ رشيد الى صوابه ويحترم الامة التي يعيش بين أظهرها و يعرف مقامه من العلم والعمل اضطررنا لتعقب سقطاته في مجلة الحياة وشننا عليه غارة لايقيم بعدها راسا فيأخذ عنا درسا ينفعه هو وأمثاله ممن يريدون أن يعيشوا بين ظهراني هذه الأمة باحتقارها وتسفيه أحلام قادتها »

مهلا ياأخي فريد أفندي ولاتبطش البطشة الكبرى فاني معذور بما كتبت لأنه اعتقادي وأنت تدعي احترام حرية الاعتقاد حتي إنك تدعي تصحيح عقائد المارقين من النابتة الجديدة ، مهلا ياأخي ولا تستعمل قدرتك كلها في الانتقام فانني لاأعتقد أن بيان غلطك — وأنت غير معصوم — إهانة للأمة وترك لاحترامها . مهلا ياأخي واستعمل الحلم فانني ماعلمت ولا سمعت بأنك من قواد الأمة ، ولا اعتقد أن انتقاد القائد اذا أخطأ في قيادته يكون احتقارا للأمة .

بعيشك ياأخي قلد صاحب جريدة اللواء في الفخر والدعوى ومدح النفس ولا تقلده في دعوي أن الامة تبع لك وانها وراءك فان هذا هو الاحتقار لها لا بيان خطائك في فهم الشرع وتعريف الوحي وإنكار نبوة آدم عليه السلام ، ولا في تحريك العصبية الجنسية الجاهلية

ثم قال في آخر المقالة الرابعة « واني قد تسامحت هذه المرة مع الشيخ رشيد دفاعا عن مدرسة العلوم العالية ولو عاد لحط من كرامتي وكرامة مدرستي ولم يلتزم جادة المحاسنة في الكلام على القوم الذين يعيش بين أظهرهم بدأت له في الدرس الذي وعدته به وكنت أنا صوت السخط العام عليه والعاقل من اختار السلام والسلام » اه

رفقا يا أخي فريد أفندي واجعل الانتقام خاصا لاعاما ولا تسلط علي الامة التي ترى انك أنت قائدها فانك ربما جربت ذلك فقضيت علي ثم ندمت !! وربما كشفت لك التجربة انك لست قائدا للأمة الافي خيالك ووهمك وان مكانة أخيك أثبت فيها من مكانتك فبؤت بالخيبة

الانتقام الخاص الذي أذنت لك فيه هو ان تتبع سقطات المنار وتثبتها في الحياة فاني لا أبرىء المنار من السقطات ولا أدعي العصمة وأتمنى لو أجد وقتا أقرأ فيه

مجلدات المنار التسعة أو العشرة لأستخرج منها مالعلي اهتدى اليه من السقطات وأبينها للناس . واني في كل سنة أحث العلماء على نقد المنار وأنشر كل مايرد الي من ذلك ولاأسخط على الناقد ولا أهينه ولا أتكبر عليه . واني أتمنى ان تستعين على نقد المنار بغيرك فما أراك وحدك اهلا له لعدم اطلاعك على العلوم الدينية وأتمنى ان يكون من تستعين به من غير المحبين لي وأنصح لك ان تترك في ذلك مدح نفسك وذم غيرك وما اعتدته من المقدمات والوعود فانك ان تفعل هذا انقل كلامك في انتقاد المنار وإلا أهملته ولم أحفل به

وأما الانتقام العام الذي نهيتك عنه مع علمي بعجزك فهو تحريك العصبية الجاهلية عليّ اعني عصبية الجنسية لأني لست مصريا

العصبية الجاهلية والاسلام

لم تكتف ياأخي بالغميزة والازراء في مقالاتك حتى قلدت جريدة اللواء في نشر ما جنت به على الاسلام من تحريك عصبية الجاهلية بتفريق المسلمين الى جنسيات مناطها الوطنية فأخذت ترجف بأن الحامل لي على انتقاد كلامك كراهة ان ينجح للمصريين عمل عظيم (كمدرسة العلوم العليا) ولماذا ياترى أكره ان ينجح للمصريين عمل عظيم ؟ هل أنا على مذهب مصطفى كامل في العصبية الجنسية الجاهلية التي محاها الاسلام فقام هو يثبتها وجئت أنت اليوم تؤيده من حيث أيدك في نشر طعنك في أخيك

ألست قد حاربت هذه النزعة الجاهلية و بينت فسادها مرارا كثيرة ؟ على أني باذل كل حياتي لنصيحة المصريين وخدمتهم قبل غيرهم من الشعوب الاسلامية التي هي عندي في مرتبة واحدة من حيث هم مسلمون لا أفضل سوريا على صيني ولا تونسيا على مصري

قلت بعد الارجاف بما ذكر والتصريح بأنه ربما كان لطف أخلاق المصريين ومجاملتهم سببا في جرأتي على الافتيات عليك مانصه : « لم يكف هذا الرجل أن يتحكك في مجلته بملوكنا وأمرائنا وعلمائنا وكتابنا ورجال صحافتنا على طريقة أصحاب الجرائد الساقطة حتى قام اليوم يفتات على أئمة الدين » الخ

أقول لو انك قلت هذا القول قبل سنتين أو أكثر لأحسنت فيك الظن وقلت لعله لا يدري ماذا جنى هؤلاء الرؤساء على الاسلام والمسلمين فهو يعتقدان ما ننسبه اليهم خطأ يضر ولكنك في هذه المدة الاخيرة قلدتني في ذلك حتى غلوت في ذم هؤلاء الرؤساء غلوا كبيرا وحكمت بمروقهم مع معظم الامة من الاسلام وخصصت منهم أهل الازهر بأشد الطعن لاسيما في مقالاتك التي نشرت في المنبر وادعيت أنه لم يبق أحد من أصحاب العمائم يرجع اليه في فهم الدين وانما انحصر علم الدين في بعض أصحاب الطرابيش وانما تعني طربوشك وحده فانه يرجح بعدة طرابيش كما رجح بالعمائم كلها. فكيف جاز لك هذا الغلو ولم يجز لي ان ابين الحقائق بالاعتدال؟ لعل السبب في ذلك انك ولدت في مصر وان لم تكن مصري الاصل وأنا لم أتشرف بمثل هذا المولد

ان هذه الأمة أمة واحدة كما جاء في الكتاب العزيز فكيف يفرقها فريد افندى تبعاً لصاحب جريدة اللواء ويجعلها أمما وتلك هي العصبية الجاهلية التي أزالها الاسلام وجعل المؤمنين أخوة أينما كانوا ومن أي جنس كانوا. وقد قال صلى الله عليه وسلم «ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية» رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم. وقال صلى الله عليه وسلم «من قتل تحت راية عمية ينصر العصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية» رواه مسلم والترمذى عن جندب وفي حديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر — وناهيك بمكانه من الدين — «إنك امرؤ فيك جاهلية» أتدري لماذا قال له ذلك؟ قاله له لما عير بلالا الحبشي بأمه الحبشية. أتدري ماذا فعل أبو ذر عند ذلك؟ انه وضع خده على التراب وآلى أن لا يرفعه حتى يطأ عليه بلال. فهل كنت وأنا عربي من سلالة الرسول أبعد عن مسلمي مصر في الجنس من بلال الحبشي عن أبي ذر؟. فاذا كان صاحب ورقة اللواء يدعو الى العصبية الجنسية لأنه سياسي لا يبالي وافق الاسلام في سياسته أم خالفه فأنت يا فريد أفندي لست سياسيا بل تتنفج دائما بالدعوة الى الاسلام فما معنى إخراجك إياي من هذه الامة وتحريض من فتنتهم جريدة اللواء بالعصبية

الجاهلية عن هدي الاسلام وأخوة الايمان عليّ وتبغيضي اليهم بإيهامك إياهم أنني أحتقر المصريين كافة ولا أحب لهم الخير لأني لست منهم.

إن أمثال هؤلاء المفتونين لاقيمة لرضاهم ولا لسخطهم فحسبي أن المؤمنين الصادقين من المصريين يرونني أخا لهم وأراهم اخوة لي وإن زعمت أنهم قليل لتصريحك بأن أكثر الأمة عوامها وخواصها ليسوا على الاسلام الصحيح فان هذا القليل عندي خير من كثير أهل العصبية الجاهلية. على انني أحب الخير لجميع الناس من جميع الشعوب والاجناس ويعرف لي هذا كثير من الموافقين والمخالفين

ظن فريد أفندى وجدي كما يظن صاحب جريدة اللواء أن العصبية الجاهلية أصبحت سلاحا قاتلا في أيديهما لا يجردانها على «دخيل» الا ويجدلانه حتى لا يرتفع له رأس ولا تقوم له قائمة (يا للغرور) وظن فريد أفندي وجدي انني لشدة رعبي من هذا السلاح لم أرد على ابراهيم بك المويلحي اذ تحرش بي من نحو سنتين ونصف فكتب في المؤيد يقول انني جئت مصر فقيرا ثم بعد أن صرت غنياً طعنت على أهلها. ونسي فريد أفندي أو تناسى أن المسألة كانت أكبر من ذلك وان المويلحي لم يكن هو الذي طعن في وحده بل انبرى لي يومئذ المؤيد واللواء والجوائب وجرائد أخرى ولم أكن أنا المقصود وحدي يومئذ بحملة هذه الجرائد ومن كتب فيها وانما كان الغرض الأول الذي تسدد سهامها اليه هو المرحوم الاستاذ الامام فخر المصريين وأعظم نابغ في مصر. وليعلم فريد أفندي أن تلك الغارة الشعواء التي يعجز هو عن عشر معشارها مازادت المنار الا انتشارا ولعله لا يجهل مصدرها المالي وما أنفق فيها من بدر الذهب. فاكفف يا أخي غربك، واستوقف سربك، واعلم أن الامر ليس في يديك، وان سهمك ربما عاد عليك، فهذه نصيحتي اليك، ثم الى سائر المغرورين، الذين يفرقون بالجنسية جماعة هذا الدين، ولولا هذه النصيحة، لما ذكرت عنك هذه الفضيحة، فلا يغرنك اعتقادك بجهل الأمة التي قلت بمروقها من الدين وبعدم استعدادها للحكم النيابي فتظن أنك تعبث بها كما تشاء، لاسيما اذا وازرك اللواء،— فان الأمة صارت تميز بين النافع والضار أكثر مما تظن ولذلك كانت مجلات أكثر السوريين تفوق مجلتك

انتشاراً لم يصدها عن ذلك هذيان اللواء بالعصبية الجاهلية لأن العلم لا وطنية فيه فما بالك بالدين ؟. ثم أتكلم في المقصد

مدرسة العلوم العالية

قال بعض المتدلين ان كل ماانتقد به المنار على فريد أفندي صواب ولا مندوحة عنه الا تلك الكلمة في تصغير شأن مدرسته فانها ليست جوهرية ولولاها لم يكن له في الرد على صاحب المنار كلمة تسمع . ومن نظر الى المسألة في ذاتها كان له أن يقول ذلك إذ ليست الا أن امرءاً يكبر عمله الصغير ليعظم في أعين الناس فيقبل عليه قوم و يساعده آخرون ولذلك قال بعض الناس بل نقلوا عنه أنه ما ادعى إنشاء مدرسة عالية إسلامية تدرس فيها جميع العلوم العالية مع تطبيقها على الدين الا لأجل تحويل أريحية الأغنياء عن الجامعة المصرية اليه هو لأن مدرسته تحتوي (بحسب دعواه) على جميع العلوم التي تنشأ الجامعة لأجلها وتزيد عليها علوم الدين . فاذا حولت اليها التبرعات والأوقاف كانت أولى بها وأجدر .
ويقال انه تعجب بعد ان مر على كتابة تلك المقالة بشأن المدرسة العليا في المؤيد واللواء شهران ولم تنهل عليه الجنيهات ، وتكتب لمدرسته الوقفيات ، ولعله هذا هو سبب قوله في الجزء الأخير من مجلته إن الأمة المصرية غير مستعدة لأن تحكم نفسها بحكومة نيابية

مهلا أيها المتدلون لا تعجلوا بالاعتراض على هذه الجملة ولا على أصل المسألة حتى أبين لكم المراد منها وهو ليس بيان الخطأ في تسمية حجرة من مدرسة ابتدائية مدرسة عالية كما ادعى فقام يشبه نفسه بفلاسفة اليونان ومدرسته بالاماكن التي كانوا يلقون فيها فلسفتهم اذ لو كان هذا هو المراد لاعترفت بالخطاء وان كنت مصيبا يمكنني أن أقول إنه يتكلم بعرف هذا العصر لا بعرف تلك العصور والمدارس العالية في هذا العصر مباني عظيمة فيها كثير من الآلات والآثار والتحف المعدنية والنباتية والحيوانية التي يحتاج اليها في تدريس تلك العلوم ولها كثير من المدرسين اذ يستحيل أن يتقن العلوم العالية كلها ويستطيع تدريسها رجل واحد من المتخرجين في تلك المدارس بله فريد أفندي وجدي الذي لم يبرع في العلوم

الأولى فيرتقي الى الوسطى كما يدل على ذلك سقوطه في امتحان شهادة البكالوريا التي يناطها الجم الغفير من الأحداث كل سنة

ليس هذا مانعني فانه من الامور الجزئية وإنما نعني أمرا كليا أومأنا اليه في الجزء الماضي إيماء ولم نشرحه لأن في الشرح جرحا واللبيب تكفيه الاشارة واذ كان لبيبنا لم يكتف بالإشارة فها نحن أولاء نشرح ذلك

المسألة ذات بال من جهة فريد أفندي نفسه ومن جهة الأمة . أما من جهته نفسه فان ما ادعاه من انشاء مدرسة عالية ليس هفوة عارضة لا يترتب عليها شيء فيغضى عنها وانما ذلك شيء صار خلقا له وملكة فيه وقد أضر به ذلك الخلق كما أضر بالناس ونعبر عن هذا الخلق بالتشبع بما لم يعط الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » متفق من حديث الشيخين

كتابه كنز العلوم واللغة

مثال ذلك كتابه (كنز العلوم واللغة) كتب في بعض الجرائد اليومية انه شرع في تأليف دائرة معارف كاملة في مجلد واحد يذكر فيها خلاصة ما انتهى اليه البشر في جميع العلوم والمعارف اللغوية والدينية والعربية بجميع فنونها والفلكية والطبيعية والكيماوية والتشريحية والطبية والصحية والمعدنية والنباتية والحيوانية والجغرافية والعمرانية والتاريخية والرياضية الخ وأتذكر أنه وعد بأن يودعه رسوم (خرط) جميع البلاد والممالك وصور أشهر الرجال المتقدمين والمتأخرين

فهل في استطاعة أحد من البشر أن يؤلف كتابا كهذا ؟ كلا انه لم يوجد في البشر من يتقن هذه العلوم كلها إتقانا يستطيع به تلخيصها في دائرة معارف وانما يؤلف دوائر المعارف في أوربا الجمعيات لا الأفراد . ولو فرضنا أن فريد أفندي وجدي أتقن علوم البشر كلها وان لم يتلق علوم الدين ولا طالع جميع علومه ولم يتلق من علوم الدنيا ما يؤهله لشهادة البكالوريا — فهل في استطاعته أن يجمعها كلها في مجلد واحد مع الخرط والصور أو بدونها أليس اذا قيل إن هذا من المحال الذي لا تتعلق قدرة الله به يكون القول معقولا

ظهر الكتاب فاذا في مقدمتـه أنه يحتوي تلك العلوم والفنون كلها — ولكنه لم يذكر الصور والخرط — ولكنك تراجع أهم مسائل هذه العلوم فلا تجدها (بالطبع) وما عساك تجده منها فكثير الخطأ قليل الفائدة حتى قال أحد العلماء عنـد ما اطلع عليه : ان هذا الكتاب سيقضي على هذا الرجـل ويذهب بغرور المغترين به : وكان يسهل عليه أن يغير تلك المقدمة التي يكذبها الكتاب في مجموع مواده ويعتذر عن وعوده في الجرائد . واننا نورد لك بعض الامثلة على تكذيب الكتاب لهـا ثم نبين وجـه تمثيل هذا الكتاب بالمدرسة العالية ووجه كون الانتقاد عليهما واجب مفيد لفريد أفندي وللأمة وليس من المسائل الشخصية أوالجزئية

جعل فريد أفندي أنواع علوم دائرة معارفه عشرة قال :

(أولا) العـلوم الدينية كعلم التوحيد مما يجب أن يعلمه كل إنسان في حق الله تعالى وحق الرسل من عقائد أهل السنة وفي هذا القسم أسماء الرسل وتواريخهم الصحيحة وتراجم الصوفيـة واصطلاحاتهم وفيـه تفصيل شاف لجميع مذاهب المعتزلة والمتكلمين وسائر العقائد التي ظهر بها فلاسفة المسلمين في عصر المدنية العربية . وفيه تنبيه على البدع التى طرأت على المسلمين وتوجيه الافكار للتوقي منها . وفيـه كل المسائل الفقهية التي يحتاج اليها كل مكلف تفصـيلا كمسائل الطهارة والوضوء والاغتسال والصلاة والصيام والحج وجميع مايحتاج اليه الانسان بحيث يستغني به عن السؤال . ولم نقتصر على مذهب واحد بل جئنا فيه بالمذاهب الأربعة ليأخذ منه كل أحد مايوافق طريقة إمامه »اه هذا النوع

أقول انه جعل العلوم الدينية عدة أنواع ووعد بما سمعت في كل نوع ولم يف به وكيف يفي به وهو لا يعرفه واليك الامثلة

(١) أهم مسائل علم التوحيد الالهية مسألة وحدانية الله تعالى التي جعلت كلمة التوحيد عنوانا على الاسـلام لأجلها ومسألة صفات الله تعالى التي يثبتها السلف دون المعتزلة ومن على شاكلتهم وهو لم يبينهما بل لم يذكرهما في موادهما كما وعد ومسألة القدر وقد ذكرها ولم يبين معناها بل اعترف بالعجز عن بيانها

(٢) أهم مسائل علم التوحيد في النبوات مسائل الوحي وتكليم الله الانبياء وعصمة الرسل والتبليغ والمتشابهات في القرآن ولم يشرح شيئا منها . ولم يذكر أسماء الرسـل المذكورين فى القرآن الذين ذكروا في كتب العقائد انه يجب الايمان بهم تفصيلا حتى انه ذكر داود ولم يذكر سليمان عليهما السلام والنصارى لا يقولون بنبوته ولم يبين تواريخهم الصحيحة كما وعد . بل اكتفى في موسى عليه السلام وهو أكثرهم ذكرا في القرآن وأوسعهم تاريخا بقوله « هو رسول كريم أرسله الله الى بني اسرائيل لانجائهم من ظلم فرعون مصر أحد خلفاء منفتاح من ملوك العائلة التاسعة عشر (كذا) المصرية قبـل المسيح بنحو ألف عام » ولم يذكر انه أرسل الى فرعون وملأه أيضا وان كان ذلك صريحا في القرآن — وفي يعقوب عليه السلام بقوله « نبي من أنبياء بني اسرائيل هو أبو يوسف عليه السلام» ولم يذكر انه رسول ، وفي يوسف عليه السلام بقوله « هو ابن يعقوب كلاهما من أنبياء بني اسرائيل » ولم يذكر انه رسول . وفي يونس عليه السلام بقوله « هو أحد رسل الله عليهم السلام » أفلا يعلم « ناصر الاسلام » معنى النبي والرسول

(٣) وذكر أن في هذا القسم تراجم الصوفيـة واصطلاحاتهم — ولا ندري ما معنى ذكر هؤلاء في قسم التوحيد دون قسم التاريخ — وذلك غير صحيح وإنما ذكر بعضهم وترك كثيرا من أشهرهم ومن ذكرهم لم يترجمهم وقـد راجعنا مادة الوحدة والوجود والحال والمقام والسكر والوجد والشطح وهي أشهر اصطلاحاتهم فلم نجده قد بين شيئا منها

(٤) وقال « وفيه تفصيل شاف لجميع مذاهب المعتزلة والمتكلمين » وهذا غير صحيح أيضاً فهو لم يذكر الواصلية ولا العمرية ولا الهذلية ولا النظامية ولا الاسوارية ولا الاسكافيـة ولا الجعفرية أصحاب جعفر بن مبشر ولا الحائطية ولا المعمرية ولا الصالحية ولا المردارية ولا الهاشمية وهؤلاء أكثر فرق المعتزلة ومن ذكره من غيرهم وهم الاقل لم يبين مذاهبهم كلهم . مثال ذلك قوله في البشرية « فرقة من المعتزلة تنسب لبشر بن المعتمر من أفاضـل علماء المعتزلة » فهل هذا

هو التفصيل الشافي لمذاهبهم كما قال وأنى أن تقيس على هذا زعم الاتيان بمذاهب المتكلمين وفلاسفة المسلمين.

(٥) وقال «وفيه تنبيه على البدع التي طرأت على المسلمين وتوجيه الأفكار التوقي منها» وهذا غير صحيح أيضاً فانه ترك الكلام على البدع وأصلها وحسبك انه لم يبين بدعة القدر وهي أول بدعة ظهرت في الاسلام وتليها بدعة الارجاء وقد ذكر المرجئة ولم يوجه الافكار الى التوقي من بدعتهم كما قال

(٦) قال «وفيه المسائل الفقهية التي يحتاج اليها كل مكلف تفصيلا . . . وجميع مايحتاج اليه الانسان بحيث يستغني به عن السؤال» وهذا غير صحيح أيضاً ففي كلمة طهارة لم يذكر جميع المطهرات عند جميع أرباب المذاهب وفي ماده نجس لم يذكر جميع النجاسات وما ذكره فيه مافيه مما لامحل لبيانه هنا : ولم يبين الوضوء تمام البيان حتى انه لم يذكر النية فيه ولا غسل اليدين الى المرفقين ولم يذكر موجبات الوضوء أو نواقضه ولا التيمم . وكذلك الغسل لم يذكر فيه كل مايحتاج اليه المكلف لم يذكر كيفيته ولا وجوب النية وعدمه فيه ولا ان الاحتلام موجب له . وفي كلامه عن الصلاة لم يبين الأركان والواجبات عند جميع الأئمة كالاعتدال من الركوع والطمأنينة فيه فهما ركنان عند بعضهم وكذلك الجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه . فمن ترك شيئا من ذلك بطلت صلاته والطمأنينة عند أبي حنيفة واجبة لاركن فمن تركها وجبت عليه إعادة الصلاة في الوقت . . . وكذلك فعل في الزكاة والصيام والحج . فاذا كابر في شيء مما قلنا فاننا نعود ونبين خطأه فيما ذكر كما بينا عدم صدقه فيما قال انه بينه وهو لم يبينه

والنوع الثاني من علوم الكتاب الفنون العربية كلها وهو فيها أشد تقصيرا وخطأ وإخلالا من العلوم الشرعية . مثال ذلك علم المنطق راجعنا فيه الكليات والحد والرسم والقضية والقياس والشكل والبرهان والعكس والنقيض فلم نجد لشيء من ذلك ذكرًا فهذه أشهر اصطلاحات المنطق . نعم قال في مادة (شرح) : القول الشارح في الاصطلاح المنطقي مايدل على معنى الاسم في اللغة أو ذات المسمى في الحقيقة: وهذا خطأ ظاهر وأنى لمثل فريد أفندي أن يعرف شيئا ما من اصطلاحات المنطق

الذي يذمه دائما «ومن جهل شيئا عاداه»

فهذا نموذج يريك أن هذا المؤلف لم يصدق في معظم ماادعى انه أودعه كتابه وانه لم يوفق للصواب في كثير مما ذكره وقس عليه سائر ماذكره من العلوم التي جعلها عشرة أنواع تحت كل نوع افراد كثيرة لايعرف هو من مجموعها الا أسماءها . وسنبين في جزء آخر نموذجا من خطأه في أشهرها

قد ارتكب فريد أفندي بهذا الكتاب أنواعا من المنكرات تزيد على أنواع العلوم التي ادعاها نعد منها مايخطر في البال الآن ولا نقول انه تعمدها فان بعض من يغلب عليهم المزاج العصبي يعتقدون في أنفسهم وفي علمهم ما يباين الحقيقة كما يعتقد بعضهم انه المهدي المنتظر فهو في الغالب يعتقد ان كتابه حوى جميع تلك العلوم ولكن الكتاب في نفسه يمثل هذه المنكرات وهي

(١) القول في الدين بغير علم وهو من أصول الكبائر التي قرنها الله تعالى بالشرك في قوله (٧:٣٣ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)

(٢) الكذب وناهيك به وبما ورد فيه

(٣ و ٤) إخلاف الوعود وعدم الوفاء بالعهود والعقود فهو بما كتب في الجرائد من الدعوة الى الاشتراك قد عاهد المشتركين على أن يوافيهم بكتاب فيه كذا وكذا

(٥) عدم الامانة في نقل العلم فانه ينقل المسألة ويتصرف فيها بما يغير المعنى . وماورد في هذه الخصال معروف

(٦) أكل أموال الناس بالباطل فان الذين اشتركوا في الكتاب لقراءة تلك المقالة الطويلة ذات الوعود العريضة لم يشتركوا الا في كتاب مشتمل على كذا وكذا من العلوم والمسائل وكنز العلوم واللغة الذي أرسل اليهم غير مشتمل على ماذكر كما بينا في الأمثلة السابقة فكان شأن المؤلف معهم شأن الصانع يعاقد على عمل شيء موصوف بصفات معينة بثمن معين فيأتي به غير واف بها فهو لايستحق ذلك المال فهذا الاشتراك في الكتب والجرائد من قبيل مايعرف في الفقه بالاستصناع . وكذلك من يشتري الكتاب بعد تمام طبعه لاطلاعه على

مقدمته . فمثل هؤلاء المشتركين والمبتاعين كمثل من يعرض عليه رسم دار فيها كذا وكذا من الحجرات والغرفات والمرافق المتصفة بكذا وكذا الصفات كالحسن والاتساع فيبذل المال ويأخذ دارا تخالف ذلك الرسم في عدد ما فيها وفي صفاته . وانني أعتقد انه اذا تاب فريد أفندي وجدي من هذه المنكرات بعد ان نبهناه عليها وكتب الي من اشتركوا في كتابه انكم قد اشتركتم في هذا الكتاب لما وعدتكم به من استيفائه لكذا وكذا من العلوم اللغوية والدينية الخ وقد جاء ناقصا معظم ذلك فكان الاشتراك باطلا فمن شاء أن يقبله على علاته فذاك ومن شاء أن يرده ويسترد دراهمه فله ذلك — اعتقد أنه اذا فعل هذا فان الكثيرين أو الاكثرين يردون له الكتاب . وقد رأينا في جريدتي الظاهر والمقطم كتابة لبعض الفضلاء يطلب منه فيها أن يرد له دراهمه ويسترد كتبه وحياته

(٧ و ٨) الغش في المعاملة كما علم مما بينا آنفا وفي العلم والدين كما علم مما قبله وفي الحديث « من غشنا فليس منا » رواه مسلم وغيره من أصحاب السنن والمسانيد وفي رواية للترمذي « من غش فليس منا » وفي رواية لأبي داود « ليس منا من غش »

(٩) التغرير وهو غير الغش وقد يجامعه ويترتب عليه مفاسد كثيرة فمن صدق المؤلف في زعمه ان هذا الكتاب يحوي كل ما يحتاج اليه في النحو واللغة الخ وكان عنده كتب في هذه العلوم يستعين بها فربما باعها واشترى بثمنها الكتاب وهو لا يغنيه عن شيء منها حتى مختار الصحاح أصغر كتاب في اللغة . وقس على هذا سائر العلوم التي وعد بها

(١٠) التشبع بما لم يعط والدعوى العريضة وقد عرفت حديث الصحيحين في ذلك

**

مدرسة العلوم العالية

واعلم ان مجموع هذه المخازي التي يمثلها كتاب كنز العلوم واللغة ماثلة في مدرسة العلوم العالية وتفارقه في أنه لم يترتب عليها أكل أموال الناس بالباطل . والجامع بينهما دعوى فريد أفندي ان كلا منهما جامع لكذا وكذا من العلوم التي لا يعرفها وربما كان الغش والتغرير بالمدرسة أعظم . لما لا يجوز أن يغتر بعض قراء المؤيد

واللواء من أهل الاقطار البعيدة بما كتب فيهما فريد أفندي عن هذه المدرسة الموهومة فيرسل ولده الى مصر ليتلقى فيها علوم الدنيا مطبقة على الدين بعد أن تعلم في المدارس الابتدائية والثانوية حتى اذا جاءها لم يجدها شيئا وإنما وجد فريد أفندي يتبجح بالدعوى ويفيض بالوعود واذا ذكر بعض المسائل خبط فيها على غير هدى كما خبط في المسائل التي انتقدناها في الجزء الماضي

أيجوز لنا أن نسكت على هذا كله ونحن نرى الرجل يجعل عدم الانكار عليه حجة على انه مصيب . بل غره هذا السكوت فقال في أواخر مقالته الرابعة في اللواء

« واني لأعجب للشيخ رشيد في إثارته أئمة الدين عليّ مع انهم قرروا كنز العلوم واللغة في الأزهر وملحقاته رسميا وهم على وشك تقرير مؤلفاتي الأخرى»

والذي يفهم من هذه العبارة أنهم قرروا تدريس هذا الكتاب وهذا غير صحيح وكيف يقررون تدريس كتاب هو عبارة عن أمشاج من فنون قديمة وحديثة يكثر فيها الخطأ وتقل الفائدة وفيه التشنيع علي التقليد والقول بالاجتهاد وباثبات مذهب الوهابية والتشنيع على مذهب المتكلمين وبإنكار الشفاعة والخلط في مسائل الشريعة كما سنبينه في جزء آخر . على أنه ليس من الكتب التي يدرس مثلها . وقس على هذه الدعوى دعواه أن الدولة التركية قررت تدريس بعض كتبه في مدارسها

انه لم يقرر تدريس الكتاب ولا مطالعته فى الازهر ولا في ملحقاته وانما بلغنا انه اشتري منه بعض نسخ لدار الكتب (الكتبخانة) الأزهرية فهل يعد هذا تقريرا من أئمة الدين لكتابه . وهل صار اهل الأزهر اليوم أئمة ولم تمض سنة على تلك السهام التي سددها اليهم حتى جردهم من العلم والدين وجعلهم أكبر بلاء على المسلمين ؟؟ لعلهم اذا اشتروا منه كتابا آخر يمنحهم شهادة بأنهم أئمة في العلوم العمرانية والكونية الخ الخ !! هكذا يكون الاصلاح

وجملة القول في هذا الجزء ان هذا الرجل ادعى دعوة كبيرة وجعل السكوت عليها دليلا على صحتها وهي غير صحيحة فنقده يعرفه حده وينبهه على ما هو غافل عنه من المنكرات في عمله ويخرج العارفين به من معصية السكوت على المنكر

ولسنا في حاجة الى إيراد ما ورد في الكتاب الالهي والاحاديث النبوية من إيجاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعيد على تركهما وناهيك بلعن الله تعالى للذين لايتناهون عن منكر فعلوه

**

أجوبته على ماانتقدنا عليه

جعل فريد أفندي وجدي مقالته الاولى مقدمة في شتمنا وإطراء نفسه بالمدح والفخر وقال في أول الثانية مانصه:

« أتيت أول أمس على مقدمة في موضوع الشغب الذى أثاره على مدرسة العلوم العالية الشيخ رشيد رضا وأريد اليوم أن أناقشه في جزئيات هذا الشغب ردعا له ولأمثاله عن التطاول الى مالايعنيهم من أمورنا حتى نفرغ لأداء واجباتنا والقيام بأعباء أعمالنا المفروضة علينا لامتنا وملتنا . واني أرجو من وراء مناقشته في جزئيات كلامه أن يعرف مكانه من هذه العلوم فيثوب الى صوابه وينخرط في سلك طلبة هذه المدرسة التي ماأسستها الاله ولأمثاله ممن لايعرفون اللغات الأجنبية وهم في أشد الحاجة الى الالمام بأصول العلوم الأوربية العالية التي لا كتب لها باللغة العربية »

أقول له (أولا) كيف لايعنيني أموركم لأمتكم وملتكم ؟ ألست أنا من أبناء هذه الأمة ومتبعي هذه الملة ؟ اذا كانت أمتك هي المصرية لا الاسلامية فهل ملتك يا فريد أفندي هي الملة المصرية القديمة دون الاسلامية حتى تضيفها اليك والى قومك — إن كان لك قوم يرضون ذلك — وتجعلني ممن لايعنيهم أمرها ؟؟

(وثانيا) كيف تقول أنه لايوجد كتب عربية في العلوم الأوربية حتى كأنك بمعزل عن النهضة العلمية العربية في سوريا ومصر . ألم تعلم أن جميع العلوم كانت تدرس باللغة العربية في المدرسة الكلية الامريكانية ببيروت وفي مدارس أخرى عالية وابتدائية فيها وفي غيرها منها مدرسة كفتين بجوار طرابلس (بندرنا) والمدرسة الوطنية الاسلامية في نفس طرابلس ألم تطلع على دائرة المعارف العربية وعلى المجلات العلمية كالمقتطف ومعظمها مترجم عن أحسن المجلات والكتب الافرنجية وعلى الكتب الكثيرة المترجمة في

مصر وسوريا ومنها في فلسفة التشريع كتاب بنتام وكتاب مونتسكيو ؟ فهل كنت أوسع علما وفهما في اللغات الافرنجية من مؤلفي ومترجمي هذه الكتب والمجلات من العلماء والدكاترة وأنت لم تحصل من الإلمام باللغة الفرنسية وعلومها مايرتقي بك الى شهادة البكلوريا التي يحملها الألوف من الاحداث في بلاد مصر وسوريا ؟؟ فكيف ساغ لك أن ترفع نفسك بقولك على جميع هؤلاء العلماء وأنت تعلم أن أعراب الأهرام وبحارة الاسكندرية يعرفون من اللغات الافرنجية مالا تعرف وما كل من عرف لغة عرف علومها

انني ماوجهت اليك هذه التذكرة الالأنك أفرطت جدا في التبجح بإلمامك الضعيف باللغة الفرنسية حتى جعلت نفسك في مرتبة الاستاذ الامام زاعما انه ما كانت له تلك المكانة العليا في القلوب الا باللغة الفرنسية التي تدعي انك تساويه في معرفتها وتجرأت على كتابة ذلك فلم تكتف بما ينقل عنك من ادعائه باللسان يوجد ألوف ممن أتقنوا هذه اللغة إتقانا لاتطمع بالدنو منه ولم يخطر على بال أحد منهم ولا من الناس أنهم على مقربة من الاستاذ الامام في الحكمة والعلم ولا في المزايا والأعمال ولم يقل في أحد منهم علماء اوربا — كالدكتور براون الاستاذ المدرس في أعظم مدرسة جامعة في انكلترا تفوق مدرسة العلوم الوجدية — مثل ماقالوا في الاستاذ الامام إذ قال هذا العلامة الانكليزي انه لم ير مثله في الشرق ولا في الغرب . بل كان للاستاذ الامام من المكانة في الفلسفة والعلوم والاستيلاء على العقول والقلوب قبل أن يتعلم اللغة الفرنسية ما يسهل عليك أن تعرف بعضه من مراجعة تاريخه

الانتقاد الاول وجوابه

أجاب فريد أفندي عن انتقادنا عليه جعله المحدثين والفقهاء شارعين بقوله:

« ونحن نرد هذه السفسطة الغريبة بقولنا أن لفظة المشرع والمتشرع والشارع كلمات تطلق اليوم على المشتغلين بالبحث في الشرائع ولكل جيل اصطلاحه واللغة تابعة لأذواق أهلها في كل عصر »

وهذا الجواب يدل على انه لايفهم المسائل الأولية البديهية من فلسفة

التشريع التي تصدر لتدريسها فانه لا يقول أحد من أهل العصر بأن الباحث في الشرائع يسمى شارعا ومشرعا وانما يطلقون لفظ الشارع والمشرع على واضع القانون برأيه وعلمه اذ يسمون القانون شريعة ولو كان كل باحث في الشرائع شارعا لكان جميع التلاميذ في مدرسة الحقوق شارعين فليسأل فريد أفندى شقيقه هل يطلق عليه وعلى اخوانه من الطلاب أو المتخرجين لقب الشارع أو المشرع؟ فاذا أجابه بالسلب فليترك تدريس فلسفة التشريع حتى يتعلم بعض اصطلاحاته الأولية ولو ممن يجهلون اللغة الفرنسية؟!!! على ان كلامنا كان في الاصطلاحات الاسلامية الدينية وليس لفريد أفندي ان يغيرها تبعا لعرف العصر ومن هنا يعلم انه لا وجه لقياس أحد من الصحابة والفقهاء على النبي صلى الله عليه وسلم وتسميته شارعا مثله لأن ماجاء عن النبي (ص) ما كان يعرف من غيره وهو مما يجب اتباعه فيه وليس لأحد غيره هذه المزية في الاسلام فسقط الإلزام الذي وجهه الينا فريد أفندي اذ قال بعد ماتقدم عنه

«واذا صح تسمية النبي (ص) الشارع مع انه ليس بواضع الشريعة بل مفسرها ومبينها فقط فلم لا يصح تسمية أصحابه متشرعين باعتبار انهم مبينو الشريعة ومفسروها للناس»

فتأمل كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة سواء ونسي ان النبي (ص) مبلغ عن الله تعالى على ان بعض العلماء صرحوا بأن الله تعالى اذن له ان يشرع من قبل نفسه واستدلوا بمثل حديث «الا الإذخر» ولا محل هنا لشرح ذلك

الانتقاد الثاني

لم يستطع فريد افندى ان يكابر فيما انتقدناه على مازعمه من تدوين الشريعة عند اتساع العمران وكمالها في عهد الشورى وانحطاطها عند ماصارت الحكومة الاسلامية استبدادية فزعم ان ما قلناه لا يفهم من كلامه ولعله لا يفهم هو من كلامه وكلام الناس مايفهم الناس كما تعلم مما يأتي

الانتقاد الثالث

زعم فريد افندي انه لما جاء القرن الثالث استحال أمر المتشرعين الاسلاميين

الى حفظة أقوال المتقدمين وبطل الاجتهاد لعدم نبوغ العلماء الضليعين الخ ماعرفه القراء فرددنا عليه بقولنا «ان علماء القرن الثالث لم يكونوا كما ذكر ولا القرن الرابع ولا القرن الخامس فالفقه ما اتسع نطاقه الا في هذه القرون» أي الثالث والرابع والخامس فنقل عنا هذه العبارة بنصها في آخر مقالته الثانية ورد عليها بقوله :

«نقول هكذا فهم الشيخ رشيد رضا تاريخ الفقه الاسلامي فهو يرى الفقه في القرون الخمسة الأولى أيام نبوغ الأئمة المجتهدين والمشرعين الأولين والمؤلفين السابقين الذين ملؤا مكتبات الدنيا فقها وتشريعا لم يبلغوا درجة الفقهاء فى هذه القرون التي قد يمر القرن ولا يظهر فيه مؤلف الخ»

ان هذا لهو جوابه بحروفه ونقطه فهل يفهم هذا الرجل اللغة العربية ؟ كيف يفهمها وهو ينقل عني انكاري عليه زعمه ان الفقه قد انحط في القرن الثالث وتعليمي إياه انه مااتسع نطاقه الا فيه وفي القرنين الرابع والخامس ويقول بعد ذلك من غير فصل انني أقول ان علماء القرون الخمسة لم يبلغوا درجة الفقهاء في هذا العصر !!! ان كان يفهم اللغة العربية فلا شك انه ماأوقعه في هذه الهوة الا التهيج العصبي الذي غلب عليه. ولكن مابال أصحاب جريدة اللواء لم يحذفوا له هذه العبارة الفاضحة ؟ لعلهم لم يفهموها والا فهم غير ناصحين له

الانتقاد الرابع

انتقدنا عليه انه وعد ببيان بضع مسائل في ذلك الدرس ولم يبينها فأجاب بما حاصله انه يريد بالدرس جنس الدرس لا هذا الدرس الأول. وله في هذا الجواب وجه وكان خطر ذلك ببالي عند الانتقاد لكن العبارة والقرينة وما اعتاده من الوعود وعدم الوفاء كل ذلك رجح عندي انه يعني بالدرس ذلك الدرس الأول والخطب سهل وقد كثرت الدروس بعد الاول فهل بين تلك المسائل ووفى بتلك الوعود؟؟

الانتقاد الخامس

انتقدت عليه تعريفه العدل بأنه ماأدى اليه العقل من الأحكام لأن هذه الاحكام منها العادل ومنها الجائر فنقل عني ذلك وقال في الجواب عنه «واني

بريء مما نسبه الى الشيخ رشيد فقد قلت بالحرف الواحد ... » ونقل عبارته في تحكيم الحكومة للعقل عند الحاجة اليه ونتيجتها قوله « فحكمت الحكومة (العقل) وما أداها اليه هذا العقل من الاحكام سمته (عدلا) فالعدل اذن مظهر من مظاهر العقل » اه ومنه يعلم القارىء ان فريد أفندي لم يفهم ما كتبت ولا ما كتب هو فانه لا معنى لعبارته الا ماقلت . وبيانه ان قوله « ماأداها اليه العقل » مبتدأ وقوله « من الاحكام » بيان لما وقوله « سمته عدلا » خبر المبتدأ فصار المعنى والاحكام التي أداها اليها العقل هي التي سمتها عدلا . فثبت أنه جعل الاحكام التي استنبطها العقل عين العدل . فاذا كان لا يعرف النحو فليراجع كنز العلوم واللغة لعله يجد هذا الحل صحيحا !!

الانتقاد السادس وما يتبعه

انتقدت عليه ماتقوله على علماء المسلمين من انهم يقولون ان أصول الشرائع كلها من الله وأنكرت عليه ماقاله في الجواب من تفسير الوحي الى آخر ماعرفه القراء فأجاب عن ذلك بكلام يتلخص في أجوبة (أولها) ان الخاص والعام يعلمون انه أسس هذه المدرسة لتمرين حملة الدين على الدفاع عن حوزة الاسلام (وثانيها) أن غرضه تأييد الدين (وثالثها) انه وقف جزءا كبيرا من أوقاته على المدرسة (ورابعها) ان الشيخ رشيدا آلمه وجود هذه المدرسة حتى أخرجه الألم عن حده (وخامسها) ان الشيخ رشيدا يوهم الناس انه عالم بفلسفة التشريع وانه مطلع على أقوال الأوربيين كافة (وسادسها) ان الشيخ رشيدا لا يعرف من لسان الأوربيين كلمة (وسابعها) انه يعني بقوله ان علماءنا يعتقدون أن أصول الشرائع كلها من الله انهم « يقرون بان الانسان لم يوهب من العقل في مبدإ وجوده مايكفي لاقامة حياته فكان الوحي الالهي مرشده في كل أموره في بناء شريعته وفي اقامة صنائعه وفي هدايته الى وجوه معيشته حتى في تلقينه لغته » (وثامنها) أن كلامه « في أصول الشرائع الأولى في عهد طفولية الانسان لا في عهد شبوبيته أيام الرسل والأنبياء » (وتاسعها) انه لو كان الشيخ رشيد يستطيع أن يطلع على تحقيقات العلماء في شأن الانسان في هذين

العهدين لحوله على كتب « فلان وفلان وختم الأجوبة بشيء من الطعن والتضليل للشيخ رشيد

وأقول لا شيء من هذه الاجوبة في الموضوع الا السابع والثامن . فأما السابع فهو دعوى جديدة على علماء الاسلام ليست من عقائده في شيء وان وجد شيء من فروعها في مباحث بعضهم . فهم لا يعدون كون واضع اللغة هو الله على القول به انه من عقائد الدين حتى يحتاج الى أسلحة فريد أفندي التي يدعي انها يسلح بها حملة الدين فاذا ثبت أن هذا القول خطأ فهو لا يعد شبهة على الدين فكيف ندافع عن الدين بتكثير الشبهات عليه ومحاولة الجواب عنها بما هو شر منها

وأما الثامن فهو على كونه كما يقول علماء المناظرة من قبيل « المراد لا يدفع الايراد » لا يمكن حمل مانسبه الى اعتقاد علماء الاسلام عليه لأنهم لم يقولوا بأن لحياة البشر دور طفولية ودور شبوبية ظهر فيه الرسل حتى يحمل كلامهم عليه . بل يقولون ان أول البشر نبي مرسل ومن بحث أمثال هذه المباحث كالاستاذ الامام فقوله فيها لا شبهة عليه ولا يحتاج هي الى تأويلات فريد أفندي وجدي التي تحتاج الى تأويل

الانتقاد السابع

انتقدنا عليه انكاره رسالة آدم عليه السلام وكون الله تعالى أوحى اليه كما أوحى الى غيره من النبيين فاجاب عن ذلك بكلم يؤخذ منه أجوبة — أحدها انه بخدمته للاسلام يعيد له سلطانه الأول — ثانيها ان أحق الناس بالانتفاع بخدمته للدين الناشئة الجديدة العاملة في الادارة والسياسة والقضاء — ثالثها ان الشيخ رشيدا لو كان قرأ كتابا واحدا في علم الفزيولوجيا لهكسلي أو لداروين الخ وما فيها من الشبهات على نبوة آدم لعلم أن المسألة تحتاج الى نظر والا لنبذ أقوال أهل الشرع بنبوة آدم أولفظ قول الفزيولوجيين وضرب بتحقيقاتهم في الحفريات والعاديات عرض الحائط وسهل للطائفة المتعلمة ترك الدين — رابعها أن قادة الدين يشكون من مروق المتعلمين وما مروقهم الا لعدم وجود أحد من قادته يشاركهم في معلوماتهم

— خامسها ان ايراده تلك المسألة بعبارة لا تشعر بالجزم هو كالاعلام لهؤلاء المارقين أو الشاكين في الدين بأنه عالم بأقوال علماء الفزيولوجيا وعامل على حلها بما يوافق القرآن والعلم . وختم هذه الاجوبة بقوله « فما يسميه الشيخ رشيد سقطة كبيرة هو في الحقيقة نهضة كبيرة »

أقول الجواب الحقيقي من هذه الجمل التي لخصنا بها كلامه هو انه لم يجد سلاحا يدافع به عن اعتقاد المسلمين بنبوة آدم الا التشكيك فيها فهل سمع أحد من البشر بان التشكيك في الدين دفاع عنه ؟ أليس الشك في الدين كالانكار لقضاياه كلاهما كفر صريح ؟ أبشرك يافريد أفندي بأنني مطلع على مذهب داروين وعالم بأنه لايمس الاسلام واذا أردت أن تفهم ماورد في آدم فهما مطابقاً للعلم فراجع المنار مع بعض من يفهمه من أهل العلم ليفهموك مايحفظ به الدين ثم ألقه في مدرستك ان استطعت

الانتقاد الثامن

انتقدنا عليه جعله تفضيل الشريعة الاسلامية على غيرها مبنيا على قاعدة ارتقاء الشرائع بارتقاء أهلها ، وزعمه انها أي الشريعة الاسلامية ماجاءت راقية الا لارتقاء أهلها وقلنا ان هذه القاعدة إنما تصح في الشرائع أي القوانين الوضعية التي يكون ارتقاؤها تابعا لارتقاء واضعيها والشريعة الاسلامية وضع إلهي أنزلت على قوم غير مرتقين فكان ارتقاؤهم بها ولم يكن ارتقاؤها بهم . فأجاب فريد أفندي عن هذا الانتقاد بكلام يتلخص منه أجوبة (أحدها) ان ماأورده « هو من مقررات فلسفة التشريع ذلك العلم الذي أفنى المشرعون قواهم وأعمارهم في وضعه (ثانيها) قوله « فبأي سلطان يستطيع الشيخ رشيد الذي لم يقرأ في العلم سطرا واحدا ان يرد هذه المقررات البديهة ؟ وهل لو قال يسمع له أحد ؟ » (كذا) (ثالثها) قوله « فأقول له ان كلامي كله موجه الي ان الشريعة الاسلامية وحي من الله لا أنها شريعة وضعية تابعة لأهواء الناس حتى يتوهم الشيخ رشيد انه يغالطني فيما قلته »

أقول ان هذا الكلام يشبه أضغاث الاحلام كما هي العادة في أكثر كلامه وهو

موذن بأنه لم يفهم ما كتب ولا ما انتقد به عليه . نحن نقول ان ارتقاء الشرائع لا يكون نتيجة لارتقاء أهلها الا في القوانين الوضعية فيقول انك خالفت مقررات فلسفة التشريع وانك لم تقرأ منها سطرا وما هذا بمخالفة لها وقد قرأت فيها كتبا ونقول ان الشريعة الاسلامية ليست تلك القوانين لانها الهية فيقول ان كلامي موجه الى أنها الهية !!!

ويقول بأي سلطان يستطيع الشيخ رشيد ان يرد مقررات أهل الفلسفة وأجيبه بأني أردها بسلطان الاسلام اذا هي خالفته ولو صح قوله انني لم أقرأ منها سطرا لحسبي أني قرأت حكمة التشريع الاسلامي التي لم يقرأ هو منها سطرا ولذلك يجهل البديهيات فيها ككون الشريعة هي التي رقت الأمة الاسلامية دون العكس

الانتقاد التاسع

قال فريد أفندي في درسه بعد ان قرر ان ارتقاء الشريعة تابع لما عليه أهلها من الارتقاء في الاخلاق « من هنا يرى الرائي ان كل انقلاب حدث في أخلاق أمة عادى بطبعه الى انقلاب في شريعتها ويدرك تبعاً لهذا فساد الاحكام وبعدها ان العدالة في بعض الأمم المتدينة التي تقرر مبدأ التمايز في افراد الجمعية فتهب لبعضهم حقوقا تسلبها عن الآخرين باعتبارات دينية »

فسألناه عما يعني ببعض الأمم المتدينة — اليهود وليس لهم حكومة أم النصارى وقد بالغ في وصف ارتقاء شرائعهم وفتن بها حتى ليظن انهم اذا قالوا قولا يخالف الاسلام لا يمكن رده وانما يجيب عنه بتأويل ماجاء في الاسلام أو بانكاره أو التشكيك فيه . أم يعني بعض الوثنيين ؟ سألناه لأن الشبهة قائمة على انه يريد بذلك المسلمين، ولا غرو فقد جعل منهم الشارعين، فأجاب عن هذا السؤال بما نصه

« يكفيني ان أتعجب من هذه الردود وأترفع عن الرد عليها ذلك أولى لي وأولى بالقاري » (كذا)

الانتقاد العاشر

سألناه بناء على ماتقدم : ماذا يقول في جعل الخلافة في قريش ؟ فأجاب عن هذا

— بعد القول بانني أثرت بهذا السؤال وما بعده مما يأتي شبها على الاسلام ماكان يتخيل صدورها من مسلم — بأجوبة (أحدها) ان الخلافة بيد المؤمنين يولون عليهم بالاجماع من شاؤا ولو كان عبدا حبشيا (ثانيها) لو كانت الخلافة مقصورة على القرشيين لاتى في ذلك نص قرآني أوحديث متواتر ولما اختلف المهاجرون والانصار عليها (ثالثها) ان خليفتنا الحالي تركي الاصل طاعته مفروضة علينا ولا يحاول نقض هذا الاصل الا من يريد أن تنفكك جامعة المسلمين وتنفصم عروتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل »

أما الأول ففيه جهالات منها اشتراطه الاجماع ومنها قوله من شاؤا مطلقا مع ان النبي صلى الله عليه وسلم جعل الأمر في قريش كما ثبت في الأحاديث الصحيحة وجرى عليه المسلمون في خير القرون حتى بعد ان صار الحكم استبداديا الى انقراض الدولة العباسية ونقل بعض أئمة الاصول والحديث الاجماع عليه من أهل السنة ولم يعتدوا بخلاف الخوارج و بعض المعتزلة قال الامام أبو بكر الباقلاني في قول ضرار بن عمرو من الخوارج بأن غير قريش أولى بها : لم يعرج المسلمون على هذا القول بعد ثبوت الحديث « الأئمة من قريش » وعمل المسلمون به قرنا بعد قرن وانعقد الاجماع على اعتبار ذلك قبل أن يقع الاختلاف : وقال القاضي عياض : اشتراط كون الامام قرشيا مذهب العلماء كافة وقد عدوها في مسائل الاجماع ولم ينقل عن أحد من السلف فيها خلاف وكذا من بعدهم في جميع الامصار »

وأما الثاني ففيه من الجهل بأحكام الاصول عدم الاعتداد بالحديث النبوي إذا لم يكن متواترا وان كان في غير العقائد وكأنه يقرأ في المنار ان هذا الحديث لا يؤخذ به في هذه المسألة فيظن ان جميع المسائل سواء على ان المحققين اختلفوا في العمل بأحاديث الآحاد الصحيحة في العقائد ولم يتفقوا على عدمه واما في غير العقائد فلا خلاف . ثم ماذا يقول في الاجماع؟ . وفيه من الجهل بتاريخ الاسلام الاحتجاج بخلاف المهاجرين والانصار اذلم يعلم ان هذا الخلاف قد ارتفع باحتجاج أبي بكر رضي الله عنه بكون الأئمة في قريش وان الأنصار أذعنوا لذلك

وأما الثالث ففيه من الجهل ان خلافة خليفتنا الحالي ليست منطبقة على قوله

آنفا ان المسلمين هم الذين يولون الخليفة بالاجماع فكأن قاعدته تقضى ببطلان خلافته لانها بالوراثة لا بانتخاب المسلمين بالاجماع ! ! اراد فريد أفندي ان يعرض بأن سؤالنا المبني على الحديث الصحيح وإجماع أهل السنة ينفي خلافة السلطان ليهيج علينا العوام فكان كلامه هو الذي نفى خلافة هذا السلطان . واما نحن فنقول ان خلافة هذا السلطان ووجوب طاعته بالمعروف لا تنفى ذلك الحكم المقرر في كتب العقائد وكتب الحديث والفقه المتداولة في الاستانة وكل بلاد المسلمين من كون الاصل فى الخلافة ان تكون لقريش كما هو مشروح فى محله فليسأل عنه فريد افندي بعض مجاوري الأزهر لأن ذلك مبني على وجود من يصلح منهم للخلافة وصرحوا بأن المتغلب تجب طاعته

الانتقاد الحادي عشر

وسألته عن شهادة غير المسلم على المسلم فأجاب « بأنها لا تجوز لأن التعصب الديني جعل اتباع أولئك الملل يكذبون على الله فى كتبهم و يزعمون أن كل ضرر يلحقونه بغيرهم حتى القتل لا يعاقبون عليه عندالله — الى أن قال بعد ان ذكر ان دوائر المعارف الاوربية صرحت بذلك — فان كانت الشريعة الاسلامية قررت قبول شهادتهم على المسلم مع وجود هذه النصوص الصريحة في شروح كتبهم لكانت (كذا) أتت بغير العدل والله يتنزه عن ذلك »

أقول ان الشريعة الاسلامية شريعة عامة دائمة فهل يقول فريد أفندي ان كل من كان غير مسلم يستحل شهادة الزور وان هذا كان عاما في زمن نزول الشريعة وعلم الله انه لا يزول وان دوائر المعارف تثبت هذا ؟ ان قال هذا فلا أحاجه ببداهة بطلانه ولكنني أورد عليه مثل قوله تعالى في اليهود وهم الذين كانوا أشد الناس عدواة للذين آمنوا (٥ : ٦٦ منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) وقوله (٧ : ١٥٩ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون) وما في معناهما من الآيات . وقوله تعالى (٥ : ١٠٦ ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم) فهل جاءت هذه الآية بغير العدل أم أنت يا فريد لا تفهم معنى العدل ولا تعرف أحكام الشريعة؟ اذا

أردت ان تفهم فلسفة الشريعة في أمثال هذه المسألة وماقبلها فالتمس من يفهمك ماكتبناه عنها في المنار واسأل عنها من نقرأ لهم تفسير القرآن الحكيم وصحيح الاحاديث

هذا ماأجاب عنه من انتقاداتنا على أحد دروسه ولم يتفق له الصواب في شيء ولم يقارب الا في ذلك الاحتمال في الانتقاد الرابع كما تقدم

على انه لم يذكر جميع الانتقادات التي وجهناها اليه فقد سألناه هل الشريعة التي قال أنها مبنية على قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) خاصة بالمؤمنين أم عامة يحكم بها غيرهم واذا قال بالثاني فهل اخوة بعضهم لبعض تقتضي مساواتهم لغيرهم أم لا ؟ فان قال بالسلب فكيف يتم قوله . ولم يذكر في مقالته هذا

﴿جواب سؤال﴾

قلت ان فريد أفندي لم يتلق شيئاً من علوم الدين فسألني عمن تلقيت عنهم الدين وعن الشهادات التي تأذن لي بالافادة والفتوى . فأجيبه بأن يرسل الى صديقه الذي كلمني في ترك الرد عليه لأطلعه على الشهادات التي عندي والاجازات بالتدريس او ليحضر بنفسه لأريه ذلك

ولي هنا أن أسأله أين تعلم هو فلسفة التشريع وسائر العلوم الأوربية التي يتبجح بها و يفاخر ومن أين أخذ الشهادات بالعلوم العالية ومن أذنه بتدريسها ونحن نعلم انه عرض نفسه على امتحان الشهادة الثانوية فعجز وسقط فهل يليق به مع هذا ان يدعي ان يدرس جميع علوم أوربا العالية كما يدرس علوم الشرع في جميع المذاهب الاعتقادية والعملية ؟ هل يليق به ان يدعي انه قائد الامة ومعلم علماء الدين وعلماء الدنيا ؟ هل يليق به ان يدعي ان اعادة مجد الاسلام وقف عليه ومحصورة فيه ؟ فأنصح له ان يترك هذه الدعاوى العريضة و يوطن نفسه على الاستفادة أكثر من الافادة والا فاننا نقرأ جميع مؤلفاته الملفقة ونبين خطأها الكثير ومأخذ صوابها القليل من كتابة بعض من يتبجح عليهم و يدعوهم الى الاستفادة منه

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولوا الالباب

المنار
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر رجب سنة ١٣٢٥ — آخره الاحد ٨ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٧ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٩٣ : ٨٧) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرٰءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرٰءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰىةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرٰىةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ (٩٤ : ٨٨) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰلِمُونَ (٩٥ : ٨٩) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٦ : ٩٠) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعٰلَمِينَ (٩٧ : ٩١) فِيهِ ءَايٰتٌ بَيِّنٰتٌ مَقَامُ إِبْرٰهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰلَمِينَ *

كان الكلام من أول السورة الى هنا في اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع اثبات التوحيد واستتبع ذلك محاجة أهل الكتاب في ذلك وفي بعض بدعهم وما استحدثوا في دينهم . أما هذه الآيات ففي دفع شبهتين عظيمتين من شبهات اليهود على الاسلام قررهما الاستاذ الامام هكذا

قالوا اذا كنت يامحمد على ملة ابراهيم والنبيين من بعده كما تدعي فكيف تستحل ما كان محرما عليه وعليهم كلحم الابل؟ أما وقد استبحت ما كان محرما عليهم فلا ينبغي لك أن تدعي انك مصدق لهم وموافق في الدين ولا تخص ابراهيم بالذكر وتقول إنك أولى الناس به . هذه هي الشبهة الأولى . وأما الثانية فهي انهم قالوا ان الله وعد ابراهيم بأن تكون البركة في نسل ولده إسحاق، وجميع الانبياء من ذرية اسحاق كانوا يعظمون بيت المقدس ويصلون اليه فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا ولما تحولت عن بيت المقدس وعظمت مكانا آخر اتخذته مصلى وقبلة وهو الكعبة فخالفت الجميع

فقوله تعالى ﴿ كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل الا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾ هو جواب عن الشبهة الأولى قال الاستاذ الامام ولكن الجلال وكثيرًا من المفسرين يقررون الشبهة ولا يبينون وجه دفعها بيانا مقنعًا اذ يعترفون بأن بعض الطيبات كانت محرمة على إسرائيل والصواب ماقصه الله تعالى علينا في هذه الآية وغيرها من الآيات التي توضحها وهي أن كل الطعام كان حلالا لبني إسرائيل ولابراهيم من قبل بالاولى ثم حرم الله عليهم بعض الطيبات في التوراة عقوبة لهم وتأديبا كما قال (٤ : ١٦٠ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الآية فالمراد باسرائيل شعب اسرائيل كما هو مستعمل عندهم لا يعقوب نفسه ومعنى تحريم الشعب ذلك على نفسه انه ارتكب الظلم واجترح السيئات التي كانت سبب التحريم كما صرحت الآية فكأنه يقول اذا كان الاصل في الاطعمة الحل وكان تحريم ماحرم على اسرائيل تأديبا على جرائم أصابوها وكان النبي وأمته لم يجترحوا تلك السيئات، فلم تحرم عليهم الطيبات، ؟ ثم قال تعالى مبينا تقرير الدفع ومسنده ﴿ قل فأتوا بالتوراة

فاتلوها ان كنتم صادقين ﴾ في قولكم لا تخافون ان تكذبكم نصوصها . أقول كأنه يقول أما انكم ان جئتم بما عندكم منها لما كان الا مؤيدا للقرآن فيما جاء به من أنها هي حرمت عليكم ماحرمت وعللت جملة التكاليف بأنكم شعب غليظ الرقبة متمرد يقاوم الرب كما قال موسى عند أخذ العهد عليه بحفظ الشريعة (اقرأ الفصل ٣١ من سفر التثنية) وفي غير ذلك من فصول التوراة

قال الاستاذ الامام أما قول الجلال وغيره ان يعقوب كان به عرق النسا — بالفتح والقصر — فنذر ان شفي لا يأكل لحم الابل فهو دسيسة من اليهود . وقيل انه نذر ان لا يأكل هذا العرق وفي التوراة أن يعقوب التقى ببعض أسفاره بالرب في الطريق فتصارعا الى الصباح وكاد يعقوب يغلبه ولكن اعتراه عرق النسا الخ ماحرفوه . أقول ونص العبارة كما في سفر التكوين « ٣٢ : ٢٥ ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه ٢٦ وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك ان لم تباركني ٢٧ فقال له ما اسمك فقال يعقوب ٢٨ فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت ٢٩ وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك ٣٠ فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل (قائلا) لأني نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسي ٣١ وأشرقت له الشمس اذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه ٣٢ لذلك لا يأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ الى هذا اليوم لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا » اهـ وليس فيه أنه نذر شيئًا ولا حرم شيئًا وقيل ان ماحرمه يعقوب هو زائدتا الكبد والكليتين والشحم الا ما كان على الظهر وقال مجاهد حرم لحوم الانعام كلها . وكل ذلك من الاسرائيليات وصحة السند في بعضها عن ابن عباس أوغيره كما زعم الحاكم لا يمنع أن يكون مصدرها اسرائيليا والصواب ما قاله الاستاذ الامام لأنه هو الذي تقوم به الحجة لاسيما عند المطلع على التوراة . ولو أريد باسرائيل يعقوب نفسه لما كان هناك حاجة الى قوله « من قبل أن تنزل التوراة » لأن زمن يعقوب سابق على زمن نزول التوراة سبقا لا يشتبه فيه فيحترس عنه . والمتبادر عندي أن المراد بماحرمه

اسرائيل على نفسه ما امتنعوا عن أكله وحرموه على أنفسهم بحكم العادة والتقليد لا بحكم من الله كما يعهد في جميع الامم ومنه تحريم العرب للبحائر والسوائب وغير ذلك مما حكاه القرآن عنهم في سورتي المائدة والانعام وقيل ان شبهتهم التي دفعتها الآية هي انكار النسخ فألزمهم بأن التوراة نفسها نسخت بعض ما كان عليه ابراهيم واسرائيل وهو إلزام لا يمكنهم التفصي منه لانه ثابت عندهم في التوراة وهو يدل على نبوة النبي على كل حال اذ أخبرهم بما عندهم ولم يطلع عليه . وبهذا يسقط بحثهم في كون التحليل والتحريم لا يكونان الا من الله

ومن مباحث اللفظ في الآية أن الطعام ما يطعم أن يتناول لأجل الغذاء كما قال الراغب وقد يقال أيضا طعم الماء (بكسر العين) وكان يطلق غالبا على الخبز ومنه قولهم : أكل الطعام مأدوما : وعلى البر ومنه حديث أبي سعيد : كنا نخرج زكاة الفطر صاعا من طعام أو صاعا من شعير : الخ متفق عليه . ومن اطلاقه على غيره حتما قوله تعالى (٥ : ٩٦ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) وعلى الذبائح أو العموم قوله (٥:٥ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) الآية . بالكسر مصدر حل الشيء ضد حرم وهو مستعار من حل العقدة كما قال الراغب . واسرائيل لقب نبي الله يعقوب عليه السلام ومعناه « الامير المجاهد مع الله » وقد علمت ماعندهم في سبب اطلاقه عليه من عبارة سفر التكوين التي ذكرناها آنفا . ثم أطلق على جميع ذريته كما هو شائع في كتب القوم من الأسفار المنسوبة الى موسى فما دونها

﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ﴾ البيان وإلزام الكاذبين على ابراهيم والأنبياء بالتوراة ودعوتهم الى الاتيان بها وتلاوتها على الملأ وامتناعهم عن ذلك لئلا يظهر ان الله لم يحرم عليهم شيئا من الطعام قبل التوراة . والاصل في الاشياء الحل حتى يرد النص بالتحريم ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ بنحو يلهم الحق في المسألة عن وجهه ووضع حكم الله بتحريم بعض الطيبات عليهم في غير موضعه

﴿ قل صدق الله ﴾ فيما أنبأني به من عدم تحريم شيء على اسرائيل قبل التوراة وقامت الحجة عليكم بذلك فثبت أنني مبلغ عنه اذ ما كان لي لولا وحيه

أن أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحدثون به عن أنبيائكم . واذ كان الأمر كذلك ﴿ فاتبعوا ملة ابراهيم ﴾ التي أدعوكم اليها حال كونه ﴿ حنيفا ﴾ لا غلو فيما كان عليه ولا تقصير ولا افراط ولا تفريط بل هو الفطرة القويمة والحنيفية السمحة المبنية على الاخلاص لله واسلام الوجه له وحده ﴿ وما كان من المشركين ﴾ الذين يبتغون الخير من غيره تعالى أو يخافون الضر من غير أسبابه التي مضت بها سنته

أما قوله عز وجل ﴿ ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ فهو جواب الشبهة الثانية . وتقريره ان البيت الحرام الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع معبدا للناس بناه ابراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام لأجل العبادة خاصة ثم بني المسجد الاقصى ببيت المقدس بعده بعدة قرون بناه سليمان بن داود عليهما السلام فصح أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم على ملة ابراهيم ويتوجه بعبادته الى حيث كان يتوجه ابراهيم وولده اسماعيل . وهذا هو المعنى الظاهر المتبادر من الآية الذى قرره الاستاذ الامام وهو كاف في ابطال شبهة اليهود على النبي عليه الصلاة والسلام من غير حاجة الى البحث في هذه الأولية هل هي أولية الشرف أم أولية الزمان . أقول والمتبادر انها أولية الزمان بالنسبة الى بيوت العبادة الصحيحة التي بناها الانبياء فليس في الارض موضع بناه الانبياء أقدم منه فيما يعرف من تاريخهم ومايؤثر عنهم . وهذا يستلزم الاولية في الشرف

وذهب بعض المفسرين الى أن الأولية زمانية بالنسبة الى وضع البيوت مطلقا فقالوا ان الملائكة بنته قبل خلق آدم وان بيت المقدس بنى بعده بأربعين عاما . قال الاستاذ الامام رحمه الله تعالى اذا صح الحديث فلا شيء في العقل يحيله ولكن الآية لاتدل عليه ولا يتوقف الاحتجاج بها على ثبوته وبيت المقدس المعروف الذي ينصرف اليه الاطلاق قد بناه سليمان بالاتفاق وذلك قبل ميلاد المسيح بنحو ٨٠٠ سنة : كذا قال رحمه الله تعالى في الدرس والمعروف في كتب القوم انه تم بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد . والحديث الذي ذكر آنفا في بناء المسجدين رواه الشيخان من حديث أبي ذر بلفظ الوضع لا البناء قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول بيت وضع للناس فقال « المسجد الحرام ثم بيت

المقدس » فقيل كم بينهما فقال « أربعون سنة » وأجابوا عما فيه من الاشكال بوجوه منها أن الوضع غير البناء وهو ضعيف لأنه سماه بيتا ولو جعل المكان مسجدا ولم يبن فيه لما سمي بيتا بل مسجدا أو قبلة ومنها أن ذلك مبني على القول بأن ابراهيم هو الذي بنى أول مسجد للعبادة في أرض بيت المقدس وذلك معقول وان لم يكن عندنا فيه نص صحيح وقال ابن القيم ان الذي أسس بيت المقدس يعقوب وانما كان سليمان مجددا له. هذا وان أخبار التاريخ ليست مما بلغ على انه دين يتبع والموضوعات المروية في بناء الكعبة كثيرة ولا حاجة الى اضاعة الوقت في ذكرها وبيان وضعها

أما قوله تعالى في البيت ﴿ مباركا وهدى للعالمين ﴾ فهو بيان لحاله الحسنة الحسية وحاله الشريفة المعنوية . أما الأولى فهي ما أفيض عليه من بركات الارض وثمرات كل شيء على كونه بواد غير ذي زرع فترى الاقوات والثمار في مكة أكثر وأجود وأقل ثمنا منها في مثل مصر وكثير من بلاد الشام . وأما الثانية فهي هوي أفئدة الناس اليه واتيانه للحج والعمرة مشاة وركبانا من كل فج وتولية وجوههم شطره في الصلاة ولعله لا تمر ساعة ولا دقيقة من ليل أو نهار وليس فيها أناس متوجهون الى ذلك البيت الحرام يصلون فأي هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية . تلك دعوة ابراهيم (١٤ : ٣٧ ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وقد أشير الى الوصفين في قوله تعالى حكاية عن المشركين (٢٨ : ٥٧ وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا : أولم نمكن لهم حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لايعلمون) وقال بعضهم ان « مباركا » يشمل البركات الحسية والمعنوية وما اخترناه هو المتبادر

ومن مباحث اللفظ في الآية ان (بكة) اسم لمكة كما روي عن مجاهد قيل وعليه الاكثرون وجعلوه من ابدال الميم باء وهو كثير في كلامهم كسمد رأسه وسبده ، وضربة لازم وضربة لازب ، وراتم وراتب ، ونميط ونبيط ،

وقيل بكة اسم المسجد نفسه أو حيث الطواف من التباك أي الازدحام وقيل هو اسم بطن مكة حيث الحرم

﴿ فيه آيات بينات مقام ابراهيم ﴾ أي فيه دلائل أو علامات ظاهرة لاتخفى على أحد أحدها أو منها مقام ابراهيم أي موضع قيامه فيه للصلاة والعبادة تعرف ذلك العرب بالنقل المتواتر . فأي دليل أبين من هذا على كون هذا البيت أول بيت من بيوت العبادة الصحيحة المعروفة في ذلك العهد وضع ليعبد الناس فيه ربهم — وابراهيم أبو الانبياء الذين بقي فى الارض أثرهم بجعل النبوة والملك فيهم لايعرف لنبي قبله أثر ولا يحفظ له نسب

وقوله ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ آية ثانية بينة لايمتري فيها أحد وهي اتفاق قبائل العرب كلها على احترام هذا البيت وتعظيمه لنسبته الى الله حتى ان من دخله يأمن على نفسه لا من الاعتداء عليه وايذائه فقط بل يأمن أن يثأر منه من سفك هو دماءهم واستباح حرماتهم ما دام فيه . مضى على هذا عمل الجاهلية على اختلافها فى المنازع والأهواء والمعبودات وكثرة ما بينها من الأحقاد والأضغان وأقره الاسلام .

ويرد على إقرار الاسلام لحرمة البيت فتح مكة بالسيف وأجيب عنه بأنها حلت للنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار لم تحل لأحد قبله ولن تحل لأحد بعده كما ورد في الحديث وذلك لضرورة تطهير البيت من الشرك وتخصيصه لما وضع له وأقول إن حرمة مكة كلها وما يتبعها من ضواحيها وحلها للنبي (ص) ساعة من نهار أمر زائد على ما نحن فيه وهو أمن من دخل البيت والنبي لم يستحل البيت ساعة ولا بعض ساعة وإنما كان مناديه ينادي بأمره : من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن : ولما أخبر أبو سفيان النبي صلى الله عليه وسلم بقول سعد بن عبادة حامل لواء الأنصار له في الطريق: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة : قال صلى الله عليه وسلم « كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة» (راجع السير)

وأما فعل الحجاج أخزاه الله فقد قال الاستاذ الامام انه كان من الشذوذ الذي لاينافي الاتفاق على احترام البيت وتعظيمه وتأمين من دخله : وهذا الجب وا

مبني على أن أمن من دخل البيت ليس معناه أن البشر يعجزون عن الايقاع به عجزا طبيعيا على سبيل خرق العادة وإنما معناه انه تعالى ألهمهم احترامه لاعتقادهم نسبته اليه عز وجل وحرم الإلحاد والاعتداء فيه ولم يكن الحجاج وجنده يعتقدون حل مافعلوا من رمي الكعبة بالمنجنيق ولكنها السياسة تحمل صاحبها على مخالفة الاعتقاد ، وتوقعه في الظلم والالحاد ، وان مايفعل الآن في الحرم من الظلم والالحاد المستمر لم يسبق له نظير في جاهلية ولا اسلام . ولاضرورة ملجئة اليه وانما هي السياسة السوءى قضت بتنفير الناس من أمراء مكة وشرفائها وابعاد عقلاء المسلمين عنها حتى لايكون للمسلمين فيها قوة في الدين ولا في العلم والرأي !! وماذا يكون من ضرر هذه القوة ؟ يوسوس لهم شيطان السياسة : ان عمران الحجاز وثقة الناس بامرائه وشرفائه وأمن العقلاء والسروات فيه ربما يكون سبباً في انشاء خلافة عربية فيه . ان كثيرًا من أمراء المسلمين ونابغيهم يعلمون أن دون أدائهم لفريضة الحج عقبات سياسية لايسهل اقتحامها وقد جاء في صحف الاخبار ان أمير مصر استأذن السلطان في حج والدته وبعض أمراء أسرته فلم يأذن . وقد كان الاستاذ الامام يعتقد اعتقادا جازما فيه أنه اذا حج يلقي بيديه الى التهلكة وأنه لا أمان له في الحرم الذي كان يرى الجاهلي فيه قاتل أبيه فلا يعرض له بسوء وان كاتب هذه السطور يعتقد مثل هذا الاعتقاد . فنسأل الله تعالى أن يحقق لنا ثانية مضمون قوله « ومن دخله كان آمنا » لنمتثل مافرضه علينا من حج هذا البيت كما يأتي في تتمة الآية فلا نلجأ الى تأويل الأمان بمثل ماأوله به من قال ان المراد به الأمن من العذاب يوم القيامة وقد رد الاستاذ الامام هذا التأويل وقال ما معناه أنه هدم للدين كله فان الأمن هناك انما يكون لأهل التوحيد الخالص والعمل الصالح الذين أقاموا الدين في الدنيا كما امر الله تعالى وما دخول البيت الابعض أعمال الايمان اذا أخلص صاحبه فيه . أقول ولاننس في هذا المقام مثل قوله تعالى (٦ : ٨٢ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) وما رووه في ذلك من الآثار لا ينافي المتبادر المختار ، وما أظن ان ذلك يصح عن الامام جعفر الصادق كما قيل

أما قوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ﴾ فهو بيان آية ثالثة من آيات هذا البيت جاءت بصيغة الايجاب والفرضية في معرض ذكر مزاياه ودلائل كونه أول بيوت العبادة المعروفة للمعترضين من اليهود على استقباله فهو يفيد بمقتضى السياق معنى خبريا و بمقتضى الصيغة معنى انشائيا وهو وجوب الحج على المستطيع من هذه الأمة . أشار الى ذلك الاستاذ الامام بقوله : هذه الجملة وان جاءت بصيغة الايجاب هي واردة في معرض تعظيم البيت وأي تعظيم أكبر من افتراض حج الناس اليه وما زالوا يحجونه من عهد ابراهيم الى عهد محمد صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم ولم يمنع العرب عن ذلك شركها وانما كانوا يحجون عملا بسنة ابراهيم : يعني أن الحج عمل عام جروا عليه جيلا بعد جيل على انه من دين ابراهيم وهذه آية متواترة على نسبة هذا البيت الى ابراهيم فهي أصح من نقول المؤرخين التي تحتمل الصدق والكذب . وبهذا وبما سبقه بطل اعتراض أهل الكتاب وثبت أن النبي على ملة ابراهيم دونهم

أما الحج فمعناه في أصل اللغة القصد وهو بكسر الحاء وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وفتحها وبه قرأ الباقون وقيل الفتح لغة الحجاز والكسر لغة نجد . وقد تقدم تفصيل أعماله في تفسير آيات سورة البقرة . وأما استطاعة السبيل فهي عبارة عن القدرة على الوصول اليه وهي تختلف باختلاف الناس في أنفسهم وفي بعدهم عن البيت وقربهم منه وكل مكلف أعلم بنفسه وان كان عاميا من غيره وان كان عالما نحريرا ومازاد الناس اختلاف العلماء في تفسير الاستطاعة الا بعدا عن حقيقتها الواضحة من الآية أتم الوضوح . اذ قال بعضهم ان الاستطاعة صحة البدن والقدرة على المشي وقال بعضهم انها القدرة على الزاد والراحلة واشترطوا فيها أمن الطريق ولم يشترطوا الأمن في أرض الحرم لأنها كانت آمنة قطعا وأما في هذا الزمان فما كل أحد يأمن فيها لا سيما اذا كان متهما بالاشتغال بالسياسة وكيف وقد ألقي بعض علمائها في ظلمة السجن مكبلا بالسلاسل والاغلال ولا ذنب له الا أنه ألف كتابا أيد فيه التوحيد و بين فساد ما طرأ على

الناس من نزغات الوثنية التي يعبرون عنها بالتوسل بالأولياء . فياليت شعري لو كان مثل الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني الذي كان ينكر كرامات الأولياء حيا أكان يأمن على نفسه اذا أراد الحج وهو المعدود في عصر العلم من أئمة علماء السنة في أصول الدين ؟ وقل مثل هذا في الامام أبي بكر الباقلاني الذي كان يقول في الأرواح بمثل مايقول جمهور علماء أوربا اليوم من ماديين وغيرهم دع الفرق التي وسمت بالابتداع كالمعتزلة والخوارج والشيعة ولم يكن أهل السنة يكفرون أحدا منهم ولا يعاقبونه على مخالفة الجمهور في بعض الآراء أيام كان قرب جمهور المسلمين من العلم والدين كبعده عنه اليوم

وقال الاستاذ الامام في قوله تعالى « من استطاع اليه سبيلا » انه بيان لموقع الايجاب ومحله واعلام بأن الفرضية موجهة أولا وبالذات الى هذا العمل ولكن الله رحم من لا يستطيع اليه سبيلا والاستطاعة تختلف باختلاف الاشخاص : ولم يزد على ذلك

وقوله تعالى ﴿ ومن كفر فان الله غني عن العالمين ﴾ تأكيد لما سبق ووعيد على جحوده وبيان لتنزيه الله تعالى بازالة ما عساه يسبق الى أوهام الضعفاء عند سماع نسبة البيت الى الله والعلم بفرضه على الناس أن يحجوه من كونه محتاجا الى ذلك . فالمراد بالكفر جحود كون هذا البيت أول بيت وضعه ابراهيم للعبادة الصحيحة بعد اقامة الحجج على ذلك وعدم الاذعان لما فرض الله من حجه والتوجه اليه بالعبادة . هذا هو المتبادر وحمله بعضهم على الكفر مطلقا على انه كلام مستقل لا متمم لما قبله وهو بعيد جدا ، وبعضهم على ترك الحج وهو بعيد أيضا وان دعموه بحديث أبي هريرة مرفوعا « من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا أو نصرانيا رواه ابن عدي وحديث أبي أمامة عند الدارمي والبيهقي « من لم يمنعه من الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر او مرض حابس فمات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا أو نصرانيا » ورواه غيرهم باختلاف في اللفظ والروايات كلها ضعيفة الا ماقيل في رواية موقوفة بل عده ابن الجوزي من الموضوعات واعترض عليه لكثرة طرقه وأمثل طرقه المرفوعة ماروي عن علي كرم الله وجهه

بلفظ : من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك لأن الله تعالى قال في كتابه « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » الآية رواه الترمذي وقال غريب في اسناده مقال والحارث يضعف وهلال بن عبد الله الراوي له عن أبي اسحاق مجهول : وقد قال بعضهم ان تعدد طرق الحديث ترتقي به الى درجة الحسن لغيره كما يقولون في مثله ولا يقدح في ذلك قول العقيلي والدارقطني : لا يصح في هذا الباب شيء : اذ لا ندعي أن هنا شيئا صحيحا . وأشد من ذلك أثر عمر عند سعيد بن منصور في سننه قال : لقد هممت ان أبعث رجالا الى هذه الامصار فينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ماهم بمسلمين ماهم بمسلمين » واستدل بهذه الروايات على أن الحج واجب على الفور وبه قال كثير من أهل الفقه والأثر والآخرون يقولون انه على التراخي . والاحتياط أن لا يؤخر المستطيع الحج بغير عذر صحيح لئلا يفاجئه الموت قبل ذلك

أقول ان الآية تشتمل على مزايا وآيات لبيت الله الحرام فالمزايا كونه أول مسجد وضع للناس وكونه مباركا وكونه هدى للعالمين ، والآيات مقام ابراهيم وأمن داخله والحج اليه على مابينا . ويذكر له المفسرون هنا خصائص ومزايا أخرى يعدونها من الآيات على تقدير «منها مقام ابراهيم» . ومنهم من قال انها هي الآيات وان قوله « مقام ابراهيم » كلام مستقل قال الرازي : فكأنه قال فيه آيات بينات ومع ذلك هو مقام إبراهيم ومقره والموضع الذي اختاره وعبد الله فيه : اه ولعل الدافع لهم الى هذا فهمهم أن «مقام ابراهيم» تفسير للآيات وهو مفرد وقد علمت ان مابعده تابع له في ذلك . ومما يؤيد ذلك محاولة الآخرين أن يجعلوا مقام ابراهيم بمنزلة عدة آيات قال الرازي إن مقام ابراهيم اشتمل على الآيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية وغوصه فيها الى الكعبين آية وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية لأنه لان من الصخرة ماتحت قدميه فقط ، وابقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية خاصة لابراهيم عليه السلام ، وحفظه مع كثرة أعدائه من اليهود والنصارى والمشركين ألوف السنين آية فثبت

أن مقام ابراهيم عليه السلام آيات كثيرة : اه

أقول وقد تقدم في تفسير (٢ : ١٢٥ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) أن بعضهم يقول ان مقامه عبارة عن موقفه حيث ذلك الأثر للقدمين وان هذا ضعيف. والكلام هنا في ان مقام ابراهيم مشتمل على ماذكر من الأثر وهذا هو الصحيح أما الأثر نفسه فقد كانت العرب تعتقد أنه أثر قدمي ابراهيم كما قال أبو طالب في لاميته

وموطئ ابراهيم في الصخر رطبة   على قدميه حافيا غير ناعل

وقد يؤخذ من قوله رطبة ان الصخرة كانت عند ما وطئ عليها رطبة لم تتحجر ثم تحجرت بعد ذلك وبقي أثر قدميه فيها وعلى هذا لا يظهر معنى كونه آية الا على الوجه الذي جرينا عليه في تفسير « آيات بينات » دون ماجرى عليه الجمهور من كون الآيات بمعنى الخوارق الكونية . وقد يكون مراده انها كانت رطبة كرامة له (وهو ماجرينا عليه في تفسير القصيدة في المنار — ص ٤٦٥ م ٩) وقال بعضهم ان « مقام » مصدر بمعنى الجمع والمراد مقامات ابراهيم أي ماقام به من المناسك وأعمال الحج . والمتبادر ماذكرناه في موضعه

ومما عدوه من الآيات قصم من يقصده من الجبابرة بسوء كأصحاب الفيل ويرد عليهم ما كان من الحجاج ومن هم شر من الحجاج في هذا الزمان ، وعدم تعرض ضواري السباع للصيود فيه وهذا القول ظاهر الضعف اذ ليس ذلك آية ، وعدم نفرة الطير من الناس هناك ويرد عليه ان الطير تألف الناس لعدم تعرضهم لها ولذلك نظائر في الارض ، وانحراف الطير عن موازاته وليس بمتحقق ، وكون وقوع الغيث فيه دليلا على الخصب فاذا عمه كان الخصب عاما واذا وقع في جهة من جهاته كان الخصب في تلك الجهة من الأرض ، وهي آية وهمية

ولعمري أن بيت الله غني عن اختراع الآيات وإلصاقها به مع براءته منها فحسبه شرفا كونه حرما آمنا ومثابة للناس وأمنا ومباركا وهدى للعالمين ومافيه من الآيات التي ذكرها الله واقسامه تعالى به وماورد عن رسوله في حرمته وتحريمه وفضله ككونه لا يسفك فيه دم ولا يعضد شجره ولا يختلى خلاه (أي لا يقطع

نباته) ولا ينفر صيده ولا تملك لقطته وكون قصده مكفرا للذنوب ماحيا للخطايا ، وكون العبادة التي تؤدى فيه لا تؤدى في غيره وكون استلام الحجر الاسود فيه رمزا الى مبايعة الله تعالى على اقامة دينه والاخلاص له فيه وكون الصلاة فيه بمئة ألف ضعف في غيره . والاحاديث الواردة في ذلك تطلب من الصحيحين وكتب السنن

{ ٩٨ : ٩٣ } قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٩ : ٩٤) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

أقول لما أقام سبحانه الحجة على أهل الكتاب وبين بطلان شبهاتهم على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكونه على ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام أمره أن يبكتهم على كفرهم وصدهم على سبيل الايمان وابتغائه عوجا وضلالهم بذلك على علم فقال ﴿ قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ في بيته الدالة على كونه أول بيت وضع لعبادته وعلى بناء ابراهيم له وتعبده فيه قبل وجود بني اسرائيل و بيت المقدس ، أو بآياته على صحة نبوة محمد واحيائه لملة ابراهيم الذى تعترفون بنبوته وفضله ومنها ماذكر عن البيت — ﴿ والله شهيد على ماتعملون ﴾ أي والحال ان الله تعالى مطلع على عملكم هذا وسائر أعمالكم محيط به أفلا تخافون أن يأخذكم به ويجازيكم عليه أشد الجزاء

﴿ قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ﴾ أي لأي شيء تصرفون من آمن بمحمد (ص) واتبعه عن الايمان وهو سبيل الله الموصلة الى رضوانه ورحمته بما ترقي من عقل المؤمن بالعقائد الصحيحة ومن نفسه بالاخلاق الكريمة والاعمال الصالحة . تصدون عنها بالتكذيب كبرا وحسدا وإلقاء الشبهات الباطلة مكابرة وبغيا والكيد للنبي والمؤمنين بغيا وعدوانا ﴿ تبغونها عوجا ﴾ أي لم تصدون عنها قاصدين بصدكم أن تكون معوجة في نظر من يؤمن لكم ويغتر

بكيدكم ﴿ وأنتم شهداء ﴾ بأنها سبيل الله المستقيمة لاترون فيها عوجا ولاأمتا عارفون بما ورد فيها من البشارات عن الانبياء ويلزم من ذلك أن من صد عنها ضال مضل . وقيل الشهداء في قومكم توصفون فيهم بالعدل وتستشهدون في القضايا . ومن كان كذلك كان أقدر على الصد . وقال الاستاذ الامام المعنى وأنتم شهداء على بقايا الكتاب ومايؤثر عن النبيين فكان من حقكم أن تكونوا أقرب الناس الى معرفة هذه السبيل سبيل الحق والسبق اليها بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ من هذا الصد وغيره فهو يجازيكم عليه . فالتذييل تهديد لهم ووعيد وقد جاء بنفي الغفلة لأن صدهم عن الاسلام كان بضروب من المكايد والحيل الخفية التي لاتروج الا على الغافل . كاختم الآية السابقة بكونه شهيدا على عملهم لأن العمل الذي ذكر فيها هو الكفر وهو ظاهر مشهود ، فذكر في كل آية مايناسب المقام



نموذج من انجيل برنابا

(الهوامش التى علاماتها حروف مأخوذة من النسخة الطليانية يظهر ان واضعها يزعم انها لما وافق هذا الانجيل فيه القرآن والهوامش التي علاماتها أرقام بين أقواس، فهي لما وافق فيها العهد العتيق والعهد الجديد وهي من النسخة الانكليزية)

الفصل السادس عشر (ب)

(التعاليم العجيبة التي علمها لتلاميذه بخصوص الارتداد من الحياة الشريرة)

١ وجمع يسوع ذات يوم « تلاميذه وصعد الى الجبل (١) ٢ فلما جلس هناك دنا منه التلاميذ ففتح فاه وعلمهم قائلا ٣ « عظيمة هى النعم التي أنعم بها الله (ت) علينا فترتب علينا من ثم ان نعبده باخلاص قلب ٤ وكما ان الخمر الجديدة توضع في أوعية جديدة. (٢) هكذا يترتب عليكم ان تكونوا رجالا جدداً اذا أردتم ان تعوا التعاليم الجديدة التي ستخرج من فمي ٥ الحق أقول لكم كما انه لا يتأتى للانسان ان ينظر بعينه السماء والارض معاً في وقت واحد فكذلك يستحيل عليه ان يحب الله والعالم (ث)

٦ لا يقدر رجل أبداً ان يخدم سيدين (٣) أحدهما عدو للآخر (ج) لأنه اذا أحبك أحدهما ابغضك الآخر ٧ فكذلك أقول لكم حقاً انكم لا تقدرون ان تخدموا الله والعالم ٨ لان العالم موضوع في النفاق والجشع والخبث (٤) ٩ لذلك لا تجدون راحة في العالم بل تجدون بدلا

(ا) الحمد لله (ب) سورة ترك الدنيا (ت) نعمة الله كبر (ث) مثلا في بني آدم عينان لكن لا يمكن ان ينظر الى السماء والارض في حالة واحدة وكذلك لا يمكن ان تجمع محبة الله ومحبة الدنيا في حالة واحدة منه (ج) لا يمكن العبد ان يخدم سيدين عدوين أحدهما لآخر وكذلك لا يمكن ان يخدم العبد الدينا والله تعالى منه

(١) ت ٥:١ (٢) مت ٩ : ١٧ (٣) مت ٦ : ٢٤ ولو ١٦:١٣ (٤) ا يو ٥:١٩

منها اضطهاداً وخسارة ١٠ اذاً فاعبـدوا الله واحتقروا العالم ١١ إذ مني
تجدون راحة لنفوسكم [1] ١٢ اصيخوا السمع لكلامي لاني أكلمكم بالحق
١٣ طوبى للذين ينوحون على هذه الحياة لانهم يتعزون [2]
١٤ طوبى للمساكين [3] الذين يعرضون حقاً عن ملاذ العالم لانهم
سيتنعمون بملاذ ملكوت الله
١٥ طوبى للذين يأكلون على مائدة الله [4] لان الملائكة ستقوم
على خدمتهم
١٦ أنتم مسافرون كسياح ١٧ أيتخذ السائح لنفسه على الطريق قصوراً
وحقولا وغيرها من حطام العالم ١٨ كلا ثم كلا ولكنه يحمل أشياء خفيفة
ذات فائدة وجدوى في الطريق ١٩ فليكن هذا مثلا لكم ٢٠ واذا أحببتم
مثلا آخر فاني أضرب لكم لكي تفعلوا كل ما أقوله لكم
٢١ « لا تثقلوا قلوبكم بالرغائب العالمية قائلين من يكسونا [5] أو من
يطعمنا ٢٢ بل انظروا الزهور والاشجار مع الطيور التي كساها وغذاها
الله [ا] ربنا بمجد أعظم من كل مجد سليمان ٢٣ والله [ب] الذي خلقكم
ودعاكم الى خدمته هو قادر ان يغذيكم ٢٤ الذي أنزل المن [6] من
السماء [ت] على شعبه اسرائيل في البرية أربعين سنة وحفظ أثوابهم من
ان تعتق أو تبلى [7] ٢٥ أولئك الذين كانوا ست مئة وأربعين ألف رجل
خلا النساء والاطفال ٢٦ الحق أقول لكم ان السماء والارض

(ا) الله رازق وخالق الله سلطان (ب) الله قدير الله رازق (ت) منوا وسلوان ذكر منه

(١) مت ١١:٢٩ (٢) مت ٥:٤ (٣) مت ٥:٣ (٤) مت ٥:٦ (٥) مت ٦:٢٥

(٦) تث ٨:٣–١٦ (٧) تث ٨:٤ (٨) خر ١٢:٣٧ عدد ١:٤٦ و ١١:٢١

تهنان [1] بيد ان رحمته لا تهن للذين يتقونه [ا] ٢٧ أغنياء العالم هم على رخائهم
جياع وسيهلكون [2] ٢٨ كان غني ازدادت [3] ثروته فقال ماذا أفعل
يا نفسي ٢٩ اني اهدم اهرائي لانها صغيرة وأبني أخرى جديدة أكبر
منها فتظفرين بمناك يا نفسي » ٣٠ انه لخاسر لانه في تلك الليلة توفي ٣١
ولقد كان يجب عليه العطف على المسكين وان يجعل لنفسه اصدقاء من
صدقات أموال الظلم في هـذا العالم لانها تأتي بكنوز في عالم السماء ٣٢
وقولوا لي من فضلكم اذا وضعتم دراهمكم في مصرف عشار فاعطاكم
عشرة اضعاف وعشرين ضعفا أفلا تعطون رجلا كهذا كل ما لكم ٣٣
ولكن الحق أقول لكم انكم مهما أعطيتم وتركتم لاجل محبة الله
فستستردونه مئة ضعف مع الحياة الابدية [4][ب] ٣٤ فانظروا اذاً كم يجب
عليكم ان تكونوا مسرورين في خدمة الله

الفصل السابع عشر [ت]

(عدم ايمان التلاميذ ودين « المؤمن » الصحيح)

١ ولما قال يسوع ذلك أجاب فيلبس اننا لراغبون في خدمة الله
ولكننا نرغب أيضاً ان نعرف الله [5] لان اشعيا النبي قال « حقاً انك
لا إله [ث] محتجب [6] ٣ وقال الله لموسى عبده « أنا الذي هو أنا [7] »

(ا) أقول لك هذا الكلام حق ينهدم السماء والارض واما من يخاف الله لا ينقطع رحمة الله عليه أبداً منه (ب) أقول لكم الحق ما أعطيتم في سبيل الله من الاشياء اعطى كم الله في مقابلته ماءة خيرا منه (ت) هذا سورة إخلاص (ث) الله خفي

(١) مر ١٣:٣١ (٢) يبع ٥:١ (٣) لو ١٢:١٦ ٢٠ (٤) مت ١٩:٢٩

(٥) يو ١٤:٦ (٦) اش ٤٥:١٥ (٧) خر ٣:١٤

٤ أجاب يسوع يافيلبس ان الله صلاح بدونه لا صلاح ٥ ان الله
موجود بدونه لا وجود ٦ ان الله حياة بدونها لا أحياء[ا] ٧ هو عظيم
حتى انه يملأ الجميع وهو في كل مكان ٨ هو وحده لا ند له ٩ لا بداية ولا
نهاية له[ب] ولكنه جعل لكل شيء بداية وسيجعل لكل شيء نهاية[ت]
١٠ لا أب ولا أم له ١١ لا ابناء ولا إخوة ولا عشراء[ث] له ١٢ ولما
كان ليس لله جسم فهو لا يأكل ولا ينام ولا يموت ولا يمشي ولا يتحرك
١٣ ولكنه يدوم الى الابد بدون شبيه[ج] بشري ١٤ لانه غير ذي جسد
وغير مركب وغير مادي وابسط البسائط[ح] ١٥ وهو جواد لا يحب الا
الجود ١٦ وهو مقسط حتى اذا هو قاص أو صفح فلا مرد له ١٧ وبالاختصار
أقول لك يا فيلبس انه لا يمكنك ان تراه وتعرفه على الارض تمام المعرفة
١٨ ولكنك ستراه في مملكته الى الابد حيث يكون قوام سعادتنا ومجدنا

١٩ أجاب فيلبس ماذا تقول يا سيد حقاً لقد كتب في أشعيا ان الله
أبونا[١] فكيف لا يكون له بنون ؟

٢٠ أجاب يسوع انه في الانبياء مكتوب امثال كثيرة لا يجب ان

(ا) الله واحد لا كفؤ له حق سبحانه وتعالى خيرا لا خير الا هو وكذلك حيوته وذاته منه (ب) الله أكبر الله قديم وباق (ت) لا أول لله « لا أول لله » ولا آخر له اما خلق لكل شيء أولا وآخرا (ث) الله تعالى لا أبا له ولا أم له ولا ولد له ولا أخ له ولا شريك له ولا بدن له لاجل هذا لا يشكل ولا ينام ولا يموت ولا يذهب ولا يتحرك لكن قائم ابداً منزه من كل مخلقات ولا مركب له ولا يتركب من الاشياء لكن لطيف بالذاة منه (ج) الله قائم وباق وسبحان ولطيف وخير ذو انتقام وغفور منه (ح) الله لا تدركه الابصار منه

(١) أش ٦٣ : ١٦ و٦٤ : ٨

تأخذها بالحرف بل بالمعنى ٢١ لان كل الانبياء البالغين مئة وأربعة وأربعين
ألفا الذين أرسلهم[ا] الله الى العالم قد تكلموا بالمعميات بظلام ٢٢ ولكن
سيأتي بعدي بهاء[١] كل الانبياء والاطهار[ب] فيشرق نورا على ظلمات
سائر ما قال الانبياء ٢٣ لانه رسول الله[ت] ٢٤ ولما قال هذا تنهد يسوع
وقال ٢٥ ارأف بإسرائيل أيها الرب الاله[ث] وانظر بشفقة على ابراهيم
وعلى ذريته لكي يخدموك باخلاص قلب

٢٦ فأجاب تلاميذه ليكن كذلك أيها الرب الاله[ج]

٢٧ وقال يسوع الحق أقول لكم ان الكتبة والعلماء قد أبطلوا
شريعة[٢] الله بنبواتهم[ح] الكاذبة المخالفة لنبوات أنبياء الله[خ] الصادقين
٢٨ لذلك غضب الله على بيت اسرائيل وعلى هذا الجيل القليل الايمان
٢٩ فبكى تلاميذه لهذه الكلمات وقالوا أرحمنا يا الله[٣][د] ارأف على الهيكل
والمدينة المقدسة ولا تدفعها الى احتقار الامم لكي لا يحتقروا عهدك
٣٠ فأجاب يسوع وليكن كذلك أيها الرب اله آبائنا[ذ]

(ا) الله مرسل (ب) قال عيسى بن مريم سيجيء من بعدي نور الانبياء والاولياء منه (ت) رسول الله (ث) الله الرحمن الله كريم (ج) الله سلطان (ح) الله قهار (خ) اليهود ويحرفون الكلم من بعد مواضعه منه هذا وبعده النصار هذا انا شهيد وهذا الكتاب يحرفون اكلم في الانجيل (د) الله الرحمن (ذ) سلطان لها آبائنا

؟ (١) مر ٧ : ١٣ (٢) مر ٧ : ١٣ (٣) دا ٩ : ١٦

الفصل الثامن عشر (ا)

(يوضح هنا اضطهاد العالم لخدمة الله وان حماية الله تقيهم)

١ وبعد ان قال يسوع هذا قال : « لستم أنتم الذين اخترتموني [١] بل أنا
اخترتكم لتكونوا تلاميذي ٢ فاذا أبغضكم العالم تكونون حقاً تلاميذي [٢]
٣ لان العالم كان دائماً عدو عبيد خدمة الله ٤ تذكروا الانبياء الاطهار الذين قتلهم
العالم ٥ كما حدث في أيام ايليا [ب] اذ قتلت ايزابل عشرة آلاف نبي حتى بالجهد نجا
ايليا المسكين وسبعة آلاف من أبناء الانبياء [٣] الذين خبأهم رئيس جيش
أخاب ٦ أواه من العالم الفاجر الذي لا يعرف الله ٧ اذاً لا تخافوا أنتم [٤] لان
شعور رؤوسكم محصاة كي لا تهلك ٨ انظروا العصفور الدروي والطيور الاخرى
التي لا تسقط منها ريشة بدون ارادة الله ٩ أيعتني [ت] الله بالطيور أكثر
من اعتنائه بالانسان الذي لاجله خلق كل شيء ؟ ١٠ ايتفق وجود انسان
أشد اعتناء بحذائه منه بابنه ١١ كلا ثم كلا (١٢) أفلا [ث] يجب عليكم
بالأولى ان تظنوا ان الله لا يهملكم وهو المعتني بالطيور ١٣ ولكن لماذا
اتكلم عن الطيور بل لا تسقط ورقة شجرة بدون ارادة الله [ج]
١٤ « صدقوني لاني أقول لكم الحق ان العالم يرهبكم اذا حفظتم
كلامي ١٥ لانه لو لم يخش فضيحة فجوره لما أبغضكم ولكنه يخشى فضيحته

(ا) سورة توكيل (ب) في زمان الياس يقتل اليهود عشرة الاف أنبياء بغير الحق منه (ت) الله وكيل وحافيظ (ث) الله رب (ج) لا يسقط ورق من الشجر الا بارادة الله تعالى منه

(١) يو ١٥ : ١٦ (٢) يو ١٥ : ١٩ (٣) ١ مل ١٨ : ٤ و١٣ (العدد هناك مئة ولعل ماهنا هو المراد بما في ١ مل ١٩ : ١٨ (٤) مت ١٠ : ٢٨ – ٣٠ ولو ١٢ : ٥١ – ٥٧

ولذلك يبغضكم ويضطهدكم [ا] ١٦ فاذا رأيتم العالم يستهين بكلامكم
فلا تحزنوا بل تأملوا كيف ان الله وهو أعظم منكم قد استهان به أيضاً
العالم حتى حسبت حكمته جهالة ١٧ فاذا كان الله يحتمل [ب] العالم بصبر
فلماذا تحزنون أنتم يا تراب وطين الارض ١٨ فبصبركم تملكون أنفسكم [١] ١٩
فاذا لطمكم أحد على خد فحولوا له الآخر ليلطمه [٢] ٢٠ لا تجازوا شرا
بشر [٣] لان ذلك ما تفعله شر الحيوانات كلها ٢١ ولكن جازوا
الشر بالخير [ت] وصلوا لله لاجل الذين يبغضونكم [٤] ٢٢ النار لا تطفأ
بالنار بل بالماء لذلك أقول لكم لا تغلبوا الشر بالشر بل بالخير [٥] ٢٣
انظروا الله [ث] الذي جعل شمسه تطلع على الصالحين والطالحين [٦] وكذلك
المطر ٢٤ فكذلك يجب عليكم ان تفعلوا خيراً مع الجميع لانه مكتوب في الناموس
كونوا قديسين لاني انا الهكم قدوس [٧] [چ] كونوا أنقياء لاني أنا نقي
وكونوا كاملين لاني أنا كامل [٨] [ح] ٢٥ الحق أقول لكم ان الخادم
يحاول ارضاء سيده فلا يلبس ثوباً ينفر منه سيده ٢٦ وأثوابكم هي ارادتكم
ومحبتكم ٢٧ احذروا اذاً من ان تريدوا أو تحبوا شيئاً غير مرضي لله [خ]
ربنا ٢٨ ايقنوا ان الله يبغض بهرجة وشهوات العالم لذلك ابغضوا أنتم العالم

« ا » الدنيا لا تحب عباد الله الاخيار لانها خافت ان يكشف واوشاقبها (يكشفوا شقاوتها ؟) وتقصد للعباد ان تصيب البلاء والضرر منه « ب » الله صبر « صبور ؟ » الله عليم « ت » مثلا لا يدفع النار « بالنار » كذلك لا يدفع الشر « بالشر » منه « ث » الله رازق « چ » الله ولي وقدوس وكاميل « ح » يقول الله تعلى في التورية يا بني إسرائيل كنوا ولياً فاني ولي وكنوا طاهرا فئني طاهر وكنوا كاميلا فئني كاميل منه « خ » الله سلطان

« ١ » لو ٢١ : ١٩ « ٢ » مت ٥ : ٣٩ « ٣ » ١ بط ٢ : ٩ « ٤ » مت ٥ : ٤٤ ولو ٦ : ٢٨ « ٥ » رو ١٢ : ٢١ « ٦ » مت ٥ : ٤٨ « ٧ » لا ١٩ : ٢ « ٨ » مت ٥ : ٤٨

حجة الاسلام أبو حامد الغزالي

ان سيرة عظماء الرجال، اكبر عون على تربية الاجيال، وقد كان الامام أبو حامد محمد الغزالي من علماء الاسلام المصلحين في أصول الاسلام وفروعه وآدابه اعترف له بذلك العلماء وعدوه من المجددين المشار اليهم بحديث « ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها » رواه أبو داود والحاكم في المستدرك والبيهقي في المعرفة من حديث أبي هريرة وعلم عليه في الجامع الصغير بالصحة . وسيأتي ذكر شيء من أقوال الفقهاء والمؤرخين والصوفية فيه . لذلك هممت منذ سنين بأن أكتب في المنار شيئاً عن الرجال العظام ابدأ فيه بملخص سيرته في المنار ولم أوفق إلى ذلك قبل اليوم . وارجو أن يكون فيما أكتبه الآن عبرة لأولي الالباب

﴿ أصله ومنشؤه ﴾

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد لم أر احدا ذكر له أكثر من ثلاثة آباء وأسماؤهم عربية ولكن نسبه لايعرف منها فهو امامن العرب الذين تغلغلوا في بلاد الفرس من أول الفتح الاسلامي واما من الفرس الذين غلبت عليهم الاسماء العربية لعراقتهم في الاسلام . وانك لتجد كثيرا ممن يتكلمون في التاريخ يجزمون بنسب العلماء الذين نشؤا ببلاد الفرس في الاسلام فيقولون انهم من الفرس وان فلانا فارسي الاصل والمنشأ حتى ان منهم من يعد أصحاب الانساب العربية المعروفة من الفرس كصاحب القاموس وصاحب الأغاني واضرابهم . ومن أسباب هذا الغلط فيما أرى اشتهار قول ابن خلدون ان أكثر علماء الملة من العجم وهو مخطيء في هذا الحكم ومخطيء فيما علله به . والصواب أن علماء الاسلام الذين نبغوا في بلاد الفرس وغيرها من بلاد الاعاجم منهم العربي كمن ذكرنا آنفا ومنهم العجمي كسيبويه ومنهم المجهول نسبه كأبي حامد الغزالي فيتوقف في مثله حتى يظهر الدليل وقد يستدل على انه من سلالة عربية بما يأتي في فصل اشتغاله

بالعلم من بلاغته مع قلة ممارسته للفنون العربية

اما ماينسب اليه الغزالي فقد اختلف فيه وفي ضبطه هل هو بالتخفيف أو التشديد وقد جاء في ترجمة أبي حامد لشارح الاحياء في ذلك مانصه :

« قال صاحب تحفة الارشاد نقلا عن الامام النووي في دقائق الروضة التشديد في الغزالي هو المعروف الذي ذكره ابن الأثير وبلغنا أنه قال منسوب الى غزالة بتخفيف الزاي قرية من قرى طوس : قلت وهكذا ذكره النووي أيضاً في التبيان . وقال الذهبي في العبر وابن خلكان في التاريخ عادة أهل خوارزم وجرجان يقولون القصاري والخباري بالياء فيهما فنسبوه للغزل وقالوا الغزالي ومثل ذلك الشحامي وأشار لذلك ابن السمعاني أيضاً وأنكر التخفيف وقال سألت أهل طوس عن هذه القرية فأنكروها وزيادة هذه الياء قالوا للتأكيد وفي تقرير بعض شيوخنا للتمييز بين المنسوب الى نفس الصنعة وبين المنسوب الى من كانت صنعته كذلك وهذا ظاهر في الغزالي فانه لم يكن ممن يغزل الصوف ويبيعه وانما هي صنعة والده وجده . ولكن في المصباح للفيومي مايؤيد التخفيف وان غزالة قرية بطوس واليها نسب الامام أبو حامد . قال أخبرني بذلك الشيخ مجد الدين بن محمد بن أبي الطاهر شروان شاه بن أبي الفضائل فخراور ابن عبيدالله بن ست المنا بنت أبي حامد الغزالي ببغداد سنة عشر وسبعمائة وقال لي أخطأ الناس في تثقيل جدنا وانما هو مخفف . وقال الشهاب الخفاجي في آخر شرح الشفا : ويقال انه منسوب الى غزاله ابنة كعب الاحبار وهذا ان صح فلا محيد عنه : والمعتمد الآن عند المتأخرين من أئمة التاريخ والانساب أن القول قول ابن الأثير أنه بالتشديد »

ولد أبو حامد في مدينة طوس من عمل خراسان سنة ٤٥٠ قال ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى : وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس فلما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد الى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له ان لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهي استدراك مافاتني في ولدي هذين فعلمهما ولا عليك أن تنفد في ذلك جميع ماأخلفه لهما . فلما مات أقبل

الصوفي على تعليمهما الى أن في ذلك النزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما وتعذر علي الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما: اعلما اني قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ الى مدرسة فانكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما: ففعلا ذلك وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما وكان الغزالي يحكي ذلك ويقول «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله» اه

فأنت ترى أن الغزالي نشأ فقيرا وكذلك أكثر النابغين في الأمم والعصور التي لا إلزام فيها بالتعليم والتربية يخرجون من بيوت الفقراء أو من هم على مقربة منهم. والأغنياء يشغلهم الترف والنعيم عن الجد والاجتهاد في العلم لاسيما في تلك الأزمنة التي كان فيها طلب العلم لا يتم الا بالرحلة الى العلماء المشهورين كما ترى فيما يلي وناهيك بما كان في طي المسافات من المشاق

﴿ طلب الغزالي للعلم ﴾

قرأ في صباه طرفا من فقه الشافعية على أحمد بن محمد الراذكاني في بلده (طوس) ثم سافر الى الامام أبي نصر الاسماعيلي في جرجان وعلق عنه كتاب التعليقة وعاد الى طوس. قال الامام أسعد الميهني فسمعته يقول قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم فالتفت الي مقدمهم وقال ارجع ويحك والا هلكت فقلت له أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به. فقال لي وما هي تعليقتك؟ فقلت كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال كيف تدعي انك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم الي المخلاة (قال الغزالي) هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي. قال التاج السبكي وقد روى هذه الحكاية عن الغزالي أيضا الوزير نظام الملك

أقول وفيها من العبرة لمثل طلاب الأزهر ان هذا الإمام العظيم ما وصل الى ما وصل اليه الا بعد أن جعل قصده في طلب العلم أن يكون العلم صفة من صفاته لا أن يفهم ما يأخذه عن العلماء اذا هو قرأه فقط فينبغي لكل طالب علم أن يتلقى العلم لاجل أن يكون له فيه حكم ورأي ولا يكتفي بأن يكون راويا لأقوال العلماء ولو مع الفهم لأن من يفهم علم غيره لا يعد هو عالما الا اذا هو أشرب العلم وصار له فيه فهم خاص يقدر على الاستدلال عليه ودفع معارضة المخالفين عنه، وصار بحيث لو رجع عنه من نقل عنه لا يرجع هو

قال السبكي ثم ان الغزالي قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين وجد واجتهد حتى برع على يديه في مذهب الشافعي والخلاف والجدل والأصلين والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم وصنف في كل فن من هذه العلوم كتبا أحسن تأليفها، وأجاد وضعها وترصيفها، كذا نقل النقلة عنه وأنا لم أر له مصنفا في أصول الدين بعد شدة الفحص الا أن يكون قواعد العقائد وعقائد صغرى (كذا)

أقول وفاته كتاب الاقتصاد في الاعتقاد. وظاهر قوله «وقرأ الحكمة والفلسفة» انه لم يقرأها على إمام الحرمين وهو كذلك كما يعلم من كتابه (المنقذ من الضلال) وفيه انه صنف كتبا في الكلام وستأتي عبارته فيه

وقال الزبيدي في ترجمته بعد ان ذكر من مشايخه بطوس أحمد بن محمد الراذكاني وفي جرجان أبا نصر الاسماعيلي وفي نيسابور امام الحرمين وشيخه في التصوف «ومن مشايخه أيضا يوسف السجاج وفي الحديث أبو سهل محمد بن أحمد ابن عبيد الله الحفصي المروزي والحاكم أبو الفتح نصر بن علي بن أحمد الحاكمي الطوسي وأبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الخواري خوار طبران ومحمد بن يحيي ابن محمد السجاعي الزوزني والحافظ ابو الفتيان عمر بن أبي الحسن الرواسي الدهستاني ونصر بن ابراهيم المقدسي على قول الذهبي وقال غيره لم يدركه فهؤلاء شيوخه في العلوم الثلاثة: — يعني الفقه والتصوف والحديث — أقول وهؤلاء الكثيرون الذين سمع منهم الحديث انما سمعه منهم في آخر أمره بعد ان رجع من سياحاته —

ثم قال الزبيدي: ولم أطلع على أسماء شيوخه الذين قرأ عليهم في الكلام أو الجدل فان عثرت على شيء بعد ذلك ألحقت به ان شاء الله تعالى . واما علوم الفلسفة فلا شيخ له فيها كما صرح بذلك في كتابه المنقذ من الضلال : اه

أقول انه أخذ الكلام والخلاف عن إمام الحرمين لأنه كان من المبرزين فيهما وما كان الزبيدي أن يغفل عن ذلك . ولم يذكروا شيوخه في الفنون العربية كالنحو والصرف والبيان والأدب ويحتمل انه أخذ عن الراذكاني مع الفقه شيئاً من مباديها واعتمد بعد ذلك فيها على اشتغاله بنفسه فقد قال عبد الغافر الفارسي خطيب نيسابور وكان من معاصريه انه كان مما يعترض به عليه وقوع خلل من جهة النحو يقع في أثناء كلامه وروجع فيه فأنصف من نفسه واعترف بأنه مامارس ذلك الفن واكتفى منه بما يحتاج اليه في كلامه مع انه كان يؤلف الخطب ويشرح الكتب بالعبارات التي تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه فما كان قصده الا المعاني وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها ، اه كلام عبد الغافر

ونحن نرى أن كلامه في كتبه أعلى من كلام أقرانه أسلوبا وأحسن بيانا وأشد تأثيرا كما نجد فهمه للكلام العربي أدق من أفهامهم وذلك منتهى المقصد من الفنون العربية كلها فاذا كان الوصول الى هذا المقصد ممكنا مع الاقلال من الاشتغال بالنحو فلماذا يضيع العاقل الوقت الطويل في قراءة الكفراوي والشيخ خالد والأزهرية والقطر والشذور وابن عقيل والاشموني وحواشي هذه الكتب على ان كتابا منها يكفي الطالب ما لا بد منه من النحو ولعل من فهم الشذور أو ابن عقيل يكون أعلم من الغزالي بنفس النحو فعليه أن يفكر في الطريقة التي يكون بها مع ذلك مثل الغزالي أو على مقربة منه في فهم الكلام العربي الذي وضع النحو لضبطه والاتيان بالكلام البليغ منه قولا وكتابة ولذلك طريق غير كثرة مزاولة كتب النحو التي يضعف مثلها ملكة اللسان كما قال ابن خلدون فليفكر في ذلك طلاب الأزهر الاذكياء لاسيما من كان منهم عربي اللسان يسهل عليه فهم الكتب البليغة في الأدب والتاريخ وغير ذلك بالممارسة قبل تلقي الفنون .

فان كاتب هذه السطور قرأ كثيرا من هذه الكتب قبل طلب العلم ومنها كتاب إحياء علوم الدين لصاحب السيرة . ولكن هذا لا يتيسر للأعاجم . وقد يستدل بهذا على ان الغزالي من عشيرة عربية بقيت محافظة على أصل لغتها الا مالا تخلو عنه طبيعة المخالطة للأعاجم من التحريف والدخيل الا أن يقال لغة الفرس كافة كانت قد تحولت عربية في ذلك العهد وصار العارف بالفارسية يتلقاها بالتعلم وهذا ماينكره كثير من العارفين منهم صاحبنا الدكتور محمد مهدي خان فانه يقول ان لغة العامة هناك في القرن الرابع والخامس كانت الفارسية . وقد كان الغزالي يعرف الفارسية وألف فيها ولو كان فارسي الاصل وهو من العامة لكانت لغته الأصلية ومثله لا يصير بليغاً بالعربية الا بعد اشتغال بالفنون طويل فبلاغته وفصاحته وسلامة عبارته من العجمة على كونه من العامة يرجح كونه عربي الاصل فهذا مارأينا أن نبينه من سيرة حجة الاسلام في تلقي العلم والعبرة فيها للطالبين

﴿ تخرجه وتصديه للافادة ﴾

قلنا انه اشتغل أولا بطوس وكانت مدينة آهلة بالعلم والعلماء في الجملة وكان يومئذ مراهقاً ثم في جرجان وكانت فوق طوس في العلم والعمران ثم في المدرسة النظامية بنيسابور أعظم معاهد العلم في خراسان ومازال فيها يختلف الى دروس امام الحرمين علامة ذلك العصر الزاهر حتى تخرج به واشتهر وقد قيل ان شيخه كان يجد منه شيئاً في نفسه وان كان يفتخر به في الملأ كما سيأتي. ولما توفي امام الحرمين سنة ٤٧٨ خرج الغزالي الى العسكر وهي محلة بالقرب نيسابور كان يقيم فيها نظام الملك الوزير نصير العلم وكعبة العلماء فحل من مجلس الوزير محل القبول . قال معاصره أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي خطيب نيسابور في ذلك : محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي حجة الاسلام والمسلمين ، امام أئمة الدين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاء وطبعاً ، أخذ طرفا في صباه بطوس من الفقه على الامام أحمد الراذكاني ثم قدم نيسابور مختلفا الى درس امام الحرمين في طائفة من الشبان من طوس وجد واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة وبز الأقران، وحمل القرآن ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، في أيام امام الحرمين .

وكان الطلبة يستفيدون منه ويدرس لهم ويرشدهم ويجتهد في نفسه . وبلغ الأمر به الى أن أخذ في التصنيف . وكان الامام مع علو درجته وسمو عبارته وسرعة جريه في النطق والكلام لا يصغي نظره الى الغزالي سرًّا لا ربانه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف وان كان متخرجا به منتسبا اليه كما لا يخفى من طبع البشر ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضمره .

« ثم بقي كذلك الى انقضاء أيام الامام فخرج من نيسابور وصار الى العسكر واحتل من مجلس نظام الملك محل القبول وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته، وظهور اسمه وحسن مناظرته ، وجري عبارته ، وكانت تلك الحضرة محط رحال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقاة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول، ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه في الآفاق، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق، حتى أدت الحال به الى أن رسم للمصير الى بغداد للقيام بتدريس المدرسة الميمونة النظامية بها فصار اليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته وما لقي مثل نفسه وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق

« ثم نظر في علم الأصول وكان قد أحكمها فصنف فيه تصانيف، وجدد المذهب في الفقه فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف فجدد فيه أيضا تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة فانقلب الأمر من وجه الى آخر » اه المراد من كلام عبد الغافر هنا ومنه تعلم أن رياسة العلوم الظاهرة قد انتهت اليه في سن الشباب حتى كان يوصف بحجة الاسلام وإمام أئمة العصر وهو لم يشتغل بالتلقي عن العلماء الا بضع سنين

أقول إنه تخرج في بضع سنين أخذا مما مر من انه لم يطلب العلم من أول سن التمييز بل بعد عجز الوصي عليه وعلى أخيه من النفقة عليهما ، ومن قوله في أول كتابه المنقذ من الضلال « ولم أزل منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن — وقد أنافت السن على الخمسين — اقتحم لجة هذا البحر » الخ ما سيأتي . وقد علم من كلام معاصره عبد الغافر ومن كلام غيره من المؤرخين أنه تخرج في عهد أستاذه

إمام الحرمين في مدة قليلة وقد توفي امام الحرمين سنة ٤٧٨ وكانت سن الغزالي ٢٨ سنة أي انه كان متخرجا قبل ذلك

غرضنا من هذا التحقيق تنبيه طلاب العلم الى مسألة أرجو انتفاع أذكيائهم بها وهي أن طول مدة الاشتغال بالتلقي والتحصيل قلما تأتي بفائدة بل هي عنوان البلادة وخمود الذهن وخمول النفس ودليل على فساد التعليم وأكثر النابغين من العلماء والحكماء لم يقيموا في معاهد التعليم والتلقي زمنا طويلا . وقد قرر هذه الحقيقة الفيلسوف سبنسر . وقد كان الاستاذ الامام بعد سنوات قليلة يحضر دروس بعض العلماء في علم وبيده كتاب في علم آخر يطالع فيه

﴿ تربية الغزالي لنفسه وتفلسفه وتصوفه ﴾

العلوم والفنون في نفسها صناعات وآلات يستعان بها على اصلاح اللسان والعمل والنفس والعقل فمن طلب فنا منها كان له في طلبه ثلاثة مقاصد — أحدها أن يعرف الفن بحسب ما قاله الواضعون له والمصنفون فيه اتباعا لهم وتقليدا . ثانيها أن يعرفه كما عرفه الواضعون بمآخذه ودلائله بحيث يكون له فيه رأي وحكم لا يبالي فيه وافق الواضعين أو خالفهم وانما يتحرى فيه مايراه صوابا . ثالثها أن يعرفه ليستعمله فيما وضع له ويجعله وسيلة للعمل . وهذا الأخير يجتمع مع كل من الأول والثاني وقد يوجدان بدونه ويوجد ألوف من الصنف المعروف عندنا بصنف العلماء قرؤا الفنون العربية والشرعية وبعض العقلية بالقصد الأول ووجد كثيرون قرأوها بالقصد الثاني وما كان المحصلون لثمراتها من الآخرين فضلا عن الأولين الا الأقلين فكم من عالم بمسائل النحو البلاغة واسع الاطلاع لم يصلح لسانه ولا قلمه فهو عاجز عن الاتيان بالكلام الصحيح ، بله البليغ الفصيح ، وكم من عالم بأحكام الحلال والحرام ، والفضائل والرذائل ، فاسد الاخلاق ، مرتكب للمحرمات ، وكم من عالم بقوانين المنطق يعجز عن تحديد حقيقية ، واقامة البرهان على عقيدة ، وكم من بارع بصناعة الحجة ، نحرير في علم الكلام ، وهو فاسد الاعتقاد ، أو منطو على الالحاد ، وان لنا في سيرة حجة الاسلام ، أكبر حجة على هؤلاء الاقوام ،

شرع أبو حامد في طلب العلم على طريقة أهل المقصد الأول أعني المقلدين فأرشده رئيس العيارين الذين نهبوه منصرفه من جرجان الى الطريقة الثانية طريقة الاستقلال فلم يلبث أن صار اماما في زمن قصير لأن المستقل بنظاره يحصل في سنة ما لا يحصله المقلد الذى يأخذ كل مايلقي اليه بالتسليم في سنين كثيرة. وما كل أحد كالغزالي ترشده كلمة يلفظها قاطع الطريق الى مثل هذه الحقيقة التي يجهلها أكثر المشتغلين بالعلم . وانما يسترشد الناس بالحكمة على قدر استعدادهم وكان استعداد الغزالي في الذروة العليا وقد يقرأ سيرته هذه بطولها وتفاصيلها كثيرون من طلاب العلم في الأزهر وغيره ثم لا يخرجون من ظلمات التقليد الى نور الاستقلال لضعف استعدادهم

لم يرض أبو حامد من العلم بالمقصد الثاني الذي لا يعلو به صاحبه عن مرتبة الصناع بل حاول في كل علم قرأه الوصول الى غايته ، والتحقق بحقيقته ، فهكذا كان بالعلوم العربية كاتبا بليغا وخطيبا مفوها و بعلوم الكلام والفقه والخلاف حجة على الخصم وركنا للمذهب ، أراد أن يكون هو في نفسه على يقين من كل مايعتقد وان يكون عمله ثمرة علمه ، فربى نفسه لذلك تربية خاصة ومثل هذا لا يأتي بمعرفة المسائل والدلائل فقط بل لا بد فيه من التربية والمجاهدة وهاك ما كتبه عن نفسه في ذلك ملخصاً من كتابه (المنقذ من الضلال) . قال بعد البسملة والحمدلة والتصلية

« أما بعد فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث اليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المذاهب والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد الى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام ، وما احتويته ثانيا من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام وماازدريته ثالثا من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخرا من طريقة التصوف ، وماانجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وماصرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، ومادعاني الى معاودتي بنيسابور بعد طول

المدة ، فابتدرت لاجابتك الى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعينا بالله ومتوكلا عليه ، ومستوفقا منه وملتجئا اليه ،

« اعلموا أحسن الله ارشادكم ، وألان للحق قيادكم ، أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة الفرق ، وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه الا الأقلون ، وكل فريق يزعم انه الناجي و « كل حزب بما لديهم فرحون » وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين وهو الصادق المصدوق حيث قال « ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة الناجية منها واحدة » (١) فقد كاد ما وعد أن يكون ،

« ولم أزل من عنفوان شبابي وقد أنافت السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق اقتحام الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لا ميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب ان أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا الا وأترصد مايرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا وأتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته ، في تعطيله وزندقته ،

« وقد كان التعطش الى حقائق الأمور دأبي وديدني ، من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على (كذا) العقائد الموروثة ، على قرب عهد بسن الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « كل مولود يولد على فطرة الاسلام فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم بألفاظ مختلفة

فتحرك باطني الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات ،

« فقلت في نفسي أولا انما مطلوبي العلم بحقائق الأمور فلا بد من طلب العلم بحقائق الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم ماهي فظهر لي ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الامان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والحية ثعبان ، لم يورث ذلك شكا وإنكارا ، فاني اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة فقال لي قائل « لا بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا » وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه في معرفتي ولم يحصل لي منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه فأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، فليس لعلم يقيني

(القول في مداخل السفسطة وجحد العلوم)

« ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة الا في الحسيات والضروريات فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الجليات وهي الحسيات والضروريات فلا بد من إحكامها أولا لأتبين أن ثقتي بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليديات ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غاية له ؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات وأنظر هل يمكنني ان أشكك نفسي فيها فانتهى بي طول التشكك الى أن لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات أيضا وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر وهي تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف

أنه يتحرك وانه لم يتحرك بغتة ودفعة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف . وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار

« هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته . فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثا وقديما موجودا معدوما واجبا محالا

« فقالت المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بي فجاء حاكم العقل فكذبني ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته : فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا وأيدت اشكالها بالمنام وقالت: اما تراك تعتقد في النوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا تشك في تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها فاذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها أو لعل تلك الحالة ما يدعيها الصوفية أنها حالتهم اذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم اذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات ولعل تلك الحالة هي الموت إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » (*) فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة الى الآخرة فاذا مات المرء ظهرت له الأشياء

(*) قال في الدرر المنتثرة هو من كلام علي رضي الله عنه

على خلاف ما شاهده الآن ويقال له عند ذلك (٥٠: ٢٢ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)

«فلما خطرت هذه الخواطر انقدحت في النفس تحاولت لذلك علاجا فلم يتيسر اذلم يكن دفعه الا بالدليل ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل فأعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور (١) هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة ولما سئل رسول الله عليه السلام عن الشرح ومعناه في قوله تعالى (٣٩: ٢٢ أفمن شرح الله صدره للاسلام) قال «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب» فقيل وما علامته فقال «التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود» (٢) وهو الذي قال عليه السلام فيه «ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره» (٣) فمن ذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ويجب الترصد له كما قال عليه السلام «ان لربكم في أيام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها» (٤)

«والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد في الطلب حتى ينتهي

(١) سنتكلم عن هذا النور في موضع آخر بما يزيده تألقا (٢) رواه الحاكم والبيهقي في الشعب وابن مردويه من حديث ابن مسعود بلفظ آخر في أوله وهو انهم سألوه (ص) عند تلاوة الآية كيف انشراح الصدر فقال «اذا دخل النور القلب انشرح له وانفسح» قالوا فما علامة ذلك يارسول الله فقال «الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور» وهو في الظاهر خلاف الآية فافهم

(٣) رواه احمد والترمذي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وعلم له في الجامع الصغير بالصحة وتتمته «فمن أصابه ذلك النور يومئذ اهتدى ومن أخطاه ضل»

(٤) رواه الطبراني عن ابن عباس بسند ضعيف

الى طلب مالا يطلب فان الاوليات ليست مطلوبة فانها حاضرة والحاضر اذا طلب فقد واختفى ومن طلب مالا يطلب فلا يتهم بالتقصير في طلب مايطلب

(القول في أصناف الطالبين)

«ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض (أي مرض السفسطة) بفضله وسعة جوده انحصرت أصناف الطالبين (أي للحق في الاعتقاد) في أربع فرق المتكلمون وهم يدعون انهم أهل الرأي والنظر، والباطنية وهم يزعمون انهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم، والفلاسفة وهم يزعمون انهم أصحاب المنطق والبرهان، والصوفية وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة. فقلت في نفسي الحق لا يعدو أصحاب هذه الأصناف الاربعة فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق فان شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع اذلا مطمع في الرجوع الى التقليد بعد مفارقته إذمن شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده وهو شعب لا يرأب وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف إلا أن يذاب بالنار ويستأنف لها صيغة أخرى مستجدة. فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ماعند هذه الفرق، مبتدئا بعلم الكلام، ومثنيا بطريق الفلسفة، ومثلثا بتعليمات الباطنية، ومربعا بطريق الصوفية،»

هذا ما كتبه الامام الغزالي عن نفسه بعد ان تلقى ما شاء الله من العلم بطريق التقليد زمنا وبطريق الاستقلال زمنا آخر. وقد ذكر بعد ماتقدم فصلا في مقصود علم الكلام وانه حصله وعقله وطالع كتب المحققين فيه وصنف فيه ماشاء أن يصنف قال فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي: وبين أن مقصود علم الكلام حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة وان المتكلمين اعتمدوا على مقدمات تسلموها من خصومهم والجأهم الى التسليم بها وهي التقليد أو الاجماع أو مجرد القبول من القرآن أو الاخبار. قال «وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم وهذا

قليل النفع في جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا فلم يكن الكلام في حقي كافيا ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافيا ، نعم لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة تشوف المتكلمون الى مجاوزة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا في البحث عن الجواهر والاعراض وأحكامها ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق ولا أبعد أن يكون حصل ذلك لغيري بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ولكن حصولا مشوبا بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الاوليات . والغرض الآن حكاية حالي لا الانكار على من استشفي به فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر » اه

القول في الفلسفة

ثم تكلم عن الفلسفة وما يذم منها ويكفر منتحله وما ليس كذلك قال « ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة وعلمت يقينا انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة فاذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا ولم أر أحداً من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته الى ذلك ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بغافل عامي فضلا عمن يدعي دقائق العلوم فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية

« فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية وأنا ممنو بالتدريس والافادة لثلاث مئة نفر من الطلبة ببغداد فأطلعني الله سبحانه بمجرد المطالعة في هذه الاوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل من سنتين ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريبا من سنة أعاوده

وأردده وأتفقد غوائله وأغواره حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعا لم أشك فيه »

ثم ذكر أصناف الفلاسفة وأنواع علومهم من رياضيات ومنطقيات وطبيعيات والهيات وسياسيات وخلقيات وبين رأيه فيها وسنذكره . وانتقل من ذلك الى الكلام في مذهب الباطنية

مذهب التعليم وغائلته

قال « ثم اني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما زيف منه علمت ان ذلك أيضا غير واف بكمال الغرض وأن العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات وكان قد نبغت نابتة التعليمية وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق، عن لي أن أبحث عن مقالاتهم لأطلع على ما في كتبهم . ثم اتفق أن ورد علي أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم فلم يسعني مدافعته وصار ذلك مستحثا من خارج ضميمة للباعث الأصلي من الباطن

« فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم وكان قد بلغني كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر لا على المنهاج المعهود من سلفهم فجمعت تلك الكلمات ورتبتها ترتيبا محكما مقارنا للتحقيق واستوفيت الجواب عنها حتى أنكر بعض أهل الحق مني مبالغتي في تقرير حجتهم وقال : هذا سعي لهم فانهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها : وهذا الانكار من وجه حق فلقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي تصنيفه في الرد على المعتزلة فقال الحارث الرد على البدعة فرض : فقال أحمد نعم ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها فلم تأمن ان يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ولا يلتفت الى الجواب ولا يفهم كنهه ؛ وما ذكره أحمد حق ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر . اما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب الا بعد الحكاية . نعم ينبغي أن لا يتكلف لهم شبهة لم تتكلف . ولم أتكلف انا ذلك بل كنت قد سمعت

تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين اليّ بعد ان كان قد التحق بهم وانتحل مذهبهم وحكى انهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم فانهم لم يفهموا بعد حجتهم فلذلك أوردتها لئلا يظن بي أني وإن سمعتها لم أفهمها فلذلك قررتها. والمقصود أني قررت شبهتهم الى أقصى الامكان ثم أظهرت فسادها » ثم بين ذلك ملخصاً في عدة صفحات . وليس بيان ذلك من مقصدنا انما المقصد سيرة هذا الامام و بيان كيفية تربيته لنفسه وثمرة ذلك فيها وفيما قصد اليه من الاصلاح

القول في طريق الصوفية

«ثم اني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم انما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر علي من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقتهم بالتعلم والسماع وظهر لي ان أخص خواصهم ما لم يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات فكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما و بين أن يكون صحيحا وشبعان وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر و بين أن يكون سكران بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها و بين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا فعلمت يقينا انهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلته ولم يبق

الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقيني بالله تعالى و بالنبوة و باليوم الآخر فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسي لا بدليل معين مجرد بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلائق

ثم لاحظت أحوالي فاذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من الجوانب ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا جرف هار واني قد أشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما وأحل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى لا تصفو لي رغبة في طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ومنادي الايمان ينادي: الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر الا قليل، و بين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد، وان لم تقطع الآن فمتى تقطع: فبعد ذلك تنبعث الداعية و ينجزم العزم على الهرب والفرار ثم يعود الشيطان و يقول هذه حالة عارضة واياك أن تطاوعها فانها سريعة الزوال وان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشان المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ربما ألفت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين

وأربع مئة وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار اذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطييباً لقلوب المختلفة وكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها ألبتة ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطل معه قوة الهضم ومرء الطعام والشراب فكان لا ينساغ لي شربة ولا تنهضم لقمة وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الاطباء طمعهم عن العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم: ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي (يجيب المضطر اذا دعاه) وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاهل والولد والأصحاب وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أوري في نفسي سفر الشام حذرا من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبدا واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة اذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الاعراض عما كنت فيه سببا دينيا اذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم ثم ارتبك الناس في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكار علي واعراضي عنهم وعن الالتفات الى قولهم فيقولون هذا أمر سماوي وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم

« ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ولم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين فلم أر في العالم ما يأخذه العالم لعياله أصلح منه ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق اصعد منارة المسجد طول النهار واغلق بابها على نفسي ثم دخلت منها الى بيت المقدس ادخل كل يوم الصخرة وأغلق

بابها على نفسي ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت الى الحجاز

« ثم جذبتني الهمم ودعوات الاطفال الى الوطن فعاودته بعد ان كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه وآثرت العزلة أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير في وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة وكان لا يصفو الحال الا في أوقات متفرقة لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها فتدفعني عنها العوائق وأعود اليها »

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذي أذكره لينتفع به اني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكي الاخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا وان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها وهي أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهي على التحقيق أول الطريقة وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه ومن أول الطريقة تبتدي المكاشفات والمشاهدات حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ولا يحاول معبر أن يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه وعلى الجملة ينتهي الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل

ذلك خطاء وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب المقصد الاقصى بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول (شعر)

وكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة الا الاسم وكرامات الأولياء على التحقيق بدايات الانبياء وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل الى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب أن محمدا عشق ربه وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها فمن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينا فمن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان فهم القوم لا يشقى جليسهم ومن لم يرزق صحبتهم فيعلم امكان ذلك يقينا بشواهد البراهين على ماذكرناه في كتاب عجائب القلب من كتب احياء علوم الدين والتحقيق بالبرهان علم وملابسة عين تلك الحالة ذوق والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن ايمان فهذه ثلاث درجات (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ووراء هؤلاء قوم جهال هم المنكرون لاصل ذلك المتعجبون من هذا الكلام يستمعون ويسخرون ويقولون العجب انهم كيف يهذون وفيهم قال الله تعالى (١٦:٤٧ ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) اه المراد من كلامه

أقول هذا ما رأينا أن نبين به كيفية نشأة هذا الامام وطلبه للعلم وتربيته لنفسه واننا نحكي فيما يلي ذلك أثر هذا التعليم والتربية وما استقر عليه رأي الرجل فى العلم والدين (لها بقية)

آثارة من التاريخ

بغداد في القرن السادس

ومجلس شيخا الشافعية والحنابلة رضي الدين القزويني وابن الجوزي

قال الكاتب الأديب أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الاندلسي البلنسي في رحلته الشهيرة في الفصل الذي أنشأه للكلام عن بغداد:

« هذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الامامية القرشية الهاشمية، قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها الا شهير اسمها، وهي بالإضافة الى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب اليها، كالطلل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلاحسن فيها يستوقف البصر، ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر، الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين، فهي تردها ولا تظمأ، وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ، هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة، ففتن الهوى منها الا أن يعصم الله مخوفة،

« وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الانفة والاباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والانباء، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده، ان الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا، ولا يغيرون في ذات الله منكرا، يظنون أن أسنى الفخار، في سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم من يحسن لله قرضا، فلا نفقة فيها الا من دينار تقرضه، وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الاعلى من ثبت له

الويل في سورة التطفيف ، لا يبالون في ذلك بعيب ، كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب ، فالغريب فيهم معدوم الارفاق ، متضاعف الانفاق ، لا يجد من أهلها الامن يعامله بنفاق ، أو يهش اليه هشاشة انتفاع واسترفاق ، كأنهم من التزام هذه الحلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق ، فسوء معاشرة أبنائها، يغلب على طيب هوائها ومائها ، ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها

« أستغفر الله الا فقهاءهم المحدثين ، ووعاظهم المذكرين ، لاجرم إن لهم في طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير ، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى مايحط كثيرا من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم ، لكنهم معهم يضربون في حديد بارد، ويرومون تفجير الجلامد ، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه فالموفق منهم لا يزال في مجالس ذكر أيامه كلها لهم فى ذلك طريقة مباركة ملتزمة

« فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية ، وفقيه المدرسة النظامية ، والمشار اليه بالتقديم في العلوم الأصولية ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه بالقراءة على كراسي موضوعة فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ، ونغمات محرجة مطربه ، ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف فى أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عزوجل وايراد حديث رسوله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه . ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وماقصر ، وتقدم وماتأخر ، ودفعت اليه عدة رقاع فيها (١) فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجمع . فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هينا لينا ظهرت فيها البركة والسكينة ، ولم تقصر عن

١) كذا في الأصل وفي نسخة الاخرى « منها » ولعل الاصل « فيها مسائل — أو — أسئلة » فسقط لفظ مسائل من الناسخ

إرسال عبرتها فيه النفس المستكينه ، ولا سيما آخر مجلسه فانه سرت حميا وعظه الى النفوس حتى أطارتها خشوعا ، وفجرتها دموعا ، وبادر التائبون اليه سقوطا على يده ووقوعا ، فكم من ناصية جز ، (١) وكم مفصل من مفاصل التائبين طبق بالموعظة وحز ، فبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة ، وتتغمد الجناة، وتستدام العصمة والنجاه ، والله تعالى يجازي كل ذي مقام عن مقامه ، ويتغمد ببركة العلماء الأولياء عباده العاصين من سخطه وانتقامه ، برحمته وكرمه انه المنعم الكريم لارب سواه ، ولا معبود إلا إياه ،

« وشهدنا له مجلسا ثانيا إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور وحضر مجلسه ذلك اليوم سيد العلماء الخراسانية ، ورئيس الأئمة الشافعية، ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آماق (٢) تشوقت له النفوس فأخذ الامام المتقدم الذكر في وعظه مسرورا بحضوره ومتجملا به فأتي بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر . ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندي المتقدم الذكر في هذا التقييد (٣) المشتهر المآثر والمكارم ، المقدم بين الأكابر والأعاظم ،

« ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد ، آية الزمان ، وقرة عين الايمان ، رئيس الحنبلية ، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، والمشهور له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعه ، مالك أزمة الكلام

(١) كان التائب في ذلك العصر يجز ناصيته . وأماحز المفصل الذي بعده فهو مجاز (٢ العبارة غير مفهومة ولعل فيها تحريفا أوتصحيفا ولا يبعد أن يكون أصل « تطريف» تطريق بالقاف وأن يكون استعملها بمعنى الاطراق . والجخندي بضم الجيم وفتح الخاء (٣) يريد بهذا التقييد كتاب الرحلة

في النظم والنثر ، والغائص في بحر فك على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضي الطباع، مهياري الانطباع ، واما نثره فيصدع بسحر البيان ، و يعطل المثل بقس وسحبان،

«ومن أكبر آياته، وأكبر معجزاته ، انه يصعد المنبر و يبتدئ القراء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئا فينتزع الاثنان أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصيها عددا أو يسميها نسقا . فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ في أصداف الاسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروآت في أثناء خطبته فقرا ، وأتى بها على نسق القراءة لا مقدما ولا مؤخرا ، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء به آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلا، و يورد الخطبة الغراء بها عجلا ، (أفسحر هذ أم أنتم لا تبصرون * ان هذا لهو الفضل المبين) فحدث ولا حرج عن البحر ، وهيهات ليس الخبر عنه كالخُبر ،

«ثم انه أتى بعد ان فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الانفس احتراقا ، الى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعياله . ومنهم من يغشى عليه، فيرفع في الاذرع اليه، فشهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات القفر، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على ان منّ بلقاء من تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله،

«وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل وتطير اليه الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين. وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه

«ثم شاهدنا مجلسا له ثانيا بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم . ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر . وجلوسه بهذا الموضع كل (يوم) خميس . فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور وقعدنا الى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان وقد تسطر القراء امامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ما شاؤا ، وأطربوا ما أرادوا ، وبادرت العيون بإرسال الدموع، فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات ، ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى أن أكملها وكانت الآية (٤٠: ٦١ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ان الله لذو فضل على الناس) فتمادى على هذا السنن، وحسن أي تحسين، فكان يومه أعجب من أمسه، ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى عنها بالستر الأشرف ، والجناب الأرأف، ثم سلك سبيله في الوعظ كل ذلك بديهة لا روية . و يصل كلامه في ذلك بالآيات المقروآت على النسق مرة أخرى . فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سر شرفها المكنون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين، وبالتوبة معلنين، وطاشت الالباب والعقول، وكثر الوله والذهول ، وصارت النفوس لا تملك تحصيلا، ولا تميز معقولا، ولا تجد للصبر سبيلا ،

«ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجدا ، و يعود موضوعها النسيبي زهدا، وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام ، وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام

أين فؤادي اذا به الوجد   وأين قلبي فما صحا بعد
ياسعد زدني جوى بذكرهم   بالله قل لي فديت ياسعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام

من فيه ، الى أن خاف الاخمام، فابتدر القيام، ونزل عن المنبر دهشاً عجلا، وقد أطار القلوب وجلا ، وترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب ، ومن متعفر في التراب ، فياله من مشهد ماأهول مرآه ، وما أسعد من رآه ، نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز بنصيب من رحمته ، بمنه وفضله »

ثم ذكر انه حضر له مجلسا ثالثاً وأثنى عليه وفضله على كل من رأى في الحجاز والعراق وفضل وعاظ الشرق على وعاظ الغرب أهل بلاده (الاندلس)

**

العبرة في هذه الأثارة التاريخية من وجوه

أحدها — أن بغداد لما ضعفت مدنيتها، وتضاءلت العلوم والمعارف فيها ، أعقب ذلك أهلها فسادا في الاخلاق ، وشرها في الارتزاق ، وعجبا بما كان على عهد الآباء ، واحتقارا للغرباء ، وقد كانت في أيام حياتها العلمية تقدر كل أحد قدره حتى كان يجيئها الغريب فيكون رئيس العلماء فيها فيذعنون له و يعترفون بالامامة وهذه سيرة الغزالي حجة الاسلام حجة على ذلك . فليعتبر بذلك دعاة العصبية الجاهلية بمصر ليعلموا ان هذه العصبة من علامات الموت لا من آيات الحياة ولو كان عند أسلافنا شيء من هذه العصبة لما أصابوا من العلم والمدنية شيئاً مما أصابوا

ثانيها — أن الزمن الذي زار فيه بغداد ابن جبير ووصفها فيه بالانحطاط والتأخر عما كانت حتى تمثل فيها بقول أبي تمام * لا أنت أنت ولا الديار ديار * هو الزمن الذي كان فيه من بقايا العلماء فيها مثل رضي الدين القزويني وابن الجوزي فمن لنا الآن بمثلهما وقد مرّ بك التنوية بشيء من فضلهما

ثالثها — أن أكابر العلماء وأئمتهم كانوا لا يزالون يعقدون مجلس الوعظ للعامة وقد صار كبار علمائنا في أكثر البلاد يستنكفون عن الوعظ و يعدونه مزريا بهم حتى عم الفساد وعزّ تلافيه وقد بذل الاستاذ الامام رحمه الله تعالى جهده في إحياء هذه السنة الحسنة سنة الوعظ والتذكير بترغيب العلماء فيها بالقول وبما سعى من ترتيب المرتبات لها من الاوقاف ولكن لا تكاد تجد في العلماء من له قلب يبعثه الى العمل وانا لنعلم أنهم يشعرون من أنفسهم بالعجز عن الوعظ النافع ولو وجد الباعث

النفسي لأتقن ذلك كثيرون

رابعها — أن وعاظ ذلك العصر كانوا يعظون الناس بالكلام الفصيح المشتمل على الاشارات الى الآيات والأحاديث ووقائع التاريخ (وسننشر في المنار نموذجا من وعظ ابن الجوزي) وكان العوام يفهمون كلامهم ويتعظون به وقد سمعت خبر كثرة التائبين في مجالس الوعظ . أما الآن فقد جهلت اللغة حتى انك لتجد أكثر المتعلمين لا يفهمون الكلام البليغ والاساليب العالية حق الفهم فما بالك بالاميين. فوالهفي على تلك القلوب الرقيقة ، والفطر السليمة ، والسير القويمة ، على أن ضعف الفاعل ، قد صار أشد من ضعف القابل، فالعوام لا يزالون يفهمون بالاجمال من الواعظ المحسن الذي يتحرى السهولة ويراعي درجة استعدادهم ما يتعظون به و يتذكرون ولكن لا نكاد نجد هذا الواعظ في الخاصة لا لسبب الا عدم اهتمامهم بأمر العامة وغيرتهم على الدين . وقد جربنا وعظ العامة وتذكيرها فرأينا من الاستعداد ما نجزم معه بأن إحياء سنة الوعظ تحيي الدنيا وتصلح الاخلاق في زمن قليل

خامسها — ان الخليفة ونساءه كانوا في ذلك العصر يعنون بسماع الوعظ الذي يلقى على العامة مع شدة ما أحدثوا من التحجب الذي كان من أسباب زوال سلطتهم واختلال أمر الامة بكثرة السلاطين المستبدين فأين ذلك من ملوكنا وأمرائنا اليوم وسلطان المغرب الاقصى يعتقد كما يعتقد الجمهور من خاصته انه اذا قرئ تفسير القرآن في بلادهم يموت السلطان !! أفيرجى بقاء مملكة يعتقد خواصها هذه الخرافة وماهي الا واحدة من ألوف من خرافاتهم ، وأما الامراء المتفرنجون ، فلهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، وبها مشغولون ، فماذا تقول في نساء الملوك والأمراء وعدم سماعهم شيئاً من أمر الدين

وقد يقول قارئ تلك الأثارة ان ابن جبير ذكر من فساد أخلاق أهل بغداد ماذكر ثم ماعتم ان ذكر ان الذين يتوبون منهم في كل مجلس وعظ كثيرون فقد ناقض نفسه . ونجيب عن ذلك بأن الذين كانوا يسمعون الوعظ لم يكونوا كلهم من أهل بغداد نفسها بل كان فيهم كثيرون من الضواحي والقرى القريبة

بل كانت الرواحل تشد الى أمثال هؤلاء الوعاظ من الاماكن البعدة كما يعلم من التاريخ الى أن كثرة التائبين والصالحين في بلد عظيم كبغداد لا ينافي في كون العصاة فيها أكثر أو كون المعاصي فاشية فيها



فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذلا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ س ٤٤ عن هلال الصوم والفطر من سواكن (السودان) ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي مستجدا بعده

حضرة الاستاذ الفاضل رب العلوم ومعدن الفهوم الحسيب النسيب السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الغراء حفظه الله وتولاه

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد اشكلت علينا مسئلة منذ أعوام وكثر الهرج لاجلها فأحببت ان أقدمها لجنابكم سائلا حلها واجابتي عنها جوابا شافيا وافيا على صفحات المنار ليهتدي كل من استهدى به . وذلك عند حلول رمضان واثبات الصوم أو الفطر حتى افترق أهل البلدة لثلاث فرق واليك نبأهم بالتفصيل

(الفرقة الاولى) تحتج بظهور هلال رمضان أو الفطر عيانا في قطرها وثبوته بالتواتر كما هو محرر بالكتب الفقهية فاذا ثبت هلاله صامت وكذا افطرت واذا غم أكملت عدة شعبان ثلاثين يوما وهؤلاء هم فقهاء البلدة ومشايخهم

(الفرقة الثانية) تعتمد في صومها وافطارها على قنابل الحكومة المطلقة ايذانا بحلول رمضان أو الفطر محتجة بأن هذه القنابل لا تطلق الا باذن شيخ الاسلام

بعد ثبوت هلال الشهر لديه ويصل الى البلاد الأخرى على لسان البرق

(الفرقة الثالثة) تعول في صومها وافطارها على قاعدة منسوبة للامام جعفر الصادق «رضه» وهي في كتاب عجائب المخلوقات للقزويني ونصها «قال جعفر الصادق «رضه» اذا أشكل عليك أول شهر رمضان فعد الخامس من الشهر الذي صمته في العام الماضي فانه أول يوم من شهر رمضان الذي في العام المقبل وقد امتحنوا ذلك خمسين سنة فكان صحيحا » اه من عجائب المخلوقات

فارجو الاستاذ افادتي عن المسئلة هذه مبينا وجه الحق في الاتباع وأرجو ان لا تحيلونا على ما مضى اذا سبق في هذا الموضوع جواب ليحق الله الحق ويخرجنا من ظلمة التقليد بساطع أنوار الحق التليد والسلام ؟ كتبه الفقير

٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٥ عبد القادر ملا قلندر البخاري

(ج) كتبنا في باب الاخبار النبوية الواردة في الصيام فصلا فيما يثبت به الصيام والفطر هذا نصه (ص ٨١٤ م ٦) وعدد الاحاديث فيه تابع لما قبله

﴿ فصل فيما يثبت به الصوم والفطر ﴾

(٧) جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : اني رأيت الهلال رمضان فقال : « أتشهد أن لا اله الا الله » ؟ قال نعم قال « أتشهد أن محمدا رسول الله » ؟ قال نعم . قال « يا بلال أذن في الناس أن يصوموا غدا » رواه الشيخان واصحاب السنن عن عكرمة عن ابن عباس . وفي رواية لأبي داود فأمر بلالا فنادى في الناس أن يصوموا وان يقوموا . وفي حديث آخر عند أبي داود أن النبي عليه السلام اكتفى مرة بشهادة ابن عمر في الصيام . وهو حجة على ثبوت الصوم بشهادة رجل واحد

(٨) عن ربعي بن خراش عن رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : اختلف الناس في آخر يوم من رمضان فقدم اعرابيان فشهدا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالله لأهلا الهلال أمس عشية فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس أن يفطروا . رواه أحمد وأبو داود وزاد في رواية وان يغدوا الى مصلاهم

(٩) قال صلى الله عليه وآله وسلم . « اذا رأيتموه فصوموا واذا رأيتموه فافطروا فان غم عليكم فاقدروا له » رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر . وفي رواية للبخاري وغيره « الشهر تسع وعشرون ليلة فلا تصوموا حتى تروه فان غم عليكم فاكملوا العدة ثلاثين » وفي رواية لمسلم وغيره « الشهر هكذا وهكذا » وأشار بالعقد الى ٢٩ و ٣٠ وفي لفظ الشيخين « صوموا لرؤيته فان غبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » وظاهر ان الكلام في رؤية الهلال وعدمها . ومعنى اقدروا له احسبوا وقدروا يقال قدره (من بابي ضرب ونصر) واقدره وقدر له وغبي هنا بمعنى غم في الروايات الاخرى أي لم يظهر . والاحاديث نص في أن العبرة برؤية الهلال لا بحساب الحاسبين وتقاويم المنجمين وذلك ان هذا الدين عام للبدو والحضر فوجب أن تكون مواقيت عباداته معروفة عند عامة المكلفين ، غير مخصوصة بطائفة الحاسبين ، وجاء في بعض الروايات « وانسكوا له » فمواقيت الحج تعرف برؤية الهلال أيضا

(١٠) عن كريب ان أم الفضل بعثته الى معاوية بالشام (قال) فقدمت فقضيت حاجتها واستهل علي رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة في آخر الشهر فسألني عبدالله بن عباس ثم ذكر الهلال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت رأيناه ليلة الجمعة فقال : أنت رأيته ؟ فقلت نعم ورآه الناس وصاموا وصام معاوية فقال: ولكنا رأيناه ليلة السبت فلانزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه: فقلت : ألا تكتفي برؤية معاوية وصيامه ؟ قال: لا — هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الاربعة . الاظهر ان المشار اليه بقوله « هكذا أمرنا رسول الله » هو قوله « لكنا رأيناه ليلة السبت » الخ فانه هو المنطوق الموافق للمروي وقيل انه أشار الى مايفهم من قوله من عدم اعتداد أهل بلد برؤية أهل بلد آخر وهو غير مروي في المرفوع ولا هو صرح به فنكتفي بروايته فالراجح اذاً حمل قوله على المروي المعروف . وقد اختلف علماء السلف في المسألة فقيل يعتبر كل أهل بلد رؤيتهم بعدت البلاد أو قربت وقيل لا يلزم أهل بلد العمل برؤية أهل بلد آخر الا اذا ثبت عند الامام الاعظم فبلغه لان حكمه

نافذ في جميع البلاد وقيل ان تقاربت البلاد كان حكمها واحد وان تباعدت عمل كل برؤيته واختلفوا في حد البعد فبعضهم ناطه باختلاف المطالع وهو الوجه العلمي و بعضهم ناطه بمسافة القصر وهو قياس فقهي وقد رجح النووي وغيره من الشافعية كل واحد من القولين وقطع بكل منهما جماعة من الفقهاء

ونقول اذا اختلفت الرؤية في البلاد المتقاربة فان كان هناك حاكم شرعي ورجح شهادة و بلغها الناس وجب ان يعتمدوا عليها ولا يلتفتوا الى رؤية الآخرين لينضبط الامر ولا يكونوا فوضى في اقامة ركن من أركان دينهم هذا صائم وهذا مفطر ، وان اختلفت في البلاد المتباعدة فهناك النظر والاجتهاد وقد رأيت ان بعضهم اعتبر البعد باختلاف مطالع القمر و بعضهم اعتبره بمسافة القصر والاول يستلزم تحكيم علماء الفلك وقد ذكرنا ان غرض الشرع ان يجعل ما تعرف به مواقيت العبادة عاما يعرفه العوام والخواص حتى لا يتحكم الكبراء في المسائل الدينية كما فعلوا في الامم السالفة والثاني يمكن أن يتجه لو ورد حديث يذكر فيه اختلاف الحكم ببعد البلاد فيقال حينئذ ان مسافة القصر هي البعد الشرعي الذي تختلف به الاحكام . وهناك وجه آخر في البعد والقرب ربما كان أجدر بالاعتبار وهو ان البلاد المتصلة التي بين أهلها امتزاج وتعامل كالبلاد المصرية كلها تعد بلاد امنفار بة ولا ينبغي ان يكون بعض أهلها مفطرا و بعضهم صائما بحجة اختلاف الرؤية فاذا ثبتت الرؤية في بعضها يصوم الجميع والا أكملوا عدة شعبان ثلاثين وصاموا متفقين ومايفعلونه الآن في الاقطار الاسلامية من الاثبات في مكان واعلام الآخرين به حسن في ذاته وغير حسن مايحتف به من البدع . وأما البلاد التي لا صلة بينها قوية سهلة ولا تعامل بينها الا بمهاجرة بعض أهلها من أحداها الى الاخرى فلابأس باعتبار كل ما يثبت عنده و ن تيسر اعلام كل قطر الآخر بنبأ البرق الذي يؤمن تزويره ، ولو كان للمسلمين امام أعظم ينفذ حكمه الشرعي في جميع بلادهم وتيسر له اعلامهم بما يثبت عنده من الرؤية وصاموا بذلك لكان له وجه من الحسن واتجه قال ابن الماجشون » اه ما في المجلد السادس وقد سقط من آخره شيء وأصله واتجه ما قاله ابن الماجشون من أنه لا يلزم أهل بلد برؤية غيرهم الا أن يثبت ذلك عند الامام الاعظم لأن البلاد في حقه كالبلد الواحد

لنفوذ حكمه فيها » وجملة القول أن العبرة بالرؤية او اكمال العدة فاذا ثبتت عند الحاكم وأعلم بها الناس عملوا بإعلامه

سؤالان أو أسئلة من « جاوه »

عتق جميع العبيد والاذن بتزويج المعتوقات

أرسل اليّ بعض أهالي سليبس هذان السؤالان والتمس مني ارسالهما اليكم لكي تنشروهما في المنار مع الجواب وهما الاول في الاعتاق والاذن بالتزويج بصيغة الجمع (س ٤٥ و٤٦) انه لما استولت حكومة هولندا على جزيرة سليبس وأخذت سلطان بوني أسيرا كان لديه أرقاء كثيرون وكذلك أهالي تلك تلك الجهة لديهم كثير من الأرقاء فلما استولت هولندا على تلك النواحي هرب أولئك المماليك وتركوا مالكيهم فما قولكم رضي الله عنكم فيمن أعتق أرقاءه بصيغة الجمع قائلا: إني أعتقت جميع ممايلكي وجعلتهم احرارا لوجه الله ذكورا وإناثا . واذا أذن المعتق بتزويج معتوقاته قائلا : إني أذنت لكل من يتولى عقود الانكحة من قضاة المسلمين أن يزوج كل معتوقة لي عند عدم وليها الشرعي على من تريد : فهل يكفي في كل الاعتاق والاذن بالتزويج صيغة الجمع أم لا أفيدونا ولكم الاجر والثواب

الثاني من صلى بالناس الجمعة في مرض النبي (ص)

(س ٤٧) لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي به فمن صلى بالناس الجمعة التي وقعت فى حال مرضه (ص) ومن الذي خطب بهم الخطبة أفيدونا مأجورين

الجواب عن السؤالين الاولين

يصح العتق بصيغة الجمع ويتناول كل فرد لانعلم في ذلك خلافا . وأما لأذن بالتزويج ففيه تفصيل فاذا أرادت المعتقة أن تتزوج في بلد ليس لها فيه

ولي غير مولى العتاقة وقامت البينة عند القاضي على ذلك الاذن كان له أن يزوجها واذا لم تقم عنده بينة طلبه ليزوج هو وأما اذا كان المولى غائبا ولا ولي سواه فللقاضي أن يزوج سواء كان هناك اذن أم لا لأن الولاية له حينئذ

الجواب عن السؤال الآخر

قالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم مرض مرض الموت في اواخر صفر أو أوائل ربيع الاول وقالوا ان المرض قد اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال وقالوا انه توفى حين اشتد الضحى من يوم الاثنين وقالوا ان أبا بكر رضي الله عنه هو الذي كان يصلي بالناس بأمره عليه الصلاة والسلام فى المدة التي لم يكن يستطيع الخروج فيها وقالوا انه خرج في صبيحة يوم الاثنين وأبو بكر يصلي الصبح بالناس فضحك سرورا برؤيتهم وكادوا يفتتنون في صلاتهم فرحا به اذ ظنوا انه عوفي وأراد أبو بكر ان يتأخر ليتم صلى الله عليه وسلم الصلاة بالناس فأشار اليه بأن يمضي في صلاته

وقال بعضهم ان أبا بكر صلى في الناس سبع عشرة صلاة ولم أرا حدا قال ان منها صلاة الجمعة . ورأيت في الاحياء ان ابتداء الاذن لأبي بكر رضي الله عنه بالصلاة بالناس كان في أول ربيع الأول فاذا كانت وفاته صلى الله عليه وسلم في الثاني عشر منه كما هو المشهور فالصلوات التي أمّ أبو بكر بها الناس كانت متفرقة ومنها الليالي التي اشتد بها المرض فلا عجب اذا كان صلى الله عليه وسلم هو الذي صلى بالناس آخر جمعة من أيام حياته الشريفة

باب المناظرة والمراسلة

الانتقاد على المنار

(العصبية الجنسية واللواء)

أرسل الينا بعض طلبة مدرسة الحقوق مقالا من الاسكندرية عنوانه «المنار والسياسية والدين» ولكن موضوعه الدفاع عن صاحب جريدة اللواء، وإطراؤه بالمدح والثناء، ومؤاخذة المنار على إنكاره عليه ماأدخله في دعوة الوطنية، من نزعات العصبية الجنسية الجاهلية، وإقامته الحجج على ان ذلك مناف لما قرره الاسلام من أخوة الدين ومن الحقوق الأخرى لكل مقيم في دار الإسلام أيا كان جنسه . ذكره بذلك ما كتبناه في الجزء الماضي ردا على فريد أفندي وجدي

قال الكاتب «أما بعد فإن لي كلمة يدفعني الشعور بالواجب ان أقولها لكم وهي وان كانت لاتتفق الى الآن مع رأيكم الا ان لي ملء الثقة في انكم لاترفضون كل مايخالفكم لما ناديتم بذلك كثيرا وشهدناه منكم غير مرة فانا أرسل اليكم تلك الكلمة معتقدا أني أخدم بها الحق كما أخدم بها المنار فرجائي أن تنشروها في مجلتكم ولكم بعد ذلك أن تعلقوا عليها ما شئتم أن تعلقوا»

نقول اننا لانرفض كل مايخالفنا ولا ننشر كل مايوافقنا وانما نختار مانرى فيه الفائدة من الامرين ومنه الانتقاد علينا في المسائل الدينية والعلمية ممن يبحث في المسألة نفسها لافي اعتقاده بنية صاحبها وشؤونه الخاصة فلو كان الكاتب جعل مقالته في انتقاد رأينا في العصبية الجنسية لنشرناها، ولكن معظمها في بيان اعتقاده في صاحب جريدة اللواء ومايرجوه من سعادة البلاد بدعوته وهو مانعتقد خلافه . فهو يذكر اعتقاده فيه ويقول «فماذا تنتقدون عليه في ذلك وماذا ترون فيه ممايخالف روح الدين» كأني بانتقاد العصبية الجنسية الجاهلية عليه انتقدت عليه كل شيء يقوله . وقد غلا في ذلك حتى حكم بأنني أعد المبادي التي تنهض بها الامم — وهي مبادي صاحب جريدة اللواء في رأيه — مخالفة للاسلام واني أجعل الحياة الوطنية عين العصبية الجنسية الجاهلية وبذلك أكون منفرا عن الاسلام . وهذا غير صحيح فما فائدة التطويل بشرح رأي غير منطبق على الواقع

ليس في المقال دفاع حقيقي عن صاحب جريدة اللواء في موضوع العصبية الجنسية الا إنكار أن تكون مما يدعو اليه قال «لعلكم تريدون بذلك مايطعن به على الدخلاء وتحذير المصريين منهم في اللواء . ان كنتم تريدون ذلك — وهو الواقع — فما أبعد دعوته عن عصبية الجنسية !! لان مصطفى كامل باشا قد عرف معنى الدخلاء غير مرة وفهم ذلك عنه الكثيرون من قراء اللواء فهو يعني بالدخيل من يزج بنفسه في أهل أمة ويسعى في ضررهم وهو يطلق هذا اللفظ على فئة من نصارى سوريا رأينا من أعمالهم أنهم يحملون في صدورهم أقبح النيات نحونا سعيا وراء مصالحهم وأهوائهم» ثم ذكر انه ان كان قد أدمجنا في تلك الزمرة فما ذلك الا لاعتقاده أننا نفعل فعل تلك الزمرة واننا لانخلص في فائدة الأمة المصرية ثم استدل على ذلك باجلاله لبعض السوريين كرفيق بك العظم

أقول ليست العصبية الجنسية في اللواء مأخوذة من كلمة الدخلاء التي جعلها هجيراه فقط بل نرى روحه فائضة بهذه العصبية التي جعلها مضادة للسوريين بوجه خاص فما غاضت آونة لعدم المحرك الا وفاضت أخرى . وقد طغت حتى تجاوزت السوريين المقيمين في مصر الى غيرهم كما ظهر ذلك عند ماعلل تألب العساكر السورية المسوقة الى اليمن بخسة المنبت . وقد ظهر أثرها في الأغرار المخدوعين بجعجعة هذه الجريدة حتى صار مثل محمد فريد أفندي وجدي لايسمح لمحمد رشيد رضا أن يتكلم في شؤون الأمة المصرية بل ولا في شؤون ملتها ولا يجد أحدا ينشر له هذا الا اللواء صاحب الدعوة وناشرها . وان مثل هذه العصبية يكون مظهرها في اللسان أقوى منه في الكتابة وقد سمعنا من خاصة أصدقائنا الفضلاء من المصريين أنها قد قويت حتى صار بعض المتعلمين بل والمعلمين يعذلون من اخوانهم من يعترف بفضل سوري أو يخلص له في الصداقة ورأينا أهل الفضل والدين من المصريين يألمون لطروء هذه النزعة الجاهلية على المسلمين . ولعل المنتقد قد قرأ ما كتبه بعض اخوانه طلاب الحقوق في بعض المجلات الحديثة من كونهم يطلبون بيان الدين والدفاع عنه من المصريين !!!

بل وصل شر العصبية الجاهلية الى بعض علماء الازهر الذين يعيشون فيه مع طوائف

المسلمين من جميع الاقطار حتى قال أحد كبرائهم مرة عندمامدح أمامه « مسجد الست الشامية » في موقعه ونظافته : نعم ولكن من الاسف أنهم حشوه بالشوام: وهو وان بناه الشوام ووقفوه ووقفوا عليه ليس فيه مستخدم شامي الا الخطيب الصالح الذي يقصد المسجد لأجله من الاماكن البعيدة ممن لم تفسد دينهم عصبية الجاهلية . أتدري من هو ذلك العالم ؟ اني لاسميه وإنما أقول لك انه صديق صاحب جريدة اللواء من علماء الازهر الذي كان يزوره كما يزوره هو

بل ارتقى صاحب جريدة اللواء بهذه العصبية الى مستوى اسمى فصرح بأن أمير البلاد أشار في خطبته يوم خلع على الشربيني خلعة مشيخة الازهر الى وجوب خروج صاحب المنار من مصر لأنه هو الغريب الذي هو غير راض عن طريقة التعليم في الازهر

على أننا لو سلمنا أن اللواء لا يعني بالدخلاء الذين ينفر عنهم ويبغض فيهم غير فئة من نصارى السوريين كما يرى المنتقد الحسن الظن لما كنا الا قائلين بانه مخطىء خطأ ضاراً بالبلاد لأن أول من يخطر بالبال من هذه الفئة أصحاب المقطم وهم لم يذهبوا مذهبهم المعروف في السياسة لأجل فائدة سوريا ومصلحتها حتى يقال انه مذهب سوري ويذم منتحله بأنه او لأنه سوري أودخيل ؟ كلا انه ماذهب أحد منهم هذا المذهب لأنه سوري دخيل في البلاد المصرية يتعصب عليها وعلى أهلها ليحول مصالحها ومنافعها الى وطنه وانما قصارى سوء الظن فيهم أن يكونوا يلتمسون بهذا منفعتهم الخاصة فما معنى نبزهم بلقب الدخلاء وجعل ذلك علة لعداوتهم للمصريين ؟

أليس من المقرر في علم الأصول والمعروف عند أرباب الاذواق والعقول ان ترتيب الحكم على المشتق يؤذن بعلية مامنه الاشتقاق ؟ أليس الاسم المنسوب من قبيل المشتقات ولذلك يعمل عمل اسم المفعول ؟ فبهذا تبين أن ترتيب الطعن في قوم على كونهم سوريين دخلاء يؤذن بأن كونهم سوريين هو علة ذلك الطعن وما ترتب عليه وحينئذ يكون طعنا في جميع السوريين من حيث هم سوريون وهو على كونه خرقا وأفنا في الرأي ضارّ لأنه تأريث عداوات وضغائن بين أهل قطرين

متجاورين في الأرض متساوين في اللغة والتابعة العثمانية متقاربين في العادات وأكثر أهلهما مع هذا متفقون في الدين

ان السوريين المقيمين بمصر وحدهم لا يستهان بعداوتهم فانهم أصحاب قوة مالية تقدر بنحو خمسين مليون جنيه وقوة أدبية لاتحتاج الى تعريف . وما من أحد منهم يعد من أصحاب الرأي والاشراف على أحوال المصر الا وهو يعتقد بأن خطة جريدة اللواء تضعه من المصريين موضع العدو من عدوه . ومن هؤلاء من هو مخالف لاصحاب المقطم في الرأي والسياسة ومنهم من يبغضهم ويطعن فيهم أي قول قال به أصحاب المقطم وليس في المصريين مسلمهم أوقبطيهم من يقول بمثله فما بالك بسائر الشعوب التي يوجد منها ألوف تقيم في مصر ولهم جرائد تخالف رأي اللواء كما يخالفه المقطم وهي أشد خلافا فلماذا لا ينوط ذنبها في رأيه بكون أصحابها من جنس كذا أو من بلاد كذا ؟ ؟

ان كل أجنبي بمصر يرى جنسه أشرف من الجنس المصري وأجل من ان يخضع لقانونه وهو يعمل في هذه البلاد لأمته وبلاده وما أصابه من الثروة ينقلب به الى أهله . والسوري يرى نفسه شقيقاً للمصري ومساوياً له في كل شيء وقلما يرجع سوري الى بلاده بما كسب من مال ولكن كثيرا منهم جاؤا الى مصر بأموال عظيمة لاسيما في هذه السنين الاخيرة . فلأي شيء يعد اللواء ذنب الواحد منهم عارا عليهم . وما هو الفرق بين السوري والمصري والافرنجي في ذلك؟ على ان جميع الاجناس صارت تشعر بأن اللواء يدعو الى عدوانها بل طفقوا يعتقدون أن المصريين يبغضون كل غريب فما أشأم اللواء

المنتصر للواء يرى ان خطته هي التي تنجح بها الامم وأنه لا نجاح بسواها ونحن نرى ضد مايرى وما توسعنا في مسألة الجنسية الآن وقبل الآن الا لأنها منافية لروح الاسلام من جهة ولمصلحة المصريين ثم السوريين من جهة أخرى ولو شئنا لبينا تنفير هذه الخطة جميع الاوربيين من المصريين وكيف جعلتهم عونا للانكليز عليهم بعد أن كانوا عونا لهم على الانكليز ، وبينا كيف شغلت هذه الخطة المصريين بالسياسة العقيمة عن الطريقة المستقيمة وغير ذلك مما ننكره على هذه الجريدة المتهورة

وصاحبها ولكننا ندع ذلك للأيام ، فهي التي تكشف للناس كيف كانت هذه الوطنية عبارة تبغيض المصريين الى جميع الشعوب وكثرة الفخر والدعوى والعظمة ولعل اليوم الذي تنكشف فيه الحقائق ليس ببعيد

الجرائد وتاريخ الاستاذ الامام
وصاحب جريدة اللواء

جاءتنا رسالة من الشيخ أحمد المنوفي امام الجامع الكبير بكلكته (الهند) في موضوع انتقادنا على بعض الجرائد فيما كتبت عن تاريخ الاستاذ الامام أنحى فيها على صاحب جريدة اللواء إنحاء شديدا يتعلق بسيرته وسياسته كما أطراه صاحب الرسالة السابقة في ذلك . فنعتذر عن نشرها بمثل ما اعتذرنا به عن نشر تلك لأنها لا تفيد القراء وانما تفيدنا نحن وقد قرأناها وانما نذكر جملة منها على سبيل النموذج لما فيها من اعتقاد كاتبها في الاستاذ الامام عليه رضوان الله لا مجازاة للواء على شتمه ايانا مرة بعد اخرى اذ لو كان غرضنا ذلك لنشرناها برمتها . قال الكاتب في عرض الكلام على صاحب جريدة اللواء :

« ثم ازداد غلوا فجعل مداد قلمه تامور المسلمين ومهجة المصريين، لا استغراب ماصدر منه من هذه اللفظة الشنيعة التي منشأها الغطرسة وسوء الادب مع أئمة الدين وقادة المسلمين الا وهي قوله « تاريخ الشيخ عبده » إذ مثل هذه اللفظة يتحاشا من كتابتها وجعلها عنوانا على امام الائمة المرحوم الاستاذ الامام أقل الناس أدبا وأشدهم تكبرا وأجهلهم بحقيقة نفسه بل لا ينبغي لأديب ان يجعلها عنوانا على أصغر تلميذ فضلا عن الاستاذ الامام فما بالك بصاحب (جريدة) اللواء الذي يعتقد انه خلص المسلمين وعلى الاخص المصريين من دركه أو أخرجهم من سلي جمل وانهم لولاه لم تقم لهم قائمة » الخ ما قال ومنه عدم التفرقة بين ما يكتبه صاحب هذه الجريدة وما يكتبه خلفاؤه لأنهم كما قال الكاتب « لا يكتبون الا ما يوافق مشربه »

وجملة القول اننا لا نحب البحث في مذهب جريدة اللواء وسيرة صاحبها في سياسته ومشربه ولا نحاول إقناع المعجبين بها وبه بما نعتقد فيهما لأنهم يتبعون في ذلك الاعجاب الشعور والوجدان، دون الرأي والبرهان ، والوجدان يستفزه

الغلو والشذوذ ولذلك قال عبد الله أفندي نديم رحمه الله من اعجاب الجماهير وتصفيق قلوبهم وأيديهم مالم يصل الى مثله ولا الى عشره صاحب جريدة اللواء الى اليوم لانه كان يقول لهم فيما يكتب ويخطب ان قذائف مدافع الاسكندرية تصل الى قبرص من هذه الناحية وقذائف مدافع الاستانة تصل اليها من الناحية الأخرى فكيفما جالت المراكب الانكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا : ومصطفى كامل يهزأ بالانكليز ويهددهم بما يقرب من هذا ومتى وصل الى مثله - وماذلك ببعيد - يصير إعجاب الجماهير به أشد منه اليوم لأن إعجابهم يكون دائما على قدر الغلو كما قلنا . ولكن اذا وقع بالبلاد منتهى مايتوقعه العقلاء من عواقب هذا الغلو — وماوقع الى اليوم ليس بقليل — أو اذا تدارك هؤلاء العقلاء الخطب قبل وقوعه وهم أولو الشأن في البلاد كما يرجى منهم فيومئذ يعلم المغرورون أن ليس كل مخالف للواء بعدو للبلاد ولا بدخيل ولا بضار بل الضار هو اللواء وصاحبه المتفاني في حب الشهرة والعلو لا في حب الوطن (١٦:٩ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهدا كم أجمعين)

الانتقاد على محمد فريد أفندي وجدي في كتبه
٣
كنز العلوم واللغة

نكتفي في هذا الجزء بالانتقاد على مادة واحدة من مواد كتاب كنز العلوم واللغة لأن باب المناظرة لا يتسع فيه لأكثر من ذلك

أخطأ فريد أفندي وجدي فيما كتبه في لفظ (حديث) أنواعا من الخطأ تدل على أنه لا ثقة بنقله وروايته كما انه لا ثقة بفهمه ورأيه

(الخطأ الاول) تعريفه الحديث في الاصطلاح بقوله « والحديث في الاصطلاح أطلق على ماروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكلام » وهذا غير صحيح وهو يدل على أنه لم يتلق ولم يقرأ شيئا من كتب الحديث مطلقا أو قرأ شيئا قليلا لم يفهمه والصواب ان الحديث في اصطلاحهم ما أضيف الى النبي صلى الله

عليه وسلم قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة ويطلق كما في النخبة على كل من المرفوع والموقوف والمقطوع (الثاني) قوله انه لم يصح عند أبي حنيفة الا سبعة عشر حديثا فقط فان من يعرف غير هذا العدد من الصحاح لا يعترف له أحد بالامامة والاجتهاد المطلق . نعم ان الرواية عن أبي حنيفة قليلة وفرق بين مايروى عنه ومايصح عنده

(الثالث) قوله «انه لم يصح عند الامام مالك الا ثلاث مئة حديث»

وهذا خطأ كبير فقد قال الحافظ ابن حجر كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع وغيرهما . وقد نقل عن الامام الشافعي ان الموطأ أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى . نعم ان الشافعي قال ذلك قبل وجود صحيحي البخاري ومسلم اللذين قدمهما العلماء بعده على الموطأ ولكن ذلك لم يخرج الموطأ عن كونه صحيحا . وقد نقل السيوطي في تنوير الحوالك عن القاضي أبي بكر بن العربي ان الموطأ هو الاصل الاول والبخاري هو الاصل الثاني وان مالكا روى مئة ألف حديث جمع منها في الموطأ عشرة آلاف ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة (أي العملية) حتى رجعت الى خمس مئة . وعن الكيا الهراسي كان تسعة آلاف فرجع الى سبع مئة . أقول والظاهر ان الخلاف في العدد خاص بالاحاديث المسندة وهي كما نقل عن الابهري ست مئة وعن ابن حزم خمس مئة ونيف . ومجموع الاحاديث والآثار فيه ألف وسبع مئة وعشرون قال الابهري المرسل منها ٢٢٢ والموقوف ٦١٣ ومن أقوال التابعين ٢٨٥ وكل مافيه قد صح عند مالك وان قال بعض المحدثين بعده بضعف قليل من رواياته . وقد نقل عنه انه قال «عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ» فلينظر الناظر الى مبلغ علم فريد أفندي بالآثار وجرأته على كتابة ماليس له به علم

(الثالث) قوله «ولم يصح عند البخاري الا ٦٢٠٠ حديثا (كذا) من أكثر من ٦٠٠٠٠٠ سمعها من الناس»

أقول لاندري اخترع فريد أفندي وجدي هذه الاقوال اختراعا ام سأل بعض من يظن فيه العلم أن يكتب له ذلك ليفتخر بعلم غيره فكان افتخاره بالجهل .

أما المعروف المشهور في كتب الحديث فهو أن ما في الجامع الصحيح للبخاري هو بعض ماصح عنده وهو بالمكرر يزيد عما قال وبدونه ينقص قال الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح جميع أحاديثه بالمكرر سوى المعلقات والمتابعات سبعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وتسعون حديثا والخالص من ذلك بلا تكرار ألفا حديث وست مئة وحديثان . ثم تكلم في احصاء المتون المعلقة المرفوعة بغير وصل . ولا يتفق زعم فريد أفندي وجدي مع عد المكرر ولا مع تركه . هذا اذا فرضنا أنه لم يصح عند البخاري الا أحاديث الجامع والصواب أنه قد صح عنده غيرها وقد صح عنه أنه قال «لم أخرج في هذا الكتاب الا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر حتى لا يطول»

(الرابع) قوله أول من الف في الحديث مالك في الموطأ (كذا) توفي سنة ١٧٩ وقيل ابن جريج»

والصواب أن أول من دون الحديث ابن شهاب الزهري بأمر عمر بن عبد العزيز كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ورواه أبو نعيم في الحلية عن مالك نفسه وفي باب اكتتاب العلم من الموطأ رواية محمد بن الحسن وعلقه البخاري «أخبرنا مالك أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أبي بكر عمرو بن حزم أن أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم او سننه او حديث عمر أو نحو هذا فاكتبه لي فاني قد خفت دروس العلم وذهاب العلماء» . نعم انهم ذكروا أن مالكا وابن جريج من أول من صنف الحديث مرتبا على الابواب وهذا أخص من مطلق التأليف والتدوين فان الذين كتبوا الحديث على أقسام منهم من كتب ما اجتمع له كيفما اتفق ومنهم من رتبه على الابواب ومنهم أصحاب المسانيد الذين ذكروا ما أسنده كل صحابي على حدة بحسب رواياتهم ومنهم أصحاب المعاجم الذين رتبوه على حروف المعجم . وقد كان ممن الف الحديث مرتبا على الابواب في القرن الثاني مالك بالمدينة وابن جريج بمكة وسفيان الثوري بالكوفة والاوزاعي بالشام والربيع بن صبيح او سعيد بن أبي عروبة او حماد بن سلمة بالبصرة وهشيم بواسط ومعمر باليمن وجرير بن عبد بن حميد بالري وابن المبارك بخراسان . قال الحافظان ابن حجر والعراقي وكان هؤلاء في عصر واحد فلا يدري أيهم اسبق .

كذلك كتب المسند غير واحد في عصر واحد فاختلفوا في الأول منهم . فلو كان فريد افندي وجدي مطلعاً على أقوال المحدثين في ذلك لقال ان مالكا وابن جريج هما أول بل من أول من صنف الحديث مبوبا كما يقال أول – او من أول – من كتب المسند نعيم بن حماد وأسد ابن موسى وعبد الله بن موسى . وأنى لمثل فريد أفندي وجدي أن يعرف شيئا من هذه الفروق والدقائق أو مثل من وصفه بالتدقيق والتحقيق في كل ما يكتب كبعض محرري المؤيد على أن القول بسبق ابن جريج لمالك أقوى من عكسه كما أطلق ذلك غير واحد ومنه ما في التذكرة للحافظ ابن حجر عن الامام أحمد أن ابن جريج وابن أبي عروبة أول من صنف الكتب

(الخامس) قال فريد أفندي وجدي « ثم توالت بعد ذلك المجموعات السبع الشهيرة بكتب السنة الصحيحة وهي مجموعة البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ هـ ومسلم المتوفي سنة ٢٦١ هـ وأبو داود (كذا) المتوفي سنة ٢٧٥ هو ابن ماجه المتوفي سنة ٢٨٢ هـ والنسائي المتوفي سنة ٣٣٣ والدارقطني المتوفي سنة ٣٨٥ هـ »

أقول انه ذكر ان المجموعات سبع وعد ستا فقط فلا نعد هذا عليه وانما نعد عليه انه ترك من الكتب الستة كتاب الترمذي واستبدل هو به الدارقطني وهذا يدل على الجهل المطلق بهذا العلم ولو ترك ابن ماجه لقلنا انه تركه للخلاف فيه وإن جرى جميع المتأخرين على عده السادس من الستة ولكن أنى لمثله ولمن يقرظ له كتبه فيصفها بالتحقيق والتدقيق أن يعرف هذا

(السادس) زعمه ان ابن ماجه توفي سنة ٢٨٢ والصواب انه توفي سنة ٢٧٣ وقيل ٢٧٥

(السابع) زعمه ان النسائي توفي سنة ٣٣٣ والصواب انه توفي سنة ثلاث وثلاث مئة . فبأي شيء مما يكتب فريد أفندي يوثق

ان كل ما كتبه في هذه المادة لا يزيد الا قليلا عن الصفحة وقد رأيت ان معظم ما هو نقلي من ذلك فهو خطأ لأن منه الكلام في النسخ والوضع وله في ذلك عبارات لو تتبعناها وانتقدناها لفظا ومعنى لأطلنا في احصاء ما يتعذر إحصاؤه

ومن قرأ قوله في آخر هذه المادة « هذا واننا في عصر كثر فيه النبهاء وأخذ كثير منا في احتذاء مثال أئمتنا في مسألة الاحاديث من الاكتفاء بالصحيح

السليم وان كان قليلا وترك المشكوك فيه مهما كان كثيرا » من قرأ قوله هذا يظن انه هو في مقدمة هؤلاء النبهاء الذين ذكرهم ولكنه اذا تتبع الاحاديث التي يحتج بها فيما يكتب يرى انه يشكك في أصح الروايات كأحاديث الشفاعة ويعتمد في الاكثر على الاحاديث المشكوك فيها أو المقطوع بضعفها أو وضعها وهو لا يعلم وسنبين ذلك في فصل مستقل ان شاء الله تعالى

آثار علمية ادبية

لباب الخيار، في سيرة المختار

ألف الشيخ مصطفى الغلاييني البيروتي مختصرا في السيرة النبوية سماه بهذا الاسم وطبعه طبعاً جميلا على ورق حسن ضبط فيه بالشكل ما راه مما يشتبه فيه غير العالم فكانت صفحاته ٨٢ صفحة وهو أسهل المختصرات وأقربها الى افادة التلاميذ المبتدئين والعوام

ذكر في أول هذا المختصر ان الاسلام قام أو نشر بالدعوة لا بالسيف وقسم حياة النبي صلى الله عليه وسلم الى ثلاثة أدوار ما قبل البعثة وما بعدها الى الهجرة وما بعد الهجرة وذكر المسائل والغزوات دون السرايا ونبه على مواضع العبرة في كثير من المواضع وختم المختصر بأحاديث من الحكم وجوامع الكلم بلغت ٢٢١ حديثا رتبها على حروف المعجم . وثمن النسخة من هذه السيرة قرشان صحيحان ما عدا أجرة البريد وتطلب من مكتبة المنار بمصر

فلسفة الاسلام ومدنية القرآن

كتاب جديد يؤلفه أحمد أفندي بدوي النقاش أحد ضباط الجيش المصري في سكة الحديد السودان وقد طبع الجزء الاول منه في مطبعة الآداب والمؤيد . وقد يتعجب القارىء من نسبة كتاب في الفلسفة الى ضابط مصري لاسيما اذا

كان عالما بحال التعليم في المدرسة الحربية المصرية وانه تعليم صناعي ليس فيه شيء يرقي الفكر حتى ان دراسة التاريخ قد ألغيت من هذه المدرسة منذ سنين ولا نرى جريدة من الجرائد المبالغة في انتقاد نظارة المعارف تنتقد ذلك على نظارة الحربية ،

نعم يتعجب القارىء من تأليف ضابط مصري كتابا في فلسفة الدين ولا يذهب بتعجبه الا تذكر تفاوت استعداد البشر فان في الضباط المصريين أفرادا من المغرمين بقراءة كتب العلم والدين والتاريخ والمجلات الدينية والعلمية. ومؤلف هذا الكتاب من المستعدين للفلسفة ويابت تربيته لم تصرفه عما خلق مستعدا له الى غيره . قرأنا مسائل من الكتاب فرأيناها نتائج فكر دقيق ، جاءت من كل فج سحيق ، بعضها جلي و بعضها خفي لم تقو العبارة على بيانه . ومن مباحث الكتاب طبيعة الفكر الانساني والارادة والعقل وحرية الانسان واستقلاله ووجود الله والفلسفة الالهية و إيصال القرآن الى السعادة وغير ذلك

الدليل ، في موارد أعالي النيل

كتاب جديد كبير الحجم والفائدة صنفه بالانكليزية السر وليم جارستن مستشار نظارة الاشغال العمومية بمصر ونقله الى العربية ابراهيم مصور بك رئيس الترجمة في هذه النظارة وطبع بمطبعة المعارف طبعا في منتهى الحسن وهو يشتمل — كما كتب في طرته — « على مطالب التعديل والاصلاح . ويليه نبذة لجناب المستر ديبوي مفتش عموم ري السودان شرح فيها خبر رحلته الى بحيرة تدانا وأنهار السودان الشرقي . وفي درج الكتاب رسوم جمة وله ملحقات »

نقول أما الكتاب فهو قسمان وخاتمة وفي القسم الأول منهما ١٢ فصلا في الكلام على بحيرة فكتوريا و بحيرة ألبرت أدوردو بحيرة ألبرت وهي ينابيع النيل وأصوله وعلى نيل فيكتوريا والنيل الأعلى المعروف ببحر الجبل وعلى البحرين الأبيض والأزرق وهما فرعا النيل العظيمين وغير ذلك . والقسم الثاني في « تصرفات الأنهار وممكنات المشاريع » وفيه فصلان . وأما الملحقات ففيها فوائد كثيرة

في مشروعات ومباحث مهمة كتعلية حبس أسوان ومشروعي وادي الريان وفرع رشيد ،

وأما الرسوم الشمسية فيه فهي ٤٦ رسما وهناك رسوم أخرى كثيرة منها الملون كخرائط الجغرافية ومنها غير الملون وهي في غاية الاتقان

ومن خدمة اللغة في هذا الكتاب أن مترجمه بالعربية قد فسر في هوامشه الألفاظ التي احتاج الى استعمالها فعني بالبحث عنها ووضعها في مواضعها ولم تكن مستعملة عند كتاب العصر كالمساك بوزن سحاب وهو مكان من النهر تتراصف اليه حطامة الاغصان ورفاض الحطب والعشب وغيرها فتحبس ماءه وتعوق سيره و يعرف بالسد . وكالمفجرة بوزن المتربة قال وهي أرض تطمئن وتنفجر فيها أودية و بالتخصيص لجوة مابين جبلين وهي الفجة والوادي والغور : وهو يفسر أيضا كل مايرد في الكتاب من الاصطلاحات والدخيل

وأسلوب الترجمة عربي فصيح قلما تجد لأحد من كتاب هذا العصر ومترجميه مثله وإن لم يخل من بعض ماينتقد على نابغيهم وهاك هذا النموذج منه في الكلام على بحيرة ألبرت :

« أما بحيرة ألبرت فالحادثات فيها على خلاف ماتقدم ولكن لامرد لوقوعها وفطها أكيد . ذلك أن مثالج جبل روزوري والفواعل الجوية فيه تؤدي الى تحات جوانبه على الدوام وتفتتها وكل ماينساب منها من الرفاض (١) تجرفه السيول الى أخاديد (٢) ومضايق ذاهبة به الى نهر سملكي وهو يرمي بها الى بحيرة ألبرت ومعها مقادير من الطين التي تجتلبها مياهه من أنحائه العليا . هذا وانحدار النهر عند الطرف الجنوبي لبحيرة ألبرت يقل فتخف بذلك جريته فتصبح مياهه وليس لها قوة دافعة تستاق تلك المواد فتستقر جميعها في بطاح البلاد المجاورة . وعليه فقد كونت رواسب الأجراف (٣) في الأطراف الجنوبية من بحيرة ألبرت سهلا

(١) رفاض الشيء : كغراب قشارته وما تحطم منه فتفرق (٢) جمع أخدود وهو الحفرة المستطيلة في الأرض (٣) أجراف جمع جرف (بالضم) وجرف (بضمتين) وهي ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض (المعرب)

بسيطًا من الأرض يتداخل شيئًا فشيئًا بمياه هذه البحيرة فيرفع منسوب قاعها ولاتزال هذه الرواسب تعمل هذا العمل على التوالي . ومثل ذلك يعمله بحر فيكتوريا في الطرف الشمالى للبحيرة فهو يلقى بابليزه وأجرافه في البحيرة فتضيق»

فنشكر لواضع الكتاب خدمته لهذه البلاد ولمترجمه خدمته لها ولغتها بما لم يخدمها أهلها

﴿ هذا يلاشي تلك ﴾

لفيلسوف شعراء فرنسا أوشاعر فلاسفتها فيكتورهيجو أو هوجو (أو الاسم بالغين أوالكاف بدل الجيم على ماترى عليه المعربين والمترجمين من الخلاف) مقال عنوانه(هذا يلاشي تلك) وصف فيه مباني الأقدمين وفخامتها كالاهرام وقصر الكرنك وعمود السواري والبادثيون والبانثيون ذهب خياله فيه الى فلسفة اجتماعية دقيقة فجعل ذلك رمزا للسلطة الروحية والسياسية التي استعبد البشر بها الكهنة والملوك وبين ان اختراع المطبعة الذي سهل نشر العلم بين جميع الناس يلاشي تلك السلطة ويذهب العلم بالكنيسة . وانتقد على ذلك بعض الكتاب وحاول بيان أن المطبعة لم تعدم الكنيسة بل خدمتها ورد عليه المترجم ثانية . نشر ذلك في جريدة البصير ثم طبع على حدته

﴿ مطمح الفصحاء ﴾

كتاب ألفه الشيخ علي فؤاد المنوفي في شيء سماه الانشاء وجعله عشرة أقسام فى رسائل الود والشوق والعتاب والاعتذار والقطيعة والاستعطاف والرجاء والشكر والتعازي والتهاني وأودعه أربع مقامات وجعل له شرحا أكبر منه وان شئت فقل انه صنف كتابا آخر جعله هامشاله وسماه شرحا وان كان أكثر ما فيه ليس بشرح ولا مناسبة بينه وبين المشروح في معنى الأصل . مثال ذلك شرحه للبيت الآتي

إني لأبصر من أفعالها عجبا الوصل يغضبها والصد يرضيها

فانه لا يبين المراد من البيت في شرحه وانما يتكلم عن أقسام الفعل في الصرف فيذكر المجردة والمزيدة والملحقة والسالمة والمضاعفة والمهموزة وغير ذلك . كذلك شرحه للبيت الآخر

أكتم الوجد والآلام تظهره هيهات هيهات ذوطب يداويها

فانه لايذكر في شرحه إلانحو صفحتين في أسماء الأفعال كأنه يشرح كتابا في النحو والصرف

قال المؤلف في فاتحة كتابه « وكل مافيه من المنشآت ابتكاري ، كما أن بعض مابه من الأبيات اختياري»

« يعرف المرء باختيار وجمع ودليلي على الأديب اختياره»

ونقول انه ليس فيه شيء من الابتكار ، وهاك هذا النموذج مما فيه من المنظوم والمنثور وهو ماقاله في أول قسم الاستعطاف بعد أبيات لغيره

« مهما في التجني علي أفرطت، وأذقتني بصدك الهوان، فروحي لمودتك أوهبت، ياإنسان كل انسان ،

لله أشكو غرامي وما أعاني وألقى

قطعت حبل ودادي ولم أخن لك حقا

وبي تبدلت غيري فالله خير وأبقى

لكن ... عهدي بجميل خصالك ، وقوفي على سبب هجرانك

أئن كان بالسلوان عني عواذلي لكم حدثوا والله قد كذبوا بما

عن الحب والعهد القديم وودكم وحق الهوى ماضل صاحبكم وما

لمهجتي الشجو أورثت ، ولعيني السهد وهبت ، والي الارق بعثت ،وللبي قدروعت

فزاد اشتياقي وقل اصطباري ولم أستطع في هواك الهجوع

فؤادي أسرت قيادي ملكت اما آن عفوك عن صادق

سميع مطيع مشوق ولوع

حذار العذول كتمت وجدي يا خير مأمول عدمت رشدي

فمن على برد الجواب وحقك اني به لقنوع

دامت لك علياك ولا أعدمني الله محياك والسلام » اه

ولا يحسبن القاريء اننا تعمدنا نشر أدنى ما في الكتاب بعد البحث عنه بل هذا من أحسنه فان أساء بنا الظن أوردنا له أبياتا كتب بها الى صديق آخر وهي

أيامن فاق أهل العصر طرا … بما أبداه من شرف الطباع
أسأت اليك فاستوحشت مني … وأبدلت التواصل بانقطاع
فصرت أقارع الأهوال ضنكا … وأنتف شعر رأسي من مجاعي
وأصرخ في (الشوارع والحواري) … بأصوات كأصوات الضباع
وأزري دمع عيني فوق خدي … ومن أسفي أعض على صباعي
ولما أن رأت عيناي موتي … وان الروح مني في النزاع
أتيت اليك معترفا بذنبي … ورجلي فوق كتفي بانخضاع
أؤمل فيك انك تعف عني … لأنك بحر جود ذو اتساع
فألقني بفضلك ثدي عفو … لاشفي القلب منه بالرضاع

هكذا جاءت هذه الابيات في الكتاب فلا نظن ان مطبعتنا حرفت فيها أو صحفت

ههنا يقول القاري: مابال المنار أطال في الكلام على هذا الكتاب وخالف عادته في مثله وانا أقول له ان السبب في ذلك التعريف بمكانة كتاب كتب مصنفه في أوله انه ورد اليه ٢٦ تقريظا له من أكابر العلماء وافاضل الشعراء وذكر منها تقريظا للشيخ سليم البشري الذي هو شيخ المالكية اليوم وكان شيخ الأزهر بالامس يشهد فيه للكتاب بأنه مفيد نافع

وتقريظا للشيخ محمد بخيت الحنفي المشهور يقول فيه « وبعد فقد أطلعت على كتاب مطمح الفصحاء بل مرتع البلغاء فوجدت من بحور الادب درر منظومة في سلوك الذهب تزري بقلائد العقيان في نحور الحسان كيف لا وقد حوى من النثر أغلاه ومن الشعر أعلاه فجزا (كذا) الله مؤلفه أحسن الجزاء واكثر من أمثاله النبلاء وجمل به وجه هذا الزمن ونفع بمؤلفه الأمة والوطن آمين »

وقد كان حظه من كبر الجرائد كحظه من أكابر العلماء فان جريدة المؤيد قرظته تقريظا جملته فيه منتهى البلاغة ... افيلام المنار بعد كله أن أطال القول فيه

﴿ نخب من مبتكرات مكسيم غوركي ﴾

مكسيم غوركي من كتاب الأمة الروسية قد اشتهر بما كتب من المقالات والرسائل في الاصلاح السياسي والاجتماعي وله أسلوب رشيق وكثيراً مايبرز المعاني في قوالب الوقائع. وقد اختار سليم أفندى قبعين - وهو من أدباء السوريين العارفين باللغة الروسية - أربع مقالات لهذا الكاتب وترجمها بالعربية وطبعها فبلغت صفحاتها ثمانين صفحة ونيفا. عنوان المقالة الأولى (الملك الرافع اللواء) وعنوان الثانية (أحد ملوك الجمهورية) وعنوان الثالثة (فرنسا الجميلة) وعنوان الرابعه (اليهود) وثمن هذه النخب ٣ قروش صحيحة

غرائب الاسرار - جاسوس الالزاس

غرائب الاسرار قصة مؤلفة من أجزاء ترجم الجزء الاول منها واسمه (جاسوس الالزاس) حسن أفندي موسى (ضابط بالاستيداع) فأما وقائع الجزء فهي تكاد تكون في غرابتها من الخوارق أو الشعوذة وفيها من الرموز والاسرار مايشوق النفس الى الجزء الثاني لتقف على حل تلك الرموز وكشف هاتيك الاسرار. وأما الترجمة فهي أقرب الى العامية منها الى العربية الصحيحة. وصفحات الجزء الذي طبع ١١٢ وثمنه خمسة قروش

﴿ الفضيلة والرذيلة ﴾

قصة أدبية غرامية من تأليف جورج أونيه أحد كتاب الفرنسيس وترجمها بالعربية محمد أفندي كرد علي منشئ مجلة المقتبس وأحد محرري المؤيد. وموضوعها علم الادب (الكتابة والشعر) والادباء في فرنسا فهي مساجلات ومنافسات بين نفر من الادباء والأديبات، وقلما تجد شيئاً من ذلك في الكتب المترجمة بالعربية فالقصة تفيدك مالا تكاد تعرفه من كتاب آخر في اخلاق الأدباء وعاداتهم ومكانة الأدب عندهم وتأثيره فيهم. وقد طبعت القصة بمطبعة الشعب وتطلب من مكتبتها وثمنها ١٥ قرشا

﴿ المجرم البريء ﴾

قصة فرنسية الاصل ترجمها محمد أفندي كرد علي لمجلة مسامرات الشعب وطبعت في أربعة أجزاء من أجزائها وهي على كونها قصة غرامية تشرح للقارئ مسألة شرعية قانونية من أهم المسائل وهي الاعتماد على القرائن القوية في إثبات الجنايات والحكم بمقتضاها والخلاف في ذلك معروف فمن لا يبيح الحكم بالقرائن يقول انها قد تكون قطعية في الظاهر وهي لا حقيقة لها في الواقع وهذه القصة تؤيد هذا القول فهي تمثل لك في أولها رجلا عدا على آخر في بيته فقتله وأخذ ما أخذ من ماله وكان المال قراطيس لا معدنا وقد رآه من داره وهو متلبس بقتل جاره كل من زوجه وبنته وخادمتها وكان ذلك ليلا والانوار في بيت القتيل متألقة ولما عاد الى داره وكان قد تأخر خلافا لعادته عاد شعثا مضطربا ولم يستطع الى النوم سبيلا ولما اتهم كان مما ظهر في التحقيق ان الاوراق المالية التي فقدت من القتيل وجدت في صندوقه وهو لم ينكر ذلك . والحق أنه لم يكن هو القاتل وان هذه القرائن والدلائل وغيرها مما لم نشر اليه كلها شبهات تشرح القصة حقيقتها بعد شرحها بالاسباب

﴿ محمد علي ﴾

قصة تاريخية غرامية في محمد علي باشا من أول نشأته الى أن استقر له أمر الحكم في مصر ألفت بالألمانية وترجمت بالانكليزية ثم ترجمها عن الانكليزية بالعربية نسيب أفندي المشعلاني بطلب ادارة الهلال وعلى نفقتها طبعت ومن مكتبتها تطلب . وقد سلك مؤلف القصة في بيان نشأة محمد علي مسلكا فلسفيا بين فيه أنه قد أوتي منذ صغره الاستعداد الفطري للرياسة وجاءت الحوادث مربية لهذا الاستعداد حتى بلغ منتهاه . والقصة في جملتها مفرغة في قالب مقبول ونسقها معقول غالبا يقل فيها الغلو المنتقد كزعم الانتقال من قرب دمنهور الى قرب الاهرام في صحراء الجيزة في ليلة أو بعض ليلة

﴿ الجامعة الاسلامية وأوربا ﴾

رسالة لرفيق بك العظم المشهور بمباحثه التاريخية والاجتماعية سننشر بعض فصولها في الجزء الآتي من المنار ان شاء الله تعالى

﴿ الامين والمأمون ﴾

هي الحلقة الحادية عشرة من سلسلة القصص الغرامية التاريخية التي يؤلفها جرجي أفندي زيدان وينشرها في الهلال «وتشتمل على ما قام بين الامين والمأمون من الخلاف بعد وفاة والدهما الرشيد وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد وقتلوا الامين وأعادوا الخلافة الى ابن اختهم (المأمون) ويتخلل ذلك وصف دخائل السياسة بين العرب والفرس وما يقتضي المقام ذكره من الآداب الاجتماعية والعادات والاخلاق» . ومما يشرحه فيها ان الفرس كانوا متعصبين بالعصبية الجنسية متعمدين إزالة الملك من العرب وجعله فيهم وإقامة خليفة من العلويين يكون آلة دينية في أيديهم وان الكثيرين منهم كانوا يظهرون الاسلام ويخفون المجوسية ليتمكنوا من مخادعة المسلمين عربهم وفرسهم . فذكرنا هذا بالعصبية الجنسية التي محاها الاسلام وأماتها فأحياها بعض المنافقين فكان من شرها ما كان ويريد إحياءها في هذا العصر بمصر باسم الوطنية بعض المفتونين بالشهرة فنسأل الله ان يقي الاسلام والمسلمين شرها لأن التفريق في هذا العصر ينتهي بهلاك جميع المسلمين لا بتغلب جنس منهم على جنس آخر كما كان من قبل

﴿ رحلة ابن جبير البلنسي الاندلسي ﴾

نشرنا في هذا الجزء آثارة تاريخية من هذه الرحلة وسننقل غيرها وهي رحلة جليلة ذات فوائد جمة طبعها ثانية العالم المستشرق كوريج في هذا العام طبعا متقنا على ورق جيد وناهيك باتقان الافرنج وعنايتهم بالضبط وما يضعونه للكتب من فهارس الاعلام والمواضع التي تسهل المراجعة والاستفادة وأهدى الينا نسخة منها مجلدة تجليدا حسنا فنشكر له نشره آثار سلفنا وخدمته هو وأمثاله لغتنا

الصراط – مجلة جديدة تطبع في الاسكندرية وقد كتب عليها «مجلة أخلاقية أدبية علمية تاريخية تصدر في الشهر مرتين بمعرفة جمعية محامد الأخلاق بالاسكندرية . قيمة الاشتراك سنويا عشرة قروش صاغ ولتلامذة المدارس خمسة قروش» وهي قيمة قليلة وان كانت صفحات الجزء من المجلة لا تزيد على عشرين صفحة فنتمنى ان يكون هذا الصراط موصلا الى الفوائد النافعة

باب الأخبار والآراء

﴿ المسألة المراكشية وحرب الدار البيضاء ﴾

كتبنا في السنة الأولى للمنار نصيحة فيه لسلطان مراكش أنذرناه فيها بأن طوفان أوربا لابد أن يفيض على بلاده فيغمرها ان لم يبادر هو الى إصلاح شأنها بما تقتضيه حال العصر من التربية والتعليم لاسيما تعليم الفنون العسكرية والمالية. ثم كنا نعيد النصائح والنذر مرة بعد أخرى وآخر عهدنا بها ما كتبناه في أيام انعقاد مؤتمر الجزيرة من العام الماضي (١٠ : ١٠١ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) بالاسباب والمسببات وسنن الله تعالى في الامم وانما يعتمدون في دفع الضر وحفظ المصالح على الخوارق وكرامات الاولياء مع مادرجوا عليه من التقاليد والعادات لا يقبلون وراء ذلك إصلاحا ، ولا يبتغون بدونه فلاحا ، وقد سبق لنا بيان التجائهم الى قبر مولاي إدريس وجؤار أهل العلم الديني عنده بكلمة « يالطيف » ليدفعوا بذلك ماطالبته فرنسا من السلطان يومئذ فليرجع الى ذلك في المجلد الثامن من اراد

مرت الأيام والسنون وأهل هذه البلاد « يفتنون في كل عام مرة أو مرتين » أو مرات « ثم لايتوبون » من تفريطهم وغرورهم « ولاهم يذّكرون » ماحل بأمثالهم من الأمم والشعوب الجاهلية بحال هذا العصر ورقي أممه وما يجب من اعداد القوة لمدافعتها اذا عدت بحسب الاستطاعة وعلى قدر ماهي عليه من الاستعداد وكل ذلك مما يرشد اليه الاسلام ويفرضه بنص القرآن ولكن أين أولئك الجاهلون من الاسلام والقرآن وهم يعتقدون أن قراءة تفسيره تميت السلطان، وحياته عندهم أولى من احياء القرآن ، ثم ماذا تفيدهم قراءته اذا كانوا يعتقدون ان الاهتداء به من الاجتهاد الممنوع بحكم شيوخ التقليد الجامدين ، وان الدين لايؤخذ الا من كتب الفقهاء الميتين ، كما يفهمها أصحاب الجاه من الشيوخ الحاضرين ، وهم يرون ان العلوم

والفنون والصنائع التي بها تصنع آلات القوة كالبنادق (ويسمونها المكاحل) والمدافع والبوارج الحربية كلها محرمة لايجوز للمسلمين الاشتغال بها كما يرى و يعتقد ذلك أشباههم من أصحاب العمائم في أكثر بلاد المسلمين ، و بذلك أضاعوا الدنيا والدين ، وكانوا سبب هلاك المسلمين ،

مرت الأيام والسنون فدخلت (مسألة مراكش) أي مسألة محاولة أوربا استعمارها والاستيلاء عليها في طور جديد فقد اعتدى بعض المغاربة على العملة الأوربيين في مرفأ « الدار البيضاء » وهي من حواضر مملكة مراكش ففتح بذلك لفرنسا باب استعمال القوة في هذا الثغر فدخلت منه وذلك ماكانت تبغي

أصبحت فرنسا مع قبائل المغرب في حرب تعددت وقائعها فالقبائل تهاجم الدار البيضاء فتلاقيها العساكر الفرنسية بمدافعها ومن ورائها البوارج تساعدها بمدافعها فتمزق شمل القبائل وتنسفهم في الهواء نسفًا ولكن الفرنسيين قد دهشوا من شجاعة المغاربة واستبسالهم فسلطوا عليهم عسكرهم من مسلمي الجزائر لعلمهم بأنه لايفل الحديد الا الحديد وقد ترك المغاربة الهجوم الى حيث تنالهم مدافع البحر

مهما عظمت شجاعة المغاربة فإنها والجهل قائدها لاتكفي لحفظ استقلال البلاد ولا تدفع عنها ماتريد فرنسا منها فان الجهل لايغلب العلم والاختلال لا يعلو النظام فاذا كان أهل المغرب الاقصى أسوداً فان العقلاء من البشر قد عهد منهم التصرف في الاسود وحبسها في بلاد ماهي مواطنها وما عهد أن تعيش فيها وجعلها مع ذلك في مواضع النزهة يأنس برؤيتها حتى النساء والولدان . نعم ينتظر أن تتعب فرنسا في تذليلهم كما تعبت في الجزائر ولكن العاقبة للمتقين كما قال الله تعالى والتقوى تفسر في كل مقام بحسبه فهي تفسر في باب الحرب والصدام باتقاء أسباب الانكسار والخذلان ولاشك أن فرنسا هي المتقية مايجب اتقاؤه في هذا المقام بالتدبير التام واعداد ماتستطيع من قوة كما أمر الله تعالى

ومن التدبير الذي يتخذه العقلاء ولايدري به الجهلاء وهو من قبيل السيل يضرب جلمودا بجلمود ايقاع الشقاق بين زعماء في المغرب وما وقف ذلك عند حد الخارجين على السلطان والحمار بين له بل قامت طائفة عظيمة من الامة فبايعت

بالملك مولاي حفيظا (أو عبد الحفيظ) أخا السلطان عبد العزيز بفتوى من العلماء فصار في البلاد سلطانان سيحارب كل منها الآخر فيكفون فرنسا شر قوة البلاد

يظن كثير من الناس أن السلطان عبد العزيز سيلجأ الى فرنسا لتحفظ له سلطانه وتكفيه شر أخيه كما لجأ توفيق باشا الى انكلترا في إبان الثورة العرابية وبذلك تحتل فرنسا بلاد مراكش احتلالا رسميا يسمى موقتا وتعمل عملها فيها باسم السلطان كما تحكم تونس باسم الباي وهذه هي الطريقة التي استقر عليها رأي ساسة أوربا في استعمار بلاد المسلمين لان حكمهم باسم أمرائهم وملوكهم أقرب الى السلام وأبعد عن النزاع والخصام

انه ليحزننا أن نرى مملكة اسلامية في الشقاء الذي أحاط بمملكة مراكش ولا يسرنا أن تبقى على ماهي عليه أو على ما كانت عليه اذا كان ما انتابها الآن مبدأ للانتقال من حال الى حال

وانه ليحزننا أن يكون انتقالها بقوة الاجانب لا بتدبير رجالها وحكمتهم ولكننا لانرى منفذا لخيط من خيوط أشعة الرجاء في أولئك الرجال الجهلاء فطالما نصحنا لهم وأنذرناهم البطشة الكبرى (٥٤ : ٣٦ فتماروا بالنذر) بل كان مثلنا ومثل سائر الناصحين معهم (٢ : ١٧١ كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون)

ان أهل العقل والعلم من طلاب الإصلاح للمسلمين تتمنى قلوبهم لو يدوم لسلطنة مراكش استقلالها ويتحول طوفان أوربا عنها حتى يكون اصلاح حالها من نفسها ولو بعد حين ولكن عقولهم تحكم بأن هذا شيء لامطمع فيه وتدرك ان من العدالة العامة في الاكوان ومن سنن المبدع في اجتماع الانسان أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق (راجع سورة الانبياء ٢١ : ١٨) وأن الارض يرثها عباد الله الصالحون أي لعمارتها (راجع آية ١٠٥ من السورة المذكورة) ولا شك أن العلم بالنظام و بطرق العمران وتأمين السكان من الحق وهو مما يقوم به الاوربيون وان ما عليه المغاربة من ضد ذلك هو من الباطل . وان الاوربيين يعدون بالنسبة الى المغاربة من الصالحين لاستعمار الارض الذي امتن الله علينا به كما قال تعالى

(١١ : ٦١ هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها) فكان الكتاب العزيز مؤيدا حكم العقل في وجوب زوال استقلال المغاربة وكل دولة لا تحسن الاستعمار ولا تقيم النظام الا أن تتوب وتقيم الميزان بعد الاستعداد له بما تقتضيه حال الزمان . ولا يظهر صدق الآية الكريمة في أرث الارض الا بهذا التفسير وانا فيه سلف صالح فهو منقول لامخترع

إن حكم الفرقان والقرآن بأن دول العلم والنظام والاستعمار هي التي تسود على دول الجهل والخلل والافساد في الارض هو الذي يخفف من ألم حسرة العقلاء على زوال استقلال دول المسلمين ولا أقول دول الاسلام فان من يقضي القرآن بزوال دولته لا تكون دولته اسلامية ولكن قد تكون مسلمية و بهذا نبرىء الاسلام بحق من مناقضة أصول العمران العلمي ونجعل ذلك على أعناق المسلمين

﴿ غرور متعلمي اللغات الاوربية ﴾

ان أصحاب العقول الصغيرة من متعلمي اللغات الاوربية يتخيلون ان كل من تلقف لغة منها صار من العلماء الاعلام والحكماء المرشدين للأنام ولكن هؤلاء المتعلمين يعدون بالألوف ولا نكاد نجد واحدا منهم في الألف يفيد أمته بكتاب يفضل به غير العارفين بهذه اللغات وانا نرى أكثر ما يكتب كاتبوهم في الجرائد أو غيرها في منتهى السخف وضعف الفكر والسبب في هذا أن اللغة الاوربية وسيلة للعلم وليست هي عين العلم ولا عين العقل الذي لاعلم بدونه ولا فهم

اذا وجد في متعلمي هذه اللغات أفراد كفتحي باشا زغلول وقاسم بك أمين لهم آثار في الترجمة والتصنيف تدل على أنهم استفادوا من اللغة الأوربية علما وبصيرة فانه يوجد فيهم ألوف لم يستفيدوا الا الغرور والتبجح والدعوى ومنهم من أضاع ثروته الموروثة وأهان نفسه وذوي قرابته بسوء سيرته وما كانت اللغة الاجنبية التي يعرفها الا عونا له على اضاعة ماله وشرفه ثم هو يفاخر باللغة وعلومها ويحتقر علوم العربية من دينية وغيرها ويحط من قدر أهلها

للاستاذ الامام آثار جليلة كتبها قبل ان يتعلم اللغة الفرنسية كمقالات الوقائع المصرية ومقالات العروة الوثقى وقد كان ما يكتبه بعد تعلم هذه اللغة أدل على

كثرة الاطلاع والسعة في العلم ولكن هل يوجد في هؤلاء الألوف من المتعلمين من يستطيع أن يكتب مثل تلك المقالات التي كان العالم يهتز لها حتى ان انكلترا ذات الحرية الواسعة منعت العروة الوثقى من مصر والهند . ولا غرو فان العقول التي وسعت دائرة العلوم باللغات الأوربية حتى صارت هذه اللغات تتعلم لأجل ذلك يوجد مثلها في الأمة العربية وفي غيرها من الأمم . وقد كان السيد الكواكبي غير عارف باللغات الأوربية ولكن ما كتبه في الاستبداد لا يوجد في فلاسفة أوربا كثيرون يكتبون أحسن منه أو مثله بله الذين يعرفون لغات أوربا وليس لهم من علومها سهم يعتد به .

وما لي لا أضرب لهؤلاء المغرورين الأمثال الا بمن ماتوا فهذا رفيق بك العظم فليأتونا بكثير من مثله من متعلمي اللغات الأوربية . وهذا صاحب جريدة المؤيد لا يختلف عاقلان في تفضيل ما يكتبه وهو لا يعرف لغة أجنبية على ما يكتب صاحب جريدة اللواء العارف باللغة الفرنسية

فليخفض المغرورون برطانة اللغة الاجنبية من غرورهم فان الناس تتفاضل بالعقول لا باللغات فذو العقل الكبير قد يقتبس العلم من الوجود كما اقتبسه جميع الفلاسفة وان للعاقل الشرقي من موارد العلم الغربي كتباً كثيرة ومجلات مترجمة يستفيد منها مالا يستطيع صاحب العقل الصغير ان يستفيده من ينابيعها وأصولها . نعم ان صاحب العقل الكبير اذا اطلع على تلك الأصول يكون أوسع علماً منه قبل الاطلاع عليها وان الأمم الشرقية لا تستغني عن طائفة من الأذكياء ينفرون لاقتباس تلك العلوم من لغاتها ونقلها الى قومهم كما أنها لا تستغني عن طائفة يحيون لغتها وعلومها الدينية والأدبية والتاريخية ولا يجوز تفضيل أفراد إحدى الطائفتين على الأخرى لان كلا منهما يخدم الأمة بما لا بد لها منه فان جاز التفاضل كان تفضيل من يشتغل لإحياء الأمة بمقوماتها الاصلية من اللغة والدين والعلوم على من يجلب لها علوماً من غيرها أظهر لان فقد العلوم الاجنبية عنها نقص وفقد مقوماتها الذاتية موت وفناء

فهل بقي بعد هذا البيان من عذر لبعض الأغرار المفتونين بما لقفوا من العلم الناقص بلغة أجنبية في تنقيص العلماء بدينهم ولغتهم وتاريخهم اذا كانوا لا يرطنون معهم بتلك اللغة

على ان وراء العلم الذي تعد اللغات وسائل له أمراً آخر هو مناط الافادة بالعلم لمن يحصله وهو مكارم الأخلاق كالصدق والاخلاص والاستقلال والعزيمة والشجاعة والعفة وغير ذلك من الفضائل فاذا أغضينا عن الذين يتعلمون بعض لغات العلم ولا يستفيدون من العلم نفسه الاحثالة من قشوره ونظرنا في حال الذين يقال انهم أوتوا نصيباً من العلوم نجد الكثيرين منهم قد شغلتهم شهواتهم وأهواؤهم عن بث ما استفادوا في قومهم وعن الاستزادة منه وعن العمل به على الوجه النافع فالعلم لأمثال هولاء كالسيف في يد المجنون يخشى ضره ولا يرجى نفعه للأمة

﴿ حياة المعارف في مصر ﴾

دخلت المعارف بمصر في حياة جديدة على عهد سعد باشا زغلول فأسس مدرسة القضاء الشرعي التي وضع مشروعها الاستاذ الامام وستفتح أبوابها للطالبين الذين نجحوا في الامتحان في الشهر الآتي وهذه أعظم خدمة للاسلام في هذا العصر وأعاد التعليم المجاني وجعل من المزايا لمن يتعلمون فن التعليم ما يرغبهم فيه ككونهم يتعلمون مجانا و ينقدون في المدرسة ومنهم من يأخذ مرتبا شهريا وهم أصحاب القسم الثاني من تلاميذ مدرسة المعلمين الخديوية وأرسل البعوث الى أوربا لتلقي العلوم العالية في انكلترا و بثها في البلاد بعد عودتهم فائزين ان شاء الله تعالى وهذه البعوث أكثرها من الذكور و بعضها من الاناث وقد انتقد ارسال بعض البنات الى أوربا من اتخذوا تقبيح أعمال الحكومة دلائل على حبهم للوطن وأهله لعلمهم أن السواد الاعظم لا يزال من الجهلة الذين يعدون تعليم البنات من المنكرات فهم يحتجون على قبح ارسال البنات الى أوربا بكونه مخالفاً لرأي الامة ولو أن الحكومة اتبعت رأي الامة من عهد محمد علي الى اليوم لما تعلم أحد من أبنائها ولا بناتها كلمة في غير تلك الكتاتيب القديمة والازهر

ان جميع عقلاء الامة العارفين بما ينفعها و يضرها متفقون على ان تعليم البنات ركن من أركان الحياة أو شرط لحصولها أو كمالها نعم انهم يختلفون في قدر ما ينبغي أن تتعلمه البنات، ورأي كثير من المعتدلين أن التعليم الابتدائي كاف لهن وانه لا حاجة أولا ضرورة الى تعليمهن لغة أجنبية . ولكن هذا الرأي خاص بالتعليم العام وهو لا يعارض وجوب تمييز من تتعلم لتكون معلمة في المدارس على سائر

المتعلمات فان من لا يتجاوز علمها ما يلقى في المدارس الابتدائية لا تصلح أن تكون معلمة فيها. ثم اننا مادمنا عالة على الافرنج في علومنا ومدنيتنا ومادام أمر حكومتنا ومنها ادارة معارفنا في أيديهم أو تحت اشرافهم فلا بد لنا من معلمين ومعلمات من أهل العلم الاوربي الذين يتلقونه من معدنه عن أهله بلغته حتى لا تقوم علينا حجة القوم بأنه ليس فينا أكفاء يتولون التعليم لاسيما تعليم البنات . فارسال بعض البنات اللواتي يرغبن هن وأولياؤهن بأن يكن معلمات في المدارس الى أوربا لتلقي العلوم فيها هو الوسيلة الى اغناء نظارة المعارف عن المعلمات الاوربيات لا وسيلة سواها و ينبغي أن يختزن من البيوت التي حسنت تربيتها بالدين والأدب

على أن الامة اذا سرت فيها الحياة المعنوية سريانا تاما فانه لابد أن يوجد فيها من البنات من ينهض بهن استعدادهن الى تلقي العلوم العالية وليس من اعتدال المعتدلين أن يمنع هؤلاء من ذلك بعد العلم بصدق الرغبة وقوة الاستعداد فقد كان في الامة الاسلامية أيام حياتها الاولى كثيرات من المشتغلات بالعلوم الكمالية التي هي من فروض الكفايات التي لا يقوم بها الا بعض الرجال حتى رواية الحديث بالاسانيد والتصدي للتحديث

خطبة الشيخ محمد شاكر وتنديده بلورد كرومر

أرسل الينا الشيخ محمد شاكر شيخ علماء الاسكندرية خطبته التي قرأها في مجمع الاحتفال بتوزيع المكافآت على نجباء الطلبة فاذا هو قد اقتبس في فاتحتها من بعض آيات الجهاد واذلال الله الجبابرة للمجاهدين و إيراثهم أرضهم وديارهم حتى كأنها خطبة قائد جيش فتح أو يحاول فتح الممالك وقد بينا رأينا في الخطبة من خمس جهات — كونها من عالم رسمي وكونها من رجل يعد من بطانة الأمير والمقربين منه وكون التنديد بكلام لورد كرومر تأخر عن وقت الحاجة وكونه جاء بعد تصريح اللورد بأنه لم يرد فيما كتبه عن مبادي الجامعة الاسلامية الدين الاسلامي نفسه فهذه أربع والخامسة قيمة كلام الخطبة في نفسه وهل يصلح دفعا للشبهات التي تضمنها كلام اللورد على الفقه الاسلامي كما قال أو على الاسلام كما يريد الشيخ شاكر وأمثاله ؟ ولكن هذا الجزء لم يتسع لما كتبناه فاشرنا اليه بهذه الكلمات

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر شعبان سنة ١٣٢٥ — آخره الاثنين ٨ أكتوبر (ت ١) سنة ١٩٠٧

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

أخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال كانت الأوس والخزرج في الجاهلية بينهما شر فبينما هم جلوس ذكروا ما (كان) بينهم حتى غضبوا وقام بعضهم الى بعض بالسلاح فنزلت « وكيف تكفرون » الآية والآيتان بعدها. وأخرج ابن اسحق وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مرّ شاس بن قيس وكان يهوديا على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون فغاظه ما رأى من تألفهم بعد العداوة فأمر شابا معه من يهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم بعاث ففعل فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان أوس بن قرظي من الأوس وجبار بن صخر من الخزرج فتقاولا وغضب الفريقان وتواثبوا للقتال فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم فسمعوا وأطاعوا فأنزل الله في أوس وجبار « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » الآية وفي شاس بن قيس « يا أهل الكتاب لم تصدون » الآية: انتهى من لباب النقول للسيوطي

وأخرجه ابن جرير في التفسير مفصلا عن زيد بن أسلم قال مرّ شاس بن أقيس وكان شيخا قد عتا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذي كان منهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد والله مالنا معهم اذا اجتمع ملأهم بها من قرار: فأمر فتى شابا من اليهود — وكان معه — فقال: اعمد اليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الاشعار: وكان يوم بعاث يوما اقتتلت به الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب — أوس بن قيظى أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: ان شئتم والله رددناها الآن جذعة: وغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة: — والظاهرة الحرة — فخرجوا اليها وتحاور الناس فانضمت الأوس بعضها الى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين الله الله، أتدعون بدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله الى الاسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بينكم ترجعون الى ما كنتم عليه كفارا» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع: قال ابن جرير فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع «يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله» الى آخر الآيتين السابقتين قال وأنزل الله عز وجل في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما «يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا

الكتاب» الى قوله «لعلكم تهتدون» وأورد صاحب الكشاف الرواية مختصرة وقال في آخرها: فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم: — فعلى هذا تكون الآيتان السابقتان متصلتين بالآيات الآتية

(١٠٠ : ٩٥) يَاءَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠١:٩٦) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠٢ : ٩٧) يَاءَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٣:٩٨) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

قال الاستاذ الامام إن صح ما ورد في سبب نزول هذه الآيات فالمراد بالكفر في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ هو العداوة والبغضاء التي كان الكفر سببها كما أن المراد بالإيمان على هذا هو الألفة والمحبة التي هي ثمرة يانعة من ثمرات الإيمان وإذا لم ننظر الى ما ورد من السبب فالمعنى أن أهل الكتاب قد سلكوا سبل التأويل في الكتاب فحرفوه وانصرفوا عن هدايته الى تقاليد وضعوها لأنفسهم فاذا أطعتموهم وسلكتم مسالكهم فانكم تكفرون بعد إيمانكم

أقول ويجوز أن يراد بالكفر على الوجه الاول حقيقته كأنه يقول إنكم اذا أصغيتم الى ما يلقيه هؤلاء اليهود من مثيرات الفتن واستجبتم لما يدعونكم

اليه فكنتم طائعين لهم فإنهم لا يقنعون منكم بالعود الى ما كنتم عليه من العداوة والبغضاء بل يتجاوزون الى ما وراء ذلك وهو أن يردوكم الى الكفر. ويؤيد هذا قوله تعالى (٢ : ١٠٩ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسدا من عند أنفسهم) الآية وقوله في هذه السورة (٣ : ٦٨ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) ولا يمنع الانسان من إتيان ما يود الاعجزه. واذا كان هذا جائزا وهو الظاهر على الوجه الأول فهو متعين على الوجه الثاني.

أما اتصال الآية بما قبلها على هذا فظاهر جليّ فإنه بعد ما وبخ أهل الكتاب على كفرهم وصدهم عن سبيل الله وهو الإسلام إثر إقامة الحجج عليهم وازالة شبهاتهم ناسب أن يخاطب المؤمنين مبينا لهم أن من كان هذا شأنهم في الكفر وهذا شأن مادعوا اليه في ظهور حقيقته لا ينبغي أن يطاعوا ولا أن يسمع لهم قول فإنهم دعاة الفتنة ورواد الكفر ولذلك قال ﴿ وكيف تكفرون ﴾ بطاعتهم واتباع أهوائهم ﴿ وأنتم تتلى عليكم آيات الله ﴾ وهي روح الهداية وحفاظ الإيمان ﴿ وفيكم رسوله ﴾ يبين لكم مانزل اليكم ولكم في سنته وإخلاصه خير أسوة تغذي إيمانكم وتنير برهانكم فهل يليق بمن أوتوا هذه الآيات ووجد فيهم هذا الرسول الحكيم الرؤف الرحيم أن يتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا حتي استحوذ عليهم الشيطان، وغلب عليهم البغي والعدوان، وعرفوا بالكذب والبهتان؟ فالاستفهام في الآية للإنكار والاستبعاد ﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ وبكتابه يكون الاعتصام إذ هو حبله الممدود، ورسوله هو الوسيلة اليه وهو ورده المورود، ﴿ فقد هدي الى صراط مستقيم ﴾ لا يضل فيه السالك، ولا يخشى عليه من المهالك، فلا تروج عنده الشبهات، ولا تروق في عينه الترهات، وقد جاء جواب الشرط بصيغة الماضي المحقق للإشعار بأن من يلتجئ اليه تعالى ويعتصم بحبله فقد تحققت هدايته وثبتت استقامته.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ أي واجب تقواه وما يحق منها كما في الكشاف قال: ومثله قوله تعالى (٦٤: ١٦ فاتقوا الله ما استطعتم) أي

بالغوا في التقوي حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئا: اه هذا ما فسر به العبارتين في الآيتين بحسب ذوقه السليم وفهمه الدقيق ثم نقل بعض ماورد فيهما وما قاله هو المتبادر ومعنى العبارتين عليه واحد. ومن الناس من فهم ان الآيتين متعارضتان حتى زعموا أن الثانية نسخت الأولى ورووا ذلك عن ابن مسعود موقوفا ومرفوعا فقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أن معنى تقوى الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير قال انها لما نزلت اشتد على القوم العمل فقاموا (في صلاة الليل) حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تخفيفا عليهم «فاتقوا الله ما استطعتم» فنسخت الآية الأولى. كذا في روح المعاني وروى ذلك ابن جرير النسخ عن قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد وروى عدم نسخها عن ابن عباس وطاوس وأن ابن عباس فسرها بأن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. أي فهي بمعنى الآيات التي تقرر هذه الأمور الثلاثة وهي مما لم يقل أحد بنسخها. أقول واذا كانت الرواية بالنسخ ضعيفة بحسب الصناعة فهي في اعتقادي موضوعة ممن لم يفهم الآية. ولو كان معناها ما رووا عن ابن مسعود رضي الله عنه لكانت من تكليف ما لا يطاق وهو ممنوع وبه أخذ الاستاذ الامام في منع النسخ

أما قوله تعالى ﴿ ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ﴾ فمعناه على المختار عند الاستاذ الامام استمروا على الاسلام وحافظوا على أعماله حتى الموت. فالمراد بالاسلام على هذا هو الدين ايمانه وعمله ووجه الاختيار انه جاء في مقابلة قوله «يردوكم بعد ايمانكم كافرين» وبعد الأمر بالتقوى حق التقوى. وقيل ان المراد به الاخلاص وقيل الإيمان دون العمل لأنه هو الذي يستمر الى الموت. أقول وهذا النهي مبني على قاعدة أن المرء يموت غالبا على ما عاش عليه فاذا عاش على اليقين والتقوى حق التقوى والاحتراس مما ينافي الاسلام مات على ذلك بفضل الله الذي كانت تلك القاعدة من سننه في خلقه

ثم بين لنا عز وجل ما به يتحقق ذلك الأمر والنهي فقال ﴿ واعتصموا بحبل

الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ حبل الله هو القرآن كما ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود وروى ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً « كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء الى الأرض » علم عليه في الجامع الصغير بالحسن . وروى الديلمي من حديث زيد بن أرقم « حبل الله هو القرآن » وقيل هو الطاعة والجماعة وروي عن ابن مسعود وقيل انه الاسلام وروي عن ابن عباس . وقالوا ان العبارة استعارة تمثيلية شبهت فيها حالة المسلمين في اهتدائهم بكتاب الله أو في اجتماعهم وتعاضدهم وتكاتفهم بحالة استمساك المتدلي من مكان عال بحبل متين يأمن معه من السقوط . وصور الاستاذ الامام التمثيل بما هو أظهر من هذا قال ما معناه الأشبه أن تكون العبارة تمثيلا كأن الدين في سلطانه على النفوس واستيلائه على الارادات وما يترتب على ذلك من جريان الاعمال على حسب هديه حبل متين يأخذ به الآخذ فيأمن السقوط كأن الآخذين به قوم على نشز من الأرض يخشى عليهم السقوط منه فأخذوا بحبل موثق جمعوا به قوتهم فامتنعوا من السقوط .

وأقول ان المختار هو ما ورد في الحديث المرفوع من تفسير حبل الله بكتابه ومن اعتصم به كان آخذا بالاسلام ولا يظهر تفسيره بالجماعة والاجتماع وانما الاجتماع هو نفس الاعتصام فهو يوجب علينا أن نجعل اجتماعنا ووحدتنا بكتابه عليه نجتمع ، و به نتحد ، لا بجنسيات نتبعها ، ولا بمذاهب نبتدعها ، ولا بمواضعات نضعها ، ولا بسياسيات نخترعها ، ثم نهانا عن التفرق والانفصام ، بعد هذا الاجتماع والاعتصام ، لما في التفرق من زوال الوحدة ، التي هي معقد العزة والقوة ، و بالعزة يعتز الحق فيعلو في العالمين ، و بالقوة يحفظ هو وأهله من هجمات المواثبين وكيد الكائدين ، فهذا الأمر والنهي في معنى الامر والنهي في قوله تعالى (٦ : ١٥٢ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فحبل الله هو صراطه وسبيله وما أشرنا اليه هنا من بيان أنواع التفرق هو السبل التي نهى عن اتباعها في تلك الآية وهي قد نزلت قبل هذه التي نفسرها لأنها في سورة الانعام وهي مكية وسورة آل عمران مدنية فكأنه قال ولا تتفرقوا باتباع السبل غير سبيل الله الذي هو كتابه . فمن تلك السبل المفرقة إحداث المذاهب والشيع

في الدين كما قال (٦ : ١٥٩ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) ومنها عصبية الجنسية الجاهلية وهي التي نزلت الآية التي نفسرها وما معها فيها لما كان بين الأوس والخزرج ما كان كما تقدم . وورد في النهي عنها أحاديث كثيرة صحاح وحسان كقوله صلى الله عليه وسلم « أبغض الناس الى الله ثلاثة ملحد في الحرم ومبتغ في الاسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق ليهريق دمه » رواه البخاري من حديث ابن عباس ، وقوله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية » رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم .

وقد اعتصم في هذا العصر أهل أوربا بالعصبية الجنسية كما كانت العرب في الجاهلية فسرى سم ذلك الى كثير من متفرنجة المسلمين فحاول بعضهم أن يجعلوا في المسلمين جنسيات وطنية لتعذر الجنسية النسبية ويوجد في مصر من يدعو الى هذه العصبية الجاهلية (*) مخادعين للناس بأنهم بذلك ينهضون بالوطن و يعلون شأنه وليس الأمر كذلك فإن حياة الوطن وارتقاءه باتحاد كل المقيمين فيه على إحيائه لا في تفرقهم و وقوع العداوة والبغضاء بينهم لاسيما المتحدين منهم في اللغة والدين أو أحدهما فان هذا من مقدمات الخراب والدمار ، لا من وسائل التقدم والعمران ، فالاسلام يأمر باتحاد واتفاق كل قوم تضمهم أرض وتحكمهم الشريعة على الخير والمصلحة فيها وان اختلفت أديانهم وأجناسهم و يأمر مع ذلك باتفاق أوسع وهو الاعتصام بحبل الله بين جميع الاقوام والاجناس لتتحقق بذلك الأخوة في الله ولذلك قال بعد الأمر بالاعتصام والاجتماع والنهي عن التفرق :

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ يشير الى ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من أخوة الايمان التي بها قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم وبها كانوا يؤثر بعضهم بعضاً بالشيء على نفسه وهو في خصاصة وحاجة شديدة الى ذلك الشيء بعد ما كان

(*) بينا في المنار فساد هذه الدعوة ومنابذتها للاسلام مرارا كثيرة آخرها ماتقدم في الجزء السادس (ج ٦ م ١٠) في الرد على فريد أفندي وجدي وفي الجزء السابع بعده في الكلام على جريدة اللواء وصاحبها

بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء ماهو معروف في جملته للجماهير وفي تفاصيله الغريبة للمطلعين على أخبارهم المروية والمدونة ومنها ان الحروب تطاولت بين الأوس والخزرج مئة وعشرين سنة حتى أطفأها الاسلام ، وألف الله بين قلوبهم برسوله عليه الصلاة والسلام ، فهذا بعض ما أفادهم الاسلام في حياتهم الدنيا، وقد أنقذهم فيما يستقبلون من أمر الآخرة مما هو شر ، وأدهى وأمر، وذلك قوله عز وجل

﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ أي كنتم بوثنيتكم وشرككم بالله تعالى وما يتبعه من الخرافات والمفاسد التي أطفأت نور الفطرة وهبطت بالأرواح الى درك سافل حتى كانت كأنها على طرف حفرة يوشك أن تنهار بها في النار فشفا الحفرة أو البئر طرفها و يضرب به المثل في القرب من الهلاك قال الراغب ومنه أشفى على الهلاك أي حصل على شفاه وليس بين المشرك و بين الهلاك في النار الا الموت والموت أقرب غائب ينتظر . فما أعظم منة الله تعالى على المؤمنين الصادقين لا سيما الأولين الذين خوطبوا بهذه الآية أولا أن أخرجهم بالاسلام من الشرك ومخازيه وشقائه وألف بينهم حتى صاروا بهذه الألفة أسعد الناس ثم صاروا سادات الأرض وانقذهم بذلك من النار فكانوا به سعداء الدارين والفائزين بالحسنيين أفليس أول واجب من شكر هذه النعمة التي لا تفضلها نعمة أن يعرضوا عن وساوس ودسائس أولئك المغرورين بسلفهم من الأنبياء وهم ليسوا على شيء من هدايتهم ؟ بلى فقد وضح الحق وبطل الافك .

قال الاستاذ الامام انظر آية الله ، قوم متخالفون بين العداوات والاحن يتربص كل واحد بالآخر الهلكة على يده فيأتي الله بهذه الهداية فيجمعهم و يزيل كل ما في نفوسهم من التنافر ويجعلهم إخوانا ترجع أهواؤهم كلها الى شيء واحد لا يختلفون فيه وهو حكم الله ولذلك قال ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ أي ليعدكم ويؤهلكم بها للاهتداء الدائم المستمر فلا تعودوا الى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان .

ثم قال التفرق والاختلاف قسمان قسم لا يمكن أن يسلم منه البشر فالنهي

عنه من قبيل تكليف ما لا يستطاع وليس بمراد في الآيات ، وقسم يمكن الاحتراس منه وهو المراد بها . اما الاول فهو الخلاف في الفهم والرأي ولا مفر منه لأنه مما فطر عليه البشر كما قال تعالى (١١ : ١١٨ ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فاستواء الناس في العقول والافهام مما لا سبيل اليه ولا مطمع فيه اذ هو من قبيل الحب والبغض فالأخوة الاشقاء في البيت الواحد تختلف افهامهم في الشيء كما تختلف حبهم له وميلهم اليه . وأما الثاني — وهو ما جاءت الأديان لمحوه فهو تحكيم الاهواء في الدين والاحكام وهو أشد الاشياء ضررا في البشر لأنه يطمس أعلام الهداية التي يلجأ اليها في إزالة المضار التي في النوع الأول من الخلاف

أما كون القسم الأول غير ضار فهو ما يعرفه كل أحد من نفسه ذكر ذلك الاستاذ الامام وضرب له المثل بنفسه فقال ما مثاله : إن بيني و بين بعض أصحابي الصادقين في محبتي وارادة الخير لي خلافا في إلقاء هذا الدرس هنا فأنا أعتقد أن إلقاء درس التفسير في الازهر عمل واجب علي وخير لي لا أشك في هذا كما انني لا أشك في هذا الضوء الذي امامي ، و يوجد من أصحابي من يعتقد ان ترك هذا الدرس خير لي من قراءته و يحاجونني في ذلك قائلين ان تأخري لأجل الدرس الى الليل ضار بصحتي وانه مثير لحسد الحاسدين لي ودافع لهم الى الكيد والايذاء وان الدرس نفسه عقيم لأن أكثر الذين يسمعونه لا يفقهون ما أقول ولا يفهمون ومن فهم لا يرجى ان يعمل به لغلبة فساد الاخلاق . هذه حجة بعض أصحابي في مخالفة رأيي واعتقادي يصرحون لي بها ومع ذلك ألقاهم و يلقونني لم ينقص ذلك من مودتنا شيئا فضلا عن ان يكون مثارا للعداوة والبغضاء بيننا فانا أعذرهم في رأيهم مع اعتقادي بإخلاصهم وهم يعذرونني كذلك . والنفرض أن الخلاف بيننا في مسألة دينية كأن أعتقد أنا ان فعل كذا حرام وهم يعتقدون حلا أكان يكون بيننا تفرق لأجله ؟ كلا لا ريب عندي انه لا فرق بين الخلافين واننا نبقى على هذا الخلاف أصدقاء

ثم قال ما مثاله مبسوطا : كذلك كان الخلاف بين علماء السلف وأئمة الفقهاء فمالك قد نشأ في المدينة ورأى ما كان عليه أهلها من حسن الحال وسلامة القلوب

فقال ان عمل أهل المدينة أصل من أصولي لأنهم على حسن حالهم وقرب عهدهم بالنبي وأصحابه لا يتفقون على غير ما مضت عليه السنة عملا. وأما أبو حنيفة فنشأ في العراق وأهلها كما اشتهر عنهم أهل شقاق ونفاق فهو معذور اذا لم يحتج بعملهم ولا بعمل غيرهم قياسا عليهم، ولو اجتمعا لعذر كل منهما الآخر لأنه بذل جهده في استبانة الحق مع الاخلاص لله تعالى وارادة الخير والطاعة. وقد نقل عن الائمة ان كل واحد كان يعذر الآخرين فيما خالفوه فيه ولكن تنكب هذه الطريقة طوائف جاءت بعدهم تقلدهم فيما نقل من مذاهبهم لافي سيرتهم حتى صار الهوى هو الحاكم في الدين وصار المسلمون شيعا يتعصب كل فريق الى رأي من مسائل الخلاف ويعادي الآخر اذا خالفه فيه وكان من جراء ذلك ما هو مدون في التاريخ. وما ذلك الا لأن الحق لم يكن هو مطلوب هؤلاء المتعصبين والا فبالله كيف يصدق ان يكون الامام الشافعي مثلا مصيبا في كل ما خالف فيه غيره؟ واذا كان الصواب في بعض المسائل الاجتهادية مع غيره فكيف يعقل ان يمر أكثر من ألف سنة على فقهاء مذهبه ولا يظهر لهم شيء من ذلك فيرجعوا عن قوله الى ما ظهر لهم انه الصواب من مذهب غيره كأبي حنيفة أومالك. وهذا ما يقال في أتباع كل مذهب

هذا النوع من الخلاف هو الذي ذلت به الامم بعد عزها وهوت بعد رفعتها وضعفت بعد قوتها — هو الافتراق في الدين وذهاب أهله مذاهب تجعلهم شيعا تتحكم فيهم الأهواء كما حصل من الفرق الاسلامية، لا يكاد أحدهم يعلم أن الآخر خالفه في رأي الا و يبادر الى الرد عليه بالتأليف و بذل الجهد في تضليله وتفنيد مذهبه ويقابله الآخر بمثل ذلك لا يحاول أحد منهم محادثة الآخر والاطلاع على دلائله ووزنها بميزان الانصاف والعدل فالواجب أولا محاولة التفهم والإفهام في البحث والمذاكرة (أي ولو كتابة) وثانيا أن لا يكون الخلاف مفرقا بين المختلفين في الدين (قال) فما دام المسلم لا يخل بنصوص كتاب الله ولا باحترام الرسول صلى الله عليه وسلم فهو على اسلامه لا يكفر ولا يخرج من جماعة المسلمين فاذا تحكم الهوى فلعن بعضهم بعضا وكفر بعضهم بعضا فقد باء بها من قالها كما ورد في الحديث

ثم قال ومثل الاختلاف في الدين الاختلاف في المعاملة لا يجوز أن يكون مفرقا

بين المؤمنين بل يرجعون في النزاع الى حكم الله وأهل الذكر منهم : يعني أولي الأمر وهم أهل العلم والرأي في مصالح الأمة فاذا امتثلنا أمر الله ونهيه فاتقينا الخلاف الذي لنا عنه مندوحة وحكمنا كتاب الله ومن أمر الله بالرجوع اليهم في مسائل النزاع فيما نتنازع فيه أمنا من غائلة الخلاف وكنا من المهتدين

ويدخل في كلمة المعاملة التي ذكرها الاستاذ الامام كل ما يتعلق بالمصالح العامة من المسائل السياسية والمدنية فالمرجع فيها كلها الى هدي الكتاب العزيز وسنة الرسول ورأي أولي الامر. وقد وسعنا القول في مسائل الخلاف من قبل وذكرنا وجه الخروج منه فارجع الى ذلك في تفسير «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» الآية

{١٠٤ : ١٠٠} وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٥ : ١٠١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦ : ١٠٢) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ : أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٧ : ١٠٣) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

قال الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ما مثاله : ان الله تعالى قد وضع لنا بفضله ورحمته قاعدة نرجع اليها عند تفرق الاهواء واختلاف الآراء وهي الاعتصام بحبله ولذلك نهانا عن التفرق بعد الامر بالاعتصام الذي قلنا في تفسيره انه تمثيل لجمع أهوائهم وضبط اراداتهم. ومن القواعد المسلمة انه لا تقوم لقوم قائمة الا اذا كان لهم جامعة تضمهم ووحدة تجمعهم وتربط بعضهم ببعض فيكونون بذلك أمة حية كأنها جسد واحد كما ورد في حديث «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»

(رواه أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير) وحديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أبي موسى) فاذا كانت الجامعة الموحدة للأمة هي مصدر حياتها سواء كانت مؤمنة أم كافرة فلا شك أن المؤمنين أولى بالوحدة من غيرهم لأنهم يعتقدون أن لهم الهاً واحداً يرجعون في جميع شؤونهم الى حكمه الذي يعلو جميع الاهواء ويحول دون التفرق والخلاف . بل هذا هو ينبوع الحياة الاجتماعية لما دون الامم من الجمعيات حتى البيوت (العائلات) . ولما كان لكل جامعة وكل وحدة حفاظ يحفظه أرشدنا سبحانه وتعالى الى ما نحفظ به جامعتنا التي هي مناط وحدتنا — وأغرى بها الاعتصام بحبله — فقال ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر حفاظ الجامعة وسياج الوحدة

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى « منكم » هل معناه بعضكم أم « من » بيانية . ذهب مفسرنا (الجلال) الى الاول لأن ذلك فرض كفاية وسبقه اليه الكشاف وغيره وقال بعضهم بالثاني قالوا والمعنى ولتكونوا أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر قال الاستاذ الامام والظاهر ان الكلام على حد « ليكن لي منك صديق » فالامر عام ويدل على العموم قوله تعالى (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فان التواصي هو الأمر والنهي وقوله عز وجل (٥ : ٧٨ لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) وما قص الله علينا شيئاً من أخبار الامم السالفة الا لنعتبر به . وقد أشار المفسر (الجلال) الى الاعتراض الذي يرد على القول بالعموم وهو انه يشترط فيمن يأمر وينهى أن يكون عالماً بالمعروف الذي يأمر به والمنكر الذي ينهى عنه وفي الناس جاهلون لا يعرفون الاحكام . ولكن هذا الكلام لا ينطبق على ما يجب ان يكون عليه المسلم من العلم فان المفروض الذي ينبغي ان يحمل عليه خطاب التنزيل هو ان المسلم لا يجهل ما يجب عليه وهو مأمور بالعلم والتفرقة بين

المعروف والمنكر على ان المعروف عند اطلاقه يراد به ما عرفته العقول والطباع السليمة والمنكر ضده وهو ما أنكرته العقول والطباع السليمة ولا يلزم لمعرفة هذا قراءة حاشية ابن عابدين على الدر ولا فتح القدير ولا المبسوط وانما المرشد اليه مع سلامة الفطرة كتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر والعمل وهو ما لا يسع أحداً جهله ولا يكون المسلم مسلماً الا به . فالذين منعوا عموم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر جوزوا ان يكون المسلم جاهلاً لا يعرف الخير من الشر ولا يميز بين المعروف والمنكر وهو لا يجوز ديناً

ثم ان هذه الدعوة الى الخير والامر والنهي لها مراتب فالمرتبة الاولى هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم الى الخير وان يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى وهو الذي يتجه به قول المفسر إن المراد بالخير الاسلام وقد فسرنا الاسلام من قبل بأنه دين الله على لسان جميع الأنبياء لجميع الامم وهو الاخلاص لله تعالى والرجوع عن الهوى الى حكمه وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطاً وشهداء على الناس كما تقدم في سورة البقرة وخير أمة أخرجت للناس كما سيأتي بعد آيات مقيداً بكوننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وبحكم قوله في وصف المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال (٢٢ : ٤١ الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فالواجب دعوة الناس الى الاسلام أولا فان أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر (قال) وأما كون هذا حفاظاً للوحدة ومانعاً من الفرقة فهو أن الأمة اذا اجتمعت على هذا المقصد العالي الشريف وهو أن تكون مسيطرة على الأمم كلها ومربية لها ومهذبة لنفوسها فلا شك أن جميع الاهواء الشخصية تتلاشى من بينهم فاذا عرض الحسد والبغي لأحد من أفرادهم تذكروا وظيفتهم العالية الشريفة التي لا تتم الا بالتعاون والاجتماع فأزالت الذكرى ما عرض وشفت النفوس قبل تمكن المرض

والمرتبة الثانية في الدعوة والأمر والنهي هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر والعموم فيها ظاهر أيضاً وله طريقان أحدهما الدعوة العامة الكلية (قال : كهذا الدرس) ببيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أحوال الناس وضرب الأمثال المؤثرة في النفوس التي يأخذ كل

سامع منها بحسب حاله . وإنما يقوم على هذا الطريق خواص الأمة العارفون بأسرار لأحكام وحكمة الدين وفقهه وهم المشار اليهم بقوله تعالى (٩ : ١٢٢ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ومن مزايا هؤلاء تطبيق أحكام الله تعالى على مصالح العباد في كل زمان ومكان فهم يأخذون من الأمر العام بالدعوة والأمر والنهي على مقدار علمهم . والطريق الثاني الدعوة الجزئية الخاصة وهي مايكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ويستوي فيه العالم والجاهل وهو مايكون بين المتعارفين من الدلالة على الخير والحث عايه عند عروضه والنهي عن الشر والتحذير منه وكل ذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدره

أقول أما كون هذه المرتبة حفاظًا للوحدة وسياجا دون الفرقة فهو ظاهر على الطريق الاول فلو كان أهل البصيرة والفقه الحقيقي في الدين يعممون دعوتهم وإرشادهم في الامة ويواصلونها لكانوا موارد لحياتها ومعاقد لرابطة وحدتها . وكذلك على الطريق الثاني فان افراد الامة اذا قام كل واحد منهم بنصيحة الآخر دعوة وأمرا ونهيا امتنع نشوء الشر والمنكر فيهم واستقر أمر الخير والمعروف بينهم فكيف تجد الفرقة منفذا اليهم؟ أم كيف يستقر الخلاف في الدين بينهم ؟ وناهيك اذا قام كل على طريقه المستقيم – العلماء الحكماء في مساجدهم ومعابدهم، وجميع الأفراد في منازلهم ومساكنهم ومعاهدهم . وقد يقال إننا نرى التصدي لنصيحة الأفراد وأمرهم ونهيهم مجلبة للخلاف والفرقة ، لاداعية الى الوفاق والوحدة ، وقد أورد الاستاذ الامام هذه الشبهة وأجاب عنها فقال مامثاله : كيف يكون التآمر والتناهي حافظاً للوحدة ونحن نرى الامر بالعكس نرى التناصح سبب التخاصم والتدابر حتى صار من أعسر الامور بين الإخوان والاصحاب أن يقول أحدهما للآخر إنك فعلت كذا وهو منكر فارجع عنه أو إنك قادر على كذا من المعروف فأته : وذكر عن نفسه رحمه الله تعالى أنه صار يجد من الصعب جدا حتى مع من يعده صنيعة له أو ولدا أو أخا أن ينصحه في الامر أكثر من مرة خشية أن ينفر ويحمله ذلك على قطع مابينهما من الرابطة قال : فكأن النصح

لهم من الكليات التي لا يوجد لها الافرد واحد : وذكر أنه لهذا النفور من النصح يسلك مع أصحابه والمتصلين به مسلك الكناية والتعريض في الغالب . وأجاب عن ذلك بأن هذا لا يعد حجة على الله ولا شبهة على دينه لانه منتهى ماتصل اليه الامم من الفساد والبعد عن الخير واستحقاق الغضب الآلهي وتكاد الامة التي يفشو هذا فيها تكون من الامم التي تودع منها وإنما الكلام في الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع المسلمين الذين كانوا يشعرون بنعمة الله عليهم بالتأليف بين قلوبهم وإنقاذهم من النار بعد أن كانوا قد أشفوا عليها ومع من يشاركونهم في شعورهم ذاك ويتبعون سنتهم في الاهتداء بما أنزل الله كما وقع بين الاوس والخزرج في الرواية التي سبق ذكرها . فأمثال هؤلاء هم الذين يصدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن مرآة المؤمن » رواه الطبراني في الأوسط والضياء من حديث أنس ورواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داود عن أبي هريرة بزيادة « والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه »

قال الاستاذ الامام إن مانحن فيه الآن من سوء الحال أثر تفريط كبير تمادى في زمن طويل بعد ما عظم التساهل في ترك التناصح وبطل ردما يتنازع فيه المسلمون الى الله ورسوله أي الى كتاب الله وسنة رسوله وخوت القلوب من احترام الدين حتى لم يعد له سلطان على الإرادة بل صار كل شخص أسير هواه ومتى أمسى الناس هكذا – لادين ولامروءة ولاأدب – فأي فرق بين الطائفة منهم والقطيع من المعز أو البقر

عند هذا سأل سائل عن قوله تعالى (٥:١٠٥ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فأجاب إن هذا بعد القيام بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أي ان الانسان لا يضره ضلال غيره اذا هو أمره ونهاه فانه لا يكون مهتديا مع تركه لهذه الفريضة . ثم قال من العجب ان بعض الناس اشترطوا لهذه الفريضة شرطًا لم يأذن به الله ولم ينزله في كتابه وهو أنه لا يأمر وينهى الا من كان مؤتمرا ومنتهيا : فالمختار عنده ما حققه الإمام

الغزالي من عدم اشتراط ذلك على ان الإمامين يقولان بوجوب كون الواعظ المتصدي للارشاد والدعوة العامة مهتديا عاملا بعلمه متصفا بما يدعو اليه وقد قال الاستاذ الامام بمنع أولئك الجاهلين الفاسقين الذين ينصبون أنفسهم للوعظ والارشاد من تسلق هذه الدرجة وليس ذلك لأنه يشترط في فرضية الامر والنهي الائتمار والانتهاء بل لان المرشد العام محل لقدوة العوام فاذا كان ضالا يكون كالخمر والميسر إثمه أكبر من نفعه فهو يمنع منها لدرء المفسدة ولا يمنع من كل أمر ونهي فحاصل رأيه أن يمنع من منصب الإرشاد الذي قال انه خاص بالعارفين بأسرار الشريعة وفقهاء النفوس فيها ومن كان كذلك لا يكون الا عاملا بعلمه مهتديا بما يهدي اليه لأن العلم الصحيح يوجب العمل كما قررناه مرارا وقلنا انه رأيه ورأي الغزالي ولا يمنعه من كل نصيحة وأي أمر ونهي بل يأمره بذلك وان لبسه العار الذي أشار اليه الشاعر بقوله

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك اذا فعلت عظيم

وليس مراد الشاعر نهي المتخلق بالخلق السيء أن يأمر بمثله بل مراده أنه يجب عليه الجمع بين النهي والانتهاء . ومما قاله الغزالي في الاحياء إنه يجب على من يزني بامرأة أن يأمرها بستر بدنها أو قال وجهها والا كان مرتكبا لمعصية زائدة على معصية الزنا ولوازمه وهي معصية ترك النهي عن المنكر وكان يقول يجب على مدير الكاس أن ينهي الجلاس :

وأقول ان هذه الشبهة التي سئل عنها الاستاذ الامام قديمة عرضت للناس في الصدر الأول فقد روى ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وغيرهم من أصحاب المسانيد والترمذي وصححه وأبو يعلي والكجي من أصحاب السنن وابن حبان والدارقطني في الافراد والبيهقي في الشعب وغيرهم كلهم من طريق قيس ابن حازم قال قام أبو بكر خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) وإنكم تضعونها غير موضعها واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقاب » ولابن مردويه عن ابن

عباس قال قعد أبو بكر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم سمي خليفة رسول الله فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم مد يده فوضعها على المجلس الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس عليه من منبره ثم قال سمعت الحبيب وهو جالس في هذا المجلس يتأول هذه الآية . . . ثم فسرها فكان تفسيره لنا أن قال: نعم ليس من قوم يعمل فيهم بمنكر ويفسد فيهم بقبيح فلم يغيروه ولم ينكروه الا حق على الله ان يعمهم بالعقوبة جميعا ثم لا يستجاب لهم : ثم أدخل أصبعيه في أذنيه فقال : أن لا أكون سمعته من الحبيب صمتا :

قال الاستاذ الامام ويشترط بعضهم للوجوب شرطا آخر وهو الأمن على النفس وكان ينبغي ان يقولوا على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ان يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا ينفر الناس أو لا يحملهم على ايذائه فان الله يقول انه لا نجاة للناس الا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ولم يشترط في ذلك شرطا أي فيجب أن نأخذ النصوص على اطلاقها وأن نقوم بها بقدر الاستطاعة أو الطاقة ونتقي مع ذلك ما يخاف بها من المهالك . أقول وقد جرت سنة الانبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وان كان محفوفا بالمكاره والمخاوف وكم قتل في سبيل ذلك منهم من نبي وصديق فكانوا أفضل الشهداء وفي حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام الى امام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد وتعقبه الذهبي بأن في سنده حفيدا العطار لا يدرى من هو . ورواه الديلمي والضياء المقدسي . وروى الطبراني نحوه عن ابن عباس بسند ضعيف ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه ابن ماجه من حديث ابي سعيد الخدري وأحمد وابن ماجه والطبراني والبيهقي في شعب الايمان عن أبي أمامة وأحمد والنسائي والبيهقي في الشعب أيضا عن طارق بن شهاب ذكر ذلك في الجامع الصغير ووضع بجانبه علامة الصحيح . أقول ورواه أبو داود في سننه عن أبي سعيد مرفوعا

بلفظ « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر » وقد ورد من تصدي علماء السلف لنصيحة الملوك والامراء الظالمين وإيذاء هؤلاء لهم وسفكهم دماء بعضهم مايرد شرط أولئك المشترطين للأمن عليهم ويضرب به وجوههم (*) ولا ينافي هذا كون التوقي من الهلكة واجباً لذاته في هذه الحالة كما يجب في حال الجهاد بالسيف. فلا نترك الدعوة الى الخير ولا الجهاد دونه خوفا على أنفسنا حرصا على الحياة الدنيا ولا نفرط بأنفسنا في أثناء دعوتنا وجهادنا فيما لا تتوقف الدعوة ولا حمايتها عليه وقد يكون أكثر مايصيب الداعي الى الخير من الاذى ناشئا عن طريقة الدعوة وكيفية سوقها الى المدعو لاسيما اذا كان مسلما وكانت الدعوة مؤيدة بالكتاب والسنة (١٦: ١٢٥ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)

قال الاستاذ الامام : ان الله تعالى أمر الناس بالتواصي بالحق والدعوة الى الخير وأمرهم ان يعدوا لذلك عدته ويعرفوا سبله وهي مبسوطة في السنة كقصة ذلك الرجل الذي كان ينادي في الطريق : أريد أن أزني : فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وضرب على كتفه وقال «أتفعل هذا بأمك» قال لا قال « أتفعله بأختك» قال لا وخجل الرجل وانصرف وكقصة الاعرابي الذي عاهد الرسول على ترك الكذب فهذه هي الحكمة وبها تجب القدوة (٣: ٣٣ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وانا لن نكون متبعين له حتى نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر على سنته وطريقته اي في اللطف وتحري الاقناع

أقول أما قصة الرجل الذي يريد الزنا فهي كما روى ابن جرير من حديث أبي أمامة أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ائذن لي في الزنا فهمّ من كان قرب النبي صلى الله عليه وسلم ان يتناولوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم «دعوه» ثم قال له «أتحب أن تفعل هذا بأختك؟» قال لا قال « فبابنتك؟» قال لا. فلم يزل يقول فبكذا فبكذا كل ذلك يقول لا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ماتحب لنفسك» كذا في كنز العمال وذكره الغزالي في

(*) أوردنا طائفة من ذلك في المجلد التاسع من المنار فليرجع اليه من شاء

باب آداب المحتسب من كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاحياء قال: وقد روى أبو امامة ان غلاما شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يانبي الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به فقال النبي (ص) «قربوه، ادن» فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبي (ص) «أتحبه لأمك؟» فقال لا، جعلني الله فداك قال « كذلك الناس لا يحبونه لامهاتهم، أتحبه لابنتك؟» قال لا، جعلني الله فداك قال« كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟ — وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحد: لا، جعلني الله فداك: وقالا جميعا في حديثهما أعني ابن عوف والراوي الآخر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال « اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه » فلم يكن شيء ابغض اليه منه يعني من الزنا: قال الشارح قال العراقي: رواه احمد باسناد جيد رجاله رجال الصحيح. أقول أما سياق الاستاذ الامام فلا أذكر أني رأيته فأرجع اليه وهو قد قصد المعنى دون نص الحديث. وكذلك حديث الاعرابي الذي عاهد على ترك الكذب لا اتذكر مخرجه وانما أتذكر انه أسلم على شرط أن يدع له النبي واحدة من ثلاث اعتادها — الكذب والخمر والزنا فعاهده على ترك الكذب فكان وسيلة الى ترك الخمر والزنا

وفي هذا المقام مقام أمن المتصدي للدعوة والأمر والنهي على نفسه وماله كما قبل يأتي بحث تغيير المنكر بالفعل وهو مرتبة غير مرتبة التناصح لابد فيها من قدرة خاصة ولذلك قالوا أنها من خصائص الحكام فيشترط فيها إذنهم وفي قول آخر لا يشترط والاصل في ذلك حديث «من رأى منكم منكر فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان» رواه احمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة من حديث أبي سعيد الخدري وأنت ترى أن الخطاب فيه للأمة وقد يقال انه إذن منه صلى الله عليه وسلم وهو حاكم المسلمين في زمنه فهو تشريع وتنفيذ. وقال الاستاذ الامام في الدرس هنا يخلطون بين النهي عن المنكر وتغيير المنكر الذي جاء في حديث «من رأى منكم منكرا فليغيره» وهذا شيء آخر غير النهي البتة فان النهي عن الشيء انما يكون قبل فعله والا كان رفعا للواقع أو تحصيلا للحاصل فاذا رأيت شخصا يغش السمن مثلا وجب عليك

تغيير ذلك ومنعه منه بالفعل ان استطعت فالقدرة والاستطاعة هنا مشروطة بالنص فان لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان وهو غير خاص بنهي الفاسق ووعظه بل يدخل فيه رفع أمره الى الحاكم الذي يمنعه بقدرة فوق قدرتك . أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضى بفعله وللنهي طرق كثيرة وأساليب متعددة ولكل مقام مقال

(قال) نعم ان دعوة الامة غيرها من الامم الى الخير الذي هي عليه لا يطالب بها كل فرد بالفعل اذ لا يستطيع كل فرد ذلك وانما يجب على كل فرد أن يجعل ذلك نصب عينيه حتى اذا عن له بأن التقي أحدا من افراد تلك الامم دعاه لانه ينقطع لذلك ويسافر لأجله وانما يقوم بهذا طائفة يعدون له عدته وسائر الافراد يقومون به عند الاستطاعة فهو يشبه فريضة الحج هي فرض عين ولكن على المستطيع . وفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر آكد من فريضة الحج ولم يشترط فيها الاستطاعة لانها مستطاعة دائما : عند هذا قال قائل ان من الناس من لا يستطيع ذلك قطعاً : فرد عليه قوله وضرب له مثلا طائفة الشيعة فانهم لما كانت الدعوة ملتزمة عندهم صاروا كلهم دعاة عند ما يعن لهم من يدعونه وذكر أنه لما كان في بيروت احتاج الى ظئر لارضاع بنت له فجيء بظئر شيعية من المتاولة فكانت في الدار تدعو النساء الى مذهبها وقال ان رعاة الابل من الصحابة والتابعين كانوا يدعون كل أحد الى الاسلام حتى الملوك والامراء فهذا يدل على ان الأمة اذا أرادت الدعوة لا يقف في سبيلها شيء : وقد تقدم قوله ان الجهل ليس بعذر للمسلم لانه يجب ان يكون عالما

ثم قال ماحاصله : جملة القول ان الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض حتم على كل مسلم كما تدل عليه الآية في ظاهرها المتبادر وغيرها من الآيات كقوله تعالى (٥ : ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) وكذلك عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم . وكون هذا حفاظا للأمة وحرزا ظاهر فان الناس اذا تركوا دعوة الخير وسكت بعضهم لبعض على ارتكاب المنكرات خرجوا عن معنى الامة وكانوا أفذاذا متفرقين لا جامعة لهم ولهذا ضرب

الرسول (ص) للمداهن مثل راكب في سفينة يطوف على جماعة معه بماء وكل ينفر مما معه فقال لهم اني في حاجة اليه وذهب ينقر في السفينة فان أخذوا على يده نجوا ونجا معهم والاهلك وهلكوا جميعا ففشو المنكرات مهلكة للأمة (٨ : ٢٥ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فلا بد للمرء في حفظ نفسه ومن معه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والغش . فهذا ليس من فروض الكفاية التي يتوا كل فيها الناس كصلاة الجنازة اذ لا يجب على كل من علم ان هنا ميتا ان ينتظر غسله ليصلي عليه بل يكفي ان يعلم أنه يوجد من يصلي عليه ولكنه اذا رأى منكرا وجب عليه ان ينهى عنه ولا ينتظر غيره لأنه تغير على رأيه

أقول ويظهر تذييل الآية بقوله تعالى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ على هذا الوجه ما لا يظهر على الوجه الآتي فهو يقول ان القائمين بما ذكرهم الفائزون بما أعده الله من السعادة لاهل الحق دون سواهم ولا يصح أن يكون خاصاً بالقائمين بفرض الكفاية

قال الاستاذ الامام بقي علينا بيان معنى الآية على القول بأن « من » للتبعيض وتقدير الكلام ولتكن منكم طائفة متميزة تقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والمخاطب بهذا جماعة المؤمنين كافة فهم المكلفون أن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة فههنا فريضتان إحداهما على جميع المسلمين والثانية على الأمة التي يختارونها للدعوة . ولا يفهم معنى هذا حق الفهم الا بفهم معنى لفظ الأمة وليس معناه الجماعة كما قيل وإلا لما اختير هذا اللفظ والصواب ان الأمة أخص من الجماعة فهي الجماعة المؤلفة من افراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص . والمراد بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأمة لهذا العمل هو أن يكون لكل فرد منهم إرادة وعمل في إيجادها وإسعادها ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة حتى إذا رأوا منها خطأ أو انحرافا أرجعوها الى الصواب . وقد كان المسلمون في الصدر الأول لا سيما زمن أبي بكر وعمر على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة حتى كان الصعلوك من رعاة الابل يأمر

مثل عمر بن الخطاب — وهو أمير المؤمنين — وينهاه فيما يرى أنه الصواب ولا بدع فالخلفاء على نزاهتهم وفضلهم ليسوا بمعصومين وقد صرح عمر بخطائه ورجع عن رأيه غير مرة .

(قال) ومن العبر في هذا المقام تنفيذ بلال الحبشي العتيق لأمر عمر بمحاسبة خالد ابن الوليد سيد بني مخزوم بعد تبليغه عزله من قيادة الجيش بالشام : وذكر مجمل القصة وهي أن عمر كتب عندما ولي الخلافة الى أبي عبيدة وهو في جيش خالد على الشام يوليه امارة الجيش العامة ويعزل خالدا عنها وكان الجيش على حصار دمشق أو في اليرموك (روايتان) فكتم أبو عبيدة الامر وكبر عليه أن يظهره قبل أن يتم لهم النصر ولما أبطأ على عمر الجواب كتب الى أبي عبيدة ثانية يأمره فيه بأن يقرأه على ملاء المسلمين وفيه الاذن بأن يعتقل خالد بعمامته ويحاسب على ما كان منه في امارته فهابه أبو عبيدة لشرفه وشجاعته وبلائه في الحرب وحب الجيش له ولكنه لما قرأ الكتاب قام بلال الحبشي من فقراء الموالي (العتقاء) وحل عمامة خالد واعتقله بها وسأله عما أمر به عمر فخضع وأجاب . فانظروا ما فعل هدي الاسلام بهؤلاء الكرام يقوم مولى من الفقراء الضعفاء الى السيد القرشي العظيم والقائد الكبير فيعقله بعمامته على أعين الملأ الذين كان أميرهم وقائدهم ويحاسبه فيجيبه عن كل ماسأله . وروي انه بعد أن أطاع وأجاب داعي الخليفة أعاد اليه بلال قلنسوته وعممه بيده قائلا : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم موالينا: (جمع مولى وهو هنا بمعنى السيد) . وروي أيضا أن عمر استحضر خالدا الى المدينة واعتذر له بعد العتاب بأنه لم يعزله ويأمر فيه بما أمر لريبة وانما رأى أن الناس افتتنوا به وخاف عليه أن يفتتن بهم وقيل انه قال له خفت أن يعبدك أهل الشام .

(لتفسير الآيات بقية)

السنوسية والجامعة الاسلامية (*)

﴿ حقائق نافع بيانها ﴾

لعله ظهر للقارىء من المقالة التي ترجمتها الجريدة من قلم ضابط انكليزي له اطلاع على أحوال أفريقيا الاسلامية ان الاوربيين غير غافلين عن سير المسلمين في سائر شؤونهم وجميع أقاليمهم وتراهم يظهرون من الاهتمام بعض الذين لهم زعامة دينية وبكل ماهو مظنة القوة والاجتماع ما يبين للسامع ان رابطة صغيرة بين جماعة قليلة من المسلمين ترى في نظر الاوربيين غولا يخشى اغتياله ويجب ان يحال بينه وبين النمو لئلا يكون شره مستطيرا

والامثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها الآن بما يقوله هذا الكاتب الانكليزي الذي ترجمته «الجريدة» قال:

« وقل ان ترى في أوربا من يعلم شيئا كثيرا عن هذا المذهب حتى لو سمع معظم الاوربيين كلمة «سنوسية» لما فهموا شيئا مع أنها لفظة لها في آذان فاهميها وقع شديد ومعنى مرمض . وما يعلم عن هـذا المذهب وان قل ينبيء بانتشار نفوذه وقوته وانه على مضادة لاوربا لا يبعد ان يكون السبب في اخطار واهوال ربما أفضت الى كسح العنصر الابيض من أفريقية كما تنبأ بذلك الدكتور كارل بيتر وهو حجة»

ان هذا الكاتب الانكليزي قد عظم من هول زعامة السنوسي تعظيما جعله يستدبر الصواب استدبارا وتراه قد عزا لهذه الطائفة كل حركات عروق المسلمين في قلوبهم واحشائهم ولا يستطيع الواقف على حقيقة الحال الان يغيب في العجب اذ يراه يقول ان مصر من جملة البلاد التي يسري فيها نفوذ السنوسي وانها تحركت بأصابع من هذا النفوذ فيا للعجب متى تحركت مصر وكيف تحركت وما هي حركتها واين هو سلك الاتصال بين حركتها والكهربائية السنوسية ولكن ليست مصر وحدها في الانجذاب الى هذه الكهربائية على رأي الكاتب بل كل حركات

(*) نشرت (الجريدة) ترجمة مقالة لضابط انكليزي تكلم في السنوسية والجامعة الاسلامية كلاما خياليا فعقب عليه السيد عبد الحميد الزهراوي المحرر بالجريدة بهذه المقالة

قلوب المسلمين عموماً وأفريقيا المسلمة خصوصاً فهو يقول :

« ولا ينكر أحد مايشمل الاقطار الافريقية المسلمة وغيرها من السخط العام الآن واليك شاهداً على ذلك حرب الصومال والحركة المصرية وثورة زولو والقلاقل التي في مستعمرة المانيا الجنوبية الغربية وحوادث شتى بالشاطىء الغربي . خطوب صغيرة لكنها تنذر بالخطب الاكبر والداهية الدهياء . ثم اضف الى ذلك مسألة المغرب الاقصى ومصاعب فرنسا في شمال أفريقية والحركة الاثيوبية (الزنجية) في الجنوب »

ويقول في مكان آخر « ويظهر ان الاضطراب الذي جرى بمصر حديثاً كان سببه دعاة الطريقة السنوسية هناك وان كان السنوسيون لم يريدوا ذلك الهياج ولم يستحثوه لمجيئه قبل أوانه ولذلك لم ينهضوا بتغذية الفتنة التي انتجوها » ويقول في الختام « وخلاصة القول ان السخط بين أهالي أفريقية عام طام فشرارة واحدة تضرم النيران من أقصى أفريقية الى اقصاها وفي زعمي ان السنوسية هي مصدر الشررة التي لابد ان تصيب لغم السخط المستقر في صدور الاهالي »

ان امثال هذه الكتابة تدعونا الى ان نتفكر ونستقصي بالبحث عن تفاسيرها . ولا يظهر لنا من خلال المذاهب المتعددة في تفسير هذا الاهتمام الذي يظهره هؤلاء الكتاب الا ان القوم مضطرون لهذا السهر والتجسس على شؤون البلاد التي ملكوها والتي يطمعون ان يملكوها فهم قد عرفوا ان القوة بالتضام والاتفاق ويريدون ان يقطعوا من البلاد التي يطمعون بها كل أرومة للتضام ويحرصون على ان يجتثوا كل سنخ للقوة . وقد زعموا ان الطريقة التي عليها السنوسي هي أرومة عظيمة لتجمع المسلمين الناقمين على أوربا وان هذه الجماعة التي حوله سيكونون يوما جيشا جرارا كالجراد يلقف في طريقه كل نابتة من الاوربيين

إما أن تكون هذه المزاعم مصطنعة لتعظم الحكومات الاوربية في أعين شعوبها هول « الخطر الاسلامي » كي تكون تلك الشعوب راضية عن كل فتك بهذه الشعوب ليقطعوا دابر كل تحاب بينهم وتعارف وتعاطف حتى يكونوا افذاذا مقطعي الاطراف مشرفين على الانقراض من غير رثاة وإما أن تكون قائمة في أذهانهم خطأ أو اسرافاً في سوء الظن أو تكبر في مخيلاتهم من مظاهر التآخي

الديني . وخليق بنا على كلا الوجهين أن لانمر بهذه المسئلة متجاهلين هذه المزاعم التي عليها يبنون صرحاً من سياسة الاسراف بسوء الظن . والكلام في روح هذه المسئلة وهي الرابطة الدينية والجامعة الاسلامية تدور حوله اغلاط كثيرة تقع من باحثينا وباحثيهم والاغلاط منشأ سوء التفاهم ومنشأ التنافر الذي مابرحنا نراه يمتد في عهد كنا نظنه يتقلص فيه . فلذا رجحنا اليوم أن نخوض غمار هذا البحث غير رامين الا الى تجلية الحقائق التي نعلمها وكلامنا ان لم ينفع في دوائر السياسة ينفع في دوائر العلم التي يطوف حولها الشرقي والغربي متصافحين ونرجو أن يأتي يوم تعلو فيه الحقيقة في هذه المسئلة على المزاعم – مصطنعة كانت أم خطأ –

(١)

اللغط في الجامعة الاسلامية

مركز الدائرة في هذه المسئلة هي الجامعة الاسلامية وقد شغف كثيرون من الباحثين منا ومن الاوربيين ببلوغ الحقيقة في هذه النقطة فأبت على أكثرهم واستعصمت بحجب من التشابه فعمي السبيل على الطالبين وانقسموا فرقاً وسلكوا مذاهب أعقامهم الذين اعترفوا بأنهم لم يروا وجه الحقيقة ومنهم من وصف الذي شبه له زاعماً انها هي الحقيقة . والذين اشتهوا الوصف والبيان ولم يطيقوا ان يظهروا العجز من بعد البحث والنظر قد اختلفت أقوالهم فمنهم من يثبت وجود هذه الجامعة ومنهم من ينفيه . والمثبتون منهم من يتشاءم به ومنهم من يتيمن . ومنهم من لايبني عليه املاً . ومنهم من لايوجس منه وجلا

لكن يظهر من الفصول والمقالات الكثيرة التي قرأناها لكتاب الاوربيين ان في أوربا كلمة واحدة عامة بوجود هذه الجامعة وان فيها خطرا على المستعمرات الاوربية أوقد تكون عائقاً عظيماً يوماما عن بلوغ أوربا أمانيها من ابتلاع كل بلاد المسلمين ابتلاعاً تاماً . ويؤذن هذا بأن من يقول غير هذه الكلمة منهم هو من الشاذين

والكتاب المسلمون يميل أكثرهم الى تصديق هذا الحدس الاوربي وتنفى أقلامهم بان المسلمين كثيرون وكلهم في الدين اخوان وان مستقبلهم حسن بواسطة

كثرتهم وجامعتهم الدينية وعلى شيء من هـذا بني السيد توفيق البكرى كتابه «مستقبل الاسلام»

والغريب في الامر ان أكثر الباحثين في « الجامعة الاسلامية » يبتون فيها الاحكام من غير ان يقولوا لنا ماحقيقتها وماتاريخها . أفذلك لشدة وضوحها أم لأنها ليس لها صورة حقيقية واحدة فهي تصوركما يقوم ظلها في خيال الكاتبين

(٢)

— حقيقتها —

ماالجامعة الاسلامية الا اتفاق في كلمة واحدة وهي أن القرآن كتاب الله جاء به محمد رسول الله ولكن المطلع على تاريخ المتفقين هذا الاتفاق يعلم انه لم يدفع عنهم الاختلاف الذي لااتفاق معه بعد فمنذ اختلف المسلمون ثلمت جامعتهم ولم يتفقوا اتفاقا سياسيا بعد عهد عمر ولا اتفاقاً دينياً بعدعهد علي . فما هي جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرناً اختلافاً سياسياً واختلافاً دينياً يقتل بعضهم بعضاً ويستعين بعضهم على بعض بأهل الملل المخالفة من الاساس . ماهي جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئة أخرى منذ مقتل خليفتهم الثاني الى يومنا هذا . ماهي جامعة قوم يسر ملوكهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم . ماهي جامعة قوم حدثنا التاريخ من حديثهم ان أجنبياً شرقياً (هولاكو) أكتسح بلادهم وهم في عزهم فلم تتضام أيديهم على مقاتلته وكانت لاتزال قوية على قتال بعضها بعضا . وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً غربياً (الصليبيين) هاجم بلادهم فلم يجتمعوا كلهم على طرده حتى حركت الهمة طائفة منهم قويت وحدها على صده

الجامعة التي يلفظون بهاهذه هي : « صورة مكبرة في خيال الأوربيين منتزعة من دعوى المسلمين الأخاء الديني . وصورة محبوبة في خيال المسلمين منتزعة من مس الحاجة الى مثلها على رأيهم » ثم قد أصبح لهاتين الصورتين ظل في الوجود قام عليه الحساب الحاضر فالأوربي يقول يجب محو هذا الظل لئلا يصير شبحاً حقيقياً هائلا ويذهبون في محوه مذاهب كما يبين في كتاباتهم المتنوعة المختلفة . والمسلم

يقول يجب جعل هذا الظل شبحاً حقيقياً ليكون بهيبته حامياً حقوقنا أجمعين ولهذا عظم تشبث المسلمين هذه السنين الأخيرة بمسئلة هذه الجامعة الاسلامية للدلالة على التضام والترابط ولكن لايصنع هذا شيئاً ما دام الاختلاف الديني والسياسي قاضيين أن يدوم تقتيل المسلمين بعضهم بعضاً ويقعد بعضهم عن نصرة الآخر . ولو تدبر الأوربي والمسلم لالتفتا الى أمر نافع غير هذا لأن الظل لايصير شبحاً . لو تدبر الاوربي لعرف أن الجامعة الاسلامية قد يخلقها الاسراف في ابادة ملك المسلمين ولعرف المسلم أن هذه الجامعة لاتنفع حتى يقوم العلم الصحيح عندهم مقام التقاليد وتكون الجامعة يومئذ جامعة قومية

(٣)

— السخط العام من الأوربيين —

لو تدبر الأوربيون لعلموا أن السخط العام الحقيقي الذي يرونه ويسمعون به ليس ناشئاً من الجامعة الاسلامية بل هو ناشئ من سوء الادارة وهو يجر الى هياج الشعوب نفسها باسم الخلاص من الظلم لا باسم الدين ويشهد التاريخ أن شعوبا كثيرة هاجت على حكوماتها نفسها باسم الخلاص من الظلم لا باسم الدين فاذا لم ينتظر الأوربيون من المسلمين الذين تحت حكمهم هياجاً الا باسم الدين فانهم سوف يتعبون من سوء نتائج هذا الخطأ على تمادي الأيام

(٤)

— خطر الجامعة الاسلامية —

وعندي أنه ان صح أمر الجامعة الاسلامية لا ينتظر منها الشر الذي ينذر به كتاب الأوربيين الا أن يكون الشر عندهم هو صد المطامع وايقافها عندحد . ولماذا لا ينتظرون الا الشر من قوم كان لهم دول عظيمة فلم يسيئوا الى بني آدم كما ينتظرون منهم الآن

(٥)

— السنوسيه —

أما السنوسية فطائفة في الصحراء بين طرابلس ومصر ملتفون حول شيخ

طريقة في الارض كثير من أمثالها وأمثاله . واضع هذه الطريقة هو السيد أحمد بن ادريس وهو رجل من صوفية المغرب وعلمائه رحل الى اليمن وتوفي فيها وهو شيخ الاستاذ المرغني المشهور وشيخ الشيخ ابراهيم الرشيدي وشيخ العلامة السيد السنوسي «محمد علي» المولود عام ١٢٠٤ في مستغانم وقدطاب العلم في فاس ثم رحل الى مكة فلقي أحمد بن ادريس فأخذ عنه التصوف وخلفه في الطريقة واحب أن يؤسس له مركزا في الحجاز فلم يساعد على ذلك فغادر الزاوية التي بناها في جبل أبي قبيس (عند مكة) ورحل الى طرابلس الغرب سنة ١٢٥٥ ه ونزل في الجبل الاخضر وبنى هناك عدة زوايا ثم رجع الى الحجاز سنة ١٢٦٣ فأقام بمكة سبع سنين يقرىء الحديث فنما ذكره وزار مصر عائدا من الحجاز فاجله عباس باشا الخديوي اذذاك وهرع الناس لزيارته. ولما كثر مريدوه في صحراء ليبيا أراد أن يعتزل البلاد التي فيها الأمر والنهي لحكومات معروفة فأرشده مريدوه الى جغبوب لعزلتها ووجود الماء هناك فبنى زاوية عام ١٢٧٣ ه وأقام فيها بين عربان البادية الى أن توفى عام ١٢٧٦ ه فخلفه ابنه السيد محمد المهدي السنوسي وقام مقامه بنشر الطريقة وازداد عدد المريدين على عهد هذا ودخل في مريديه ملك واداي فلذلك أصبح مقامه في تلك الجهات كمقام الملوك لأن مريديه يجبون له عن طيب نفس المفروض عليهم من زكوات اموالهم وهو يصرفها على اللاجئين الى تلك الزوايا من الضعفاء والمرابطين وابناء السبيل

وكل من عرف السنوسية حق المعرفة يمتدحهم على قيامهم في كبد هذه الصحراء بما ينفع بني آدم من المؤاخاة وتقليل الشرور بين القبائل وايواء ابن السبيل وتعليم الجاهل وارشاد الضال فلماذا لا يترقب كتاب الأوربيين من هؤلاء الا كل شرورهم قوم قد بعدوا جهد استطاعتهم عن هذه السياسات المبنية على ما لا حدله من الطمع . ولا ذنب لهم الاشبه قوة على الدفاع

هذه حقيقة السنوسية لا مازعمه الكاتب من انها جمعية سياسية في لباس ديني تتربص بالأوربيين يوما عبوسا قمطريرا يكون شره من سيوفهم وبنادقهم مستطيرا هذا ولقد حاول جلالة السلطان استدعاء السنوسي الى الاستانة بايعازمن

سياسة أوربية فلم تنجح هذه الدعوة ولم تكن نتيجة البعثة التي بعثت لهذه المهمة الا تبادل التحيات والهدايا فالسنوسية في معزل عن هذه الامور ولا نظن بالسيد السنوسي شيخ هذه الطائفة اليوم انه يبغي من وراء هذه العزلة الدخول بنفوس خلق الله الى المذابح البشرية وأبعد شيء عن الصواب زعم الكاتب وأمثاله ان الفروض الدينية هي التي تحمل على ابادة غير المسلم وهذا منتهى الجهل بالتاريخ وقانا الله سوء نتائج الجهالات

عبد الحميد الزهراوي



﴿ الجامعة الاسلامية ﴾

كتب رفيق بك العظم الشهير بمباحثه التاريخية والاجتماعية رسالة في الجامعة الاسلامية أشرنا اليها في الجزء الماضي ووفاء بالوعد نقتبس منها ما يأتي

هل صحيح ما تقوله أوربا

﴿ عن الجامعة الاسلامية ﴾

علمت أيها القارئ من هذا التمهيد ان الاجتماع يستدعي بطبيعته وجود الروابط القومية والوطنية الخ وان الغرض من هذه الروابط حفظ التوازن بين قوي المجتمعات الانسانية الميالة الى المغالبة بحكم الانانية والطمع وان أقل هذه الروابط تأثيرا في المجتمعات رابطة الدين وان المسلمين لم تجمعهم هذه الجامعة يوما حتى ولا على التعاون على دفع الكوارث الكبري التي حلت ببلاد الاسلام من هجمات أهل الصليب والتتار ولو اجتمع المسلمون امام أمثال هذه الجوامع الكبرى سواء في ذلك الوقت أو الآن أو كل زمان لأتوا عملاً تستدعيه طبيعة الوجود لا سبة فيه ولا مؤاخذة عليه الا اذا محيت من صفحات الوجود قوانين الروابط الاجتماعية بحكم الاخوة الانسانية والمساواة العامة بين افراد البشر وأقوامهم ولا يكون هذا الا اذا استبدل البشر بخلق آخرين من جنس الملائكة المطهرين

اذا تقرر هذا فاعلم ان دعوى القائلين بخطر الجامعة الاسلامية المتوقع بمعناها

الذي يريده أولئك القائلون مدفوعة من وجوه

الوجه الاول : ان الجوامع الجنسية غالبة عند الامم وأخصها الأمة الاسلامية لهـذا نرى المسلمين قد مزقهم الاوربيون وتشاطر ملكهم الدول المسيحية دون أن يمد بعضهم يد المعونة الى بعض باسم الدين والجامعة الاسلامية لغلبة العصبية الدينية ولتخاذلهم المعروف المتأتي عن تحاسد أمرائهم الذين أعماهم الجهل وحب الذات والانانية الباطلة حتى عن الاعتصام بالجوامع السياسـية التي تقضي بها أحيانا المصالح المتحدة بين دول الارض

الوجه الثاني : ان المسلمين ولو اجتمعوا باسم الدين لمناهضة دول أوربا فلا يكون اجتماعهم خطرا على المدنيـة كما يذهب اليه سياسيو المغرب بل يكون وفاء بحق القوميـة ورجوعاً الى الاعتصام بالرابطة العامة التي يمكنها أن تقابل رابطة الدول المسيحية الغربية التي اجتاحت أغلب ممالك الاسلام وكانت خطرا كبيرا على حياة المسلمين السياسية وقد أبنا فيما سبق ان قوانين الاجتماع الطبيعية تقضي على الشعوب بالذود عن مجتمعها والذب عن استقلالها مالم يصبح البشر كله في حقوق الانسانية والتمتع بثمرات الحياة سواء

الوجه الثالث : أن القول بالجامعة الاسلامية واتحاد الاسلام وغير ذلك من الالفاظ الوضعية التي أراد واضعوها ايغار صدور الأمم على المسلمين انما هي من موضوعات السياسيين في هذا العصر لم ترد في تاريخ الاسلام وليس لها في الدول الاسلامية شأن غير سياسي أصلاً وهو شأن الدول القائمة والأمم الفاتحة في كل عصر وعلى تقدير ان هناك مايدعو الى القول باتحاد المسلمين في هذا العصر فمنشأوه اتحاد أوربا على اكتساح ممالك الاسلام واستعباد المسلمين فليسموا اتحاد المسلمين بازاء اتحادهم الاتحاد الديني أو الجامعة الاسلامية أو الشرق والغرب أو ماشاؤا من الاسماء أفليس معنى ذلك كله ان المسلمين يريدون الاعتصام بجامعة كبرى تقابل اجتماع الدول المسيحية على اهتضام حقوق الامم الاسلامية

من العجيب أن الدول الاوربية التي تسوغ لنفسها الحق بالاستيلاء على الممالك الشرقية والقضاء على حياة المسلمين السياسية لاتسوغ للمسلمين الحرص على هذه

الحياة بأن يحموا بقوة الاجتماع والتألف ذمارهم ويصونوا من عبث العابثين استقلالهم وان ينادي ساستهم أن في وجود الجامعة الاسلامية خطرا على أوربا وبعبارة أوضح على سياسة دولها الموجهة الى تدويخ الممالك الاسيوية والافريقية ولا يجوز أن يقول المسلمون أن في وجود الجامعة المسيحية الاوربية خطرا على الممالك الاسلامية مع تحقق الخطر من قبل هذه وانتفائه من قبل تلك

ان ساسة المغرب يوهمون العالم أن الجامعة الاسلامية خطر على المدنية لاصطباغها بصبغة دينية مع أنها خير على المدنية وأرجى لنفع الانسانية لو قام بها المسلمون واليك البيان

﴿ الاسلام والجامعة الاسلامية ﴾

من المعلوم بالضرورة أن معنى الدعوة الى الدين هو ربط أفراد كثيرين وأقوام عديدين بعقيدة واحدة فالأمة التي تدين بدين واحد مسوقة بضرورة المشاركة في الاعتقاد الى المشاركة في العواطف وهذا هو الارتباط الديني الذي قلنا أنه كباقي الروابط طبيعي بين البشر مادام لهم دين أو أديان والاسلام من هذه الوجهة كباقي الأديان الا أنه يمتاز بأمرين جديرين بالنظر والاعتبار وهما تنويهه بشأن الارتباط الأخوي بين المسلمين ارتباطا خاصا ثم الارتباط الانساني بين الناس كافة ارتباطا عاما ومما جاء في الأمر الأول قوله تعالى في القرآن الكريم (إنما المؤمنون اخوة) وقوله (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعـدوان) وفي الحديث النبوي (المسلمون تتكافأ دماهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) وفي الحديث أيضاً (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ولذا كانت رابطة التعاون والإخاء عقيدة من عقائد المسلمين وان تناسوها ولم يعملوا بها الا قليلا

ومما جاء في الأمر الثاني في الرابطة الانسانية قوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفي الحديث (لافضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) (١)

(١) أين هذا مما يعتقده الاوربي من أنه أفضل البشر وأسماهم

وأنت ترى من هذا أن الاسلام له رابطتان رابطة العواطف التي يشترك بها كل أرباب دين ورابطة التعاون والأخاء التي يدعو اليها بالفعل الا أنه بين معنى هذا التعاون في أنه على الخير دون الشر وعلى البر بالناس دون العدوان عليهم لكي يكون ارتباطهم بجامع الاخاء الديني واجتماعهم عليه غير مقصود به العدوان بل المحاسنة والاحسان وصريح قوله بالاجتماع وعدم التفرق محمول على ما تستدعيه حالة الاجتماع من لزوم حفظ البيضة وكف الايدي العادية عن المجتمع وهذا ضروري للمجتمعات كما أشرنا اليه في التمهيد

ثم لكي لا تكون جامعة الدين سبباً للعدوان مع الآخرين بل وسيلة الى التدرج في مدارج الانسانية في أعم مظاهرها وهي المساواة العامة بين أفراد البشر وأقوامهم فيما تقتضيه حقوق الانسان على الانسان من الكرامة وحسن الجوار وتبادل المنافع والاعمال التي جعلت الانسان مدنيا بالطبع أي محتاجاً الى التعاون مفتقراً بعضه الى بعض قال الله تعالى ارشادا للمؤمنين الى ذلك (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى) الآية

هذه هي الوحدة الدينية التي يدعو اليها الاسلام أفلا يرى المنصفون من كل قبيل أن الجامعة الاسلامية التي يوهم ساسة الغرب العالم المسيحي بخطرها على المدنية اذا اصطبغت بصبغة الدين هي خير للمدنية من أن لا تصبغ بهذه الصبغة (٢) وأن فوضى العقول عند الطوائف الاسلامية تأتي بما هو شر على المدنية مع تنكر نفوس المسلمين لهذا العهد لما تأتي به دول أوربا لمضادتهم ومضادة دولهم من أساليب المكر والخديعة توصلا لامتهان حقوقهم وسلب استقلالهم ووطء بساط ملكهم حيثما كان

اللهم ان المسلمين ما قذف بهم في لج الحيرة ووقف بهم عن السير مع الامم الراقية في سبيل المدنية الصحيحة وكشف ما بينهم و بين الامم المتمدنة فرموهم بكل نقيصة ونالوهم بكل سوء الا انفصام عروة وحدتهم الدينية والخروج عن

(٢) ان حزب الاصلاح الاسلامي الداعي الى اصلاح الدين هو الذي يريد مثل هذه الوحدة ويدعو اليها لما فيه من التقارب بين الشعوب

قانونها الجامع الذي يرمي الى غرض الاجتماع الصحيح والمدنية الفاضلة ويريد الشعوب على توحيد الكلمة لضرورة القيام على شؤون الحياة المدنية وانما يتحقق معنى الحياة في قوم أعزوا جانبهم وذادوا عن حوضهم وكانوا يدا على من ناواهم واقسطوا في المعاملة الى من عداهم وهذا ما يريده الاسلام

من الظلم أن يمثل ساسة المغرب الجامعة الاسلامية بصبغتها الدينية في صورة ينكرها الاسلام ويأباها العدل ولا تنطبق على نص من نصوص الدين كما رأيت وحسبك من الدين والتاريخ دليلا على أن الاسلام لا يحض أهله على الجامعة الا ليكونوا يدا على من ناواهم وأن يقسطوا الى من سواهم وان افترق عنهم في الدين مالم يبادئهم بالعدوان ويردهم بالسوء . إن بعض القرشيين من المشركين كانوا يزورون بعض المهاجرين من ذوي قراباتهم في المدينة فلا يقبلون عليهم ولا يحسنون اليهم لما عرفت به قريش من الشدة على المسلمين والإصرار على الشرك فنزلت في تنبيههم الى أن الدين لا يمنع من الاحسان الى غير أهله ما داموا غير مناوئين للمسلمين هذه الآية (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين)

وهذا التسامح الذي عرف به الاسلام ونبه عليه القرآن هو الذي سد كل منفذ من منافذ الاغراض السياسية التي تفسد نظام الاجتماع وتفرق وحدة الانسانية وتلقي العداوة والبغضاء بين بني الانسان فلم يستطع زعماء السياسة في الدول الاسلامية جمع الشعوب العائشة في البسيط الاسلامي على كلمة الاسلام بقوة الاكراه ولم يسعهم أن يعاملوا مخالفيهم في الدين بضروب من العنت تلجئهم ولو الى الهجرة والجلاء عن بلاد بسط عليها الاسلام جناح سلطانه وآخر من نعهد أنه حاول ذلك من ملوك المسلمين السلطان سليمان العثماني فانه لما رأى شغب المسيحيين في ولاياته الأوربية وتوالي خروجهم عن الطاعة وعلم ان بقاءهم على النصرانية خطر على تلك الولايات استفتى علماء عصره في اكراههم على الاسلام فأبوا أن يفتوه بذلك وكان ما توقعه ذلك السلطان من الخطر على تلك البلاد فضلاً عما لاقته الدولة العثمانية من النصب والتعب في سياسة أهلها ولم تزل تلاقيه فيما بقي منها في حوزتها الى الآن

ان السياسيين وأهل الانانية المتوحشة في أوربا الذين يرجفون بخطر الجامعة الاسلامية لايرون ان من الخطر على المدنية والعبث بنظام الألفة الانسانية والوحدة البشرية اضطهاد المسلمين الذين تحت كنفهم وارهاقهم بضروب من الاذلال والاعنات قصد القضاء عليهم واستئصال شأفتهم باسم السياسة ويرون ان من الخطر على المدنية وجود جامعة إسلامية تعامل باسم الدين مخالفيهم في السياسة والدين معاملة الاكفاء في الانسانية والعشراء في الوطنية كما سبق بيانه أفليس في هذا مايدعو الى الحكم على رجوع الانسانية القهقري وتقدم المدنية الى الوراء

حقا ان هذه (السياسة) المطلقة من قيود الانسانية والوجدان ومن قيود الحق والعدل تشبه في تشكيلها حكايات الغيلان الواردة في أساطير الأولين وتماثيل إله الشر عند اليونانيين فالسياسيون اذا ساقوا الشعوب الى الدمار وقتلوهم بالسيف والنار قالوا أنها السياسة واذا وطئوا بأقدامهم الحقوق وامتهنوا الشرائع اتهموا السياسة واذا أخطؤا خطأ يجلب على بلادهم الدمار وعلى دولتهم العار تدرعوا بالسياسة وبالجملة حيثما سنحت لهم سانحة شر قدموا امامهم السياسة فالسياسة عندهم (كالجسم المرن) قابلة للتشكل بأشكال الأهواء التي تنبعث في نفوسهم وتدعوهم اليها اطماعهم ولهذا لما استباحوا لجامعتهم الأوربية المسيحية السياسية اضطهاد الجامعة الاسلامية فى ملكها ودينها وأهلها ورأوا أن يأتوا لهذا العهد على البقية الباقية أخذوا يصيحون بخطر الجامعة الاسلامية تمهيدا لمقاصدهم السيئة وتكفيرا عن اجرامهم الى المسلمين أمام العقلاء وانصار العدل والفضيلة من أهل البلاد الأوربية ولسوف يعلمون أنهم مخطئون اه

(المنار) ويلي هذا فصل في الرسالة عنوانه « أوربا والجامعة الاسلامية » فيه كثير من الحقائق التاريخية والعبر



حجة الاسلام أبو حامد الغزالي

﴿ رأيه في التعلم والتعليم ﴾

بينا كيف تعلم أبو حامد الغزالي حتى صار حجة الاسلام، وإمام العلماء الأعلام، وهو أنه اجتنب التقليد وجرى على طريق الاستقلال، وكيف ربى نفسه بالرياضة والعمل حتى صار شيخ العارفين، وصفوة الصديقين، ونقفي على ذلك ببيان رأيه في التعلم والتعليم والعلوم وتربية النفس والكمال البشري في الدنيا باستخلاص ذلك من كتبه وتقديمه زبدة نقية لطلاب الكمال في العلم والمعرفة والعمل والمجاهدة وما يتبع ذلك حتى كأن المطلع عليه أدرك حجة الاسلام في نهايته، وأخذ عنه صفوة حكمته، وما كان ليتيسر لنا هذا لولا أن سبق لنا مطالعة هذه الكتب من قبل بقصد الاهتداء بها، وأخذ الحقائق منها، وقد كنا ذكرنا في المنار ان كتابه إحياء علوم الدين كان أستاذنا الأول واننا وفقنا لمطالعته قبل الشروع في طلب العلوم الآلية والشرعية وبإرشاده كان لهذا العاجز طريقة خاصة في الطلب مقرونة بالنية الصالحة كان من أثرها ماعبر عنه شيخنا الشيخ حسين الجسر بقوله في ملأ من الناس بدار علي أفندي السمين بطرابلس الشام: ان فلانا ساوى في سنة واحدة من سبق لهم الاشتغال علي سبع سنين من أذكياء الطلاب: والفضل في هذا بعد عناية الله وهدايته لابي حامد الغزالي جزاه الله عنا خير الجزاء. وإنما صرحت بهذا ليعلم من يقرأ ترجمة حجة الاسلام في المنار أنني أجري فيها على بينة وخبرة متمكنة لا كمن يريد ان يكتب عن عالم أو حكيم فينظر عند الكتابة الى بعض ماقيل فيه وبعض مايؤثر عنه فيختطف من ههنا عبارة ومن هناك أثارة ويجعل ذلك ترجمة، وللترغيب طلاب العلوم لاسيما الازهريين منهم في التأمل والتبصر فيما نكتب عن هذا الامام وتحري الاستفادة منه وامل ذلك يكون مشوقا لهم الى مطالعة الاحياء وغيره من كتبه

﴿ رأي الغزالي فيما يطلب من المتعلم ﴾

نلخص ما يأتي من كتاب العلم من الإحياء مقرونا بالعبرة فقد جاء في الباب الخامس منه في آداب المتعلم والمعلم ما يأتي : أما المتعلم فآدابه ووظائفه (*) كثيرة ولكن ينظم تفاريقها عشر جمل

وظائف طالب العلم وآدابه

(الوظيفة الأولى) تقديم طهارة النفس عن رذائل الاخلاق ومذموم الأوصاف اذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن الى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة الا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم الا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الاوصاف »

أقول ثم أطال في هذا وقد اشترطه مثله صاحب الذريعة الى مكارم الشريعة لطالب علم الحقائق فقال « حق المترشح لتعلم الحقائق أن يراعي ثلاثة أمور — الأول أن يطهر نفسه من رديء الأخلاق تطهير الأرض للبذر من خبائث النبات وقد تقدم أن الطاهر لا يسكن الا بيتا طاهرا وأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب » وقد شرح الغزالي هنا حديث عدم دخول الملائكة بيتا فيه كلب (وهو في الصحيحين) بطريق الإشارة والاعتبار فقال :

« واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره الى الدنيا والتكالب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور ، والصور في هذا العالم غالبة على المعاني باطنة فيها، وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني فلذلك يحشر كل شخص على

(*) هي جمع وظيفة وهو استعمال مولد وأصل الوظيفة من الشيء ما يقدر له في كل يوم من رزق أو طعام أو شراب أو علف للدواب ذكره في لسان العرب وقال: وظفه توظيفا ألزمها إياه (أي الوظيفة) وقد وظفت له توظيفا على الصبي كل يوم حفظ آيات من كتاب الله عز وجل : اه فإطلاق أهل العصر الوظيفة على أعمال الحكومة له وجه وجيه

صورته المعنوية » ثم قال

« فان قلت كم من طالب رديء الأخلاق حصل العلوم فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فان من أوائل ذلك العلم أن يظهر له ان المعاصي سموم قاتلة مهلكة وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا انما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم فى شيء قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية انما العلم نور يقذف فى القلب: وقال بعضهم انما العلم الخشية لقوله تعالى (٣٥ : ٢٨ إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكأنه أشار الى أخص ثمرات العلم ولذلك قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون الا لله ان العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته وانما حصل لنا حديثه وألفاظه

« فان قلت اني أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برزوا فى الفروع والاصول وعدوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها فيقال اذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك ان ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وانما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى اذا قصد به التقرب الى الله تعالى وقد سبقت الى هذا اشارة وسيأتي فيه مزيد بيان وايضاح ان شاء الله تعالى »

أقول المراد بهذه الوظيفة ما نعبر عنه بالتربية النفسية فمن رأيه انها مقدمة على التعليم وأن من يعلم من لم تتهذب أخلاقه كان كمن يقلد الدر أعناق الخنازير، ويعطي السلاح للمجانين، وذلك أن المتعلم الفاسد الأخلاق يستعين بعلمه على الشرور والافساد في الأرض كما هو مشاهد . ومن رأي كثير من العقلاء أن علة سوء حال أهل الأزهر هي كون أكثرهم ممن لم يتحلوا بتربية ولا تأديب لكونهم من بيوت لا تعرف للتربية معنى ولا للتهذيب سبيلا ولا للعلم قيمة وإنما يقذف أهلها بأولادهم في الازهر لأجل الخلاص من خدمة العسكرية أو لاجل الجراية وأرقاهم من يقصد أن يكون بعد التعليم قاضيا أو مفتيا ولا شيء من ذلك يعد من طلب العلم لوجه الله واذا لم يقصد بالعلم الديني وجه الله باحياء هدي كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاصلاح

حال عباده في نفوسهم وأحوالهم الاجتماعية فأي غناء فيه وكيف يرجى الخير من صاحبه بل لا يشك عاقل في كون طلب العلوم الدنيوية لا يكون مرقيا لنفس صاحبه وحاملا له على خدمة أمته بالاخلاص النافع الا اذا صحبته تربية النفس وتهذيب الاخلاق وحسن النية فمن كان فاسد الاخلاق اتخذ العلم وسيلة لحظوظ الدنيا وشهواتها لا يبالي في سبيلها بأمة ولا ملة . ففساد الاخلاق هو السبب في قلة النابغين في علوم الدنيا والدين ، وقلة العاملين المخلصين ممن يعدون نابغين ، ولو كانت نفوس أكثر المتعلمين منا أو الكثير منهم عالية وأخلاقهم كاملة لسهل عليهم النهوض بهذه الامة الى أوج العزة في زمن قصير ، ولكن بلاءنا بفقد التربية أضعاف بلائنا بنقص التعليم ، . واذ قد قرأت بعض كلمات حجة الاسلام في علماء الدين في عصره المنير فماذا تقول فيهم في عصرنا هذا ؟ ثم قال

(الوظيفة الثانية) ان يقلل (وفي نسخة يفرغ) علائقه من الاشتغال بالدنيا و يبعد عن الاهل والوطن فان العلائق شاغلة وصارفة (٣٣ : ٤ ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا أعطيته كلك فأنت من اعطائه إياك بعضه على خطر (يريد على شك) والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الارض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع و يبلغ المزارع »

أقول انه جعل الرحلة ومفارقة الوطن والاهل وتقليل العلائق والشواغل وظيفة واحدة لأن الغرض منها فراغ الفكر وصفاء الذهن فكأنه هو الوظيفة المقصودة وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا للرحلة في طلب العلم وكونها مزيد كمال في التعليم وما زال الناس على هذا في الشرق والغرب حتى ان أهل المملكة الواحدة من ممالك أوربا لا يكتفون بالرحلة من بلد من بلادهم الى آخر لجودة التعليم في مدارسه واتساع دائرة العلوم فيها بل يرحل منهم كثيرون الى مدارس مملكة أخرى كرحلة أهل فرنسا وانكلترا الى سويسرا وألمانيا . ثم قال

(الوظيفة الثالثة) أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقي اليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته اذعان المريض الجاهل للطبيب

المشفق الحاذق . وينبغي ان يتواضع لمعلمه و يطلب الثواب والشرف بخدمته ... فلا ينبغي لطالب العلم ان يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة الا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة . ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فان خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه اذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع انه يعظم نفعها ... و بالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالاخفاق والخسران »

أقول ذكر في هذه الوظيفة كثيرا من الاداب قد يتوقف في تقليد المعلم منها ويظن ان هذا مخالف لما ذكرناه عنه من سلوك طريق الاستقلال في العلم وانما يظن هذا من يغفل عن الفرق بين العلم نفسه وبين طريق التعليم فتحكم الطلاب في طريقة الاستاذ في التعليم خرق وفساد لا يجوز بحال ولو جاز هذا لكان مؤديا الى المحال عند ما يقترح كل طالب طريقة غير الذي اقترحها الآخر وأنى يكون للتلميذ رأي في طرائق التعليم وهي مما لا يعرف الصواب فيها الا بعض العلماء المجربين وانما بينت هذا على ظهوره ليعتبر به طلاب العلم في الازهر فان كثيرا منهم يعدون عقبة في طريق إصلاح التعليم بما جروا عليه من العادات في المطالعة والفهم بطريق التفكيك وتتبع المفردات والاعراض عن الأساليب والتزام الشروح والحواشي والتقارير وقد كلمت غير واحد من المدرسين في تحسين طريقة التعليم بالجري على الاساليب الحديثة فاعتذروا بأن المجاورين يتركون دروسهم اذا هم تركوا المألوف فيها . وانما يأتي هذا الافساد من المجاورين الذين ألفوا طريقة الازهر العتيقة بطول الجري عليها اذ المبتدىء لا رأي له وكان المنتظر من هؤلاء اذا تحكموا في ذلك أن يكونوا وسيلة للاصلاح لا للبقاء على الخطأ القديم . نعم ان فيهم من يطلب الاصلاح فلا يجده وهم الاذكياء من تلاميذ الاستاذ الامام رحمه الله تعالى وقد وجدوه الآن بمدرسة القضاء الشرعي وسيظهر أثر ذكائهم واستقلالهم بعد زمن قصير ان شاء الله تعالى

على أن التقليد في العلم نفسه ضروري للمبتدىء حتى يصير اهلا للنظر والاستدلال ، فعند ذلك يسلك طريق الاستقلال ، ثم قال

(الوظيفة الرابعة)أن يحترز الخائض في العلم في مبدإ الامر عن الاصغاء الى اختلاف الناس سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أومن علوم الآخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه من الادراك والاطلاع بل ينبغي ان يتقن أولا الطريقة الحميدة المرضية عند أستاذه ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه، وان لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأي واحد وانما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فان إضلاله أكثر من ارشاده فلا يصلح الاعمي لقود العميان وارشادهم . ومن هذا حاله فهو يعد في عمي الحيرة وتيه الجهل

« ومنع المبتدي عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالاسلام من مخالطة الكفار . وندب القوي الى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوي على مخالطة الكفار ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار و يندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء ان الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ولم يدر أن وظائف الاقوياء تخالف وظائف الضعفاء » الخ

أقول وقد جرى هو على ذلك فانه أتقن في الفقه مذهب الشافعي وفي الكلام مذهب الاشعري ثم نظر في سائر المذاهب والآراء على طريق الاستقلال ومن لم يتقن في أول أمره شيئاً فقلما يستفيد بعد ذلك من الخلاف الا حيرة واضطرابا. وما حذر عنه من الاخذ عن الذين ينقلون المذاهب والاقوال و يعجزون عن تأييد شيء منها هو من أنفع مايساق الى مجاوري الازهر الذي يكثر فيه أمثال هؤلاء المعلمين الذين لايكادون يجزمون في مسألة خلافية بشيء واشتهر بعض كبرائهم بذلك حتى صار بعض المجاورين يظن ان سرد الاقوال والآراء في المسألة هو الكمال في العلم وما هو الا منتهى الجهل الذي يذهب بالاستعداد للعلم حتى ان من طال عهده به لا يمكن أن يكون عالما وحسبك بحجة الاسلام مختبرا وناصحا . ثم قال

(الوظيفة الخامسة)أن لايدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولانوعا من أنواعه الا و ينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه والا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية (أي أخذ منها الطرف

والنوادر) فان العلوم متعاونة و بعضها مرتبط ببعض و يستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (٤٦ : ١١ واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) وقال الشاعر:

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها اما سالكة بالعبد الى الله تعالى أو معينة على السلوك نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود . والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة اذا قصد به وجه الله تعالى » اه كلامه

أقول وهذا الكلام الاخير مبني على ماقرره في هذا الكتاب من كون جميع العلوم النافعة في الدين أو الدنيا مفروضة دينا حتى فنون الصناعات التي عليها مدار المعيشة فانها من فروض الكفايات كفنون اللغة وكصلاة الجنازة ومتى صلحت نية القائم بها وأحسن عمله بالصدق وعدم الغش كان بتعلمه هذه الفنون و بعمله فيها عابدا لله تعالى مستحقا للثواب في الآخرة

وأما ماقرره من طلب الاطلاع على جميع العلوم والفنون المتداولة في العصر فهو ما جرى عليه في تربيته لنفسه وعليه علماء فن التعليم من أهل هذا العصر وهو حجة على كثير من شيوخ الدين عندنا فانهم لجهلهم بأنفع علوم العصر الكونية والعقلية يعادونها و ينفرون طلاب العلوم الدينية منها فيجنون بذلك على دين أمتهم ودنياها و يبعدون الناس عن الدين بزعمهم ان هذه العلوم تنافي الدين كما قاله الامام الغزالي في أمثالهم من أهل عصره وسيأتي نقله عنه في فصل الكلام عن رأيه في العلوم . ثم قال :

(الوظيفة السادسة) ان لايخوض في فن من فنون العلوم دفعة بل يراعي الترتيب و يبتدىء بالاهم فان العمر اذا كان لايتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم ان يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه الى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة »

أقول ان هذا مسلم في جملته عند علماء فن التربية والتعليم من أهل هذا العصر وهو مرتبط بما تقدم في الوظيفة الخامسة وقد صار الكثيرون من أهل الغرب الذين اتسعت عندهم دائرة العلوم وكثرت فروعها يصرفون جمام قوتهم الى اتقان فرع من فروع العلم الواحد كطب العيون أو طب الآذان أو طب الامراض العصبية من علم الطب مثلا وذلك بعد تناول طرف من كل علم وفن كما تقدم . وأما كون علم الآخرة هو أشرف العلوم فسيأتي بيان المراد منه وقد ذكر فيه هنا مالم نر من الصواب ذكره ثم قال

(الوظيفة السابعة) ان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا و بعضها طريق الى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج قال تعالى (١ : ١٢١ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي الى مافوقه . فينبغي ان لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل . فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها وقد مضى كشف هذه الشبهة في معيار العلم ، وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر . والكل خطأ بل ينبغي ان يعرف الشيء في نفسه فما كل علم يستقل بالاحاطة به كل شخص ولذلك قال علي رضي الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله : »

أقول ان هذه الوظيفة توجد في أكثر النسخ وسقطت من النسخة التي شرح عليها الزبيدي فالوظائف فيها تسع . وقد ذكر فيها أمران أحدهما ترتيب العلوم وهو مما لا مجال للخلاف فيه لاسيما في العلوم المتحدة في النوع كالرياضيات فان من لا يتقن الحساب لا يفهم الهندسة لتوقفها عليه والهيئة الفلكية متوقفة عليهما جميعا . ولأهل هذا العصر في ترتيب العلوم بالمدارس النظامية إتقان أي إتقان . والامر الثاني الحكم على العلوم بالوقوف عليها ومعرفة موضوعها وغايتها وأهم مسائلها

لا باعتبارات خارجة تؤخذ من حال أهلها كما ينفر بعض شيوخنا عن علوم العصر بشبهة قلة التمسك بالدين من أكثر متعلميها وما يدريهم أن ذلك جاء من سوء التربية لا من طبيعة العلوم والحكم على الشيء فرع عن تصوره كما يقولون قال

(الوظيفة الثامنة) أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم وان ذلك يراد به شيآن أحدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها وان نسب الحساب الى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظة الثمرة أولى ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل الى هذه العلوم فإياك وان ترغب الا فيه وان تحرص الا عليه »

أقول يعني بالطريق الموصل طريق الصوفية الذي وصل هو منه بعد إن انقطعت به الطرق الأخرى من الكلام والفلسفة ومذهب الباطنية . وهكذا شأن الدعاة يتطرقون الى مقصدهم من كل ناحية انتحوها . ومن الناس من يقول أن أبا حامد يجذب الناس الى الآخرة حتى يوشك أن تكون قراءة الإحياء وما شاكله من كتبه من أسباب تعطيل مصالح قارئيه وإضاعة دنياهم وهجر سائر العلوم والفنون وليس كذلك كما ترى في الوظيفة الآتية وانما هو دعوة الى الكمال وسنبين تحقيق ذلك بعد . ثم قال

(الوظيفة التاسعة) أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي الى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران . واذا كان هذا مقصده طلب لامحالة الأقرب الى مقصده وهو علم الآخرة ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة الى سائر العلوم أعني علم الفتاوى (يعني به مايسمى الفقه) وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما

أوردناه في المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية (كفنون الصناعات كلها) ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالمتكفلون بالعلم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله منهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم و يتعهدها ولا ينفك أحد منهم عن أجر اذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى (٥٨ : ١١ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال تعالى (٣ : ١٦٣ هم درجات عند الله) والفضيلة نسبية (أي بينهم) واستحقارنا الصيارفة عند قياسهم بالملوك لايدل على حقارتهم اذا قيسوا بالكناسين . فلا تظن أن مانزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين في العلم ثم الصالحين على تفاوت درجاتهم . و بالجملة من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، ومن قصد الله بالعلم أي علم كان نفعه ورفعه لامحالة »

أقول يعني رحمه الله تعالى أنه ينبغي لطالب الكمال أن يطلب بالعلم الذي يتوجه لتحصيله وجه الله تعالى أي الوجه الذي يرضيه وهو الذي فيه إقامة سننه في النظام العام ومنفعة الأنام وذلك مدعاة لاتقان الأعمال وحسن النية فيها وانتفاء الغش بها وهل ثم من طريق للكمال الانساني أقرب من هذا ؟ ألسنا نشاهد نشوء الغش والطمع والاحتيال والقسوة وأشباه هذه الرذائل في أهل العلوم والفنون والصنائع الذين لايعرفون الله ولا يبتغون وجهه ؟ ثم قال :

«الوظيفة العاشرة» أن يعلم نسبة العلوم الى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ومعنى المهم ما يهمك ولا يهمك الا شأنك في الدنيا والآخرة واذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن ، وشهد له من نور البصائر مايجري له من مجرى العيان ، فالأهم ما يبقى أبدالآباد ، وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركبا والاعمال سعيا الى المقصد ولا مقصد الا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وان كان لايعرف قدره في هذا العالم الا الأقلون » الخ ماأطال به في هذه المسألة

أقول اذا أخذنا قول أبي حامد هنا على ظاهره نحكم بأنه غلط في قوله إن القرآن نطق بأنه لا يمكن الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة فاننا نسمع منادي القرآن يتلو علينا في سورة الاعراف وهي من السور المكية التي بين فيها أصول الدين وكلياته « ٧ : ٢٣ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ولكن المعقول الذي نطق به القرآن هو أن من آثر الحياة الدنيا على الآخرة وكان لا يعمل الا للذاتها وشهواتها يفوته حظه من الآخرة كله أو بعضه وذلك ان حظ الانسان في الآخرة يكون على حسب ارتقاء نفسه في الحق والخير والاخلاص وغير ذلك من ثمرات الايمان، وايثار الشهوات يضعف هذه الاشياء حتى يذهب بها من النفس فتبقى حيوانية شيطانية . ومن الآيات المثبتة لهذا التفصيل قوله (٢ : ٢٠٠ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ٢٠١ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ٢٠٢ أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) وقوله (٧٩ : ٣٧ فأما من طغى ٣٨ وآثر الحياة الدنيا) الخ الآيات . واننا نجد في كلام أبي حامد مايوافق هذا التفصيل في مواضع من الاحياء ككتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال والجاه وغيرها من كتب الاحياء ولذلك يمكن حمل كلامه هنا على ان المراد بكل من ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة مرتبة الكمال فيهما فان من كان همه استكمال اللذات البدنية لا يمكنه ان يستعد لتحصيل كمال نعيم الآخرة المعبر عنه بلقاء الله تعالى والفوز برضوانه الاكبر بل ربما تعذر عليه الاستعداد لما دون ذلك كما يفهم من التفصيل المذكور آنفا

ثم بين أبو حامد بعد وظائف المتعلم وظائف المعلم المرشد ويعني بالمرشد المربي للنفس المهذب للأخلاق فقال :

بيان وظائف المعلم المرشد

« اعلم ان للانسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال اذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن

السؤال وحال اتفاق على نفسه فيكون منتفعاً وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى كالمال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغني عن السؤال وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعي عظيماً في ملكوت السموات فانه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب . والذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم ، وكالمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع ، والابرة التي تكسو غيرها وهي عارية ، وذبالة المصباح (فتيلته) تضيء لغيرها وهي تحترق كما قيل :

ما هي الا ذبالة وقدت   تضيء للناس وهي تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه

« الوظيفة الاولى » الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » (*) بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فان الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب الى الهلاك الدائم وانما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة أعني معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه

« وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتواد ولا يكون الا كذلك اذا كان مقصدهم الآخرة ولا يكون الا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا » . الخ

أقول غرض أبي حامد رحمه الله تعالى أن أول شيء يطالب من المعلم المربي

(*) رواه أبو داود والنسائي وابنا ماجه وحبان من حديث أبي هريرة وليس فيه كلمة « للولد » ولفظ أبي داود « إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم » الخ وفي سنده من تكلم فيه

هو أن يكون تلاميذه كأولاده في تربيتهم بالشفقة والرحمة دون الغلظة والقسوة ومن لوازم الرحمة والشفقة حفظ كرامة الناشيء وتربية ملكة العزة والشرف في نفسه ومن لوازم القسوة إهانته وتحقيره ولا شيء يفسد الاخلاق كالقسوة في التربية وامتهان المربي واحتقاره بالقول أو المعاملة . ولا أعون على التربية مع الرحمة والتكريم من السير فيها على هدي الدين من قصد الآخرة والتحذير من الغرور بمفاسد الدنيا وحظوظها الحقيرة وقد جرى أهل المدارس الدنيوية في هذا العصر على طريقة الرحمة والتكريم في التربية ولكنهم أهملوا أمر الدين فكان أكثر المتخرجين في مدارسهم لاهم لهم من حياتهم الا التمتع بالشهوات وطلب المال من غير مبالاة بحرام ولا حلال . ثم قال

« الوظيفة الثانية » أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكرا ، بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب اليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وان كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب الى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالذي يعيرك الأرض لتزرع لنفسك فيها زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منة ؟ وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الاجر الا من الله تعالى كما قال عز وجل (١١ : ٢٩ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري الا على الله) فان المال وما في الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس فمن طلب العلم بالمال كان كمن مسح أسفل نعله بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربهم وعلى الجملة فالفضل والمنة للعلم

« فانظر كيف انتهى أمر الدين الى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب الى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما فإنهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف اليهم

« ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة وينصر وليه ويعادي عدوه وينتهض حمارا له في حاجاته مسخرا بين يديه في أوطاره فان قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحيي من أن يقول : غرضي من التدريس نشر العلم تقربا الى الله تعالى ونصرة لدينه : فانظر الى الأمارات ، حتى ترى ضروب الاغترارات »

أقول أما أخذ الأجرة على التعليم ففيه بحث وان كنا لا نخالف أبا حامد في كون ماذكره هو الكمال اللائق بعلماء الدين لا سيما اذا كانوا فى سعة من العيش ولكن التعليم قد صار صناعة لا يتقنها الا من انقطع لها عن الأعمال والمكاسب فمن كانت هذه حاله لا يمنع إخلاصه في التعليم وابتغاء وجه الله به قبول الأجرة عليه لا سيما اذا كانت الأجرة من المصالح العامة كالأوقاف وخزائن الحكومات وادارات المدارس التي تنشئها الجمعيات أو الأفراد

وأما ما قاله في العلماء الذين جعلوا الدين أحبولة لصيد المال والجاه والتقرب من الأمراء والحكام فهو الحق الأبلج وكذلك كلامه فيمن يحاولون استخدام تلاميذهم وتسخيرهم في منافعهم والانتصار لهم . واذا كان هذا شأن الكثير من الفقهاء والمتكلمين في عصره فماذا كان يقول لو رأى علماء الدين فى عصرنا هذا ؟؟ فليعتبر المعتبرون ثم قال

« الوظيفة الثالثة » أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي . ثم ينبهه على ان الغرض بطلب العلوم القرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن . فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده . فان علم من باطنه انه لا يطلب العلم الا للدنيا نظر الى العلم الذي يطلبه فان كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام ، والفتاوى في الخصومات والأحكام ، فيمنعه من ذلك فان هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون الا لله : وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة

ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها فاذا تعلمه الطالب وقصده الدنيا فلا بأس أن يتركه فانه يتشمر له طمعا في الوعظ والاستتباع ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره اذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة وذلك يوشك أن يؤدي الى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره ويجري حب القبول والجاه مجرى الحب الذي ينثر حوالي الفخ ليقتنص به الطير وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها الى بقاء النسل ، وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم وهذا متوقع فى هذه العلوم

« فاما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة (أي في الفقه) فلا يزيد التفرغ لها مع الإعراض عن غيرها الا قسوة في القلب وغفلة عن الله تعالى وتماديا فى الضلال وطلبا للجاه الا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة فانظر يا أخي واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد والله المستعان »

أقول هذا ما يقوله حجة الاسلام في الفقهاء والمتكلمين أيام كانوا أئمة في هذه العلوم بهم ارتقت واتسعت دوائرها وكانت محتاجا اليها لوجود الفلاسفة والمبتدعة الذين يرد عليهم المتكلمون ولكون جميع الاحكام في بلاد المسلمين كانت جارية على أحكام الفقه وهو مع ذلك يعد علومهم دنيوية ويقول إنه علم بالتجربة كما علم بالبرهان أنها لا تزيد القلب الا قسوة وحبا في الدنيا وإعراضا عن الله تعالى فماذا نقول في المنقطعين لهذه العلوم اليوم وهم مقلدون لأولئك الذين كانوا في عصره ولمن دونهم ممن بعدهم والحاجة الى علومهم الآن ليست كالحاجة اليها في عصره فان معظم فقههم لا يحكم به أحد من حكام المسلمين اليوم ومعظم علم الكلام الذي يزاولونه لا حاجة اليه لأنه عبارة عن رد على الفلسفة اليونانية التي نسخت بالفلسفة العصرية وعلى المعتزلة الذين انقرضوا

مع هذا نرى شيوخ العصر في الأزهر وأمثاله من المدارس الاسلامية في سائر البلاد يتبجحون بأنهم رجال الدين المحافظون عليه وهم لا يلتفتون الى علومه

الحقيقية التي تهذب النفوس وتصلح القلوب وتربي الارواح من التفسير والحديث والاخلاق وسنن الله في الأنفس والآفاق وحكمه في المخلوقات كما أوضحه حجة الاسلام في الاحياء . وقد تعب الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله تعالى واجتهد وقاسى البلاء ليجعل علم الاخلاق وتاريخ نشأة الاسلام والتفسير الحقيقي مما يدرس في الازهر فلم يصادف من القوم الا إعراضا فاما تفسير كتاب الله على أنه هدى ورحمة وموعظة وعبرة فقد أحياه بنفسه ولذلك مات بموته وأما الأخلاق وآداب الدين وتاريخ الاسلام فقد تقرر بسعيه تدريسها رسميا ولكنها لا تدرس ولا يحفل بها أحد ومع ذلك كله كانوا يحاربونه بزعم أنه يشغلهم عن علوم الدين ويرددون بألسنتهم وأقلام الجرائد المنتصرة لهم كلمة « الازهر مدرسة دينية محضة » فليعرضوا هذا القول على ماقرره حجة الاسلام في الاحياء في هذا الموضع وغيره ولينظروا بعد ذلك مكانه من الصدق . ألا إن الازهر وأمثاله مدارس دنيوية محضة بحسب ماقرره أبو حامد ولا نعرف أحدا من العلماء نازعه فيما قرره ويشهد لذلك أننا لانرى المتخرجين فيها يحفلون بأمر الدين وإرشاد المسلمين . أين المتصدون لتهذيب النفوس وتربية الأرواح ؟ أين حماة العقائد من شبهات العلوم العصرية ، وأهل الغيرة على دين النابتة الحديثة ، أين أنصار السنة ، الخاذلون للبدعة ، أين الدعاة الى الدين بحسب مايليق بحال المعاصرين ؟ مهما رفعت صوتك بالنداء لاتسمع منهم مجيبا . ثم قال أبو حامد

« الوظيفة الرابعة » وهي من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق بطريق التعريض ماأمكن ولا يصرح و بطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة و يورث الجرأة على الهجوم بالخلاف و يهيج الحرص على الاصرار اذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا مانهينا عنه الا وفيه شيء » (*) و ينبهك على هذا

(*) قال العراقي في الحديث لم أجده الا من حديث الحسن مرسلا وهو ضعيف رواه ابن شاهين : قال شارح الاحياء ووجدت بخط الداودي مانصه : ولفظ ابن شاهين « لو منع الناس فت الشرك لقالوا فيه الند » وفي معناه حديث آخر

قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه فما ذكرت القصة لتكون سمرا بل لتنبه بها على سبيل العبرة . ولان التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة والاذهان الذكية الى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يغيب عن فطنته »

أقول رحم الله أبا حامد ماكان أحرصه علي تكريم الطلاب وتنشئتهم على العزة والشرف فهو يدخل على هذا المعنى من كل باب ، ويتوسل اليه بأنواع الاسباب ، فأين من هذا مايجري عليه شيوخ مشهورون من الغلظة والسباب ، ونبز تلاميذهم بأقبح الألقاب ، حتى صار الذين يتعلمون في المدارس الدنيوية يظنون أن النزاهة والتكريم للطلاب ، مما وضعه الافرنج من الآداب ، وهكذا جردنا أنفسنا من آداب ديننا ، حتى صارت تعزى الى غيرنا ، ثم قال

« الوظيفة الخامسة » إن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لايقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وان ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه و يقول ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان ، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن ، فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وإن كان متكفلا بعلوم ينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة »

أقول ان السبب في مدح كل متكفل بفن أوعلم له وذم غيره أو تقليل شأنه هو مايسمونه حب الذات فهو لايريد بذلك الامدح نفسه وتفضيلها على أقرانه ومعاصريه فهو قد يذم العلم الآخر وان كان عارفا بفائدته فكيف اذا كان جاهلا به . ثم قال

« الوظيفة السادسة » أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي اليه مالا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على

قدر عقولهم » (١) فليبث اليه الحقيقة اذا علم انه يستقل بفهمها قال صلى الله عليه وسلم « ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم »(٢) وقال علي رضي الله عنه وأشار الى صدره : إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة : وصدق رضي الله عنه (وفي نسخة الشارح عليه السلام) في قوله فقلوب الأبرار قبور الاسرار

(١) هذان حديثان أوردهما في سياق واحد أما الأول فذكر في الجامع الصغير وفي كنوز الحقائق من حديث عائشة بلفظ « أنزلوا الناس منازلهم » معزوا في الأول الى مسلم وأبي داود وفي الثاني الى مسلم فقط . وعزوه الى مسلم سهو من السيوطي والمناوي فإن مسلما لم يخرجه في صحيحه وإنما ذكره في مقدمته بغير إسناد وغير جزم إذ قال « ويذكر عن عائشة » وأما أبو داود فقد أخرجه في الأدب من سننه ورواه كثيرون فمنهم من تكلم في سنده كقول أبي داود إن ميمون ابن أبي شبيب لم يدرك عائشة ومنهم من صححه كالحاكم وابن خزيمة وقال السخاوي حديث حسن . ورواه بعضهم عنها بلفظ « أمرنا رسول (ص) أن ننزل الناس منازلهم » وورد بألفاظ أخرى

وأما الثاني فقد روي في الجزء الثاني من حديث ابن الشخير عن ابن عمر مرفوعا بلفظ « أمرنا معاشر الانبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم » كذا قال العراقي في تخريج أحاديث الاحياء والحافظ السخاوي في كتابه الجواهر والدرر وفي معناه حديث « حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله » رواه الديلمي في مسند الفردوس عن علي مرفوعا وهو في البخاري موقوف ووضع السيوطي في الجامع الصغير بجانبه علامة الحسن .

(٢) ذكر المصنف هذا الحديث في باب قبل هذا الباب بلفظ « ماحدث أحدكم قوما بحديث لا يفهمونه الا كان فتنة عليهم » ونقل شارح الكتاب عن الحافظ العراقي أنه قال : أخرجه العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود نحوه : اه قال الشارح ولفظ حديث ابن عباس « ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا اذا كان على بعضهم فتنة »

فلا ينبغي ان يفشي العالم كل ما يعلم الى كل أحد هذا اذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه . وقال عيسى عليه السلام « لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير » فان الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه، وينتفع بك ، والا وقع الإنكار ، لتفاوت المعيار ، : وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار »؟ (*) فقال اترك اللجام واذهب فان جاء من يفقه وكتمته فليلجمني فقد قال الله تعالى (٤ : ٤ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) تنبيهاً على ان حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق » اه

أقول جعل بعض أهل النظار هذه المسألة — إظهار الحقيقة لكل أحد في كل وقت — محل بحث والبحث فيها من الجهة النظرية مجال ولكن من بلا الناس وعرف شؤونهم يحكم في هذه القضية بالسلب حكما لا تردد فيه ولقد كان الانبياء المؤيدون بعناية الله وآيه يظهرون حقائق الدين بالتدريج ويستعملون الكلام المجمل والكنايات والتجوزات والمتشابهات التي يأخذ منها كل ذي عقل وفهم على مقدار عقله وعلمه . نعم لا يجوز لأحد ان يقول قولا يخالف الحقيقة ليقبله الناس فان فاعل ذلك من الكاذبين الغاشين ، لا من الحكماء الناصحين ، واذا كان هذا ينافي الصدق والحكمة ، فهو أشد منافاة للنبوة ، ومن ثم تعلم ان ما يقوله بعض الباطنية حتى في زماننا هذا من ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام قالوا اشياء تخالف الحقيقة مراعاة لافهام الناس واستعدادهم هو من الباطل الذي لا يدنو من

*) قال الحافظ العراقي أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد ولفظه عند السيوطي في الجامع الكبير « من كتم علما مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » اه أقول وفي الجامع الصغير من حديث ابن مسعود عند ابن عدي « من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجاماً من نار » وهو ضعيف

الصواب منه بل هو دليل على ان هؤلاء الباطنية يستحلون الكذب والغش والخداع فلا ثقة بأقوالهم ولا بعقائدهم أعني انه لا يوثق بأنهم يعتقدون مايقولونه ويدعون اليه بل هم طلاب رياسة من طريق الانتحال في الدين وتشكيله بشكل وثني كما يعلم من تاريخهم منذ وجدوا الى أن ظهروا باسم البابية والبهائية في هذا الزمان.

ولهذا الذي قرره أبو حامد في هذه الوظيفة جعل كتابه هذا مرتبًا على مايشبه ترتيب الفقه الذي كانت الرغبات كلها أوجلها متوجهة اليه في ذلك العصر استدراجا للقلوب اليه في ذلك العصر وحذرا أن تنفر منه كما صرح بذلك في فاتحته ، ولأجله جعل أحكام الفقه فيه على مذهب الشافعي إلا قليلا على أن رأيه في الإصلاح قائم على قاعدة إبطال التقليد كما سيأتي عنه فكأنه أراد أن يجعل الإحياء مقدمة لما قرره في كتبه التي ألفها بعد ذلك كالقسطاس المستقيم والمنقذ من الضلال والمضنون به على غير أهله . ثم قال

﴿ الوظيفة السابعة ﴾ ان المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى اليه الجلي اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم اليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله

« وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سيرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغي ان يخلى وحرفته فانه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره . بل لا ينبغي ان يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الامانة في الصناعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فانه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك

« وبالجملة لا يفتح على العوام باب البحث فانه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص »

أقول أرشد في هذه الوظيفة الى نوع من أنواع التدريج في تعليم طلاب العلوم والى طريق تعليم العامة ومن هذا يتبين لك ان ما يلح بالدعوة اليه من الاعراض عن الدنيا والرغبة في معرفة الله تعالى والعلوم التي تقرب اليه انما هو موجه الى الخواص أصحاب الاستعداد للكمال كما أشرنا الى ذلك وسنزيده بيانا . ثم قال

﴿ الوظيفة الثامنة ﴾ أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالابصار وأرباب الابصار أكثر فاذا خالف العلم العمل منع الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على مانهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الاشياء وألذها لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج ولذلك قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله　　عار عليك اذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى (٢ : ٤٤ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » (*) ولذلك قال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان عالم متهتك ، وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه ، : والله أعلم » اه

أقول يجب أن يكون المعلم مربيا وقوام التربية بالقدوة فاذا كان المعلم لعلوم الدنيا أو الدين سيء الاخلاق فاسد الآداب فانه يفسد نفوس تلاميذه بالفعل وما يقوله لهم من النصائح يكون عندهم من الأقوال التي يقصد بها الغش والرياء فالجهل بها خير لهم من معرفتها

(*) العبارة مقتبسة من حديث رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه

أثارة من التاريخ

قطعة من مكتوب شهاب الدين بن مري تلميذ ابن تيمية يعزي اخوانه تلاميذ شيخ الاسلام عنه ويحثهم على جمع مصنفاته

(أيها الاخوان)

لاتنسوا تقريرات شيخنا الحاذق الناقد الصادق قدس الله روحه لمعاني قوله تبارك وتعالى في بيان الحكم الاربع التي أودعها الله سبحانه في ضمن انكسار عسكر الرسول في يوم أحد وهي قوله تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فلا تهملوا أمر الفكرة الصالحة في هذه المعاني الشريفة وغيرها ولا تجزعوا لما حصل فان الله حي لا يموت وهو المتكفل سبحانه بنصر الدين وأهله والمختبر لعباده فيما يبتليهم به والخبير بجملة مصالحهم والرؤوف بهم والهادي لمن يشاء الى صراط مستقيم ولا يهلك على الله الا هالك والسعيد من قام بما عليه الى وفاته ومن أراد عظيم الاجر التام، ونصيحة الانام، ونشر علم هذا الامام، الذي اختطفه من بيننا محتوم الحمام، ويخشى دروس كثير من علومه المتفرقة الفائقة مع تكرر مرور الليالي والايام ، فالطريق في حقه هو الاجتهاد العظيم على كتابة مؤلفاته الصغار والكبار، على جليتها من غير تصرف فيها ولا اختصار، ولو وجد فيها كثيرا من التكرار، ومقابلتها، وتكثير النسخ بها واشاعتها، وجمع النظائر والاشباه في مكان واحد واغتنام حياة من بقي من أكابر الاخوان، فكاننا جميعا بكمال الفوت وقد حان، ويكفينا ماعندنا على ما فرطنا من عظيم الأسف، فلوجه الله معشر الاخوان لا تعاملوا الوقت الحاضر بما عاملتم به الوقت الذي قد سلف، فان حياته رحمه الله ورضي عنه كانت مأمولة الاستدراك الفارطات الفائتات، وتكميل الغايات والنهايات، فاغتنموا تحصيل كل مهمة في وقتها بلا كسل ولا ملل، ولا تشاغل ولا بخل، لان هذا المهم الكبير، أحق شيء يبذل في تحصيله المال الكثير، وقد علمتم مضرة التعليل والتسويف وكون ذلك من أكبر القواطع عن مصالح الدنيا والآخرة فاحتفظوا بالشيخ أبي عبد الله (١) أيده الله وبما عنده من الذخائر

(١) يعني ابن القيم أجل تلامذة شيخ الاسلام اه

والنفائس وأقيموه لهذا المهم الجليل بأكثر ماتقدرون عليه ولو تألم احيانا من مطالبته لانه قد بقي في فنه فريدا ولا يقوم مقامه غيره من سائر الجماعة على الاطلاق وكل أحوال الوجود لابد فيها من العوارض والانكار فاحتسبوا مساعدته عند الله تعالى وانهضوا بمجموع كلفته فان الشدائد تزول والخيرات تغتنم فاكتبوا ماعنده وليكتب ماعندكم وأنا أستودع الله دينه وماعنده وأوصيه بالصبر أيضا وبمعاملة الله سبحانه فيما هو فيه وان قصر الاخوان في حقه وليطلب نصيبه من الله تعالى متكلا عليه في رزقه المضمون ومجملا في الطلب لان ماقسم لابد أن يكون وانما أحث هممكم الصالحة عليه تحصيل كراريس الرد على عقائد الفلاسفة لانه ليس في الوجود بهذا المؤلف نسخة كاملة غير النسخة التي بخطي وكانت في الخرستان الشمالي من مدرسة شيخنا وأخبرني الشيخ شرف الدين رحمه الله تعالى انه أودع المجموع في مكان حريز ولقد شح علي بانفاذ هذه الكراريس وقت الذهاب من الشام ولا قوة الا بالله والكراس الرابع منها أخذه أبو عبد الله من يدي وهو عنده ونسخة الاصل التي بخط الشيخ هي في القطع الكبير وكانت هناك أيضا وقد بقي من آخر نسختي أقل من ورقة فأوصلوا ذلك الى أبي عبد الله ليكمل النسخة الى عند قوله « فهذا باب وذاك باب والله أعلم بالصواب » والطولى نسخة بخط كيس وكلوها لأنه مؤلف لانظير له ولا يكسر الفلاسفة مثله ومن الله نسأل المعونة على جمع شمل هذه المصالح الجليلة بعد شتاتها، ونعوذ به من عوارض القواطع وآفاتها ، لان الفوت صعب ، وغائلة التفريط ردية، وانتهاز الفرص من أهم الأمور وأجمعها لمصالح الدنيا والآخرة ومايعقلها الا العالمون، وسيندم المفرطون في استدراك بقايا هذه الامور الكاملة والمقصرون، كما ندم المتخيلون بطول حياة الشيخ والمغترون وهذه الامور التي قد أشرت اليها في هذه الأوراق الخفيفة هي أعلا أبواب النصيحة وأتمها فيما أعلم لأن الذاهب مضى، والوقت سيف منتضى، وكل من ذهب بعده من أكابر الاخوان ماعنه عوض والدهر في إدبار والشرور في زيادة واذا جمعت هذه المؤلفات العزيزة الكثيرة ونقل من المسودات مالم ينقل وقبل رأي أبي عبد الله في ذلك كله لانه على بصيرة من أمره وهو أخبر الجماعة بعظان المصالح

المفردة التي قد انقطعت مادتها وقوبل كل ما يكتب مع أصلح الجماعة أو على نسخة الاصل وروجع شيخنا الحافظ جمال الدين الذي هو بقية الخير لثقته وخبرته وشفقته وتحرقه على ظهور هذه المواد الصالحة في الوجود وسعة علمه واحاطته بكثير من مقاصد شيخنا المؤلف وروجع الشيخان العالمان الفاضلان المحققان (القاضي شرف الدين وشمس الدين بن أبي بكر) فانهما أحذق الجماعة على الاطلاق في المناهج العقلية وغيرها واذكرهم للمباحث الاصولية فيما يشتبه من المقاصد خوفا من التصحيف وتغيير بعض المعاني وروجع غيرهم من أكابر الجماعة أيضاً كان في ذلك خير كثير واستدراك كبير ان شاء الله تعالى

(والشيخ أبو عبد الله) سلمه الله هو بلا تردد واسطة نظام هذا الامر العظيم فساعدوه وأزيلوا ضرورته واجمعوا همته واغتنموا بقية حياته واقبلوا نصيحتي فيما أتحققه من هذا كله كما كنت أتحقق ان اغتنام أوقات الشيخ وجمعها على التآليف والاتقان والمقابلة خير من صرفها في مجرد المفاكهة اللذيذة والمنادمة والنفوس فرطت كثيرا في ذلك الحال، والله المسؤل بأن يكفيها مضرة كمال الفوت الذي لا عوض عنه بحال، انه رؤف رحيم، جواد كريم، فان يسر الله تعالى وأعان على هذه الامور العظيمة صارت ان شاء الله تعالى مؤلفات شيخنا ذخيرة صالحة للاسلام وأهله وخزانة عظيمة لمن يؤلف منها وينقل وينصر الطريقة السلفية على قواعدها ويستخرج ويختصر الى آخر الدهر ان شاء الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعة الله» وقال «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» والله سبحانه يقول في كتابه (ويخلق مالا تعلمون) وكما انتفع الشيخ بكلام الأئمة قبله فكذلك ينتفع بكلامه من بعده ان شاء الله تعالى فاتبعوا أمر الله واقصدوا رضى الله بجمع كل ما تقدرون عليه من أنواع المؤلفات الكبار وأشتات المسائل الصغار ومعها نسخ الفتاوى المتفرقة وسائر كلامه الذي قد ملىء ولله الحمد من الفوائد والفرائد والشوارد فأيقظوا الهمم وابذلوا الأموال الكثيرة في تحصيل هذا المطلب العظيم الذي لا نصير له فهذا هو الذي يلزمنا من حيث

الاسباب، والتمام على رب الارباب ومسبب الأسباب، وفاتح الأبواب، الذي يقيم دينه وينصر كتابه وسنة نبيه على الدوام، ويثبت من يؤهله لذلك من أنواع الخاص والعام، وكل مجزي في القيامة بعمله (وما ربك بظلام للعبيد)

وقد علم أن الامام أحمد بن حنبل كان ينهى في حال حياته عن كتابة كلامه ليجمع القلوب على المادة الأصلية العظمى ولما توفي استدرك أصحابه ذلك الامر الكبير فنقلوا علمه وبينوا مقاصده وشهروا فوائده فانتصرت طريقته واقتفيت آثاره لأجل ذلك والوجود هو على هذه الصفة قديما وحديثا فلا تيأسوا من قبول القلوب القريبة والبعيدة لكلام شيخنا فانه ولله الحمد مقبول طوعا وكرها وأين غايات قبول القلوب السليمة لكلماته وتتبع الهمم الناقدة لمباحثه وترجيحاته ووالله ان شاء الله ليقيمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه رجالا هم الى الآن في أصلاب آبائهم وهذه هي سنة الله الجارية في عباده وبلاده والذي وقع من هذه الأمور في الكون لا يحصي عدده غير الله تعالى ومن المعلوم ان (البخاري) مع جلالة قدره أخرج طريدا ثم مات بعد ذلك غريبا وعوضه الله سبحانه عن ذلك بما لا خطر في باله ولا مر في خياله من عكوف الهمم على كتابه وشدة احتفالها به وترجيحها له على جميع كتب السنن وذلك لكمال صحته وعظمة قدره وحسن ترتيبه وجمعه وجميل نية مؤلفه وغير ذلك من الاسباب ونحن نرجو أن يكون لمؤلفات شيخنا (أبي العباس) من هذه الوراثة الصالحة نصيب كثير ان شاء الله تعالى لانه كان بنى جملة أمور على الكتاب والسنة ونصوص أئمة سلف الأمة وكان يقصد تحرير الصحة بكل جهده ويدفع الباطل بكل ما يقدر عليه لا يهاب مخافة أحد من الناس في نصر هذه الطريقة وتبيين هذه الحقيقة وقد علم ان الكتبه من الخصوصية والنفع والصحة والبسط والتحقيق والاتقان والكمال وتسهيل العبارات، وجمع أشتات المتفرقات، والنطق في مضايق الأبواب، بحقائق فصل الخطاب، ماليس لأكثر المصنفين في أبواب مسائل أصول الدين، وغيرها من مسائل المحققين، لانه كان يجعل النقل الصحيح أصله وعدته في جميع ما يبني عليه ثم يعتضد بالعقليات الصحيحة التي توافق ذلك

و بغيرها و يجتهد على دفع كل ما يعارض ذلك من شبه المعقولات و يلتزم حل كل شبهة كلامية وفلسفية كما تقدمت الاشارة الى ذلك و يلتزم أيضاً الجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول و يجزم بأن فرض دليلين قطعيين متعارضين من المحال أن كان عقليين أو عقليا ونقليا قال لان الدليل هو الذي يجب ثبوت مدلوله فاما ان لا يكونا قطعيين واما أن لا يكون مدلولاهما متناقضين وعلى هذا المقصد الجليل بنى كلامه المتين وتقاسيمه العجيبة في أول قاعدته الكبيرة الباهرة التي الفها في دفع تعارض العقل والنقل فكانت مقاصده وتحقيقاته في هذا الباب العظيم عجباً من عجائب الوجود وكان يقول لا يتصور ان يتعارض حديثان صحيحان قط الا ان يكون الثاني منهما ناسخا للاول قال والامام أحمد بن حنبل كان في زمنه يصرح به و يلتزم تحقيقه وانا في زمني التزم حكم هذه القاعدة أيضا والنهوض بالجواب عن كل ما يعارضها وكان رحمه الله ورضي عنه يذب عن الشريعة و يحمي حوزة الدين بكل ما يقدر عليه وكان كما علم من حاله لا يخاف في هذا الباب لومة لائم ولا ينثني عما يتحقق عنده ولم يزل على ذلك الى ان قضي نحبه، ولقي ربه، فقدس الله روحه، ونور ضريحه، ونصر مقاصده، وأيد قواعده، والله سبحانه يعلم حسن قصده وصحة علومه ورجحان دليله وهو ناصر الحق وأهله ولو بعد حين

وجميع ما وقع من هذه الامور فيه من الدلالة ان شاء الله على شمول أمره وظهور كلمة هذه العلوم الباهرة أكثر مما فيه من الدلالة على خلاف ذلك ولا قوة الا بالله غير ان الاشياء المقدورة تفتقر الى أسبابها المعلومة ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في العريش يوم بدر يجتهد على الاستغاثة بالله التي كانت أكبر أسباب النصرة في ذلك اليوم بعد ان عرفه الله تعالى قبل ذلك جلية مصارع القوم ولما التزمه أبو بكر من ورائه قائلا له: يارسول الله أهكذا مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك: لم يترك استغاثته بربه لعلمه ان الأمور المقدرة لا بد ان تقع بأسبابها اللازمة لها المعروفة بها ومصداق ذلك ما أنزله سبحانه في تقرير هذا الامر وتحقيق هذه القاعدة وهو قوله تعالى (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بالف من الملائكة مردفين * وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم) لانه سبحانه بين حكم الاسباب المتقدمة والمتأخرة ورد الامر الى حقائق التوحيد بقوله (وما النصر الا من عند الله) وهذا هو نهاية مطالب هذا الباب واتباع هذه الاحكام الثابتة علي هذه الصفة المؤيدة هو بلاشك أعلا مراتب العبودية، وانفعها وارفعها في حق مجموع البرية، فأكثروا من استعمال هذا الامر الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل،

الحمد لله وحده وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وسلام على جميع الصالحين



نموذج من انجيل برنابا

الفصل السبعون (١)

١ وانصرف يسوع من أورشليم بعد الفصح ودخل حدود قيصرية فيلبس (١) ٢ فسأل تلاميذه بعد أن أنذره الملاك جبريل بالشغب الذي نجم بين العامة قائلا : « ماذا يقول الناس عني ؟ »

٣ أجابوا: « يقول البعض انك ايليا وآخرون إرميا وآخرون أحد الانبياء»

٤ أجاب يسوع : « وما قولكم أنتم فيّ ؟ »

٥ أجاب بطرس « انك المسيح بن الله »

٦ فغضب حينئذ يسوع وانتهره بغضب قائلا : « اذهب وانصرف عني (٢) لأنك أنت الشيطان وتحاول ان تسيء الي »

٧ ثم هدد الاحد عشر قائلا : « ويل لكم اذا صدقتم هذا لأني ظفرت بلعنة كبيرة من الله على كل من يصدق هذا »

٨ وأراد ان يطرد بطرس ٩ فتضرع حينئذ الاحد عشر الى يسوع

---

(١) سورة اللعنة على النصار

(١) قابل هذا بما في مت ١٦ : ١٣ — ٢٠   (٢) مت ١٦ : ٢٣

لأجله فلم يطرده ١٠ ولكنه انتهره أيضاً قائلا : « حذار ان تقول مثل
هذا الكلام مرة أخرى لان الله يلعنك »

١١ فبكى بطرس وقال : « ياسيد لقد تكلمت بغباوة فاضرع الى الله
ان يغفر لي »

١٢ ثم قال يسوع : « اذا كان الهنا لم يرد ان يظهر نفسه لموسى عبده
ولا لايليا الذي أحبه كثيراً ولا لنبي ما أتظنون ان الله يظهر نفسه لهذا
الجيل الفاقد الايمان ١٣ بل ألا تعلمون ان الله قد خلق بكلمة (أ) واحدة
كل شيء من العدم وان منشأ البشر جميعهم من كتلة طين ؟ ١٤ فكيف
اذاً يكون الله شبيهاً بالانسان ؟ ١٥ ويل للذين يدعون الشيطان يخدعهم »

١٦ ولما قال يسوع هذا ضرع الى الله لأجل بطرس، والأحد
عشر وبطرس يبكون ويقولون : « ليكن كذلك أيها الرب المبارك
آلهنا (ب) »

١٧ وانصرف يسوع بعد هذا وذهب الى الجليل إخماداً لهذا الرأي
الباطل الذي ابتدأ أن يعلق بالعامة في شأنه

الفصل الحادي والسبعون (ت)

١ ولما بلغ يسوع بلاده (١) ذاع في جهة الجليل كلها أن يسوع النبي
قد جاء الى الناصرة ٢ فتفقدوا عندئذ المرضى بجد وأحضروهم اليه متوسلين

(ا) خلق الله كل شيء في كلام واحد بلا شيء منه (ب) يا الله سلطان
(ت) سورة اليغفر
(١) مر ٢ : ١ ـ ١٢

اليه أن يلمسهم بيديه ٣ وكان الجمع غفيرا جدا حتى ان غنياً مصاباً بالشلل
لما لم يمكن ادخاله في الباب حمل الى سطح البيت الذي كان فيه يسوع
وأمر القوم برفع السقف ودلي على ملاء أمام يسوع ٤ فتردد يسوع
دقيقة ثم قال : «لاتخف أيها الاخ لان خطاياك قد غفرت لك»

٥ فاستاء كل أحد لسماع هذا وقالوا : «من هذا الذي يغفر الخطايا؟»

٦ فقال حينئذ يسوع : « لعمر الله إني لست بقادر على غفران
الخطايا ولا أحد آخر ولكن الله وحده يغفر (أ) ٧ ولكن كخادم لله أقدر
أن أتوسل اليه لأجل خطايا الآخرين ٨ لهذا توسلت اليه لاجل هذا
المريض وإني موقن بأن الله قد استجاب دعائي ٩ ولكي تعلموا الحق
أقول لهذا الانسان : « باسم آله (ب) آبائنا اله ابراهيم وأبنائه قم معافى »

١٠ ولما قال يسوع هذا قام المريض معافي ومجد الله

١١ حينئذ توسل العامة الى يسوع ليتوسل الى الله لاجل المرضى
الذين كانوا خارجا ١٢ فخرج حينئذ يسوع اليهم ثم رفع يديه وقال : ١٣
«أيها الرب آله الجنود الاله الحي الاله الحقيقي الاله القدوس الذي لايموت (ت)
ألا فارحمهم ١٤ فأجاب كل أحد : « امين » ١٥ وبعد أن قيل هذا
وضع يسوع يديه على المرضى فنالوا جميعهم صحتهم

١٦ فحينئذ مجدوا الله قائلين : « لقد افتقدنا الله بنبيه فان الله أرسل
لنا نبياً عظيما»

(ا) قال عيسى أقسنت (أقسمت ؟) بالله الحي أنا لا اقدر ان يغفر ذنبا من ذنوب
لا يغفر ذنوب الا الله منه (ب) باذن الله (ت) سلطان الله حي حق ولي وباق

الفصل الثاني والسبعون (أ)

١ وفي الليل تكلم يسوع سراً مع تلاميذه قائلا : ٢ « الحق أقول
لكم ان الشيطان يريد أن يغربلكم كالحنطة (١) ٣ ولكني توسلت الى
الله لأجلكم فلا يهلك منكم الا الذي يلقي الحبائل لي » ٤ وهو انما قال
هذا عن يهوذا لان الملاك جبريل قال له كيف كانت ليهوذا يد مع
الكهنة وأخبرهم بكل ما تكلم به يسوع

٥ فاقترب الذي يكتب هذا الى يسوع بدموع قائلا : « يامعلم قل لي
من هو الذي يسلمك ؟ »

٦ أجاب يسوع قائلا : « يابرنابا ليست هذه الساعة هي التي تعرف فيها
ولكن يعلن الشرير نفسه قريباً لاني سانصرف عن العالم »

٧ فبكى حينئذ الرسل قائلين : « يامعلم لماذا تتركنا لان الاحرى بنا
ان نموت من ان تتركنا »

٨ أجاب يسوع : « لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا (٢) ٩ لاني لست
انا الذي خلقكم بل الله الذي خلقكم يحميكم (ب) ١٠ أما من خصوصي
فاني قد أتيت لأهيء الطريق لرسول الله (ت) الذي سيأتي بخلاص للعالم
١١ ولكن احذروا أن تغشوا لانه سيأتي أنبياء كذبة (٣) كثيرون
يأخذون كلامي وينجسون انجيلي

١٢ حينئذ قال اندراوس : « يامعلم اذكر لنا علامة لنعرفه »

(أ) سورة العلامة رسول الله (ب) الله خالق وحافظ (ت) رسول الله

(١) لو ٢٢:٣١ (٢) يو ١٤:٢٧ (٣) مت ٢٤:١١

١٣ أجاب يسوع : « انه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين
حينما يبطل انجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ١٤ في ذلك الوقت يرحم الله
العالم فيرسل (أ) رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري
الله وهو سيظهره للعالم ١٥ وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة
الاصنام من العالم ١٦ واني أسر بذلك لانه بواسطته سيعلن ويمجد الله
ويظهر صدقي ١٧ وسينتقم من الذين سيقولون اني أكبر من انسان
١٨ الحق أقول لكم ان القمر سيعطيه رقاداً في صباه ومتى كبر هو أخذه (١)
بكفيه ١٩ فليحذر العالم أن ينبذه لانه سيفتك بعبدة الاصنام ٢٠ فان
موسى عبد الله (ب) قتل أكثر من ذلك كثيراً ولم يبق يشوع على المدن
التي أحرقوها وقتلوا الاطفال ٢١ لان القرحة المزمنة يستعمل لها الكي
٢٢ « وسيجيء بحق أجلى من سائر الانبياء وسيوبخ من لا يحسن
السلوك في العالم ٢٣ وستحيي طربا ابراج مدينة آبائنا بعضها بعضاً ٢٤ فمتى
شوهد سقوط عبادة الاصنام الى الارض واعترف بأني بشر كسائر
البشر فالحق أقول لكم ان نبي الله (ب) حينئذ يأتي

(المنار) وفي موضع آخر من هذا الانجيل بيان سبب تسمية سيدنا عيسى إلهاً وابن الله وهو أن الرومانيين الذين كانوا يحكمون اليهود يومئذ رأوا آياته عليه السلام في إبراء البرص وغيرهم من المرضى فقالوا هذا إله إسرائيل قد افتقد شعبه كعادتهم في إطلاق اسم الإله على كثير من المخلوقات الخ

(أ) الله مرسل (ب) رسول الله

(١) الآية المبهمة في القرآن سورة ٥٤

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذلا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا. ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

حكم من قال أنا في جاه النبي وحديث توسلوا بجاهي

(س ٤٨) من أحمد أفندى البدوي في (القناطر الخيرية)

ملخص السؤال ان بعض المجاورين في الأزهر عندهم تخذ دكانا كبيرا لبيع الحلاوة وقد وقف خطيباً على جمهور من الافاضل وقال لهم : من قال انا في جاه النبي فقد كفر : فقال له السائل قال عليه الصلاة والسلام « توسلوا بجاهي فان جاهي عظيم » فأجابه بأن هذا حديث مكذوب هات لي حديثاً من الكتب الستة أو آية من القرآن . ويطلب بلسان أهل البلد بيان الحق في ذلك

(ج) ان الرجل قد أخطأ في كلمة وأصاب في كلمة أخطأ في تكفير من قال انا في جاه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصاب في قوله ان عبارة « توسلوا بجاهي » الخ ليست حديثاً مرويا عنه صلى الله عليه وسلم بل هي من الموضوعات كما سبق لنا القول في المنار غير مرة . أما الكفر بمعنى الارتداد عن الاسلام فهو انما يكون بانكار شيء مما جاء به صلى الله عليه وسلم علم من الدين بالضرورة إجماعا كالقرآن كله أو بعضه وككون الصلوات المفروضة خمساً . ولعل الرجل ماقال بالتكفير الا وهو يظن ان من قال تلك الكلمة فهو يعني بها ان النبي صلى الله عليه وسلم ينفع أو يضر من دون الله . وهي ليست نصا في ذلك واذا كان من لوازمها القريبة أو البعيدة فلازم المذهب ليس بمذهب لاسيما في باب الردة . وانني أرى الناس يستعملون هذه الكلمة « انا في جاه النبي » لانشاء استعظام الأمر أو استفظاعه يقول قائل : فلان شرير يخشي ضره انا في جاه النبي : ويريد الآخر ان يبالغ في تصديقه

فيقولها أيضاً ولا يكاد قائلها يقصد الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم لينقذه من شر الرجل . هذا وإن الكلمة لم يرد بها كتاب ولا سنة ولا أثر عن الصحابة أو الأئمة ، فتركها أسلم من استعمالها وان لم تكن كفرا . فلا يليق أن يجعل اسم النبي (ص) عنوانا على الاستفظاع كما هو المستعمل وان قصد قائلها أنه ينجو من الشر والعذاب ويصيب الخير والثواب بجعل نفسه في جاه النبي صلى الله عليه وسلم قولا فقصده هذا مخالف لهدي النبي وما جاء به من أن النجاة في الآخرة انما تكون بالايمان والعمل الصالح وأن أمر الدنيا مبني على الاسباب وسنن الله التي لاتتغير والتي بمراعاتها انتصر المؤمنون معه صلى الله عليه وسلم يوم بدر وهم فئة قليلة وولوا لأدبار يوم حنين وهم كثيرون وانكسروا كذلك يوم أحد

صخرة بيت المقدس

(س ٤٩) من محمد أفندي عبدالكريم بمدرسة الناصرية بمصر

ما قولكم في الصخرة المقدسة الموجودة ببيت المقدس ببلاد الشام وفي أي زمن قدست ومن أطلق عليها اسم التقديس وهل هي حقيقة متصلة بالجبل ومعلقة بين السماء والأرض وماهي الحقيقة فيها ؟ لازلتم كهفاً للواردين وملجأ للقاصدين ودمتم

(ج) لم يرد في كتاب الله ولا في أحاديث رسوله وصف الصخرة بالمقدسة وانما وصفت تلك البلاد كلها بالارض المقدسة لظهور الانبياء والمرسلين فيها وبارشادهم تتقدس نفوس الناس من الشرك والرذائل . وكانت الصخرة ومازالت قبلة اليهود فهي معظمة ومعدودة من الآثار الشريفة لأنها من آثار الانبياء عليهم الصلاة والسلام وليست متصلة بالجبل ولا واقفة في الجو وإنما هي سقف لمغارة صناعية وقد سبق لنا وصفها فراجع ص ٢٦٦ من المجلد السادس

مشكلتان في القضاء الاسلامي

﴿أحدهما واردة على حكم القاضي باجتهاده والثانية على تعدد المذاهب﴾

وجه الينا السؤالين الآتيين بعض كبار علماء القوانين والفقه في ملأ من لفضلاء سامرين عنده ورغب الينا أن نجيب عنهما في المنار وقال انه سأل بهما بعض الفقهاء المشهورين فلم يحسنوا جواباً وقد أجبنا هناك جواباً مجملا نفصله هنا

﴿ السؤال الاول ﴾

(س ٥٠) قرر الفقهاء ان يكون القاضي مجتهدا ومعناه انه يحكم بما أداه اليه اجتهاده ويلزم من هذا ان يكون المتحاكمون جاهلين بالاحكام التي يحكم لهم أو عليهم بها وفي ذلك ما فيه وهو مما يعد على الفقه الاسلامي

(ج) ان الدين الاسلامي لم يأت بقوانين وأحكام مفصلة لجميع ما تحتاج اليه الأمة في معاملاتها الدنيوية وإنما جاء ببعض القواعد العامة والاحكام التي احتيج اليها في عصر التنزيل وفوض القرآن الأمر فيما يحتاج اليه من أمور الدنيا السياسية والقضائية والإدارية الى أهل الرأي والمعرفة بالمصالح من الامة بقوله (وأمرهم شورى بينهم ، وقوله (٤ : ٨٣ ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ولهذا أمر بطاعة هؤلاء الذين سماهم أولي الأمر وهم أهل الشورى في الآية الأخرى فقال (٤ : ٥٩ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فهذا ما جاء به الاسلام وهو هداية تامة كاملة لا تعمل بها أمة الا وتكون مستقلة في أمورها مرتقية في سياستها وأحكامها يسير بها أهل الرأي والمعرفة في كل زمان ومكان بحسب المصلحة التي يقتضيها الزمان والمكان ومن ذلك ان يضعوا القوانين وينشروها في الأمة ويلزموا القضاة والحكام باتباعها والحكم بها ولكن المسلمين لم يهتدوا بذلك على وجه الكمال

أما أهل الصدر الأول فقد قاموا بما تقتضيه حال الزمان والمكان بقدر الإمكان لا سيما على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقد كان ما هو معروف عندهم أتم المعرفة من أحكام القرآن وأقضية الرسول وسنته في تحري العدل والمساواة وافيا بمعظم حاجاتهم القليلة بمقتضى السذاجة الفطرية وشظف العيش والتمسك بالدين ومن لوازمه قلة الاعتداء والاحتيال فكان يكتفى في القاضي أن يكون عالما بما ذكر صاحب بصيرة فيه وعدالة في نفسه بحيث اذا عرض له قضية لم يرد فيها كتاب ولا تمض بها سنة – ولعل ذلك قليل أن يعمل رأيه تطبيقها على العدل ويقيسها بما يشبهها مما ورد . ولم يكن الناس في ذلك العهد يشعرون بأنهم في حاجة الى معرفة ما عساه يعرض من أحكام القضايا غير المنصوصة ليدون وينشر بل لم يكن ذلك

متيسرا لغلبة الأمية على المسلمين ولتفويضهم أمر الذين يدخلون في ذمتهم الى حكم أنفسهم بأنفسهم ونتيجة ذلك أنهم لم يكونوا محتاجين الى وضع القوانين ونشرها ولذلك صرفوا همتهم الى الدعوة الى الاسلام وما يتبع ذلك من الفتوحات

ومما يدل على أن ما كانوا عليه كان كافيا في إقامة العدل وراحة الناس وأمانهم بحيث لا يشعرون بحاجة الى معرفة ما كانوا يحكمون به ما رواه ابن سعد في الطبقات وابن راهويه عن عطاء قال : كان عمر يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فاذا اجتمعوا قال (أي على مسمع الملاء من أهل الموسم الواردين من الجهات) : « يا أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ولا من أعراضكم إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم فمن فعل به غير ذلك فليقم » فما قام أحد الا رجل قام فقال : يا أمير المؤمنين ان عاملك فلانا ضربني مئة سوط : قال : فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه : فقام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين إنك ان فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك : قال (عمر) « أنا لا أقيد وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد من نفسه ؟ (١) قال (عمرو) فدعنا لنرضيه : قال « دونكم فارضوه » فافتدى منها بمئتي دينار عن كل سوط بدينارين اه والشاهد في عدم قيام أحد من أهل الموسم يشكو العمال غير هذا الرجل

وقد كتبنا في المجلدين الرابع والخامس من المنار مقالات أو نبذا في القضاء في الاسلام ومما كتبناه في أول النبذة الرابعة ما نصه (ص ١٦٦ م ٥)

« أركان القضاء وأصول الحكم في الاسلام أربعة – الكتاب العزيز والسنة المتبعة والاجتهاد في الرأي والمشاورة في الأمر – وإنها لأركان عظيمة ، وأصول قويمة ، والاساس الذي بنيت عليه هذه الاركان « درء المفاسد وجلب المصالح والمنافع » ولهذا كان الاجتهاد شرطا في القاضي لوجوب تطبيق الاحكام على المنفعة في كل زمان ومكان بحسبه » وأقول الآن فقد كان قضاة المسلمين ممن يسمون بلسان الاوربيين الآن بقضاة العدل والانصاف . ثم أوردنا الاحاديث وآثار الصحابة الدالة على تلك الاركان ومما أوردناه في سنتهم في الاستشارة

(١) القود القصاص وأقاد من نفسه مكنه من القصاص . وأقاد القاتل بالقتيل قتله به

وعدم الاستبداد فيما لا نص فيه ماجاء في (ص ١٧٢ م ٥)

« روى الدارمي والبيهقي عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر اذا ورد عليه خصم نظر في كتاب الله فان وجد فيه مايقضي به قضى به بينهم وان لم يجد في كتاب الله نظر هل كانت من النبي صلى الله عليه وسلم فيه سنة فان علمها قضى بها فان لم يعلم خرج فسأل المسلمين فقال « أتاني كذا وكذا فنظرت في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجد فى ذلك شيئاً فهل تعلمون ان النبي (ص) قضى في ذلك بقضاء ؟ » فربما قام الرهط فقالوا : نعم قضى فيه بكذا وكذا : فيأخذ بقضاء رسول الله (ص) ويقول عند ذلك « الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا » وان أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم (أي الذين هم أولو الأمر في الآية) فاستشارهم فاذا اجتمع رأيهم على الأمر قضى به . وان عمر بن الخطاب كان يفعل ذلك » وكان يرجع الى أقضية أبي بكر الخ أقول فأنت ترى ان ماجروا عليه في الصدر الأول كان منتهى الكمال الممكن في عصرهم الكافل لحاجتهم

ولكن حدثت للمسلمين بعد ذلك حاجات أخرى فقد فتحوا المدائن والامصار ودخل الناس في دينهم أفواجاً من جميع الأمم والملل فكثرت حاجات العمران وحدثت للناس أقضية كثيرة لم يكن لها نظير في الصدر الاول كما قال عمر بن عبد العزيز تحدث للناس أقضية بحسب ما أحدثوا ثم ان هؤلاء الناس لم يكونوا من فهم الدين والاهتداء به كما كان أهل العصر الاول ومن ثم احتيج الى وضع قوانين عامة يعرفها الناس ويتقاضون بها وكان يجب بمقتضى هداية القرآن ان يجتمع لذلك أولو الأمر وهم المعبر عنهم في الاثر المذكور آنفاً برؤوس المسلمين وعلمائهم فيضعوه وتجري مايظهر لهم ان الامة الاحكام عليه مالم يروا تحويره وتنقيحه ولكنهم تركوا ذلك للأفراد يكتبون متفرقين محتاجة اليه فكثرت المذاهب والآراء وكان ينصب القاضي من هؤلاء الأفراد المنصرفين الى وضع الاحكام برأيهم واجتهادهم حتى اذا ما ضعف العلم بفشو تقليد أفراد من المصنفين في الاحكام صار الحكام المستبدون يولون القضاء أفراداً من متعلمي مذاهبهم فكان ذلك نقصاً في القضاء عند المسلمين ، سببه عدم الاهتداء بما سبق تقريره من أصول الدين ، مع ما طرأ عليهم من الأمراض الاجتماعية

والفتن السياسية ، فتبعة التقصير على المسلمين لا شيء منه يلصق بهداية الاسلام

فوض القرآن لجماعة أولي الأمر أن يستنبطوا الأمة ما تحتاج اليه بالشورى فلم يفعلوا ونهاهم عن تقليد الافراد فقلدوهم ونهاهم في آيات كثيرة عن التفرق والخلاف فتفرقوا واختلفوا ولو وضع لهم أولو الأمر قانونا مدونا لاخلاف فيه بحيث يعرف الحاكم والمحكومون مابه يكون الحكم لكانوا مهتدين بهدي الاسلام ولم يمنع ذلك من أن يكون القاضي مجتهداً كما كان في عهد السلف مع التزام أحكام الكتاب والسنة فان مايضعه أولو الأمر لمصلحة الدنيا واجب الاتباع بنص القرآن كما يجب اتباع الله ورسوله وحينئذ يكون محل اجتهاد القاضي في تطبيق أحكام الكتاب والسنة وقانون أولي الأمر على القضايا وأقله فيما عساه يعرض من القضايا التي أغفلها القانون ولا نص فيها ويشترط في ذلك أن يقرن اجتهاده باجتهاد غيره كما يحصل نظير ذلك في محاكم الاستئناف على الطريقة الأوربية

﴿ السؤال الثاني ﴾

(س ٥١) ان ماجرى عليه المسلمون من حكم القاضي بأحد المذاهب التي قلدها الجمهور (وهو مذهب الحاكم العام في كل مملكة غالبا أو دائما) يستلزم اذا استبدل قاض تابع لمذهب بقاض تابع لآخر أن يحكم القاضي الجديد بمذهبه بين المتعاقدين مع مراعاة مذهب من قبله وقد تكون الشروط الأولى التي التزموها ورضوا بها لموافقتها المصلحة باطلة عند القاضي الأخير فتفسد المصلحة على أحد المتعاقدين أو كليهما . ومما يدخل في هذا الباب انتقال المتعاقدين أو الشريكين من بلد الى بلد اخر يخالف مذهبه مذهب الأول . ومثل هذا مما صرحت قوانين الأوربية بحكمه

(ج) هذا مما يرد على المسلمين وفقههم ولا يرد على أصول الاسلام نفسه وهي التي نلتزم في المنار بيان موافقتها لمصلحة الناس في كل زمان ومكان اذا أقيمت على وجهها دون هذا الفقه وبيان ذلك يعلم مما تقدم في المسألة السابقة من ان القرآن وكل ذلك الى أولي الأمر يستنبطونه بالمشاورة بينهم لا يلتزمون في ذلك الا الأصول المنصوصة المجمع عليها من إقامة ميزان العدل ودرء المفاسد وحفظ المصالح وهذا لا يمكن مع التقليد الذي هو التزام الأمة مذهب أحد أفراد العلماء

السابقين ولذلك نتحي دائما على التقليد ونقول انه والاسلام ضدان . والحكم بما يضعه أولو الأمر على ماذكر ليس تقليدا بل هو عين الاجتهاد . ولا يرد عليه ما يضعه جماعة منهم في مملكة ويراعيه الناس في عقودهم ومعاملتهم ثم ينتقل بعضهم الى مملكة أخرى وضع أولو الأمر فيها قوانين أخرى على فرض ان الاسلام يجيز وجود مملكتين مختلفتين في الاحكام ولا ما يقع اذا مات واضعو قانون وخلفهم آخرون رأوا تغيير بعض أحكامه فان مثل هذا واقع الآن في الأمم المرتقية في علم الحقوق فان الأمم يخالف بعضها بعضاً وكل أمة تنسخ وتبدل بعض أحكام قوانينها آنا بعد آن ويراعون في ذلك مصلحة من تعاملوا من قبل هذا النسخ والتبديل . وأي مانع يمنع المسلمين من ذلك غير هذا التقليد الذي خالفوا به القرآن والسنة ، وأقوال جميع الأئمة ، ؟

وجملة القول ان كل بلايا المسلمين في علم الحقوق عندهم منبعها التقليد وهي كثيرة جداً ولو اتبعوا هدي الكتاب والسنة ، لا نكشف عنهم كل غمة ، فقد وسع الله عليهم ، ولكنهم ضيقوا على أنفسهم ، ولا يمكن اخراجهم من هذه الهوة أو انقاذهم من هذا المضيق الا بنزع أغلال التقليد من اعناقهم وكسر قيوده التي في أرجلهم وحينئذ يتسنى لهم في أي مملكة لهم فيها حكم أن يؤلفوا الجنة من أهل العلم والرأي والمكانة في الأمة تضع لهم القوانين والأحكام التي تدرأ هذه المفاسد الكثيرة وتسهل لهم سبل المصالح التي تقتضيها طبيعة زمانهم ومكانهم عملا بهدي القرآن الحكيم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ حديث « ان للاسلام صوى ومناراً » في طرة المنار ﴾

(س ٥٢) من م . ح . ن . بالحجاز

المرجو من حضرة الاستاذ الحكيم العالم الرباني سيدي السيد محمد رشيد رضا أفندي ان يفيدني عن هذا الحديث « ان للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق » في أي كتاب من الكتب الحديثية المعتبرة هو وفي أي باب هو فصحيح هو أو ضعيف ويشرح لي معناه لازال في مقام كريم ، على رغم أنف كل حاسد لئيم ، أمين

وقد رأيت في (الرحمة المهداة لمن يريد الزيادة على حديث المشكاة) لنجل المرحوم السيد صديق حسن خان ملك بهو بال في باب السلام حديثاً يخالف ماهو على طرة المنار الأغر « ان للاسلام صوى بينا كمنار الطريق » وهو طويل ما أعلم هل الذي على طرة المنار له زيادة أم هو كما هو على طرة المنار أرجو الافادة عنه سيدي

(ج) ترون الحديث في الجامع الصغير باللفظ الذي ترونه في المنار معزو الى الحاكم عن أبي هريرة وبجانبه علامة الصحة وترون بعده حديثا آخر « ان للاسلام صوى وعلامات كمنار الطريق ورأسه وجماعه شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتمام الوضوء » وهو معزو الى الطبراني عن أبي الدرداء وبجانبه علامة الضعف . أما معناه فالصوّة بضم الصاد المهملة كالكوة حجر يكون علامة في الطريق يهتدي به المارة والجمع صوى ككوى وهو جمع قياسي كغرفة وغرف . قال في لسان العرب : وفي حديث أبي هريرة « ان الاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق » ... قال أبو عمرو الصوى أعلام من حجارة منصوبة في الفيافي والمفازة المجهولة يهتدى بها . وقال الاصمعي : الصوى ما غلظ من الأرض وارتفع ولم يبلغ أن يكون جبلا : قال أبو عبيد : وقول أبي عمرو أعجب الي وهو أشبه بمعنى الحديث : اهـ وقال في مادة (نور) : والمنار والمنارة موضع النور : ثم قال أيضاً : والمنار العلم يوضع بين الشيئين من الحدود وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم « لعن الله من غير منار الأرض » أي أعلامها والمنار علم الطريق . وفي التهذيب المنار العلم والحد بين الأرضين والمنار جمع منارة وهي العلامة تجعل بين الحدين ومنار الحرم أعلامه التي ضربها ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام على أقطار الحرم ونواحيه وبها تعرف حدود الحرم — الى أن قال — وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه « ان للاسلام صوى ومنارا » أي علامات وشرائع يعرف بها : اهـ

ومنه يعلم أن تسمية ما يبنى في المواني ويوضع فيه النور لتهتدي به السفن ليلا

بالمنار له وجهان أحدهما انه موضع للنور وثانيهما انه علم يهتدى به ولكن الناس يسمونه الفنار وهو لفظ أعجمي لا يبعد أن يكون محرفا عن المنار . ويصح أن تسمى لأعلام الحديدية التي توضع في السكك الحديدية لهداية الوابورات بالمناور أيضاً

هذا واننا قد اقتبسنا اسم المنار من الحديث الشريف تفاؤلا بأن يكون مبيناً لصوى الاسلام وناصباً لأعلامه وموضعاً لنور الحقيقة التي نحتاج اليها في حياتنا الملية والاجتماعية والله الموفق والمعين

الرخصة لاصحاب الاشغال الشاقة بفطر رمضان والفدية

(س٥٣) من أمين محمد افندي الشباسي بمصلحة السكة الحديدية بأتبرا (السودان)

فضيلة الاستاذ المرشد

بعد تقديم واجب الاحترام أرجوكم الجواب على السؤال الآتي وهو اننا عمال مصلحة السكة الحديد السودانية نشتغل باجهاد النفس في ورش جدرانها وأسقفها من حديد ولا يخفى على فضيلتكم أن موقع السودان وشدة الحرارة وتأثيرها في تلك الورش شديد جداً كما لا يخفى على فضيلتكم ما لمفعول الاعمال البدنية من تنشيط الهضم وسرعته فهل يرخص الشرع الشريف للمسلم الذي تحيطه مثل هذه الظروف بافطار شهر رمضان أم لا وإذا رخص الشرع الشريف فما الذي يجب على المفطر اداؤه جزاء على هذه الرخصة أفيدونا على صفحات مناركم الاغر ولفضيلتكم الثواب

(ج) جاء هذا السؤال قبل طبع الملزمة الاخيرة من هذا الجزء فبادرنا الى الاجابة عنه من غير مراعاة ترتيب الاسئلة فنقول : يباح لاصحاب الاعمال الشاقة التي عليها مدار معيشتهم اذا كانوا يتحملون مشقة شديدة بالصيام ان يفطروا ويطعموا عن كل يوم يفطرونه مسكيناً لأن الحرج مرفوع من الدين بنص القرآن وقد ذكر ذلك الفقهاء كما في شرح المنهاج للرملي (ص٣٣٩ ج٢) وبه فسر الاستاذ الامام قوله تعالى (٢ : ١٨٤ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) (راجع ٦٥١ م ٧) وأقل ما يطعمه المسكين مد من الطعام وقدر بما يكفي الرجل المعتدل من القمح واذا غداه أو عشاه معه أو أعطاه ما يكفي لذلك من الطعام الذي يأكله هو كفى

آثار علمية أدبية

المطبوعات الجديدة

كتاب غريب القرآن للسجستاني

كتب علماء الاسلام في غريب القرآن كتبا كثيرة منها المطول والمختصر ومنها المنثور والمنظوم ومنها مختصر للشيخ أبي محمد بن عزيز السجستاني سماه نزهة القلوب وهو مرتب على حروف المعجم ترتيبا خاصا . وقد طبعه في هذه السنة محمد افندي الخانجي وشركاؤه طبعا جيدا ضبطت فيه كلمات القرآن في الأكثر . فجاء كتابا لطيفا بشكل صغير يوضع في الجيب وهو مفيد يفسر الكلمات غالبا بالمعنى المراد وتارة يذكر أصل الاشتقاق

غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب

كتاب للشيخ محمد السفاريني الحنبلي المتوفى سنة ١١٨٨ شرح منظومة الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد القوي المرداوي الحنبلي المتوفى بالشام ٦٩٩ أحد شيوخ تقي الدين ابن تيمية في العربية . وهذا الشرح يدخل في مجلدين فيهما من الاخبار والآثار والفوائد والشوارد ما لا يوجد الا في الاسفار الكثيرة فقد كان السفاريني واسع الاطلاع حسن الاختيار في الغالب . وقد طبع كتابه هذا الشيخ عبد الفتاح الحجاوي النابلسي باذن أحفاد المؤلف وثمن النسخة منه عشرون قرشاً وأجرة البريد في القطر المصري أربعة قروش وهو يطلب من مكتبة المنار وغيرها من المكاتب المشهورة

كتاب الأمالي لأبي علي القالي

سبق لنا قول في هذا الكتاب النفيس وهو جزآن يتلوهما جزء لطيف سماه ذيل الأمالي وجزء آخر ألطف منه سماه النوادر وقد تم طبع الجميع في مطبعة بولاق لأميرية على نفقة الشيخ اسماعيل بن يوسف بن صالح بن دياب التونسي المقيم بمصر

قلنا في الجزء الاخير من السنة الماضية إن هذا الكتاب من أفضل كتب الأدب وقد عده ابن خلدون أحد أركانها الأربعة التي تعد سائر الكتب فروع عنها . والثلاثة الأخرى أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ . ففي الكتاب من مختار المنظوم والمنثور للعرب والمخضرمين وكبار المولدين ومن مباحث اللغة والأدب ما هو خير عون على طبع ملكة البلاغة في نفس من يزاول قراءته . وأما طبعه فنعيد القول بأنه لم يطبع بمصر فيما نعلم كتاب بعد المخصص مثله في الضبط والاتقان مع جودة الورق فعسى ان يقبل عليه عشاق الأدب ولا بد أن تبتاع نظارة المعارف طائفة من نسخه

سفينة النجاة

كتاب في النحو وضعه للتعليم في مدارس الفرير أحد أساتذتها (الاخ بلاج) وهو مؤلف من أربعة أجزاء لطيفة — الأول والثاني ذكرت فيه المسائل بأسلوب السؤال والجواب وضبطت بالشكل التام دون التمرينات الملحقة بها وهما لتعليم المبتدئين في السنة الأولى والثانية ومسائلهما تليق بهم ووضع الثالث والرابع شروح في هوامشهما وقد أهدانا المؤلف نسخة من طبعة الكتاب الرابعة فاذا هي بمكانة من الجودة والضبط والاتقان . فمتى نجد في الأزهر مثل هذه الكتب لتسهيل التعليم التي سبق علماءنا اليها الاجانب ولولا أن نظارة المعارف سبقت الى مثل هذه الكتب وان هذا المؤلف أخذ عنها وحذا حذوها لساغ لنا أن نقول أن الاجانب خير منا في خدمة لغتنا

سفينة البلغاء

وأهدانا هذا المؤلف أيضاً نسخة من رسالة في علوم البلاغة الثلاثة سماها سفينة البلغاء وهي نحو ستين صفحة فنشكر له هذا وذاك

(التقدم) جريدة سياسية يومية أنشأها في تونس البشير الفورتي و بين ان من مقاصدها الدعوة الى الاعتصام بالدين والدفاع عنه وخدمة الجامعة الاسلامية في بذل النصائح لأهل الوطن في جميع الشؤون والاعتدال في تنبيه الحكومة الى ما يجب فنحث القراء والكتاب على تعضيدها بالاقبال عليها واسعادها على هذه الخدمة الجليلة

باب الأخبار والآراء

سياسة ايطاليا بمطامعها في بلاد المسلمين

دولة ايطاليا تحاول مجاراة الدول الاستعمارية ولكنها تجهل الاستعمار فتسلك اليه غير طرقه وتأتيه من غير أبوابه . ومن المعروف المشهور أن لها طمعاً قديماً في ولاية طرابلس الغرب العثمانية وقد علمنا في هذه السنة أن أطماعها قد تعلقت بولاية اليمن وانها منذ زمن غير قريب تدس الدسائس الى امام الزيدية فيها لتقوى عزيمته على محاربة الدولة العلية وتتوهم أنها تدخل اليمن في ظلمات هذه الفتنة فلا يفطن لها أحد . وإن طمعها في اليمن لأدل على جهلها بطرق الاستعمار من طمعها في طرابلس الغرب لا لأن عرب اليمن أشجع وأمرن على الحرب من عرب طرابلس ولا لأن الزعيم الديني الذي في اليمن سياسي حربي بالفعل والزعيم الديني (وهو السنوسي) الذي في صحاري طرابلس ليس كذلك بل لأن اليمن والحجاز صنوان فالدولة التي يستقر سلطانها وقوتها في اليمن تكون خطرا متصلاً بالحجاز فأول من يتألب عليها إذا كانت غير مسلمة عرب الجزيرة ويجب على جميع المسلمين في جميع أقطار الأرض ان يكونوا عوناً لهم بكل ما يستطيعون فكأن دولة ايطاليا بطامعها في اليمن تهدد المسلمين بهدم الكعبة والقضاء على الاسلام في حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم

ومع هذا نرى لبعض خدمة هذه الدولة وسائل سياسية تضحك الثكلى يراد فيها غش المسلمين وإقناعهم بأن ايطاليا محبة للإسلام والمسلمين منها تلك الهدية التي أرسلتها الى السنوسي وما أمكن ان توصل اليه الا باسم رجل مسلم من مستخدميها ثم كتب اليه بعد ذلك بأن ملك ايطاليا دفع ثمنها لحبه الشديد في الاسلام نفسه وفي المسلمين عامة والسنوسي والسنوسية خاصة!! . ومنها ما ذكرناه في بعض أجزاء منار هذه السنة من استخدام الشيخ عبد الرحمن عليش في بناء مسجد وايقافه ليصلى فيه على روح أمبرتو الأول ملك ايطاليا السابق ليشيعوا ذلك بين جهلة مسلمي طرابلس

واليمن والصومال والشيخ عليش يصفه بالايمان ليوهم الناس انه كان مسلما !!

ومنها أنشاء مجلة بمصر نصفها عربي ونصفها طلياني كتب عليها «عربية تليانية إسلامية» ويدير أعمالها وسياستها رجل طلياني ويكتب فيها من الخبط والخلط في الدين والتصوف مايبكي المسلم الصادق، ويضحك المارق والمنافق، وأما الحب الذي يضعه مدير سياسة هذا الفخ حوله ليجذب به اليه من يراه من أغرار المسلمين الذين يشبهون الطير في غرارتها فهو مدح الاسلام ودعوى إقناع الأوربيين بفضله وأي فضيحة على المسلمين أشنع من تفتهم بأن بعض الاجانب الذين يخدمون دولة طامعة في بلادهم هو الذي يبين لأوربا والمسلمين جميعاً حقيقة الاسلام وفضله وهو لا يعرف أحكامه ولا يستخدم الا الجاهلين بها ؟ ؟ ولماذا لم يجعل هذه الخدمة للاسلام بلغات الدول التي يقول انها أعدى أعدائه كانكلترا وفرنسا دون لغة أهله العربية ولغة محبيه بزعمه وهم الايطاليون ؟

وقد وقع لبعض جرائد المسلمين تقريظ لهذه الصحيفة الخادعة ولعله كان قبل التأمل فيها، والتفطن لما في احشائها ومطاويها فعسي أن لا تعود هي ولا غيرها الى ذلك

(حزب الامة)

انعقدت الجمعية العمومية لشركة (الجريدة) المصرية في ١٣ شعبان فخطب فيهم حسن باشا عبد الرازق (لاعتذار رئيس الجمعية محمود باشا سليمان عن الحضور بسبب صحي) خطبة سياسية اجتماعية جمعت بين الحكمة والبلاغة وقد سمى فيها الجماعة المؤسسة للجريدة بحزب الأمة وبين مقاصده في ست جمل كلية فوافق من حضر على ما قال باجماع عقب مناقشة . وقد تلقى العقلاء ظهور هذا الحزب بالقبول وما زال الناس يدخلون فيه فرادى وثبات، وفقه الله للخير وأيده بالثبات،

(رزء عظيم بعظيم من زعماء المسلمين)

روت الاهرام عن بعض الجرائد الانكليزية ان الممالك الهندية قد أصيبت بوفاة النواب محسن الملك الناظم الاعزازي لمدرسة العلوم الكلية في عليكره . فوجلت منا القلوب لهذا النبأ العظيم، والرزء الأليم، الذي أصاب المسلمين عامة في ذلك العقل الحكيم، والقلب الرحيم، والعلم الواسع، والتدبير النافع، والقلم

الكاتب، والرأي الصائب، وأصاب صاحب هذه المجلة بصديق صادق، ومحب مخلص، واني أكتب هذه الكلمات لأحشرها في المجلة وقد تمت موادها بعد حذف شيء مما جمع منها وان لنا لعودة الى الكلام عن هذا الرجل العظيم وعسى ان يمن علينا الدكتور ضياء الدين أحمد بترجمة حافلة له رحمه الله

الرد على فريد افندي وجدي

قد علم قراء المنار أننا ما تصدينا للرد على ما يكتبه محمد فريد افندي وجدي الا لأنه يتكلم في أصول الدين وفروعه بغير علم (الا ما يقتبسه من المجلات والجرائد وبعض الكتب العربية والفرنسية التي ينظر فيها عند الحاجة) وانه لما رأى ذلك فزع الى جريدة اللواء فأوسعنا فيها سباً وشتما وتهديدا ووعيدا ومزج ذلك بشيء من المغالطة جعلها كالرد لما انتقدنا به كلامه في فلسفة التشريع . ولكنه رأى اننا رددنا هذه المغالطة رداً محكما لا يقبل المراء وأننا لم نبال بتهديده ووعيده بأنه سيتتبع سقطات المنار حتى لا يدعنا نرفع رأساً ! بل اظهرنا له السرور بتصديه لنقد المنار (ان كان يقدر على ذلك) لان النقد علينا ضالتنا التي ننشدها دائما فهددنا وتوعدنا في مجلته بأنه قد كتب الى كثير من علماء الدين يطلب منهم الرد علينا وانه سيطبع ما يرد عليه من ذلك متى كثر في كتاب ويوزعه كأنه موقن بأن سيجيبونه الى ما طلب !! وجعل ذلك خاتمة لمقالة في السب والشتم والدعوى والتبجح استغرقت أربع ورقات سماها الدرس الاول وقال «واني لن أزال ألقي عليه من هذه الدروس مادام لم يعرف قدره حتى يفيق من هواه ويفيء الى أمر الله» !! ويعني بأمر الله فيما يظهر ترك نصيحته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وانما أمر الله بالتناصح والتواصي بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بترك ذلك .

وما رأيت أحدا من العقلاء اطلع على كلامه هذا أو على مقالاته في اللواء الا وقال انه أهان بها نفسه اهانة لا يستطيع ان يبلغها منه الاعداء وانها أشد عليه من نقد المنار لكلامه وكأن بعض محبيه بين له ذلك ونصح له بأنه اذا لم يستطع مقابلة المنار الا بمثل هذه الدروس التي هي تبجح واطراء لنفسه وازراء بمناظره فالسكوت أجدر به وأحفظ لكرامته ولعله يسكت المنار عنه فكتب الينا ما يأتي

مصر في ١٨ — ٩ سنة ٩٠٧

الى حضرة الشيخ رشيد

أرجوكم أن لا ترسلوا الي المنار مادمتم تسبوننا فيه فقد عزمت ان لا أرد عليكم ولا يتم عزمي هذا الا اذا ابتعدت عن كل ما يثير نفسي! ولو كنت أعلم ان فيما تقولون ظلا من الحق والصدق لقرأته صاغرا ولكنكم اتخذتم اليوم خطة أنتم أعلم بمصير السالكين فيها وقد تكلفت كتابة هذا الخطاب اليكم ابقاء على مجلتكم من الرد بالبوستة

كاتبه فريد وجدي

فلينظر أهل الفهم والعقل الى هذا الكلام وليعجبوا من قوله — وكله مواضع عجب — «ولو كنت أعلم ان فيما تقولونه» الخ فهل يستطيع أحد من خلق لله ان يحكم على قول يقال في المستقبل بأنه ليس فيه ظل من الحق والصدق الا اذا كان موقنا بأنه يعلم الغيب وأنه معصوم في كل مايقول و يكتب ؟؟

لقد كان مما قلته إن موضوع علم الحديث كل مايتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم من الأقوال والافعال والصفات الخ وانه مخطىء في جعله موضوعه الأقوال فقط . ومنه تخطئته في قوله انه لم يصح عند البخاري الا كذا حديثا اذا نقلت عن البخاري نفسه أنه صح عنده أكثر من ذلك . فاذا كان أعلم بما صح عند البخاري من البخاري والحفاظ الذين نقلوا عنه لأنه يعلم الغيب مثلا فهل يأتي ذلك في الحكاية عن الاصطلاحات كموضوع علم الحديث الذي قال فيه عن المحدثين ما هم مجمعون على خلافه ؟ نعم كان مما قلت انه غير صادق في قوله ان مشيخة الازهر قررت كتابه كنز العلوم واللغة في الأزهر وملحقاته وإنما اشترت مكتبة الأزهر بعض النسخ منه . ثم تبين لي أن أمين المكتبة الأزهرية لم يشتر هو باستحسانه ولا بأمر شيخ الجامع شيئا من الكتاب وأن ما وجد في المكتبة وظننت أنا أنها ابتاعته منه فهو مما أرسله اليها ديوان الأوقاف فان بعض أصحاب فريد افندي سعى له في الديوان فاشترى الديوان بعض النسخ وأرسلها الى مكتبة الأزهر وله العادة في ذلك . ووالله انه لم يظهر لي أن شيئا مما كتبته مخالف للحق ولو بوجه ما الا ذلك الظن بأن مكتبة الأزهر ابتاعت بعض نسخ ذلك الكتاب . ولكن ظهور الحق في ذلك أشد على فريد افندي وجدي من خفائه .

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر رمضان سنة ١٣٢٥ — آخره الاثنين ٦ نوفمبر (ت ١) سنة ١٩٠٧ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

قال الاستاذ الامام رحمه الله تعالى مامثاله مع شيء من التفصيل : اذا كان كل فرد من أفراد المسلمين مكلفا بالدعوة الى الخير و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقتضى الوجه الأول في تفسير الآية فهم مكلفون بمقتضى هذا الوجه الثاني أن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لاجل أن تتقنه وتقدر على تنفيذه ان لم يوجد ذلك بطبعه كما كان في زمن الصحابة فإقامة هذه الامة الخاصة فرض عين يجب على كل مكلف ان يشترك فيه مع الآخرين ولا مشقة في هذا علينا فانه يتيسر لأهل كل قرية ان يجتمعوا و يختاروا منهم من يرونه أهلا لهذا العمل — وعبارة الاستاذ: ويختاروا واحد منهم أو أكثر: كأنه يريد بالواحد ان ينضم الى من يختار من سائر القرى والبلاد لأجل الضرب في الارض للدعوة الى الاسلام في غير بلاده أو لإقامة بعض الفرائض والشعائر أو إزالة بعض المنكرات من بلد آخر من بلاد المسلمين . والا فالواجب على أهل القرية ان يختاروا جماعة يصح ان يطلق

عليهم لفظ الامة و يعملوا ماتعمله بالاتحاد والقوة ليتولوا اقامة هذه الفريضة فيها كما يجب ذلك في كل مجتمع اسلامي سواء كان في الحواضر والبوادي . فان معنى الامة يدخل فيه معنى الارتباط والوحدة التي تجعل أفرادها على اختلاف وظائفهم وأعمالهم حتى في اقامة هذه الفريضة عند تشعب الأعمال فيها كأنهم شخص واحد كما هو ظاهر وصرح به الاستاذ في هذا المقام

قال وهذه الامة يدخل في عملها الامور العامة التي هي من شأن الحكام وأمور العلم وطرق افادته ونشره وتقرير الاحكام وأمور العامة الشخصية ويشترط فيها العلم بذلك ولذلك جعلت أمة وفي معنى الامة القوة والاتحاد وهذه الامور لاتتم الا بالقوة والاتحاد فالامة المتحدة لاتقهر ولا تغلب من الافراد ولا تعتذر بالضعف يوما ما فتترك ماعهد اليها وهو مالوترك لتسرب الفساد الى مجموع المسلمين . وقد كان المسلمون في الصدر الاول لاسيما على عهد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على هذه الطريقة فقد كانت خاصة الصحابة الذين عاشروا النبي صلى الله عليه وسلم وتلقوا عنه متواصلين متكافلين يشعر كل منهم بما يشعر به الآخر من الحاجة الى نشر الاسلام وحفظه ومقاومة كل مايمس شيئا من عقائده وآدابه وأحكامه ومصالح أهله وكان سائر المسلمين تبعا لهم . ولا نتكلم هنا فيما طرأ على الاسلام فأزال تلك الوحدة ولكننا نذكر مايجب أن تكون عليه الامة الداعية الى الخير الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر أي القائمة بالواجبات التي هي قوام الوحدة وحفاظها فان أعمالها لاتتم الا بأمور كثيرة: أقول وذكر أمورا مجملة على سبيل المثال نفصلها ونزيد عليها فنقول

(١) العلم التام بما يدعون اليه — ذكر الاستاذ ذلك ولم يبينه هنا وقال في موضع آخر ان أول مايجب على هؤلاء الدعاة العلم بالقرآن والعلم بالسنة وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وسلف الأمة الصالح و بالقدر الكافي من الأحكام : فهذا شيء من البيان وهو في نفسه يحتاج الى بيان وتفصيل أهمه ان العلم بالقرآن إنما ينظر فيه قبل كل شيء الى كونه هدى وعبرة وموعظة على نحو تفسيرنا هذا وكذلك السنة وماصح من أقوال الرسول وسيرته و ينظر في هذا أيضا الى الفرق بين ماتواتر عملا وماصح سندا وما ليس كذلك

(٢) العلم بحال من توجه اليهم الدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم أو مايعبر عنه في عرف العصر بحالهم الاجتماعية وقدروي ان من أسباب ارتضاء الصحابة بخلافة أبي بكر كونه أنسب العرب وليس معنى كونه أعلم بالانساب انه كان عنده كتاب « بحر الانساب » يراجع فيه وإنما معناه انه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب و بطونها وتاريخ كل قبيلة وسابق أيامها وأخلاقها كالشجاعة والجبن والامانة والخيانة ومكانها من الضعف والقوة والغنى والفقر وما كان إقدامه — مع لينه وسهولة خلقه التي يعرفها له كل أحد حتى الإفرنج — على حرب أهل الردة الا لهذا العلم الذي كان به على بصيرة فلم يهب ولم يخف وقد خاف عمر وأحجم على شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين أي خاف أن تضعف بمحاربتهم شوكة الاسلام ... حتى قال أبو بكر والله لو منعوني عقالا مما كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه فهذه قوة العلم لاقوة الجهل والعلم الخاص بحال من توجه اليهم الدعوة من هذه الوجوه لابد أن يكون فرعا للعلم بهذه العلوم في نفسها



(٣) مناشيء علم التاريخ العام ليعرف الفساد في العقائد والاخلاق والعادات فيبنون الدعوة على أصل صحيح ويعرفون كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعوين من حال الى حال . ولهذا كان القرآن مملوءا بعبر التاريخ

(٤) علم تقويم البلدان ليعد الدعاة لكل بلاد منها عدتها اذا أرادوا السفر اليها وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم أهل زمانهم بالتاريخ وما يسمى الآن بتقويم البلدان و بالجغرافية ولذلك أقدموا على الفتوح ومحاربة الامم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل فلو كانوا يجهلون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح موقعا للقتال فيها لهلكوا وكان الجهل أول أسباب هلاكهم . ومن قرأ ماحفظ من خطبهم وكتبهم التي كانوا يتراسلون بها ومحاوراتهم في تدبير الأعمال يظهر له ذلك بأجلى بيان

قال الاستاذ الامام مامثاله ومن الناس من ينفر من التاريخ وتقويم البلدان

الذي هو فرع من فروعه وما أضر هؤلاء الا بأنفسهم وأمتهم !! فقد قطعوا الصلة بينهم وبين القدوة الصالحة من سلفهم حتى صار أكثر المسلمين لا يعرفون مبدأ الاسلام ولا كيفية نشأته ولا كيف انتسبوا اليه فالتاريخ يعرف الانسان بنفسه من حيث هو متدين ان كان له دين أو من حيث هو إنسان إن كان من بني الانسان وما أضر بالفقه شيء كالجهل بالتاريخ لأننا لو حفظنا تاريخ الناس ومنه عاداتهم وعرفهم ومصالحهم في البلاد التي كان فيها المجتهدون الواضعون لهذا الفقه لكنا نعرف من أسباب خلافهم ومدارك أقوالهم مالا نعرفه اليوم فما كان ذلك الخلاف جزافا ولا عبثاً ألم تر أن الشافعي وضع بعد مجيئه الى مصر مذهباً جديداً غير المذهب القديم الذي كان عليه أيام لم يكن خبيرا بغير الحجاز والعراق . وكذلك كان ما خالف به أبو يوسف أستاذه أبا حنيفة مما يرجع الكثير منه الى ما اختبره من حال الناس في مصالحهم ومنافعهم وعرفهم فبالله كيف ينتسب امرؤ الى إمام ويشتغل بعلم مذهبه وهو لا يعرف تاريخه وتاريخ عصره !! وجملة القول ان الجاهل بالتاريخ لا يصلح أن يكون فردا من الأمة الداعية الى الاسلام الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر في الامور العامة على الوجه الذي يرجى قبوله

(٥) علم النفس وهو يساوي علم التاريخ في المكانة والفائدة أي العلم الباحث عن قوى النفس وتصرفها في علومها وتأثير علومها في أعمالها الارادية . مثال ذلك أن الاصل أن يكون العمل تابعا للعلم ولكن كثيرا من الناس يعتقدون أن عمل كذا ضارّ ويأتونه وعمل كذا نافع ويتركونه (والمحرم شرعاً كله ضار والحلال كله نافع) فما هو السبب في ذلك وهل يحسن دعوة هؤلاء الى الخير وإقناعهم بترك الشر من لا يعرف لماذا تركوا الخير واقترفوا الشر ؟ فهذه المعرفة من علم النفس الذي يؤخذ منه ان من العلم ما يكون صفة للنفس حاكمة على ارادتها مصرفة لها في أعمالها ومنه ما هو صورة تعرض للذهن لا أثر لها في الارادة فلا تبعث على العمل وإنما يكون مظهره القول احيانا . وقد كان الصحابة عليهم الرضوان على حظ عظيم من هذا العلم فانهم كانوا بسلامة فطرتهم وذكاء قريحتهم وباهداء القرآن بآياته والرسول ببيانه وسيرته على بصيرة من هذا العلم وان لم يتدارسوه بطريقة صناعية

فقد كان علمهم به كعلم الواضعين له من الحكماء أو أرسخ كما يدل عليه ما يؤثر عنهم من الحكم وما نجحوا به في الدعوة ، وظهروا به في مواطن الحجة ، وعبارة الاستاذ الامام في هذه المسألة : ولا تظنوا أن الصحابة لم يكن عندهم شيء من هذا العلم اذ لم يكونوا يدرسونه في الكتب ويتلقونه عن المعلمين فانكم اذا قرأتم التاريخ وعرفتم كيف كانوا يتجالدون في الحروب ، و(يتجادلون) في مواقع الخطب ، بمجرد الفطرة التي بعدنا عنها أمكنكم أن تعرفوا مكانهم منه . نعم ان الانسان في كل زمن يحتاج الى نوع من طرق التعليم غير ما كان في الزمن الذي قبله فالحقيقة الواحدة قد تختلف طرق العلم بها باختلاف الزمان والمكان والاحوال

(٦) علم الاخلاق وهو العلم الذي يبحث فيه الفضائل وكيفية تربية المرء عليها وعن الرذائل وطرق توقيه منها وهو ضروري وما ورد فيه من الآيات والاحاديث وآثار الصحابة والتابعين يغني بشهرته واستفاضته عن إطالة الكلام فيه . وقد خطر ببالي الآن كلمة عمر رضي الله عنه في الحياة الزوجية فأحببت أن أوردها وهي قوله للمرأة التي صرحت لزوجها بأنها لا تحبه اذا كانت احداكن لا تحب الرجل منا فلا تخبره بذلك فان أقل البيوت ما بني على المحبة وإنما الناس يتعاشرون بالحسب والاسلام : فهذه الكلمة الجليلة لا تخرج بالبداهة هكذا الا من فم حكيم قد انطوى في نفسه علم الأخلاق وعلم الاجتماع أيضاً ووقف مع ذلك على أحوال الناس واختبرهم أتم الاختبار

(٧) علم الاجتماع ولم يذكره الاستاذ الامام تفصيلا ولا اجمالا ولعل سبب ذلك عدم وجود كتب فيه بالعربية يرغب طلاب الأزهر فيها الا ما في مقدمة ابن خلدون وهو العلم الذي يبحث فيه عن أحوال الأمم في بداوتها وحضارتها وأسباب ضعفها وقوتها وتدليها وترقيها . على أن هذا العلم مستمد من علم التاريخ وعلم الاخلاق فمن كان له حظ عظيم منهما فانه قد يستغني به عن هذا العلم في بناء الدعوة والارشاد ، على قواعد الحكمة والسداد ، وان كانت دراسته مزيد كمال فيه وفي فوائده العظيمة وقد ذكرته للترغيب فيه وحث أهل الاستعداد منا على التصنيف فيه والاستعانة بما صنفه الغربيون على ذلك ليتمكن كل مريد له من

تناوله اذ ليس كل مطلع على التاريخ وعلم الاخلاق اهلا لاستنباط قواعد علم الاجتماع منهما وانما يكون ذلك للاقلين من العقلاء وهم لا يستغنون عن الوقوف على مااهتدي اليه من كتبوا في ذلك من قبلهم . وقد جاء في القرآن كثير من قواعد هذا العلم فغفل أكثر المفسرين عنه ولم يهتد الى فقه بعضه الا قليل منهم اذ لم يكن هذا العلم مدونا في عهدهم فينبههم الى ذلك . وقد تقدم في تفسيرنا هذا بيان كثير من تلك القواعد وسنعقد له فصلا حافلا في مقدمة التفسير التي نبين فيها فقه القرآن في جملته ان شاء الله تعالى

(٨) علم السياسة وقد ذكره الاستاذ الامام هنا مجملا وليس مراده به السياسة الشرعية التي كتب فيها ابن تيمية وغيره وان كانت مما لا يستغنى عنها ولكنها داخلة في علم الكتاب والسنة والاحكام وإنما المراد به العلم بحال دول العصر وما بينها من الحقوق والمعاهدات ومالها من طرق الاستعمار . فالأمة التي تؤلف للدعوة فى بلاد غير بلاد المسلمين المستقلة لا يتيسر لها ذلك اذا لم تكن عارفة بسياسة حكومة تلك البلاد . وهذا شيء غير ماتقدم من اشتراط معرفة حال من توجه اليهم الدعوة . والسياسة بهذا المعنى لم تكن في عصر الصحابة

(٩) العلم بلغات الأمم التي تراد دعوتها وقد ورد في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل اليهود الذين كانوا مجاورين له على أنهم كانوا قد استعربوا . فما كانت معرفة لغتهم الاصلية الا مزيد كمال في الفهم عنهم ومعرفة حقيقة شأنهم . ولا يقال ان الأمة التي تؤلف للدعوة الى الاسلام يمكنها أن تستغني عن تعلم لغات الأمم بالمترجمين من غير المسلمين فانها ان ظفرت بالمترجم الاجنبي الأمين لا يتيسر لها أن تفهم من حقيقة الدين عند الترجمة ما يفهمه العالم المسلم وإنما يلجأ الى مثل ذلك عند الضرورة أما اذا أمكن تأليف جمعية للدعوة فالواجب أن يكون فيها من المسلمين العارفين باللغات من يكفيها الحاجة الى ترجمة الاجنبي كما تفعل جمعيات الدعوة الى النصرانية فان افرادا منها يتعلمون لغات جميع الأمم . ولم يبين الاستاذ الامام هذا في الدرس لأنه لم يتصد الى بيان كل ما يتوقف عليه العمل في تعميمه

وكماله وانما ذكر ماذكره على سبيل المثال لتنبيه الأذهان ، والترغيب فيما يتيسر لأهل الأزهر في هذا الزمان ، ولو شرح في هذا المقام فوائد تعلم اللغات الاجنبية وتوقف مايجب من الدعوة الى الاسلام عليها لقام أعداء الاصلاح وخاذلو الدين القاعدون له كل مرصد يصيحون في الجرائد والمحافل بأن الشيخ المفتي يريد أن يهدم الدين في الأزهر بحث طلابه على تعلم اللغات الاجنبية كما فعلوا مثل ذلك عند حثه إياهم على تعلم التاريخ وتقويم البلدان وبعض الفنون الرياضية وإن صياحهم في مسألة اللغات يكون أوضح شبهة عند الجمهور الجاهل . وليس هذا البحث بأجنبي عن التفسير بل هو أولى من مباحث الرازي في علوم اليونان وتوسع غيره في الاسرائيليات أو اللغويات لأن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن ، وطرق الاهتداء به في هذا الزمان ، ولن نكون مهتدين به حتى تكون منا أمة تدعو الى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر من الطرق التي يرجى نفعها وذلك يتوقف على ما ذكرناه فوجب علينا أن نبين خطأ من يصد عنه

(١٠) العلم بالفنون والعلوم المتداولة في الأمم التي توجه اليها الدعوة ولو بقدر ما يفهم به الدعاة مايورد على الدين من شبهات تلك العلوم والجواب عنها بما يليق بمعارف المخاطبين بالدعوة

(١١) معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ليتيسر للدعاة بيان مافيها من الباطل فان من لم يتبين له بطلان ماهو عليه لا يلتفت الى الحق الذي عليه غيره وان دعاه اليه ، وقد كنت كتبت في سنة المنار الثالثة مقالة في الدعوة وطريقها وآدابها جعلت فيه هذا الشرط وما قبله واحدا فقلت فيه (ص ٤٨٤ م ٣)

« ثالثها — أي الشروط — الوقوف على ما عندهم من المذاهب والتقاليد الدينية ، والعلوم والفنون الدنيوية ، ما يتعلق منها بالدعوة ، ويصلح أن يكون شبهة ، ومن جهل هذا القدر كان عاجزا عن إزالة الشبهات ، وحل عقد المشكلات ، ومن فاته هذا الشرط وما قبله — وهو العلم بالأخلاق والعادات — لا يقدر أن يخاطب الناس على قدر العقول والاحلام ، كما كان شأن سادة الدعاة عليهم الصلاة والسلام ، ولقد علم رؤساء الديانة النصرانية ، أن ماكان من جهلهم بالعلوم

الكونية ، ومعاداتهم لها ، وتحكيمهم الدين فيها ، مؤذن باضمحلالها ، ومفض الى زوالها ، فأخذوا بزمامها ، وقادوها بخطامها ، وقربوا بين عالمي الملك والملكوت ، وقرنوا بين علمي الناسوت واللاهوت ، وبهذا أمكنهم حفظ حرمة الدين ، واعلاء كلمته بين العالمين ، ودِيننا هو الذي ربط بين العالمين ولكننا نقطع الروابط ، وجمع بين العلمين ولكننا نهدم الجوامع ، ولهذا جهلنا وتعلموا ، وسكتنا وتكلموا ، وتأخرنا وتقدموا ، ونقصنا وزادوا ، واستعبدنا وسادوا ، » اه

كل هذا من الشروط العلمية وللدعوة شروط أخرى تتعلق بتربية الدعاة على الأخلاق والآداب التي تشترط في الدعاة الى الحق سنشرحها في تفسير (١٦ : ١٢٥ أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) أن أمهل الزمان. (*)

وان لنا أن نأخذ مما استدل به الفقهاء على وجوب تعلم فنون العربية والحديث والفقه والاصول لأجل فهم الدين دليلا على وجوب تعلم طرق الدعوة وما تحتاج اليه في هذا الزمان بطريقة صناعية . فاذا كانت الدعوة في الصدر الاول قد تيسرت بغير تعليم صناعي ولا تأليف جمعية معينة كما كان فهم الدين متيسرا بغير تعليم صناعي ففي هذا الزمان يتوقف فهم الدين على التعليم الصناعي وتتوقف الدعوة اليه والامر بما جاء به من المعروف وما حظره من المنكر على تعليم خاص وتأليف جمعيات خاصة تقوم بهذا العمل ولا ينتشر الدين ولا يحفظ على وجهه الا بهذا كما تقدم التنويه به فالمراد بالامة تقيمها الامة لذلك مايعبر عنه في عرف هذا العصر بالجمعية

قال الاستاذ الامام ومن أعمال هذه الامة الاخذ على أيدي الظالمين فان الظلم أقبح المنكر والظالم لا يكون الا قويا ولذلك اشترط في الناهين عن المنكر أن يكونوا أمة لان الامة لا تخاف ولا تغلب كما تقدم فهي التي تقوم عوج الحكومة. والمعروف أن الحكومة الاسلامية مبنية على أصل الشورى وهذا صحيح والآية أدل دليل عليه ودلالتها أقوى من قوله تعالى (٤٢ : ٣٨ وأمرهم شورى بينهم) لان هذا وصف خبري لحال طائفة مخصوصة أكثر مايدل عليه أن هذا الشيء ممدوح في نفسه محمود عند الله تعالى — وأقوى من دلالة قوله (٣ : ١٥٩ وشاورهم في

(*) وقد تكلمنا عن ذلك في المقالة التي نقلناعنها ماتقدم آنفا فلتراجع في المنار

الامر) فان أمر الرئيس بالمشاورة يقتضي وجوبه عليه ولكن اذا لم يكن هناك ضامن بضمن امتثاله للامر فماذا يكون اذا هو تركه . وأما هذه الآية فانها تفرض أن يكون في الناس جماعة متحدون أقوياء يتولون الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عام في الحكام والمحكومين ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم وقد ورد في الحديث « لابد أن يأطروهم على الحق أطرا »

هكذا نقل بعض الطلاب هذا الحديث عن الاستاذ الامام وفسره عنه بأن معناه يفنوهم أي الظالمين ويبيدوهم وهو كما في كنز العمال معزوا الى أبي داود من حديث ابن مسعود « ان أول مادخل النقص على بني اسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فانه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم » وعنه وعند أحمد والترمذي « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي فنهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » وقد أورد الفقرة الأخيرة من الرواية الاولى في لسان العرب بضمير المفرد وقال : قال أبو عمرو وغيره قوله « تأطروه على الحق » تعطفوه عليه : اه

أقول ومعنى الآية على هذا الوجه أنه يجب أن تكون قوة المسلمين تابعة لهذه الأمة التي تقوم بفريضة الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي بمعنى مجالس النواب في الحكومات الجمهورية والملكية المقيدة فكأن الآية بيان لكون أمر المسلمين شورى بينهم . وماذكره في معني « وأمرهم شورى » ومعنى « وشاورهم في الامر » لعله يريد به انه يمكن أن يقال فيهما كذا والا فكل من النصين دال على وجوب كون حكومة المسلمين شورى ومجيء النص

الأول في الذكر بصيغة الخبر يؤكد كونه فرضا حتما كما عهد نظير ذلك في الاساليب البليغة ومر معنا كثير منها (راجع تفسير « يتربصن بأنفسهن ») والنص الثاني صريح في الوجوب والضامن له الأمة المخاطبة بالتكاليف في أكثر النصوص . وانما الآية التي نفسرها تفصيل لكيفية الضمان كما يأتي مبينا عنه رحمه الله تعالى

(قال) ومما يناط بهذه الأمة وهو أصل كل معروف النظر في تعليم الجاهلين فإذا علمت ان في مكان ما طائفة من المسلمين جاهلين بما يجب اتخذت الوسائل لتعليمهم . ومن هنا يعلم فساد ما يقوله كثير من الفقهاء من أنه لا يجب عليهم أن يتصدوا لتعليم الناس مالم يسعوا اليهم ويسألوهم . ولا يجهل أحد ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد تصدى لتعليم الناس ولم يقعد في بيته منتظرا سؤال الناس ليفيدهم وكذلك فعل الصحابة عليهم الرضوان اهتداء بهديه

(قال) ثم ان كون القائمين بالأمر والنهي أمة يستلزم أن يكون لها رياسة تدبرها لأن أمر الجماعة بغير رياسة يكون مختلا معتلا فكل كون لا رياسة فيه فيه فاسد فالرأس هو مركز تدبير البدن وتصريف الأعضاء في أعمالها وكذلك يكون رئيس هذه الأمة مصدر النظام وتوزيع الأعمال على العاملين فمنهم من يوجهون الى دعوة غير المسلمين الى الاسلام ومنهم من يوجهون الى إرشاد المسلمين في بلادهم ومقام الرياسة يختار بالمشاورة لكل عمل ولكل بلاد من يكونون أكفاء القيام بالواجب فيها لتكون أعمالهم مؤدية الى مقصد الأمة العام فان من معنى الأمة أن يكون للأفراد الذين تتكون منهم وحدة في القصد من أعمالهم وسيرهم فاذا اختلفت المقاصد فسد العمل باختلاف الآراء وتنكيث القوي ولذلك جاء بعد هذه الآية النهي عن التفرق والاختلاف

(قال) ثم ان كون الأمة الخاصة منتخبة من الأمة العامة يقتضي أن تكون للعامة رقابة وسيطرة على الخاصة تحاسبها على تفريطها ولا تعيد انتخاب من يقصر في عمله لمثله . فالأمة الصغرى المنتخبة (بفتح الخاء) تكون مسيطرة على افراد الأمة الكبرى المنتخبة (بكسر الخاء) وهذه تكون مسيطرة على الأمة الصغرى وبهذا يكون المسلمون في تكافل وتضامن

نموذج من انجيل برنابا

الفصل الرابع والتسعون [١]

١ ولما قال يسوع هذا عاد فقال : «اني أشهد امام السماء وأُشهد كل ساكن على الارض اني بريء من كل ما قال الناس عني من أني أعظم من بشر ٢ لاني بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله [ب] أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام ٣ لعمر الله [ت] الذي تقف نفسي بحضرته إنك أيها الكاهن لقد أخطأت خطيئة عظيمة بالقول الذي قلته ٤ ليلطف [ث] الله بهذه المدينة المقدسة حتى لا تحل بها نقمة عظيمة لهذه الخطيئة »

٥ فقال حينئذ الكاهن : «ليغفر لنا الله [ج] أما أنت فصل لاجلنا »

٦ ثم قال الوالي وهيرودس : « ياسيد انه لمن المحال ان يفعل بشر ما أنت تفعله فلذلك لا نفقه ما تقول »

٧ أجاب يسوع : « ان ما تقوله لصدق ان الله يفعل صلاحاً بالانسان كما ان الشيطان يفعل شراً ٨ لان الانسان بمثابة حانوت من يدخله برضاه يشتغل ويبيع فيه ٩ ولكن قل لي أيها الوالي وأنت أيها الملك أنتما تقولان هذا لانكما اجنبيان عن شريعتنا لانكما لو قرأتما العهد وميثاق الهنا [أ] [١] لرأيتما ان موسى حول بعصاه البحر دما والغبار براغيث والندي زوبعة والنور ظلاما ١٠ أرسل الضفادع والجرذان على مصر فغطت الارض وقتل الابكار وشق البحر وأغرق فيه فرعون ١١ ولم أفعل شيئاً من هذه ١٢ وكل يعترف بأن موسى انما هو الآن رجل ميت ١٣ أوقف [٢] يشوع الشمس وشق

(ا) سورة المؤمنين (ب) الله حكيم (ت) الله حي (ث) أستغفر الله
(ج) بلاء على فرعون وغرق ذكر منه

(١) خر ٧ (٢) يش ١٠ : ١٢ — ١٤

الاردن وهما مما لم أفعله حتى الآن ١٤ وكل يعترف بأن يشوع انما هو الآن
رجل ميت ١٥ وأنزل ايليا النار من السماء [1] عياناً وأنزل المطر [2] وهما
مما لم أفعله ١٦ وكل يعترف بأن ايليا انما هو بشر ١٧ كثيرون آخرون من
الانبياء والاطهار واخلاء الله فعلوا بقوة الله أشياء لا تبلغ كنهها عقول الذين
لا يعرفون الهنا [ا] القدير الرحيم المبارك الى الأبد »

الفصل الخامس والتسعون [ب]

١ وعليه فان الوالي والكاهن والملك توسلوا الى يسوع ان يرتقي مكاناً
مرتفعاً ويكلم الشعب تسكيناً لهم ٢ حينئذ ارتقى يسوع أحد الحجارة الاثنى
عشر التي أمر يشوع الاثنى عشر سبطاً ان يأخذوها من وسط الاردن
عندما عبر اسرائيل من هناك دون ان تبتل أحذيتهم [3] ٣ وقال بصوت عال :
« ليصعد كاهننا الى محل مرتفع حيث يتمكن من تحقيق كلامي » ٤ فصعد
من ثم الكاهن الى هناك ٥ فقال له يسوع بوضوح يتمكن كل واحد من
سماعه : « قد كتب في عهد الله الحي [ت] [4] وميثاقه أن ليس لالهنا
بداية [ث] ولا يكون له نهاية [ج] »
٦ أجاب الكاهن : « لقد كتب هكذا هناك »
٧ فقال يسوع : « انه كتب هناك ان الهنا [ح] قد برأ كل شيء
بكلمته [خ] [5] فقط »

(ا) الله قدير على كل شيء والرحمن (ب) سورة لا اله الا الله (ت) الله حي
(ث) الله قديم (ج) الله باق (ح) الله خلق (خ) خاق الله كل شيء في كلام واحد منه
(1) ١مل ١٨ : ٣٨ و ٣٩ (2) ١مل ١٨ : ٤١ (3) يش ٤ : ٨ (4) مز ٩٠ : ٢
(5) مز ٣٣ : ٦

٨ فأجاب الكاهن : « انه لكذلك »
٩ فقال يسوع : « انه مكتوب هناك ان الله لا يُرى [ا] وانه محجوب [ب]
عن عقل الانسان لانه غير متجسد [ت] وغير مركب وغير متغير [ث] »
١٠ فقال الكاهن : « انه لكذلك حقاً »
١١ فقال يسوع : « انه مكتوب هناك كيف ان سماء السموات لا تسعه [1]
لان الهنا غير محدود [ج]
١٢ فقال الكاهن : « هكذا قال سليمان النبي يا يسوع »
١٣ قال يسوع : « انه مكتوب هناك ان ليس لله حاجة لانه لا يأكل
ولا ينام ولا يعتريه نقص [ح] »
١٤ قال الكاهن « انه لكذلك »
١٥ قال يسوع : « انه مكتوب هناك ان الهنا في كل مكان وان
لا اله سواه [خ] الذي يضرب ويشفي ويفعل كل ما يريد [2] »
١٦ قال الكاهن : « هكذا كتب »
١٧ حينئذ رفع يسوع يديه وقال : « أيها الرب الهنا [د] هذا هو
ايماني الذي آتي به الى دينونتك شاهداً على كل من يؤمن بخلاف ذلك »
١٨ ثم التفت الى الشعب وقال : « توبوا لانكم تعرفون خطيئتكم من كل
ما قال الكاهن انه مكتوب في سفر موسى عهد الله الى الأبد ١٩ فاني

«ا» الله لا تدركه الابصار (ب) الله خفي (ت) لا بدن له (ث) لا يخلف
الله منه (ج) الله عظيم (ح) الله غني (خ) قال عيسى لا غير اله إلا اله نا منه
«د» الله سلطان
«1» ١مل ٨ : ٢٧ «2» تث ٣٢ : ٣٩

بشر منظور وكتلة من طين تمشي على الارض وفان كسائر البشر ٢٠ وانه
كان لي بداية وسيكون لي نهاية وإني لا أقدر أن أبتدع خلق ذبابة »
٢١ حينئذ رفع الشعب أصواتهم باكين وقالوا : « لقد أخطأنا اليك
أيها الرب الهنا (ا) فارحمنا (ب) » ٢٢ وتضرع كل منهم الى يسوع ليصلي
لاجل أمن المدينة المقدسة لكيلا يدفعها الله في غضبه لتدوسها الأمم (ت)
٢٣ فرفع يسوع يديه وصلى لاجل المدينة المقدسة ولاجل شعب الله
وكل يصرخ : « ليكن كذلك آمين »

الفصل السادس والتسعون (ث)

١ ولما انتهت الصلاة قال الكاهن بصوت عال : « قف يا يسوع
لانه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكيناً لامتنا »
٢ أجاب يسوع : « أنا يسوع بن مريم (ج) من نسل داود بشر مائت
ويخاف الله وأطلب ان لا يعطى الإكرام والمجد الا لله »
٣ أجاب الكاهن : « انه مكتوب في كتاب موسى ان الهنا سيرسل
لنا مسياً (ح) الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله وسيأتي للعالم برحمة الله ٤ لذلك
أرجوك ان تقول لنا الحق هل أنت مسياً (خ) الله الذي ننتظره ؟ »
٥ أجاب يسوع : « حقاً ان الله وعد هكذا ولكني لست هو لانه
خلق قبلي وسيأتي بعدي (١)

« ا » الله سلطان « ب » أستغفر الله « ت » الله قهار « ث » سورة المبشر
« ج » قال عيسى أنا عيسى بن مريم « ح » الله مرسل روسل « رسول » « خ » رسول
« ١ » يو ١ : ١٥

٦ أجاب الكاهن : « انا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال
انك نبي وقدوس الله ٧ لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها واسرائيل ان
تفيدنا حباً في الله بأية كيفية سيأتي مسيا »
٨ أجاب يسوع : « لعمر الله (ا) الذي تقف بحضرته نفسي اني
لست مسياً الذي تنتظره كل قبائل الارض كما وعد الله ابانا ابرهيم (١)
قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الارض : ٩ ولكن عند ما يأخذني الله من
العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى
على الاعتقاد بأني الله وابن الله ١٠ فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي
حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً ١١ حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله
الذي خلق كل الاشياء لاجله ١٢ الذي سيأتي من الجنوب بقوة (ب)
وسيبيد الاصنام وعبدة الاصنام ١٣ وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر
١٤ وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ١٥ وسيكون من يؤمن
بكلامه مباركا »

الفصل السابع والتسعون (ت)

١ « ومع أني لست مستحقاً أن أحل سير حذائه (٢) قد نلت نعمة
ورحمة من الله لاراه »
٢ فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالي والملك قائلين لا تزعج نفسك
يا يسوع قدوس الله لان هذه الفتنة لا تحدث في زمننا مرة أخرى ٣ لاننا

« ا » بالله حي « ب » في لسان لاتن لود ابليس « ت » سورة محمد رسول الله
« ١ » تك ٢٢ : ١٨ « ٢ » مر ١ : ٧

سنكتب الى مجلس الشيوخ الروماني المقدس باصدار أمر ملكي أن لا أحد يدعوك فيما بعد الله أو ابن الله »

٤ فقال حينئذ يسوع (ا) : « ان كلامكم لا يعزيني لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور ٥ ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب في وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لانه هكذا وعد الله أبانا ابراهيم ٦ وان مايعزيني هو أن لانهاية لدينه (ب) لأن الله سيحفظه (ت) صحيحاً »

٧ أجاب الكاهن : « أيأتي رسل آخرون بعد مجيء رسول الله (ث) ؟ »

٨ فأجاب يسوع : « لا يأتي بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله ٩ ولكن يأتي عدد غفير من الانبياء الكذبة وهو ما يحزنني ١٠ لان الشيطان سيثيرهم بحكم الله (ج) العادل فيتسترون بدعوى انجيلي »

١١ أجاب هيرودس : « كيف ان مجيء هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل ؟ »

١٢ أجاب يسوع : « من العدل ان من لا يؤمن بالحق لخلاصه يؤمن بالكذب للعنته ١٣ لذلك أقول لكم (ح) ان العالم كان يمتهن الانبياء الصادقين دائما وأحب الكاذبين كما يشاهد في أيام ميشع وأرميا (١) لان الشبيه يحب شبيهه » (خ)

« ا » قال عيسى صفات ناجئة رسول الله لانه اذجاء في الدنيا يرفع اعتقاد السوء من أهل الدنيا لنا ودينه يضبط جمع للدنيا لدينا منه « ب » دين رسول الله أبدي لانه تعالى يحفظ دينه منه « ت » الله حافيظ « ث » رسول الله خاتم الانبياء « ج » حكم الله عادل « ح » والى بني آدم « خ » الجنس مع الجنس منه

« ١ » ؟ أر ٢٦ : ١٨

١٣ فقال حينئذ الكاهن : « ماذا يسمى مسيا وماهي العلامة التي تعلن مجيئه (ا) ؟ »

١٤ أجاب يسوع : « ان اسم مسيا (ب) عجيب لان الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي ١٥ قال الله : « اصبر يا محمد (ت) لاني لاجلك (ث) أريد أن أخلق (ج) الجنة والعالم وجما غفيراً من الخلائق التي أهبها لك حتى ان من يباركك يكون مباركا ومن يلعنك يكون ملعونا ١٦ ومتى أرسلتك (ح) الى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى ان السماء والارض تهنان ولكن ايمانك لا يهن أبداً ١٧ ان اسمه المبارك محمد : »

١٨ حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : « يا الله أرسل (خ) لنا رسولك (د) يا محمد (ذ) تعالَ سريعاً لخلاص العالم ! »

الفصل الثامن والتسعون (ر)

١ ولما قال هذا انصرف الجمهور مع الكاهن والوالي مع هيرودس وهم يتحاجون في يسوع وتعليمه ٢ لذلك رغب الكاهن الى الوالي ان يكتب

« ا » جات طائفة من اليهود عيسى يسألون عن اسم النبي الذي يبعث في آخر الزمان فقال عيسي ان الله تعالى خلق النبي في آخر الزمان ووضعه في قنديل من نور وسماه محمداً قال يا محمد اصبر لاجلك خلقاً كثيراً وهبت لك كله فمن رضي منك فانا راض منه ويبغضك فانا بريء منه فاذا أرسلت يفوق كلامك على كل الكلام وشريعتك باق الى أبد الآبدين « ب » رسول « ت » محمد « ث » الله محب ووهاب « ج » الله خالق « ح » الله مرسل « خ » الله مرسل « د » رسول الله « ذ » يا محمد « ر » سورة طاعم « طعام »

بالامر كله الى رومية الى مجلس الشيوخ فقعل الوالي كذلك ٣ لذلك تحنن مجلس الشيوخ على اسرائيل وأصدر أمراً انه ينهي ويتوعد بالموت كل أحد يدعو يسوع الناصري نبي اليهود إلهاً أو ابن الله ٤ فطلق هذا الامر في الهيكل منقوشاً على النحاس» الخ



خطبة اسماعيل بك غصبرنسكي (*

تلاها باللغة التركية في ردهة فندق الكونتننتال بالقاهرة على نحو ثلاث مئة رجل من جميع الطبقات المتعلمة (ماعدا الامراء) وقرأ ترجمتها بالعربية الشيخ عبد الوهاب النجار :

شيء من أحوال المسلمين في البلاد الروسية

نشأت لمسلمي روسيا في الأزمان السالفة دولتان كبيرتان . احداهما دولة « آلتون أوردو » وكانت عاصمتها مدينة « سراي » قرب بحر قزوين والاخرى الدولة التيمورية . ولما سقطت هاتان الدولتان الكبيرتان وقامت على أنقاضهما خانات (امارات) صغيرة متعددة وهي امارة سيبيريا وإمارة قزان وإمارة استراخان وإمارة قريم وامارات القافقاس نشأت في آسيا الوسطى امارات بخارى وخيوا وخوقند وعدة جمهوريات صغيرة اذا صح هذا التعبير – في تخوم الدولة الايرانية الشمالية .

ثم دار الزمان دورته وحم لامارتي بخارى وخيوا أن تصيرا داخل حدود الممالك الروسية وتدخلا تحت حمايتها . وأما بقية الامارات فقد استولت عليها الروس استيلاء كاملا وصارت الآن ولايات روسية صرفة

أول الامارات سقوطاً هي امارة قزان وسيبيريا وأما الجمهوريات التركمانية فلم تخضعها الروس الا في العهد الاخير

*) راجع باب الاخبار من هذا الجزء

نزل معظم مسلمي روسيا في آسيا وفي القافقاس وقسم عظيم منهم يقطنون الولايات الداخلية والشرقية من أوربا الروسية وقليل في شبه جزيرة قريم

وعدد المسلمين الساكنين في القافقاس الشرقية وداغستان وفي تركستان تسعون في المائة بالنسبة لغيرهم من الشعوب هناك . وأما في سيبيريا فهم الاقلون . والساكنون منهم في الولايات الشرقية من أوربا الروسية يختلطون بالروس وسائر الاجناس . وهم الاكثرون في ولاية أوفا اذ هم هناك سبعون في المئة بالنسبة لغيرهم .

وأما عدد مجموعهم فهو يناهز – بحسب احصاء سنة ١٨٩٧ – سبعة عشر مليون نسمة . واذا ضممنا اليهم أهل بخارى وخيوا جاوز عددهم ٢٠ مليونا .

ولا ينبغي أن يفوتنا العشرة الملايين من الترك الساكنين في تركستان الصينية (كشغر) الذين تجمعهم ومسلمي روسيا أواصر اللغة والآداب وبذلك تألف هناك « مجتمع جنسي » مؤلف من ثلاثين مليون نسمة .

تسعة وعشرون مليونا من هؤلاء سنيون ومليون واحد شيعيون . وأما من حيث الجنسية واللغة فكلهم ترك سوى ثمانمائة ألف من قبائل الشراكسة القاطنين في جبال القافقاس ولهم مع ذلك المام باللغة التركية .

يشتغل مسلمو روسيا بالزراعة وتربية المواشي وبالتجارة بحسب ما تسمح لهم مواطنهم . وكانت لهم في سالف الايام صناعات تذكر . ولكنها أخذت تسقط رويداً رويداً من مكانتها الاولى بمزاحمة مصنوعات المعامل الاوروبية الحديثة كما هي الحال في الأقطار الاسلامية قاطبة . والقريميون منهم معروفون بتعهد البساتين وانماء الفواكه المختلفة الطيبة

والقوقاسيون أو القافقاسيون يشتغلون في الغالب بتربية دود القز وصنع البسط والطنافس الجيدة . وقد انتشرت بينهم في العهد الأخير زراعة القطن انتشاراً عظيما .

وأما التركستانيون فيقومون على تربية دود القز وانماء الفواكه وزراعة القطن . والجهات الشمالية من آسيا الوسطى عبارة عن القفار والاراضي القاحلة ويندر فيها الماء العذب السائغ وتنقلب في ارجائها قبائل رحالة بمواشيها وانعامها .

فى ولايات أوربا الروسية والقوقاس أربع مشيخات اسلامية . ثلاث منها

للسنيين وواحدة للشيعة . ولدى كل مشيخة مفت (أوشيخ اسلام) وثلاثة قضاة أو أعضاء وتنظر هـذه المشيخات في الامور الدينية البحتة كالنكاح والطلاق والمواريث والنسب وتقسيم التركات وتوزع السجلات على أئمة المساجد كي يثبتوا فيها المواليد والوفيات وعدد الطلاق والنكاح وما اليها مما يقع في أحيائهم .

وتقسم التركات الاسلامية في روسيا على وفق الشريعة الاسلامية . وكذلك الوصايا الاسلامية لا يمسها القانون الروسي بسوء

في كل قرية اسلامية — في أوربا الروسية وفي القريم — مسجد وكتاب . وأما القرى الكبرى ففيها عدة مساجد وعدة كتاتيب

وفي أوربا الروسية والقوقاس سبعة آلاف مسجد وثمانية آلاف كتاب وما ينيف على مائة مدرسة دينية وأكثر مسلمي روسيا عناية بأمور التعليم والمدارس المسلمون الساكنون في الولايات الداخلية الروسية

وعدد المتعلمات من البنات في الكتاتيب يساوي ثلث المتعلمين من الذكور ومما يحسن ذكره هنا ان جماعة من الفتيات المسلمات يتعلمن في مدارس البنات التجهيزية الرسمية . وكذلك تتعلم اليوم في القسم الطبي من « جامعة » بطرسبورغ أربع عشرة فتاة مسلمة . وقد كانت أكملت دروس الطب فيها فتاتان مسلمتان وهما تمارسان اليوم صناعة الطب . وكان دخول السيدة « رضية » احدى تينك الطبيبتين في الجامعة بسعي المرحوم شاكر باشا السفير السابق للدولة العثمانية في بطرسبورغ

وليس لدي الآن تفصيل بشأن الكتاتيب والمدارس الاسلامية في آسيا الروسية ولكني أعلم ان المدارس الدينية كثيرة ملأى بطلاب العلوم في مدينة بخارى وخوقند وسمرقند وغيرها من حواضر البلاد التركستانية

واني لا أتمالك ان أذكر هنا بكل أسف ان تلك المدارس لا تبرح تسود فيها الفوضى والخلل في طرق التعليم . ومن أجل ذلك لا تأتي بفوائد يقتضيها هذا الزمان ونطاق برجراماتها أضيق من أفكار الاساتذة القائمين فيها بالتعليم والتدريس

وليست بيننا الى الآن مدارس للمعلمين والمعلمات ولكن فكرة انشاء المدارس

من هذا القبيل قد حدثت في العهد الاخير

انتشرت بين مسلمي الروس فكرة الارتقاء والتمدن منذ ربع قرن انتشاراً يذكر . ومن ثمرات هذه الفكرة أنهم جعلوا في العهد الاخير يصلحون كتاتيبهم ومدارسهم وينشرون المؤلفات المفيدة في العلوم العصرية والادبيات التركية وطفقوا ينشئون المعاهد العلمية على الطراز الحديث ويرسلون التلاميذ الى المدارس الروسية والاوروبية والى الاستانة ومصر لتلقي العلوم الحديثة العصرية والعلوم العربية والدينية .

ويناهز عدد الكتب المنتشرة بين مسلمي روسيا في العلوم العصرية والادبية نحو خمسمئة كتاب

وعدد المطابع الاسلامية الموجودة في روسيا كما يأتي:

ثلاث في بطرسبورغ وثلاث في قزان وثنتان في تفليس وثنتان في باكو وواحدة في باغچة سراي . وفي قزان ثلاث مطابع روسية ذات حروف عربية فيكون المجموع ثلاث عشرة مطبعة . وأما الصحف المنتشرة الاسلامية في البلاد الروسية فهي:

صحيفتان في بطرسبورغ وأربع في قزان وثلاث في أورنبورغ وثلاث في باكو وواحدة في طاشقند قاعدة تركستان اليوم وواحدة في تفليس وواحدة في باغجه سراي واحدة من هذه الصحف تصدر باللغة العربية والبقية بالتركية . واحدى الصحف التركية تكتب بلهجة تقرب من لهجة الترك العثمانيين والبقية تكتب الآن بلغات تركية مختلفة باختلاف الاقاليم . والرجاء أن تتحد لغات هذه الصحف أو تتقارب كل التقارب في مستقبل قريب أو بعيد . وهذا الاتحاد اللغوي غاية ما يرمي اليه المصلحون والمنورون منا وثلاث صحف من تلك الصحف علمية أدبية والبقية سياسية أيضا . وأما من جهة الخطة فثلاث عشرة صحيفة منها وطنية معتدلة وثنتان ترميان الى غاية «اشتراكية ديمقراطية »

وفي روسيا اثنتاعشرة جمعية خيرية اسلامية غرضها اسعاف المعوزين والاخذ بأيدي البائسين والمساكين ولها قوانين مصدق عليها من الحكومة

ويتجاوز عدد الكتاتيب التي أصلح أمرها ألف كتاب تعلم فيها القراءة التركية والكتابة والقرآن والعقائد الدينية ومبادىء الحساب والجغرافية والتاريخ الاسلامي

وشيء من علم حفظ الصحة

وأما المدارس الدينية فقد أصلحت منها مدرسة في قزان وأخرى في أورنبورغ وثالثة في أوفا . وفي تلك المدارس تدرس اليوم العلوم الرياضية والطبيعية وتقويم البلدان والتاريخ . دع عنك العلوم العربية والدينية بانواعها

ولقد نشأ لمسلمي روسيا افراد جادوا بأموالهم وأنفس املاكهم في سبيل ترقية المعارف واعلاء قدر الامة والملة . وأخص بالذكر من بينهم المرحوم الحاج نعمة الله قراميشف السيبيري الذي بذل أموالا طائلة في سبيل انشاء مئة كتاب ومئة مسجد وأنفق مبلغا عظيما لتأسيس مكتبة عامة أودعها أنفس الكتب وأندر الآثار . أكرم الله مثواه وأحله مقاما كريما . وأنفق التاجر القزاني المرحوم أحمد الحسيني في انشاء معاهد العلم وترقية المعارف ثلثمائة ألف روبل . وأنشأ شقيقه عبد الغني الحسيني مئتي كتاب على نسق حديث وقد نشر بهمته الشماء فكرة اصلاح الكتاتيب وكذلك الاصول الحديثة المعروفة بالاصول الصوتية التدريجية الى تخوم الصين وذلك بانشاء الكتاتيب في تلك الديار النائية كما أنشأها في الولايات الروسية المتوسطة جزاهم الله عنا وعن العلم والفقراء جزاء حسنا

وممن تقضي علينا الانسانية ان نذكر اسمه مقرونا بالاجلال والاحترام الحاج زين العابدين تاغييف الباكوي لان خدمة هذا المثري الكريم في سبيل نشر العلم واسعاد الفقراء أكثر وأجزل

أنشأ هذا الرجل في داغستان مئة مسجد ومئة كتاب . وأنشأ في ضواحي مدينة باكو حقلا أنموذجيا . وأنشأ للدفاع عن الحقوق الوطنية جرائد متعددة باللغة الروسية والتركية

وبذل ملايين من الروبلات لتعليم أناس كثيرين في الجامعات الروسية والاوروبية . وما معظم الاطباء والمحامين والمهندسين المسلمين الذين نفتخر بهم الا من آثار همة هذا الرجل الكريم. ولم ينس هذا الرجل العظيم المسلمات أيضا فقد أنشأ في مدينة باكو مدرسة شامخة للبنات أنفق على بنائها فقط عشرين ألف جنيه . ووقف عليها وقفا يأتي بايراد قدره ثلاثون ألف جنيه سنويا ولا يبعد أن

تصبح هذه المدرسة ذات يوم « المدرسة الجامعة » للاناث

ولم يجتزيء هذا الرجل بمساعدة من في روسيا فقط بل مد يد المعونة الى ايران أيضا . وقد طبعت هناك كتب جمة على نفقة هذا الرجل الكريم . ويقدر ما ساعد به المنكوبين والبائسين في البلاد الفارسية بمليون روبل وزيادة

أيها السادة : شاركوني في الدعاء لهذا الرجل الناصح للانسانية والخادم للفضيلة . أطال الله بقاءه وحفظه من كوارث الزمان .

وأما الاغنياء الذين أنشؤا كتابا أو كتابين ومدرسة أو مدرستين فهم كثيرون جداً يتعذر علينا الآن احصاؤهم وما الخطوة التي خطوناها الى الامام في ميدان التقدم الا بفضل هذه الكتاتيب والمدارس التي أسست ووصلت بهمة أمثال من ذكرنا أسماءهم من أولي الهمم العالية الى ماوصلت .

***

وها قد آن لنا أن نوجه وجه الكلام الى الامور التجارية والاقتصادية .

ان لدى المسلمين الساكنين في آسيا الوسطى وأوروبا الروسية قوة تذكر في هذا الشأن . ولكنه لا بد من أعدادها وتنميتها بنشر العلوم والمعارف بينهم . لان الاقوام الذين يتفق للمسلمين ان يباروهم في ساحة الاعمال التجارية أشداء أقوياء فيما يمارسون . فلمسلمي روسيا — عدا من يسكنون منهم الولايات الداخلية — من الاراضي ما يكفيهم للاستغلال . وقد تولدت بينهم فكرة الحرص عليها وعدم تمكين الآخرين منها تولدا يبشر بحسن المغبة ان شاء الله . وأهل تركستان بارعون جدا في أمور الفلاحة والزراعة . لا يقدر على نزع الارض الغالة من أيديهم — من الوجهة الاقتصادية — لا الروس ولا مهاجرو الالمان .

وهم يكدحون في أمر الزراعة كدحا لا يعرفون فيه الملل والسآمة . فهم يشبهون المصريين من هذه الوجهة كل الشبه ولكن أراضيهم الغالة أكثر وأفسح من أراضي القطر المصري . ونصف القطن الذي تحتاج اليها معامل المنسوجات الروسية يرد من الخارج وأما النصف الآخر فهو ثمرة كدح أهل تركستان وحدهم . فزراع القطن في تركستان يجلبون من روسيا الاوروبية الى بلادهم مبالغ طائلة .

وأما المسلمون القاطنون في مدينة قزان وما يتاخمها من البلدان فلهم كثير من معامل الصابون والجلد. ومن معامل الجوخ ما فيه ثلاثة آلاف عامل. ومن جملتها معامل « آقچورين » المثري المسلم الشهير. وتبيع هذه المعامل سنويا الى الجيش الروسي من الجوخ ما يناهز مليون متر. وللمثري الشهير الحاج زين العابدين تاغييف الذي تقدم ذكره معمل للمنسوجات القطنية فيه أربعة آلاف عامل. وأكثرهم من المسلمين. وكذلك المهندسون وزعماء العمال فيها. وأما مديرها فكان من قبل انكليزيا ولم تبق اليوم حاجة الى الانكليزي اذ جعل صاحبها يديرها بنفسه

وهناك بيوت تجارية اسلامية كبيرة تشتغل باستخراج النفط والبترول يبلغ ما يتعامل به أحدهم عشرة ملايين روبل

وأكثر السفن التي تسير في بحر قزوين ملك المسلمين

والفواكه الطيبة التي تتفكه بها روسيا كافة تؤتي أكلها في بساتين المسلمين في القريم.

لا يظنن ظان ان ذلك ارتقاء عظيم وتقدم عميم. لان كل ما ذكرناه عن مسلمي روسيا هو شيء طفيف تافه جدا بالنسبة الى الامم الراقية الحية التي تخطو في مهيع التقدم والارتقاء بخطا العفاريت، وتهتدي الى أسباب النجاح والفلاح اهتداء الخريت، وتمضي في سبيل الخير والصلاح مضاء الاصليت

ولكنه لا ينبغي لنا ان لا نيأس ونتقاعد عن النظر فيما يرقى شؤوننا ويصلح حالنا اذ كل من سار على الدرب وصل

ولا شك أن مسلمي روسيا يستفيدون ويفيدون من الانقلاب الذي حدث في روسيا ومن دستورها الذي هو ثمرة ذلك الانقلاب استفادة كبيرة. وقد تنبهت أفكار الأمة في السنين الثلاث الأخيرة تنبها عظيما واتسع نطاق الآمال اتساعا جسيما. حقا ان انقلاب روسيا أثر تأثيرا يذكر في مسلمي روسيا وأتاهم بفوائد جمة. ولست الآن بمكتف بتعداد تلك الفوائد جملة بل أحب أن أذكر هنا أهمها وأعودها عليهم برادة.

أيها السادة: ان مسلمي روسيا أنشأوا لأنفسهم حزبا سياسيا دستوريا ديمقراطيا باسم « اتفاق مسلمي روسيا » فاجتمع مندوبو المسلمين في الولايات المختلفة في

أغسطس سنة ١٩٠٥ في مدينة « نيجني نوفغورود » غير أن الوالي لم يسمح بعقد الاجتماع رسميا. ولم يكن الوقت ليتسع لتحصيل الاذن من العاصمة. فعقد المندوبون اجتماعهم على ظهر باخرة استأجروها للتنزه عليها في نهر « فولجا ». فقررت الآراء في ذلك الاجتماع انشاء (حزب اتفاق المسلمين) وانشاء فروع له في الولايات للذب عن حقوق المسلمين السياسية والاقتصادية والادبية.

وقد أنشئت لهذا الحزب الذي يتقوى يوما فيوما فروع في بعض الولايات بالفعل ورفعت قوانينها الى الحكومة لتصادق عليها. وكذلك عقد المسلمون سنة ١٩٠٦ اجتماعا غير رسمي في بطرسبورغ وآخر رسميا في « نجني نوفغورود » وبلغ عدد الحاضرين في الاجتماع الثالث سبعمئة رجل وامتدت مدة المفاوضة والمناقشة خمسة أيام

وبفضل هذه الاجتماعات انتشرت الافكار السياسية بين المسلمين انتشارا زائدا فتسنى لهم أن ينتخبوا منهم أربعة وعشرين نائبا للدوما الأولى و٣٦ نائبا للدوما الثانية ولا يسعنا هنا الا الاعتراف بأن هذا النجاح الباهر في الانتخاب في تينك المرتين لم يحصل بهمتنا فقط بل كان فيه للقوانين العادلة ومعاملة أحرار الروس لنا معاملة شريفة تأثير كبير لا ينكر

نعم ان أحزاب التقهقر من الروس ينظرون الى « اتفاق المسلمين » نظر المغتاظ المستشيط ولكنه غير خارج عن دائرة القانون حتى تكرهه الحكومة وليس حزبا يسعى لايقاع التفرقة بين الرعايا الروسيين حتى ينفر منه الاحرار من الروس. ومما يحسن ذكره هنا أن المسلمين يعيشون مع الروس على غاية من الوفاق والوئام. وأمة الروس كثيرة الجنوح الى الائتلاف والسلام. وهم لا ينظرون الى المسلمين نظر المتهن المزدرى بل يعاملونهم معاملة القرين لقرينه وأبواب الجمعيات العلمية والادبية والاندية والمدارس كلها مفتحة في وجوه المسلمين اذا هم رغبوا في اللحاق بأهلها

نعم قد حدث في الايام الغابرة بتأثير الكنيسة وجماعة المبشرين بعض الحوادث المؤلمة ولكنها قد زالت أسبابها بعد أن أعلنت الحرية كل الزوال ونؤمل

أن تتحسن أحوالنا في المستقبل أكثر مما تحسنت . رأينا كثيرين ممن أكرهوا زمن الاستبداد على التنصر قد عادوا الى الاسلام وكذلك انتحل الاسلام اناس من الروس الاصليين رجالا ونساء . والفضل في ذلك كله للحرية التي ترقى بها الامم وتكمل الانسانية

﴿ مسألة التعليم العام ﴾

اذا أرادت معظم أمم الارض أن تدخل في دور التمدن والرقي يكفيها النظر في مستقبلها فقط وعلى العكس من ذلك الامة الاسلامية فانها مطالبة بأن تمد بنظرها الى الماضي أيضاً فليس في الامم الأخرى في غابر أزمانها ما يستدعي الالتفات نحوه . أما الامة الاسلامية فان أعوامها السالفة كلها عبر وحسنات رقي ونجاح . ولما كانت الامة الاسلامية الحاضرة تمتاز على غيرها في هذا المبدأ فلا بأس من أن تعيد نظرة الى الوراء خصوصاً في مسألة التعليم وانشاء المدارس

ان مصر هذه التي تعد منبعاً للمعارف ومهداً للمدنية وان كانت في سالف أيامها أي منذ ٤٠ قرنا اشتهرت بارتقائها في العلوم الا أن هذه النعمة ما نفعت اذ ذاك غير كونها آلة لتوسيع نفوذ طائفة الكهنة وواسطة لتقوية أهوائهم

ثم انتقلت القراءة والكتابة الى ديار اليونان فظهرت فيها عدة مجامع علمية كمدارس سقراط وافلاطون وارسطاطاليس الا أن هذه المجامع لم تكن على شكل مدارسنا اليوم ، بل كانت أشبه بمجالس المذاكرة خاصة يختلف اليها المولعون بالبحث والمناظرة وأعني بذلك أنها لم تكن عامة التدريس يهرع اليها كل طالب . انتقلت المدنية اليونانية بعد ذلك الى الرومانيين ثم ظهرت النصرانية بظهور الدولة القسطنطينية فتقدمت معها قوانين ادارة الملك وعلم الحقوق تقدما عظيما ولم تنتبه فيهم أيضاً فكرة تعميم التعليم فبقيت هذه المسالة غامضة غريبة عن الافكار الى أن قيض الله تعالى للعالم الانساني الامة الاسلامية التي اهتدت الى هذه الفكرة لأول وهلة فأخذت مسألة التعليم العام بسبب عنايتها حظها من التوسع والانتشار . ومنشأ ذلك الاسلام نفسه لانه كما أتى بالتوحيد أتى بما يدعو الى وجوب تعليم العالم . فلقد كان من مقتضى ذلك ان المسلمين بنوا عند كل معبد تقام فيه الشعائر

الاسلامية كتّاباً او مدرسة لتعليم العام مجاناً . فاصبح التعليم العام المجاني من جملة الخيرات التي انتجتها المدنية الاسلامية في العالم الانساني . ثم لم تلبث هذه النعمة العظمى في ايدي المسلمين زمناً طويلا حتى انتقلت منهم الى الامم الغربية وهناك نالت ما نالته من الحفاوة والاجلال فتقدمت تقدما باهرا وانتشرت انتشارا عظيما

فوا أسفاه على هذه الخسارة التي لحقت بنا ووا أسفاه على ذلك الاهمال الذي أفضى بنا الى ضياع هذه النعمة من أيدينا بعد أن ورثناها عن آبائنا . لقد قصرنا في حفظها تقصيراً لا مزيد عليه . فالمعارف التي تركها لنا الاسلاف بقيت طفلة في مهدها ولم نعمل على انمائها بل المدارس والمعاهد العلمية التي هي تذكار المتقدمين لنا لم نسع في ترقيتها فبدل أن نعمرها ونرفع أعلام مجدها السابق سعينا في تخريبها أو هدمها .

ان تلك المعاهد العلمية التي نشأ منها أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد والغزالي ومحيي الدين بن العربي أصبحت منذ عدة قرون دوراً للعجزة الضعفاء ومسكناً للمعطلين

ولم يكن السبب في حالتنا هذه الا التكاسل والاهمال الذي أسبل ستار الغفلة علينا وحال دون تنبهنا الى حالة الامم الاخرى

أما الآن فقد أقبل — ولله الحمد والثناء — على الأمة الاسلامية دور التيقظ فأخذت الرغبة في التعليم تتولد في كل جهة من الممالك الاسلامية فأصبحنا نسمع صدى بعض الافراد والحكومات للتفكير في شؤون التعليم والمدارس ولكن ذلك من سوء الحظ لم يبلغ الخطة المطلوبة نحن معشر المسلمين منذ ثمانية قرون قد تركنا لأوروبا غنائم كثيرة وخزائن من المعارف ولم نطالبهم أثناء هذه المدة بردها الينا . ولكن قد حان الآن وقت الاعادة فعلينا أن نستردها منهم استرداداً يحمل ما توفر لديهم حتى الآن من انمائها ولا يقال هنا أن الشرق غريم الغرب اذ لا يقصد منه الا الذهب الذي لا يساوي شيئاً اذا قيس بالعلوم والمعارف التي هي حقوق الشرق على الغرب فغرامة الغرب لنا هي أعظم بكثير من غرامتنا له فعلى الدائن أن يطالب المدين

وليست هذه الكلمات من بنات أفكاري الخاصة كلا بل يقولها فواب المتفنن الالماني ودرابر العالم الامريكي وما سأعرضه أيضاً مما يثبته تاريخ التعليم

لا ينكر اليوم أحد من العقلاء المستنيرين ضرورة التعليم العام للنوع البشري وخصوصاً للامة الاسلامية فان ديننا القويم يقضي علينا بتصديق هذا الأمر وقبوله وابرامه ووضعه موضع الاجراء . وفي نظري أن هذا الامر ليس من قبيل المسائل حتى يتناقش فيه بل هو أمر ديني قطعي فما علينا الا أن نتناقش في كيفية اجرائه وايجاد الطريق القويمة الموصلة الى هذا المقصد لتعجيله فقط .

ولقد أثبتت تجارب أعظم الامم المتمدنة في هذا العصر أنه لا يمكن تعميم التعليم ونشره الا بوجود كتاب واحد لكل ستين أسرة من الامة

وأما طريقة إجراء العمل فتكون بحسب الميزان الآتي .

لو فرضت مملكة من الممالك يسكنها نحو عشرة ملايين نسمة فمقدار مايلزمها من الكتاتيب هكذا . يتعين أن نقسم هذه العشرة الملايين على خمسة (أنفار) ثم نقسم الحاصل وهو مليونان على ستين فيبلغ عدد الكتاتيب على هذا الحساب نحو ثلاثة وثلاثين ألفا وهذا هو المقدار المعين الكافي لعشرة ملايين نفس

فلو بلغت مصاريف كل كتاب مع نفقات الأدوات ومرتبات المعلمين نحو ٤٠ جنيها يكون المجموع ١ر٣٣٠ر٠٠٠ جنيه . فاذا أضفنا اليه مبلغ ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه وهو مايلزم للانفاق على ارادة تلك الكتاتيب وغيرها من مدارس المعلمين نحتاج في ايجاد التعليم العام الابتدائي الى ميزانية قدرها ١ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه

وهذا لاشك مبلغ جسيم الا أنه لا ينبغي أن لا يروعنا بجسامته . لان الفائدة التي نستفيدها من هذا المشروع مادية كانت أو معنوية أعظم وأرقى بكثير من ذلك المبلغ . فما نسبة مبلغ ١ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه لعشرة ملايين نسمة الا نسبة جزئية جدا تقضي بدفع ١٥ قرشاً على كل نفر في السنة و٧٥ قرشاً عن كل أسرة . وربما يقال هنا إن طائفة العمال لا يستطيعون دفع ذلك . فنقول كلا لاننا لو فرضنا أن عاملا يشتغل في السنة ٣٠٠ يوم فيكون حاصل قسمة ٧٥ قرشاً عليها مليمين ونصفاً فقط وهو مايطالب باقتصاده من مكسبه اليومي الذي لو بلغ خمسة قروش مثلا

لا يكلفه إخراج ذلك منه الا أن يتنازل عن فنجان من القهوة يتناوله يوميا وعن سيجارتين على الاكثر

فبقي علينا أن نبحث في النفقة اللازمة لبنائها فاذا فرضنا أن نفقة كل كتاب على حدته هو ١٥٠ جنيهاً تبلغ نفقات ٣٣ ألف كتاب ٥ ملايين من الجنيهات . وحينئذ نقع في مشكلة عظمى أيضاً وهي خلو اليد من النقود . فما الحيلة ؟ الجواب سهل . وهو ان الأمة مادامت حية فالنقود توجد ألبتة أولا بد من وجودها .

النقود التي وجدت عند تأسيس الاهرام الجسيمة لم لا توجد لبناء مدارس ؟ واذا كان يجوز للامم الحية اقتراض المال لانشاء السكك الحديدية والبرازخ والترع فلماذا لا يجوز اقتراضها لانشاء المدارس ؟

هذا وهناك طريقة أخرى لسهولة اجراء هذا المشروع وهي تجزئة مدة الاكتتاب الى عشر سنين لانه من البديهي أن مثل هذه المشروعات المهمة لا تتم دفعة واحدة كما أنها لا تتم الا باكتساب ثقة الامة ورغبتها في المشروع .

﴿ الحاجة الى مؤتمر اسلامي عام ﴾

نرى المسلمين اليوم تنبهوا بعض التنبه في الاقطار الاسلامية كافة . وهب فضلاؤهم لانشاء الصحف والجرائد التي لها أثر عظيم في تنبيه الافكار والارشاد الى الخير والصلاح ونسمع ان مسلمي بعض البلاد ينشئون جمعيات خيرية وعلمية . هذه علائم خير تقر بها عين كل ناصح للانسانية ولكن لا يجوز لنا ألبتة ان نجتزئ بهذه العلائم الحسنة ثم نخلد الى أرض الدعة والكسل . فالمستقبل الحسن لمن يدأب ويعمل . لاجرم ان المرء يرى اذا جال طرفه في الاقطار الاسلامية من مدينة قزان الشمالية الى مصر الجنوبية ومن مراكش المغربية الى جاوا المشرقية علائم الانحطاط أكثر من علائم الارتقاء

فقد عادت معظم المدارس مثابة للعاجزين والبطالين . ودثرت الصناعات الوطنية أو أشرفت على الدثور . أصبح حظنا قليلا من تجارة العالم ويدنا ضئيلة في الصرف والشؤون المالية ونصيبنا عدما في التجارة البحرية . وليس لهذه الأمة التي ينيف عددها على ثلاثمئة مليون شركة مؤلفة من ثلاثين سفينة كما أنها

لا تملك مصرفاً رأس ماله خمسة ملايين جنيه مثلاً .

ليس في أيدينا ما نعيش به غير الاراضي الخصبة التي ورثناها عن آبائنا . تأتي لنا هذه الأراضي بالقمح والفلفل والبن والقطن والقز والفواكه وغيرها . ولكننا نجهل أساليب بيع هذه الغلات بيعاً رابحاً . ويذهب جزء عظيم من ربح تلك الحاصلات من أيدينا الى أيدي التجار الاجانب وجزء عظيم الى شركات تسيير السفن الاجنبية

ولا تكاد تجد تاجراً مسلماً في جميع البلدان الاميركية والاوروبية الا في النادر واذا رأيت هناك تاجراً شرقياً فهو اما أرمني أو رومي أو بوذي هندي أو صيني

اذا صرفنا النظر عن التجارة الخارجية فما بالنا لا نعمل في بلادنا أيضاً . ها نحن أولاء نرى معظم التجارات المهمة في البلاد العثمانية والايرانية ومصر والمغرب الاقصى والهند بأيدي النزلاء الذين يتقاطرون الى البلاد الاسلامية من أقطار العالم المختلفة

نحن لا نفتأ نقول : أمطرت السماء فشبعنا وأنبتت الارض فأكلنا ولكن ينبغي لنا أن نعرف اننا اذا عشنا على العمل بهذه القضية في الايام الغابرة يستحيل أن نبقى بها فيما نستقبله من الايام

اذا فقدت امة من الامم استقلالها ووقعت تحت حكم الاجنبي فانها تخسر خسراناً مبيناً . بيد أن هذا الخسران لا يقام له وزن — في مذهبي — في جانب الخسارة التي تخسرها الامة التي تقاعدت وتواكلت ثم سقطت من مكانتها في ميدان العمل والاقتصاد

وما هو السبب في هذه الحالة الاليمة التي وقعت فيها الامة الاسلامية ؟ ليس لنا ان نقول : ان السبب هو الجهل : ثم نسكت ؟ اذ يرد عليه سؤال آخر وهو : وما هو سبب الجهل ؟

اذا أغضي عن ترقي الامم الافرنجية ألا يجب على كل مسلم ناصح لأمته أن يسأل : كيف ارتقى الارمن والروم والكرج والبلغار واليهود والهندوس الذين كانوا قبل اليوم بنصف قرن يعيشون بيننا ويشاركوننا في معظم عاداتنا وآدابنا ونحن بقينا وراءهم ننظر اليهم بعين الاعجاب ؟

حالتنا أيها السادة مما يرثى له ولكن لا يجوز لنا البتة أن نكتمها لان ذلك الكتمان هو عين الخطأ بل هو جناية عظيمة على نفوسنا

بل يحق لنا ان نجاهر بها في كل ناد ونسعى لتشخيص الداء، حتى نصف له الدواء، هل من الرأي أن يكتم الانسان مرضه اذا لم يكن عدو نفسه ، وليست مغبة من يكتم مرضه الا الهلاك .

اذا كنتم تنتظرون الجواب عن الاسئلة السابقة من الخطيب فهو يبادر الى القول بأنه أعجز من ان يجيب على أمثال هذه الاسئلة العظيمة . لانه يبحث عن الجواب ولا يجده

أيها السادة ان استعداد الأمة العربية للمدنية قد ثبت عندنا بتاريخها المتلألئ اللامع .

ويرشدنا الى استعداد الأمة التركية للمدنية ما تركه لنا علماؤهم من المؤلفات النافعة . وأطلال مرصد سمرقند تشهد بشغف هذه الأمة بالعلم والعرفان ثم ألا ترى الفنلنديين والمجر يبارون الاقوام المتمدنة ويجارونهم في كل شؤونهم . ونحن نعرف ان هاتين الامتين والترك يتفرعون من أصل واحد *)

القصد أيها السادة من سرد جميع هذه الادلة التاريخية اثبات أنه ليس سبب انحطاط العرب والترك اليوم هو نقص في فطرتهم وضعف في استعدادهم وأما الدين الاسلامي الذي ندين به فهو دين يخاطب العقل ويحث على العمل والدؤوب وينوط نجاح الانسان بعمله . ولكن سيرتنا تخالف هذه الاصول الكريمة الدينية مخالفة ظاهرة . وما السبب في هذه المخالفة أيضاً ؟

اني أرى أيها السادة أن الجواب على تلك الاسئلة المهمة وكشف النقاب عن أسباب انحطاط الامة الاسلامية لا يتيسر تيسراً كاملاً لفرد أو فردين بل لا مندوحة للبحث في ذلك عن عقد مؤتمر اسلامي عام يجتمع فيه علماؤنا وفضلاؤنا ثم يتفاوضون في الشؤون الاسلامية .

---

*) قال الخطيب انه سقط من الخطبة ذكر الفرس والهنود وأهل الافغان وجاوه والمغرب والمراد ان فطرتهم قابلة للعلم والمدنية كالعرب والترك وسائر الاجناس

لا يفهمن أحد اني أرمي باقتراح عقد مؤتمر على هذه الصورة الى غاية «بانسلاميزم» أي الجامعة الاسلامية التي يتشاءم منها الأوروبيون . وانما غرضي الوحيد من عقد هذا المؤتمر هو البحث عن أسباب انحطاط الامة الاسلامية وفتح أبواب النجاح في الأمور الاقتصادية والاجتماعية واختيار السبل القويمة التي تصل بنا الى أخذ نصيبنا من المدنية الغربية الحاضرة .

ولا ننكر انه كان لاكتشاف أميركا ورقي الصناعات والميكانيكات في الغرب تأثير يذكر في افتقار الشعوب الاسلامية وفقدان وجوه الكسب . بيد أن العامل القوي في انحطاطنا — على ما أظن — هو الجمود على بعض العادات والقواعد الواهية والاوهام والخرافات التي ورثناها عن آبائنا وتسربت الينا من الأمم الاخرى بحكم الزمان . ومن أجل ذلك أبدي وأعيد ان حاجتنا شديدة الى المؤتمر العام لكشف الحجب عن الحقائق

فاسمحوا لي أيها السادة والامر على ما ذكر ان أقترح عليكم عقد مؤتمر اسلامي عام لا يتطرق قط الى البحث في الامور السياسية وتكون باب داره مفتوحة لكل أحد ممن يحبون استماع المذاكرات وتنشر خلاصات المناقشات في الصحف المنتشرة وأرى أن يعقد المؤتمر في عيد الفطر من السنة القادمة أو بعده .

ويحسن ان ينعقد هذا المؤتمر في الاستانة العلية أو في مصر المركز الثاني .

ولا أرى سبباً يحملنا على عقد هذا المؤتمر الذي يتفاوض فيه بالمسائل المدنية (*) والعلمية في جنيف مثلا

أيها السادة: اذا وافقتموني على هذا الاقتراح فلابد من التمهيد لهذا الامر الخطير مذ الآن . فيتحتم علينا من اليوم تأليف لجنة من العلماء والمتنورين تشتغل بهذا التمهيد مثلا : تخبر هذه اللجنة الحكومة المحلية بجلية الامر وتضع للمؤتمر برنامجا اجماليا وتعين زمن انعقاد زمن المؤتمر وتتولى مراسلة من يرجعون اليها من سائر الاقطار .

(*) لعل الاصل المراد «الدينية» فهي التي لا يليق تخصيص مثل جنيف بعقد مؤتمرها

ولا ريب ان هذه اللجنة تفتقر الى قدر من النقود . ولكني لا أظن مطلقا أن المانع يكون من الوجهة المالية

ومن منا يمتنع أيها السادة أن يتفضل على هذه اللجنة بما في استطاعته من المال ؟

هل يجيب المسلمون داعي هذا المؤتمر ؟ هذا سؤال أنا أجيب عن جزء منه قائلا اني على ثقة من أن خمسة عشر أو عشرين مندوبا من روسيا ومن ايران يجيبون الطلب .

أيها السادة : هذا ما أردت عرضه على حضراتكم في هذا الاجتماع . وقد استوقفتكم زمناً طويلا. فأسألكم أن تصفحوا عن هذا العاجز صفحا جميلا. اهـ



بحث في المؤتمر الاسلامي

﴿ لتعارف المسلمين والبحث عن أسباب ضعفهم وطريق علاجه وتاريخ الدعوة اليه ﴾

أول صوت سمعناه في هذا العصر يدعو المسلمين الى التعارف والاتحاد والتعاون في الرأي والسعي على تدارك ماحل بالمسلمين من الرزايا الاجتماعية التي هبطت بهم من ذلك الأوج الذي كانوا فيه الى الحضيض الذي صاروا اليه حتى سبقهم أهل الملل من الكتابيين والوثنيين في المدنية هو صوت الحكيمين الغيورين المجاهدين في سبيل الله الجهاد الذي لا يفضله جهاد في هذا العصر - السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى وجزاهما عن نفسهما وعن الامة والملة خير الجزاء

للسيد جمال الدين مقالات كثيرة في تنبيه المسلمين من رقدتهم، وإعلامهم بأسباب تمزيق قوتهم ، ودعوتهم الى الوحدة، ودلالتهم على وسائل القوة ، وله من الدروس والخطب والمحاورات في ذلك ماهو مشهور بين العارفين، وان لم يقيد بالتدوين،

ولما اجتمع الشيخان في باريس وأصدرا جريدة «العروة الوثقى» كان قطب سياستهما دعوة علماء المسلمين وعقلائهم الى النظر في أحوال المسلمين العامة وإرشادهم الى

ماينهض بهم الى مجاراة الأمم العزيزة وكان من رأيهما أن يشتغل بذلك أهل كل قطر في قطرهم بالتعاون بينهم وان يكون لهم مجتمع عام في الحجاز يأتمر فيه من يحضر الموسم من أعضاء جمعية العروة الوثقى فيما بينهم وما كانا يكتفيان في هذا الارشاد بما ينشر في جريدة العروة الوثقى بل كانا يكاتبان من يرونه أهلا لذلك في أقطار المسلمين . وفي الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام نموذج من كتبه لبعض أولئك الاعضاء (راجع ص ٤٨٨ — ٥١٢)

وقد جاء في فاتحة العدد الأول من جريدة العروة الوثقى بعد ذكر تنبه عقلاء المسلمين وسعيهم في معالجة عللهم مانصه :

« وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ، ومناط اليقين ، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام ، يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى في مواقفها الطاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ، ثم تنبث الى سائر الجهات والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل »

وجاء في خاتمة مقالة نشرت في العدد الخامس عنوانها (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا) إرشاد الى كيفية الوحدة في الاصلاح الديني ومنه « ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ويجمعون أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان » الخ (فراجعه في ص ٢٥٤ من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام)

وجاء في آخر مقالة منها نشرت في العدد العاشر عنوانها حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ما يؤتي (كما في ص ٢٩ من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام)

« وأرى ان العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال أصوات بعض المسلمين الى بعض لأمكنهم ان يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الارض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل

مسلم ان يحجه ما استطاع وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع اجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم » الخ

هذه إشارة مما كتبه الاستاذ الامام ، باتفاق الرأي بينه وبين حكيم الاسلام ، منذ ربع قرن فان العدد الاول من العروة الوثقى قد صدر في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١

***

ثم اننا لما أنشأنا المنار في أواخر سنة ١٣١٥ كتبنا في العدد الثلاثين و ٤٠ من السنة الاولى مقالافي (الاصلاح الديني) اقترحنا فيها على مقام الخلافة تأليف جمعية إسلامية في مكة المكرمة يكون لها شعب في كل قطر إسلامي وفصلنا مايجب ان تقوم به هذه الجمعية من الاصلاح في العقائد والتعاليم الأدبية والأحكام القضائية والمدنية واللغة ومن تلافي البدع والتعاليم الفاسدة (*

وانما جعلنا هذا الاصلاح مقترحا على سلطان آل عثمان لبيان انه واجب عليه لأنه هو القادر على تنفيذ ذلك ويمنع من يتصدى له هناك من دونه

ثم ان السيد عبد الرحمن الكواكبي (رحمه الله تعالى) قدم الى مصر في سنة ١٣١٨ ونشر فيها كتاب سجل جمعية أم القرى الذي صور فيه انعقاد تلك الجمعية المقترحة خفية بدون علم الحكومة العثمانية وأمير مكة المكرمة (الشريف) وان ذلك كان في موسم سنة ١٣١٦

كل ذلك كان الاصلاح الديني فيه ممزوجاً بالاصلاح السياسي على النهج الذي جرى عليه المسلمون من اشتمال الدين على كل شيء وكذلك كانت فكرة المقترح الأول السيد جمال الدين رحمه الله تعالى

ثم ان الاستاذ الامام وجه ذهنه بعد مفارقة السيد جمال الدين في أوربا وعودته هو الى سوريا ثم الى مصر يحاول الوصول الى إصلاح حال المسلمين باقناع الحكومة بسلوك الطريقة المثلى لتربية المسلمين وتعليمهم فكتب ثلاث

---

*) قد سرق المرحوم ابراهيم بك نجيب من هذا المقال وغيره من فصول المنار ماشاء وأودعه مقالاته التي كان ينشرها في جريدة اللواء تحت عنوان (حماة الاسلام)

لوائح (*) احداها لاصلاح المملكة العثمانية عامة وقدمها الى شيخ الاسلام في الاستانة سنة ١٣٠٤ ليقدمها الى السلطان والثانية لاصلاح سوريا وقدمها الى واليها بعد ارسال الاولى الى الاستانة . والثالثة لاصلاح التربية الدينية والتعليم في مصر ولم تعمل الحكومة العثمانية ولا المصرية بما اقترحه عليهما ولو عملت إحداهما به لعملت مايعجز عن كل مثله جمعية ومؤتمر لاصلاح الدين

ثم رأينا الاستاذ الامام في السنين الأخيرة من عمره قد استقر رأيه على اليأس من حكام المسلمين وحصر الرجاء في عقلاء أهل العلم والفضل يدعون الى الإصلاح حيث يجدون حرية مع تجنب السياسة ظاهرا و باطنا ومسالمة أهل السلطة سرا وجهرا والرضي منهم بعدم معارضة الإصلاح في العقائد والأخلاق والآداب وروابط الاجتماع الأهلية والقومية . فان عارضوا فالرأي أن يبذل الجهد في إقناعهم وكان يرى أن هذا متيسر للمصلحين العقلاء مع حكام المسلمين الأوربين اذا ظهر لهؤلاء أن الأمر لا سياسة فيه . ومن الأمثال المأثورة عنه « مادخلت السياسة في عمل الا وأفسدته » واننا نرى عقلاء المسلمين يكادون يجمعون على هذا الرأي

جاء مصر في هذه الأيام اسماعيل بك غصبرنسكي صاحب جريدة ترجمان التركية التي تصدر في بغجه سراي من بلاد القريم التابعة لروسيا وتلا على جمهور عظيم من سكان مصر الخطبة التي نشرنا ترجمتها قبل هذه المقالة واقترح في آخرها تأليف مؤتمر إسلامي ينعقد في مصر للبحث عن الاسباب التي كان بها المسلمون متأخرون عن غيرهم من الأمم واشترط أن لا تطرق مباحثه باب السياسة بل تحصر في الاسباب الاجتماعية والاقتصادية . وماهي هذه الاسباب الاجتماعية والاقتصادية؟

نحن نقول ان المسلمين كغيرهم من البشر مستعدون لكل ارتقاء وحضارة وان المانع لهم من ذلك أمران استبداد السياسة والجمود على التقاليد الدينية التي قيدتهم في كل شيء حتى في تصرفهم في بيوتهم وأموالهم . واضرب لهم مثلا علماء الأزهر الذين يستنكرون أشد الاستنكار لبس الأحذية السوداء المعروفة

(*) راجع فصل اللوائح في الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام (ص ٣٨٠)

هنا بالجزم (جمع جزمة) وقضاة الشرع الذين يأبون ان يكون في المحكمة الشرعية أجراس كهربائية لطلب الكتاب والمحضرين والخدم لأن هذا وذاك مما لا يليق بأهل الدين أولانه لا يخلو من كراهة شرعية . فهذا المثل الصغير ينبئ عن أمر كبير، وان هزئ به الجهلاء، أو إشتغل به عن الموضوع أهل الأهواء، فهو كمثل البعوضة والذباب في القرآن

فالمسلمون لا يقدرون على مجاراة أمة مطلقة من القيود التي تقيد الفكر أن يأخذ مداه في كل علم ورأي وتقيد الإرادة أن تنفذ كل عمل يظهر للمفكرين انه نافع وهم مقيدون فكرًا وارادة إما بالتقاليد الدينية وإما بالسياسة الاستبدادية . فعمل المؤتمر محصور بالطبع في فك القيود التي تقيد المسلمين حتى يكونوا أحرارا مستقلين، فاذا حظر أهله على أنفسهم البحث فيما هو سياسي منها بقي لهم ما هو ديني فقط ومنه مايتعلق بحكامهم ومنه ما لا يتعلق بهم

مثال ذلك الشركات المالية التي هي أعظم أركان الثروة في هذا العصر ولا أذكر فيها مسألة فرضية بل مسألة واقعة هي في تاريخ مصر الحديث أصل الانقلاب السياسي والعمراني، ولا أفتات على المسلمين فيما أقوله فيها افتياتا، أو استنبط خلافهم فيها استنباطا، وانما أروي فيها رواية تنبئ عما عليه المسلمون من القيود التي تمنعهم من مجاراة غيرهم في تحصيل الثروة التي هي أساس العمران

زرت وزير مصر الأكبر رياض باشا فألفيت في حضرته جماعة من أكابر المسلمين منهم العالم الازهري والمهندس والمؤرخ والطبيب ومن كان ناظرا لبعض المدارس العليا وكل واحد منهم يعد من أكبر رجال طبقته وأعلمهم وهم يتذاكرون في مسألة شركة ترعة السويس وأن شراء أسهمها غير جائز شرعا لأن عملها غير مشروع وكان أشدهم عارضة في ذلك العلامة الأزهري (طبعا) ولا أحب أن أذكر شيئا من أدلتهم المبني بعضها على ان الماء لا يملك وان أوراق السهام لا قيمة لها في نفسها الخ وما عجبت لقول أحد كعجبي من موافقة واحد منهم لهم في ذلك أعهد منه الميل الى كسر مقاطر التقليد ورأيته في هذه السنة يسعى في تأسيس بنك أهلي وهو أشد من أعرف اهتماما بمشروع المؤتمر الاسلامي . وقد جهرت هنالك باستغراب جعل هذه المسألة موضعا للبحث وجزمت بجواز عمل الشركة

وشراء سهامها مصرحا بأن أوراق السهام ليست هي التي تقابل الثمن وإنما هي مثل أوراق الصكوك والحجج التي تكتب لمن يشتري عقارا أو يقرض آخر مالا . جهرت بهذا ولكنني لم أسمع من أحد كلمة موافقة ولكنني أظن أنه أعجب بعض الحاضرين ورأيت الوزير هش له

فاذا كان أرقى مسلمي مصر الذين يعدون الآن في مقدمة شعوب المسلمين علما وقربا من المدنية يتباحثون حتى اليوم في أعلى محافلهم الاجتماعية في شركة ترعة السويس ويقولون بعدم جواز شراء سهامها وهي هي السهام التي براها وراشها أميرهم اسماعيل وأعطاها لأوروبا فحاربتهم بها واحتلت بلادهم وملكت عليهم أمرها، فهل يلام مسلمو مراكش اذا قال عالمهم الكتاني إن شر عمل عمله محمد علي باشا هو بناء القناطر الخيرية وكان ينبغي أن ينفق المال الذي أضاعه في بنائها على بناء المساجد ؟ ؟ كلا ان علل المسلمين واحدة ولو كان محمد علي مقيدا بالتقاليد الدينية لما أنشأ القناطر الخيرية

ان شركة ترعة السويس وأمثالها من أمور العمران التي لم تكن معروفة في عصر التنزيل فيرد فيها كتاب أو تمضي بها سنة ولكن الفقهاء المستقدمين قد وضعوا أحكاما للشركات وغيرها من المعاملات المتعارف عليها في عصرهم فجمد المستأخرون عليها اذ عدوها دينا يجب اتباعه في كل زمان ومكان فهل يسهل على المسلمين الذين يريدون مجاراة الأوربيين في الكسب ان يدرسوا قبل كل عمل هذه الكتب الفقهية الضيقة الواسعة ويتقيدوا بها ثم يجرون وراء المطلقين من القيود فيلحقون بهم ويطمعون في مسابقتهم ؟ لا يسهل الجواب عن هذا على فقيه يعرف الاحكام المدونة في هذه الكتب ولا يعرف حال العصر في الاعمال المالية والاجتماعية ، ولا على رجل ماليّ أو « متمدن » كما يقال لم يقرأ كتب الفقه ،وانما يسهل على من عرف الامرين ان يجيب عنه بحق ولكن جوابه لا يكون الا سلبيا

أعرف بمصر كثيرا من المسلمين المدنيين يرون انه لا علاج لتأخر المسلمين عامة الا نشر العلوم العصرية ومحاولة تعميمها بقدر الطاقة وترك الدين وشأنه بحيث لا يتعلم ولا يدافع عنه ولا يعترض عليه حتى يحكم العلم والزمان فيه حكمها ومن

هؤلاء من هو مسلم جنسية فقط يرى ان الدين عقبة يزيلها العلم ومنهم من يؤمن بالله ورسوله وكتابه ويرى ان الدين قد اصطبغ بغير الصبغة التي أنزلها الله تعالى وان العلم العصري ينتزعه من سلطة المحافظين على الصبغة الحادثة ويساعد على إعادته الى أصله فاذا قام مصلح ديني يمكنه ان يهدي المتعلمين للعلوم العصرية الى حقيقة الاسلام ولا يمكنه أن يهدي غيرهم من علماء الصبغة الحديثة للدين والمقلدين لهم وهم جماهير العوام الا أن يتعلموا على الطريقة الحديثة

ونحن نقول انه يمكن الجمع ابتداء بين حقيقة الاسلام وصبغته الإلهية وبين جميع العلوم والفنون والاعمال التي عليها مدار المدنية العصرية وان إصلاح حال المسلمين بغير هذه الطريقة متعذر ونحن مستعدون بعون الله تعالى وتوفيقه لمناظرة كل من يخالفنا في هذا الرأي

وجملة القول ان المسلمين لا يجارون غيرهم من الامم في ميدان المدنية والعمران الا اذا أطلقوا من القيود السياسية والدينية التي قيدت استعدادهم الفطري وليس في نصوص كتاب الله المنزل ولا في سنة رسوله المتبعة القطعية شيء من هذه القيود الدينية بل فيهما الاطلاق المكمل للفطرة وانما القيود قسمان بدع محدثة وتقاليد مستنبطة من أقوال البشر وقواعدهم تعرف بالاحكام الاجتهادية

فاذا حظر المؤتمر على نفسه البحث في القيود السياسية انحصر عمله في القيود الدينية أي التقاليد والبدع التي فشت في المسلمين باسم الدين الا ان يكون غرض أهله الرقيّ الدنيوي بدون دين

واذا انحصر عمله في حل القيود الدينية دون السياسية خشية أن تقاوم المسلمين حكومات أوربا المستعمرة لبلادهم فيجب أن لا يدخل في أعضائه أحد من المشتغلين بالسياسة لتأييد ملك أو أمير لأن ذلك يجعل المؤتمر في موضع الريبة والظنة عند تلك الحكومات ولذلك صرح الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد على مسمع من نحو خمسين رجلا ممن دعوا للبحث في المؤتمر بأن من مصلحة المشروع ان يخرج هو وحافظ أفندي عوض أحد صاحبي جريدة المنبر ونفر آخرون من لجنة المؤتمر فلا يكونوا من الاعضاء العاملين فيه

ثم انه ينبغي ان تكون القاعدة الاساسية الاولى للإصلاح الديني في المؤتمر هي المحافظة على المجمع عليه من المسلمين لا سيما ما كان منه معلوما من الدين بالضرورة وذلك هو القرآن وما استفيد منه بالنص القطعي و بعض السنن المتبعة — ونعني بالسنة معناها اللغوي الذي كان يفهمه الصحابة ومنه ماهو فرض أو واجب ككون الصلوات المفروضة خمسا ركعات كل صلاة منها كذا يقرأ فيها كذا و يركع في كل ركعة مرة و يسجد مرتين، ومنها ما هو مندوب في اصطلاح الفقهاء كما هو معروف —

ذلك ان المؤتمر عام لجميع المسلمين وفيهم السني السلفي وغير السلفي والشيعي والاباضي ومن السنية الحنفي والمالكي الخ ومن الشيعة الجعفري والزيدي فالذي يجمع بين هؤلاء و يوحد كلمتهم هو كتاب الله والسنن العملية المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتلقي عن آله وأصحابه رضي الله عنهم و بذلك يكون المؤتمر غير مقيد بالتقاليد الاجتهادية التي تثير النزاع وتفرق الكلمة فلا يمنع أعضاءه مانع من الاعتصام بحبل الله ودعوة سائر المسلمين الى الاعتصام به (راجع التفسير من هذا الجزء وما قبله)

ثم يعرض ما يقرره من الإصلاح الاجتماعي الموافق للاجماع على شعوب المسلمين مبينا لهم أن من عمل به لم يكن عمله منافيا لأصل الاسلام الذي لا خلاف فيه فمن اكتفى بذلك وعمل به فبها ونعمت ومن حاول تطبيقه على المسائل الاجتهادية في مذهبه وتقيد بها فهو وشأنه

بهذه الطريقة يفيد المؤتمر المسلمين أكبر فائدة دينية بما يعلمهم من الأصول المتفق عليها بين المسلمين التي بها يكون المسلم مسلما أخا في الدين لثلاث مئة مليون يوافقونه في اعتقاده وأكثر المسلمين يجهل ذلك بالتفصيل ولا يكون جانيا على مذهب أحد ولا حائلا بينه و بين عالم يتقلد رأيه ولكنه يعلمه اذا كان متبعا لمذهب ان ما ينفرد به فى مذهبه لا ينافي أخوة الاسلام بينه و بين من لا يتبع مذهبه

يتيسر هذا المسلك لأعضاء المؤتمر الا اذا كان فيهم العلماء بالكتاب والسنة وتاريخ الاسلام والعلماء بشؤون العصر وما تقتضيه المدنية من العلوم والفنون والاعمال بحيث يكون عند علماء الدين من علوم الدنيا وعند علماء الدنيا من العلم بالدين

ما يمكن الفريقين من الاتفاق على الجمع بين الدنيا والدنيا كما تقتضيه مزية الاسلام الذي هو الدين الموافق لمصلحة البشر في كل زمان ومكان

يقول بعض الباحثين في مسألة المؤتمر انه يجب ان يكون في أعضائه بعض الشيوخ من علماء الرسوم المقلدين للمذاهب الأربعة ليثق بما يقرره عوام المسلمين: و يرد عليهم آخرون قائلين ان الاصلاح لا يأتي من العوام وانما يأتي من خواص العقلاء وان هؤلاء المقلدين اذا وجدوا في المؤتمر محافظين على تقاليدهم فهم الذين يحولون دون الاستفادة منه ومن يهمهم مداراة العوام لا يأتي منه اصلاح اذ يكون العوام حينئذ أئمة له في الحقيقة وان كان يتوهم انه سيؤمهم بالحيلة فالمصلح الحقيقي هو الذي لا يخاف في بيان الحق لومة لائم ولا نفور عامي ولا مقاومة خاصي بل يقرر الحق و يدعو أمثاله من العارفين الى موازرته وموالاته والحق يعلو ولا يعلى وانما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه

لذلك قال عاقل من العظماء انني لا أفهم معنى « مؤتمر اسلامي » يتصدى للقيام به من لم يبحث في عمره يوما واحدا عن الاصلاح الديني ولا عن أسباب ما ألم بالمسلمين وانما يكون انشاء المؤتمر معقولا اذا تصدى للدعوة اليه من جعلوا جل همهم البحث عن أحوال المسلمين في ماضيهم وحاضرهم وأسباب ما عرض لهم في دينهم مما ليس منه كفلان وفلان فهم الذين يجب ان يختاروا من يرونه اهلا لأمثال هذه المباحث

ويقول بعض أهل البحث والرأي أن الشعوب الاسلامية لما تستعد لمثل هذا المؤتمر فهو غير ممكن الآن من حيث طبيعة الاجتماع وان كان ممكنا في نظر العقل يعني أن الإصلاح المطلوب يرجع الى مسائل يقل العارفون بها في بعض الاقطار و يعز اجتماعهم واجتماع غيرهم لا يفيد المطلوب . واذا اتفق أن اجتمعوا فلا بد أن يمتزجوا بغيرهم ممن لا يوافقهم على رأيهم فاذا كان لديهم من الشجاعة ما يحملهم على الجهر بالحق يعلمونه غير مبالين بطعن الطاعنين فلا يرجى أن يتقرر ما يرتأونه ور بما تقرر رفضه وإعلان مخالفته للدين فيكون ذلك مبعدا للاصلاح وعقبة في طريقه يقيمها المؤتمر فينعكس الأمر و يتبدل الوضع ويكون المؤتمر ضارا لا نافعا

و يقول آخرون ان أقل فائدة يجنيها المسلمون من المؤتمر وراء تعارف أهل الفضل والرأي منهم هو ان ما يتفقون عليه يكون جديرا بالقبول ولا يمكن أن يتفقوا

كلهم أو أكثرهم على شيء ضار فاذا لم يهتدوا الى كل المطلوب من الاصلاح فلا بد أن يهتدوا الى بعضه وما يفوتهم منه في الاجتماع الأول يرجى أن يهتدوا اليه في الاجتماعات التي تليه وأمور الاصلاح لاتكون الا بالتدريج . ولكن هذا يتوقف على أن يقوم بالأمر أهله

ومن الناس من يرى أن اجتماع المؤتمر يتوقف على اذن الحكومة ومساعدتها ولذلك اقترح داعيته اسماعيل بك فيما اقترح استئذانها وماضمنه من اجابة طائفة من الروسيين والايرانيين مبني ذلك والحكومة المصرية لاتأذن بهذا المؤتمر ولاتساعد القائمين به لاسيما اذا كان فيهم من يشتغل بالسياسة ومن يتهم بالغرض لأنه ممن لم يعرف عنه قط البحث في أمور الدين وطرق اصلاح المسلمين كبعض المعزولين والمتقاعدين (المحالين على المعاش) واذا لم تأذن به الحكومة إذنا رسميا فان سائر الحكومات لاتأذن لمن يدعون اليه بالسفر لحضوره ، وأهل الرأي والفضل لايسافرون لمثل هذا الأمر بدون إذن حكوماتهم لئلا يكونوا عندها في موضع التهمة

ويقول آخرون ان هذا مؤتمر حر لايتوقف على اذن الحكومة ولاعلى مساعدتها وانما اذنها ومساعدتها مزيد كمال فيه اما اذا أرادت منعه فلا شك في قدرتها على ذلك ولكنه مما لايظن فيها اللهم الا اذا حصل في الاجتماع شغب أوفتن مما تمنع مثله كل حكومة مهما كانت عريقة في الحرية

أما سلطان المسلمين الأعظم فلم أر أحدا من أهل الرأي يشك في استيائه من هذا المؤتمر وحرصه على منعه اذا أمكن. وقد جاء من أخبار الاستانة في بعض الجرائد مايؤيد هذه الآراء وأن السلطان سيكتب الى الأمير والمعتمد الخاص (مختار باشا الغازي) بتلافي ذلك. وانه أمر بمنع الحجاج بالتعريج على مصر. و يزعم بعض الناس أن الأمير كوتب في ذلك بالفعل. وكراهة السلطان للمؤتمر مما يجعله عند كثير من المسلمين مكروها يخشى ضره ولا يرجى نفعه ويحول دون نشر الجرائد العثمانية شيئا من أخباره قبل انعقاده بله مايقرره ان هو انعقد. فلا معنى لجعله تحت حمايته

هذا أهم ماخطر لنا بيانه الآن من فكرة الدعوة الى مؤتمر اسلامي وتاريخها ومايجب أن يكون أساسا للمؤتمر المقترح الآن والآراء التي تستحق الاعتبار فيه.

﴿ النسخ في الشرائع الالهية ﴾

للدكتور محمد توفيق أفندي صدقي الطبيب في مستشفيات سجن طره

النسخ هو ابطال حكم لبدل أو لغير بدل . وهو واقع في جميع الشرائع الالهية والوضعية خلافا لمن أنكر ذلك من الجهلاء . اما الشرائع الوضعية فوقوعه فيها مشاهد معروف . وأما الالهية فشواهد وقوعه فيها عديدة أغنتنا عن ايرادها مؤلفات كثيرة بين الأمة الاسلامية أشهرها كتاب (إظهار الحق) لمؤلفه العلامة المحقق رحمة الله الهندي . فقد أتى فيه بما يفحم كل مكابر ويخرس كل عنيد .

يقع النسخ على ضربين (١) نسخ بعض شريعة رسول سابق بشريعة آخر لاحق (٢) ونسخ حكم في شريعة بحكم آخر فيها . والسبب في وقوعه اختلاف حال المكلفين باختلاف الزمان والمكان . فما يلائم البشر في زمن طفوليتهم قد لا يلائمهم في زمن كهولتهم أو شيخوختهم . كما أن مايوافق الانسان في صحته قد لايوافقه فى زمن مرضه . لذلك اقتضت حكمة الشارع العليم أن ينسخ من شرائعه ما أصبح غير مناسب . قال تعالى (١٣ :٢٨ لكل أجل كتاب ٢٩ يمحو الله مايشاء و يثبت وعنده أم الكتاب)

فالنسخ عندنا لايقع إلا في الاحكام (الاوامر والنواهي) ولا يقع في القصص أو في القضايا العقلية اذ لامعنى لوقوعه في ذلك كما انه لامعنى لوقوعه في الالفاظ . فلسنا ممن يسلم القول بنسخ لفظ بلفظ كما يتوهمون . أو بنسخ لفظ وابقاء حكمه كما يزعمون اذ لو سلم ذلك لكان دليلا على جهل الشارع أو خطأه أو عبثه فسبحان ربك واسع العلم والحكمة عما يصفون

قدمنا ذلك لنعلم أن النسخ لمقتض أو لحكمة لاعيب فيه عند العقل ، وهو واقع بالفعل ، فانكاره جهل ، أو مكابرة للمحسوس

كما وقع النسخ في الشرائع السابقة ، كذلك وقع في الشريعة الاسلامية ، لمقتضيات الاحوال في الامة العربية زمن التشريع . فكان للشريعة اذ ذاك صورتان :

(١) صورة تمهيدية وقتية

(٢) وصورة ثابتة باقية

فالصورة الاولى هي التي صارت منسوخة لا يعمل بها . والصورة الثانية هي التي لم تنسخ وطولب الناس أجمعون بالعمل بهـا . أما الصورة الاولى فنجد لها أمثلة عديدة في الاحاديث النبوية . وأما الصورة الثانية فأمثلتها كثيرة في الكتاب (القرآن الشريف) .

وإذا فتشنا الاحاديث المنسوخة وجدنا بعضها نسخ بأحاديث مثلها والبعض الآخر نسخ بالقرآن . وإذا فتشنا القرآن لا نجد فيه ما نسخ بقرآن مثله ولا ما نسخ بحديث كما بينا ذلك في مقالة لنا نشرت سابقا في المنار (في الجزء الثاني من المجلد التاسع صحيفة ١١٠) . فالقرآن لا يجوز أن ينسخ بالسنة ولو كانت متواترة وبه قال الامام الشافعي رضي الله عنه وليس فيه منسوخ مطلقا كما قال بعض أئمة المفسرين كأبي مسلم الأصفهاني . وكما دل على ذلك الاستقراء والدليل

الكلام في الناسخ والمنسوخ في الشريعة الاسلامية نشأ بين المسلمين منذ نشوءها إذ لا يمكن الاستغناء عن البحث فيه بعد معرفة وقوعه فيها . فكان إذا سمع أحد الصحابة حكما وعلم ما يخالفه بحث في أيهما نسخ الآخر حتى يتضح له ما يجب العمل به فلا غرابة اذا سمعنا فيما روي عنهم أن فلانا منهم قال ان هذا الحكم منسوخ بذاك

وقد نعثر في الروايات على قول من يقول بخلاف قوله وقد لا نعثر . ولكن جميع هذه الروايات لا يمكن القطع بصحتها وخصوصا ما كان منها واردا في تفسير القرآن الشريف لكثرة المكذوب منها حتى قال أحد الائمة وهو الامام أحمد « ثلاثة لا أصل لها التفسير والملاحم والمغازي » ولا يخفى على أحد قدر أحمد في علم الحديث . ولذلك لا يمكننا معرفة رأي الصحابة في موضوع النسخ في القرآن على سبيل اليقين . وغاية ما يظهر لنا من الآثار المختلفة على علاتها أن بعضهم يقول بجواز وقوع النسخ فيه كعمر وابن عباس . والبعض الآخر كأبي بن كعب ينكر ذلك « أو على الاقل ينكر جواز نسخ أي عبارة من عبارات القرآن الشريف ان سلم نسخ حكمها » راجع ما قلناه في المقالة السابقة . على أن رأي أي واحد منهم

لا يجوز الأخذ به بدون دليل .

والذي نراه نحن أن العقل لا يستقبح وقوع النسخ في القرآن الشريف اذا كان القرآن يبين لنا نصا جميع ما نسخ وجميع ما لم ينسخ . أو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين ذلك بيانا ينقل متواترا ويتفق عليه عملا بين المسلمين . وإذ لم يكن هذا ولا ذاك فالقائل بالنسخ يعرض الدين لطعن الطاعنين ، واستهزاء الهازئين ، وعبث اللاعبين ، الذين جعلوا القرآن عضين ، فيعملون ببعضه ويتركون بعضه الآخر اتباعا لأوهامهم وأهوائهم فما جزاء من يفعل ذلك منهم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون

ومن العجيب دعواهم النسخ في الآيات . مع عجزهم عن بيان الحكمة في نسخها وليس عندهم من دليل عليه عقلي أو نقلي . والله تعالى يقول في شأن القرآن (١٨ : ٢٧ لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) فلا يجوز أن يبدله الله بعد وعده بعدم تبديله اذ النكرة « أي لفظ مبدل » في سياق النفي تعم

يقول المحققون منهم « إن النسخ خلاف الأصل ومتى أمكن التفسير بدونه وجب المصير إلى ذلك التفسير » وأي آية في القرآن لا يمكن تفسيرها بدون هذه الدعوى الباطلة ؟ فهذا إقرار عظيم بأن القرآن لا نسخ فيه حيث إنه يمكن تفسير جميعه بلا حاجة إلى ما يزعمون . وكيف ينسخ وهو لا يجوز التبديل فيه ؟

وإذا كان القرآن (١) لم ينص على الآيات المنسوخة (٢) ولم يرد عن رسول الله نص قاطع بذلك (٣) وما روي عن أصحابه مختلفا وغير يقيني (٤) ولم يتفق المسلمون على الآيات المنسوخة بل ولا على القول بالنسخ (٥) وإذا كان لا حاجة إليه في التفسير (٦) ولا حكمة تظهر فيه ـ اذا كان كل ذلك فبأي شيء يتمسكون ؟

أما قوله تعالى (٢ : ١٠٦ ما ننسخ من آية أو ننسها) وقوله (١٦ : ١٠١ وإذا بدلنا آية مكان آية) فقد فسرناها في المقالة السابقة بما يشفي العلة ويروي الغلة . ونزيد الآن على التفسير أن الآية الثانية هي من سورة النحل . وقد نزلت هذه السورة قبل ايجاب القتال على المؤمنين أي في مكة أو في أوائل مدة المدينة (*) كما تدل على

(*) الظاهر أنها نزلت قبل السنة الثانية من الهجرة أي قبل اتيان النبي بأحكام الشريعة

ذلك الروايات الكثيرة وكذا قوله تعالى فيها (١٦: ٤١ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولاجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ٤٢ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وقوله في آخرها (١٦: ١٢٦ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ١٢٧ واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) واذا كان نزولها في مكة فالمراد بالهجرة في الآية السابقة هجرة الحبشة . وعلى كل حال إذا كان نزولها في مكة أو في أول مدة المدينة فأي حكم من أحكام الشريعة الاسلامية كان نزل في تلك المدة ثم نسخ حتى يرد فيها قوله تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) ؟ الظاهر أن القول بأنه مفتر انما صدر من أهل الكتاب الموجودين بالمدنية أو القليل منهم الموجود بمكة حينما سمعوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم يحل ما حرمته الشريعة الموسوية من المطعومات كما في سورة الانعام المكية الذي ورد فيها قوله تعالى (٦: ١٤٥ قل لا أجد فيما أوحي الي محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة - الى قوله - ١٤٦ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها الا ماحملت ظهورهما أو الحوايا أوما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا الصادقون ١٤٧ فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) وقد أشار تعالى في سورة النحل الى هذه الآيات بقوله (١٦: ١١٨ وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل) بعد الآية التي نحن بصدد الكلام عليها بقليل وقد كذبوه كما أخبر فما ذكرناه هنا وهناك يدل على أن تفسير الآية هكذا : واذا أتينا بحكم في الشريعة الاسلامية بدل حكم في الشرائع السابقة ووضعناه مكانه قالوا انما أنت كذاب تختلق الاحكام وتنسبها الى الله : الى آخر الآيات . أما تفسيرهم لهذه الآية وآية ما ننسخ فهو يخالف السياق في كل منهما . وينافي قوله تعالى (١٨: ٢٧ أتل ما أوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) الآية

والخلاصة أن القرآن لا نسخ فيه مطلقاً . أما السنة القولية (الاحاديث) فبعضها نسخ بالقرآن وبعضها الآخر نسخ بالاحاديث الاخرى . وعندنا أنه لم يبق منها شيء يجب العمل به غير موجود فى القرآن لانها لم تكن الا شريعة وقتية

تمهيدية لشريعة القرآن الثابتة الباقية ولذلك كانت قولية نهيت الصحابة عن كتابتها ولم يعاملها النبي عليه السلام ولا أصحابه بالعناية التي عومل بها القرآن لتزول من بين المسلمين وتندثر (*) فلا يعملون بها كما بينا ذلك في مقالات لنا سبقت فى المنار. وان انكر علينا منكر ونسبنا للمروق قلنا له :—

(١) اذا كان نسخ القرآن بالسنة غير جائز كما هو مذهب الشافعي (٢) واذا كان تخصيص عموم القرآن بها لا يجوز كما هو مذهب داود وأهل الظاهر والخوارج (٣) واذا كان العمل بالظن مذموماً في القرآن الشريف . وكل ماورد فيها من الأحكام ظني باجماع علماء الحديث لأنها أخبار آحاد — اذا كان كل ذلك مسلما به بين المسلمين بعضهم أو جميعهم فأي شيء خالفت فيه الاجماع أو ابتدعته حتى أرمى بالمروق ؟!

أنا لا أنكر ما للأحاديث من الفوائد العلمية أو التاريخية أو اللغوية أو الادبية ولكن كل ذلك لا يوجب العمل بها على المسلمين ولا يلحقها بالقرآن الشريف. الدين الذي يكفر منكره شيآن : القرآن وما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم. لأن انكار المتواتر مكابرة وجحود فلا يجب التعويل إلا عليهما. ولا الرجوع الا اليهما (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) والرد الى الله يكون بالرجوع لى كتابه. والى الرسول بالرجوع اليه في حياته أو الى ما أيقنا أنه منه بعد وفاته. ولم يقل القرآن الى من ظننتموه الرسول أو ما حسبتموه صدر منه . فلا يمكن الايقان الا بالمتواتر أو بالدليل العقلي

لم يتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقواله الا القليل الذي لا شيء فيه من أحكام الدين لأن الله أراد أن تكون سنن الاقوال شريعة زائلة. أما سنن الاعمال المتواترة فقد أراد الله أن تبقى بين المسلمين. لايضاح الكتاب ولتصوير ما أراده بالفعل كـكيفية الصلاة والحج. لأن الايضاح بالعمل أبلغ من كل قول. ولذلك أجمل القرآن الكلام في هاتين المسألتين اكتفاء بعمل النبي صلى الله عليه

(*) حاشية الكاتب—لا يرد على ذلك وجود الاحاديث الكثيرة بينهم لأنها كلها تقريبا مشكوك فيها

وسلم لهما بين جماهير الناس الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب . وهما مما يحسن اتيانه في الجماعة . بل لا يصح اتيان أحدهما (أي الحج) الا فيها . فلا خوف عليهما من الضياع أو النسيان . ولا يجوز أن يتفق المسلمون على تحريفهما عن وضعهما فقد بلغتا ولله الحمد من التواتر مايمنع كل ذلك .

الحق أقول لا يمكن للمسلمين أن يرتقوا ماداموا جامدين على الاحاديث ، (و قد انقضى زمنها) كلفين بالروايات، وهي ممتلئة بالأكاذيب والأوهام والخرافات . وهي أعظم سبب ضلال كل أمة في عملها واعتقادها

ألا فلنحارب التوهات ، ولنقض على الضلالات ، ولنمت على ديننا : كتاب الله وما بين منه بالسنة العملية المتواترة، فلا نحيا الا بهما في الدنيا والآخرة،

(تذييل) ذكرنا في الصفحة ٩١٣ من المجلد التاسع من المنار ملخص معاملة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه للأحاديث . ونذكر الآن ملخص آراء أئمة المسلمين فيها ليعلم القارئون أننا لم نفتجر شيئاً في الدين فنقول : —

إن الأحاديث التي رويت متواترة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة وهي مع ذلك لا دخل لها في أحكام الشريعة الاسلامية كحديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » وحديث « اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وسائر الأحاديث الأخرى رُويت آحاداً وبعضها عندهم منسوخ . وأما التي لم يقولوا بنسخها فهاك آراءهم فيها : —

(١) رفض أبو حنيفة مع قربه من زمن الرسول (ولد سنة ٨٠ وتوفي سنة ١٥٠) جميع الأحاديث لعدم صحتها عنده الا بضعة عشر حديثا (راجع كتاب روح الاسلام) . وعول هو واتباعه في مذهبهم على الكتاب والقياس فقدموهما على الحديث

(٢) قدّم مالك رضي الله عنه عمل أهل المدينة على الحديث . والسنة عند السلف هي الطريقة المتبعة عملا لا الاحاديث

(٣) أنكر الشافعي جواز نسخ القرآن بالاحاديث ولو كانت متواترة

(٤) أنكر الامام أحمد صحة الأحاديث التي رويت في تفسير القرآن الحكيم

(٥) قالت الظاهرية إنه لا يجوز تخصيص عموم القرآن بها . وإن العمل بها غير

واجب مطلقا بل هو مذموم ظنية والعمل بالظن مذموم في القرآن الشريف

(٦) رأي المحققين من علماء المسلمين انه لا يجوز الاخذ بها في العقائد،

فهذه هي آراؤهم فيها كما في كتب الأصول . فأي شيء ابتدعته أو افتجرته أو خالفت فيه الاجماع اذا كان ماذكرت هو حكمها عند أئمة المسلمين . فليتروَّ المنصفون، وليتدبر العاقلون ، (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) ؟

(المنار) ان لنا قولا في هذه المسائل ننشره في جزء آخر ونقبل من العلماء الباحثين كل مايرد الينا في ذلك لا يشترط فيه الا التزام مايليق بالعلماء من الأدب والنزاهة وبناء المناظرة على احترام اعتقاد المناظر

خطبة اسماعيل بك عاصم

المحامي

التي ألقاها في الحفلة (* التي أعدها في داره لعلماء الكتاب اصحاب المجلات المصرية ومحرريها احتفالا باتمام مجلة المنار للسنة العاشرة من عمرها

(مساء ٢٢ شوال سنة ١٣٢٥ — ٢٨ نوفبر سنة ١٩٠٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله، والصلاة والسلام على من اجتباه، فان براعة استهلالي هي تقديم الشكر والثناء لحضراتكم على اجابة دعوتي وتشريف هذا الاحتفال الادبي باكمال مجلة المنار الزهراء لصديقنا السيد محمد رشيد رضا السنة العاشرة من عمرها

*) راجع خبر الحفلة في باب الأخبار والآراء

ولعل هذه أول مرة قام فيها انسان عربي مصري بمثل هذه الحفلة ودعا اليها أعاظم أصحاب المجلات وأفاضل محرريها سروراً وابتهاجاً بمجلة علمية اتمت العقد الأول من عقود الاعداد . وأرجو أن يكون هذا الاجتماع فاتحة لامثاله في المستقبل

اني يا حضرات الافاضل عرفت مجلة المنار في السنة الثانية من نشأتها اذ نبهني اليها صديقي المرحوم تقولا بك توما الاصولي الشهير وكان في يده نسخة منها قال لي انها أحسن مجلة دينية، وأفصح صحيفة عربية أدبية ، فانعمت النظر فيها فألفيتها جديرة بالمطالعة والادخار وحينئذ تاقت نفسي لمعرفة محررها وقابلته فوجدت منه انساناً فاضلاً أديباً ، وكاتباً عالماً أريباً ، كما تشاهدون وتشهدون ، فعاشرته ثمانية أعوام وهو يزداد كمالاً في محاسن أخلاقه، وتزداد مجلته جمالا بالمباحث الاخلاقية العالية، والافكار الصحيحة البعيدة عن التقليد الاعمى ، وبالمقالات الحكمية العمرانية، من الوجهتين الدينية والمدنية ، فازدادت حبي له كما ازداد اعجابي بثباته بالرغم من مقاومة الذين لا يفقهون ما يقول أو يفقهون قوله ولكنهم يثيرهم عليه الجهل الذي قد يثور بأهله البسطاء، على المصلحين الاذكياء، فازدادت مجلته انتشاراً، ولاقت عند أهل الحجا اعتباراً، حتى غبطه عليها محبوه، وانما يعرف الفضل ذووه

ومن المقرر أيها السادة ان الصحف هنا قسمان أحدهما سياسي ويغلب عليه اسم الجرائد . وهى تبحث في الغالب عن الحكومة وعلاقتها بالامة والدول ، وعن الامة وعلاقتها بالحكومة ، وعن حقوق كل منهما التي لها أو عليها للاخرى ، وتراقب ما يتجدد من التقنين والتشريع، وتنبه الى العدالة

والاعتدال، والانتصار للمظلوم ، والأخذ بيد صاحب الحق المهضوم، ونحو ذلك . فهى نعم المرشد الامين اذا أخلصت في النصح والارشاد، ولم تسلك سبل التحيز والهوى والعناد

والقسم الثاني علمي أدبي ويغلب عليه اسم المجلات . وهي تبحث عن تقويم الاخلاق ، وتهذيب النفوس ، وتثقيف الطباع ، وتصحيح الافكار ، واحياء اللغة التي بها حياة الامة ، وانماء الصنائع ، والتنبيه الى المخترعات المفيدة، وبث روح العلوم النافعة الجديدة، الى غير ذلك مما يرقي العرفان، ويزداد به العمران

وهذه ربما كانت أنفع للامم وخصوصاً للحديثة العهد منها بالمدنية لانها مهما تضاربت أفكارها، وتسابقت أقلامها، فهي انما تكون للبحث في مسائل علمية اجتماعية، أو أمور صناعية عمرانية، فلا يحدث عن احتكاك بعضها بالبعض غير اشعة تستضيء بنورها العقول

ولهذا وجب على أرباب المجلات ان يتتبعوا الرذيلة فيطمسوا رسومها، ويتعاونوا على قلع جذورها من النفوس الضالة، ويأتوا من الهداية والحكمة، والموعظة الحسنة وقوة البرهان (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان)— وان يتبعوا الفضيلة من طريق الشرائع السماوية ، والنواميس الاجتماعية، ويثبتوها في النفوس حتى تنطبع في مرآة أخلاق الامة وشعورها

(والناس تسعد بالاخلاق ما صلحت
فان هم فسدت أخلاقهم فسدوا)

فاذا أنتم قمتم بهذه الواجبات، وأديتم المطلوب من مجلاتكم حق الاداء، فاستنارت بها عقول الامة، وارتقت أفكارها ، وعظمت نفوسها، فعرفت

قيمة الاجتماع، وقوة التعاون، فاوجدت المدارس والمستشفيات، والمصارف والكليات، والجامعات العالية بقدر الحاجة اليها، ثم ذاقت لذة القيام بنفسها، وانفت اجابة كل داع يضلها عن السبيل السوي - هنالك يتيسر لها ايجاد المجالس النيابية، واللجان التشريعية، التي تطلبها الجرائد السياسية، ويتمناها كل محب لنفسه ووطنه

لا يخفى على حضراتكم ان من الادلة على حياة الامة وارتقائها أن تعرف قيمة رجالها العاملين لنفعها، فتقدرهم حق قدرهم، وتشجعهم على أعمالهم حساً ومعنى، فيذوقوا من حلاوة الاحترام والاكرام، ما يقوي منهم الآمال بالاصلاح العام، فيزدادوا نشاطاً وتفننا في عملهم، ويقتدي بهم غيرهم، فيزداد ارتقاء الامة بقدر زيادة النابغين فيها،

لهذا رأيت من الواجب علي لصديقي «المرشد الرشيد» اذ احتفل باكمال مجلته (المنار) للسنة العاشرة من ظهورها في هذا اليوم المبارك ٢٢ شوال سنة ١٣٢٥ فقد كان في مثله ظهور أول عدد منها سنة ١٣١٥ ويحسن بي ان أعرض على نظركم هذه النسخة من العدد الاول المذكور واقتطف منه زهرات متفرقة يتأرج نادينا بعرفها

قال في المقدمة الافتتاحية - أيها الشرقي المستغرق في منامه قد تجاوزت حد الراحة فتنبه من سباتك وانظر الى هذا العالم الجديد فقد بدلت الارض غير الارض واستولى أخوك الغربي المستيقظ على قوى الطبيعة فقرن بين الماء والنار، وأولدهما البخار، واستخدم الكهرباء والنور، واخترق الجبال، واختبر أعماق البحار، وعرف مسافة الهواء، وجمع بين أقطار الارض، بل عرج للقبة الفلكية فعرف الكواكب ومادتها - الى أن قال -

وان هذا العصر عصر العلم والعمل فلا تضيع أوقاتك بالتخيل والتفكر والاماني والتشهي (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها)

ثم قال ان من وظيفة هذه المجلة الحث على تربية البنات والبنين واصلاح كتب العلم وطريقة التعليم وشرح الدخائل التي مازجت عقائد الامة وشبهت الحق بالباطل حتى صار انكار الاسباب ايماناً وترك الاعمال المفيدة توكلا ومعرفة الحقائق كفرا والتسليم بالخرافات صلاحا واختبال العقل ولاية والخنوع والذل تواضعا والتقليد الاعمى علما وايقانا

ومن غرضها رد الشبهات الواردة عن الشريعة الاسلامية ودحض مزاعم من زعم أنها حجاب بين العاملين بها وبين المدنية، واقناع أرباب النحل المتباينة، بأن الله تعالى شرع الدين للتحابّ والتواد والبر والاحسان، وان المعارضة والمناصبة تفضي الى خراب الاوطان، وتقضي على هدي الاديان. فهذا ما أرادت أن أجتنيه لكم من ازهار هذه المقدمة

ومن أبدع ما رأيته أن سعادة العالم الفاضل أحمد فتحي باشا زغلول استشهد في مقدمة ترجمته لكتاب الاسلام المطبوع في سنة ١٣١٥ في الصفحة السابعة بشذرات من فاتحة أول عدد من المنار فهي حينئذ قد شبت في مهدها، وحازت الثقة عند أكابر الامة منذ نشأتها

فهذا ما دعاني أيها الاخلاء لاتخاذ هذه المناسبة اللطيفة، والمصادفة الجميلة، وسيلة حسنة للتشرف بدعوة حضراتكم لنجتمع على مائدة السمر الادبي فوق أرائك المحبة والصفاء فيهنىء بعضنا البعض على هذا الاجتماع الاخوي المفيد، ونهنىء كلنا هذا الاخ العزيز المحتفل به على توفيقه لهذه الخدمات التي نوهنا عنها، ونسأل الله أن يمنحه الصحة ويزيد في

عمره وعمر مجلته ليزداد به النفع العام، وهذا جهد ما يستطيع مثلي عمله والسلام

(لاخيل عندي أهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم تسعد الحال)

ثم اني أشكر حضراتكم بلسان الامة المصرية على جزيل فوائد مجلاتكم الزاهرة فانها طالما نشرت من اريج دوحها ما تعطرت به النفوس وأتمنى ان يتكرر مثل هذا الاجتماع ولو مرة في كل شهر لتبادل الآراء في ما يكون به زيادة ترقية الافكار

وفي الختام ابتهل الى الله ان يؤيد مولانا الخليفة والسلطان الاعظم بروح من عنده وان يوفق خديوينا المعظم ورجال حكومته وعقلاء الامة لما فيه نفع العباد وخير البلاد آمين

حجة الاسلام ابو حامد الغزالي

(٣)

﴿ رأيه في العلوم الدنيوية ﴾

قال في بيان العلم الذي هو فرض كفاية من الباب الثاني من كتاب احياء العلوم الذي بين فيه العلوم المحمودة والمذمومة

« اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره الا بذكر العلوم . والعلوم بالاضافة الى الفرض الذي نحن بصدده تنقسم الى شرعية وغير شرعية وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل اليه مثل الحساب ولا التجربة مثل الطب ولا السماع مثل اللغة

فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ماهو مذموم والى ماهو مباح فالمحمود ماترتبط به مصالح الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم الى

ماهو فرض كفاية والى ماهو فضيلة وليس فريضة

« أما فرض الكفاية فهو مالا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب اذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فانه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد واذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فان أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك اليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك (١) فان الذي أنزل الداء أنزل الدواء (٢) وأرشد الى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله

« واما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج اليه

« وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات

« وأما المباح منه فالعلم بالاشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الاخبار وما يجري مجراه » اهـ

أقول لا يظهر وجه ما قاله في الاشعار والتواريخ الا فيمن يقرأها لمحض التسلي والتفكه فأما قراءة الاشعار لاجل معرفة اللغة مفرداتها وأساليبها واكتساب ملكة البلاغة وتمييز الصحيح والفصيح من غيره فهو على قاعدته من فروض الكفاية بل ربما يستنبط من كلام له في كتاب إلجام العوام عن علم الكلام ان معرفة اللغة العربية فرض عين على كل مسلم بحيث يفهم الكلام البليغ ويميز بين الحقيقة والمجاز والكناية فانه قال هنالك

---

(١) كان هذا المثال مطابقا للحكم في زمنه اذ كان الاطباء لا يعرفون علاجا لتبيغ الدم في بعض الاحوال الا الحجامة أو الفصد وكان يتولى ذلك الحجامون

(٢) هذا المعنى رواه البخاري مرفوعا بلفظ « ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء » ورواه غيره ولفظ ابن ماجه « الا أنزل له الدواء » وعند مسلم « فان أصيبت دواء الداء برىء باذن الله »

إن ماورد في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته وأفعاله لايجوز أن يؤخذ بالترجمة فان غير العربية لاتؤدي مايؤديه القول الوارد فيها على وجهه في كل صفة من تلك الصفات وضرب لذلك الامثال

وأما تواريخ الاخبار – ولعله يعني بها مايقابل تواريخ المحدّثين – فقد كانت في زمنه قليلة الفائدة وهي في هذا العصر مادة السياسة التي قال بأنها فريضة وينبوع العلوم الاجتماعية التي تشرح لنا سنن الله تعالى في الامم وهو يعد العلم بسنن الله تعالى في خلقه كالعلم بصفات الله وكاله أعلى العلوم الدينية كما سيأتي عنه فلو كان في هذا العصر لقال في الشعر والتاريخ قولا مفصلا على نحو ماقلنا

﴿ رأيه في علوم الفلسفة ﴾

ثم تكلم عن العلوم الشرعية وأورد على نفسه هذا السؤال « فان قلت فلم لم تورد في أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو محمودان » وأجاب عن علم الكلام بما سنذكره في الكلام عن العلوم الدينية وان كان لايعده منها وعن الفلسفة بما يأتي

« وأما الفلسفة فليست علما برأسها بل هي أربعة أجزاء

(أحدها) الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق ولا يمنع عنهما الا من يخاف عليه أن يتجاوزهما الى علوم مذمومة فان أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما الى البدع فيصان الضعيف عنه لا لعينه كما يصان الصبي عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر وكما يصان الحديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار خوفا عليه مع ان القوي لا يندب الى مخالطتهم

« و (الثاني) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه وهما داخلان في علم الكلام .

« و (الثالث) الالهيات وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وهو داخل في الكلام أيضا والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة وكما أن الاعتزال ليس علما برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة فكذلك الفلاسفة

« و (الرابع) الطبيعيات وبعضها مخالف للشرع والدين الحق فهو جهل وليس بعلم حتى يورد في أقسام العلوم وبعضها بحث عن صفات الاجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها وهو شبيه بنظر الأطباء الا ان الطبيب ينظر في بدن الانسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح وهم ينظرون في جميع الاجسام من حيث تتغير وتتحرك ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج اليه وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة اليها » اه

وقد أوسع المجال لذلك في كتابه المنقذ من الضلال فقال :

﴿ فصل في أقسام علومهم ﴾

اعلم ان علومهم بالنسبة الى الغرض الذي نطلبه ستة أقسام رياضية ومنطقية وطبيعية والهية وسياسية وخلقية أما الرياضية فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم وليس يتعلق شيء منها بالامور الدينية نفيا واثباتا بل هي أمور برهانية لاسبيل الى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها وقد تولدت منها آفتان (الاولى) من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ويحسب ان جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ماتناولته الالسن فيكفر بالتقليد المحض ويقول لو كان الدين حقا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم فاذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم يستدل على ان الحق هو الجحد والانكار للدين وكم رأيت ممن ضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه واذا قيل له الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم ان يكون حاذقا في كل صناعة فلا يلزم ان يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقا في الطب ولا ان يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها البراعة والسبق وان كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها فكلام الاوائل في الرياضيات برهاني وفي الالهيات تخميني لا يعرف ذلك الا من جربه وخاض فيه فهذا اذا قرر على هذا الذي اتخذ (كذا) بالتقليد

لم يقع منه موقع القبول بل تحمله غلبة الهوى وشهوة البطالة وحب التكايس على ان يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها فهذه آفة عظيمة لاجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم فانها وان لم تتعلق بأمر الدين لكن لما كانت من مبادي علومهم يسري اليه شرهم وشؤمهم فقل من يخوض فيه الا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى

(الآفة الثانية) نشأت من صديق للاسلام جاهل ظن ان الدين ينبغي ان ينصر بانكار كل علم منسوب اليهم فانكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف وزعم ان ماقالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهانه لكن اعتقد ان الاسلام مبني على الجهل وانكار البرهان القاطع فيزداد للفلسفة حبا وللاسلام بغضاً ولقد عظم على الدين جناية من ظن ان الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية وقوله عليه السلام «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله تعالى والى الصلاة» ليس في هذا مايوجب انكار علم الحساب المعرف بسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلتهما على وجه مخصوص وأما قوله «لكن الله اذا تجلى لشيء خضع له» فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلا فهذا حكم الرياضيات وآفتها

(وأما المنطقيات) فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيا واثباتا بل هو النظر في طرق الادلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبها وان العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان وليس في هذا ماينبغي ان ينكر بل هو من جنس ماذكره المتكلمون وأهل النظر في الادلة وانما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات ومثال كلامهم فيه قولهم اذا ثبت ان كل (١) (ب) لزم ان بعض (ب) (١) أي اذا ثبت ان كل انسان حيوان لزم ان بعض الحيوان انسان ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية. وأي تعلق

لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر فاذا أنكر لم يحصل من انكاره عند أهل المنطق الا سوء الاعتقاد في عقل المنكر بل في دينه الذي يزعم انه موقوف على مثل هذا الانكار. نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم انها تورث اليقين لامحالة لكنهم عند الانتهاء الى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط بل تساهلوا غاية التساهل وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحا فيظن ان ماينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء الى العلوم الالهية فهذه الآفة أيضاً متطرقة اليه

﴿ وأما علم الطبيعيات ﴾ فهو بحث عن أجسام العالم السموات وكواكبها وما تحتها من الاجسام المفردة كالماء والهواء والتراب والنار ومن الاجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها وذلك يضاهي بحث الطبيب عن جسم الانسان وأعضائه الرئيسة والخادمة وأسباب استحالة مزاجه وكما ليس من شرط الدين انكار ذلك العلم الا في مسائل معينة ذكرناها في كتاب تهافت الفلاسفة وماعداها مما يجب المخالفة فيها فعند التأمل يتبين انها مندرجة تحتها وأصل جماعها ان يعلم ان الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها بل هي مستعملة من جهة فاطرها والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته

﴿ وأما الالهيات ﴾ ففيها أكثر أغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوا في المنطق ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ولقد قرب ارسطاطاليس مذهبه فيها من مذاهب الاسلاميين على ما نقله الفارابي وابن سينا ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلا يجب تكفيرهم في ثلاثة منها وتبديعهم في سبعة عشر ولابطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب التهافت. أما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم ان الاجساد لا تحشر وانما المثاب والمعاقب هي الارواح المجردة والعقوبات روحانية لا جسمانية ولقد صدقوا في اثبات الروحانية فانها كائنة أيضاً ولكن كذبوا في انكار الجسمانية وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به ومن ذلك قولهم ان الله تعالى

يعلم الكليات دون الجزئيات فهو أيضاً كفر صريح بل الحق انه (لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض) ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته فلم يذهب أحد من المسلمين الى شيء من هذه المسائل وأما ماوراء ذلك من نفيهم الصفات وقولهم انه عليم بالذات لا بعلم زائد على الذات وما يجري مجراه فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك وقد ذكرنا في كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ما يتبين فيه فساد رأي من يتسارع الى التكفير في كل ما يخالف مذهبه

(وأما السياسيات) فمجموع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحة المتعلقة بالامور الدنيوية السلطانية وانما أخذوها من كتب الله المنزلة على الانبياء ومن الحكم المأثورة عن سلف الاولياء

(وأما الخلقية) فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها وانما أخذوها من كلام الصوفية وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله تعالى وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق الى الله تعالى بالاعراض عن ملاذ الدنيا وقد انكشف لهم في مجاهداتهم من اخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا بها فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلا بالتجمل بها الى ترويج باطلهم ولقد كان في عصرهم بل في كل عصر جماعة من المتألهين لا يخلي الله العالم عنهم فانهم أوتاد الارض ببركتهم تنزل الرحمة الى أهل الارض » اه المراد منه

أقول هذا آخر ما استقر عليه رأي الامام أبي حامد في هذه العلوم لأن هذا الكتاب من آخر ما كتب . ومنه يعلم انه لا ينكر من علومهم شيئاً يعده مخالفا للدين الا مسائل معدودة من الفلسفة الإلهية وانا نزيد المسألة بيانا بايراد ما كتبه قبل ذلك في مقدمة كتابه تهافت الفلاسفة قال :

« أما بعد فاني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الاتراب والنظراء ، بمزيد الفطنة والذكاء ، قد رفضوا طوائف الاسلام والعبادات ، واستحقروا شعائر الدين ووظائف الصلوات ، والتوقي عن المحظورات ، واستهانوا بتعبدات الشرع

وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين ، بفنون من الظنون ، يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ، ولا مستند لكفرهم غير سماع الغي كتقليد النصارى واليهود اذ جرى على غير دين الاسلام نشوءهم وولادهم ، وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، ولا عن بحث نظري صادر عن التعثر باذيال الشبه الصارفة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب ، كما اتفق لطوائف من النظار في البحث عن العقائد والآراء ، من أهل البدع والاهواء ، وانما مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة كسقراط و بقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم ، و إطناب طوائف متبعيهم وضلالهم ، في وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية ، والمنطقية والطبيعية والالهية ، واستبدادهم بفرط الذكاء والفطنة ، واستخراج تلك الامور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم مع رزانة عقولهم ، وغزارة فضلهم ، منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الاديان والملل ، و يعتقدون أنها نواميس مؤلفة ، وحيل مزخرفة ، فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكي لهم من عقائدهم طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر تحيزا الى غمار الفضلاء بزعمهم ، وانخرطا في سلكهم ، وترفعاً عن مساعدة الجماهير والدهماء ، واستنكافا من القناعة باديان الاباء ، ظنا بأن اظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال الى تقليد عن تقليد خرق وخبال ، فأية رتبة في عالم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليدا ، بالتسارع الى قبول الباطل دون أن يقبله خبرا وتحقيقا ، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة ، فليس في سجيتهم حب التكايس بالتشبه بذوي الضلالات ، والبلاهة أدنى الى الخلاص من فطانة بتراء ، والعمى أقرب الى السلامة من بصيرة حولاء

فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضا على هؤلاء الاغبياء ، ابتدأت بتحرير هذا الكتاب ردا على الفلاسفة القدماء ، مبينا تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم ، فيما يتعلق بالالهيات . وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء ، أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء ،

من فنون العقائد والآراء ، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه ليتبين لهؤلاء الملحدة تقليداً اتفاق كل مرموق من الاوائل والاواخر ، على الايمان بالله واليوم الآخر، وان الاختلافات راجعة الى تفاصيل خارجة عن هذين القطبين الذين لاجلهما بعث الأنبياء المؤيدون بالمعجزات، وانه لم يذهب الى انكارهما الاشرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة، والآراء المعكوسة، الذين لايوبه لهم ، ولا يعبأ بهم ، فيما بين النظار، ولا يعدون الا في زمرة الشياطين الاشرار ، وغمار الاغبياء والأغمار، ليكف عن غلوائه ، من يظن أن التجمل بالكفر تقليدا يدل على حسن رأيه ، أو يشعر بفطنته وذكائه ، اذ يتحقق أن هؤلاء الذين تشبه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم، براء عما قذفوا به من جحد الشرائع ، وانهم مؤمنون بالله ، ومصدقون لرسله ، ولكنهم اختبطوا في تفاصيل بعد هذه الاصول ، قد زلوا فيها فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، ونحن نكشف عن فنون ما انخدعوا به من التخاييل والأباطيل، ونبين أن ذلك تهويل ما وراءه تحصيل، والله تعالى ولي التوفيق ، لاظهار ما قصدناه من التحقيق، ولنصدر الآن الكتاب بمقدمات تعرب عن مساق الكلام في الكتاب

﴿ مقدمة ﴾

ليعلم ان الخوض في حكاية اختلاف الفلاسفة تطويل ، فان خبطهم طويل، ونزاعهم كثير، وآراؤهم منتشرة ، وطرقهم متباعدة متدابرة، فلنقتصر على اظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق ، والمعلم الاول ، فانه رتب علومهم وهذبها بزعمهم ، وحذف الحشو من آرائهم ، وانتقى ما هو الاقرب الى أصول أهوائهم ، وهو ارسطاليس وقد ردّ على كل من قبله حتى على أستاذه الملقب عندهم بافلاطون الالهي ثم اعتذر عن مخالفته أستاذه بان قال أفلاطون صديق والحق صديق ولكن الحق أصدق منه (وانما) نقلنا هذه الحكاية عنهم، ليعلم انه لاتثبت ولا اتقان لمذهبهم عندهم، وانهم يحكمون بظن وتخمين، من غير تحقيق ويقين ، ويستدلون على صدق علومهم الالهية، بظهور العلوم الحسابية والمنطقية، ويستدرجون به ضعفاء العقول ولو كانت علومهم الالهية متقنة البراهين، نقية عن التخمين، كعلومهم الحسابية والمنطقية، لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا في الحسابية، ثم

المترجمون لكلام ارسطاليس لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل، محوج الى تفسير وتأويل، حتى آثار ذلك أيضا نزاعا بينهم وأقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة الاسلامية الفارابي أبو نصر وابن سينا . فلنقتصر على ابطال ما اختاراه ورأياه الصحيح من مذاهب رؤسائهم في الضلال فان ماهجراه واستنكفاه من المتابعة فيه لايتمارى في اختلاله، ولا يفتقر الى نظر طويل في ابطاله، فليعلم انا مقتصرون على رد مذاهبهم بحسب نقل هذين الرجلين كيلا ينتشر الكلام بحسب انتشار المذاهب

﴿ مقدمة ثانية ﴾

ليعلم أن الخلاف بينهم وبين غيرهم من الفرق على ثلاثة أقسام

(قسم) يرجع النزاع فيه الى لفظ مجرد كتسميتهم صانع العالم تعالى عن قولهم جواهر مع تفسيرهم الجوهر بانه الموجود لافي موضوع أي القائم بنفسه الذي لايحتاج الى مقوم يقوم ذاته ولم يريدوا بالجوهر المتحيز على ماأراده خصومهم ولسنا نخوض في ابطال هذا لأن معنى القائم بالنفس اذن صار متفقا عليه. رجع الكلام في التعبير باسم الجوهر عن هذا المعنى الى البحث عن اللغة وأكثرهم لايسمونه جوهرا وان سوغت اللغة اطلاقه. رجع جواز اطلاقه في الشرع الى المباحث الفقهية فان تحريم اطلاق الاسامي واباحتها يؤخذ مما يدل عليه ظواهر الشرع. ولعلك تقول هذا انما ذكره المتكلمون في الصفات ولم يورده الفقهاء في فن الفقه فلا ينبغي أن يلتبس عليك حقائق الامور بالعادات والمراسم فقد عرفت انه بحث عن جواز التلفظ بلفظ صدق معناه على المسمى به فهو كالبحث عن جواز فعل من الافعال

﴿ القسم الثاني ﴾ مالا يصدم مذهبهم فيه أصلا من أصول الدين وليس من ضرورة تصديق الانبياء والرسل صلوات الله عليهم منازعتهم فيه كقولهم ان كسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الارض بينه وبين الشمس من حيث انه يقتبس نوره من الشمس والارض كرة والسماء محيط بها من الجوانب فاذا وقع القمر في ظل الارض انقطع عنه نور الشمس وكقولهم إن كسوف الشمس معناه وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة. وهذا الفن أيضا لسنا نخوض في ابطاله اذ لايتعلق به غرض. ومن ظن أن

المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لاتبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما الى الانجلاء اذا قيل له ان هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه وانما يستريب في الشرع وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه وهو كما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل

(فان قيل) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله تعالى والصلاة » ؟ فكيف يلائم هذا ماقالوه (قلنا) وليس في هذا ما يناقض ما قالوه اذ ليس فيه الا نفي وقوع الكسوف لموت أحد أو لحياته والامر بالصلاة عنده والشرع الذي يأمر بالصلاة عند الزوال والغروب والطلوع من أين يبعد منه أن يأمر عند الكسوف بها استحبابا

(فان قيل) فقد روي انه قال في آخر الحديث « ولكن الله اذا تجلى لشيء خضع له » فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التجلي

(قلنا) هذه الزيادة لم يصح نقلها فيجب تكذيب ناقلها وانما المروي ماذكرناه كيف ولو كان صحيحا لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية فكم من ظواهر أولت بالادلة القطعية التي لا تنتهي في الوضوح الى هذا الحد وأعظم مايفرح به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع فيسهل عليه طريق ابطال الشرع ان كان شرطه أمثال ذلك وهذا لان البحث في العالم عن كونه حادثا أو قديما ثم اذا ثبت حدوثه فسواء كان كرة أو بسيطا أو مثمنا أو مسدسا وسواء كانت السموات وما تحتها ثلاثة عشر طبقة كما قالوه أو أقل أو أكثر فنسبة النظر فيه الى البحث الالهي كنسبة النظر الى طبقات البصل وعددها وعدد حب الرمان فالمقصود كونها من فعل الله فقط كيفما كانت

﴿ القسم الثالث ﴾ مايتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين كالقول في حدوث العالم وصفات الصانع وبيان حشر الاجساد والابدان وقد أنكروا جميع

ذلك فهذا الفن ونظائره هو الذي ينبغي أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ماعداه (مقدمة ثالثة) ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة فظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان وجوه تهافتهم فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم الا دخول مطالب منكر لا دخول مدع مثبت فابطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا به بالزامات مختلفة فألزمهم تارة مذهب المعتزلة وأخرى مذهب الكرامية وطورا مذهب الواقفية ولا أنتهض ذابا عن مذهب مخصوص بل أجعل جميع الفرق إلبا واحدا عليهم فان سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل وهؤلاء يتعرضون لاصول الدين فلنتظاهر عليهم فعند الشدائد تذهب الاحقاد» (الكلام بقية)



باب الأخبار والآراء

المؤتمر الاسلامي

نشرنا في هذا الجزء خطبة اسماعيل بك غصبرنسكي صاحب جريدة ترجمان التي اقترح فيها على مسلمي مصر الدعوة الى مؤتمر إسلامي

جاء الرجل مصر لهذا الغرض فبدأ بزيارة أصحاب الجرائد اليومية وكاشف المسلمين منهم بما جاء لأجله فوعده صاحب جريدة المؤيد منهم بالمساعدة ودعو الناس الى سماع خطبته التي أعدها لذلك. وقد طبع أوراقا للدعوة ووزعها على نحو ٦٠٠ ممن اختار من الوجهاء والفضلاء وكان موعدهم ليلة السبت لخمس بقين من رمضان فأجاب الدعوة كثيرون وحضر كثيرون لم يدعوا فازدحموا على باب فندق الكونتننتال وتعذر تقديم المدعوين على غيرهم فكان السابق هو المقدم كأن كل واحد منهم كان يرى أن الداعي والمدعوين وغيرهم من المسلمين سواء في حضور هذا الاجتماع الذي يبحث فيه عن أحوال المسلمين كافة

كان عدد المجتمعين زهاء ثلاث مئة رجل فقرئت عليهم الخطبة التركية ثم ترجمتها العربية و بعد ذلك قام صاحب المؤيد فذكر بعد تمهيد وجيز — في كون فكرة المؤتمر ناضجة قد استعدت لها النفوس — أسماء طائفة من شيوخ الأزهر ووجهاء العاصمة قال انهم أذنوا له بأن يذكر عنهم انهم أجابوا الدعوة وهم الأساتذة المشهورون الشيخ سليم البشري والشيخ محمد توفيق البكري والشيخ محمد شاكر والشيخ محمد بخيت والشيخ محمد حسنين العدوي والشيخ حسين والي ، والباشوات حسين واصف واسماعيل أباظه والدكتور حسن رفقي وعلي شعراوي والدكتور علوي وموسى غالب ، والبكوات أحمد تيمور وعبد العزيز فهمي المحامي ورفيق العظم وطلعت حرب وحقي العظم وابراهيم الهلباوي المحامي وأحمد زكي ويوسف صديق وعمر لطفي المحامي ومحمد فريد وعلي بهجت واسماعيل رأفت وحسن بكري المقاول ومحمد أحمد الشريف ثم ذكر من الصحافيين نفسه وحافظ أفندي عوض . وقد علمنا أنه كان كلم أكثر الشيوخ والباشوات من هؤلاء قبل ليلة الاحتفال ودعاهم الى ذلك دعوة خاصة فرضوا وأذنوا له بذكر أسمائهم . وقد انتقد بعض الناس هذا وقالوا انه عبارة عن إجابة الدعوة قبل سماعها وظنوا أنه لا يخلو من تواطؤ خاص

ثم أشيع في البلد أن وراء الستار إرادة تدبر أمر المؤتمر وتصرف كبراء المشتغلين به في عملهم ورأيت غير واحد ممن ذكرنا أسماءهم آنفاً يظن هذا في بعضهم . واقترح بعض الوجهاء على صاحب المؤيد أن يدعو كثيرا من الفضلاء الى حضور أول اجتماع يعقده للبحث في المؤتمر فدعا بعض من سمي له وأفرادا من غيرهم الى الاجتماع في دار الشيخ البكري في الساعة التاسعة من ليلة ٩ شوال فأجاب الدعوة زهاء خمسين رجلا

اجتمعوا في ردهة الدار وكان صاحب المؤيد قد دعا من حضر ممن ذكر أسماءهم من قبل وسماهم اللجنة التحضيرية الى مخدع بجانب الردهة يأتمرون ويختصمون في اقتراح عرضه عليهم وهو أن يخرج من اللجنة أناس منهم بعد اختيار من يرضاه ويرضونه ليكون مكانهم فلم يتفقوا على ذلك اذ رأى بعضهم انه لا حق لهم ان يستبدوا بالعمل هم ومن يختارونه

ولما طال الانتظار ومل الحضار ظهر الغضب على بعض الحاضرين وقال بصوت جهوري ما معنى لأن ندعى الى مشروع عام ويتركنا الداعي ويخلو بنفر من دوننا في مخدع يأتمرون بينهم سرا ؟ ماهذا الا إهانة وعمل غير معقول : فرأى من القوم إرتياحا لقوله وموافقة له عليه وصاروا يتناجون بينهم : إن البكري وصاحب المؤيد قد استبدا بالمشروع ولأمر ما ويريدان أن يختار المؤتمر من يرضيان ليتم ذلك الأمر

وكان ذلك الغاضب قد مر على النفر المؤتمرين في مخدعهم واعاد عليهم ما قال آنفا فخرجوا وقام فيهم صاحب المؤيد فقال انه قد شاع بين الناس ان ارادة خاصة تدير أمر مشروع المؤتمر وهذا غير صحيح وانما خلونا لنتذاكر فيما نعرضه عليكم وهو اننا رأينا من مصلحة المشروع أن أخرج أنا وحافظ أفندي عوض منه وحسن باشا رفقي واسماعيل باشا أباظه وفلان وفلان فالمرجو منكم ان تنتخبوا بدلهم من الحاضرين لاتمام اللجنة التحضرية للمؤتمر : أو ما هذه خلاصته فبرأ نفسه بخروجه مما ظن فيه الظانون

فقام كاتب هذه السطور وقال ان بقية من سميتموهم اللجنة التحضيرية لم يُنتخبوا فالعدل أن ينتخب جميع الاعضاء ابتداء . فحاول صاحب المؤيد والسيد البكري ان يثبتا عدم الحاجة الى جعل أحد ممن ذكرت أسماؤهم ليلة الاحتفال بالخطبة موضعا للانتخاب لأنهم ذكروا أمام مقترح المؤتمر وجمهور من حضر خطبته ولم يعارض في أحد منهم أحد ! والسيد البكري سمى ذلك انتخابا وقال صاحب المؤيد واننا نعرض أسماءهم الآن على الحاضرين ونأخذ رأيهم فيهم . فقال كاتب هذه السطور انه ما كان لأحد ان يطعن في كفاءة أحد في وجهه ولا على مسمع الملأ ولذلك اتفقت الامم كلها جعل الانتخاب في مثل هذا الأمر سريا فنحن نجلّ ونحترم كل واحد من أولئك المذكورين ولكننا ربما نرى أناساً آخرين أولى بهذا العمل من بعضهم فكل واحد ينتخب سراً من يعتقد كفاءته لهذا الامر مع حفظ كرامة الآخرين . وأما ذكر صاحب المؤيد أسماءهم ليلة الاحتفال وسكوت السامعين فلا يسمى انتخابا اذ لم يخطر في بال أحد من السامعين ان تلك الاسماء ذكرت لأخذ رأيه فيها ولا ان له الحق في جرح أحد ممن ذكر

ثم اقترح بعض الحاضرين أن يكون البحث قبل كل شيء إمكان المؤتمر وعدمه ، واذا ظهر أنه ممكن فهل الأولى أن يكون عاما أو خاصا بمصر وطال الجدال في ذلك. واقترح بعضهم بيان موضوع المؤتمر أولا فكان السيد البكري أحسن من أجاب اذ قال مامثاله موضحا ان السيد جمال الدين قال انه لافرق بين المسلمين و بين سائر الشعوب الا في الدين ولا يمكن أن يكون دين الاسلام في حقيقته هو السبب في تأخرهم لأنه هو الذي كان السبب أولا في جمع كلمة العرب ونقلهم من الجهل والأمية الى العلم ومن البداوة الى المدنية ومن الفقر والضعف الى الغنى والسيادة فالشيء الواحد لايكون سببا للشيء ولضده معا فلا بد أن يكون فهم الدين قد تغير ودخل فيه ماليس منه فكان أثره في الآخرين ضد أثره في الأولين ولا يصلح حال المسلمين الا بالرجوع الى حقيقة الدين (قال) هذا ماسمعناه من السيد جمال الدين وهذا ما سمعناه من الشيخ محمد عبده وعليه جميع العارفين من الكتاب والباحثين ومنه يعرف موضوع المؤتمر . وعند هذا قال بعض الحاضرين لبعض ومنهم أحمد بك زكي الأمين الثاني لاسرار مجلس النظار ان هذا عمل قامت به مجلة المنار . وقام الشيخ اسماعيل خليل فقال قولا جاء فيه اشارة الى ماصرح به غيره من جواب هذا القول وهو ان مايكتب في المنار وكذا في بعض الجرائد أحيانا من البحث في أسباب ضعف المسلمين وطرق علاجه يكون محلا لانتقاد بعض الناس فاذا كان مثل ذلك معزوا الى طائفة كبيرة من علماء المسلمين وفضلائهم وأهل الرأي فيهم يرجى ان يكون مقبولا نافعا وقد أشرنا الى ذلك في مقالتنا عن المؤتمر في هذا الجزء

و بعد كثرة الجدال انفض القوم ولم يتفقوا على شيء فعزم من حضر ممن سماهم صاحب المؤيد اللجنة التحضيرية على ان يسموا أنفسهم اللجنة التأسيسية أو لجنة التأسيس للمؤتمر وأن يضموا اليهم من يختارونه للعمل معهم

ثم انهم بعد ذلك اجتمعوا واختاروا الشيخ سليما البشري رئيسا للمؤتمر وعمر بك لطفي المحامي كاتبا للسر وناطوا تحديد موضوع المؤتمر ونظامه بلجنة مؤلفة من الشيخ توفيق البكري وصاحب المؤيد وابراهيم بك الهلباوي وحسن باشا شارفي ورفيق بك العظم

رزيئة مصر بحسن باشا عاصم

رزئت مصر في ثالث شوال برجل الجد والعمل والثبات والاستقامة والعدل والنظام خادم الأمة المخلص نابغة النوابغ نادرة العصر يتيمة العصاميين العصماء حسن باشا عاصم رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأحسن عزاءنا وعزاء البلاد عنه . واننا نكتب في شأنه كلمات لا نقصد بها مجرد الرثاء والتأبين ، ولا محض الترجمة والتاريخ ، بل العبرة والموعظة للأمة ، عسى ان يكون فيها لأهل الاستعداد حسن الاسوة ،

من هو حسن باشا عاصم الذي يحليه المنار بهذه الألقاب والنعوت مخالفا عادته في ذكر الناس بأسمائهم ؟ من هو حسن باشا عاصم الذي يؤبنه المنار وقد مات كثير من الأمراء والباشوات وكذا العلماء ولم يذكر خبر موتهم ولا عزى البلاد عنهم ؟

كان حسن عاصم رجلا من الرجال الذين تنهض بأمثالهم الأمم اذا كثروا فيها ولو كثر أمثاله في مصر لأذعنت انكلترا بأن المصريين قادرون على أن يحكموا أنفسهم كأرقى أمة أوربية فقد كان اذاً روحا من أرواح الحياة القومية ، وركنا من أركان النهضة المدنية ، وان كان عمله مما كانت تجهله العامة ، وقلما تهتف به ألسنة الخاصة ،

كان ربما يزور هذه البلاد السائح المؤرخ فيقرأ جرائدها ، ويغشى أنديتها ومعاهدها ، و يتحدث مع الخواص والعوام ، والمحكومين والحكام ، فيسمع و يقرأ أخبار الأحزاب ومؤسسيها ، والتحزب لها أو عليها ، والمحاورات في التفاضل بين أفراد ، يقال انهم هم الذين ينهضون بالبلاد ، ولا يسمع لحسن باشا عاصم في هذه المواضع ذكرا ، ولا يقرأ عنه في هذه الصحف خبرا ، فكيف كان لحياة البلاد روحا مدبرا ، ولنهضتها ركنا مشيدا ، والأمة في مجموعها غافلة عنه ، جاهلة عمله ، ويتنازع زعامة النهضة فيها زيد وعمرو ، وخالد و بكر ، ؟

الجواب عن هذا ان الرجل كان فعالا ، ولم يكن قوالا ، وأمتنا في مثل هذا الطور تشغلها الأقوال ، وتغرها الدعاوى العراض الطوال ، ورب قوول كبير الدعوى ، قدير على التغرير ، لو كثر أمثاله في الأمة مازادوها الارهقا ، ولكن

ما كان يعرف حسن باشا عاصم أحد — وكل أهل الفضل في البلاد يعرفونه — الا ويجزم بأنه لو كان فينا عشرون رجلا مثله في صفاته وأعماله انهضوا بنا نهضة لاتخطر في بال الذين يقولون مالا يفعلون ولكانوا حجة لنا على الاجانب لايكابر أحد في دحضها . ولكن يوجد في البلاد مئات أو ألوف يستطيعون أن يقولوا بألسنتهم وأقلامهم مايشتهر بمثله المرء بين العامة قضت عليهم حال المعيشة بأن يكون كسبهم الذي هو قوام معيشتهم بأعمال أخرى

صفات حسن باشا عاصم وأخلاقه

(استقلال الفكر) من الصفات التي تحلى بها هذا الرجل استقلال الفكر والرأي فقد كان لايقلد أحدا في رأيه وانما ينظر في الأمر ويطيل فيه الفكر والتدبر حتى يظهر له الصواب واننا نرى أكثر الرجال قد درجوا على التقليد والتسليم حتى كأنهم لم يخرجوا من الطفولية وهم لايشعرون بذلك لأنهم يظنون انهم مستقلون فيما قبلوه بادي الرأي ولا محل هنا لكشف التلبيس في ذلك

(استقلال الارادة) كان رحمه الله تعالى مستقل الارادة قوي العزيمة أعني انه كان يعمل دائما مايعتقد أنه الصواب والخير والموافق للمصلحة في الواقع ونفس الأمر بحسب اعتقاده وان كان مما يخشى أن يعود عليه بالضرر . وهذا الخلق فينا أضعف من سابقه ولو كان عندنا كثير من الحكام والعاملين الذين يعملون بما يعتقدون انه الخير والمصلحة للبلاد لكنا من أرقى الشعوب فان فينا عددا كثيرا من العارفين بما يجب ولكنهم ضعفاء العزائم فلا يعملون بما يعلمون

(الثبات والاستقامة) كان رحمه الله تعالى كالجبل الراسخ في ثباته على رأيه وعمله واستقامته في سيرته وبهذا كان نافعا في استقلاله وقوة ارادته فان العزيمة تكون في الخير والشر وفي المصلحة الخاصة والمصلحة العامة وتكون للرجل الثابت وللرجل القلب فإن الامعة الذي ليس له رأي مستقر قد يكون ضعيفا في العمل بالرأي قبل أن يتحول عنه وقد يكون قويا . وكان رحمه الله لا يشكو من شيء شكواه من التقلب والتحول في الناس فقد اقترحت عليه غير مرة مشروعات نافعة للأمة مما يكون بالاجتماع والتعاون وكان يجيبني في كل مرة : إنك حسن الظن في الأمة

أكثر مما يجب لأنك لم تختبرها : وقال لي مرة أو غير مرة مامعناه اننا اذا دعونا الى هذا العمل نجد المجيبين اليه كثيرين في أول الأمر ثم يتسللون لو اذا حتى لايبقى منهم من يمكن أن يستمر به العمل

(الصبر والاحتمال) كان على نحافة بدنه آية في الصبر على العمل واحتمال المشقة لا يمل ولا يسأم ولولا الصبر والاحتمال ما كان ثبات ولا استقامة . كان في كل عمل دخل فيه يعمل ما لا يعمله عدة رجال حتى كان يمل ويتململ كل من يشتغل معه لاسيما اذا كان هو رئيسه ولكنه لايستطيع أن يشكو من كثرة العمل مع من يراه يعمل أضعاف عمله . وقد كان يشتغل اخيرا في أربعة ادارات كبيرة في كل يوم فيعجب كل عمالها من صبره وجلده — وهي ادارة القصر العالي وإدارة تركة الأمير محمد ابراهيم وادارة الجمعية الخيرية ومدارسها وادارة الشركة الانكليزية المصرية — هذا وهو غير مهمل لادارة منزله بل مقيم لها على أكمل نظام

(النظام والاتقان) كان عاشقاً للنظام كلفا باتقان كل أمر يشتغل به . فكان كل عمله مرتبا منظماً متقناً حتى قال فيه سعد باشا زغلول انه خلق منظماً بالطبع . ومن يخطر بباله أن صاحب تلك الأعمال الكثيرة كان يشغل ساعات من ليله ونهاره ويشغل معه فيها بعض أصحابه في البحث عن صحة كلمة أو عبارة فيما يطبعه لمدارس الجمعية الخيرية أو لشركة إحياء العلوم العربية ؟ خطر له أن يطبع أجزاء القرآن الكريم لأجل التعليم في مدارس الجمعية بحسب قواعد الرسم لابرسم المصحف المتبع عن الصحابة عليهم الرضوان فبدأ أولا بالبحث عن جواز ذلك واستفتى فيه الاستاذ الامام فأفتاه ووجد نصاً عن الامام مالك بجوازه في مصاحف التعليم ثم كان يستنسخ الأجزاء ويبحث بنفسه مع أهل العلم في الكلم الذي يشتبه في رسمه ككلمة (الضحى تكتب ألفها بصورة الياء أم ملساء والكلمات التى في آخرها ياء تحذف في قراءة حفص لاجل الوقف . فكنا نسهر معه الليالي ذوات العدد نتباحث في هذه الكلمات . ثم ناط ضبط ذلك كله وتصحيح الاصل بالشيخ حسين والي مؤلف كتاب الإملاء ليطبقه على قواعد الرسم بعد مراجعة كتب القراآت لكي لايخرج الرسم عن أداء المتواتر منها ثم انه كان يراجع

بنفسه كل مايصححه الشيخ حسين

وقد عزم منذ أكثر من سنتين على طبع كتاب العمدة في الادب لابن رشيق بنفقة جمعية إحياء العلوم العربية فلما أرسلت اليه المطبعة الاميرية نموذج الملزمة الاولى بعد تصحيح مصححيها لها ومراجعتها مقابلة على النسخ قرأها فتوقف في فهم بعض عبارتها والاحاديث وأبيات من الشعر فيها فراجع كاتب هذه السطور في ذلك في مكتب المنار غير مرة كنا نراجع فيه الأحاديث في كتبها والاشعار في مظانها من كتب الأدب واشترى هو ديوان حسان بن ثابت (رضي الله عنه) لأن فيها شيئًا من شعره وراجع أيضا غير واحد من أصحابه أهل العلم والأدب. وبعد هذا كله لم يأذن بالطبع لأنه بقي في الملزمة عبارة غامضة يرجح انها محرفة وطفق يسأل ويبحث عن نسخة أخرى من العمدة ليجلبها أو يستنسخها من القطر الذي يعلم أنها فيه . وأبى عليه خلق الاتقان وامانة العلم ان يطبعها وهو يعتقد أن فيها تحريفا فتبارك من أنعم عليه بهذه الاخلاق ، ويا ليت الذين يتجرون بطبع الكتب الدينية والعلمية وغيرها يعنون ببعض هذه العناية بالضبط والاتقان

﴿ الجد والرصانة ﴾ كنا نرى كثيرا من الناس ينتقدون منه رصانته وجده في كل وقت وحال وتجنبه الهزل والدعابة وتحاميه المزاح والمفاكهة في الحديث الا قليلا وهذا هو الواجب على من يريد أن يخدم شعبا يعتقد أنه يكثر فيه الطيش والخفة ويغلب على أكثر أفراده الهزل واللهو واللعب في زمن يزاحمه فيه أهل الجد والعمل من الشعوب الأخرى على بلاده وينازعونه جميع مقومات حياته ولولا هذا الخلقان لما قدر على كل ما عمل . ولكننا لا ننكر مع هذا ان استغراق جميع الاوقات في الجد والتزام الرصانة في جميع الأحوال من المبالغة المنتقدة في الفضيلة ولكن لا يقبل انتقادها الا ممن يصرف أكثر أوقاته في الجد ويفرغ في أقلها للاهل والصحب يفاكههم ويمازحهم وينبسط اليهم في الحديث وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول الا حقا

(الاقتصاد والوفاء) اشتهر فقيدنا المبكي بأعين الفضلاء بالمبالغة في الاقتصاد حتى كان بعض الناس يظن فيه البخل والتقتير وهو لم يكن بخيلا ولا مقترا في النفقة بل كان في الانفاق على ما أمر الله تعالى في قوله (٦٥ : ٧ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه) كان يكتب لبيته ميزانية السنة قبل دخولها فيجعل الخرج غير مستغرق للدخل كله ويحصي كل أنواع النفقات ويضيف اليها مبلغا احتياطيا ثم يؤدي كل شيء في وقته فكان يدفع اشتراكات الصحف العربية والافرنجية في أواخر شهر دسمبر من كل سنة واشتراك الجمعية الخيرية في غرة المحرم فيأخذ أول وصل ما وصولات التحصيل وأجور الخدم في أول يوم من كل شهر وثمن كل شيء يشتريه في وقته . ولولا هذا الاقتصاد لما قدر على الوفاء الكامل في المعاملة بأداء كل حق في وقته ولا على الاستغناء عن الاقتراض والاستدانة بالربا

نعم ان اقتصاده المبني على قواعد العلم الحديث والتزامه النظام فيه ومن كل عمل كان يستلزم مخالفة أهل البلاد في بعض الامور مخالفة يستنكرونها فيسمونها بغير اسمها . فمن ذلك أنه كان اذا دعا الى طعامه نفرا من أصحابه وزاره عند وقت الطعام أو قبيله صاحب آخر فانه لا يدعوه معهم بل كان بعض أصدقائه ربما يتعمد أن يقول: بلغني أن فلانا وفلانا سيأكلان العشاء عندك وأحب أن أكون معهم : ليجيبه بحريته المعهودة : انه ليس لك كرسي على المائدة في هذه الليلة : وذلك أنه رحمه الله تعالى كان يهيء الطعام على قدر حاجة الآكلين المعلومين بلا تقتير ولا تبذير . وكيف يوصف بالتقتير من كان خدمه يأكلون من جميع ما يأكل منه أهل البيت وضيوفهم من الالوان والحلوى حتى الفاكهة في الشتاء

وبلغ من اقتصاده في مال الجمعية الخيرية أنه كان لا يرمي ورقة مكتوبة من الاوراق التي لم تبق من حاجة اليها الا بعد أن يقص منها ما عدا المكتوب ان كان ينتفع به بإمكان كتابة شيء عليه . ووقع لي معه دقيقة من هذه الدقائق أذكرها مثالا وهي أنني جئت مرة قصر عابدين أبغي لقاء الأمير وكان هو رئيس التشريفات فأرسلت اليه بطاقة الزيارة للاستئذان ولما هممت بالخروج من حجرته قال لي خذ هذه البطاقة — وكانت لا تزال في يده — فانها أدت وظيفتها الآن ويمكن أن تؤديها مرة أخرى : فقلت له ذكرتني هذه الدقة في الاقتصاد كلمة للامام الغزالي وهي أن الميزان الذي لا يرجح بالحبة لا يرجح بالقنطار لأن القنطار مؤلف من الحب

فاذا ألقي في الميزان حبة بعد حبة لم يكن الرجحان الا بحبة : فأعجبه هذا القول وكان يتمثل به

ومن الناس من يهزأ بهذه الدقائق ويعدها من الصغائر التي لا تنبغي لأهل النفوس العالية . وهذا خطأ وجهل يزينه لصاحبه الاسراف والخرق واعتياد الخلل والحرمان من النظام فان الكاتب (الخطاط) الذي لا يعنى بكل حرف من الكلمة لا يكون مجموع خطه كامل الحسن، والبناء الذي لا يعنى بضبط كل حجر ينحته لا يكون بناؤه رصينا محكما، والمصور الذي لا يدقق في إحكام تصوير كل عضو لا تأتي صوره مطابقة لما صوره . وهكذا يضيع المال الكثير في غير فائدة من يفرط في حفظ القليل بوضعه في غير موضعه

ان كثيرا من المسرفين الذين يسميهم الحمقى أسخياء وأجوادا يمطلون أصحاب الحقوق ويلوونهم وهم واجدون ما يفون به ولا يكادون يبذلون شيئا في سبيل الله واذا خرج منهم الحق لا يخرج الا نكدا ولكنهم يراؤن الناس باضاعة المال في أمور لا يحمد فاعلها عند العقلاء ولا يؤجر عند الله . ومنهم الذين يضيعون ما ورثوا من الثروة الواسعة أو غير الواسعة فيقعون في الذل الموجع ، والفقر المدقع ، وما أكثرهم في هذه البلاد ولكن أكثر الناس لا يعتبرون

قال الفقهاء يكره في الوضوء ان يغسل المتوضىء العضو أكثر من ثلاث مرات لان ذلك من الاسراف ولو كان يتوضأ من البحر الا ان يكون له حاجة أخرى في الزيادة كالتبرد ولكن لا ينوي بها العبادة وقالوا ان حكمة الشرع في ذلك هي أن تتعلم الامة الاقتصاد في الامور كلها فلا تفرط في شيء وتضيعه في غير منفعة وان لم يكن في اضاعته ضرر

أي ضرر يتصور أن يصيب الأمة لو جرى جميع أفرادها على طريق حسن باشا عاصم في الاقتصاد . لا يضيعون شيئا بوضعه في غير موضعه ولا يؤخرون حقا عن مستحقه ويجتهدون في السبق الى مساعدة الجمعيات الخيرية؟ أما والله ان أمة يكثر فيها أهل هذا الخلق لجديرة بأن تكون أسعد الامم (للترجمة بقية)

(يصدر هذا الجزء من المنار في سلخ شوال وهو شهر سلخ رمضان)

﴿ الاحتفال بالعقد الاول من عمر المنار ﴾

أنشئ المنار في سنة ١٣١٥ وصدر العدد الأول منه في مساء اليوم ٢٢ من شهر شوال من تلك السنة ثم زحزحنا أول سنته الى غرة ذي القعدة ثم الى أول المحرم فصارت السنة الهجرية هي سنة المنار الحسابية منذ سنته الخامسة أي سنة ١٣٢٠

وفي أوائل هذه السنة وهي العاشرة خطر لاسماعيل بك عاصم الخطيب والمحامي الشهير أن يقيم في داره احتفالا ينوه فيه ببلوغ المنار هذه السن من عمره ولكن عرض له سفر قضى بإرجاء ذلك وعاد الى مصر قبيل شهر رمضان وذاكرني في ذلك فأخبرته بتاريخ انشاء المنار فسر بذلك وعزم على ان يجعل الدعوة الى الاحتفال في مثل اليوم الذي صدر فيه أول عدد منه وهو ٢٢ شوال فوزع رقاع الدعوة على أصحاب المجلات الشهيرة في مصر ومحرريها ليجتمعوا مساء ذلك اليوم في داره بالعباسية ويكون الاحتفال في ليلة ٢٣ وهي أول ليلة ظهر في مثلها المنار وكذلك كان

للمنار في مصر محبون كثيرون من علية القوم ومنهم من يقدر على مالا يقدر عليه اسماعيل بك عاصم من خدمة الاصلاح بالتنويه به والعون على زيادة انتشاره ولكن اسماعيل بك عاصم ابتكر هذا النوع من الاصلاح لا بسانحة عرضت أو فكرة سنحت كما ظن بعض من لا يعرف كنه الرجل بل أرشدته الى ذلك فطرته وهدته اليه ملكة راسخة فيه هي حب الاجتماعات العلمية والادبية ونشر الآراء والحكم النافعة فكم سبق له من تأليف الجمعيات ومن مساعدة المؤلفين لها بالمال والقال على قدر الحال كما أخبرني الثقة وشاهدت في جمعية مكارم الاخلاق . ويدخل في هذا الباب مساعدته لفن التشخيص أو التمثيل بتأليف القصص وإبداعها ما يراه مناسبا لاهل البلاد من انتقاد العادات الضارة والترغيب في الآداب النافعة وبالعون على تمثيلها بالمال فقد سمعت الشيخ سلامه مدير دار التمثيل العربي وأشهر الممثلين يقول: انه كان يؤلف الرواية ويعطي (الجوق) ستين جنيها اعانة له على تمثيلها بمصر: على أن غيره لا يبيع القصة بأقل من هذا الثمن

ذكرت هذا قبل الكلام عن كيفية الاحتفال لبيان بعض مزايا المحتفل لمن لا يعرفها من قراء المنار في الشرق والغرب وفي مصر أيضا فإنني سمعت كثيرين يقولون

بلهجة الاعجاب والتعجب كيف خطرت لفلان هذه الفكرة يظنون انها سانحة عرضت ، لم تأت عن ملكة رسخت

اسماعيل بك عاصم يطالع المنار بدقة متتبعاً سير الإصلاح فيه وكثيرا مايذاكرني في مسائل منه يعجب بها فضل إعجاب ومسائل ينتقدها أويري فيها غموضاً أو إيهاماً فعلمه بخدمة المنار علم تفصيلي وله عنده منزلة خاصة عبر عنها بهذا الاحتفال الذي يحب أن يجعله سنة دائمة فجزاه الله عن عمله وعن نيته خير الجزاء

أجاب الدعوة الى الاحتفال عشرون مدعوا تجمعهم رابطة العلم والأدب اجتماعا لايفرقه الاختلاف في الجنس فان منهم العربي (وهم الأكثر بالطبع) والفارسي كالدكتور محمدمهدي خان صاحب مجلة (حكمت) والتركي كالدكتور جودت بك صاحب مجلة (اجتهاد) ولا الاختلاف في الوطن فإن منهم المصري والسوري وغير ذلك ولا الاختلاف في الدين فان منهم المسلم والنصراني القبطي وغير القبطي واليهودي (وهو فرج أفندي مراد المحامي محرر مجلة التهذيب الدينية الأدبية لطائفة القرايين)

تم اجتماع القوم بعد العشاء الآخرة في الساعة السابعة مساء وكانوا قد أقبلوا فرادى ومثنى وثبات . وطفقوا يتسامرون بألطف الكلام والبشر يتدفق من وجوههم سرورا بهذا الاحتفال ، الذي ألف بين الآلاف والاشكال ، وصاحب الدعوة كان يقابل كل واحد بالحفاوة والبشر حتى كأن سروره بهم يرجح بسرور مجموعهم . وفي أثناء الساعة الثامنة دعوا الى حجرة المائدة فانتظموا حولها كعقد اللؤلؤ المنظوم ، أو كمنطقة مؤلفة من النجوم ، ولا بدع فهم نجوم الهداية الى الآداب والعلوم ، وقد أعجبوا بذوق صاحب الدعوة ورب الدار ، فيما على المائدة من تنسيق الرياحين والأزهار ، واختيار أنواع الفاكهة والثمار ، مع حسن نظام الدار ، ومايزينها من تألق الأنوار ، فإنه جلب اليها صنوف الفاكهة السورية كالعنب الزيني والزعرور اللبناني وحب الآس وغير ذلك علما منه بأن المحتفل لاجله ونحو نصف المدعوين وهم سوريون يحنون بذلك الى ماألفوا في سن الصبا ، وأن سائر المدعوين يسرون منه بجدة الطريف ، ومازال الانسان يحن الى غير المبذول المعروف ،

مكثوا نحو ساعة ونصف يمزجون أطايب الطعام ، بأطايب الكلام ، ويجمعون بين أحاسن الفاكهة ، وأحاسن المفاكهة ، ثم طافت القناني على الاكواب ، تترعها بالماء الغازي (الغازوزه) الممزوج بأحلى الشراب ، فأكلوا هنيئا مريئا ، وشربوا حلالا طيبا ، وبعد الطعام قام صاحب الدعوة خطيبا ، مرحبا بالقوم ترحيبا ، فألقى الخطبة التي نشرناها في هذا الجزء من المنار ، وزاد عليها نحوها من عقائل الكلام ورقائق الاشعار ،

وههنا أقول إن اسماعيل بك عاصم قد اعتاد ارتجال الخطب ولم يتعود تأليفها وحفظها ثم تلاوتها كما يفعل كثير ممن يدّعون الخطابة فضلا عن كتابتها وتلاوتها في الورق . ولكنه في هذه المرة خالف عادته وكتب الخطبة التي نشرناها وطبعها ليوزعها على من يحضر الاحتفال ولكنه غلب عليه ماتعود فألقاها بالمعنى غالبا وزاد فيها مافتح عليه ارتجالا وكان مما زاده الثناء على هذا العاجز بأكثر مما في الخطبة فأخجلني ذلك جدا

قمت بعد إتمامه ماجاد به لأشكر له ولاخواني الحاضرين فضلهم وأقول شيئا يناسب المقام فأوحى الي سلطان الخجل الذي كان يحكم في وجداني حكما استبداديا لاطاقة لي بدفعه أن كل مايمكن أن أقوله من الشكر أو الكلام في الاصلاح والعلم فهو يتضمن الثناء على نفسي وأرتج عليّ أو كاد حتى لم أجد من القول الا الاعتذار عن الشكر بالعجز عنه اذ لم أوت جراءة الخطيب وطلاقته وعن الكلام في المسائل العلمية والادبية بأني أفتح عيني فلا أرى أمامي الا العالم النحرير ، أو الكاتب البارع في التحرير ، أو الفيلسوف المدقق ، أو المؤرخ المحقق ، فماذا عساني أفيد هؤلاء الفحول ، وهم أعلم مني بكل مايمكن أن أقول ، قلت ولو أنهم في مجتمع عظيم من سائر طبقات الناس لكان يتيسر لي ان أصرف بصري عنهم ، وأخاطب بما يفتح عليّ غيرهم ، فقبلوا بكرمهم العذر ، وأعجبهم الاعتراف بالعجز ، ولكنهم لتواضعهم عدوه من التواضع

ثم قام يعقوب أفندي صروف الدكتور في العلم والفلسفة ومحرر مجلة المقتطف المفيدة فألقى خطابا مفيدا افتتحه بقوله انه عند ماقدم السيد رشيد رضا الى هذه الديار كتب الي بعض أهل العلم (وذكر اسمه) كتابا يقول فيه انه قد ظعن

الى مصر عالم واسع الاطلاع قادر على البيان والافصاح عن علمه حر لا يخاف في ابداء ما يعتقد شيئاً . فلما اطلعت على العدد الاول والثاني من المنار جزمت برأي قلته وكتبته بعد ذلك غير مرة وهو ان اخواننا المسلمين سينظرون في المستقبل الى صاحب المنار وكذا الى المرحوم المفتي (يعني الاستاذ الامام) كنظر النصارى في أوربا الى لوثير وكلفن

ذلك أيها السادة لأن الدين له أعظم تأثير في الاحوال الاجتماعية فما من مدنية قامت في العالم الا وكان أساسها الدين . اننا لا نبحث في أصول الاديان لأنا كلنا نعتقد أنها من الله فهي فوق البحث ولكن فهم الناس للدين هو الذي يصدهم عن المدنية أو يسوقهم اليها فقد كان أهل أوربا يفهمون الدين المسيحي فهما حال بينهم وبين العلم والمدنية عدة قرون وبعد ان قام فيهم لوثير وأنصاره بالاصلاح الديني تغير فهم الناس للدين تغيرا كان مبدأ لمدنيتهم الحاضرة . وقد كان العرب من قبل يفهمون الاسلام فهما دفعهم الى المدنية والعلوم ثم انقلبت الحال وصار المسلمون محتاجين الى إصلاح يجمع بين الدين والمدنية وأن فلانا هو الذي أخذ على نفسه القيام بهذا الاصلاح في مجلته المنار التي اجتمعنا للاحتفال بها في هذه الليلة اجابة لدعوة صديقنا الخطيب الفاضل والمحامي الشهير اسماعيل بك عاصم . ان صاحب المنار يقاوم البدع والخرافات ويشرح الدين شرحا يسهل سبيل المدنية ويهدم العقبات التي تعترض سالكيها ويبين كيفية سلوكها فهو يهدم ويبني في وقت واحد

ثم ذكر ان هذا العمل يسر المسيحيين وغيرهم من سكان الشرق ويعدونه خدمة عامة لا خاصة بالمسلمين لأنهم يعلمون ان الشرق الادنى لا يرتقي الا اذا ارتقى المسلمون اذ هم العنصر الاكبر فيه وأثنى على هذا العاجز المحتفل لاجله وأشار الى ما لقيه من المصاعب وصبره عليها وعلى اسماعيل بك عاصم بما يليق بغيرته على العلم وحبه له واكرامه لأهله ،

هذه فحوى مافاه به الدكتور الحكيم ملخصا وقد كان موضوع الاعجاب والاستحسان كما يليق بما فيه من الابداع والاحسان ، نطق بذلك كل لسان بعد ما نطقت بالتصفيق اليدان ،

ثم قام سيد أفندي محمد صاحب المجلة المدرسية (وناظر المدرسة التحضيرية الكبرى) وارتجل خطبة ضافية الذيول ، متدفقة السيول ، مدح فيها العلم وأهله ، وحمد فيها المحتفل وأطرى المحتفل لأجله ، ومما قاله انه عرف صاحب المنار ، أول مقدمه لهذه الديار ، وعلم ان سينشيء صحيفة إصلاحية فيها لذلك كان من المواظبين على قراءة المنار والاستفادة منه منذ ظهر الى الآن . وأنه لم يكن قبل المنار يسمع صوتا ولا يرى كتابة تنشر في مقاومة البدع والخرافات . ثم ذكر مالقي المنار من المقاومة والمعاداة وصبر صاحبه على ذلك حتى تم نوره وعم ظهوره وانتشر تعليمه وانتفع الناس به وصرح بأن المقاومين له من العلماء وغيرهم قد انتفعوا هم أنفسهم به وصاروا يفكرون في حالهم ومآلهم وما ينبغي ان يكونوا عليه في هذا العصر . وقد بالغ في إطراء هذا العاجز وتحليته بالألقاب التي لا يستحقها اذ لم يكن يشير اليه الا بكلمة « استاذنا » وما يصله بها من النعوت العالية فجزاه الله عن حسن ظنه بأخيه خيرا . وقد أثنى على المحتفل الكريم في فاتحة القول وختامه ، بل في كثير في أجزائه وأقسامه ، وصفق له السامعون مراراً

ثم قام توفيق أفندي عزوز صاحب مجلة المفتاح خطيبا وهو من كتاب وخطباء القبط . أصهار الرسول صلى الله عليه وسلم فذكر ان مجلته قريبة من مجلة المنار في السن فهي في السنة التاسعة من عمرها وأفاض في تفضيل المجلات على الجرائد وأثنى على المحتفل وهنأ المحتفل لأجله

وكان حسن بك حماده صاحب مجلة الأحكام الشرعية قد أعد شيئاً وكتبه ليجعله أصلا لخطبة يلقيها فضاق الوقت باطالة الخطيبين الأخيرين فمنعه كغيره عن الخطابة فأعطاني ما كان كتبه وهو بنصه :

«لو مضت سنة الادب بأن لا يهنأ الشخص بسارّ، الا بعبارة تحيط بوصفه، مسبوكة في قالب من البلاغة مساو لبلاغته ، لوجب على حضرة الاخ الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر أن يقوم بتهنئة نفسه ويؤدي هذا الفرض عن هذا العاجز ولكن الله سبحانه وتعالى يقبل شكر عباده على قصورهم عن أداء واجبه وصاحب المنار خير من تخلق بخلق مولاه فأطلب اليه أن يتقبل

تهنئة هذا الضعيف له على ثبات ارادته ومغالبته لما اعترضه من الصعاب في سبيل عمله الجليل الذي يؤديه للعالم الاسلامي بل العالم الانساني .

اذا قضى واجب الوطنية والتابعية علينا مرة بمشاطرة صاحب المنار الاغر السرور بهذا العيد الادبي فان واجب الدين الذي وقف صاحب المنار نفسه لخدمته، وصرف مواهبه في الذب عن حوضه، يوجب علينا ذلك مرات كثيرة، وقد ضمنا من ورائهما أدب أقمناه مقام الوالد .

واني أحس كما يحس كل صادق في خدمة العلم الصحيح ساع في خير الانسانية وبعبارة أجلى كما يحس كل شخص ضمته حاشيتا هذا المحفل الزاهر بأن نجاح صاحب المنار الاغر، وقطعه لهذا العقد من السنوات خطوة واسعة في ارتقاء الآداب، ودرة ثمينة في تاج المجلات التي تصدر في هذا القطر المبارك، بل فخر لحياة المجلات التي تصدر في الشرق أجمع .

واني عن مجلة الاحكام الشرعية أحيي مجلة المنار الاسلامي بدخولها في العقد الثاني من حياتها المباركة واسأل الله لصاحبها الفاضل النجاح والتوفيق فيما قصد .

هذا وليس بعجيب أن يقوم حضرة الاصولي المفضال اسماعيل عاصم بك الخطيب الشهير بمظاهر هذا العيد فطالما خدم العلم والادب وكانت له اليد الطولى على الجمعيات الادبية في مواطن كثيرة وله منا جميعاً أجمل الشكر ومن الله تعالى جزيل الاجر والسلام » اهـ

وقدم الينا التلميذ النجيب محمود أفندي رمزي التاريخ الآتي فننشره شكرا له وتنشيطا

مؤسس عيد المنار على الـمعارف والسنن الطاهره
دعوت الجهابذة العالمين وأهل المعارف في القاهره
ومن كل شهم اذا ما تحدث ينطق بالدرر الساحره
ليحيى المنارُ وربُّ المنار وعاصم والسادة الحاضره
بعيد المنار فأرخ الا يمن لقد بلغ العاشره

٣٢ ١٠٢ ١٣٤ ١٠٣٢ ٦٠٧

وانصرف القوم منتصف الليل حامدين رب الدار، مهنئين داعين باطالة عمر المنار وصاحبه

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الالباب

المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر شوال سنة ١٣٢٥ — آخره الخميس ٥ ديسمبر (ك ١) سنة ١٩٠٧)

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

بعد أن أمر سبحانه وتعالى بأن تكون منا أمة تدعو الى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وبين أن أولئك هم المفلحون دون سواهم لأنهم هم الذين يقيمون الدين ويحفظون سياجه وبهم تتحقق الوحدة المقصودة منه — نهانا عن التفرق والاختلاف الذي يذهب بتلك الوحدة ويتعذر معه القيام بتلك الدعوة الصالحة فقال عز من قائل ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ وهم أهل الكتاب تفرقوا في الدين وكانوا شيعا كل شيعة تذهب مذهبا يخالف مذهب الأخرى وصار كل ينصر مذهبه ويدعو اليه ويخطئ ماسواه حتى تعادوا واقتتلوا على ذلك (راجع تفسير « ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات » في ص ٧ ج ٢ من التفسير) ولو كانوا أمة أو كان فيهم أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر معتصمين بحبل واحد متوجهين الى غاية واحدة لما تفرقوا في المقاصد ولو لم يتفرقوا لما اختلفوا في الدين وتعددت فيهم المذاهب

في أصوله وفروعه حتى قاتل بعضهم بعضا . فلا تكونوا مثلهم فيحل بكم ما حل بهم

فهذه الآية متممة لقوله تعالى « واعتصموا بحبل الله » وما بعدها فالاعتصام بحبل الله هو الاصل وبه يكون الاجتماع والاتحاد الذي يجعل الأمة كالشخص الواحد والدعوة الى الخير هي التي تغذو هذه الوحدة وتمدها وتنميها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقوم به أمة قوية هو الذي يحفظها ويؤيدها ويشد أزرها . قال الاستاذ الإمام ان هذه الآية كالدليل على أنه يجب أن تكون وجهة الأمة الداعية الآمرة الناهية واحدة لأن الذين سبقوهم ما أفلحوا لعدم وحدتهم كأنه يقول لا يمكن أن تتكون فيكم أمة للدعوة والأمر والنهي الا اذا اجتمعت على مقصد واحد فالترتيب في الآيات طبيعي اذ من البديهي ان المتفقين في المقصد لا يختلفون اختلافا ضارا ينافيه وانما يقع الاختلاف بعد التفرق في المقاصد والتباين في الاهواء بذهاب كل الى تأييد مقصده وإرضاء هواه فيه والاختلاف في الرأي لاجل تأييد المقصد المتفق عليه لا يضر بل ينفع وهو طبيعي لا مندوحة عنه

أقول وقد أورد الامام الرازي لاتصال هذه الآية بما قبلها قولين أقربهما ثانيهما وان كان الاول منهما صحيحا في نفسه فقال: «في النظم وجهان (الأول) انه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة انه بين في التوراة والانجيل ما يدل على صحة دين الاسلام وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم ذكر ان أهل الكتاب حسدوا محمدا (ص) واحتالوا في إلقاء الشكوك والشبهات في تلك النصوص الظاهرة . ثم انه تعالى أمر المؤمنين بالايمان بالله والدعوة الى الله . ثم ختم ذلك بأن حذر من مثل فعل أهل الكتاب وهو إلقاء الشبهات في هذه النصوص واستخراج التأويلات الفاسدة الرافعة لدلالة هذه النصوص فقال ولا تكونوا أيها المؤمنون عند سماع هذه البينات كالذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم في التوراة والانجيل تلك النصوص الظاهرة . فعلى هذا الوجه تكون من تتمة جملة الآيات . (والثاني) وهو انه تعالى لما أمر بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك مما لا يتم الا اذا كان الآمر بالمعروف قادرا على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغالبين ولا تحصل هذه القدرة الا اذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق

والدين لاجرم حذرهم تعالى من الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سببا لعجزهم عن القيام بهذا التكليف . وعلى هذا الوجه تكون هذه الآية من تتمة الآية السابقة فقط » اه وما قاله صحيح ولكن الوجه في تفسيرها واتصالها بما قبلها هو ما جرينا عليه آنفا

وعلم مما بينا ان الاختلاف المنهي عنه هو ما كان ناشئا عن التفرق لا كل اختلاف وان كان في وسائل تأييد المقصد مع حسن النية الذي لا يدوم معه خلاف واذا دام في مسألة فانه لا يضر لأنه لا يترتب عليه اختلاف في العمل اذ المتفقون المخلصون يرجع بعضهم الى قول من ظهر على لسانه البرهان منهم والا عملوا برأي الاكثرين فيما لا يظهر للأقلين برهانه . قال الاستاذ الامام ولا نخوض في أقوال المؤولين المتمسكين بالألفاظ على الطريقة التي يعبرون عنها بالتحقيق والتدقيق كحمل بعضهم التفرق على ما يكون في العقائد والاختلاف على ما يكون في الاحكام وادعاء بعضهم انهما بمعنى واحد فالآية ظاهرة المعنى: أقول ومن الاقوال التي أوردها الرازي انهم: تفرقوا بسبب التأويلات الفاسدة ثم اختلفوا بأن حاول كل منهم نصرة مذهبه : وهذا واقع ولكنه تفسير للاختلاف في المذاهب وما ينشأ عنه وكله أثر للتفرق . ومنها انهم: تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من أولئك الاحبار رئيسا في بلد ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي انه على الحق وان صاحبه على الباطل : قال الامام الرازي بعد ايراد هذا القول « وأقول انك اذا انصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة فنسأل الله العفو والرحمة » اه

أقول وتبع الرازيَّ في قوله هذا في العلماء نظام الدين الحسن النيسابوري في تفسيره (كعادته) فقال بعد ذكر تفرق الاحبار واختلافهم « ولعل الانصاف أن أكثر علماء الزمان بهذه الصفة فنسأل الله العصمة والسداد » اه وسبقهم حجة الاسلام الغزالي الى بيان سوء حال العلماء في الاختلاف ما عدا الافراد الذين ينكرون التقليد ويقولون بوجوب الاعتصام بحبل الله وهو كتابه وعدم التفرق والاختلاف . ولكن صوت هؤلاء الافراد لا يسمع بين جلبة جمهور العلماء لا سيما أصحاب المناصب والحظوة عند الامراء والملوك الذين يدعمون سلطتهم بجمهور العلماء الذين يتبعهم العامة .

ومن العجيب أن هؤلاء العلماء الافراد الذين تنبهوا في القرون الوسطى الى سوء حال علماء الاسلام الذين يلقبهم الغزالي بعلماء السوء لم يحاولوا معالجة هذا الداء واصطلام أرومته وهي تفرق المذاهب والتعصب لها بالدواء الذي وصفه الله تعالى في كتابه وهو تأليف أمة تدعو الى الاعتصام وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر بل اكتفى بعضهم بالشكوى من ذلك وانكاره في الكتب التي يؤلفها كالامام الرازي أو باللسان لبعض تلاميذه كما نقل الرازي عن أكبر شيوخه في تفسير قوله تعالى (٩: ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا) فانه بعد تفسير اتخاذهم أربابا بطاعتهم فيما يحللون ويحرمون كما ورد في الحديث المرفوع قال ما نصه

« قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض مسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها وبقوا ينظرون الي كالمتعجب . يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها . ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الاكثرين من أهل الدنيا » اه

أقول إن الرازي رحمه الله تعالى كان يقرر هذه الحقيقة عند ما يفسر آياتها وينساها في مواضع أخرى فيتعصب للأشعرية في أصول العقائد وللشافعية في فروع الفقه لاسيما فيما يخالفون فيه الحنفية وهذا هو أصل الداء الذي يشكو من بعض أعراضه عند الكلام في مسائل الخلاف مع الغفلة عن سببها . أما الامام الغزالي فقد تجرد عن التعصب للمذاهب كلها في نهايته ووصف الدواء في بعض كتبه كالقسطاس المستقيم (راجع ذلك في ص ١٢ من الجزء الثاني) ولكنه لم يوفق الى تأليف أمة تدعو اليه وتقوم به

واذا كان الرازي وشيخه يقولان في علماء القرن السابع والغزالي يقول في علماء القرن الخامس ماقالوا فماذا نقول في أكثر علماء زماننا وهم يعترفون بما نعرفه من كونهم لا يشقون لأولئك غبارا؟ ألسنا الآن أحوج الى الاصلاح منا اليه في تلك العصور، التي اعترف هؤلاء الائمة بأن الظلمات فيها غشيت النور، حتى ضل بالاختلاف

الجمهور، ؟ بلى وهو مانعاني فيه مانعاني والى الله ترجع الامور ،

وقوله تعالى « من بعد ماجاءهم البينات » يفيد أن الانسان لا يؤاخذ على ترك الحق أو اتباع الباطل الا اذا بين له ذلك حتى تبين أو صار بحيث تبين له لو نظر فيه والجهل ليس بعذر بعد البيان ، كما هو المقرر عند العقلاء والحكام في كل مكان ،

قال تعالى في المتفرقين المختلفين بعد مجيء البينات { وأولئك لهم عذاب عظيم } فهذا الوعيد يقابل الوعد الكريم في الآية التي قبل هذه الآية بقوله تعالى في الداعين الى الخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر « أولئك هم المفلحون » فالفلاح في ذلك الوعد يشمل الفوز بخير الدنيا والآخرة . والعذاب في هذا الوعيد يشمل خسران الدنيا والآخرة . قال الاستاذ الامام مامعناه : أما عذاب الدنيا فهو أن المتفرقين المختلفين الذين اتبعوا اهوائهم، وحكموا في دينهم آراءهم ، يكون بأسهم بينهم شديدا فيشقى بعضهم ببعض ثم يبتلون بالأمم الطامعة في الضعفاء فتذيقهم الخزي والنكال ، وتسلبهم عزة الاستقلال ، وأما عذاب الآخرة فقد بين الله في كتابه انه أشد من عذاب الدنيا وأبقى .

وفي هذا المقام أورد الاستاذ الامام هذا السؤال : هل قام المسلمون بذلك الأمر « ولتكن منكم أمة » وانتهوا عن هذا النهي « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا » وجعل ذلك مجالا لتفكر طلاب العلم وأما جوابه هو فكما نقلناه عن الامام الرازي وعن شيخه . والامر ظاهر في نفسه وفي الوعد والوعيد المذكورين آنفا واذا كان لا يزال في علماء الرسوم منا من يقول ويعتقد أن المسلمين في فلاح وفوز فقد علم سائر المسلمين من جميع الطبقات في أكثر البلاد أنهم قد فقدوا عزهم واستقلالهم وأنهم معذبون بما فقدوا وبما يتوقعون أن يفقدوا مما بقي لهم . وأن أذكياء شعوبهم يسأل بعضهم بعضا على بعد الدار وقربه عن طريق علاج الداء ، قبل الايداء ، والتماس الشفاء ، قبل الاشفاء ، والعلاج بين أيديهم فمتى يبصرون ، والطبيب يناديهم فأنى يسمعون ، ؟ عسى أن يكون ذلك قريبا

ذلك العذاب العظيم يكون للمتفرقين المختلفين { يوم تبيض وجوه وتسود وجوه } قيل ان بياض الوجوه وسوادها من باب الحقيقة وأن ذلك يكون يوم القيامة

خاصة واحتج صاحب هذا القول بمثل قوله تعالى (٣٩ : ٥٩ و يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) وقيل وهو الراجح انه من باب الكناية . قال الراغب في مادة (بيض) من مفرداته بعد ذكر الآية « ولما كان البياض أفضل الالوان عندهم كما قيل : البياض أفضل، والسواد أهول ، والحمرة أجمل ، والصفرة أشكل: عبر عن الفضل والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يتدنس بمعاب : هو أبيض الوجه : وقوله تعالى « يوم تبيض وجوه » فابيضاض الوجوه عبارة عن المسرة واسودادها عن الغم وعلى ذلك (١٦ : ٥٨ واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا) وعلى نحو الابيضاض قوله تعالى (٨٠ : ٣٨ وجوه يومئذ ضاحكة مستبشرة » اه

وقال في مادة (سود) « السواد اللون المضاد للبياض يقال اسودّ واسواد قال « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » فابيضاض الوجوه عبارة عن المسرة واسودادها عبارة عن المساءة ونحوه (١٦ : ٥٨ واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) وحمل بعضهم الابيضاض والاسوداد على المحسوس والأول أولى لأن ذلك حاصل لهم سودا كانوا في الدنيا أو بيضا . وعلى ذلك قوله في البياض (٧٥ : ٢٢ وجوه يومئذ ناضرة » وقوله في السواد (٧٥ : ٢٤ ووجوه يومئذ باسرة) ٨٠ : ٤٠ ووجوه يومئذ عليها غبرة ٤١ ترهقها قترة) وقال (١٠ : ٢٧ وترهقهم ذلة كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما) وعلى هذا النحو ماروي أن المؤمنين يحشرون غرا محجلين من آثار الوضوء » اه

وأورد الرازي في تأييد هذا الاستعمال الشائع شعـرا لبعضهم في الشيب

يا بياض القرون سودت وجهي … عند بيض الوجوه سود القرون
فلعمري لأخفينك جهدي … عن عياني وعن عيان العيون
بسواد فيه بياض لوجهي … وسواد لوجهك الملعون

أقول ولا يزال هذا الاستعمال شائعا عند كل ناطق بالضاد لاسيما وصف الكاذب بسواد الوجه * فتعجبوا لسواد وجه الكاذب * هذا هو الراجح في تفسير الآية وفاقا للراغب ولأبي مسلم والمختار عند الاستاذ الامام إذ حمل العذاب في الآية على عذاب الدنيا وعذاب الآخرة جميعا . ويدل على مايكون في

الآخرة الآيات التي ذكرناها آنفا في بحث استعمال السواد والبياض في المعاني اذ فيها التصريح بذكر ذلك اليوم . وأما مايكون في الدنيا فقد قال الاستاذ الامام في بيانه ما مثاله :

اما المتفقون الذين جمعوا عزائمهم وارادتهم على العمل بما فيه مصلحة أمتهم وملتهم واعتصموا واتفقوا على الأعمال النافعة التي فيها عزهم وشرفهم وأصبح كل واحد منهم عونا للآخر ووليا له فأولئك تبيض وجوههم - أي تنبسط وتتلألأ بهجة وسرورا - عند ظهور أثر الاتفاق والاعتصام ونتائجهما وهي السلطة والعزة والشرف وارتفاع المكانة وسعة السلطان . وهذا الأثر ظاهر في الامم المتفقة المتحدة التي يتألم مجموعها اذ أهين واحد منها في قطر من أقطار الارض بعيد أو قريب وتجيش جميعها مطالبة بنصره والانتقام له لأنه ظلم وأهين ولا يصح عندها ان يكون منها ثم يظلم أو يهان وتكون هي راضية ناعمة البال . أولئك الاقوام ترى على وجوههم لألاء العزة وتألق البشر بالشرف والرفعة وهو ما يعبر عنه ببياض الوجه : وأما المختلفون لافتراقهم في المقاصد ، وتباينهم في المذاهب والمشارب ، الذين لا يتناصرون ولا يتعاضدون ولا يهتم افرادهم بالمصلحة العامة التي فيها شرف الملة وعزة الامة فهم الذين تسود وجوههم بالذلة والكآبة يوم تظهر عاقبة تفرقهم واختلافهم بقهر الاجنبي لهم ونزعه السلطة من أيديهم . والتاريخ شاهد على صدق هذا الجزاء في الماضين ، والمشاهدة أصدق وأقوى حجة في الحاضرين

﴿ فاما الذين اسودت وجوههم ﴾ فيقال لهم ﴿ أكفرتم بعد ايمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ قال الاستاذ الامام يقال لهم هذا القول في الدنيا وفي الآخرة أما في الدنيا فلا بد أن يوجد في الناس من يقول للأمة التي وقع لها ذلك مثل هذا القول تغليظا عليها لأن عملها لا يصدر الا من الكافرين وأما في الآخرة فيوبخهم الله بمثل هذا السؤال

وأقول يجوز أن يكون المراد بيان الشأن لا الحكاية عن قول لساني يقع بالفعل والمعنى أن شأنهم حينئذ أن يقال فيهم أولهم ذلك القول بل هذا هو المتعين عندي والكلام في الأمم لافي الأفراد . والكفر في عرف القرآن ليس خاصا بما يعده

الفقهاء والمتكلمون كفرا كما بيناه غير مرة (راجع تفسير «٢ : ٢٥٤ والكافرون هم الظالمون» في أوائل الجزء الثاني) فمن عرفه أن المتفرقين في الدين يعدون من من الكفار والمشركين كما قال (٣٠ : ٣١ ولا تكونوا من المشركين ٣٢ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) وقال عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم (٦ : ١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فمن تذكر هذا لا يتوقف في فهم الآية التي نفسرها ولا يجيز لنفسه صرفها عن ظاهرها لاجل مطابقة عرف الفقهاء الذين ترجع مسائل الكفر بعد الايمان عندهم الى جحد المجمع عليه المعلوم من الدين بالضرورة وفي معناه كل ما اعتقد المكلف أنه من الدين ثم كذبه . ولكن القرآن يعد الخروج من مقاصد الدين الحقيقية بالعمل من الكفر وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة ان الايمان اعتقاد وقول وعمل وله شعب كثيرة من أعظمها تحري العدل واجتناب الظلم (مثلا) فمن استرسل في الظلم حتى صار صفة له كان كافرا كما قال تعالى (٢ : ٢٥٤ والكافرون هم الظالمون) فاذا كان الظالمون كافرين في عرفه فكيف لا يكون المتفرقون المختلفون كافرين والاعتصام بالوحدة وترك التفرق والاختلاف من أعظم شعبه بل ذلك هو أساسه الذي لا يثبت بناؤه الا عليه . ولذلك وردت هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها عقب قوله «ولا تموتن الا وأنتم مسلمون» فان ما قررته من وجوب الاعتصام والنهي عن التفرق أولا وآخرا وإناطة الدعوة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر بأمة قوية متحدة — هو بيان السبيل التي يجب علينا سلوكها لنموت مسلمين

﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ المراد برحمة الله تعالى هنا أثرها من نعمته واحسانه ولا شك ان من ابيضت وجوههم بما تقدم شرحه يكونون خالدين في النعمة بالدنيا ما داموا على تلك الحال والاعمال التي بها ابيضت وجوههم لان الله تعالى لا يغير ما بقوم من نعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم فيترتب عليه التغير في الاعمال . وترتيب الخلود هنا على قوله «ابيضت وجوههم» يؤذن بأن ابيضاض الوجوه وما كان سببا فيه علة له والمعلول يدوم بدوام علته . وأما أمر الخلود في الآخرة فهو أظهر

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي بالأمر الثابت المحقق الذي لا مجال فيه للشكوك والشبهات، ولا للاحتمالات والتأويلات، فلا عذر لأمتك اذا اتبعت سنن من قبلها فتفرقت في الدين وذهبت فيه مذاهب وصارت شيعا كل حزب بما لديهم فرحون، وبخلاف الآخرين مستمسكون، فما أمروا في هذه الآيات بما أمروا به من الاعتصام ووعدوا عليه بالفلاح العظيم، ولا نهوا عما نهوا عنه من التفرق والاختلاف وأوعدوا عليه بالعذاب الأليم، الا ليكونوا أمة واحدة متحدة في الدين متفقة في المقاصد يعذر بعضهم بعضا اذا فهم غير ما فهم مع المحافظة على ما لا تختلف فيه الافهام، كوجوب الاتحاد والاعتصام، وتوحيد الله وتقواه، واجتناب الفواحش والمنكرات ﴿وما الله يريد ظلما للعالمين﴾ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه وانما يريد به هدايتهم الى ما تكمل به فطرتهم ويتم به نظام اجتماعهم فاذا هم فسقوا عن أمره وحل بهم البلاء فانما يكونون هم الظالمين لانفسهم بتفرقهم واختلافهم وكذا بغير ذلك من الذنوب الاجتماعية . فالكلام في الامم وعقوبتها ولا يمكن ان يحل بها بلاء الا بذنب فشا فيها فزحزحها عن صراط الله الذي بينه في هذه الآيات وغيرها (١١ : ١٠٢ وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد)

﴿ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور﴾ فهو مالك العباد والمتصرف في شؤونهم والى سننه الحكيمة ترجع أمورهم ولكل سنة منها غاية تنتهي اليها لا تبديل لها ولا تحويل فلا يطمع أهل التفرق والخلاف بالوصول الى غاية أهل الوحدة والاتفاق . فهذه الآية وردت كالدليل على ما قبلها . ووجه الدلالة فيها على ما جرينا عليه في تفسير ما قبلها ظاهر . فاننا بينا ان المراد بالظلم المنفي هو الظلم بالتشريع لان الكلام في تلك الآيات وما فيها من الاحكام فهو على حد قوله في أحكام الصيام (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله بعد الامر بالوضوء والغسل (٥ : ٦ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج) الخ والامر ظاهر لا مجال فيه للخلاف وكثرة الآراء لولا المذاهب التي وضعت أصولها وقواعدها ثم نظر أصحابها في القرآن يلتمسون تأييدها به وحمله عليها فقد قالت المعتزلة ان الظلم في الآية

جاء نكرة في سياق النفي فهو عام والمعنى انه لا يريد الظلم مطلقا من أفعاله ولا من أفعال عباده وما لا يريده لا يقع منه حتما ، وقد ثبت في العقل والنقل ان من أفعال العباد ماهو ظلم فتعين ان تكون أفعالهم منهم لا منه ووجهوا الآية الثانية على اثبات هذا . وقالت الاشعرية ان وقوع الظلم منه تعالى محال لأنه عبارة عن تصرف الانسان في ملك غيره وليس لغير الله ملك فيكون ظالما بتصرفه فيه . ولذلك بين بعد نفي إرادة الظلم ان له ما في السموات والارض . فهم يقولون انه لو عذب الاتقياء الصالحين وأثاب الفجار المفسدين لم يكن ذلك منه ظلما بل عدلا لأنه تصرف في ملكه

ونحن نقول أولا إن الآيتين في واد وهذه المسائل الكلامية في واد آخر وثانيا إن الظلم محال عليه تعالى لا لأن الظلم عبارة عن تصرف المتصرف في ملك غيره وأن تصرفه في ملكه لا يمكن أن يكون ظلما فان هذا غير صحيح وانما يستحيل عليه الظلم لأنه ينافي الحكمة والكمال في النظام وفي التشريع . ومن حمل عبيده أو دوابه ما لا تطيق يقال انه قد ظلمها بل قالوا فيمن حفر الأرض ولم تكن موضعاً للحفر انه ظلمها وسموها الارض المظلومة وسموا التراب الذي يخرج منها المظلوم . ومن نقص امرءا حقه فقد ظلمه قال تعالى (١٨: ٢٣ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) ولعل هذا هو الأصل في معنى الظلم . وقال الراغب « الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه » فالظلم الذي ينفيه تعالى عن نفسه هو في الاحكام ما ينافي مصلحة العباد وهدايتهم لسعادة الدنيا والآخرة وفي الخلق ما ينافي النظام والإحكام.

ومن مباحث اللفظ والنظم في الآيات أنه جعل النشر في آية « يوم تبيض وجوه » على غير ترتيب اللف اذ ذكر في اللف الابيضاض قبل الاسوداد وذكر في النشر حكم من أسودت وجوههم قبل حكم من ابيضت وجوههم . وليس اللف والنشر الذي يسمونه المرتب أبلغ مما يسمونه المشوش وانما يختلف ذلك باختلاف الكلام فلا يرجح احدهما على الآخر الا بمرجح . وقد قيل ان نكتة الترجيح هنا جعل مطلع الكلام ومقطعه في بيان حال المؤمنين وجزائهم فوافق ذلك استحسان البلغاء جعلهما مما يسر ويشرح الصدر . وقيل ان نكتة

ذلك بيان أن المقصود من الخلق الرحمة دون العذاب ولذلك بدأ بذكر أهل الرحمة وختم بذكر جزائهم وادمج ذكر الآخرين في الأثناء . والقول الأول ترجيح بحسب اللفظ والثاني ترجيح بحسب المعنى . ومما يقوي هذا انه تعالى ذكر ان أهل الرحمة خالدون فيها ولم يذكر ان أهل العذاب خالدون فيه . نبه على هذا المعنى الرازي وبين انه تعالى أضاف الرحمة الى نفسه دون العذاب وذكر علة العذاب وسببه وهو « بما كنتم تكفرون » ثم ذكر انه لا يريد ظلما للعالمين قال « وهذا جار مجرى الاعتذار عن الوعيد بالعقاب وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلب » فياويل المتفرقين المختلفين المتعادين في دين الرحمة الذي يأخذ بحجزهم أن يتقحموا في العذاب وهم يتهافتون عليه بجهلهم وسوء اختيارهم

الماديون والآلهيون (١)

فلسفة صحيحة

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾

« تمهيد — غرور الماديين بمعلوماتهم — الجوهر الفرد — المكان — الزمان — قوى المادة — ماهو البرهان الصحيح ؟ المعجزات — الفلتات الطبيعية — مذهب داروين — القضاء والقدر — أبسط الاحياء — الفعل المنعكس في السلسلة الحيوانية — عمل المخ هو فعل منعكس متضاعف — الانسان مضطر في صورة مختار — إختلاف أحوال المادة — الظلم — تبرئة الخالق منه »

الانسان مفتون بنفسه ، مغرور بعقله ، لا يعرف من الأمور إلا ظاهرها ، فيظن أنه أدرك بواطنها ، فيتيه إعجابا ، وينأى بجانبه تمردا واستكبارا ،

عرف الماديون شيئاً من أسرار الوجود فوجدوا لذة وراحة عقلية ما كانوا يشعرون بها من قبل وتوهموا أنهم فهموا هذا الكون وسبروا غوره وأمكنهم التعليل عن منشأه وأصله بدون الاحتياج الى شيء ليسلبهم تلك اللذة الفكرية التي حصلوا عليها

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي الطبيب بسجن طره

قام الدين يناديهم بالاذعان لعلة العلل ومسبب الأسباب ووصفه لهم بما لم يمكنهم إدراكه ولا يقدرون على تصوره فكبر عليهم مادعاهم اليه . وعز عليهم ترك ماهم فيه ، فأعرضوا عن الدين وأظهروا العداء له ، وقالوا مالنا ولهذا الهذيان ونحن (والطبيعة الحمد) قد وصلنا الى درجة من العقل لا تتفق مع هذا البهتان الكبير

شرب بعض المقلدين لهم من حياض أفكارهم فثملوا بها ، وفاتهم أن الدين الصحيح يذهب بمتبعيه الى بساتين الحرية والراحة العقلية التي يمرح فيها المؤمن ، ويعلو على دوح التصورات الفكرية حتى يبلغ الملكوت الأعلى ويصل الى معرفة واجب الوجود فينزل الى المادة وقد عرف علتها الحقيقية التي لا يعروها الوهم ، ولا يدنو منها الخطأ أو الشك

إن كان الماديون ينكرون وجود الله لأنهم لا يمكنهم أن يدركوا كنهه تعالى فأي شيء أدركوا؟ هل أدركوا المادة . أم هل أدركوا قواها ؟

أسمع صوتا من بعيد أظنه من بعض الغافلين يقول « نعم قد أدركوا كل شيء — أما قرأت علومهم؟ أما سمعت بمكتشفاتهم ؟ فأي شيء لم يدركوا ؟ »

أدن مني ياهذا ولا تعجل عليّ فاني آتيك بالخبر اليقين . ومخبرك بحقيقة علمهم . ففكر معي تفكيرا ، وتروَّ في الأمر طويلا ،

خذ قطعة من أبسط الاشياء كالحجر مثلا واسحقها ثم خذ بين أصبعيك منها أصغر ذرة تقدر عليها ثم سر في تقسيمها إلى أصغر منها بالعقل . فهل تقف عند حد أو لا تقف ؟ إن قلت انك لا تقف قلت اذاً هذه الذرة مركبة من ذرات (١) لاعدد لها وليس لها حصر . فكيف ذلك وهي محصورة بين أصبعيك تقلبها كيف شئت ؟ فهل يكون غير المتناهي متناهيا وغير المحصور محصورا ؟ أي تناقض أصرح من هذا ؟ وان قلت انك تقف عند حد سألتك هل الذرة التي تقف عندها لها امتداد أم ليس لها امتداد . فان كان لها امتداد فلم لا تتصور تقسيمها ولم تقف عندها ؟ ؟ وان لم يكن لها امتداد (وهو الصحيح) فهل يمكنك أن تدركها بعقلك أو تتصورها

(١) هذا بقطع النظر عن نظريات علم الكيمياء واصطلاحاته فانها لا تناقض هذه المسألة

في فكرك ؟ كلا !! اذاً أنت لا تدرك شيئا من مادة هذا الوجود الواقع تحت حسك؟ فكيف بواجب الوجود (والله تعالى)!! ولم تنكر وجوده وقد قامت عليه الدلائل القاطعة كالتي بيناها في بعض مقالاتنا السابقة في المنار ؟

تفكر ثانيا في تلك الذرات التي لا امتداد لها فهل يمكنك أن تتصور كيفية اجتماع بعض أجزائها ببعض حتى تتركب منها الاجسام الشاغلة للفراغ؟ اذا وضع ثلاث منها بعضها بجانب بعض فهل تثبت للوسطى منها جانبين أم لا ؟ فان أثبت ذلك لها كان ذلك نقضا لقولك الأول انها لا امتداد لها وأمكنك قسمتها . وان لم تثبت لها الجوانب فهل تتصور كيفية وجودها واتصال بعضها ببعض ؟ كلا إنه لا يمكنك ولا يمكنني ذلك اذا لا يمكننا أن نتصور حقيقة الاجسام ولا الفراغ ولا المكان . لأن ما يقال في الاجسام يقال مثله في المكان وما قيل في الذرات التي لا تنقسم (وهي الجواهر الفردة عند الفلاسفة والمتكلمين) يقال في النقط الهندسية عند الرياضيين

ثم تفكر ثالثا في وجود هذه الذرات منذ الازل على اعتقادك مع قولك بحركاتها التي ليس لها أول وخذ حركة منها لنتكلم عليها . أليس قبل هذه الحركة حركات لا عدد لها لأنها أزلية كما تقول ؟ واذا كان الأمر كذلك فكيف أمكن انقضاؤها جميعا وكيف جاز أن تأتي تلك الذرة بحركات لا عدد لها قبل كل حركة . أليس ذلك قولا بأن مالا يعد أمكن عده ؟ وما لا يمكن الاتيان عليه قد أمكن الاتيان به؟ أو ليس هذا تناقضا بينًا ؟

ومثل الحركات الأزلية لحظات الزمان فانه يستحيل وجودها منذ الأزل فهل يمكنك بعد ذلك أن تقول بأنك تفهم الأزل أو تفهم الزمان ؟ إلى هنا قد تبين بأجلى برهان أن الماديّ لا يفهم كنه المادة ولا مكانها ولا زمانها

إنه كلما خرج من تناقض سقط في آخر . فهل يفهم شيئا من خواص المادة وقواها ؟ إن للمادة قوى كثيرة عرفنا بعضها كالكهربائية والمغناطيسية والجاذبية العامة بين الارض والاجسام التي عليها وبين الأجرام الكونية بعضها مع بعض أليست كل هذه الفاظا لا نعرف لها معنى حقيقيا . وما مثلنا في ذلك الا كمثل الذى « فسر الماء بعد الجهد بالماء »

خذ مثلا قوة الجاذبية التي بين الشمس وأحد السيارات كالأرض أو كزحل فما هو هذا الشيء الذي به الجذب ؟ هل هو مادة أو غير مادة ؟ فان كان مادة فكيف يحصل به الجذب ؟ وان كان غير مادة فهل يمكننا تصوره؟ وكيف يحصل الجذب بين الحديد والمغناطيس ؟ وما الجواب الشافي عن مثل هذه الاسئلة ؟

فاذا كان الماديون لا يفهمون المادة ولا زمانها ولا مكانها ولا قواها فأي شيء يفهمون أو يدركون ؟ انهم لا يعلمون الا ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الحقائق غافلون

وإذا لم يكن عدم إدراك الشيء عقبة في سبيل التسليم بوجوده فلماذا ينكرون وجود الله تعالى ؟ وأي فرق بين المادي والآلهي في الحرية العقلية الآلهي يعتقد بوجود اشياء لا يدرك عقله كنهها لأنه قام عنده عليها الدليل . وكذلك المادي يعتقد ولا يمكنه أن يدرك كنه ما يعتقد ؟ فهل يكون أحدهما اكثر تمتعاً بالحرية العقلية من الآخر ؟ كلا ! ! فبماذا يفتخرون ؟

ان عدم إدراك الشيء ليس دليلا صحيحاً في نظر العقل على عدم وجوده والا لأمكننا أن نقول إننا لا ندرك شيئاً من كنه هذا العالم المحسوس فهو غير موجود : وحينئذ نقع في السفسطة . ومن بلغت به درجة المكابرة الى هذا الحد فلا يصح خطابه . ولا التكلم معه لانه ليس بعاقل

البرهان الصحيح على وجود الشيء أو عدمه (إن لم يكن محسوساً) هو ما بني بناء منطقيا صحيحا تنتهي مقدماته الى البديهيات العقلية . وأشهر هذه البديهيات وأكثرها ورودا في الدلائل : ان الضدين لا يجتمعان وقد يرتفعان ، والنقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان : مثال الضدين البياض والسواد . ومثال النقيضين البياض وعدمه أو النفي والاثبات في كل شيء . فكل ما أدى القول به الى ما يخالف البديهيات كان باطلا واستحال وجوده وكل مالم يؤد الى ذلك كان جائزا وامكن وجوده وان لم يمكن للعقل ادراك كنهه ومعرفة كيفية وجوده . ويجب الايمان به إن قام عليه الدليل وإلا بقي في حيز الامكان

هذه المسألة هي أصل الاصول . ومرجع البشر قاطبة في جميع علومهم الصحيحة ومن لم يفهمها ولم يمكنه أن يميز بين ما يصادم البداهة و بين ما لا يمكن

إدراك كنهه فهو غير أهل لأن يتلقى شيئا من العلوم العقلية . ولا يمكنه أن يعرف الحق من الباطل ولا أن يفرق بين الخطأ والصواب

واذا كان عدم ادراك كنه الشيء ليس موجبا لانكاره كما قررنا فمن باب أولى تكون مخالفة الشيء لما اعتدناه لا تقتضي عدم تصديقه . فمن انكر خوارق العادات (المعجزات) التي يدعيها أهل الملل لانبيائهم وجزم بعدم امكان وقوعها لذلك السبب (أي غرابتها واستبعادها) فهو سخيف العقل جاهل إذ ليس كل غريب مستحيلا وإلا لما أمكن للبشر إنطاق الجماد (كما في الفونوغراف) ونقل الكلام الى مسافات بعيدة كما في (التليفون) والسير بسرعة عجيبة كما في الآلات البخارية والكهربائية الي غير ذلك من الاختراعات الغريبة التي ما كان يحلم بها الاولون ولو أخبروا بها لكذبها اكثرهم كما يكذب المعجزات بعض أهل هذا الجيل الحاضر الذين فتنوا بمعلوماتهم التي هي بالنسبة لما خفي عنهم ليست إلا جهالات مركبة

ولو عمل الانسان بهذا المبدأ السخيف وهو الجزم باستحالة الشيء لعدم اعتياده له لما تقدم خطوة الى الامام في سبيل الاختراع والاكتشاف . أما اذا كان انكار المعجزات مبنيا على ادعائهم استحالة خرق نواميس الطبيعة فهي دعوى لا يمكن اثباتها ويوجد في عالم الحيوان والنبات من الشواذ ما يكذبها ولا يمكن تعليلها ولا تبيين سبب مخالفتها للمعهود كما في الاجنة التي تولد مختلطة بعضها ببعض أو ناقصة أو زائدة عضوا أو جزءا منه . فلم لم تجر هذه الاشياء على ما اعتدناه ؟ على أننا لا نعرف جميع نواميس الكون حتى نجزم بأن كل ما خالف ما علمناه منها يكون خارقا لها فلم لا تكون تلك المعجزات تابعة لناموس لا نعلمه الى الآن ؟ ومتى علمناه أمكننا تفسيرها تفسيرا علميا صحيحا

ألم تر الى العلماء قبل ان جاء داروين بنظريته في ارتقاء الأنواع بعضها عن بعض كيف كانوا لا يفهمون معنى للاعضاء الاثرية ولا يدركون سببا لظهور بعض الاشياء في أجنة الحيوانات ثم انمحائها قبل ان تقوم بأية وظيفة أو تؤدي أي عمل كالأسنان التي تظهر في طور التكوين في الفك الاعلى لأجنة الحيتان

والحيوانات المجترة ولاعمل لها اذ ذاك ثم تزول ولا يبقى لها أثر حتى ظن بعض الناس أن ظهورها هذا عبث ولو لم نشاهد بالحس لانكر المكابرون وجودها . فليتأدب الانسان وليعلم أنه لم يؤت من العلم الا قليلا . ولا يفترن بما علم من ظواهر الامور

الانسان طائش . اذا جهل حكمة شيء اسرع بتكذيبه وانكاره . ولكن ذلك لايغنيه عن الحق فتيلا . جهل حكمة الخالق لهذا الوجود وكنهه فتسرع في انكار وجوده فهل أراحه ذلك مما أحاط به من المعضلات التي يناجيه بها عقله ويطالبه بحلها ؟ أنت مسكين أيها الانسان ! وبعقلك حيران ! !

نظر المادي نظرة سطحية في الكون . ودعاه الدين للايمان باليوم الآخر وبقضاء الله وقدره . فقال : لو آمنت بذلك لآمنت بظلم مبين ، فأنا أنكره كله لأستريح من هذا العناء الأليم : والتجأ الى جحر التكذيب فلحقه فيه ما فر منه ، ولكي تفهم ذلك يجب أن تصغى لما سأتلو عليك : —

إن أبسط الأحياء في هذا العالم ما كان ذا خلية واحدة كالحيوان المسمى «أمييا» هذا الحيوان هو قطعة صغيرة من مادة حية تسمى البروتوبلاسم (١) ولها من خواص الحياة ماهو معلوم للفسيولوجيين فاذا نبهت بأي منبه تحركت

إذا ارتقينا الى ما فوق هذا الحيوان في الرتبة وجدنا أن هذه الخاصية وهي إجابة التنبيه بالتحرك أخذت في التضاعف في الحيوانات المركبة وامتاز بعض أجزائها (وهي أيضاً عبارة عن خليات پروتوبلاسمية) بالقيام بها دون سواها . فبعد أن كانت «الأمييا» هي التي تقابل بنفسها التنبيه فتتحرك بجملتها صار في الحيوانات الراقية بعض الأجزاء مختصاً بمقابلة التنبيه فتجيب عنه أجزاء أخرى بالحركة . أما الاجزاء الاولى فهي الأعصاب الحساسة التي تحمل التنبيه إلى المراكز العصبية كالتي في النخاع الشوكي فيرتد فيها إلى أعصاب أخرى تسمى الاعصاب المحركة حتى يصل الى العضلات فيؤثر فيها تأثيرا مخصوصاً يظهر لنا بانقباضها . وهذا هو

(١) هي كلمة يونانية ومعناها المكون الأول لأنها عنصر الحياة ومنها ركب كل حي

مايسمى بالفعل المنعكس (ومن أراد زيادة التفصيل فعليه بكتب الفسيولوجيا) وهو يشاهد في جميع الحيوانات حتى في الانسان نفسه . ولو أعقنا العلاقة بين المخ وبين النخاع حتى لايبقى لارادة الانسان سلطان عليه لتم هذا الفعل أيضاً رغم أنفه كما يشاهد في حالات الپاراپليجيا أي الشلل النصفي السفلي وكذا في اصابات النخاع العارضة إذا كانت فوق المراكز التي تقوم بالفعل المنعكس

أما مايصل الى المخ من التنبيهات بواسطة الحواس فليس من الضروري أن يجيب عنها في الحال كما هو شأن النخاع وشأن الحيوانات الأولية . ولكنها تحدث فيه آثارا مخصوصة عليها مدار ما يأتيه الانسان من أقوال وأفعال

قال العلماء الفسيولوجيون والبسيكلوجيون إن أعمال الانسان هي أفعال منعكسة مركبة متضاعفة . والفرق بين ما يأتيه باختياره وبين مايحصل بدون اختياره (كالافعال المنعكسة للنخاع) إنما هو في مدة حصول كل منهما كما صرح بذلك العلامة أغسطس د . ولر الفسيولوجي الشهير فالفعل القهري ينعكس بسرعة وما نسميه اختياريا ينعكس ببطء وكلاهما في الحقيقة فعلان منعكسان . ولا يصدر عن الانسان إلا ما كان نتيجة ماوصل إلى مخه مما أحاط به من الظروف والأحوال وما لحقه بسبب الوراثة الطبيعية عن الآباء والاجداد

فالانسان في الحقيقة مضطر في صورة مختار كما وصفه بذلك عندنا علماء الكلام كالامام فخر الدين الرازي . فهو ليس الا آلة لانعكاس ماحوله ولا يصدر منه شيء ابتدائي مطلقاً . اذ جميع أعماله انما هي نتيجة تربيته ومعلوماته وما ورثه وما أحاط به من ظروف واحوال وغيرها أي هي نتيجة مزاجه والوسط الذي نشأ فيه وإلا فكيف نفسر ميل هذا للشر وميل ذاك للخير اذا كان كل شيء فيهما متساويا ؟ على أن القول بتساوي البشر في الطباع والاخلاق والظروف مما يكذبه الحس والعيان . ولو كان صحيحا ما وجد بينهم اختلاف مّا في الميل . ولو وجد الاختلاف لجاز حصول المعلول بدون علة أو الترجيح بدون مرجح وهو محال

هذا هو تقرير العلم والعقل لهذه المسألة . فاذا كان البشر لم يخلقوا متساوين وليسوا في الظروف متفقين (ولا دخل لهم في ذلك) وجميع افعالهم ليست الا نتيجة تركيبهم . والمؤثرات المحيطة بهم -- اذا كان الامر كذلك فهل يقال أن لهم ارادة حقيقية متصرفة في شيء ؟

الحق أقول ان اختيارهم ليس إلا أمرًا ظاهريا . وإذا كان كذلك فلماذا نعاقبهم على مايرتكبون في هذه الدنيا وهم لاشك اليه مسوقون، وعليه مدفوعون ؟ الجواب سهل وهو أن العقاب من العوامل المؤثرة في النفس فتنزعج له وترتدع بسببه وكذلك يؤثر في نفوس غيرهم ممن رأوه أو سمعوا به ، فتقل الشرور في هذا العالم (ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب) ولكن هل يسوغ لنا هذا ظلمهم بالعقاب مع علمنا بأنهم مكرهون؟ ان كان هذا غير مسوغ فنحن اذاً جميعا ظالمون !!

وهناك مسألة أخرى أيها المادي . وهي لماذا كان بعض المادة جمادا لايشعر وبعضها الآخر نباتا أو حيوانا يحس ويتألم ويتلذذ؟ ولم كان الناس مختلفين ما بين غني وفقير وصحيح ومريض ومتنعم ومعذب وفرح وحزين الى غير ذلك من التباين والاختلاف بين اجزاء المادة ؟ أليس هذا ظلما في رأيك؟ فان كان ظلما فالكون كله ظلم في ظلم ونحن ظالمون مظلومون ولايخلصك من ذلك انكارك لوجود الخالق أو إقرارك به فأنت أنكرت ما أنكرت فرارا من القول بالظلم فوقعت فيه !!

قد يقول إنني بانكاري الخالق تكون تبعة هذا الظلم ليست واقعة عندي الا على الوجود ولكنها عندكم واقعة على آلهكم : ونقول ان الظلم أمر اعتباري فما تسميه أنت ظلما يراه الآخر عدلا ولذلك اختلف الناس في ذبح الحيوان وأكله مثلا فبعضهم يستقبح ذلك وبعضهم لا يرى فيه عيبا فما عرفت به الظلم يخالفك فيه غيرك ويقول ان الظلم هو التصرف فيما ليس بحق المتصرف . والعدل هو تصرف المالك في ملكه بما يرى . فاذا ملكت بعضا من الانعام فذبحت بعضها وأطلقت بعضها الآخر فلست بظالم واذا خول القانون القاضي الحكم في مسألة باحدى عقوبتين فاختار ماشاء منها فليس بظالم . وان لم تسلم هذا

التعريف أومايقاربه وأصررت على القول بالظلم فنحن لانرى فرقا حقيقيا بين قولك ان تبعة هذا الظلم عندك على الوجود أي ليست على أحد بعينه وبين زعمك إن تبعته عندنا على الله لان الله تعالى فعل ما فعل حسب ماقضت به ارادته الازلية ولم يكن في الامكان غير ماكان . لان الارادة في جانب الله معناها تخصيص بعض الممكنات ببعض الممكنات الاخرى وهو مايسمى بالترجيح . وهذا الترجيح حاصل منذ الازل أي لاأول لوجوده فلا يمكن أن يوجد غيره . أما دعوى أنه أزلي وأنه كان يمكن وقوع غيره كما يدعيه بعضهم فهي مصادمة للبداهة العقلية . وان قيل ان الارادة صالحة لترجيح هذا على ذاك ولكن لم يقع الترجيح بالفعل الا في غير الازل أو كما يعبر المتكلمون في مثل ذلك ان لها تعلقين : تعلقا صلوحيا قديما وتعلقا تنجيزيا حادثا (١) ان قيل ذلك قلنا ان اختيار هذا الشيء دون ذلك مع أنهما بالنسبة له تعالى سواء من كل وجه هو عين الترجيح بلا مرجح . ولايصح أن يقال ان صفة الارادة هي المرجحة لان نسبتها أيضا لاحدهما كنسبتها الى الآخر تماما . ولو اختلفت النسبة لكان الترجيح أزليا والا لتخلف المعلول عن علته وهو محال . وان كان المرجح شيئا غير الارادة فإما أن يكون قديما أو حادثا فان كان قديما لا يمكن تخلف المعلول عن علته كما قلنا وان كان حادثا يحتاج هو لمرجح يرجح وجوده على عدمه وذلك يؤدي الى القول بالتسلسل وهو باطل . وان لم يكن هذا ولاذاك بان كان المرجح يوجد في المستقبل (وهو غير معقول) فلم كان الترجيح لاجله حادثا ولم يكن ازليا ؟ فلا مفر اذا من القول بأن تعلق الارادة التنجيزي هو قديم أما التعبير عن الارادة بالمضارع بدل الماضي في نحو قوله تعالى (ذو العرش المجيد فعال لما يريد) فله شواهد كثيرة في اللغة وفي القرآن الشريف كقوله تعالى (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) بدل أطاعكم . ويراد به إفادة استمرار الفعل . فمعنى الارادة القضاء الأزلي الذي أوضحناه وقد قضى تعالى بما قضى ولا يزال قاضيا به . وجميع ماورد في حقه تعالى من أمثال مايستعمل في حق البشر كالرحمة

(١) المسلمون يقولون إن كليهما قديم كما بين برهان ذلك في المتن (كذا في الاصل)

والغضب والكره ونحوها له معان في جانبه غير معناه في جانبنا . فتفسر هذه الالفاظ في كل مقام بما يناسبه و بما يليق بالله تعالى وصفاته . مثلا إذا قيل « الله رؤف بعباده» فمعناه أنه تعالى هو المنعم عليهم بكل خير أو نحو ذلك لأنه جل شأنه منزه عن الانفعالات النفسية والاضطرابات العصبية والجولات الفكرية . فليست رأفته أو غضبه كرأفتنا أو غضبنا تعالى عن ذلك علوا كبيرا وليست أفعاله مسبوقة بتفكر أو تردد أو ماشابه ذلك من صفات المحدثين

والخلاصة أن ترجيح بعض الممكنات على بعض حاصل منذ الازل فما كان يمكن أن يحصل غيره اذ لم يسبق بعدم ولم يكن لوجوده أول . فان سلم أن فيما حصل ظلم فلا تبعة فيه على أحد لأنه تعالى هكذا موجود من القدم ولا بد من انفاذ ما كان بلا تردد . ومن تفكر فهم . ومن تعمق عرف . ولاأزيد عن ذلك فسر القضاء أوشك أن يتضح . بل هو للعارفين قد اتضح . إذا فما يجده المادي من الحرية في جحوده يجده المؤمن في ايمانه . ولكن المؤمن يفوقه في كونه عرف علة الوجود وما اقتضته لخلاص من التناقض الذي وقع فيه المادي بسبب زعمه قدم الجواهر الفردة على ما بينا هنا في صدر هذه المقالة وفي مقالتنا الاخرى في الالهيات التي سبق نشرها في المنار

فهذا هو ما أردت بيانه (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين)

الدكتور محمد توفيق صدقي طبيب بسجن طره

(المنار) ما كتبه الدكتور في الارادة والاختيار غير محرر وقد أطال في ذلك المتكلمون وأوردوا فيه ما قيل من أن تعلق الارادة الالهية بفعل الشيء يقتضي وجوبه واستحالة مقابله وبذلك ينتفي الاختيار واجابوا عنه بأن الارادة لا تتعلق الا بفعل الممكن لذاته وما كان ممكنا لذاته اذا صار واجبا بتعلق الارادة به كان وجوبه عين الاختيار اذ لا معنى لاختيار الباري تعالى الا كون ما يصدر بقدرته من الافعال له انما يصدر بتخصيص ارادته لذلك الفعل على ما يقابله من الممكنات فالاختيار عند المحققين لازم للارادة لزوما عقليا وبعضهم يجعلها بمعنى واحد وغاية ما فرق به المدققون بينهما هو ان المختار ينظر الى الشيء والى مقابله و يرجح احد المتقابلين أو

المتقابلات على غيره والمريد ينظر الى الشيء الذي يريده فيحرك القدرة الى فعله . يعني ان كلا من الارادة والاختيار يفيد التخصيص والترجيح ولكن الفاعل للشيء يسمى مريدا له باعتبار القصد المجرد و يسمى مختارا باعتبار ملاحظة شيء آخر غير ما قصد الى فعله معه كان يمكن ان يكون بدلا منه لولا الترجيح والتخصيص

وأظهر من هذا ان يقال الاختيار عبارة عن كونه تعالى غير مكره ولا مجبور على ما أراد وما يريد لانه ليس فوقه سلطان يلزمه بشيء ما فتكون ارادته تابعة لارادته فإرادته مستقلة بالتخصيص بحسب علمه . أما نحن البشر فاننا قد نعلم أن المصلحة في فعل كذا وان مقابله مفسدة ونحب أن نفعل ما هو المصلحة ولكننا قد نخصص ونرجح المفسدة باكراه من هو اقوى منا سلطانا فلا تكون ارادتنا مستقلة بالتخصيص ولا نحن مختارين في العمل وقوله ان فهم الارادة والاختيار بهذا المعنى يستلزم الترجيح بلا مرجح مصادرة فان الارادة اذا لم تكن هي المرجحة لزم في الوجود الترجيح بلا مرجح لا اذا كانت هي المرجحة يلزم ذلك كما يقول

نعم ان ما يتخصص بالارادة يكون على حسب الداعي وهو العلم والعلم ليس ملزما بالفعل (ونريد به ما يعم الكف والترك) لانه عبارة عن انكشاف المعلوم فتوجه نفس الفاعل الى فعل بعض المعلومات دون بعض معنى آخر يسمى ارادة ومشيئة ومن اثبت الارادة المستقلة يكون مثبتا للاختيار . وارادة العالم الفعل تكون عند الفعل حتما وقد تكون قبله بمعنى أن نفسه تكون متوجهة الى فعل كذا في زمن كذا من المستقبل ولذلك قالوا ان للارادة تعلقا قديما أزليا وتعلقا حادثا وما ذكره الدكتور صدقي في الهامش من كون الارادة ليس لها الا تعلق قديم غير صحيح لانه يلزم منه أن يكون تعالى غير مريد للشيء عند ايجاده بالفعل وهو بديهي البطلان على انه هو قد صرح باستمرار الارادة الازلية والمراد منه ومن التعلق الحادث واحد

لكن ما يتبادر الى الفهم من مجموع كلامه في هذا المقام مخالف لما هو مقرر في العقائد ومن يتأمل فيه يتنسم منه انه بما قرره من أزلية الارادة وعدم امكان شيء غير ما قضت به في الازل حاول ان ينفي ما يعبر عنه القدرية بقولهم « الامر أنف » (بضم الهمزة والنون) أي ان الله لم يقدر الامور ولم يعلمها ازلا وانما

بأنها علما حال وقوعها . والقائلون بهذا هم غلاة القدرية المتقدمون ويقرب من عقيدتهم ما يفهمه كثير من العوام من معنى الاختيار قياسا على اختيارهم الذي يكون بعد تردد و بعد مخالفة لقصد سابق

ومن مقاصد القدرية في مذهبهم نفي الظلم عن الباري عزّ وجلّ وهو ماقصده الدكتور صدقي بنقيض مذهبهم ولكنه على موافقته لاهل السنة في الارادة الازلية من جهة قد خالفهم من جهة أخرى فجعل الارادة منافية للاختيار. وعلى موافقته لهم في نفي الاعتراض على الباري بالظلم خالفهم في طريق الاستدلال فوقع في شر مما هرب منه اذ جاء بما يوهم جواز وقوع الظلم الحقيقي مع الاعتذار عنه بكون علته أزلية وكل ذلك لعدم تحرير العبارة فيما أظن

وجملة القول ان جميع الممكنات التي نعرفها وفي حكمها مثلها مما لم نعرفه من الموجودات صادرة عن الوجود الواجب الازلي أو قل عن واجب الوجود القديم ولما كانت مشتملة على النظام والاحكام دلت على أن الواجب الذي صدرت عنه قد أوجدها بعلم كامل وارادة مستقلة وانه مختار في ذلك لامجبور ولا مكره . ولما كانت ارادته للاشياء عن علم محيط وجب أن تكون افعاله كلها موافقة للحكمة البالغة والنظام التام والعدل العام فلا يقع منه الظلم لا لأن ما نفهمه من معنى الظلم إن وقع منه تعالى لم يكن ظلما كما يقول الاشاعرة فان هذا غير صحيح كما بيناه في التفسير من هذا الجزء ولا لأنه أزلي وارادته أزلية كما قال الدكتور صدقي فانه تعالى متصف بالكمال في الازل وفيما لايزال ، والظلم ينافي الكمال ، وهذا الذي ماقررناه هو ما كان عليه السلف الصالح في مسألة استحالة الظلم عليه تعالى. وما يظنه الجاهلون بالله و يسمّونه ظلما لمخالفته لاهوائهم يسهل على العارفين بالله ان يبينوا لهم أنه ليس بظلم

وأما ماقاله في مسألة كون الانسان مجبورا غير مختار في افعاله فله فيها وجه فلسفي يقول به بعض فلاسفة الافرنج الآن وسبقهم اليه بعض أئمة المتكلمين والحكماء من المسلمين وللغزالي فيه أقوال من قبيل أقوال فلاسفة الافرنج من أوضحها وأبلغها ما كتبه في كتاب التوحيد والتوكل من الاحياء . وقد اشتبه

على أكثر علمائنا الفصل بين هذا النوع من الجبر وبين الجبر الذي يعترض به على أصل التكليف والفرق مثل الصبح ظاهر فمدار التكليف على مايعلمه الانسان من نفسه علما ضروريا من أنه متمكن من فعل هذه التكاليف وتركها وهذا التمكن يسمى اختيارا ويسميه الاشاعرة كسبا ولا ينفيه كون الانسان لايعمل عملاً الا بعد العلم بأن فعله خير له من تركه وكون هذا العلم منه الضروري وغير الضروري وان ماكان منه غير ضروري في مبدإه يصير ضروريا بعد الجزم به كما هو ظاهر أو كون هذا العمل فعلا منعكسا بسرعة أو ببطء . وربما عدنا الى الاسهاب في ذلك يوما ما

هذا هو اعتقاد أهل الحق في هذه المسألة وما قبلها وأظن أن الدكتور محمد توفيق افندي صدقي لايخالفه وان أوهمت عبارته الخلاف لعدم وضوحها

التدوين في الاسلام (*

سادتي الكرام

حقا أني حري بالفخر، حقيق بتقديم واجب الشكر، على ان تنازلتم بقبولي هذه المرة خطيبا في ناديكم الجامع لنوابغ الامة ونخبة أهل الفضل والعلم منها واني أعترف بأن موقفي بينكم موقف صعب لايجرأ على الوقوف فيه ضعيف مثلي ليس في مرتبتكم السامية في العلم والاطلاع فألتمس منكم لهذا السبب المعذرة اذا تلعثم لساني واضطرب جناني والكريم يعذر على كل حال

ولقد اخترت موضوعا لبحثي هذه المرة أظنه لايخلو من فائدة تاريخية مع ماأعتقد في نفسي من العجز عن اعطاء مثل هذا الموضوع أو البحث حقه من البيان والتدقيق لكن قاعدة « مالا يدرك كله لا يترك كله » ربما سمحت لي بعرض معلوماتي في هذا الشأن على مسامع سادتي الحاضرين مهما كانت قيمتها هينة في نظركم ونظر التاريخ

الموضوع — هو التدوين في الاسلام أو مبدأ الكتابة وتقييد العلم في الصحف عند المسلمين

(* خطبة ألقاها رفيق بك العظم في نادي المدارس العليا بالقاهرة

ان الذي دعاني الى اختيار هذا البحث على بعده عن أذهان كثير منا لهذا العهد هو تصدي بعض الباحثين لتطريق الوهن والتجريح الى العلوم التي وصلت الينا من أسلافنا في الصدر الاول كالحديث وآداب اللغة العربية والتاريخ

فقد زعموا ان المسلمين لم يدونوا هذه العلوم الا في القرنين الثاني والثالث وان الاخبار التي تتلقى بالرواية مدة قرنين ثم تكتب بعد ذلك الامد الطويل قلما يوثق بسلامتها من التحريف والتبديل وذلك قياس لاخبار العرب على غيرها من أخبار الامم الاخرى التي لم تكتب صحيحة في حينها وانما كتبت بعد مرور زمن طويل أو قصير عليها مشوهة بآفة التبديل والتحريف فسقط اعتبارها على ظنهم في التاريخ

وهذا الزعم بالنسبة الينا مردود من وجهين:

الوجه الاول: ماعرف عن العرب من اتقان الحفظ والرواية وكونهم مطبوعين على ذلك

الوجه الثاني ثبوت التدوين وكتابة الاخبار في الاسلام من أوائل القرن الاول أي من عهد صاحب الرسالة وأبي بكر الصديق وثبوت عناية العرب المسلمين بالكتب أو العلوم المدونة منذ ذلك القرن

أما الوجه الاول فبيانه ان قوى الانسان ومشاعره خاضعة كلها لحكم الفطرة اذ المشاهد ان الانسان اذا فقد اداة من قواه العاقلة أو مشاعره قويت فيه اداة أخرى . فضعيف الذاكرة يكون قويّ التفكر بحكم الحاجة الى استحضار صور المعلومات التي تغيب عن حفظه . وفاقد البصر يكون قوي السمع والحفظ كذلك

والعرب لما كانوا أمة أمية قليلي العناية بالكتابة التي هي أداة من أدوات الحضارة استعاضوا عنها لاستبقاء أخبارهم وتداولها بقوة الحفظ فمرنوا على هذه القوة حتى صارت لكثير منهم ملكة لا يحتاج صاحبها الى تكلف عناء في حفظ مايرد على سمعه من الاخبار والاشعار فقامت عندهم مقام الكتابة وقيد الاخبار بالصحف لذلك كانت أخبار العرب وأشعارهم التي وصلت الينا الى هذا اليوم انما اتصلت بالمسلمين بالرواية ثم قيدها هؤلاء بالكتب في العصر الاول وما بعده

وكلكم تعلمون أيها السادة مبلغ قوة الحفظ عند العرب بما تقرأونه من أخبار

حماد الراوية الذي كان ينشد عدة قصائد على قافية واحدة لعدة شعراء وكذا تقرأون أخبار غيره التي من هذا القبيل وقد كان عبد الله بن عباس يحفظ القصيدة الطويلة بسماعها مرة واحدة وها أنا ذا أورد لكم خبرًا من أخباره في الحفظ يستدعي اعجابكم بذلك الرجل الجليل الذي كان يستوعب ذهنه من شرائع الاسلام وأخبار العرب وغيرهم مالا تستوعبه مكتبة من المكتبات الضخام

روى هذا الخبر صاحب الاغاني بسنده قال بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الازرق وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس فاستنشده ابن عباس فأنشده قصيدة

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها . فأقبل عليه نافع ابن الازرق فقال الله يا ابن عباس إنا نضرب اليك أكباد الابل من أقصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت ... فيخزى واما بالعشي فيخسر

فقال له ابن عباس ماهكذا قال وانما قال

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت ... فيضحي واما بالعشيّ فيخصر

فقال ماأراك الا قد كنت قد حفظت البيت . قال أجل وان شئت أنشدك القصيدة كلها : قال فاني أشاء، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها

فانظروا الى هذا الذكاء العظيم الذي اختص به أولئك القوم حتى لقد بلغ من ثقتهم بقوة الحفظ والرواية ان كانوا لا يثقون بخبر مكتوب الا اذا كان معززا بالسند والرواية . ولما أخذ العلماء بتدوين الاخبار النبوية وأخبار الصحابة ثم تاريخ الخلفاء دوّنوا هذه الاخبار مدعومة بالرواية ولم يكتفوا بقيدها في الصحف مجردة عن الاسانيد خوف دخول التحريف عليها واطمئنانا للرواية المعروفة السند المستوفية لشروط الصحة على الترتيب المعروف عند المحدثين الى الآن

وفي اعتقادي أن الذي ذهب بالباحثين الى الظن بعدم تدوين الاخبار الا

بعد القرن الثاني هو تقيد المؤلفين في ذلك العصر بنقل الاخبار بالرواية مع فقد مادون قبل ذلك لفقده لحسن التنسيق والجمع وشروط الصحة عند المؤلفين لاسيما من جهة الترتيب والتخصيص الذي يروق أهل العصر الثاني ويناسب حالة الرقي في الحضارة كما سنتكلم عليه بعد

هذا بيان الوجه الأول وأما الوجه الثاني وهو ثبوت التدوين وكتابة الاخبار في الاسلام في أوائل القرن الأول فالادلة عليه كثيرة وتشتتها في ثنايا الكتب وتفاريق السطور لا يمنعنا أن نجتزئ منها بالقليل المقنع الذي وسعنا جمعه. ولأقدم بين يدي ذلك مقدمة قصيرة فأقول

اذا قيل ان العرب أمة أمية فليس هذا القول على اطلاقه بل ربما أطلق هذا الوصف على عرب البادية اطلاقا أعم من اطلاقه على غيرهم من سكان المدن وأرباب الدول البائدة كسكان اليمن ومدن نجد والحجاز والعراق والجزيرة وأطراف الشام الذين عرفت لهم دول ذات حضارة ومجد كالتبابعة في اليمن والمناذرة في العراق والحوارث في أطراف الشام الذين منهم ملوك تدمر في شرقي سوريا الذين تنسب اليهم الزباء « زنوبيا » وزوجها أذينة (أوذينوس) ومنهم ملوك غسان في جنوب سوريا وتاريخهم مشهور معروف

فهؤلاء الشعوب لا يجوز أن يطلق عليهم وصف الأمية بالنسبة لحالة كل عصر كانوا فيه وانما غموض تاريخهم وطموس آثارهم أضاف تاريخهم الى التاريخ القديم فكان مجهول الحقيقة الا قليلا مما وقف عليه الباحثون من الآثار الكتابية للحميريين في اليمن والكتابات النبطية في شمال الحجاز وسيكشف دءوبهم على البحث وتتبع الآثار أكثر من ذلك

وحسبكم شاهدا على أن الامية لا يجوز اطلاقها على كل العرب ما كان موجودا من كتب أهل الحيرة الى أوائل القرن الثالث الهجري بدليل ماقاله هشام بن محمد ابن السائب الكلبي في كتاب الانساب وهو اني كنت استخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة

أما عرب الحجاز فالمعروف عن الكتابة عند سكان المدن منهم قبيل البعثة أنها كانت موجودة ولو مع الندرة يدلك عليه كتابة المعلقات السبع التي كانت على الكعبة والصحيفة التي تعاقدت فيها قريش على رد الحقوق وانصاف المظلوم وعلقوها على الكعبة والمعروف أنهم كانوا يكتبون العربية تارة بالخط النبطي وتارة بالخط الحيري الذي عرف بعد ذلك بالكوفي وتارة بالخط العبري وممن عرف منهم بكتابة هذا الخط ورقة بن نوفل بن عم خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما جاء الاسلام كان النبي عليه السلام يحض على تعلم الكتابة وتعلم اللغات الأخرى فشاعت الكتابة بين الصحابة وأبناء الصحابة وبها ضبط الوحي وحفظ القرآن فكانت كلما نزلت آية كتبها الكاتبون في الحال ومن هؤلاء الكتاب عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان وخالد بن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد والعلاء الحضرمي وحنظلة ابن الربيع وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وعبد الله بن الأرقم الزهري وهؤلاء كتاب الوحي والرسائل كتبوا للنبي عليه السلام وأما من عداهم من كتاب الصحابة فكثيرون منهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهم. ومن أبناء الصحابة عبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص (هو صحابي) وعبد الله بن الحارث بن هشام وغيرهم

اذًا علمتم مما تقدم أن الكتابة كانت شائعة على عهد النبي عليه السلام بين المهاجرين والانصار وان أول ما كتب بها هو القرآن الكريم وكانوا يكتبونه على الرقاع والاضلاع وسعف النخل والحجارة الرقاق البيض ثم جمعه أبو بكر رضي الله عنه ودونه في الصحف على ماهو معروف مشهور

أما الحديث وفيه تاريخ الصدر الأول وهو الذي عليه مدار بحثنا الآن فانه كان يكتب كذلك على عهد النبي عليه السلام على نحو ماكانوا يكتبون عليه القرآن وقد رخص لهم النبي بكتابته كما أمرهم بكتابة العلم مطلقا

فقد أخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم بسنده عن أنس بن مالك قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قيدوا العلم بالكتاب » وروى بسنده عن عمرو

ابن شعيب عن أبيه عن جده قال: قلت يارسول الله أكتب كل ما أسمع منك؟ قال نعم. قلت في الرضى والغضب؟ قال نعم «فاني لا أقول في ذلك كله الا حقا»

وروى بسنده عن أبي هريرة قال لما فتحت مكة قام رسول الله فخطب فقام رجل من اليمن يقال له أبو شاة فقال يا رسول الله أكتبوا لي. فقال رسول الله «اكتبوا لأبي شاة» يعني الخطبة — وروى ابن عبد البر أن رسول الله كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره. وأخرج عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول لم يكن أحد من أصحاب محمد أكثر مني حديثا الا عبد الله بن عمرو بن العاص فانه كتب ولم أكتب. وروي عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا أتكتب كل شيء تسمعه ورسول الله يتكلم في الرضى والغضب؟ فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله فأومأ بأصبعه الي فيه وقال «اكتب فوالذي نفسي بيده مايخرج منه الا حق»

وأخرج الذهبي في تذكرة الحفاظ أن أبا بكر كتب اكثر من اربعمائة حديث. وفي تنوير الحوالك على موطأ مالك وغيره من كتب الحديث أن عمر حاول مرارا أن يكتب السنن ثم عدل خوفا من انكباب الناس على كتب السنن مع وجود كتاب الله

وأخرج ابن عبد البر عن سعيد بن جبير أنه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل فاذا نزل نسخه. وأخرج عن معن قال أخرج اليَّ عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا وحلف أنه بخط أبيه بيده

هذه الاخبار الصحيحة وما ماثلها تدلنا على أن الحديث كتب ان لم يكن كله فجله على عهد الرسول وأصحابه الكرام والحديث يشتمل أكثر تاريخ الخلفاء كما تعلمون. وكتب فن النحو الذي أملاه عليّ بن أبي طالب على أبي الاسود الدؤلي. وكتب عبد الله بن عمرو بن العاص كتابا في الاحداث وكتابا فيما قضي به رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعها منه شفي بن مانع الأصبحي فقد نقل

المقريزي من رواية أبي سعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر عن حياة بن شريح قال: دخلت على الحسين بن شفي بن مانع وهو يقول فعل الله بفلان فقلت ماله فقال عمد الى كتابين كان شفي (يعني أباه) سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص ثم ذكر الكتابين قال فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر ممايلي الفسطاط

وأما في عصر التابعين وتابعيهم فقد كانت العناية بكتابة الاخبار أكثر وأقبل الناس على اقتناء الكتب وجمع المكتبات ومن ذلك مارواه ابن عبد البر عن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة وكان يقول: وددت لو أن عندي كتبي بأهلي ومالي: وكانت وقعة الحرة في سنة ثلاث وستين في خلافة يزيد بن معاوية وكان ابن شهاب الزهري من علماء المائة الاولى ومولده في سنة احدى وخمسين ووفاته بعد المائة اذا جلس في بيته وضع الكتب حوله فشغلته عن كل شيء كما ذكر ذلك ابن خلكان والزهري. هذا هو الذي كتب السنة في دفاتر أو كتب وزعت على الامصار بأمر عمر بن عبد العزيز

ولم يأت القرن الثاني من الهجرة حتى كثرت الكتب في فنون شتى خصوصا فنون العربية والادب فكان منها مكتبات لبعض الافراد ماأظنها توجد عند أحد منا الآن فقد ذكر ابن خلكان وغيره في ترجمة أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة المولود بين سنة خمس وستين وسبعين للهجرة والمتوفى في منتصف القرن الثاني أنه كان أعلم الناس بالقرآن والادب والعربية والشعر وكانت كتبه التى كتبت عن العرب الفصحاء قد ملات بيتا له الى قريب من السقف ثم إنه تنسك فأخرجها كلها فلما رجع الى علمه لم يكن عنده الا ماحفظه بقلبه

هؤلاء الاشخاص أيها السادة هم الذين ظفرت باسمائهم وكانوا ممن اقتنوا الكتب من منتصف القرن الاول الى منتصف القرن الثاني فما بالكم بما لم أظفر بهم وبمن لم يأت ذكرهم في التاريخ؟ لاجرم أنهم كثيرون جدا وربما لم يخل منهم مصر من الامصار الاسلامية في ذلك العصر

ما هي هذه الكتب وما هي كتب عروة التي احترقت سنة ثلاث وستين؟

أليست في علوم شتى من العلوم التي دونها العرب واشتغلوا بها ؟ وهل احترقت كتب عروة في اليوم الذي دونت فيه ؟ كلا بل كتبت هي وغيرها من الكتب في غضون القرن الاول أو على مدى هذا القرن . فاذا كان ذلك كذلك فهل يبقى مجال للريب في ان العرب دونوا علومهم في الصحف من ابتداء القرن الاول؟ وهل يستراب في صحة هذه العلوم مع ماثبت معنا من أنها كتبت مدعومة بالرواية لتكون أبعد من سهو الكاتبين وتحريف الناسخين

لا جرم أن القوم الذين يوجد فيهم من ينصرف عن الملك الى علوم الطب والكيمياء التي ندر من (كان) يشتغل بها من الامم الراقية في ذلك العصر ويؤلف في هذين العلمين حريون بتدوين اخبارهم والعناية بآدابهم . فقد ذكر المؤرخون في ترجمة خالد بن يزيد بن معاوية المتوفي في سنة خمس وثمانين للهجرة أنه كان من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما وله مسائل دالة على معرفته وبراعته وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس وله فيها ثلاث رسائل تضمنت احداهن ما جرى له مع مريانس المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار اليها وله فيها أشعار كثيرة مطولات ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسعة علمه . وكانوا يعيبونه على اشتغاله بهذه العلوم وتركه حبل الملك والخلافة على القارب حتى تمكن من سلبه منهم بنو مروان

ومن المؤلفين في ذلك العصر أي العصر الاول غير خالد بن يزيد زيادة بن سمية الذي ألحقه معاوية في اولاد أبي سفيان فجعل الناس يطعنون عليه فألف كتابا في علم الانساب في مثالب العرب وطعن فيه في انسابهم فكفوا عنه كما ذكر ذلك ابن النديم

ومنهم زائدة بن قدامة الثقفي أبو الصلت الكوفي قال ابن النديم مات سنة احدى وستين أوستين وله من الكتب كتاب السنن وكتاب القراآت وكتاب الزهد وكتاب المناقب

ومنهم عبيد بن شرية الجرهمي وكان في زمن معاوية وأدرك النبي ووفد على معاوية من اليمن فسأله عن الاخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وغير ذلك من

المسائل فأجابه عما سأل وله من الكتب كتاب الامثال وكتاب الملوك وأخبار الماضيين

ومنهم سليم بن قيس الهلالي أحد أصحاب علي بن أبي طالب وله كتاب في الحديث ويوجد هذا الكتاب الى الآن في مكتبة السيد ناصر حسين الموسوي امام الشيعة في مدينة لكناؤ في الهند كما ذكر ذلك صاحب مجلة البيان الهندية في العدد السادس من سنته الرابعة وذكر غير ذلك عدة كتب لاصحاب علي موجودة عن الشيعة الامامية يضيق المقام عن ذكرها

وأظن أن في هذا كله بيانا كافيا يقنع الذاهبين الى ان المسلمين لم يدونوا الحديث والعلوم الا في القرن الثاني للهجرة أو بعده وان رواية الاخبار والآثار التي التزمها المسلمون في كتبهم المكتوبة بعد القرن الثاني انما كانت شرطا في صحة الاخبار التي نقلوها عمن كتب قبلهم لوثوقهم برواية الرواة الكثيرين أكثر من وثوقهم بخبر الكاتب الواحد

اذ الخبر الذي يكتب في صحيفة ثم يترك لأيدي النساخ والمحرفين والدساسين ليس في الصحة بمنزلة الخبر الذي يكتب ثم يتناقله الرواة قراءة ورواية بحيث يأخذه الواحد عن الآخر كما كتب بحرفه أو معناه الى ماشاء الله

وأظنكم ايها السادة تسلمون معي ان هذه الطريقة في النقل لاتعد ثلمة في تاريخ الاسلام يتطرق منها اليه الوهن والتجريح بل تعد تحقيقا للاخبار بالغا حد الامانة والتمحيص لم تسبق اليه أمة من الامم غير المسلمين

بقي هنا اعتراض ربما يرد على ماتقدم من الكلام وهو قولهم : أين هي تلك الكتب التي دونت في القرن الاول الى منتصف القرن الثاني مع انه لم يصل الينا منها الا ماذكرت من الكتب الموجودة عند الامامية وهي في الحديث وفيما روي عن علي من بعض الخطب والاخبار وان أقدم ماوصل الينا في التاريخ كتاب فتوح الشام لابي اسماعيل الازدي البصري من علماء النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة وأين هي كتب الزهري التي جمع فيها الحديث ووزعها عمر بن عبد العزيز على الامصار

فالجواب على هذا سهل وهو أن المسلمين كانوا يتلقون كتب الاخبار قراءة

ورواية كما تقدم بيانه فلما استبحر العمران وترقت وسائل الحضارة واقتضى أن يترقى فن التأليف تنسيقا وترتيبا وكتبت في ذلك الكتب الجامعة لاصول كل فن أو فروعه أدمجت تلك الروايات أو الصحف المشتملة على مسائل متفرقة في تلك الكتب الجامعة مع محافظة المؤلفين على اسانيدها وفاء بحق الامانة وتصحيحا للاخبار كما ترون ذلك في كل كتب الفنون التي اشتغل بها العرب ودونت بعد القرن الثاني مدعومة بالرواية على طريقتهم السابقة البيان كالتاريخ والحديث وآداب اللغة العربية ولما انتفت الحاجة الى تلك الكتب القديمة قضت على اعيانها سنة بقاء الانسب بالدثور بضرورة الحال واما ما كتب فيها فهو هو بعينه ما كتب في الكتب الجامعة بعد ذلك العصر فاذا دثرت تلك الصحف التي خطتها أنامل العرب في العصر الاول فان ما كان فيها لم يزل باقيا يشهد بصحة تاريخ الاسلام والسلام اه

(المنار) نشرنا هذه الخطبة النفيسة بنصها لفائدتها واجابة لاقتراح من اقترح علينا نشرها مع كتابة شيء في الموضوع استدراكا أو انتقادا . وقد اقترح علينا من قبل غير واحد بأن نكتب شيئا في مسألة كتابة الحديث منهم الدكتور صدقي ومنهم الشيخ صالح اليافعي في حيدراباد فانه أرسل الينا رسالة مطولة في الرد على ما كتبه الدكتور صدقي في السنة الماضية بعنوان (الاسلام هو القرآن وحده) ولكن سقط منها ورقات طلبناها منه فأجابنا بأنه لا يوجد عنده أصل لما فقد واقترح علينا ان نكتب في الموضوع

أما الانتقاد على خطبة رفيق بك فلا أرى فيها شيئا يهم انتقاده الا قوله بصحة الاخبار التي نقلها في تدوين الصحابة للحديث وستعلم ما فيه وأما الاستدراك فبابه الواسع حتى يمكن وضع مؤلف خاص في هذا الموضوع من فصوله كون تعلم الكتابة لاخراج العرب من حجر الأمية الغالبة عليهم الى بحبوحة العلم من مقاصد الاسلام ، و بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، كما قال تعالى (٢:٦٢ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتابة والحكمة) الآية فالكتابة مصدر كتب (كالكتابة) ولكنه في الصدر الأول أكثر مصادر

« كتب » استعمالا كما ترى في المأثور وهذا التفسير هو المختار الذي جرينا عليه و بينا ترجيحه في التفسير عن الاستاذ الامام . و يدخل في ذلك ما ورد في تعليم الكتابة في الاخبار النبوية وآثار الصحابة وذلك كثير.

ومن فصوله مسألة كون أهل البدو أحسن حفظا من أهل الحضر لاسيما العرب منهم وقد انتقد اليونانيون وأنكروا تعلم الكتابة لاول عهدها بحجة ان الناس يتكلون على ما يكتب فيضعف حفظهم وذاكرتهم . ومنها بحث الاحتجاج بالكتب وشرط الوثوق بها عند المحدثين ولابن الصلاح في ذلك كلام حسن

وقد كتب السيد عبد الحميد افندي الزهراوي مقالة موضوعها الكتابة والتدوين والحفظ عند العرب نشرها في الجريدة (عدد ١٢٥ الصادر في ٢٤ جمادى ٢) بين فيها ان من يختبر عرب البادية اليوم وما لهم من قوة الحفظ وكثرة المحفوظ لقصائدهم ووقائعهم وخطبهم وأنسابهم لا يعجب مما نقل في حفظ سلفهم . وذكر من كتابتهم في الجاهلية المعلقات وقصص أبطال الفرس كرستم واستشهد على كتابتهم المعاهدات والمحالفات بقول الحارث بن حلزة اليشكري في معلقته :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قـــدّم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل ينـــقض ما في المهارق الاهواء

فالمهارق جمع مهرق وهي الصحائف وقيل المهرق ثوب حرير أبيض يسقي الصمغ و يصقل ثم يكتب فيه . وذكر أيضا منها قول هشام بن الكلبي كنت استخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة

وذكر من شواهد تدوينهم بعد الاسلام مسألة أمر عمر بن عبد العزيز بكتابة السنن نقلا عن ابن عبد البر وما جاء في اعلام الموقعين عن سفيان بن عيينة عن ادريس بن ادريس قال أتيت سعيد بن أبي بردة فسألته عن رسل عمر بن الخطاب التي كان يكتب بها الى أبي موسى الاشعري وكان أبو موسى قد أوصى الى ابن أبي بردة فأخرج اليه كتبا منها : قال كتب عمر الى أبي موسى الاشعري « أما بعد فان

القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة» الخ

أقول لعل أول من كتب الحديث وغيره من التابعين في القرن الأول وجعل ما كتبه مصنفا مجموعا خالد بن معدان الحمصي روي عنه انه لقي ٧٠ صحابيا قال في تذكرة الحفاظ وقال بحير: مارأيت أحداً ألزم للعلم منه وكان علمه في مصحف له أزرار وعرى: والمراد بالمصحف الصحف المكتوبة المجموعة ولا يوجد في العربية لفظ كهذا يدل على هذا المعنى بالنص فان لفظ «الكتاب» المستعمل للدلالة على الصحف المجموعة في نحو جلد يطلق على الورقة أو الصحيفة الواحدة ولذلك اتفقوا على تسمية القرآن المكتوب عند جمعه بالمصحف وكان قبل ذلك يسمى كتابا ولا يسمى مصحفا فخالد بن معدان جمع علمه في مصنف واحد جعل له وقاية لها أزرار وعرى تمسكها لئلا يقع شيء من تلك الصحف وكان ذلك في القرن الأول طبعاً فانه مات سنة ثلاث ومئة أو أربع ومئة

ولكن المشهور ان أول من كتب الحديث مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي ولعل سبب ذلك أخذ امراء بني أمية عنه:

قال أبو الزناد: كنا نطوف مع الزهري على العلماء ومعه الألواح والصحف يكتب كل ماسمع: يعني من الحديث وغيره فقد روى أبو صالح عن الليث قال ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهري يحدث في الترغيب فتقول لا يحسن الا هذا وان حدث عن العرب والانساب قلت لا يحسن الا هذا وان حدث عن القرآن والسنة فكذلك: وقال عبد الرزاق سمعت معمراً يقول كنا نرى انا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل الوليد بن يزيد فاذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه يقول من علم الزهري. اه من تذكرة الحفاظ

وجاء في ترجمته فيها ان هشام بن عبد الملك سأل الزهري ان يملي على بعض ولده شيئاً فأملى عليه أربع مئة حديث ... ثم لقي هشاماً بعد شهر او نحوه فقال للزهري ان ذلك الكتاب ضاع فدعا بكاتب فأملاها عليه ثم قابل بالكتاب الأول فما غادر حرفاً واحداً. (قال) ومن حفظ الزهري أنه حفظ القرآن في ثمانين ليلة. وفي هذا دليل على ان كتابة الحديث كانت شائعة في عصره أي

أواخر القرن الأول وأوائل الثاني فقد ولد الزهري سنة خمسين للهجرة وتوفي سنة أربع وعشرين ومئة ولا تنس ما كتبناه آنفا عن خالد بن معدان

وقال الحافظ في ترجمة عمرو بن دينار انه كان يحدث على المعنى و يقول لا أتحرج على من يكتب عني. وهو قد ولد سنة ست وأربعين

ومن أراد تتبع تراجمهم في كتب المحدثين يجد من هذه المسائل شيئا كثيرا

وما رأينا أحدا وفى البحث في تدوين الصحابة والتابعين للحديث حقه مثل الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر وانا ننقل ما كتبه في ذلك برمته ثم نستدرك عليه مارواه غيره اوشايعه على ماراوه ثم نبين رأينا فيه قال في جامع بيان العلم (نقلا عن مختصره)

﴿ باب ذكر كراهية كتاب العلم وتخليده في الصحف ﴾

عن أبي سعيد الخدري(١) رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه» ودخل زيد بن ثابت على معاوية فسأله عن حديث وأمر انسانا أن يكتبه فقال له زيد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن لا نكتب شيئاً من حديثه فمحاه. وعن عبد الله بن يسار قال: سمعت عليا يخطب يقول: أعزم علي كل من عنده كتاب إلا رجع فمحاه فانما هلك الناس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم. وعن أبي نضرة(٢) قال: قلت لأبي سعيد الخدري: ألا نكتب ما نسمع منك قال تريدون أن تجعلوها مصاحف إن نبيكم صلى الله عليه وسلم كان يحدثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ: وعن ابن وهب قال سمعت مالكاً يحدث أن عمر بن الخطاب(٣) أراد أن يكتب هذه الأحاديث أو كتبها ثم قال: لا كتاب مع

---

(١) هو سعيد بن مالك الصحابي الجليل ولأبيه صحبة وروى الكثير مات بالمدينة سنة ٦٥ وقيل ٧٤ هـ من التقريب (٢) هو المنذر بن مالك بن قطعة العبدي العوقي مات سنة ١٠٨ هـ من التقريب (٣) أمير المؤمنين والخليفة الثاني ملأ طباق الارض بسيرته وعدله رضي الله عنه استشهد سنة ٢٣ من الهجرة اه من التقريب مع زيادة

كتاب الله . قال مالك لم يكن مع ابن شهاب كتاب إلا كتاب فيه نسب قومه قال ولم يكن القوم يكتبون انما كانوا يحفظون فمن كتب منهم الشيء فانما كان يكتبه ليحفظه فاذا حفظه محاه . وعن عروة أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب رسول الله في ذلك فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له . فقال : اني كنت أريد أن أكتب السنن واني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله واني والله لاأشوب (وفي نسخة لا أنسي) كتاب الله بشيء أبدا : وعن ابن عباس أنه قال : إنا لانكتب العلم ولا نُكتبه : وعن الشعبي (١) أن مروان دعا زيد بن ثابت وقوما يكتبون وهو لا يدري فأعلموه فقال أتدرون لعل كل شيء حدثكم به ليس كما حدثكم وعن ابن سيرين (٢) قال انما ضلت بنو اسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم

وعن الأسود بن هلال (٣) قال أُتي عبد الله بن مسعود بصحيفة فيها حديث فدعا بماء فمحاها ثم غسلها ثم أمر بها فأحرقت ثم قال أذكّر الله رجلا يعلمها عند أحد إلا أعلمني به والله لو أعلم أنها بدير هند لبلغتها بهذا هلك أهل الكتاب قبلكم حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . وعن الضحاك قال يأتي على الناس زمان يكثر فيه الأحاديث حتى يبقى المصحف بغباره لاينظر فيه . وعن ابن عباس أنه كان ينهى عن كتاب العلم وقال إنما ضل من قبلكم بالكتب

(١) هو أبو عمر عامر بن شراحيل الشعبي كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم روي أن ابن عمر مرّ به يوما وهو يحدث بالمغازي فقال شهدت القوم وإنه لأعلم بها مني . وقال الزهري العلماء أربعة ابن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام ويقال إنه أدرك خمسمائة صحابي ومات سنة (١٠٤) فجأة ه من ابن خلكان (٢) هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري أحد فقهاء البصرة تابعي جليل مات سنة (١١٠) بالبصرة ه من ابن خلكان (٣) المحاربي الكوفي مخضرم ثقة جليل مات سنة (٨٤) اه من التقريب

وعن أيوب قال سمعت سعيد بن جبير (١) قال كنا نختلف في أشياء فنكتبها في كتاب ثم أتيت بها ابن عمر أسأله عنها خفيا فلو علم بها لكانت الفيصل بيني وبينه وعن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال أصبت أنا وعلقمة صحيفة فانطلق معي الى ابن مسعود فيها وقد زالت الشمس أو كادت تزول فجلسنا بالباب ثم قال للجارية انظري من بالباب فقالت علقمة والاسود فقال إئذني لهما فدخلنا فقال كأنكما قد أطلتما الجلوس قلنا أجل قال فما منعكما أن تستأذنا قالا خشينا أن تكون نائما قال ما أحب أن تظنا بي هذا إن هذه ساعة كنا نقيسها بصلاة الليل فقلنا هذه صحيفة فيها حديث حسن قال هاتها، ياجارية هاتي الطست واسكبي فيه ماء فجعل يمحوها بيده ويقول (نحن نقص عليك أحسن القصص) قلنا انظر فيها فان فيها حديثا عجيبا فجعل يمحوها ويقول ان هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره قال أبو عبيد (أحد رواة هذه القصة) يرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب فلذا كره عبد الله رحمه الله النظر فيها

وقال مسروق لعلقمة اكتب لي النظائر قال أما علمت أن الكتاب يكره قال بلى أريد أن أحفظها ثم أحرقها وعن القاسم أنه كان لايكتب الحديث وعن ابن شبرمة (٢) قال سمعت الشعبي يقول ما كتبت سوادا في بياض قط ولا استعدت حديثا من انسان مرتين . وعن اسحاق بن اسماعيل الطالقاني (٣) قال قلت لجرير يعني ابن عبد الحميد أكان منصور يعني ابن المعتمر يكره كتاب الحديث قال نعم منصور ومغيرة والاعمش كانوا يكرهون كتاب الحديث وعن الوليد بن مسلم قال سمعت الاوزاعي يقول كان هذا العلم شيئا شريفا إذ كان من أفواه الرجال يتلاقونه ويتذاكرونه

(١) الأسدي بالولاء أحد أعلام التابعين أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر قتل بين يدي الحجاج سنة ٩٥ للهجرة بواسط ه من ابن خلكان

(٢) هو عبد الله ابن شبرمة بن الطفيل بن حسان الضبي الكوفي القاضي ثقة فقيه مات سنة ١٤٤ اه من التقريب (٣) نزيل بغداد يعرف باليتيم ثقة تكلم في سماعه من جرير وحده مات سنة ٣٢ اه من التقريب

فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار إلى غير أهله وعن الفضيل بن عمرو (١) قال قلت لابراهيم إني آتيك وقد جمعت المسائل فاذا رأيتك كأنما تختلس مني وأنت تكره الكتاب قال لا عليك فانه قلما طلب انسان علما إلا آتاه الله منه ما يكفيه وقلما كتب رجل كتابا إلا اتكل عليه

(قال أبو عمر) من كره كتاب العلم إنما كرهه لوجهين أحدهما أن لا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ كما قال الخليل (٢)

﴿ ليس بعلم ما حوى القمطر * ما العلم الا ما حواه الصدر ﴾

وأنشدني بعض شيوخي لمحمد بن بشير باسناد لا أحفظه

﴿ أما لو أعي كل ما أسمع * وأحفظ من ذاك ما أجمع ﴾
﴿ ولم أستفد غير ما قد جمعـــت لقيل هو العالم المقنع ﴾
﴿ ولكن نفسي إلى كل فـــن من العلم تسمعه تنزع ﴾
﴿ فلا أنا أحفظ ما قد جمعـــت ولا أنا من جمعه أشبع ﴾
﴿ ومن يك في علمه هكذا * يكن دهره القهقرى يرجع ﴾
﴿ اذا لم تكن حافظا واعيا * فجمعك للكتب لا ينفع ﴾
﴿ أأحضر بالجهل في مجلسي * وعلمي في الكتب مستودع ﴾

وقال أبو العتاهية (٣)

(١) الفقيمي أبو النضر الكوفي ثقة مات سنة عشر ومائة اهـ من التقريب (٢) ابن أحمد الأزدي اليحمدي كان إماماً في النحو وهو الذي استنبط علم العروض قال حمزة الاصبهاني في حقه في كتابه الذى سماه التنبيه على حدوث التصحيف . وبعد فان دولة الاسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل مات سنة ١٧٠ وقيل ١٧٥ اهـ من ابن خلكان

(٣) هو أبو اسحق اسمعيل بن القاسم العنزي بالولاء الشاعر المشهور المتوفى ببغداد سنة ٢١١ وله ديوان جمعه ابن عبد البرّ صاحب أصل هذا المختصر هـ من ابن خلكان (كذا في هامش الكتاب)

﴿ من مُنيع الحفظ وعى * من ضيع العلم وهم ﴾

وقال أعرابي حرف في تامورك خير من عشر في كتبك (وقال أبو عمر) التامور علقة القلب وسمع يونس بن حبيب رجلا ينشد

﴿ استودعَ العلم قرطاساً فضيعه * وبئس مستودع العلم القراطيس ﴾

فقال يونس قاتله الله ما أشد صيانته للعلم وصيانته للحفظ ان علمك من روحك وان مالك من بدنك فصن علمك صيانتك روحك وصن مالك صيانتك بدنك

(قال أبو عمر) من ذكرنا قوله في هذا الباب فانما ذهب في ذلك مذهب العرب لأنهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك والذين كرهوا الكتاب كابن عباس والشعبي وابن شهاب والنخعي وقتادة ومن ذهب مذهبهم وجبل جبلتهم كانوا قد طبعوا على الحفظ فكان أحدهم يجتزي بالسمعة ألا ترى ما جاء عن ابن شهاب أنه كان يقول اني لأمر بالبقيع فأسد آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته وجاء عن الشعبي نحوه وهؤلاء كلهم عرب وقال صلى الله عليه وسلم « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » وهذا مشهور أن العرب قد خصت بالحفظ كان بعضهم يحفظ أشعار بعض في سمعة واحدة وقد جاء عن ابن عباس انه حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة ﴿ أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ﴾ في سمعة واحدة فيما ذكروا وليس أحد اليوم على هذا ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم وقد أرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب العلم ورخص فيه جماعة من العلماء وحمدوا ذلك ونحن ذاكروه بعد هذا بعون الله إن شاء الله وقد دخل على ابراهيم النخعي (١) شيء في حفظه لتركه الكتاب وعن منصور قال كان ابراهيم يحذف الحديث فقلت له إن سالم بن الجعد يتم الحديث قال ان سالما كتب وأنا لم أكتب

(قال أبو عمر) فهذا النخعي مع كراهته لكتاب الحديث قد أقر بفضل الكتاب

﴿ باب الرخصة في كتاب العلم ﴾

عن أبي هريرة قال لما فتحت مكة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر

(١) أحد الأئمة المشهورين تابعي جليل ونسبته الى النخع قبيلة من مذحج باليمن هـ من تاريخ ابن خلكان

الخطبة خطبة النبي صلى الله عليه وسلم قال فقام رجل من اليمن يقال له أبو شاة فقال يارسول الله اكتبوا لي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اكتبوا لأبي شاة » يعني الخطبة وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قلت يارسول الله أكتب كل ما أسمع منك قال « نعم » قلت في الرضى والغضب قال « نعم فاني لا أقول في ذلك كله الا حقا » وعن همام بن منبه (١) أنه سمع أبا هريرة يقول لم يكن أحد من اصحاب محمد أكثر حديثا مني الا عبد الله بن عمرو فانه كتب ولم أكتب وعن عبد الله بن عمرو قال كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا أتكتب كل شيء تسمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم في الرضا والغضب فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومى بأصبعه إلى فيه وقال « اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه الا حق » وعن مطرّف بن طريف (٢) قال سمعت الشعبي يقول أخبرني أبو جحيفة قال قلت لعلي بن أبي طالب هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن قال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة الا أن يعطى الله عبدا فهما في كتابه وما في هذه الصحيفة قلت وما في الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الاسير وأن لا يقتل مسلم بكافر: وقد روي عن علي رضي الله عنه في هذه الصحيفة وجهان أحدهما تحريم المدينة ولعن من انتسب الى غير مواليه في حديث فيه طول وفيه « المسلمون تتكافأ دماؤهم » الحديث رواه عن علي يزيد التيمي وخلاس وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره وعن أبي جعفر بن علي قال وجد في قائم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيفة مكتوب فيها « ملعون من أضل أعمى عن سبيل ملعون من سرق تخوم الارض ملعون من تولى غير مواليه أو قال ملعون من جحد نعمة من أنعم عليه » وعن عبد الله ابن عمرو قال ما يرغبني في الحياة الا خصلتان الصادقة والوهط (٣) فأما الصادقة

(١) بن كامل الصنعاني أخو وهب ثقة مات سنة ١٣٢ اه تقريب (٢) ثقة فاضل مات سنة ١٤١ وقيل بعدها ه تقريب التهذيب لابن حجر (٣) الوهط المكان المطمئن من الارض وقيل موضع وقيل قرية بالطائف ه لسان العرب

فصحيفة كتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو ابن العاص كان يقوم عليها . وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قيدوا العلم بالكتاب » وعن عبد الملك بن سفيان عن عمه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول « قيدو العلم بالكتاب » وعن معن قال أخرج الي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا وحلف لي أنه خط أبيه بيده وعن أبي كبران قال سمعت الضحاك يقول اذا سمعت شيئاً فاكتبه ولو في حائط: وعن سعيد بن جبير انه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل فاذا نزل نسخه وعن أبي قلابة قال الكتاب أحب الينا من النسيان وعن أبي المليح قال يعيبون علينا الكتاب وقد قال الله تعالى (٢٠: ٥٢ علمها عند ربي في كتاب) وعن عطاء عن عبد الله بن عمرو قلت يارسول الله أأقيد العلم قال « قيد العلم » قال عطاء قلت وما تقييد العلم؟ قال الكتاب . وعن عبد العزيز بن محمد الداوردي (١) قال أول من دون العلم وكتبه ابن شهاب . وعن عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه قال كنا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع فلما احتيج اليه علمت أنه أعلم الناس . وعن سوارة ابن حيان قال سمعت معاوية ابن قرة يقول من لم يكتب العلم فلا تعدوه عالما . وعن محمد بن علي قال سمعت خالد ابن خداش البغدادي (٢) قال ودعت مالك بن أنس فقلت يا أبا عبد الله أوصني قال عليك بتقوى الله في السر والعلانية والنصح لكل مسلم وكتابة العلم من عند أهله وعن الحسن أنه كان لا يرى بكتاب العلم بأساً وقد كان أملى التفسير فكتب

وعن الاعمش قال قال الحسن ان لنا كتبا نتعاهدها . وقال الخليل بن أحمد اجعل ما تكتب بيت مال وما في صدرك للنفقة . وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة (٣) وكان يقول وددت لو أن عندي كتبي بأهلي ومالي . وعن سليمان ابن موسى قال يجلس الى العالم ثلاثة رجل يأخذ كل ما سمع فذلك حاطب ليل

(١) صدوق كان يحدث من كتب غيره مات سنة ١٨٦ ه تقريب

(٢) أبو الهيثم المهلبي مولاهم البصري صدوق يخطىء مات سنة ٢٢٤ ه تقريب

(٣) الحرّة موضع بظاهر المدينة به كانت واقعة الحرّة أيام يزيد ه قاموس

ورجل لا يكتب (١) و يسمع فذلك يقال له جليس العالم ورجل ينتقي وهو خيرهم وهذا هو العالم . وعن اسحاق بن منصور قال قلت لأحمد بن حنبل من كره كتابة العلم؟ قال كرهه قوم ورخص فيه آخرون قلت له لو لم يكتب العلم لذهب قال نعم لولا كتابة العلم أي شيء كنا . قال اسحاق وسألت اسحاق بن راهويه فقال كما قال أحمد سواء . وعن حاتم الفاخر وكان ثقة قال سمعت سفيان الثوري يقول اني أحب أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه حديث رجل أكتبه أريد أن أتخذه دينا وحديث رجل أكتبه فأوقفه لا أطرحه ولا أدين به وحديث رجل ضعيف أحب أن أعرفه ولا أعبأ به . وقال الأوزاعي تعلم مالا يؤخذ به كما تتعلم ما يؤخذ به وعن سعد بن ابراهيم قال أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث الى كل أرض له عليها سلطان دفترا . وعن أبي زرعة قال سمعت أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين يقولان كل من لا يكتب العلم لا يؤمن عليه الغلط . وعن الزهري قال كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الامراء فرأينا أن لا نمنعه أحدا من المسلمين . وذكر المبرد قال قال الخليل بن أحمد ما سمعت شيئا الا كتبته ولا كتبته الا حفظته ولا حفظته إلا نفعني » اه كلام ابن عبد البر

استدراك على ابن عبد البر

﴿ في الاذن بكتابة العلم والمنع منها ومن خرج أحاديثه ﴾

روى ابن النجار في تاريخه من حديث حذيفة « اكتبوا العلم قبل ذهاب العلماء وانما ذهاب العلم بموت العلماء » والحديث لا يصح وهو عام في كل علم

وروى الديلمي من حديث علي « اكتبوا هذا العلم فانكم تنتفعون به إما في

(١) المنار : كذا في الأصل والظاهر أن (لا) زائدة ليكون من الشواهد على الكتابة . وحاطب ليل مثل يضرب لمن لا يميز فيما يسمعه أو يأخذه بين غث وسمين ونافع وضار كمن يحتطب ليلا فيأخذ الأفعى والحجر فيما يجمعه يظنهما حطبا . والذي ينتقي هو الذي يمحص ما يسمع فيميز بين الصدق والكذب والمعقول وغير المعقول

دنياكم واما في آخرتكم وان العلم لا يضع صاحبه » وفي سنده محمد بن علي بن الاشعث كذبوه فالحديث موضوع

وروى الحاكم وابو نعيم وابن عساكر من حديث علي « اذا كتبتم الحديث عني فاكتبوه باسناده فان يك حقا كنتم شركاء في الاجر وان يك باطلا كان وزره عليه » وهو ينادي على نفسه بالوضع وان واضعه جاهل بالعربية الصحيحة بله الفصيحة فان الاسناد من اصطلاح المحدثين والكتابة عنه صلى الله عليه وسلم تنافي الاسناد

وروى ابن عساكر في تاريخه من حديث أبي بكر « من كتب عني علما أو حديثا لم يزل يكتب له الاجر مابقي ذلك العلم والحديث » وهو ضعيف وفيه عطف الحديث على العلم وذلك يقتضي المغايرة بينهما ولو بالعموم والخصوص

وروى الحكيم الترمذي والطبراني وسمويه والخطيب في تقييد العلم عن رافع ابن خديج قال قلت يارسول الله انا نسمع منك اشياء فنكتبها قال « اكتبوا ولا حرج » وهو حديث ضعيف كما علم من ايراد السيوطي له في الجامع الكبير

وروى الحكيم الترمذي وسمويه من حديث أنس « قيدوا العلم بالكتاب » وهو ضعيف ايضا . أما سنده عند ابن عبد البر ففيه عبد الحميد بن سليمان عن عبد الله بن المثنى وقد أورده الذهبي في الميزان وقال عبد الحميد وأخوه فليح ضعيفان . وذكر قبل ذلك تضعيف غير واحد لعبد الحميد . والحديث مروي عن عبد الله ابن عمرو كما تقدم عن ابن عبد البر

ومن الآثار مارواه ابن عساكر عن الحسن بن جابر قال سألت أبا أمامة عن كتاب العلم فلم ير به بأسا . وهو عام في كل علم وسنده ضعيف . وروى الحاكم والدارمي عن عمر أنه قال « قيدوا العلم بالكتاب » وهو عام وأما رأيه في الحديث خاصة أو السنن وهي أهم من الاحاديث فقد تقدم فيما رواه عنه ابن عبد البر انه ما كان يرى ذلك وروى عنه ابن سعد مثل هذا أيضا

ومن الاستدراك عليه في النهي عن كتابة الحديث خاصة ما جاء في كنز العمال نقلا عن الجامع الكبير للسيوطي وهو:

«قال الحافظ عماد الدين ابن كثير في مسند الصديق قال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري حدثنا بكر بن محمد الصيرفي بمرو حدثنا موسى بن حماد ثنا المفضل بن غسان ثنا علي بن صالح حدثنا موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن عن ابراهيم ابن عمرو بن عبيد الله التيمي حدثنا القاسم بن محمد قال قالت عائشة جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت خمسمائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيرا قالت فغمني فقلت تتقلب لشكوى أو لشيء بلغك فلما أصبح قال «أي بنية هلمي الاحاديث التي عندك فجئته بها فدعا بنار فأحرقها وقال خشيت أن أموت وهي عندك فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثني فأكون قد تقلدت ذلك» وقد رواه القاضي أبو أمية الاحوص بن المفضل بن غسان الغلابي عن أبيه عن علي بن صالح عن أبي موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وعن ابراهيم بن عمر بن عبيد الله التيمي حدثني القاسم بن محمد أو ابنه عبد الرحمن بن القاسم — شك — موسى فيهما قال قالت عائشة فذكره وزاد بعد قوله: فأكون قد تقلدت ذلك: «ويكون قد بقي حديث لم أجده فيقال لو كان قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخفي على أبي بكر إني حدثتكم الحديث ولا أدري لعلي لم أسمعه حرفا حرفا» قال ابن كثير هذا غريب من هذا الوجه جدا وعلي بن صالح لا يعرف والاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من هذا المقدار بألوف ولعله انما اتفق له جمع تلك فقط ثم رأى ما رأى لما ذكر

(قال السيوطي) «قلت ولعله جمع مافاته سماعه من النبي صلى الله عليه وسلم وحدثه به عنه بعض الصحابة كحديث الجدة ونحوه والظاهر أن ذلك لا يزيد على هذا المقدار لأنه كان احفظ الصحابة وعنده من الأحاديث مالم يكن عند أحد منهم كحديث ما دفن نبي الا حيث يقبض ثم خشي أن يكون الذي حدثه وهم فكره تقلده ذلك وذلك صريح في كلامه

التعادل والترجيح بين روايات المنع وروايات الرخصة

الأحاديث في باب الرخصة بكتابة الحديث أو العلم مروية عن نفر من الصحابة

(١) حديث أبي هريرة «اكتبوا لأبي شاه» وهو في الصحيحين وموضوعه خاص وروى عنه البخاري قوله إن عبد الله بن عمرو كان يكتب وانه هو لم يكن يكتب. وله حديث عند الترمذي أن النبي (ص) أذن لرجل سيء الحفظ بأن يستعين بيمينه

(٢) حديث أنس «قيدوا العلم بالكتاب» تقدم أنه ضعيف

(٣) حديث أبي بكر «من كتب عني علما أو حديثا» تقدم أنه ضعيف أيضا

(٤) حديث رافع ابن خديج «اكتبوا ولا حرج» تقدم أنه ضعيف أيضا

(٥) حديث حذيفة «اكتبوا العلم قبل ذهاب العلماء» ضعيف أيضا كما تقدم بل يشم منه رائحة الوضع

(٦) حديث علي في الصحيفة وهو صحيح رواه أحمد والبخاري والثلاثة وموضوعها خاص ومنسوب الى الوحي. وحديثه «اذا كتبتم عني الحديث» الخ تقدم مافيه وكذلك حديثه «اكتبوا هذا العلم» الخ

(٧) كتاب الصدقات والديات والفرائض لعمرو بن حزم رواه أبو داود والنسائي وابن حبان والدارمي وموضوعه خاص. وانما كتب له ذلك ليحكم به اذ ولي عمل نجران

(٨) حديث عبد الله بن عمرو هو أكثر ما ورد في الباب وقد جاء بألفاظ مختلفة من طريقين فيما أعلم الآن عند أحمد وأبي داود والحاكم فالطريق الأول عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أي عبد الله ابن عمرو بن العاص فهو جده. وهذا الطريق فيه مقال مشهور للمحدثين لم يمنع بعض المتأخرين من الاحتجاج به وهو تساهل منهم. وأما المتقدمون فقد قال في الميزان قال أبو داود سمعت أحمد بن حنبل يقول: أهل الحديث إذا شاؤا احتجوا بعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده واذا شاؤا تركوه: يعني لترددهم في شأنه. وقال عبد الملك الميموني سمعت أحمد بن حنبل يقول: عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده له أشياء مناكير وانما نكتب حديثه لنعتبر به فأما أن يكون حجة فلا: وقال أبو عبيد الآجري قيل لأبي داود: عن عمرو بن شعيب عن

أبيه عن جده حجة ؟ قال لا ولا نصف حجة . وقال ابن أبي شيبة سألت ابن المديني عن عمرو بن شعيب فقال ماروى عنه أيوب وابن جريج فذلك كله صحيح وما روي عمرو عن أبيه عن جده فانما هو كتاب وجده فهو ضعيف : فهذا قد ضعفه لانه اعتمد على ماراه مكتوبا وهو لم يروه رواية

والطريق الثاني عن عبد الله بن المؤمل عن ابن جريج عن عطاء عنه بلفظ « قيدوا العلم » وعبد الله بن المؤمل قال أحمد أحاديثه مناكير وقال النسائي والدارقطني ضعيف. ولاحاجة الى مراجعة طريق ابن عساكر فقد جزم السيوطي بضعفها

أما ماوراه عنه ابن عبد البر من قوله « ما يرغبني في الحياة الاخصلتان » الخ في سنده ليث عن مجاهد . وليث هذا هو ابن أبي سليم ضعفه يحيي والنسائي وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبي قال مارأيت يحيي بن سعيد أسوأ رأيا في أحد منه في ليث ومحمد بن اسحق وهمام لايستطيع أحد أن يراجعه فيهم . ذكره في الميزان وذكروا أنه اختلط في آخر عمره

وأما ماورد في المنع فأقواه حديث أبي سعيد الخدري المتقدم عن كتاب العلم لابن عبد البر « لاتكتبوا عني شيئا الا القرآن فمن كتب عني غير القرآن فليمحه » وهو في صحيح مسلم ومسند الامام أحمد وهو أصح ماورد في باب النهي عن كتابة الحديث والسنة . ولا يعارضه حديث « اكتبوا لابي شاه » ومافي معناه من الأمر على تقدير صحته ولايقوم حجة على من يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن كتابة حديثه لانه لا يريد أن يكون دينا عاما دائما كالقرآن

ولذلك وجوه (أحدها) أن ماأمر بكتابته لابي شاه — وهو خطبته ثاني يوم فتح مكة — يحتمل أن يكون خاصا به . (ثانيها) أنه كان مما قال فيه « فليبلغ الشاهد الغائب » كخطبته يوم حجة الوداع . فلما طلب أبو شاه أن يكتب له ماقاله فهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لايتيسر له هذا التبليغ الا اذا كتبه ولعله كان سيء الحفظ فأمر أن يكتب له كما طلب (ثالثها) أن حديث النهي عن الكتابة مقيد بابقاء المكتوب وفيه الرخصة الصريحة لمن يكتب موقتا ثم

يمحوه . ويؤيد هذا المعنى ماورواه ابن عبد البر عن زيد بن ثابت وابن مسعود وعلي في محو المكتوب وما رواه من قول مالك « فمن كتب منهم الشيء فانما كان يكتبه ليحفظه فاذا حفظه محاه .

وهذا الوجه يصلح جوابا عن حديث الاذن لعبد الله بن عمرو بالكتابة ويؤيده قول عبد الله : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم « أريد حفظه » فصرح بأنه كان يكتب ليحفظ . وقد علمت ماقال أئمة الحديث في رواية حفيده عن النسخة المكتوبة . ويصلح أيضا جوابا عن صحيفة علي وكتاب عمرو بن حزم

ولو فرضنا أن بين أحاديث النهي عن الكتابة والاذن بها تعارضا يصح أن يكون به أحدها ناسخا للآخر لكان لنا أن نستدل على كون النهي هو المتأخر بأمرين أحدها استدلال من روي عنهم من الصحابة الامتناع عن الكتابة ومنعها بالنهي عنها وذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وثانيهما عدم تدوين الصحابة الحديث ونشره ولو دونوا ونشروا التواتر ما دونوه

فعزيمة علي على من عنده كتاب أن يمحوه — وقول أبي سعيد الخدري « تريدون أن تجعلوها مصاحف ؟ » وقول عمر بن الخطاب عند الفكر في كتابة الأحاديث أو بعد الكتابة « لا كتاب مع كتاب الله » في الرواية الأولى — وقوله في الرواية الثانية بعد الاستشارة في كتابتها « والله اني لاأشوب كتاب الله شيء أبدا » — وقول ابن عباس « كنا نكتب العلم ولانُكتبه » أي لانأذن لأحد أن يكتبه عنا — ونهيه في الرواية الاخرى عن الكتابة وقوله الذي تقدم في ذلك — ومحو زيد بن ثابت الصحيفة ثم احراقها وتذكيره بالله من يعلم أنه يوجد صحيفة أخرى في موضع آخر ولو بعيد أن يخبره بها ليسعى اليها ويحرقها وقوله الذي تقدم في ذلك — وقول سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه لو كان يعلم بأنه يكتب عنه لكان ذلك فاصلا بينهما — ومحو عبد الله بن مسعود الصحيفة التي جاءه بها عبد الرحمن بن الاسود وعلقمة وقوله عند ذلك « ان هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره » — كل هذا الذي أورده ابن عبد البر وأمثاله مما رواه غيره كاحراق أبي بكر لما

كتبه وعدم وصول شيء من صحف الصحابة الى التابعين وكون التابعين لم يدونوا الحديث لنشره الا بأمر الامراء يؤيد ماورد من أنهم كانوا يكتبون الشيء لاجل حفظه ثم يمحونه

واذا أضفت الى هذا ماورد في عدم رغبة كبار الصحابة في التحديث بل في رغبتهم عنه بل في نهيهم عنه قوي عندك ترجيح كونهم لم يريدوا ان يجعلوا الأحاديث دينا عاما دائما كالقرآن . ولو كانوا فهموا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه يريد ذلك لكتبوا ولأمروا بالكتابة ولجمع الراشدون ما كتب وضبطوا ما وثقوا به وأرسلوه الى عمالهم ليبلغوه ويعملوا به ولم يكتفوا بالقرآن والسنة المتبعة المعروفة للجمهور بجريان العمل بها . وبهذا يسقط قول من قال ان الصحابة كانوا يكتفون في نشر الحديث بالرواية

واذا أضفت الى ذلك كله حكم عمر بن الخطاب على أعين الصحابة بما يخالف بعض تلك الاحاديث ثم ما جرى عليه علماء الأمصار في القرن الاول والثاني من اكتفاء الواحد منهم كابي حنيفة بما بلغه ووثق به من الحديث وان قل وعدم تعنيه في جمع غيره اليه ليفهم دينه ويبين أحكامه قوي عندك ذلك الترجيح

بل تجد الفقهاء — بعد اتفاقهم على جعل الاحاديث أصلا من أصول الاحكام الشرعية وبعد تدوين الحفاظ لها في الدواوين وبيان ما يحتج به وما لا يحتج به — لم يجتمعوا على تحرير الصحيح والاتفاق على العمل به فهذه كتب الفقه في المذاهب المتبعة لاسيما كتب الحنفية فالمالكية فالشافعية فيها مئات من المسائل المخالفة للأحاديث المتفق على صحتها ولا يعد أحد منهم مخالفا لاصول الدين

وقد أورد ابن القيم في اعلام الموقعين شواهد كثيرة جدا من رد الفقهاء للأحاديث الصحيحة عملا بالقياس أو لغير ذلك ومن أغربها أخذهم ببعض الحديث الواحد دون باقيه . وقد أورد لهذا أكثر من ستين شاهدا (فلتراجع في ج ١٤ و١٥ و١٦ من مجلد المنار السادس). وسنورد في الجزء الآتي شيئا مما ورد في نهي الصحابة عن الرواية وفي عملهم بالحديث كيف كان، فقد أطلنا الآن،

(تصحيح غلط مهم في ص ٧٥٢) ففي س ٢١ الواسع وصوابه «واسع» وفي س ٢٤ يتلوا عليهم : وصوابه «يتلو عليهم» وفيه الكتابة وصوابه «الكتاب» وفي أول س ٢٥ فالكتابة وصوابه «فالكتاب» وفيه : أكثرا: وصوابه «كان أكثر»

إصلاح الأزهر

يرى أصحاب العقول الكبيرة من مصالح الأمم ما لا يراه غيرهم من العقلاء الا بعد زمن طويل من دعوتهم اليه فقد رأى الاستاذ الامام في أواخر مدة طلبه للعلم من حاجة الأزهر الى الاصلاح مالم يكن يراه غيره من قومه وكان يدعو الى ذلك في كل وقت بما تقتضيه حاله حتى كان في أول ولاية العباس ما كان من سعيه لديه في الاصلاح المعروف وكان من قواعد الاصلاح المتبعة عند الاستاذ الامام ان يكون اصلاح الازهر بشيوخه وان لا يكون للحكومة سلطان عليه في ذلك حتى قال لي غير مرة : انني مادمت في الازهر لا أدع سبيلا لتداخل الحكومة فيه

وكان للأمير رأي في الازهر ذكره في خطابه الذي ألقاه على العلماء يوم خلع على الشيخ عبد الرحمن الشربيني خلعة مشيخة الجامع وهو ان يبقى على حاله وان لا يكون للحكومة شأن فيه الا حفظ النظام وتستعيض عن تربيته وتعليمه لقضاة الشرع بانشاء مدرسة خاصة يتخرجون فيها

وبعد ان أنشئت مدرسة القضاء الشرعي على أحسن وضع ممكن بدا للأمير في إصلاح الازهر فأمر بتأليف لجنة رئيسها ناظر الحقانية ومن اعضائها مدير الاوقاف ورئيس الديون الخديوي للنظر في طرق الاصلاح ووضع تقرير فيه .

وقد بلغنا ان هذه اللجنة تستمد من تقرير ملخص من تقريرين للاستاذ الامام رحمه الله تعالى قدم أحدهما الى المعية وموضوعه إصلاح التعليم في الازهر والآخر إلى ديوان الاوقاف وموضوعه زيادة المرتبات الشهرية للعلماء على طريقة تساعد الاصلاح

وقد شاع أن أساس الاصلاح الجديد هو أن يكون للأزهر مجلس أعلى فوق مجلس ادارته من أعضائه رئيس الديوان الخديوي ومدير الأوقاف وعضو من أعضاء مجلس شورى القوانين وعضوان من المشتغلين بالتعليم في المعارف . وباقي أعضائه شيخ الأزهر وهو الرئيس والمفتي وأحد اعضاء مجلس ادارته وأحد مشايخ الأروقة فيه وهذان يختارهما الأمير . ومن الاصلاح الجديد أن يكون لشيخ الأزهر وكيل من حقوقه أن يقوم مقام شيخ الأزهر عند غيبته في كل شيء . وقد اضطرب شيوخ الازهر لهذا النبأ وطفقوا يكتبون عرائض الشكوى وربما استقال شيخ الجامع .

الاحزاب في مصر

كان يطرق مسامعنا في المجالس وتبصر أعيننا في الجرائد كلمة « الحزب الوطني » ولا نجد لها مدلولا وما زالت الجرائد الانكليزية تقول ان في مصر حزبا وطنيا سياسيا حتى صار فيها عدة أحزاب وربما أخذت هذه الجرائد ذلك من الحركة الوطنية التي قامت في وجه الاحتلال في أوائل ولاية أمير البلاد لهذا العهد إذ كان كل متحمس بتلك الحركة يمدح بالوطنية والمنكر لشيء منها أو المتقاعس عن مشاركة ذويها يزنّ بالميل الى الاحتلال ثم صار يوصف أهلها بالحزب الوطني. ويظن بعض المفكرين ان للانكليز غرضا في وجود الأحزاب بمصر لا سيما النوع الذي يعرف عندهم بالمتطرف فكانت كتابة جرائدهم إغراء بذلك ودعًا اليه

ومن الناس من يقول أن تسمية أولئك الذين قاموا في وجه الاحتلال حزبا خطأ عرفي أو لغوي اذ يفهم منه ان في البلاد حزبا آخرا وأحزابا أخرى يناظر ويعارض بعضها بعضا ولم يكن في البلاد شيء من ذلك وانما كان السواد الأعظم مغبوطا بما ظهر به أولئك الذين يكتبون في مقاومة المحتلين ويستميلون فرنسا لمساعدتها عليهم وما كان يوجد لهم معارض وكان يوجد أفراد يعتقدون ان ما قاموا به عقيم أو ضار لما أفادهم النظر في العواقب ولكن هؤلاء الأفراد لم يكونوا يعارضون ولا يقاومون وغاية ما كان يظهر من الواحد منهم أن يكاشف صديقه من الآخرين برأيه. والصواب أن مثل أولئك يصح أن يطلق عليهم لفظ «حزب» لغة فان الحزب كما في المعاجم جماعة الناس والصنف والطائفة منهم وقال الراغب: الحزب جماعة فيها غلظ: وفي لسان العرب «وحزب الرجل أصحابه وجنده الذين على رأيه» ثم قال « وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وان لم يلق بعضهم بعضا »

فأنت ترى أن لتسمية أولئك القوم حزبا وجها في اللغة وجيها ولكن للاحزاب في أوربا معنى أخص وهو عبارة عن ارتباط المتشاكلين في القلوب — أي الشعور بالحاجة الى مصلحة عامة — وفي الأعمال لهذه المصلحة بقانون معروف ولم يوجد

مثل هذا في مصر الا في هذا العام فقد تشكل فيه حزب الأمة والحزب الحر وحزب الاصلاح الدستوري والحزب الوطني وسمعنا أيضا نغمة حزب آخر سمي الحزب الجمهوري. ولذلك سمي هذا العام بعام الاحزاب وقال الشيخ عبد المحسن في قصيدة يذكر فيها مرضه وشيئا من العبرة بحال الزمان وأهله

وطوارق الاسقام ما برحت ... تنتاب كالأحزاب في مصر

أما موضوع هذه الأحزاب فهو بحسب ما صرح به زعماؤها واحد المقصد منه خدمة البلاد بالوسائل الممكنة حتى قيل إن الخلاف بينها في الألفاظ والأشخاص فقط. والصواب أن لكل حزب منها قطبا يدور عليه وهو مؤسس الحزب ورئيسه الموثوق به عند المؤسسين المتعارفين المستعذبين لمشرب الحزب الا حزب الأمة فان رئيسه ليس هو المؤسس له الذي تدور عليه سياسته وإنما هو منتخب انتخابا حقيقيا لرياسة شركة الجريدة قبل أن يسمي جمهور المؤسسين أنفسهم حزبا سياسيا. ولهذا يطمع سائر الأحزاب في سقوط هذا الحزب لأن الشرق لم يتعود الأعمال المشتركة وانما قوام أموره بالأفراد ولأن أفراده ليسوا متفقين على مقاصده ولا متعاضدين فيه بل منهم من يتربص به الدوائر ويساعد غيره عليه ولأنه ليس له سلطة يأوي اليها ويعتمد على مساعدتها وإمدادها والسلطة في هذه البلاد سلطتان سلطة الأمير الرسمية في الأحكام الحقيقية في نفوس الجمهور ميلا وسلطة الاحتلال الحقيقية في الأحكام والأعمال. وهذا الحزب يريد أن يكون وسطا بين هاتين السلطتين باسم الأمة فلا هو مع الانكليز كما أشيع ولا مع الامير فيما يحب الأمير ويرى في السياسة وان كان مخلصا كغيره للخديوية نفسها. هذا هو مبدأ العاملين فيه الآن فهو لا سند له الا من ذاته فاذا نجح كما نحب فذلك من دلائل ارتقاء الأمة في الأمور الاجتماعية واذا هو سقط فسقوطه برهان على أن الأمة لم تعد طور الطفولية في حياتها الاجتماعية

والحزب الحر مؤسسه محمد وحيد بك وهو رئيسه الداعي اليه والمدافع عنه بمساعدة صديقه محمد نشأت بك الذي كان من حاشية الأمير (معيته) وهو كاتب مجيد بالفرنسية وليس لهذا الحزب جريدة خاصة كغيره وانما يكتب عنه محمد وحيد بك في المقطم ومحمد نشأت بك في بعض الجرائد الفرنسية كالابر وغيره ولم

يدخل فيه أحد من أكابر البلاد، وأفراده أقل من أفراد سائر الأحزاب وهو يمتاز بكثرة الحث على مسالمة المحتلين والثناء على مايستحسن من أعمالهم في البلاد فهجيراه هذه الكلمة « سلامة المصريين في مسالمة المحتلين » فهو لايخالف غيره من الأحزاب الا في هذا وهو خلاف قولي اذ لا يقول حزب من الأحزاب بوجوب مقاومة المحتلين ومعاداتهم بالعمل وانما قصاراهم أن يبالغوا في انتقاد مايرونه منتقدا من أعمالهم ويكبروه ويسكتوا عن الثناء على مايرونه حسنا نافعا أو يصغروه. فذاك يمدح ولا يذم ولا ينتقد وهم يذمون وينتقدون وقلما يمدحون ولا خلاف في سائر المطالب الاساسية بل في وقتها وطريق طلبها

وأما حزب الاصلاح الدستوري فمؤسسه الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وهو رئيسه وقد اختار له من الأعضاء من يجمعهم الرأي وترشدهم الروية ويثبتهم الركن الركين الذي يأوون اليه فقانونه أوضح قوانين الأحزاب ورجاله أدهى رجالهم والشيخ على نفسه أبعد المشتغلين بالسياسة المصرية غورا وأشدهم حزما وأحذقهم في الدخول في الأمر والخروج منه. والفرق الحقيقي بين هذا الحزب وغيره من الأحزاب التي تشاركه في الخدمة العامة للأمة انه مؤيد لسياسة الأمير لا يتحول عنها في حال من الأحوال يتهم اذا أتهمت وينجد اذا أنجدت ويوالي من والت ويعادي من عادت فهو حزب طبيعي متين والرجاء في ثباته وبقائه أقوى من الرجاء في سائر الأحزاب بحسب ماعليه مصر من الحالة الاجتماعية والسياسة الآن ولا دليل على تغيرها في زمن قريب

وماصرح به هذا الحزب في قانونه من كون طلب المجلس النيابي أصلا من أصوله لا ينافي تأييده لسياسة الأمير صاحب الحكم الشخصي فان طلب المجلس النيابي مرضي للأمير أيده الله بتوفيقه كما علم من حديثه المشهور مع مكاتب جريدة الطان الفرنسية بل لا يبعد أن يكون هو أول من فكر بوجوب طلب الأمة له كما يقول بعض العقلاء

وأما الحزب الوطني فمؤسسه الآن مصطفى كامل باشا صاحب جريدة اللواء وهو رئيسه وهو جزء من الحزب الوطني الذي كان موجودا بالقوة أو بالفعل من قبل على مابيناه في صدر هذا المقال والقسم الآخر من ذلك الحزب هو حزب الاصلاح

الدستوري. والفرق بين هذين الحزبين على ما أرى — وهو رأي يوافقني عليه كثير من العقلاء — هو أن حزب الاصلاح الدستوري يجمعه الرأي وبه يعمل والحزب الوطني يجمعه الاحساس والشعور وبه يعمل وأن شخص صاحب جريدة المؤيد ليس ركنا من أركان الحزب الأول — وان كان قطبه وأقدر العاملين فيه — ولكن شخص صاحب جريدة اللواء ركن من أركان الحزب الآخر مقصود بالذات منه ولذلك اتفقوا على أن يكون رئيس الحزب مادام حيا بلا شرط ولا قيد. ويظهر لنا أن المعجبين بالحزب الوطني أكثر عددا من المعجبين بغيره من الأحزاب. لأن منهم فيما يقال أكثر تلاميذ المدارس والخائضين في السياسة من العامة وذلك معقول لأن هؤلاء هم الذين يتبعون داعي الشعور ويخضعون لسلطان الوجدان ويحبون الغلو أكثر ممن عداهم. وقد سلكت جريدة اللواء طريقة تحريك الوجدان وتهييج الشعور الوطني بعناية عظيمة تناسب الاستعداد الغالب على الشعب. ويظن أن غرض صاحبها من ذلك ومن نشر الدعوة الى حزبه في الأرياف هو أن يستميل رأي السواد الأعظم الى نفسه حتى يكون زعيما حقيقيا اذا دعا الى شيء تؤيده الأمة بالمال والحال... وادعاؤه هذه الزعامة من قبل دليل على استعداده لها فاننا قد تعودنا أن نرى كل رأي للواء معزوا الى الأمة برمتها حتى مثل العفو أو عدم مقاصة ذلك المجرم القاتل في السودان. وقد أمدته في استعداده هذا الجرائد الانكليزية في أثناء حادثة العقبة اذ كانت تصفه بالزعيم المهيج وغرضها من ذلك معلوم فيالله من دهاء الانكليز

هذا وان في كل حزب من الأحزاب من الرجال المحبين لخير البلاد والمخلصين في خدمتها بحسب اعتقادهم من يعتمد عليهم في القيام بشؤونها. وقد جهل بعض الحقيقة من قال إن كل حزب قد أنشىء لتأييد جريدة ومدير تلك الجريدة هو منشئه ومسخره لجريدته ومن انه لا فرق بين هذه الأحزاب في المقصد

ونرجو ان يكون إنشاء الاحزاب في مصر آية من آيات الأخذ بالارتقاء الاجتماعي وان يكون تعددها سببا لطول حياتها لما تقتضيه المباراة والمزاحمة من تمسك كل حزب بما قام به ونسأله تعالى أن يوفق الجميع لما فيه الخير والمصلحة للبلاد

أوربا والاسلام

ومقابلة بين الاسلام والمسيحية في المدنية لوزير فرنسي

كتب السيد محمد الاصرم من فضلاء التونسيين والموسيو دوديانوس المراقب المدني الفرنسي في بلدة سوسه من أعمال تونس بالاشتراك تقريرا في الاحوال التونسية . وقدم هذا التقرير الى مؤتمر الاستعمار الذي اجتمع في مرسيليا سنة ١٩٠٦ الموسيو ميلي الذي كان في منصب الوزير المقيم لفرنسا بتونس وجعل له مقدمة بقلمه تلاها في المؤتمر . وقد ترجمها في هذه الأيام بعض التونسيين ونشرها في جريدة الزهره فرأينا أن ننشر الترجمة في المنار بعد تصحيح ما لعباراتها وهي :

هذا التقرير على صغر حجمه يبين مسألة من أكبر المسائل الحالية وهي العلاقة بين أوربا والاسلام

كانت هيئة الاجتماع المسيحية في خلال القرن السابع للمسيح على حالة محزنة تتنازعها من جهة غاية التوحش ومن أخرى ما أصاب الفكر من التعمق والتدقيق في مفاهيم الألفاظ، وعلى هيئات سياسية دخلت في سن الهرم وسفاسف دينية حلت محل اتساع انظار القرون الاولى . فالسلطة كانت تميل أحيانا إلى البطش وطورا الى مقتضيات الضعف لكنها في كلتا الحالتين كانت مقلقة للعباد فرومية كانت في جدال مستمر مع الاستانة (يعني بابا روميه و بطرك الاستانة) ولم يتمحض منصب البابا بالسلطنه ويتخلص من الروابط الملوكية والتغالي في اعتقاد القديسين (المرابطين) الا وقد سقط في مهواة الوثنية ، وتركت الواجبات العسكرية واستبدل المأجورون بالعسكر النظامي، واضمحلت العائلة بالتجافي عن القيام بالواجب ولم تكن هناك حرية في الاعتقاد بل لم يكن رواج الا لسخط القسوس واضطهادهم لمن ينبس ببنت شفة لاتلائم أغراضهم. و بالجملة فالحالة كانت في تلك العصور محفوفة بجميع موجبات التأخر والانحطاط فظهر الاسلام والحالة هذه ونجح في تقدمه العجيب بسبب ما أحدثت السلطة اليونانية في النفوس من السآمة والمقت

جاء الاسلام مخالفا لكثير من الاديان التي ضاعت حقيقتها في غمرات الاوهام فان هذا الدين تنزه عما لا يعقل من الخوارق وقام على الحجج البينات التي لم تزل الى الآن موجودة غير أنهم في الغالب يحيدون به عن مقاصده لأنهم يريدون اختلاق الخوارق له مع انها لم تكن و يتضح كل الاتضاح ان سلمنا ان الاسلام جاء مقاوما للمسيحية حسبما كان يفهمها اليونانيون أنه أي الاسلام جامع بين السلطتين الدينية والسياسية كما ان ملوك بيزانس أي ملوك اليونان كانوا يدعونهما وهو أي الاسلام قليل الغرابة في أصوله لانه لم يكن المقصود منه في ذلك الوقت تجديد اعتقاد الناس بل تغيير انقيادهم الظاهري . فلما أثقلت كاهل المسيحية اليونانية فلسفة القوم المنكرة جاء الاسلام بنسخ التثليث و إزالة ادران الفلسفة الاسكندرية . ولما بعدت حقيقة المسيح الكنيسية شيئا فشيئا عن البشرية وفشا اعتقاد وتعظيم القديسين حتى انحدر بالناس الى عبادة بعض الاشياء من الكائنات جاء الاسلام بارجاع المسيح - على تكريمه اياه - الى نسبة البشرية و بانكار القديسين . ولما أضعفت أديار الرهبنات الدولة والعسكرية جاء الاسلام بابطالها . ولما كانت الغاية المسيحية إضعاف العائلات بايثار العزبة على التزوج جاء الاسلام بكراهة تعمد قطع النسل و بالحث على التناسل باباحة تعدد الزوجات . ولما كانت الهيئة المدنية المسيحية منقسمة الى مراتب وراثية متشعبة وكانت الرتبة الاولى فيها للقسيسين جاء الاسلام بابطال سلطة القسيسين وازالة حق الوراثة في المراتب والاستعاضة عنها بالاستحقاق الذاتي (لا فضل لعربي على عجمي انما الفضل بالعلم والتقوى) كما انه أزال الواسطة بين الخالق والمخلوق و بين الرئيس والمرؤوس . ولما كان الملوك هم المحافظين على أصول الدين واستحوذوا بذلك على التصرف في العقائد والمعتقدين من رعاياهم جاء الاسلام بالتسامح والحرية في الدين على شرط قبول الداخلين تحت سيطرته من غير المسلمين باداء الجزية وهو أداء خفيف جدا . ولما كانت الصدقة الانجيلية قد ضغطت تقريبا تحت استئثار اصحاب الرتبة المفضلة من الهيئة جاء الاسلام بالحث على المعادلة والتعاضد الى حد لا نهاية بعده . و بالجملة ان الديانة المسيحية لم يكن تأسيسها الا على الخوارق فالاسلام قد عدل عنها تقريبا وجعل نبيه بشرا كسائر البشر

هكذا كانت طباع الاسلام الاولى وان اعترى فروعه تغيير بسبب ما اعترى المسلمين من الأوهام فأصوله لم تزل ثابتة الى الآن

وقد تجلى الاسلام ميسرا ومستكملا للانسانية ومنزها عن الغموض ببساطة الوحدانية المعقولة و بذلك تباعد عن قضايا المعارضة بأنواعها ، ولم يصد نحوه ستة قرون مضت في المجادلات الدينية ، وأربعة مثلها مضت على الادارة الرومانية (١) ولم يكف ذلك حصنًا للمسيحية بل حصل هذا الدين الجديد على كنز ثمين بسرعة عجيبة (٢) وهو رغم ماسطرته كتبنا مستمر الدوام . واذ تمحض للترفع بتنزهه عما ذكر من الادران أمكنه تقديم متبعيه على متبعي المسيحية بنحو ثلاثة أو أربعة قرون فان معالم بغداد وقرطبة العلمية كانت منابع للأنوار الساطعة عند ما كانت معالمنا المسيحية منحنية على الجهل المطبق فكل العلوم وكل الصنائع وكل الفنون كانت تأتي من الشرق وجمهوريات البحر المتوسط كانت تكتسب بسطتها

من علائقها مع مخالفيها في الدين

وان زهرة هذا التمدن النفيسة المحفوظة في أوانيها الجميلة الانيقة كقصر إشبيلية وحمراء غرناطة لم تزل تخجل اشراف المسيحيين حتى بعد اضمحلال العربية بحيث ان مدة الاسلام المثمرة دامت نحو ثمانية قرون نهايتها سقوط غرناطة ، وكانت بعد ذلك فتوحات العثمانيين الذين نراهم على عدم التفاتهم لانفتاح الزهرة الفكرية قد اثبتوا للاسلام مدة قرنين أو ثلاثة عظمة سياسية وعسكرية

وعليه فان الديانة الاسلامية حافظت مدة ألف سنة على قوة انتشارها ونظامها ولذا يصح ان نقول بحسب المدة على الاقل ان وظيفتها تعادل وظيفتي اليونان والرومان معا

هذا و بعد وقوف الشجرة الاسلامية عن النمو والازهار والأثمار لم تزل عروقها آخذة في الامتداد الخفي وتنشق أرضها عن أخلاف غليظة في أماكن السودانيين كما ان أخلافها في آسيا تحمل مع الراحة مادة التلقيح الهندي والماليزي والصيني (٣)

(١) كذا في الاصل ولعله يشير الى الحروب الصليبية (٢) لعله يعني بالكنز الفتوحات
(٣) الأخلاف جمع خلفة بالكسر وهي معروفة يريد أن الاسلام لا يزال بعد ذلك =

فهاته الحقائق هي التي ينبغي استحضارها في الذهن عند ارادة التكلم عن الاسلام باستخفاف !!

فان قيل كيف طرأ السكون على أهل عقيدة شريفة معقولة مثل عقيدة الاسلام ولماذا وقفت في أفريقيا وآسيا الصغرى عن الأثمار الآن بعدما أثمرت سابقا في الفرس واسبانيا ثم لأي سبب كان هذا التقدم الاوروباوي الحالي المترقي عما سواه ؟

الجواب إن مسألة مثل هذه لا يمكن تفصيلها في هاته الاوراق لكن لنا ان نقتصر على مجرد نتيجة فلسفية وهي ان نقول ان مدنيتنا المسيحية الاصل قد فتحت مجالا متسعا للنمو المادي وان نهضتنا في القرن السادس عشر قد منحتنا جسارة في الفكر واختبارا في الفحص العلمي ربما لم يعرفهما المسلمون وإن الذي يهم في هذا المقام على كل حال هو اعتبار الحيثيات عند ارادة الحكم في هذا الموضوع لان تقهقر المسلمين المشاهد اما ان ينسب الى نفس الاصول الدينية فيكون الاسلام محكوما عليه بالاقتصار على الحياة المادية، وإما ان ينسب الى أسباب خارجية عارضة فيكون قابلا للنهضة والرجوع الى ما كان عليه لكن هناك من السذج والاغرار من يقضي عليه قضاء مطلقا بدون مراعاة الحيثيات المشار اليها ولعمري إنه يصعب عليهم بيان كيف أمكن لهذا الدين الناصر على زعمهم انتاج ثمار عجيبة في الزمن الماضي وهم اناس لا يحسنون معرفة التاريخ و يقتصرون في حكمهم على ما تشاهده أبصارهم

قد انتشر هذا الفكر بفرنسا مدة المسألة الجزائرية من حيث علاقتنا مع الاسلام و يوجد الى الآن هناك كثير من الفرنسيين بقوا عليه . لكن وجدنا بمصر ثم بتونس مسلمين من نوع آخر ولذا لم يكن من الممكن ولا المقنع الاقتصار على حكم استبدادي بسيط ووجب الرجوع الى الشواهد التاريخية وقد يجب الاعتراف حينئذ بأن طباع المسلمين عامة اعتراها تغيير من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر وذلك تحت سلطة الاتراك بالمشرق وسلطة البرابرة بالمغرب ففي اسبانيا انقطعت العلائق بين المسلمين والمسيحيين بعد سقوط غرناطة دفعة واحدة

= النمو الأول يمتد في أفريقيا وآسيا فيتلقح بالايمان به الهنود والماليزيون والصينيون ولكن عبارته مجازات واستعارات وترجمتها ضعيفة

والتعصب من الجهتين هو الذي حملهم على ذلك. واما من جهة الاستانة فالعلائق السياسية قد استمرت ولكن العلمية سقطت في العدم فالبرابرة بالمغرب والاتراك بالمشرق صارا كأنهما جرمان ثخينان بطرفي السلك منعا سيلان الكهرباء فيه

والحقيقة أنه من تاريخ عدم التفاهم بين المسلمين والمسيحيين قد اختارت كل فرقة من أساليب دينها ما يلائم إحساسها فعقيدة القضاء والقدر ليست هي أساس الاعمال في الاسلام بدليل ان القرآن لا يرى مانعا من تقدم الامم بتعاطي أسباب التقدم لكن عقيدة القدر تسري بالعرض والتبعية الى فكر المسلم الساذج بمعنى أن تصرف الخالق في المخلوق يكون مباشرة (أي بلا سعي ولا سبب) ولذا نرى المرابطين علماء اللاهوت من البربرة يبالغون منذ ظهروا في التمسك ببعض النصوص الدينية مع خلوها عن الفائدة ويخطبون في الناس كبعض أهل المذاهب المسيحية مقاومين لكل تمدن واعانهم على ذلك عربان الخيام بأفريقية ونموا هذا المشروع المنتج للصلابة واليبس مع كونه انتزع من الدين لينه ومساعدته على اكتساب التمدن وقصره على حركات بدنية -- لكن الفرق المستنيرة التي يحاكي ايان أفكارها ايان البحر المتوسط انسحبت مع أمواجه وتجمعت ببلدان السواحل لتقتحم تعب المدافعة ومصادمة البربرية ففي الجزائر سابقا وفي مراكش الآن عروش الخيام يعني الذين ولد فيهم الجهل شدة التعصب الديني هم الذين وجدناهم عرضة لنا. ويجب أن نتفاهم في معنى التعصب هنا وهو ان هاته العروش انما يتعصبون للاستقلال والهمجية فالدين عندهم هو الراية التي يتخذونها وسيلة لتغطية بغضهم للاجنبي فالرحالون لم يكن أوائلهم مسلمين مع انهم كانوا يبدون مثل هذه الاحساسات بعينها نحو الفاتح الروماني وكان الامر يشتبه علينا في الزمن السابق فيظهر لنا ان الاخذ بثارنا من هاته العروش أمر طبيعي وان ذلك يكون باغتصاب أملاك المساجد والجوامع مطلقا حتى أرشدتنا التجربة فيما بعد الى حقائق الامور فعاملنا التونسيين بمزيد الاعتبار فاحترمنا دولتهم وعوائدهم وشرائعهم وعدليتهم وجوامعهم وأملاكهم وفى الحقيقة إن ماوجدناه بتونس لم نجده بالجزائر -وجدنا بتونس نخبة من الاعيان الاهليين ومجتمعا لمزاولة العلوم وهو جامع الزيتونة فانه وان انحطت شهرته عما كانت عليه في القديم لم تزل به مادة الحياة قوية تؤذن بقرب عود اخضراره

وهاته الحالة المساعدة أمكننا معها أن نخطو خطوة زائدة سنة ١٨٩٨ وهي تأسيس جمعية من شبان التونسيين المتعلمين تحت عنوان الخلدونية تذكارا للمؤرخ العربي ابن خلدون وتكملت هاته الجمعية بادخال الفنون الاوربية بين طلبة الجامع الاعظم وافتتحت دروسها بمسامرة نظامية وقام أحد مدرسي الجامع الاعظم ببيان أن لا نفرة بين الاسلام والعلوم العصرية

وأخيرا وقع اقتداء بالجزائر (كذا) قبول بعض افراد من الاهلين بمجلس شورى المعمرين ولم يبق في الامكان أن نرجع فيما منحناه للاهالي من حق التكلم والمناضلة ولا ان نسد أفواههم وقد بادروا لاستعمال هاته الوسيلة بالانتقاد على عدم الاهتمام بشؤونهم وهضم جانبهم المتجدد في كل حين الذي يحملنا على ارتكابه العجب الاوروبي فمع كوننا نحترم عوائدهم سياسة فاننا لا يهمنا أن ندوس حقوقهم بما لنا من عدم الاكتراث الذي طالما اتصف به الغالب المعتقد أفضليته المطلقة على المغلوب

فهذه التقارير التي ستقرأ عليكم يتكون منها كراسة المطالب الاسلامية التونسية وأهم غرابتها كونها تؤذن بالمشاركة والتعاون بين العنصر الاوربي والعنصر الاهلي وفيما أظن ان هاته أول مرة أبيح فيها لمسلم انتقاد آراء غيره زيادة على ابداء رأيه في تقرير رسمي على ان استعمال السيد محمد الاصرم لهاته الحرية هو في نفسه أقوى برهان لتأييد رغائب بني جنسه ودينه ومن المستحيل ان يأتي هذا الكاتب بأكثر مما أتى به من التلطف في التعبير مع صحة المعنى واستقامة الدليل في عرضه التشكيات المقبولة . كأن حجابا يتمزق ليرينا من ورائه باطن هيئة لا نرى منها الا ظاهرها. اما قيمة النتائج التي يعرضها علينا فانها دون ما فاجأنا به من بيان مقاصد الديانة الاسلامية الحقيقية وبهاته المناسبة نبادر لزيادة الحث على قراءة الفصل ١٩ والفصل ٢٠ المتضمنين لما عليه الاسلام الآن بالايالة التونسية وما تأتيه الطرق الدينية فيها

ولا يخفى ان الكاتب من المسلمين وهو الذي أفادنا ان عربان العروش هم من أردإ المسلمين من حيث العقائد بخلاف سكان المدن فانهم متخلقون باخلاق المسالمة وان الوسيلة الوحيدة للتغلب على هذا التعصب الاعمي هو الحث

على قراءة القرآن التي تركت الآن تقريبا وعلى نشر المعارف والرجوع الى اخلاق الاسلام التي منها فعل الخير والتعاضد والتسامح وهو الذي يؤكد لنا اقبال المسلمين المستنيرين على العلوم الأوربية وهو الذي يرينا ما في الطرق الدينية والافراط في الميل الى الدراويش من الاسباب المغيرة لوجهة الاسلام. ونرى مما ذكره لنا من قواعد بعض الطرق ان هناك شيئا يشبه قواعد الجزويت (عصبة دينية ديدنها التحيل والاستئثار) وهو الانقياد الاعمى المعبر عنه باللاتينية عندهم «كن كجثة»

فهذه الملاحظات حرية بالاعتبار في أسباب التقهقر العارضة للاسلام الذي جاء معارضا للخوارق المسيحية فاسقطوه فيما جاء معارضا له باحداث ما يدعونه بالتصوف الذي تولدت منه أنواع من الخوارق ربما كانت أكثر خطرا من أمثالها في المسيحية. فالاسلام أمر بالمساواة والتوجه للعمل وعدل التمتع بنعيم الدنيا فطرأ على هذه الاوامر ما اختلقته الطرق الدينية من التوكل الاعمى الباعث على عدم التبصر في العواقب ومن الفقر (الزهد) والطاعة العمياء والجمود وهي كلها مهيئة لمناهج كل استبداد. وتنزه الاسلام عن الموان (فرقة من الرهبان) فجاءت الاوهام البربرية وأحيته في الدراويش ونعني بالموان هنا التوارث الذي يتعاطى شيئا من أنواع السحر والمرفوع عنه التكاليف (كذا) وعليه ان كان المسلمون في تقهقر فلان الاسلام انحرف عن أصوله ووجه لغير مرامه لكن الجراثيم اللازمة لنهضته لم تزل كامنة فيه ولذلك يلزم الرجوع الى القرآن بعد تفسيره واستخراج ثماره بطرق العلوم العصرية — فأول أمة أوربية تتجرد عن أوهامها القديمة وتفهم هذه الخطة العالية يمكنها بذلك ان تتقدم على غيرها تقدما عجيبا فان تعاطيها لما ذكر يكون له أحسن صدى في قلوب مائتي مليون من المسلمين

فاليوم الذي تشمر فيه فرانسا عن ساعد الجد وتسعى في تعليم وتربية الاهالي —ولا نقصد بذلك ان تلزمهم بنظاماتنا بل أن تسير بهم في مناهج التقدم الملائمة لطباعهم— هو اليوم الجميل حسب قول مسيو جونار الذي تحصل فيه على أكثر من فتح الممالك اذ به تتحقق لها السلطة على الارواح اه

(المنار) سنبين في الجزء الآتي رأينا في هذه المقالة أو المقدمة

أعمال حسن باشا عاصم

كتبنا في الجزء الماضي شيئا عن أخلاق حسن باشا عاصم ونكتب في هذا الجزء شيئا عن أعماله وعمدتنا في هذا وذاك الاختبار، وغرضنا منه بيان طريق التأسي والاعتبار، وانما قدمنا الكلام في الاخلاق، لانها هي مصادر الاعمال، فهي الاصل الاصيل في تفاضل الرجال، ولم نسلك فيما كتبنا ولا فيما نكتبه الآن مسلك الاستقصاء بل نكتفي بما قل ودل

تمهيد في تربيته وتعليمه

بالتربية والتعليم يتفاضل المتساوون والمتفاوتون في الاستعداد وقد اتفق لحسن عاصم منهما ما أظهر استعداده العظيم. كان والده من حاشية محمد باشا عاصم أحد كبار المديرين في هذا القطر ولم يكن لهذا نسل. وولد حسن في حجره فسر به وتولى تربيته بل تبناه وأضاف اسمه الى اسمه فعلمه التعليم الابتدائي والوسطي والعالي فانتقل من المدارس الابتدائية الى مدرسة الادارة (الحقوق) فكان في طليعة النابغين ثم أرسل مع بعض النابغين الى فرنسا على نفقة الحكومة للترقي في علوم الحقوق والسياسة فتلقاهما بجده واجتهاده حتى كان من خير النابغين وحملة الشهادات العالية فيهما. وكيف لا وهو لم يكن يعرف اللهو والبطالة ولا ممن يحفل باللذات والشهوات البدنية وتلك هي قواطع طريق العلم على طلابه لاسيما في أوربا ولا سيما في فرنسا. وما أظن الا أن بيت محمد باشا عاصم كان نقيا من اللوث الذي تلطخ به كثير من البيوتات كالسكر وما يتصل به عادة وكأني بذلك الرجل وانا لم أعرفه ولم أعرف عنه شيئا كان بصيرا بالمفاسد التي تدب الى الناشئين في السعة فحال بين ربيبه وبينها فلم تتدنس نفسه برذائل المترفين، ولا بدناءة المعوزين، فهذه التربية النقية هي التي ساعدته على كمال تحصيل العلوم حتى كان وهو ابن الخادم مشرفا للمخدوم بنسبته اليه ومحييا لذكره ولولاه لما عرفه مثلي ولا دون اسمه في هذه المجلة الإصلاحية. وكم أفسدت باريس من أولاد الأمراء والوجهاء الذين هم أرفع من محمد عاصم باشا ذكرا في قومهم

عمله في القضاء والنيابة

لما عاد من أوربا جعلته الحكومة مساعد النيابة فوكيلا فرئيسا في الاسكندرية ثم في طنطا وكان قد مات محمد عاصم باشا فكان خير خليفة له في أهله حتى انه كان ينفق معظم مرتبه الشهري على قلته في المرتبات التي كان يقوم بها مربيه الذي مات ولا مال له . بل لم يتعجل في العودة من أوربا الى مصر لا لأجل هذا فقد كان يبغي الاستزادة من العلم الى ان يصير دكتورا في العلوم التي كان يشتغل بها بعد أن نال شهادتها العالية المعبر عنها عندهم بالليسانس ففاجأه نعي مربيه فاكتفى بما حصل ، ورجع عما كان أمّل ، وقد كان في النيابة العامل المصلح للنظام ولحال الاجتماع إذ كان يتعقب الاشقياء المفسدين وسلبة الامن المعتدين حتى طهر منهم المديريات التي عظم بلاؤها بهم . وكان يزجي كل من تحت رياسته في الجد والاجتهاد فلا يكادون يجدون ساعة بطالة

ولما جعل السير سكوت مستشارا قضائيا لمصر وجه همته الى اصلاح المحاكم الاهلية وكانت مختلة معتلة فكان يطوف على رجال القضاء والنيابة يسألهم عن رأيهم في الاصلاح وعما يشكون منه فما كان يسمع من الاكثرين الا عبارات الثناء والاقرار بالرضى عن الحال الحاضرة . حتى ظفر بحسن عاصم فأخبره هذا بجميع العلل وبطرق علاجها فجاء به وبصديقه علي بك فخري الذي رأى فيه مثل نباهته واستعداده وجعلهما مفتشين للقضاء ثم عضوين للجنة المراقبة التي أنشئت في نظارة الحقانية فكانا هما الواضعين لنظام المحاكم الحاضر وطريقة المراقبة القضائية المتبعة بل كان حسن عاصم هو الذي اقترح ـ بموافقة رفيقه ـ اختيار القضاة من أهل الكفاءة بالاستقامة والنباهة واختبار البلاد كالمتخرجين في دار العلوم وغيرهم ممن عرف بالعلم والفضل وان لم يكن متخرجا في مدرسة الحقوق وبذلك تيسر للحكومة إصلاح المحاكم بقدر الامكان .

ومن خدمة حسن عاصم للقضاء وضع مشروع المحاكم الجزئية ثم السعي مع صديقه علي فخري في انفاذه عند سنوح الفرصة لهما بثقة السير سكوت المستشار المحب للاصلاح بهما . وله في ذلك أعمال أخرى ليس من غرضنا تقصيها . وكان السير سكوت

من الاعجاب بعلمه واستقامته وقدرته على العمل ما أحله عنده في أعلى منازل الثقة والكرامة . وأراد ترقيته فلم ترض الوكالة البريطانية بذلك بل حاولت ان تدليه لاتهامها إياه بمناصبتها فعرقلت عليه السياسة الاستمرار في عمله النافع في المحاكم وذلك شأنها ما دخلت في عمل الا وأفسدته كما كان يقول الاستاذ الامام . وما كانت تهمة حسن عاصم بالسياسة محض اختلاق ولكن ربما كان يبالغ فيما ينقل للوكالة عنه أو كانت لوكالة تنظر الى الامور بعين الاحتياط فتراها أكبر مما كانت عليه

كانت في البلد حركة وطنية قبلتها بل روحها الامير الجديد (عباس حلمي باشا) تبعثها الآمال ، وتحدو بها الاقوال ، حتى تزجيها الى بعض الأعمال ، التي كان يظن انها وسائل لازالة الاحتلال ، والتمتع بكمال الاستقلال ، وكان أكثر أهل الفهم والرأي من رجال الحكومة وغيرهم مغرورين بتلك الحركة ولم يسلم من شيء من ذلك حسن عاصم على أناته وبصيرته وكان صديقه ورفيقه في العمل علي فخري بك أشد منه إعجابا بل تحمسا بها بل أقول انه لم يسلم من الغرور بتلك الحركة أحد من أهل الرأي والظهور في البلد الا ما دون عدد أنامل اليد الواحدة .

قد يظن بعض الشبان اليوم ان في البلاد حركة وطنية قوية لم تكن من قبل وما ذلك الا لانهم لا يعرفون شيئا عن الحركة التي كانت من نحو خمس عشرة سنة اذ كان الرجال يجرّون عربة الامير بأيديهم واذ كان الأمير يعود من سياحته الصيفية فتكتظ الاسكندرية بمئات الألوف لقائه حتى قيل انه دخل الاسكندرية في يوم واحد ثمانون ألفا من أهل الأرياف . وما ذلك الا لأن السلطة الأجنبية ثقيلة على النفوس البشرية تنفر منها بالطبع فاذا آنست بصيصا من الأمل بالتملص منها على يد من تثق بهم من أبناء جنسها السياسي أو الديني فانها لا تتعم ان تعشو اليه ، وتعول عليه ، وقد كان الشعب يرى من الأمير الجديد منذ تولى ذلك البصيص بل كانت ترى من حاله ، وتسمع مما ينثر من درر أقواله ، ما يجعل ذلك البصيص نورا ساطعا يملأ الجوانح آمالا ، وينفر بالنفوس الى الجهاد الوطني خفافا وثقالا ، فلا عجب اذا كان مثل حسن عاصم وهو في شبابه ممن كان يظن أن في تلك الحركة بركة لاسيما وهو مطلع على ما كانت تدبره فرنسا وما تعد به مصر وتمنيها

غرضنا من هذا البيان ومن سائر ما نكتبه عن الرجل ان تكون العبرة بسيرة رجل نابغ منا مبنية على أصل ثابت ورواية صحيحة في زمن لا يكتب فيه عن رجال العصر الا أصحاب الصحف السياسية في الغالب وهم لا يبينون من الحقائق الا ما تسمح لهم به السياسة على الوجه الذي تحبه وترضاه

فليعلم الشبان المتحمسون في الوطنية الذين تهيجهم نغمات المتغنين بأشعارها، والضاربين على أوتارها، ان هذا النابغة الذي يفتخر الوطن به قد تحمس في شبابه بالسياسة أياما كانت دواعي التحمس فيها أوفر، والآمال بالنجاح أقوى، ثم استقر رأيه بعد الاختبار على ان العاملين للوطن والمخلصين في خدمة الأمة يجب عليهم أن يتنزهوا عن شوائب التحمسات السياسية، والتهيجات الطبعية، وان يلتزموا السكينة والروية، و يجعلوا عمدتهم اتقان الأعمال، دون الغرور بزخرف الاقوال، والانخداع بالدعاوى العراض الطوال، لذلك كان يعمل ليله ونهاره من غير لغط ولا دعوى، ولا تذمر ولا شكوى، بل كان ذلك دأبه منذ كان

كان السير سكوت المستشار المصلح المخلص على ما هو مشهور بين جميع العارفين قد وعده بأن يجعله نائبا عموميا بعد ان جعله الأفوكاتو العمومي ولكن لورد كرومر أمره بعزله كما يقال لحار في أمره و بعد العناء والجهاد قدر على ان يستبدل بالعزل جعله قاضياً في محكمة الاستئناف الأهلية بمرتب أنقص من مرتبه قبله فلم يزده ذلك الا جدا في العمل ومضاء في الاصلاح . ومما يؤثر عنه انه كان يسمع خبر عزله فلا يحدث عنده فتورا ولا مللا ولا يثنيه عن الابتداء بعمل جديد أو وضع مشروع لعمل مستقبل وان كان يتوقف تنفيذ هذا وإتمام ذاك على بقائه في عمله . وقد كان مما اقترحه في اثناء التحدث بعزله نقل طائفة من الكتاب باليومية في محكمة الاستئناف لعدم الحاجة اليهم الى المحاكم الابتدائية التي هي في أشد الحاجة اليهم فأخبره رئيس الكتاب بان أمر عزله قد تقرر بل كتب ولم يبق دون تنفيذه الا ختمه فقال رحمه الله ما معناه ان هذه فرصة تحرم اضاعتها وانني أعمل الواجب مادمت متمكنا منه وان هذا التمكن يستمر الى أن ابلغ الأمر بالعزل رسميا .

عمله في المعية

عز على أصدقاء هذا العامل المصلح ان يكون ضنينا على عمله عند القوة الفعالة في البلاد، وان لا يوضع في الموضع الذي يستحقه من ناصية القضاء، ولما خلا منصب رياسة التشريفات عند الأمير بنقل عباني باشا منه الى نظارة الحربية بادر الاستاذ الامام فرغب الى الأمير ان يجعل الفقيد رئيساً للتشريفات فذكر له الأمير رجلا آخر من المرشحين عنده لهذا المنصب فقال الاستاذ الامام رحمه الله — وكان الأمير أطال الله عمره يقدر رأيه حق قدره — كلا الرجلين كفؤ ويمتاز عاصم بمعارفه القضائية وأفندينا تعرض عليه القوانين واللوائح فيحسن ان يكون في معيته من يدرسها و يبدي رأيه فيها : ذكر لي ذلك الاستاذ في سياق عناية الامير به وكونه هو الذي اقترح جعله مستشارا في الاستئناف ثم جعله مفتشاً وما كان فضل عاصم ليخفى على الامير لذلك فضله على غيره وولاه هذا المنصب

اننا نرى من المتعلمين من يختار أو يختار أولياؤه له علم الحقوق ليكون قاضيا أو محاميا أو علم الهندسة ليكون مهندسا أو علم الطب ليكون طبيبا مثلا. ولكننا نرى النابغين فيما يوجهون جل عنايتهم اليه قليلين وأقل من هذا القليل من يبرع في العمل كما نبغ في العلم وأقل من هؤلاء من يعهد اليه عمل غير ما استعد له واشتغل فيه فيتقنه بعد اتقان غيره والبراعة فيه . أولئك الذين اعطوا من المواهب العقلية ما أعدهم لاتقان كل عمل يشتغلون به وقد كان حسن عاصم من هذا الفريق النادر فانه كان في أخلاقه وجل معارفه وسابق عمله أبعد الناس عن خدمة الامراء ولكنه على هذا عمل في خدمة الامير ما عجز عن مثله كل من كان في خدمته وخدمة أسلافه كما عجز عن الزيادة عليه من جاء بعده

كان رجال التشريفات من قبل رياسته لا عمل لهم في غالب أوقاتهم فخلق لهم من الأعمال ما استغرق عامة أوقاتهم في القصر حتى انه استخرج دفاتر التشريفات القديمة من عهد محمد علي وعرف ماضي ذلك وحاضره ثم وضع للتشريفات نظاماً ثابتاً حدد فيه أوقات المقابلات الرسمية وغير الرسمية وكذلك

الدعوات وحفلة المرقص الخديوي فقد كان كل ذلك محفوفاً بالفوضى والخلل . ومن ذلك انه اشترط فيمن يقابل الأمير شروطاً في الزي للموظفين وغير الموظفين قد تختلف باختلاف المقابلات واختلاف زي الأمير العسكري والملكي فيها ونفذ ذلك كله على الوطنيين والأجانب على سواء . وما كان يسهل عليه ان يشذ عن نظامه ذاك أحد

وأذكر من تنفيذه النظام على الاجانب من كبار المحتلين وغيرهم ان بعض كبار الموظفين منهم جاء عابدين بلباس غير ما يجب في تلك المقابلة فنبهه الى ذلك فعاد الى بيته وغير زيه

وأعظم من ذلك ان المرقص الخديوي كان يحضره من أوشاب الافرنج من يُعرف ومن لا يعرف . وسبب ذلك ان ديوان التشريفات كان يرسل الى كل وكالة سياسية للدول عدة أوراق ليس عليها أسماء ليدعي بها وجهاء الأجانب فكان يأخذها من هم أهل ومن ليسوا بأهل لحضور مجالس الأمراء والملوك فكان من النظام الذي وضعه له حسن عاصم انه لا يحضر المرقص أحد الا من دعاه ديوان التشريفات دعوة خاصة باسمه وانه لا يدعو من الأجانب الا من كان معروفاً عند الأمير ولو بتقديمه اليه قبل المرقص بزمن قريب كما انه لا يدعو من الوطنيين الا من كانت صفته كيت وكيت ككونه من أصحاب الرتبة الثانية فما فوقها أو ما يقابل ذلك . فساء هذا النظام وكلاء الدول وقناصلها فمهدوا الى لورد كرومر وهو أقدمهم أن يعترض على ذلك ويتلافاه فكلم حسن باشا فيه فاحتج عليه هذا بتفضيل النظام على الفوضى وأطلعه على إعلان من شركة كوك التي تتولى نقل السياح في مصر من مكان الى آخر وفيها ان سياحها يشاهدون كذا وكذا من الآثار القديمة ويحضرون المرقص (البالو) الخديوي ! فقال له اللورد إني أجل النظام ولا يليق بي ولا بدولتي ان نعترض عليه ونحن دعاته ولكنني أعلم ان السراي لا يلتزم فيها نظام بل المستثنى فيها من القاعدة أكثر من المستثنى منه فنحن لا نرضى ان يكون النظام سارياً علينا وهو غير مطرد : فقال له الفقيد : اني أضمن لجنابكم بأنني أنفذ هذا النظام ما دمت هنا بلا شذوذ قط وعليّ تبعة ذلك

الا أن يأمر ربّ المكان بشيء فلا يمكن لخادمه ان يعارضه فيه اذ يحتمل ان يقدّم له شخص في غير السراي فيدعوه هو مثلا فهل يمكن ان يسئل عن ذلك ؟ فاقتنع اللورد بذلك ولم يسعه الا الرضى . سمعت هذا من الفقيد نفسه

وقد مكث في منصب رئيس التشريفات بضع سنين ثم رقاه الأمير فجعله رئيس الديوان الخديوي فكانت خدمته أجل وأوسع إذ تعدت خدمة الأمير الخاصة الى خدمة الأوقاف العمومية . ولكن قلب الأمير تغير عليه ففصله بعد ثلاث سنين من منصبه بالإحالة على المعاش . فكبر ذلك على الناس وكثر حديثهم فيه . وظهر أثر ذلك في الجرائد فكانت متفقة على الثناء على الفقيد فرأينا ان نجعل ذلك وسيلة للموعظة وسوق العبرة الى المستعدين الاقتداء بعظماء الرجال وطلاب الفضيلة والاستقلال فكتبنا يومئذ في المنار نبذة في ذلك (راجع ص ٧٥٨ م ٧)

وقد أشار المؤيد الى نحو ما نقلناه يومئذ عن اللواء مع زيادة اذ قال عند بيان سبب عزل الفقيد من رياسة الديوان الخديوي في ترجمته له ما نصه :

« وقد أمضى الفقيد نحو سبع سنوات رئيساً للتشريفات الخديوية وثلاثاً رئيساً للديوان الخديوي مثالاً لأشرف موظف نزيه يخلص العمل والخدمة لمولاه ويؤدي الوظيفة المنوطة به أشرف أداء . ثم فصل بعد ذلك لأمر حسب نفسه فيه مؤدياً واجباً كما ينبغي عليه وحسبه الجناب الخديوي متعنتاً فيه . وزادت الريبة منه كلمة قالها اللورد كرومر لاحد رؤساء الدواوين الخديوية ليبلغها للجناب العالي إذ قال اللورد « انني أهنئ الجناب الخديوي بوجود رجل مستقل قوي الارادة نزيه مثل حسن عاصم باشا في معيته » فخالج الجناب العالي ذلك الفكر الذي طاف قبلا على خاطر اللورد كرومر لان هذا اللورد كان قد اعتقد ان شدة مراس الرجل في وظائفه القضائية أو ظاهر من آثار الانحياز الى جانب المعية السنية وهي التهمة التي كانت تلقى على كرام الوطنيين للتنكيل بهم . ولذلك كان يحسب الفقيد من أشد اعداء الوكالة البريطانية . فلما جاء الوقت الذي تجلت فيه صفات الفقيد كما هي شهد تلك الشهادة العالية فأولت التأويل الطبيعي الذي كان نتيجة شدة التنافر بين قصر الدبارة وعابدين . ولذلك قال كثيرون

من الناس ان اللورد أراد بحسن عاصم باشا سوءاً اذ شهد له هذه الشهادة وهو يعلم ماذا يكون وقعها من نفس مولاه في تلك الظروف » اهـ ثم قال المؤيد انه لم يطل الامر بعد ذلك حتى رضي عنه الامير

ونحن نعلم ان اللورد قال كلمته في الفقيد عن إعجاب بمزاياه لا سيما بعد ما تبين له ان الحق عنده يعلو على كل شيء فلا يتحيز لغيره ولا يراعي فيه مولاه الامير فضلا عمن دونه . وان الذين قالوا انه أراد به سوءاً يسيئون الظن بالامير اذ يعتقدون ان اللورد يقدر بكلمة واحدة ان يغيره على من يشاء وان ثبتت استقامته وكفاءته بحيث صار أشهر بهما من علم في رأسه نار ، وأظهر من الشمس في رابعة النهار ، والامير أذكى ذهناً وأوسع فهماً مما يعتقدون

عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية

كان سبب تأسيس هذه الجمعية ان مشعوذا ممثلا أجنبياً جاء مصر من نحو ست عشرة سنة فربح منها مالاً كثيرا فاراد ان يجعل ليلة من لياليه لفقراء المسلمين وبلغ محافظ العاصمة ابراهيم باشا رشدي ذلك فاجتمع بعض أهل الغيرة والفضل وائتمروا بينهم في ذلك فاتفقوا على أن يزينوا حديقة الازبكية في تلك الليلة ويضيفوا الى ألعاب المشعوذ فيها ضروبا أخرى من اللهو المباح ويحفظوا المال ليجمعوا اليه غيره بالتبرع وغيره ويجعلوا ذلك أصلا لجمعية خيرية اسلامية وكاشفوا المحافظ بذلك فوافقهم عليه (وقيل ان زينة الحديقة كانت بعد) أولئك هم الاخلاء الصادقون في خلة بعضهم لبعض وفي حب ملتهم وأمتهم منهم فقيدنا اليوم الذي نعتبر بسيرته وفقيدنا بالامس الاستاذ الامام رحمهما الله ومنهم سعد باشا زغلول وحشمت باشا ودرويش بك السيد احمد واخوانهم من الاحياء أطال الله أعمارهم وقد وضع هو قانون هذه الجمعية بمشاركتهم على أساس من الحكمة متين وكان أحكم أصوله وجوب إضافة نصف الدخل (الايراد) السنوي الى رأس المال لأجل الاستغلال والنصف الآخر يكون للتعليم واعانة الفقراء . والسبب في هذا ضعف ثقتهم بأهل البلاد في كل ما يقوم بالتعاون والاجتماع لا سيما اذا كان لمحض الخير وكان حسن عاصم أضعفهم ثقة حتى انه لم يكن يطلب من أحد معاونة ولا تبرعا الا نادرا وكان جل خدمته للجمعية في

الادارة الداخلية لماليتها ومدارسها فكان ينظر بنفسه في الامور الكلية والجزئية حتى ما كان من شأن الكتبة . قال لي درويش بك أمين سر الجمعية انه ما كان يكلفني الا ضبط الحسابات ثم هو يقوم بسائر أعمالي . وأما الاستاذ الامام فكان لا ينظر في الامور الداخلية الا الى الكليات ونحو امتحان من يرشحون للتعليم في المدارس من الجزئيات وكذا أمور التنفيذ اذ كان رئيساً ولكنه كان يسعى في الخارج لتكثير مال الجمعية ويدعو الامراء والوجهاء حتى كبراء الاجانب الى التبرع لها أو الاشتراك فيها وهو الذي دفع الوشايات عنها ولولاه لما بقيت فكانا رحمهما الله تعالى يكمل أحدهما ما يقصر فيه الآخر

وههنا نبين الحقيقة في مسألة ألم بها المؤيد فلم يحسن التعبير ولا وافق الصواب وكانت عبارته وهو يقصد بها مدح عاصم باشا ذماله بالاستبداد والشذوذ عن الآداب وهضما لحق رئيسه في الجمعية (الاستاذ الامام) وكذا لسائر اعضاء مجلس الادارة اذ جعل وجودهم في المجلس كعدمهم من حيث انهم لم يكن لهم رأي ينفذ اذا خالف رأي عاصم باشا . بل أقول ان هذه العبارة تفيد سلب أقوى مزايا عاصم باشا عنه وهي مزية التزام النظام واتباع القانون كأنه أمر إلهي . ولا شك ان صاحب المؤيد لا يقصد هذا ولكنها زلة قلم ولا عصمة الا لكتاب الله تعالى . أما عبارة المؤيد فهي :

ولم يكن يسمح لاحد أن يتعدى على النظام الذي عمله لها حتى استبد بجميع شؤونها وله في كل سنة وقفة أمام مجلس ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية في شيء ينتهي الامر فيها الى العمل برأيه ومع ما كان من صداقته للمرحوم الشيخ محمد عبده وخصوصا حيث كان رئيسا للجمعية الخيرية الاسلامية قد أراد هذا أن يتداخل سنة ١٩٠٤ في أمر مدرسة المحلة الكبرى فرأى الفقيد أن تداخله هذا قد يشوش عليه عمله ويجعل لاساتذة مدارس الجمعية وأهالي تلامذتها مندوحة الى مخاطبة غيره في أمرها فكتب اليه تلغرافا وهو في المنصورة يقول له (لا تضع قدمك في المحلة الكبرى قبل أن تقابلني ولا أسمح لك بالتداخل في شؤون مدرستها) أو ما هو بمعناه — فجاء الاستاذ المرحوم الى القاهرة وجرى بينهما كلام ادى الى اختلافهما

في الرأي اختلافا شديدا فابى الفقيد الا أن ينفذ رأيه أو يعتزل عمله كله في الجمعية وتم له ما أراد ولم يكن قصده الا أن يستقيم أمر المدارس على ما اعتقده أفيد لادارتها» اه

أما حقيقة المسألة التي أشار اليها المؤيد فهي ان بعض المؤسسين لمدرسة المحلة بما تبرعوا به من المال لهم أولاد تجاوزوا السن التي يشترطها قانون مدارس الجمعية الخيرية في التلاميذ الذين يدخلونها. وهم ما بذلوا المال الا رغبة في تعليم أولادهم في بلدهم أولا و بالذات ثم المساعدة على تعليم الفقراء ثانيا و بالعرض فلما عهدوا بادارة المدرسة الى الجمعية كما هو القصد الأول من تأسيسها أراد حسن باشا ان لا يقبل أولئك الاولاد في المدرسة التي أسسها أباؤهم لأن اتباع النظام والتزام القوانين عنده من الامور الوجدانية التي لا يناقش فيها كما علم ذلك مما كتبناه في أخلاقه رحمه الله . وكان من رأي الاستاذ الامام رضي الله عنه أن يقبل أولئك الاولاد لأن رأيه في القوانين انها وسائل لدفع المضار وحفظ المصالح وإقامة العدل فمتى عرض من الحوادث ما يكون التزام القانون فيه مخلا بالمصلحة أو منافيا للعدل وجب أن يعمل في الحادثة التي هذا شأنها بما يقوم به العدل وتتحقق به المصلحة وهذا ما عناه حسن باشا عاصم نفسه بقوله في تأبينه انه كان في القضاء ما يعبر عنه الافرنج « بقاضي العدل والانصاف» وأقول -والشيء بالشيء يذكر- انه كان قد وشي به اذ كان قاضيا للمستشار القضائي بأنه يخالف القانون عمدا في بعض أحكامه فسأله المستشار عما قيل فأجابه: هل القانون وضع لأجل العدل أم العدل وضع لاجل القانون ؟ فقال بل القانون وضع لاجل العدل فبين له حينئذ القضايا التي لم يلتزم فيها نص القانون وانه لو التزمه لخرج عن العدل وترتب على ذلك من المفاسد كيت وكيت فشكر له المستشار ذلك

وكان على هذا الاختلاف بين الصديقين في هذا الاصل أو المبدأ - كما يقال- قد حدث ان الاستاذ امر بشيء مخالف للقانون على سبيل الاستثناء لاجل المصلحة العارضة فأنفذه حسن باشا ممتعضا ثم قابل الاستاذ وقال له انني انفذت أمرك الذي كتبت اليّ به لان أمر الرئيس متى صدر بالفعل وجب تنفيذه كيفما كان وإلا فلا معنى للنظام ولا للرئاسة ولكنني أرجوك أن ترجيء ما تراه من مثل هذا الى ان نجتمع ونتذاكر فيه . فلما عرضت مسألة مدرسة المحلة خاف حسن باشا ان يعد رئيس الجمعية آباء أولئك الاولاد أو يكتب اليه امرا بقبولهم بطريق الاستثناء وذلك صعب عليه جدا ولا بد من تنفيذه متى امضاه الرئيس فكتب اليه يرجوه ان لا يبتّ شيئا في المسألة لا بالامر ولا بالوعد بل يرجيء ذلك الى الاجتماع وكان الامر كذلك فاجتمع مجلس الادارة وتناقشوا فيها وكان من رأي بعضهم تغيير ما فرضه قانون المدارس في السن فعلم حسن باشا بذلك فتشدد رحمه الله تعالى في المحافظة على القانون وعدم قبولهم وكتب الى الاستاذ الامام كتابا يستقيل به من ادارة المدارس- ان تغيرت مادة تحديد السن في القانون - وبعد طول المناقشة تقرر باغلب الآراء تنفيذ رأي الرئيس وهو الاستاذ الامام بقبول أولئك الاولاد بطريق الاستثناء وارضاء الوكيل ومدير المدارس بوعد المجلس له بأن يكون هذا الاستثناء قاصرا على هؤلاء الاولاد لا يتعداهم الى غيرهم ولا يطلب ادخال غيرهم باستثناء آخر

في ذلك اليوم الذي قرر فيه مجلس ادارة الجمعية ما ذكر ذهبت الى مكتب الجمعية لمقابلة الاستاذ الامام عند خروجه فرأيته خارجا مع بعض اعضاء المجلس وعلمت ما تقرر . ولما كتب المؤيد في ترجمة حسن باشا ما كتب كدت أشك فيما أعلم فراجعت درويش بك سيد احمد امين الجمعية (سكرتيرها) منذ وجدت فقلت له هل رأيت ما كتب المؤيد في ترجمة المرحوم حسن باشا قال نعم قلت له أن الذي علمته انا يومئذ مخالف لما في المؤيد -وذكرته له - فأينا الغالط ؟ فقال ان الغلط هو ما جاء في المؤيد وما تذكره انت هو الذي وقع . وعجبت مما قال المؤيد ان حسن باشا كتب الى المرحوم الشيخ «لا تضع رجلك في المحلة» الخ وحسن باشا أعلى أدبا من ان يكتب ذلك لمن دون الشيخ في مكانته الذاتية وفي صداقته له فلا أدرى من أين جاء المؤيد هذا

وجملة القول أن حسن باشا رحمه الله تعالى كان شديدا في المحافظة علي النظام والقوانين كما كتبنا من قبل ولكن لم يكن مستبدا في الجمعية الخيرية ولا في غيرها وكيف يكون متبع النظام مستبدا ؟ وان أعضاء مجلس ادارة الجمعية كلهم من أهل

الاستقلال فما كانوا يتبعون له رأيا وانما يقول كل واحد ما يظهر له أنه الصواب وكان كل شيء يختلفون فيه يقرر بأكثر الآراء ان لم يتفقوا كما هو نص القانون

أقول سمعت حسن باشا رحمه الله تعالى يقول بعد ما بلغ أمر الامير بعزله الحمد لله إنني الآن صرت قادرا على ان أعطي الجمعية الخيرية حقها من الخدمة فان السراي كانت آخذة معظم وقتي

وقد عين بعد ذلك وكيلا لدائرة القصر العالي وكانت مختلة معتلة مسلوبة منهوبة فادارها بدقة ونظام يعجز عنهما سواه ممن قضوا أعمارهم في ادارة الاعمال الزراعية والادارية والمالية . وعين مع ذلك مأمورا لتركة الامير محمد ابراهيم وهي تضاهي دائرة القصر العالي ثروة وأعمالا ومشاكل فضبطها أحسن ضبط . ولما تأسست الشركة الانكليزية المصرية للاتجار بالاراضي الزراعية كان - وهو من مؤسسيها - وكيل أعمالها وأدهش الافرنج بأعماله فيها على كثرة أعماله في القصر العالي وفي تركة الامير محمد ابراهيم وفي الجمعية الخيرية ومدارسها . ثم عين مع ذلك عضوا في اللجنة الارادية لمدرسة القضاء الشرعي فكان لها من خدمته العظيمة الحظ العظيم . وقد أشرنا في الكلام عن اخلاقه الى بعض عمله في جمعية احياء العلوم العربية التي كان وكيل رئيسها بل لم يكن لها بعد الاستاذ الامام رئيس سواه . كان يعمل هذه الاعمال كلها مع منتهى الدقة والاتقان، فيالله ولهمم الرجال

وههنا أقول انني كنت أنتقد عليه كثرة العمل وأخاف ان ينهكه فيقتله، وأنى لجسمه النحيف ان يحتمله ، وقد كان ما خفت ان يكون ، فانا لله وانا اليه راجعون،

أصابه منذ أشهر ضعف في المعدة ترك لاجله أكل اللحوم كلها حاشا السمك وقد كان صام رمضان الماضي كله على الوجبة اذ لم يكن يتسحر فكلمته في ذلك غير مرة فقال لي انني جربت مرة فأكلت في السحور شيئا من الكنافة والفاكهة فثقل علي وأصابني منه غثيان في النهار . وكنت أراه أحيانا بعد العصر من رمضان وقد ضعفت قوته وخفت صوته، حتى لو استفتاني في الفطر لأفتيته ، ولكن الله تعالى احب ان يكون ذلك خاتمة عمله فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأحسن عزاءنا عنه ، ونفعنا بسيرته الحميدة بمنه وكرمه

رزيئة مصر بحسن باشا عبد الرازق

حق لمصر اليوم ان تتمثل بقول الشاعر

رماني الدهر بالارزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

يحق لمصر ذلك وقد رزئت بفقد الرجل العظيم حسن باشا عبد الرازق ولم يمض على فقدها لصديقه الكريم حسن باشا عاصم الا شهر ونصف وعلى فقدها لصديقهما الاستاذ الامام الا سنتان وأشهر

أولئك هم الرجال العاقلون العالمون العاملون المخلصون في مصالح ومواطن لا خلف لهم فيها تتعزى البلاد باداثه ما كانوا يؤدون كما كانوا يؤدون ولا نكفر نعمة الله على البلاد بمن بقي من اصدقائهم العاملين الصادقين الذي نجيل ابصارنا فلا نرى للواحد منهم كفوءا ولا ندا يضارعه في عمله أو يغني غناءه فيه بل يجب ان نشكر له تعالى هذه النعمة، مع الصبر على ما أصابنا من المصيبة، عسى أن يبارك لنا في أعمارهم ، وينفعنا بأعمالهم ،فان الصبر مجلبة الرحمة ، والشكر مدعاة المزيد ،ولكن «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» كما ورد في الحديث الشريف .

ليس المنار شاعراً يرثي ولا خطيبا يؤبن ، ولا مؤرخا يدوّن، وانما هو واعظ ومذكر ،يستخرج العبر من حيث يجدها ويسوقها الى من غفل عنها أو جهلها ، ولا عبرة أنفع بعد هداية الله من التذكير بفضل العاملين الغابرين ، على الوجه الذي يزيد الناس معرفة بفضل العاملين الحاضرين ، وينهض بهمم المستعدين للتأسي بأولئك ونصر هؤلاء

انما كان حسن باشا عبد الرازق رجلا - والرجال قليل - باستعداده الفطري ونشأته الدينية ، فأما الاستعداد فهو الأصل في نبوغ كل رجل في الشرق حتى اليوم الا ما عساه يكون في اليابان من حسن التعليم والتربية النظامية التي تنهض بضعيف الاستعداد حتى يبذّ من هو أعلى منه استعدادا اذا لم يصادف هذا من يربيه كتربيته نشأ من فقدنا اليوم نشأة دينية حتى أن الحكام المستبدين عجزوا عن حمله على

السكر ونحوه وهو في ريعان شبابه ، وغضاضة إهابه ، وقد كان مرة مع اسماعيل باشا المفتش واعوانه فأرادوه على الشرب معهم فتمنع فألحوا فاستعصم فأعطوه كأساً من الجعة (البيره) باسم « افندينا اسماعيل باشا» وحلفوا عليه به ليشربنّ فأصر على التمنع فاستكبروا ذلك منه وطفقوا يرجعون اليه القول ويسر اليه بعضهم ما يراه وراء هذا التمنع من عاقبة إهانة الاسم الكريم (اسم الخديو) فسنحت له حيلة للتخلص فاخذ الكأس فأدناها من شفتيه فألقاها متقززا مكفهرا وهو يتفل ويقول : قطعت البيره وشاربوها !! كيف تشربون هـذا الشيء المرّ البشع الطعم وكيف تطيقونه : فقابلوا ذلك بالضحك والسرور ولم يعودوا الى عرضه عليه

مثل هذه الواقعة يعدها بعض النابتة المتفرنجة خشونة وحشية (وقلة ذوق أيضا) ولكن من أوتي نصيبا من الحكمة يعدها آية النبوغ الكبرى لالأن شرب كأس الجعة يهدم الدين فحفظ الرجل دينه بالامتناع عنه بل بدلالتها على قوة الارادة وعدم المبالاة بلوم اللائمين في العمل بما يعتقد وان كانوا كبارا فهذه هي دعامة الفضائل وأصل الكمالات التي يكون بها الرجال رجالا ولولا هذه المزية لما كان حسن باشا عبد الرازق ذلك الرجل الذي أحسن القول فيه أصحاب الجرائد التي تناهض حزبه السياسي الوطني وعدوه من أفراد الامة العاملين الذي يقل نظيرهم . وما يقولونه هم وغيرهم من العارفين بأقدار الرجال بألسنتهم أبلغ مما كتبوا وأكبر

بموت هذا الرجل تكررت العبر التي ترشد الأمة والنابتة الجديدة منها خاصة الى ان الشرف الحقيقي والمجد الصحيح لا يكونان للانسان الا بأخلاقه وصفاته النفسية ، لا بماله ونشبه ، ولا بعشيرته ونسبه ، ولا بأوسمته ورتبه ، فقد مات في هذه السنين الثلاث الأخيرة غير واحد من أكابر الأمراء والعلماء والاغنياء ولم تكتب الجرائد في أحد منهم ولا قال الناس فيهم مثل ما كتب وقيل في تأبين الاستاذ الامام ثم صديقه حسن باشا عاصم ثم صديقهما حسن باشا عبد الرازق على انه كان لكل واحد من هؤلاء حالة سياسية تقضي باحتراس بعض الجرائد وعدم إرخائها العنان للقلم في تأبينهم مرضاة أو مراعاة لمن هم في جانب عنهم فوصف كل واحد منهم بما وصفته تلك الجرائد به لا يمكن ان يعد من قبيل المبالغة بل كنا نعلم ان ما علم من فضلهم أكثر مما قيل ومما كتب

خدم حسن باشا عبد الرازق أمته في حسن سيرته في قومه وفي مجلس الشورى وفي تربية أولاده النجباء وسنبين ذلك في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى



أقوال

(الجرائد اليومية في الاحتفال بالمنار)

علمنا ان بعض قراء المجلة في غير هذا القطر يحبون أن تنشر في المنار أقوال الجرائد المصرية في الاحتفال بالمنار فرأينا ان نوافي المحب ولو ببعض ما يحب . وقد كتبت الجرائد الشهيرة شيئا في ذلك قبل الاحتفال و بعده ولكننا لم نحفظه بل لم نطلع على كل ما كتب . فمما كتب قبل الاحتفال ما جاء في العدد ٢٢١ من الجريدة الصادر في ٢١ شوال

عيد المنار

تهنئ « الجريدة » هذه المجلة العلمية التي كم لها من موقف مشهور في الدفاع عن الحقائق العلمية والمذاهب المتينة في أبواب الشرع الشريف . وكم لها من التنبيه الرشيد على وجوب التمسك بالآداب العالية ونبذ التقاليد التي ما أنزل الله بها من سلطان

تهنئ العلم وفن الكتابة في شخص مجلة المنار التي فتح الله عليها بالثبات النادر لامثالها في الشرق فانها ستتم بعد الغد السنة العاشرة من عمرها . وندعو لها بطول البقاء قائمة على خدمتها الارشادية حاملة على الدخائل التي ظن القوم انها من الدين وليست منه في شيء . ولا شك في ان من يقف مثل هـذا الموقف غير المألوف عند العوام كما وقف السيد محمد رشيد رضا نفسه على خدمة الحق من غير مبالاة يصادف مصاعب — لولا الثبات — تذهب بعزيمة القائم بها . فمن يعلم مقدار

هذه الصعوبات كما نعلم لا يتردد في ان يزف التهنئة للمنار بمناسبة هذا العيد

ولقد كان زميلنا الاستاذ اسماعيل بك عاصم أول الشاعرين بهذا الواجب فانه قد نوى الاحتفال بهذا العيد اذ دعا الى منزله أصحاب المجلات العلمية وكتابها في مساء الخميس ٢٢ شوال سنة ١٣٢٥ الموافق ٢٨ نوفمبر عام ١٩٠٧ فنسأل للمنار ان يحييه الله اعواماً كثيرة ونشكر ثبات منشئه على الحق وفضل المحتفل على حسن اعتداده باقامة منارات العلم والعرفان

ثم كتب في الجريدة بعد الاحتفال ما يأتي (نقلا عن العدد الصادر في ٢٦ شوال)

الاحتفال بمجلة المنار

للعقلاء كلمة واحدة على أن الديانات مصلحة للنفوس وناحية بها مناحي الخير وكذلك اتفقوا على ان الديانات الثلاث المعروفات في ديارنا هذه لا تضادّ بينها في الحقيقة ونفس الأمر وانما يوجد في كل متأخرة منها عن أختها بعض زيادات اقتضاها تدرج الانسان أو بعض تفاسير لما غمض من نصوص ما قبلها

لا خلاف في هذا بين أولي الألباب من أصحاب هذه الديانات على تخالف رسومها الظاهرة وتقاليدها في تلقين العقائد التسليمية كما لا خلاف بينهم في ان التقاليد التي هي في كل دين بعيدة عن أصله وغريبة عن طبعه هي مضرة بأهله وان مقاومتها وازهاق روحها يعد اصلاحاً كبيراً في الأمم يستحق القائمون به أعظم شكر وأجزل مكافأة أدبية

ولدينا الآن مثال جديد على ما قدمنا فان حضرة الأصولي الفاضل اسماعيل بك عاصم خطر في باله خاطر شريف وهو ان يقوم بخدمة جليلة للاصلاح بتكريم أهله ووجد من المناسب لهذا ان يقيم احتفالاً لمجلة المنار الاصلاحية باتمامها عقداً من العمر (عشر سنين) فدعا لمنزله حضرات أصحاب المجلات العلمية ومحرريها مساء يوم الخميس فلبوا دعوته، وانتظم في منزله عقدهم فيهم المسلمون والمسيحيون والموسويون وقدم لهم مائدة فاخرة وبعد الطعام قام فألقى خطبة بليغة حتى اذا أتمها قام حضرة العالم الفاضل منشىء المنار فأجابه بكلمات في منتهى البلاغة فزاد رفعته في أعين الحاضرين ذلك التواضع الذي اشتملت عليه هذه

الكلمات . وتلاه حضرة الدكتور يعقوب افندي صروف منشىء المقتطف فذكر في خطبته مثل ما قدمناه من فوائد الديانات اذا أحسن تفسيرها والقيام بها حق القيام ونوّه كثيراً بفضل منشىء المنار وحسن خدمته الانسانية بخدمته الدينية

ثم خطب الأديب توفيق افندي عزوز صاحب المفتاح فأجاد. ثم الاديب سيد افندي محمد صاحب المجلة المدرسية وذكر في خطبته ما لاقاه السيد رشيد من الصعوبات في نصرة الحق وقال ان مخالفي المنار قد انتفعوا به . وانتهت هذه الحفلة باجماع الحاضرين وهم نحو عشرين فاضلاً على ان ما قام به حضرة اسماعيل بك من تكريم العلم على هذه الصورة يستحق أعظم شكران فخرجوا وهم بلسان واحد يلهجون بالثناء ويتحدّثون باهتمامه بالعلم والعلماء

ونحن نشارك بشكر حضرة الفاضل اسماعيل بك ونتمنى ان تسري وتعم هذه الروح الشريفة روح تكريم العلم بتكريم رجاله ونرجو ان يكون عمل حضرته فاتحة جميلة لأمثاله

وجاء في عدد الاهرام الذي صدر في غد يوم الاحتفال ما نصه :

(حفلة أدبية)

أقام أمس في داره العامرة حضرة الكاتب الفاضل والمحامي المشهور اسماعيل بك عاصم مأدبة شائقة اكراماً لحضرة العالم العامل السيد رشيد رضا واحتفالاً بمرور عشر سنوات كاملة على مجلته المشهورة «المنار» وقد دعا الى الحفلة أصحاب المجلات المصرية ومحرريها وألقى عليهم خطبة نفيسة ذكر فيها مآثر السيد رشيد في مباحث مجلته الزهراء التي هي اكبر أمثلة الاجتهاد المنافي للتقليد الجامد في الدينيات والدنيويات وتطرق من ذلك الى ذكر خصال المومى اليه الكريمة من فضل وفضيلة وآداب وبعد نظر والى معاشرته اياه مدة ثماني سنوات متوالية . وبين ضرورة احتفاء الامة بأصحاب المجلات الراقية بها ووجوب تنشيطها لهم وما يطالبون به ويرجون له ازاء ذلك من كشف الحقائق وتأييدها الاصلاح الوطني والاجتماعي

وجاء في أواخر الخطبة قوله :

« ومن أبدع ما رأيته ان سعادة العالم الفاضل أحمد فتحي باشا زغلول استشهد في مقدمة ترجمته لكتاب الاسلام المطبوع في سنة ١٣١٥ في الصحيفة السابعة بشذرات من فاتحة أول عدد من المنار فهي حينئذ قد شبت في مهدها وحازت الثقة عند أكابر الامة منذ نشأتها »

ونحن نثني على حضرة الداعي والمدعو ونسأل الله أن يكثر من هذه الاريحية في صدور وجهائنا وفضلائنا

وجاء في جريدة الظاهر ما نصه :

أرسل الينا حضرة عزتلو الأصولي البارع اسماعيل بك عاصم المحامي الشهير خطبته التي ألقاها في الحفلة التي أعدها أخيرا في داره لعلماء الكتاب أصحاب المجلات المصرية ومحرريها باتمام مجلة المنار للسنة العاشرة من عمرها . وقد افتتحها حضرته بمقدمة أمل فيها ان تكون الحفلة فاتحة لامثالها في المستقبل ثم استطرد منها الى ذكر مجلة المنار وخدمتها العلمية والدينية واخلاق صاحبها وعلمه وأدبه مبيناً ان تقدير العاملين تنفع الامة وخدمتها وتشجعهم على أعمالهم حساً ومعنى مما يزيد في رقي البلاد وتقدمها وختمها بالشكر على الذين أجابوا الدعوة وحضروا الحفلة فنشكره أجل شكر على حسن صنيعه هذا ونرجو ان يقتدي به أدباء الأمة وأفاضلها لتكون الفائدة أعم والنفع أتم

وجاء في المؤيد الذي صدر في ٢٥ شوال ما يأتي

احتفل حضرة القانوني الفاضل عزتلو اسماعيل بك عاصم المحامي ليلة الجمعة في داره بالعباسية بدخول مجلة المنار في سنتها العاشرة احتفالا شائقا دعا اليه أرباب المجلات المصرية وبعد الطعام خطبهم حضرة المحتفل في فضل المجلات واستطرد الى ذكر المجلة المحتفل بها وعدد فضل صاحبها فاجابه حضرة صاحب المنار بعبارات الشكر وأثنى على وصفائه الحاضرين أطيب الثناء ثم قام بعض أرباب المجلات وخطبوا أيضا بما يناسب وقبيل منتصف الليل انصرف المدعوون داعين لصاحب المنار

وبمجلته ومثنين على مروءة صاحب الدعوة ووفائه ومتواعدين أن يجتمعوا في خلال هذا الشتاء اجتماعات أخرى للبحث فيما ينفع البلاد ويرقي شأن العلم فيها

وجاء في جريدة مصر في غد يوم الاحتفال ما نصه

الاحتفال الادبي الكبير

دعا حضرة الأصولي الفاضل عزتلو اسماعيل بك عاصم المحامي الشهير مساء أمس الى حفلة أدبية أقامها في منزله بالعباسية لحضرات أصحاب المجلات العلمية الأدبية لمناسبة دخول مجلة المنار في سنتها العاشرة وتمهيداً لموالاة هذه الاجتماعات الأدبية لتكون واسطة في زيادة التآلف والتعارف بين جماعة المشتغلين بالصحافة فلبى دعوته جميع أصحاب هذه المجلات الا واحداً أو اثنين اعتذرا عن عدم الحضور لأسباب قسرية فكان عدد الحاضرين منهم لا يقل عن العشرين وكلهم من كبار رجال الصحافة المشهورين وهم أصحاب المقتطف والهلال والمفتاح والمنار والمقتبس ومجلة سركيس والهدى وحكمت ومرآة العلوم ومجلة الاجتهاد التركية

ولما انتظم عقد اجتماعهم أخذوا يتبادلون عبارات التحية والمودة ويتباحثون في ما يرقي شأن مهنتهم ويعلي مكانتها ثم دعاهم حضرة المحتفل الفاضل الى قاعة الطعام التي كانت في أبهى زخرفها وزينتها حيث اجتمعوا حول مائدة فاخرة على الطراز الأوربي فتناولوا ما لذ وطاب ثم انبرى الخطباء منهم وهم حضرات اسماعيل بك عاصم والدكتور يعقوب صروف وفارس نمر صاحبا المقتطف وتوفيق افندي عزوز صاحب مجلة المفتاح والسيد افندي محمد صاحب مجلة الهدى والمجلة المدرسية فتكلموا بما يناسب المقام فهنأوا المحتفل به على تقدم مجلته وارتقائها وأثنوا على حضرة اسماعيل بك عاصم الذي كان واسطة عقد هذا الاجتماع وتمنوا جميعاً ان تكثر بينهم مثل هذه الاجتماعات الادبية المفيدة ثم نهض حضرة الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار فأثنى على المحتفلين به جميعاً وأظهر لهم خجله من احتفائهم به واكرامهم له عن غير جدارة واستحقاق بعبارات كلها في منتهى البلاغة وحسن التعبير ومن ثم انصرف الجميع وكلهم ألسنة تلهج بالشكر

والثناء على صاحب هذه الحفلة بعد ان قرروا اعادة مثل هذا الاحتفال الصحافي مرة في كل شهر لما ينجم عن ذلك من الفائدة والنفع

وجاء في المقطم الذي صدر في غد يوم الاحتفال ما نصه:

أولم حضرة الخطيب الشهير والاصولي الفاضل اسمعيل بك عاصم أمس مساء وليمة فاخرة في منزله بالعباسية لحضرات أصحاب المجلات العلمية والأدبية في هذه العاصمة احتفالا بدخول مجلة المنار الغراء في سنتها العاشرة ومدّ لهم مائدة مزدانة بالاثمار من دمشق الشام وحلب و بيروت ولبنان وادار الندل (هو بضمتين خدم الدعوة) عليها مالذ وطاب من الطعام المتعدد الالوان ولما انتهى المدعوون من العشاء وقف سعادة الفاضل صاحب الدعوة وسط جمع كله من رجال العلم وار باب القلم خطب عليهم خطبة غراء رنانة نشرناها برمتها في هذا العدد ليطلع القراء الكرام عليها. ثم وقف حضرة العالم الفاضل السيد رشيد رضى المحتفل به ورد على تلك الخطبة ردا كله اتضاع واحتشام بكلام قلّ ودلّ ووقع في النفس وقعا حسنا وتلاه آخرون من المدعوين فخطبوا في مدح المحتفل والمحتفل به واظهروا فوائد مجلة المنار وشهدوا بالفضل لصاحبها المفضال

ثم اتفق المدعوون على ان يجتمعوا للانس والسمر وتوثيق عرى المودة والصداقة مرارا في هذا الشتاء ويبحثوا في غضون ذلك عن أحسن الطرق التي تتجه مساعيهم فيها لخير الجمهور ونفع أهل القطر

وجاء في جريدة المنبر الصادرة في ٢٧ شوال ما نصه:

فاتنا أن نشير الى الاجتماع الأدبي الذي عقده في منزله مساء الخميس الماضي حضرة صاحب العزة اسماعيل بك عاصم المحامي الشهير احتفالا باتمام مجلة المنار الغراء للسنة العاشرة من سني حياتها لقد كان جامعا لنخبة أهل الفضل من أصحاب المجلات المصرية ومحرريها حافلا بالشائق والمعجب من الآراء والافكار وقد استهل الاحتفال حضرة صاحب الدعوة بخطبة في اطراء حضرة المحتفل به وفي شؤون أخر ثم خطب على أثره بعض المدعوين في تكريم حضرة الاستاذ النافع صاحب المنار وتأثير المجلات العلمية في ترقية الافكار والآراء فنحن نثني على حضرة المحتفل ونتمنى للمنار ولسائر المجلات النافعة الحياة والثبات

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

﴿ مصر ذي القعدة سنة ١٣٢٥ — آخره السبت ٤ يناير (ك ٢) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١١٠: ١٠٦) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١١: ١٠٧) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١٢: ١٠٨) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ، وَبَاءُو (*) بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *

(*) هكذا رسمت «وباؤ» في المصحف الامام بدون ألف بعد الواو

بعد ما أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله وذكر بنعمته على المؤمنين بتأليف القلوب وأخوة الاسلام — وبعد مانهى عن التفرق في الاهواء والاختلاف في الدين وتوعد على ذلك بالعذاب العظيم — بين فضل المعتصمين بحبله ، المتآخين في دينه ، المتحابين فيه ، ووصفهم بهذا الوصف الشريف ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ فعلم منه أن خيرية الامة وفضلها علي غيرها تكون بهذه الامور : الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان بالله تعالى . وروي عن عمر انه سماها شروطا

في قوله تعالى « كنتم » ثلاثة أوجه (أحدها) أنها تامة فالمعنى وجدتم خير أمة كأنه قال أنتم خير أمة في الوجود الآن لأن جميع الأمم غلب عليها الفساد فلا يعرف فيها المعروف ولا ينكر فيها المنكر وليست على الايمان الصحيح الذي يزع أهله عن الشر ويصرفهم الى الخير وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ايمانا صحيحا يظهر أثره في العمل . (والوجه الثاني) أنها ناقصة والمعنى حينئذ كنتم في علم الله أو كنتم في الأمم السابقة كما في كتبها المبشرة بكم خير أمة الخ وقال أبو مسلم ان هذا القول يقال لمن ابيضت وجوههم والمعنى كنتم فيما سبق من أيام حياتكم خير أمة شأنكم كذا وكذا وبذلك كان لكم هذا الجزاء الحسن فالكلام عنده تتمة للآيات السابقة فكما ذكر فيها مايقال لمن اسودت وجوههم ذكر ايضا مايقال لمن ابيضت وجوههم . وقيل على هذا — أي كونها ناقصة — غير ذلك (الوجه الثالث) ان كان هنا بمعنى صار أي صرتم خير أمة وهذا أضعف الاقوال

اذا فسرت كلمة « كنتم » بغير ماقاله أبو مسلم كانت الجملة شهادة من الله تعالى للنبي (ص) ومن اتبعه من المؤمنين الصادقين الى زمن نزولها بأنها خير أمة أخرجت للناس بتلك المزايا الثلاث . ومن اتبعهم فيها كان له حكمهم لامحالة ولكن هذه الخيرية لايستحقها من ليس لهم من الاسلام واتباع النبي عليه الصلاة والسلام الا الدعوى وجعل الدين جنسية لهم بل لا يستحقها من اقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت الحرام والتزم الحلال واجتنب الحرام مع الاخلاص

الذي هو روح الاسلام الا بعد القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالاعتصام بحبل الله مع اتقاء التفرق والخلاف في الدين

قال الاستاذ الامام مامعناه : هذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولا وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين كانوا معه (عليهم الرضوان) فهم الذين كانوا أعداء فألف الله بين قلوبهم فكانوا بنعمته اخوانا وهم الذين اعتصموا بحبل الله ولم يتفرقوا في الدين فيذهبوا فيه مذاهب تتعصب لكل مذهب شيعة منهم ، وهم الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لايخاف في ذلك ضعيف قويا ، ولا يهاب صغير كبيرا ، وهم المؤمنون بالله ذلك الايمان الذي استولى على عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم وملك أزمة أهوائهم حتى كان هو المسير لهم في عامة أحوالهم — ذلك الايمان الذي بين سبحانه خواصه وصفاته في آيات كثيرة وظهرت فوائده وآثاره في تغيير هيأة الارض على أيديهم — ذلك الايمان الذي قال تعالى في أهله (٤٩ : ١٥ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقال فيهم (٨ : ٢ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) الى قوله (٤ أولئك هم المؤمنون حقا) وقال فيهم (٢٣ : ١ قد أفلح المؤمنون ٢ الذين هم في صلاتهم خاشعون) الخ الآيات التي تحقق معناها ومعنى أمثالها في أولئك الاصحاب الذين كانوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام

أقول هذا معنى ماقاله الاستاذ الامام في الجملة الا ان كلمة « وأصحابه الذين كانوا معه » هي من لفظه يريد أن هذه الصفات العالية والمزايا الكاملة لذلك الايمان الكامل لم تكن لكل من يطلق عليه المحدثون اسم الصحابي كالأعرابي الذي يسلم ويرى النبي (ص) ولو مرة واحدة . وكأنه أخذ ذلك من قوله تعالى (٤٨ : ٢٩ محمد رسول الله والذين معه) فهم الذين تصدق عليهم تلك الصفات الجليلة وأفضلها وأعلاها الجهاد والهجرة الى المدينة بالنسبة الى غير أهلها والايواء والنصر من أهلها . لذلك قال تعالى في آخر سورة الانفال (٨ : ٧٤ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ٧٥ والذين

آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) ولم يهاجر مع النبي (ص) منافق لان الهجرة كانت في زمن الضعف وانما يكون النفاق في زمن القوة . ومنافقو المدينة لم ينصروه (ص) وانما كانوا يخذلون و يثبطون الصادقين من المؤمنين و يغرون الاعداء بهم . قال تعالى فيهم (٩: ٤٧ لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ٤٨ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) وروي عن ابن عباس ان المراد بالآية المهاجرون الاولون. وعن عمر أنها في خاصة الصحابة ومن صنع مثل صنيعهم

فان قيل ان بعض أولئك الصحابة الصادقين من المهاجرين والأنصار قد تفرقوا واختلفوا في الفتنة التي أثارها معاويةُ على علي أمير المؤمنين فهل خرجت الأمة بذلك عن كونها خير أمة أخرجت للناس ؟ فالجواب من ثلاثة وجوه

(أحدها) أن ذلك الخلاف والتفرق لم يكن في الدين وإنما كان في أمر دنيوي لم يتغير به اعتقاد أحد الفريقين ولم يحدث به مذهب جديد في الاسلام فالدين نفسه لم يطرأ عليه شيء من ذلك الخلاف

(ثانيها) ان معاوية الذي أثار ذلك التفرق لم يكن من المهاجرين الأولين فانه أسلم عام فتح مكة الذي انقطعت به الهجرة أو أظهر إسلامه في ذلك العام كما قال الواقدي انه أسلم عام الحديبية وانه كان في عمرة القضاء مسلما . قال الحافظ في الإصابة بعد نقل قول الواقدي : وهذا يعارضه ما ثبت في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص انه قال في العمرة في أشهر الحج « فعلناها وهذا يومئذ كافر » : يعني معاوية . وسواء صح قول الواقدي أم لا فمعاوية لم يهاجر . ونقل ابن سعد عنه انه كان يقول : لقد أسلمت قبل عمرة القضاء ولكني كنت أخاف أن أخرج الى المدينة لأن أمي كانت تقول ان خرجت قطعنا عنك القوت : وما كان مع معاوية من المهاجرين الأولين الا قليل اعتقدوا أنه يطالب بحق لا يلبث ان يناله — وهو القصاص من قاتلي عثمان — ثم يدخل فيما دخل فيه الناس من مبايعة علي

(ثالثها) قد عرف المطلعون على التاريخ ان الصحابة لم يفرطوا في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ما وجدوا وإنما ضعف ذلك بعد انقراض أكثرهم

وهذان الركنان هما بعد الايمان أعظم أركان خيرية الأمة فما عرض من التفرق الدنيوي والخلاف بعد قتل عثمان لم يلبث أن زال بعد قتل علي . لان التفرق والخلاف لا يدوم في أمة تقيم هذين الركنين ولو بغير نظام ولو كان لهما نظام في الصدر الاول لما وقع كل ذلك الذي وقع . ألم يبهدلك كيف كان الناس يغلظون لمعاوية في إنكار ما ينكرونه عليه حتى غير الصحابة منهم ؟ .

الحق أقول ان هذه الأمة ما فتئت خير أمة أخرجت للناس حتى تركت الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وما تركتهما رغبة عنهما أو تهاونا بأمر الله تعالى باقامتهما ، بل مكرهة باستبداد الملوك والامراء من بني أمية ومن سار على طريقهم ممن بعدهم وقد كان أول أمير منهم أظهر هذه الفتنة جهراً عبد الملك بن مروان اذ قال على المنبر « من قال لي اتق الله ضربت عنقه » فقد كانت شجرة بني مروان الخبيثة هي التي سنت في هذه الامة سنة الاستبداد فمازال يعظم ويتفاقم حتى سلب الامة أفضل مزاياها في دينها ودنياها بعد الايمان

وقد بين الفخر الرازي في تفسيره نحو ما تقدم من كون وصف الامة هنا بالامر والنهي والايمان علة لكونها خير أمة أخرجت للناس فقال

« واعلم ان هذا الكلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم . وتحقيق الكلام انه ثبت في أصول الفقه ان ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف . فههنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الامة ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات أعني الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات » ثم أورد سؤالاً وذكر الجواب عنه فقال

« من أي وجه يقتضي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان بالله كون هذه الامة خير الامم مع ان هذه الصفات كانت حاصلة في سائر الامم ؟ والجواب قال القفال تفضيلهم على الامم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآكد الوجوه وهو القتال لأن الامر بالمعروف قد يكون بالقلب

و باللسان و باليد وأقواها مايكون بالقتال لأنه إلقاء النفس في خطر القتل ، وأعرف المعروفات الدين الحق والايمان بالتوحيد والنبوة وأنكر المنكرات الكفر بالله فكان الجهاد في الدين محملا لاعظم المضار لغرض ايصال الغير الى أعظم المنافع وتخليصه من أعظم المضار فوجب ان يكون الجهاد أعظم العبادات . ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع لاجرم صار ذلك موجبا لفضل هذه الامة على سائر الامم . وهذا معنى ماروي عن ابن عباس انه قال في تفسير هذه الآية: قوله « كنتم خير أمة للناس » تأمرونهم ان يشهدوا ان لااله الا الله ويقروا بما أنزل الله وتقاتلونهم عليه ، ولااله الا الله أعظم المعروف والتكذيب هو أنكر المنكر: ثم قال القفال (فائدة) القتال على الدين لاينكره منصف وذلك لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الالف والعادة ولا يتأملون في الدلائل التي تورد عليهم فاذا أكره المرء على الدخول في الدين بالتخويف بالقتل دخل فيه ثم لايزال يضعف مافي قلبه من حب الدين الباطل ولايزال يقوى في قلبه حب الدين الحق الى ان ينتقل من الباطل الى الحق ومن استحقاق العذاب الدائم الى استحقاق الثواب الدائم » اه ماأورده الرازي عن القفال وأقره

أقول ان هذا القول باطل مبني على قواعد غير ثابتة (منها) توهم القفال والرازي ان الامم السابقة لم يكن عندها جهاد ديني قوي ولا إكراه على الدين وذلك لقلة اطلاعهما على الاديان والتاريخ والصواب ان أهل الكتاب كانوا أشد من المسلمين في حروبهم الدينية وورد عنهم في الاكراه على الدين مالم يرد مثله عن المسلمين

(ومنها) أن الاكراه على الدين منفي من الاسلام بنص القرآن ولم يحارب النبي صلى الله عليه وسلم أحدا من العرب ولا من غيرهم لأجل الاكراه على الاسلام وانما حارب دفاعا ، وكيف يحاول الاكراه والله تعالى يقول له (١٠: ٩٩ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ومن أراد التفصيل في ذلك فليرجع الى تفسير آيات القتال في البقرة وآية (٢: ٢٥٦ لا اكراه في الدين)

(ومنها) ان هذا القول يجعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عبارة عن الدعوة الى الاسلام والالزام بها والآية السابقة « ولتكن أمة يدعون الى الخير و يأمرون

بالمعروف و ينهون عن المنكر » تقتضي ان يكون الامر والنهي غير تلك الدعوة وغير الالزام بها وهو عمل لا ارشاد وتعليم (ومنها) ان فريضتي الامر والنهي غير فريضة تغيير المنكر الذي ورد في الحديث وقد تقدم بيان ذلك (ومنها) ان هذا القول مخالف لقوله تعالى في سورة الحج في وصف المؤمنين بعد الاذن لهم بقتال المعتدين عليهم (٢٢: ٤١ الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فجعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوصافهم بعد التمكن في الارض وذلك لايكون بالجهاد بل بعده .

فيالعجب من هؤلاء العلماء يأخذون المسألة التقليدية قضية مسلمة ثم يحكمونها في كتاب الله تعالى و يجعلونها قاعدة لتفسيره وان كانت مخالفة لآياته الصريحة ثم هم يأتون بمايدل على ان أعظم مايمتاز به الاسلام هو اتباع الدليل ونزع قلائد التقليد وهم مصرون على تقلد هذه القلائد . ألم تتأمل ما قاله القفال في فائدته وانه لا يعني بأكثر الناس الذين يحبون أديانهم بحسب الالف والعادة الا غير المسلمين يعني ان المسلمين وحدهم هم الذين يتمسكون بالدلائل فلا يقبلون في دينهم شيئاً بغير دليل وبهذا كان لهم الحق عنده باكراه غيرهم على ماهم عليه ليكون مثلهم في الخيرية . وأين المسلمون من هذه المزية اليوم وفي زمن القفال أيضا ؟؟

ثم ان السؤال الذي أورده الرازي وارتضى في جوابه ما قاله القفال مبني على أن قوله تعالى « خير أمة أخرجت للناس » معناه خير أمة ظهرت لهم منذ وجدوا وهو أحد الاقوال التي أوردها في معنى العبارة : قال : والثاني ان قوله للناس من تمام قوله كنتم والتقدير كنتم للناس خير أمة . ومنهم من قال « أخرجت » صلة والتقدير كنتم خير أمة للناس : اه وهذا الاخير أضعف الاقوال

والاستاذ الإمام لم يتعرض لهذا السؤال والظاهر عندي ان تعليل الخيرية بما ذكرها ليس لأنه كل السبب في كون هذه الامة خير أمة أخرجت للناس بل لان ما كانت به خير أمة لا يحفظ ولا يدوم الا باقامة هذه الاصول الثلاثة ولذلك اشترط على هذه الامة ان يكون من غرضها في الدفاع عن نفسها وحفظ وجودها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كأنها لولا ذلك لا تكون مستحقة للبقاء

في الارض وأكد الامر بهذه الفريضة في آيات هذه السورة بما لم يعرف له نظير في كتاب من الكتب السابقة، ولم تقم به أمة من الامم على هذا الوجه، فقول الرازي «ان هذه الصفات الثلاث كانت حاصلة فى سائر الامم» غير صحيح على اطلاقه

وقد أورد الرازي هنا سؤالا آخر وأجاب عنه فقال «لم قدم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان بالله فى الذكر مع ان الايمان بالله لا بد ان يكون مقدما على كل الطاعات؟ والجواب ان الايمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الامم المحقة ثم انه تعالى فضل هذه الامة على سائر الامم المحقة فيمتنع ان يكون المؤثر فى حصول هذه الخيرية هو الايمان الذي هو القدر المشترك بين الكل بل المؤثر فى حصول هذه الزيادة هو كون هذه الامة أقوى حالا فى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من سائر الامم. فاذن المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأما الايمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر فى هذا الحكم لانه مالم يوجد الايمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثراً في صفة الخيرية. فثبت ان الموجب لهذه الخيرية هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر واما ايمانهم فذاك شرط التأثير. والمؤثر ألصق بالأثر من شرط التأثير فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الايمان» اه بما فيه من تكرار

وقال الاستاذ الامام أما تقديم ذكر الامر والنهي على الايمان فالحكمة فيه أن هذه الصفة (الامر والنهي) محمودة في عرف جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ويعترفون لصاحبها بالفضل ولما كان الكلام في خيرية هذه الامة على جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم قدم الوصف المتفق على حسنه عند المؤمنين والكافرين. وهناك حكمة أخرى وهي ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج الايمان وحفاظه (كما تقدم بيانه) فكان تقديمه في الذكر موافقا للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدما عليه

أقول كل ذلك حسن والمتبادر عندي ان تقديم الامر والنهي للتعريض بأهل الكتاب الذي كانوا يدعون الايمان ولا يقدرون على ادعاء القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه وادعاء ما تكذبه المشاهدة يفضح صاحبه، فقدم ذكر الأمر والنهي لانهم لا مجال لهم

في دعوى مشاركة المؤمنين فيه وأخر ذكر الايمان الذي يدعونه ليرتب عليه بيان انه ايمان غير صحيح لانه لم يأت بثمر الايمان الصحيح ولذلك قال

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ﴾ أي لو آمنوا الايمان الصحيح الذي يستولي على النفوس ويملك أزمة الاهواء فيكون مصدرا لأحاسن الاعمال كما تؤمنون أنتم لكان خيرا لهم مما يدعون من الايمان التقليدي الذي لا يزع عن الشرور، ولا يرفع صاحبه الى معالي الامور، وبهذا التفسير يندفع سؤال ثالث للرازي وهو لم اكتفى بذكر الايمان بالله ولم يذكر الايمان بالنبوة؟ فاذا كان الكلام تعريضا بأن القوم لا يؤمنون بالله ايمانا صحيحا فأي حاجة الى ذكر الايمان بغيره، على انه لو ذكر غير ذلك لكان المناسب ان يذكر الايمان برسوله وهو محل خلاف بين الفريقين أو الايمان بالرسل كافة وأهل الكتاب اشتهروا بذلك وجواب الرازي تكلف ظاهر. ثم صرح بعد التعريض بأنهم لو آمنوا لكان خيرا لهم ولم يقل لو آمنوا بالله بل أطلق ليدل على ان ايمانهم بكل ما يؤمنون به غير صحيح لأنه لم يأت بثمرات الايمان الصحيح كما قلنا آنفا



وجعل الاستاذ الامام هذه الجملة متعلقة بمجموع الكلام السابق فقال انه بعد ما نهانا سبحانه عن التفرق والاختلاف كما تفرق أهل الكتاب واختلفوا بعد ما جاءهم البينات وأمرنا بالدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر أننا خير أمة أخرجت للناس بهذا وبالايمان الحقيقي الذي يقترن بالاذعان النفسي والاتباع العملي — ناسب ان يذكر ان أهل الكتاب المختلفين ليسوا مؤمنين هذا الايمان الخاص الذي يحبه الله تعالى ويرضاه وهو الذي يكون الامر بالمعروف ثمرة من ثماره، والنهي عن المنكر أثرا من آثاره، فعلمنا أن المراد بهذا الايمان شيء أخص من الايمان العرفي الذي يدعيه كل أحد له دين وكتاب بل هو ماعرفناه آنفا وقبل ذلك. والكلام يشعر بأنه لا يوجد فيهم مؤمن هذا الايمان الاذعاني الذي يصحبه الاخلاص والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع أنه لا يمكن ان تعرى منه أمة لها دين سماوي والواقع أنه كان في أهل الكتاب مؤمنون

مخلصون ولذلك قال تعالى ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ فعلم ان الحكم الأول على الامة إنما هو حكم على أكثر أفرادها فهم الذين فسقوا عن حقيقة الدين ولم يبق عندهم منه الا بعض الرسوم والتقاليد الظاهرة. فالكلام على هذا استئناف بياني لا استطراد كما قيل

هذا مايؤخذ من كلام الاستاذ الامام. وجمهور المفسرين على ان المعنى ولو آمن أهل الكتاب بما آمنتم به كما آمنتم لكان خيرالهم في الدنيا والاخرة ولكن آمن بعضهم فمنهم المؤمنون كعبد الله بن سلام ورهطه من اليهود والنجاشي ورهطه من النصارى وأكثرهم فاسقون عن دينهم اي خارجون منه اوفاسقون في دينهم غير عدول فيه فلاحصلوا الاسلام وهو أكمل الاديان ولا تمسكوا بما عندهم ، او أكثرهم متمردون في الكفر، هكذا اختلف تعبيرهم فيؤخذ منه أنه لم يكن في أهل الكتاب أحد متمسك بدينه مخلصا فيه، عاملا بأوامره ونواهيه ، وهذا غير معقول ولا موافق لما عرف من طبيعة البشر من ميل اناس منهم الى الغلو في الدين واعتدال أناس آخرين وميل غيرهؤلاء واولئك الى الفسوق والعصيان. فما من أهل دين الا وفيهم الفرق الثلاث وإنما يكثر الاستمساك بالدين في أوائل ظهوره ويكثر الفسق بعد طول الامد عليه. قال تعالى (٥٧ : ١٦ ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) فما عدا هذا الكثير هم المستمسكون بدينهم . والقرآن لم يحكم على أمة بالضلال والفسق بنص عام يستغرق جميع الافراد بل يعبر تارة بالكثير وتارة بالاكثر واذا أطلق أداة العموم يستثني بمثل قوله في بني اسرائيل (٢ : ٨٣ ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون) وقوله فيهم (فلا يؤمنون الا قليلا) أويحكم على البعض ابتداء كما تقدم في قوله (٣ : ٧٥ ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لايؤده اليك) الآية وقال تعالى فيهم (٧ : ١٥٩ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقال فيهم وفي النصارى (٥ : ٦٦ منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون) وسيأتي تفسيرها فقد أثبت لبعضهم

الايمان والاقتصاد أي الاعتدال في الدين والهداية بالحق والعدل. وقال (٤ : ١٦٢ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين وأهل الايمان المخلصين الذين يتحرون الحق هم الذين يقبلون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لقوة استعدادهم ولكن المفسر المتشبع بأحوال أمته الذي لم يختبر غيرها ولم يكن عارفا بطبائع الملل وحقائق الاجتماع البشري لايكاد يتصور أن الايمان والاخلاص والتقوى توجد عند غير أهل ملته فهو يطبق الآيات على اختباره واعتقاده . وقد تذكرت الآن ماقالته تلك المرأة الافرنجية للاستاذ الامام في مدينة جنيف عاصمة سويسرا وكانت امرأة عالمة تقية راقبت سير الاستاذ الامام في مصيفه هناك لغرابة زيه ودينه ثم قالت له بعد ذلك : انني لم أكن أظن ولا يخطر في بالي قبل معرفتك ان القداسة والتقوى توجد في غير المسيحية :

وجملة القول ان القرآن يبين حقائق ماعليه الأمم في عقائدها وأخلاقها وأعمالها يزن ذلك بالقسطاس المستقيم والدقة التي تراها في تحريه الحقيقة لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ . فاذا نحن جمعنا ماحكم به على أهل الكتاب وغيرهم وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فانهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر عليهم في عصر ظهور الاسلام لما انتشر ذلك الانتشار السريع . ولكن وجد فينا من طمس هذه المزية وجعلوا كل ما ينكره القرآن من فساد الأمم من قبيل هجو غير المسلمين ، وكل مايحمده هو خاص بالمسلمين ، حتى كأنه شعر لا يقصد منه الا مدح أناس وذم آخرين ، وبهذا ينفرون غير المسلمين من الاسلام ويحولون بين المسلمين و بين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق . ولهذا البحث بقية تأتي في تفسير «ليسوا سواء» الخ. واستدل بعض المفسرين بالآية على حجية الاجماع المعروف في الاصول فحملها مالا تحمل

ثم قال تعالى في أولئك الفاسقين من أهل الكتاب ﴿ لن يضروكم الا أذى ﴾ أي انهم لا يقدرون على ايقاع الضرر بكم ولكن يؤذونكم بنحو الكلام القبيح كالخوض في النبي (ص) أو الا ضرراً خفيفاً ليس له كبير تأثير ﴿ وان يقاتلوكم

يولوكم الادبار ﴾ تولية الأدبار كناية عن الانهزام لأن المنهزم يحول ظهره الى جهة مقاتله و يستدبره في هربه منه فيكون دبره أي قفاه الى جهة وجه من انهزم هو منه . ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ عليكم بعد ذلك أو ثم إنهم لا ينصرون عليكم قط ما داموا على فسقهم ودمتم على خير يتكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . وعلى هـذا تكون الجملة إخبارية مستقلة لا تدخل في جواب الشرط ولذلك وردت بنون الرفع . وفي الآية ثلاث بشارات من الاخبار بالغيب وكلها تحققت وصدق الله وعده .

وقد أورد الرازي على الوعـد بأنهم لا ينصرون انه يصدق في اليهود دون النصارى أي ان اليهود هم الذين لم ينصروا على المسلمين بعدما كان من انكسارهم في الحجاز وأما النصارى فقد كانت الحرب بينهم و بين المسلمين بعد الصدر الأول سجالا ثم صاروا هم المنصورين . وأجاب الرازي عن ذلك بأن الآية خاصة باليهود نعم وما قلناه يصلح جوابا مطلقا و يؤيده تقييده تعالى نصر المؤمنين بنصرهم اياه (٤٧ : ٧ يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم و يثبت أقـدامكم) و بالقيام بما أمر به ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما ورد في سورة الحج وذكرناه في تفسير الآية السابقة: ومثله وصف المؤمنين المجاهدين في سورة التوبة بقوله (٩: ١١٢ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) وقـد شرحنا هذا المعنى غير مرة وسنفصله — ان شاء الله — في مقدمة التفسير تفصيلا

ثم قال جلَّ شأنه ﴿ ضربت عليكم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ ثقفوا وجدوا والذلة بكسر الذال ضرب مخصوص من الذل لانها من الصيغ التي تدل على الهيأة قيل المراد بها هنا الجزية وقيل ما يحدثه في النفس فقد السلطة وهذا هو الصحيح . وقـد فرق الراغب بين الذل بضم الذال والذل بكسرها فقال في الأول انه ما كان عن قهر وفي الثاني ما كان بعـد تصعب وشماس ومنه تذليل الدواب . وضرب الذلة عليهم أي اليهود عبارة عن إلصاقها بهم وظهور أثرها فيهم كما يكون من ضرب السكة بما ينقش فيها أو عن إحاطتها بهم كإحاطة الخيمة المضروبة بمن فيها وتقدم بيان ذلك كله للاستاذ الامام في تفسير (٢: ٦١ واذ

قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) الآية فليراجع فان ماهنا لا يغني عنه . والحبل يطلق على العهد لأن الناس يرتبطون بالعهود كما يقع الارتباط الحسي بالحبال وذلك قول أبي الهيثم للنبي صلى الله عليه وسلم حين أتته الأنصار في العقبة : أيها الرجل انا قاطعون فيك حبالا بيننا و بين الناس : و يسمى السبب في اللغة حبلا والحبل سببا . قيل ان المعنى الا بعهد أو سبب يأمنون به في بلاد الاسلام كما قال ابن جرير وقيل السبب من الله الاسلام والسبب من الناس العهد أو التأمين . واختار الرازي ان الحبل من الله هو الجزية أي الذمة التي تحصل بقبولهم دفع الجزية والحبل من الناس هو ما فوض الى رأي الإمام فيزيد فيه تارة و ينقص بحسب الاجتهاد . وقال الاستاذ الامام أي ان حالهم معكم ان يكونوا أذلاء مهضومي الحقوق رغم أنوفهم الا بحبل من الله وهو ما قررته شريعته لهم اذا دخلوا في حكمكم من المساواة في الحقوق والقضاء وتحريم ايذائهم وهضم شيء من حقوقهم ، وحبل من الناس وهو ما تقتضيه المشاركة في المعيشة من احتياجكم اليهم واحتياجهم اليكم في بعض الامور . أي فهذا القدر المستثنى من عموم الذلة لم يأتهم من أنفسهم وانما جاءهم من غيرهم فهم لا عزة لهم في أنفسهم لان السلطان والملك قد فقدا منهم

وأنت ترى أن هذا الذي قاله الاستاذ الامام أظهر وأشد انطباقا على الواقع فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحسن معاملتهم و يقترض منهم وكذلك كان الخلفاء الراشدون يفعلون وقضية علي مع اليهودي عند عمر مشهورة وفيها أن عليا أنكر على عمر مخاطبته أمام خصمه اليهودي بالكنية وفيها تعظيم ينافي المساواة بينهما . وقد تقدم أيضا تفسير ﴿ وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴾ في آية البقرة المشار اليها آنفا . باؤا بالغضب كانوا أحقاء به من البواء وهو المساواة يقال باء فلان بدم فلان أو بفلان اذا كان حقيقا أن يقتل به لمساواته له . أو أقاموا فيه ولبثوا من المباءة أي حلوا مبوأ أو بيئة من الغضب . وقد فسر بعضهم المسكنة بالفقر وان تعجب فعجب قول البيضاوي ان اليهود في الغالب أهل فقر ومسكنة !! وليست المسكنة هي الفقر وإنما هي سكون عن ضعف أو حاجة . قال الاستاذ الامام

هنا إن المسكنة حالة للشخص منشؤها استصغاره لنفسه حتى لايدعي لها حقا والذلة حالة تعتري الشخص من سلب غيره لحقه وهو يتمناه فمنشؤها وسببها غيره لا نفسه كالمسكنة . وكأن البيضاوي أخذ عبارته من قول الكشاف في سورة البقرة « فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة إما على الحقيقة وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف الجزية عليهم » وهذا الوصف أكثر انطباقا عليهم في أكثر البلاد في ذلك العصر . ونقل الرازي أن الاكثرين فسروا المسكنة بالجزية لأنها هي التي بقيت مضروبة عليهم . أخذوا هذا من ذكرها بعد الاستثناء أي ان الذلة ضربت عليهم لاترتفع عنهم الا بحبل من الله وحبل من الناس فاستثنى من الذلة ثم ذكر المسكنة ولم يستثن فاقتضى ذلك بقاءها عليهم . واذا كان المراد من الجزية كونهم تابعين لغيرهم يؤدون اليه مايضرب عليهم من المال وادعين ساكنين فهذا الوصف صادق على اليهود الى اليوم في كل بقاع الأرض وأما الذل فقد كان ارتفع عنهم في بلاد المسلمين بحبل من الله وهو ما تقدم من وجوب معاملتهم بالمساواة واحترام دمائهم واعراضهم وأموالهم والتزام حمايتهم والذود عنهم بعد انقاذهم من ظلم حكامهم السابقين الظالمين ، وبحبل من الناس بما تقدم بيانه ، ثم ارتفع عنهم فيما عدا روسيا من بلاد أوربا بحبل من الناس وهي قوانينهم التي تساوي بين رعاياهم في بلادهم ، على ان لهم أعداء في أوربا وقد يبخلون عليهم في ألمانيا بلقب الألماني ويعبرون عنهم بلقب اليهودي

وهل ترتفع عنهم المسكنة فيكون لهم ملك وسلطان في يوم من الايام ؟ الجواب عن هذا يحتاج فيه الى بسط فاما من الجهة الدينية فهم يقولون بأنهم مبشرون بذلك بظهور مسيح « مسيا » فيهم ومعناه ذو الملك والشريعة . والنصارى يقولون ان هذا الموعود به هو المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام والمراد بالملك الذي يجيء به الملك الروحاني المعنوي . وفي انجيل برنابا عن المسيح أن ذلك الموعود به هو محمد عليه الصلاة والسلام أي فهو الذي جاء بالنبوة التي استتبعت الملك . ومحل هذا البحث تفسير قوله تعالى فيهم (١٧ : ٨ عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا) فانه ذكر هذا بعد ذكر إفسادهم الارض مرتين وتسليط الامم عليهم . وأما من

الجهة الاجتماعية فيبحث فيه عن تفرقهم في الارض على قلتهم ، وعن انصرافهم عن فنون الحرب وأعمالها ، وضعفهم في الاعمال الزراعية لعنايتهم بجمع المال من أقرب الموارد وأكثرها نماء وأقلها عناء كالربا . ولامجل هنا لتفصيل ذلك وبيان علاقته بالملك

ثم علل تعالى هذا الجزاء وبين سببه فقال ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ وتقدم مثله في البقرة أي ذلك الذي ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم وخلاقتهم بالغضب الالهي بسبب كفرهم وقتلهم الانبياء بغير حق تعطيهم إياه شريعتهم . وفي التنصيص على كون ذلك بغير حق مع العلم به تغليظ عليهم وتشنيع على تحريهم الباطل وكون ذلك عن عمد لا عن خطأ . ثم بين سبب هذا الكفر والعدوان الشنيع فقال ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أي جرأهم على ذلك سبق المعاصي والاستمرار على الاعتداء فتدرجوا من الصغائر الى الكبائر الى أكبر الموبقات وهو الكفر وقتل الانبياء المرشدين والهداة الصالحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون المنكر فصار هذا العصيان والاعتداء خلقا للأمة وطبعا لها يتوارثه الابناء عن الآباء بلا نكير ولهذا نسب الى متأخريهم عمل متقدميهم والامم متكافلة ينسب الى مجموعها ما فشا فيهم وان ظهر بعض آثاره في زمن دون زمن وتقدم بيان ذلك غير مرة

ومن مباحث اللفظ في الآية اعراب قوله تعالى « الا بحبل من الله وحبل من الناس » قال الزمخشري هو في محل النصب على الحال بتقدير « الا معتصمين أو متمسكين أو متلبسين بحبل من الله وحبل من الناس وهو استثناء من أعم الاحوال والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الاحوال الا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس

(١١٣ : ١٠٩) لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٤ : ١١٠) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٥ : ١١١) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ *

قوله تعالى ﴿ ليسوا سواء ﴾ كلام تام أي ليس أهل الكتاب متساوين في هذه الأوصاف والأعمال القبيحة التي ذكرت آنفاً بل منهم المؤمنون وهم الأقلون، ومنهم الفاسقون وهم الأكثرون، كما قال في الآية المتقدمة «منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» فهو بيان له بعد وصف الفاسقين وذكر ما استحقت الأمة بسوء عملهم . ولما بين وصف فاسقيهم كان من العدل الآلهي ان يبين وصف مؤمنيهم ولذلك قال ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ الآيات . قيل ان هذه الأمة جماعة أسلموا من اليهود كعبدالله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيد وأسيد بن عبيد رواه ابن جرير عن ابن عباس . وروى عن قتادة إنه كان يقول في الآية « ليس كل القوم هلك قد كان لله فيهم بقية » بل روى عن ابن عباس انه قال في الامة القائمة « أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه » وحمل ابن جرير هذا القول على تلك الرواية أي ان هذا مقول فيمن أسلم منهم ولكنه لا ينطبق عليهم في حال الاسلام لان ما قاموا عليه هو ما ضيعه الآخرون وهو من دينهم وكتابهم فالظاهر ان الروايات اختلط بعضها ببعض أو المراد ان هؤلاء الذين وصفوا بالتمسك بما حفظوا من كتابهم والقيام بما عرفوا من دينهم هم الذين أسلموا بعد ذلك فيكون هذا الوصف لهم قبل الاسلام . وقد نقل الرازي في الآية قولين أحدهما ان المراد بهذه الامة القائمة عبد الله بن سلام وأصحابه والثاني ان المراد بأهل الكتاب كل من أوتي الكتاب من أهل الاديان قال « وعلى هذا القول يكون المسلمون من جملتهم » ! وأي حاجة الى ادخال المسلمين في أهل الكتاب عند اطلاقه وهو مخالف لعرف القرآن والمسلمون مستغنون عن هذا الادخال بقوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس » الآية وما هي من هذه ببعيد . الا ان أكثر مفسرينا قد صعب عليهم ان يكون في أهل الكتاب أحد يؤمن بالله ويفعل الخير فلذلك اضطربوا في الآية وأمثالها وهي ظاهرة

قال الاستاذ الامام هذه الآية من العدل الالهي في بيان حقيقة الواقع وإزالة الايهام السابق وهي دليل على ان دين الله واحد على ألسنة جميع الانبياء وأن كل

من أخذه باذعان، وعمل فيه باخلاص، فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين . وفي هذا العدل قطع لاحتجاج أهل الكتاب الذين يعرفون من أنفسهم الايمان والاخلاص في العمل والامر بالمعرف والنهي عن المنكر، — يعني الاستاذ أنه لولا مثل هذا النص لكان لهم ان يقولوا لو كان هذا القرآن من عند الله لما ساوانا بغيرنا من الفاسقين ونحن مؤمنون به مخلصون له — وفيه استمالة لهم وتنفير عن التفرقة بين الامم والملل التي لم يكن يعترف فيها أحد الفريقين بفضيلة ولا مزية للآخر كأنه بمجرد مخالفته له في بعض الاشياء — وان كان معذوراً — تتبدل حسناته سيئات وظاهر ان هذا كالذى قبله في أهل الكتاب حال على كونهم على دينهم خلافاً لمفسرنا (الجلال) وغيره الذين حملوا المدح على من أسلم منهم فان المسلمين لا يمدحون بوصف أنهم أهل الكتاب وإنما يمدحون بعنوان المؤمنين :

ثم إنه ذكر اختلاف المفسرين في قوله « قائمة » ورجح أن معناها موجودة ثابتة على الحق قال وفي ذلك تعريض بالمنحرفين عن الحق بأنهم لا يعدون من أهل الوجود وانما حكمهم حكم العدم . وأطال في وصف من لا خير في وجودهم الذين قال في مثلهم الشاعر

خلقوا وما خلقوا لمكرمة ... فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد ... فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وقال الزمخشري فى تفسير الكلمة في الكشاف : أمة قائمة مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام بمعني استقام :

واقول ان استقامة بعض أهل الكتاب على الحق من دينهم لا ينافي ما حققناه في تفسير التوراة والانجيل في أول السورة من ضياع بعض كتبهم وتحريف بعضهم لما في أيديهم منها — فإن من يعرف من المسلمين بعض السنة ويحفظ بعض الاحاديث النبوية فيعمل بما علم مستمسكا به مخلصاً فيه يقال انه قائم بالسنة السنية عامل بالحديث النبوي وان كان بعض الاحاديث قد نقل بالمعنى وبعضها ضعيف أو موضوع وبعض الناس كالحشوية حرفوها بل وحرفوا بعض آيات القرآن تحريفاً معنوياً ليدعموا بها مذاهبهم وآراءهم

أما قوله تعالى «يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون» فمعناه على القول بأن المراد بهم من دخل في الاسلام ظاهر وعلى القول الآخر المختار أنهم يتلون ماعندهم من مناجاة الله والدعاء له والثناء عليه عزوجل وهي كثيرة في كتبهم لاسيما زبور (مزامير) داود عليه السلام كقوله في المزمور السادس والثلاثين (٥ يارب في السموات رحمتك، أمانتك الى الغمام — ٧ ما اكرم رحمتك يا الله فبنو البشر في ظل جناحيك يحتمون ٨ يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم ٩ لأن عندك ينبوع الحياة ، بنورك نرى نورا ١٠ أدم رحمتك للذين يعرفونك وعدلك للمستقيمي القلب ١١ لا تأتي رجل الكبرياء ويد الاشرار لاتزحزحني ١٢ هناك سقط فاعلو الاثم، دحروا فلم يستطيعوا القيام»

وقوله في المزمور الخامس والعشرين «١ إليك يارب أرفع نفسي ٢ يا إلهي عليك توكلت فلا تدعني أخزى ، لا تشمت بي أعدائي ٣ كل منتظريك لا يخزوا أيضاً ، ليخز الغادرون بلا سبب ٤ طرقك يارب عرفني ، سبلك علمني ٥ دربني في حقك وعلمني ، لأنك أنت إله خلاصي ، اياك انتظرت اليوم كله ٦ اذكر مراحمك يارب واحساناتك لانها هي منذ الأزل ٧ لا تذكر خطايا صباي ولا معاصي ، كرحمتك اذكرني أنت من أجل جودك يارب»

وأمثال هذه الأدعية والمناجاة كثيرة جداً واذا رآها العربي البليغ غريبة الاسلوب فليذكر أنها ترجمة ضعيفة وان قراءتها بلغة أهل الكتاب أشد تأثيرا في النفس من قراءة ترجمتها هذه

أما السجود الذى أسنده اليهم فهو اما عبارة عن صلاتهم واما استعمال له بمعناه اللغوي وهو التطامن والتذلل كما تقدم في تفسير قوله تعالى في خطاب مريم «واسجدي واركعي مع الراكعين»

ثم قال فيهم ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي يؤمنون ايمانا اذعانيا وهو مايثمر الخشية لله والاستعداد لذلك اليوم لا ايمانا جنسيا لاحظ لصاحبه منه الا الغرور والدعوى كما هو شأن الاكثرين من أبناء جنسهم ﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ فيما بينهم وان لم يكن لهم صوت في جمهور أمتهم لغلبة الفسق والفساد عليها كما هو مدون في التاريخ وبذلك تتفق الآيات الواردة فيهم . ولا

غرابة في ذلك فقد اتبعنا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى ترك سوادنا الاعظم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث يصح ان يقال ان الامة تركته الا أفراداً قليلين لا تأثير لهم في المجموع . ﴿ ويسارعون في الخيرات ﴾ كما هو شأن المؤمن المخلص لا يتباطأ عما يعن له من الخير وانما يتباطأ الذين في قلوبهم مرض كما قال تعالى في المنافقين (٤ : ١٤٢ واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلاً) فلا غرو ان يقول فيهم بعد هذه الاعمال التي كانوا يواظبون عليها ﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ الذي صلحت نفوسهم فاستقامت أحوالهم وحسنت أعمالهم

ثم قال ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أي فلن يضيع ثوابه كما يكفر الشيء أي يستر حتى كأنه غير موجود وقد سمى الله تعالى اثابته للمحسنين شكرا وسمى نفسه شكورا فحسن في مقابلة هذا ان يعبر عن عدم الاثابة بالكفر الذي يقابل الشكر وقال الزمخشري ان «كفر» عدي هنا الى مفعولين لتضمينه معنى الحرمان فالمعنى ان يحرموا جزاءه ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ وانما يجزي العاملين بحسب مايعلم من أمرهم وما تنطوي عليه نفوسهم من نياتهم وسرائرهم فمن آمن ايمانا صحيحا واتقى مايفسد عليه ثمرات ايمانه فأولئك هم الفائزون . فلا عبرة بجنسيات الاديان، وانما العبرة بالتقوى مع الايمان ،



كتابان سياسيان

لحكيم الاسلام السيد جمال الدين الافغاني (١)

الاول أرسله من البصرة الى رئيس المجتهدين فى السامرة (سر من رأى) وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

حقاً أقول : انهذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت، وحيثما حلت ، وضراعة تعرضها الأمة على نفوس زاكية تحققت بها، وقامت بواجب شؤونها، كيفما نشأت ، وفي أي قطر نبغت ، الا وهم العلماء فأحببت عرضه على الكل وان كان عنوانه خاصاً ،

حبر الأمة ، و بارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق عن الشرع المبين ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة الاسلام ورد كيد الزنادقة اللئام

لقد خصك الله بالنيابة العظمى عن الحجة الكبري واختارك من العصابة الحقة وجعل بيدك أزمة سياسة الأمة بالشريعة الغراء وحراسة حقوقها بها وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتياب فيها وأحال اليك من بين الأنام (وأنت وارث الانبياء) مهام أمور تسعد بها الملة في دارها الدنيا وتحظى بالعقبى ووضع لك أريكة الرئاسة العامة على الأفئدة والنهى اقامة لدعامة العدل وانارة لمحجة الهدى وكتب عليك بما أولاك من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها والشهادة دونها على سنن من مضي

(*) منقولان من ترجمته في الجزء الأول من تاريخ الاستاذ الامام الذي يطبع الآن

وان الأمة قاصيها ودانيها وحاضرها و باديها ووضيعها وعاليها قد أذعنت لك بهذه الرئاسة السامية الربانية جاثية على الركب خارة على الاذقان تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تعروها تطل ببصائرها عليك في كل مصيبة تمسها وهي ترى ان خيرها وسعدها منك وان فوزها ونجاتها بك وان أمنها وأمانيها فيك

فاذا لمح منك غض طرف ، أو نيت (١) بجانبك لحظة، وأمهلتها وشأنها لمحة ، ارتجفت أفئدتها، واختلت مشاعرها، وانتكثت عقائدها، وانهدمت دعائم ايمانها ، نعم لا برهان للعامة فيما دانوا ، الا استقامة الخاصة فيما أمروا ، فان وهن هؤلاء في فريضة، أو قعد بهم الضعف عن اماطة منكر ، لا عتور أولئك الظنون والاوهام، ونكص كل على عقبيه مارقا من الدين القويم ، حائدا عن الصراط المستقيم ٠ ،

وبعد هذا وذاك وذلك أقول ان الأمة الايرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين ، وتطاول الأجانب على حقوق المسلمين ، ووجوم الحجة الحق (اياك أعني) عن القيام بناصرها وهو حامل الامانة ، والمسؤول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعاً ، وطاشت عقولها ، وتاهت أفكارها ووقفت موقف الحيرة (وهي بين انكار واذعان وجحود وايقان) لا تهتدي سبيلا * وهامت في بيداء الهواجس، في عتمة الوساوس، ضالة عن رشدها لا تجد اليه دليلا * وأخذ القنوط بمجامع قلوبها ، وسد دونها أبواب رجائها ، وكادت ان تختار إياساً منها الضلالة على الهدى ، وتعرض عن محجة الحق وتتبع الهوى ، وان آحاد الأمة لا يزالون يتساءلون شاخصة أبصارهم عن أسباب قضت على حجة الاسلام (اياك أعني) بالسبات والسكوت ، وحتم عليه ان يطوي الكشح عن إقامة الدين على أساطينه ، واضطره الى ترك الشريعة وأهلها ، الى أيدي زنادقة يلعبون بها كيفما يريدون ، ويحكمون فيها بما يشاؤن ، حتى ان جماعة من الضعفاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا في الحجة ظن السوء ،

(١) كذا في الاصل والنيت هو التمايل من ضعف وفعله ككال يكيل

وحسبوا الامر أحبولة الحاذق، وأسطورة المذق، وذلك لانها ترى (وهو الواقع) ان لك الكلمة الجامعة، والحجة الساطعة، وان أمرك في الكل نافذ، وليس لحكمك في الامة منابذ، وانك لو أردت تجمع آحاد الامة بكلمة منك (وهي كلمة تنبثق من كيان الحق الى صدور أهله) فترهب بها عدو الله وعدوهم، وتكف عنهم شر الزنادقة، وتزيح ماحاق بهم من العنت والشقاء، وتنشلهم من ضنك العيش الى ماهو أرغد وأهنى، فيصير الدين بأهله منيعا حريزا، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزا،

هذا هو الحق. انك رأس العصابة الحقة (١)، وانك الروح الساري في آحاد الأمة، فلا يقوم لهم قائم الا بك، ولا تجتمع كلمتهم الا عليك، لو قمت بالحق نهضوا جميعا ولهم الكلمة العليا، ولو قعدت تثبطوا، وصارت كلمتهم هي السفلى، ولربما كان هذا السير والدوران حينما غض حبر الأمة طرفه عن شؤونهم، وتركهم همِلا بلا راع، وهمجا بلا رادع ولا داع، يقيم لهم عذرا فيما ارتابوا. خصوصا لما رأوا أن حجة الاسلام قدونى فيما أطبقت الامة خاصتها وعامتها على وجوبه، وأجمعت على حظر الاتقاء فيه (٢) خشية لغوبه، الا وهو حفظ حوزة الاسلام الذي به بعد الصيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة. ومن يكون أليق بهذه وأحرى بها ممن اصطفاه الله في القرن الرابع عشر، وجعله برهانا لدينه وحجة على البشر،

أيها الحبر الأعظم، ان الملك قد وهنت مريرته، فساءت سيرته، وضعفت مشاعره فقبحت سريرته، وعجز عن سياسة البلاد، وادارة مصالح العباد، فجعل زمام الامور كليها وجزئيها بيد زنديق أثيم، غشوم ثم بعد ذلك زنيم.. يسب الانبياء في المحاضر جهرا، ولا يذعن لشريعة الله أمرا، ولا يرى لرؤساء الدين وقرا، يشتم العلماء، ويقذف الاتقياء، ويهين السادة الكرام، ويعامل الوعاظ معاملة اللئام، وانه بعد رجوعه من البلاد الافرنجية قد خلع العذار، وتجاهر بشرب العقار، وموالاة الكفار، ومعاداة الأبرار، هذه هي أفعاله الخاصة في نفسه..، ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين - المعادن،

(١) الحقة الثابتة القوية والمراد طائفة العلماء لاسيما المجتهدين منهم (٢) الاتقاء التقية

والسبل الموصلة اليها، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب الى جميع ارجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول.. نهر الكارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج.. والجادة من الاهواز الى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول.. والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين اني وجد وحيث نبت، وحكر العنب للخمور وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع أقطار البلاد، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل، والبنك وما أدراك ما البنك هو اعطاء زمام الأهالي كلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه اياهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان،

ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه فخبق قائلا ان هذه معاهدات زمانية، ومقاولات وقتية، لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة !! يالله من هذا البرهان الذي سوله خرق الخائنين، وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقا لسكوتها (لو سكتت) مرداب رشت وأنهر الطبرستان والجادة من أنزلى الى الخراسان وما يتعلق بها من الدور والفنادق والحقول... ولكن الدولة الروسية شمخت بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية، وهي عازمة على استملاك الخراسان والاستيلاء على الاذربيجان والمازندران ان لم تنحل هذه المعاهدات ولم تنفسخ هذه المقاولات القاضية على تسليم المملكة تماما بيد ذاك العدو الالد، هذه هي النتيجة الاولى لسياسة هذا الاخرق،

وبالجملة ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول ببيع المزاد، وانه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم الصلاة والسلام للاجانب ولكنه لخسة طبعه ودناءة فطرته لا يبيعها الا بقيمة زهيدة ودراهم معدودة (نعم هكذا يكون اذا امتزجت اللئامة والشره بالخيانة والسفه)

وانك أيها الحجة ان لم تقم بناصر هذه الأمة ولم تجمع كلمتها ولم تنزعها بقوة الشرع من يد هذا الأثيم لاصبحت حوزة الاسلام تحت سلطة الأجانب (يحكمون

فيها بما يشاؤن ويفعلون مايريدون) ، واذا فاتتك هذه الفرصة أيها الحبر ووقع الامر وأنت حي لما أبقيت ذكرا جميلا بعدك في صحيفة العالم وأوراق التواريخ... وأنت تعلم أن علماء الايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منك (وقد حرجت صدورهم وضاقت قلوبهم) كلمة واحدة ويرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها... ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها ويترك ها سدى ،

ثم أقول للحجة قول خبير بصير ان الدولة العثمانية تبتجح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليه لانها تعلم أن مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية والاستيلاء عليها تجلب الضرر الى بلادها لامحالة ، وان وزراء الايران وأمراءها كلهم يبتهجون بكلمة تنبس بها في هذا الشأن لانهم بأجمعهم يعافون هذه المستحدثات طبعاً ، ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ، ويجدون بنهضتك مجالا لابطالها ، وفرصة لكف شر الشره الذي رضي بها وقضى عليها ،

ثم ان العلماء وان كان كلٌّ صدع بالحق وجبه هذا الاخرق الخائن بسوء أعماله ولكن ردعهم للزور وزجرهم عن الخيانة ونهرهم المجرمين ماقرت كسلسلة المعدات قرارا ، ولاجمعتها وحدة المقصد في زمان واحد ،

وهؤلاء لتماثلهم فى مدارج العلوم وتشاكلهم في الرئاسة وتساويهم في الرتب غالبًا عند العامة لاينجذب بعضهم الى بعض ولايصير أحد منهم اصغا للآخر ولا يتم بينهم تأثير الجذب وتأثر الانجذاب حتى تتحقق هيئة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة. كل يدور على محوره، وكل يردع الزور وهو في مركزه، (هذا هو سبب الضعف عن المقاومة وهذا هو سبب قوة المنكر والبغي). وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمنزلة الرفيعة علة فعالة في نفوسهم، وقوة جامعة لقلوبهم، وبك تنضم القوى المتفرقة الشاردة، وتلتئم القدر المتشتتة الشاذة ، وان كلمة منك تأتي بوحدانية تامة يحق لها أن تدفع الشر المحدق بالبلاد، وتحفظ حوزة الدين وتصون بيضة الاسلام.... فالكل منك وبك واليك .. وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس

ثم أقول ان العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا

من ذاك العتلّ شدائد ماسبق منذ قرون لها مثيل ، وتحملوا لصيانة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صغار وكل فضيحة.

ولا شك أن حبر الامة قد سمع مافعله أدلاء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج الملا فيض الله الدربندي. وستسمع قريبا ماصنعه الجفاة الطغاة بالعالم المجتهد التقي البار الحاج السيد علي أكبر الشيرازي وستحيط علما بما فعله بحماة الملة والامة من قتل وضرب وكيّ وحبس. ومن جملتهم الشاب الصالح الميرزا محمد رضا الكرماني الذي قتله ذاك المرتد في الحبس والفاضل الكامل البار حاج سياح والفاضل الاديب الميرزا فروغي والاريب النجيب الميرزا محمد علي خان والفاضل المتفنن اعتماد السلطنة وغيرهم.

وأما قصتي ومافعله ذاك الكنود الظلوم معي، فمما يفتت أكباد أهل الايمان، ويقطع قلوب ذوي الايقان، ويقضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الاوثان ، ان ذاك اللئيم أمر بسحبي وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لايمكن أن يتصور دونها في الشناعة (هذا كله بعد النهب والغاره) «انا لله وانا اليه راجعون»

ثم حملني زبانيته الاوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلا في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقتني جحفلة من الفرسان الى خانقين وصحبني جمع من الشرط .. ولقد كاتب الوالي من قبل والتمس منه أن يبعدني الى البصرة علما منه أنه لو تركني ونفسي لاتيتك أيها الحبر وبثثت لك شأنه وشأن الامة وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك أيها الحجة الى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمين ،.. وكان على يقين اني لو اجتمعت بك لا يمكنه ان يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد، وهلاك العباد، واعلاء كلمة الكفر ...... ومما زاده لؤما على لؤمه ودناءة على دناءته أنه دفعا للثورة العامة وتسكينا لهياج الناس نسب تلك العصابة التي ساقتها غيرة الدين وحمية الوطن الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالي (بقدر الطاقة والامكان) الى الطائفة البابية .. كما أشاع بين الناس أولاً (قطع الله لسانه) أني كنت غير

مختونون (وا إسلاماه) ما هذا الضعف؟ ما هذا الوهن ؟ كيف أمكن أن صعلوكاً دنيء النسب، ووغدا خسيس الحسب، قدران يبيع المسلمين وبلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ويزدري بالعلماء ويهين السلالة المصطفوية ويبهت السادة المرتضوية البهتان العظيم ، ولا يد قادرة تستأصل هذا الجذر الخبيث شفاء لغيظ المؤمنين، وانتقاما لآل سيد المرسلين، عليه وآله الصلاة والسلام .

ثم لما رأيت نفسي بعيداً عن تلك الحضرة العالية أمسكت عن بث الشكوى .....

ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي أكبر الى البصرة طلب مني ان اكتب الى الحبر الاعظم كتاباً أبث فيه هذه الغوائل والحوادث والكوارث فبادرت اليه امتثالاً، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السيد الحسيني

....

(يقول محمد رشيد) إن هذا الكتاب نفخ روح الحماسة والغيرة في ذلك العالم العظيم صاحب النفوذ الروحي في الامة الفارسية فأفتى بحرمة استعمال التنباك وزراعته واذاع العلماء فتواه بسرعة البرق فخضعت لها أعناق الامة حتى قيل ان الشاه طلب في صبيحة يوم بعد وصول الفتوى الى طهران النارجيله (الشيشة) فقيل له انه ليس في القصر تنباك لاننا اتلفناه فسأل عن السبب مبهوتا فقيل له: فتوى حجة الاسلام : فقال لم لم تستأذنوني؟ قيل انها مسألة دينية لاحاجة فيها الى الاستئذان !! واضطر بعد ذلك الى ترضية الشركة الانكليزية على أن تأخذ نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز . وبهذا انقذ السيد جمال الدين بلاد ايران من احتلال الانكليز لها بابطال مقدمته وهو ذلك الامتياز أو الامتيازات التي قرأت شرحها في كتابه فهكذا تكون الرجال وهكذا تكون العلماء

هكذا هكذا والا فلا لا   ليس كل الرجال تدعي رجالا

وقد ظهر الآن تأثير نفوذ طائفة العلماء في بلاد فارس اتم الظهور بما كان قلب نظام الحكومة وتحويلها عن الاستبداد المطلق الى الشورى . ولعل تلك الحادثة هي المنبه للاول للعلماء الى ان الامر في ايديهم . فالسيد جمال الدين على هذا هو

العامل الاول في هذا الانقلاب كما أنه سبب الانقلاب الذي حدث في مصر فان عمل جمعيته كان اول سعي في مقاومة سلطة اسماعيل باشا وتقويضها وفي نفخ روح الاصلاح في توفيق باشا حتى واثق السيد وخاصته بأنه اذا آل الامر اليه ليؤسسن مجلس نواب وليعملن وليعملن . ولكن تداخل الجند في السياسة أفسد العمل بعد ذلك

ولم يكن نجاح العلماء بسعيه وارشاده في ابطال تداخل الاجانب في بلاد فارس هو المنبه وحده لكون سلطة العلماء والامة فوق سلطة الملوك بل كان تمام التنبيه قتل الشاه بعد ذلك وما قيل من ان قاتله من اتباع السيد جمال الدين

لم يكتف السيد بتحريض كبير المجتهدين وسائر العلماء على الشاه ووزيره ولا بنجاحه في تدبيرهم له بل ذهب من البصرة الى أوربا وطفق يطعن فيهما بالقول والكتابة وقد أسس هناك مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والانكليزية باسم (ضياء الخافقين) أو سعي في تأسيسها وكان يكتب في كل عدد منها مقالة في أحوال فارس بتوقيعه المعروف (السيد) أو (السيد الحسيني) وكان الكلام في مصر من أهم مباحثها

وقد فضح في مقالاته عن بلاد فارس حكومتها وشاهها شر فضيحة حتى جاءه سفير العجم في لندره يستميله ويسترضيه ليكف عن الكلام والكتابة في ذلك وعرض عليه مالاً كثيراً فقال له السيد « لا أرضى الا أن تزهق روح الشاه ويبقر بطنه ويوضع في القبر » فكان هذا القول من الشبه على كون القاتل له من أتباع السيد . وانني نورد هنا بعض ما كتبه في ضياء الخافقين عن بلاد فارس تخليداً له في التاريخ وهاك ما كتبه في العدد الثاني تحريضاً للعلماء على خلع الشاه والقيام بشؤون الامة . وهذا العدد صدر في أول مارس (آذار) سنة ١٨٩٢

بلاد فارس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حملة القرآن، وحفظة الايمان، ظهراء الدين المتين، ونصراء الشرع المبين، جنود الله الغالبة في العالم، وحججه الدامغة لضلال الأمم، جناب الحاجّ الميرزا محمد حسن الشيرازي. وجناب الحاجّ الميرزا حبيب الله الرشتي، وجناب الحاج الميرزا أبي القاسم الكربلائي، وجناب الحاج الميرزا جواد الأقا التبريزي، وجناب الحاج السيد علي اكبر الشيرازي، وجناب الحاج الشيخ هادي النجم آبادي، وجناب الميرزا حسن الأشتياني. وجناب السيد الطاهر الزكيّ صدر العلماء. وجناب الحاج آقا محسن العراقي، وجناب الحاج الشيخ محمد تقي الاصفهاني، وجناب الحاج الملاّ محمد تقي البجنوردي. وسائر هداة الأمة. ونوابّ الأئمة. من الاحبار العظام، والعلماء الكرام، أعز الله بهم الاسلام والمسلمين، وأرغم أنوف الزنادقة المتجبرين، آمين

طالما تاقت الامم الافرنجية الى الاستيلاء على البلاد الايرانية حرصا منها وشرها. ولكم سولت لها امانيها خدعا تمكنها من الولوج في ارجائها وتمهد فيها سلطانها على غرة من اهلها تحاشيا من المقارعة التي تورث الضغائن فتبعث النفوس على الثورة كلما سنحت لها الفرص وقضت بها الفترات. ولكنها علمت ان بلوغ الارب والعلماء في عز سلطانهم ضرب من المحال لان القلوب تهوي اليهم طرا، والناس جميعا طوع يدهم يأتمرون كيفما أمروا، ويقومون حيثما قاموا، لامرد لقضائهم، ولا دافع لحكمهم، وانهم لايزالون يدأبون في حفظ حوزة الاسلام لاتأخذهم فيه غفلة، ولا تعروهم غرة، ولا تميد بهم شهوة، فخنست وهي تتربص بهم الدوائر، وتترقب الحوادث، ايم الله إنها قد اصابت فيما رأت، لان العامة لولا العلماء وعظيم مكانتهم في النفوس لالتجأت بطيب النفس الى الكفر واستظلت بلوائه خلاصا من هذه الدول الذليلة الجائرة الخرقى التي قد عدمت القوة، وفقدت

النصفة، وانبتت المجاملة، فلا حازت منها شرفا، ولا صانت بها لنفسها حقا، ولا انشرح منها صدرها فرحا.

ولذا كلما ضعفت قوة العلماء في دولة من الدول الاسلامية وثبت عليها طائفة من الافرنج ومحت اسمها، وطمست رسمها،

إن سلاطين الهند وأمراء ماوراء النهر جدت في إذلال علماء الدين فعاد الوبال عليهم سنة الله في خلقه ... وان الافغانيين ماصانوا بلادهم عن أطماع الأجانب وما دفعوا هجمات الانكليز مرة بعد أخرى الا بقوة العلماء وقد كانت في نصابها *

ولما تولى هذا الشاه (الجارية «١» الطاغية) الملك طفق يستلب حقوق العلماء تدريجا ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم حبا بالاستبداد بباطل أوامره ونواهيه، وحرصا على توسيع دائرة ظلمه وجوره، فطرد جمعا من البلاد بهوان، ونهنه فرقة عن إقامة الشرع بصغار، وجاب طائفة من أوطانها الى دار الجور والخرق (طهران) وقهرها على الاقامة فيها بذل فخلاله الجو فقهر العباد وأباد البلاد وتقلب في أطوار الفظائع وتجاهر بأنواع الشنائع وصرف في أهوائه الدنية وملاذه البهيمية مامصه من دماء الفقراء والمساكين عصرا ونزح من دموع الأرامل والأيتام قهرا (ياللاسلام)

فاذاً اشتد جنونه بجميع فنونه فاستوزر وغداً خسيسا ليس له دين يردعه ولا عقل يزجره ولا شرف نفس يمنعه وهذا المارق ماقعد على دسته الا وقام بابادة الدين ومعاداة المسلمين وساقته دناءة الأرومة ونذالة الجرثومة الى بيع البلاد الاسلامية بقيم زهيدة *

فحسبت الأفرنج ان الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الايرانية بلا كفاح ولا قتال وزعمت ان العلماء الذين كانوا يذبون عن حوزة الاسلام قد زالت شوكتهم ونفد نفوذهم فهرع كل فاغراً فاه يبغي أن يسترط قطعة من تلك المملكة *

ففار الحق وغضب على الباطل فدمغه فخاب مسعاه وذل كل جبار عنيد.

---

(١) هي الحية كبرت فصغرت حتى بقي رأسها فيه سمها ونفسها وهي أخبث الافاعي

أقول الحق إنكم يا أيها القادة قد عظمتم الاسلام بعز يمتكم وأعليتم كلمته وملأتم القلوب من الرهبة والهيبة . وعلمت الأجانب طرا ان لكم سلطانا لا يقاوم وقوة لا تدفع وكلمة لا ترد وانكم سياج البلاد وبيدكم أزمة العباد ولكن قد عظم الخطب الآن وجلت الرزية لأن الشياطين قد تألبت جبرا للكسر وحرصاً على الوصول الى الغاية وأزمعت على اغراء ذاك المارق الأثيم على طرد العلماء كافة من البلاد . وأبانت له ان انفاذ الأوامر انما هو بانقياد قواد الجيوش وان القواد لا يعصون العلماء أمرا ولا يرضون بهم شرا فيجب لاستتباب الحكومة استبدالهم بقواد الأفرنج . وأرت لذاك البليد الخائن رآسة الشرطة وقيادة فوج (١) القزاق نموذجا (كنت واضرابه) . وان ذاك الزنديق وزملاءه في الالحاد يجدون الآن في جلب قواد من الأجانب . والشاه بجنونه المطبق قد استحسن هذا واهتز به طربا *

لعمر الله لقد تحالف الجنون والزندقه وتعاهد العته والشره على محق الدين واضمحلال الشريعة وتسليم دار الاسلام الى الأجانب بلا مقارعة ولا مناقرة *

ياهداة الأمة انكم لو أهملتم هذا الفرعون الذليل ونفسه وأمهلتموه على سرير جنونه وما أسرعتم بخلعه عن كرسي غيه لقضي الأمر فعسر العلاج وتعذر التدارك *

أنتم نصراء الله في الارض . ولقد محصت بالشريعة الالهية نفوسكم عن أهواء دنية تبعث على الشقاق وتدعو الى النفاق ويئس الشيطان بقذفات الحق عن تفريق كلمتكم . فأنتم جميعاً يدٌ واحدة يذود بها الله عن صياصي دينه الحصينة ويذب بقوتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة . وان الناس كافة (الامن قضي الله عليه بالخيبة والخسران) طوع أمركم . فلو أعلنتم خلع هذا (الحارية) لأطاعكم الأمير والحقير وأذعن لحكمكم الغني والفقير (ولقد شاهدتم في هذه الأزمان عيانا فلا أقيم برهانا) خصوصاً وان الصدور قد حرجت وان القلوب قد تفطرت من هذه السلطنة القاسية الحمقى التي ماسدت ثغورا ولا جندت جنودا ولا عمرت بلادا ولا نشرت علوما ولا أعزت كلمة الاسلام ولا أراحت يوما

(١) يطلق الفرس هذا اللفظ العربي على الطائفة من العسكرية التي يطلق عليها الترك لفظ طابور (وصوابه بالعربية تابور) ويطلق عليها في مصر لفظ أورطه وهي أعجمية

ما قلوب الأنام بل دمرت وأقوت وأفقرت وأذلت ثم بعد ضلت وارتدت وأنها سحقت عظام المسلمين وعجنتها بدمائهم فعملت منها اللبنات(١) بنت بها قصورا لشهواتها الدنية . هذه آثارها في هذه المدة المديدة والسنين العديدة تعساً لها وتبت يداها *

واذا وقع الخلع (وتكفيه كلمة واحدة ينبس بها لسان الحق غيرة على دينه) فلا ريب ان الذي يخلف هذا (الطاغية) لا يمكنه الحيدان عن أوامركم الالهية ولا يسعه الا الخضوع بعتبتكم عتبة الشريعة المحمدية كيف لا وهو يرى عيانا ما لكم من القوة الربانية التي تقلبون بها الطغاة عن كرسي غيها . وان العامة متى سعدت بالعدل تحت سلطان الشرع ازدادت بكم ولها وحامت حولكم هياما وصارت جميعاً جندا لله وحزبا لاوليائه العلماء *

ولقد وهم من ظن ان خلع هذا (الحارية) لا يمكن الا بهجات العساكر وطلقات المدافع والقنابر . ليس الامر كذلك . لان عقيدة ايمانية قد رسخت في العقول ، وتمكنت من النفوس ، وهي ان الراد على العلماء راد على الله (هذا هو الحق وعليه المذهب) فاذا أعلنتم (ياحملة القرآن) حكم الله في هذا الغاصب الجائر وأبنتم أمره تعالى فى حرمة إطاعته لانفض الناس من حوله فوقع الخلع بلا جدال ولا قتال *

ولقد أراكم الله في هذه الأيام إتماماً لحجته ما أولاكم من القوة التامة ، والقدرة الكاملة ، وكان الذين في قلوبهم زيغ في ريب منها من قبل . اجتمعت النفوس بكلمة منكم على إرغام هذا الفرعون الذليل وهامانه الرذيل (مسألة التنباك) فعجبت الامم من قوة هذه الكلمة وسرعة نفوذها وبهت الذي كفر . قوة أنعمها الله عليكم لصيانة الدين وحفظ حوزة الاسلام . فهل يجوز منكم اهمالها وهل يسوغ التفريط فيها ؟ حاشا ثم حاشا *

قد آن الوقت لاحياء مراسم الدين ، واعزاز المسلمين ، فاخلعوا هذا (الطاغية) قبل أن يفتك بكم ، وينهك اعراضكم ، ويثلم سياج دينكم ، ليس عليكم الا أن تعلنوا

(١) جمع لبنة من اللبن الذي يبنى به

على رؤوس الاشهاد حرمة إطاعته فاذاً يرى نفسه ذليلا فريداً يفر منه بطانته وينفر منه حاشيته وينبذه العساكر ويرجمه الأصاغر *

انكم يا أيها العلماء والذين قاموا معكم لتأييد الدين بعد اليوم في خطر عظيم. قد كسرتم قرن فرعون بعصا الحق وجدعتم أنف الجارية بسيف الشرع فهو يتربص فرصاً تساعده علي الانتقام شفاء لغيظه ومرضاة لطبيعته التي فطرت علي الحقد واللجاج فلا تمهلوه أياما ولا تمكنوه أن يقبض زماما اعلنوا خلعه قبل اندمال جرحه *

وحاشاكم أيها الراسخون فى العلم أن تتوانوا في خلع رجل سلطانه غصب وأفعاله فسق وأوامره جور وانه بعد ان مص دماء المسلمين ونهش عظام المساكين وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئاً حكم عليه جنونه ان يملك الأجانب بلادا كانت للاسلام عزا وللدين المتين حرزا وساقته سورة السفه الى اعلاء كلمة الكفر والاستظلال بلواء الشرك *

ثم أقول ان الوزراء والامراء وعامة الاهالي وكافة العساكر وأبناء هذا (الطاغية) ينتظرون منكم جميعاً (وقد فرغ صبرهم ونفد جلدهم) كلمة واحدة حتى يخلعوا هذا الفرعون الذليل ويريحوا العباد من ضره ويصونوا حوزة الدين من شره قبل أن يحل بهم العار ولات حين مناص والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته *

﴿ السيد الحسيني ﴾

(يقول محمد رشيد) ان للعلماء من الاحترام والنفوذ الروحي في بلاد الأعاجم ماليس لهم في البلاد العربية وان احترامهم في بلاد الفرس أشد منه فى سائر بلاد العجم فان الحكام ليس لهم عليهم من السلطة هناك مثل ما لغيرهم من حكام المسلمين. وما أزال الملوك والأمراء احترام العلماء ومحو نفوذهم — حاشا ما كان منه مؤيداً لهم ومعوناً لاستبدادهم — الا بما اخترعوه لهم من الرتب العلمية وكساوي الشرف الوهمية وبما جعلوا من موارد أرزاقهم في تصرفهم. فصار رزق العالم وجاهه الدنيوي بيد الأمير أو السلطان وهما الرسنان اللذان يقودون بهما طالب المال والجاه من العلماء الى حيث شاؤا. فاذا أمكن لطلاب الإصلاح الاسلامي أن يبطلوا هذه الرتب العلمية

وما لها من الشارات ومخرجوا أرزاق علماء الدين من أيدي الحكام فإنهم يحررون العلماء من رق يكون مقدمة لاصلاح الامة كلها

الاسلام دين اجتماعي جمع بين مصالح الدنيا والآخرة وقد عبث الحكام المستبدون في أهله بانتحال الرياسة فيه على كونهم قد أبطلوا اشتراط العلم الديني وغيره في الخليفة وفي السلطان والوالي بالأولى ثم جعل بعضهم الاحكام والأعمال والمناصب قسمين شرعية خاصة بعلماء الشرع كالقضاء فيما يسمونه الامور الشخصية وغير شرعية وهي سائر الاحكام القضائية والادارية والسياسية ولا يشترطون في عمال هذه الاحكام والأعمال معرفة شيء من أحكام الشرع ولا الأخذ بشيء من أمر الدين كما أنه لا يشترط في الحاكم الاعلى من أمير أو سلطان ان يكون قد تلقى علم التوحيد والفقه فضلاً عن التفسير والحديث. ومع هذا كله يجعل هذا الحاكم رئيساً دينياً ويجعل أمر علماء الدين في يده فهو الذي ينعم عليهم بالرتب العلمية التي يعد بها بعضهم فوق بعض في الدين وعلومه من غير مبالاة بالقاعدة المشهورة التي لا يختلف فيها عاقلان وهي « فاقد الشيء لا يعطيه» فلهذا صار الدين أمراً ثانوياً في أكثر بلاد المسلمين لا يحترم عند حكامه الا بقدر تعلق العامة به على حسب ما عليه العامة كالاحتفال بالمواسم الدينية والمبتدعة ينهدم ركن من اركان الاسلام كالزكاة فلا يبالي به الحكام الذين جعلوا انفسهم رؤساء للدين ويسكت معهم العلماء عن ذلك فلا يقومون بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي سياج الدين لانهم علي قسمين قسم مرتبط بالسلاطين والامراء فهم تابعون لهم وقسم لاشأن له فهو يستصغر نفسه ان تقوم بالدعوة الى احياء الدين فاذا عرف لنفسه قيمة وظهر بالدعوة فطفقت العامة تحترمه نفحه الامراء بشيء من الدنانير التي قاموا على خزائنها — وهي للامة لا لهم — وألقوا في عنقه ورأسه طوقا من الفضة او الذهب (علامة الشرف) فكان لهواهم من المنقادين

فلا صلاح للاسلام الا باستقلال العلماء وعدم ارتباطهم في التعلم والتعليم والارشاد ولا في الرزق بالامراء والسلاطين كما تقدم

كتابان سياسيان

—﴿ للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾—

﴿ أو مطالب مصر من انكلترا ﴾

المستر بلنت الانكليزي المستشرق الشهير كتاب سماه (التاريخ السري للاحتلال) جاء في الطبعة الثانية منه ترجمة كتابين ارسلهما اليه صديقه الاستاذ الامام جوابا عن أسئلة سأله عنها وقد ترجمتهما جريدة اللواء عن الانكليزية الى العربية ونقلهما عنها المؤيد وهذا نص الجريدتان:

سأل المستر «ولفرد سكاون بلنت» المرحوم المفتي رأيه في الحال السياسية الجديدة التي نشأت فى مصر عن ابرام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا وانكلترا عليه فأجابه فضيلته على ذلك السؤال فى كتاب بعثه له في يوم ٦ مايو سنة ١٩٠٤ ! هذا نصه

«ان رأيي في الادارة المصرية اذا بقيت الخديوية في عائلة محمد علي هو كما يأتي

١ — أول وأهم قاعدة أساسية في تلك الادارة هو انه يجب أن لا يكون للجناب الخديوي أي سلطة تخوله التداخل في أعمال الهيئات التنفيذية للنظارات ولا ادارة الاوقاف والازهر ولا المحاكم الشرعية بمعنى أنه لا ينبغي أن يجعل لتداخله الشخصي أثر ما في الادارة المصرية مطلقا

٢ — ويجب أن يشكل مجلس على نسق مجلس الشورى الحالي بوجه التقريب ولكن على نظام أقوم وترتيب أمثل منه و ينبغي أن يكون الوزراء وكبار الموظفين أعضاء فيه . وليس هناك ما يمنع من انتظام بعض كبار الموظفين من الانكليز في الحكومة المصرية في سلك أعضائه ويكون من اختصاص هذا المجلس سن القوانين الجديدة

٣ — و ينبغي أن توضع حدود لتداخل السلطات التنفيذية الذي يدعيه الموظفون الانكليز كالمستشارين وغيرهم لانفسهم حتى لا يكون الموظفون المصريون مجرد آلات صماء لا ارادة لهم ولا رأي يبدونه من تلقاء أنفسهم

٤ — وأن يشكل مجلس ادارة في كل نظارة من النظارات كالحقانية والداخلية مثلا ينتخب اعضاؤه بواسطة المجلس العام المتقدم الذكر وتكون وظيفة كل مجلس من هذه المجالس الادارية البحث في تفصيلات المسائل المهمة ووضع المشروعات والقوانين والنظامات لكل مصلحة من مصالح الحكومة

٥ — وأن يوضع قانون لنظارة المعارف يكون اجباريا بالنسبة للشؤون المتعلقة بالمعارف العمومية والتعليم و ينبغي أن يخصص قسم من الدخل العمومي للقيام بنفقات التعليم يكون كافيا لفتح مدارس للتعليم العام وأخرى للتعليم الفني تكفي لسد حاجات البلاد

هذا هو رأيي بوجه عام قد ابديته لكم »

فكتب له المستر « بلنت » بعد ذلك بشهرين يسأله أن يتوسع فى آرائه هذه ويضع نموذجا للدستور المروم دخاله فى مصر فأجابه الى طلبه بعد طول روية ومشاورة أصدقائه في ذلك وأخذ آرائهم في هذا السؤال وسؤال آخر عرضه عليه المستر بلنت أيضاً يتعلق بما ينبغي أن يتخذ من الاحتياطات ضد ما يتوقع حدوثه من عدم ثقة الجناب الخديوي بالدستور كما وقع على عهد المغفور له والده مما قضى على الآمال الوطنية واستفسر منه أيضاً عما اذا كان من الممكن أن يقبل المصريون تعيين أمير أوربي بصفة وال تحت سيادة جلالة السلطان اذا صعب الحصول على أمير من العائلة الخديوية متشبع تشبعا تاما من الافكار الدستورية

فأجاب المرحوم المفتي على جميع ذلك بالكتاب الآتي

صديقي العزيز المحترم

أهديك عظيم تحيتي وأعتذر لك عن ابطائي في الرد على كتابك المؤرخ في ٨ يونيه فاني كنت مشغولا جداً بالامتحان فى مدرسة المعلمين والازهر وغيرهما ولم أجد وقتاً خالياً لاجيبكم فيه على كتابكم هذا لا سيما وان موضوعه دقيق للغاية ويعوزه مزيد ترو ودقيق نظر

وقد فكرت طويلا وتذاكرت مع بعض أفاضل المصريين فوجدتهم مجمعين على أن من أول الضروريات لحسن الادارة المصرية هو قيام الحكومة

الانكليزية بضمانة النظام في البلاد وكفالته ومعنى ذلك أنها تراقب استتبابه والمحافظة على استمراره وعلى الدستور الذى يمنح لمصر وان لا تدع ذلك الدستور عرضة لتداخل الخديويين

ومتى تمت هذه الضمانة ومنح الدستور لا تبقى حاجة الى نزع سلطة الحكم من عائلة محمد علي ولا الى تعيين أمير أوروبي لا سيما وان تعيين أمير أوروبي لا يصادف قبولا من الاهالي ولا يساعدهم على تحسين حالتهم

أما من جهة الدستور فينبغي أن يراعى فيه ما سأذكره الآن من المسائل الآتية بصفة خاصة

١ ان تناط جميع شؤون الحكومة بسلطة أو اخرى (كذا) من السلطتين الآتيتين :

أولا — تناط بسلطة تشريعية تسن القوانين الادارية والقضائية

ثانيا — تناط بسلطة تنفيذية تكلف بتنفيذ تلك القوانين وان تحصر السلطة التشريعية في مجلس نواب أو وكلاء يزيد عدد اعضائه عن اعضاء مجلس الشورى الحالى وتكون دائرة اختصاصاته الحالية بحيث تحترم قراراته وتكون واجبة التنفيذ وأن لا يسمح للوزراء بعدم احترامها ومراعاتها مهما كانت ظروف الاحوال وهذا المجلس هو الذي يسن القوانين كافة وتنتخب الوزارة من بين اعضائه وان تحصر السلطة التنفيذية في الوزارة التي تخول حق تقديم مشروعات القوانين بحيث لا تستأثر بسنها وحدها لان حق سنها هو من اختصاص مجلس النواب

٢ وان تناط جميع مسائل الحكومة التى ليس لها ارتباط بسن القوانين بالوزارة بما في ذلك منح الرتب والناشين وأن لا يترك من اشغال الحكومة شيء مطلقا للجناب الخديوي وأن يناط بها أيضا أمر المصالح المختصة بالتعليم الديني وغيره والمحاكم الشرعية والاهلية وتوزيع الرتب والنياشين دون أن يسمح لسموه بأي تداخل فيها مطلقا

---

٣ واذا فرض وكان بعض الوزراء من الانكليز وكان لهم مرؤوسون من المصريين فانه ينبغي أن يعطى هؤلاء المرؤوسون المصريون أو الوزراء الثانويون

سلطة تسمح لهم بان يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الاصليين بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد ألعوبة في أيديهم كما هو الحال الآن

وينبغي أن تلغي وظائف جميع المستشارين اكتفاء بهؤلاء الوزراء وفي هذه الحالة تقضي الضرورة بان يكون رئيس الوزراء مسلما بحيث يكون مركزه الرسمي محدودا بوظيفة الرئاسة دون أن يشغل رئاسة نظارة من نظارات الحكومة

٤ وان يكون جميع الموظفين الآخرين في الحكومة من المصريين أعني أن المديرين ووكلاء المديريات وقضاة المحاكم الاهلية ابتدائية كانت أو استئنافية وأعضاء النيابة وغيرهم يكونون مصريين ويجوز تعيين انكليز كمفتشين وتعيينهم أيضا في بعض وظائف في المصالح الهندسية والمعارف وفي الوظائف الصناعية التى يحتاج الامر فيها الى معارف خاصة حين لا يوجد فيه مصري تتوفر فيه الاحاطة بتلك المعارف الفنية

على أنه يجب على كل حال أن يحصر عمل أولئك الموظفين الاجانب فيما هو داخل ضمن دائرة اختصاصاتهم فقط وأن يكونوا خاضعين لمراقبة الوزراء بحيث لا يخولون أقل سلطة ادارية أو قضائية تفضي الى اضعاف نفوذ الموظفين المصريين

(٥) وان يخول أعضاء مجلس النواب الحق في أن يسألوا النظار عن تنفيذ القوانين وينتقدونهم على ما يفرط منهم من الخطأ أو يقع من الخلل في الاعمال ويتحتم على النظار أن يبينوا أسباب ما يقومون به من الاعمال واذا وقع خلاف بين النواب والنظار يوكل أمر حل ذلك الخلاف الى لجنة تشكل من خمسة أعضاء من مجلس النواب ينتخبون بالاقتراع السري وخمسة آخرين من أعضاء محكمة الاستئناف ينتخبون مثلهم بالاقتراع السري ورئيس المجلس ورئيس النظار ورئيس محكمة الاستئناف ويكون حكم هذه اللجنة بالاغلبية المطلقة

ويجوز زيادة أعضاء هذه اللجنة باضافة أعضاء آخرين عليها من مجلس النواب ومحكمة الاستئناف

واني أعتقد انه اذا وضع نظام دستوري على هذا النمط وضمنته الحكومة

الانكليزية لقام بحاجة البلاد ولنالت حكومتها استقلالا لم تعرف له مثيلا

وينبغي أن لا ننسى اعادة تنظيم شؤون المعارف والتعليم فان هاتين المسألتين هما من أمس الأمور التي يبدأ مجلس النواب بمباشرة الاشتغال بها   الامضاء

محمد عبده

وبعد فراغه من هذا الكتاب وضع في ذيله الحاشية الآتية

قد نسيت أن أتكلم على الحربية فأقول ان السردار الانكليزى و بعض ضباط الانكليز يبقون في الجيش المصري ولكن يجب أن يشغل المصريون ما بقي من وظائف الجيش واذا فرض وقامت بعض صعوبات بشأن ذلك ورأت الحكومة الانكليزية وجوب وجود قواد انكليز فيه أعني « باشاوات » فلا ضرر في ذلك

قول المنار في الكتابين

قد كثر حديث الناس في هذين الكتابين لما نشرا في جريدة اللواء ثم المؤيد وغيره ثم اتسع مجال الآراء فيهما بعد أن استنبط اللواء منهما ما استنبط ولخصهما المؤيد بما لخصهما به وزعم أن ما لخصه هو رأي الكاتب وناهيك بتقليد الجرائد في دهماء هذه البلاد

قال المنتقدون ان الكتابين يدلان على بغض كاتبهما للأسرة الخديوية كافة وللأمير الحاضر خاصة . وقالوا ان فيهما تحسينا للظن بالانكليز وقالوا بل فيهما مشايعة لهم . وقالوا هذا رأي الكاتب في الدستور المصري وأطلقوا الرأي انه لو كان الامر كله بيده لرضي لبلاده بما كتبه فيهما . وقالوا ان كاتبهما على غير بينة بالقوانين الاساسية للأمم . وأغرب ما قالوا وما كتبوا هو ما أنبأ عن استنكارهم سلب السلطة الشخصية من الخديويين بحصر السلطة في مجلس النواب ومجلس الوزراء!! وهم من هم المستنكرون لذلك ؟ هم الذين يزعمون انهم طلاب المجالس النيابي والحكومة الدستورية لمصر !!! يالله العجب

وقد استحسن كثير من العقلاء المستقلين المطالب التي في الكتابين واستدلوا بهما على غيرة كاتبهما على بلاده وأهلها وسعيه في اصلاح حالها سرا وجهرا من كل

طريق وكل منفذ . وأنكر آخرون صحة نسبة الكتابين الى الاستاذ الامام وقالوا انه ليس فيهما شيء من روحه ولا من أسلوبه

وانا نبين حقيقة معناهما الذي حرفته الاهواء عن موضعه الذي وضعته فيه الظروف والاحوال بعد تمهيد نمهده لذلك فنقول :

(١) ليعلم القارىء قبل كل شيء ان ما نشر في الجرائد ليس هو الذي كتبه الاستاذ الامام بل هو ترجمة لأحد محرري جريدة اللواء عن الانكليزية . وما في الاصل الانكليزي مترجم عن العربية . فاذا ظهر الاصل العربي الذي يقول حافظ فندي عوض انه رآه عند مؤلف الكتاب يكون مراد الكاتب أظهر وأصح والحكم عليه أعدل

(٢) ان المراد منهما لا يفهم تمام الفهم الا بترجمة ما كتبه المستر بلنت الى الاستاذ الامام بالحرف لأن الفتوى تكون على حسب السؤال كما هو مشهور ومعروف

(٣) قد علم مما كتب اللواء والمؤيد أن موضوع سؤال مستر بلنت يتعلق « بالحالة السياسية الجديدة التي نشأت في مصر عن ابرام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا وانكلترا عليه » فما رآه كان خاصا بتلك الحالة التي أمنت فيها انكلترا معارضة أوربا لها في مصر . فاذا تذكرنا أن كل ما فعلناه من مقاومة الاحتلال ايام كان ضلع أوربا كلها معنا ولا سيما فرنسا لم يزده الا قوة ورسوخا فاننا يمكن ان نعقل ان تلك المطالب التي طلبها الاستاذ الامام بعد اتفاق أوربا مع الاحتلال علينا كانت كبيرة جدا وان الانتقاد على هذه المطالب ينبغي ان يكون محصورا في كثرتها أو عظمتها حتى جعلت نجاح انكلترا بوفاق ابريل ١٩٠٤ نجاحا لمصر وحرمانا لانكلترا من معظم ما كان لها من النفوذ والسلطة

(٤) ذكر اللواء فالمؤيد من موضوع سؤال بلنت كلمة « الدستور المروم إدخاله في مصر » فعلم أن هنالك مشروعا للدستور يعد في انكلترا فما هو وما موضوعه ؟ أوليس هذا نصا في الموضوع صريحا في أن ما كتبه الاستاذ الامام في جواب مستر بلنت ليس مشروعا وضعه لما يجب أن يكون عليه بلاده مطلقا بل هو مطالب وتعديلات لدستور معين يبحث فيه الانكليز أنفسهم؟ ونحن الى الآن

لم نقف على مشروع دستوري لهم الا مشروع لورد كرومر بانشاء مجلس تشريعي لمصر مؤلف من جميع الاجانب . وهل يمكن حينئذ أن يطلب لمصر من انكلترا أكثر مما طلب الاستاذ الامام ؟ وقد تقدم أن ما طلبه كثير

(٥) ذكر اللواء فالمؤيد أن مستر بلنت سأل الاستاذ الامام بالتصريح عما ينبغي اتخاذه من الاحتياطات لمنع ما يتوقع حدوثه من عدم ثقة الخديوي بالدستور كما وقع في عهد والده أي بأن يكون الدستور مأمونا عليه من حل الخديوي له بله تصرفه فيه باستمالة أعضائه الى ما يريد بالرتب والنياشين أو بغير ذلك . وهذا السؤال لا يعقل له وجه الا اذا كان واضعو مشروع ذلك الدستور لا يرضون أن يكون للخديويين سلطة عليه بل لا يعقل وجود دستور حقيقي يكون عرضة لعبث السلطة الشخصية به . وهل يمكن أن يجاب عن هذا الا بتعهد انكلترا بحماية الدستور والحال ان انكلترا هي الواهبة له لتأمن بحسن الادارة المصرية تحت مراقبتها على طريق الهند وتنال هي شرف إصلاح مصر وتنظيمها ؟

(٦) ونقل اللواء فالمؤيد أن مستر بلنت سأل أيضا هل يقبل المصريون تعيين وال اوربي عليهم تحت سيادة السلطان ؟ وهذا السؤال مبني على عدم ثقة أولئك المشتغلين بمسألة الدستور المصري بحكم الامراء الشرقيين الذين يعتقدون أنهم أشربوا في قلوبهم الاستبداد حتى لا يكاد يوجد فيهم من يميل الى الحكم الدستوري ويرغب فيه . فهل تنتقد إجابة الاستاذ الامام عن هذا السؤال بأنه لا حاجة الى حاكم اوربي مع وجود الدستور المضمون ومنع الخديويين من السلطة الشخصية ؟ وهل من الانصاف والحق أن يعد طلبه إبقاء الامارة في بيت محمد علي دليلا على بغضهم ؟؟ وهل يستنكر عاقل الاحتجاج على من يريدون تولية أمير أوربي علينا بكوننا لا نقبل ذلك وكونه هو لا يمكن أن يساعدنا على تحسين حالنا ؟ ما أغرب الرأي الذي يميله الهوى وتروجه الأغراض الخسيسة

﴿ تلخيص المطالب التي طلبها الاستاذ الامام لمصر ﴾
من الانكليز فيما كتب الى مستر بلنت

(١) أن يكون للمصريين مجلس نيابي تنحصر فيه السلطة التشريعية أي وضع القوانين كلها ويكون له حق سؤال الحكومة عن تنفيذها ومحاسبتها على خطأها

(٢) ان يكون للمصريين سلطة تنفيذية وهي الوزارة المسئولة وتناط بها جميع امور الحكومة لا يترك منها للخديويين شيء خاص باشخاصهم كما هو شأن الحكومة النيابية في أوربا لاسيما انكلترا

(٣) ان يكون رئيس الوزراء مسلما لا كما كان من قبل تارة وتارة

(٤) ان يكون جميع موظفي الحكومة ـ من المديرين ووكلاء المديريات والقضاة ورجال النيابة وغيرهم — من المصريين بحيث لا يبقى من موظفي الانكليز الا بعض المفتشين ومن لا يوجد مصري يقوم مقامه في عمله

(٥) تنظيم شؤون المعارف والتعليم وجعلها أهم الامور التي يبدأ مجلس النواب بها

(٦) قيام المصريين بجميع وظائف الجيش بحيث لا يبقى فيه من الانكليز الا السردار وبعض الضباط.

(٧) الغاء وظائف المستشارين المسيطرين على الحكومة الآن

«٨» على انكلترا ان تكفل هذا الدستور وتضمن تنفيذه بايدي المصريين . وفسر ذلك بأن تراقب استتبابه والمحافظة عليه مراقبة فقط حتى لا يبطله الخديويون

هذه هي المطالب الايجابية الاصلية وأنى لمصر بالوصول اليها والى الآن لم تطمع الاحزاب بمثلها فلم يطالب حزب ولا جريدة شيئا يتعلق بالعسكرية ولا يعقل احد كيف يكون الاستقلال الحقيقي بدون جند وطني يقوم بشؤونه الوطنيون

وهناك مطلوب مهم مبني على فرض وقوع شيء لا يؤمن وقوعه مادام للانكليز شأن في سلطة البلاد بل قد وقع مثله في عهد اسماعيل باشا وهو جعل بعض الوزراء من الانكليز . طالب الاستاذ على فرض وقوع ذلك ان يكون للمرؤسين للوزير الانكليزي من المصريين سلطة يفصلون بها في المسائل المتعلقة بالدين وما أشبه ذلك ولا يكونوا آلة في ايدي رؤسائهم من الانكليز . وهذا مطلب لسنا بمدركيه اليوم فانه لا يمكن لرئيس ولا مرؤوس في الحقانية ان يجري في المحاكم الشرعية امرا لا يرضاه المستشار القضائي .

واغرب ماسمعت من بعض الاغرار « البسطاء » أن الكتابين تضمنا طلب جعل بعض الوزراء من الانكليز فلما قيل له انه ليس فيهما شيء من ذلك وانما فيهما مطلب مهم مبني على فرض وقوع ذلك بالرغم منا قال انه ما كان ينبغي ذكر هذا الفرض والتقدير لانه يذكرهم بهذا الامر !! فتعجب ايها القاري من هذه السذاجة والغرارة والغفلة عن الواقع والاهتمام بالالفاظ دون الحقائق :

ومما تقدم من البيان يعلم القارىء أنه ليس في الكتابين شيء ينتقد. وقد سمعت اشهر اعضاء الحزب الوطني حماسة واخلاصا يقول انه ليس فيهما شيء ينتقد الاجعل انكلترا كافلة للدستور لان هذا بمعنى الحماية ولكننا لانشك لاجله في اخلاص المرحوم الشيخ . فقلت له كان يصح أن يقال هذا لو كانت هذه الكفالة من مواد الدستور وكان الدستور مصدقا عليه من الدولة العلية فيكون حينئذ حقا رسميا لها . وليس فيما كتب شيء من ذلك وانما الموضوع ان تسمح لنا انكلترا بهذا الدستور وتكتفي هي عن القبض على أزمة السلطة فينا بمراقبة سيرنا على الدستور والنظام المطلوب ولا تسمح للخديوين ان يغيروه اذا حاولوا ذلك . ومعلوم أنها لا تسمح لهم الآن بتغييرما في التشريع ولا مداخلة ما في التنفيذ مع قبضها على كل شيء وعدم تحملها لتبعة شيء فأي الامرين أفضل ؟؟

وعلى ذكر رأي عضو الحزب الوطني ان تلك العبارة التى انتقدها من الكتابين لا تدعو الى الشك في اخلاص الكاتب: ننبه الى سيئة فاشية فينا هي من اقبح السيئات واشدها ضررا في الامة الا وهى اتهام كل من نراه أخطأ في مسألة من المسائل العامة بسوء النية وعداوة البلاد وبغض الامة وحب الانكليز ومساعدتهم على ما يقصدون بنا من السوء !! وتفرع عن هذه السيئة سيئة اكبر منها وهى اختراع بعض الناس الخطأ او تكلفهم استنباطه من كلام من يكرهونه لاجل إلصاق تلك التهمة به .

فشو هذه السيئة مع اختها اعظم اسباب تفرق الامة وضعفها وانقسامها على نفسها « كما يقولون » لاسيما بعد توجيه الجرائد هذه التهمة الى الجماعات والاحزاب وليت شعري اي قيمة لهذه الامة اذا صح ماترجف به بعض الجرائد من اتهام

حزب الامة برمته بعدم الاخلاص للامة وبمشايعة المحتلين عليها بعد الارجاف بان ذلك النابغة العظيم « الاستاذ الامام » الذي اعترف بنبوغه الشرق والغرب كان غير مخلص للامة او لاميرها ؟ بل أي تعريض بالأمير اشد من اثبات ان نابغي المستقلين يقاومونه وان جمهورا كبيرا من سراة الامة يؤلف حزبا وينشيء جريدة لمقاومة نفوذه ؟؟؟

قد يقول سائل ان المنار قد ابرز هذه المطالب باسلوب يظهر منه مالم يظهر من ترجمة الكتابين على كونه لم يأت بشيء جديد فهلا كتب المرحوم المفتي كتابيه بهذا الاسلوب الذي يتجلى فيه الاخلاص لمصر والتفاني في خدمتها دون ذلك الاسلوب الذى يلوح منه ارضاء الانكليز واسترضاؤهم ان لم نقل محاباتهم

وجوابه من وجهين « احدهما » اننا لم نطلع على ماكتبه المرحوم بنصه فنحكم على اسلوبه « وثانيهما » انه لم يكتب ليمتن على قومه بحبه لهم ومقاومته لمحتلي بلادهم ولا ليظهر للانكليز انه مبارزلهم وانما كتب لصديق له يسعى في خير مصر . على انه لو كتب للحكومة الانكليزية نفسها لوجب عليه في شرع البلاغة ان يجعل تلك الكتابة باسلوب يرجى قبوله وعدم اتهام صاحبه بالعداء والمقاومة ولكل مقام مقال

رأى أحد الملوك في النوم ان اسنانه سقطت فعبر له الرؤيا معبر بقوله ان جميع اهلك واقاربك يموتون في حال حياتك فاستاء الملك وعاقبه عقابا شديداً . ثم جيء بمعبر آخر فقص عليه الرؤيا فقال له تأويل هذه الرؤيا ان الملك يكون اطول اهله عمرا : فسر الملك واجازه اجازه سنية . فالبليغ يخاطب كل مخاطب بما يرجو ان يبلغ به مراده من نفسه

فمن اصحاب الجرائد من يطلب من الانكليز مطالب بصفة الآمر صاحب صاحب السلطان وما مراده الا ارضاء من يقرأ هذه المطالب فيحمد كاتبها ويجله لانه استعلى علي بريطانيا العظمى فأنال الامة من الاستعلاء عليها بالقول ماتلهو به عن الفخر بالاستعلاء أو المساواة بالفعل . ولكنه لايخطر في باله الاسلوب لذي يمكن ان يكون مقنعا او مقبولا عند الانكليز لانه لايريد منهم شيئا

لو كان الاخلاص والغيرة على قدر كبر المطالب وان كانت من المحال ، والتعزز على القوي يتحقق بزخرف وان كان غرورا لامكن كل كاتب ان يكتب كل يوم في اثبات اخلاصه وغيرته وتعززه نحو هذه العبارة : إني آمرك ايتها الدولة الانكليزية الظالمة المعتدية بان تردي مصر الى المصريين وقبرص الى الدولة العلية بل ان تردي الهند الى النوابين والرجاوات من اهلها وان تأرزي الى جزائرك كما تأرز الحية الى حجرها . فان لم تحفظي شرفك وتمتثلي هذا الامر فاننا نتفق مع بعض أعضاء برلمانك فنؤلف منه لجنة تشاغب المجلس أحيانا في هذه المطالب فتهزه هزا ، وتؤزه أزا ، او تهز الشعور الوطني في هذه البلاد هزة تميد لها جزائر بريطانيا ميدانا ، وتزلزل زلزالا ، ربما كان من ورائه البلاء النازل ، والخسف العاجل ؟ ؟

رأي الاستاذ الامام في السياسة

(أو سياسته)

في مصر افراد من الكتاب يبغون العلو والرفعة بالغلو في دعوى حب الامة والتفاني في خدمتها بمقاومة المحتلين بالكلام ومن هؤلاء من كبر عليه ما ناله الاستاذ الامام من علو المكانة بعلمه وحكمته وخدمته للملة ومنهم من يثقل عليه ان يجله بعد وفاته خلق كثير فهؤلاء يريدون ان يخدشوا ذلك الصيت الحسن والشهرة الشريفة ليرفعوا انفسهم ويحطوا من قدر جماعة ذلك الامام العظيم ولم يجدوا بابا اوسع من السياسة التي يكثر فيها الايهام وتسهل فيها الدعوى ويقبل على مائدتها كل طفيلي يطرد عن مائدة العلم والحكمة . وجد بعض هؤلاء في الكتابين متسعا للقيل والقال ومشاغبة حزب الامة لان رئيسه وكبار المؤسسين له كانوا من اصدقاء الاستاذ الامام والذين لا يزالون يصرحون باجلاله و بكونهم انشأوا الجريدة عملا برأيه

رأى مناهضو هذا الحزب انه يستفيد مما ذكر ميل مريدي الاستاذ الامام وهم أرقى الامة عقلا وعلما و بلاغة فمنهم العظماء والوجهاء والمدرسون والكتاب والشعراء فارادوا ان يحرجوه ليتبرأ من الانتماء الى الاستاذ الامام في سياسته

فينفر منهم مريدوه ولكنهم سلكوا مسلك الحمق فمرضوا بالامام نفسه فجاء سعيهم بنقيض ما ارادوا

وقد كتب بعض الكاتبين يسأل عن حقيقة سياسة الاستاذ الامام و يطلب من مريديه بيانها وهل هي عين سياسة (الجريدة) وحزب الامة وعين ماجاء في الكتابين اللذين نشرها مستر بلنت ام ما هي ؟

ونجيبهم عن ذلك بمثل ما قلناه في المنار غير مرة من انه استقر رأيه في اواخر عمره على الاصلاح الديني والاجتماعي واللغوي فقط وترك السياسة بتة وعندنا كتابة في ذلك بخطه لعلنا نطبع صورتها الفوتغرافية في تاريخه عند الكلام على سياسته

وعند ما كان يشتغل بالسياسة كانت قاعدة عمله مقاومة الاستبداد وجعل سلطة الامة في ايديها بحيث لا يبقى لحكامها منفذ للاستبداد فيها

أما الجريدة فهي تنفيذ لفكرته من حيث هي لجماعة من الامة لا لفرد منها وقد كتبنا في الجزء الثاني من منار هذه السنة (ص ١٦٠) انها تنفيذ لرأيه وزدنا على ذلك قولنا « وان لم تكن كما كان يريد من كل وجه » فقد كان يريد ان تكون الجريدة التي دعا في آخر عمره الى إنشائها اجتماعية ادبية زراعية اكثر مما هي سياسية وان يكتب فيها كل يوم عن الاخلاق والعادات والتقاليد الفاشية في البلاد وان لا يكتب فيها عن سياسة الدول اكثر من عمود او عمودين في العدد يلخص في ذلك الثابت الذي فيه عبرة وفائدة الجمهور . وسنوضح هذا في الكلام عن رأيه في السياسة والجرائد من جزء الترجمة الذي نؤلفه ونطبعه الآن فلينتظر محبو الحقائق . ولا مبالاة بأهل الاهواء . ونختم هذه الكلمات بجملة في سياسته كتبها حافظ افندي ابراهيم الاديب الشهير في كتابه الذي سماه سطيح ونشرتها جريدة السياسة المصورة وهي :

بين سطيح وواحد تلاميذ الامام

سطيح — أين أنت من القوم — التلميذ — من أولئك الذين نقموا الرضى على العهدين ، ولم يحمدوا مغبة الحكمين ، عهد الدولة التركية ، وعهد الدولة البريطانية ، ففي أولهما فاضت المظالم وغاضت الاموال ، وفي ثانيهما أخصبت الارض واجدبت الرجال — سطيح — وهل أنت في خفض من العيش ؟ — التلميذ — لا أشكو بحمد الله

عسراً، ولا أرجو يسراً، وانما أتفيأ ظل هذا البيت العربي، لذلك الشاعر الأبي،

مذبذب الرزق لا فقر ولا جدة   حظ لعمرك لم يحمق ولم يكس

قال – واين مكانك من العلم، واين منك منزلة الحلم، ؟ قال حسبي اني من تلاميذ حكيم الاسلام، الاستاذ الامام، طيب الله ثراه، وجعل النعيم مثواه

قال – اني لأرى رأيا حصيفا، وأسمع قولا شريفا، فمن أي تلاميذه تكون وقد سمعنا انهم فريقان – فريق قد اختصه بسياسته، وفريق قد اختصه بعلمه، وقد أثنى عليهما العميد، وتنبأ لهما بالطالع السعيد، قال – لا علم لي بما تقول .

ولقد كنت ألصق الناس بالامام أغشى داره، وارد أنهاره، وألتقط ثماره. فما سمعته يخوض في ذكر السياسة قبحها الله ولكن كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ويتنقل بنا بين مناطق الافهام، ومنازل الاحلام، ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق، وحكم الخالق، وكان ربما ساق الحديث الى ذكر أحوال هذا المجتمع البشري فأفاض في شؤون الاجتماع وحاج العمران ووقف بنا على أسرار الحياة فان كانوا يسمون تلاميذه أحزابا، ويقسمون تعاليمه أبوابا، فتلاميذه حزب العلم والعرفان، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران

ولكنه كان يحتك بالسياسة ما دعت الى ذلك الحال فيرصد حركاتها ويصد غاراتها، خشية أن تقطع على العلم سبيله، وان تقف عثرة في طريق الفضيلة، فلكم تلطف في ابتزاز قواها، ويحامي جهده طريق أذاها، حتى اذا ظفر بطلبته، وفاز برغبته، واستمد منها ما شاء، تحت حماية الافتاء، عطف على العلم بذلك الامداد، ورد عليه ما سلبت يد الاستبداد، ولو لا أنه كان يمادهم حبل الوداد، ويجاذبهم فضل النصح والارشاد، لأصابه ما أصاب حكيم الافغان، وقضى على أمة النيل بالحرمان

مات النبي عليه الصلاة والسلام فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزمة الفاروق فما غضت الردة من شرف النبوة ولا نالت من عصمة الرسالة ولبث الاسلام اسلاما – ومات الاستاذ الامام فصبأ بعض حزبه كما يدعون، واستغفر الله لهم مما يقولون، فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام، ولا مس من سيرة ذلك الامام'   حافظ ابراهيم

﴿ الرجوع الى المنار في شأن الكتابين ﴾

طلب منا كثيرون بالقول والكتابة ان نبين رأينا في الكتابين ففعلنا وننشر الكتاب الآتي إجابة لطلب صاحبه

سيدي المحترم حضرة اللوذعي الفاضل والاستاذ الكامل السيد محمد رشيد رضا مدير مجلة المنار الزاهي   دام محترما

سيدي لا يعزب على علميتكم ما أتى على صفحات بعض الجرائد السيارة بخصوص جواب المسيو (بلنت) ورد استاذنا المرحوم المصلح العظيم الشيخ الامام عليه ولا يخفى على ذكائكم الفريد ما تقوله ويتقوله حزب الخرافات واعداء أنفسهم من ان الشيخ الامام كان يبغي نقل الاريكة الخديوية من آل محمد علي وأنه كان يريد أو يفكر في جعل ابناء التاميز مسيطرين على هيئة الحكومة ولا تسأل عن اعداء المرحوم بل أعداء الحق الصراح وما يمليه عليهم جهلهم لأن الانسان عدو ما يجهله

وبعد فأرجو سيادتكم باسم المرحوم أن تشحذوا قلمكم السيال في سطاعة الحقيقة لأنكم من أعلم الناس بتاريخ المرحوم حتى يظهر الصبح في حلته النورانية لذي عينين واستعطفكم بالرضى عن تطفلي على مائدة فضلكم لأن الكل يتغذى من دسامة علمكم المشبع ثم أرجو من فضيلتكم اثبات سؤالي هذا على صفحات مجلتكم الفيحاء وليعلم اعداء المرحوم أن في يدنا أقلاما لنصر الحق لا تخشى في الحق لومة لائم وفي الختام اقبلوا أزكى الاحترام   السيد محمد الزيات

(المنار) إن للمشاغبين في الكتابين من سوء النية واتباع الهوى ما لا يخفى وهم لا بضاعة لهم الا التغرير في مثال ما ذكرتم . وإلا فهم يعلمون ان الدولة الانكليزية مسيطرة على الحكومة المصرية بالواقع ونفس الامر وانه لا معارض لها ولا منازع في هذه السيطرة كما يعلمون انهم كاذبون في تقولهم وتقدم بيان الحقيقة ثم ان هؤلاء المخادعين يبيحون لأنفسهم ان يطلبوا من الانكليز باسم مصر بعض المطالب ويمنون بذلك على الامة ويفخرون بأنهم فعلوا وفعلوا ولم

يفعلوا شيئاً وإنما قالوا كلاما يستطيع ان يقول مثله الألوف . ثم هم ينكرون على من يطلب لمصر شيئا مما يطلبون وان كان خيراً مما يطلبون واقرب الى القبول وذلك لأنهم احتكروا الزعامة وخدمة الامة بالدعوى

فاذا كانت المطالب التي في الكتابين لا ترضيهم فلننتظر منهم حتى يمنحوا مصر بمساعيهم ما هو خير منها سواء كان ذلك بواسطة اللجنة البرلمانية التي لم نسمع منها الا كلمات في الهواء أو بواسطة التبجح والدعوى والاستطالة والتهديد والوعيد للانكليز . عند ذلك نقول لهم ان قولكم كان أنفع وانتم زعماء السياسة، واهل الرياسة، والمستقبل يكشف الحقائق لمن له عين تنظر، وعقل يدرك،

على ان جماعة الاستاذ الامام من اصدقائه ومريديه مجدون في خدمتهم على طريقته فمنهم محيي المعارف في الحكومة ومنهم دعاة الجامعة المصرية ومنهم المدرسون على الطريقة الاصلاحية ومنهم ومنهم ولا تبجح ولا دعوى، ولا منّ ولا أذى، والعاقبة للمتقين



نهي الصحابة ورغبتهم عن الرواية

روى ابن عساكر عن محمد بن اسحاق قال أخبرني صالح بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن ابيه قال والله ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم من الآفاق ـ عبد الله بن حذيفة وابا الدرداء وابا ذر وعقبة بن عامر — فقال : ماهذه الاحاديث التي انشيتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآفاق ؟ قالوا « تنهانا » قال اقيموا عندي لا والله لا تفارقوني ماعشت فنحن أعلم نأخذ منكم ونرد عليكم : فما فارقوه حتى مات

وروى ايضا عن السائب بن يزيد قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لابي هريرة : لتتركن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لألحقنك بأرض دوس : وقال لكعب (الاحبار) لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض القردة :

وروى عن ابي أوفى قال كنا اذا اتينا زيد بن ارقم فنقول حدثنا عن رسول الله (ص) فيقول كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله (ص) شديد

وروى عن عبيد الله بن عديّ بن الخيار قال بلغني حديث عن عليّ خفت ان أصاب أن أجده (١) عند غيره فرحلت حتى قدمت عليه العراق فسألته عن الحديث فحدثني وأخذ عليّ عهدا أن لا أخبر به أحدا ولوددت لو لم يفعل فاحدثكموه

وروى عن عمرو بن دينار قال حدثني بعض ولد صهيب انهم قالوا لابيهم مالك لاتحدثنا كما يحدث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال اما اني قد سمعت كما سمعوا ولكني يمنعني من الحديث عنه انى سمعته يقول « من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ولكني سأحدثكم بحديث حفظه قلبي ووعاه سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول « أيما رجل تزوج امرأة ومن نيته أن يذهب بصداقها لقي الله فهو زان حتي يموت وايما رجل بايع رجلا بيعا

(١) كذا في كنز العمال ولعل الاصل : إن أصيب أن لا أجده : الخ

ومن نيته أن يذهب بحقه فهو خائن حتى يموت » ورواه غيره والحديثان المرفوعان فيه مشهوران . وصهيب من السابقين الأولين رضي الله عنه

وروى احمد وأبو يعلى (وصحح) عن عثمان قال ما يمنعني أن احدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا اكون اوعى اصحابه عنه ولكني اشهد اني سمعته يقول « من قال عليَّ مالم أقله فليتبوأ مقعده من النار »

وروى ابن سعد وابن عساكر عن محمود بن لبيد قال سمعت عثمان بن عفان على المنبر يقول : لا يحل لاحد يروي حديثا لم يسمع به في عهد ابي بكر ولا عهد عمر فاني لم يمنعني أن احدث عن رسول الله (ص) أن لا اكون اوعى اصحابه الا اني سمعته يقول « من قال عليّ ما لم اقل فقد تبوأ مقعده من النار

وروى احمد والدارمي وابن ماجه وآخرون من حديث أبي قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « يا أيها الناس إياكم وكثرة الحديث عني فمن قال عني فلا يقولن الا حقا وصدقا فمن قال علي ما لم اقل فليتبوأ مقعده من النار » وقد روي عن بعض الصحابة الاعتذار بهذا الحديث المتواتر عن التحديث او كثرته

وقد فتح الحافظ ابن عبد البر بابا في كتاب (جامع بيان العلم) لبحث ذم الاكثار من الحديث وقيده بقوله دون التفهم له والتفقه فيه قال (كما في مختصره):

« عن الشعبي عن قرظة (١) بن كعب قال خرجنا فشيعنا عمر الى صرار (٢) ثم دعا بماء فتوضأ ثم قال لنا اتدرون لم خرجت معكم ؟ قلنا اردت أن تشيعنا وتكرمنا . قال « إن مع ذلك لحاجة خرجت لها : انكم لتأتون بلدة لاهلها دويّ بالقرآن كدويّ النحل فلا تصدوهم بالأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا شريككم » قال قرظة فما حدثت بعده حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعنه ايضا قال قال لنا « أقلوا الرواية عن رسول الله (ص) وانا شريككم » وفي رواية عن قرظة ايضا قال خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى صرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال أتدرون لما مشيت معكم ؟ قالوا نعم نحن اصحاب رسول الله « ص » مشيت معنا « لتكرمنا » فقال « انكم تأتون أهل قرية لها دويّ

---

(١) قرظه بالتحريك بوزن (خشبة) (٢) صرار بالكسر موضع قرب المدينة

بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالاحاديث لتشغلوهم جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم امضوا وانا شريككم » فلما قدم قرظة قالوا حدثنا : قال نهانا عمر بن الخطاب

« وعن عروة بن الزبير عن عائشة قالت ألا يعجبك أبو هريرة جاء فجلس الى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله (ص) يسمعني وكنت أسبح (تعني انها تصلي) فقام قبل ان أقضي تسبيحي ولو أدركته لرددت عليه ان رسول الله (ص) لم يكن يسرد الحديث كسردكم

« وعن ابي الطفيل قال سمعت عليا على المنبر يقول : أتحبون أن يكذب الله ورسوله لا تحدثون الناس الا بما يعلمون

« وعن ابي هريرة أنه كان يقول حفظت عن رسول الله (ص) وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا البلعوم (والبلعوم الحلقوم) وعنه أنه قال لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدّرة » اه

أقول فلو طال عمر عمر حتى مات أبو هريرة في عصره لما وصلت الينا تلك الاحاديث الكثيرة عنه ومنها ٤٤٦ حديثا في البخاري ما عدا المكرر

وقد ذكر ابن عبد البر لنهي عمر وهو امير المؤمنين عن التحديث تأويلات (منها) أنه « إنما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشي عليهم الاشتغال بغيره عنه اذ هو الاصل لكل علم » وأقول ان ما رواه في ذلك عن قرظة ينافي ذلك فقد نهاهم عن تحديث قوم يحفظون القرآن يفتأون يتلونه لأصواتهم به دويّ كدوي النحل . ولو أراد نهياً مقيداً بهذا القيد لقال لا تحدثوا الا من حفظ القرآن . وقد عزا هذا القول لأبي عبيد قال « وقال غيره إنما نهى عمر عن الحديث عما لا يفيد حكماً ولا سنة » وهذا أضعف مما قبله وقد عزاه الى مجهول وماذا يعني قائله بالحديث الذي لا يفيد حكماً ولا سنة ؟ أهي الاحاديث عن شمائله (ص) واخلاقه ؟ كيف وهي انفع من أحاديث الاحكام الفقهية ؟؟

ثم ذكر ان بعضهم رد حديث قرظة هذا لأن الآثار الثابتة عن عمر خلافه وذكر من هذه الآثار أمر عمر أن يبلغ عنه أن الرجم مما انزله الله على نبيه في

الكتاب . أقول وهذا الأثر لا يصلح دليلا لأنه إنما نهى عن اشتغال الناس بالحديث عن الكتاب الذي هو أصل الدين . فاذا ادعى مدع ان عمر ما كان يريد ان يجعل الحديث اصلا من أصول الدين يمكنه ان يقول ان حكم الرجم في رأيه من أحكام القرآن لا من أحكام الحديث غايته ان آيته نسخت تلاوتها فالأمر بتبليغه أمر بتبليغ حكم قرآني فلا يعارض النهي عن التحديث

ثم ذكر وجها آخر لرد حديث قرظة وهو معارضة الكتاب والسنن له كقوله تعالى (٢١:٣٣ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) وقوله (٧:٥٩ وما آتاكم الرسول فخذوه) وقوله (٥٢:٤٢ وانك لتهدي الى صراط مستقيم) قال ولا سبيل الى اتباعه والتأسي به الا بالخبر عنه .

وقد يجاب عن هذا بأن صراطه المستقيم هو القرآن والسياق يعين ذلك، وأن من يعمل بالقرآن يكون متأسيا به لحديث عائشة في صحيح مسلم وغيره « كان خلقه القرآن » وان سنته التي يجب ان تكون أصل القدوة هي ما كان عليه هو وخاصة أصحابه عملا وسيرة فلا تتوقف على الاحاديث القولية . وأما الأمر بأخذهم ما يعطيهم الرسول فهو في قسمة الفيء ونحوه ما في معناه والحديث الذي نحن بصدده لا يعارض ذلك

وذكر من امثلة معارضته السنن حديث « نضر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها الى من لم يسمعها » بناء على جعلهم الاحاديث القولية من السنن وهو اصطلاح للعلماء توسعوا فيه بمعنى السنة فجعلوها أعم مما كان يريده الصحابة من هذا اللفظ (السنة) وهي الطريقة المتبعة التي جرى عليها العمل . والحديث يصلح معارضا للنهي عن التحديث وبينهما يطلب الترجيح . ويقول ابن عبد البر ان عمر كان يريد النهي عن الاكثار لا عن أصل التحديث وهو كما ترى وان الاخذ بالمرفوع مقدم . أقول وههنا شيء آخر وهو اقرار الصحابة لعمر على نهيه وقد يعارضه انهم حدثوا فلم ينتهوا وقد مر بك ان أبا هريرة كان يحدث بعده فكان اجتهادهم اختلف فى المسألة

ومما ذكره ابن عبد البر عن عمر فى معارضة حديث النهي قوله « تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن » فسوى بينهما وعن مورق العجلي عنه قال كتب عمر « تعلموا السنة

والفرائض واللحن كما تتعلمون القرآن » . والجواب عن هذا يعلم مما قبله وهو ان تعلم السنة غير التحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فان السنة سيرته (ص) وتعرف من الصحابة بالعمل وبالاخبار كنحو « من السنة كذا » كما كانوا يقولون والتحديث عنه نقل كلامه كما هو المتبادر وان اصطلح المحدثون بعد ذلك على تسمية كل كلام فيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حديثا وسنة . ومنه تسمية ابن عبد البر نفسه لرواية قرظة التي هي موضوع بحثنا حديثا . وفسر اللحن في أثر عمر عن مورق فقال « قالوا اللحن معرفة وجوه الكلام وتصرفه والحجة به »

ثم قال وعمر أيضا هو القائل « خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم » وهو القائل : سيأتي قوم يجادلونكم بشبه القرآن فخذوهم بالسنن فان أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عز وجل . وأقول ان هديه (ص) ليس موضع اشتباه وأما سنته فلو أريد بها هنا أقواله لكان فيها من الشبهات ما في القرآن او اكثر لان القرآن أعلى بيانا وقد نقل بالحرف والحديث كثيرا ما نقل بالمعنى . فالسنة لا يراد بها الا السيرة والطريقة المتبعة عنه صلى الله عليه وسلم بالعمل والعمل لا تعترض فيه الشبهات فلذلك أمر بالاحتجاج عليهم بالسنن . ومثل هذا أمر علي لابن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج قال « لا تخاصمهم بالقرآن فان القرآن حمال ذو وجوه تقول ويقولون ولكن حاجهم بالسنة فانهم لن يجدوا عنها محيصا » اه من نهج البلاغة

ومن العجائب ان يغبى بعض المحدثين احيانا عن الفرق بين السنة والحديث في عرف الصحابة الموافق لاصل اللغة فيحملوا السنة على اصطلاحهم الذي احدثوه بعد ذلك وليس لنا أن نلوم بعد هذا ذلك العالم الفرنسي المستشرق الذي قال لي مرة ان الصحابة كانوا يقدمون الاحاديث على القرآن وذكر لي قول علي لابن عباس فقلت له انه لا يعني بالسنة الاحاديث فانها ذات وجوه تحتمل تأويل المجادلين كالقرآن وانما هي الطريقة المتبعة بالعمل . مثال ذلك احتجاج علي على معاوية وأصحابه بحديث عمار « تقتله الفئة الباغية » فقد أوله عمرو بن العاص فقال : انما قتله من أخرجه : يعني عليا ولكن لا سبيل الى تأويل كيفية الصلاة وعددها وكيفية الحج

لانها ثابتة بالسنة . ولا يخفى أن السنة بهذا المعنى تشمل ماهو مفروض وما هو مندوب وما هو مستحب كما مر جوابه

هذا وان المبحث كبير ولا سبيل الى تحريره واستيفاء فروعه في هذا الجزء فنكتفي بما تقدم في الوفاء بما وعدنا به في الجزء الماضي

وليعلم القاريء ان هذا البحث الاصولي بمعزل عن مسألة اهتداء المسلم بما يصح عنده من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فتلك الاقوال هي ينابيع الحكم، ومصابيح الظلم، وجوامع الكلم، ومفخر للامة على جميع الامم، بل ان في الاحاديث التي لم تصح اسانيدها من البدائع، والحكم الروائع، والكلم الجوامع، ماتتقاصر عن مثله أعناق العلماء، وتكبو في غاياته فرسان الحكماء، ولا تبلغ بعض مداه قرائح البلغاء، ولا غرو فان من الاحاديث ماصحت متونه ولم تصح اسانيده، كما ان منها ما أشكلت متونه وان سلم من الطعن رواته، وأنى لغيرنا ببعض ماعندنا من الاسانيد لاقوال حكمائهم، أو الكتب أنبيائهم، فنحن يسهل علينا من التمحيص والتحقيق مالا يسهل على غيرنا، فليتدبر المتدبرون، وليعمل العاملون،



حياة اللغة العربية

وبحث الترجمة والتعريب ، ونادي دار العلوم

لكل لغة مقومات ومشخصات تمتاز بها على غيرها من اللغات كما تمايز أنواع الجنس وأشخاص النوع . وحياة كل لغة تكون باداء وظيفتها مع حفظ مقوماتها ومشخصاتها . ووظيفة اللغة محصورة في شي واحد هو تعبير أهلها بها عما يعلمون مهما اتسعت دائرة معارفهم وعلومهم . وقد كان للغة العربية حياة أدبية في عصر الجاهلية ثم ظهر بها الاسلام فجدد لها حياة أخرى أعلى مما كانت فيه إذ جدد لها دينا وشرعا وسياسية ومدنية قامت بعلوم لغوية وعقلية وصناعية فوسعت اللغة ذلك كله مع حفظ مقوماتها ومشخصاتها في المفردات والأساليب

ان مايتجدد للناس من المعلومات ببحثهم واكتشافهم وبما ينقل اليهم عن غيرهم يظهر في لغتهم بضروب من المظاهر فمنها ارتجال الاسماء ومنها الاشتقاق ومنها الترجمة ومنها التجوز ومنها التحويل للدخيل من الاسماء الاجنبية وإدخاله في لغتهم وجعله منها مع تركه على حاله أو مع ضرب من التصرف فيه يكون به مناسبا وملائما لكلماتها في أوزانها ومخارجها وهو مايسمى عندنا بالتعريب . وكل ذلك من مقتضى حياة اللغة فهو يحصل في اللغة الحية بلا تكلف كما يأكل كل من الانسان الابيض أو الاسود أو الاصفر الشيء المختص بأرض الآخر فيتغذى به بدنه ويبقى هو مع ذلك على لونه ومشخصاته لايعرض له تغيير

ضعفت حياة اللغة العربية منذ بضعة قرون بعد أن صارت قسمين عامية وخاصية، فأما الخاصية وهي لغة العلم والكتابة فصارت متكلفة وخرجت عن كونها ملكة راسخة . واما العامية وهي لا تكون الا ملكة حية في الالسنة فصارت قاصرة على مايصل اليه علم الاميين ومن في حكمهم من المتعلمين . وصار المشتغلون بالعلم والكتابة ضعافا في ملكتهما بقدر مزاولتهم للخاصية التي لم تصر ملكة لهم . فاذا عرض للعوام شيء جديد من المسميات بادروا الى تسميته بلا تكلف كما هو شأن أهل الملكة

في كل لغة فترى المشتغلين منهم بالطباعة (مثلاً) يسمون كل اداة من ادواتها الاعجمية باسم منه العربي ومنه المعجمي ومنه المعرب (وسنبين ذلك بعد) ولكن الخواص واعني بهم المشتغلين بالعلوم العربية فانهم يحارون فيما يعرض لهم من ذلك اذ ليس لهم ملكة العامية كالعوام الآن ولا ملكة الخاصية التي كانت لناقلي علوم اليونان

سكت هؤلاء الخواص على هذا النقص زمناً وبحث بعضهم فيه أبحاثاً لم يكن فيها غناء . وقد أنشأ في هذا العام جمهور من المتخرجين في مدرسة دار العلوم — وأكثرهم معلمون للعربية في مدارس الحكومة — نادياً لهم رأوا أن يكون من فوائد اجتماعهم فيه خدمة اللغة العربية بأكثر مما يخدمونها به في المدارس .

وقد رأوا أن يكون أول عمل يقومون به البحث في هذه المسائل واننا نورد لهم خطابين في مسألة أسماء الاجناس الأعجمية التي يراد ادخالها في اللغة العربية هل تعرب تعريباً أم تؤخذ بالترجمة والوضع الجديد؟ وقد عرف رأينا في ذلك مما تقدم وسنزيده بياناً بعد ايراد الخطابين

خطاب الشيخ محمد الخضري المدرس

(بمدرسة القضاء الشرعي)

أيها السادة

ينبئنا التاريخ ان اللغة العربية كانت لآخر القرن الثاني عشر قد وصلت الى منتهى الضعة وكادت تصبح أثراً دارساً ولولا رجلان فكرا في احيائها ووجدا من خيرة الاعوان من كان شعارهم الاخلاص والجد لكنا اليوم على ما كان عليه سلفنا في أواخر ذلك العهد

أما أولها فمحمد علي باشا مؤسس الامرة الخديوية زادها الله تشريفاً وتكريماً فانه وجد المرحوم رفاعة باشا وتلاميذه بعد ان زج بهم في مضمار الحياة فساروا شوطاً بعيداً ووضعوا الحجر الاول في نهضة اللغة كتبوا وترجموا شيئاً كثيراً أبقته لنا الأيام دليلاً على اخلاصهم ثم على مقدرتهم واستعدادهم لم يتركوا فناً من الفنون التي كنا مستضعفين فيها الا كتبوا فيه ترجمة أو من عند أنفسهم .

وأما الثاني فهو صاحب الدولة المخلص في خدمة بلاده مصطفى رياض باشا وجد الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده وتلاميذه ورجال العزيمة من نابغي السوريين فقاموا بالنهضة الثانية عهد الى المرحوم اصلاح الوقائع المصرية والاشراف على ما يكتبه أرباب الدواوين في محاوراتهم فكان ذلك منبهاً لهم أن يعتنوا باصلاح ما يكتبون وتعلم ما يجهلون . ومن أكبر مساعد لتلك النهضة الجرائد العربية على اختلاف مذاهبها ومشاربها فهي التي رفعت من قدرها وساعدت على رقيها بما كان يبذله أصحابها من الهمة في اختيار اللفظ والاسلوب سواء في ذلك فاضلهم ومفضولهم .

اذا دبت الحياة في جسم فانها لا تقف عند غاية فان صاحبها دائماً يرجو الكمال وهو أبداً بعيد من الانظار كذلك نحن الآن فانا في بدء نهضة ثالثة يأخذ بيدها ويشد ازرها ذو السعادة الوزير المخلص سعد زغلول باشا ناظر المعارف العمومية في عهد مولانا وسيدنا أمير مصر عباس باشا حلمي الثاني فهو مؤيد النهضة الثالثة كما كان جده مؤيد النهضة الاولى

تلك النهضة أن تكون اللغة العربية لغة تعليم وتعلم وكتابة وتكلم ينبت فيها الصغير ولا يخل بوزنها الكبير والاعوان اليوم أكثر منهم أمس فان البذور التي غرست قد أثمرت في كثير من الانفس الطيبة فصارت من أنفسها تطلب الغايات وترقب الكمال والمعونة من مثل هؤلاء أعظم

هذا المطلوب أيها السادة عزيز المنال وعر المسلك فلا بد للوصول اليه من عزيمة صادقة يقودها العقل الصحيح لتهيئة الطريق حتى لا تلتوي علينا المقاصد فنظن أنفسنا سائرين للامام ونحن للخلف راجعون . ننظر أمامنا فنجده عقبات كثيرة لا بد ان نقدرها قدرها حتى يمكننا تذليلها عقبات كثيرة لست في معرض احصائها الآن لاني أقتصر على عقبة واحدة جمعت مجال البحث بين أيديكم

بيننا محدثات كثيرة تصل بلادنا على أيدي المخترعين الذين قدروا بجدهم ان ينتفعوا من كل ما خلقه الله سبحانه للانسان ولم يكن آباؤنا قد عرفوها حتى

يعدوا لها العدة من الاسماء المبينة لمسماها فنقف أمامها مبهوتين لا ندري كيف نعبر عنها فاذا كتبنا وقف بنا القلم عندها حائرا فمنا من يكتب اللفظ الذي وضعه المخترع ويحيطه بقوسين علامة على أنه ليس من لغتنا أو بعبارة أوضح علامة على نقص اللغة ونفورها من كل جديد ومنا من يحتال لذلك فيؤدى المعنى بكلمة وضعها العرب بازاء مسمى آخر وما يجده الكاتب يجد مثله المتكلم

لا يتفق الناس على شيء يتبعونه وهذا نقص عظيم يجب أن نتلافاه وأن نتفق على ما نستعمله لذلك وضعنا موضع البحث هذا السؤال: ما هي الطريقة المثلى للدلالة على المحدثات؟ أتعريب ألفاظها التي يضعها لها محدثوها وصقلها حتى تكون موافقة للهجات العرب أم التوسع في بعض الالفاظ العربية ووضعه بازائها.

وقبل الافصاح برأيي في هذه المسئلة أبين لحضراتكم كيف كان العرب المتقدمون يفعلون اذا عرض عليهم شيء محدث من طريق غيرهم

ولا أريد أن أتوسع في البحث الى ماوراء أسماء الاجناس فان اللغة العربية عندها من الثروة في الاسماء الدالة على المعاني ما لا تحتاج معه الى استعارة من غيرها أما أسماء الاجناس فانها بالضرورة تتجدد بحدوث مسمياتها والعرب كما تعلمون كانوا فقراء جداً من هذه المواد فانهم أهل بادية وحاجات المتبدى قليلة اذ ليس أمامه الا سماؤه وأرضه وبهمه وسلاحه ووجدانه فمن المعقول أن يتفنن في وضع ما يدل على أجزاء ذلك من الاسماء. أما ادوات الحياة مما تخرجه الصنعة وتبدعه الفكرة فهو منها بعيد وقلما يتلقى باديهم شيئاً منها عن بلاد أخرى لانهم انقطعوا عن الامم أو كادوا

فاما الحاضرون منهم وهم سكان ريف العراق ومشارف الشام واليمن فقد كان لهم من جوار الفرس والروم ما جعلهم يتلقون كثيراً من الاداة فدعتهم حاج التعبير والابانة عما في النفس الى ان يكون لذلك الشيء الذي استعملوه لفظ يعبر عنه والمعقول في اختيار اللفظ للمعنى ثلاث طرق

الاول الوضع الجديد وهذا لا مجال للكلام فيه لان الاقدمين ما عولوا عليه وليس بيننا من يقول به على ما أظن وسبب هذا فيما أعلم ان أحرف اللغة العربية

قد شغلتها الاوضاع فقلما نركب ثلاثة أحرف الا وجدنا مجموعها قد وضع واستعمل اللهم الا حروفاً قلائل استثقل العرب جمعها في كلمة واحدة ومثل الثلاثة الاربعة والخمسة

الثاني التوسع في الاستعمال وهو المراد بالتجوز بأن يكون اللفظ قد وضع بازاء مسمى ولمناسبة بين المسمى القديم والجديد يستعمل ذلك اللفظ في المعنى الجديد ككلمة تامور فانها في أصل اللغة القلب لانه وعاء الدم ثم توسعوا فيها فجعلوها لكل وعاء فاذا جاءهم أي وعاء على أي شكل استعملوا فيه لفظ تامور ولا يأخذون عن غيرهم شيئاً حتى يتركوا كلمة ابريق التي وضعها صناعه لتدل على شكله الخاص به ويبحثون في كلماتهم القديمة عن لفظ قديم يدل على ما يشبه الدينار والدرهم فيستعملونه فيها ولا يأخذونها

الطريق الثالث التعريب وهو انه يأخذ من المخترع للشيء المسمى واسمه بعد ان يصقلوه بألسنتهم حتى يكون خفيفاً عليها مناسبا للهجتها وهذا هو الطريق المعقول الذى اتبعه العرب وكل أمة من امم العالم

مضى على الامة العربية زمن طويل قبل الاسلام وهي تتناول الالفاظ الدالة على الاجناس من واضعيها وتلحقها بلغتها من غير ان يقف في طريقها معارض

أخذوا الدينار والدرهم وألحقوهما بأبنيتهم واشتقوا منهما فقالوا فرس مدنّر أي فيه نقط كالدينار وقالوا دنّر وجهه أى تلألأ ودينار مدنّر أي مضروب ودنّر فلان كثرت دنانيره وقالوا رجل مدرهم كثير الدراهم ودرهمت الخبازى صار ورقها كالدراهم. وأخذوا اللجام واشتقوا منه فقالوا ألجم وملجم ولُجُم وتجوزوا في استعماله فقالوا: التقي ملجم: لانه يقيد اللسان ويكفه كما يفعل اللجام بالدابة

أخذوا من الصناعات الاستبرق والسندس والاساور والابريق والطست والخوان والطبق والخز والديباج والسندس والهندسة والمهندس. واخذوا من النباتات النرجس والبنفسج والنسرين والسوسن والياسمين والجلنار والزنجبيل والقرنفل والفلفل والكراويا والعنبر والكافور والصندل الى غير ذلك مما أحصاه نقلة اللغة

وكانت قاعدتهم في التعريب على جهتين «الجهة الاولى» أن يلحقوا الكلمة

بأبنيتهم ومتى صارت الكلمة كذلك عدت من اللغة وحكم عليها بما حكم على بقية الكلام فيشتقون منها وكانوا يبدلون حرفا مكان حرف لتقارب مخرجهما كما فعلوا فى لجام وكان أصله لغام بالغين والجيم والغين متقاربان مع سهولة الجيم واذا كان الحرف بين كاف وجيم جعلوها جيما لقربها منها ولم يكن بد من ابدالها لان ذلك الحرف ليس من كلامهم فقالوا جربز وآجر وجورب ورء جعلوها قافا لانها قريبة أيضاً فقالوا قربز ويبدلون مكان آخر الحرف الذي لايثبت في كلامهم الجيم فقالوا كوسج وساذج وأصل ذلك كوسه وساده كما ننطق به نحن الآن ويبدلون مكان الحرف الذي بين الفاء والباء الفاء فقالوا الفرند والفندق وربما جعلوها باء فقالوا برند فالبدل مطرد في كل حرف ليس من حروفهم يبدل منه ماقرب منه من الحروف الاعجمية

والجهة الثانية ان يبقوا الكلمة على وزنها عند الامة ذات الشأن في وضعها كما فعلوا فى الابريسم والاهليلج وكما فعلوا في كثير من الاعلام وقصدهم من ذلك ألا يبقى هناك كبير فرق فى النطق بين اللفظين الاصل والاعجمي وتنبيه العربي حتى يكون الفهم والافهام اللهم الامادعت اليه ضرورة العربي في النطق

جاء القرآن الكريم وهو البالغ من الفصاحة مبلغ الاعجاز ووصفه الله سبحانه بانه لسان عربي مبين فاستعمل كثيرا من الالفاظ التي عربتها العرب وهذا اقرار من الله سبحانه على طريقة التعريب

استعمل القسطاس والاستبرق والفردوس والمسك والكافور والزنجبيل والسندس والابريق والمشكاة واليم والطور وما شاكلها وقد الف فيما عرب واستعمله القرآن من الالفاظ استاذنا الحافظ اللغوي الشيخ حمزة فتح الله كتابا جمع فيه من ذلك كثيرا . وقد نقل عن ابن عباس ترجمان القرآن وكثير من التابعين وأهل العلم والفقهاء ان هذه الالفاظ من لغات العجم سقطت الى العرب فاعربتها بألسنتها وحولتها عن الفاظ العجم الى ألفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الكلمات بكلمات العرب وهذا الذى جعل لبعض أهل العربية ان يقول ان القرآن خلو من كلام غير العرب لان ارتضيته العرب من

الكلمات بعد تعريبه صار عربيا مبينا وألحق باحرف اللغة فلاحرج في استعماله بعد

ومما أزيدكم به بيانا أيها السادة ان بعض الالفاظ التي عربها العرب موضوعة لاشياء تشابه ماله اسم عربي ولكنهم اختاروا الاسم الاعجمي لدلالته على شكل خاص للمسمى كما أخذوا كلمة ابريق وعندهم التامور وأخذوا كلمة البط وعندهم الاوز للصغار والكبار وأخذوا الهاون وعندهم المهراس والمنحاز وأخذوا الطاجن وعندهم المقلى والميزاب وعندهم المثعب وهو مسير الماء في الوادي والسكرجة وعندهم الثقوة والمسك وعندهم المشموم والجاسوس وعندهم الناطس والاترج وعندهم المسك

وذلك لاسباب قوية منها ان اللفظ الذى عندهم عام واللفظ الجديد خاص فتكون دلالة ماعندهم على المسمى ضعيفة

هذا هديهم قبل الاسلام — أما بعد الاسلام فان العرب حينما جدوا في العلوم وأرادوا أن تكون اللغة العربية لغة علم كما هي لغة قوم ولغة دين ترجموا اليها كتب العلم التي وصلت اليهم من امم الروم والفرس واتبعوا تلك الطريقة نفسها فكانوا يأخذون الاجناس كما هي ويستعملونها في كتبهم وينطقون بها كأنها من لغتهم ووجد من هذا شيء كثير خصوصا في الطب والحكمة والهندسة ولم يلتفتوا الى الرأي الذى يقول بالرجوع الى الوراء واستعمال الالفاظ التي أماتها الزمن لعدم صلاحيتها للاستعمال أو المستعملة في معان أخرى

والفقهاء أنفسهم لم يحجموا عن أخذ الالفاظ من غير اللغة العربية وتعريبها يلزم من اتباع رأي التجوز مضار أهمها ان اللغة وضعت لتدل على مافي النفس حتى يفهم السامع تمام ماتريد واشتراك الالفاظ في المعاني مما يخل بأصل المقصود والتجوز لابد فيه من اقامة القرائن على ارادة ماستعمل اللفظ فيه وهذا وذاك كثيراً ماوقفنا حيارى في فهم المراد من بعض الالفاظ فهل نريد بعد ذلك أن نضيف الى آلامنا آلاما

يقولون ان الحق في التعريب انما كان لامة سلفت وبادت فلم يبق لها من أثر وان ماكان يباح للاعراب في بواديهم على قلة حاجهم لا يباح مثله لنا في القرون المتأخرة على كثرة الحاج وهذا كله بنوه على قاعدة لا أساس لها وهي

تشبيه اللغة بالدين في التمام فكما ان الله سبحانه أتم دينه الذي انزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فكذلك العرب قد اتمت وضع لغتها ولم يبق من بعدهم من يحق له ان يضيف اليها كلمة جديدة كما انه ليس لمسلم ان يضيف على دينه حكما جديدا

لكن الفرق بين الامرين ظاهر فان الدين وضع آلهي شرعه من له حق التشريع والالزام وهو الله سبحانه وأتم وضعه على قواعد راسخة وأساس ثابتة فلم يبق لاحد مجال أن يزيد على هذه القواعد أو ينقص منها أما اللغة فالمقصد منها الابانة والافصاح وهي من وضع الافراد تتجدد بتجدد الحاجات

وليس من قصدي أن ابحث الآن في أمور اللغات أهي توفيقية أم وضعية فان ذلك مما فرغ منه العلماء وانتهى بهم البحث الى الرأي الثاني حتى أن كثيراً من أصحاب الرأي الاول قالوا ان المراد بما وضع أولا هو الكلمات التي تدل على مثل السماء والارض والهواء مما هو موجود منذ وجد الانسان أما ادعاء ان الالفاظ الدالة على المخترعات والمحدثات مما علمه الانسان الاول آدم صلوات الله عليه فهو مكابرة للمحسوس

ومتى ثبت انها تتجدد بتجدد الحاجة فالمحتاج من المتمسكين بها متى علم أصولها ولهجتها له حق التعريب بالضرورة كما كان هذا الحق لسلفه

ولا أدري ما الفرق بين من علم اللغة تلقينا من أبيه وأمه وبين من علمها من معلم غيرهما واعتادها بعد ذلك في كلامه وكتابته حتى صارت له ملكة يمكنه أن يقف ساعة فيخطب بها من غير ان يحيد عن طريقها ويكتب كتابا صحيحا يقرأ في ساعات أو أيام

ان اخواني الذين يخالفونني في الرأي ويقولون بالتوسع في استعمال المفردات لا ينجون من تغيير الاوضاع والدلالات العربية فهم لا شك يتفقون معي في أن حق التغيير للحاجة ثابت لنا ومتى اتفقنا على نيل هذا الحق لم يبق الا التخير بين سهل وأسهل ومفيد وتام الافادة ولا مراء في أن اللفظ الذي وضعه واضعه للدلالة على شيء اخترعه أسهل في الدلالة وأتم في الافادة لانه وضع بأزائه تماما كما وضع

لفظ الابريق بازاء تلك الاداة التي نعرفها بخلاف الكلمة التي نتصيدها من موات اللغة فانها اما أن تكون موضوعة لشيء هو أعم فنخصصها ويلزمنا ايجاد القرينة للدلالة على ما نريد فنحتاج الى لفظ وقرينة واما أن تكون مستعملة في شيء فيه مجرد مشابهة كما بين الاتوموبيل والسيارة فنحتاج لاستعمال لفظ واحد للدلالة على معنيين أو معان كثيرة فالسيارة استعملت للدلالة على معنى هو القافلة أو الركب فاذا قلت جاءت سيارة هل يفهمني المخاطب بمجرد لفظي ؟ أظن لا بل لا بد مع ذلك من كلمة أخرى مبينة للمراد

لا أدري ما المانع من أن يدخل في اللغة الترام ويقال أترم ومترم كما قالوا الجام وألجم وملجم . إن الكلمة التي نريد اصطيادها قد وضعها واضعها بالضرورة لتدل على معنى خاص فاذا نحن أخذناها واستعملناها في شيء جديد لم نكن قد جرينا على لغة العرب لاننا خالفنا أوضاعهم ومقاصدهم فهم وضعوا بشكي وجمزى مثلا للناقة السريعة فاذا جعلنا كلمة منهما بازاء الترام نكون بلا شك وضعنا وضعاً جديداً لم يسبقنا اليه سابق واجتلاب مثل هذه الالفاظ بالنسبة لمحفوظ اللغة كوضع ألفاظ جديدة مؤلفة من أحرف اللغة فسيان في الاعتراض على رأيهم أن نقول للترام بَشَكَى وان نقول له ترام لان كلا استبداد بوضع اسم لمسمى لم يكن له وجود قبل الآن الا أن وجه الضرر في الأول ظاهر كما يتضح وجه المنفعة في الثاني فانا في الاول نجري على خطة لا أساس لها مع وصف الخروج عن أوضاع المتقدمين وفي الثاني نجري على خطة اتبعها سلفنا مع الوضاحة التامة في الاسم والمسمى ولا أدري بعد ذلك ما الذي يدعونا الى تعسف الطرق

لعلهم يرون في ذلك رأيا فيقولون انا باتباع الطريق الاول حافظنا على ما بين دفتي القواميس فلم نحد عنه قيد شبر ولم نخرج عما نطق به العرب في بواديهم وفي ذلك من احترام الآباء واقناع الناس بغنى اللغة العربية وثروتها حتى لا يهزأ بنا هازىء فيقول ان لغة تربو عدة كلماتها على الثمانين ألفا محتاجة الى ما يكملها ويسد ثلمة فيها

أما دعوى أن هذا محافظة على ما هو عندنا فغير صحيحة لانها إنما تكون

بالمحافظة علي الاسم والمسمي الذي وضع اللفظ بازائه واذا لم نفعل ذلك كنا قد خيلنا على الناس تخييلا لا قيمة له وارتكبنا في التعبير من أوضاع القواميس مالا يخفى لانا اذا كتبنا لفظا من هذه الالفاظ التي اخترنا التوسع فيها واستعمالها لشيء جديد أنذكر في قواميسنا معنييها القديم والحديث فنكون ابتدعنا وأوقعنا السامع والمتعلم في حيرة أم نترك ذكر المعنى القديم ونقتصر على الحديث ووصف هذا بالافساد في لغة المتقدمين واضح لا يحتاج الى بيان وخير منه أن نذكر لفظ ترام مثلا بعد الاتفاق على لفظها ونذكر بجانبها معناها وانها مما عرب للدلالة عليه ونبين تاريخ تعريبها فيكون ما وضعه المتقدمون معروفا وحده وما الحقه باللغة المتأخرون معروفا وحده وهذه هي المحافظة الحقيقية على ما ورثناه من سلفنا

واما أن يفتر مفتر بكثرة ألفاظ اللغة حتى لا نحتاج الي مزيد ففيه غلطتان كبريان فان الثروة المزعومة لا نقول بها لانا ان طرحنا منها المترادف ما وجد معنا بعد ذلك أكثر من الثلث لهذا العدد فكثيراً ما تجد المعنى الواحد له اسمان فاكثر الى خمسمائة اسم كما قالوا في السيف والخمر والهر والعسل وما شاكل ذلك وهذه ليست بثروة

والثروة التي أسلم بها انما هي في أسماء المعاني وليست داخلة في موضوع بحثنا

واما عدم الحاجة الى مزيد فهذا لا تدعيه لغة من لغات الامم الحية لان الامم كلما كثرت حاجاتها وتجددت اضطرت الى المزيد من الالفاظ في اللغة وهذا هو سر الحركة الدائمة في لغات الافرنج ترون مجامعهم في شغل دائم لا يأنفون أن يجدوا يوما ما في لغتهم كلمة زائدة دلت على معنى جديد وأكثر أحوالهم الاستعارة من غير لغتهم واذا كنا نرى عقولنا قد وقفت عن الاختراع فانا نرى انفسنا في حاجة الى استعمال المخترعات والتعبير عنها

نرى رجال الجرائد وهم الذين يرجع اليهم معظم الامر في الاحياء والاماتة للالفاظ قد عرض عليهم في بعض الاوقات كثير من الالفاظ فهجروه واستمروا على استعمال ما وضعه الواضعون في جرائدهم فلا يزالون يستعملون تلفون مع انه قد ترجم لهم بكلمة «مسرة» ولم أرها في جريدة من الجرائد يوما واحدا ويستعملون

أتوموبيل ولا يستعملون سيارة لئلا يختلط عليهم الامران السيارات السماوية والسيارات الارضية الى كثير مما يماثل ذلك وهذا اعتراف منهم أو على الاقل شعور بأن طريقة الترجمة والتوسع ضررها اكثر من نفعها وأن طريق التعريب أوضح مسلكا

(النتيجة)

بعد ان بينت لحضراتكم ما قام في نفسي على لزوم السير في طريق التعريب أقدم لحضراتكم مقترحي حتى تتناولوه بالبحث ليتمحص الحق

(١) تكوين مجمع يعهد اليه التعريب ينتظم ممن حبيت فيه ملكة اللغة والعربية ومهر في معرفة مفرداتها ولهجاتها واما لزم وجود المجمع لانه لاضرر علينا وعلى لغتنا أشد من استبداد الفرد بالوضع أو التعريب اذ هو مدعاة للاختلاف وهو أضر شيء

«٢» أن يكون اختصاصه محصورا في دائرة أسماء الاجناس والاعلام فاذا جاءه مسمى حديث أو رأى شيئا حديثا مما هو موجود بيننا ولم يسبق ان وضع له لفظ ورأى أن في اللغة لفظا دالا عليه بنفسه أطلقه عليه وإلا عرب الكلمة الاعجمية وصيرها موافقة لاوزان العرب سهلة على ألسنتهم واتفق على حروفها وشكل كتابتها وأخرجها للناس بواسطة الجرائد التي هي الحاكمة حكم رجال عكاظ في العصر الاول وهي الواسطة في التعليم والاظهار

والواسطة الثانية رجال التعليم الذين اليهم ينظر من عنده أمل في تحسين اللغة واصلاحها وخصوصا معلمي العربية منهم

(٣) ان يكون للمجمع سجل تقيد فيه هذه الكلمات وازاءها مسمياتها موضحة تمام التوضيح وأحسن ذلك ماكان بالرسم وتشكيل المسمى ويكتب امامها التاريخ الذي وضعت فيه واذا كتب قاموس من القواميس تكتب هذه الالفاظ بصفتها ملحقات الكلمات العربية ويكتب معها تاريخ تعريبها لكي يبقى الاصل محفوظا على حدة والمعرب وحده على حدة

هذا ما امكنني أن أورده لحضرتكم أيها السادة في هذا الامر العظيم راجيا أن تنظروا اليه بعين عنايتكم حتى تخلصونا من شر نحن فيه وأنا وأنتم محسون به ولا تحملونا في هذا الدور من أدوار الحياة كالغريق يلتمس ما يخلصه ولا يجده هذا وأسأل الله سبحانه أن يؤيد بروح من عنده مولانا أمير البلاد وسيدها الذي هو عضد كل نهضة نافعة أبقاه الله وأطال عمره والسلام عليكم ورحمة الله

محمد الخضري

المدرس بمدرسة القضاء الشرعي

(المنار) نشرنا هذا الخطاب بنصه الا كلمات قليلة صححناها للجزم بأنها كتبت خطأ بسهو من الناسخ ونحن نوافق صاحبه في جواز التعريب ونخالفه في منع ما عداه وفي جعل عمل المجمع اللغوي محصورا في تعريب الاعلام واسماء الاجناس فاننا فى حاجة عظيمة للبحث في الاصطلاحات العلمية الكثيرة ايضاً فلا بد من جعل موضوعه أعم مما ذكر كما علم ذلك من مقدمتنا التي قدمناها على الخطاب، ولا نبحث هنا فيما عدا الموضوع المقصود من الخطاب (ومنها) إغفال ذكر توفيق باشا عند الكلام على النهضة الثانية للغة فان حظها منه لم يكن أقل من حظ النهضة الاولى من محمد علي باشا والنهضة الثالثة من عباس حلمي باشا. إن عهد كل أمير من الأمراء الثلاثة استلزم عملا فكان العمل بقدر استعداد العاملين ولبيان هذا موضع آخر وقد فصلناه في تاريخ الاستاذ الامام تفصيلا

(ومنها) قوله في كلمات اللغة العربية أنها تربو على الثمانين ألفا وقوله بعد ذلك اننا اذا طرحنا المترادف ما وجدنا معنا بعد ذلك أكثر من الثلث لهذا العدد. وكأن القول الاول سبق الى قلمه من قول بعضهم ان مواد كتاب القاموس ستين الف مادة وان ابن منظور زاد عليه في لسان العرب عشرين الف مادة مع السهو عما في كل مادة من الاسماء الجامدة والمشتقة والافعال. وقد نقل السيوطي في المزهر ونقل عنه الزبيدي في مقدمة شرح القاموس ان المستعمل من الكلام نحو خمسة ملايين ونصف أو يزيد. ولا حاجة هنا للخوض فى ذلك ولا فى بحث المترادف ونسبته الى سائر الكلام، ولا في غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام، وسننقل في الجزء الآتي خطاب الشيخ احمد عمر الاسكندري ونأتي بعده بما يعن لنا ان شاء الله تعالى

أوربا والاسلام

رأي المنار فيما كتبه موسيو ميلي ونشرناه فى الجزء الماضي

كتب ذلك الوزير في الاسلام والمسلمين كتابة خبير بصير وقد صدق في قوله ان جراثيم الحياة كامنة في الاسلام وان الرجوع الى القرآن بعد تفسيره واستخراج ثماره بطرق العلوم العصرية هو الذي يعيد الحياة الى المسلمين « وان أمة أوربية تتجرد عن أوهامها القديمة وتفهم هذه الخطة العالية يمكنها ان تتقدم على غيرها تقدما عجيباً » وقد نصح لأمته اذنبهها الى ذلك بقوله بعدما تقدم وذلك في آخر مقاله « فاليوم الذي تشمر فيه فرنسا عن ساعد الجد وتسعى في تعليم وتربية الأهالي ـ ولا نقصد بذلك ان تلزمهم بنظاماتنا بل ان تسير بهم فى مناهج التقدم الملائمة لطباعهم ـ هو اليوم الجميل حسب قول موسيو جونار الذي نحصل به على أكثر من فتح الممالك اذ به تتحقق لها السلطة على الارواح » ولكن هل تقبل فرنسا هذه النصيحة وتقدرها قدرها؟

قرأنا لكثير من علماء فرنسا وساستها كلاما حسناً في الاسلام وأمانيّ حسنة في شأن المسلمين ولكن ما رأينا لذلك تأثيراً حقيقياً فصار أكثرنا يحمل ذلك الكلام وأمثاله على الخلابة والتمويه ومخادعات السياسة ولكن الكلام المعقول في نفسه اذا سمعه العاقل عن العاقل لا يمكن له ان يسميه تمويها وخداعا. فأنا أعتقد ان جراثيم الحياة كامنة في الاسلام وان رؤساء المسلمين هم المانعون لها من النمو وأعتقد ان دولة أوربية تتمكن من إحياء مملكة إسلامية يعرف لها فضلها جميع المسلمين ويكون لها منهم قوة تجعل لها مكانة عليا في الارض حتى في أوربا نفسها وقد سبق لي كتابة في ذلك. واعتقد ان فرنسا من أقدر الدول الكبرى على ذلك وأحوجهن اليه. فكيف يمكن أن اعتقد مع هذا كله ان قول موسيو ميلي مخادعة أو خلابة؟؟ أنا موقن بصحة كلامه وصدقه وربما كان اعتقادي هذا اقوى من اعتقاده هو ولكنني أشك في ثقة أمته حقيقة ما يقول وقدرتها على الانسلال من الوهم القديم الذي أشار اليه

يعدون الشعوب الاسلامية من الشعوب الميتة او الضعيفة ولكن منهم من يقول ان جراثيم الحياة كامنة فيها ، ويعدون فرنسا من اعظم الامم الحية ولكن منا ومنهم من يعتقد أن مكروبات الضعف والانحطاط كامنة فيها. فنقول على هذا وذاك ان المسلمين محتاجون الى دولة كفرنسا تساعدهم على الحياة الجديدة في شمال افريقية وان فرنسا محتاجة الى حفظ حياتها القديمة وإمدادها بشعوب قابلة للحياة والقوة كالمسلمين . وان هذا المطلب ممكن في نفسه ولكن فرنسا غافلة عنه لأن القوي العزيز قلما يفكر في حقيقة حال من يراه دونه فهذه عقبة دون المطلب ومن ورائها عقبة اخرى وهي ان الضعيف قلما يؤمن باخلاص القوي له فالمسلمون الى اليوم لا يظنون أن فرنسا تريد بهم خيرا وهم معذورون بهذا وإنني أصرح به نصحا لفرنسا ورغبة في حسن التفاهم بيننا وبينها لعل في ذلك فائدة لنا ولها . فما قلته هو الحقيقة وان وجد في المسلمين من أحسن القول في فرنسا كما وجد في الفرنسيين من أحسن القول في المسلمين فتلك الاقوال لم تغير الحقيقة ولا يغيرها مثلها وانما تغيرها الاعمال والمسلمون الذين تسوسهم فرنسا لا يستطيعون ان يستميلوها بعمل اكثر مما هم عليه من الطاعة لها ولكنها هي تستطيع أن تستميلهم وان تملك قلوبهم وأرواحهم كما هي مالكة لابدانهم وأوطانهم فهي التي يجب عليها الابتداء بالعمل

ربما يظن بعض المغرورين بقوتهم ان حال الجزائر خفية لا يعرف حقيقتها مسلمو مصر والشام والحجاز وسائر المشرق . الحق أقول لهؤلاء ان تلك الحال ليست مخفية فاننا نعرفها ونشعر بشعور أهلها ولكن ما كل ما يعلم يكتب وانما كتبنا الآن هذه الكلمات لما رأينا من بارقة الامل في حسن التفاهم والسعي اليه بالعمل

لا نطلب من فرنسا للمسلمين اكثر مما أشار اليه مسيو ميلي وهو السعي في تعليمهم وتربيتهم بالقيد الذي ذكره والشرط الذي اشترطه وهو ان يكون القصد تقدمهم بما يلائم طباعهم لا إلزامهم بنظامات فرنسا وعاداتها فضلا عن شرائعها ودينها فالمطلوب مساعدتهم على احياء لغتهم ودينهم وإنماء ثروتهم مع تعليمهم العلوم والفنون العصرية بالتدريج الملائم لحالهم

يسهل هذا على فرنسا اذا قنعت من الاستعمار والامتلاك بما دون تحويل

المسلمين عن لغتهم ودينهم ورقبة بلادهم ولها بعد ذلك من موارد الثروة ومصادر القوة ماشاءت مع الرضى والحب

يعلم كل الملمين بأحوال السياسة من المسلمين أن فرنسا طامعة في الاستيلاء على المغرب الاقصى وتأليف أمبراطورية افريقية اسلامية وأهل الرأي منهم يعلمون ان شجاعة أهل المغرب واستبسالهم لا يدفعان عنهم ما تريده فرنسا بهم مع جهلهم وتفرقهم وكون بأسهم بينهم شديداً ولكن سياستها اياهم بمثل ما ساست به الجزائر في الماضي قديراها المغرورون أمراً يسيرا وهي في الحقيقة من أعسر الأمور وأشدها تعقيداً وخطراً على فرنسا في المستقبل ويظن المغرّرون ان تغيير السياسة في الجزائر تغييرا صوريا كاف في إرضاء المسلمين في تلك البلاد وإقناعهم في سائر البلاد بأن فرنسا تريد ترقيتهم مع المحافظة على دينهم ولغتهم . والحق انه لا يفيد في الامر الا الإخلاص في العمل وهو لا يخفى على أحد

أقول هذا لفرنسا وانا ناصح أمين ، وإنما أنصح لها لاعتقادي أن في مصلحتها هذه خيراً للمسلمين بل أعتقد ان فرنسا لو جعلت لاهل الجزائر واليا منهم لكانت فائدتها من ذلك أكبر من فائدتهم فهل تلومني أمة الحرية اذا صرحت لها باعتقادي هذا وتعاقبني عليه بمنع هذا الجزء من المنار أن يصل الى الجزائر؟ كلا بل أظن انها تقدر كلامي قدره فان لم تقدره اليوم فلا بد ان تقدره في يوم آخر

بل نحن نعلم أن فرنسا مارضيت بأن يكون سلطانها على تونس سلطان حماية لا سلطان امتلاك رسمي الا لما استفادته من العبرة بحال الجزائر التي نعرفها نحن وهي أعرف بها منا . ولكن ما عملته في تونس منتقد من وجوه كثيرة والمنة بما فيه من اصلاح اكبر منه . وقد شكرنا لها في هذه الايام ماكان من التنفيس عن حملة الاقلام ، وإنشاء مجلس الشورى وان كان دون المرام ، فعسى أن يكون هذا بدء سياسة مثلى يشكرها لها الاسلام ،



آثار علمية دينية

﴿ اللباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب ﴾

سئل الشيخ محمد مصطفى أحد علماء الجزائر عن حكم الزينة واللباس في الاسلام وعن حكم احتجاب المرأة فأجاب عن ذلك بنحو خمسين ورقة وطبع ما كتبه وأهدى الينا منه نسخة فتصفحنا منها أوراقا من مواضع مختلفة فلم نجد الا قولا قويما واختيارا في النقل حسنا والمؤلف ادام الله النفع به متتبع لحركة العلم واقف على سير الاصلاح الديني والاجتماعي وهو ينقل في مقالته هذه وفي غيرها من تصانيفه عن كتب الاستاذ الامام وعن المنار نقولا تدل على دقة الاستقصاء وحسن الاستحضار ومراعاة حال العصر وتطبيق الاحكام على مقتضى الحال ومن نقوله واختياره في مسألة الحجاب ما يأتي

« وقال (يعني الآلوسي) في تفسير سورة النور المشهور من مذهب أبي حنيفة ان الوجه والكفين والقدمين ليست بعورة مطلقا فلا يحرم النظر اليها . وقد اخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وهذا » وأشار الى وجهه وكفيه صلى الله عليه وسلم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى « الا ما ظهر منها » : رقعة الوجه وباطن الكف : وأخرجا عن ابن عمر انه قال الوجه والكفان : ولعل القدمين عندهما كالكفين الا انهما لم يذكراهما اكتفاء بالعلم بالمقايسة فان الحرج في سترهما أشد من الحرج في ستر الكفين لاسيما بالنسبة الى اكثر نساء العرب الفقيرات اللاتي يمشين لقضاء مصالحهن في الطرقات » اه

« وقال المحقق ابن عابدين في رد المحتار على الدر المختار ما نصه : وفي شرح الكرخي « النظر الى وجه الاجنبية والحرة ليس بحرام ولكنه يكره لغير حاجة » اه

ونقل عن السادة الحنابلة ان ستر وجه المرأة ويديها ليس واجبا . ويروى عن القاضي عياض الاجماع على أن المرأة لا يلزمها في طريقها ستر وجهها وانما هو سنة وعلى الرجال غض البصر عنها لقوله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم »

« وقال في شرح مختصر سيدي خليل عند قوله « ومع أجنبي غير الوجه والكفين » ما يأتي: يجوز للاجنبي المسلم ان ينظر الى وجه المرأة وكفيها من غير عذر ولو شابة الا لخوف فتنة أو قصد لذة وهل يجب عليها حينئذ ستر وجهها أو لا يجب عليها ذلك ؟ خلاف بين ابن مرزوق وعياض وفصل الشيخ زروق في شرح الوغليسية بين الجميلة فيجب عليها وغيرها فيستحب اه

« وقال المحقق سيدي محمد الخرشي في سراجه على المختصر المذكور ما نصه : قال مالك « تأكل المرأة مع غير ذي محرم ومع غلامها وقد تأكل مع زوجها وغيره ممن يؤاكله » (قال) ابن القطان : فيه (اي في قول مالك) إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للاجنبي اذ لا يتصور الأكل الا هكذا اه

« وقال الفاضل عبد الحميد أفندي الجابري في مبداه ما نصه : ليس في الأمر الشرعي أو فيما اعتاده المسلمون ما يمنع النساء عن مخالطة بعض الرجال الاجانب عنهن بقدر الحاجة لغرض صحيح ومنفعة حقيقية كالتماس حرفة أو تجارة تلائم حالهن أو تستدعيها ضرورتهن أو تعلم علم بدون ان يتبرجن لهم بزينتهن او يقعدن معهم مقعد اللهو والطرب — الى ان قال — قد تكون المرأة لا معيل لها من الرجال فتضطر لأن تقوم بأود نفسها ويكون من مقتضيات كسبها مخالطة الرجال او حضور بعض مجامعهم فمن كانت كذلك فهي لا تمنع عن تلك المخالطة ولا تعاب في عادة المسلمين عليها بقدر الحاجة للاكتساب لا سيما اذا لم تكن شابة حسناء فانها يعطى لها في ذلك تمام الحرية اه

« نعم الخلوة بالأجنبية حرام أو مكروه . قال صاحب الدر المختار : وفي

الاشباه الخلوة بالأجنبية حرام الا للملازمة مديونة هربت ودخلت خربة او كانت عجوزا شوهاء او بحائل اه

«ونقل محشيه ابن عابدين عن القنية ان الخلوة بالاجنبية مكروهة كراهة تحريم . وعن ابي يوسف ليست بتحريم - الى أن قال - ان الخلوة المحرمة تنتفي بالحائل وبوجود محرم او امرأة ثقة قادرة وهل تنتفي أيضاً بوجود رجل آخر أجنبي ؟ لم أره اه قلت ذكر بعض المالكية انها تنتفي بذلك »

ثم قال المؤلف بعد هذه النقول :

« وكل من اطلع على الكتب التاريخية يعلم ان التبرقع ليس من مخترعات الاسلام (يعني أهله) فقد كانت نساء اليونان يستعملن التبرقع اذا خرجن من بيوتهن كما هو الآن عند المسلمات وعند غيرهن من النساء الشرقيات في الشام ومصر . ولا يخفى ان نساء قبائل البربر وغالب عرب البادية لا يسترن وجوههن عن الاجانب ومع ذلك فهن لسن بخارجات بهذه العادة عن دائرة الدين الاسلامي

وقال بعض الحكماء قد يجر التشديد في الحجاب الزائد على أصل الشرع الى فساد صحة المرأة إذ بإلزامها القعود فى مسكنها دائما تحرم من منافع الهواء والشمس وسائر انواع الرياضة الجسمية والعقلية ولذلك كان معظم نساء المدن عليلا ضعيفاً ومتى ولدت إحداهن مرة تضعضعت بنيتها وبدت كأنها عجوز وهي في ريعان الشباب ولا يمكن ان تنتج أبناء أقوياء تقوم بتربيتهم كما ينبغي اذا كانت مضطرة الى البطالة ممنوعة من جميع الحركات المفيدة في نموها بدنا وروحا بخلاف نساء البوادي فإنهن لما كن يتعاطين الاعمال الشاقة من الاحتطاب والسقي وتنقية المزارع والحصاد وجمع الزيتون وما أشبه ذلك صرن في الغالب أصح أجساداً وأصفى لونا من المدنيات

« ولم يشدد في الاحتجاب الا السادة الشافعية وافتى غيرهم من المتأخرين بقولهم وعللوا ذلك بفساد الزمان ولذلك قال عدة من متأخري الفقهاء الحنفية : حل النظر الى وجه المرأة مقيد بعدم الشهوة والا فحرام وهذا في زمانهم واما في زماننا فمنع النظر الى وجه الشابة ولو من غير شهوة لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة»

(المنار) ان جمهور الشافعية القدماء على ان النظر الى الوجه والكفين غير محرم لانه ليس بعورة اتفاقا قال الرملي في نهايته في هذا القول الذي ضعفه النووي « ونسبه الامام للجمهور والشيخان للاكثرين وقال في المهمات انه الصواب » واستدل لتصحيح النووي التحريم باتفاق المسلمين على منع النساء ان يخرجن سافرات وبمظنة الفتنة . وما ادعوه من الاتفاق غير صحيح وإنما هو من فعل الامراء في المدن خاصة ولا حجة فيه فيبقى مظنة الفتنة وقد أفتى بعض الشافعية بحرمة النظر الى وجه الأمرد لهذه العلة وهو ما صححه النووي في المنهاج وكل ذلك اجتهاد من المتأخرين وقد خالف كثير من الفقهاء المتأخرين أقوال من قبلهم بعلة فساد الزمان ولعلهم لا يعرفون حقيقة الفرق بين زمانهم وزمان أولئك السابقين فقد عهدنا أهل كل زمان يذمون زمانهم . والمؤلف لم يحفل بهذا الاجتهاد فقد قال بعد ما تقدم

« والحاصل انه يحرم على الرجل نظره الى حرة أجنبية مشتهاة ما عدا الوجه والكفين » ثم بين وجه هذا الاستثناء تبيينا وقد سلك نحو هذا المسلك في النقل والاختيار في سائر المسائل التي تقدمت الاشارة اليها فنحمد الله على وجود مثله في تلك البلاد

(بلوغ الارب . في مآثر الشيخ الذهب)

كتاب في جزئين للشيخ أحمد جمال الدين التونسي أحد مدرسي الطبقة العليا في جامع الزيتونة بتونس . والشيخ الذهب شيخه في الطريق . والكتاب محشو بالخرافات والدجل فيسوءنا ويحزننا والله ان يكون منسوبا الى احد مدرسي الطبقة العليا في تلك المدرسة الدينية التي تلي الازهر في الشهرة وان نرى عليه تقاريظ اشهر علماء تلك البلاد ومنهم من نجله عن تقرير الخرافات والثناء على كتاب هي فيه وعلى مؤلفه ويغلب على ظننا ان من علماء الاسلام في تونس من يقرظ الكتاب من غير ان يطلع عليه اطلاعا يكفي بالحكم عليه اكتفاء ببيان مؤلفه لموضوعه وعملا بحسن الظن فيه كما هو شأن أكثرهم في مصر وسوريا كما نعلم بالاختبار وقد رأيت تقريظا للشيخ محمد

الانبابي شيخ الأزهر الشهير في زمنه على كتاب لبعض الرفاعية كله طعن قبيح في الشيخ عبد القادر الجيلي وفي طريقته وأهلها وفيه من الجهل بالدين والتصوف العجب العجاب وهذا الكتاب هو الذي حملني على تأليف كتاب (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية) وانا يومئذ في حجر الاشتغال والتحصيل . فهذا ما نعتذر به عن تقاريظ من نجل من أولئك العلماء

وليست الخرافات هي كل ما ينقد فى هذا الكتاب بل تجد عبارته عامية الاسلوب كثيرة اللحن والغلط وفيه من تحريف آي القرآن العزيز عن مواضعها مالا يصدر من عالم . وانني انقل نموذجا منه ليعتبر بعبارته ومعانيه وعقل مؤلفه المعتبرون.

جاء في ص ٣٩ وما بعدها من الجزء الاول ما نصه :

﴿ لطيفة ﴾ كان ورد على الحاضرة (اي تونس) عالم جليل بصير يقول ان أصله مغربي شريف أثناء مدة الامير الصادق باي وأنزلوه بعلوة النيفر السكاين؟ بدربية غربال وهو في ابهة وخدمة له بره وهو في فصاحة الكلام و بلاغته آية من آيات الله يحفظ الف بيت كل كلماتها شوارد اللوغة؟ متفنن حضرته؟ يتكلم في علم الكلام والتصوف بكلام عجيب

« ووافق اني كنت عنده يوما فجاء المرحوم الشيخ محمد السنوسي الاديب فقال له الشيخ اين الوعد فقال له في محلي فقال ماقيدت نفسي بمحلك ثم التفت الي الشيخ وقال احكم بيننا فقلت له ماعرفت الموضع فقال قرر له الموضع فقال الشيخ السنوسي اني كنت عند السيد فسمع زكرة؟ وطبلا فقال لي هذا سماع بلادكم قلت هذا سماع البوادي وسماع بلادنا ستسمعه في محلي فقلت للشيخ أورضيتم بأن أحكم بينكما قال نعم قلت ياشيخ السنوسي ؟ يلزمك أن توفي الوعد ؟ فى محل السيد لا في محلك فضحك متعجبا من هذه المعاملة المنافية للحكم في ظنه فقلت له ياهذا ان هؤلاء اذا سمعوا السماع ؟ ربما صاحوا وربما مزقوا ثيابهم وربما طاروا في الهواء ولا يصلح بهم ؟ ان يحضروا معهم من لا يكون على حالهم لاسيما النساء ودارك مملوءة بالاجانب عنهم فضرب السيد الكف على الكف وقال صوفي ورب الكعبة فقلت له آمين يارب العالمين ؟

« ثم حكى لنا اعجوبة في السماع حضرها عند ملك المسلمين في ذلك التاريخ السكاين؟ في الصين وأصلهم من الاربعة آلاف الذين أرسلهم أبو جعفر المنصور العباسي بطلب من سلطان الصين فنصروه على القائمين عليه ثم خيرهم بين الاقامة على الاكرام التام أو الرجوع ؟ فاختاروا الاول قال نزلت عنده ضيفا فاكرم نزلي ثم جاءني يوما وقال لي يا ابن بنت رسول الله هل لك شيء ترغبه ولم اوفيك به ؟ قال فقلت له لقد نزلت عند ملوك المسلمين والنصارى وما أكرمني أحد مثلك ولكن بقي عليك شيء واحد وهو السماع فقام علي قدميه وقال الامان يارسول الله وغدا نستعمله ؟ ثم أرسل لي ؟ ولما جئت وجدت مجلسا محتفلا بالعلماء والوزراء وهو بينهم فاجلسني بازائه وامامهم نصف دائرة من الكراسي ثم اذن على الجواري فخرجن من تحت الستور واحدة بيدها عود و بيد الاخرة ؟ مزمار و بيد الاخرى طار الخ وجلسن علي تلك الكراسي قال ثم التفت الي وقال اي السماع نقدم العربي أو الصيني فقلت الاول مراعاة ؟ للغته عليه السلام فترنمن وتنغمن بالحان ؟ تسري مسرى بنات الحان ؟ وأصوات توقف الطير وتحرك الجان أو مامعناه ولما راقِ ؟ السماع وسرِي في الارواح سريان الراح أو معناه انشدت جارية منهن بيتين بديعتين ؟ واجادت في انشادهما قال فما راعنا والا واحد من العلماء صاح وصعق ورمى بنفسه على الجارية فقبلها وسقط مغشيا عليه فاشتد غضب الملك عليه وامر بالجواري ان يدخلن تحت الستور وقال اني أريد ان اقتله قال فقلت له لا يحل دمه بصغيرة ثم هو الآن في حال اندهاش ولا اختيار له ثم دخل الملك محلا آخر ولبس لباسا رسميا وخرج فوقف الوزراء الموقف الرسمي واعاد الكلام عازما على قتل الرجل وانا الاطفه بعدم الجواز فاذا بالرجل انتبه من الدهشة وقال ماهذه الغوغاء؟ قال له اني أريد ان أقتلك لانك تجاسرت علي في مجلسي وقبلت جاريتي فقال مافعلت ذلك شهوة في جاريتك وانما براعة الكلام ورقة معانيه ذكرتني كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم قال اللهم اقبض روح ثمينة وهي هذه الجارية فسمع البكاء من وراء الستار واخبروا أن الجارية قد ماتت فانخذل الملك عند ذلك وتروع ثم قال له ذلك العالم اتريد قتلي وانت لك ماينيف على كذا وكذا سنة

في بركة دعائي وأقسم له انه مابقي يراه وسترى ما يحل بك بعدي ثم فقد العالم من المجلس فسقط في يد الملك وعلم انه هلك ومزق ملكه قبل فترة ته في حالة يرثى لها وغير بعيد حل به ما حل وهكذا سمعت منه وهو حاصل المعنى اه

(المنار) نقلنا هذه الخرافة بنصها واشرنا الى بعض مواضع الانتقاد اللفظي فيها بعلامة الاستفهام (؟) وكثير من الدجالين ينسبون الى البلاد المجهولة عند من يحدثونهم كما فعل ذلك الشيخ المغربي بحكايته المؤلف ولا يخطر في بال أحد منهما ان حال بلاد الصين معروفة لغيرهما وليس فيه ملوك مسلمون ولا جوار عربيات اما المفاسد والضلالات الدينية في هذه الخرافة فلا حاجة الى شرحها فما زال هؤلاء المضلون يمثلون اولياء الله للعامة بأنهم يتهجمون على المحرمات ويتصرفون فيمن ينكر عليهم بالايذاء!! فالمؤلف الذي ينشر هذا الدجل والتضليل جدير بأن يطعن في شيخ الاسلام ابن تيمية وأمثاله من الائمة حماة الكتاب والسنة

اليواقيت الثمينة . في اعيان مذهب عالم المدينة

كتاب في تراجم المتأخرين من علماء المالكية للشيخ محمد البشير ظافر الازهري صدر الجزء الاول منه مطبوعاً على ورق حسن وقد جعله ذيلا لكتاب (نيل الابتهاج . بالذيل على الديباج) للشيخ احمد بابا التنبكتي نزيل مراكش المتوفى سنة ١٠٣٦ المطبوع بفاس .

قال الشيخ محمد البشير « اذكر فيه من أغفلهم من اهل القرن التاسع والعاشر ذاكراً من أتى بعده الى زمننا هذا » وليته جعله رأساً او جسداً كاملا ولم يجعله ذيلا فان أهل هذه البلاد قلما يطلعون على كتاب طبع في فاس ومن يطلع عليه لا يقرأه لأنه يكون غالباً بخط مغربي قبيح لانهم يطبعون في مطابع الحجر . وقد تعب البشير في جمع تراجم من ذكرهم وراجع في ذلك كثيراً من الكتب فنحمد له هذه الهمة ونحث القراء على اقتناء كتابه تنشيطاً له على إكماله وتأليف غيره . وثمن النسخة منه عشرة قروش واجرة البريد قرشان وهو يطلب من مكتبة المنار وغيرها من المكاتب المشهورة

شيء من سيرة حسن باشا عبد الرزاق

(علمه وادبه) نبت حسن باشا في بيت كريم وجاور في الازهر تسع سنين تلقى فيها من فنون العربية وعلوم الشريعة ما رأى نفسه غير محتاج الى تلقي غيره فيه . وهكذا شأن النابغين تكون مدة تعلمهم قصيرة في الغالب وكم من طالب أقام في الازهر عشرات السنين ولم يستفد منه ما يطمعه في شهادة العالمية . وكان من شيوخه الشيخ نصر الهوريني اللغوي الاديب الشهير ولعله هو الذي رغبه في الادبيات فكان يحفظ كثيراً من مختار الشعر ويورد في حديثه الشواهد والامثال منها فيضعها في مواضعها وكان لنا معه محاضرات أدبية يسمعنا فيها أكثر مما يسمع منا . وقد نظم الشعر كثيراً ولكنه لم يبذله فلم يشتهر به .

أما علمه بأصول الدين واحكام الحلال والحرام فقد ظهر أثره في جميع ادوار حياته فلم تعبث بعقيدته الشبهات على اتصاله بأهلها ولم تزلزل استقامته معاشرة المترفين المسرفين من الحكام مع الشباب والجدة اللذين هما اشد مثارات الافتتان . واما علمه بالفقه فقد ظهر أثره في مجلس الشورى اذ هو الذي أعانه على فهم القوانين ودقة النظر في انتقادها على كونه لم يتلق علم الحقوق بالدراسة

(مزيته في أمته ، بسياسة أسرته) لهذا الرجل مزية في بلاده لا يفضله فيها أحد قط فيما أعلم ، مزية لو تبعه فيها أصحاب البيوتات لنالت البلاد بهم ما يتمنى لها محبوها من الارتقاء في أقرب وقت ، مزية يمكن شرحها في مصنف خاص ولا يسعنا هنا الا الاكتفاء بالاشارة اليها بعبارة وجيزة

من المتفق عليه بين العقلاء ان لحياة الامة وارتقائها مبدأ وغاية فالمبدأ هو التربية الحسنة في البيوت والتعليم النافع للافراد وغايتها اتحاد من أوتوا المبدأ على العمل لرقيها المادي والمعنوي . فنحن نرى العقلاء يشكون من اهمال التربية الحسنة في البلاد ومن فقد الاتحاد بين المتعلمين حتى كأن المتعلمين في الازهر امة والمتعلمين في دار العلوم أمة والمتعلمين في سائر المدارس أمة — وكل أمة من هذه الامم بعيدة عن الاخرى في

اخلاقها وافكارها ولا أزيد على ذلك هنا . فكيف ربى هذا الرجل الحكيم أولاده ؟

علم ابناءه حسنا وحسينا ومحمودا علم الحقوق وجعل الاول محاميا أهليا ومدرسا بمدرسة البوليس وألزم الثاني بعد أن قبل محاميا في المحاكم المختلطة بأن يكون عمدة في بلده (أبو جرج) ولولا حسن التربية الادبية الدينية لما ترك الاقامة في العاصمة مع أقرانه في العلم ورضي بأن يكون عمدة جل عمله مع الفلاحين طاعة لأبيه . وجعل محمودا في الادارة فكان معاونا في قسم الازبكية ثم ترقى فصار مأمور الضبط في الفيوم

وجعل ابنيه مصطفى وعليا مجاورين في الازهر ولعله لا يوجد فيه من أولاد الباشوات الاغنياء غيرهما لان كبراءنا يعدون المجاورة في الازهر ضعة وضياعا . وهما الآن في ذروة المجاورين تحصيلا ويمتازان بالادب العالي وحسن الانشاء والشيخ مصطفى من المنظوم والمنثور مايجعله في بدايته مزاحما للمجيدين في نهايتهم ،

وجعل ابنه ابراهيم في مدرسة الزراعة وابنه اسماعيل في مدرسة الناصرية وهو صغيرهم الذي لا يزال في حجر التعليم الابتدائي فلا أدري أين كان يريد أن يوجهه بعد ذلك ولعله كان يرشحه لخدمة المعارف

وقد علم من هذا أنه كان يريد ان يجعل كل واحد من أولاده السبعة في أفق من آفاق أعمال البلاد ليكونوا قدوة يهتدى بهم في صدق الخدمة مع المحافظة على مقومات الامة الدينية والاجتماعية ودعاة الوحدة وحسن التفاهم بين جميع طبقاتها المختلفة في التربية والتعليم فيكونوا بذلك كالكواكب السبعة السيارة كل يدور في فلكه مع حفظ النسبة بينه و بين غيره بالجاذبية العامة

أما الجاذبية العامة بين هؤلاء فهي التربية التي كان يمدهم بها كبيرهم الذي كان منهم بمنزلة الشمس من كواكب السماء بجمعه بين الزي المصري من الجبة والقباء والعمامة ورتبة الباشوية، و بين إقامة شعائر الاسلام والآراء العصرية ، والمستحسن من مظاهر المدنية، والقيام بالخدمة القانونية والسياسية، فما كان أروع تلك المائدة التي يستدير معه حولها حملة العمامة والطربوش، الذين صار بين امثالهم من البعد في مصر ما هو معروف بل كان ولا يزال - ولن يزال ان شاء الله - في ذلك البيت اجتماع اروع وأبدع وهو الاجتماع الاسبوعي في كل ليلة جمعة لالقاء الخطب الاجتماعية والادبية ،

والمذاكرات العلمية والدينية ، وهذا الاجتماع عام لكل من يحضره من أسرة عبد الرزاق والمرحوم كان مربيا لاخوته وولدهم أيضاً . فاي تربية ترجو البلاد أفضل من هذه التربية؟ وما قولكم في أمة تتألف من مثل هذا البيت أو يكثر أمثاله فيها ؟

﴿ خدمته للامة ﴾ أما خدمة الرجل لامته في مجلس الشياخات بمديريته (المينا) وفي شورى القوانين نائبا عنها مدة ثماني عشر سنة ثم في شركة الجريدة وحزب الامة فهو معروف مشهور . فقد كان عضوا عاملا ومثالا صالحا في فهمه ودقته، واستقلاله وحريته ، كما كان قدوة في صلاحه واستقامته ، تغمده الله بمغفرته ورحمته ، آمين

(مصائب الامة الاسلامية بفقد رجالها)

وفاة ذكاء الملك

ما نفضت الامة الاسلامية يديها من غبار دفن النواب محسن الملك المصلح العظيم في الهند ولا رقأت دموعها عليه لا وفاجأها نعي ذكاء الملك العالم الاجتماعي والكاتب البليغ وداعية الاصلاح المؤثر صاحب جريدة (تربيت) الفارسية التي كانت تصدر في طهران عاصمة الفرس . وافاه الأجل المحتوم في رمضان وتأخر نعيه عنا وسنترجمه في الجزء الآتي أو ما بعده . وقد علم القراء ان حسن باشا عاصم توفي على أثره في أول شوال وتلاه حسن باشا عبد الرزاق وكلاهما من رجال الاصلاح وأركان النهضة في مصر

ابراهيم بك اللقاني

ما زلنا بعد ذلك نتمثل بقول الشاعر «تكسرت النصال على النصال» أياما واذا بالمنية قد أقصدت بسهم آخر نابغة النابغين وأفصح الخطباء وابلغ المنشئين العالم القانوني صديقنا ابراهيم بك اللقاني المحامي الشهير وهو أرقى تلاميذ السيد جمال الدين بعد الاستاذ الامام وكان له في تلك النهضة الجمالية المقالات الرائعة، والخطب النافعة، ولكن الامراض حالت بين الامة و بين مساعدتها بالاصلاح في هذه السنين حتى وافاه الاجل المحتوم فكان أكبر عزاء أهل العلم والادب عنه أنه كان من تبريح مرض

السل به لا راحة له في الحياة ولا نفع للأمة منه ولا أنس للاصدقاء به · وسنذكر شيئا من ترجمته في جزء آخر

الشيخ علي حسين

ثم لم نلبث بعد دفن هذا الصديق الكريم الا أياما حتى بغتنا بوفاة صديقنا الشيخ علي حسين أحد مساعدي التفتيش في نظارة المعارف بعد إلمام مرض السل (الذي اغتال اللقاني قبله) به زمنا قصيراً فيما نعلم وهو في شرخ الشباب ومقتبل العمر. تخرج في مدرسة دار العلوم واشتغل بالتعليم في المدارس زمنا ثم بتفتيش الكتاتيب في الأرياف ثم في العاصمة · وكان من حزب الإصلاح الديني الاجتماعي ثابتا في رأيه بصيراً في أمره هادئا ساكنا في عامة أحواله كثير البحث في الأمور العامة والتتبع للحوادث السياسية فلو سألته عن حوادث حرب الدولة العلية واليونان أو حرب روسيا واليابان مثلا لسردها عليك سردا منتظما وذكر لك آراء وميول الجرائد والدول فيها كأنما يقرأ من تاريخ مدون · وكان صادق الحديث صادق الود دقيق النقد الا انه قليل البشاشة قليل الحركة والرياضة وكنت انتقد منه هذا وأكثر عذله عليه · ولا ريب أنه هو الذي أعده للمرض الذي اغتاله واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه

عني أخوه الكبير (لأمه) الشيخ محمد المهدي المدرس بمدرسة القضاء الشرعي بتمريضه ولا عناية الوالد الرحيم بالولد البار النجيب وبذل من وقته وماله في خدمته مالم يفده الا الاجر وحسن الذكر دون ما كان يحرص عليه من صحته وعافيته فتوفاه الله تعالى في بيته فجهزه الجهاز الشرعي وبعد تشييعه ودفنه أوعز الى بعض الجرائد فنشرت عنه أنه لا يقيم الاحتفال المعتاد المعروف بالمأتم لأنه ليس من السنة وانما هو من العادات التي أوهمت بعض الجرائد العامة ان القيام بها ثلاث ليال من السنة فرأى الشيخ المهدي موت أخيه فرصة يعلم الناس بها قولا وعملا ان ذلك ليس من السنة في شيء · والعمل أبلغ من القول ومنه الكف وترك القادر. وقد توهم بعض الناس بذلك انه لا يقبل تعزية الناس ويعدها بدعة وهو توهم باطل فقد عزيناه في داره ، فلا زال مؤيدا للسنة في أقواله وأفعاله

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ذي الحجة سنة ١٣٢٥ — آخره السبت اول فبراير (شباط) سنة ١٩٠٨

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١١٦ : ١١٢) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٧ : ١١٣) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

قال الرازي في وجه الاتصال بين هذه الآيات وما قبلها : اعلم ان الله تعالى ذكر في هذه الآيات مرة أحوال الكافرين في كيفية العقاب ، وأخرى أحوال المؤمنين في الثواب ، جامعا بين الزجر والترغيب ، والوعد والوعيد ، فلما وصف من آمن من الكافرين بما تقدم من الصفات الحسنة أتبعه تعالى بوعيد الكفار فقال

﴿ ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ﴾ وأقول قد اختلف المفسرون في المراد بالذين كفروا فقيل هم بنو قريظة والنضير من اليهود وروي هذا القول عن ابن عباس (رضي الله عنهما) وهو الملائم للسياق من حيث كانت الآيات قبله في مؤمني أهل الكتاب ومن حيث حرص اليهود على المال والحياة وأعزها وآثرها حياة الاولاد . وقيل هم مشركو قريش عامة وقيل بل هم أبو سفيان ورهطه خاصة ووجهوه بما نقل من انفاقه المال الكثير على المشركين يوم بدر ويوم أحد . وقيل ان الكلام في الكفار عامة لعموم اللفظ فهو على اطلاقه و يدخل فيه اليهود الذين كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ وكذا مشركو مكة دخولا أوليا . قالوا أنهم كلهم كانوا يتعززون بكثرة الاموال و يعيرون النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه بالفقر ويقولون : لو كان محمد على الحق ما تركه ربه في هذا الفقر والشدة : وقيل هم المنافقون اذ كان اكثرهم من الاغنياء . ومن كان كثير الاموال والأولاد قلما يشعر بحاجته الى ماعند غيره من هداية أوعلم أوأدب (٩٦ : ٦ ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) وقد سبق لنا بيان ذلك في تفسير قوله تعالى من هذه السورة (٩ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) (*)

وقد فسر الجلال كغيره « تغني » بتدفع اي لا تدفع شيئا من العذاب عنهم وانما هو من الغناء بمعنى الكفاية ولذلك رد هذا القول الاستاذ الامام واختار ان « شيئا» هو مفعول مطلق قال اي لا تغني عنهم نوعا من انواع الغناء أو لا تغني غناء مّا . (قال) وذكر الاموال والاولاد لان المغرور انما يصده عن اتباع الحق أو النظر في دليله الاستغناء بما هو فيه من النعم وأعظمها الاموال والاولاد فالذي يرى نفسه مستغنيا بمثل ذلك قلما يوجه نظره الى طلب الحق أو يصغى الى الداعي اليه : اي ومن لا يوجه نظره الى الحق لا يبصره ومن لم يبصره تخبط في دياجير الضلال عمره حتى يتردى فيهلك الهلاك الابدي ولا ينفعه في الآخرة ماله فيفتدى به او ينتفع بما كان أنفقه منه ولذلك قال ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

(*) راجع ص ٢٣١ من جزء التفسير الثالث او مجلد المنار التاسع

لان طبيعة أرواحهم اقتضت ان يكونوا في تلك الهاوية المظلمة المستعرة . ثم مثل حالهم في انفاق أموالهم التي فتنتهم فشغلتهم عن الحق أو أغرتهم بمقاومته فقال

﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر اصابت حرث قوم ظلموا انفسهم فأهلكته ﴾ قال الراغب مثل الشيء (بالتحريك) مثله وشبهه و يطلق على صفة الشيء . والمثل في الكلام عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر ليبين احدهما الآخر ويصوره: أي ولو من بعض الوجوه لان بيان الحقائق يكون على حسب المقاصد . والصر بالكسر والصرة شدة البرد وقيل هو البرد عامة حكيت الاخيرة عن ثعلب . وقال الليث الصر البرد الذي يضرب النبات ويحسه(١) اه من لسان العرب وفي الكشاف الصر الريح الباردة نحو الصرصر قال

لا تعدلن أتاويين تضربهم — نكباء صر بأصحاب المحلات

كما قالت ليلى الاخيلية

ولم تغلب الخصم الألد وتملأ الـ — جفان سديفا يوم نكباء صرصر

ثم قال الزمخشري: فان قلت فما معنى قوله « كمثل ريح فيها صر » قلت فيه أوجه (احدها) ان الصر في صفة الريح بمعنى الباردة فوصف بها القرة(٢) بمعنى « فيها قرّة صر » كما تقول « برد بارد » على المبالغة . (والثاني) ان يكون الصر مصدرا في الاصل بمعنى البرد فجيء به على أصله (والثالث) ان يكون من قوله تعالى « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ومن قولك : ان ضيعني فلان ففي الله كاف وكافل : قال * وفي الرحمن للضعفاء كافي * اه ونقل اللسان عن ابن الانباري في الآية ثلاثة أقوال « أحدها فيها صراي برد والثاني فيها تصويت وحركة ونقل عن ابن عباس قول آخر « فيها صر » قال فيها نار اه يعني حرا شديدا وهواحد قولين عنه ومن هنا أخذ الجلال قوله في تفسير الصر :حرأ و برد: وأنكر عليه الاستاذ الامام كلمة الحر وقال انه لا يهلك الحرث بمجرد اصابته وإنما

(١) يحسه يحرقه ووقعت في اللسان وشرح القاموس « يحسنه » من التحسين وهو غلط بديهي (٢) القرة بالكسر كالقر بالفتح البرد

يهلكه البرد فهو المراد حتما . أقول وقد اختلف في معنى أصل مادة الصرّ هل هو الصوت أو الشدة والصواب انه الشدة تكون في الصوت ومنه «فاقبلت امرأته في صرة» كما تكون في البرد فالصر هنا هو البرد الشديد حتما وهو قول ابن عباس الذي رواه عنه وعن غيره ابن جرير ولعلهم أخذوا قولهم فيها نار من احراق الزرع

أما المعنى فقد قال الاستاذ الامام ان الريح المهلكة مثال لمال الذي ينفقونه في لذاتهم وجاههم ونشر سمعتهم وتأييد كلمتهم فيصدهم عن سبيل الله ، وان العقول والاخلاق الحسنة التي هي أصل جميع المنافع هي مثال الحرث أي ان المال الذي ينفقونه فيما ذكر هو الذي أفسد أخلاقهم وأهلك عقولهم بما صرفها عن النظر الصحيح ولفتها عن التفكر في عواقب الامور : ثم أشار الى ما قالوه في جعل التشبيه في المثل مركبا وهو ان حالهم فيما ينفقونه وان كان في الخير كحال الريح ذات الصر المهلكة للزرع فهم لا يستفيدون من نفقتهم شيئا . ومن المفسرين من جعل هذا فيما ينفقونه فى عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ومقاومة دعوته سواء كان المنفقون هم اليهود أم أهل مكة . ومنهم من جعل ذلك فيما ينفق المنافقون رياء اوتقية . وقد خاب الفريقان وخسروا بنصر الله نبيه والمؤمنين وبفضيحة المنافقين في سورة براءة . وبعض المفسرين يخص هذا الانفاق بما يفعله الكافر على سبيل البر وهو لا يفيده في الآخرة شيئاً اذ الايمان شرط لقبول الاعمال ونفعها في تلك الدار

أما وصف القوم الذين أهلكت الريح حرثهم بكونهم ظلموا أنفسهم فقد قال الزمخشري في الكشاف مبينا نكتته ما نصه «فأهلك عقوبة لهم لأن الاهلاك عن سخط أشد وأبلغ» وفي هامش كتب باملائه في ذلك ان النكتة فى ذلك هي افادة ان أولئك المنفقين لا يستفيدون شيئًا منه لأن حرث الكافرين الظالمين هو الذي يذهب على الكلية اذ لا منفعة لهم فيه لا في الدنيا ولا فى الآخرة فأما حرث المسلم المؤمن فلا يذهب على الكلية لأنه وان كان يذهب صورة الا أنه لا يذهب معنى لما فيه من حصول أغراض لهم في الآخرة والثواب بالصبر على الذهاب» اه

وأقول إن الوصف يشعر بأن الجوائح قد تنزل بأموال الناس من حرث ونسل عقوبة على ذنوب اقترفوها ولكنه ليس نصا في ذلك لما علمت من تعليل الكشاف آنفا

ولا يعارض ذلك ماثبت من الاسباب الطبيعية لها لأنه لا يستنكر على البارىء الحكيم الذي وضع سنن ارتباط الاسباب بالمسببات في عالم الحس أن يوفق بينها و بين سننه الخفية في إقامة ميزان القسط فى البشر لهدايتهم الى ما به كمالهم من طريق العلوم الحسية التي يستفيدونها من النظر والتجربة ومن طريق الايمان بالغيب الذي يرشد اليه الوحي الالهي . ويسمى ماترتب عليه حدوث الشيء سببا له وما قارن المسبب من نفع بعض العباد وضر بعضهم به حكمة له . وكل من سبب الشيء وحكمته أو حكمه مقصود للخالق الحكيم

رأينا في مذهب دارون العالم الطبيعي الشهير ان الحكمة في ألوان الثمار كالمشمش والخوخ والبرقوق هي إغراء آكلتها من الطير والناس بها لتأكلها فيسقط عجمها (١) على الارض لينبت فيها بسهولة فيحفظ نوعه بتجدد النسل أو ما هذا حاصله . ومن المعلوم بالضرورة أن لتلك الألوان أسبابا طبيعية تتعلق باستعداد نباتها وتأثير النور فيه . فهل تستنكر على حكمة من وفق بين أسباب تلك الألوان ذات البهجة في الثمار و بين مصلحة الطير بهدايته اليها وحفظ النظام العام ببقاء أنواعها أن يوفق بين أسباب إرسال العواصف والأعاصير و بين عقوبة الظالمين من البشر ليكون لهم زاجران عن الذنوب أحدهما حذر آثارها الطبيعية الضارّة بهم فان لكل ذنب ضررا لاجله كان محرما اذ لا يحرم الله على عباده شيئا لاعنتهم . وثانيهما مايتخوف المؤمن من إصابة العقوبات الآفاقية إياه بذهاب الجوائح بماله اذا هو بغى وظلم

ومن هذا القبيل ماسألني عنه غير واحد من أهل العلم والبحث وهو جعل الشهب رجوما للشياطين ومنعها اياهم من استراق السمع لمعرفة الوحي من الملائكة مع العلم بأن للشهب أسبابا طبيعية . وجوابه أن الحكيم الخبير ـ الذي يوفق أقداراً لأقدار فيجمع بين السبب ومسببه و بين امور اخرى تسوقها اسباب خاصة بها لحكمة وراء تلك الاسباب ـ هو الذي جعل لهذه الظاهرة الطبيعية ، تلك الحكمة الغيبية التي بينها الوحي ونطق بها الذكر ، ومثلها في عالم الطبيعة كثير ، ولعل لبعض

(١) العجم بالتحريك ما فى جوف المأكول من النوى أو البزر

الماديات تأثيراً في الارواح الغيبية كتأثيرها في أرواحنا «وما أوتيتم من العلم الا قليلا»

أكتفي هنا بهذا التنبيه الى هذه المسألة التي لم أرَ في كتاب ولم أسمع من لسان أحد قولا فيها وان لها مواضع أخرى من التفسير كقوله تعالى (٤٢: ٣٠ وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير) وسنعقد لها فصلا في المقدمة وهنالك نجيب عما يرد عليها من الشبهات

قال تعالى ﴿ وما ظلمناهم ﴾ يعني أولئك الذين أهلكت الريح ذات الصر حرثهم وذلك انهم هم الذين كانوا ظلموا أنفسهم كما تقدم فكان هلاك زرعهم عقوبة لهم لا إيذاء أنفا وعلى هذا يكون قوله ﴿ ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ تأكيدا ذاهبا بكل شبهة . والظاهر المختار أن الضمير في قوله « وما ظلمناهم » للمنافقين الذين ضرب المثل لبيان حالهم فهم المقصودون بالذات والمعنى ما ظلمهم الله بأن لم ينفعهم بنفقاتهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم وحدها دون غيرها بانفاق تلك الاموال في الطرق التي تؤدي الى الخيبة والخسران بحسب سنة الله في أعمال الانسان

أما كونهم يظلمون أنفسهم دون غيرها او دون ان يظلمهم أحد كما تقدم أخذا من تقديم « أنفسهم » على عامله فهو ظاهر على القول بان الآية نزلت فيما كان ينفقه أهل مكة كلهم أو بعضهم او اليهود في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ومقاومته اذ كانوا هم الذين اختاروا ذلك لانفسهم ولم يضروه (ص) ومن معه بل كانوا سبب سيادته عليهم وتمكنه منهم ، وظاهر أيضاً على القول بأن المراد بتلك النفقات ما كانوا يضعه المنافقون في بعض طرق البر رياء وسمعة او تقية من حيث انها لا ينتفع بها في الآخرة ويقولون مثل هذا في الكافر الذي ينفق في طرق البر حبا في البر ورغبة في الخير فانه وان كان أحسن حالا من المرائي لا تفيده نفقته في الآخرة لأن شرطها الايمان وقد ظلم نفسه بترك النظر في الآيات والبينات عليه بعد ماظهرت له او بالجحود بعد النظر ونهوض الحجة وانما يعنون بقولهم ان نفقته لا تفيده في الآخرة أنها لا تجعله من أهل الجنة ولا يوجد عاقل قط يقول ان الكافرين في الآخرة كلهم سواء لا فرق بين المحسن عملا والمسيء و بين فاعل الخير ومقترف الاثم .

وسنعود الى هذا البحث في مواضع أخرى

﴿ خطاب الشيخ احمد الاسكندري في اللغة العربية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة الافاضل

اني لاحسبني سعيداً موفقا ان أقف الليلة معبراً بلسان جمهور عظيم من أبناء اللغة العربية وحراسها وكفاة حاجها وحماة ذمارها من حاضري مجلسنا هذا وغير حاضريه ومن كل من يصلي الى القبلة أو ينطق الضاد . أولئك الذين سأري منهم من يشد أزري و يقيم عذري اذا تنكبت عن محجتهم ، او قتر همي دون استيعاب آرائهم ، واشتفاف ما في مزادتهم ، فان لكل فكر غاية ، ولكل رأي شرعة ، ورحم الله امرأ استدرك فائتا فنبه اليه ، وأبصر ضائعا فدل عليه ، ولا تزال الجماعة من الناس بخير ما بقيت فيهم نصفة لأنفسهم ، وارتياح للحق أني جاءهم ، فان هم استمرءوا المراء والعنت وخاطروا بمروءاتهم في مصارعة الحق غضبا للنفس وتعصبا للهوى فلا والله ان إفلحوا في أمر ، أو ابلوا في عدو

هذا الذي اعرفه فيكم من النصفة في الحكم ، والمظاهرة للحق ، والحفاظ على سلامة اللغة ، والنعرة في تشريف الجنس ، هو الذي اطمعني في حسن الظن بأن مقالي هذا سيستجيش عزائمكم ، ويستثير هممكم ، ويستنصر حفائظكم لمناهضة العجمة التي كادت تجهز على لغتكم ، وتنازعكم وجودكم ، وتنسخ من الدنيا جنسكم وملتكم ، وهو الذي هون عليّ ان ابدأ بالتكلم في ذلك فأقول :

﴿ حالة اللغة في زمنيها الماضي والحال ﴾

شهد العدو قبل الصديق بان لغة العرب أفسح اللغات مجالا للقائل ، وأخفها جرساً على سامع ، وانها اجلى اللغات بيانا وأعذبها منطقا وأغناها لفظا وأوفرها أسلوبا وأخصرها عبارة وأوضحها تمييزا واعرابا . ولو حاولت الاستشهاد على ذلك بأقوال علماء اللغات من شرقيين وغربيين لصرفت وجهة القول عن موضوع

الليلة ولما وسعني ليلة أو ليال ولوقع ذلك مني في كتاب حافل . ولكنني اترك الحكم بصحته لغزير علمكم وجميل انصافكم

هذه اللغة التي خدرها أهلها عن التبذل لسواها وصان حر وجهها اولياؤها عن مسألتها غيرها منذ أزمان سحيقة وعصور متوغلة في القدم يتضاءل امامها التاريخ ويتصاغر دونها عدد المئات والالوف قد تناوبها ما يتناوب كل طويل العمر من سعادة وشقاء، وشدة ورخاء ، فلشد ما تنكر لها الدهر فصابرته، وصارمها فصادقته فحاسنته، كما طالما اشرقت لها أسارير الزمان ، وأطلق لها في كل شيء الرسن والعنان ، فمرت بها عصور سعد كانت فيها لغة العلم والحكمة، لغة الخطابة والمحاضرة، لغة الجدل والمناظرة ، لغة الشعر والادب ، لغة الشريعة والدين ، لغة القضاء والاحكام ، لغة القرآن الكريم ، وهي بعد لم تفقد من هذه الخصائص والمزايا إلا قليلا

وما كانت سعادتها وشقاؤها الا باقبال ابنائها وادبارهم فإنهم كانت لهم الدولة في الملك والعلم ضمت اللغة الى حضنيها جميع العلوم والفنون وبسطت جناحيها على سائر المعاني والاغراض ولم تقف عند حد كفايتها لحاجات ابنائها بل تعدتهم الى من دان لهم ودخل في عهدهم ،وان دالت دولتهم واسلم اللغة أهلها للغريب تقلص ظلها وانقبضت أطرافها وفترت عن مدافعة ذوي الطول والغلب . تعتبر ذلك بما دخل العربيـة من الالفاظ والمبالغات واساليب التعظيم والتفخيم من الفارسية والتركية أيام غلبة الديلم والترك والفرس على دولة بني العباس واشتقاقهم منها ممالك وامارات عديدة ؛ وهي اليوم تغالب عصرا من عصور بؤسها وشقائها هو أشد العصور بأسا وأصعبها مراسا، ليس عصر غلبة أمة على أمة بل عصر غلبة الغرب على الشرق ؛ عصرا جلاب الغرب على الشرق بخيله ورجله وعدده واساطيله ولغاته المختلفة وعلومه وفنونه وصنائعه وكتبه وجرائده . دهم الغرب الشرق منذ أكثر من قرن بهذه القوة التي لاقبل له بها فوقفت العربية امام هذا القاهر المستأثر بكل خير ومنفعة وقفة عاجز بائس ، وقفة ظمآن على ينبوع عذب لا سبيل له الى ورده

لم يكن هذا الوهن والانكشاف عن خور فطرى في العربية او جبن متأصل

فيها ولكن هذا شأن جميع اللغات امام كل انقلاب جديد وحادث عظيم وقد جرت سنة الوجود على ان مصير اللغات امام الانقلابات العظيمة والحوادث الجسام الى أحد حالين : اما ان تتسامح في قبول كل ما يطرأ عليها من لغة غيرها لاسيما الالفاظ ذات المعاني التي لم تعهدها من قبل فتندمج احداها في الاخرى على طول الزمان كما اندمجت لغة بقايا عرب الاندلس في اللغة الاسبانيولية وعرب جاوة في لغة الملايو واللغة القبطية ورومية سورية في العربية . أو يتخلف عنها خليط ليس من اللغتين كما فعلنا نحن في لغة الحادثة فنشأت العامية المختلفة اللهجات المتشعبة المناحي وتبعها اختلاف الاجناس من مصري وشامي وعراقي ومغربي وسوداني وحجازي ويماني . وكما فعلت أمم أوروبا امام لغات المغيرين والفاتحين فنتجت لغات فرعية وامم مختلفـة الاجناس . واما ان تتحرز عنها وتتصرف في استعمال ألفاظها لضم هذه المعاني الغريبة اليها بطرق التجوز والاشتقاق واستعمال الغريب والعتيق منها فيما له ادنى ملابسة به فتحفظ بذلك كيانها وتبقي شكلها بيد انها تعظم وتفره وتزداد نشاطا ورشاقة . وبعد فان هي آنست من اهلها روحا قويا ونحيزة سليمة استطالت على اللغة الاجنبية وصادرتها على اعز عزيز عليها من علومها وفنونها

ففي أي طريق من هاتين نسير في تشجيع العربية على اقتحام العقاب وتذليل الصعاب التي تحول دون ورودها نهر العلوم والمعـارف الذي تحول مجراه الى جهة الغرب ؟

يقول قوم بسلوك الطريق الاولى ومنهم حضرة خطيبنا الاول وقد سمعتم أقواله

ويقول قوم بسلوك الطريق الثانية واتشرف ان اكون أنا منهم

وها أنا الساعة آتي على الشبه والاعذار التي ينتحلها الفريق الاول ويتوهمون انها تدفع عنهم تهمة الاستسلام والخنوع للغة الاجنبي سواء تعرض لهـا زميلي السابق او لم يتعرض لها فأقول :

﴿ الشبهة الأولى ﴾ - يقولون : ان لغة أي أمة ما هي الا اصوات مختلفة

تدل على المعاني التى تقوم بنفس كل فرد منها وتقع تحت ادراكه وان هذه المعاني والمدركات لا تخرج عن دائرة احتياجاته ومرافقه ومشاهداته بحسب طبيعة المقر الذي نبت فيه والبيئة التي استوطنها فليس يطلب الا ما يعرفه ولا يصف الا ما شاهده من الأناسي وانواع الحيوان والنبات والجماد فان هو انتقل من وطنه الى وطن آخر يباينه طبيعة وسكانا اختلفت احتياجاته ومشاهداته ومعانيه التي كانت تقوم بنفسه واختلفت معارفه واغراضه بقدر مخالفة الوطن الجديد للقديم ، فهو لا يستعجم امام هذه المناظر الجديدة ولا يخرس دون التعبير عن اغراضه الحديثة بعلة انه لم يعهدها في وطنه ولم يوضع لها لفظ في لغته بل يجاري طبيعة وطنه الجديد ويساجل الجيل الذي يعاشره فيقتبس من لغته كما اقتبس من معانيه ويتزود من الفاظه كما تزود من المعلومات الحديثه التي أضافها الى علمه ·

ومثل الامة في ذلك مثل الفرد وذلك طبيعى في البشر · فان العرب الذين نحن الآن بصدد البحث في لغتهم لم يشذوا عن هذا الناموس الطبيعي بل نقلوا الى لغتهم كثيرا من الالفاظ الفارسية والرومية والحبشية والهيروغليفية والسنسكريتية الخ سواء كان ذلك في عصر جاهليتهم وبداوتهم او في عصر اسلامهم وحضارتهم فقد كان شعراؤهم وتجارهم يدخلون العراق والشام والحبشة ويأتون بألفاظ أممها في شعرهم وحديثهم فلا تلبث ان تنشب بلغتهم وتلوكها السنتهم وتمتزج بارقى طبقات الفصيح من كلامهم · ويكفي لذلك دليلا ان القرآن الكريم جاء بهذه الالفاظ في تضاعيف آياته وعباراته البليغة مثل السندس والاستبرق والقسطاس ، ولم تتجاف عنها الاحاديث الشريفة وعبارات البلغاء وسمر الخلفاء

بل تعدت تلك الالفاظ الى اطعمتهم وملابسهم وآنيتهم كالسكباج والطيلسان والسكرجة ، على انهم لم تقصر همتهم على نقل الاسماء فحسب ، بل تصرفوا فيها واشتقوا منها افعالاً وجمعوها جموعاً مختلفة فقالوا : ألجم الفرس اذا البسه اللجام ، وبهرج عمله اذا ابطله وجعله كالدرهم النبهرج ، وجمعوا استاذاً على اساتذين ونموذجا على نماذج ونموذجات مما عده ائمة اللغة اصلا من اصول اللغة وسموه بالتعريب وافردوه بالمؤلفات الممتعة . فبعد هذا كله لو أدخلنا في اللغة العربية اسماء الآلات

الحديثة والجواهر المستكشفة والاصطلاحات العلمية كما وضعها أربابها او بنوع من التحريف لم نحدث حدثا في اللغة ولم نجن فيه بفعل منكر وانما نفعل ما فعلته العرب أنفسهم ونكون بذلك قد خرجنا من الضيق الذي نحن فيه وانتجعنا باللغة منتجعا تستمرئ به و يزيد فى فراهتها · ومابرحت اللغات يأخذ بعضها عن بعض ، فالانجليزية مثلا تنقل عن الفرنسية مالم يكن فيها من اسماء المعانى والذوات ولا سيما أسماء الادوات واصطلاحات العلوم وكذلك الانجليزية عن هذه وعن غيرها

ونقول فى ازالة هذه الشبهة — لا نمنع ان اللغات يأخذ بعضها عن بعض ، وان العرب أخذت من لغات غيرها ، وان في القرآن والحديث الفاظا أعجمية الاصل ، وان جميع هذا يسمى تعريبا وهو اصل من أصول اللغة . ولكن من هم الذين يأخذون ويضعون ويعربون ويتصرفون في اللغة العربية ، لاشك انهم اهل ذلك اللسان وهم العرب انفسهم ، فلا حق لغيرهم في التصرف والتعريب والاشتقاق من الفاظ غيرهم . ولم يقل أحد من أئمة اللغة ونقلتها الثقاة بجواز ادخال الاعاجم والمولدين شيئا من لغتهم في العربية الفصحى وعده منها بل مقتوا ذلك وحاربوه ونبهوا الناس اليه في معاجمهم فقالوا انه مولد وانه أعجمى عربه العرب او عربه المولدون ، وربما أفردوا لذلك كتبا ككتاب المعرب للجواليقى والشفاء للشهاب الخفاجي وغيرهما كما قاموا بجمع كثير من الالفاظ التي تقابل ماشاع على السنة أهل زمانهم من المولد والمستعجم وسموه الفصيح كفصيح ثعلب وغيره ننقل هنا رأي الائمة فيمن له حق التعريب

قال الشهاب الخفاجى نقلا عن الجواليقى : اعلم ان العرب تكلمت بشيء من الاعجمي والصحيح منه (اي مما صار معربا) ماوقع فى القرآن والحديث او الشعر القديم او كلام من يوثق بعربيته . فيرون من ذلك التعريب حق للعرب وحدهم واما ما عربه غيرهم من المولدين فلم يعدوه من قسم المعرب الذي يصلح استعماله فى الفصيح · ولذلك قال الشهاب الخفاجي في آخر مقدمته في الشفاء وقد أترك بعض ما عربوه لعدم وروده عمن يعتد به نحو (بشخانه) للكلمة التي يقولون لها ناموسية . . قال (وهو مولد)

بشخانة قد طرزت   قالت بلفظ موجز
على الحريري سما   قدري والمطرزي

وقال السيوطي نقلا عن ابن دريد في الجمهرة : باب ماتكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة فما أخذوه من الفارسية البستان والبهرجان الخ وقال نقلا عن ابن الانباري شارح المقامات : كثيراما تغير العرب الاسماء الاعجمية اذا استعملتها كقول الاعشى (وكسرى شهنشاه الذي سار ملكه) الاصل شاهان شاه : فترون انه لم يستشهد الا بكلام عربي وهو الاعشى

فالتعريب اذن هو كما قال الجوهري في الصحاح : تعريب الاسم الاعجمي هو ان تتفوه به « العرب » على منهاجها

ونبحث الآن عمن هم العرب الذين يعتد بعربيتهم في استعمال الالفاظ التي هي من موضوع علم متن اللغة . قال البغدادي في كتابه خزانة الادب نقلا عن ابن جابر : علوم الادب ستة اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والثلاثة الاول لا يستشهد عليها الا بكلام العرب . ولا ريب في ان مبحث الالفاظ العربية هو من مباحث علم اللغة . وقال الكلام الذي يستشهد به نوعان، شعر وغيره فقائل الاول قد قسمه العلماء على طبقات أربع : الطبقة الاولى الشعراء الجاهليون الخ .. ثم استرسل في عد هذه الطبقات حتى اوصلها الى طبقة المولدين الفصحاء فقال ان سيبويه استشهد بشعر بشار بن برد ولم يقف بعضهم عند هذا فاستشهد بشعر مسلم بن الوليد والحسن بن هاني ، ورأى بعض أئمة النحو الاستشهاد بشعر ابي تمام والبحتري والمتنبي ومنهم ابن جني والزمخشري والرضي ثم ذكر البغدادي من النثر المستشهد به القرآن الكريم ونقل اختلافات كثيرة في الحديث اصحها الاستشهاد بما كان رواته من اهل الصدر الاول قبل تدوين الحديث في آخر عصر بني امية الخ

واقول ان العرب الذين يعتد بعربيتهم وينقل عنهم قولهم وكتابتهم بقوا الى اواسط القرن الثالث من الهجرة ، فالشافعي وأمثاله من فقهاء العرب وائمة اللغة وعلية الكتاب والوزراء يعتبرون في كتابة رسائلهم ومؤلفاتهم عربا فصحاء

وقال الامام احمد بن حنبل : كلام الشافعي حجة في اللغة . وسئل غلام ثعلب عن حروف اخذت عن الشافعي مثل (مالح) فقال كلام الشافعي صحيح . وقد صنف الازهري وهو امام اللغة في عصره كتابا في ايضاح ما اشكل من مختصر المزني وقال في ديباجته : ألفاظ الامام الشافعي عربية محضة ومن عجمة المولدين مصونة . والجهة التي اعتبرنا بها كلام الشافعي عربيا محضا هي التي نعتبر بها كلام الاصمعي ومعاصريه كابي عبيدة وأبي محمد اليزيدي والكسائي وقطرب وغيرهم، وكان الشنقيطي رحمة الله عليه يثق بفصاحة المأمون الخليفة العباسي ويحتج في العربية بما صح عنه . ولا يبعد عن هؤلاء كثيرا فحول الكتاب من أهل زمانهم كالحسن بن سهل وسهل بن هرون والجاحظ ، فهؤلاء وأمثالهم عرانين الفصاحة ولهاميم العربية وزعماء العلم والكتابة والتصنيف واليهم يرجع كل ما وصل الى الناس من علم وأدب وفقه وكلام ولعل من الهين بعد هذا أن نقول انه بانقضاء عصر هؤلاء الاعلام انقضى عصر العربية الفطرية وفشت العجمة في جميع الامصار واستحالت اللغة الى صناعة من الصناعات يتلاقى فيها العربي والديلمي والرومي والبربري ، فلا يصح لمن خلف من هؤلاء ان يضعوا في اللغة شيئا جديدا او يجعلوه لفظا عجميا معربا اذ ليسوا من أهل هذا اللسان وانما هم حكاة له ونقلة لأصوله . ومن نظر في كتب المعرب والدخيل وجد ان كل ما اعتبر فيها معربا فهو اما وارد في كلام العرب القديم أو كلام الله الكريم أو الاحاديث النبوية أو شعر أهل العصر الذي وصفنا اورسائلهم ومصنفاتهم . يعرف ذلك كل من نظر في كتاب سيبويه وكتب الجاحظ وكتاب الخراج لابي يوسف ومدونة مالك وكتاب الاغاني . وما يقع في كلام اهل الصناعة بعد هذه العصور البائدة من مثل الوجاق ولاردى والسوارى والطبنجة والصنجة والسلاملك والترابيزة والصالون فليس من المعرب في شيء وما هو الا اعجمي محض لا يصح استعماله في كلام العرب واذن فلا يصح لنا ان ندخل كلاما أعجميا في اللغة العربية ونزعم تعريبه اذ لسنا اعرابا بالفطرة حتى نملك حق التعريب . وكما لا يجوز للفرنسي أو الطلياني أو الانجليزي ان يزيد شيئا جديدا في اللغة اللاتينية أو اليونانية

أو للهندي الحالي ان يحدث حدثا في السنسكريتيــة والفهلوية لا يجوز لنا بعد انقراض الاعراب باحد عشر قرنا ان ندخل في لسانهم ما ليس منه . ولو جاز لنا ذلك في الالفاظ وهي اصل اللغة لجازلنا بالاولى في التراكيب والاساليب ، لانها هيئات للألفاظ واحوال لها ، وهي من اللفظ بمنزلة العرض من الجوهر أو الفرع من الأصل وكنا استرحنا من الاعراب الذي اضجر كثيرا من متفرنجي زماننا وجملهم يتسخطون العربية ويتنقصون فضلها . وهو رأي لا يعرج على مثله ولا يقول به الا أهل الجسارة ممن لا يتصونون عن الشنعة ولا يكترثون بسوء القالة

وبعد فما ورد من المعرب في القرآن الكريم وكلام العرب الجاهليين والاسلاميين ليس الا شيئاً يسيرا من الكلام لا يحرج اللغة ولا يتهضمها وما هو بالاضافة الى جميعها الا كقطرة في بحر أو حصاة في فلاة اذ كل ماصح انه معرب في القرآن الكريم لا يزيد عن ستين لفظاً غير الاعلام . وقد احصيت جميع ما ورد من المعرب في الكتب التي بايدينا كشفاء الغليل والمزهر وفقه اللغة والاتقان ولف القماط ورسالة ابن كمال باشا بعد حذف المولد والاعلام فلم يزد على ستمائة كلمة ! وهب انها وصلت الى الف أو الف وخمسمائة افلم يكن اقتصار العرب على هذا القدر الضئيل مع ما كانوا عليه من التبدد والتبعثر بين جميع امم الارض برهانا ساطعا على شدة احتفاظهم بلغتهم وحياطتهم لها على ما منيت به من البلايا والمحن ورزئت من الهزاهز والفتن مما لو تقحمت فيه لغة أخرى لغارت في غيرها وامست من العاديات والبوائد

فلو جرينا على شبهة القائلين باستعمال الالفاظ الاعجمية التي أحدثتها المدنية الاوربية من اسماء المصالح والادارات والشركات والآلات واصطلاحات العلوم لطرقنا في العربية لا كثر من عشرين ألف كلمة فان ما نحتاج الى ترجمته من العلوم والفنون والصنائع لا يقل عن أربعين ولا أقل من ان يكون لكل منها خمسمائة اصطلاح وذلك خطب هائل يأتي بنيان اللغة من قواعده وتستأسر له تلك الفلول التي بقيت في رؤوسنا منها وما ظنك ببقاء ستة الآف لفظ تستعمل الآن في الجرائد والمؤلفات والرسائل امام هــذا السيل الجارف ... ويزيد

الامر ضغثا على ابالة من يرى من أهل هذه الشبهات اشتقاق افعال ومصادر من الالفاظ الاعجمية مثل ما فعلته العرب في لجام ونبهرج وبريد فقالت الجم الفرس وبهرج الدرهم وأبرد السفير فيقول هو : « تلفننا بانك انجلو اجبشان ليتد بان أحد البنا كيز تافرفه بعمل برتستو علينا » كما يقول « اترمت الى اوتيل مينا هوس حيث رأينا تيلونوتوجرافيين يلفجرون متش الجمال ثم رجعت متبلا الى الكازينو لمشاهدة السينيماتوجراف فألوجت ولم افي » . وهي درجة لا تصل اليها الامة الا بخذلان من الله تعالى . ولئن تم ذلك لا قدر الله لتكونن اللغة المالطية اقرب الى العربية من لغتنا . ولقــد اذكرني ذلك ما أخبرني به بعض ثقات الافاضل ممن حضر مؤتمر الجزائر منذ عامين انه سمع بعض متفرنجة الجزائر يقول : « ركبت أنا والمدموازيل انتاعي في الشماندفير وصلناعنابه الساعة ثمانية سوار » وسأل أحدهم في باريس أين تصلي الصلوات فقال « أصلي في الشانبر سيدي مافي موسكي » .

واما ما يقال من ان أمم أوربا لا تأنف ان تدخل في لغاتها لغة غيرها فان ذلك لا يوطننا على تقليدها فأن لغة القراءة والكتابة عندها هي لغة العامة وهي تتبدل كل يوم . على انهم يأنفون ذلك بعض الانفة ولهذا نقل العلماء والمخترعون الاسماء الحديثة من اللاتيني او اليوناني القــديم من حيث بادت أممهما وفنيت عصبتهما ومالنا نتبع غيرنا اذا اخطأ واصبنا نحن ما بقي عندنا من ممثلات جنسنا الا هذه الميزة وهي حفظ اللغة والقرآن الكريم . فليتق الله هؤلاء النفر في جنسهم ولغتهم وقرآنهم ولا ينسوا ان لغتهم لغة دين وان في تسليمها تسليما للذات وابادة لعلوم القرآن الكريم والسنة وتشبها بغراب النحس الذي اراد ان يقلد الحجلة فلم تتهيأ له مشيتها ونسي مشيته

﴿ الشبهة الثانيــة ﴾ — يقولون لو نقلنا اسما الآلات والاصطلاحات العلمية كما هي الى اللغة العربية كنا جرينا على اهم قاعدة ذلل بها المتمدنون شموس الامور وحسموا بها كثيرا من الخـلاف والنزاع وهي توحيد لسان العلم في جميع اللغات وفي ذلك من تقارب الامم مالا يخفي : ونقول في ازالة هذه الشبهة : انما فعلت أمم اوربا ذلك لتقارب اصول لغاتهـا في الاساليب والبيان ولاشتراكهم في الكتابة بالحروف اللاتينية ولعدم تحفظهم بلغة دين أو جنس

فالكلمة يكتبها الفرنسي بهجائها الخاص كما يكتبها الانجليزي وكثيرا ما تكون مخارج حروفها عندهما سواء . فما الفائدة لنا في مشاركتهم في لسان العلم مع ان كتابتنا غير كتابتهم وحروفنا غير حروفهم ولا مندوحة لنا عن أن نختزل الكلمات الاعجمية التي تزيد عن سبعة احرف ونرجعها الى سبعة او ما دونها عملا بقاعدة التعريب كما اننا نغير مخارج حروفها بحيث لا يمكننا استعمال الكلمة على منهاج لغتنا الا بعد ان تمسخ وتشوه وتعود كلمة اخرى لو قرعت اذن واضعها لما عرفها ولأغرب في الضحك من عملنا ونكون قد باعدنا لغة العلم باكثر مما نريد به التقرب منها واذا أردنا ان نعرف بالضبط ما يقابلون به هذه الكلمات منا فالننظر الى ما فعلوه هم انفسهم عند ما أرادوا ان ينقلوا من لغتنا الى لغتهم فقالوا (افسين) في ابن سينا و(سلدين) في صلاح الدين و (ليزولا ما) في العلماء . واظن ان عربيا يسمع هذه ولا ينكرها اىما انكار أبعد من الوجود من عنقاء مغرب

﴿ الشبهة الثالثة ﴾ ـ يقولون : اننا بنقلنا الالفاظ الاعجمية كما وضعها اربابها نكون قد احترمنا اعمال غيرنا وحفظنا لهم حقهم فيما سموه فكما لا يحق لنا ان ننسب اختراع ما اخترعوه الى انفسنا لا يحق لنا ان نغير اسماءه

ونقول في دفع هذه الشبهة : نحن نوافقكم على هذا الاصل فيما كان منها علما ومن تكلف تغيير اعلام البلدان والاناس فقد ارتكب شططا أما وهي اسماء اجناس فلا معنى لاستعمالها في العربية على اصلها الا التشهير بلغتنا ورميها بالقصور عن ان تسع هذه الكلمات بطريقة من طرق وضعها كالتعبير بالمرادف والتجوز والاشتقاق وكلها طرق قياسية في اللغة استعملتها العرب في وضع مصطلحات علومهم وعلوم غيرهم مما ترجموه من اليونانية وغيرها كما سنفصل ذلك بعد . واظن اننا لو سألنا مخترعا من القوم أتحب ان يكون للنوع الذي اخترعته اسم واحد أو أن يكون له اسماء وألقاب في لغات متعددة وتلهج به امم مختلفة لاختار الثاني لان فيه تخليدا لاسم مخترعه فلا يبيد في لغة من اللغات المتغيرة حتى يحيا في اخرى ولأن في كثرة الاسماء زيادة عناية بالمسمى

﴿ الشبهة الرابعة ﴾ ـ يقولون : ان هذه الاصطلاحات في العلوم اصبحت تعد بالألوف في ألسنة العلم والصناعة والتجارة فكم من الزمن يكفي لوضع اسماء عربية لها من جديد مع اننا محتاجون من الآن الى النقل والترجمة

ونقول في درء هذه الشبهة : ان هذه العلوم لا يمكننا نقلها الى لساننا في سنة او سنتين او ثلاث بل لو اردنا اعادة طبع كتبها بلسانها وحروفها لما وسعنا هذا الزمن ولنسلم جدلا بانه يمكننا طبعها في أقل منه باللغة العربية مع نقل اسماء الاجناس كما هي فكم زمنا يضيع في استظهار هذه الألوف المؤلفة من الكلمات المستنكرة الغريبة وتألفها على السمع والذوق وكم وكم الخ : لا بد من قضاء زمن طويل و بذل جهد عظيم وتذليل صعوبات ومشقات هائلة على كلتا الحالتين ولأن يكون هذا العناء في سبيل تنمية العربية وجعلها لغة علم وصناعة وتجارة بالطرق المشروعة خير لنا من ان نهجرها ونعقها ونقضي عليها بالفناء قضاء لا نقض فيه ولا ابرام ونكون بهذا العقوق قد انسلخنا منها و يتلو ذلك انسلاخنا من الجنسية العربية لا قدر الله

﴿ الشبهة الخامسة ﴾ — يقولون : ان من الصعب جدا ترجمة المصطلحات واسماء الآلات الجديدة بالفاظ عربية اذ يلزم على ذلك ترجمة اللفظ الواحد بعدة الفاظ وفى ذلك من التعسف والثقل على السمع مالا يخفى . ونوردهنا تفصيل هذه الشبهة من كلام حضرة الكاتب الاديب جرجي افندي زيدان المشهور بالبحث في مثل هذه المسائل . قال حضرته في صفحة (١٣٤) من العدد الرابع من السنة السادسة عشر في التفاضل بين الترجمة والتعريب : —

« فأول مايتبادر الى اذهاننا من الحكم في تفاضل الترجمة والتعريب ان الترجمة أفضلهما صيانة للغة من مفاسد العجمة فنقول « بريد » بدل بوسطة و « نظارة » بدل تلسكوب و « سيارة » بدل أوتوموبيل و « التصوير الشمسي » بدل فوتوغراف ولكن ذلك لا يتيسر الاجماع على اختيار الفاظه الا بمجمع عامي لغوي فيه الكفاءة وحسن الاختيار وان يكون له صفة رسمية تسهل اعتماد الكتاب على مايضعه

او يختاره من الالفاظ . على ان هذا المجمع اذا تألف وعرضت عليه الالفاظ المطلوب ترجمتها نظنه يحكم بتعريب قسم كبير منها اي بيقائه على لفظه الافرنجي بصيغة عربية اذ يرى بعض المصطلحات الجديدة تسهل ترجمتها بما يسهل لفظه وحفظه والبعض الآخر لايترجم الا ببضعة الفاظ يثقل استعمالها مع كونها بالاصل الافرنجي لفظة واحدة . فاذا ترجمنا فوتوغراف بقولنا « تصوير الشمس » او « التصوير الشمسي » فبماذا نترجم « تليفوتوغراف » ومعناها « التصوير الشمسي عن بعد » واذا أردنا تصريفها في الاستعمال قلنا « آلة التصوير الشمسي عن بعد » ... ولا يخفى مافي ذلك من الثقل على اللسان والفهم . والتعريب يكفينا مؤونة هذه الاثقال فلو أبقينا اللفظة كما هي لقلنا جاء التليفوتوغرافي وفن التليفوتوغراف الخ . ومن فروع التصوير الشمسي ايضا « الفوتوليتوغراف » ويراد به التصوير بالشمس على مطبعة الحجر ومثلها « تليباتوغراف » وهي آلة كهربائية لنقل الصور عن بعد باسلاك كهربائية فكيف نترجم هذه المصطلحات وأمثالها وقس عليه الفوتوتيب أي الطبع بالشمس والفيسيوتيب الطبع بلا حبر

«واذا ترجمنا «الميكانيك» بالحيل الروحانية أو علم الآلات فبماذا نترجم « تليميكانيك » ويراد بها عندهم نقل القوة الميكانيكية من مكان الى آخر . واذا ترجمنا « الفونوغراف » بالحاكي او الناطق فبماذا نترجم « التليغرافون » وهو آلة مركبة من التلغراف والتليفون وتعمل عملهما معاً . واذا ترجمنا « تلسكوب » بالنظارة المقربة فكيف نترجم هيدر وسكوب وهي التلسكوب الذي يكشف به عما في قاع البحار . واذا ترجمنا « سينما توغراف » بالصور المتحركة فكيف نترجم « سينمافون » وهو الآلة التي تريك الصور المتحركة وتسمعك اصواتها . وقس عليها امثلة لا تحصى . — لا نقول انها لا تترجم ولكننا نرى ترجمتها شاقة لا تخلو من التعقيد فضلا عن مخالفتها ناموس الاقتصاد العام . لان المعنى الذي يؤدى بكلمة لا يجوز تأديته بكلمتين او أكثر »

ونقول في ازالة هذه الشبهة : ليهون جناب الفاضل عليه الامر فان الترجمة الحرفية ليست هي الطريقة الوحيدة لنقل اللفظ الاعجمي الى العربية فان وراءها

طريقة التسمية من جديد وهذه إما ان يلاحظ فيها كل المعنى الاصلي او بعضه أولا يلاحظ شيء منه ، الا يرى ان العرب عند ما ارادوا ان يسموا علم (القسموغرافيا) باسم عربي سموه (الهيئة) مع انهم لو ارادوا ترجمته لقالوا رسم السماء وان علماء الطبقات الارضية سموا نوعا من الصخور لم يهتدوا الى معرفة عناصره الاصلية باسم (الحجل) اذ لا مناسبة بين هذا الاسم وبين المعنى الطبيعي . وما المانع من تسمية (السينمافون) بالطيف او (الطيف الناطق) مثلا . ولا يطالبني الآن جنابه بتسمية جميع ما ذكره فان ذلك يحتاج الى بحث وروية ونحن الآن نبحث عن تقرير أصل نتبعه فاذا تروضي عليه كان له ما يحب .

﴿ الشبهة السادسة ﴾ يقولون اننا بقبولنا طريقة التعريب نكون قد وافقنا جميع الامم المشتغلة بالعلم في جميع بقاع الارض و بنبذنا أياها نكون قد خالفناهم والفرد اذا خرج عن الجماعة اعتبر عمله شذوذا وانقطاعاً عن العالم

ونقول في ازالة هذه الشبهة : ليس كل خلاف يعد شذوذا أو يلحق بصاحبه ضرراً . على ان لنا في ذلك أسوة بامة ألمانيا العظيمة فانها خالفت هذا المبدأ ولم تستعمل مصطلحات اللغات الاخرى في لغتها وهي صاحبة المقام الأول في قارة أوربا علما وصناعة وسياسة . وبعد فماذا نستفيد من هذا الوفاق ما دمنا نكتب بغير الحروف اللاتينية وننطق الحروف بمخارج تباين مخارجها في اللغات الاوربية

﴿ الشبهة السابعة ﴾ — يقولون : ان لغتنا جامدة وكل معنى من معانيها لا يقوم الا بمفرد خاص فاما اللغات الاجنبية ففيها كثير من الزوائد والانتهاءات الصغيرة تؤدي عمل الالفاظ الكبيرة خصوصاً في النفي والاثبات والافراد والجمع يعرف ذلك بالاطلاع على مصطلحات الكيمياء وكيف فرقوا بين كاوريك وكاورات وكاورور ، وان لها لاتينيا ويونانيا قديمين يؤخذ منهما اسماء المصطلحات الجديدة بحيث لا يحصل ادنى اشتراك في اللفظ

ونقول في ازالة هذه الشبهة : ان عددا لا يمكن حصره من ألفاظ اللغة العربية كل منها له معنى لو اريد التعبير عنه بالتفصيل لما كفت الجمل بله الالفاظ . وان

النطق بعلامات التثنية والجمع في اللغة العربية له أعظم أثر في التمييز، وان زوائد جواهر الكيمياء يمكن ان يستبدل بها في العربية كلمات قليلة الحروف أو حروفا مثل (ذي — أو ذات — او ياء النسب — أو النسب بالصيغة والاشتقاق) وغير ذلك مما لا يتعذر على جماعة تعنى به، وان لنا أيضا لاتينيا قديما لا يحصل به الاشتراك هو الغريب القليل الاستعمال متى كان قليل الحروف خفيفها على السمع

﴿ الشبهة الثامنة ﴾ — يقولون: ان هذه الاسماء الجديدة قد شاعت وذاعت بين العامة وهم السواد الاعظم وكثير من الخاصة ويشبه المستحيل ارجاعهم عنها الى الفاظ عربية فصيحة

ونقول في دفع هذه الشبهة: أما العامة فلهم لغة خاصة بهم ونحن نتكلم في لغة الكتابة والقراءة فاذا ما تعلم العامة القراءة والكتابة تعلموا الالفاظ الفصيحة، وبعد فقد كان ينبغي على هذا المبدإ ان نجاريهم في جميع الالفاظ العامية أو بالأولى نجعل لغة القراءة والكتابة هي العامية ونريح أنفسنا من عناء تعلم الفصيح والصدور تضيق بالرد على أمثال هؤلاء ممن لا يحفلون بسوء الحال عند العقلاء ولا يبالون بتبعة القول واما الخاصة فلا اسهل من الاخذ بهم في طريق الفصيح وانا لنرى الكاتب في عصرنا يأنف من كتابة (بسكليت) ويكتب بدلها دراجة

﴿ الشبهة التاسعة ﴾ يقولون أن اللغة كائن حي وهي في ارتقاء مستمر وتجدد ودثور وان ناموس الارتقاء يستدعي بالطبع بقاء المناسب وكل ماحدث في اللغة من الدخيل والمولد وما سيحدث فهو ضروري بطبيعة الحال وعبثا يحاول الانسان مقاومة الطبيعة الايرى ان العرب كانت لها اسماء لمسميات تعرفها فلما امعنت في الامتزاج بالفرس أخذت أسماء هذه المسميات عنهم وهجرت اسماءها الاصلية. نظير ذلك الباذنجان وهو بلغتهم (الانب) والرصاص (الصرفان) والهاون (المنحاز)

ونقول في دفع هذه الشبهة: ان هذا الاصل الدرويني يتفيهق به كثير من متفلسفة زماننا ويدخلونه في كل شيء وما مني الناس بشر اشد من اختلافهم في فهم هذا الاصل ولئن صح على زعمهم ان اللغة كائن حي كبقية الاحياء فمما لاشك فيه ان حياتها بحياة اهلها ونحن نحب ان تكون لغتنا حية. اذن فحياتها وموتها وعزها

وذلها بأيدينا فلو شئنا ان نتدرج في ناموس الارتقاء ونتبع طريقة التجدد والدثور فلنمح كثيرا من الفاظها الجميلة التي باتت في بطون المعاجم تشتكي العطلة وسوء الحال وكساد السوق، ولنمت كثيرا من الالفاظ الدخيلة والمولدة التي صارت في وجهها كبثور الجدري الاسود فشوهت محاسنها واوهنت قواها

***

اذا نفينا جميع هذه الشبه وجب علينا ان نشرح طريقتنا في ترجمة الاصطلاحات والآلات الجديدة فنقول:

ان هذه الكلمات لا تخلو ان تكون اعلاما وأسماء اجناس. فأما الاعلام فلا مانع من نقلها أعجمية بعد صقلها بالنطق العربي واما اسماء الاجناس فاما ان تكون معروفة قديما عند العرب ولها في لغتهم أسماء تطلق عليها أو على مايشبهها وهذه يبحث عنها في اللغة ويعاد استعمالها في معانيها ككلمة قنال (خليج او قناة) وكلمة قبانية (شركة). واما ان تكون مجهولة لهم وهذه لنا في نقلها ثلاث طرق:

(١) طريقة ترجمة اللفظ بمرادفه كترجمة سينماتوجراف بالصور المتحركة وترجمة كرافات برباط الرقبة

(٢) وطريقة الاشتقاق من الفعل الذي يعبر به عن عمل الكلمة اوصفتها ان كانت من ذوات العمل والصفة. وهذه تسمية جديدة لا ترجمة مثل تسمية البسكليت بالدراجة والاتوموبيل بالسيارة ونحوهما من مثل الدراعة والبارجة والباخرة والمسافة والقطار الخ فان هذه الالفاظ قد وضعت لمسميات افرنجية ولا يوجد من الفريق المخالف لنا من ينكر سهولتها وشهرتها وسبقها غيرها في حلبة الكتابة

(٣) طريقة التجوز. وهي طريق واسعة النواحي كثيرة الفجوج وعليها اعتماد الاوروبيين في نقلهم المصطلحات الحديثة من اللاتينية وما أغزر علاقات المجاز في لغتنا فعلاقة المشابهة في حالة من الاحوال تكفينا مونة التكلف والتعسف في انتقاء الالفاظ. هذا الى بقية علاقات المجاز المرسل كالسببية

والمسببية والحالية والمحلية واللازمية والملزومية واعتبار ما كان وما يؤول وغيرها مما يكفي فيه ان يكون بين العربي والأعجمي أدنى ملابسة ومتى شاع اللفظ الجديد واشتهر فلا يوجد من يبحث عن أصل مأخذه كالدارعة والبارجة والقطار والمفتخر. والمجاز اذا اشتهر صار حقيقة عرفية

وهذه الطرق الثلاث كلها قياسية في الاستعمال لا ينكرها أرباب العربية وكتبهم في البيان والاصول وعلم الوضع حافلة بشرح حقائقها وتفصيل مباحثها ولا يتحكك بذلك الا مكابر وعلى هذه الطرق جرت العرب عند وضعها اصطلاحات العلوم الشرعية والادبية والعلمية وكلنا نعرف معنى الفاعل والمفعول والمبتدا والخبر والحال والتمييز والظرف والاستثناء والعدل عند النحويين ، ونعرف أصل معانيها اللغوية . ونرى العرب عند ما ترجموا المنطق والحساب والهندسة والفلك لم يستعملوا في اصطلاحات هذه العلوم الا الالفاظ العربية وربما تطرف بعضهم فاتي ببعض الفاظ على أصلها مثل الفلسفة والسفسطة ولكن ذلك لم يمنعه من استعمال مرادف لها عربي مثل الحكمة والمغالطة

هذا وان ماسقناه من أدلة الرد على الفريق الاول يكفي في اثبات فضل طريقتنا في الترجمة ولا يحتاج في نشرها والعمل بها الا تأليف مجمع علمي يتولى أمر البحث والوضع وهو مانرجوه في هذا النادي اذا لقي من حضرات الافاضل أرباب الصحف والمؤلفين والكتاب والشعراء ماننتظره منهم من الموازرة في البحث والوضع والتنويه بنتائج علمه واذاعته للجمهور ليروا رأيهم فيه وليتزودوا منه اه

***

(المنار) : هذا خطاب الشيخ احمد الاسكندري الذي أعده للاجتماع الاول من اجتماعات نادي دار العلوم ولكنه لم يتمكن من اتمامه فيه . وقد رأى من المنكرين عليه منع التعريب ماحمله على كتابة خطاب آخر يرد فيه عليهم وعلى خطاب الشيخ محمد الخضري الذي نشرناه في الجزء الماضي . وقد القى هذا الخطاب الثاني في الاجتماع الثاني وهذا نصه

﴿ الخطاب الثاني للشيخ احمد الاسكندري ﴾

﴿ في نادي دار العلوم ﴾

أيها السادة الافاضل

اني أقف الآن موقفي منذ أربع عشرة ليلة في سبيل اداء واجب من أقدس الواجبات عليّ وهو الذود عن حياض العربية وكلاءتها من تسرب العجمة اليها وكان بودي أن أناجز مناظري الفاضل في الموطن الاول ولكن حال دون ذلك ضيق الوقت وفيما حضر استدراك لما فات

ايها السادة : كنت عنيت في الاجتماع الماضي أن أدحض أولا شبه الفريق المخالف لي في الرأي ثم أشرح بعد ذلك طريقتي في ترجمة الاصطلاحات العلمية وأسماء المخترعات الجديدة ولكن الوقت ضاق عن تمام ادحاض الشبه وبيان الطريقة فلم آت الا على شبهة واحدة منها واكتفاء بما أوضحته في رسالتي التي طبعت ووزعت على حضراتكم وعلى كثير من أهل الذكر ولبثت الجرائد توالي نشرها عدة ايام . لا أريد الليلة معاودة البحث في هذه الشبه إذ لا تخلو اعادة القول فيها من تكرار وأجعل كلامي الليلة قاصرا على شرح طريقتي وعلى المناقشة مع مناظري الفاضل في خطبته التي أوضح فيها طريقته ورد بها على مخالفيه فأقول

بلغني ان نفرا ممن يأخذون بالظنة ويثقون بوجدانهم لم يتريثوا في الحكم على طريقتنا فأرجفوا بأنها تقول ببقاء القديم على قدمه وانها تحارب كل جديد وانها تمنع الاجتهاد في اللغة كما منع من قبل الاجتهاد في الدين وانها تفرق بين اللغة وبين العلم والصناعة وانها تقاوم الرقي الطبيعي للغات وغير ذلك مما لم يكن له موضع الا تخيلهم فقط

يا حضرات الافاضل اني لم آت لحفظ لغتنا بأمر غريب وما جئت شيئا نكرا فاني لم اسلك الا الطريقة التي سلكها أسلافنا عند ما أرادوا أن يدونوا علومهم ويترجموا كتب غيرهم من الامم . كانوا رحم الله ايامهم يضعون

لاصطلاحات علومهم أسماء منقولة من العربية المحضة بنوع من التساهل والتجوز في المعنيين القديم والجديد ولم ينكر أحد عليهم ذلك حتى أهل زماننا فوضعوا مصطلحات النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية ومصطلح الحديث والتفسير وأصول الفقه وفروعه والتوحيد كما وضعوا مصطلحات العلوم التى ترجموها مثل المنطق والحكمة الالهية والطبيعة والحساب والهندسة والفلك وغير ذلك من العلوم التي لو أردت احصاء مصطلحاتها لعددت عشرات الالوف من الكلمات كلها عربية لها معان اصطلاحية ومعان لغوية ومثل ذلك آلات الصناعة والعلوم وكتاب المخصص وفقه اللغة وكتاب العين للخليل وجمهرة ابن دريد ونوادر ابن الاعرابي ومفردات ابن البيطار والمادة الطبية للرشيدي وقاموس نجاري بيك كلها بحور زاخرة باسماء النبات والحيوان والآلات

ولم يكن العرب يبتدعون ذلك من عند انفسهم بل أنهم اهتدوا فيه بهدى القرآن الكريم فاكثر الفاظ القرآن الدينية لم تكن العرب تعرفها قبل الاسلام بهذه المعاني فقد جاء الاسلام وما تعرف العرب من معنى الصلاة الا الدعاء ومن معنى التيمم الا القصد ومن معنى الزكاة الا الطهارة ومن الفسق الا قولهم فسقت الرطبة ومثل ذلك كثير فى القرآن فاستعملها في هذه المعاني الجديدة الدينية ولم تنكر العرب هذا الاستعمال. ولئن جاز ان ندخل مثل مباحثنا من الدين في باب الحظر والاباحة لقد جاز لنا ان نقول ان هذا اقرار من الله تعالى على صحة التوسع في استعمال الالفاظ اذ لو اثبتنا هذه الطريقة في تسمية الآلات والاصطلاحات الجديدة لم نكن تابعين الا للسنة التى سنها الله تعالى في تسمية كل جديد ولسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة الأئمة وواضعي العلوم ومترجميها من سلف الامة

واذا فصلنا هذه الطريقة أمكننا أن نقررها فيما يأتي

(١) لا يجوز النقل من غير لغة العرب الا الاعلام (٢) لا نأخذ الكلمة للشيء الجديد الا من غريب اللغة او القليل الاستعمال مما هو عندنا بمنزلة اللاتيني عندهم لتقليل الاشتراك بقدر الامكان (٣) ان كيفية الترجمة لا تخرج عن الطريقة الآتية :

(ثم قال بعد ان لخص طريقته التي ذكرها في الخطاب الاول)

وقد يعترض بعض المتحذلقين بقوله لا غنى لنا عن أن نترجم بعض الآلات بكلمتين فأكثر مع انها كلمة واحدة في الافرنجية . فنقول في الرد عليه أما الكلمتان فلا بأس باستعمالهما اذا كانتا لصفة وموصوف ومضاف ومضاف اليه لانهما كالشيء الواحد مثل (القباب الطيارة و (المحراث البخاري) و (سكة الحديد) ومع هذا فان اللغة الافرنجية نفسها لم تسلم من ذلك فالباخرة عندنا كلمة واحدة وهي عندهم ثلاث كلمات (باتسو آفا بور) ومثل ذلك كثير اما ما زاد على ثلاث فاننا لا نلتجيء اليه بل نسمي الكلمة التي لا تترجم تسمية جديدة كما نسمي السينمافون ومعناها الصور المتحركة الناطقة (بالخيال الناطق) . . . .

واذا قيل إن ذلك يستدعي عملا كثيراً وأزمانا طويلة ومن هم الذين يعملون معك لتحقيق هذه الامنية : أقول أني لا أريد ان أنقض هيكلا وأبنيه في ثلاثة أيام وكل عمل عظيم يستلزم صعوبة وبيننا الآن كثير من رجال العمل لا يعوزهم الا مساعدات قليلة من رجال الصحف وسراة الامة

اذا قيل : اننا نخشى أن لا نجد في اللغة أسماء موافقة لبعض المسميات الافرنجية أقول : هذا مستحيل مع ما قدمنا من الطرق الثلاث واذا علمنا ان أبا الاسود سمى علم النحو نحوا لان عليا رضي الله عنه لقنه بعض قواعده وقال له انح هذا النحو وان علماء طبقات الارض من الافرنج سموا أحد الصخور باسم (الخجل) لانهم لم يعرفوا له تركيبا تحققنا من أننا نجد حتما كل اسم والاصطلاح وحده وضع آخر

واذ سمعتم يا حضرات الافاضل طريقتي وجب على ان أشرح لكم الادلة والبراهين التي قامت عندي على صحتها

الدليل الاول ـ ان التعريب ليس من حقوقنا لاننا لم نر أحدا من أئمة اللغة انكر ان التعريب حق للعرب وحدهم وان زمنه ينتهي على أوسط تقدير الى أوائل القرن الثالث وفي هذا المقام ندفع شبهة قد وهم فيها بعضهم عند تكلمي في هذا

المقام في الاجماع الماضي . وهي قوله : تقول اننا لسنا عربا في مقام ثم ترجع وتقول في مقام آخر اننا نحافظ بمنعنا دخول الكلمات الاعجمية في لغتنا على سلامة جنسيتنا العربية . فنقول له : اننا نعني بالعرب العرب الذين يعتد بعربيتهم في اللسان لا في النسب والجنس فمثل عنترة و بلال موءذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهيب صاحبه والحسن البصري وابن سيرين وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير ونصيب وعبد بني الحسحاس وابن المقفع كلهم عرب في ألسنتهم لا في جنسهم وانسابهم فمنهم الهجين والزنجي والحبشي والفارسي والرومي ، ومثل عرب جاوه ومالطه وعرب اسبانيا وعرب المغرب والشام ومصر ليسوا عربا في ألسنتهم وان كانوا عربا في انسابهم وكذا لا ينكر أن فينا الهاشمي الذي لا يحسن قراءة الفاتحة ومثله كثير في بلاد الترك وفارس والهند والصين واذا سمانا التاريخ وعلم تقويم البلدان عربا فانما يعني علماؤهما العربية الجنسية واذا قالوا عند ذكر بلادنا ان لغتها العربية فانما يعنون ان لغة الكتابة والقراءة والعلم والتعليم هي العربية أو انهم يتساهلون في اطلاق العربية على العامية لان أكثر الفاظها محرفة عن العربية وان أساليبها لم تزل بعد عليها مسحة الاساليب العربية ولذلك لم يحرمنا أئمة اللغة حق الارتفاق بهذه الصلة اللسانية فسمونا مولدين أي اننا نصف اعراب في اللسان ان لم نكن نصف اعراب في الجنس اذن فمعنى العرب في كلامنا ما يقابل المولدين لا ما يقابل الرومي والصقلبي

الدليل الثاني — المحافظة على سلامة اللغة من فشو الدخيل فيها مع التوسع في استعمال الفاظها فاننا وجدنا العرب عند وضعهم للعلوم وترجمتهم لكتب غيرهم واقتباسهم صنائعهم لم يرجعوا في تسمية المصطلحات وأسماء الآلات الا الى التوسع في استعمال الفاظ اللغة اقتداء بالقرآن في تسمية شعائر الدين باسماء استعملت قبل القرآن فيما يشبهها كما بينا ذلك آنفا

الدليل الثالث — المحافظة على صحة فهم القرآن لاننا اذا أبحنا لنا ولاولادنا واحفادنا ادخال الالوف المؤلفة من الكلمات الاعجمية وأبحنا لهم كما يرى مناظري الفاضل اشتقاق جميع المشتقات منها كنا قد صبغنا اللغة بصبغة إفرنجية

لا يتميز معها العربي من الدخيل ولاختلط الامر وأثر الفساد في حالة مدارسة القرآن وكتب السنة

الدليل الرابع — المحافظة على البقية الباقية عندنا من الجنسية العربية فان هذه الجنسية المميزة لنا عن سوانا والتي تصلنا بأعظم أمة فاتحة ذات دين وشريعة ومدنية عظيمة لم تدم لنا الا بنسبة محافظتنا على القليل من اللسان العربي فان نحن حرسنا بهذا القليل ما نجتلبه من الاجنبي الذي سيستمر آخذاً في الزيادة وذلك في النقصان نسخ الجديد القديم ويتلو ذلك نسخ جنسنا وكفى بذلك ذلا وفناء

الدليل الخامس — توسيع نطاق اللغة العربية وجعلها لغة علم وصناعة اذ بنقلنا أسماء عربية قديمة لمعان اصطلاحية نكون قد زدنا في مدلولات اللغة والفاظها شيئا كثيرا من غير أن نحقنها بهذا المصل الغريب المجهول التأثير الذي ان لم يعجل منيتها فلا أقل من ان يخلف دنوبا في جسمها مع امكان مداواتها بغيره

الدليل السادس — عدم الاستفادة من التعريب لاننا على فرض تسليمنا جواز التعريب فما الفائدة لنا ولامم اوربا فيه . ان قلنا توحيد لسان العلم وتقربنا من أمم أوربا كما فعلوا هم يمنعنا منه عدة أمور (١) ان حروف كتابتنا عربية وحروف ممالك أوربا لاتينية وهم يكتبون حروفهم من الشمال الى اليمين ونحن نكتب حروفنا من اليمين الى الشمال (٢) ان مخارج حروفهم غير مخارج حروفنا (٣) ان قاعدة التعريب تقتضي أن تكسر الكلمة وتهشمها حتى تصير الى صورة عربية فان كانت من الكلمات التي تزيد حروفها عن سبع وجب أن نصغرها حتى تصل الى سبع ونغير بعض حروفها بأخرى ونضع في آخرها جيما اذا كان آخرها لا يستقيم كما قالوا في (تازا) طازج ثم نجمعها جموعا ليس في آخرها (s) ولا (x) أعني أننا نصهرها في بودقة ونضربها بسكة أخرى فبعد أن تكون شلنا تصير قطعة بخمسة لا يتعامل بها في اوربا ولئن كان حب التقرب من أوربا يضطرنا الى استعمال كلماتهم في لغتنا لقد حق علينا أن نستعمل كلمات من هم أحق منهم بالقربى وهم العامة في مصر والشام والمغرب والعراق مع اتفاقنا جميعا على نبذها وتعبير من يدرجها في كتابته مع ان فيها من الالفاظ الدقيقة المعنى

ماليس له نظير في الفصيح مثل كلمة (يادوب) فما لنا نكون حربا على أممنا وسلما لغيرنا

هذه هي طريقتنا وتلك أدلتنا وقد أزلت في مقامي هذا وفي الاجتماع الماضي جميع الشبه التي يمكن أن تخطر على قلب من يرى غير رأينا . وأما خطبة حضرة مناظري فانها من حسن الحظ لم تكلفنا كبير مؤونة في الرد عليها فاني بعد أن سمعتها من حضرته وقرأتها مراراً ومخضتها مخضاً لم تجد علي بأكثر من ثلاثة احتجاجات

(الاحتجاج الاول) قال ان حجتنا في منعنا التعريب هو تشبيهنا اللغة بالدين وهو احتجاج تخيله من نفسه ما قلته أنا وما قاله أحد ممن يرى رأيي ، وعلى هذا الخيال أخذ يفرق بين الدين واللغة وان هذا وضع الله وهذه من وضع الافراد الخ

(الاحتجاج الثاني) قال « ان طريقة التوسع في الاستعمال بالتجوز تجر الى تغيير في وضع الكلمة الاصلي وهذا التغيير وضع من جديد » وأنكر ذلك انكاراً شديداً فقال « اننا اذا أخذنا الكلمة واستعملناها في شيء جديد (مع قرينة) لم نكن قد جرينا على لغة العرب لاننا خالفنا أوضاعهم ومقاصدهم — الى أن قال في طريقتنا — اننا نجري على خطة لا أساس لها مع وصف الخروج عن أوضاع المتقدمين » ونقول اننا لا نتكلف الرد على هذا الاحتجاج بأنفسنا بل نكل ذلك لحضرته وكل من قرأ كلام العرب و يعرف ماهي أوضاع المتقدمين فالعرب أنفسهم استعملوا طريق التوسع في الوضع والمجاز وكلكم يعرف ان المتقدمين وضعوا لهذه المسألة وحدها علمين علم الوضع وعلم البيان وما ذاك الا أنها أصل من أصول اللغة وكل الاصطلاحات الدينية والعلمية والصناعية واسماء الآلات من هذا القبيل وهو يدرس كل يوم «معنى الكلمة لغة واصطلاحا» وهذه الطريقة التي ينكرها و يقول انها لا أساس لها وانها تخالف أوضاع العرب الخ قد نقض رأيه فيها في موضع آخر من الخطبة فانه قسم طرق الوضع الى ثلاث فقال والمعقول في اختيار اللفظ لمعنى ثلاث طرق (١) الوضع من جديد (٢) التوسع في الاستعمال وهو المراد بالتجوز بأن يكون اللفظ قد وضع بازاء مسمى ولمناسبة بين المسمى القديم والجديد يستعمل

ذلك اللفظ في المعنى الجديد فترون انه لم يكتف بأن جعل طريقتنا معقولة حتى جعلها احدى الطرق الثلاث التي هي طريقة الوضع من جديد وهذه منعها بتة ونحن نمنعها معه . والثالثة طريقة التعريب وهو يجيزها وأنا أمنعها ففيها خلاف فما بقيت الا طريقتي وهي باقراره معقولة أساسية

(الاحتجاج الثالث) وقد كرره في عدة مواضع — ان طريقتنا في التجوز تجر الى الاشتراك واشتراك الالفاظ في المعاني مما يخل بأصل المقصود منها والتجوز لا بد فيه من اقامة القرائن على إرادة ما استعمل اللفظ فيه

وقال عن نفسه وعمن يرى رأيه « وهذا وذاك كثيرا ما وقفنا حيارى في فهم المراد من بعض الالفاظ فهل نريد بعد ذلك أن نضيف الى آلامنا آلاما »

فنقول جنبنا الله الحيرة و باعدنا من هذه الآلام . فيم الحيرة وفيم التألم ؟ لا توجد لغة في الارض الا والمشترك فيها قسم مهم من أقسام اللفظ . و بعد فأي لفظ بل جملة من الكلام تفهم بغير قرينة والقرائن في الحقيقة لا تتناهي ولئن كان المشترك يحول دون فهم المعنى أو يوقع القارىء في الآلام لقد ضل واضعو العلوم ضلالا مبينا وجنوا على الناس جناية لا تغتفر بايقاعهم في الآلام والحيرة ولكنا والحمد لله لم نر مهندسا اشتبهت عليه زاوية المثلث بزاوية الكاشني ومنشور الاجسام بمنشور النظارة كما لم نر طبيبا اشتبه عليه مرض الاستسقاء بصلاة الاستسقاء

هذه هي كل ما في خطبة مناظري الفاضل في احتجاجه على طريقتنا و باقي ما فيها مقدمة ليست من موضوع البحث وحكاية الطريقة التي كانت العرب تتبعها في مثل الباء والفاء الفارسيتين وهي ليست من موضوع الخلاف . ثم نتيجة قرر فيها أنه لا يسمح بوضع اسم عربي لمسمى حديث الا اذا دل عليه بنفسه (يعني لا بقرينة) و بذلك قد حرم طريقة التجوز بتاتا

هذا ما رأيته في شرح طريقتي ورد الشبه التي ترد عليها والله اسأل أن يعصمنا من الزلل و يجنبنا الخطأ و يمدنا بروح منه والسلام عليكم ورحمة الله

احمد الاسكندري

الاسلام فماذا يضر اللغة بعد ذلك اذا كثرت اصطلاحات الفنون المعربة او قلت واذا نحن قصرنا في حفظ هذا الاساس المتين فماذا يفيدنا جعل مصطلحات الفنون من المواد العربية ونحن نستعملها في غير ما استعملتها به العرب ؟

اننا بهذه الكلمات نقضنا أدلة منع التعريب وهدمنا هيكلها المسدس فاما الدليل الاول وهو اتفاق أئمة اللغة على أن التعريب ليس من حقوقنا فقد بينا انه اتفاق على التسمية فلنسم ما نعربه الآن مولدا كما سموا ما عربه من قبلنا من العلماء المولدين او محدثا كما أختار

واما الثاني وهو المحافظة على سلامة اللغة والاقتداء بالعرب في وضع العلوم وترجمتها فقد بينا ان التعريب لا يعرض سلامتها للخطر وانه لا نخرج به عن اتباع سلفنا الذين ترجموا علوم اليونان . وانما يرد علينا هذا اذا التزمنا طريقة الخضري وهي الا كتفاء بالتعريب عن الترجمة والوضع الجديد وما نحن بملتزميها فاننا لم نقبل من طريقته الا جواز التعريب وقيدناه بقيد الحاجة اليه

واما الثالث وهو المحافظة على فهم القرآن وكتب السنة فقد علم مما قدمناه انه مهما اتسعت دائرة الفنون عندنا وكنا نقيم القرآن والحديث ونجعلهما أساس بلاغتنا وينبوع هدايتنا فان ضعف أسلوب تلك الفنون لا يصدنا عن اكتساب ملكة البلاغة ولا فهم القرآن وكتب السنة والاهتداء بها . وأزيد على ذلك فأقول . إن العناية بالقرآن وكتب السنة إنما تقوى في المسلمين بقوة الدين وتضعف بضعفه فما دمنا مسلمين نتعبد بالقرآن ونهتدي به وبكتب السنة فاننا لا نزداد بزيادة معارفنا الا قوة في ديننا وانما يخشى أن يصدنا عن القرآن والسنة بقاؤنا على التقليد الاعمى مع مهاجمة المدنية الغربية لنا بإباحة المحظورات وتقطيع الروابط الملية بشبهة الجنسية والوطنية ، وتلون السياسة ، لا باسماء المخترعات وتجدد الاصطلاحات العلمية التي يمكن لنا استعمالها مع المحافظة على كل ما عندنا وان عربنا بعض الفاظها فان التعريب لا يضعف اللغة وانما يمدها ويغذيها

واما الرابع وهو المحافظة على الجنسية العربية فقد علم من كلامنا ان التعريب وهو جعل بعض الكلم العجمي عربيا لا يضعف الجنسية بل يقويها ويوضحه

ما ذكرناه آنفا في الكلام على الدليل الثالث . ونزيد عليه بأنه يجب علينا ان نجهد في تعميم التعليم بالعربية بقدر الاستطاعة وان يكون حظنا من اللغات الافرنجية نقل العلوم ونشرها بألسنتنا وذلك لا يتم لنا الا بتسهيل طرق النقل ومنه التعريب فاباحته تأتي بنقيض ما يخافه الاسكندري بالشرط الذي اشترطناه وهو ان يكون بقدر الحاجة حتى لا يعسر على نقلة العلوم نقلها فنضطر الى تعلمها بلغات واضعيها

وأما الخامس وهو توسيع نطاق اللغة فأمره أظهر فالتوسعة انما تكون في تسهيل نقل العلوم لا في ضده

وأما السادس وهو عدم الاستفادة من التعريب فهو ممنوع على اننا نفوض الأمر فيه الى المجمع اللغوي مع جعله مباحا

***

ترجمة الصناع وغيرهم من العامة

هذا وانا نرى العامة تسرع الى وضع أسماء جديدة لكل ما يصل اليها من أجناس المخترعات . وقد وقفت على أكثر أسماء أدوات آلات الطباعة وما يتعلق بها فرأيتها عربية قد تجوّز بها الصناع بالتشبيه بأعضاء الانسان وغيرها ومنها الاسماء الآتية : الذراع والفخذ والأصابع والاسنان ويشتقون من الاسنان فيقولون مسنن . وفي آلة الخياطة هنة صغيرة يسمونها السنة ويعنون بها السن الصغيرة . ومنها ما يسمونه بالوجه وهو ما يقابل وجه العامل الذي يقف امامها . ومن التشبيه بغير أعضاء الانسان الترس والطنبور والسكينة والدائرة والقمة والحوض (لموضع الحبر من آلة الطبع) وتراهم قد عربوا بعض الاسماء تعريبا إذ لم يهتدوا بسليقتهم الى اسم مجازي لها وهو أقلها ومنه الشلندر والياي والصامولة

ولو عرضت هذه الأدوات والهنات على الخاصة منا لحاروا في تسميتها وكانت عندهم موضع الخلاف والنزاع والقيل والقال واتسع فيها مجال المناظرات . وما

بسبب ذلك الا ان هؤلاء الخواص قد ضعفت فيهم ملكة اللغة العامية بما زاولوه من فنون الاعراب والبيان ولم يصلوا الى إحكام ملكة للغة الفصحى فملكتهم مذبذبة بين صنعة الفنون وملكة العامية

فعامة أهل البلاد التي تسمى عربية كالعراق وسوريا ومصر والمغرب يجوز أن يسموا الآن عربا بالجنس واللغة اذ ليس لهم لغة الا العربية ولا يمنع ذلك ضعف اللغة في ألسنتهم بما فتكت بها العجمة فان ضعف الشيء لا يخرجه عن ماهيته فالانسان الضعيف انسان والدولة الضعيفة دولة كذلك اللغة الضعيفة لغة. ومداواة الضعف مما يدخل في مقدور الناس اذا كان كنه المرض معروفا ودواؤه معروفا

واني أرى ان جميع المفردات التي يتألف منها كلام أهل سوريا ومصر عربية الاصل الا مايعرف له أصل أعجمي من التركية أو الفارسية أو اللغات الافرنجية وهو الأقل وكذلك أساليب الكلام عندهم لا تزال كأساليب العرب في الغالب . ولعل ألسنة أهل العراق والحجاز، أقوم من ألسنة أهل مصر والشام، كما ان ألسنة أهل هذين القطرين أقرب الى العربية الفصحى، من ألسنة أهل المغرب الأدنى والأقصى ،

انني اعرف من نفسي الضعف في اللغة العامية حتى ان الكلمات التي يشكل عليّ فهمها من كلام العوام تكاد تكون اكثر من الكلمات التي يشكل عليّ فهمها في كتب الادب والتاريخ ولكنني قلما اشكلت عليّ كلمة عامية فراجعت لها معاجم اللغة الا وجدت فيها اصلها ومن الكلم الصحيح مايشكل عليك معناه بعد المراجعة في المعاجم وهو لا اشكال فيه عند العامة . اذكر انني راجعت مرة جميع ماعندي من المعاجم لأفهم معنى البنيقة في قول مجنون ليلى

يضم اليّ الليل ابناء حبها   كما ضم ازرار القميص البنائق

فما زادني ذلك الا حيرة ولم أفهم مسمى البنيقة فهما واضحا يمكنني تعيينه بالاشارة اليه ولكنني عرفت ذلك بعد من والدتي

ألا ليت بعض اهل الغيرة يجمع لنا الكلم المحرف على ألسنة العامة ويرجعه

الى اصله الفصيح لعله يسهل علينا بعد ذلك ان نضبط طرق التحريف فنستفيد من هؤلاء العوام ما يعز علينا ان نستفيده من معاجم اللغة التي تفسر اللفظ في الغالب تفسيرا لا يحدد المعنى . وعند ذلك نعلم ان عندهم من اللغة مالا يمكن الاستغناء عنه بالكتب التي نعتمد عليها في حفظها

من المشهور عندنا انهم يبدلون القاف همزة فاذا سمعناهم يقولون « بنيئة الاميص » نعلم ان اصل العبارة بنيقة القميص ولكن لهم ضروبا اخرى من التحريف تخفى على غير المدقق فمن ذلك انني كنت اسمع الفلاحين في بلدنا يقولون « فلان يحرط بسنانو » اذا سحق بعض انيابه على بعض من الغيظ حتى سمع لها صريف. وقد وقفت بعد هذا على قول العرب « حرق عليك الأرّم ويحرق عليك الارم » كقول الشاعر

نبئت أحماء سليمى انما   باتوا غضابا يحرقون الارّما

فلم يغنني ما احفظ من استعمال العامة « حرط الاسنان » عن مراجعة حرق الارّم وهو هو لاني لم اكن أعلم انهم يبدلون القاف طاء في بعض الاحيان

وجملة القول ان لغة عامتنا عربية فيها تحريف لا يخرجها عن كونها هي اللغة العربية ولا يخرجهم هم من عداد أهل اللغة . ويغلب على ظني ان العرب الخلص لم تكن تسلم من التفاوت في حديثها بحيث تلتزم الاعراب واظهار الحركات في الشعر والخطابة والمماتنة والوصف دون الكلام العادي وحسبنا هذا الالمام الآن

واذا كانت لغة عامة أهل الامصار التي استعربت بعد عجمة تعد عربية مريضة فلغة اهل جزيرة العرب عامة وقبائل الاعراب منهم خاصة عربية أقرب الى الصحة واننا في حاجة الآن الى فهم معاجمنا من الفريقين لنتمكن بعد ذلك من وضع معجم أو معاجم أخرى تحدد المعاني تحديدا موضحا بالصور والرسوم على الطريقة التي تليق بمعارف هذا العصر وقد سبقنا اليها الغربيون الذين صرنا محتاجين للسير على طرقهم في جميع ما يصل اليه كسب البشر وجدهم

رأي كبار ساسة الغرب

في الحركة المدنية الجديدة في الشرق

قول كرومر في مصر والشرق

خطب لورد كرومر في مجلس الأعيان بلندره خطبة في موضوع اتفاق انكلترا وروسيا الأخير فيها كثير من العبر لنا ان كنا نعتبر فأحببت أن انبه الى ذلك بنقل جمل من ترجمة الخطبة ثم الاشارة الى مواضع العبرة فيها

قال : « ان الحال التي طرأت على الشرق منذ اعوام طوال وهي حال الانتقال من طور الى طور قد اشتدت وتعاظمت في هذه الأيام . فاننا نرى الغرب يسعى الى ادخال آرائه وأفكاره على الشرق في كل مكان أو الشرق يسعى من تلقاء نفسه لان يقتبس من الغرب نظاماً للأحكام لم يألفه ولم يكن يعرفه . فأفضى ذلك الى إلقاء العناصر المتناقضة المتضادة كلها في بوتقة سياسية اجتماعية ادارية واحدة لتذوب وتصهر فيها ولا يعلم الا الله ما تكون نتيجة صهرها وامتزاجها معاً

«أما العناصر المتضادة المشار اليها فاذكرها الآن بالايجاز املاً أيها السادة ان أقنعكم بان لكلامي عنها دخلاً حقيقياً في مسألة الاتفاق الانكليزي الروسي :

فأولاً اننا نرى العواطف الدينية المتأصلة في النفوس تصارع اللاأدرية أو ما يقرب من اللاأدرية في كل مكان ولا ريب ان اتصال الغرب بالشرق يؤول الى زعزعة الأركان الأدبية التي يقوم عليها بناء الهيئة الاجتماعية الشرقية كلها . وثانياً اننا نرى في كل مكان تقريباً اقواماً ذوي عادات قديمة وآراء وأفكار شائعة وميل شديد الى بقاء القديم على قدمه يتشكون اليوم الجري في الأحكام على طرق غريبة عن الشرقيين ولا سابق علم لهم بها .

وثالثاً ان بين الخاصة المتعلمين والعامة الأميين في كل مكان من الشرق وخصوصاً في الهند ومصر بوناً بعيداً وهوة عظيمة اما العامة فلم يحصلوا في هذه

الأيام الا على قليل من المعارف التي تزحزح حجب الجهل عن بصائرهم واما الخاصة المتهذبون فعلى جانب عظيم من المعرفة ولكنها غير مختمرة بخمير الاختبار والعمل وهم يحاولون ان يحلوا بهذه المعرفة بعضاً من أعوص المسائل وأعسر القضايا التي يشغل حلها عقول الفحول من أهل السياسة والادارة

ولا ننسَ بعد ما ذكرنا اننا نلاقي في بلادنا هذه صعوبات كثيرة . فان نمو الديمقراطية وانتشارها في بلادنا زاد صعوبات القضية التي وصفها المستر بريط منذ اعوام بقوله « انها قضية حكم شعب على شعب » يعني تدبير الشعب الانكليزي لأمور الشعب الهندي . فليت الذين يشتغلون منا بالسياسة في هذه البلاد وهم لا يسئلون عما يفعلون، فيجزمون في الأمور ويبتون، ويقولون ما يشاءون عن هذه المسألة الشرقية ولا يحتاطون، ولا يقدرون عواقب ما يقولون — ليت هؤلاء يتذكرون احياناً تحذير الدوق ولنجتون حيث قال مخاطباً القوم « ان كنتم تضيعون الهند يوما فكونوا على يقين ان البرلمان هو الذي يضيعها لكم » (استحسان) والذي أتذكره ان دوق ولنجتون انما قصد مجلساً واحداً من مجلسي البرلمان وهو غير مجلس الاعيان (ضحك واستحسان) .

ولا يغيب عن الاذهان أيضا ان الحروب اليابانية الاخيرة أثرت في عقول الشرقيين تأثيرا عظيما وخصوصا عقول اهل الشرق الاقصى ولا عجب في ذلك كله فانما هو نتيجة اختلاط الشرق بالغرب وانتشار التمدن وتقدم المعارف والتعليم واتباع سياسة العقل والكمال التي لا تبقى الشعوب المحكومة غائصة في ظلمات الجهل حتى يسهل حكمها على الشعوب المتوسطة عليها . ولكن ذلك مما يوجب التفكير والتدبر ايضا . لا اقول انه يوجب الهم والقلق وانما اقول انه يوجب على الامم التي لها املاك في الشرق ان تزيد عناية وسهرا ويقظة وحذرا عما كانت عليه في كل ما غبر من تاريخها اذ ليس يعلم أحد ما ستكون نتائج الاختمار الذي تطرق الى افكار اهالي الشرق الاقصى بعد ما اضحى مبدأ الجنسية يتأصل في الشرق ويحل محل الروابط الاخرى التي كانت تربط الناس هناك معا . على اني أستنتج منذ الآن نتيجة يؤمن الخطأ فيها وهي ان المنافسات والمناظرات التي بين الامم

الغربية المخالطة للامم الشرقية قد زادت الصعوبة جدا في حل كل المسائل الشرقية .

(وهنا ذكر مسألة المغرب الاقصى ومكدونية ثم قال)

وتأملوا مصر ايضاً فاني منذ نحو سنتين ارسلت رسالة الى نظارة الخارجية البريطانية شرحت فيها اخطار حركة الجامعة الاسلامية على مصر فتوهم قوم اني بالغت في امر تلك الاخطار .ولتدارك تلك الحركة في الحال وتسكينها بوجه السرعة ظنوا ان توهمهم لم يخل من الصحة . على انني لم ابالغ في ما قلت بل اني اشبه ما يسمونه بحادثة سينا اليوم بصورة جلية واضحة ألقيت من فانوس سحري على حجاب سياسي فجلت الحقيقة لبصائر المتأملين وابانت ان الضغائن القومية يمكن ان تهيج وتتعاظم بسرعة عظيمة واظهرت الصعوبات الحقيقية المستبطنة كل القضايا المتعلقة بالأحكام الشرقية فالنتيجة التي أستنتجها هي وجوب الترحيب بكل ما من شأنه تخفيف الخطر الذي ينجم عن تنافس الدول الاوربية وتناظرها في المسائل الشرقية . ولذلك ارحب بهذا الاتفاق بين انكلترا وروسيا لانه يؤدي الى توطيد اركان السلام في البلدان التي له علاقة بها ويسهل علينا حل القضايا الاوربية الاخرى التي يكون لهذه البلدان شأن عظيم فيها (استحسان) اه المراد من الخطبة

وجوه العبرة في كلام اللورد

العبرة في كلام اللورد من وجوه (أحدها) قوله ان الغرب يسعى الى ادخال آرائه وأفكاره على الشرق . فيجب على المشتغلين بالمباحث الاجتماعية منا ان يفهموا غرض الغرب من ذلك ليعرفوا هل هو خير لهم ام شر ام هو بين ذلك

(ثانيها) تمثيله لحالنا في ذلك الانتقال بإلقاء العناصر المتناقضة كلها في بوتقة سياسية اجتماعية ادارية لتذوب وتصهر فيها . فيجب علينا ان نفقه معنى هذا التمثيل . ما هي هذه العناصر ؟ من هم الملقون لها في هذه البوتقة لتذوب فيها؟ ما هو غرضهم من اذابة عناصرنا وما هو حظنا منه ؟ هل نحن على بينة من هذا العمل وهل لنا اختيار فيه من حيث هو عمل اجتماعي كبير تنتقل به الامة من طور تعرفه الى طور تتخيله فتحسب انها تعرفه وهي لا تعرفه ؟؟

(ثالثها) تبرؤه من العلم بنتيجة ذلك العمل الذي أبرزه في قالب التمثيل

وتفويضه الى الله وحده فاذا كان مثله في علمه وعمله ، وحنكته واختباره ، وكونه من أشهر صاغة البوتقة التي هي آلة صوغ الامم والشعوب لا يدري نتيجة عمله وعمل امثاله فهل يسهل على العناصر التي في البوتقة ان تكون أعلم بهذه النتيجة ؟؟ يجب التأمل الطويل وعدم الاغترار بالاحداث المعجبين بما أخذوا عن الافرنج من الافكار والعادات التي هي علل الانقلاب

(رابعها) قوله ان العواطف الدينية الراسخة في نفوس اهل الشرق امست تصارع الالحاد والتعطيل وجزمه بأن اتصال الغرب بالشرق يؤول الى زعزعة الاركان الادبية التي يقوم عليها بناء الهيئة الاجتماعية الشرقية كلها . ويمكن جعل هذين القولين مقدمتين لقياس منطقي ينتج نتيجة مزعجة جدا . فاذا كان الاحداث الذين يتبعون كل ناعق بالوطنية والجنسية يحسبون ان هدم اركاننا القديمة امر نافع لسهولة احداث بناء آخر من الجنسية الوطنية فان اصحاب العقل والروية يرون ان البناء اعسر من الهدم واننا نستقبل اخطاراً كبيرة في التحول والانقلاب أراها اشد هولا مما تشير اليه هاتان المقدمتان من كلام اللورد اللتان اشار الى نتيجتهما بعد بقوله ان مبدأ الجنسية يتأصل في الشرق ويحل محل الروابط الاخرى

« خامسها » قوله في خواص المتهذبين والعارفين منا أن معرفتهم غير مختمرة بخميرة الاختبار

« سادسها » بيان التفاوت بين عامة الشعب وخاصته .وهذا التفاوت يكون دائما مثار التخالف والامة لا تقوى وتعتز الا اذا تكونت من أفراد متقاربين في الافكار والاخلاق والعادات . ألا ان هذا التفاوت بين افرادنا وبيوتنا لمثار خطر عظيم

«سابعها» وهو بالنسبة الى المصريين اهمها قوله «ان الضغائن القومية يمكن ان تهيج وتتعاظم بسرعة عظيمة » فهذا أقوى ما يهيج أهل أوربا على أهل الشرق!!

« ثامنها » كلامه في الاخبار الذي تطرق الى اهل الشرق الاقصى ـ وهو الذي حكم بحرمان اهل المعرفة والتهذيب في الشرق الأدنى منه ـ وقد يوضح هذا النوع من العبرة ما كتبه مكاتب التيمس في بكين عاصمة الصين اليها في ذلك وهاك موضع العبرة منه نقلا عن المقطم بتصرف لفظي يسير وعنوان جديد وهو :

نهضة الصين

﴿ وسبب ارتقاء اليابان ﴾

قالت التيمس: «يؤخذ من رسالة مكاتبنا ان مملكة الصين الضخمة دفنت في هذه الأيام افكاراً قديمة مضى عن رسوخها في اذهان ابنائها قرون عديدة واندفعت بعزم شديد لا يرد ولا يقاوم الى اقتباس التعلم الغربي والاهتداء بمعالمه الى مناهج التقدم والارتقاء. ولا شك ان هذا النهوض بعد ذلك السبات يعد دليلاً على الشعور الحي في نفوس الصينيين ولا سيما الطبقات المتوسطة منهم فقد طلبوا من الحكومة بصوت واحد ان تتحدى اليابان في اقتباس التعليم الغربي. ولما رأت الحكومة هذه النهضة العامة لم يسعها الا ان تجاريهم وتجيبهم الى مطالبهم لأن الزمان الذي كانت تلك الطبقات تحترم فيه التقاليد القديمة وتنقاد الى الحكومة وذوي الشأن قد مضى وفات منذ انتصرت اليابان على روسيا بل منذ اشتبكت الحرب بين الصين واليابان فان هذه الحرب كانت عبرة وعظة للصينيين اذ دلتهم على ان قاعدتهم في التعليم عقيمة لا تأتيهم بثمرة ولا تنشيء منهم رجالاً يديرون دفة السياسة ويتفننون في نظام الجندية. أما الحرب الثانية بين روسيا واليابان فقد علمتهم ان التعليم الغربي يضمن لأمة شرقية فوزاً مبيناً على أعظم دولة غربية

ولكنهم أخطأوا في نظرهم لأنهم نسبوا نجاح اليابان وفوزها الى ما اقتبسته من علوم الغربيين وفنونهم والحال ان العلوم والفنون لم تفدهم بقدر ما أفادتهم كفاءتهم وصفاتهم الشخصية. والتمدن الأوربي انما يعد حلقة وصلها اليابانيون بما أوتوه من شدة الذكاء والاستعداد الشخصي فتم لهم ما أرادوا وعدت دولتهم في مصاف الدول العظمى. ولو وقف الأمر عند حد التمدن الذي اقتبسوه لما نجحوا ولا بلغوا هذه الدرجة. فالمصلحون الصينيون يحسبون تقدم اليابان نتيجة التمدن الغربي فقط وبعبارة أجلى انهم يريدون الاستمساك بأحد العاملين اللذين ارتقى بهما اليابانيون والاضراب عن العامل الآخر وهو أهم من الأول وادعى

الى العناية والاستمساك فاذا اهتموا به وعالجوا أدواءهم الشخصية وقوموا المعوج من عاداتهم وتقاليدهم وكان لهم ذكاء اليابانيين وكفاءتهم فانهم يدركون ما أدركه اخوانهم والا فان التمدن الاوربي والتعليم الغربي لا يفيدانهم شيئاً ولا ينقعان لهم غلة

وهب ان هذه الحركة الجديدة تعود بالنفع على الصينيين لكن التعليم الغربي عزيز المنال على الشعب الشرقي الا اذا كان أفراده يستأصلون من نفوسهم ذلك الشعور الراسخ ويراعون مقتضى التعليم الغربي من كل وجه. فانه يغير العادات والاخلاق والعقليات والأدبيات ويقضي على التقاليد والخرافات قضاءً مبرماً. فاذا كان في وسع الصينيين ان يفعلوا ذلك كله فالنجاح منهم على طرف الثمام والا فان انقسمت كلمتهم وانتصر قوم للحديث وآخرون للقديم أدى أمرهم الى فوضى عظيمة تحصدهم حصداً فيكون التعليم الغربي قد أفضى الى الهيجان والاضطراب بدلاً من ان يكون وسيلة الى التقدم والارتقاء. وهذا شأن كل أمة شرقية تتلقى التعليم الغربي قبل الاستعداد له والوثوق بكفاءتها للجري على مقتضاه

أما اليابانيون فلم ينجوا من هذه الفوضى الا في الزمان الأخير من تشبههم بالأوربيين فقد كان بين المصلحين منهم جماعة من أعضاء الاسرة المالكة تلقوا التعليم الأوربي وتشربوا مبادئه من غير ان يشعروا بما يؤثر في عاداتهم واخلاقهم لأنهم كانوا مستعدين له بالفطرة وليس للتقاليد سلطة على أفكارهم. فنجحوا ونفخوا روح التعليم الغربي في نفوس مواطنيهم ثم سرت هذه الروح تدريجاً من طبقة الى أخرى حتى كان من أمر اليابان ما نراه الآن. ولولا كفاءتهم وصفاتهم الأدبية وميلهم الغريزي الى الأصول الأوربية لعاد مسعاهم في تحصيل التعليم الغربي وبالاً عليهم اه

«المنار» العبرة في هذا الكلام كله ظاهرة لمن له عين تبصر واذن تسمع وعقل يفكر وقلب يشعر فقد سبق قومنا اليابانيين في هذه البلاد وفي الاستانة الى اقتباس التعليم الغربي والمدنية الاوربية بنحو نصف قرن وهذه حالنا في الانقسام والتفرق. ففي مثل هذه المباحث فلتبحث الجرائد باقلام كتابها واقلام سائر الكاتبين المتبصرين

حجة الاسلام أبو حامد الغزالي

(٤)

تتمة الكلام في رأيه في العلوم الدنيوية

« تابع لما في الجزء التاسع »

(مقدمة رابعة)(١) من عظائم حيل هؤلاء في الاستدراج اذا أورد عليهم اشكال في معرض الحجاج قولهم ان هذه العلوم الالهية، غامضة خفية، وهي أعصى العلوم على الافهام الذكية، ولا يتوصل الى معرفة الجواب عن هذه الاشكالات، الا بتقديم الرياضيات والمنطقيات؛ فمن يقلدهم في كفرهم ان خطر له اشكال على مذهبهم يحسن الظن بهم ويقول لاشك أن علومهم مشتملة على حله وانما يعسر علي دركه لاني لم أحكم المنطقيات ولم أحصل الرياضيات

(فنقول) أما الرياضيات التي هي نظر في الكم المنفصل وهو الحساب فلا تعلق لها بالالهيات وقول القائل ان الالهيات تحتاج اليها خرق كقول القائل ان الطب والنحو واللغة يحتاج اليها الحساب أو الحساب يحتاج الى الطب. وأما الهندسيات التي هي نظر في الكم المتصل يرجع حاصله الى بيان ان السموات وماتحتها الى المركز كروي الشكل وبيان عدد طبقاتها أو بيان عـدد الاكر المتحركة في الافلاك وبيان مقدار حركاتها فلنسلم لهم جميع ذلك جدلا أو اعتقادا فلا يحتاجون الى اقامة البراهين عليه ولا يقدح ذلك في شيء من النظر الالهي وهو كقول القائل « العلم بأن هذا البيت حصل بصنع صانع بناء عالم مريد قادر حي يفتقر الى أن يعرف أن البيت مسدس أو مثمن وان يعرف عدد جذوعه وعدد لبناته » وهو هذيان لايخفى فساده وكقول القائل «لا يعرف كون هذه البصلة حادثة مالم يعرف عدد طبقاتها ولا يعرف كون هذه الرمانة حادثة مالم يعرف عدد حباتها » وهو هجر من الكلام مستغث عند كل عاقل

(١) من مقدمات كتابه تهافت الفلاسفة

« نعم قولهم ان المنطقيات لا بد من أحكامها هو صحيح ولكن المنطق ليس مخصوصا بهم وانما هو الاصل الذي نسميه في فن الكلام « كتاب النظر » فغيروا عبارته الى المنطق تهويلا وقد نسميه كتاب الجدل وقد نسميه مدارك العقول فاذا سمع المتكايس والمستضعف اسم المنطق ظن أنه فن غريب لايعرفه المتكلمون ولا يطلع عليه الا الفلاسفة ونحن لدفع هذا الخيال، واستئصال هذه الحيلة في الاضلال، نرى ان نفرد القول في مدارك العقول في غير هذا الكتاب ونهجر فيه ألفاظ المتكلمين والاصوليين بل نوردها بعبارات المنطقيين ونصبها في قوالبهم ونقتفي آثارهم لفظا لفظا ونناظرهم في هذا الكتاب بلغتهم أعني بعباراتهم في المنطق ونوضح ان ماشرطوه في صورته في كتاب القياس وما وضعوه من الاوضاع في ايساغوجي وقاطيغورياس (١) التي هي من أجزاء المنطق ومقدماته لم يتمكنوا من الوفاء بشيء منه في علومهم الالهية ولكنا نرى ان نفرد مدارك العقول في غير هذا الكتاب فانه كالآلة لدرك مقصود هذا الكتاب ونفرد له كتابا مفردا يرجع اليه ولكن رب ناظر يستغني عنه في الفهم فيؤخره حتى يعرض عنه من لا يحتاج اليه ومن لا يفهم ألفاظنا في آحاد المسائل في الرد عليهم فينبغي أن يبتدىء اولا بحفظ الكتاب الذي سميناه معيار العلم الذي هو الملقب بالمنطق عندهم » اه كلام ابي حامد في فاتحة كتابه تهافت الفلاسفة. وذكر بعد ذلك فهرس المسائل التي اظهر تناقض مذهب الفلاسفة فيها وهي عشرون مسألة ثم قال مانصه:

« فهذا ما اردنا ان نذكر تناقضهم فيه من جملة علومهم الالهية واما الرياضيات فلا معنى لانكارها ولا للمخالفة فيها فانها ترجع الى الحساب والهندسة. واما المنطقيات فهي نظر في آلة الفكر في المعقولات ولا يتفق فيه خلاف به مبالاة »

وقد علم مما نقلناه عن كتابه المنقذ من الضلال ان المسائل العشرين من

(١) لم يكد يشتهر من الكلم اليوناني في المنطق العربي غير هاتين الكلمتين فالاولى (ايساغوجي) وهي علم على الكليات الخمس والثانية (قاطيغورياس) وهي عبارة عن المقولات العشر

الفلسفة الالهيـة التي بين في هذا الكتاب تناقضهم فيها ليست الا أغلاطا وابتداعات الا ثلاث مسائل عدها من الكفر وهي (١) انكارهم البعث الجسماني زاعمين ان الثواب والعقاب في الآخرة يكونان على الارواح المجردة . و (٢) زعمهم ان العالم قديم أزلي . و (٣) زعمهم ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات (راجع ص ٦٩٩) واما الرياضيات والمنطقيات فليس فيها شيء يسمى بدعة ولا كفرا بل هي علوم حقيقية نافعة وكذلك الطبيعيات وان كثرت فيها الى عهده النظريات

ولعمري انه لولا تساهله وتسامحه لاستخرج اكثر من هذا من أغلاطهم المبنية على نظرياتهم الفاسدة . وما حمله على تلك الحملة عليهم الا ما رآه من كسر كثير من المغرورين بعلومهم لقيود التقوى، وتبجحهم بضروب الفخر وزخرف الدعوى، حتى كادت تعم بفتنتهم البلوى ، ولم يكن لها في عصره فائدة دنيوية تذكر . وقد كان رحمه الله فيلسوفا عمليا لا نظريا فقط ألم تر كيف جعل المسائل الطبيعية من لباب الدين بما نفخ فيها من روحه في كتاب التفكر من الاحياء اذ يبحث فيه عن اعضاء الانسان ووظائفها وحكمها ومما تتألف منه على طريقة الاطباء حتى انه يذكر عدد عظام العضو . كذلك يبحث في الارض والهواء والبحار والحيوان والنبات بحثا يدل على انه كان واقفا على علوم التاريخ الطبيعي كما انتهى اليه علم الفلاسفة في عصره الى ما له هو من الرأي المبتكر فيه ومنه ان المـاء ليس عنصرا بسيطا كما كانوا يقولون بل هو مركب وقد حقق رأيه المتأخرون .

ومما بينه من طبائع الحيوان قوله في الكلام على اصناف الحيوانات من كتاب التفكر « لو اردنا ان نذكر عجائب البقة او النملة او النحلة او العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي الفها لزوجها وفي ادخارها لقوتها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها الى حاجتها لم نقدر على ذلك فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب اولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلصق به ثم يغدو الى الجانب

الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى اذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة فاذا وقع الصيد بادر الى اخذه واكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير فاذا طارت رمى بنفسه اليه (١) فاخذه ولف خيطه على رجليه واحكمه ثم اكله .

« وما من حيوان صغير ولا كبير الا وفيه من العجائب ما لا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه او كوّنه آدمي أو علمه ؟ اولا هادي له ولا معلم؟ افيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز ؟ بل الفيل العظيم شخصه، الظاهرة قوته، عاجز عن أمر نفسه ، فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ افلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم، وخالقه القادر العليم؟ فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات . وهذا الباب ايضا لا حصر له فان الحيوانات واشكالها واخلاقها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهـدة . نعم اذا رأى (الانسان) حيوانا غريبا ولو دودا تجدد عجبه وقال : سبحان الله ما أعجبـه ! والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه » اه

فعلم من كل ما تقدم أن رأي الغزالي في العلوم الدنيوية بطريق التفصيل هو أن كل علم يحتاج اليه الناس في معايشهم ومصالحهم فهو من فروض الكفاية وما زاد عن الحاجة من مباحثه الكمالية يعد فضيلة لا فريضة كما صرح به في الكلام على علم الحساب من الاحيـاء . وما لا يحتاج اليـه منها الا لنحو تسلية فهو

(١) هكذا ذكر الضمير مذكرا في هذه الكلمة ومابعدها ولعله قد سقط قبلها كلام فيه ذكر الصيد مثل « جعلها (أي الذبابة) صيدا » رمى بنفسه اليه الخ

مباح مالم يكن فيه ضرر أو مفسدة دينية او دنيوية . وأن ما كان ضارا منها فهو محرم كالسحر والتلبيس والدجل . وان العلوم الرياضية لا ضرر في شيء منها وان العلوم الطبيعية اذا قرنت بالعبرة وتنبيه الذهن الى ما فيها من الحكم الدالة على علم الخالق وحكمته ورحمته تكون من علوم الدين التي حث عليها القرآن واذا اتبعت فيها الطريقة النظرية اليونانية تكون قليلة الجدوى كثيرة الاغلاط ولكن الغلط فيها لا يصادم عقيدة الاسلام ولا يقتضي خروج صاحبه من الدين . وان في الفلسفة الالهية ثلاث مسائل تعد من الكفر الصريح . وقد ذكرناها آنفا . وأن علم المنطق من مقدمات علم الكلام . وأما علم الكلام فهو ضار بالعوام ويجب ان لا يوجه الا لمن عرضت لهم الشبه في عقائدهم أو لمجادلة من يوجهون الشبه الى المسلمين لتشكيكهم في دينهم كما سيأتي: وهو عنده وعند علماء الصوفية العارفين غير علم التوحيد ولذلك جعل للتوحيد والتوكل كتابا في الاحياء غير كتاب قواعد العقائد. على ان ما كتبه في قواعد العقائد ليس فيه من جدل المتكلمين الا قليل بقدر الضرورة . وقد علمت ان المتكلمين مزجوا بين جميع العلوم الطبيعية والفلسفة اليونانية وبين العقائد الاسلامية وسموا ذلك كله علم الكلام ولذلك قيل ان موضوع علم الكلام هو الوجود والغزالي لا يعده من علوم الدين

بل من رأيه ان علم الاحكام الذي يسمونه الفقه من علوم الدنيا لا من علوم الدين وأن طلاب الآخرة يكتفون من هذا العلم بقدر ما يحتاج اليه فى القضاء والافتاء ولا يشتغلون باستنباط مالا تدعو الحاجة اليه بل يصرفون سائر الوقت في علم الدين والعمل الذي يقرب العبد من ربه عز وجل كما نفصل ذلك في الفصل الآتي

(رأيه في العلوم الشرعية)

قسم العلوم في الباب الثاني من كتاب العلم من الاحياء الى محمودة ومذمومة والمحمودة الى شرعية وغير شرعية . وقد تقدم بيان رأيه في العلوم غير الشرعية وأن منها ما هو فريضة وما هو فضيلة وما هو مباح . وقال « واما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعوذة والتلبسات » ثم تكلم بعد ذلك في العلوم الشرعية

وقبل أن نذكر تفصيل رأيه فيها نذكر رأيه فى العلم الذي هو فرض عين :

العلم الذي هو فرض عين

وذكر في اول الباب الثاني اختلاف العلماء في العلم الذي هو فرض عين على كل مكلف وزعم كل من غلب عليه علم من التفسير والحديث والكلام والفقه والتصوف ان علمه هو فرض العين . وجزم هو بأن فرض العين هو العلم بمعنى كلمتي الشهادة وما يتبعه من العقائد السمعية من غير شك ولا اضطراب والعلم بالطهارة واحكام الصلاة عند دخول وقتها وباحكام الزكاة عند وجوبها على المكلف وكذلك الحج وباحكام الصوم عند مجيء رمضان وكذلك حكم كل ما يكون بصدد العمل به فاذا تصدى للتجارة وجب عليه معرفة ما يحترس به من الوقوع في الحرام بقدر الحاجة حتى انه قيد وجوب تعلم الحذر من الربا بشيوعه في البلد . وكذلك تحريم اكل الخنزير ونحوه . وهو يقول في مواضع من كتبه ان المكلف اذا مات قبل ان يعلم شيئا مما يذكره المتكلمون في صفات الله تعالى كعلمه وكلامه هل هي عين الذات او غير الذات وهل هي قديمة أو حادثة بأن لم يفكر في ذلك أصلا ، وقبل ان يعلم بتحريم كثير من المحرمات التي لم يكن عرضة للوقوع فيها فلا يكون ناقصا في دينه ولا مسؤلا يوم القيامة عما جهله من ذلك ونحوه .

وبعد تفصيل في ذلك قال « وهذا هو الحق في العلم الذى هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم الواجب وقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين

« وماذكره الصوفية من فهم خواطر العدو (الشيطان) ولمة الملك حق ايضا ولكن في حق من يتصدى له فاذا كان الغالب أن الانسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه ان يتعلم من ربع المهلكات «١» ما يرى نفسه محتاجا اليه . وكيف لا يجب وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع

---

(١) المهلكات هو الربع الثالث من كتاب الاحياء الذي يذكر فيه الاخلاق المذمومة وكيفية معالجتها بعد التلبس بها والاحتراس عنها قبله

وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » (١) ولا ينفك عنها بشر . و بقية ماسنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب (٢) واخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات وإزالتها فرض عين ولا يمكن ازالتها الا بمعرفة حدودها ومعرفة اسبابها ومعرفة علامتها ومعرفة علاجها فان من لا يعرف الشر يقع فيه والعلاج هو مقابلة السبب بضده وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب ؟ فاكثر ماذكرناه في ربع المهلكات من فروض الاعيان وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يعني »



---

(١) وفي نسخة الشارح زيادة لفظ « الحديث » وهي اشارة الى ان له تتمة وهو بطوله كما رواه البزار في مسنده وابو نعيم في الحلية من حديث أنس « ثلاث كفارات، وثلاث درجات، وثلاث منجيات، وثلاث مهلكات اما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء في البردات، ونقل الاقدام الى الجماعات. واما الدرجات فاطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام. واما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية. واما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» وروا‌ه بسياق المصنف غير واحد وله اسانيد كلها ضعيفة

(٢) العجب هو الاعجاب ولعله اراد الحسد او نحوه فسبق قلمه ان لم يكن الغلط من الناسخين

تعريف وكلام عام (*)

﴿ في العربية والاستعراب * والتعريب والاعراب ﴾

لا الاخذ بالتعريب يضرها ولا
الاعراب ينفعها وانما نفعها
وضررها على حسب همم رجالها

كلام يجر الى كلام ، وحديث يسوق الى حديث ، والشيء بالشيء يذكر ، والند مع الند يقرر

ان مبحث التعريب الذي خطب فيه الفضلاء هذه الايام قد تدرج ببعضهم الى ذكر العرب والاستعراب ، ثم مال بفكري الى غير ماذكروه من الابواب ، فاحببت ان اعرب الآن عن بعض ماجال بفكري مما يحوم حول هذا المبحث وهي موضوعات متعددة احببت ان أوحد الكلام فيها وآتي به مستمسكا بعضه ببعض فلعلك تعرف الكتاب من عنوانه ، وعساك تقف على ما يعجبك في شيء من بيانه

***

قال بعض الظرفاء اذا كان وطن العرب شبه جزيرتهم فرأس مالهم لايزال كما هو والربح من بعده كثير

ونحن نأخذ هذا الكلام على وجهه من الجد صارفين النظر عن وجهه من الظرف ونقول نعم اننا نجد في عرب اليوم عرب أمس وزيادة

نجد هذا في اللغة والاخلاق والعاد والحالة الاجتماعية والسياسية والجغرافية ولعل القارىء اذا جلى امام نظره ما يشهد لهذا يظن نفسه في رواية تمثيلية ، بيد أنها طبيعية لاصناعية ، وحقيقية لا خيالية ، ميادينها الفيافي والفدافد الواسعة ، لادائرة صغيرة ضيقة ، وأبطالها الملايين الكثيرة لا نفر من الناس

(*) جاءتنا هذه المقالة من السيد عبدالحميد الزهراوي بعد طبع مقالة الاسكندري وتعليقنا عليها

ولو نشر اليوم احد الجدود الاقدمين في اوربا مثلا لأنكر فيها كل شيء ولكن لو نشر احد الجدود الاوربيين في شبه جزيرة العرب لما انكر فيها شيئا فان كل ماترك من مأوى ومركب وسلاح وماعون وكساء وغذاء وقبائل وملاحم ومغازي ومفاوز وفدافد يجد خلفاءه لم يحدثوا فيه حدثا ولم يعمدوا فيه الى تغيير يجد الخيام من الاوبار والجلود ، ويجد السيوف والرماح والمجانّ والدروع ويجد الصافنات والعاديات ، والقلائص والروامل والرواحل والعشار واليعملات ويجد الصاع والقصاع ، والبرم والقدور والقداح ، ويجد القمصان والعمائم والبرود ، والخفاف ، ويجد العصائد والخزائر والهرائس والبر والشعير والتمر والزبد والالبان ، ويجد بني صخر وبني حرب وبني عامر وبني وائل وبني بكر وبني طيء وبني فلان وفلان، ويجد حروبا بين هذه القبائل قائمة، ونيرانا مستعرة، يتواعدون الايام لمنازلاتهم، ويتربصون الفرص لمغازيهم، ويجد يد الطبيعة لم تزل موضوعة على حالها في تلك الطلول والديار وهاتيك المنازل والمناهل لم تدن منها يد الصناعة في شيء من الاشياء

كانت جزيرة العرب اقساما وهي اليوم كما كانت : تهامة والحجاز واليمن وحضرموت وظفار والبحرين ونجد وبوادي الشام والعراق . كانت هذه البلاد تختلف وهي الآن كذلك . فتهامة والحجاز لم يكن فيها حرث وزرع الا قليلا وكان اهلها اولي شظف في العيش غالبا ولا يزال القوم على هذه الحال . واهل اليمن مع محافظتهم على جميع عادات العرب كان لهم حرث وزرع وهم اليوم هكذا . واهل حضرموت وظفار والبحرين كان لهم حظ بالتجارة والاتصال بالهند مع المحافظة على سنن العرب ولا يزالون اليوم على هذا المنوال . وكانت نجد كالحجاز الا في زيادة المزارع وهي الآن كذلك . وكانت بوادي الشام والعراق مابين قريب الى المعمور وبعيد عنه وشأنهم مع اصحاب الممالك على حب القرب والبعد وهي اليوم هكذا

وبالجملة كان اهل هذه الجزيرة رواد معايش وطلاب اداة وماعون ويتفصل من أجل ذلك كل قسم منهم بالبلاد القريبة منهم ويقتبسون منهم شيئا من

العادات والاعتقادات ويكون لهم معهم شأن من الشؤون في الروابط السياسية والاجتماعية وهذا الحال عينه مشاهد اليوم فيهم بالتمام وزد عليه انهم كانوا في أنفسهم شعبا واحدا في لغة واحدة، وبيئة واحدة، وعادات واصطلاحات تكاد تكون واحدة فالبيئة لم تتغير ولم يتطرق اليها انقسام جديد غير ما ذكر ، والعادات والاصطلاحات لم تتغير ولم يطرأ اليها من الروابط الا ما كان يطرأ مثلها من قبل . وكذلك اللغة لم تتغير . وكل من زعم تغيرها كان زعمه مبنيا على الظن والتخمين وضعف علم بالماضي والحاضر

فمخارج الحروف في لغة هؤلاء لا تزال كما وصفها لنا الناقلون كسيبويه وغيره والمصادر التي نجدها منقولةً عن العرب هي موجودة اليوم في لغة هؤلاء العرب الا ما أوجده بعض مدوني العلوم أخذاً من اللغة نفسها وجريا على سننها

والاشتقاق من المصادر كله على حاله وجميع المشتقات تدور في لغة عرب اليوم على الوجه الصحيح واذا كنا نحن نتعلم بعض المشتقات تعلماً ويتكلف المتعلمون منا تصحيحها تكلفا فانها موجودة لديهم بالفطرة يتلقونها وهم أطفال وتصير المعرفة بها غريزية . قد سمعنا ذلك من صغارهم مثل كبارهم على حد سواء ولا يحتاج المخالف الا الى تجربة بسيطة

والالفاظ التي تدل على الأمور المحسوسة موجود منها في لغتهم كل ما هو في المعاجم الا ما حدث في عهد حضارتهم واتساع دولتهم وهذا المستثنى ليس دليلاً على تغيرها بل هو دليل على عدم تغيرها لأن بعض ما حدث في الحضارة لم يحدث لديهم فهم من هذه الجهة قد بقي لديهم رأس المال لم يتغير وما حدث في الحضارة هو زائد .

وقواعد التركيب وقوانين الترتيب من التقديم والتأخير والوصل والفصل والحصر والاظهار والاضمار والإفراد والجمع والأدوات ومواقعها وتأثيرها باقية أيضاً كما هي

فاذا كانت المخارج محفوظة، والمصادر ظلة على حالها، والاشتقاق لم تفسد طرائقه، وأسماء الاشياء لم تتغير، وقواعد التركيب وقوانين الترتيب وصيغ

الافراد والتثنية والجموع والضمائر كما هي فأي تغير طرأ على لغة القوم ؟

نجد الحضري في مصر والشام مثلاً يقول النساء «راحوا» وهو خطأ لأن الواو ضمير الذكور ، وأما البدوي أو ابن جزيرة العرب فانه يقول النساء رحن وهو الصواب كما نقل عن الأولين

ونجد الحضري في مصر يقول «فلان يضرب» بفتح الراء ، وفي الشام يقولون «يضرب» بضم الراء ، وكلاهما خطأ وأما البدوي أو ابن جزيرة العرب فانه يقول «يضرب» بكسر الراء وهو الصواب كما نقل عن الأولين .

ولو أردنا ان نورد الشواهد لهذا لاحتجنا الى مجلدات فنحن نستغني عن هذا بأن نحيل من لم يثق بقولنا على التجربة ومخالطة هؤلاء العرب ولو قليلاً

وانما يصح أن نعد من التغير تركهم حركات أواخر الكلم . هذا اذا صح ان الأولين كانوا ينطقون بها دائماً واما اذا صح ما يذهب اليه بعضهم من ان الحركات لم يكن الأولون يستعملونها الا في لغة الشعر وحالات مخصوصة فلا يكون هؤلاء مبتدعين بتركهم سنة من سنن الأولين ويصح ان نعد من التغير اهمالهم ضمير المثنى وإهمالهم بعض الأدوات التي يقوم مقامها غيرها أو يمكن الاستغناء عنها فمما تركه أكثر القبائل من الأدوات «هل» استغناء عنها بهمزة الاستفهام أو بقرينة الاستفهام . ومما تركوه «قد» التي للتحقيق والتي للتقليل استغناء عنها بالقرائن . ومما تركه أكثرهم «لم» التي تدخل على المضارع فتحيل معنى الفعل المنفي للماضي تركوها استغناء عنها بما التي تدخل على الماضي مباشرة فان «ما ضرب» مثل «لم يضرب» بالتمام . ومما تركوه «لمّا» التي تفيد استمرار النفي في الماضي الى الوقت الحاضر

هذا كل ما عرفته مما تركوه بعد امعاني زمناً طويلاً في مخاطباتهم وسماع شعرهم ورأيتهم أيضاً لا يستعملون التنوين الا للتنكير ولا يحذفون النون لناصب أو جازم

وبديهي ان هذا التغير ليس من التغير المفسد ثم انه لقلته غير جدير ان يعد

فاما إهمال الحركات فهو جائز عند أهل الإعراب في حالة الوقف وماذا على القوم اذا أجروا الكلمات كلها مجرى الكلمات الموقوف عليها واذا ضممت الى هذا

المنزع ما تعرفه من اختلاف لغات الأولين في حالة الاعراب كما نقله الينا الناقلون لم يصعب عليك ان تعد اهمال الحركات لغة من اللغات هي خير من بعض تلك اللغات التي تفسد كل ما نقلوه من قواعد الاعراب فقد نقلوا لنا ان بعض العرب كانوا يرفعون المفعول وينصبون الفاعل وليس شيء فوق هذا مما يمحق كل مايرجونه من فوائد الاعراب . ومن أحاط علماً بكل ما نقل في هذا الباب أو أكثره لا يجد قاعدة مما بنوه الا وهي منقوضة بشيء آخر قد سموه من شواذ اللغات فأي ضرر يحدث من هذه اللغة التي تهمل فيها الحركات ويسد فيها باب الاعراب ألم تروا ان هؤلاء القوم يتفاهمون والحالة هذه تمام التفاهم ؟

ولقد تقصيت كثيراً من الدواوين المنسوبة الى شعراء الجاهلية والمخضرمين فألفيت فيها كثيرا مما قد خالفوا فيه قواعد الاعراب مخالفة ظاهرة واضحة لا تحتمل التأويل وانما قلت انها ظاهرة لأنها واقعة في القوافي وسأفرد لهذا الموضوع مبحثاً مستقلا بيد أنني آتي هنا بأمثلة تؤيد ما قلته . قال جرير :

« حملت امراً عظيماً فاصطبرت له   وقمت فيه بأمر الله ياعمرا »

والقاعدة تقضي ان يقول ياعمر بضم الراء . وقال :

« فالشمس كاسفة ليست بطالعة   تبكي عليك نجوم الليل والقمرا »

ولا وجه لنصب القمر . وما تكلفوه من التأويل في الاعراب غير مرضي لدى الاذواق التي سلمت من التمحل . وقال من قصيدة قافيتها نون مكسورة من بحر الوافر :

« عرفنا جعفراً وبني عبيد   وانكرنا زعانف آخرين »

بكسر النون والقاعدة تقتضي فتحها وليس كسرها لغة لقومه فيما روي . وبعد هذا البيت :

« أتوعدني وراء بني رياح   كذبت لتقصرنّ يداك دوني »

وقال من قصيدة قافيتها باء مفتوحة من بحر الوافر :

« ألم تر ان زيد مناة قوم   قراسية تذل به الصعابا »

والقاعدة تقتضي رفع الصعاب بعد قوله تذل بالتاء . واذا خالفنا الموجود في النسخ المطبوعة والخطية وقرأناها « نذل » بنون المتكلمين قد يستقيم المعنى ولا يتأذى الاعراب فعسى ان تكون صحة الرواية على هذا الوجه . وقال من قصيدة قافيتها راء مكسورة من الوافر :

« لقد نادى اميرك بابتكار   ولم يلووا عليك ولم تزار »

والقاعدة تقتضي بأن تكون الكلمة التي بعد لم الثانية « تزر » لا تزار

وانا لا اقصد بهذا احداث مذهب جديد هو اهمال الاعراب بل اقصد تأييد ان اللغة العربية التي كانت قبل ثلاثة عشر قرناً او اربعة عشر قرناً او اكثر هي باقية اليوم في وطنها كما هي لم يطرأ عليها تغير ولا سيما عند أهل الخيام العريقين بها وأقصد ايضاً ان اذكر الناس بان اهمال الاعراب لا يضر هذه اللغة كما لم يضر كل اللغات الخالية منه

واما اهمالهم ضمير المثنى فلا أدري له سبباً بيد أنني لا أراه كبيراً من الامر بل هو يخفف الكلفة فيما لا حاجة اليه . أقول لا حاجة اليه لان الضمير لا يذكر الا من بعد معرفة الاسم الظاهر اما بذكر لفظه أو بسبق وجوده في ذهن المخاطب فمتى كان الظاهر معروفاً انه مثنى لم يبق لاجل الافادة حاجة الى تثنية الضمير ولم يكن من باس ان يدخل في حكم ضمير الجمع لأن الجمع يصدق على ما فوق الواحد فمتى قلت الرجلان لم يضرك من حيث المعنى ان تقول جاءوا كما تقول ذلك في الرجال ومثل هذا اذا قلت الفارس والراجل تقابلوا بدل تقابلا او اذا قلت الفارسان غلبوا بدل غلبا . ولهذا شواهد وأمثلة من اللغة الفصيحة نفسها وكذلك لا أقصد بهذا احداث مذهب جديد في العربية ولكنني أقصد بيان ان هذا ليس من التغيير المفسد بل هو استغناء عما لا حاجة اليه ومثل هذا يقال في اهمالهم بعض الادوات تخففاً منها او استغناء بغيرها عنها ولا يعزب عن الذي تتبع النقول ان كثيراً من القبائل عندها ما ليس عند غيرها ولا يعد ترك الآخرين لمثلها تغييراً للغة

***

أثبتنا بما قدمنا ان رأس المال باق على حاله والآن نذكر القارئ بتلك الحركة العربية التي ازدان التاريخ بأخبار همم رجالها فقد نقلت هذه الحركة رأس المال الى ديار كثيرة واسعة فربا فيها وزادت الديار العربية والمتكلمون باللغة العربية وصارت هذه اللغة لغة علم ودين وسياسة فدونت بها الدواوين التي لا تحصى في كل فن من فنون المعارف

وامامنا الآن من هذا الربح حواضر عظيمة في آسيا وافريقيا ففي آسيا ديار العراق استعربت بعد ان كانت فارسية وحواضر الشام استعربت بعد ان كانت سريانية وعبرانية ورومية وفي افريقيا مصر استعربت بعد ان كانت قبطية وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش استعربت بعد ان كانت بربرية ونسمي مجموع هؤلاء مستعربي الاقطار

صارت هذه البلاد التي عددنا عربية ولكن ليست عربيتها كتلك العربية الأولى بيد ان هذا النقص لا يضيرها ولا يخرج بها عن كونها عربية ولا يعدم أهلها سهولة اصلاحها ما دام لهم مرجع من الكتب المنقولة التي تصف العربية الصحيحة او من العرب الاحياء الذين هم وارثو تلك العربية .

اقول ان هؤلاء العرب الاحياء مرجع للمستعربين اذا شاءوا اصلاح لغتهم لان حكمهم على ما اوضحنا كحكم آبائهم الاولين ولن يمكنك ان تحيط خبراً بمخارج الحروف مما يصفه لك كتاب سيبويه مثلا كما تحيط بها خبرا اذا سمعتها من عربي من هؤلاء العرب الذين وصفناهم لك ولن تستطيع ان تأخذ من الكتب اللهجة العربية التي عليها المعول فانك تجد اليوم للطرابلسي لهجة وللتونسي لهجة وللعراقي والشامي والمصري ولا تجد واحدة منها صحيحة حتى اذا سمعت لهجة البدوي او الحجازي مثلاً رأيت جمالا في اللهجة تعرفه الاذن ولا يستطيع ان يصفه لك أحد فاذا سمعت من هذا وذاك من اهل الحواضر ثم سمعت من ذلك العربي ميزت وحكمت بالفرق وآمنت ان وجود العرب في وطنهم امان من ضياع العربية

وأحب هنا ان انبه على امر ربما استدركه عليّ بعض المطالعين وهو ان العرب الفاتحين بقايا ذراري في الحواضر وانه ينبغي ان لا يسلب هؤلاء صفة العربية

ساداموا حافظين سلسلة انسابهم فجوابي لمن يقول هذا القول اننا الآن في صدد اللسان واللغة لافي صدد علم النسب ولا يخفى على اللبيب ان البلاد التي استعربت لم يكن كل اهلها من سلالة اولئك العرب بل هم خليط اكثرهم من اهل تلك البلاد الاقدمين قد غلبت العربية على لغتهم فاستعربوا من غير ان يتقنوا النطق بالعربية كالعرب وضاع ابن العربي في هذا المجموع من جهة اللسان اذا كان لم يضع نسبه. ثم حفظ العلماء للكل مخارج العرب وصورة أدائهم الكلمات وأساليب البيان

والخلاصة ان عربية المستعربين طرأ عليها فساد ولكن لها حوافظ وان ذلك شأنها قبل اثنى عشر قرناً وهذا شأنها اليوم وقد كان حفظتها ينشطون حيناً و ينون حيناً.

ولعل المطالع يحب ان يعرف كيف نشاط المستعربين اليوم المنتشرين في افريقيا الشمالية ثم سواحل البحر الاحمر وما وراءه شمالا الى شواطئ الفرات وغرباً الى شواطئ البحر المتوسط فنقول له ان ابرّ الديار اليوم باللغة العربية هي مصر صانها الله و بارك عليها وعلى أهلها وقبل أن نوضح له برها باللغة العربية نمر به مرة على جميع مساكن هذه اللغة حتى يكون له نصيب من كل ما يحوم حوم مادة « ع رب » كما سبقت الاشارة اليه في صدر هذا الكلام

من انحدر من جزيرة العرب الى نجد ومنها الى العراق يجد ثلاث حواضر تتبعها بلاد كثيرة البصرة و بغداد والموصل فاهل ولاية البصرة كلهم يتكلمون بالعربية واهل ولاية بغداد اكثرهم يتكلمون بها واهل ولاية الموصل اكثرهم اكراد بيد ان حاضرة هذه الولاية عربية وفي عربية العراق في الجملة كثير من الدخيل ولاسيما في ولاية الموصل. والعربية في العراق واقفة على ما تركها أهل القرون الماضية من العامية لحرمانهم من الصحافة العربية ولولا العلماء والمتعلمون لاضر بها هذا الوقوف ومن سار من ولاية الموصل الى الغرب يلقى في طريقه من الديار العربية ولاية حلب وحلب محسوبة من الشام ولكن ولاية حلب شأنها في هذا الباب عجب فان فيها كثيرا من القرى التركية الى جانب القرى العربية وكل من اهل

هذه وتلك محافظون على لسانهم وملم اكثرهم بلسان جيرانهم فاما أهل حلب نفسها فعربيتهم كعربية البلاد الشامية ومن اعمال هذه الولاية بلدة تحيط بها التركية والكردية من كل جانب واهلها لا يتكلمون الا بالعربية وهي بلدة « ماردين » التي كان فيها الملوك بنو أرتق وأغرب من هذه بلدة أخرى في ولاية بتليس اسمها « سعرد » فان أهل ماردين قريبون من الديار الحلبية التي تغلب فيها العربية واما « سعرد » فهي منقطعة عن الديار العربية أيما انقطاع ، ومتوغلة ضمن الديار الكردية والأرمنية أيما توغل ، وهي مع هذا محافظة على اللغة العربية ولعلّ كثيراً من عوامها لا يعرفون سواها ولكن عربية « سعرد » هذه نمط مستقل فانهم نسوا بعض المخارج كما نسوا قليلا من مفردات الاسماء واستبدلوا بها من لغات جيرانهم ومع ذلك فيها كل مميزات اللغة من الاشتقاق وأساليب التراكيب و بالجملة هي عربية من كل وجه الا انها رديئة كلغات البرابرة المستعربين في المغرب .

ومن سار من ولاية حلب الى الجنوب يلقى ديارا معمورة عربية محضة تتجزأ الى أربع ولايات ولاية سورية (دمشق) ومتصرفية لبنان وولاية بيروت ومتصرفية القدس ولا أعرف بلادا تختلف لهجة أهليها بمقدار ما تختلف لهجة أهل هذه البلاد ولكن الدخيل في لغتهم قليل كما هو الشأن في مصر ولم يبق في الشام ممن يتكلمون بلغة قديمة الا قرية أو قريتين يتكلمون بالسريانية فيما بينهم على ما بلغنا ومثل هذه المحافظة على لغة ما أكثر من ألف عام في محيط كله أجنبي عن هذه اللغة من غريب الأمور

والعربية في الديار الشامية أمثل منها في العراق كله لأنها غير واقفة هنا على عاميتها الأولى كما هو الأمر هنالك بل هي سائرة مع الارتقاء الذي أحدثته الصحافة في اللغة في مصر وسورية ومن عرف العامية في البلاد الشامية قبل ثلاثين سنة وعرفها اليوم يشعر بالفرق العظيم الذي أشرنا اليه

فاذا جاوزنا البر الاسيوي الى العدوة الافريقية وهبطنا فيها مصر نجد أمامنا

العربية كما تركناها خلفنا فاذا سرنا من مصر الى الجنوب وجدناها في السودان المصري واذا سرنا منها الى الغرب ألفيناها في طرابلس فتونس فالجزائر فالمغرب الاقصى

ومن غرائب المصادفات اننا كما نجد مصر واقعة في ملتقى جغرافي بين عرب المشرق وعرب المغرب نجد عربيتها أيضاً في ملتقى حيوي بين العربية المشرقية والمغربية فعربية مصر أقرب الى العربية الصحيحة من سائر عربيات الاقطار المستعربة وما قرب منها أو بعد من المشرق أو المغرب كان قربه الى الصحة على نسبة قربه من هذا الملتقى فلغة الشام وان خالفت لغة مصر هي مثلها أو قريب منها في القرب من اللغة الصحيحة . ولغة العراق ليست كذلك . ولغة طرابلس وتونس قريبة من لغة مصر وليست كذلك لغة الجزائر والمغرب الاقصى

وتمتاز مصر على سائر الديار العربية بأمور أجلها كثرة العدد فليس هناك قطر عربي يقارب عدد أهله عدد أهل هذا القطر فالديار الشامية وهي جارة هذه الديار لا يتجاوز أهلها أربعة ملايين نسمة مع انها تمتد من حدود شبه جزيرة سينا الى جزيرة ابن عمر جنوبا وشمالا ومن شواطئ البحر المتوسط الى صحراء العرب على هذا الامتداد شرقا وغربا وهي مسافة ليست بقليلة ولكن هناك أسبابا كثيرة جعلت سكانها قليلين ومثل ذلك العراق باتساع المسافة ولا يبلغ أهله أربعة ملايين وجزيرة العرب على اتساعها أكثرها فدافد وليس لاهلها من احصاء رسمي لان البداوة هي الغالبة على أكثر بقاعها لكن المشهور أن أهلها كلهم الحجازيين واليمنيين والنجديين لا يتجاوزون ثمانية ملايين وفي أفريقيا أقاليم عربية لا يبلغ أقليم منها في العدد مبلغ مصر فالمغرب الاقصى أكبرها لا يحزرونه الا بثمانية ملايين فأين هذا من اثني عشر مليونا في مصر

ومما تمتاز به مصر حرية الطباعة والتأليف ونشر الافكار وسهولة الاجتماع وتيسر التعاون فاذا ضممت الى هذه المزايا فوز لغتها بالدنو من العربية الصحيحة اكثر من سائر لغات الاقطار المستعربة تبين لك أن مصر جديرة ان تكون اليوم عاصمة اللغة العربية وانها اجدر البلاد بأن تكون محط هذه الرحال ، ومناط هؤلاء

الرجال ، فأزهرها المعمور يعلم لنا الالوف من الشبان قواعد اللغة وحوافظها من الضياع ، ومطابعها الوافرة تهدي الينا أنفس ذخائر الاولين ، واعلاق النقلة والحفظة من الكرام الكاتبين . وعلماؤها الافاضل لا يضنون باوقاتهم الثمينة بل يبذلونها في العناية بها من كل وجه يقتضي العناية

ولقد تعهد رجال من افاضل دار العلوم ان يخصوا اللغة العربية بعناية زائدة وأهدونا باكورة مباحثهم وهو مبحث التعريب (جوازه اليوم أو عدمه) فالفينا ثمرات شهية من نتاج هاتيك الافكار الرائقة الراقية

وعندي ان جواز التعريب اليوم وغداً كجوازه لسلفنا أمس بديهي بيد ان الذين لم يروه بديهيا اذ مالوا الى عدم تجويزه هم فضلاء كلة كبار العقول غزيرو المادة فلذلك اوجبت على نفسي ان ابحث عن سر خوفهم على اللغة الذي دعاهم للحذر والتحذير من التعريب وبعد الامعان الطويل وجدت سر ذلك هو شدة الحب للغة

قلت شدة الحب ولم اقل الحب لان الحب موجود عند جمهور أبناء اللغة واما شدة الحب فلا توجد الا عند بعض الافراد من ابنائها وشدة الحب تورث سوء الظن والقلق احيانا مما لا يوجب مثله القلق ومن اقرب الأمثلة التي شاهدتها في هذا الباب اني رأيت على شاطئ النيل رجلا وزوجته ومعهما اولاد ورأيت الاب نزل بأحد الاولاد الى حافة الماء ليسقيه من غير ان تراه الأم ولم يكن من خطر قط في المحل الذي نزل منه فلما صعد به حدثها بنزوله فرأيتها قد اصفر وجهها كانها تتوقع نزول مكروه ثم لامته لوما شديدا . هذا وهي ترى انهما قد خرجا سالمين وتعلم ان الاب ليس اقل منها حذرا من سوء يصيب الولد ولكن شدة الحب قرن معها سوء الظن بالعواقب وان كانت سليمة

على هذا المثال نفهم سر حذر اولئك الافاضل من التعريب اي ادخال كلمات في اللغة ليست منها فانهم على معرفتهم بان مثل ذلك وقع في هذه اللغة نفسها فلم يضرها يحذرون ان يضرها اذا وقع بعد الآن

اني لا احب ان افيض في هذا المبحث على طريقة الجدل والمناظرة فان

مجيز التعريب في غني عنه ومانعه قد ذكرنا عذره في خوفه منه وسواء أرغبنا عن التعريب ام رغبنا فيه ماعنه في الحقيقة من محيص . ولكنني قد بيت على غير طريقة الجدل والمناظرة لمانع التعريب أنه لاخوف من دخول كلمات اجنبية هي قليلة مهما كثرت على لغة حية يتكلم بها نحو خمسين مليونا متجاورين في المساكن لا يفصل بينهم من الماء الا ترعة السويس . ومنهم نحو ثمانية ملايين هم اهلها العريقون القائمون في وطنهم الاصلي وهي لغة علوم وتاريخ ودين وقد كتب فيها من الصحف الملايين .

لا خوف على لغة خضع أهلها لحكم الديلم والترك قرونا متطاولة من بعد ماخضعوا لحكم اهلها مثل ذلك فلم يدخل فيها من لغاتهم الا نزر لا يعد قد ضاع وفني فيها وهضم في احشائها

انما يخاف على اللغة اذا خلت من مزاياها المعنوية ، اذا خوت من العلم ، اذا خلت من الاهل ، اذا فقدت كل كتبها ، اذا حرمت في المجتمعات كلها كل حظ من حظوظ اللغات الاخرى

لو خيف علي لغة من دخول الغريب فيها لكانت تركية الدولة العثمانية احق اللغات ان يخاف عليها لان نصف كلمها دخيل من العربي وربعها دخيل من الفارسي والربع الرابع تركي واكثره أدوات ومشتقات ولكن لاخوف على لغة ما من مثل هذا اذا سلمت اساليب التركيب وضاع اصل الدخيل فيها عند الكاتبين والمتكلمين حتى صار كأنه من اصل اللغة . واذا لم يخش على لغة هذا مقدار الدخيل فيها بالنسبة للاصيل بل لا يكاد يوجد الا اذا ترجمت اليها علوم اولئك القوم أصحاب اللغات الاخرى . واي ضير على من يريد تعلم علم اذا سمع فيه كلمات غريبة لم يألفها اليوم وسيألفها غداً أليست اصطلاحات علم النحو والصرف غريبة عند من لم يعرفها مع انها عربية

قد قلت انني لا احب ان افيض فى هذا المبحث لهذا اكتفيت بما قدمت والخلاصة انه لا يضر العربية التعريب ولا ينفعها الاعراب وانما نفعها وضرورها على حسب همم رجالها فنرجوان يوقظ الزمان هممهم من سباتها

باب المراسلة والمناظرة

﴿ رأي الشيخ احمد المنوفي في الاصلاح ورجاله ﴾

كتب الينا في ١١ ذي الحجة) ما يأتي من الشيخ أحمد موسى المنوفي امام المسجد الكبير في كلكته الذي كان طعن فينا برسالة نشرت في جريدة اللواء ثم كتب الينا ذلك الانتقاد والتعريض الذي نشرناه في الجزء الثالث (ص٢٣٦) على ما فيه من دلائل سوء الظن بنا . وبعد ان قرأ كثيرا من اجزاء المنار وكتاب محاورات المصلح والمقلد وكتاب شبهات النصارى وحجج الاسلام رجع عما كان يظن فدل ذلك على اخلاصه وحسن نيته في ذمنا من قبل ومدحنا من بعد غفر الله له وأحسن مثوبته قال :

سيدي المرشد السيد محمد رشيد رضا فضيلتلو افندم

اقدم لسيادتكم تحية طيبة مباركة وارجوكم نشر ما يأتي ولكم الفضل

بما ان الانسان بطبيعته مجبول على حب وطنه وان بعدت الديار وشط المزار ولا يخفى أن ما ينشأ عن تلك المحبة الطبيعية من السعي وراء مصلحة الوطن يكون بحسب المحبة قوة وضعفا ولقد مكثت محبتي للوطن زمناً طويلاً كامنة في الفؤاد لا يظهر على أدنى أثر من آثارها وبعبارة اوضح ضعيفة جداً واذا بحثنا عن سبب ضعفها لم نجد شيئاً سوى اليأس من المصلحة والاصلاح مع الغفلة عن النهضة الاسلامية والحركة الوطنية التي قام بها أخيرا الامامان الحكيمان الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني والاستاذ المفتي الشيخ محمد عبده قدس الله أرواحهما وحشرنا في زمرتهما وجزاهما عن الاسلام والمسلمين خيراً فلقد بثا في الأمة روح الحياة والشعور والغيرة وأيقظاها من الغفلة فهما أساس النهضة وكل من جاء بعدهما لا يخرج عن كونه متمماً لعملهما مهما بلغت درجته في الاصلاح والأخذ بيد الناهضين وزد على هذا وذاك أني كنت ابعد الناس عن مطالعة الجرائد واشدهم كراهة لمن يطالعها لزعمي

انها خالية عن النفع أو تشتمل على بعض منافع لا تقابل ما فيها من الضر وقد علمتم عوائد الازهريين الذين مكثت بين ظهرانيهم بضع سنين في الايام التي كانوا لا يسمعون فيها باسم الاصلاح فهذا كله كان سبباً في اقتصاري على محبة الوطن الطبيعية فقط وعدم ابداء شيء مما يلزمها ولكن مع هذا الجمود كنت أميل بطبيعتي أيضاً الى كل من أسمع عنه بانه مجد في خدمة الوطن الى أن سمعت أخيراً في العام الذي توفي فيه إمام النهضة المصرية بل الاسلامية الاستاذ الحكيم المفتي بأن رجلا من الصحافيين وقف نفسه وماله على السعي وراء مصلحة الوطن والعمل على استقلاله وتخلصه من رق العبودية فنما ميلي نحو ذلك الواقف الى ان صار محبة والمحبة حملتني على الاقبال على مطالعة الجرائد والاشتراك في جملة منها فعلمت أني كنت في ضلال مبين لما فى الصحف الحرة الخالية عن الاغراض الذاتية من الفوائد التي أقلها الوقوف على أحوال الهيئة الاجتماعية ومعرفة آراء الرجال وغير ذلك ولكن للأسف وجدة سعادة الواقف المفضال يعتقد في نفسه والعياذ بالله الكمال المطلق يريد ان يسبح الخلق بحمده ويخضع الوجود لعظمته وان لا يسئل عما يفعل وقد علمنا ان المتصف بذلك الكمال المطلق فعبدناه وخضعنا لأوامره ما استطعنا .... الخ

وا أسفاه كنا نظن ان حضرة الاستاذ المخلص في عمله المهتم بصالح أمته السيد محمد رشيد رضا على عكس ما كنا نعتقد في بطل وطنيتنا دولة الواقف ولكن لما بلونا الرجل وجدنا المسئلة معكوسة على خط مستقيم وجدناه حكيما يضع الأشياء في مواضعها لا تأخذه في نصرة الحق لومة لائم مع الروية والتعقل. وجدناه ماهرا بتشخيص الداء ووصف الدواء، وجدناه حليما ذا أناة لا يعجل بالعقوبة على من ظلمه بل يعالج الظالم المعتدي معالجة خبير بكل ما لديه من الوسائل حتى يرجعه عن ظلمه واعتدائه وحينئذ يرشده الى ما في صلاحه في الدنيا والأخرى، وجدناه فيلسوفا في معرفة طرق الاصلاح وما يصلح الوقت واهله وبالجملة لو لم يكن له الا كتابا شبهات النصارى وحجج الاسلام ومحاورات المصلح والمقلد لكفاه شرفاً وفضلاً فهو والحق يقال الذي يصح اطلاق الحكيم عليه الآن ولقد

أصبح فضيلته بعد اطلاعي على كتابيه المذكورين أحب الناس اليّ ولقد اعجب بهما كذلك حضرة السري الوجيه العلامة المؤرخ الأديب محمد بيك العمري صاحب معمل السكاير المشهور بعاصمة الهند كلكتة وقال لي مرارا « إني لولا عدم سبق معرفة بيني وبين الاستاذ لم يسعني الا ارسال تشكراتي للاستاذ مما نافح به عن الدين ورد كيد اعدائه في نحورهم » هذا واقسم عليكم بشرف الحق وفضيلة العلم وعز الصدق لاما نشرتم هذا تحت مسئوليتنا والله الموفق احمد موسي

« المنار » قد نشرنا رسالته وبررنا قسمه الا اننا حذفنا منها تلك السطور التي يبين فيها اعتقاده الاخير في ذلك الصحافي فعسى ان يعذرنا في ذلك ونسأل الله الذي لم يحقق سوء ظنه فينا من قبل أن يجعلنا أهلا لحسن ظنه من بعد من غير غرور ولا فتنة

وكتب الينا كتابا آخر في ١٨ ذي الحجة قال فيه :

حضرة الاستاذ المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام وبعد فاني لا استطيع ان أعبر عما حصل من السرور بوصول كتب الاسلام والنصرانية وشبهات النصارى وحجج الاسلام وتاريخ الاستاذ الامام المفتي عليه رضوان الله ولعمر الحق لقد صغر في عيني مالدي من الكتب القديمة التى لا يخفى على فضيلتكم ما فيها من الحجب المانعة من العلم النافع فوا اسفاه قد ضاع العمر سدى غير اني احمد الله الذي منّ عليّ بارشاد حكيم الاسلام واكبر خلفائه تالله انك سيدي معذور فيما تبديه من الآراء المفيدة المناقضة لما عليه الناس من الجمود والنفس الخبيثة تكره من يحاول ردها عن ما اعتادت عليه ولو كانت عادتها عبادة الاوثان نعوذ بالله من الخذلان والتمادي في الغي أقول قولي هذا وما أبرئ نفسي فاني والحق يقال كنت كثيرا ما اتهمكم بسوء القصد أما الآن فانا الله الحمد أول موافق على ترك التقليد والجمود على الخرافات التي ما انزل الله بها من سلطان والفضل في ذلك لسيادتكم ومطالعة كلام الامام الحكيم بامعان وانصاف وفقنا الله واياكم لما يحبه ويرضاه

آثار علمية ادبية

(قاموس الامكنة والبقاع)

كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري من أجل مختصرات التاريخ القديمة لامتنا وقد طبعته شركة طبع الكتب العربية منذ سنين . وبعد طبعه عهدت الى علي بهجت بك وكيل دار الآثار العربية بأن يضع معجما لما ورد فيه من اسماء الامكنة والبقاع لسعة علمه بالتاريخ القديم والحديث فقام بذلك وطبعت الشركة ما كتبه فكانت صفحاته اكثر من مئتي صفحة وليست فائدة هذا الكتاب خاصة بمن يقتني كتاب فتوح البلدان ولا هو مما يستغنى عنه بالمطولات التي استمد منها كمعجم ياقوت فان فيه فائدة لأهل هذا العصر لا تؤخذ من غيره وهي بيان حال تلك البلاد والبقاع الآن بحسب ما وصل اليه اجتهاد المؤلف فمنها ما خرب وعفا ومنها ما بقي وزاد عمرانه أونقص فنشكر للمؤلف وللشركة هذا العمل النافع

(رسالة الغفران)

للفيلسوف العربي الشهير ابي العلاء المصري رسالة كتبها الى الشيخ علي ابن منصور الحلبي المعروف بابن القارح جوابا عن رسالة بعث بها اليه . والرسالة تروي للقارئ قصة خيالية طاف رواها في العالم الآخر ودخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم فوصفه أحسن وصف وثاقن فيها الشعراء والأدباء وشرح ما دار بينهم من المحاورات والمناقشات . وأسلوب الرسالة هو أسلوب الأمالي الأدبية التي كان علماء الفنون العربية يملونها على الطلاب في القرون الأولى وفيها من فرائد اللغة وغرائب الشجون ما طار بشهرتها في عالم الأدب فكانت طلبة الأدباء ورغيبة البلغاء وقد طبعها امين افندي هندية طبعا متقنا مضبوطا بالشكل بعد ان صحح

أصلها معارضة على نسخة صحيحة ووقف على طبع اكثر من نصفها الشيخ ابراهيم اليازجي وخلفه بعد وفاته في تصحيح باقيها احد علماء الأزهر . فنحث الأدباء على مطالعتها وهي تطلب من مكتبة هندية وثمنها عشرة قروش

(كتاب الاضداد في اللغة)

لما عني الأولون بنقل اللغة العربية وضبطها ووضع الفنون لها اكثروا من التصانيف في فروع كثيرة من فروعها كالمترادف والمشترك والأضداد وغيرذلك ومن الكتب النافعة في الاضداد كتاب محمد بن القاسم بن بشار الانباري النحوي ومن مزاياه انه تتبع قطرب فيما ذكره من الاضداد وبين غلطه في بعضها وقد اجاب في أوله من عاب التضاد في اللغة فقال

« هذا كتاب ذكر الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة فيكون الحرف منها مؤديا عن معنيين مختلفين ويظن أهل البدع والزيغ والازراء بالعرب ان ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم وكثرة الالتباس في محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم فيسألون عن ذلك ويحتجون بأن الاسم منبئ عن المعنى الذي تحته ودال عليه وموضح تأويله فاذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان لم يعرف المخاطب أيهما اراد المخاطب وبطل بذلك تعليق الاسم على المسمى : فأجيبوا عن هذا الذي ظنوه وسألوا عنه بضروب من الاجوبة أحدهن ان كلام العرب يصحح بعضه بعضا ويرتبط أوله بآخره ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه واستكمال جميع حروفه فجاز وقوع اللفظة على أحد المعنيين دون الآخر والايراد بها في حال التكلم والاخبار الا معنى واحد . فمن ذلك قول الشاعر

كل شيء ماخلا الموت جلل ... والفتى يسعى ويلهيه الامل

فدل ماتقدم قبل « جلل » وتأخر بعده على ان معناه « كل شيء ماخلا الموت يسير » ولا يتوهم ذو عقل وتمييز ان الجلل هنامعناه «عظيم» وقال الآخر

ياخول ياخول لا يطمح بك الامل ... فقد يكذب ظن الآمل الاجل
ياخول كيف يذوق الخفض معترف ... بالموت والموت فيما بعده جلل

فدل مامضى من الكلام على ان جللا معناه يسير . وقال آخر

فلئن عفوت لأعفون جللا ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

قومي هم قتلوا أميم اخي ... فاذا رميت يصيبني سهمي

فدل الكلام على انه أراد فلئن عفوت عفوا عظيما لأن الانسان لا يفخر بصفحه عن ذنب حقير يسير . فلما كان اللبس في هذين زائلا عن جميع السامعين لم ينكر وقوع الكلمة على معنيين مختلفين في كلامين مختلفي اللفظين . وقال الله عز وجل وهو أصدق قيل « الذين يظنون انهم ملاقو الله » أراد الذين يتيقنون ذلك فلم يذهب وهم ء قل الى ان الله عز وجل يمدح قوما بالشك في لقائه . وقال في موضع آخر « اني لاظنك يافرعون مسحورا » وقال تعالى حاكيا عن يونس « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه » أراد رجا ذلك وطمع فيه ولا يقول مسلم ان يونس يتيقن ان الله لا يقدر عليه اه

(المنار) يحكم قارىء هذه العبارة ان الكتاب مفيد بأسلوبه البليغ كما أنه مفيد بمباحثه . واكبر فائدته عندي أنه بجمعه لهذه الحروف (أي الكلمات) التي قيل انها متضادة المعاني قد سهل للمدقق سبيل الحكم في هذا النوع من اللغة بغير ما حكم به جمهور من سبقه فان استعمال الكلمة في معنيين متضادين خلاف المعقول ويلوح لي ان اكثر ما عدوه من الاضداد يمكن تفسيره بما لا تضاد فيه وان القليل الذي يتعذر او يتعسر فهمه من غير تضاد في معانيه لا بد ان يكون مما استعملته قبيلة في معنى وقبيلة أخرى في ضد ذلك المعنى أو مما وقع فيه الخطأ في الاستعمال من العرب أنفسها فان خطأها في المعاني مما لا ينكر .

واذا كان العربي القح يخطىء في المعاني فالمولد أجدر بذلك . ومن خطأ نقلة اللغة والمفسرين ما قاله بعضهم في تفسير الظن في الآيات التي تلوت فيما نقلناه عن هذا الكتاب فقوله تعالى « ٢ : ٢٤٩ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله » ليس مسوقا لمدحهم على ظنهم حتى يقال انه يمتنع مدحهم بالظن . وما حكاه عن ظن فرعون لا يظهر فيه ارادة اليقين وقوله عز وجل في يونس « ٢١ : ٨٧ فظن ان لن نقدر عليه » يظهر فيه معنى الظن جليا « ونقدر » هنا بمعنى نضيق على حد « ٣٩ : ٥٢ يبسط الرزق

لمن يشاء ويقدر » فما المانع من ان يظن يونس ان الله تعالى لا يضيق عليه ؟

والكتاب يطلب من المكتبة الازهرية للشيخ محمد سعيد الرافعي وثمنه ٧ قروش

﴿ انجيل برنابا ﴾

قد تم طبع الانجيل في مطبعة المنار وقد نقلنا منه نموذجات للقراء من قبل ونذكر هنا منه بعض ما ذكره في مسألة محاولة اليهود قتل سيدنا عيسى وانجاء الله اياه وإلقاء شبهه على يهوذا الاسخريوطي وذلك موافق لما يعتقده المسلمون في الجملة قال

الفصل الخامس عشر بعد المئتين

١ ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير ٢ فلذلك انسحب الى البيت خائفا ٣ وكان الاحد عشر نياما ٤ فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم

٥ فجاء الملائكة الاطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ٦ فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله الى الابد

الفصل السادس عشر بعد المئتين

١ ودخل يهوذا بعنف الى الغرفة التي أصعد منها يسوع ٢ وكان التلاميذ كلهم نياماً ٣ فأتى الله العجيب بأمر عجيب ٤ فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيها بيسوع حتى اننا اعتقدنا انه يسوع ٥ اما هو فبعد ان أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ٦ لذلك تعجبنا وأجبنا : « انت ياسيد هو معلمنا ٧ أنسيتنا الآن ؟ »

٨ اما هو فقال متبسما : « هـل انتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا
الاسخريوطي » ٩ وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود والقوا أيديهم على
يهوذا لانه كان شبيها بيسوع من كل وجه
١٠ اما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين
١١ ويوحنا الذي كان ملتفا بملحفة من الكتان استيقظ وهرب ١٢
ولما امسكه جندي بملحفة الكتان ترك ملحفة الكتان وهرب عريانا [١]
١٣ لان الله سمع دعاء يسوع وخلص الاحد عشر من الشر [٢]

الفصل السابع عشر بعد المئتين

١ فأخذ الجنود يهوذا واوثقوه [٣] ساخرين منه ٢ لانه انكر وهو
صادق انه هو يسوع ٣ فقال الجنود مستهزئين به : « ياسيدي لا تخف
لاننا قد اتينا لنجعلك ملكا على اسرائيل ٤ وانما أوثقناك لاننا نعلم انك
ترفض المملكة » ٥ اجاب يهوذا : « لعلكم جننتم ٦ انكم اتيتم بسلاح
ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصري كانه لص افتوثقونني انا الذي ارشدتكم
لتجعلوني ملكا! »

(ثم قال في أواخر الفصل)

٧٧ وحكموا بالصلب على لصين معه ٧٨ فقادوه الى جبل الجمجمة
حيث اعتادوا شنق المجرمين وهنـاك صلبوه عريانا مبالغة في تحقيره

(١) مر ١٤ : ٥١ (٢) يو ١٨ : ٩ (٣) يو ١٨ ، ١٢ : ١٢ و ١٩ : ٤١

٧٩ ولم يفعل يهوذا شيئاً سوى الصراخ : « يا الله لماذا تركتني [١]
فان المجرم قد نجا اما انا فأموت ظلما »
٨٠ الحق اقول ان صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه
بيسوع ان اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة انه هو يسوع ٨١ لذلك
خرج بعضهم من تعليم يسوع معتقدين ان يسوع كان نبيا كاذبا وانه انما
فعل الآيات التي فعلها بصناعة السحر ٨٢ لان يسوع قال انه لا يموت
الى وشك انقضاء العالم ٨٣ لانه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم اه المراد منه

جامع الثناء على الله

جمع الشيخ يوسف النبهاني كثيراً من الادعية والاذكار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن شيوخ الصوفية وسماها « جامع الثناء على الله » ومازال الذكر والدعاء غذاء الايمان ومن رأينا انه ينبغي للمؤمن ان يهتم قبل كل شيء باداء الفرائض والحقوق التي عليه لله ولنفسه واهله وذي القربى فاذا وجد وقتا لنوافل العبادة فليبدأ بتلاوة القرآن مع التدبر سواء كان ذلك في الصلاة او خارج الصلاة فان خاف

(١) مت ٢٧ : ٤٧ ومر ١٥ : ٣٤

على نفسه الملل انتقل الى الاذكار المأثورة عن الشارع فان وجد من الوقت مايسع المزيد عليها فليقرأ بعض ما كتبه رجال الصوفية . واما الذين يتركون الفرائض ويصرون على المآثم ويحصرون تعبدهم بقراءة أوراد الطريق فان التصوف بل التدين بريء من اهوائهم

وانني كنت في أول النشأة أقرأ بعض أوراد الصوفية ومنها ورد السحر البكري وكان يكون لذلك تأثير عظيم في نفسي ثم وجدتني بذلك هاضما لحق القرآن عليّ ومشتغلا عنه بكلام لا يخلو عندي من الغلو الذي نهت الآيات عنه وناهيك بما في القصيدتين الجيمية والميمية من ذلك . ولما صرت أفهم مراد الصوفية بمثل قوله « وملْ نحو الخمار ابي السرج * واشرب واطرب » الخ لم أزدد الا بعدا عن عبادة الله في السحر بهذا الشعر الركيك . على ان هذا الكتاب امثل من أكثر كتب النبهاني وثمنه أربعة قروش ويطلب من اكثر المكاتب المصرية

الراوي

« مجلة روائية ادبية تاريخية اسبوعية » يصدرها في الاسكندرية طانيوس افندي عبده الكاتب المعروف في عالم الصحافة والأدب فهو لما أوتيه من حسن الذوق في اختيار القصص الافرنجية وحسن الترجمة جدير بالنجاح في عمله هذا غني عن تقريظه . وقيمة الاشتراك في مجلة الراوي مئة قرش في السنة لاهل مصر والسودان وثلاثون فرنكا لغيرهم وثمن العدد الواحد ثلاثة قروش

« السياسة المصورة »

جريدة أسبوعية سياسية مصورة بالألوان يصدرها في القاهرة عبد الحميد افندي زكي وصور هذه الجريدة كلها في السياسة المصرية وهي مطبوعة طبعا متقنا في أوربا ويكتب فصولها الافتتاحية حافظ افندي ابراهيم غالبا وقيمة الاشتراك السنوي فيها ٥٠ قرشا بمصر و ١٥ فرنكا في سائر البلاد

باب الاخبار والآراء

« نادي دار العلوم الخديوية »

اتخذ المتخرجون في مدرسة دار العلوم المعروفة الآن (بمدرسة المعلمين الناصرية) ناديا علميا ادبيا يتعارفون فيه ويتعاونون على ترقية شؤونهم الاجتماعية ويبحثون عن أقوم الطرق واقربها لتعليم العربية وفنونها وتدريس آدابها واحياء العلوم بها على النحو الآتي كما في المادة الثانية من قانون النادي

« (١) التنقيب عن الكتب النافعة والسعي في نشرها (٢) تنقيح وتصحيح ما تدعو اليه الحاجة من الكتب المفيدة (٣) تأليف كتب سهلة فيما لم يدون فيه مؤلفات قريبة التناول (٤) وضع اسماء عربية للمسميات الحديثة التي ليس لها أسماء عربية معروفة (٥) البحث في ألفاظ العامة ورد ماله اصل عربي منها الى أصله والتنبيه على الدخيل فيها (٦) الاصطلاح على طريقة لكتابة الالفاظ الأعجمية بحروف عربية (٧) تسهيل فن رسم الحروف (٨) تأليف رسائل في الآداب والأخلاق (٩) محاضرات علمية وادبية »

وقد عرف القراء من الجزء الماضي ومن هذا الجزء ان النادي بدأ عمله بالبحث في مسألة أسماء الاجناس ومصطلحات العلوم الاعجمية . وانا لنرجو من رجال هذا النادي العاملين ما لا نرجو من غيرهم فانهم أمة وسط في الشعب المصري الذي جمد بعض المتعلمين فيه على التقاليد العتيقة حتى في كيفية التعليم وأولع بعضهم بالتقاليد الحديثة حتى ما كان منها مقطعا لروابط الامة الاجتماعية . ولست أعني بهذا تفضيل كل واحد منهم على كل واحد من غيرهم وإنما أعني أنهم بتربيتهم وتعليمهم وسط بين طرفين يوجد في كل منهما أفراد أقرب الى الاعتدال وابعد عن الجمود والتفرنج من كثير ممن هم في الوسط . ولكن طالب الاصلاح والترقي يعد في مجموع الازهريين غريبا كما أن من ينكر شرب الخمر وترك الصلاة من المتعلمين في سائر المدارس يعد في مجموعهم غريبا وان كان الكثيرون منهم يصلون ولا يسكرون

ترجمة فقيد الاصلاح

﴿ ذكاء الملك ﴾

كل ما كنا نعرفه عن ذكاء الملك صاحب جريدة « تربيت » هو أنه كاتب اصلاحي بليغ غير موثق الفكر بالتقاليد وانه قد جمع الى استقلال الفكر استقلال الارادة وقوة العزيمة فقد كان يكتب ما يعتقده وإن خالف أهواء الشعب . وما الكتاب الذين جمعوا هذه الصفات بكثيرين فينا فنقول مات ذكاء الملك فخلفه فلان وفلان . كلا بل نتمثل بقول الشريف فيمن هو في عصره دون ذكاء الملك في عصره

ويقول من لم يدر كنهك انهم فقدوا به عددا من الاعداد
هيهات أدرج بين برديك الردى رجل الرجال وواحد الآحاد

كان ذكاء الملك لعنايته بالاصلاح يتتبع أخباره في جميع بلاد الاسلام ويتعرف رجاله في جميع الاقطار فعرف السيد جمال الدين الافغاني وكان صديقاً له وعشقه المنار بالاستاذ الامام فكان بينهما موادة ومكاتبة وابنه احسن تأبين في جريدته وقد ترجمنا تأبينه ونشرناه في تاريخ الاستاذ الامام . وكان ينقل عن المنار كثيرا . وآخر ما عرفناه من ذلك نقله لما كتبناه في حكومة الشورى في بلاد فارس وقوله ان قول صاحب المنار اعظم تأثيرا في العالم الاسلامي من قول مئة مجتهد من علماء الشيعة أو ما هذا معناه

راعنا مصاب الشعب الفارسي بل الأمة الاسلامية بوفاته وتمنينا لو وقفنا على ترجمة حياته بالتفصيل وما زلنا واقفين في موقف التمني حتى منّ علينا ميرزا محمد القزويني العضو بدار الترجمة الهمايونية في طهران بنسخة من جريدة (الصور) الفارسية مع كتاب عربي منه أرسله الينا من باريس يرغب الينا فيه بما نحن أشد فيه رغبة وهو ترجمة الفقيد لأنه من الحقوق التي تطالبنا بها ذمة طلب الاصلاح وتقريب طوائف

المسلمين بعضهم من بعض . وكان ذكاء الملك طيب الله ثراه وجزاه أفضل الجزاء من خير الاعوان على هذا الاصلاح . وانما ننشر كتاب هذا الفاضل الغيور والصديق الوفي للفقيد مع الشكر له ثم ننشر بعده ترجمة ما كتب في جريدة الصور . وهذا نص الكتاب الذي أرسله الينا من باريس :

غرة زانويه (يناير) سنة ١٩٠٨ و ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٢٥

حضرة السيد المفضال العلامة منشئ جريدة المنار الأغر أدام الله ظلكم العالي

بعد إهداء كمال السلام وأسنى التحيات أظنكم تعرفون الكاتب الشاعر الشهير ذكاء الملك صاحب جريدة « تربيت » الفارسية المنطبعة بطهران ومنشئها منذ إحدى عشرة سنة . فقد كان بينه وبين الاستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده علائق ودّية ومكاتبات متواصلة وكان الاستاذ الامام يقرأ جريدة تربيت ويقدرها أعظم الجرائد الفارسية نفوذا في الدوائر العالية وأشدها تأثيرا في قلوب المسلمين الذين يتكلمون بالفارسية ورأيت أنا بنفسي تآليف الاستاذ الامام التي كان أرسلها جميعها هدية الى ذكاء الملك بطهران مع كتاب ودّي بخط يده يظهر فيه غاية الاعجاب ويتشكر فيه ذكاء الملك عما كتبه في جريدته تربيت من خدمات الاستاذ الامام للعالم الاسلامي أجمع ومن جملة عباراته :

« ان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده هو العالم الحقيقي الوحيد في كافة الانحاء الاسلامية من مراكش الى الصين ومن تركستان الى اليمن والسودان الذي يعلم الغرض الأصلي من الاسلام ويعرف تطبيق قواعده على مقتضيات العصر ولاجل تربية امثال هذا الرجل بعث نبينا صلى الله عليه وسلم فان نبغ بين علماء الاسلام كثيرون امثاله فان الاسلام يبقى ثابت الاركان والمسلمين يرتقون الى أعلى مدارج المدنية والسعادة والا فلو استمرّ علماء الاسلام بالجمود على ظواهر الاحاديث ونصوص فتاوى المتقدمين كما هم عليه الآن فعلى الاسلام السلام الخ »

وبعد وفاة الاستاذ الامام كتب ذكاء الملك ترجمة حياته في جريدة تربيت

بغاية التفصيل والاشباع ونهاية التوقير والتمجيد ثم بعد ذلك كتب ترجمة حاله ثانياً مترجمة عن المنار الاغر أطول وأبسط من الأولى وكان غالباً يترجم مقالات المنار الاغر في جريدته

والغرض من هذا الاطناب تذكار حضرتكم إن كنتم تعرفون ذكاء الملك وتعريفكم اياه ان لم تكونوا تعرفونه . وها هو ذكاء الملك توفي أيضا في شهر رمضان الماضي ومضى الى جانب أستاذيه السيد جمال الدين الافغاني والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أفاض الله عليهم جميعا شآبيب الغفران . وبما أني كنت من تلامذة الفقيد ومن خواص أصدقائه كتب إلي من طهران نجله جناب ميرزا محمد علي خان الملقب بلقب أبيه ذكاء الملك وطلب مني أن أكتب الى حضرتكم واستدعي منكم أن تكتبوا (ان استصوبتم ذلك) بضع أسطر في المنار الاغر في الاعلام بوفاة رجل مسلم من أعظم كتاب اللغة الفارسية وشعرائها في هذا القرن الاخير ونبذ يسير في ترجمة حاله . والامر اليكم فانظروا ماذا تأمرون . وكان المأسوف عليه من أخص أصدقاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني ومن أعظم رجال الاصلاح ومن أكبر أركان النهضة السياسية الاخيرة في بلاد ايران فقد كان قلمه يخلب الالباب ويسحر العقول بما آتاه الله من النفوذ والتأثير وأصابته صدمات شديدة من أول شبيبته الى آخر وفاته بسبب شدة حرصه على الاصلاح وكتابته المقالات الغراء في حث الحكومة على ادخال النظامات العصرية في ادارات الدولة وتحريض العلماء على نفض الايدي من التقاليد الجامدة والتعاليم القديمة والمباحث اللفظية الضئيلة والتأسي بأمثال السيد جمال الدين الافغاني والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وحضرة العلامة السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار الأغر وأمثالهم . وأرسلت طية جريدة من جرائد طهران الاسلامية تتضمن ترجمة حياة الفقيد

وفي الختام اقبلوا ياحضرة العلامة فائق احترامي وخالص سلامي

ميرزا محمد قزويني

العضو بدار الترجمة الهمايوني بطهران

فاجعة أدبية

قد توفي الى رحمة ربه فيلسوف إيران واديبها الشهير ذكاء الملك طاب ثراه عصر يوم السبت ١١ رمضان فكان موته ثلمة في بناء العلم والأدب وهيهات ان يفخر الايرانيون في وقت قريب بمثله

اشتغل المرحوم سبعين سنة بخدمة الوطن خدمة خالصة وإحياء موات أدبيات اللغة الفارسية بحرارة الشبيبة وتجارب الشيخوخة واذا كان الايرانيون بجهل جاهلهم وعدم مساعدة حكومتهم المستبدة لم يعرفوا قيمته ولم يوفوه حقه من الاجلال كما كان حظ أمثاله من العظماء فانهم قد أبقوا ذلك تراثاً لخلفهم الذين يرجى ان يقدروا أمثاله قدرهم . ولكن الافرنج قد قدروه قدره في حياته بالتنويه بفضله والتعريف به لقومهم حتى ان الفرنسيين لقبوا هذا الرجل بفيكتور هوغو الشرق .

ونحن في هذا العدد نذكر خلاصة من ترجمة هذا الفيلسوف المعظم وان امهل الزمان نقوم بما يجب علينا لهذا الرجل الكامل المحترم -

(مختصر ترجمة المرحوم طاب ثراه)

هو المرحوم ميرزا محمد حسين خان المتخلص بفروغي (١) الملقب بذكاء الملك . ولد في منتصف ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ بمدينة أصفهان وتوفي يوم السبت ١١ رمضان سنة ١٣٢٥ بطهران فيكون عمره سبعين سنة و ٥ أشهر ووالده هو المرحوم الآقا محمد مهدي المعروف بأرباب من مشاهير أصفهان وكان على اشتغاله بالتجارة على حظ عظيم من العلم والفضل لا سيما علوم التاريخ والجغرافية والهيئة فان له فيها تصانيف عديدة . وقد سافر الى الهند واقام فيها طويلا وعاشر فضلاء الانكليز واخذ حظاً عظيماً من العلوم الحديثة والسياسة ولما رجع الى أصفهان قبل خمسين سنة أراد ان يظهر معارفه ولكن الأذهان في ذلك الزمن لم تكن مستعدة

(١) فروغي معناه الضوء وهذا هو لقبه الادبي الشعري الذي اختاره لنفسه ويعرف عندهم بالمخلص بوزن جعفر ويشتقون منه كما رأيت

لقبول هذه النفائس الثمينة فأكب على تحسين حال الزراعة والتجارة في أصفهان وكان يمكنه ان يفيد بلاده باكثر مما افادها ولكن عموم الجهل يومئذ حال دون ذلك

أما فقيدنا ذكاء الملك فانه بعد ان حصل علوم العربية وأدبياتها ومبادي سائر العلوم سافر من اصفهان الى العراق العربي لاجل تكميل تلك المبادي فمكث هناك طائفة من الزمان ثم عاد الى أصفهان وكان والده قد عاد من الهند فكانت نتيجة تألف الاب والابن بما كان أتقنه كل منهما ظهور نهضة جديدة في العلم والسياسة فكان ما تولد في دماغه يومئذ من قوة النهضة العلمية هو ما نراه الآن في أدمغة شباننا . فأخذ يتتبع بشغف عظيم دواوين الشعراء وكتبهم الأدبية ليشحذ بها غرار استعداده الفطري للشعر حتى كان شعره في الخامسة والعشرين مساويا لشعر اساتذة هذا الفن

وسافر للمرة الاولى الى شيراز وطن الشيخ السعدي فنشبت عامئذ حرب أمريكا الشهيرة وقل ورود القطن الى معامل أوربا فانتهز الفقيد هذه الفرصة فاشترى بجميع ما يملكه قطنا وسافر به الى الهند ولكن ساورته الانواء الشديدة في البحر فاضطر الى إلقاء بضاعته كلها في البحر كغيره وعاد الى شيراز بخفي حنين .

ثم سافر سائحا الى كرمان ويزد والعراق العجمي وكرمان شاه وهمدان والعراق العربي وغيرها من الاقطار فلبث في سياحته هذه أربع عشرة سنة وكان في كل مكان موضع الحفاوة والاكرام من العظماء والأمراء مثل محمد حسين خان وكيل الملك وإمام قلي ميرزا عماد الدولة وأولاده وسائر أهل الكمال والذوق

ثم مل السياحة واتخذ طهران مقاما له فصحبه المرحوم محمد حسن خان اعتماد السلطنة (١) وجعله مساعدا له في الترجمة وتحرير الجريدة الرسمية ولما كانت الجريدة الرسمية قليلة الفائدة حثه صاحب الترجمة على إنشاء جريدة (اطلاع) الباقية الى الآن (٢) . وكان يساعده في تحرير النشرات والرسائل والكتب

(١) هو وزير المطبوعات ورئيس دار الترجمة الخاصة الهمايونية يومئذ وكان من العلماء العصريين وله تصانيف شهيرة منها (مرآة البلدان) عدة مجلدات

(٢) جريدة شبه رسمية تصدر بنفقة الحكومة .

العلمية . ونعني ان اعتماد السلطنة كان يهيئ مواد التأليف من الكتب وغيرها وصاحب الترجمة هو الذي يكتبها بقلمه . وكنت تراه دائما متململا متألما لبلاء ابناء وطنه بالمستبدين وكان يفكر دائما في الاصلاح لا يبرح ذلك من مخيلته قط .

ومن الشواهد على ذلك أنه من نحو عشرين سنة كانت دبت عقارب السعاية فيه الى الشاه ناصر الدين بسبب ظهور بوادر هذه الافكار الاصلاحية فأتعبوه طائفة من الزمن (أي حبسوه مدة مديدة) الى ان تولى المرحوم الشاه مظفر الدين فافرج عنه . ولما استنشق نسيم الحرية أنشأ جريدة (تربيت) وهي كما لا يخفى اول جريدة حرة أسست في عاصمة ايران

ومن خدمة هذه الجريدة انها ولدت في نفوس الايرانيين الرغبة في قراءة الجرائد وكانوا الى ذلك العهد ينفرون منها لركاكة عبارتها . وذلك بما جذبهم به من انسجام عبارته وبلاغة اسلوبه . ومنها انه كان في زمن الاستبداد ينشر فيها جميع الافكار الحرة بأسلوب لا يؤاخذه عليه القانون . وفي الجملة انه قضى عشر سنين في نشر جريدته كان فيها عرضة لايذاء الاعداء والمحبين

وفي العام الماضي أصابه مرض شديد فخلّ قواه وقد شفي منه الا ان صحته لم تعد كما كانت قبله . ولما كان هو الذي يتولى تحرير الجريدة وإنشاءها اضطر في آخر السنة الى إبطالها

ومن خدمته أيضا اشتغاله بالتدريس والتعليم في مدرسة العلوم السياسية سبع سنين وثلاث سنين أخرى في ادارتها . ولو جمعت دروسه في تلك المدرسة من المسائل الادبية والمعاني والبيان والبديع ومختارات الشعر وغير ذلك لكان مؤلفا كبيرا

وكان للفقيد مؤلفات كثيرة طبع منها (١) تاريخ ساسانيان و(٢) ترجمة كتاب السياحة حول الارض في ثمانين يوما و(٣) كلبة هندي و(٤) عشق وعفت و(٥) ريحانة الافكار و(٦) قصة جورج الانكليز . وله كتب أخرى مترجمة من اللغات الاجنبية . وله شعر كثير ولكن اكثره مفقود والباقي منه يدخل في ديوان كامل

خاتمة المجلد العاشر

قد تم المجلد العاشر بحمد الله وحسن توفيقه وبه قطع المنار مرحلة الاعداد المفردة ، واشرف على مرتبة الاعداد المركبة ، فازداد منشئه بصيرة فيما يدعو اليه ، ودرجة استعداد المسلمين له ، وانقشع من امامه كثير من السحب، وهتكت من دونه كثائف من الحجب، التي كانت تلبس عليه القياس ، فيما يحكم به على الناس، فرأى من احوال البشر، مايعد من آيات العبر ، وبهذا الاعتبار صدق على المنار ماقلناه فيه منذ ثلاث سنين ، انه قد دخل في سن التمييز ،

التقصير في ادارة المنار

وقد عجزنا في هذه السنة عن اصدار المنار في اوقاته واقامة النظام في ادارته لاسباب طبيعية لا مندوحة عنها اهمها اتساع دائرة العمل وتشعبه مع قصر الساعد وعدم المساعد، فمنشئ المنار هو الذي يحرره وهو الذي يصحح نموذجات الطبع وهو الذي يكاتب المشتركين وينظر في محاسبتهم وهو الذي ينظر في ادارة المطبعة وهو الذي يتولى تصريف مطبوعاتها وينظر في تصحيح سائر مايطبع فيها ثم انه يقرأ لبعض من الطلاب درسا في التفسير ودرسا في الحديث ويشتغل احيانا بشيء من التأليف مع قيامه بمعظم خدمة نفسه لانه يعيش عيشة الوحدة

ومن فروع هذه الشواغل انه أصدر في هذا العام جزئين من تاريخ الاستاذ الامام ، واتم طبع جزئين من التفسير لم ينشرهما الى الآن ، لانه تمكن من استخراج فهرس لاحدهما ولم يتمكن من استخراج فهرس الآخر . واتم طبع انجيل برنابا . ولو يعمل في هذه الكتب كلها الا تصحيح كل كراسة منها مرتين او ثلاثا لما كان الوقت الذي اغتاله قليلا

ولولا اني في خجل من الاصدقاء والمحبين لي في الغيب بما قصرت في مكاتبتهم لما أشرت الى هذا العذر واكبر خجلي ممن لهم معنا معاملة مالية كطلاب الكتب فقد كان في المكتبة مدير يتولى محاسبتهم وقد تركها من اوائل السنة ولم نوفق الى

من يقوم مقامه ولا الى وكيل لادارة المجلة والمطبعة يكفينا امر هذه الجزئيات وبهذا نعتذر ايضا عن تأخر اتمام تأليف وطبع جزء الترجمة من تاريخ الاستاذ الامام

فتاوى المنار

ومما قصرنا به أيضًا فى هذا العام الاجابة عن الاسئلة ومن أسباب ذلك ان أكثر الاسئلة التي وردت علينا في هذا العام كانت في مسائل دنيوية مما يفصل فيه القضاة ويفتي به المفتون الرسميون وأمثالهم من علماء أحكام المعاملات ومنها ماكان مرسله يطلب الجواب عنه من نصوص مذهب معين. والمنار لم يفتح باب الفتوى لامثال هذه المسائل بل لبيان حكم الدين وأسراره واتفاق عقائده مع العقل وأحكامه مع مصالح البشر ومنافعهم ولرد الشبه الفلسفية والمدنية عنه وما يشكل من الآيات والأحاديث على القارىء . فهذا مانلتزم الجواب عنه من المسائل الدينية وان ابطأنا وأرجأنا ولنا الخيار في غيره ومن سأل سؤالا من هذا القبيل وطال الزمن على الجواب عنه فليعلم انه قد ضاع قبل وصوله الينا أو بعده فليعده الينا ثانية

ومن أسباب ارجاء المجاوبة على بعض الاسئلة ايرادها من خلال كلام آخر فنحتاج الى نسخ السؤال فنرجئه الى وقت الفراغ وقلما نظفر به .

مكاتبات المنار

وههنا ننبه الى سبب من أسباب تأخير كل ما يطلب من المنار وهو خلط المطالب فعسى ان يكتب السائل سؤاله أو أسئلته في ورقة لا يكتب فيها شيئا آخر ليسهل علينا إلقاؤها الى المطبعة عاجلا ولا نضيع شيئا من الوقت في استنساخها. كذلك ينبغي لطالب الكتب أن يكتب ما يطلبه في ورقة مستقلة لا يذكر فيها شيئا من الاسئلة ولا ما يتعلق بشؤون المنار فان كان هنالك حساب مشترك بين ما يطلب للمنار وثمن الكتب واستثقل الكاتب كتابة ورقتين فلا بأس بأن يفصل بين الحسابين في الورقة الواحدة

حال المشتركين

أما حال المشتركين في هذا العام فقد كان كالأعوام الماضية الآن أهل

القاهرة كانوا أحسن أداء على ما عليه البلاد من العسرة المالية ولكن سائر أهل القطر كانوا أقل وفاء منهم في السنين الماضية والاعتذار بالعسرة كان في هذا العام تكأة أهل المطل في أكثر المعاملات كما علمنا ممن هم أوسع اختبارا منا . وكذلك أهل تونس كانوا أشد تقصيرا في هذا العام على أنهم لم يقعوا في عسرة كعسرة أهل مصر. على أن مصر في عسرتها أغنى وأقنى وأيسر من تونس وغيرها من بلاد المسلمين زادها الله يسرا ووفقها للشكر عليه باستعماله فيما يزيدها علما وارتقاء

وقد كان تجدد المشتركين كثيرا أيضاً ولكننا لم نجب الا من أرسلوا القيمة سلفا الا افرادا متوا الينا بضمان بعض أصدقائنا على ما اشترطنا .

دعوة المنار والانتقاد عليه

أما دعوة المنار فلم تلق في هذا العام مقاومة شديدة ولكن بعض الجرائد حملت علينا حملة منكرة في أول العام لاننا كتبنا بعض مقالات في « الجريدة » التي أنشأها بعض السروات وكان الغرض من الحملة تنفيرنا من مساعدة الجريدة التي يقاومون سياستها ولم يتعرض الكاتبون الى الانتقاد على المنار أو الرد على مسائله وانما كان جلها نبزا بالألقاب كلقب « الخليفة الكاذب » يعنون خليفة الاستاذ الامام. وكتب فريد أفندي وجدي أربع مقالات في جريدة اللواء يحرك فيها الاضغان الجنسية الوطنية على صاحب المنار لانه غير مصري المولد وقد عرف القراء سبب ذلك ولم نر له الا التأثير الحسن في قراء المنار على ما للنزغات الجنسية من سوء التأثير وحل الرابطة الاسلامية . وهذه النزغة هي العقبة الكؤود في طريق الدين بمصر وقانا الله شرها وكفى البلاد أمرها . وكتب الشيخ احمد المنوفي من الهند انتقاداً على المنار وصاحبه . ثم رجع عن رأيه ذلك كما رأيت في هذا الجزء . وسنشير في فاتحة الجزء الآتي الى موقف الاصلاح في مصر الآن

هذا واننا نختم صفحات الجزء بمثل ما دعونا اليه في فاتحته من وجوب نقد ما يراه أهل العلم خطأً في المنار والدعوة الى ما يرونه من الصواب فيه والتعاون على هذه الخدمة ، والله الموفق وله الحمد على كل حال